

اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام (اليونسكو)

# تاريخ إفريقيا العام

المجلد الأول

المنهجية وعصر ما قبل التاريخ  
في إفريقيا

المشرف على المجلد: ج. كي - زيربو



جين أفريك / اليونسكو



## تاريخ أفريقيا العام

### المجلد الأول

أفريقيا وعصر ما قبل التاريخ في أفريقيا

إشراف: ج. كني - زيربو

### المجلد الثاني

أفريقيا القديمة

إشراف: ج. مختار

### المجلد الثالث

أفريقيا من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر

إشراف: م. الفاسي

### المجلد الرابع

أفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر

إشراف: د. ت. نياني

### المجلد الخامس

أفريقيا من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر

إشراف: ب. أ. أوجوت

### المجلد السادس

القرن التاسع عشر في أفريقيا حتى الاستقلال

إشراف: ج. ف. آدي آجايي

### المجلد السابع

أفريقيا منذ السيطرة الأجنبية ١٨٨٠ - ١٩٤٥

إشراف: أ. آدو بواهن

### المجلد الثامن

أفريقيا منذ عام ١٩٤٥

إشراف: ع. مزروعني







# تاريخ إفريقيا العام



اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام (اليونسكو)

# تاريخ إفريقيا العام

المجلد الأول  
المنهجية وعصر ما قبل التاريخ  
في إفريقيا

المشرف على المجلد: ج. كي - زايرو

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
468	رقم
5-2	
4117	رقم التسجيل

Joint Organization Of the Alexan-  
dria Library (ALEXANDRIA)

جين أفريك / اليونسكو

© اليونسكو ١٩٨٠

الترقيم الدولي الموحد للكتب

ISBN Jeune Afrique 2-85258-314-3

ISBN UNESCO 92-3-201707-5



# المحتويات

٩	مقدمة، بقلم ا. م. امبو
	عرض المشروع
١٥	بقلم ب. ا. أوجوت
١٨	التأريخ
	مقدمة عامة
١٩	ج. كى — زيربو
	الفصل الأول
	تطور التدوين التاريخي في أفريقيا
٤١	ج. د. فاج
	الفصل الثاني
	مكانة التاريخ في المجتمع الأفريقي
٥٩	بوهاما وج. كى — زيربو
	الفصل الثالث
	الاتجاهات الحديثة في البحوث التاريخية الأفريقية وإسهامها في التاريخ بصورة عامة
٧١	ب. د. كورتن
	الفصل الرابع
	المصادر والتقنيات الخاصة بالتاريخ الأفريقي — لمحة عامة
٨٩	ت. أوبنجا
	الفصل الخامس
	المصادر المكتوبة السابقة للقرن الخامس عشر
١٠٣	هـ. جعيط

الفصل السادس	
المصادر المكتوبة بدءاً من القرن الخامس عشر	
أ. هربك .....	١٢٧
الفصل السابع	
المأثور المنقول ومنهجيته	
ج. فانسينا .....	١٥٥
الفصل الثامن	
المأثور الحصى	
أ. هيباتي بآ .....	١٧٧
الفصل التاسع	
علم الآثار الأفريقي وتقنياته بما في ذلك أساليب تحديد تاريخ الآثار	
ز. اسكندر .....	٢١٣
الفصل العاشر	
أولاً - اللغات والتاريخ الأفريقي	
ب. ديا في .....	٢٤١
ثانياً - النظريات المتعلقة بـ «العروق» وتاريخ أفريقيا	
ج. كى - زيربو .....	٢٧١
الفصل الحادي عشر	
الهجرات والاختلافات السلوكية واللغوية	
د. أولدروج .....	٢٨١
الفصل الثاني عشر	
أولاً - تصنيف لغات أفريقيا	
ج. هـ. كرينبرك .....	٣٠١
ثانياً - خريطة لغوية لأفريقيا	
د. دالي .....	٣١٩
الفصل الثالث عشر	
الجغرافيا التاريخية: المظاهر الطبيعية	
س. دايارا .....	٣٢٧
الفصل الرابع عشر	
الجغرافيا التاريخية: الجوانب الاقتصادية	
أ. مابوكونجي .....	٣٤٥
الفصل الخامس عشر	
مناهج تداخل العلوم المعتمدة في هذا الكتاب	
ج. كى - زيربو .....	٣٦١

	الفصل السادس عشر
	الاطار الزمني للمراحل المطرية والجمودية بأفريقيا
٣٧٣	أولا — ر. سعيد .....
٣٨٧	ثانيا — هـ. فور .....
	الفصل السابع عشر
	ظهور الإنسان: المشاكل العامة
٤١٣	أولا — وى كوبنس .....
٤٣٥	ثانيا — ل. بالوت .....
	الفصل الثامن عشر
	البشرىات الأحفورية الإفريقية
٤٥١	ر. لاىكى .....
	الفصل التاسع عشر
	أفريقيا الشرقية قبل التاريخ
٤٦٧	ج. أ. غ. سوتن .....
	الفصل العشرون
	أفريقيا الجنوبية قبل التاريخ
٥٠١	ج. د. كلارك .....
	الفصل الحادي والعشرون
	ما قبل تاريخ أفريقيا الوسطى
٥٣٣	أولا — ر. دي بايل دي هرمنس .....
	ثانيا — ف. فان نوتن .....
٥٥٣	بالاشتراك مع: ب. دى مارى، ج. ميرسن، ك. ونغامويا وا. روش .....
	الفصل الثاني والعشرون
	أفريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ
٥٧٣	ل. بالوت .....
	الفصل الثالث والعشرون
	الصحراء في ما قبل التاريخ
٥٩١	هـ. ج. هوغو .....
	الفصل الرابع والعشرون
	أفريقيا الغربية في ما قبل التاريخ
٦١٥	ث. شو .....
	الفصل الخامس والعشرون
	وادي النيل قبل التاريخ
٦٤١	ف. دى بونو .....

٦٦٥	ج. كى - زيربو
٦٩٧	ر. بورتيروج. بارو
٧١٧	ج. فركوتر
٧٤٧	ج. كى - زيربو
٧٥٩	أعضاء اللجنة العلمية الدولية للكتابة تاريخ أفريقيا العام
٧٦١	بيانات عن مؤلفي المجلد الأول
٧٦٥	ببليوغرافيا عامة
٨٢٩	المختصرات المستخدمة في الببليوغرافيا
	كشاف

ملاحظات: ساهبت السيدة كاترين بيرلس في تنظيم الفصول الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين والحادي والعشرين والرابع والعشرين  
أدخلت السيدة هيلين روش بعض اضافات على الفصل التاسع عشر.

## المجلد الأول من الطبعة العربية من تاريخ أفريقيا العام

الترجمة: من المقدمة الى الفصل الرابع عشر: السيد م. السويسي، كلية الآداب بجامعة تونس.  
من الفصل الخامس عشر الى الخاتمة: السيد ر. الحمزاوي، تونس  
المراجعة: من المقدمة الى الفصل الرابع عشر: السيد ع. البهنسي: المدير العام للآثار دمشق  
من الفصل الخامس عشر الى الخاتمة: السيد ح. بنعيسى، الجزائر

نظرت لجنة القراءة العربية، المتفرعة من اللجنة العلمية الدولية، في جميع فصول المجلد ونقحتها.  
وتألفت لجنة القراءة هذه من السادة: م. الفاسي (المغرب)؛ د. ا. طالب (سنغافورة)؛ هـ. جعيط (تونس).

# مقدمة

السيد أحمد مختار أمبو  
المدير العام  
لليونسكو

لقد ظلت الأساطير والآراء المسبقة بمختلف صورها تخفي عن العالم لزمان طويل التاريخ الحقيقي لأفريقيا. فقد اعتبرت المجتمعات الأفريقية مجتمعات لا يمكن أن يكون لها تاريخ. وعلى الرغم من البحوث الهامة التي اضطلع بها منذ العقود الأولى من هذا القرن رواد مثل ليفرو بينيوس، وموريس ديلافوس، وأرتورو لاير يولا، فإن عددا كبيرا من الأخصائيين غير الأفريقيين المتشبهين بمسلمات معينة قد ظلوا ينحازون إلى القول بأن هذه المجتمعات لا يمكن أن تكون موضوعا للدراسة العلمية، مستندين في قولهم هذا بصفة خاصة إلى نقص المصادر والوثائق المكتوبة.

وإذا كان من الممكن أن تعتبر الألياذة والأوديسا بحق مصادر أساسية لتاريخ اليونان القديمة، فإن ذلك كان يقابله انكار كل قيمة للتراث الأفريقي المنقول، الذي يعتبر بمثابة ذاكرة تنتظم في نسيجها الكثير من الأحداث التي تميزت بها حياة شعوب أفريقيا. وقد اقتصر الاهتمام عند كتابة تاريخ جزء كبير من أفريقيا على مصادر خارجية عن أفريقيا، فانتهى ذلك إلى رؤيا لا تكشف عن المسار المرجح لشعوب أفريقيا عبر تاريخها، بل تعبر عن رأي البعض في الطريق الذي لا بد وأن يكون هذا المسار قد سلكه. ونظرا لأن «العصر الوسيط» الأوروبي هو الذي كان يتخذ في الغالب منطلقا للدراسة ونقطة للحالة، فإن أساليب الانتاج والعلاقات الاجتماعية والنظم والمؤسسات السياسية في أفريقيا لم تكن تدرس إلا من منطلق المقارنة مع ماضي أوروبا.

وقد كان ذلك في الواقع رفضا للاعتراف بأن الأفريقي مبدع لثقافات أصيلة ازدهرت واستمرت تسلك عبر القرون مسالك خاصة بها، لا يستطيع المؤرخ أن يدركها إلا إذا تخلى عن بعض آرائه المسبقة، والا إذا جدد منهجه.

كذلك يبدو أن القارة الأفريقية لم تعتبر قط كيانا تاريخيا له ذاتيته المتميزة. وإنما انصب التأكيد

بصفة خاصة على كل ما من شأنه أن يعزز الرأي القائل بوجود انفصام منذ الأزل بين «أفريقيا بيضاء» و «أفريقيا سوداء» تجهل كل منها الأخرى. وكثيرا ما صورت الصحراء الكبرى على أنها فضاء منيع يحول دون امتزاج الاثنيات والشعوب وتبادل السلع والمعتقدات والتقاليد والعادات والأفكار بين المجتمعات التي تقوم على الجوانب المختلفة من تلك الصحراء. وبذلك رسمت الدراسات حدودا مصطنعة صارمة بين حضارتي مصر القديمة والنوبة وبين حضارات الشعوب القاطنة جنوبي الصحراء.

حقيقة ان تاريخ أفريقيا شمالي الصحراء كان أكثر ارتباطا بتاريخ حوض البحر المتوسط من تاريخ أفريقيا جنوبي الصحراء، ولكن من المعترف به الآن على نطاق واسع أن حضارات القارة الأفريقية — عبر لغاتها وثقافتها المتنوعة — تشكل بدرجات مختلفة الروافد التاريخية لمجموعة الشعوب والمجتمعات التي تربط بينها روابط عريقة.

وهناك ظاهرة أخرى أضرت كثيرا بالدراسة الموضوعية للماضي الأفريقي. وأنا أعني هنا ما اقترنت به تجارة الرقيق والاستعمار من ظهور أفكار عنصرية جامدة عن الأجناس تولد عنها الازدراء وعدم الفهم، وكانت من شدة الرسوخ بحيث امتد تشوبها الى مفاهيم كتابة التاريخ ذاتها. فنذ أن بدأ استخدام عبارات مشحونة بأفكار معينة، مثل «البيض» و «السود» لتمييز نوعين عامين من البشر هما المستعمرون منظورا اليهم كنوع ممتاز من ناحية وأهالي المستعمرات من ناحية أخرى، صار لزاما على الأفريقيين أن يقاوموا عبودية مزدوجة، اقتصادية وسيكولوجية. أما وقد صار الأفريقي موسوما بلون بشرته، وتحول الى سلعة بين السلع، وسخر للأعمال التي لا تتطلب الا القوة العضلية، فقد أصبح يمثل في أذهان قاهريه ماهية جنسية خيالية، هي ماهية الزنجي المنحطة التي توهموها. وأدى هذا التصنيف الزائف الى الهبوط بتاريخ الشعوب الأفريقية في عقول الكثيرين الى مستوى التاريخ الاثنى، الذي لا يمكن فيه تجنب التزييف في تقدير الوقائع التاريخية والثقافية.

وقد تطور الوضع كثيرا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد أن أخذت البلاد الأفريقية، وقد نالت استقلالها، تشارك مشاركة فعالة في حياة المجتمع الدولي وفي العلاقات المتبادلة التي هي أساس حياة هذا المجتمع، فتزايد حرص المؤرخين على دراسة أفريقيا بزيد من الدقة والموضوعية والتفتح الذهني، وأخذوا يستعينون بالمصادر الأفريقية ذاتها، وان لم يخل ذلك بطبيعة الحال من التحفظات التي رسخت بحكم العادة. أما الأفريقيون أنفسهم فقد بدأوا يشعرون اذ يمارسون حقهم في المبادرة التاريخية بحاجة عميقة الى أن يعيدوا الى مجتمعاتهم صفتها التاريخية على أسس راسخة.

ومن هنا كانت أهمية «التاريخ العام لأفريقيا»، الذي تبدأ اليونسكو اصداره في ثمانية مجلدات.

ولقد راعى الأخصائيون الذين جاءوا من بلاد عديدة وساهموا في المؤلف أن يرسوا أولا أسسه النظرية والمنهجية. ومن ثم حرصوا على أن يعيدوا النظر في التبسيطات المحللة التي نتجت عن تصور خطي ضيق للتاريخ العالمي، وعلى أن يبرزوا من جديد حقيقة الأحداث التي وقعت كلما كان ذلك ضروريا وبممكننا. وجدوا في استخلاص المعطيات التاريخية التي تيسر تقصي تطور مختلف الشعوب الأفريقية بما لها من خصوصية اجتماعية ثقافية.



وفي هذه المهمة التي تتميز بالجسامة والتعقيد والعسر نظرا لتنوع المصادر وتشتت الوثائق، سارت اليونيسكو على مراحل. فكانت المرحلة الأولى (١٩٦٥ - ١٩٦٩) هي مرحلة الأعمال الخاصة بتوثيق الكتاب وتخطيطه، حيث تم القيام بأنشطة ميدانية في الموقع: ما بين حملات لجمع التراث المنقول، وإنشاء لمراكز التوثيق الإقليمية المخصصة لهذا التراث، وجمع للمخطوطات غير المنشورة بالعربية و«العجمية» (اللغات الأفريقية المكتوبة بالحروف العربية) وحصر للمخطوطات، واعداد لدليل لمصادر تاريخ أفريقيا بالاستناد الى محفوظات ومكتبات البلدان الأوربية، وهو الدليل الذي نشر في تسعة مجلدات. ومن ناحية أخرى، نظمت للأخصائيين لقاءات تولى فيها الأفريقيون وغيرهم من القارات الأخرى مناقشة القضايا المنهجية وحددوا الخطوط العريضة للمشروع بعد فحص دقيق للمصادر المتاحة.

ثم كانت مرحلة ثانية خصصت لوضع الكتاب في صورته وتقسيمه وتفصيله، وامتدت من ١٩٦٩ الى ١٩٧١. وفي هذه الفترة اضطلع اجتماعان دوليان لخبراء عقدا في باريس (١٩٦٩) وأديس أبابا (١٩٧٠) بدراسة وتحديد المشكلات التي تتعلق بصياغة الكتاب ونشره، وهي: ظهوره في ثمانية مجلدات، وطبعه طبعة رئيسية بالانجليزية والفرنسية والعربية، وكذلك ترجمته الى لغات أفريقية مثل السواحيلية والهاوسا والبيول واليوروبا واللينجالا. ومن المتوقع كذلك اعداد ترجمات الألمانية والروسية والبرتغالية والاسبانية والسويدية، فضلا عن اصدار طبعات مختصرة ميسرة للجمهور الأفريقي والدولي على نطاق أوسع.

وخصصت المرحلة الثالثة للصياغة والطبع. وقد بدأت بتشكيل لجنة علمية دولية من ٣٩ عضوا، ثلثاهم من الأفريقيين والثلث الآخر من غير الأفريقيين، عليها أن تنهض بالمسؤولية الفكرية عن الكتاب.

ولما كان المنهج المتبع يتسم بالجمع بين عدة تخصصات، فقد تميز بتعدد المناحي النظرية وتعدد المصادر. وينبغي أن يذكر في مقدمة ذلك علم الآثار، الذي يفتح كثيرا من المغاليق في تاريخ الثقافات والحضارات الأفريقية، والذي بفضلها أصبح من المتفق عليه اليوم أن أفريقيا كانت على أرجح الاحتمالات مهد البشرية، وأنها شهدت احدى أوائل الثورات التكنولوجية في التاريخ وهي ثورة العصر الحجري الحديث، وأنها بفضل وجود مصرفها كانت موطننا لازدهار حضارة من أكثر الحضارات القديمة تألقا في العالم. ثم ينبغي بعد ذلك ذكر التراث المنقول، فقد استهن به في الماضي، لكنه يبدو اليوم مصدرا ثميناً من مصادر تاريخ أفريقيا، يتيح تتبع مسيرة شعوبها المختلفة في المكان والزمان، ومن ثم تفهم الرؤيا الأفريقية للعالم من داخلها، وادراك السمات الأصيلة للقيم التي ترتكز عليها ثقافات القارة ومؤسساتها.

واننا لنشعر بالامتنان للجنة العلمية الدولية المسؤولة عن هذا التاريخ العام لأفريقيا ولمقررها وللمشرفين على مختلف المجلدات والفصول ولؤلؤها لأنهم ألقوا ضوءا أصيلا على ماضي أفريقيا في مجموعته، وتجنبوا كل نزعة قطعية في دراسة المسائل الجوهرية، مثل تجارة الرقيق التي كانت «استنزافا لا ينقضي» نتجت عنه عملية من أقسى عمليات الترحيل في تاريخ الشعوب وأدى الى تفرغ القارة من جزء من قواها الحيوية، في حين أنه لعب دورا حاسما في ازدهار الاقتصادي

والتجاري لأوروبا ومثل الاستعمار بكل ما ترتب عليه من نتائج في نواحي الاقتصاد والسكان والنواحي النفسية والثقافية؛ ومثل دراسة العلاقات بين أفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى والعالم العربي؛ وعملية إزالة الاستعمار والبناء الوطني التي مازالت تحرك العقول والعواطف في اناس لا يزالون أحياء ولا يزال بعضهم يمارس نشاطه كاملا. وقد عولجت جميع هذه المسائل بروح الحرص على التزام الأمانة والدقة، وهما ليسا أهون ما في هذا الكتاب من مزايا؛ إذ أن له كذلك مزية كبرى، هي أنه يطلعنا على آخر تطورات معارفنا عن أفريقيا ويعرض الثقافات الأفريقية من وجهات نظر شتى، ويقدم رؤيا جديدة للتاريخ، فيبرز لنا بذلك مناطق النور والظل دون أن يخفي اختلاف الآراء بين العلماء.

ان هذا الكتاب الجديد اذ يبين قصور مناهج البحث التي ظلت تستخدم زمنا طويلا في دراسة أفريقيا، فإنه يدعو الى تجديد وتعميق تناولنا للإشكالية المزدوجة المتعلقة بكتابة التاريخ وبالذاتية الشفافية، وما يجمع بينهما من روابط متبادلة. وهو مثل أي مؤلف تاريخي قيم يفتح الطريق لبحوث جديدة متعددة.

وقد حدا ذلك باللجنة العلمية الدولية بدورها الى أن تخصص — بالتعاون الوثيق مع اليونسكو — على اجراء دراسات تكميلية للتعلم في عدد من المسائل التي تتيح رؤية أكثر وضوحا لبعض الجوانب في ماضي أفريقيا. ومن شأن هذه البحوث التي تطبع في سلسلة «اليونسكو» دراسات ووثائق — التاريخ العام لأفريقيا» أن تكون تكملة مفيدة لهذا الكتاب. وسوف يتابع هذا الجهد كذلك عن طريق اعداد دراسات عن التاريخ الوطني أو شبه الاقليمي.

ان هذا التاريخ العام يلقي الضوء في نفس الوقت على وحدة تاريخ أفريقيا وعلى علاقاتها بالقارات الأخرى — وخاصة الأمريكتين ومنطقة الكاريبي. فلقد دأب بعض المؤرخين لفترة طويلة على عزل مظاهر التعبير الابداعي لدى أحفاد الأفريقيين في الأمر يكتن وتصنيفها تحت عبارة جامعة غريبة باسم الخصائص الأفريقية. أو «الأفريقيات». وغنى عن الذكر أن مؤلفي الكتاب الذي نحن بصده لا يعتقدون هذه النظرة. فلقد رأوا الرأي الصائب في مقاومة الرقيق الذين رحلوا الى أمريكا، وفي ظاهرة «التهجين» السياسي والثقافي، وفي اشتراك أحفاد الأفريقيين دوما وعلى نطاق ضخم في كفاح حركة الاستقلال الأمريكي الأولى وفي حركات التحرير الوطنية، وأدركوا هذه الأمور على حقيقتها باعتبارها محاولات قوية لتأكيد الذاتية أسهمت في صياغة المفهوم الشامل للإنسانية. وانه لمن الواضح اليوم أن التراث الأفريقي قد أثر بدرجات متفاوتة في أساليب الشعور والتفكير والتخيل والعمل لدى عدد من البلاد في نصف الكرة الغربي، كل حسب موقعه. فن جنوب الولايات المتحدة حتى شمال البرازيل مروراً بمنطقة الكاريبي، وعلى ساحل المحيط الهادي، تبدو الآثار الثقافية المنقولة عن أفريقيا واضحة في كل مكان. بل انها في بعض الحالات هي الأسس الجوهرية للذاتية الثقافية لدى عدد من أهم القطاعات بين السكان.

كما يبرز هذا المؤلف على نحو واضح ما لأفريقيا من علاقات بمجوب آسيا عبر المحيط الهندي، وما قدمته من مساهمات أفريقية لغيرها من الحضارات عن طريق العلاقات المتبادلة.

واني لعل اقتناع بأن ما تبذله شعوب أفريقيا من جهود لنيل استقلالها وتوطيده ولتأمين تطورها وترسيخ خصائصها الثقافية حري بأن يتأصل في وعي تاريخي مجدّد يؤثر تأثيراً عميقاً في حياة أصحابه ويتناقلونه جيلا بعد جيل.

وان ما تلقيته من تعليم، وما حصلته من خبرة كمعلم ورئيس، منذ بدايات الاستقلال ومنذ أول لجنة أنشئت لاصلاح برامج تعليم التاريخ والجغرافيا في بعض بلاد أفريقيا الغربية والوسطى، قد أتاح لي أن أقدر كم هو ضروري لتعليم النشء ولاعلام الجمهور أن يوجد كتاب للتاريخ أعده علماء يعرفون من الداخل مشكلات أفريقيا وآمالها، ويملكون القدرة على النظر الى القارة ككل. ولجميع هذه الأسباب، ستعمل اليونسكو على أن ينشر هذا التاريخ العام لأفريقيا على نطاق واسع وبلغات عديدة، وعلى أن يكون أساسا لاعداد كتب للأطفال وكتب مدرسية وبرامج اذاعية أو تلفزيونية، وبهذا يمكن للنشء والتلاميذ والطلاب والكبار في أفريقيا وفي غيرها أن يكونوا صورة أفضل عن ماضي القارة الأفريقية وعن العوامل التي تفسر هذا الماضي، وأن يتوصلوا الى فهم أصدق لتراثها الثقافي ولاسهامها في التقدم العام للانسانية. فهذا الكتاب جدير اذن بأن يشجع التعاون الدولي ويوطد تضامن الشعوب فيما تطمح اليه من عدالة وتقدم وسلام؛ أو هذا على الأقل هو ما أرجوه بكل اخلاص.

و يبقى لي أن أعرب عن امتناني العميق لأعضاء اللجنة العلمية الدولية ومقررها والمشرفين على مختلف المجلدات وإلى المؤلفين وجميع الذين ساهموا في تحقيق هذا المشروع الضخم. فان ما قاموا به من عمل وما قدموه من مساهمة هو خير دليل على ما يمكن أن ينجزه في الاطار الدولي الذي تتيحه اليونسكو رجال جاءوا من آفاق متباينة تحفزهم نية صادقة واحدة وعزيمة واحدة الى خدمة الحقيقة الخالصة، فتمكنوا من إنهاء مشروع تكاد أهميته العلمية والثقافية أن تكون بلا حدود. كما أقدم شكري كذلك الى المنظمات والحكومات التي مكنت اليونسكو بفضل هباتها السخية من أن تصدر هذا الكتاب بلغات مختلفة وأن تكفل له ما يستحقه من انتشار عالمي النطاق في خدمة المجتمع الدولي بأكمله.



# عرض المشروع

بقلم الأستاذ بثويل أ. أوجوت  
رئيس اللجنة العلمية الدولية  
لتحرير تاريخ أفريقيا العام

طلب المؤتمر العام لليونسكو، في دورته السادسة عشرة، من المدير العام المشروع في تحرير تاريخ عام لإفريقيا. وقد عهد بهذا العمل الضخم الى لجنة علمية دولية أنشأها المجلس التنفيذي في ١٩٧٠.

ووفقا للنظام الأساسي للجنة، الذي اعتمده المجلس التنفيذي لليونسكو في ١٩٧١، تتكون هذه اللجنة من ٣٩ عضوا (الثلثان من الأفريقيين والثلث الباقي من غير الأفريقيين) يشتركون في اجتماعاتها بصفتهن الشخصية و يعينهم المدير العام لليونسكو لمدة صلاحية اللجنة. وكانت المهمة الأولى للجنة تحديد الخصائص الرئيسية للمصنف. وقد حددتها في دورتها الثانية على النحو التالي:

● ان هذا التاريخ، ولئن كان يستهدف بلوغ أرفع مستوى علمي ممكن، لا يتوخى شمول كل شيء وانما هو مصنف يجمع بين عناصر شتى دون تعصب لرأي معين. وسيكون في أحيان كثيرة من عرض للمشكلات مع توضيح للوضع الراهن للمعارف والتيارات الكبرى للبحث، ولا يتقاعس عن التنويه عند الاقتضاء، بتباين المذاهب والآراء. وهو بذلك يمهّد السبيل لوضع مؤلفات لاحقة.

● تعتبر أفريقيا كلا واحدا. والغرض هو اظهار العلاقات التاريخية بين مختلف أجزاء القارة، التي غالبا ما كانت تخضع لتقسيمات فرعية كثيرة في المؤلفات التي ظهرت حتى الآن. وتغطي صلات أفريقيا التاريخية مع القارات الأخرى بالعناية التي تستحقها، وتحلل تلك الصلات من زاوية المبادلات والمؤثرات متعددة الأطراف على نحو يبرز بصورة ملائمة اسهام أفريقيا في تطور البشرية.

- تاريخ أفريقيا العام، هو قبل كل شيء، تاريخ أفكار وحضارات ومجتمعات ومؤسسات. وهو يقوم أساسا على مصادر متعددة بالغة التنوع يدخل فيها التراث المنقول والتعبير الفني.
- ينظر الى هذا التاريخ أساسا من الداخل. ففضلا عن كونه مصنفًا علميًا فهو أيضا. الى حد بعيد انعكاس أمين لكيفية رؤية المؤلفين الأفريقيين لحضارتهم. وعلى الرغم من اعداد هذا التاريخ في نطاق دولي واستعانت به جميع البيانات العلمية المتوفرة حاليا، فانه سيمثل أيضا أحد العناصر الأساسية في التعرف على التراث الثقافي الأفريقي وسيبرز العوامل التي تسهم في وحدة هذه القارة. ويشكل هذا الاتجاه محور رؤية الأشياء من الداخل الجانب الجديد في هذا المصنف، ويمكنه أن يضيف عليه فضلا عن مزاياه العلمية، قيمة كبيرة بالنسبة للأحداث الراهنة. واذ يظهر هذا التاريخ الوجه الحقيقي لأفريقيا، في عصر تهيمن عليه ضروب المنافسة الاقتصادية والتقنية، فانه يمكن أن يطرح للبحث تصورا خاصا للقيم الانسانية.
- وقررت اللجنة أن يصدر هذا المصنف، الذي يتناول ما يربو على ثلاثة ملايين سنة من تاريخ أفريقيا، في ثمانية مجلدات يقع كل منها في حوالي ٨٠٠ صفحة من النصوص، ويتضمن عددا من اللوحات والصور الفوتوغرافية والخرائط والرسوم الخطية.
- ويعين مشرف رئيسي لكل مجلد يساعده، عند الاقتضاء واحد أو اثنان من المشرفين معاونين. وتنتخب اللجنة المشرفين على المجلدات من بين أعضائها أو من غير أعضائها بأغلبية الثلثين.
- و يناط بالمشرفين اعداد المجلدات وفقا للقرارات التي تتخذها اللجنة والخطط التي تضعها. ويكون المشرفون مسؤولين من الناحية العلمية أمام اللجنة أو أمام مكتبها بين دورات انعقادها، عن مضمون المجلدات وعن الصياغة النهائية للنصوص وعن الصور، وبوجه عام عن جميع الجوانب العلمية والفنية للتاريخ. ويكون المكتب هو المرجع الأخير في اقرار المخطوط النهائي. ويقوم بتسليمه للمدير العام لليونسكو عندما يرى أنه أصبح معدا للنشر. وتظل السلطة اذن منوطة باللجنة، أو بالمكتب بين دورات انعقاد اللجنة.
- ويحتوي كل مجلد على قرابة ثلاثين فصلا. ويحرر كل فصل مؤلف رئيسي يساعده عند الاقتضاء معاون أو اثنان.
- وتختار اللجنة المؤلفين بعد الاطلاع على بيانات المؤهلات والخبرة الخاصة بهم، ويفضل المؤلفون الأفريقيون بشرط أن يكونوا حائزين على المؤهلات المطلوبة. وتحرص اللجنة بوجه خاص على أن يراعى قدر المستطاع في اختيار المؤلفين أن تكون جميع مناطق القارة وكذلك جميع المناطق التي كانت لها علاقات تاريخية أو ثقافية مع أفريقيا ممثلة تمثيلا عادلا.
- وبعد أن يعتمد المشرف على المجلد نصوص مختلف الفصول ترسل الى جميع أعضاء اللجنة لكي يقدموا تعليقاتهم عليها..
- وفضلا عن ذلك، يعرض النص المرسل من المشرف على المجلد على لجنة قراءة لدراسته، وتعين هذه اللجنة من بين أعضاء اللجنة العلمية الدولية، تبعا لاختصاصات الأعضاء، وتكلف هذه اللجنة باجراء تحليل متعمق لمضمون الفصول وشكلها.
- و يتولى المكتب إقرار المخطوط بصورة نهائية.



وقد تبين أن هذه الاجراءات التي قد تبدو طويلة ومعقدة هي اجراءات لازمة لأنها تضمن أكبر قدر من الدقة العلمية للتاريخ العام لأفريقيا. فقد حدث فعلاً أن رفض المكتب بعض المخطوطات أو طلب إجراء تعديلات هامة لها بل وعهد باعادة تحرير الفصل الى مؤلف آخر. وأحياناً يستشار اخصائيو في فترة معينة من فترات التاريخ أو في مسألة معينة من أجل وضع المجلد في صيغته النهائية.

و يصدر المؤلف بادئ الأمر في طبعته رئيسية بالانجليزية والفرنسية والعربية وفي طبعة عادية بنفس اللغات.

وتصدر نسخة مختصرة من المؤلف بالانجليزية والفرنسية تتخذ أساساً للترجمة الى اللغات الأفريقية. وقد اختارت اللجنة العلمية الدولية اللغة السواحلية ولغة الهوسا كأول لغتين أفريقيتين يترجم اليهما المؤلف.

ومن المزمع أيضاً العمل، بقدر المستطاع، على أن ينشر تاريخ أفريقيا العام في عدة لغات واسعة الانتشار على الصعيد الدولي (ومنها الأسبانية والألمانية والإيطالية والبرتغالية والروسية والصينية واليابانية، الخ...).

فالأمريتيعلق اذن، كما نرى، بمشروع ضخم يشكل مخاطرة كبرى بالنسبة لمؤرخي أفريقيا والأوساط العلمية بوجه عام وكذلك بالنسبة لليونسكو التي تشملها برعايتها. ذلك أنه ليس من المتعذر ان تصور مدى تعقيد مهمة مثل تحرير مصنف عن تاريخ أفريقيا يغطي في المكان قارة بأكملها وفي الزمان الأربعة ملايين عام الأخيرة و يلتزم بأرفع المعايير العلمية ويستعين كما ينبغي، بأخصائيين ينتمون الى شتى البلاد والثقافات والمذاهب الفكرية والتقاليد التاريخية. انه لمشروع قاري ودولي وجامع لفروع العلم على اوسع نطاق.

واود في النهاية أن أنوه بأهمية هذا المصنف بالنسبة لأفريقيا والعالم أجمع. ففي الوقت الذي تكافح فيه شعوب أفريقيا من أجل اتحادها وتعمل سوياً من أجل صنع مصائرهما، يمكن للمعرفة الصحيحة بماضي أفريقيا وللوعي بالروابط التي توحد ما بين الأفريقيين من ناحية، وبين أفريقيا وسائر القارات من ناحية أخرى، أن تيسر الى حد بعيد التفاهم بين شعوب الأرض بل وأن تنشر على الأخص المعرفة بتراث ثقافي هو ملك للبشرية جمعاء.

بثويل . أ. أوجوت

٨ أغسطس/آب ١٩٧٩

رئيس اللجنة العلمية الدولية

لتحرير تاريخ أفريقيا العام

# التاريخ

لقد تقرر تدوين التواريخ الخاصة بعصر ما قبل التاريخ على النحو التالي:  
— إما بالاشارة الى الحاضر باعتبار سنة الأساس + 1950 وتكون جميع التواريخ  
للبنية بالنسبة الى + 1950.  
— أو بالاشارة الى بداية التاريخ الميلادي وتوضع علامة + أو — أمام التواريخ  
المحددة بالنسبة للتاريخ الميلادي.

أمثلة: (1) 2300 قبل الحاضر = — 350

(2) 2900 قبل الميلاد = — 2900

1800 ميلادية = + 1800

(3) القرن الخامس قبل الميلاد = القرن الخامس قبل العصر الحالي

القرن الثالث ميلادي = القرن الثالث من العصر الحالي

# المنهجية، وعصر ما قبل التاريخ في أفريقيا بقلم ج. كي زيربو

## مقدمة عامة

لأفريقيا \* تاريخها، فلقد انقضى الزمن الذي كانت فيه أجزاء كاملة من خرائط الكرة الأرضية أو من أدلة السواحل، تمثل هذه القارة، على أنها هامشية مستعبدة، وكانت معرفة العلماء تتلخص بهذه الصيغة الاستطراذية التي تنم عن غياب أفريقيا: «هنا توجد أسود». وبعد الأسود، اكتشفت المناجم ذات المردود الكبير، وهذه المناسبة نفسها اكتشفت «القبائل الوطنية» التي كانت تملك هذه المناجم، إلا أنها ألحقت في حساب الأمم المستعمرة بالمناجم. وبعد «القبائل الوطنية» بدت شعوب نفذ صبرها من النير، فشرع نبضها يدق على ايقاع عموم لنضالات التحرير.

\* ملاحظة للمشرق على المجلد: يصعب حتى الآن توضيح أصل كلمة أفريقيا. وقد فرضت هذه الكلمة نفسها منذ عهد الرومان في شكل «أفريقيا» الذي أعقب اللفظ اليوناني أو المصري الأصل «ليبيا» بلد الليبوس أو اللوبيين المذكورين في سفر التكوين. وبعد أن كانت كلمة «أفريقيا» تدل على شاطئ شمال أفريقيا أصبحت تنطبق منذ أواخر القرن الأول قبل الميلاد على القارة في جملتها. ولكن ما هو الأصل الأول لهذا الاسم؟

— يمكننا أن ندلي بالتفسيرات التالية: بدءاً بأيسرها قابلية للتصديق:

— قد يكون أصل كلمة أفريقيا اسم شعب من البربر كان يعيش جنوبي قرطاج وهو: «الأفريق» ومن ثم «أفريقيا» أو «أفريقيا» للدلالة على بلاد الأفريق.

— وثمة أصل لغوي آخر لكلمة أفريقيا مصدره لفظان فينيقيان يعني أحدهما سنبلة، وهي رمزا لخصوبة هذه المنطقة، والآخر «فار يكا» و يعني بلاد الفاكهة.

— وقد تكون كلمة أفريقيا مشتقة من الكلمة اللاتينية «أبريكا» (مشمش) أو من الكلمة اليونانية «أبريكي» (خال من البرد).

— وقد يكون أحد الأصول الأخرى المصدر الفنيقي «فرق» الذي يعبر عن فكرة الافتراق أي التشتت. ومن الجدير بالذكر أن هذا المصدر ذاته يوجد في عدد من اللغات الأفريقية (البهارا).

— وفي اللغتين السنسكريتية والهندية يدل المصدر «أبارا» أو «أفريقيا» على ما يقع جغرافياً «بعد» أي الغرب. فأفريقيا هي القارة الغربية.

— وعن رواية تاريخية نقلها ليون الأفريقي أن قائداً منياً يدعى «أفريقوس» غزا شمال أفريقيا في القرن العشرين قبل الميلاد وشيد مدينة تسمى «أفريقية». ولكن الأرجح هو أن المصطلح العربي أفريقيا هو المرادف بالحروف العربية لكلمة أفريقيا.

— وذهب بعضهم إلى حد القول بأن «أفريقيا» كان من أحفاد إبراهيم ومن رفاق هرقل!

ان تاريخ افريقيا كتاريخ البشرية جمعاء هو تاريخ انبعاث الوعي، ومن الواجب أن تعاد كتابة تاريخ افريقيا، اذ هو حتى الآن كثيرا ما كان مقتعاً، ومموهاً، ومشوهاً ومبتورا، بالضرورة أي بسبب الجهل أو المصلحة الخاصة.

وهذه القارة التي أنكرتها قرون من الضيم، قد شهدت أجيالا من المسافرين ومن النخاسين، ومن الرواد المستكشفين ومن المبشرين الدينيين، ومن الحكام الطغاة، ومن العلماء من كل الفئات، يمثلون صورتها في شناعة البؤس والوحشية واللامسؤولية والهمجية. وأسقطت هذه الصورة، وتكاملت الى ما لا نهاية له مع مر الزمن مبررة بذلك واقع الحال والمستقبل.

وليس ما يهمني هنا أن نشيد تاريخا مقابلا يرمي مصنفي التاريخ الاستعماري بقذيفة معاكسة، بل أن نغيّر المنظور، وأن نحبي الصور المنسية («أو الضائعة»). ومن الواجب أن نعود الى العلم كي نبعث في هؤلاء وأولئك وجدانا صادقا، ومن الواجب إعادة بناء المخطط الحقيقي، فلقد آن الآوان أن نغير محور الكلام.

ولئن كانت هذه هي أغراض هذا المشروع وأسبابه، فالكيفية، أعني المنهجية، تبقى كالعادة أشد عسرا. وهذا فعلا أحد أغراض هذا المجلد الأول من تاريخ افريقيا العام والمحرر بإشراف منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو).

## الأسباب

يتعلق الأمر بمشروع علمي. ويتمثل الظلال والظلام الذي اكتنف ماضي هذه القارة تحديا مشيرا لحب الاطلاع البشري. ولا يعلم من تاريخ افريقيا الا القليل، فكم من أجيال عرجاء وكم من توار يخ مفقودة وكم من بنيات تبدو منقطة شأن الاشكال الانطباعية، أو هي عاتمة وراء ضباب كثيف. وكم من شفافات فلمية تبدو لغوا اذا ألغى ما سبقها من أجزاء الشريط! وهذا الشريط المفكك الجزئي، وهو صورة عن جهلنا، قد جعلنا منه بشكل مثير للأسف أو الغضب، تحريفا للصورة الواقعية لتاريخ افريقيا كما جرى بالفعل. فهل يبقى من المستغرب اذن أن يخصص للتاريخ الافريقي مكان ملحق بين جميع توار يخ البشرية أو الحضارات.

على أنه منذ بضع عشرة سنة عمل آلاف من الباحثين، وللكتير منهم فضل كبير بل استثنائي في إزاحة الغبار عن جوانب كاملة من وجه افريقيا القديم، وتظهر كل سنة عشرات من المطبوعات الجديدة ذات النظرة الايجابية أكثر فأكثر، وثمة اكتشافات افريقية، مذهلة أحيانا، تعيد النظر في مدلول بعض الأطوار في مجمل تاريخ البشرية.

ولكن وفرة المصادر هذه ليست في مأمن من المخاطر، كخطر البلبلة الناشئة عن كثرة البحوث غير المنسقة وغير المرتبة، والجدال الأجوف بين مدارس تفضل الباحثين بالنسبة الى موضوع البحث الخ...

لذا كان من المهم احتراماً لكرامة العلم أن يتم جلاء الحقيقة بصورة منزهة تعلو على الشبهات وبرعاية منظمة اليونسكو، ومن قبل جامعات من العلماء الافريقيين وغير الافريقيين، وتحت إشراف لجنة علمية دولية، ومديرين أفارقة.

وهذه تجربة لا تقدر للتعاون الدولي نظرا لوفرة وكفاءة الباحثين الذين جتدوا لهذا الكشف الجديد العظيم لافريقيا.

ولعل التاريخ هو علم بشري أكثر من أي اختصاص آخر، اذ هو يخرج بكامل الحرارة من مصهر الشعوب المدوّي الصاخب، يصنع الانسان التاريخ حقا في معامل الحياة، هو يبينه عقليا في المختبرات والمكتبات وحقول التنقيب الأثري، والتاريخ عدا ذلك قد لجعل للانسان وللشعب لكي ينبر وجدانه ويشيره.

وليس تاريخ افريقيا عند الافريقيين، مرآة نرجسية لعشق النفس، ولا هو ذريعة دقيقة لتبديد أعباء اليوم، فهذا الاتجاه المهووس قد يعوق ما للمشروع من أغراض علمية. وبالعكس أليس جهل الانسان لماضيه أي لجزء كبير من ذاته، استلابا للشخصية؟ إن الآلام التي تصيب افريقيا في يومنا هذا، وكذلك الفرص التي تتراءى فيها، هي حاصلة قوى لا تحصى قذفت بها التاريخ. وكما أن تشخيص تطور مرض ما هو المرحلة الأولى من مشروع منطقي لتحديد المرض ولعلاجه، كذلك فإن العمل الأول للتحليل الشامل للقارة الافريقية، هو العمل التاريخي.

وإذا نحن لم نختر اللاشعور أو الاستلاب فانه لن يكون بوسعنا أن نعيش بدون ذاكرة أو بذاكرة الغير.

والتاريخ ذاكرة الشعوب، وعودة الانسان الى نفسه قد تؤدي الى تطهير النفس وتحريرها، كما يتم عند الغوص في الذات بواسطة التحليل النفسي، فتظهر أسباب كبت شخصيتنا، وتحل في الآن نفسه العقد التي تقيد وعينا في الجذور القاتمة مما تحت الشعور.

ولكن لكيلا يستبدل وهم بآخر، ينبغي أن تكون الحقيقة التاريخية قالب الضمير الحر والأصيل، وأن تكون ممتحنة بشدة ومستندة الى حجج.

## الكيفية

وينتج عن ذلك مسألة عويصة، هي مسألة الكيفية، أي مشكلة المنهجية، وفي هذا المجال كما في غيره ينبغي الحذر معا من تمييز افريقيا تمييزا متطرفا أو ربطها ارتباطا وثيقا بالنظم الأجنبية. فيزعم بعضهم أنه من الواجب أن نسعى للعثور على وثائق تشابه تلك الموجودة في أوروبا، وأن نحصل على عين المجموعة من الحجج المكتوبة أو المخطوطة، كي نتحدث عن تاريخ حقيقي لافريقيا، وعندهم اذن أن مشاكل المؤرخ هي هي في كل مكان سواء في خط الاستواء أو في القطب. ويجب أن نؤكد هنا مرة أخرى وبكل وضوح، أنه ليس القصد أن نخمد العقل اذا لم يكن لدينا ما نمده به. فلم يكن العقل ليعتبر استوائيا بتعله أنه قام بعمله في خط الاستواء، وللعقل سيادة مطلقة فهو لا يعترف بسلطان الجغرافيا، ان نظمه ومساعيه الأساسية ولا سما تطبيق مبدأ العلية، كل ذلك يبقى كما هو، أي كان. وليس العقل أعمى، لذلك كان عليه أن يميز ما اختلف في الواقع، كي يكون لتكنه منه دائما، عين الدقة والصواب.

فبادئ النقد الداخلي والخارجي تطبق بمنهج ذهني مختلف عن منهجنا ازاء التشديد الحماسي

«سند جاتا فاسا» (١) وكذلك الأمر بالنسبة الى أوامر «دي فليس» أو المناشير الموجهة الى عمال نابليون. أي أن الأساليب والطرق المادية تبقى مختلفة، على أن هذا المنهج لا يستمر صالحا بعينه في كل أجزاء افريقيا، وتقوم تاريخ وادي النيل وواجهة البحر الأبيض المتوسط، يبقى أقل طرافة، بالنسبة الى أوروبا، من افريقيا الواقعة جنوب الصحراء.

وفي الحقيقة أن الصعوبات النوعية في تأريخ افريقيا تتوضح أولا في ملاحظة حقائق الجغرافيا الطبيعية لهذه القارة. ان افريقيا قارة منعزلة ان صح التعبير، فهي تدير ظهرها لبقية العالم القديم الذي لا تربط به الا بحيل سرى هزيل هو مضيق السويس، وبالعكس هي تغمس، بدون تحفظ، كتلتها المتراسة في مياه الجنوب وعلى جنبها مرتفعات ساحلية تقتحمها الأنهار عن طريق مضائق صماء، تشكل هي ذاتها عراقيل في وجه التدخل الغريب في البلاد. والمر الوحيد المهم الذي يقع بين الصحراء وجبال الحبشة تعترضه مروج بحر الغزال الفسيحة. وتهب الرياح والتيارات البحرية العنيفة ممتدة من الرأس الأبيض الى الرأس الأخضر، بينا في قلب القارة ثلاث صحار تتحمل العزلة الخارجية بممارسة التقسيم الداخلي.

ففي الجنوب صحراء كالا هاري، وفي الوسط الصحراء الخضراء المكونة من الغابة الاستوائية، ذلك الملجأ الرهيب الذي ينبغي على الانسان ان يصارع كي يفرض سيطرته عليه، وفي الشمال الصحراء، رأس الفيا في، تلك المصفاة الاقليمية العظيمة، وذلك المحيط الاشتر من الكشبان ومن مساحات الأرض الرخوة، وهو ما يحيطه من جبال الأطلس، يفصل مصير منطقة البحر الأبيض المتوسط عن مصير باقي القارة.

واذا لم تكن هذه القوى البيئية جدارا عازلا ولا سببا طيلة ما قبل التاريخ، فانها أثرت تأثيرا قويا في المصير الافريقي في جميع الميادين، وانها منحت الشرفات الطبيعية قيمة فريدة، فلعبت دور الجسور في استكشاف المجال الافريقي، ذلك الاستكشاف الذي قامت به الشعوب منذ آلاف الآلاف من السنين، ولنكتف بذكر الانهدام الطولاني العملاق بوادي (الرفت) الممتد من حجر افريقيا بالذات الى العراق عبر الرصيف الحبشي، وفي اتجاه العرض فان الأودية في صنعاء والاو بنغي والزايير قد مثلت أيضا ممرا ممتازا. وليس من قبيل المصادفة أيضا أن قامت أولى الممالك في افريقيا السوداء، في هذه الجهات من البلاد المفتوحة، هذه السواحل (٢) التي استفادت في الوقت نفسه من قابلية النفوذ الى الداخل ومن بعض الانفتاح على الخارج، ومن الاتصالات مع المناطق الافريقية المجاورة ذات الموارد المختلفة المتكاملة.

وهذه المناطق المفتوحة وذات النظام التطوري السريع هي برهان «خلف» على أن العزلة كانت أحد العوامل الأساسية في سير افريقيا على مسار بعض التقدم (٣).

(١) «مدح سند جاتا» بلغة ملنكي، سند جاتا هو منشئ امبراطورية مالي في القرن الثالث عشر وكان بطلا من الأبطال الأكثر شعبية في التاريخ الافريقي.

(٢) الكلمة مأخوذة عن العربية - وتعني الساحل كما هو واضح ولكن تعني هنا سواحل الصحراء المعتبرة بمثابة محيط من الرمال.  
(٣) ليس من الممكن إهمال العامل المناخي، ولقد أكد الاستاذ ثورن شاو أن بعض الجيوب التي تتأقلم مع المناخ المتوسطي (أمطار الشتاء)، لا تستطيع أن تتأقلم مع وادي النيجر، وذلك لأنه في جنوب البحرة الموازية للارتفاع في الشمال، ولسبب سد الجبهة ما وراء الاستوائية، فإن التأقلم يصبح مستحيلا، انظر، ج. أ. هـ. ١٢ - ١ - ١٩٧١ ص ١٤٣ - ٤٥٤.



يقول ف. برودل: «إن الحضارات تعتمد على الأرض و يضيف «إن الحضارة وليدة العدد». وعلى هذا فإن اتساع رقعة هذه القارة مع سكانها المنتشرين المنتقلين بسهولة في طبيعة كريمة (ثمار، معادن، الخ..) وقاسية (الأمراض المستوطنة والأوبئة) (٤) قد منعت من ادراك الحد الأدنى من التجمع البشري الذي كاد أن يكون دائما من الشروط الأولية للتحويلات الكيفية الجسمية في الحقل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، أضف الى ذلك أن ما قامت به النخاسة من ابتزازات بشرية قاسية منذ عصور عريقة في القدم، ولا سيما منذ تجارة العبيد في القرن الخامس عشر الى القرن العشرين، قد كان من شأنه أن يحرم افريقيا من الحيوية البشرية، ومن الاستقرار اللازمين لعملية ابداع معتبر، حتى في المستوى التكنولوجي، فلم تكن الطبيعة ولا الناس، ولا الجغرافية ولا التاريخ رافقة بأفريقيا.

ولابد من العودة الى هذه الظروف الاساسية للحركة التطورية كي نضع المشاكل في حدود موضوعية وليس في شكل أوهام مذهلة مثل الانحطاط العرقي والقبلية الوراثية والقصور الذاتي التاريخي الذي وصم به الأفارقة. وهذه الآراء الذاتية اللامنطقية ليس من شأنها في أحسن الأحوال، إلا أن تسبب جهلا اراديا.

## المصادر الصعبة

لا بد أن نعترف فيما يخص هذه القارة، أن الحصول على المصادر مهمة صعبة: فركاثر المعرفة التاريخية تتمثل في ثلاثة مصادر رئيسية: الوثائق المكتوبة وعلم الآثار والتواتر الشفاهي. و يدعم هذه المصادر الثلاثة علم اللغات وعلم الأجناس البشرية، اللذان يمكنان من تمييز وتعميق تأويل المعطيات، تلك المعطيات التي قد تكون أحيانا خاما أو شديدة العقم إن لم تمارس هذه الممارسة الأشد تعمقا. على أنه قد يكون من الخطأ أن ترتب هذه المصادر المختلفة مسبقا ترتيبا تسلسليا قطعيا.

### المصادر المكتوبة

إن لم تكن المصادر المكتوبة قليلة جدا فهي على الأقل موزعة توزيعا فاسدا في الزمان والمكان. و«أحبلك» العصور في التاريخ الافريقي هي التي لا تتمتع بانارة واضحة مدققة نابعة من شواهد كتابية، كالقرون السابقة للميلاد واللاحقة له، بينما كانت افريقيا الشمالية في هذا الوقت متقدمة. ولكن حتى ولو وجد هذا الشاهد، فإن تفسيره كثيرا ما تكتنفه الالتباسات والصعوبات. فانطلاقا من قراءة جديدة لرحلة ابن بطوطة مثلا وبعد إعادة قراءة الأسماء المختلفة للمواقع التي استعملها هذا الرحالة كما استعملها العمري، نرى ان بعض المؤرخين آل بهم الأمر الى مناقشة كون نياني — سور — سنكراني هي عاصمة المالي القديم (٥).

وعلى المستوى الكمي، فإن أكداً عظيمة من المواد الكتابية ذات الطابع الوثائقي أو القصصي لم يتم بعد استغلالها، كما تدل على ذلك الفهارس الحديثة الجزئية الخاصة بالمخطوطات التي لم تنشر

(٤) انظر في هذا الموضوع — جون فورد — أكسفورد — ١٩٧١.

(٥) انظر ج. أ. هنبوك ١٩٧٣ ص ١٩٥ — ٢٠٨. بخاطر المؤلف بحجة السكوت: «لوعبر ابن بطوطة النيجر أو نهر السنغال للذكره».

والمعلقة بتاريخ افريقيا السوداء، هذه الفهارس التي يتم اجلاء الغبار عنها في خزانات المغرب (٦) والجزائر وأوربا، وكذلك في خزانات الأعيان والعلماء السودانيين عبر مدن منعتف النيجر (٧)، واستنادا على عناوينها، يمكن الوقوف على مصادر جديدة تعد بالكثير. وقد أنشأت منظمة اليونسكو بطنبكسو مركز أحمد بابا للبحث عن أمثال هذه الوثائق. وفي مستودعات الوثائق بآيران والعراق وأرمينيا والهند والصين علاوة على أمريكا، نبذ عديدة من تاريخ هذه القارة، تنتظر من الباحث الفكر الثاقب الخلاق، وفي دار الوثائق بالوزارة الأولى باسطنبول، حيث رتبت دفاتر وأوامر الديوان السلطاني العثماني، توجد رسائل لم تنشر مؤرخة في ماي (أيار) ١٥٧٧ مرسله من السلطان مراد الثالث الى ماي ادريس علاوة، والى باي تونس، تلقي ضوءا جديدا جدا على دبلوماسيه (الكارم برنو) في ذلك العهد وعلى الحالة في الفزان (٨).

واستطاعت معاهد الدراسات الافريقية ومراكز البحوث التاريخية في البلدان الافريقية التي دخلتها الثقافة الاسلاميه، القيام بعمل حثيث لجمع الوثائق، ومن جهة أخرى قد نشرت أدلة جديدة كالتى قام بنشرها المجلس الدولي للوثائق تحت اشراف منظمة اليونسكو، الغرض منها توجيه الباحثين الى الوثائق المكسدة والمودعة في كل أطراف العالم الغربي.

ويبقى المجهود المتمكن في مجال النشر العلمى واعادة النشر وفي الترجمة والتوزيع، مع هذه التحولات المتزايدة الحديثة، قادرا على اجتياز نقطة جديدة حرجية في كيفية رؤية الماضي الافريقي.. وكذلك سيكون للعدد المتراكم من الوثائق أهميته في تحديد الرؤية الجديدة التي ستعتمد على هذه الوثائق. واننا لندعو بشدة الى اعادة قراءة العديد من النصوص التي تم استغلالها في القرن التاسع عشر في عهد الاستعمار، والى تطهيرها من كل حكم مسبق مضى عهده واضفاء طابع المسيرة الداخلية عليها. ونذكر مثلا أنه لا ينبغي التهاون بالمصادر المكتوبة بالكتابة الصحراوية الجنوبية، (فاي، باموم، عجمي).

### علم الآثار

كثيرا ما تكون الشواهد الصامته التي أظهرها علم الآثار أفصح من الشهود الرسميين المتمثلين في بعض مصنفي التواريخ، وعلم الآثار قد أحرز كثيرا من الجدارة من قبل التاريخ الافريقي من جراء مكتشفاته الرائعة ولا سيما (ما يرجع الى عدة آلاف من آلاف السنين من ماضي افريقيا) حيث لم يتوفر وجود أخبار شفاهية أو كتابية. فالأشياء الشواهد وحدها، المدفونة مع من تشهد لهم، تحفظ من وراء الكفن الثقيل الذي غلفت به أموات الأرض، ماضيا لا وجه له ولا صوت، وبعض هذه الأشياء الشواهد تدل دلالة متميزة على معالم ومعايير الحضارة، مثل أدوات الحديد وصناعاتها والخزفيات وطرق إنتاجها وفماذجها ومصنوعات البلور والكتابات والأقلام التي ضبطتها، وتقنيات البحارة والصيد البحري، والنسج والمنتجات الغذائية، وكذلك بنايات شكل الأرض وهياكل الري والأوضاع النباتية التابعة لتطور الإقليم.. وفي لغة اللقى الاثرية، بطبيعتها، شيء من الموضوعية التي لا

(٦) انظر يونسكو: مجموعة مختارة من نصوص عربية مستمدة من وثائق مغربية بقلم الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني. س ش: ن س: ٢٩٤.

(٧) انظر دراسات مالية، أ. س. هـ. م. عدد ٣ سبتمبر ١٩٧٢.

(٨) ب. ج. مزتان ١٩٦٩ ص ١٥ - ٢٧.

ترد، فدراسة نماذج الحرفيات مثلاً ومصنوعات العظم والمعدن في الصحراء النيجرية التشادية، تقيم الدليل على الارتباط بين شعوب قبل الاسلام (ساو) في حوض التشاد، وبين المجالات الثقافية الممتدة حتى النيل والصحراء الليبية. ان تماثيل صغيرة من صلصال مشوي، ذات حائل متقاطعة، وزينات بدنية على التماثيل تحمل أشكال الأوعية والأساور والرماح والعظام ورؤوس السهام أو شوكتها وسكاكين الرماية، كل ذلك يحمي ما بينها من قرابة الأواصر الحية في الزمن الماضي من وراء المنظور المعاصر، وقد أناخ عليها الجموع والعزلة بكلكهما (٩). ان تحديد المواطن الاثرية الافريقية وتصنيفها وحمايتها تفرض نفسها كأولوية متأكدة جداً قبل أن ينهبا المفسدون أو الجهال غير المسؤولين، والسياح المجردون من نية العلم فيبدونها ويجردونها من كل قيمة تاريخية جدية. ولكن استغلال هذه المواقع الاثرية بواسطة مشاريع ذات أولوية للتنقيب على مستوى فسيح، لن ينمو الا في اطار برامج مشتركة افريقية يعاضدها تعاون دولي قوي.

### النقل الشفاهي.

الى جانب المصدرين الأولين للتاريخ الافريقي، أي الوثائق المكتوبة وعلم الآثار يبدو النقل الشفاهي، الحافظ والحامل لرأس مال الایداعات الاجتماعية الثقافية الذي جمعه الشعوب التي لم تستخدم الكتابة بعد: فهو حقاً متحف حي. والخبر التاريخي هو مجرد خيط عنكبوتي له من الهشاشة ما لا يمكنه من اجتياز السرايب المظلمة في متاهات الزمان. يحمله القدامى ممن ابيضت رؤوسهم وتقطع صوتههم واغبرت احيانا ذاكرتهم، ممن لا تسامح لديهم في آداب السلوك (للشيخوخة الاستحقاق): فهم أجداد بالقوة.. وهم بمثابة جزيرات أخيرة متبقية من منظر كان قديماً قائماً، يدعمه في عناصره جمعاء نظام دقيق، انحرف اليوم وتطرق وصرعته أمواج «المعاصرة» الحادة. وأصبح من المتحجرات الموجلة.

وكلمها اختفى أحدهم، تقطع سلك من الخيط وهو جزء من المنظر الذي يصير تحت الارض. ذلك أن النقل الشفاهي هو المصدر التاريخي الأكثر الفة وهو أعذب المصادر، وما يغذيه، أكثر من غيره، رواء الصدق. يقول مثل افريقي «فم الشيخ أبخر لكنه يتفوه بالأمور الطيبة المنجية»، والكتابة مهما كانت مفيدة تتجمد وتتيبس، وهي تضفي وتشرح وتحتزل وتتحجر. والحرف يقتل. الخبر يكسو هيكل الماضي لحماً وألواناً ويرويه دماً — وهو يعرض في مدى الأبعاد الثلاثة ما انطبق كثيراً على سطح ذي بعدين من صفحة ورقة. ان فرح أم (سندجاتا) اذ اضطربت لبرء ابنها المفاجئ، مازال يرن في صوت سحرة مالي الجمهوري الحار. أجل، انه من اللازم اقتحام الكثير من العقبات لتصفية مادة النقل الشفاهي وغرلة حبوب الوقائع من تبن الكلمات الفخوخ، مما يشبه النوافذ الكاذبة التي تقام قصد التناظر، وتجاوز زيف العبارات وبريقها، والتي لبست الغلاف الظرفي للرسالة الآتية من بعيد.

لقد قيل إن الخبر المتواتر لا يوثق به اذ هو وظيفي، كذلك فان أي رسالة بشرية بحسب تعريفها ليس وظائفية، بما في ذلك وثائق المخطوطات، وهي بمجودها ذاتة وتحت حيادها الموضوعي الظاهر كم تحفي من أكاذيب لما أغفلته ومع ذلك فهي تكسو الخطأ بصيغة الاحترام. مما لا شك فيه أن الخبر وبخاصة الحماسي منه، هو إعادة خلق شبه اسطوري للماضي، هو نوع

من التمثيل النفساني يكشف للمجموعة جذورها ومجموعة القيم التي تدعم شخصيتها، هو زاد سحري لقصد العودة على نهر الزمان نحو مملكة الأجداد، ولذا لا يطابق القول الحماسي مطابقة مدقة الخبر التاريخي، بل هو يتطيه مسقطاً آياه اسقاطات فات وقتها من قبل، ومن بعد بالنسبة الى الزمان الواقعي، مصادما معه اصطدامات شبيهة بتلاشي التضاريس في الآثار. ولكن هل نتخلص الكتابات نفسها من هذه التداخلات اللغوية؟ وفي هذا كما في غيره يجب البحث عن الكلمة المتحجرة الموجهة. وينبغي اذا أمكن أن نجهز أنفسنا بكاشف المعدن الخالص، لاخراج الشوائب والخبث.

نعم، يمثل وهن التسلسل التاريخي موطن الضعف الحقيقي في الخطاب الملحمي، واللقطات الزمانية المعشرة تكون تركيباً معقداً لا تأتينا منه صورة الماضي واضحة مستقرة كما تأتينا من المرأة الصالحة، ولكنها كالحيل الخاطف الراقص على الماء المضطرب، ومعدل عمر الممالك أو الأجيال من الأمور التي يشتد فيها الخلاف، حيث لا يوثق كثيراً بالاستكمالات المستمدة في الفترات الحديثة، ولو من جراء التحولات العمرانية والسياسية. فأحيانا يستقطب ملك فذ، كالمغنطيس، الوقائع السابقة التي حدثت لسابقه وتابعيه وقد اختفت صورتهم تماماً، ومن بين هؤلاء سلاله ملوك رومندا، ومثل الملك دامنزن ملك سيقو (أوائل القرن التاسع عشر) اذ ينسب اليه السحرة كل فتح عظيم في هذه المملكة.

وعدا ذلك فان النص الادبي الشفاهي اذا ما اخرج من سياقه يكون كالسمكة خارج الماء فيموت ويتحلل. واذا ما عزل الخبر يكون كتلك الاقعة الافريقية المقتلعة من الرسوم الدينية التي يقوم بها المؤمنون، فتعرض كي يطلع عليها العالمين. فيفقد مضمونه ومعناه وحياته. على أن الخبر بطبيعته — اذ تحمله دائماً شهود جدد كلفوا بنقله — فهو يلائم انتظار مستمعين جدد، ملائمة تتعلق خاصة بنقل الرسالة، الا أنه لا يبقى المحتوى على حاله. السنا نرى أيضاً منتفعي أو مرتزقة الخبر يعرضون عند الطلب نسخاً من النصوص المكتوبة، يلقي بها من جديد في سياق الخبر المنقول!

وأخيراً كثيراً ما يكون محتوى الرسالة نفسه مستغللاً بل مستبطناً، والكلمة عند الافريقي ثقيلة، وهي قوة ذات حدين في امكانها الفعل والنقص، وفي امكانها أن تحمل الشرور، ولذا لا يتلفظ بها بوضوح ومباشرة، بل تحيط بها الأمثال والتلميحات والمعاني الخفية والأمثال الواضحة والمغلقة بالنسبة الى العامة، لكنها نيرة عند من أوتي حساسية استشعار الحكمة. وفي افريقيا الكلمة الثقيلة لا تبذل، وكلما ارتفعت منزلة الانسان وسلطانه كلما قلل من الحديث بين العموم. فإذا ما قيل لشخص: «أكلت الضفدع ورميت برأسه» فيعلم حالاً أنه اتهم بالتخلص من بعض مسؤولياته (١٠)، وهذا الاستغلال المتمثل في «نصف القول» يدل على قيمة الخبر الشفاهي الفائقة وعلى حدودها، اذ يكاد يكون من المتعذر نقل قيمته كاملة من لغة الى أخرى، ولا سيما اذا كانت اللغة المنقول اليها غريبة عن الأولى بنية ومحتماً. ولا يتحمل الخبر الترجمة الا قليلاً جداً، فإذا ما اقتلع من وسطه فقد نسغه وأصلته، ذلك أن اللغة هي «بيت الوجود» والعديد من الأخطاء المنسوبة الى الخبر، إنما هي ناشئة عن مترجم عاجز أو غير مسؤول.

ومعها يكن من أمر، فلقد قام على شرعية الخبر الشفاهي الدليل اليوم بصورة وثيقة ويؤكدته تأكيدا واسعا ما يقابل به مع مصادر أثرية أو كتابية، كما هو شأن موقع «كسي — صالح»، وأنقاض بحيرة «كيسال»، أو أحداث القرن السادس عشر التي نقلتها «الشونا»، والتي أثبت د. ب. ابراهم مطابقتها لكتابات الرحالة البرتغاليين في ذلك الزمن.

والخلاصة أن سرد الخبر، سواء كان ملحيا أو نثريا أو تعليميا أو أخلاقيا، قد يكون تاريخيا أيضا من أوجه نظر ثلاثة. أولا هو يكشف عن مجموعة من العادات والقيم التي تحرك شعبا وتحكم في أعماله المقبلة بتمثلها نماذج الأمس. وهكذا فإن الملحمة تعكس التاريخ ولكنها أيضا تخلقه. فإذا ما توجه الإنسان إلى دامنزن قائلا: «يا مولى المياه ومولى البشر» فهو يقرر بذلك طابع سلطان دامنزن المطلق، على أن الأقصوصات عينها ترينا إياه مستشارا بلا انقطاع، من جنوده وكهنته ونسائه (١١). ومعنى الشرف والسمعة يتضح في الجواب الشهير في «نشد القوس» مجدا سندياتا (سندياتا فاما) «ساياكوسا ملويا» (١٢). وتكشف هذه القيمة عن نفسها أيضا في فصل مأثرة «بكري ديان» على «بولس الكرنازي»، فلقد انعزل البطل بكري ديان في قريته (دنقورنغو) وتوسل الناس إليه أن يرجع على رأس جيوش (سيقو). فسلم في النهاية حين مسوا وتره الحساس، وتر الكبرياء والمجد: «عليك أن تتناسى ما وقع تبادل من الكلام القديم، عليك الآن أن تنظر إلى اسمك، فنحن نأتي هذه الدنيا لنكتب اسما، وإذا ما أنت ولدت وترعرت وميت بدون اسم، فانك تكون قد جئت عبثا وانصرفت عبثا» فيصيح قائلا: «يا كهنة (سيقو)، اذ أنتم أتيتم فلن يكون ثمة مستحيل. وسأفعل ما تطلبون في سبيل سمعتي، ولن أفعل ذلك في سبيل (دامنزن) ولن أفعل لأبي كان في (سيقو)، سأفعله فقط من أجل سمعتي، وحتى بعد مماتي سيضاف فعلي إلى اسمي».

وأذكر أيضا هذه النكتة الحضارية الحفوية، قال سلامكا: «انكم محظوظون إذ حرم علي أن أقتل الرسل».

وعلى ذلك فإن إعادة تركيب الماضي بعيدة أن تكون خيالية تماما، ففي الماضي شرايح من الذكريات ومسالك من التاريخ كثيرا ما تكون أشد التصاقا بالمألوف من تزويقات الخيال الملحمي الملونة: «وهكذا نشأت منظمة الرعاة الجماعيين هذه في مدن (مبرا). وإن اصطفت وصرت راعيا فقد صرت (بولس) عموميا وكان البوالة العموميون يرعون قطعان الملك، وكانوا رجالا من جنسيات مختلفة، وكان رئيس الرعاة فيهم يسمى «بنكي» أو هكذا: «في ذلك العهد لم يكن الناس ينتعلون الأحذية بل سمارات من جلد البقر المدبوغ، في أنفها جبل حول إهام الرجل وفي العرقوب جبل». وأخيرا إن القصة الملحمية تلونها تلميحات إلى الصنائع والأشياء ليست أساسية في سير الحديث، إلا أنها تشير إلى بيئة الحياة «أرسل (دامنزن) ستين من ملاحه جذعية سومونو، ثلاثين في مقدم الجذعية وثلاثين في مؤخرتها، وكانت الجذعية مزينة بأفخر الزينات» «هيئت السلام ونصبت على السور وتسلفها صيادو (سيقو) مهاجمين وتسلفوا إلى المدينة... ورمى خيالة (سيقو)

(١١) نظرن. كسلوط، ج ١ — ٣ — ٤.

(١٢) الموت أفضل من العار

بسهم ملتبه. واشتعلت النيران في بيوت القرية»، «وتأهبت ساران، المرأة المولعة بدامنزن، لتبلل بارود بندقيات محاربي كوري».

ويمارس المؤرخ تشخيصا مدققا يصل أحيانا الى التحليل النفسي، لهوس الجمهور أو ناقلي الأخبار، محاولا ادراك زبدة الواقع التاريخي.

وتعدد الروايات المنقولة من قبل فرق متناوثة، كما تم عند كهنة موالي سيد شريف (هوروت، دياتيقي) لا يشكل عامل نقص بل هو ضمان اضافي للنقد التاريخي. أما توافق الروايات، كما في صورة كهنة ببارا وبولس المنتمين الى شقين متعادين، فانه يبرز بروزا خاصا صدق هذا الشاهد، وكما يبدو من حالة «الكوروا» الذين تربط بينهم تقاليد باطنية متحررة اندماجية تتناقلها الأجيال، وتتعايش مع تقليد الجمعية السرية الباطني الفوضوي. إن الخبر التاريخي بما له من توليدات متعددة يتضمن عناصر للنقد الذاتي. وذلك أنه ليس ملكا خاصا بل ملك مشاعا تسأل عنه زمرات مختلفة من المجتمع، والمهم أن يعتني بالنقد الداخلي لهذه الوثائق وذلك بمعرفة دقيقة للأسلوب الأدبي المستعمل، بموضوعه وأساليبه ورموزه وقوالبه وعبارات الحشوفيه والاستطرادات الاصطلاحية، واللغة في تطورها والجمهور وما ينتظره من الكاتب التقليدي. وينبغي خاصة الاعتناء بالطبقة الشعبية التي ينتمي اليها هؤلاء وقواعد عيشها وتكوينها ومثلها ومدارسها. ومن المعلوم مثلا أنه في مالي وغينيا وجدت مدارس حقيقية للمعارف الأولية منذ قرون، كذلك الأمر في كيتا وكيتا ونياقسولا ونياني الخ.

وهذا التقليد الصامد المقتن الوضعي هو عادة أقوى بنية، وأشد دعما من موسيقى البلاط التي تتجسم فيه، وترتله على فقرات تعليمية وفنية. وبعض الآلات المستعملة، كالسوسوبلا (بالافون سوما أوروكنتي) مازالت هي عينها كمعلمة تستحق ان يبحث فيها بحثا أثريا.

الا أن الأواصرين نماذج آلات الموسيقى ونماذج الموسيقى والأناشيد والرقصات، تمثل عالما دقيق التنظيم، تميز به بسهولة، البدع والملحقات المضافة مؤخرا.

وهكذا فلكل فن أدبي شفاهي آتته الخاصة في كل منطقة ثقافية، الآلة الخشبية (بالا) والبولون (قانون — عود) للملحمة مندق، وبنديري الموسيقى. (طبل ضخم مدور ذو وجه واحد، مقطوع من ثمرة الدباء يضرب عليه بالأكف العارية) للتحميس، في جو كثيرا ما يكون صامتا، واسامي الحرب (زابيويا) للملوك، والميات (قيثارة) لشعراء الفنق الموسيقيين في ملحبتهم الاستوائية، هذه الآلات تحمل الكلمة التاريخية فتقدرها وتقديسها، فهي تتحد مع الفنان في الواقع، ومكانتها تزداد أهمية في أداء الرسالة، بفضل لغات ذات جرس تصير بها الموسيقى مركزة بصورة مباشرة، وتصير الآلة صوت الفنان دون أن يضطر هذا الى التفوه بكلمة واحدة. ويصير هذا الايقاع النغمي الثلاثي، من الكثافة والاستمرار موسيقى ذات دلالة داخل هذا الضرب من «الدلالة — الترفية» التي تحدث عنها مارسيل جوس. والحق أن الموسيقى صارت جزءا من التقاليد، إذ لا يمكن أن تنقل بعض الأفاصيل الا في الشكل الغنائي، والأنشودة الشعبية نفسها التي تنم عن نبض «الارادة العامة» في شكل هجائي يحدد أحيانا التهكم القائم فيه، والذي يبقى حيويا حتى خلال الحملات الانتخابية في القرن العشرين، هو نوع نفيس يعدل ما ترويه «الوثائق» الرسمية ويكملها.

وما قيل هنا عن الموسيقى ينطبق تماما على وسائل أخرى للتعبير، كالفنون التشكيلية التي تقدم لنا نتاجها أحيانا، كما في ممالك أبوماي وبنين (حفر بارز) أو في بلاد كوبا (تماثيل) وفيها التعبير المباشر للأشخاص والأحداث أو للثقافات التاريخية.

وباختصار ان الخبر الشفاهي ليس مجرد مصدر يلجأ اليه في آخر المرحلة حين يضطرننا اليأس من غيره، بل هو مصدر له حظ كامل ومنهجية تم الآن إرساؤها، ثم هويوفر لتاريخ القارة الافريقية أصالة قوية.

### علم اللغات

ليس علم اللغات علما مساعدا للتاريخ الافريقي، بل هو اختصاص يسير بالتاريخ مباشرة إلى صميم موضوعه، ونقف على ذلك بوضوح في مثال النوبة التي غابت وراء صمت مزدوج، صمت أطلال (ميروي) الكشيف، وصمت الخط الميروي الذي لم يكشف سره اذ بقيت اللغة مجهولة (١٣).

لا شك أن هناك أمورا كثيرة يجب القيام بها في هذا المجال، بدء من اثبات اللغات اثباتا علميا، فلا ينبغي أن يضحي بالعمل الوصفي لفائدة العمل التنظيري والتأليفي بدعوى التصنيفية والتوليد. ان التحليل القاسي المدقق للغة ما بما لها من مميزات في الأحرف الصوتية وأحرف المد والجرس، وبما لها من حرية التوليفات في الرسوم التخطيطية المركبة التعبير، وبما لها من مدلول عاشه المتلفظون به في مجتمع محدد (١٤)، هذا التحليل يمكن من بناء استكمالات للماضي، هي عملية عسيرة لعدم وجود عمق تاريخي لمعرفة هذه اللغات، اذ ليس في الامكان قياسها على غيرها الا ابتداء من الطبقة المعاصرة بواسطة طريقة التزامن، وهذا الأساس لا بد منه لكل تأليف تطوري توليدي. ان الأمر صعب، وليس غريبا ان وجدت صراعات علمية هنا وهناك، خاصة في مادة البانتوية. «فلكولم قتري» يقرر نظرية التكوين الذاتي، بينما يدافع «جوزيف غرينبرغ» ببراءة عن نظرية تقول إنه يجب أن توضع اللغات البانتوية في اطار قاري أكثر اتساعا. ويبرر هذا الاطار، بأواصر ليست من باب التشابه العرضي الناشئ عن التأثيرات الخارجية، بل بأواصر قرابة وراثية ذاتية، يكشف عنها الشبه في الضمائر، وفي المفردات الأساسية وفي الخواص النحوية، كنظام الأصناف الاسمية، فيما بين مشات من اللغات من (الولوف) الى (البانكا) (جمهورية السودان). وليس كل هذا الجدل عند المؤرخ، محض تمارين مدرسية. فنحن نرى مثلا أن مصنفنا يعتمد على توزيع مجموعات الألفاظ المتشابهة التي تدل على معنى الحروف في افريقيا الوسطى على حافة الغابة، يلاحظ أن هذه المجموعات المتجانسة لا تحترق الحافة النباتية بل تنشر موازية لها، مما يوحي أن هذه الأغنام تنتشر حسب المنطقتين الجغرافيتين الملاصقتين للسهل والغابة، بينما تترتب الصورة اللسانية في الشرق على امتداد شرائط طولانية من افريقيا الشرقية الى افريقيا الجنوبية، مما يدعو الى فرض وجود طريق يتدخل عموديا على الأول، ويوضح، بقياس التقابل، الدور المعطل للغاية في نقل التقنيات (١٥). ولكن هذا الدور يختلف باختلاف التقنيات، وباختصار ان الدراسات اللسانية تبرهن أن طرقات

(١٣) نظمت اليونسكو سنة ١٩٧٤ ملتقى علميا للكشف عن هذه اللغة الافريقية.

(١٤) انظر موريس هويس ١٩٧١ ص ٤٥.

(١٥) انظر كرسنوف اهرت ١٩٦٣ ص ٢١٣ - ٢٢١.

النزوح ومسارها، وأن انتشار الثقافات المادية والروحية، مرتبط بانتشار الألفاظ المتقاربة. وهذا يدل على أهمية التحليل اللساني التطوري وأهمية التسلسل الصوتي عند المؤرخ الذي يريد أن يقف على حركية التطور واتجاهه.

وهكذا أوضح ج. غرينبرغ ما أتى به «الكنوري» للهوسا من المصطلحات الثقافية ومن الفن الحربي، مما يظهر تأثير الامبراطورية البرنوانية في تطور ممالك الهوسا، وبخاصة ألقاب الممالك البرنوانية القريبة من ألفاظ كاموري، مثل كيقاما، ماجيرا الخ. التي انتشرت انتشارا ملحوظا حتى في قلب الكرون والنيجيريا، وثمة دراسة نظامية لأسماء الأماكن وأسماء الأشخاص من شأنها أن تقدم دلالات محددة، شريطة أن يعاد النظر في هذه الأسماء عن طريق نظرة محلية. وذلك أن كثيرا من الأسماء قد تم تحريفه بسبب النطق به أو كتابته بكتابة أجنبية من قبل غير الأفريقيين، أو من قبل أفريقيين استخدموا تراجمة وكتابتا أجنبية، ويبقى اصطياذ اللفظ الصحيح حتى ولو استقر بالكتابة منذ قرون عملا من الأعمال الأشد تشعبا بالنسبة للنقد التاريخي الإفريقي.

مثال: ان لفظ (قاوفا) الذي استعمله ليون الإفريقي للدلالة على مملكة السودان، كثيرا ما قرون بلفظ (قاو)، ولكن تحليل اسم المكان هذا بالاعتماد على لغة التيدا والكانوري يمكننا من تعيين موقع مملكة (القوافا) بين الواداي (تشاد) والدارفور (السودان) والفريت (افريقيا الوسطى) (١٦). وأما الرجوع الى اليمن لتعيين بلد الأصل للعديد من الأسر المالكة السودانية، فلقد أعيد النظر فيه بصورة جدية من قبل هـ. ر. بلمر. ولا ينبغي لنا أن نفسر لفظ يمن حسب ما يذكره مؤرخو المسلمين من معنى ديني يتجه نحو منطقة «العربية السعيدة»، بل الاحالة الى البلد القديم (منه يمن)؟ (١٧). ويبدو النظر في المعجم السواحلي المحشوب بألفاظ من أصل عربي، وفي معجم بلدان الساحل الشرقي الملغاشي (انتييمورو انتالوترا، انوزي) المغمورين بالتيارات العربية، سيكشف عن معلومات جديرة أن يستمد منها المؤرخ.

وعلى كل ان (علم اللغات) أو اللسانية التي كان لها فضل على التاريخ الإفريقي، يجب أن تنتزع منذ البداية الاحتقار العنصري الذي اصطفت به اللسانية الإفريقية التي حررها أ. شليقل وأوغست شليشر، وعندهما: «ان لغات الاسرة الهندية الاوربية في قة التطور، ولغات السود في أسفل درجة من السلم، على أنه فيما يظن أن هذه اللغات قد يكون لها أهمية في عرض وضع قريب من الوضع الأصلي للغة، حيث كانت اللغات بدون نحو والكلام مكون من سلسلة كلمات ذات المقطع الواحد، ويقتصر المعجم على كشف أولي للألفاظ» (١٨).

## علم الانسان وعلم اللغات

وتبقى الملاحظة نفسها مقبولة في مجال علم الانسان وعلم الأجناس. والواقع أن الكلام

(١٦) انظر بيار كلوك ١٩٧٢ ص ٥٢٩ — ٥٤٨.

(١٧) انظر أبو الدريج عمود ص ١٣٠ — ١٥٥.

(١٨) انظر ج. هويس، ١٩٧١، ص ٢٧.



الاجناسي (١٩) كان بطبيعة الحال، كلاما ذا دلالة واضحة التمييز والعنصرية وذا نتائج سياسية واضحة، وبينها ممارسة «علمية» غامضة بالطبع.

وأهم فرضياته المسبقة كانت التطور الخطي، وعلى رأس القافلة البشرية أوربا رائدة الحضارة، وفي المؤخرة، «الأقوام» البدائية في الاقيانوس وبلاد الأمازون وافر يقيا. فكيف يمكن أن يكون الانسان هنديا، أسود، بابو أو عربيا؟ «فالغير» هو متأخر متوحش بربري على درجات، وهو مختلف دائما. ولذلك كان موضوع اهتمام الباحث أو مجال نهم المعالج. فالأنتولوجيا تلقت تفويضا عاما لتصبح وزارة للفضول الأوربي، إزاء «مواطنينا». إن النظر الإنتروبولوجي يتمتع بحالات البؤس والعراء، والفلكلور كثيرا ما كان ساديا شهوانيا، وفي أحسن الظروف يتظاهر ببعض العواطف للأبوية. وكانت المذكرات والتقارير الناشئة عن هذه النظرة، إلا ما شذ منها، تبرر الوضع الراهن وكانت تعمل على «إلغاء التخلف في النمو» (٢٠). فالنظرية التطورية التي جاء بها داروين، رغم مزاياها الرفيعة الأخرى، والانتشارية في اتجاه واحد التي طالما نظرت الى افريقيا كموطن خامل للاكتشافات الأخرى، وأخيرا وظائفية مالفينوسكي ورادكليف براون التي كانت تحجب كل بعد تاريخي للمجتمعات البدائية، كل هذه المدارس كانت بالطبع تتعاطف مع الوضع الاستعماري الذي كانت تنمو فيه كما لو كانت في تربة خصبة (٢١).

ونظرتها، التي فقدت قيمتها في النهاية في تفهم المجتمعات النائية الخارجية، تجردت من الجدارة أيضا، إذ أن المجتمعات التي اهتمت بها بصورة خاصة كانت بالفعل أكثر المجتمعات شذوذا، أعني نماذج من البشرية استقرت في البدائية، بينما كانت هي لا تمثل سوى جرائم لا يستهان بدورها التاريخي، بل هو أحيانا دور هام، إلا أنه في أغلب الأحيان، هامشي بالنسبة الى المجموعات الاجتماعية السياسية الأشد قوة والأكثر عراقة في تيار التاريخ.

وهكذا فلقد رمز الى جميع افريقيا بصور قد كان الأفارقة أنفسهم يستغربونها، تماما كما لو شخصت أوربا في بداية القرن العشرين باستعمال الخوان والمسكن أو بالمستوى التقني في مجموعات بريطانيا الداخلية أو في الكنطال أو سردينيا.

على أن الطريقة الانتولوجية انما تعتمد على الاستقصاء الفردي الموسوم بميسم التجربة الذاتية الشامة، لأنه مكثف، ولكنها تامة في مستوى الانسان فقط وتؤول الى نتائج «موضوعية» هزيلة جدا اذا ما زعم استكمالها من الخارج.

وأخيرا فان موضوع الانتولوجية نفسه من جراء جدلية حتمية، وبتأثير الاستعمار، قد تضاعف

(١٩) خصص لفظ جنس الى الشعوب المعروفة بالعدم الكتابات فتضمن منذ البداية رأيا مسبقا عنصريا، يقول كليمان مارو في القرن ١٦ «وثني أو جنسي» الانتوغرافيا جمع وصفي للوثائق — الانتولوجيا هي عين التأليف النظيري.

(٢٠) انظر ج. كوبنس، ١٩٧١ ص ٤٥ «المنهجية الاستعمارية والانتولوجيا ترتفع الى عين التشكيلة، و يوجد بين هاتين المرتبتين من الظواهر عمل مشترك يتحكم في قوة النسبي».

(٢١) انظر ج. ربي ١٩٧٧، ص ٤٢٩ «انه يشبه الداروينية الشكافية التي توحى الى الفكر في القرن ١٩؛ الانتروبولوجية تبرر الاستعمار، فلا يكون هذا ثمرة ظرف سياسي بل نتاج بنية بيولوجية، أي صورة خاصة من المزاخمة الطبيعية. وانتروبولوجيا القرن التاسع عشر تريح ضمير أوربا الامبريالية».

شيئاً فشيئاً. والشعوب البدائية التي كانت تعيش من جني الثمار والصيد، إذا لم يكن من «أكل البشر»، تحولت شيئاً فشيئاً إلى الطبقة الكادحة المتنقلة من المراكز المحيطية، في نظام عالمي للإنتاج، أقطابه يقيمون في نصف الكرة الأرضية الشمالية.

وكان العمل الاستعماري يلتهم ويستهلك موضوعه ذاته، فلذا قرر أولئك الذين وضعوا الأفارقة في قائمة الأشياء، أن يشرعوا في محاولة مبادهة، لصنع التاريخ، زاعمين أنه في بعض الأوجه، ليس البدائيون كما حسبوا.

وبعيداً عن حكم سابق، وفي الوقت نفسه، فإن الباحثين الذين عملوا على كشف خيط التاريخ والوقوف على بنيات أصيلة في المجتمعات الإفريقية الدولية أو غيرها، هؤلاء الرواد أمثال فرينبوس ودولافوس وماروايفانس بريتشارد، قد واصل مساعيهم وأخذها عنهم وأعادها ودققها بحاثون آخرون معاصرون. ورأى هؤلاء أنه إذا ما طبقت الأدوات العقلية عينها للعلوم والانسان، وإذا ما تمت ملاءمتها للمادة الإفريقية، يكون بالامكان أن ندرك نتائج موضوعية. وهكذا نبذت النظريات الفاسدة المستندة إما إلى الفرق الوراثي والمادي لمواطنين، وإما إلى وضعهم البدائي في طريق الحضارة. ويكفي أن نعترف أنه إذا كان الكائن الإفريقي هو الكائن الانسان الناطق، فإن «وجودهم في العالم» مختلف. وعندها يمكن شحذ أدوات جديدة للوقوف على تطورهم الفريد.

وفي نفس الوقت فإن النظرة الماركسية، على أن لا تكون عقائدية، ونظرة ليفي ستراوس البنيوية، تأتيان أيضاً بوجهات نظر مقبولة، ولكنها متباينة فيما يخص تطور الشعوب المعروفة بانعدام الكتابة فيها. فالطريقة الماركسية والتي تقوم على أساس تاريخي، تعتبر التاريخ ضميراً جماعياً في العمل، وهي تؤكد كثيراً على القوى المنتجة وعلاقة الإنتاج، كما تؤكد على البراكسيس (السلوك) والنظم، بينما ترمي الطريقة البنيوية إلى ممارسة الآلية اللاشعورية ولكن المنطقية، وممارسة المجموعات المنسقة التي تؤثر عمل العقول والمجتمعات وتؤطرها. ونأمل أن تكون الانتروبولوجيا المرتوية من منابع جديدة، شيئاً مغايراً لعناء تظهر فجأة، لضرورة الحالة، من رماذ بعض الانتولوجيات (٢٢).

على الانتروبولوجيا إذن أن تنقد مسلكها الخاص، وأن تؤكد كل التأكيد على المثل وعلى التطبيقات، والا تندخل عندها العلاقات الاجتماعية التي يمكن أن تتكشف بالتجربة، بالبنيات التي تؤثرها، وبذلك تُغني الواحد بالآخر، المثل والبنيات والآراء، مستخدمة بكثرة التقنيات الكمية والجماعية الخاصة بالبحث، منطقة الكلام جاعلة إياه موضوعياً. وتهم التفاعلات بين العوامل الانتروبولوجيا على الخصوص، وكذلك التأليف التاريخي. وتشاهد مثلاً تقابلات بين المسالك التجارية التي يوجد عليها امتياز ملكي من جهة، وبين الأشكال السياسية المتمركزة من جهة أخرى: (غانة والمالي القديمين، وفي امبراطورية اشنطي في القرن الثامن عشر وفي مملكة لندا بالزائير الخ) بينما في التجربة العكسية الحاسمة خلافاً للنقودو (والزولو)، وهي شعوب لها عين اللغات

(٢٢) تكون السوسولوجيا علماً اجتماعياً داخلياً في نظر العالم المعاصر، بينما تكون الانتروبولوجيا نظرة مقارنة (بين المجتمعات)، ولكن ليس في ذلك أحياء للأصناف، الفرق القابلة للجدال يتبعها من تاريخ جنسي وآثار—جنسية ونبات—جنسي ورياضيات—جنسية.

وعين العوائد (النياكوسا والكوسا) ولكنها تعيش بمعزل عن هذه التيارات، لم تبلغ مرحلة الملكية (٢٣). وقد نحاول أن نستنتج من ذلك شبه «قانون» انتروبولوجي أو سوسولوجي سياسي. ثم إن بنيات القرابة قد ينجم عنها عدد من الآثار الهامة في تحديد التطور التاريخي. فإذا التقت مجموعتان من اللغات المتباينة، فإن لغة القرآن بينها تقرر اللغة التي يكون لها التفوق، إذ أن لغة الأم لا يمكن أن تتغلب إلا إذا اتخذت النسوة زوجات لا اماء وجواري. وهكذا فإن المجموعات «نقوفي» تحتفظ بلغتها الأصلية، بينما فقد البعض الآخر ممن اتخذوا أزواجاً «سوتو»، لغتهم لفائدة السوتو. كذلك شأن رعاية الفلانيين القادمين من مسينا ومن فوطا جالون الذين تزوجوا منديقات وأنشأوا مقاطعة «واسولو» فلم يبق لهم من الفلانيين سوى الاسم، وسوى بعض الملامح الطبيعية، فلقد أضاعوا لغتهم الأصلية لفائدة المالكيني أو (بمبرا).

إن أهم مصادر التاريخ الإفريقي التي أشرنا إليها آنفا ليس بالامكان تصنيفها مسبقاً حسب سلم قيم يمكن أن يفضل باستمرار واحدة أو أخرى من بينها، ومن الواجب أن ننظر في كل حالة على حدة، فليس الأمر، أمر شواهد من أجناس متباينة تبايناً تاماً، إذ أن كل ذلك يستجيب لتعريف الاشارات التي أتت من الماضي، حاملة الرسالات، فهي إذن ليست محايدة بل هي تجسم نوايا صريحة أو ضمنية.

وهكذا تخضع جميع هذه المصادر للنقد المنهجي بحسب الصور، فقد يخل كل منها المحل الأفضل، وقد يؤدي كل منها إلى الأنواع الأخرى. فالخبر الشفاهي مثلاً، كثيراً ما ساق إلى موقع أثري، بل في وسعه أن يوازن بين بعض الوثائق المكتوبة.

فالمؤرخ الكبير ابن خلدون مثلاً في كتابه «تاريخ البربر» يقول عن سندجاتا: «وخلفه ابنه منسا والي، ومنسا في لغتهم الكتابية تعني سلطان، والي يقابل علياً» بينما يفسر التقليديون اليوم «منسا والي» بمعنى «الملك ذو البشرة البيضاء».

### المبادئ الأربعة الكبرى

وإذا ما أردنا أن نحدد حداً جديداً للجهة الرائدة في تدوين التاريخ الإفريقي، لابد أن يتحكم في البحث أربعة مبادئ كبيرة.

أولاً: اشتراك الاختصاصات وهو من الأهمية بدرجة تجعلنا نعتبره في ذاته مصدراً متميزاً. فالسوسولوجيا السياسية إذا طبقت على الرواية الشفاهية في مملكة سيقو فهي تثير النظرة اثرأ عظيماً، ولولاها لاقتصرت على خطوط هزيلة من شجرة نسب عليها بعض المآثر المتحجرة. ويلوح الشعب والتداخل بين بنيات مقولبت على الهيمنة القديمة (النموذج المالي) وعلى واقعها الملموس الحي. وفي بلدان الدلتا النيجرية تمكنت الروايات الشفاهية من اكمال عوامل النهضة التي طالما اقتصرت على تأثيرات تجارة النخاسة وزيت النخيل. فثمة علامة وطنية سابقة، من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، حتى لاغوس وحتى بلد اجويشهد بها الخبر الشفاهي المؤيد، والذي أغنته بكيفية عجيبة تلميحات (بشيكوبريرا) في الاسمرلندو (٢٤).

(٢٣) انظر طومسون، ١٩٦٩، ص ٧٢ - ٧٣.

(٢٤) انظر ج. الاقوا، ١٩٧٣.

عنصر من الانتروبولوجيا الثقافية (النص التعليمي للرعاة الفلانيين) (٢٥) هو الذي يمكن بعض الاختصاصيين به ما قبل التاريخ من التفسير الصحيح، لالغاز (رسوم) التاسيلي وما فيها من حيوانات بدون أرجل في اللوحة المدعوة، الشور ذو الافعوان، وحرف « U ». السحري لأوان درباوان الخ..

وبعد فاصل يزيد عن ١٠٠٠ سنة نرى طقوس اليوم تساعد على معرفة الأخوات الخمس الخرافية من أصل سبعة أبناء للجد الكبير كيكالا، وتطبيقها على الراقصات الخمس البديعة في لوحات جبارين.

ان انتشار البنتو- الذي تشهد به مصادر متطابقة من اللسنية والخبر الشفاهي وعلم الآثار والانتروبولوجيا، وأولى المصادر المكتوبة بالعربية والبرتغالية والانكليزية والافريقية، يصبح واقعا ملموسا يمكن أن يرتب ضمن تأليف، تتدقق حروفه عند تلاقي هذه المستويات المختلفة، وتتلاقى حجج اللسنية أيضا مع حجج التكنولوجيا لتؤكد انتشار الصنوج الملكية والنواقيس المتزاوجة للزينة في المناطق الممتدة من افريقيا الغربية الى الزاير السفلى والشحبا وزامبيا. ولكن ثمة براهن أثرية قد تأتي بالطبع بحجج كبيرة القيمة. وتشتد الحاجة الى تكتل المصادر اذا كان الأمر يتعلق بضبط الصعوبات المتعلقة بتاريخ الأحداث. اذ لا يتوفر لنا دائما تحديد التاريخ بطريقة الفحم ١٤. على أنه ينبغي أن تفسر هذه الارشادات وأن تقابل مع معطيات أخرى كالمعادن والفخار (مواد ونماذج)، وليس لدينا دائما شبه ما يوجد في شمال التشاد (٢٦) من أكوام عظيمة من كسور الفخار، تمكننا من انشاء نموذج لسلم زمني على ستة مستويات. وثمة دلالة رائعة تأتي عن تضايف كل المصادر المتوفرة، تمكننا من وضع علم أشكال متطور لأساليب الرسم والفخار. وذلك بمقابلة بعضها ببعض، كي تتضح سلسلة زمنية تمتد عبر ثمانية آلاف من السنين. كل ذلك تدعمه أسبار لدراسة الطبقات وتؤيده تأريخات الفحم ١٤، ودراسة النبات والحيوان والمسكن والرواية الشفاهية (٢٧).

ان خارطة الكسوفات المؤرخة والمرئية بحسب المناطق، قد تمكن من الوقوف على توافقات عجيبة اذا ما كانت هذه الأحداث مرتبطة بملك سلالة واحدة من سلالات الملوك، ولكن التاريخ عادة لا يدرك الا بتعبئة الكثير من المصادر خاصة، وان معدل طول سلطة أو جيل قد تدخل عليه تغيرات، وأن طبيعة العلاقة بين الملوك وأعقابهم ليست دائما واضحة، واذ أن مدلول لفظ ابن ليس دائما بيولوجيا بل اجتماعي، وقد يعطي الملك الواحد أحيانا ثلاثة أو أربعة أسماء أو «القاب»، وكما هو الأمر عند الهبا تندمج قائمة المرشحين الى السلطة مع قائمة الرؤساء.

ودون أن ننقص من قيمة تسلسل الأحداث، الذي هو العمود الفقري للمادة التاريخية ودون أن نتخلى عن الجهود المبذولة في سبيل ارسائه على قواعد متينة، نتساءل مع ذلك ما اذا كان من الضروري أن نقع أسرى مرض الدقة مهما كانت التكاليف، اذ سيؤول الأمر الى خطر الوقوع في الدقة المخطئة؟ لماذا نحصر على كتابة عام ١٠٨٦ كتاريخ لسقوط كمي صالح، بينما نستطيع أن

(٢٥) انظر مباتي وجرمان ديتزلان، ١٩٦١.

(٢٦) انظر ايف كورنس، ١٩٦١ ص ١٢٩ وما بعدها.

(٢٧) أ. بايود، ١٩٦١ ص ٥١ وما بعدها.

نقول «في نهاية القرن الحادي عشر»؟ اذ ليس لكل التواريخ عين القيمة، وما يتطلب حدا من التدقيق، يختلف من حادث الى آخر ويجب أن لا نجعل من كل حدث صنما.

وعدا ذلك فانه من الضروري ان يرجع تيار السياق التاريخي كله في اطار الزمن الافريقي. وليس لهذا حساسية مرفهة ازاء تركيب معطى الحادث ليصبح تركيبا مفصليا ضمن سلسلة من الأحداث ينشئ أحدها الآخر بموجب السببية والعلية. نعم، ان للافارقة رأي في الزمن مركّز على مبدأ العلية، الا أن هذا المبدأ يطبق حسب نظم طريقة تسري فيها عدوى الخرافة في السلوك المنطقي وتشيه، ولا يخلق فيه الطور الاقتصادي الابتدائي الحاجة الى الزمن المرقم، وهي المادة الأولية للربح، وحيث ايقاع الأعمال والأيام تصبح توقيتا كافيا للنشاط البشري، وتكون فيها التقاويم التي ليست مجردة ولا عالمية تابعة للظواهر الطبيعية (هلال، شمس، جفاف) ولحركات الحيوانات والناس، وتحدد كل ساعة بأعمال محسوسة، ففي برندي مثلا: في امكاننا (وقت الحلب: تكون الساعة السابعة) وفي متوروكا (وقت خروج القطعان: هو الساعة الثامنة) وفي كواساز (انتشار الشمس: في الساعة التاسعة) وفي كوماساز (اذا امتدت الشمس على الهضاب: فيعني ذلك الساعة العاشرة) الخ.. وفي هذا البلد الريفي يحدد الوقت بحياة الرعي والفلاحة، وفي غيره من البلدان تسمى الأطفال بيوم ميلادها وبالحادث الذي سبقه أو تلاه، ومسلمو افريقيا الشمالية قد يسمون أولادهم بأسماء الأشهر التي ولدوا فيها: رمضان، شعبان، مولود.

وهذا التطور الزمني، تاريخي من عدة جوانب، وفي المجتمعات الافريقية الخاضعة لسلطة الشيخ، فكرة الاسبقية في الزمن لها معنى أرجح مما في غيرها، فعليها وحدها تعتمد الحقوق الاجتماعية، كالخطبة في الناس والمساهمة في رقصة مخصصة، وتناول بعض الأطعمة، والزواج واحترام الغير الخ. واذا لم يكن للوليد الأول حق مقصور عليه في خلافة الملك، يكون عدد المرشحين (أعمام، اخوة، أبناء) عددا مرتفعا دائما وللسن دور في المزاومة المفتوحة، مما يجعل للتوقيت والتاريخ أهمية متزايدة، وليس من الضروري أن نعرف أنه ولد في سنة كذا بل المهم أن يثبت الشخص أنه ولد قبل فلان. ولا تتوحد المراجع الدقيقة في المجتمعات الأكثر اتساعا وعمومية.

وليس مفهوم الزمن الاجتماعي جامدا، إذ انه في سياق الفلسفة الافريقية في حركية كل العالم، يكون الأمر دائما أن ينمي الفرد شكله الحيوي، وهو اجتماعي الى أعلى درجة، وهذا ما يتضمن فكرة الرقي في المجموعة وبواسطتها كما يقول بكري ديان: «حتى بعد موتي سيضاف الى اسمي».

وفي بعض اللغات فان اللفظ الواحد (بونيا مثلا بالبهرا) يدل على عدة معان تدل على العطاء المادي والشرف والنمو.

وحسب الفصول كثيرا ما يعتمد على المشاهدة الفلكية بالنسبة الى سلسلة من المكوکبات كالدب الأعظم، فعند الكومو (الزايير الأعلى) تشبه الثريا بسلة من السواوير، مما ينبئ بزمن شحذ هذه الأدوات لاستصلاح الحقول. وعند الحاجة صار مفهوم الزمن هذا ألصق بالر ياضيات: فحزات من أخشاب خاصة تحفظ كوثائق في كهوف بلدة دوغون، ووضع حبة من التبر كل عام في آنية من

قصدير في معبد العروش في مملكة بونومانسو، أو حصاة في جرة في بيت الملوك في بلد مندنج، دون أن نذكر بالطبع الآثار الجليية في مصر الفرعونية وفي الممالك الإسلامية (كالموحدين مثلاً). وإذا ما ذكرنا صعوبة تحويل متتالية من عصور الملوك إلى متتالية من التواريخ، وحتمية الوقوف في نقطة ثابتة تتخذ معلماً، لاحظنا أن هذه النقطة في أغلب الأحيان هي معلم خارجي مؤرخ، مثال ذلك هجوم اشنطي على بونومانسو.

إن استعمال الكتابة والدخول في الديانات المعممة عالمياً، والتي كانت لديها، تقاوم تقف عند نهاية محددة، كما أن الدخول في عالم المردود وتجميع المال، كل ذلك قد غير شكل مفهوم الزمن التقليدي إلا أن هذا المفهوم كان يوافق في عصره، موافقة جيدة، حاجيات المجتمعات المعنية بالأمر. ومن اللازم الحتمي أيضاً أن ينظر إلى هذا التاريخ من الداخل، انطلاقاً من قطب أفريقي، لا أن يقاس باستمرار بمقياس القيم الأجنبية، إذ أن الوعي الذاتي وحق التمييز مبدآن مسبقان وجوبيان لتكوين شخصية جماعية مستقلة.

ولا شك أن اختيار البحث الذاتي ونظرته، لا تعني أن يقطع قطعاً اصطناعياً ما بين إفريقيا وبين القارات الأخرى من العالم القديم والجديد من ارتباطات تاريخية، إلا أن هذه الارتباطات سيتم تحليلها على أنها تعويضات تبادلية، وتأثيرات متعددة الجوانب، ستتجلى فيها المساهمات الإيجابية لأفريقيا في تطور البشرية. والنظرة التاريخية الأفريقية لن تكون نظرة انتقام أو نظرة الرضى عن النفس. بل هي ممارسة حيوية للذاكرة الجماعية تسمح حقل الماضي لتتعرف فيه على جذورها الذاتية.

وبعد العديد من النظرات الخارجية وحتى الاشرطة المعاصرة التي كونت لأفريقيا صورة نموزجية، تتفق مع المنافع الخارجية، فإن الوقت قد حان لكي تنتشر النظرة الداخلية المتمثلة بالذاتية والأصالة والوعي «عزود إلى الوطن» كما يقول جاك برك، كدلالة على الرجوع إلى المصادر. وإذا ما نظرنا إلى قيمة الفعل والاسم في إفريقيا حيث يكاد اسم الشخص أن يصير ملكه، كما أن الأشخاص المحترمين (الأب، الزوج، الملك) كان يشار إليهم بمجل أو بألقاب. بهذا ندرك لماذا كانت سلسلة المسببات كلها وسلسلة التصورات ومجموعة الصيغ المتحجرة والأشكال الذهنية المتعلقة بتاريخ إفريقيا، تتبع الاستلاب الأكثر نفاذاً. فمن اللازم هنا أن نشور ثورة كوبرنيكية حقيقية، تبسّد المعنى، فهي وإن لا تنكر متطلبات العلم العالمي، تسترجع صبغة هذه القارة التاريخية في قوالب جديدة (٢٨).

كما سجل ج. مكيزي منذ سنة ١٨٨٧ بالنسبة إلى الطسوافا (بوتسونا). كم من شعوب لم يذكر أحد اسمها بل لم تتفوه به هذه الشعوب نفسها ولا غيرها من الشعوب الأفريقية. لقد مرت هذه الشعوب بمحنة الاستعمار، وخرجت منه إلى الاستلاب. والطريق الأقوم للخروج منه نهائياً، أن تكتب أكثر فأكثر كتب التاريخ الأفريقية باللغة الأفريقية، وهذا يتطلب منا إصلاحات أخرى في

(٢٨) انظر في هذا المعنى البرهان المفيد الذي أدلى به أ. أ. كنجوين، ١٩٦٧. انطلاقاً من المقارنة بين نظام الآبي (الأسرة الموسعة) الذي قد يكون مصدر سلطة الدولة على الأسر، وبين النظام الديمومي الرامي إلى ملائمة النخاسة بواسطة ملكية قوية على الأفراد، وهو يفسر الخلاف بين النظامين، انظر أيضاً ب. فرنان ١٩٧٤ ص ١٥٦: «الحدث الخاتم خيال، واللغة التي تبدل عليه هي نظرية الحديث».

هيكلك الكتاب. فكم من كتاب في تاريخ افريقيا لم يمدنا بأكثر من بضعة عشرة من صفحاته في تاريخ فترة ما قبل الاستعمار، بتعلة أننا لا نعرف الماضي كما ينبغي، فنقف مباشرة من «العصور الحالكة» الى سائح مكتشف عظيم، أو الى حاكم ترعاه العناية من اله نجم فجأة، فعنده يتبدى التاريخ الحق، اذ قرر أن يكون ماضي افريقيا كله ضربا من قبل التاريخ المخجل. نعم ليس الشأن أن ينكر ما كان للتأثيرات الخارجية من عمل اسراع أو تفجير، فادخال الاسلحة النارية مثلا في القرن السادس عشر الى السودان الأوسط، جعل للمشاة المكونين من العبيد الأولوين هيمنة على الحيلة الاقطاعيين. كان هذا التحول أثره في بنية السلطة في السودان الأوسط، فحل الملك الكسيلا أو الكيغما من اصل العنبيد، محل الوزير الشريف سيروما، الا أن التفسير الآلية المعتمدة على التأثيرات الخارجية (يدخل في ذلك مساند الرؤوس) والمقابلات الاتوماتيكية، بين التأثيرات الخارجية وحركات التاريخ الافريقي، لا بد أن تنبذ وأن يقام بتحليل دقيق جدا لابرار التناقضات والحركات الوطنية (٢٩).

ثم ان هذا التاريخ لن يكون الا تاريخ الشعوب الافريقية في مجموعها، باعتباره كلا يشمل الكتلة القارية، والجزر المجاورة لها، كمدغشقر حسب تحديد وثيقة «منظمة الوحدة الافريقية». يضم تاريخ افريقيا بالطبع قطاع البحر الأبيض المتوسط في وحدة أقرتها كثرة الروابط منذ آلاف السنين (أحيانا دامية) ولكن في غالب الأحيان أغنت بعضها البعض، فجعلت من افريقيا على ضفتي مفصل الصحراء مصرعي باب واحد ووجهي ميدالية واحدة. وهوتاريخ للشعوب، اذ نرى في افريقيا أن استبداد بعض الأسر المالكة نفسه قد خففت منه دائما المسافة وانعدام الوسائل التقنية التي تزيد ثقل التمرکز خطرا، كما خففت منه استمرار الديمقراطية القروية، فن جميع المستويات، من القاعدة الى القمة، يلتئم المجلس من النقاش من أجل النقاش وهو يمثل عقل الجسد السياسي، هوتاريخ شعوب، اذ فبا عدا العشریات المعاصرة، لم يتقو لب هذا التاريخ ضمن الحدود التي أقرها الاستعمار وذلك لان المجال الجغرافي للشعوب الافريقية تجاوز من كل جانب، الحدود الموروثة عن التقسيم الاستعماري. لنأخذ مثلا من بين ألف مثل، السنوف المنتشرين على جزء من مالي ومن ساحل العاج ومن فولتا العليا. وفي الاطار القاري العام يجب التأكيد على العوامل المشتركة الناجمة عن أصول مشتركة ومن مبادلات جهوية خلال آلاف السنين موضوعها الرجال والبضائع والصنائع والافكار، وبعبارة واحدة، الحريات المادية والفكرية.

فرغم العقبات الطبيعية ورغم ضعف مستوى الصناعات، كان من قبل التاريخ ثمة تضامن تاريخي قاري، بين وادي النيل والسودان حتى الغابة الغينية، وبين وادي النيل نفسه و افريقيا الشرقية، ومع الأحداث انتشر اللولو بين السودان و افريقيا الوسطى، وتفرق البنو بين واجهة المحيط الاطلسي والساحل الشرقي بواسطة التجارة عبر القارة من خلال السحابة.

(٢٩) انظر. س. س. لاو. يفسر المؤلف انحطاط ايدوبالاعتماد على التوترات الداخلية بين الأصناف الاجتماعية التي كان لها مطمح في السلطة: العبيد، عمال الالافنع (الملك) في المقاطعات، المقاطعات في الحكم الثلاثي من الحصيان الملكيين (من الوسط، ومن الجين، ومن اليسار).

ينبغي أن لا تحلل ظواهر الهجرة على مدى كبير في الزمان والمكان كتيار جارف لكتل متدفقة يجلبها الخلاء أو يتكون الخلاء عقب مرورها. وحتى «الساقا» المتهاطلة في شاكا والمفكان فلا يمكن تفسيرها بهذه الصبغة فقط، وصعود جموع نحو الشمال (فولطا العليا) انطلاقا من داقوما ومبروسي (غانا)، انما تم بجماعات من الخيالة تملكوا المناطق مرحلة مرحلة، الا أنه لم يكن في وسعهم أن يقوموا بعملهم هذا الا بالاتحام مع أهالي المناطق عن طريق الزواج من نسايتهم. والامتيازات القضائية التي كانوا يمنحونها أنفسهم بعثت بسرعة على نشرة عادة تشرط وجوههم (وهو ضرب من التعريف بالهوية) يتسم على العديد من الوجوه، استطاعت لغتهم ونظمهم الأولية أن تمحي تلك التي للشعوب الأخرى، بينما بقيت عادات، تتصل مثلا بالطقوس الزراعية أو التي كانت ترتب حقوق الإقامة، بقى ذلك بأشراف، رؤساء الارض المحليين، وانتظمت علاقات «القربة بالمداعبة» مع بعض الشعوب التي صادفتها في طريقهم. والفتاح العظيم «موسى» أبرى كان من قبل أيضا «هجيناً» وصورة التطور بالامتصاص هذه لابد أن يحل محلها في الغالب السناريو الرومنتي البسيط للزحف الكاسح والمغرب، كما صور طويلا وبصورة خاطئة استيلاء بني هلال على شمال افريقيا. ان تطرفات الانثروبولوجيا الطبيعية ذات الآراء المسبقة العنصرية، قد ألقي بها اليوم ظهر الحائط المؤرخون الجديون، ولكن «الحامين» وغيرهم من «الأجناس السمر» الذين افترض وجودهم لأسباب ما، تخامرهم السرابات وأوهام عقلية أصبحت علمية.

يقول هرنيو (٣٠) في نص مهم: «لا يمكن أن يكون مثل هذا وحدة دراسية بيولوجية فلا يؤلف الفلانيون مجموعة بيولوجية بل ثقافية، وأقرب أقرباء الفلانيون في جنوب الكرون مثلا، من الناحية البيولوجية، هم الهيا في تنزانيا. وأما القربة البيولوجية بين المغاربة والورسالي بالصومال، فهي وراثية من جهة كما هي ناشئة عن البيئة الحيوية المتشابهة التي تتحكم فيهم بيئة السهوب القاحلة».

ولا تخلو المعطيات البيولوجية بالذات والتي أدخل عليها الانتقاء أو التغير الوراثي من الاضطراب المستمر منذ آلاف السنين، لذلك لا تشكل مرجعا ثابتا للتصنيف، كذلك الأمر فيا يخص المجموعة الدموية، وتكاثر (العنصر الوراثي) الذي يحدد خضابا دمويا مشوها اذا ما أشرك مع عنصر وراثي طبيعي ضاعف المقاومة ضد حمى الملاريا. وهذا هو الدور الرئيسي الذي تقوم به المواعة مع الوسط للطبيعي. مثلا أن القامة الطويلة والوركين الاعرضين تتطابق مع المناطق ذات الجفاف القوي والحرارة الشديدة. وعلى هذا الاساس فان شكل الجمجمة الأكثر ضيقا وارتفاعا (ذات الشكل المستطيل) هو مواعة تمكن من امتصاص الحرارة بكيفية أقل. ان لفظ القبيلة (٣١) اذن سوف يهجر ما أمكن ذلك فيا عدا بعض الجهات في افريقيا الشمالية، سوف يهجر عند كتابة هذا التاريخ بسبب ما احيط به من مدلولات. الاحتقار وما يثيره من أفكار مخطئة، وكثيرا ما أكد على أن القبيلة

(٣٠) ج. هرنيو، ١٩٧١، الصفحة ٥٣ وما بعدها.

(٣١) ان لفظ (قبيلة) باللغة العربية يدل على مجموعة من الأشخاص تربطهم أواصر النسب الى جد مشترك ويمشون على أرض محددة. وعند الشعوب السامية (العرب - البربر - الخ) يبقى للانساب أهمية بالغة. والقبيلة وتعني بالفرنسية (TRIBU)، قد لعبت في تاريخ كثير من بلاد شمالي افريقية وما زالت تلعب أحيانا دورا هاما لا يمكن اغفاله. ولكني نغظ هذه الكلمة مدلولها التاريخي والاجتماعي الثقافي، فاننا سنستعملها كما هي في صورتها الأصلية.



هي أساسا وحدة ثقافية وأحيانا سياسية، ولكن بعضهم يستمر على رؤيته لها كرصيد بيولوجي متميز، ويبرز ما في الحروب القبلية من قساوة، تلك الحروب التي كانت تنتهي غالبا ببضع عشرات من الضحايا أو أدنى، بينما هم يتعاملون عن كل التبادلات الإيجابية التي ربطت بين الشعوب الأفريقية، في المستوى البيولوجي والصناعي والثقافي والديني والاجتماعي والسياسي، مما يضيف على الآثار الأفريقية صبغة عائلية لا شك فيها.

وينبغي أيضا أن يتجنب هذا التاريخ أن يكون تاريخ أحداث فقط، فيكون اذاك عرضة لأن يبرز ابرازا مفرطا، التأثيرات والعوامل الخارجية. نعم، ان اقرار الأحداث الموجهة عمل أساسي لا بد منه حتى لاظهار الملامح الاصلية للتطور الأفريقي. ولكن ما هو أهم أن يتجه الى الحضارات والمؤسسات والبنيات التقنية والزراعية والمعدنية، والى الفنون والصناعات التقليدية، الى الدورات التجارية وتطورات السلطة وتعديلاتها، الى المعتقدات والرأي الفلسفي أو الديني، والى مشكلة التقنية والمعاصرة عند الأقوام وما قبل الأقوام. ويتطلب هذا الاختيار المنهجي تطلبا أقوى فكرة تعدد الاختصاصات.

وفي النهاية، لماذا هذا الرجوع الى المصادر الأفريقية؟ فلئن كان البحث عن هذا الماضي بالنسبة الى الأجانب، لمجرد ارضاء حاجة حب الاطلاع لديهم أو لممارسة رياضة فكرية منشطة لعقل متلهف، لاستجواب أي اهل، فإنه ينبغي أن يتجاوز هذا المشروع هذه النظرات الفردية. فتأريخ أفريقيا ضروري لادراك التاريخ العالمي الذي سيبقى عدد من لوحاته الغائرا قاتمة، ما لم ينيره الأفق التاريخي للقارة الأفريقية.

وعلى المستوى المنهجي فان صياغة التاريخ الأفريقي حسب الانماط الواردة في هذا المجلد، من شأنها أن تدعم خطة اتباع التاريخ التام المكتشف في كل مستوياته وكل أبعاده، بواسطة مجموعة أدوات البحث الموجودة الممكنة.

وهكذا سيصير التاريخ ذلك النهج السمفوني الانسجام حيث تعطى فيه الكلمة بصورة متوافقة لجميع أنواع الاختصاص، ويتحول اقتران الأصوات الفريد النوع حسب مواضيع البحث وحسب أوقاته كي توافق متطلبات الخطاب.

ولكن اعادة تشييد البناء بعد فنائه، ذلك البناء الذي كان في الماضي من حجارة حية، يهم أيضا وبالذات الأفارقة الذين يجدون فيه مصلحة محسوسة، والذين يلجون هذا الميدان بعد أن حرموا منه طيلة قرون أو عشرات السنين من الحرمان، شأنهم شأن المنفي الذي يكتشف، في وقت واحد، الخطوط الجديدة والقديمة لمشهد الوطن الذي يخن اليه، لأنه سبق أن أقام فيه.

ان من عاش بدون تاريخ عاش على شكل حطام أو لنقل عاش كمن يحمل جذور غيره، أو هو كمن تخلى عن أن يكون هو ذاته، جذرا لغيره ممن يأتي بعده؟ وهو وسط خضم التطور البشري يرتضي بدور مجهول الاسم، دور كغلق البحر أو أحادية الخلية. فعلى رجل الدولة الأفريقي أن يهتم بالتاريخ كجزء أساسي من التراث القومي، هو وصي عليه، خاصة وانه لن يكون بوسعه أن يتعرف على سائر البلدان الأفريقية من خلال منظور الوحدة الأفريقية الا بالتاريخ.

على أن هذا التاريخ ضروري للشعوب نفسها وهو حق أساسي لها، وعلى الدول الأفريقية أن تكون جماعات تعمل على انقاذ أقصى ما يمكن من الآثار التاريخية قبل أن يفوت الأوان، ولا بد من

إنشاء متاحف ومن سن قوانين لحماية المواقع التاريخية والأشياء. ويجب أن تمنح المنح لتكوين علماء في الآثار، ويجب أن تحور المناهج والشهادات طبقاً لمنظور افريقي. فالتاريخ منهل يمكننا أن لا نرى فيه خيالنا فحسب، وأن نتعرف على نفوسنا منه، بل ان نرتوي ونجدد القوى لتحقيق التقدم ضمن قافلة الرقي البشرية. وإذا كانت تلك غاية تاريخ افريقيا هذا، فالبحث المضني الممل وما يتخلله من تجارب قاسية، سوف يكشف بلا شك عن طريق بحث مثمر غني عن ايجاءات متعددة الأشكال.

وتحت رماد الماضي الهامد، تتحرك دائماً في موضع ما، شرارات تحمل نور البعث.

## الفصل الأول

# تطوير التدوين التاريخي في أفريقيا ج. د. فاج

ان أولى محاولات تأريخ افريقيا هي قديمة قدم بداية التاريخ المكتوب. فؤرخو عالم البحر الأبيض المتوسط القديم ومؤرخوا الحضارة الاسلامية في العصر الوسيط، اتخذوا كلهم اطارا معتمدا هو مجموع العالم المعروف، وكان يشمل جزءا هاما من افريقيا. وكانت افريقيا الكائنة شمال الصحراء جزءا لا يتجزأ من هاتين الحضارتين، وكان ماضيها واحدا من مواضيع اهتمام مؤرخيهن بنفس قوة اهتمامهم بأوروبا الجنوبية والشرق الأدنى، بل ان تاريخ افريقيا الشمالية بقي قسما أساسيا من الدراسات التاريخية حتى امتداد الامبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر.

واثر حملة نابليون بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨ صارت افريقيا الشمالية من جديد حقل دراسات لا يستهان به تولاه المؤرخون. ومع انتشار السلطة الاستعمارية الأوروبية على افريقيا الشمالية الذي أعقب الاستيلاء على الجزائر من قبل الفرنسيين سنة ١٨٣٠، واحتلال مصر من قبل البريطانيين سنة ١٨٨١، سادت أعمال تأريخ شمال افريقيا وجهة نظر أوروبية استعمارية، على أنه منذ سنة ١٩٤٠ ظهرت حركة التجديد في الاسلام، وانتشر التعليم على النمط الاوربي في مستعمرات شمالي افريقيا، ونشأت حركات قومية شمالي افريقيا. كل ذلك أدى لظهور مدارس محلية للتاريخ، كانت تحررلا بالعربية فحسب، بل وبالفرنسية والانكليزية فحققت لافريقيا الشمالية التوازن في الدراسات التاريخية.

فهذا الفصل سيهتم اذن بصورة أولية بتدوين التاريخ في افريقيا الغربية والوسطى والشرقية والجنوبية. ورغم كون المؤرخين الكلاسيكيين والمؤرخين الاسلاميين في العصر الوسيط، لم يعتبروا افريقيا الاستوائية عديمة الاهتمام، فان آفاقهم كانت محدودة، اذ كانت الاتصالات التي من

الممكن أن تكون لهم معها قليلة، عبر الصحراء نحو الحبشة أو بلاد السودان أو على طول سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي، حتى الحدود التي كانت تسمح بها البحارة الموسمية. ان أخبار المؤرخين القدماء، لا سيما فيما يخص افريقيا الغربية، كانت ضئيلة متفرقة. فهيرودوت ومنيتون وبلين القديم واسترابون وآخرون غيرهم، لم يسردوا باختصار الا عن رحلات قليلة أو زحف عبر الصحراء، أو أسفار بحرية على سواحل المحيط الأطلسي، على أنه أثبتت حول صدق بعض هذه الأحاديث جدالات حادة بين الاختصاصيين. وأما الارشادات المعهودة عن البحر الأحمر والمحيط الهندي فلها أساس أكثر جدية، إذ من المحقق أن تجار البحر الأبيض المتوسط وعلى الأقل تجار الاسكندرية، قد نشروا التجارة على هذه الشواطئ. «فرحلة بحر ارتريا» (حوالي سنة ١٠٠+) وآثار كلود بطليموس (حوالي ١٥٠+) (ولكن يبدو أن النص الذي وصلنا منها يتعلق أكثر بتاريخ يقارب عام ٤٠٠+). وأعمال كوزماس هنديكوبلوس (٦٤٧+)، هي المصادر الرئيسية للتاريخ القديم في افريقيا الشرقية.

ولقد كان المؤلفون العرب أكثر اطلاعا، في عصرهم كان استخدام الجمل من قبل شعوب الصحراء قد سهل انشاء تجارة منظمة مع افريقيا الغربية، وامتداد تجار شمالي افريقيا في أهم مدن السودان الغربي، ومن جهة أخرى فقد تطورت التجارة مع الجزء الغربي من المحيط الهندي، حتى أن عددا عظيما من تجار جزيرة العرب ومن الشرق الأدنى، انتشروا على طول السواحل الشرقية من افريقيا.

فالآثار التي قدمها أمثال المسعودي (المتوفي حوالي ٩٥٠+) والبركي (١٠٢٩-١٠٩٤) والادريسي (١١٥٤) وياقوت (حوالي ١٢٠٠) وأبي الفداء (١٢٧٣-١٣٣١) والعمري (١٣٠١-١٣٤٩) وابن بطوطة (١٣٠٤-١٣٦٩) والحسن بن محمد الوزان المعروف في أوربا باسم ليون الافريقي حوالي (١٤٩٤-١٥٥٢) لها أعظم الأهمية لاعادة بناء تاريخ افريقيا، ولا سيما تاريخ السودان الأوسط، خلال فترة تتراوح تقريبا بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر الميلادي.

على أنه مهما كانت هذه الأعمال مفيدة للمؤرخين المعاصرين، فإنه يشك أن نعتبر أحدا منهم أو من الدارسين السابقين، من المؤرخين الرئيسيين لافريقيا. فعظم ما يقدمه كل منهم وصف لجهات افريقيا حسب معلومات أمكنهم جمعها في العصر الذي كتبوا فيه. ولا وجود لدراسة نظامية للتغيرات التي طرأت عبر العصور، وهذا هو الهدف الحقيقي للمؤرخ. وحتى الوصف الوارد لديهم، لم يكن متزامنا فعلا، فإن صبح أن بعضا من المعلومات كان معاصرا للكاتب، فإن أجزاء أخرى، وإن اعتبرت حقيقية في عصر الكاتب، فإنها قد استمدت من تقارير سابقة. و يعاب أيضا على هذه الكتابات أنها عامة، لا تحوي أي وسيلة تساعد على تقويم الخبر، ومعرفة ما إذا كان الكاتب قد تلقاها من ملاحظته الشخصية أم من ملاحظة مباشرة لمعاصره، أو هل هو يروي فقط، ما شاع في عصره، أو يروي رأي مؤلفين سابقين. و يقدم ليون الافريقي مثلا مفيدا في هذا الشأن، فهو نفسه مثل ابن بطوطة ارتحل في افريقيا، ولكن، خلافا لابن بطوطة، ليس من يقين البتة، أن ما يورده من خبر مستمد من ملاحظاته الشخصية.

وقد يكون من المفيد هنا أن نشير إلى أن لفظ «تاريخ» ليس مما لا يداخله الالتباس. ومدلوله المتداول اليوم يمكن تعريفه على أنه عرض منهجي لأحداث فترة محددة، ولكنه أيضا من الممكن أن يعرف حسب التعريف القديم «من أنه: وصف منهجي للظواهر الطبيعية» وهذا المعنى، أساسا، استخدم في العنوان المحدد بالانكليزية في كتاب ليون الأفريقي (ليون الأفريقي: التاريخ الجغرافي لأفريقيا - وبالفرنسية: وصف إفريقيا) ويبقى هذا المعنى صحيحا حقا اليوم في العبارة القديمة. التاريخ الطبيعي (وقد كان فعلا عنوان كتاب بلين).

لكن من بين مؤرخي إفريقيا الأوائل هناك مؤرخ هام جدا، مؤرخ عظيم بأتم معنى الكلمة، هو ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) فلو كان معروفا أكثر عند العلماء الغربيين، لاضطروا أن ينزعوا عن هيرودوت لقب «أب التاريخ». وابن خلدون من شمالي إفريقيا، ولد في تونس. وقد خصص قسما من كتابه عن إفريقيا (١) وعلاقتها بسائر شعوب البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى. وحسب فهمه لهذه العلاقات، استقرى ابن خلدون مفهوما للتاريخ، جعل منه ظاهرة دورية يستولي فيها أعراب السهوب والبدو على الأراضي الزراعية من الشعوب المستقرة، ويركزون فيها ممالك فسيحة، وبعد ثلاثة أجيال تقرىبا تفقد حيويتها وتصير هي نفسها معرضة لغزوات جديدة من قبل أهل البادية، وهذا بالفعل نموذج صالح لقسم كبير من تاريخ إفريقيا الشمالية. واستعمل مؤرخ عظيم هو مارك بلوك (٢)، آراء ابن خلدون ليبدل بتفسير وضاء لتاريخ أوربا في بداية القرون الوسطى. وابن خلدون يتميز عن معاصريه، ليس لكونه ارتأى فلسفة للتاريخ، بل لأنه أيضا أو بالأخص لكونه خلافا لهم، لم يكن يرتبط بذات الوزن وذات القيمة، بنبد الأنجبار التي كان بإمكانه الحصول عليها عن الماضي، وكان يعتبر أنه من الواجب الاقتراب من الحقيقة خطوة خطوة عن طريق النقد والقياس.

وابن خلدون في الواقع مؤرخ عصري شديد المعاصرة، ونحن مدينون له بما يكاد يكون تاريخ إفريقيا الاستوائية بالمعنى العصري، فبوصفه من شمالي إفريقيا وكذلك — ورغم جدة فلسفته وطريقته — لكونه كان يعمل في إطار التقاليد القديمة المتوسطة والاسلامية، انه لم يتخل عن الاهتمام بما كان يجري وراء الصحراء، فثمة باب من أبواب مؤلفه (٣) هو في الواقع تاريخ امبراطورية مالي التي وصلت في عهده الأوج أو كادت. وهذا الباب كان يعتمد جزئيا على الرواية الشفاهية التي كانت تجري في عصره، ولهذا السبب فانه يبقى حتى اليوم، من المصادر الرئيسية لتاريخ هذه الدولة الإفريقية الكبرى.

ولم يكن في إمكان أي دولة عظيمة قوية مثل مالي، أو حتى الدول الأقل أهمية كممالك الهوسا الأولى أو المدن المستقلة على الساحل الشرقي الإفريقي، أن تحتفظ بهويتها وكما لها، بدون رواية معترف بها تتعلق بنشوتها وتطورها، ولما اجتاز الاسلام الصحراء وانتشر على طول الشاطئ الشرقي

(١) أهم المعروض عن إفريقيا توجد في مؤلفه الأعظم، المقدمة (ترجمة فرنسية لفسنان مونتال) وفي جزء من تاريخه الذي ترجمه دي سلاين بعنوان «تاريخ البربر».

(٢) انظر مارك بلوك ١٩٣٩، ص ٩١.

(٣) في ترجمة م. ج. دي سلاين المعنون «تاريخ البربر» (١٩٢٥ - ١٩٥٦) يقع هذا الباب في الجزء ٢، ص ١٠٥ - ١١٦.

آتيا معه بالكتابة العربية، أضاف سود الأفارقة الى الوثائق الشفاهية استعمال النصوص المكتوبة التي كانت بين أيديهم للحفاظ على تاريخهم. ومن بين النماذج الأولى من هذه المؤلفات التاريخية التي نعرفها اليوم، فإن أنجحها قد يكون كتاب «تاريخ السودان» و«كتاب تاريخ الفتاش» (٤) وقد كتبا في معظمهما، في تنبكتو خلال القرن السابع عشر.

وفي كليهما يعرض المؤلفان أحداث عصرهما والفترة السابقة له، مباشرة، مع عديد من الارشادات الجزئية غير غافلين عن تحليلها وتفسيرها، ولقد قدما هذه العروض النقدية، بإشارة تتعلق بالروايات الشفوية المتعلقة بعهود أقدم، فكانت النتيجة لا تقتصر على تاريخ امبراطورية صنغاي وعلى فتحها واستيلاء المغاربة عليها فحسب، بل كانت محاولة لتعيين ما كان مهما في تاريخ المنطقة السابق، ولا سيما في تاريخ الامبراطوريات القديمة بغانة ومالي.

لهذا يتعين تمييز توارخ تمبكتو على سائر المؤلفات التاريخية القديمة المكتوبة بالعربية من قبل أفارقة، كالتي تعرف باسم «تاريخ كانو» و «تاريخ كلوا» (٥) فهي تروي لنا تسجيلات كتابية مباشرة لروايات بقيت ولا شك، متداولة شفاهيا حتى ذلك العصر. وإن يبدو أن ترجمة تاريخ كلوا قد استغله المؤرخ البرتغالي دوبروس في القرن السادس عشر. وليس ما يدل أن تاريخ كانو كان موجودا قبل بداية القرن التاسع عشر تقريبا.

ومن الجدير بالذكر أن التوارخ العربية من هذا النوع، لم تقتصر حتما على أجزاء افر يقيا التي تم ادخالها في الاسلام. ففي وسط غانا الحالي مثلاً، قد انتج «كتاب الغنجة» في القرن الثامن عشر، ثم ان أبحاث العلماء الجديدة مثل أبحاث «افورولكس» قد كشفت عن مئات من المخطوطات العربية، أصلها من هذه المنطقة أو من الجهات المجاورة (٦)، ولا ننسى أيضا أن قسما من افر يقيا الاستوائية التي صارت اثيوبيا، كان له لغته الخاصة السامية، لغة الفيز في البداية ثم الأمهرية، وفيها حفظت تقاليد أدبية وتطورت طيلة ما يقرب من ألفي سنة. وما لا شك فيه أن هذه التقاليد أنشأت مصنفات تاريخية منذ القرن الرابع عشر مثل تاريخ حروب أمدا سيون (٧). ولم تظهر المصنفات التاريخية في اللغات الافريقية الأخرى، كالهوسا والسواحلي، وهي الكتابات المختلفة عن الكتابات العربية المستوردة، ولكنها تستعمل حروفه، الا في القرن التاسع عشر.

وشرع الأوربيون في الاتصال بالجهات الساحلية من افر يقيا الاستوائية في القرن الخامس عشر، فنتج عن ذلك بسرعة، انتاج أدبي يوفر مواد ثمينة جدا للمؤرخين المعاصرين. ووقع الاهتمام

(٤) ترجم تاريخ السودان الى الفرنسية وعلق عليه أ. هوداس (١٩٠٠) وتاريخ الفتاش لمؤلفيه هوداس وم. دولافوس (١٩١٣).

(٥) توجد ترجمة انكليزية لتاريخ كانولدي ه. ر. بلير: مذكرات سودانية (١٩٢٨) مجلد ٣، ص ٩٢ — ١٣٢، ومن تاريخ كلوامندج س، ب وفرين فرنيل «الساحل الشرقي الافريقي» (١٩٦٢) ص ٣٤ — ٦٩.

(٦) عن كتاب الغنجة ومجموعة المحفوظات العربية بغانة المعاصرة، انظر نهين لفتز يون «المسلمون والرؤساء في غرب افر يقيا» ١٩٦٨، خاصة الصفحات ١٥ — ٢٢، وافرولكس «نشأة التعليم الاسلامي في غانة» مجلة تاريخ الاجتماع، نيجيريا، ٤ (١٩٦٣) ص ٤٠٩ — ٤١٧، وطوماس هدككين «التقاليد الادبية الاسلامية في غانة» ولدي أ. م. لويس (مؤلف كتاب) الاسلام في افر يقيا الاستوائية (١٩٦٦) ص ٤٤٢ — ٤٦٠.

(٧) توجد عدة ترجمات لهذا الكتاب ولا سيما واحدة بالفرنسية قام بها ج. قروشون في المجلة الاستوائية ١٨٨٩.

خاصة بأربع جهات من إفريقيا الاستوائية: السواحل الغينية في إفريقيا الغربية، وجهة الزاير الأدنى والانقولا، ووادي الزمبار المرتفعات المجاورة له، وأخيرا أثيوبيا. وتوغل التدخل في أراضي هذه الجهات الثلاث الأخيرة، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، ولكن كما كان الأمر بالنسبة الى المصنفين السابقين الاتباعيين أو العرب، لم تكن النتيجة دائما ومباشرة، القيام بتأليف كتب عن تاريخ إفريقيا.

إن ساحل غينيا هو أول ما اكتشفه الأوروبيون من إفريقيا الاستوائية، وألفت في شأنه عدة كتب منذ عام ١٤٦٠ تقريبا (كادامستو) حتى بداية القرن الثامن عشر (بربو وبسمان)، وكان للكثير من هذه المواد قيمة تاريخية كبرى، إذ توفر شهادات عيان مؤرخة، فيمكن بها أن تعين عددا كبيرا من العلاقات ذات الصبغة التاريخية.

كما اشتملت هذه الكتب على كميات من المواد التاريخية (أي مما لم يكن معاصرها) وبخاصة عند دبر (١٦٨٨) الذي لم يسلك مسلك غيره من المؤلفين في الملاحظة المباشرة، بل اقتصر على جمع روايات غيره. إلا أن الغرض الأساسي لدى هؤلاء المؤلفين جميعا، كان يتمثل في وصف الحالة المعاصرة، في كتابة التاريخ. بيد أننا اليوم فقط، وقد تم احياء قسم كبير من تاريخ إفريقيا الغربية أصبح بإمكاننا أن نقدر أقوال هؤلاء المؤلفين حتى قدرها (٨).

وأما في سائر الجهات التي أعارها الأوروبيون اهتماما في القرنين السادس عشر والسابع عشر، فقد كانت الحالة على خلاف ذلك قليلا، ولعل هذا ناشىء عن كونها كانت مجال نشاط المبشرين الأولين، بينما كان المحرك الأساسي للآوربيين في غينيا هو التجارة. فطالما كان الافارقة يوفرون للآوربيين من الهضائع ما يبتغون اقتناؤه، كما كان الأمر بصورة عامة في غينيا، لكن ما كان بوسع التجار أن يشعروا بدافع نحو ما يغير المجتمع الإفريقي بل اقتصروا على ملاحظته، على نقيص المبشرين الذين كانوا يحسون الى حد ما بوجود القيام بتاريخ إفريقيا. ففي أثيوبيا كانت الأسس موجودة من قبل، وكان بالإمكان استغلال التواريخ وسائر كتابات البلاد، وشرع رائدان جليلان من المبشرين في كتابة تاريخ أثيوبيا، هما بدرو بايز (ت ١٦٢٢) ومانول الميدي (١٥٦٩ - ١٦٤٦) كما ألف تاريخ كامل بقلم أحد المستشرقين الآوربيين الأولين جوب لودلف (١٦٢٤ - ١٧٠٤) (٩).

وفي وادي الكونغو السفلي والانقولا، كما في وادي الزمبار وحواليه، كانت المصالح التجارية بدون شك أقوى من مصالح التبشير. ولم يكن المجتمع التقليدي الإفريقي بمجملة، مستعدا دون ضغط قوي، لأن يوفّر للآوربيين ما كانوا يبتغون، فنتج عن ذلك أن أرغم بكيفية مأسوية على التغيير، فلم يكن بمقدور المحاولات الوصفية نفسها إلا أن تصبح الجانب التاريخي. وثمة عناصر مهمة للتاريخ

(٨) رخلات كاد أمستو، ج. ر. كرون (١٩٣٧)، جون بربو (١٧٣٢) وويليام بسمان (نشرة معلق عليها ١٩٦٧).

(٩) في كتاب س. بكاري: الامور الاثيوبية في الكتابات الغربية غير المنشورة (روما ١٩٠٥ - ١٩١٧) يجل كتاب بايز في المجلدين الثاني والثالث وكتاب الميدا في المجلدين ٥ و٧. وتوجد ترجمة جزئية انكليزية لالميدا في س. ف. بكنهام وجوب هنتفورد: بعض ذكريات اثيوبيا (١٥٩٣ - ١٦٤٦) (١٩٥٤) ونشر تاريخ اثيوبيا للودلف في فرنكفورت سنة ١٦٨١.

توجد فعلا في كتب مؤلفين من أمثال، بقاقتا ولوبيز (١٥٩١) وكافاتزي (١٦٨٧)، ونشر كادور يقا سنة ١٦٨١ تاريخ الحروب الانغولية (١٠).

ومنذ القرن الثامن عشر يبدو أن افريقيا الاستوائية نالت من المؤرخين الأوربيين ما تستحق من الاهتمام، وكان بالامكان مثلا أن يستغل الكتاب السابقون الذين يغلب على أسلوبهم الوصف كمصادر تاريخية، أمثال ليون الافريقي ودبر، بحيث تمكنت كتب التاريخ والجغرافيا العامة في تلك المدة، كالتاريخ العالمي المنشور بانكلترا بين ١٧٣٦ و ١٧٦٥، الذي أمكن أن يخصص لافريقيا عددا من الصفحات لا يستهان به (١١).

ووجدت أيضا محاولات أحادية الموضوع «كتاريخ انقولا» بقلم سلفا كرين (حوالي ١٧٩٢) و«لمحة تاريخية عن غينيا» بقلم بنزيت (١٧٧٢) وكتابا تاريخ الداهامي: مذكرات ملك بُستا أهادي بقلم نريس (١٧٨٩) وتاريخ الداهامي بقلم دلزل (١٧٩٣)، الا أنه ينبغي الإشارة هنا الى أن كتاب سلفا كرين لم ينشر إلا خلال القرن الحاضر (١٢).

وأما الكتب الثلاثة المذكورة أعلاه، فأنها نشرت في ذلك العصر فذلك لأن في القرن الثامن عشر، بدأ الجدل يمتد حول نخاسة العبيد التي كانت العنصر الرئيسي في العلاقات بين أوربا وافريقيا الاستوائية منذ مائة وخمسين سنة على الأقل. فدلزل ونريس اللذان كانا يستغلان خبرتهما في تجارة العبيد في الداهامي كما فعل بنزيت، قد كانا يقومان بعمل مؤرخين، الا أن كتبها كانت تهدف الى توفير الحجج لمؤيدي أو معارضي الغاء تجارة الرقيق.

ولو كان الأمر بخلاف ذلك، لما وجدت هاته الكتب من يشتريها، اذ في ذلك العصر بدأ الاتجاه الرئيسي للثقافة الأوروبية يعتبر أكثر فأكثر المجتمعات غير الاوربية متخلفة. مصرحا أن ليس لها تاريخ يستحق أن يدرس. ونجمت عن هذه العقلية تيارات التفكير المنبثقة عن النهضة الأوروبية الى عصر النور وحتى الثورة العلمية والصناعية الزاهرة. فبالاعتماد على ما اعتبر تراثا موحدا، اغريقيا رومانيا، ظن المثقفون الأوروبيون أن أغراض مجتمعاتهم ومعارفهم وقوته وثورته، كان لها من السيطرة ما أوجب تقديم الحضارة الأوروبية على ما سواها. فكان تاريخه مفتاح كل معرفة وتاريخ، في سائر المجتمعات التي لم يكن لها قيمة. واتخذ هذا الموقف على الأخص ازاء افريقيا، وذلك أن الاوربيين، صاروا لا يعرفون افريقيا والافارقة الا من زاوية تجارة الرقيق، بينما كانت هذه التجارة عينها هي التي تسببت في فوضى اجتماعية تتفاقم أكثر فأكثر في العبيد من أقسام القارة.

وحدد هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) هذا الموقف صراحة في كتابه «فلسفة التاريخ» الذي يحتوي على تأكيدات من هذا النوع: «ليست افريقيا قارة تاريخية، اذ لا تبدي تغييرا ولا تطورا». والشعوب السود (ليس في وسعهم أن يتطوروا ولا أن يتأدبوا، نراهم نحن اليوم على هذه الحال، وهم كانوا دائما كذلك). ومن الجدير أن نلاحظ أنه منذ سنة ١٧٩٣ رأى المسؤول عن نشر كتاب دلزل أنه من اللازم أن يبرر نشر تاريخ للداهامي. فيقف موقف هيجل نفسه و يصريح: «لندرك حقا

(١٠) أ. دي ليفيرا دي كادورفا: التاريخ العام للحروب الانكليزية شرح م. دلقادو وأ. داكنا (لشبونة ١٩٤١ - ١٩٤٢).

(١١) تشمل نشرة «التاريخ العالمي» على ٢٣ مجلدا خصص ١٦ منها للتاريخ المعاصر ومن بين هذه اثنان لافريقيا.

(١٢) لشبونة ١٩٣٧.



الطبيعة البشرية، لا بد من أن نشق طريقا عبر تاريخ أكثر الأقوام نخوشنا [...] ولا سبيل الى الحكم على قيمة الثقافة في تقوم السعادة البشرية، الا بمقارنات من هذا النوع» (١٣). وتأثير هيجل المباشر على تحرير تاريخ إفريقيا كان ضعيفا، ومع ذلك فإن الرأي الذي كان يظهره، استقاه أصحاب الرأي التاريخي المستقيم في القرن التاسع عشر. وهذا الرأي الذي أكل عليه الدهر وشرب، والذي يفتقد الى مستند، مازال له حتى اليوم أنصار. أفلم يصرح أستاذ تاريخ معاصر في جامعة أكسفورد: «قد يصير في المستقبل تاريخ يدرس لإفريقيا، أما اليوم فليس لها تاريخ، وهناك فقط تاريخ الأوربيين في إفريقيا. وما عدا ذلك ظلمات. وليست الظلمات موضوعا للتاريخ. افهموني جيدا، اني لا أنكر أن أناسا قد أوجدوا حتى في البلدان الحالكة والعصور القاتمة، كما لا أنكر أنه كان لهم حياة سياسية وثقافة مفيدة لعلماء الاجتماع والانتروبولوجيا، ولكني أعتقد أن التاريخ أساسا هو ضرب من الحركة، بل من الحركة المصودة. وهو ليس مجرد أشباح أشكال وعادات متحولة ومعارك وغزوات، وأسر مالكة واغتصابات وبنيات اجتماعية وتفكك اجتماعي...»

لقد كان يعتبر أن «التاريخ بل دراسة التاريخ، ترمي الى هدف. فنحن ندرسه [...] لنكتشف كيف وصلنا الى ما وصلنا اليه» و يضيف قائلا: أن العالم الحاضر تسيطر عليه أفكار أوربا الغربية وتقنياتها وقيمها سيطرة تجعل تاريخ أوربا وحده هو الذي يعتد به، على الأقل خلال القرون الخمسة الأخيرة، وبقدرا لتاريخ العالم من أهمية. فلا يمكننا إذن أن نسمح لأنفسنا «أن نتسلى بحركات لا جدوى من ورائها لقبائل بربرية في مناطق جميلة في العالم، لكن لم يكن لها أي أثر على ما عداها» (١٤) ومن عجائب الصدف أنه في حياة هيجل، شرع الأوربيون في اكتشاف إفريقيا اكتشافا حقيقيا عصريا علميا، وشرعوا هكذا في وضع أسس للتقوم المنطقي لتاريخ المجتمعات الأفريقية وما حققته من أعمال، وكان هذا الاكتشاف مرتبطا من جهة برد الفعل ضد الرق وتجارة العبيد، وبالمزاخمة على الأسواق الأفريقية من جهة أخرى.

وكان بعض من الأوربيين الأولين يحدوهم حب صادق للاطلاع على ما في امكانهم ان يقفوا عليه من ماضي الشعوب الأفريقية، يجمعون المواد التي يعثرون عليها من وثائق مكتوبة ان وجدت، أو من روايات شفاهية وشواهد من آثار الماضي يكتشفونها. وكان انتاج هؤلاء المكتشفين عظيما واشتمل بعض أجزائه على التاريخ بأدق معانيه، وفي جملته كون مادة كبيرة القيمة للمؤرخين الذين أتوا بعدهم. ومن بين قائمة قصيرة للعناوين، يمكن أن نذكر: رحلات لاكتشاف منابع النيل بقلم جيمس بروس (١٧٩٠)، والفصول التاريخية في روايات زيارة كوماسي، عاصمة الأشنتي بقلم ت. أ. بوديش (مهمة من ساحل كواس الى اشنتي) (١٨١٩) وبقلم جوزيف دوبوي (مذكرات اقامة في اشنتي ١٨٢٤) وكتاب هنريش بارث (١٨٥٧ - ١٨٥٨)، (ووثائق التاريخ والجغرافيا والتجارة في إفريقيا الشرقية) بقلم م. قلان (١٨٥٦) والصحراء والسودان بقلم قسطنطين (١٨٧٩ - ١٨٨٩).

(١٣) ارشيبالد دازل: تاريخ الداهامى ١٧٩٣، ص ٥.

(١٤) هذه الاستشهادات مقتبسة من ملاحظات عرض أول محاولة لسلسلة من الدروس ألقاها الأستاذ أوغ طريفور هو برحول «ظهور أوروبا المسيحية» انظر: المستمع ٢٨ - ١١ - ١٩٦٣، ص ٨٧١.

ان طريق نشأتنا استمر متبعاً في طور جديد تماماً من تاريخ إفريقيا، طور شرع فيه الأوروبيون في غزو القارة والهيمنة على سكانها. وكان يبدو أن هذا السلوك يتطلب تبريراً أخلاقياً، واذاك دعمت الآراء الهيكلية بتطبيق مبادئ داروين.

وكان لهذا التطور نتيجة عرضية تمثلت بظهور علم جديد، هو الانثروبولوجيا وهو طريقة غير تاريخية لدراسة الثقافات ومجتمعات الشعوب «البداية» وتقييمها، أولئك الذي لم يكن لهم «تاريخ يستحق الدرس» أولئك الذين «أدنى من الأوروبيين، وكان من السهل التمييز بينهم وبين هؤلاء بلون بشرتهم».

ومن المفيد أن نذكر هنا مثل ريشارد برتن (١٨٢١ - ١٨٩٠) فهو من أكبر الرحالة الأوروبيين في إفريقيا في القرن التاسع عشر، وقد كان فكرياً منيراً مثقفاً متوقفاً دائماً ومستشرقاً جليلاً. وكان سنة ١٨٦٣ من مؤسسي الجمعية الانثروبولوجية اللندنية (التي صارت فيما بعد المعهد الانثروبولوجي الملكي)، ومع ذلك فإن مسلكه الذي اتسم به كان أكثر نقداً من مسلك نشأتنا، أصبح نهاية الاستكشاف العلمي لإفريقيا بدون فكرة مسبقة، ذلك الاستكشاف الذي بدأ مع جيمس بروس. فتجد مثلاً في كتابه مهمة إلى سليلي، مسلك الداهمي (١٨٦٤) «خروجاً ملحوظاً عن الموضوع في موقع الزنجي في الطبيعة» (وفي الامكان أن يسجل أنه لم يقل «موقع الزنجي في التاريخ»)، ونستطيع أن نقرأ جلاً مثل هذه: «ان الزنجي المحض يحل في الاسرة البشرية تحت العرقين العظيمين العربي والآري» (على أن معظم معاصريه كانوا يرتبون هذين الأخيرين ترتيباً معاكساً).

و «الزنجي في الجملة، لن يتحسن ولن يتجاوز نقطة معينة لا تستحق الاحترام، وهو يبق من الناحية الذهنية صبيلاً...» (١٥) وعبثاً كان بعض المثقفين الافارقة يقومون بالرد، أمثال جيمس إفريقانز هرتن، عند جدله مع أعيان أعضاء الجمعية الانثروبولوجية اللندنية.

وزاد الطين بلة بالنسبة إلى تاريخ إفريقيا، أن ثمة مفهوماً لمهنة المؤرخ قد ظهر في ذلك العهد، ولا سيما في ألمانيا حيث صار التاريخ، لا فرعاً من الأدب أو الفلسفة، بل علماً يعتمد على التحليل الدقيق للمصادر الأصلية. فبالنسبة إلى تاريخ أوروبا بالطبع، كانت هذه المصادر في معظمها كتابية، وكانت إفريقيا تلوح في هذا المجال ضعيفة ضعفاً ملحوظاً. ولقد عرض هذا المفهوم بدقة، للاستاذ أ. ب نيوتن سنة ١٩٢٣ في محاضرة أمام الجمعية الافريقية الملكية في لندن وموضوعها «إفريقيا والبحث التاريخي»، فصرح ان «إفريقيا لم يكن لها تاريخ قبل قدوم الأوروبيين». وبدأ التاريخ حين يشرع الإنسان في الكتابة. ان ماضي إفريقيا قبل بداية الامبريالية الأوروبية لا يمكن احياؤه اذن الا «بالاستناد إلى شواهد البواقي المادية من لغات وعادات بدائية» وهي أمور لا تهتم المؤرخين بل تهتم علماء الآثار واللغويات وعلماء الانثروبولوجيا (١٦).

على أن نيوتن نفسه كان هامشياً نوعاً ما بالنسبة إلى مهنة المؤرخ كما تصورها هذا العصر. وطيلة قسم كبير من القرن التاسع عشر، كان بعض المؤرخين البريطانيين الاجلاء أمثال جيمس اسطيطن (١٧٨٩ - ١٨٥٩) وهرمن مريفال (١٨٠٦ - ١٨٧٤) وج. أ. فرود (١٨١٨ - ١٨٩٤)

(١٥) نفس المرجع أعلاه، طبعة ١٨٨٣، مجلد ٢، ص ١٣١ و ١٣٥.

(١٦) إفريقيا والبحث التاريخي مجلة الجمعية الافريقية، ٢٢ (١٩٢٢ - ١٩٢٣).

وج. ر. سيللي (١٨٣٤ — ١٨٩٥) (١٧) قد اهتموا أكثر بنشاطات الاوربيين (او على الاقل بنشاطات مواطنيهم) في بقية أنحاء العالم. وخلف «سيللي» كأستاذ تاريخ معاصر كمبريدج، لورد اكن (١٨٣٤ — ١٩٠٢) الذي درس في المانيا، فشرع حالا بانجاز «تاريخ كمبريدج المعاصر» فنشر أجزاءه الأربعة عشر فيا بين ١٩٠٢ و ١٩١٠. وركز هذا المؤلف على أوروبا بحيث تجاهل كلية تقريبا، حتى نشاطات الاوربيين في العالم. ثم أصبح التاريخ الاستعماري عموما، بيد رجال أمثال السير شارل لوكاس أو ثيريال هانوتو في فرنسا (١٨) اللذين اشتغلا أول أمرهما بالشؤون الاستعمارية كما فعل اسطيفين ومارفال وفروود.

بيد أن التاريخ الاستعماري أو الامبريالي ولو كان هامشيا بالنسبة للمهنة، أصبح مقبولا مع الأيام، «فتاريخ كمبريدج الجديد المعاصر» شرع في نشره منذ ١٩٥٧ بإشراف السير جورج كلارك، فخصص بعض الفصول لافريقيا وآسيا وأمريكا في كل مجلداته الاثني عشر، ولكن من جهة أخرى أثريت مجموعة تاريخ كمبريدج في تلك الفترة، بسلسلة تاريخ كمبريدج للامبراطورية البريطانية (١٩٢٩ — ١٩٥٩) وكان نيوطن واحدا من مديريها المؤسسين. ولكنه يكفي أن نلقي نظرة سريعة على هذا المؤلف، كي نشاهد أن التاريخ الاستعماري حتى بالنسبة لافريقيا، يختلف جدا عن تاريخ افريقيا.

ومن ضمن مجلدات هذا التاريخ الثمانية، خصصت أربعة لكندا واستراليا ونيوزيلندا الجديدة والهند البريطانية. و يبقى ثلاثة مجلدات عامة موجهة توجيها قويا نحو السياسة الامبريالية، (فن ضمن ٦٨ فصلا توجد أربعة فصول فحسب تتعلق مباشرة بالعلاقات بين انكلترا و افريقيا) ومجلد واحد خصص لافريقيا الجنوبية، أي الزاوية الوحيدة من افريقيا جنوبي الصحراء التي استقر فيها المستعمرون الأوربيون، استقرارا قويا. ويكاد هذا المجلد بأكمله — وهو أضخم المجلدات حجما، أن يكون مخصصا لشؤون هؤلاء المستعمرين الاوربيين المتشعبة، منذ وصول الاولين منهم سنة ١٦٥٢. وأما الشعوب الافريقية التي تشكل معظم السكان فلقد حشرت في فصل تهديدي (ليس هو تاريخي أساسا) حرره عالم اجتماعي انثروبولوجي، وفي فصلين كتبها مؤرخان من جنوبي افريقيا، هما الأشد تبصرا في جيلهما وهما، س. و. دو كيفيت و. و. م. مكيلان، ومع ذلك فهما ينظران الى الأفارقة، بالضرورة من خلال رد فعلهم ازاء الحضور الاوربي. وهكذا فإن تاريخ افريقيا، كان يبدو باختصار في مجموعات معلمية ضخمة، ومن ذلك كتاب «شعوب وحضارات» تاريخ عام في ٢٠ مجلد، نشر بباريس ١٩٢٧ — ١٩٥٢؛ وج. قلوتر نشر التاريخ العام ١٠ مجلدات بباريس ١٩٢٥ — ١٩٣٨، وبروبيلان ولتافشخت — ١٠ مجلدات برلين ١٩٢٩ — ١٩٣٣، وتاريخ العالم مختصر

(١٧) كان اسطيفين موظفا في المكتب الاستعماري من ١٨٢٥ الى ١٨٤٧ وأستاذ تاريخ معاصر بكمبريدج من ١٨٤٩ الى ١٨٥٩، أما مريفال فكان أستاذ الاقتصاد السياسي باكسفورد قبل أن يخلف اصطفين كاتبا أعلى دائما، في المكتب الاستعماري (١٨٤٧ — ١٨٥٩)، وقضى فروود معظم حياته باكسفورد حيث كان أستاذ التاريخ المعاصر من ١٨٩٢ الى ١٨٩٤ ولكنه أرسل في السبعينات للكتابة الاستعمارية بافريقيا الجنوبية، وكان سيللي أستاذ تاريخ معاصر بكمبريدج من ١٨٦٩ الى ١٨٩٥.

(١٨) كان لوكاس موظفا بالمكتب الاستعماري البريطاني من ١٨٧٧ الى ١٩١١، وارتق حتى درجة مساعد الكاتب الأعلى، ثم حصل على منصب في السوال كوليديج باكسفورد. وكان لهنوتو (١٨٥٣ — ١٩٤٤) مسلك مزدوج، فكان سياسيا ورجل دولة لعب دورا مهما في الشؤون الاستعمارية والخارجية منذ سنة ١٨٩٠، ومؤرخا انتخب بالأكاديمية الفرنسية.

ولتأقشخت في ١٠ مجلدات برن ١٩٥٢؛ «فاسمرناجا اسطوريا = تاريخ عالمي، ١٠ مجلدات، موسكو ١٩٥٥، ونشر الايطالي س. كنتي روسني برومة سنة ١٩٢٨ كتابا ضخما عن تاريخ اثيوبيا. لقد كان المؤرخون الاستعماريون المحترفون اذن ككل المؤرخين المحترفين عامة، مقيدون بمفهوم للشعوب الافريقية في جنوب الصحراء، مفاده أن لا تاريخ لهم جدير أن يدرس أو يستحق الدرس. وكما رأينا أن نيوطن كان يعتبر هذا التاريخ مجالا لاختصاص علماء الآثار واللغويين والانثروبولوجيين، وإن صح أن علماء الآثار كالمؤرخين يهتمون بموجب مهنتهم بماضي الانسان والمجتمعات، فهم مع ذلك لم يجتهدوا اجتهدا يفوق كثيرا اجتهد المؤرخين، ليستخدموا مهنتهم في البحث عن تاريخ المجتمع البشري في افريقيا جنوبي الصحراء، وفي توضيحه. ولذلك سببان رئيسيان:

أولا: ان أحد الاتجاهات الرئيسية لعلم الآثار الذي كان يتمخض إذاك، كان يعلن أنه، كالتاريخ توجهه أساسا المصادر الكتابية، فكان يقتصر على مسائل من نوع مسألة البحث عن موقع مدينة طروادة القديمة، أو على رصد أحداث لم تعرفها بعد المصادر الأدبية المتعلقة بالمجتمعات القديمة في اليونان وروما ومصر، وكانت معالمها الرئيسية مصادر تأملات طويلة قرون، فكان، ومازال غالبا، مرتبطا ارتباطا وثيقا بفرع المهنة التاريخية المعروف باسم التاريخ القديم. وكثيرا ما ينصرف الى البحث عن الكتابات القديمة وحل رموزها، أكثر من انصرافه الى العثور على ذخائر أخرى. ونادر جدا - كما في اكسوم وزمباواي وحول موقعهما أن اعترف أن في افريقيا على جنوب الصحراء معالم لها من الأهمية ما من شأنه أن يلفت نظر هذه المدرسة الاثرية. ثانيا: ان ثمة نشاطا أساسيا آخر للبحث الأثري كان يتمركز حول أصول الإنسان، من خلال منظور جيولوجي أكثر منه تاريخي ازاء ماضي الإنسان. نعم إن قسما كبيرا من هذا البحث تجمع في النهاية في افريقيا الشرقية والجنوبية، على اثر أعمال علماء أمثال ل. س. ب ليكي وريموند دارت. إلا أن هؤلاء كانوا يبحثون عن ماض متوغل في القدم، مما يصعب معه التأكيد من أن المجتمع كان موجودا، وكان عادة هوة مفتوحة على الفرضيات، بين المستحاثات التي كانوا يكشفون عنها، وبين السكان المعاصرين الذين كان في وسع المؤرخين أن يدرسوا ماضيهم.

فبينما كان علماء الآثار والمؤرخون في جملتهم حتى الخمسينات يعتبرون أن افريقيا على جنوب الصحراء لم تكن لتليق بهم، فإن عظيم الاختلاف في نماذجها الطبيعية ومجتمعاتها ولغاتها لفت حتما انتباه الانثروبولوجيين واللغويين كلما شرعت اختصاصاتهم في التقدم، وكان بالامكان لزمن طويل أن يبقى أحد النوعين أو الآخر، علماء في بيت مغلق ولكن رجالا أمثال برتن وس. و. كوال (تعدد اللغات الافريقية ١٨٥٤) قد برهنوا مبكرا على قيمة للعمل الميداني، وكان الانثروبولوجيون خاصة، هم رواد ذلك في افريقيا. ولكن الانثروبولوجيين أو اللغويين، خلافا للمؤرخين والاثريين لم يحسوا بضرورة الكشف عما جرى في الماضي، ووجدوا في افريقيا كثرة من الأحداث تنتظر فقط من يصفها ويرتبها ويحللها مما كان يمثل عبئا ثقيلا، وكثيرا ما كانوا لا يهتمون بالماضي بقدر ما كانوا يحاولون أن يشيدوا من جديد تاريخا كانوا يظنون أنه قد يوجد عند أصل الأحداث المجموعة، وأنه قد يفسرها.

ولكنهم لم يكونوا يفتنون الى أي حد كانت هذه التشييدات تخمينية خيالية، ومن الأمثال الدراسية مثل العالم الانتروبولوجي س. ج. سليقمان الذي كان يكتب بفظاظة في كتابه (عروق افريقيا) الذي أصدره سنة ١٩٣٠: «ان حضارات افريقيا هي حضارات الشاميين وتاريخها هو تاريخ هذه الشعوب، وعلاقتها المشتركة مع العرقين الافريقيين الآخرين، الزنوج والبسمان...» (١٩).

ويستنتج أن «هذين العرقين الافريقيين الآخرين» في مرتبة متخلفة، وان كل النجاحات التي قد تكون قد أنجزتها هي من اثر «الشاميين» الذين أثروا فيها تأثيرا قويا أضعيفا. وفي موضع آخر من هذا الكتاب يتحدث سليقمان عن قدوم رعاة «شاميين» موجة بعد موجة «أشد سلاحا وأذكى في آن واحد» من «المزارعين الزنوج المتأخرين» الذين كانوا يؤثرون فيهم (٢٠). ولكنه في الواقع لا يوجد أي برهان تاريخي مهما كان يؤيد التصريحات القائلة «ان الحضارات الافريقية حضارات أبناء الشام» أو أن الترقيات التاريخية التي أنجزتها افريقيا على جنوب الصحراء تعزى اليهم وحدهم، أو حتى بصورة أساسية. ومن المؤكد أن الكتاب نفسه لم يأت بأي برهان تاريخي، وان الكثير من الفرضيات التي يستند اليها لا أساس لها كما ثبت ذلك فيما بعد. فقد بين ج. هـ. غرينبرغ نهائيا أن لا مدلول لألفاظ «شامي أو شامييتي» ماعدا في أحسن الحالات كونها مصطلحات لتصنيف لغوي (٢١).

لا شك أن ليس هناك ارتباط لازم بين لغة التخاطب عند شعب ما وبين أصل هذا الشعب العريق وثقافته، فمن ذلك أن غرينبرغ يذكر فيما يذكر هذا المثال البديع: «ان المزارعين الهوسا المتكلمين بلغة «شامية» هم تحت سلطة الرعاة الفلانيين المتكلمين بلغة نيجر — كنغو» (أي لغة زنجية) (٢٢) ويدحض أيضا القاعدة الشامية في قسم كبير مما أعاد تشييده سليقمان من تاريخ السود الثقافي، في أجزاء أخرى من افريقيا، خاصة لدى السكان من ناطقي بنتو. ولئن اخترنا هنا سليقمان خاصة، فذلك لأنه كان من الشخصيات المرموقة في مهنته ببريطانية العظمى (ومن الأولين الذين قاموا بأعمال جديّة ميدانية في افريقيا) ولأن كتابه صار الى حد ما مصدرا اتباعيا وأعيد طبعه مرات عديدة، وفي سنة ١٩٦٦ عرضه اعلاميا على كونه «اتباعى في نوعه». ولكن اعتناقه لخرافة تفوق الشعوب ذات البشرة الواضحة على الشعوب ذات البشرة المظلمة، كان ليس الا جزءا من الآراء العامة المسبقة لدى الاوربيين في نهاية القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين. وكان الاوربيون يظنون أن ادعائهم التفوق على الافارقة السود، أيده الغزو الاستعماري. وفي العديد من الجهات بافريقيا ولا سيما في المنطقة السودانية وجهة البحيرات الكبرى، نرى الناس موقنين أنهم يتابعون نقل الحضارة التي بدأ بارسائها غزاة آخرون من اللون

(١٩) الكتاب المذكور ط. ١٩٣٠، ص ٩٦، وط ١٩٦٦، ص ٦١.

(٢٠) الكتاب المذكور ط. ١٩٣٠، ص ١٥٨، وط ١٩٦٦، ص ١٠١.

(٢١) ج. هـ. غرينبرغ ١٩٥٣ و ١٩٦٣ والواقع أن غرينبرغ كمعظم اللغويين المعاصرين يتجنب استعمال لفظ شامييتي و يضم اللغات التي كانت تسمى شامييتية مع اللغات السامية وغيرها في مجموعة تسمى الافرو-اسيوية أو اريتريّة، وهم لا يعرفون مجموعة شامييتية متميزة.

(٢٢) غرينبرغ ١٩٦٣، ص ٣٠.

الأبيض، يسمون في جملتهم «شاميين» (٢٣) ونجد نفس المعنى في عدد عديد من الكتب في هذه الفترة من ١٨٩٠ الى ١٩٤٠ تقريبا. تلك المصنفات التي تشتمل على أكثر العناصر الجدية للتاريخ، كما لا يوجد في كتب سليقمان. وقد حرر هذه المؤلفات في الغالب رجال ونساء ممن ساهوا في الغزو أو الاستعمار، ولم يكونوا انثروبولوجيين ولا لغويين ولا مؤرخين محترفين، ولكنهم اهتموا صادقين بالمجتمعات الغريبة التي اكتشفوها، وودوا التعرف على المزيد من الارشادات عنها واعلام غيرهم بها، فكانوا هواة بأحسن معاني الكلمة: فالسير هنري جونستن وموريس دولافوس مثلا، قد ساهما فعلا بكيفية عجيبة في اللغوية الافريقية كما ساهما في عدد آخر من المجالات، ولكن الأول سمي دراسته العظيمة الجامعة «تاريخ استعمار افريقيا من العروق المستتلة» (١٨٩٩) نفخ وزيد فيه (١٩١٣). وفي الفروع التاريخية من دراسته العظيمة التي قام بها الثاني حول السودان الغربي، «السنغال الاعلى والنيجر» (١٩١٢)، يلوح الغرض العام حين يتعرض الى الهجرة اليهودية السورية لانشاء غانة القديسة، وفلورا شاو في كتابها (تبعية استوائية ١٩٠٦) كانت دهشة من مساهمة المسلمين في تاريخ افريقيا. أما مرجري برهام، صديقة لورد لوقارد وكاتبة تاريخ حياته، فانها تتعرض بألفاظ ملائمة الى «هذه الحركة الجلية في التاريخ، من أولى غزوات العرب لافريقيا الى غزوات قلدي ولوقارد» (٢٤).

وأخطأ تماما مؤرخ جيد هو، إيف ارفو في كتابه (تاريخ سكان السودان الأوسط ١٩٦٣ وتاريخ برنو ١٩٤٩)، في تفسير معنى التفاعلات بين رجل الصحراء والسود المستقرين، تلك التفاعلات التي يصفها بدقة، بينما يستمر السير رشمند بلمر (مذكرات سودانية ١٩٢٨ وصحراء برنو والسودان ١٩٣٦) وهو عالم آثار موهوب، على البحث عن دوافع عمل الشعوب النيجرية بعيدا في طرابلس أو اليمن.

على أن العلماء السوسولوجيين الانثروبولوجيين البريطانيين، تمكنوا بعد سليقمان تقريرا، من الانفلات من قبضة الفكرة الخيالية الشامية وساد تكوينهم منذ ذلك تأثير. ب. مالفينسكي وأ. ر. رد كلييف براون، وكانا مناوئين بحزم لكل ضرب من التاريخ المستند الى الفرضيات. وكانت الطريقة الوظيفية المدققة المتبعة في دراسة المجتمعات الافريقية من قبل علماء الانثروبولوجيا البريطانيين بين ١٩٣٠ — ١٩٥٠، تتجه نحو تثبيت الاهتمام التاريخي فيهم حتى ولو بفضل عملهم الميداني، فلقد كانوا في وضع استثنائي ملائم للحصول على المعطيات التاريخية. ولكنه بقي تقليد أقدم من الإثنوغرافيا على القارة الاوربية (وأیضا في أمريكا الشمالية ولو أن قليلا من علماء الانثروبولوجيا الأميركيين عملوا في افريقيا قبل سنة ١٩٥٠) تقليد يضم من بين خواصه أنه كان يعير الثقافة المادية من الانتباه أكثر ما يعيره للبنية الاجتماعية. فكانت نتيجة ذلك كمية كبيرة من الاعمال ذات الأهمية التاريخية ككتاب «ملك جندا»

(٢٣) من الطريف أن نلاحظ أن الطبعة الحالية المصلحة، أي الرابعة، من «عروق افريقيا» (١٩٦٦) يوجد فيها ص ٦١، جملة مهمة لا توجد في الطبعة الاصلية سنة ١٩٣٠، يحدد فيها الشاميون بكونهم «أوربيين»، أي أنهم ينتمون الى طين العرق العظيم من البشرية العرق الأبيض.

(٢٤) مرجري برهام: لوقارد، سنون السلطة (١٩٦٠) ص ٢٣٤.

لطور ارستام (١٩٤٤)، «وتجارة غينيا» للسير سند ستروم (١٩٦٥). على أنه مما يستحق خاصة مؤلفان (Völkerkunde Von Afrika) لهرمن بومن (١٩٤٠)، و «عمل افريقيا» لديدريش وسترم (١٩٥٢) الكتاب الأول هو دراسة موسوعية للشعوب والحضارات الافريقية التي اهتمت اهتماما كافيا بما عرف من تاريخها، ولا يقاس به أي مؤلف آخر في مجلد واحد. أما الكتاب الثاني: «افريقيا شعوبها وتاريخ ثقافتهم» (١٩٥٩) بقلم الانثروبولوجي الامريكاني ج. ب. مردوك فانه ضعيف المقارنة اذا أعوزت مؤلفه، في هذا المجال، تجربة زيارة مباشرة لافريقيا، كان من شأنها أن تمكنه من تقييم مواده، وكذلك لأنه تقدم أحيانا بصور تخيلية لها من التطرف في نوعها، ما لصور سليمان ولوانها أقل خبثا (٢٥). وأما وسترمان فقد كان خاصة لغويا، وكتابة عن تصنيف لغات افريقيا، هو في كثير من النقاط رائد لكتاب قرينبرغ. كما وفر لكتاب بومن قسما لغويا، الا أن كتابه (عمل — Geschichte Afrikas) قد أفسده من سوء الحظ النظرية الحامية وهو أيضا مجموعة ثمينة من الروايات الشفاهية الافريقية كما كانت موجودة في عصره.

ومن الممكن أن نضيف الى هذه الكتب كتاب ه. أ. ويشوف «ثقافة زمبواي ومنموتابا» (١٩٤٣)، على الاقل، لنقدم استاذة ليوفرو بينيوس. كان هذا عالم أجناس انثروبولوجي متخصصا في الثقافات، ولكنه أيضا عالم آثار ومؤرخ. وفي مدة نشاطه الموافقة تقريبا للاربعين سنة الاولى من القرن العشرين، كان بلا شك أحصى مؤرخي افريقيا نتاجا، فقام بعدد وافر من الأشغال الميدانية في كل أقسام القارة الافريقية تقريبا وعرض نتائجه في سلسلة منتظمة من المنشورات، ولكن قليلا من الناس من يطالعها اليوم. لقد كان يحرر بالالمانية وهي لغة تضاءلت قيمتها منذ ذلك الوقت بالنسبة الى افريقيا والاختصاصيين في الدراسات الافريقية. وقد ترجم عدد قليل من آثاره، وكثيرا ما يصعب نقل مدلولها اذ تتراكم فيها النظريات الخرافية المتعلقة بالاطلنتيد وبتأثير أترسكي على الثقافة الافريقية الخ...

في نظر المؤرخين وعلماء الآثار والانثروبولوجيين العصريين الذين نشأوا نشأة صارمة، يلوح فرو بينيوس عصاميا أصيلا، ولكن قيمة أعماله تتناقص ليس فقط بسبب تفسيراته المغامرة بعض الشيء، بل أيضا بطريقة عمله السريعة السطحية وأحيانا الهدامة، الا أنه حصل على نتائج، سبق البعض منها سبقا واضحا نتائج باحثين أشد علما أتوا بعده، والبعض الآخر قد يكون من الصعب أو المتعذر الحصول عليها في الظروف الراهنة. ويظهر أنه كان له بالطبع موهبة بل ثقة المخبرين لاكتشاف المعطيات التاريخية. وقد يكون المؤرخون العصريون ملهمين اذا بحثوا عن هذه المعطيات في

مؤلفاته وقوموها بحسب المعارف الحالية، متحررين من التفسيرات الاعتبارية التي كان يضيفها اليها (٢٦).

ومظاهر الطرافة التي تتميز بها عبقرية عصامية كعبرية فرو بينيوس التي كانت تستمد وحيها من ذاتها، كان لها من النتيجة أن دعمت المؤرخين المحترفين في ما كان لهم من رأي، من أن تاريخ افريقيا لم يكن حقلا مقبولا لمهنتهم، وعملت على غرض الطرف عن كثير من الاعمال الجدية التي تم القيام بها في الفترة الاستعمارية. ومن العوامل التي كان لها دور، زيادة اهتمام الاوربيين بافريقيا مما أعطى الافارقة أنفسهم صنوفا مختلفة من الثقافات المكتوبة، فكنتهم من التعبير عن اهتمامهم الذاتي بتاريخهم الخاص: وكان هذا هو الشأن خاصة في افريقيا الغربية، حيث كان الاحتكاك بالاوربيين أطول مدى وأبقى، وحيث وجد اقبال على العلم الاوربي منذ بداية القرن التاسع عشر، وبخاصة في الجهات التي صارت فيما بعد مستعمرات بريطانية. كما أن علماء طينكتو الذين اعتنقوا الاسلام شرعوا في كتابة تواريخهم باللسان العربي، أو بلغة أعجمي، كذلك في نهاية القرن التاسع عشر أحس الافارقة الذين تعلموا الأبجدية اللاتينية بالحاجة الى تسجيل معلوماتهم عن تاريخ شعوبهم بالكتابة خشية أن يتم استلاب الشعوب من قبل الاوربيين وتاريخهم.

ومن أشهر الآثار من هذا النوع، تلك التي كتبها أفارقة كان لهم نشاط كما كان لمصنفي التواريخ قبلهم — في دين الثقافة المستوردة، واشتقت منه أسماءهم، نذكر منها «تاريخ شاطئ الذهب وأسنت» لصاحبه كارل كريستيان ريندورف (١٨٩٥) «وتاريخ اليوربا» لمصامويل جونسون (تم سنة ١٨٩٧ الا أنه نشر سنة ١٩٢١) فكلاهما كتاب تاريخ جدي للغاية. وحتى اليوم ما من أحد في وسعه أن يقوم بعمل في تاريخ اليوربا بدون أن يرجع الى جونسون. ولكنه لا مناص بدون شك من أن تتبع محاولات في التاريخ من هذا المستوى، بأعمال رواد القومية الأولين ابتداء من ج. أ. ب. هرتن (١٨٣٥ — ١٨٨٣) وأ. و. بليدن (١٨٣٢ — ١٩١٢) الى ج. م. سرباج (١٨٦٤ — ١٩١٠) وج. أ. كازلي هيفرد (١٨٦٦ — ١٩٣٠) وج. ب. دنكه (١٨٩٥ — ١٩٦٥) الذين تناولوا العديد من المسائل التاريخية. ولكن غالبا لأغراض دعائية. ولعل ج. و. دوكرفت جونسون، (بين القومية في افريقيا الغربية) (١٩٢٨)، (الجغرافيا التاريخية لساحل الذهب) (١٩١٩) وأ. ج. ب. براون (قارئ ساحل الذهب وأسباننت) (١٩٢٩) ينتميان الى كلا النوعين: ولكن فيما بعد يلوح أحيانا في بعض الأعمال اتجاه الى تمجيد الماضي الافريقي لمقاومة وهم التفوق الثقافي الأوربي، مثلا لدى ج. و. لوكا «ديانة يوروبا (١٩٤٩)» وج. س. كرافت جونسن (مجد افريقيا) (١٩٥٤)، وقد أظهر بعض المصنفين الاوربيين عين الوجهة، مثلا ايفال ر. ميروفوتزي في

(٢٦). من المستحيل في فصل من هذا الطول أن نعطي كثرة انتاج فرو بينيوس حقه، وكان آخر كتاب تألّف له «العمل الثقافي الافريقي» (فيينا ١٩٣٣)، ومؤلفه الأكثر أهمية كما يبدو مجموعته في ١٢ مجلدا: اطلنطيس.. (فيينا ١٩٢١ — ١٩٢٨)، ولكنه ينبغي أن نذكر ايضا كتبها وصفتها رحلاته: مثلا اليوربا ومنستي: وافريقيا تقول (برلين شرلوطينغ ١٩١٢ — ١٩١٣). انظر المصادر الكاملة في فريد كرتشمير: ليوفرو بينيوس (١٩٣٨)، وبعض الفصول الانكليزية الحديثة (مثلا د. ك. م. ايتا فرو بينيوس في تاريخ افريقيا الغربية) «المجلة التاريخ الافريقي»، ٤، (١٩٧٢)، والمصنفات المذكورة في هذا الفصل كل ذلك يوحى بتجدد الاهتمام آثار فرو بينيوس.



كتبها عن الاكان، فهي تسعى الى منحهم أجدادا وأجدادا من البحر الابيض المتوسط، شبيهين بما كان يرمي اليه لوكا بالنسبة الى اليوروبا (٢٧).

على أنه في اطار أضيق، تمادى بعض الافارقة في تسجيل التقاليد التاريخية المحلية بكيفية جدية موثوق بها. ويبدو أنه كان لأهمية الاتصالات بالمبشرين المسيحيين وعمقها دور كبير. فاوغندا مثلا قد أنجبت مدرسة مهمة من المؤرخين المحليين منذ عصر أ. كغوا (الذي نشر كتابه الأول سنة ١٩٠٦) بينما استقر ر. س. س. لاو، ٢٢ مؤرخا، في بلد يوربا، نشروا تأليفهم قبل ١٩٤٠ غالبا (٢٨)، كمصنفي أوغندا، باللغات المحلية. واشتهر أحد مصنفات هذا النوع وهو كتاب «تاريخ مختصر لبنان» ألفه ج. أ. اقاربيا الذي أعيد طبعه عدة مرات، منذ نشرته الأولى سنة ١٩٣٤.

ومن جهة أخرى، فإن بعض المستعمرين ذوي العقل الذكي النابه، كانوا يسعون الى الوقوف على تاريخ من كانوا أتوا لتسييرهم والى تسجيله، فكان في نظرهم للتاريخ الافريقي أيضا قيمة عملية، فكان في وسع الاوربيين أن يكونوا اداريين أفضل مما هم عليه لو كان لهم بعض المعرفة بماضي الشعوب التي استعمروها، ثم انه كان من المفيد أن يلقن شيء من التاريخ الافريقي في المدارس التي أنشأوها شيئا فشيئا هم ومواطنوهم المبشرون، على الأقل كتمهيد لدراسة موسعة للتاريخ الانكليزي أو الفرنسي، المخصص لتمكين الافارقة من اجتياز الشهادات المدرسية والبيكالوريات، ولانتدابهم كمساعدين شبه اوربيين ذوي قيمة ثمينة.

وقد ذكرنا آنفا فلورا شاو وهنري جونسون وموريس دولافوس، وأيضا إيف ارفاي وريشمند بلمر. وقد الف غيرهم مصنفات تاريخية عن افريقيا خالية تقريبا من قبلات ثقافية، ولو أنهم أحيانا (هم أو ناشروهم) اختاروا عناوين غريبة، مثلا «خرافات الاصيل من باقندا السوداء» (١٩١٢) لروث فشر، و«بلاد الزنج» ل. س. ه. ستيفند (١٩١٣)، «أسرة مالكة متضائلة: اشنتي» (١٩٢١) للسير فرنسيس فلر، وهي على حسب تقاليد بوديش ودبوي، و«قوافل الصحراء القديمة» أ. و. بوفيل (١٩٣٣)، والعديد من المصنفات ذات الصبغة العلمية لشارل مونتاني (مثلا: امبراطوريات مالي ١٩٢٩) أو لويس طوكيه (مثل: تاريخ الجبرا ١٩٤٢). ولعل الفرنسيين قد نجحوا أكثر من الانكليز في كتابة تاريخ افريقي صرف، فكان من أقوى مؤلفات هؤلاء المتجهة بعزم نحو محور أوربي، كتاب «تاريخ ساحل الذهب والاشنتي» (١٩١٥) ل. و. كلاردج أو «تاريخ القمبيا» (١٩٤٠) لسيرجون قراي — ولكن ماعدا بعض الفصول الحديثة من نفس المؤلف، عن افريقيا الشرقية، ومن الجدير بالذكر أيضا أن عددا من المديرين الفرنسيين عند عودتهم الى فرنسا (مثلا دولافوس، جورج هردى، هنرى لابوري) (٢٩) شرعوا في كتابة توارخ مختصرة عامة، إما للقارة بأكملها، أو لمجموعة افريقيا جنوبي الصحراء. وسبب ذلك أن الادارة الاستعمارية الفرنسية، كانت ترمي الى الحصول على هياكل أكثر تدقيقا من الادارة الانكليزية للتكوين والبحث، ولتذكر من ذلك (سنة ١٩١٧) انشاء لجنة دراسات تاريخية وعلمية في افريقيا الغربية الفرنسية ومجلتها، وقد

(٢٧) «دولة الاكان المقدسة» (١٩٥١) «التقاليد الأصلية للاكان» (١٩٥٢) الاكان في غانة معتقداتهم القديمة (١٩٥٨).

(٢٨) انظر ر. س. س. لو. أقدم كتاب تاريخية عن اليوروبا (١٩٤٠).

(٢٩) موريس دولافوس: سود افريقيا (باريس ١٩٢١)، جورج هردى: نظرة عامة من تاريخ افريقيا (باريس ١٩٣٧)، هنري.

لابوري: تاريخ سوكا افريقيا (باريس ١٩٤٦).

آل إلى المعهد الفرنسي بإفريقيا السوداء الذي كان مركزه داكار (١٩٣٨) مع نشرته وسلسلة مذكراته ومن هناك إلى آثار ضخمة كاللوحات الجغرافية لغربي أفريقيا في القرون الوسطى (١٩٥١) بقلم ريمون موني. ومع ذلك فإن مؤرخي الفترة الاستعمارية بقوا هواة خارج التيار الرئيسي لمهنة المؤرخ. وكان ذلك يصح بالنسبة إلى فرنسا كما يصح بالنسبة إلى بريطانيا العظمى، إذ أنه لئن أحرز رجالاً أمثال دولافوس ولابوري على مناصب جامعية عند عودتهم إلى فرنسا، فإن هذه المناصب كانت لتدريس اللغات الأفريقية أو الإدارة الاستعمارية، لا كمؤرخين دراسيين.

ومن ١٩٤٧ عملت الجمعية الأفريقية للثقافة، ومجلتها: «الحضور الأفريقي» على إرساء تاريخ أفريقي مجرد من الصبغة الاستعمارية، وفي الوقت نفسه شرع جيل من المثقفين الأفارقة الذين تمكنوا من التقنيات الأوروبية لسبر الماضي، في تحديد نظرية خاصة إزاء الماضي الأفريقي، والبحث فيه عن مصادر الاصال الثقافية التي أنكرها الاستعمار، فدقق هؤلاء المثقفون تقنيات المنهجية التاريخية وفسحوا مجالها، مطهرين أياها من عدد من الخرافات والقبليات الذاتية. ولابد في هذا الصدد من ذكر الملتقى الذي عقدته اليونسكو بالقاهرة ١٩٧٤. فسمح لباحثين أفارقة وغير أفارقة أن يقابلوا آراءهم بحرية عن مشكل عمران مصر القديمة وسكانها.

وظهر في عام ١٩٤٨ «تاريخ ساحل الذهب» لو. أ. ف. ورد وفي السنة نفسها أنشئ بمجامعة لندن منصب «محاضر» في التاريخ الأفريقي بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، وأسند هذا المنصب إلى الدكتور رولاند أليفيه، ومنذ ذلك العهد شرعت بريطانيا العظمى في برنامج نشر الجامعات في الأراضي التابعة لها: إنشاء معاهد جامعية في ساحل الذهب ونيجيريا، رفعت كلية قوردن بالخرطوم ومكريري يكبلا إلى المستوى الجامعي. وتم عين العمل في المستعمرات الفرنسية والبلجيكية. فأنشئت سنة ١٩٥٠ المدرسة العليا للآداب بداكار، ثم صارت بعد مضي سبع سنوات جامعة فرنسية ذات حظ كامل. وبدأت لوفانيوم أولى جامعات الكونغو (فيما بعد الزاير) في عملها سنة ١٩٥٤.

ومن وجهة نظر التدوين التاريخي الأفريقي، فإن تعدد الجامعات الجديدة منذ ١٩٤٨ كان له معناه أكثر مما كان لوجود المعاهد القليلة التي أنشئت من قبل، فكانت تعيش بضعف نظراً إلى قلة امكانياتها، ومن تلك كوليغ ليبيريا بمنروfia وكوليغ فوره باي بالسيراليون وقد تم انشاؤها سنتي ١٨٦٤ و ١٨٧٦.

ثم إن الجامعات التسع التي كانت سنة ١٩٤٠ في إفريقيا الجنوبية، كانت تفت في ساعدها سياسة التمييز العنصري لنظام برتوريا: فكان البحث التاريخي والتعليم في هذا الميدان يدوران حول مركز أوروبا وما كان تاريخ إفريقيا سوى تاريخ المستوطنين البيض.

وكل الجامعات الحديثة، بالعكس، قد أحدثت أقساماً للتاريخ مما دعا، لأول مرة، المؤرخين المحترفين بعدد وافر إلى العمل في إفريقيا. ولم يكن من بد في البداية من كون أغلب هؤلاء المؤرخين من جامعات غير أفريقية. ولكن الأفارقة أتت بسرعة، وأول مدير أفريقي لقسم التاريخ كان الاستاذ ك. و. ديك الذي عين في إبادان سنة ١٩٥٦. وتكون عدد من الطلبة الأفارقة، وأحسن المدرسون الأفارقة عندما صاروا مؤرخين محترفين بالحاجة إلى الزيادة في نصيب التاريخ الأفريقي في

مناهجهم، وإذا ما كان هذا التاريخ مازال لم يعرف الا قليلا، أحسوا بحاجة اكتشافه بواسطة بحوثهم.

فمنذ ١٩٤٨ صار التدوين التاريخي بأفريقيا يقترب تدريجيا مما هو عليه في أي جزء آخر من الدنيا، نعم ان له مشاكله الخاصة كالمضألة النسبية للمصادر المكتوبة بالنسبة الى الفترات القديمة، مما أوجب تنمية المصادر الأخرى كالروايات الشفاهية واللغوية وعلم الآثار. على أن التدوين التاريخي الأفريقي، وان هو ساهم مساهمات جلية فيما يخص استغلال هذه المصادر وتفسيرها. فهو لا يتميز أساسا عنه في سائر بلدان الدنيا (أميركا اللاتينية وآسيا وأوروبا)، التي تواجه مشاكل مشابهة لمشاكله.

على أن مردود المواد ليس بالأمر الأساسي عند المؤرخ، بل ان العمل المهم يتمثل في استعمال الشواهد استعمالا نقديا ومقارنيا، لخلق وصف ذكي دال على الماضي. والمهم أيضا أنه منذ خمس وعشرين سنة أكبت جماعات من الجامعيين الافارقة على مهنة المؤرخ. ودراسة التاريخ الأفريقي اليوم نشاط مركز لاختصاصيين من أعلى مستوى. وسيضمن نشرها فيما بعد بفضل التبادلات بين الافارقة، والروابط بين جامعات افريقيا وجامعات بقية الدنيا. ولكنه ينبغي أن نؤكد أن هذا التطور الايجابي لم يكن ممكنا لولا تحرير افريقيا من نير الاستعمار. فتورة مدغشقر المسلحة سنة ١٩٤٧، واستقلال المغرب سنة ١٩٥٥، وحرب الشعب الجزائري البطولية وكفاحات التحرير في المستعمرات الافريقية كلها، قد ساهمت مساهمة قوية في هذا العمل اذ هي كانت تحلق للشعوب الافريقية امكانية الرجوع الى الالتصاق بتاريخها الذاتي وتنظيم مراقبته. وقد أدركت اليونسكو مبكرا هذه الحاجة، فأثارت أو شجعت لقاءات الاختصاصيين، ووضعت وهي على حق، كشرط مسبق ضروب الجمع المنسق للروايات الشفاهية. وتلبية لرغبة المثقفين والدول الافريقية، أوعزت اليونسكو منذ ١٩٦٦ بفكرة تحرير تاريخ عام لافريقيا. ويجري التنفيذ الفعلي لهذا المشروع العظيم منذ سنة ١٩٦٩ تحت اشرافها.



## الفصل الثاني

# مكانة التاريخ في المجتمع الأفريقي

بوبو هاما و.ج. كي. زيرو

الانسان حيوان تاريخي ولا يشذ الانسان الافريقي عن هذا التعريف. فلقد كَوّن الافريقي تاريخه كما هو الشأن في كل مكان، وكَوّن لنفسه فكرة عن هذا التاريخ. وفي مستوى الوقائع، ان الأعمال وبراكين الطاقة المبدعة، هي هنا، تحت أبصارنا تحمل شكل أعمال تطبيقية زراعية وأساليب في الطبخ، ومعالجات بالأدوية، وحقوق عرفية، ونظم سياسية، ومنتجات فنية، ومناسك دينية، وآداب سلوك مدققة. لقد انشأ الأفارقة منذ ظهور بني البشر الأولين وطيلة آلاف السنين، مجتمعا مستقلا تشهد حيويته، على عبقرية منشئيه التاريخية. وهذا التاريخ الذي ولده العمل التطبيقي تصوره فيما بعد مبدئيا كمشروع بشري. ثم هو انعكس واستبطن من قبل الافراد والمجموعات، وصار بذلك اطارا للفكرة ومرجعا ومحلا شعوريا وفكريا، ومبررا للعيش، واطارا للحياة أي «افمؤدجا».

ولكن الضمير التاريخي انعكاس لكل مجتمع، بل لكل طور ذي دلالة من تطورات كل مجتمع، فلا غرابة اذا حمل تصور الأفارقة لتاريخهم وللتاريخ بصفة عامة علامة فمهم الخاص. ويكفي انعزال المجتمعات وحده ليكيف النظرة التاريخية تكييفا دقيقا. فلك موسى (فولتا العليا) مثلا كان يلقب بموغونابا، أي ملك العالم، مما يوضح اثر الضغوط التقنية والمادية على الفكرة التي تكوّن عن الوقائع الاجتماعية السياسية، فيلاحظ مثلا أن الزمن الافريقي زمن خرافي اجتماعي، ولكن الافارقة أيضا يشعرون أنهم صانعو تاريخهم الذاتي، ثم اننا سنرى أن هذا الزمن الافريقي زمن تاريخي حقا.

## الزمن الخرافي والزمن الاجتماعي

يحس القارئ لأول وهلة وعند مطالعة العديد من المؤلفات الانتولوجية، أن الافارقة كانوا مغمورين غارقين في الزمن الخرافي، وهو محيط فسيح لا شاطئ له ولا معالم، بينما كان سائر الاقوام يقطعون شارع التاريخ، وهو محور لا حد له تقوم عليه مؤشرات الرقي. نعم ان الخرافة أي تصوير الماضي تصويرا عجيبا طالما ساد فكر الافارقة في تصويرهم لدور حياة الشعوب.

وصل ذلك الى حد، أن اختيار الأحداث الواقعية ومدلولها كانا تابعين لأنموذج «خرافي» كان يقدر حتى أتفه الحركات لدى الملك أو الرعية. وكانت الخرافة تتحكم هكذا في التاريخ بأصناف من العوائد المنتمية الى ما وراء الزمن، وتتحمل أيضا مسؤولية تبرير التاريخ. وفي هذا السياق ظهرت ميزتان واضحتان للتفكير التاريخي: عدم تقيده بالزمن، وما له أساسا من بعد اجتماعي.

في هذه الحالة، ان الزمن ليس هو الديومة التي تنظم المصير الفردي بل هو النظام التنفسي للمجموعة. وليس هو نهرا يجري في اتجاه واحد من منبع معلوم الى مصب معلوم. وفي البلدان النامية صناعيا حتى النصارى يجعلون فرقا واضحا بين «نهاية الأزمان» وبين الأزل. وقد يكون ذلك لأن الانجيل يقابل مقابلة واضحة بين هذه الدنيا الانتقالية وبين العالم الآتي، ولكن لأن الزمن البشري، بهذا الطريق ولأسباب أخرى، زمن علماني فعلا، والزمن التقليدي الافريقي يشمل ويضم الأزل من قبل ومن بعد، فالأجيال الماضية ليست مفقودة بالنسبة للزمن الحاضر، بل تبقى بشكل ما دائما معاصرة ولها من الاثر ما كان لها منه في حياتها بل أكثر منه، وهكذا تعمل السببية بدون شك من السابق الى اللاحق ومن الماضي الى الحاضر ومن الحاضر الى المستقبل ليس بواسطة الأحداث وبما للحوادث الماضية من وزن فقط، بل بحملة مباشرة قد تكون على كل الاتجاهات، فلما أرسل امبراطور مالي كنكو موسا (١٣١٢ — ١٣٣٢) رسولا الى ملك ياطنقا يدعو الى الدخول في الاسلام، أجابه الأمير موسى أنه لا بد له من أن يستشير أجداده قبل أخذ هذا القرار. فيلاحظ هكذا كيف يرتبط الماضي مباشرة بالخال عن طريق العقيدة، وكيف ينتصب الأجداد قيمين مباشرين ممتازين على أمور تحدث بعد قرون. وفي بلاطات العديد من الملوك نرى موظفين مكلفين بتفسير الرؤى، كان لديهم نفوذ كبير في العمل السياسي المزمع القيام به، فكان هؤلاء المعبرون للأحلام بمثابة وزراء المستقبل. ويذكر في ذلك أن ملك روندا «مازي مباكايوهي» الثالث (في نهاية القرن السابع عشر) رأى في المنام رجلا وضاحي اللون قادمين من الشرق، فحبل الأقواس والسهام ولكنه قبل أن يرميهم بالسهم زيناها بموزناضج، فجاء هذا السلوك تعبيرا عن صفة المهاجم والمستقبل في آن واحد، أي عن السلوك المرتبك غير الواضح، مما غرس في الضمير الجماعي الروندي صورة متميزة قد لا تكون غريبة عن ظاهرة عدم الصمود في القتال عند هذا الشعب، الذي مارس رغم ذلك الحروب ضد جحافل الألمان في القرن التاسع عشر، وقد شبت بالوجوه البيض التي رآها الملك في حلمه قبل ذلك بقرون. وفي مثل هذا الزمن «المعلق» قد يكون للحاضر عمل فيما يعتبر ماضيا، ولكنه يبقى معاصرا. ودم ضحايا اليوم تدخل السرور على أجداد الأمس، وحتى اليوم، فان بعض الافارقة يحرضون أقرباءهم كي لا يغفلوا عن تقديم القرابين باسم من مات من آبائهم، اذ من لا يتقبل شيئا من القرابين يبقى ضمن الطبقة الفقيرة في العالم الموازي، عالم الأموات، ويضطر الى العيش بما يده به

المحظوظون الذين قدمت «ضحايا» جليلة باسمهم. وبصفة أعمق، ان بعض المذاهب الكونية تسجل في حساب زمن خرافي، انجازات تقدمية تحققت في زمن تاريخي، لم يعرف بنفس الشكل من كل شخص، فردته ذاكرة المجموعة اللاتاريخية. ومن ذلك قصة جيكيويو التي تخبر عن مولد صناعة الحديد: إن موقاي (الإله) قسم الحيوانات بين الرجال والنساء، الا أن النساء كن قاسيات جدا، ففرت حيواناتهن وصارت وحشية. فتوسط الرجال لدى موقاي في سبيل نساكنهم وقالوا: «نريد أن نكرمك بذبح حمل الا أننا لا نود أن نذبحه بموسى من خشب لكي لا تقع فيما وقع فيه نساءنا من الأخطار» فشكرهم موقاي على حكمهم، وعلمهم طريقة صهر الحديد ليحصلوا على أسلحة أشد فاعلية.

وكان لهذا المفهوم الخرافي والجماعي من القوة ما جعل الزمن من علامات سلطة الزعماء، فكان الملك شلوك المستودع الفاني لسلطان أبدي، اذ تجمع فيه الزمن الخرافي (ويتجسم فيه البطل الفاتح) والزمن الاجتماعي ويعتبر منبع الحيوية للمجموعة. ولدى البغولارو في الزاير الشرقي، كما لدى البونيورو (أوغندا) ولدى الموسي (فولتا العليا) فان الرئيس هو دعامة الزمن الاجتماعي: «اذا الموامي حاضر فالشعب يحيا، وان غاب الموامي يموت الشعب. فوت الملك قاسم للزمن، يوقف كل نشاط والنظام الاجتماعي، وكل عبارة للحياة من الضحك حتى الزراعة والإجتماع الجنسي لدى الحيوانات أو الناس، وفترة ما بين ملكين، هي بمثابة قوسين في الزمن، وانتصاب ملك جديد يخلق وحده، من جديد، الزمن الاجتماعي، وينفخ فيه روحه ويعمره من جديد، وكل شيء شامل الحضور في هذا الزمن الخارج عن الزمن في الفكرة الوثنية، حيث يمثل الجزء الكل وقد يكون دالا عليه، مثل ذلك الشعر والأظافر التي يتحفظ الانسان من اسقاطها بين يدي العدو وخشية أن يكون له أن يضع يده على الشخص ذاته.

نعم انه ينبغي أن نرتفع الى مستوى المفهوم العام للعالم كي ندرك نظرة الزمن عند الأفارقة ومدلوله العميق. فنشاهد عند ذلك في التفكير التقليدي. ان الزمن الواقع تحت حواسنا ما هو الا مظهر من مظاهر زمن آخر عاشته أبعاد أخرى من الانسان، وعندما يأتي المساء ويمتد الرجل على حصيره أو فراشه قصد النوم، فذاك هو الوقت الذي يختاره شخصه الثاني ليذهب كي يستعيد الطريق الذي سلكه الانسان طيلة اليوم، ويحل بالاماكن التي حل بها، وإن يعيد الحركات والأعمال التي قام بها في حالة الشعور مدة الحياة اليومية، وخلال هذه التحولات يصطدم الشخص الثاني بقوى الخير وبقوى الشر وبلائكة الخير، كما يصطدم بالسحرة آكلي الأشخاص النسخة الثانية أو «سركو» (في لغة سنغاي وزرما). وانما تحمل شخصية الفرد في خياله أو نسخته الثانية، يقول السنغاي ان خيال الرجل ثقيل أو خفيف ليعبر عن كون شخصيته قوية أو هزلية، والغرض من التماثل تقوية الخيال وحمايته، والمطمح الاعلى أن يصل الانسان الى أن ينطبق على خياله وأن ينصهر فيه حتى لا يتكون منها سوى هوية واحدة تبلغ من الحكمة والقوة درجة فوق البشرية.

وحيث لا يكون الزمان (والمكان) من العقبات، لا يبلغ هذه الحالة سوى العريف الأكبر، المعلم (كرتي كونيرو، زمباء) وكذلك كان حال سي جد العائلة المالكة، كان والد السبي مفزعا، أبو الرعود، واذا ما تعفن سنه عمد الى أكل الحصى؟ واذا ما كان له التهاب في الملتحمة أذاك يوقد النار باهرة، وهو يمسح الارض بخطاه الفسيحة وهو في كل مكان ولا يحل بمكان.



• تمثال صغير من البرونز يمثل سلطنة سلالة السنغاي (تيرا، النيجر)، (كليشيه أ. سالفو).



ان الزمن الاجتماعي والتاريخ الذي عاشته المجموعة هكذا، يجمع السلطان الذي يرمز اليه غالبا ويتمثل في شيء يسلمه الجد أو رئيس القبيلة أو الملك الى من يليه، وقد يكون هذا الشيء كرة من ذهب محفوظة في طبل الحرب مجتمعة مع عناصر اقتلعت من جسم الأسد والفيل والفهد، وقد يحتفظ بهذا الرمز في علية أو كناره كالرق (طيبو) التي كانت للملك موسي. وعند السنغاي — زرما هو قضيب من حديد حاد من أحد الطرفين، وعند السركو من امبراطورية قاو القديمة كان ذلك صنما في شكل سمك عظيم في خيشومه حلقة، وعند الحدادين هو موقد حدادة يحمر أحيانا ليلا ليعبر عن غضبه، وكان نقل هذه الأشياء يمثل الاسناد القانوني للسلطة. وأعجب مثل هو مثل السونينكي ذرية سني علي. اذ لهم سلاسل من ذهب وفضة أو نحاس تمثل كل حلقة منها جدا من الأجداد، وتمثل المجموعة السلسلة العائلية المالكة حتى سني العظيم. وأثناء حفلات سحرية تلفظ هذه السلاسل بمحضر جمهور معجب، وعند الممات ينقل الأب الأكبر السونينكي مرة أخيرة قاذفا السلسلة، ويلعبها من طرفها الثاني الشخص الذي اختاره خلفا له، ويموت اثر تسليمه السلسلة الى من يكون عليه أن يكون استمرار له، وهذه الوصية العملية توضح بجلاء قوة المفهوم الإفريقي للزمن الخرافي والزمن الاجتماعي، وقد ظن أن هذه النظرة للحركة التاريخية نظرة لا حركية عقيمة، اذ وضعت المثل الأعلى في الماضي عند أصل الزمن ويبدو أنها تفرض على جحافل الأجيال أن يكون مثلها في تكرار مجر حركات الجد ولماآثره. أفليست الخرافة المحرك لتاريخ ساكن؟

سنرى أنه لا يمكن أن نكتفي فحسب بنظرة التفكير التاريخي عند الأفارقة وحدها.

على أنه لا بد أن نعترف أن النظرة الخرافية توجد في أصل التاريخ عند عامة الشعوب، وكل تاريخ في البدء تاريخ مقدس، وهذه النظرة نفسها تتبع التطور التاريخي، فتلوح من حين الى آخر في أشكال عجيبة أو غريبة. ومن ذلك الرمز القومي الذي جعل أحد رؤساء الدول المعاصرين المشهورين يتوجه بالحديث الى بلاده، كما لو توجه الى انسان حي، بينما تتجسم خرافة العرق في النظام النازي في طقوس نابعة من أعماق التاريخ، فتعبي ملايين العباد في سبيل المذابح التي نعرفها.

## هل يشعر الأفارقة أنهم هم صانعو تاريخهم؟

نعم ان للانسان الإفريقي منذ عدة قرون أسبابا متعددة لكي لا يكون بؤرة لوعي مسؤول. فكثيرا ما روضته أوامر الضغط الخارجية المزيلة للشخصية، وحتى بعيدا عن شاطئ العبيد وعن المركز الذي يسيطر عليه الحاكم الأبيض، لم يحل من أن يوسم في زاوية من زوايا روحه بميسم العبودية المبيد.

وكذلك في الفترة السابقة للاستعمار، فلقد كان يدو على عديد من المجتمعات الإفريقية البسيطة شبه المغلقة، أن أفرادها ما كانوا يعون أنهم يصنعون التاريخ، الا على سلم محدود جدا، وفي مستوى محدود غالبا وضمن نطاق الإسرة العظمى، وفي اطار رقابة تقليدية عسيرة ثقيلة تقوم على زعامة الشيخ. على أنه حتى في هذا المستوى بل خاصة في هذا المستوى، كان الشعور بالتنظيم الذاتي للمجموعة وبالحكم الذاتي حادا قويا، فالفلاح اللوي والكباري في قريته، عندما يكون «رب

بيت» (١) كان يشعر أنه يتحكم تحكما فسيحا في مصيره الذاتي. وأقوى دليل، هو أنه في هذه الجهات ذات «الفوضى» السياسية حيث كانت السلطة أحسن الأمور المقسمة بين الناس، قد لاقى الفاتحون من بين المستعمرين أشد الصعوبات في تمريرهم وفرض سلطتهم.

وكان الاعتصام بالحرية هنا الحجة على تذوق المبادرة ورفض الاعترا ب. وبالعكس في المجتمعات ذات البنيات القوية كان المفهوم الافريقي للرئيس يمنحه مكانة بارزة في تاريخ الشعوب التي يتجسم فيه مشروعها الجماعي. فلا غرابة إذن أن تسرد الرواية كل التاريخ الأصلي للمالينكي في صورة «مدح سندجاتا»، والأمرفس بالنسبة الى سني علي عند السنغاي في منعطف النيجر، فلا يعبر هذا البتة عن اشتراط ايديولوجي يقتل الفكر النقدي، وكذلك في المجتمعات التي يكون فيها اقنول اداة الأخبار الوحيدة، كان للسلطات التي تراقب شبكة قوية من الكهنة امتياز خاص تقريبا لنشر «الحقيقة» الرسمية. ولكن الكهنة ليسوا جمعا موحدا «مؤمما».

ثم أن أحدث تاريخ لافريقيا قبل الاستعمار، يبرهن أن مكانة الزعماء الافارقة في تصورات أذهان الناس ليست من المغالى فيه. فن ذلك حالة «شاك» الذي صنع حقا «قوم» الزولو في خضم المعارك. إن كل ما تمكنت الشواهد المكتوبة أو المروية شفاهيا من لمسه من عمل شاكا، كان ولا شك حادثا، عدة مرات في التطور التاريخي الافريقي. ويرجع تشكيل الفرق الموكلة، كما قيل لنا، الى سندجاتا، وعمل اسبي توتو كعمل انوكي في انشاء «القومية» الاشتنتي، يلوحان في مستوى الفكرة التي كانت للاشتنتي فيها حتى اليوم، خصوصا وان فكرة الزعيم المحرك للتاريخ تكاد لا تقتصر أبدا على صورة مبسطة تعزو كل النمو البشري الى شخص واحد.

وفي غالب الأحيان ينحصر الأمر في مجموعة دينامية عرفت بذلك، ولم يغفل عن مصاحبة الزعماء. حتى من كانوا من مستوى وضيع (الكهنة والناطقين باسمهم والخدمة) فيلجئون التاريخ كأبطال.

ويصح الأمر نفسه فيما يخص النساء اللائي يملن في الضمير التاريخي الافريقي، خلافا لما صرح به وكرر تكرارا كبيرا، مكانة بدون شك أهم من مكانته في خارج افريقيا. وهذا يدرك بسهولة في المجتمعات ذات النظام الخطي الامومي. ففي وانزربا التي تقع قرب تيرا (بالنيجر) حيث السيادة على نظام الامومة، عين الفرنسيون في عهد الاستعمار رجلا ليحكم في هذه المجموعة حتى يكون لسكان هذه القرية عين النظام الذي كانت عليه سائر القرى السنغاي، الا أن السونينكي (٢) من جهتهم قد احتفظوا بكاهنتهم التي لم تفتأ حتى اليوم تتحمل مسؤولية السلطة الفكرية. وفي غيرها من البلدان قد بدت النساء للناس على أنهن قن بدور من المرتبة العليا في التطور التاريخي للشعوب. فبنات الملوك وأخواتهم وزوجاتهم وأمهاتهم — كذلك المرأة العجيبة لكودجي التي كانت على التوالي كل ذلك، واستحققت لقب «أم شعب لوند» — كن في الحل اللائق للتأثير على الاحداث.

(١) ان عبارة «سوتيفي» تعادل سلما أدنى مرتبة من دوقيتي (رئيس قرية) ودياماني تيني (رئيس مقاطعة) وكيلي تيني (قائد عام)، تدل تدليلا قويا على هذه السلطة.

(٢) في هذه القبيلة فان السلطة تنتقل (عن طريق الحليب) وعلى الرغم من اعتبار رابطة الدم تقوى هذا الانتقال، ولكن عند السيركوفان السلطة تنتقل فقط عن طريق رابطة الحليب.

وأمينة الشهيرة في بلاد الهوسا التي فتحت في القرن الخامس عشر عددا من الأراضي لصالح زاريا، والمدن التي مازالت تحمل اسمها ما هي الا نموذج آخر من بين آلاف النماذج من الفكر، التي عرفت النساء كيف تجعلها في المجتمعات الافريقية تعبر عن نفوذها التاريخي. ومازالت هذه الفكرة حية حتى اليوم في افريقيا، اثر ما قامت به المرأة من دور في حرب الجزائر وفي الأحزاب السياسية خلال الكفاح القومي في سبيل استقلال جنوبي الصحراء.

نعم ان المرأة الافريقية تستعمل أيضا للمتعة والزينة كما توحى به لنا أولئك اللائي يعرضونها علينا مرتديات أقمشة مستوردة، وتحطن بملك داهمي عند اشرافه على حفلة تقليدية، لكن يشارك في عين هذه المشهد فارسات الأمازون، وهي القوة الضاربة في الجيوش الملكية ضد أو يوضد المهاجمين الاستعماريين في معركة كانا (١٨٩٢). فالنساء الافريقيات، لما ساهمن به في خدمة الأرض وفي الصناعة والتجارة، وبنفوذهن الأدبي على ابنائهن أمراء كانوا أو فلاحين، وبحيويتهن الثقافية، اعتبرن دائما كممثلات جليلات في تاريخ الشعوب. وقد كانت معارك في سبيل النساء أو موجهن وما فتئت قائمة دائما، اذ أن النسوة أنفسهن كثيرا ما لعبن الدور المنوط بالحيلة أو الخديعة بواسطة الاغراء، ومثل ذلك مثل أخت سندجاتا أو النساء اللائي أرسلهن ملك سيقودامنزن الى أعدائه. وبالرغم من التمييز الظاهر في الاجتماعات العامة، كل يعلم أن المرأة في افريقيا دائما الوجود في التطور، فالمرأة هي الحياة، وهي أيضا الوعد بانتشار الحياة، وبها أيضا يتم التحالف بين الفرق المختلفة، هي قليلة الكلام بين الجمهور ولكنها تحمل وتعتقد الأحداث في سر البيوت، و يلخص الرأي العام هذا المعنى في المثل «في استطاعة النسوة أن يفسدن كل شيء، وفي استطاعتهم أن يصلحون كل شيء».

وبالجملة ان الامر في افريقيا يبدو كما لو أن استمرار البنيات العنصرية للقاعدة الشعبية خلال الحركة التاريخية، قد منح العمل كله طابعا شعبيا ملحوظا. وضعف امكانيات المجتمعات جعل التاريخ من شأن كل الناس (رغم ضعف تقنية وسائل الابلاغ. ولو أن الطم طم تكفل الابلاغ من قرية الى أخرى)، على أن قلة سعة المجال التاريخي كانت على قدر التخوف الذهني لدى كل واحد، فنشأ عن ذلك حس «ديموقراطي» لا ينكر، نشط تصور التاريخ عند الافارقة في معظم الحالات. لقد كان كل واحد يحس أن له دورا وسلطة وان في امكانه، في النهاية أن ينفلت من السيطرة ولو بالانشقاق، اذ أدى الحال للجوء الى المدى الممكن. وأحس بذلك شاكا نفسه في نهاية عهده. وهنا الشعور الذي يحس به الانسان، من أنه يكون التاريخ، حتى على مستوى العالم الصغير القروي والاحساس أيضا بانه هباء في التيار التاريخي الذي أنشأه في القمة الملك الشبيه بالخالق، كل ذلك له أهمية كبيرة الى المؤرخ، فهو في ذاته حدث تاريخي يعمل بدوره على خلق التاريخ.

## الزمن الافريقي زمن تاريخي

هل في الامكان أن يعتبر الزمن الافريقي كزمن تاريخي، لقد أنكر بعضهم ذلك وزعم أن الافريقي انما يتصور العالم كتكرار محجر لما كان. فما الزمان اذا الا تابع للماضي لا يتكرر أمام كل قادم. يقول: «هكذا فعل أجدادنا» ليرر أعماله وحركاته، ولكن لو كان الأمر كذلك لوجد ابن بطوطة في محل امبراطورية مالي مجموعات مما قبل التاريخ تسكن مآوي منحوتة في الصخور وترتدي

جلود الحيوانات. ان الطابع الاجتماعي نفسه في المفهوم الافريقي للتاريخ يجعل له بعدا تاريخيا لا ينكر، اذ ان التاريخ هو الحياة النامية للمجموعة. وفي هذا الشأن يمكن أن يقال ان الزمن في نظر الافريقي زمن حركي، وليس في المفهوم التقليدي، أو في النظرة الاسلامية التي أثرت في افريقيا، ما يشير إلى أن الانسان سجين حركة قارة في مكانها، أو تكرار دوري. نعم «انه ما دام لا وجود» لفكرة الزمن الرياضي والطبيعي المحسوب بجمع وحدات متجانسة تقاس بأدوات صنعت لهذا الغرض، يبقى الزمن عنصرا معاشا اجتماعيا، ولكنه في هذا السياق ليس عنصرا محايدا ماليا. في المفهوم العام للعالم لدى الافارقة، أن الزمن هو المحل الذي يستطيع الانسان فيه دائما مصارعة الضمور من أجل تطويع طاقته الحيوية. وهذا هو البعد الرئيسي «للوثنية التجسيمية» (٣) الافريقية، حيث الزمن حقل مغلق وسوق تحتك فيها القوى المصاحبة للعالم وتبادل، والمثل الأعلى عند الافراد كما هو عند المجموعات انما هو في مكافحة كل ما ينقص ذاتيتها ولا يحسن صحتها، فيزيد في القوة البدنية وفي مساحة الحقوق التي للشخص، وفي ضخامة قطعانة وعدد أولاده ونسائه وقراه. وهذا التصور حركي ولا شك، فقبيلتنا شركو وسونينكي (النيجر) متباينتان، الأولى تمثل الماضي وتسعى الى بسط سلطانها على الليل وتهاجم المجتمع، والثانية بالعكس هي مالكة النهار وهي تمثل الحال وتدافع عن المجتمع. وهذه الرمزية في حد ذاتها فصيحة بيّنة. ولكن دونك قطعة شعرية ذات دلالة، من الابتهاال السحري عند السنغاي.

ليس هذا من في  
هو من فم أ  
الذي وهبه ب  
وهو اعطاه ج  
الذي منحه د  
وهو اعطاه هـ  
الذي وهبه و  
الذي منحني اياه

فما هو لي ليكن في في أفضل مما كان في فم القدماء.

وهكذا يوجد لدى الافريقي ارادة دائمة للانتماء الى الماضي الذي يمثل لديه نوعا من التبرير. ولكن هذا الابتهاال لا يعني السكون ولا يتضارب مع القانون العام المتعلق بتجمع القوى وبالرقي، لذلك جاءت العبارة: «فما هو لي ليكن في في أفضل مما كان في فم القدماء».

يعبر عن السلطان في افريقيا السوداء بلفظ معناه القوة (٤). وهذا الترادف يشير الى الأهمية التي تعطيها الشعوب الافريقية للقوة، ان لم نقل للشدة في جريان التاريخ، ولكنها ليست هي القوة المادية الفظة، بل هي الطاقة الحيوية التي يتجمع فيها عدد من القوى، تمتد من الكمال الطبيعي الى الحظ والى الكمال الاخلاقي، فالقيمة الاخلاقية تعتبر شرطا حتميا لممارسة السلطان ممارسة صالحة،

(٣) الوثنية التجسيمية أو بالاحرى الديانة التقليدية في افريقيا، تتميز بعبادة الله، وبقوى الارواح الوسيطة.

(٤) فنكا (في لغة ببرا)، ينكا (في لغة موري)، يان (في لغة سامو).

و يشهد على هذه الفكرة ما يوجد في الحكمة الشعبية، اذ تروي القصص عروضا للرؤساء الغاشمين الذين يحيق بهم العقاب في النهاية، ومن ثم تستخلص العبرة الأخلاقية من القصة. ولا يقصر «تاريخ السودان» ولا «تاريخ الفتاش» في الإشادة بفضائل «الحاج عسكية محمد» ولو أنها كانت في الواقع بطمعمان في نفع مادي من وراء ذلك، إلا أنها جعلت علاقة منتظمة بين خصال هذا الملك الجيدة وبين «حظه» وهكذا كان يفكر محمد بلو حين دعا «يعقوبا باوتشي» أن يعتبر من تاريخ امبراطورية سنغاي: وتمكن محمد عسكية بفضل عدله من المحافظة على ميراث «سني علي» بل قام بتسميته، وعندما خرج أبناء عسكية عن عدل الاسلام، تبددت امبراطوريتهم وتقسمت الى العديد من الدويلات التي لا تملك أي قوة.

وفي نظر ولد عثمان دان فوديو، يصح المبدأ نفسه فيما يخص حكومتهم. «ألقى نظرة الى الماضي والى كل من قاد قبلنا في الماضي... قبلنا وجدت أسرا حاكمة منذ آلاف السنين في بلاد هوسا، وهناك أحرزت شعوب عدة سلطات كبيرة، الا أنها خسرت اذ كانت بعيدة عن أصولها المتمثلة في العدل وفي العرق والتقاليد، فأفسدها الظلم. ولكي ندوم نحن ينبغي أن تكون قوتنا قوة الحق وقوة الاسلام. وفي نظرنا ان قتل يونقا (٥) وتحطيم عمل نفاتا (٥) وأبرشي (٥) وبوازنقرزا (٥) يمكن أن يؤثر في الأجيال الحاضرة حتى خارج تأثير الاسلام. ولكن الأجيال التي ستأتي بعدنا لن تلاحظ كل ذلك، سوف تحكم علينا بحسب قيمة النظام الذي نكون قد أبقيناه لها، وبحسب قوة الاسلام الدائمة التي نكون قد ركزناها، وبالحق والعدل الذي نكون قد فرضناها في الدولة».

وهذه النظرة الرفيعة لوظيفة الاخلاق في التاريخ، لا تنبعث من معتقدات الزعيم سوكوتو الاسلامية فقط، ففي الأوساط الوثنية أيضا، توجد الفكرة القائلة إن نظام القوى الكونية قد يتخلل بموجب أعمال منافية للاخلاق، وإن هذا الخلل لابد أن يضر بفاعله. وهذه النظرة للعالم، حيث تكون القيم والمتطلبات الاخلاقية جزءا لا يتجزأ من نظام العالم نفسه، قد تبدو خرافية. الا أنها كانت تؤثر تأثيرا موضوعيا في سلوك الرجال وبخاصة في سلوك عدد من الزعماء السياسيين الافارقة. وبذلك يمكن أن يقال إن التاريخ إن كان غالبا تبريرا للماضي، فهو أيضا حث على المستقبل. وفي النظم السابقة للنظام الحكومي، كانت السلطة الأدبية التي تضمن سير الشؤون العامة أوتعد لها أحيانا، بيد جمعيات مخصصة، وأحيانا سرية كجمعية «اللوئي» في شعب «سينونو» أو البورو في غينيا العليا. وكانت هذه الجمعيات غالبا تكون سلطات موازية، مكلفة بأن تلعب دور المرجع المسؤول خارج النظام المقرر. ولكنها في النهاية، كانت أحيانا تحل سرا محل السلطة النظامية، فكانت تبدو للناس كمراكز سرية للحكم، فتسلب من الشعب ماله من سيطرة على تاريخه الذاتي. وفي هذا النمط من المجتمعات، فإن التنظيم حسب فئات الأعمار، يبقى بنية لها أهمية أساسية في مسيرة تاريخ الشعب. وهذه البنية المقررة حسب دورية معلومة، تمكن من الصعود مع تاريخ الشعوب حتى القرن الثامن عشر، ولكنها أيضا كانت تلعب دورا خاصا في حياة المجتمعات في المجموعات الرفيعة حيث لا تجديد تقني يعتد به — فهي اذن جامدة، ولم تكن نزاعات الأجيال غائبة. فكان من المهم اذن أن

نأخذ على عاتقنا — ان صح القول — ترتيب مد الأجيال وتشييد هيكل العلاقات بين هذه الأجيال، لتجنب ما قد تؤول اليه من مواجهات عنيفة نتيجة تحول سريع. فلينتدب الجيل الملتزم بالعمل عضوا من أعضائه يبق في صفوف جيل الشبان اللاحق له مباشرة، ولكن دور هذا العضو ليس في اخاد حماسه الشبان وقلة صبرهم بل في توجيه اندفاعهم الغير المتروي، حتى لا يصبح وبالا على المجموعة كلها، وحتى لا يساء اعداد المعنيين بتحمل مسؤولياتهم العامة (٦).

ان الوعي بالزمن الماضي كان حادا جدا لدى الافارقة، وهذا الزمن الذي ينزل بكل ثقله على الحاضر لا يحطم مع ذلك حركيته، كما يشهد بذلك عديد الأمثال. ومفهوم الزمن كالذي يكتشف في المجتمعات الافريقية ليس حقا ضربا من «الطبيعة» الافريقية أو من المصاحبات لعنصرها. بل هو علامة على مرحلة من التطور الاقتصادي والاجتماعي، وبرهان ذلك ما يلاحظ من فروق واضحة حتى اليوم بين الزمن — المال الذي يقول به أهل المدن من الأفارقة، والزمن الذي يدركه معاصروهم واخوانهم من المروج. فالمهم هو وجود فكرة التطور ابتداء من أصول يبحث عنها. وحتى تحت قشور القصص والأمثال وأدران الخرافات، فان الأمر يتعلق ببذل الجهد لتعجيل التطور الاجتماعي، ولقد بذلت أحيانا الجهود الايجابية للشروع في حساب الزمن التاريخي. ومن الامكان أن يرتبط هذا بالفضاء، كقولك الزمن اللازم لخطو خطوة للدلالة على المدة الدنيا. وقد يرتبط بالحياة البيولوجية كزمن الشهيق والزفر، ولكنه غالبا يتقيد بعوامل خارجة عن الانسان الفرد كالظواهر الكونية والاقليمية والاجتماعية، خاصة اذا كانت مستقرة. ففي منطقة المروج السودانية، يعد عادة العمر عند أهل الديانات التقليدية بعدد فصول الأمطار. فلكي نقول عن انسان إنه مسن، يصرح عادة اما بعدد فصول الأمطار (التي عاشها) أو يستعاض عن ذلك بكيفية مقتضية بقولهم: «قد شرب ماء كثيرا».

وقد وضعت أحيانا أنظمة أكثر تقديرا للحساب (٧)، ولكن المرحلة الحاسمة كانت في هذا الميدان عند استعمال الكتابة، على أن وجود طبقة مثقفة لا يعني البتة توفر وعي الشعب بكامله بتاريخ جماعي، ولكنها تمكن على الأقل من نصب معالم وسط التيار التاريخي تنظم به سيره. ثم ان اعتناق الديانات التوحيدية المرتبطة بتاريخ معلوم، ساهم في مضاعفة تصور الماضي الجماعي، بأنماط كانت تظهر في المرويات، مثلا في شكل ربط الأسر المالكة ربطا اعتباريا بأصول الاسلام التي ساعدت قيمها ومثلها، الرسل السود، على قلب مجرى الأحداث في بلادهم الاصلية.

ولكن انقلاب الزمن تم على الخصوص، عندما دخل العالم مجال المردود الاقتصادي والتراكم

(٦) مثلا عند الالديان من موسو (قرب ابيجان) فان التنظيم حسب الأجيال (وعدها ٥ كل يحكم ٩ سنوات) مازال ساري المفعول حتى في الأشغال ذات الطابع «العصري»: انشاءات، افراح، مناسبات الحصول على شهادة أو ارتقاء الى درجة أعلى.  
(٧) ان اينفور ولكس عند نقده لكتاب د. ب هينج: «تاريخ الرواية الشفاهية» البحث عن شيميرا. يبين هكذا أن الاكان (فنشي، اشنتسي...) كان لديهم نظام تقويم معقد اسبوعه ٧ أيام وشهره ستة أسابيع وستة تسعة أشهر و يعدل دوريا لموافقة الدورة الشمسية بطريقة لم توضح تماما حتى الآن، «فكان اذن من الممكن ضمن تقويم أكان أن يرجع الى اليوم الثامن عشر من الشهر الرابع من السنة الثالثة من ملك الاشنتيان اسي بنصو» وهي طريقة للتاريخ ما فتئت تستعمل في البلدان الأوربية حتى القرن الثامن عشر وحتى التاسع عشر. أنظر أ. ولكس ١٩٧٥، صفحة ٢٧٩ و ٥٥.

المالي. عندها فقط تغير مدلول الزمن الفردي والجماعي، عن طريق تقمص الثقافات الاشكال الذهنية السائدة في البلدان التي أثرت في الأفارقة اقتصاديا وثقافيا. فاكشف الافارقة أنه غالبا ما ينشئ المال التاريخ، والانسان الافريقي القريب الملتصق بتاريخه، كان يشعر انه هو الذي يصنعه في مجتمعات مصغرة، وهكذا يواجه هذا الانسان في آن واحد خطر اغتراب عظيم، وفرصة المشاركة في الرقي الشامل.





## الفصل الثالث

# الاتجاهات الحديثة في البحوث التاريخية الافريقية وإسهامها في التاريخ بصورة عامة

ف. د. كورتين

ان الغرض من هذا المجلد ومما يليه من المجلدات، التعريف بماضي افريقيا كما يراه الافارقة. وهو منظور عدل، وقد يكون هو الطريق الأوحيد للوصول الى مجهود دولي، وهذا ما يفضله مؤرخو افريقيا في افريقيا وخارجها. في نظر الافارقة، معرفة ماضي مجتمعاتهم الخاصة تمثل وعيا بالذات لا بد منه لاقرار هويتهم في عالم مائج متنوع. وهكذا فان إحياء افريقيا لاح في العشريّات الأخيرة، لا على أنه مشروع اعتباطي غالي الثمن و ينبغي إرجاؤه الى أن تتوفر عناصر أقوى تأكيداً، بل على أنه عنصر أساسي للنمو الافريقي، ولذا كان همّ المؤرخين الأوئل في افريقيا وخارجها، أن يتجاوزوا رواسب التاريخ الاستعماري، وان يربطوا الوثائق من جديد مع التجربة التاريخية للشعوب الافريقية.

وتستعرض أبواب أخرى ومجلدات أخرى هذا التلاقي الجديد، وتدرس التاريخ كتقليد حي دائم الانتشار، ووظيفة المعارف التاريخية في انشاء نظم حديثة للتربية قصد العمل بها في افريقيا المستقلة. وسنعرض في هذا الفصل بالذات مدلول تاريخ افريقيا في الخارج أولاً، في نظر مجموعة المؤرخين الدولية، ثم بالنسبة الى مجموع الجمهور المثقف الفسيح.

ان الاهمال الفظيع لتاريخ افريقيا حتى الخمسينات، ما هو في حقل الدراسات التاريخية الا علامة من علامات ظاهرة أوسع. وليست افريقيا وحدها التي ورثت من العصر الاستعماري ميراثاً ثقافياً من الواجب تعديده. ففي القرن التاسع عشر غزا الاوربيون معظم آسيا وأخضعوها لنيرهم، أما في أمريكا الاستوائية فلقد كان التخلّف وهيمنة أوربي ما وراء البحار على الأهالي الافريقيين الاميركيين والهونود، قد أنتجا ظروف الاستعمار في أراضٍ أشارت اتفاقيات القانون الدولي فيها الى

وجود مجموعة من الدول المستقلة. وفي القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حرّف طابع النظام الاستعماري الذي طبع المعلومات التاريخية، منظورات مفهوم أوربي مركزي لتاريخ العالم الذي تم إقراره في عصر الهيمنة الأوروبية، وانتشر هذا المفهوم بفضل النظم التربوية التي وضعها الأوروبيون في العالم الاستعماري، وحتى في المواطن التي لم تنتصب قط فيها الهيمنة الأوروبية، كانت الكلمة لمعلوماتهم نظرا لعصريتها حتى في مظاهر التدوين التاريخي المتمركز حول أوربا. وانقرضت اليوم هذه النظرة الأوروبية المتمركزة للعالم من أهم المؤلفات التاريخية الحديثة، إلا أنها مازالت سائدة عند عدة من المؤرخين، وعند الجمهور الأعظم الغير الغربي منه والغربي (١). ويرجع هذا الثبات لكون التاريخ «كان يلقي» عادة في المدرسة، وأنه لم تنح الفرصة لتعديل المعطيات المكتسبة، وحتى المؤرخون المتخصصون في البحث، كانت تعترضهم عقبات كي يكونوا على علم بما تم اكتشافه في ميادين خارجة عن نطاق نشاطاتهم. وحسب البحوث الأخيرة، فإن الكتب المدرسية كانت متأخرة بقدر عشرات سنوات الى عشرين سنة، بينما كانت مصنفات التاريخ العام تحتفظ غالبا بقبليات من معارف أحنى عليها الدهر. فلا يتمركز أي تفسير حديث، أو أي عنصر جديد بلا كفاح.

ورغم المدد الفاصلة بين الاكتشاف وبين تعريفه للجمهور، فإن دراسات التاريخ تمر في جملتها بشويرة مزدوجة، بدأت هذه الثورة اثر الحرب العالمية الثانية وهي لم تنته بعد، فالشأن من جهة أن يحول التاريخ ابتداء من الأخبار، حتى ينتهي الى علم اجتماعي يهتم بتطور المجتمعات البشرية، ومن جهة أخرى ان تعوض الآراء الوطنية المسبقة بنظرة أكثر اتساعا.

وأنت المساهمات نحو هذه الاتجاهات الجديدة من كل الجهات، من أوربا نفسها ومن مؤرخي المدرسة الحديثة في افريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية، ومن أوربيي ما وراء البحار، ومن أميركا الشمالية ومن القارة الاوقيانوسية، وشملت جهودهم في افساح اطار التاريخ، في آن واحد، شعوبا وأقاليم مازالت مجهولة حتى ذلك الوقت، كما شملت مظاهر من التجربة الانسانية، طالما دفنت تحت مفاهيم تقليدية ضيقة للتاريخ السياسي والعسكري. ونشأة التاريخ الافريقي في هذا السياق هي ذاتها مساهمة ثمينية، على أن ذلك كان في الامكان أن يؤدي الى اضافة تاريخ جديد انغزالي الى توارخ أخرى، وقد تكون لهذا قيمة في حد ذاته، من شأنها أن تعين على تنمية افريقيا، دون أن توفر لتاريخ العالم أبلغ المساهمات.

ومما لا شك فيه أن التزمّت الوطني كان الصفة التي طبعت التقليد القديم التاريخي، أعمق الطبع، وفي النصف الأول من القرن العشرين شرع المؤرخ الضليع في التخلي عن الاتجاه القديم الذي يعتبر التاريخ ملكا شبيها بالخاص.

وحسب هذه النظرة، فإن تاريخ مجتمع معين لا قيمة له الا في ذاته، وأما في الخارج فيفقد كل دلالة. وفي أحسن الحالات ان ما يبيده الأجانب من اهتمام ينتمي الى التطفل، وفي أسوأ الحال هو تجسس تقليدي. وهذا التأكيد على الاستحواذ على التاريخ، كان واضحا خاصة في التقليد الاوربي

(١) ان لفظ «الغرب» استعمل في هذا الفصل للدلالة على مناطق في العالم مثقفة ثقافة أوروبية أو مشتقة منها، ويشمل أيضا أميركا بأجزائها واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية وأستراليا وزيلاندا الجديدة.

في بداية القرن العشرين، وكانت السلطات المسؤولة عن التربية، تميل الى اعتبار التاريخ كتاريخ قومي لا كتاريخ عام لأوروبا ولا كمنظرة معتدلة لتاريخ العالم. التاريخ خرافة معترف بها استغلت لخلق العزة القومية ولبعث فكرة التضحية في سبيل الوطن. لقد كتب لورد مالك أولي (ان التاريخ في آن واحد قصة واداة للتربية السياسية والأخلاقية) (٢) وكان من المتوقع منه ان يلقي الوطنية لا أن يوحى بنظرات صائبة في تنمية البشرية. وبقيت هذه النظرة سائدة في معظم النظم التربوية.

وقد أدلى بعض المؤرخين باعتراضهم، اما باسم العلم أو باسم الشمول الدولي، ولكن أكثرهم اعتبروا الآراء المسبقة القومية طبيعية مهما كانت غير مرغوب فيها. في فرنسا من الممكن أن يحصل الطالب على التبريز في التاريخ مع كونه لا يعرف عن أوروبا من وراء الحدود الفرنسية سوى معلومات هزيلة، وذلك بقطع النظر عن آسيا وإفريقيا وأمريكا. وفي العديد من الجامعات الانكليزية من الممكن دائما أن يحرز على الاجازة في الآداب على أساس دراسة التاريخ الانكليزي وحده. واستعمال لفظ «انكليزي» عوض لفظ «بريطاني» استعمال مقصود. فالتمليذ «الانكليزي» قد تكون له كل الحظوظ ليعرف عن تاريخ روما أكثر مما يعرف عن تاريخ بلاد الغال واسكتلندا أو أيرلندا قبل القرن الثامن عشر. ومع اعتبار الفروق الايديولوجية، فإن المشكل يكاد يكون عينه في أوروبا الشرقية. ويبدو أن البلدان الأوربية الأقل أهمية كمجموعة البينيلوكس واسكندنافيا، هي وحدها التي تعتبر أوروبا كلاً لا يتجزأ.

ثم إن طريقة أميركا الشمالية المعتمدة — كنظائرها الأوروبية — في تاريخ الحضارة مازالت مركزة على الاجناس. ويتمثل سؤالها في «كيف صرنا على ما نحن عليه؟» لا في «كيف صارت البشرية على ما نراه اليوم؟».

وكلما رفض مؤرخو كل قارة الاتجاهات المركزة على أوروبا في تاريخهم القومي الخاص، الا ويرجع اليهم واجب الاجلاء الحقيقي نحو تاريخ العالم، حيث يكون لإفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية دور مقبول في المستوى الدولي، وهذا الواجب تحمله خاصة، المؤرخون الذين اهتمت أعمالهم بالثقافات المختلفة، والمؤرخون الافارقة الذين شرعوا في الكتابة عن آسيا أو أميركا اللاتينية، والاوربيون أو الأميركيين الشماليون الذي أخذوا في تفسير تاريخ إفريقيا أو آسيا لصالح مواطنيهم محاولين التحرر من الآراء المسبقة المركزة على أوروبا.

وفي اطار هذا المجهود العام، أصبح لدور مؤرخي إفريقيا — في القارة وخارجها — أهمية خاصة وذلك على الأقل لكون تاريخ إفريقيا قد أهمل إهمالاً أكبر من إهمال تاريخ سائر المناطق الغير الاوربية، ولكون الخرافات العنصرية شوهدت أكثر من غيرها، ومن المعلوم أن العنصرية داء من العسير جدا اقتلعه لكونه متنوع الشكل. وقد جعلت له نظريات في أشكال مختلفة منذ القرن السادس عشر فتجسم في التاريخ بكيفة حادة، وأحيانا في شكل اباداة جماعية في بعض العهود كعهد النخاسة العبيد السود، والحرب العالمية الثانية، ومازالت العنصرية قائمة في صورة تحد فظيع في

(٢) طوماس بانقتن ماكولي: مذكرة ٢ فيفري (شباط) ١٨٣٥ في موضوع «تربية لمعرفة الهند» اذيع نشر اذاعة فسيحة، وأخيرا في «امبرالية» بقلم ب. د. كرتين (نيويورك، ١٩٧١) ص ١٨٢.

افريقيا الجنوبية وغيرها وذلك رغم أعمال اليونسكو (٣) ومنظمات أخرى، قصد البرهنة على ما في ذلك من طبيعة غير معقولة، ولكن علاج الآراء المسبقة يطول، إذ أن العنصرية منتشرة ماثلة في الكتب المدرسية، وفي العروض السمعية البصرية المتحيزة، وفي تراث «المعطيات» النفسانية الواعية أو الغير الواعية التي تحملها أحيانا التربية الدينية، وفي الأغلب في الجهالة والظلامية. وفي هذه المعركة يمثل التعليم العلمي لتاريخ الشعوب السلاح الاستراتيجي الحاسم، فذ كانت العنصرية الغربية التي وردت ادعاء التعليم في القرن التاسع عشر، ترتب سلم القيم معتمدة على الفروق الجسمانية، وبما أن أوضح هذه الفروق هولون البشرية، كان الأفارقة يجدون أنفسهم بكيفية أوتوماتيكية في أسفل السلم، إذ كانوا يبدون مخالفين للأوربيين الذين خصصوا أنفسهم بأعلى السلم. وما فتئ العنصريون يصرحون أن تاريخ افريقيا لا أهمية له ولا قيمة: وحيث أن الافارقة لم يكونوا لينشؤوا «حضارة» جذيرة بهذا الاسم، فإن ما من أمر عندهم يبعث على الإعجاب الا قد تم نسخه وتقليده عن الغير. وهكذا صار الافارقة مفعولا للتاريخ لا فاعلا له، واعتبروا قادرين على تلقي التأثيرات الأجنبية دون أن يأتوا مقابل ذلك بأية مساهمة لبقية العالم.

فننذ زمن بعيد، منذ بداية القرن العشرين كان للعنصرية الشبه العلمية أكبر الأثر، وضعف هذا الأثر، بعد ١٩٢٠ لدى الاختصاصيين في العلوم الاجتماعية والطبيعية، وبعد ١٩٤٥ زال هذا الأثر بالقوة في الأوساط العلمية المحترمة. ولكن أثر هذه العنصرية كان يستمر، ففي مستوى معلومات إنسان الشارع كانت العنصرية تغذيها الزيادة في التوترات العرقية في الأوساط المعرصة وقد وافق ظهورها في المدن الغربية ظهور مهاجرين من أصل افريقي أو آسيوي زاد عددهم، فبقيت آثار ردود الفعل الشعبية واضحة. وكان يدعم ذلك ذكر الدروس التي حفظها الناس من المدارس، وبالنسبة لتلامذة عام ١٩١٠، أي الفترة التي كانت فيها العنصرية التي توصف بأطلا بالعلمية، هي التي تمثل المذهب البيولوجي الرسمي، فإن ساعة التقاعد لن تدق الا بعد سنة ١٩٦٠. وأخطر من ذلك ما بقي حيا من استنتاجات اعتمدت على ادعاءات عرقية لم يبق لها معنى بعد. فالمسلمة القائلة: «ليس لتاريخ افريقيا أهمية، لأن الأفارقة من جنس أدنى» لم يبق لها ما يدعمها. إلا أن بعض المثقفين الغربيين كانوا يتذكرون من بعيد أن «ليس لافريقيا ماض» ثم انهم نسوا علة ذلك. وهذه الصفة أو بأخرى، فإن ارث العنصرية ما فتئ يدعم تعصبا وطنيا ثقافيا يميل الى اعتبار الحضارة الغربية هي «الحضارة الوحيدة الحقيقية». وفي نهاية الستينات عرضت الإذاعة البريطانية بعنوان «حضارة» سلسلة طويلة من النشرات، مخصصة للتراث الثقافي بأوروبا الغربية فحسب. نعم. من حين الى آخر، قد اعتبرت بعض المجتمعات كمجتمعات «حضارية». ولكن في منتصف القرن صارت درجة محو الأمية تعين الخط الفاصل بين الحضارة. وبين ما بقي. وكانت المجتمعات الافريقية في معظمها قبل العصر الاستعماري مجتمعات أمية، فرمي بها في صنف «البدائيين». على أن غالب افريقيا في الواقع كان مثقفا، بمعنى أن طبقة من الكتاب كانوا يعرفون القراءة والكتابة لا بمعنى محو الأمية الجماعي الذي لم يكن في كل مكان الا ظاهرة من ظواهر العصر بعد الصناعي.

فكان لاثيوبيا خطها القديم «جيين». وكل افريقيا الاسلامية، شمال افريقيا والصحراء والشریط الشمالي من المنطقة السودانية، من السنغال الى البحر الأحمر، والمدن الساحلية من الشاطئ الشرقي حتى مضيق موزمبيق كانت تستعمل الكتابة العربية، وحتى قبيل العهد الاستعماري، فان العربية كانت قد دخلت هنا وهناك عبر الغابة المدارية بواسطة تجار (جؤولا)، بينما كانت اللغات البرتغالية والانكليزية والفرنسية تستعمل عادة كلغات للتجارة على طول السواحل الغربية. ومع ذلك فان التعصب القومي الثقافي وقد عززته الجهالة، أدى بالسلطات الغربية الى جعل حدود الصحراء وهي التي تفصل بين الأمية ومحو الأمية، وكان في هذا دعم للنظرية المشؤومة الرامية الى فصل تاريخ افريقيا الشمالية عن تاريخ باقي القارة.

على أن إبعاد «اللامتخضرين» من مملكة التاريخ، لم يكن الا وجهها من عنصر أهم من عناصر التقاليد التاريخية الغربية، وكانت الجموع الغربية نفسها تتعجب من هذا الابعاد، ليس تبعاً لقبليات طبقية واضحة ولا شك، بل لما للتاريخ من طابع تعليمي، كلما مكن مدح مشاهير الرجال من تقديم مثل يقتدي به. ولكن ليس من باب الصدفة أن تكون هذه المثل مأخوذة عن الأغنياء وأصحاب السلطة، فصار التاريخ سرداً لوقائع وأعمال طبقة قليلة من الاعيان. وكانت انماط السلوك التي تشمل عامة مجتمع يقلل من قيمتها أو تجهل تماماً. وتاريخ الأفكار لم يكن تاريخ آراء الناس بل كان تاريخ «النوايا العظمى». والتاريخ الاقتصادي لم يكن تاريخ الاقتصاد أو السلوكات الاقتصادية، بل تاريخ بعض السياسات الاقتصادية الحكومية المهمة وبعض المؤسسات الخاصة، وبعض الأعمال الطريفة في الحياة الاقتصادية. وإذا ما كان المؤرخون الاوربيون لا يولون أي اهتمام لقطاع فسيح من مجتمعهم ذاته، فكيف يكون في الامكان أن يهتموا بمجتمعات أخرى وبثقافات أخرى؟

حتى الآن، فان الاتجاهين الشوريين اللذين ظهرا في الدراسات التاريخية الحديثة اتبعا نهجين متوازين أتم التوازي، وذلك لأن التاريخ المركز على أوربا، وتاريخ الاعيان كانوا يتغذيان من نفس المعين. ولكن شيئاً فشيئاً تم الارتباط الضمني بين من كانوا يعملون على افساح حقل الدراسة في المجتمع الغربي، ومن كانوا يسعون الى دفع البحوث التاريخية خارج العالم الغربي دفعا أقوى. ففي البداية تقدم الجمعان محتفظين بما بينهما من فروق، وكان اهم الرئيسي لمؤرخي افريقيا، أن يدحضوا الزعم القائل أن ليس لافريقيا ماضٍ أو ماضٍ ذو قيمة، وفي الصورة الأولى كان الهدف أن تجاهبه الصعوبة مجابهة. وكان بإمكان أخصائيي افريقيا أن يردوا على من كانوا يزعمون، بان ليس لافريقيا ماضٍ، منكرين بوجود ممالك وامبراطوريات فسيحة يشابه تاريخها السياسي تاريخ أوربا في بدايتها، وكان اشتمراز الجمهور الغربي من نظرية النخبة (كما هو الشأن لدى الجمهور الافريقي المشفق ثقافة غربية) من شأنه أن يمثل وسيلة لاقامة الدليل في النهاية على أهمية التاريخ الافريقي، وما تملك الا بداية متواضعة كانت تكفي لابرار مظاهر الماضي الافريقي التي كانت تشابه ماضي الغرب دون أن تصادق على ما ينجم عن سوء التفاهم من تباينات الثقافة. وقليلاً من المؤرخين أيقنوا حتى ذلك الوقت، أن الامبراطوريات ما هي الا مؤسسات مضنية فظيعة ليست هي حتماً علامة على الرقي السياسي، وقليل منهم كان مستعداً أن يعترف مثلاً، أن من أعظم منجزات افريقيا، انشاءها

لمجتمع بدون دولة يعتمد على التعاون أكثر مما يعتمد على الضغط. وإن الدولة الافريقية نظمت نفسها لكي تحقق استقلالات ذاتية محلية حقيقية.

وهذا الاتجاه الرامسي الى قبول بعض الخصائص للتدوين التاريخي الدراسي، كخطوة لتجريد التاريخ الافريقي من النظريات الاستعمارية توجد عموما في دراسة الفترة الاستعمارية، حيث يوجد من قبل تاريخ «استعماري» رسمي يسعى الى التأكيد على النشاطات الاوربية والى تجاهل النصيب الافريقي.

وفي أسوأ الحالات، كان هذا التاريخ يصور الافارقة في صورة وحوش جبناة أو مختلين. و ينتج عن ذلك أن كائنات رفيعة أتت من أوربا فحققت ما لم يكن للافارقة أن يحققوه، وحتى في أعلى درجات الموضوعية فإن «التاريخ الاستعماري» لم يكن لينح الافارقة سوى أدوار ثانوية على مسرح التاريخ.

ودون أن نغير الأدوار، فإن أول مجهود لاصلاح هذا التأويل يقتصر على تغيير القيم. فبعد أن كانوا أبطالا في خدمة الحضارة في سيرها، روادا وولاة مستعمرات وضباط جيش، أصبحوا مستغلين أفضاظا. وصار الافريقي ضحية بريئة، الا أنه ليس له من حيلة الا أن يكون سلبيا، وما زالت حفنة من الأوربيين هي التي جعلت افريقيا وتاريخها كما هما عليه. (لا شك أن الاوربيين كان لهم احيانا الادوار الاولى في الفترة الاستعمارية، ولكن المراجعات المستندة الى البحوث الحديثة في المستوى المحلي، تمكن من التقليل من الأثر الاوربي كما كان يلوح في «التاريخ الاستعماري» المنشور قبل سنة ١٩٦٠).

وثمة خطوة ثانية نحو تحرير تاريخ الفترة الاستعمارية من النزعة الاستعمارية سارت بموازاة موجة الحركات القومية المنادية بالاستقلال، وهذا قد ظهر أن للافارقة دورا في التاريخ وصار ينبغي ابرازه للعيان. وأزاح الحواجز اخصائيو العلم السياسي الذين كتبوا في عهد الحركات التحريرية (٤). وبعد ذلك بقليل، خاصة في الستينات، شرع العلماء في الرجوع الى الماضي، باحثين عن جذور المقاومة وحركات الاحتجاج في بداية العصر الاستعماري، وأكثر من ذلك، بحثوا عن القفزات الاولى لمقاومة النير الاوربي (٥). ان هذه المؤلفات عن حركات المقاومة والاحتجاج مصصح مهم، ولكن تاريخ افريقيا لم يتصور بعد تصورا موضوعيا. وفي النهاية، ان تحرير التاريخ الافريقي في العصر الاستعماري من النزعة الاستعمارية، سوف ينشأ عن صهر الثورة ضد المركزية الاوربية، مع الحركة المضادة للاعيان. وأخذت الثورة السلوكية تؤثر في تدوين التاريخ الافريقي، الا أن هذا التأثير مازال جديدا محدودا، وبقي الكثير مما يجب نشره، على أن بعض المؤرخين شرعوا في البحث عن طريقة مشتركة متعددة الاختصاصات تمكنهم من تعاطي دراسة تاريخ الفلاحة أو

(٤) انظر مثلاً طوماس هودكين: القومية في افريقيا الاستعمارية لندن ١٩٥٦، ودافيد ابتر: ساحل الذهب في تحول (برنستون ١٩٥٦) وجامس س. كوبان: نيجيريا، أرضية القومية (بركلاي ١٩٥٨)، وشارل أندري جوليان: افريقيا الشمالية تسير (باريس ١٩٥٢).

(٥) انظر مثلاً جورج شبرسون وطوماس برايس ١٩٥٨: الافريقي المستقل وجون شليمبوي وجذور ثورة الأمازي بنياسالاند سنة ١٩١٥، واستقرارها ومدلولها (ادنبرغ ١٩٥٨)، ي. و. رنجز: الثورة في جنوبي روديسيا، دراسة مقاومة افريقية (لندن ١٩٦٧)، جون الييف: طنغانيكا تحت حكم الألمان ١٩٠٥ — ١٩١٢ (كمبردج ١٩٦٩)، روبرت رتبرغ وعلي أ. مزروعى: الاحتجاج والسلطة في افريقيا السوداء، ايف برسن: ثورة ديولا — ٣ مجلدات (داكار ١٩٦٨).

تاريخ التعدين، كهي يستغلوا سائر العلوم الاجتماعية، وأخذ بعضهم يهتمون بمناطق صغيرة منعزلة راجين من دراسات العوالم الصغيرة هذه، أن توضح شبكة تطور البنيات الاقتصادية والاجتماعية الأكثر أهمية والأشد تشعباً (٦). وشقّ البحث طريقه في مجال المشاكل الخاصة في التاريخ الاقتصادي والديني، ولكن التحرر الحقيقي للتاريخ الإفريقي من الفكرة الاستعمارية ما فتئ في بدايته.

وتقدم التاريخ التحليلي — وهو أيضاً (التاريخ الميداني) المستند الى البحوث والأسئلة الميدانية، وليس الى تصفح الوثائق فقط — وهو خطوة مهمة في هذا الاتجاه، والاستغناء عن الوثائق يلوح أيضاً أساسياً بالنسبة الى الفترة الاستعمارية، كما هو بالنسبة الى الفترة التي قبلها حيث كانت الوثائق قليلة نسبياً. وخلافاً لما جرى ولما يجري في أوروبا والولايات المتحدة، فإن مشكل «التاريخ الاستعماري دائماً» في الوثائق التي تضخم من قبل الأجانب. فكل من ترك مخطوطاً ضمنه حتماً آراءه المسبقة ومشاعره ازاء نفسه وازاء ما كانوا يحكمونه وازاء ما كان لهم من دور. وذلك شأن تاريخ السياسة الداخلية في أوروبا والولايات المتحدة، حيث الآراء المسبقة ليس الا لفائدة الحكومات. وفي العالم الاستعماري قد يكون للمؤرخ عواقب وخيمة، اذ ما اغفل امكانية اسماع صوت آخر يتضمن الشهادة الشفاهية لمعاصري الفترة الاستعمارية.

ومن الممكن أن يكون مؤرخو افريقيا قد تأخروا بعض التأخر عن سائر زملائهم في بعض الطرق الحديثة، ولكنهم باستعمالهم للروايات الشفاهية فيما قبل عصر الاستعمار أكثر منه في عصر الاستعمار، قد قاموا بعمل رائد. وينقسم هذا العمل الى فترتين، فهي ما بين عامي ١٨٩٠ و ١٩١٤ شرع جيل من الاداريين المثقفين العاملين في مصالح السلطات الاستعمارية، في تأكيد الاحتفاظ بالروايات الشفاهية ذات الأهمية التاريخية. والفترة الثانية ترجع الى نحو الخمس عشرة سنة وانتهت في العشرية ١٩٥٠ — ١٩٦٠ الى الرأي الذي صرح به ج. ب. مردوك سنة ١٩٥٩. فحسب رأيه «لا سبيل الى الوثائق بالروايات الالهية الشفاهية» (٧) وتفتحت العشرية ١٩٦٠ — ١٩٧٠ على نشرة جان فانسينا «الرواية الشفاهية دراسة في المنهجية التاريخية»، فأشارت هذه النشرة الى المراقبات اللازمة والنقد اللازم لاستعمال الروايات الشفاهية استعمالاً علمياً. والأعمال التاريخية الحديثة المستندة الى الرواية الشفاهية المستخدمة الى جانب مصادر أخرى للوثائق، يمكن أن تعتبر نجاحاً ملحوظاً (٨). وأكدت ندوة دكاك المنعقدة سنة ١٩٦١ بأشراف «المعهد الدولي الإفريقي» حول موضوع (المؤرخ في افريقيا المدارية) وندوة دار السلام سنة ١٩٦٥ حول موضوع (منظورات جديدة عن التاريخ الإفريقي)، أكد على النظرات الجديدة الضرورية، مشيرين خاصة الى دور

(٦) انظر بولي هيل: مزارع كوكا في جنوبي غانة (كمبريدج ١٩٦٣).

(٧) مردوك: افريقيا بشعوبها وتاريخ ثقافتها، نيويورك ١٩٥٩، ص ٤٣.

(٨) انظر مثلاً جان فانسينا: مملكة طومبي ١٨٨٢ الى ١٨٩٥ (اكسفورد ١٩٧٣)؛ روفندك. كنت أقدم الممالك بدغشقر ١٥٠٠ — ١٧٠٠ (نيويورك ١٩٧٠)؛ دافيد وليام كوهين: الرواية التاريخية بموساقا، وكنغو (اكسفورد ١٩٧٢)؛ دراسة أ. ج. ألفوا، الملخصة جزئياً في باب (دول دلتا النيجر وجيرانها ١٦٠٩ — ١٨٠٠ في تاريخ افريقيا الغربية ل. د. ج. ف. أ. أجاوي وميخائيل كراودر جزاك، لندن ١٩٧١، ج ١ ٢٦٩ — ٣٠٣؛ أ. روبرتس، طنزانيا قبل ١٩٠٠ (نيروبي ١٩٦٨) نيان د. ت. سندجاتا على الملحة المندنية، الحضور الإفريقي.

الرواية الشفاهية الذي لا مثيل له كمصدر للتاريخ الافريقي، كما أشار الى ما في وسع المؤرخ أن يستمد من اللسنية ومن علم الآثار المؤكد بالرواية الشفاهية.

واثر مؤرخو افريقيا على سائر العلوم الاجتماعية بواسطة أعمالهم حول الفترة قبل الاستعمارية. ويلوح هذا الأثر في مستويات عدة. وفوق كل شيء نحن مدينون له بكونه فرض الاعتراف بأن افريقيا «التقليدية» لم تبق ساكنة، واتجه علماء الاقتصاد وإحصاء العلوم السياسية وعلماء الاجتماع الى دراسة التحولات المسيرة، راجعين الى ظروف «قبل» و«بعد». «قبل» مطبقا على «المجتمع التقليدي» باعتباره غير متغير، و«بعد» مطبقا على نظام هذا التحول متضمنا تحويلا حركيا للصورة السابقة. وكان المؤرخون مترصدين للتطور، مراقبين للتغيرات التي لا تفتأ تجري في المجتمعات البشرية. وأقامت بحوثهم في العشريات الأخيرة الدليل على أنه المنظمات والعوائد وظروف العيش والديانات والاقتصاد، في افريقيا قبل الاستعمار، تغيرت بنفس السرعة التي تغيرت بها في مجتمعات أخرى بين الثورتين الزراعية والصناعية، وهذه السرعة أقل منها في النظام بعد الصناعي التقليدي الذي مازال يصانع افريقيا اليوم. على أن جود الماضي (التقليدي) لا نفاق له في أي مكان.

على أن استعمال قاعدة ما واستخدام منطلق «تقليد» سببا لعلماء الانثروبولوجيا أشد المشاكل خطرا. فنذ العشريات عمل علماء الأنثروبولوجيا الناطقون بالانكليزية، انطلاقا من نمط اجتماعي، مكن من التأكيد على الدور الذي كان لكل عنصر تأسيسي في الحفاظ على نشاطات الكل. واعترفوا أن المجتمعات الافريقية التي نظروا فيها، قد تغيرت تغيرا كبيرا منذ بداية النظام الاستعماري، واعتبروا ذلك فاسخا لدلائلهم، ففي نظرهم كان من اللائق أن ترتب الأمور متركزة في فترة واحدة منتقاة بالصدفة من الماضي السابق مباشرة للغزو الاوربي. وكانوا يزعمون أنه بالإمكان ان تكتشف طبيعة هذا المجتمع التقليدي بجمع معطيات المشاهدات الحالية، وبقطع النظر عن كل ما كان يشابه التأثير الأجنبي، وكانت النتيجة «الحاضر الانثروبولوجي».

وهذا العمل التهيدي الوطائي مدين كثيرا لبرونسلاف مالينوفسكي الذي ساد الانثروبولوجيا البريطانية خلال العشريتين الثانية والثالثة من هذا القرن، وساهم هذا العمل كثيرا في فهم «مسيرة» المجتمعات البدائية. وقد أحرز «علماء الوظائف» تقدما هاما باستكشاف المواقع استكشافا مدققا مطولا وبالمشاهدة المشتركة، وليس باستنطاق المخبرين فقط. ولكن كل عملة لها قضاها، لقد شرع علماء الانثروبولوجيا في البحث عن مجتمعات بدائية وعن جزر منعزلة ثقافيا فقلبوا الآراء الغربية عن الحضارة الافريقية رأسا على عقب. فنشأ عن ذلك فجوات خطيرة في الميدان الوثائقي الخاص بالمجتمعات الافريقية الأكثر أهمية وتشعبا، فريدت اضافة جديدة لخرافة «افريقيا البدائية». وساعد مجهودهم الرامي الى تجريد الحاضر الانثروبولوجي من الحاضر الواقعي، على تقوية الاعتقاد بأن التغرير في افريقيا، انما كان وجوبا يأتي من الخارج، وذلك لكون فرضياتهم بدت تنكر كل تطور للمجتمعات الافريقية قبل دخول الاوربيين.

ومجهودهم الرامي الى تمجيد المجتمع الشاهد لدراسة سيره الاساسي، قد أدى بهم غالبا الى الغفلة عن كون المجتمع الذي يعالجه قصد تحليله على أنه مجتمع ساكن، ليس هو كذلك في الواقع. وأكثر من ذلك كله، ان مجهودهم سيمنعهم من التساؤل عن أسباب هذا التطور ووسائله. ولو



تساءلوا عن ذلك لظهر المجتمع الذي يرصدونه في مظهر آخر تماما. ولاشك ان الوظائف قد تتابع رغم كل شيء سيرها دون مزاحمة النظام التاريخي. فهي تأثرت بدراسات التأقلم الثقافي في الاربعينات والخمسينات، بينما اتجه كلود ليفي ستراوس واتباعه اتجاهها مخالفا تماما في العشرينات. الموالية للحرب. على أنه فيما يخص الانثروبولوجيا السياسية وبعض مظاهر الانثروبولوجيا الاجتماعية، فلقد أوضحت من جديد، أعمال المؤرخين قبل العصر الاستعماري حركية التطور، وساهمت في منح الانثروبولوجيا قفزة جديدة.

وقد تغيرت دراسة الديانات والمنظمات الدينية الافريقية بتأثير البحوث التاريخية الحديثة. وكان أوائل المنقبين عن الديانة الافريقية في معظمهم، اما علماء الانثروبولوجيا الباحثين عن مجموعة ساكنة من المعتقدات والعادات، واما مبشرين قبلوا فكرة الحاضر الانثروبولوجي في دراستهم للديانات التي كانوا يؤمنون احتلال محلها. فهم اعترفوا بحركية الاسلام التي لا تنكسر، وقد كان انتشاره في الفترة الاستعمارية أسرع من انتشار النصرانية، على أن أهم الدراسات عن الاسلام أشرفت عليها الحكومة الفرنسية في افريقيا الشمالية وافريقيا الغربية، بقصد احباط كل حركة انفصالية متوقعة. وكان موضوع هذه الدراسات يهتم بالمنظمات الدينية ورؤسائها أكثر مما يهتم بالتطور داخل الديانة. وفي خلال العشرينات الأخيرة أسهمت عدة عوامل وليس المؤرخون فحسب، في احياء الدراسات الخاصة بالتطور في اطار الديانة. واهتم إخصائيو البعثات التبشيرية بانتشار الديانات الافريقية الجديدة المعتمدة على قواعد بعضها مسيحي، كما اهتموا بالكنائس المستقلة التي انشقت عن البعثات الاوربية. وأكب علماء الانثروبولوجيا المولعون بالتأقلم الثقافي على أعمال مشابهة، وكان للمؤرخين مساهمة ايجابية بما كان لهم قبل كل شيء من فضول إزاء الديانة في حركات التمرد الاستعمارية وحركات الاحتجاج.

وأما فيما يخص الفترة قبل العصر الاستعماري، فقد وقفوا أيضا على ما كان لحركة الاصلاح الديني في مجموع العالم الإسلامي من أهمية عظيمة وواضحة. ونتج عن ذلك وعي اقوى بتطور الديانات الغير المسيحية والغير الاسلامية، ولأن الاخصائيين في مختلف العلوم الاجتماعية، لم يكادوا يشروعون في دراسة خواص هذا التطور بما يستحق من دراسة نظامية.

وفي هذا الموضوع، من الجدير أن نشير الى ما نالت الديانات «الاحيائية» من اهتمام حديث، وكذلك جمعياتها السرية غالبا ذات الوظيفة التاريخية المهمة.

وبينما يلوح للاخصائيين في مختلف العلوم الاجتماعية أنه في الامكان أن تدرس الديانة الافريقية في جملتها دراسة مفيدة، وذلك بتبادل فسيح في الآراء والطرق، فان الدراسات في الاقتصاد الافريقي مازالت مقسمة تقسما قاسيا. وقد أظهر الاخصائيون في الاقتصاد، كما أظهر مؤرخو الديانة، في السنوات الأخيرة، أن أنماط الاقتصاد المختلفة ما فتئت تتطور، وان هذا التطور نابع من محركات داخلية، كما أثرت فيه مؤثرات من وراء البحار، على أن الاقصاديين وخاصة إخصائيي الانتشار، منقطعون دوما الى دراساتهم غير مكترئين بالثقافة الاقتصادية التي يحاولون التحكم فيها. ولا يكفي أنهم يميلون الى تجاهل آلية التطور الجاري، بل ان الكثير منهم لا يعيرون كبير اهتمام للأنماط الانسانية الساكنة، التي وضعها علماء الانثروبولوجيا الاقصاديون.

ولكي تبرر نظرية النمو مثلا، كان من المناسب ان يقرر أن افريقيا الى حد بعيد مكونة من

اقتصادات «عيش» تنتج كل واحدة عائلية في اطارها معظم الخيرات التي تستهلكها وتحقق خدماتها الذاتية. وأكد هذه النظرة خاصة هلامينت حوالي ١٩٦٥، كما أكد في آن واحد نظرية التطور الاقتصادي، المتركزة على تحرير الموارد ووسائل الانتاج التي لم يتم استخدامها استخداما كافيا (٩). والواقع أنه لا وجود لمجموعة في افريقيا قبل الاستعمار تفي تماما بحاجياتها الخاصة حتى لا تتعاطى بعض التجارة، وكانت عدة من المجتمعات الافريقية تملك شبكات متشعبة للانتاج وللصادرات المخصصة لجيرانها. وعلى حدود الصحراء كان عدد من القبائل الرعاة تقني نصف استهلاكها السنوي من الحروريات أو أكثر بمقايضة منتجات ماشيتهم بالحبوب، وكان البعض الآخر ينتج بانتظام ما زاد عن حاجته في الزراعة، ويبيعه قصد اقتناء بعض المأكولات المستوردة — الملح والماشية وزبدة قلام وجوز كولا والتمور. والخطأ الذي يحتوي في جدول الاقتصاد الافريقي الساكن، هو بدون شك الخرافة الدائمة لافريقيا «البدائية»، ويقوي هذا الخطأ اتجاه علماء الانثروبولوجيا في اختيار أبسط المجموعات، واتجاههم القديم إلى تجريد تصوراتهم من الزمن.

وقد أوضح أهمية التجارة في افريقيا قبل الاستعمار هؤلاء الاقتصاديون وعلماء الانثروبولوجيا الذين درسوا الاقتصاد الافريقي دراسة ميدانية. وقد لاحظ بعضهم أن الاقتصادات الافريقية كانت تتطور بسرعة قبل دخول الأوربيين في جماعات كثيفة، على أن فريقا جاد عن خط التفكير التقليدي، فأبرز الفروق بين الثقافات الاقتصادية أكثر مما أبرز التشابهات. وقد نعت أعضاء هذا الفريق «بالجوهرية» إذ أكدوا على دراسة طبيعة الانتاج والاستهلاك الجوهرية، وسعوا الى ربط كيفية ارضاء الانسان حاجياته المادية بالاطار الفسيح لمجتمع خاص لا لنظرية رسمية. فحاولوا أن يبرهنوا على أن النظرية الاقتصادية لا تنطبق على ميدان بحثهم (١٠)، مما جعل الهوة فسيحة بين اقتصاديي التوسع العاملين بوحى نظريات الاقتصاد الضخم لا يعلقون أهمية للوقائع الاقتصادية في الحاضر، وبين الجوهريين الذين لا يعبأون بالنظريات المعاكسة لهم. ولم يسد إحصائيون تاريخ الاقتصاد هذه الهوة بعد، كما أنهم لم يؤثروا في الآراء الاقتصادية المتعلقة بافريقيا تأثيرا شبيها بما كان للمؤرخين من أثر على الانثروبولوجيا أو على دراسة الأديان، فتقدم التاريخ الافريقي خطوات شاسعة في السنوات الأخيرة خاصة، مستخدما طرقا جديدة ممتدا الى مناطق لم تكند تكتشف بعد، الا أنه لم يستفد كما يلزم من طرق جديدة فتحت في مجالات أخرى، ولم يقابل بسرعة، مثل الاختصاصات الأخرى، تحدي الثورة السلوكية. ولم يستعد من امكانات التاريخ الكمي العجيبة في المادة السياسية أو ما في ميدان الاقتصاد الكمي.

وخلال جولات معمقة أكثر فأكثرلا في ماضي افريقيا، كان اشعاع التاريخ الافريقي الحديث من عمل مجموعة من المؤرخين المحترفين ممن أصبح هذا التاريخ عندهم الموضوع الأساسي في تعليمهم وفي كتاباتهم. وإذا كانت معرفة تاريخ افريقيا في العالم الغربي لم تتقدم ولولا بالنسبة الى تدوين التاريخ بآسيا أو أميركا اللاتينية، فذلك لأنها كانت من عمل مؤرخين هواة، لهم نشاطات مهنية

(٩) هلامينت: اقتصاد الجهات الثمانية، لندن ١٩٦٤.

(١٠) للخلاصة المفيدة لهذا الموقف انظر جورج دلتن (١٩٦٨) الاقتصادات البدائية والعتيقة والعصرية، بحث كارل بولانيي (نيو يورك ١٩٦٨).

أخرى، ولكن لبس لهم منزلة ثابتة في العالم الجامعي، فصارت تعوزهم امكانية التأثير على الأوساط التاريخية في أي بلد غربي. وقبل الحرب العالمية الثانية، قامت بعض البحوث عن إفريقيا في معاهد اسكندينايا أو أوروبا الوسطى والشرقية، ولكن هذه البحوث بقيت هامشية بالنسبة الى البرنامج العام للتعليم العالي، فلم تساعد على تكوين المؤرخين. ويستثنى من ذلك الدراسات المصرية القديمة وبعض المظاهر من ماضي إفريقيا الشمالية في العصر الروماني، وفيما عدا ذلك لم يكن قبل ١٩٥٠ الا قليل من المحترفين من بين مؤرخي إفريقيا، فكان يوجد عدد من الاداريين الاستعماريين ومن المبشرين الدينيين، كما كان يوجد عدد من أهل الكنيسة أو من رجال الدين الأفارقة المتكلمين باحدى اللغات الدولية، أمثال كارل كرستيان رايندوف في ساحل الذهب وصامويل جونسون عند اليوروبا والشيخ موسى كمارة في السنغال، وكتابه «زهو البساتين في تاريخ السوادين» لم ينشر بعد بأكمله، ولم يكده غيره من المؤرخين يشرح في الرجوع اليه (١١).

وقد انكب بعض علماء الانثروبولوجيا أيضا على مواضيع تاريخية، ولكن في إفريقيا حتى ١٩٥٠ لم تعرض أي جامعة برنامجا لائقا للتخصص في التاريخ الإفريقي في مستوى الاجازة، وسنة ١٩٥٠ ما من مؤرخ محترف قصر عمله على تحرير التاريخ الإفريقي وعلى تدريسه، وبعد ذلك بعشرين سنة، أحرز نحو خمسمائة مؤرخ على الدكتوراه أو على ما يعادلها اختاروا تاريخ إفريقيا ضمن نشاطهم الرئيسي.

وسرعة هذا التحول عجيبة، وإذا ما نظر إليها بعد مرور الزمن، فانها تجد لها تفسيراً حسناً، ففي إفريقيا وأوروبا وأميركا الشمالية — وعلى كل قارة لأغراض مختلفة — كان الظرف السياسي والثقافي والجامعي ملائماً خاصة لبروز مجموعة من المؤرخين المحترفين الموجهين نحو إفريقيا. ففي إفريقيا، منذ نهاية الأربعينات، كانت الحاجة اليهم ملحة ولا سيما أن حركة هامة لتحقيق الاستقلال، تشدد شيئاً فشيئاً كانت متوقعة، على الأقل فيما يخص معظم إفريقيا الشمالية والغربية. وبعد ١٩٥٠ خلق انشاء جامعات جديدة الحاجة الى تاريخ إفريقيا متجدد معتبر من وجهة النظر الإفريقية — في مستوى الجامعة في البداية — ثم هو انحدر الى المدارس بعد المرور بمعاهد التكوين التربوي. ومن رواد هذا المجهود العارم الرامي الى تجديد التربية، ينبغي أن نذكر أنوكاديك، فهو رأس جيل جديد من المؤرخين الأفارقة تجاوزوا مراحل التكوين التربوي الاعتيادي، وتم له ذلك بجامعة لندن. وانخرط في هذه الحركة مؤرخون منفيون عن أوطانهم مثل: د. فاج من جامعة غانة (ساحل الذهب سابقاً)؛ ج. د. هو قريف في فوره باي بالسيراليون وكريستوفر ويلي وسيريل اهرليش بماكري بري كليج.

وفي إفريقيا المستعملة للفرنسية ظهرت تدريجياً حركة موازية، فاستمرت الجامعات بالاراضي الفرنسية القديمة، طويلاً بعد الاستقلال، تتبع النظام الجامعي الفرنسي، محتفظة أيضاً بالتقاليد التاريخية الفرنسية. على أن بعض الرواد التحجوا بهدوء نحو تاريخ إفريقيا، وتمت في هذا الاطار

(١١) جونسون: تاريخ اليوروبا (لاغوس ١٩٢١)، كارل كرستيان رايندوف: تاريخ ساحل الذهب (بال، د. ت. ١٨٨٩)، الشيخ موسى كمارة: حياة الحاج عمر، نشرة افان، ٣٢ (سلسلة ب) ٣٧٠ - ٤١١، ٧٧٠ - ٨١٨ (١٩٧٠)، ترجمه ونشره عمار صمب.

مساهمات جسيمة: في السنغال من قبل أحمد مختار أمبوفي فولطا العليا من عمل جوزيف كي زربو، وفي الكامرون من الأب إنجلبرت مونج ومنذ بداية الخمسينات أكسب على البحث المؤرخون الذي أتوا من الخارج، واستقروا في أفريقيا المستعملة للفرنسية، والذين سيكون لهم دور فعال في الجامعات فهذا جان فانسينا الذي سيكون له دور في تدريس التاريخ الأفريقي بجامعة لوفانيوم، قد كان مايزال يعمل في منشآت البحث للحكومة البلجيكية بالكنغو ورواندا. وفي الإيفان بداكار كان ريموند مويني الذي أصبح مدرسا للتاريخ الأفريقي في الصربون يشتغل بالبحث عن أفريقيا الغربية. وأما إيف بوسن الذي مازال حاكما استعماريًا، فقد شرع في بحوث ستكون سنة ١٩٦٨ موضوع كتابه «ساموري» وستمكنه من غرس التاريخ الأفريقي في جامعات أبيدجان وداكار. وكان «الحضور الأفريقي» بواسطة مجلته ومؤتمري الكتاب والفنانين السود بباريس وروما سنة ١٩٥٦ و١٩٥٩ يدفع دفعا قويا لهذا الاتجاه.

وكانت هذه النشاطات تسير في أفريقيا نفسها نحو الدراسات التاريخية الأفريقية، وفي هذا التلاقي بين تاريخ أفريقيا وتاريخ العالم، كانت الساعة الرئيسية هي تلك التي تقدمت فيها دراسة التاريخ الأفريقي على سائر القارات، وكان هذا التقدم مزامنا لتقدم تاريخ أفريقيا في الجامعات الأفريقية، فنذ ١٩٥٠ شرع رولان اليفيه في تدريس التاريخ الأفريقي بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن. وفي الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية الروسية دشن د. أ. الدروج وزملاؤه من المعهد الاتنوغرافي ببلينغراد برنامجا نظاميا للبحوث، من شأنه أن يتم في وقت ما، نشر كل الوثائق المعروفة عن أفريقيا جنوبي الصحراء منذ القرن الحادي عشر، وأكثره باللغة الشرقية مع ترجمة وتعليقات روسية (١٢)، وفي هذه العشرة نفسها أنشئ أول كرسي للتاريخ الأفريقي بالصربون، كما أنشئ كرسي ثاني، كرسي الحاكم السابق للمستعمرات هوبرت ديشان وكرسي ريموند مويني، وأشرف هنري برنشفيك من جهته على إدارة البحوث عن التاريخ الأفريقي بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا، بينما كان روبرت كرونوفان ينشر النشرة الأولى من خلاصته لتاريخ أفريقيا، وقد روجعت عدة مرات وأكملت مرارا منذ ذلك الوقت.

وخارج أوروبا وأفريقيا كان التقدم أقل سرعة، وفي أوروبا نفسها لم يقبل التاريخ الأفريقي في الدورة الجامعية إلا في البلدان المستعمرة. وفي أميركا، حيث جزء كبير من الأهالي من أصل أفريقي، كان من المتوقع أن يظهر بعض الاهتمام بذلك. ولكن مهما كانت أهمية الآثار الثقافية الأفريقية، فلا البرازيل ولا الكرييب أبديا كبير الاهتمام بها، وفي هايتي أبدى المثقفون شيئا من الميل إلى الثقافة الفولكلورية المحلية المرتكزة على الأفريقانية الراجعة إلى أولى آثار الدكتور برايس (١٩٢٠). وفي كوبا شعر بأثر الثقافة الأفريقية الكوبية بعض الشخصيات من عالم الآداب، ومن بينهم نيكولا قيلان. على أنه في كوبا أو في البرازيل لم يسبب الميل إلى الثقافة الأفريقية الاميركية شيئا من الاهتمام بأفريقيا ولا بتاريخها. وفي الهند الغربية البريطانية، حظيت حركة إزالة

(١٢) كويل، ل. وف متغيف (بالروسية): مصادر عربية لتاريخ أفريقيا جنوبي الصحراء وأثنوغرافيتها مجلد ١: من القرن السابع إلى القرن العاشر (موسكو ١٩٦٠) المجلد الثاني من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر (موسكو ١٩٦٥).

الاستعمار بما فيها تحرير التاريخ المحلي بالاولوية البارزة، فلم يكن للافريقية السياسية حتى بعد عام ١٩٦٠ صدى تاريخي في نفوس مثقفي الانتيي.

وكان الاهتمام أقل حدة في الولايات المتحدة قبل (١٩٦٠)، والقليل من الدراسات التي وجد منها كان مركزا على شمال افريقيا. وأدى سبر حديث لاطروحات الدكتوراة المتعلقة بالتاريخ الافريقي المقدمة منذ ١٩٦٠ الى ضبط عددها بـ ٧٤ والحق أن هذا المجموع عجيب، ولكنه يخدع. فعظم الرسائل تتعلق بافريقيا الشمالية وهي من قبل مؤرخين إخصائيين في التاريخ أو الآثار التقليدية أو في افريقيا الشمالية والشرق الاوسط أو — عامة — في الاستعمار الاوربي فيما وراء البحار. وكانت الصدفـة وحدها أو تكاد هي التي جعلت موضوع الرسالة يتعلق بافريقيا. وأما موضوع التاريخ الاستعماري فقلما صار إخصائيا حقيقيا بافريقيا، ونجد من الرواد في جامعة يال هنري . ر. رودن. فقد نشر منذ الثلاثينات محاولات عن تاريخ الاستعمار الالمانى في افريقيا، وما فتئ اهتمامه بافريقيا يزداد بعد ١٩٥٠. وكون الأفارقة الاميركيون جمعا أكثر أهمية. فأكتب و. أ. ب. دوبا منذ بداية عمله على دراسة افريقيا، ولأنه لم يتمكن من الاشتغال بها إلا زمن احواله عن التقاعد وهجرته الى غانة. وقبله بكثير سنة ١٩١٦ أسس كارت. ج. وودسن «صحيفة تاريخ السود» وكانت النشرة في الواقع نشرة افريقية أمريكية أكثر مما كانت افريقية. ولكن التاريخ الافريقي كان رسميا في منظورها، وكان يوجد فيها من حين الى آخر فصول عن ماضي افريقيا. ولكن الداعية الحق لتاريخ افريقيا هو ويليام ليوهنسبري من جامعة هورد، فقام بحملة منعزلة لتسجيل تاريخ افريقيا ضمن منهاج التدريس بالجامعات الاميركية، وحيث كان التمييز العنصري ما فتئ قائما، خاصة في المدارس ذات الأغلبية القوية من السود في الولايات الجنوبية.

وهكذا فان ظروف نشر التاريخ الافريقي خارج افريقيا وجدت قبل ١٩٦٠ على درجات مختلفة. وحوالي هذا التاريخ جعل الكفاح في سبيل استقلال افريقيا الشمالية وافريقيا الاستوائية اشعاعا جديدا لافريقيا، فأثار الاهتمام الشعبي الذي اتجه نحو الماضي لا الى الحاضر أو المستقبل. على أن تقدم التاريخ الافريقي في عدة بقاع قد خيب الأمل. فرغم ما أعيرت الوحدة الافريقية من أهمية سياسية فان جامعات افريقيا الشمالية وطلبتها لم يتقدموا الا شيئا فشيئا نحو تصور قاري لدراسة ماضيهم ذاته. فكان المغرب يرتبط مع عالم البحر الأبيض المتوسط ومع العالم الاسلامي ومع العالم الشقافي الناطق بالفرنسية الذي كانت باريس مركزه. وكانت هذه العوالم الثلاثة كافية لتعبئة كل اهتمام الجمهور المثقف. وكثيرا ما أكد لسان الحال الرسمي المصري، أن مصر كانت افريقية بقدر ما كانت عربية اسلامية، ولكن دراسات التاريخ بمصر كانت دائما تنتمي الى فكرة تخيرية في الحين نفسه الذي لفت فيه سد أسوان وأعمال الجماعات الأثرية الدولية في نوبيا النظر الى النيل الأعلى.

ان موضوع «الفكرة التخيرية» تلك، كان — بل أكثر من ذلك — فكرة الدراسات التاريخية في افريقيا الجنوبية. فلم تضعف الرقابة السياسية التي كان يقوم بها اروبوما وراء البحار في جمهورية افريقيا الجنوبية. وفي الجامعات لم يكن يشعر بالتاريخ الافريقي، وأما «التاريخ» فكان تاريخ أوربا وتاريخ الاقلية الاوربية في افريقيا الجنوبية. ومع كتاب «تاريخ اكسفورد لافريقيا الجنوبية» (١٩٦٩ — ١٩٧١) انفسح المجال حتى حوى الأغلبية الافريقية، الا أن أحد مؤلفيه،

المؤرخ ليونارد طومسون لم يزل يدرس في افريقيا الجنوبية، والمؤلفة الثانية، مونيكاس ولسن، وإن كانت مولعة بالتاريخ، فقد كانت عالمة بالانثروبولوجية، وفي زمبراي، حوالي ١٩٦٠، كان الاتجاه يرمي الى اقحام لمحّة عن التاريخ الافريقي ضمن الدراسات التاريخية، ولكن التصريح الوحيد الطرف، المعلن لاستقلال الأقلية البيضاء ازاء بريطانيا العظمى قد عكس الاتجاه، ومن الغريب أن زمبواي قد انتجت من الطلبة في تاريخ افريقيا نسبة أعلى من نسبة افريقيا الجنوبية، ولكن معظمهم اضطر الى مواصلة ممارسة مهنتهم في المنفى.

وكانت افريقيا الاستوائية أول بؤرة لدراسة التاريخ الافريقي على القارة الافريقية وفيها سجلت التقدمات المهمة في العشرية الأولى من الاستقلال، فكان لتاريخ الافريقي مادة من مناهج التدريس بالجامعات الاستوائية ولكن الشئ الهام كان ان يبحث عن توازن لائق بين التاريخ المحلي والجهوي والافريقي والعالمي، أي وبكلمة أدق أن ينزع الاستعمار عن مجموع برنامج التاريخ لا أن يضاف اليه مؤلفة افريقية، وتمت أكبر التغيرات في افريقيا الناطقة بالانكليزية، وبها صارت النظم القاسية التي وضعها الاوروبيون أشد طواعية منها في البلدان الناطقة بالفرنسية. فحلت مواد أخرى محل تدريس تاريخ بريطانيا العظمى وامبراطوريتها، وأخذ تاريخ الامبراطورية البريطانية يضمحل تماما، بينما انصهر تاريخ بريطانيا العظمى مع تاريخ أوروبا. وفيما يخص تدريس تاريخ أوروبا بافريقيا، كان التيار الجديد يرمي الى جعل مختلف التواريخ القومية تابعة لدراسات مواضيع عظمى تتجاوز الحدود، كمواضيع تخطيط المدن أو الثورة الصناعية. وفي الآن نفسه أخذ المؤرخون الافريقيون يعنون بتاريخ مناطق أخرى — منطقة العالم الاسلامي شمالا مع التأكيد خاصة على اثره في جنوبي الصحراء ومنطقة أميركا اللاتينية أو منطقة آسيا الجنوبية الشرقية، إذ كان في الامكان أن تعتبر موافقتين لبعض مظاهر التجربة الافريقية، ومنطقة آسيا الشرقية حيث كانت التنمية الاقتصادية باليابان تمثل مثالا قد يكون لافريقيا أن تعتز به. وتمثل هكذا اثر التاريخ الافريقي في تجديد الاتجاه العام نحو تصور للعالم وللماضي متمركزا حقا على افريقيا دون أن يعني بافريقيا والأفارقة فحسب، كما كانت السيرة الاوربية القديمة تقصر همها على الاوربيين، بل في اطار نظرة عالمية يكون منطلقها افريقيا لا أوروبا.

ولم يدرك هذا الهدف حتى في أشد الجامعات الناطقة بالانكليزية تقدما، وأنه لا مناص من قضاء مدة لتكوين جيل جديد من المؤرخين الافارقة المجددين، سوف يقتحمون مسالك جديدة يكونون هم أنفسهم قد اختاروها. وبقيت الجامعات الناطقة بالفرنسية متأخرة بنحو عشر سنوات. فجاءت ابيجبان وداكار ولمباشي (الوارثة لجامعة لوفان في حقل التاريخ) هي أقدم الجامعات الناطقة بالفرنسية، ولم يصبح معظم أساتذة التاريخ فيها أفارقة الا في بداية السبعينات، بينما تم هذا التطور في أقدم الجامعات الناطقة بالانكليزية في بداية الستينات. والآن وقد احتل المؤرخون الأفارقة مناصبهم في الجامعات الناطقة بالفرنسية، فانه من المتوقع أن يتم تعديل مشابه في تصورات التاريخ العلمي. إلا أن اصلاح برامج التاريخ في المدارس الثانوية في البلدان الناطقة بالفرنسية تم سنة ١٩٦٣، وتبعه مباشرة اصلاح برامج الدراسات التاريخية الجامعية في اطار منهاج المجلس الافريقي والملاغشي للتعليم.

وكان اثر التاريخ الافريقي على البحث التاريخي وعلى تدريس التاريخ في أوروبا الغربية، مرتبطا بالعلاقات القديمة الاستعمارية، ولذا كانت فرنسا وانكلترا أهم المراكز الاوربية لدراسة التاريخ الافريقي.

على أنه في غيرهما من المراكز سجل بعض التقدم في دراسة التاريخ الافريقي، ولا سيما في تشيكوسلوفاكيا وبولونيا كما في الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية الروسية، حيث يدرس تاريخ افريقيا تدريسا نظاميا في جامعة باتريس لومومبا بموسكو، وتتمثل رسالتها الخاصة في تكوين الطلبة الافارقة. وفي بلدان أخرى يتابع إخصائون منعزلون بحوثهم في مختلف المراكز الجامعية، على أن ذلك إنما يتم بانتظام في معاهد البحث المتبعة للتقليد الألماني في التنظيم الجامعي. فالباحثون المتخصصون في افريقيا، منعزلون بعض الانعزال، وقد يعلل ذلك كون الدراسات التاريخية في العديد من الجامعات الاوربية، ما عدا انكلترا وفرنسا، لا تخصص أي نصيب لافريقيا.

والتقاليد العامة في الدراسات التاريخية مستوحاة من فكرة تحيزية في هذه البلدان، ولكن تكوين الحكام الاستعماريين كان له وزن خاص فيها. وبدأت عملية ارجاع هؤلاء الحكام الى بلدانهم منذ ١٩٥٥ تقريرا، وشرع عدد منهم في شغل وظيفة جديدة تمثل في تاريخ البلدان التي كانوا موظفين فيها.

وهكذا كان الأمر في فرنسا كما يشهد عليه أمثال الاستاذين ديشان وبروسن، فبالنسبة الى هذا البلد كما بالنسبة الى انكلترا فإن انشاء جامعات جديدة افريقية ونموها — منذ الخمسينات — قد فتحا في افريقيا مواطن للشغل، واختار مؤرخون شبان مواضيع افريقية للتدرب على البحث، أو هم عنوا بالتاريخ الافريقي عندما ذهبوا الى افريقيا قصد التدريس فيها. ثم في الستينات والسبعينات ارجع هؤلاء المؤرخون تدريجيا الى بلدانهم وحلّ محلّهم الأفارقة، فأدجوا في سلك التدريس في وطنهم الأب أحيانا، بعدما قضوا ثمانية أو عشرة أعوام في افريقيا. ولم يدرس كل من رجع منهم التاريخ الافريقي ولكن عدد من قام بذلك منهم، عدد له معناه، فعدد المؤرخين العائدين من الجامعات الافريقية الى الجامعات البريطانية بين ١٩٦٥ و ١٩٧٥ قد يتراوح بين ٦٠ و ٧٠ أي أنه يمثل من ٨ الى ١٠ ٪ من جملة المؤرخين المدرسين في الجامعات البريطانية في تلك الفترة. وفي سنة ١٩٧٤ كان ثمة ثلاثة كراس «للتاريخ المعاصر» (والمقصود بذلك عادة تاريخ بريطانيا العظمى المعاصر)، يشغلها مؤرخون، أهم مواضيع بحوثهم كانت مخصصة لافريقيا. وأنه لمن السابق لأوانه أن نحدد أثر هذه العودة من افريقيا على التقاليد التاريخية البريطانية عامة، ولكنه قد يكون مقبولا في فرنسا، ولو أن الاعداد المشابهة أضعف، وأن المدرسين العائدين من افريقيا يمثلون نسبة مئوية أصغر من الملاك الجامعي. فإنا نلاحظ ظاهرة شبيهة بالسابقة (هناك جيل جديد من المؤرخين أخذ يعني بافريقيا). ففي باريس وفي مختلف الجامعات كما في مركز الدراسات الافريقية وهو مشترك بين الجامعات، يوجد عدد من الاخصائيين في التاريخ وفي علم الاجتماع وعلم الآثار كانوا عملوا مدة تطول أو تقصر في الجامعات الافريقية، وبقوا مرتبطين بها ارتباطا وثيقا، والامر عينه في اكس وبرودو وليون. وعملت الجامعات الفرنسية والبريطانية بصورة متوازية على تكوين مؤرخين أفارقة يحلون محل

العائدين الى بلدانهم (١٣) فالمعاهد من نوع «مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية» بلندن، والفروع المنتشرة المتفرعة عن الصوروبون وعن المدارس العليا بباريس، كانت ترمي الى القيام بدور خاص، ففي المدرسة الأولى (SOAS) مثلاً ٥٨% ممن حصلوا على الدكتوراه من ١٩٦٣ الى ١٩٧٣ بدؤوا بالتدريس في افريقيا، وأقل من ٢٠% من المجموع بريطانيون و٣٠% فحسب حصلوا على منصبهم الأول في جامعة بريطانية (١٤). وهذا مما نقص قليلا من اثر هذه المدرسة المباشر على التربة البريطانية، ففيها اجتمع أهم مجموع من المؤرخين لافريقيا في أي جامعة من الدنيا، ولكن اثرها الغير المباشر كان عظيماً، وعلاوة على هذه المدرسة فإن جامعات برمنغهام وسوسكس وادمبرغ قد خصصت ضمن برامجها مهمة خاصة للتاريخ الافريقي، وعلى الأقل ثمان من الجامعات الأخرى يوجد فيها أخصائي للتاريخ الافريقي يدرس هذه المادة بانتظام لطلبة الحلقة الاولى.

ولعل هذا المستوى الخاص من التطور في بريطانيا العظمى كان متوقعا، نظرا للاهتمامات الاستعمارية والاستعمارية الجديدة الخاصة بهذا البلد ازاء البنيات الجامعية الافريقية. وبالعكس فان النمو العظيم للبحث عن تاريخ افريقيا في الستينات من قبل أميركا الشمالية، لم يكن متوقعا، خصوصا وان مؤرخي الولايات المتحدة لم يشتهروا بمعالجة موضوع الأفارقة الاميركان في مجتمعهم ذاته معالجة عادلة. والأقلية الكبيرة من سلالة الأفارقة في الولايات المتحدة منذ الأصل، لم تراثهما ملحوظا بافريقيا حتى لدى معظم الأفارقة الاميركان. على أن الازدهار المفاجئ لدراسة التاريخ الافريقي يلاحظ في كندا، كما يلاحظ في الولايات المتحدة، ولأن كندا لم تحكم في أي جزء من افريقيا كما حكمت بريطانيا العظمى، ولا هي ضمت من بين رعاياها أقلية مهمة من الافارقة الأميركيين، كما هو الشأن في الولايات المتحدة.

وقبل ١٩٦٠ لم يكد تاريخ افريقيا يدرس في أمريكا الشمالية، وحوالي ١٩٥٩ بعيد انشائها لم تضم «جمعية الدراسات الافريقية» سوى ٢١ عضوا في الولايات المتحدة أو كندا، يمكن أن يدعى صفة المؤرخ، ومن بينهم أقل من النصف كانوا يشغلون مناصب جامعية تتطلب منهم أن يخصصوا لتاريخ افريقيا أحسن أوقاتهم. ثم أن أول مؤتمر دولي لافريقيين عقد في أكراس سنة ١٩٦٢ ضم نحو ثمانمائة مشترك، القى أمامهم الرئيس كوامي نكروما خطاب الافتتاح، فوصف مسؤوليات الاختصاص التاريخي ازاء افريقيا الجديدة، ثم كان السيل المهم، فسنة ١٩٧٠ كان عدد الأميركيين الشماليين الاخصائيين في التاريخ وفي علم الآثار الافريقية قد بلغ ٣٥٠، وكان بعضهم مؤرخين كانوا قد بدؤوا باختصاص آخر ثم غيروا طريقهم، ولكن معظمهم كانوا طلبة أحداثا لم يكادوا يفارقون الدورة الثانوية.

ومن ١٩٦٠ الى ١٩٧٢ خرّجت المدارس الأميركية أكثر من ٣٠٠ دكتور في فلسفة التاريخ الافريقي. وكان من بينهم شبان أتوا من افريقيا وبنوون العودة إليها، وكان البعض قد جاء من

(١٣) اي لأشكر الاستاذ ج. ف. أجايي من جامعة لاقوس، والاستاذين ج. د. فاج ورولان أوليفيه، على الارشادات التي أمدوني بها عن اثر التاريخ الافريقي في التاريخ عامة في أوروبا، على أن كل خطأ في الواقع أو في التقرير الذي قد يشتمل عليه هذا النص، انما هو محمول على وحدي.

(١٤) رولاند أوليفر «الدراسات الافريقية التي أجريت في لندن ١٩٦٣ - ١٩٧٣» دراسة لم تنشر قدمت الى المؤتمر الدولي الثالث لأخصائي الدراسات الافريقية، أديس أبابا، ديسمبر ١٩٧٣.



أوربا ولكن الأغلبية الساحقة كانوا أميركان شماليين، وفيما بين الأفارقة الأميركيين والأوروبيين الأميركيين كانت النسبة هي عنها في جملة السكان — نحو ١٠٪ في الولايات المتحدة، وأقل بكثير في كندا.

وهكذا قد أدى الى نشر تاريخ افريقيها في أميركا الشمالية اتجاهان متناقضان في اطار الدراسات التاريخية، فمن آراء المجموعة الافريقية الامريكية نشأ ايمان ثابت بأن افريقيا ملك للشعوب الافريقية ولأبنائهم المستقرين في سائر القارات، شأنها شأن أوربا حيث كانت التواريخ القومية ملكا لكل أمة أوروبية. أي أن الفرق بدا واضحا بين أهداف «تاريخ افريقيا للافريقيين» و«تاريخ افريقيا في اطار التاريخ العالمي»، على أن الفرق لا يعني المناوئة «فالتاريخان» ليسا متنافرين، ولو أن كلا منهما اختار التأكيد على جوانب مختلفة من الماضي.

فالالاتجاه المتمركز الاثنولوجي في التاريخ قد زعزع جديا في أميركا الشمالية أكثر من خارجها. ففي العديد من المدارس حل محل «تاريخ العالم» القديم، وما هو في الواقع الا تاريخ الحضارة الغربية الذي فصح المجال خلال الستينات والاتجاهات جديدة أشد أصالة تضع التاريخ في منظور عالمي، حيث وضعت افريقيا على قدم المساواة مع مناطق ثقافية عظمى أخرى مثل آسيا الجنوبية أو الشرقية. وشرعت عدة أقسام للتاريخ في الجامعات الأمريكية الشمالية في تجاوز التقسيم القديم للتاريخ الى أمريكي وأوروبي، الى تقسيم التاريخ الى ثلاثة فروع الثالث منها — تاريخ العالم الثالث — يعادل الفرعين الاولين.

ولما ينتبه هذا التطور، ولكن بصورة موازية لنشر التاريخ الافريقي في بريطانيا العظمى وفرنسا، ولاعادة التوجييه لبرنامج تدريس التاريخ في الجامعات الافريقية، توقف التطور في مرحلة على طريق، سوف يكتن التاريخ الافريقي من كامل التأثير على التاريخ عامة. وعلى مدى طويل يرتبط النجاس بتضافر الجهود من قبل إخصائيين أفارقة يحرون تاريخ مجتمعاتهم الخاص، وكذلك جهود مؤرخين غير أفارقة يؤولون التاريخ الافريقي لمجتمعات أخرى، كما يؤدي افساح مجال العلوم الاجتماعية الدولية الى أن ينتبه الاخصائيون في سائر الاختصاصات للمعطيات الافريقية قبل المجازفة بكل تعميم حول حياة المجتمعات البشرية.



## الفصل الرابع

# المصادر والتقنيات الخاصة بالتاريخ الافريقي لمحة عامة ت. أوبنجا

ان القواعد العامة للنقد التاريخي التي جعلت من التاريخ تقنية الوثيقة، والفكر التاريخي الذي يتطلب دراسة المجتمع البشري في مسيرته خلال العصور، لمن المكتسبات الأساسية التي في امكان كل المؤرخين في كل البلدان أن يستخدموها. واغفال هذه المصادر قد جعل شعوب افريقيا خلال زمن طويل، خارج حقل المؤرخين الغربيين، وقد كانت أوروبا وحدها عندهم هي كل التاريخ، وفي الواقع ان ما كان خافيا لا يظهر بوضوح، هو اعتقاد مستمر بأنه لا وجود لتاريخ في افريقيا، لفقدان النصوص وفقدان الآثار العلمية. فصار من البين اذن أن أول عمل تاريخي، يبتدىء بتحقيق المصادر، ويقترون هذا العمل بمشكل نظري أساسي هو التعرف على الطرق التقنية في العمل التاريخي.

حدثت بالباحثين حاجة جديدة عميقة الى المعرفة والادراك مرتبطة ببداية عصر ما قبل الاستعمار، فأنشؤوا التاريخ الافريقي، ولو أن بناء منهجية خاصة مازال مستمرا. واكتشفت قطاعات فسيحة من الوثائق، فكنت البحث من التساؤل تساؤلات جديدة. ومهما عرفت مخبئات التاريخ الافريقي ازداد هذا التاريخ تنوعا وتم بناؤه بناء مغايرا لم يكن متوقعا، فذ خمسة عشرة عاما تقر يبا قلبت آلات العمل رأسا على عقب، واعترف اليوم أنه توجد مصادر تستخدم خاصة التاريخ الافريقي: علم الجيولوجيا والاتنولوجية القديمة وما قبل التاريخ وعلم الآثار والنبات العتيق والبالينولوجيا وقياسات النشاط الاشعاعي للنظائر، في امكانها أن توفر معطيات زمنية مطلقة عن عمر أزمان البشرية، وثمة جغرافيا طبيعية ومشاكل بشرية، مشاهدات اتنولوجية اجتماعية وتحليلها، رواية شفاهية، السننية تاريخية أو مقارنة، وثائق كتابية أوربية، عربية، هندية، صينية، وثائق اقتصادية أو ديموغرافية ملائمة للعلاج الالكتروني.

وبقيت مطاوعة المصادر التاريخية الافريقية عجيبة، فمن اللازم دائما أن يبحث بانتظام عن توارثات ذهنية تربط بين قطاعات كانت في الماضي متميزة، أما استخدام المصادر استخداما متقاطعا فقد بدأ من باب التجديد الكيفي، ولا يمكن تحقيق بعض العمق الزمني الا باستعمال عدة أصناف من المصادر في آن واحد، فالحالة المنفردة تبقى، ان صح القول، هامشية بالنسبة الى حركة المجموع، ويمثل التكامل الكلي للطرق وتقاطع المصادر، مساهمة فعالة من افريقيا للعلم، بل وحتى للوعي التدويني للتاريخ المعاصر.

وعلى فضول المؤرخ أن يسير على مسارات عدة في آن واحد. ولا ينحصر عمله في تحقيق المصادر، بل الشأن أن نتملك الماضي البشري بواسطة ثقافة متينة متعددة الأبعاد، فالتاريخ نظرة الانسان الحاضر الى مجموع الأزمنة.

وفي هذا المجلد وصف معظم هذه المصادر والتقنيات المخصصة لتاريخ افريقيا وصفا فسيحا مستمدا من الرياضيات ومن الفيزياء الذرية والجيولوجيا والعلوم الطبيعية والعلوم الانسانية والاجتماعية. وهنا سنؤكد على مظاهر ومشاكل لم يجز تحليلها في محل آخر.

ولا شك أن الحديث المنهجي الحاسم الذي تم في السنوات الأخيرة هو تدخل العلوم الفيزيائية العصرية في دراسة الماضي البشري، بواسطة قياسات النشاط الاشعاعي للنظائر، والذي أكد بيان التسلسل الزمني في الماضي حتى في العصور الأولى من ظهور انسان سايبان (بواسطة الفحم ١٤)، أو في الأزمنة التي تزيد عن المليون من السنوات (بواسطة البوتاسيوم - الارغون).

وتختصر طرائق تحديد العمر المطلقة اليوم، اختصارا عظيما النقاشات في مجال التكنولوجيا القديمة البشرية وما قبل التاريخ (١). ففي افريقيا يؤرخ أقدم وجود للانسان الهومييني بقدر ٣٠٠،٠٠٠، ٥ سنة بطريقة البوتاسيوم - ارغون، وهذا العمر هو عمر قطعة من فك أسفل، به ضرس سالم من انسان هومييني عثر عليه الاستاذ بريان بترسن سنة ١٩٧٠ بلوطاغم في الكينيا. ثم إن أسنان الانسان الهومييني التي وجدها في الطبقات التي تنسب الى فيلا برانش بوادي أموجنوب اثيوبيا، جماعات من الفرنسيين (كاميل - ارمبوغ - ايف كوبنس) والاميركان (ف. كلارك هول)، ترجع من ٢ الى ٤ ملايين سنة. ومستوى زنجنطروب (المستوى ١) من المعدن الشهير بالالدوواي في تنزانيا يؤرخ بقدر ١٧٥٠٠٠٠ سنة، وذلك بطريقة البوتاسيوم - الارغون أيضا.

وبفضل طريقة نظائر البوتاسيوم - ارغون، فإن التكوين البشري بالشرق الافريقي، وهو أقدم الوجود فيما نعلم اليوم، هو حقا التكوين البشري، المطلق، بقدر ما صارت العرقية الوحيدة أكثر فأكثر اليوم، النظرية المقول بها في التكنولوجيا القديمة العامة. وهكذا تمدنا المتحجرات الافريقية المعروفة اليوم بعناصر حاسمة للجواب على هذا السؤال الأساسي لأصول البشرية الذي عرض بكيفيات عديدة على طول تاريخ البشرية: «اين ولد الانسان؟ ومنذ كم؟»

وتغيرت الآن تماما الأفكار القديمة المتحجرة والتي كانت تضع افريقيا على ثغور امبراطورية كليون وعلى تخومها. فالأحداث التي أبرزتها مصادر مختلفة وطرق متنوعة، هنا التكنولوجيا القديمة البشرية

والفيزياء النووية، تظهر بالعكس وبوضوح، ما للتاريخ الإفرقي من عمق، وقد انطبقت بالفعل أصولها بأصول البشرية الصانعة لنفسها.

وتنير إرشادات مستمدة من مصادر أخرى، من علوم الأرض مثلا، تاريخ إفريقيا، بقطع النظر عن كل وثيقة مكتوبة. فحياة سكان الحوض البحري للتشاد مثلا، وتاريخها قد يكون من العسير فهمها لولا تدخل الجغرافيا الفيزيائية. ويجدر أن نشير إلى قيمة هذه الطريقة المنهجية.

فالحياة والبشر داخل حوض بحيرة التشاد، لم يوزعا توزيعا عشوائيا. وييدي هذا الحوض جدول القياسات الارتفاعية (عن سطح البحر) التي: سهل مركزي تجمعي بين ارتفاع ١٨٥م و ٣٠٠م؛ ومن حول حلقة متقطعة بعض التقطع من الهضاب القديمة المتآكلة وقد أخفت أحيانا عوامل تحولها إلى شبه سهول تخفي نشاطا بركانيا حديثا؛ وبين هذه الهضاب ذات ١٠٠٠م من الارتفاع الوسطي ومناطق التجمع السفلي؛ منحدرات عامة قوية، نتجت عن عوامل تحتات شديدة في مناخ قوي الرطوبة. وبالفعل إن منطقة الأراضي الختاتية السهلة القابلة للمطر تبدي أقوى كثافة ديموغرافية، أي من ٦ إلى ١٥ نسمة في الكيلومتر المربع. وفي المناخ الساحلي تشهد كثافة طيبة أيضا على أراضي النقل التي أخصبها رشوحات التشاد أو فيضاناته. وعلى الهضاب المرتفعة في الشرق والجنوب في دارفور وآدموا حيث تنزل روافد البحيرة، تنحط الكثافة السكانية إلى حد نسمة واحدة في الكلم ٢. وهي تزيد انحطاطا في الشمال وقد آكل إلى صحراء. وهكذا يرتبط وجه البشرية في هذا الحوض بقوة بمشكل من مشاكل الجغرافيا الطبيعية وعلم شكل الأرض الذي يحدد بذلك التطور البشري.

وتأخرت الحضارة أذن أمام الصحراء وانحصرت ضمن حدود زراعة الذرة والدرع بدون ري تقريبا، إلى خط عرض تشاد الجديد (تجري الزراعات السقوية للخضر والتبغ والقمح على ضفاف لوقون والشاري) ويعيش المزارعون والرعاة والصيدون في المنطقة الجنوبية حيث تحبى مياه الأنهار والبحيرات والأراضي، فتخضر المراعي وتحلب دوريا عددا من الصيادين. وبالعكس إن التحات في المناطق الصحراوية الشمالية يجعل التربة غير ثابتة كما يجعل النبات ضعيفا يتميز بالأدغال الشوكية القتنة.

ولكن هذه البنيات الجيومرفية قد بعثت أيضا نشاطا بشريا آخر، فكثيرا ما طردت غزوات الغاصبين المزارعين الأهالي من الهضاب الصحية والسهول الخصبة دافعة بهم إلى المناطق (المنحدرة أو القمم) الغير الصالحة لتربية المواشي. وهكذا دفع القليلون اليوم والدور إلى الأراضي الأقل خصبا في الآدموا والكيروي شمالي الكامرون، وعلى الركامات الغرانيبية في سلاسل جبال المنديرا. وخدمة الأراضي المنكشفة عن الفيضان أو المنحدرة هي ولا شك خدمة شاقة وجاحدة لهؤلاء الشعوب ولكنها تلائم ملاءمة أفضل أدواتهم البسيطة، ثم إن وجود مساحات مستنقعية دورية أو بصورة دائمة على مناطق النقل، يتبعه كثرة من البعوض (بعوضة الملاريا ذات السوق) وهناك من جهة أخرى أعشاش ذباب النعاس على جانبي اللوقون والشاري في الوحدات الواطئة المحبة للماء بسالكس وميژا أسبراتا، التي تمتد على الرواسب الحالية. فتصير هذه المناطق مهجورة لما ينتج عن ذلك من مرض الملاريا ومرض النعاس.

وبالجملة كمي يدرك المؤرخ إدراكا محسوسا الحياة البشرية في حوض التشاد الذي عرف في الماضي عدة تموجات في العصر الرابع الجيولوجي بسبب تحولات المناخ، يكون حتما عليه أن يرجع

الى جملة متنوعة من المصادر والتقنيات الخاصة المستمدة من علوم الأرض وعلوم الحياة: فالتوزيع الحالي للسكان، وحركات الهجرة الماضية، والنشاط الزراعي والرعي الخ، كل ذلك يتبع بدقة حالة المحيط.

وما مثل حوض التشاد الا صورة من بين عديد الصور الأخرى. وحيث تحرر الفضول العلمي من بعض التصورات المقيدة، لم تكن النتائج أقل اضاءة وأقل توضيحا. فيوجد فرق ساطع بين دماء من اختبروا من الناس (٣٠٠ شخصا سنة ١٩٧١ و ٣٥٩ سنة ١٩٧٢) النيانقاطوم أو البومي بوادي الاوموقرب التركرا في الشمال الغربي من كينيا. ولم تلاحظ هذه الظروف من الناحية الوبائية بين الأجناس بل بين القرى (التي تحوي من ٢٠ الى ٣٠٠ نسمة). وهذه القرى يسكنها اناس يعيشون بتربية الماشية وبالزراعة وبقطف الثمار والصيد البري والصيد البحري أو النهري، وهي تخضع لنظام قبلي دقيق يشعبه توزيع الى مناطق ترابية، ولكن في هذا المجتمع لا وجود لرئيس على الأكبر سنا. فالفروق الناشئة عن التنظيم الاجتماعي الترابي عند النيانقاطوم ترى معكوسة على علم المصول، وخرطة تفاعلات المصول على المولدات المضادة تصور حرفيا احصاء السكان المختبرين (٢).

وهذا المثال من الاشتراك الحركي بين عالم الطفيليات وعالم الانثروبولوجيا، فيه عبرة للمؤرخ الذي قد يخرج منه بغم كبير. وليس من الخارج عن اهتمامه أن يتعرف وجود مثل هذه المادة الوثائقية التي قد تظهر نجاعتها في تحليل السلوكات الجنسية، وفي دراسة التزايد الديموغرافي عند النيانقاطوم.

و يبقى مشكل الإستكشاف، ومشكل المعرفة الأساسي هو هو: فعلى المؤرخ في افريقيا أن يكون يقظا تمام اليقظة لكل أنواع طرق التحليل، كي يركب خطابه الذاتي بالاعتماد على موسم خصب من المعارف.

و يبقى «تفتح الفكر» هذا، مطلوبا بصورة خاصة، بالنسبة الى العصور القديمة، حيث لا وجود للوثائق الكتابية ولا للروايات الشفاهية المباشرة. فنحن نعلم مثلا أن القمح والشعير والذرة في آسيا وأوروبا وافر يقيا والذرة في أميركا، كادت تكون قاعدة الزراعة بالنسبة الى الانسان في العصر الحجري الحديث. ولكن كيف يمكن ضبط النظم الزراعية الأولى التي ظهرت منذ هذا الزمن البعيد؟ وكيف يكون في الامكان أن يميز بين عمران مكون من مستقرين... عمران أساسه الفلاحون؟ كيف تم تأهيل النباتات على مختلف القارات ومتى تم ذلك؟ فلن تعيننا الرواية الشفاهية كبير الاعانة في هذا المجال ولا الميثولوجيا أيضا، بل ان علم الآثار وطرق الدراسة للنباتات القديمة وحدها هي التي تمدنا بالجواب المقبول عن هذه الأسئلة المهمة المتعلقة بالتراث الثمين للعصر الحجري الحديث أعني الزراعة.

ان بنية غبار الطلع تواجه الزمان بمقاومة كبيرة في التربة الصالحة غير الحامضة، فيوفر لنا علم الباليينولوجيا القديمة تحليلا مجهريا لهذه البقايا النباتية، ويمكن الحصول على غبار الطلع المتحجر بالتحليل التدريجي لعينة من التراب بواسطة الحوامض في حالة الحرارة (الحامض الفلورهدريك أو

(٢) أعمال فرانسوا رودان، عالم الحشرات، وسيرجي طرناى عالم التولوجيا، وكلاهما أعضاء البعثة الفرنسية في الأوموبادارة السيد ايف كوبنس (١٩٧١ - ١٩٧٢).

الكلورهدريك) فتلغي مادة الغضار والكلس دون أن تؤثر في غبار الطلع، ثم تلتقي المواد العضوية والبوتاس. ويعالج الباقي بواسطة الحركة الجاذبة ويصبع ثم يعلق بالهلام. ولم يبق إذن للدارس سوى أن يعرف كل حبة ويحدد عدد الحبات، لتركيب جدول مثوي يمكن من تمثيل غبار الطلع في الراسب المدروس، وبذلك يثبت وجود الزراعة في موقع ما. وتطور المشهد المذكور والمناخ المستوحى من خلال تغيرات النباتات، وكذلك العمل المتوقع للانسان والحيوانات على الغشاء النباتي.

لقد كشفت تحاليل من هذا النوع عن نشاط للتأهيل الزراعي بافريقيا تقع في عدة مراكز متوزعة على مناطق فسيحة. فالذرة (قد تم تأهيلها على السهوب الممتدة من بحيرة التشاد الى الحد الفاصل بين السودان واثيوبيا) والذرة الصغيرة والارز الافريقي والوندزو وجبلان المرعي ونخيل الزيت (المهل على ضفة الغابات) و«ذرة الاصبع» والقناوية والأنيام الافريقي الخ. كانت تلك إذن النباتات الرئيسية المزروعة.

وأما النباتات الأميركية فحديثة الدخول نسبيا كما تشهد ذلك هذه المرة عدة مصادر مكتوبة. فالمنيوك مثلا هو اليوم الغذاء الأساسي لعدة شعوب بافريقيا الوسطى، لم يدخل مملكة الكنفو من الساحل الاطلسي الا بعد القرن السادس عشر، وذلك أن رسالة بيقافنا لوبز (١٥٩١) لم تذكر من بين النباتات المزروعة على هضبة بمنزاكنغو عاصمة المملكة سوى اللكواي الألوزين كوروكنا وبذرته مستوردة من ضفاف النيل، في الجهة التي ينصب فيها النهر في البحيرة الثانية (٣) «والمساما كنغو من الحبوب وهي نوع من الذرة، والقطاني، مسغو أو مسامبوتو» وهي أخسها وبها تعلف الخنازير (٤)، والارز لوزو و«ليس له كبير قيمة أيضا» (٥)، وأخيرا شجر الموز، ديكندو ونخيل الزيت المسمى «با».

وقليلا ما نعرف أن هناك نباتات افريقية انتشرت هي أيضا انطلاقا من هذه القارة، فرور الأنواع الافريقية الى الهند مثلا، وإلى غيرها من الجهات الآسيوية أمثابت ولكنه متأخر، فنوعا الذرة (الذرة الصغيرة وذرة الاصبع) تشهد الاكتشافات الأثرية بوجودها في الهند حوالي سنة ١٠٠٠ ق. م وأما الدرر (الذرة البيضاء) فلقد عرفت هناك فيما بعد، اذ لا وجود للفظ سنسكريتي يدل عليه.

وقد تفيد المؤرخ كل هذه الارشادات التي يوفرها علم الآثار وعلم النباتات القديمة عند فقد أي وثيقة مكتوبة وأي رواية شفاهية، وتضوح له سلسلة المراجع التي مر بها أجدادنا في العصر الحجري الحديث، من اقتصاد جني الثمار الى اقتصاد الانتاج، وتبدو هذه الأحداث للعيان كتيارات ارتباط بين الحضارات في العصر الحجري الحديث، لا ضربا من الانتشارية.

وتوحي بقايا الكلب والخنزير والضأن والماعز، بأنه شرع في تأهيل الحيوانات، في مراكز الشرق الأدنى، من العصر الحجري الحديث، حوالي الفترة نفسها التي استتبنت الأرض أي بين ٩٠٠٠ و ٨٠٠٠ ق. م، ومنذ ذلك الوقت تسلسل تاريخ نظري لتأهيل مختلف المجموعات من الحيوانات. ثم

(٣) ف. بيقافنا — لوبز، ص ٤٠.

(٤) ف. بيقافنا — لوبز، عين المرجع.

(٥) ف. بيقافنا — لوبز، عين المرجع.

ابتداء من آكلي الجيف كالكلب، ثم الحيوانات الرحالة كالرنة والمعزة والخروف، وفي النهاية ما من الحيوانات يتطلب الحياة القارة: كالمواشي الضخمة والخنزير. وأما الحيوانات الصالحة للحمل والنقل وتشمل الحصان والحمار واللاما، فقد يكون تأهيلها راجعا الى فترة متأخرة جدا. الا أن هذا التسلسل التاريخي العام لا يهم دائما افريقيا.

فالحصان الذي لعب مع الثور والحمار دور «المحرك للتاريخ على مر العصور»، لم يظهر في افريقيا، وبالصبط في مصر، كما تشهد بذلك المصادر المخطوطة أو المصورة، الا حوالي نهاية زحف الهكسوس في حدود ١٦٠٠ ق. م. وانتقل الى الليبيين كحيوان حربي منذ القرن الثالث عشر ق. م. وفيما بعد انتقل الى النوبيين في بداية الألف الأولى، وفيما عدا المناطق التي وصلتها الحضارة الرومانية، فان بقية افريقيا لم تستخدم الحصان استخدما كبيرا الا ابتداء من الفتوح الوسيطة العربية. وحسب رواية الكاتب ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٧) فان من شعارات ملك ماي، حصانين مسرحين ملجمين بجانبها كبشان.

وأما الجمل ذو السنام الواحد، فلم يكن هو الآخر متأخر الدخول في الحضارة الافريقية، فهو يبدو بصورة واضحة في رسم صخري في الصحراء التشادية، من القرن الثالث ق. م. وأدخله رجال قبيز سنة ٥٢٥ ق. م الى مصر حيث سيكون له دور مهم في الاتصالات بين النيل والبحر الأحمر، وأما دخوله الصحراء الغربية فلقد جاء في فترة متأخرة. فالجمل وهو حيوان صحراوي أساسا حيث يحمل غالبا حمل الثور والحمار، قد انتشر في المغرب على ما يظهر، عن طريق الجيوش الرومانية ذات الاصل السوري. وتحفر بفضل البرابرة الثائرون على السلم الروماني وعلى عملية تسجيل الأراضي، وقد تمكنهم من الاستقرار خارج الثغور على السبب والصحاري، وبذلك دفع السود المستقرون نحو الجنوب أو هم أدخلوا تحت ربة العبودية.

ونتيجة لما عرضناه سابقا، نصل الى الاعتقاد من أنه غنم منهجي حاسم: يمكن من الحصول على جهاز وثائقي ثري متنوع، انطلاقا من المصادر والتقنيات المستمدة من العلوم الصحيحة والعلوم الطبيعية. ويضطر المؤرخ الى القيام بمجهودات في البحث تصل به الى الجراءة. واعتنقت بعد ذلك الوقت كل الطرق المفتوحة. ونقص حظ: (العلوم المساعدة) بهذه المنهجية الجديدة، الا اذا فهم الآن بـ «العلوم المساعدة للتاريخ» تقنيات أساسية للتاريخ مستمدة من أي أفق علمي كان وهي تقنيات لم يتم بعد اكتشافها كلها. وتقنيات البحث صارت جزءا لا يتجزأ من العمل التاريخي ورجحت ماديا كفة التاريخ الى جهة العلم.

وغنم التاريخ هكذا من حصيلة علوم الارض وعلوم الحياة. ولكن جهازه البحثي والنقدي صار غنيا على الخصوص بما ساهمت به علوم البشرية والاجتماعية الأخرى من علم المصريات والالسنية والرواية الشفاهية والعلوم الاقتصادية والسياسية.

ان علم المصريات حتى الآن مازال مصدرا لم يستغل استغلالا كافيا في تاريخ افريقيا فن الواجب اذالك أن يؤكد عليها.

وتتضمن الدراسات المصرية علم الآثار التاريخي وكشف رموز النصوص، وفي كلا الحالتين يكون من اللازم مسبقا معرفة اللغة المصرية، وهذه اللغة التي عاشت نحو ٥٠٠٠ سنة (اذا أخذنا اعتبار القبطية) تبدو ماديا في شكل خطوط ثلاثة متميزة:



— الخط الهيروغليفى وتتنوع علاماته على صنفين كبيرين: رموز أو علامات — كلمات (مثلا صورة سلة من الخيزران لكتابة لفظ «سلة» وأهم مركباته الصوتية نب) وصور الأصوات أو العلامات الأصوات (مثلا صورة السلة التي يحتفظ بقيمتها الصوتية نب فتستعمل لكتابة ألفاظ أخرى لما عين القيمة الصوتية نب، «سيد»، نب «كل»). وتصنف صور الأصوات هكذا: الثلاثية وهي رموز تجمع بين ثلاثة حروف صائتة؛ الثنائية وتجمع صوتين؛ الأحادية وليس فيها سوى حرف صائت أو صامت. هذه هي الأبجدية المصرية الصوتية.

— الكتابة الكهنوتية (الهيراطيقية): أما النسخة في الهيروغليفات وتظهر حوالي الاسرة الثالثة (٢٧٧٨ — ١٤٨٣ ق. م) وهو خط موجه من اليمين الى الشمال دائما، يكتب بقلم على أوراق البردي وعلى قطع الخزف والكلس.

ودامت هذه الكتابة مدة طويلة كالهيروغليفات (أحدث نص هيروغليفى مؤرخ سنة ٣٩٤).  
— الكتابة الشعبية (الديموطيقية): وهي تبسيط للكتابة الكهنوتية، ظهرت حوالي الاسرة الخامسة والعشرين (٧٥١ الى ٦٥٦) وانقرضت في القرن الخامس. وفي مستوى الحروف الضيق هناك اشتراك في الأصل معترف به بين الكتابة الشعبية المصرية والكتابة الميروثيتية النوبية (التي تحمل لغة لم يكشف سرها بعد).

وحتى هذا المستوى فحسب من النظام الخطي المصري، تعترضنا أسئلة منهجية مفيدة. وذلك أنه من خلال هذا الانفاق الخطي ذي الوجه الخاص، يلمس المؤرخ وقد انقلب مكتشفا للرموز ضمير الناس في القديم وعزيمتهم بقدر ما يترجم العمل الكتابي المادي دائما قيمة بشرية عميقة. فكشف الرموز هو حوار بفضل ما يقام به من مجهود دائم من الدقة والموضوعية. ثم ان تنوع النظام الخطي المصري وتشعباته وتبسيطاته المتتالية هي ذاتها جزء من التاريخ: تاريخ كشف الرموز الذي هو من المصادر الأساسية لكل طبيعة تاريخية — ومع النظام الخطي المصري حلت افريقيا محلا مهما من الدراسات العامة عن الكتابة كنظام من العلامات ومن التبليغ المشترك بين بني البشر (٦).

ومشكل نشر الكتابة المصرية في افريقيا السوداء، يزيد جهاز المؤرخ المنهجي توسعا وتفتح هكذا آفاق جديدة تماما في وجه البحث التاريخي الافريقي. والأحداث القليلة التالية ملائمة تماما للموضوع، فكان الجيكندي نظاما من الرموز المستعملة قديما لدى الكيكويو في الكينا، وبين صور هذا النظام الخطي وبين الرموز المصرية شبه ملحوظ. كما اعترف العالم البريطاني ب. اموري طلبو وأشار منذ ١٩١٢ الى الشبه النيبوي بين الرموز النسيدي في بلاد الافيك (نيجيرا الجنوبية الشرقية) وبين الرموز المصرية. وتبدو قرابة كتابية واضحة بين العديد من الهيروغليفات المصرية وبين رموز كتابة مندى في جنوبي سيراليون. وكذلك شأن بالنسبة الى معظم الرموز في كتابة لوما شمالي ليبيريا. ويوجد ارتباط سببي لاشك فيه بين الهيروغليفات المصرية وبين العديد من رموز الكتابة في جوار منروفا (ليبيريا). وكتابة الجمون بالكامرون التي عرفت هي الأخرى نظامين خطيين لا تقل شبا ملحوظا من الشكل الخارجى، مع هيروغليفات وادي النيل. وتاما كما في مصر فان هيروغليفات دوقون وببرا وبزو قابلة للتفكيك والتحليل. ولكن أشد الأمور دلالة ان رموز الغرب

الافريقي هذه تصيرها الأشياء والكائنات المكتوبة بواسطتها واعية لنفسها، وهذا تصور نموذجي لقدرة الكتابة المتسامية التي نجدها حرفيا في مصر في خط بعض النصوص المتعلقة بالمصير بعد الموت. وبقيت هكذا الامكانية كبيرة لانشاء وتطوير علم للنقوش وعلم قراءة الكتابات القديمة لم يعرفا اطلاقا حتى الآن وغرضهما دراسة مدققة لمجموعات ككتابات السود الأفارقة وما بينها من علاقات مشتركة. وفي ذلك يجد بالطبع المؤرخ ما يرضيه، اذ من خلال تاريخ الكتابة واكتشافات قراءتها يوجد تاريخ البشر المسؤولين عن الخطوط المدروسة. والنظر في الانظمة الخطية في حد ذاته مصدر ثمين للتاريخ. الا أن المؤرخ دائما لا يفقد الاحساس بالزمن، فلا ينبغي أن نتوقع من رواء هذه الكتابات وهي غالبا حديثة، أن تكشف لنا كشوفا قديمة، على أن أهميتها تبرز ما للواقع المصري من عمق زمني عجيب. وقد انقرضت هذه الكتابة المصرية على ما يظهر بعد ٣٩٤ ب. م. على أن يبدو لنا منها باستمرار اثباتات جديدة من القرن السابع عشر الى القرن التاسع عشر.

فالقضية بين العصور الحالية وبين ماضي افريقيا الحديث ما هي إذن الا وهم انتجه جهلنا، والواقع أن نفقا يجمع بين هذين القطبين.

ان معرفة الكتابة المصرية واكتشاف قراءة النصوص يمكنان من الوصول الى اللغة الفرعونية. وان المؤرخ لينصح دائما بالرجوع قدر الامكان الى النصوص الأصلية اذ أن الترجمات، حتى أحسنها، قلما تكون سالمة من العيوب. فمن عرف اللغة المصرية من المؤرخين في وسعه أن يقرأ مباشرة، أي من قبله، عديد النصوص المختلفة من مصر القديمة: ومثالها نصب مآتمية وكتابات منقوشة على المعالم، ورسوم ادارية، وأناشيد دينية، وآثار فلسفية وكتب في الطب والرياضيات، ومحركات أدبية (روايات، قصص، أساطير).

وتوضح سلسلة من النصوص أن الحاجز الذي أزعج تصويره بين مصر الفرعونية وسائر الجهات الافريقية المجاورة، في العصور الحالية لا يوافق مادية الأحداث في شيء.

ونذكر في هذا الشأن الرسالة التي بعث بها نيفر - كا - رع (ببي الثاني) الفرعون من الأسرة السادسة، حوالي ٢٣٧٠ ق. م، الى هر خوف رئيس البعثة الاقتصادية الى المناطق الجنوبية النائية، «الى بلدان نهاية الدنيا» كما جاء في النص، أي في الراجح الى جهة البحيرات العظمى الافريقية، ورجعت البعثة وهي الرابعة من نوعها بقزم. وبمدا نص آخر مصري من القرن العشرين ق. م (من البداية الأولى للأسرة الثانية عشرة) بارشادات نفيسة مفيدة جدا عن حياة التجارة في ذلك العهد، والملاحاة في البحر الأحمر والعلاقات الاقتصادية بين الساحل الشرقي الافريقي ووادي النيل. وهذا النص هو «قصة الغريق».

ونظمت الملكة حتشبسوت - وقد جلست على العرش المصري طيلة ٢١ عاما (١٥٠٤ - ١٤٨٣) - عدة بعثات تجارية، ولا سيما في السنة التاسعة من ملكها، الى بلاد البونت (الساحل الصومالي) وظهرت هذه البعثة في نقوش دير البحري البديعة في صعيد مصر.

وفي ذلك وجهة جديدة للبحث ليس في الامكان الا يتم بها مؤرخ افريقيا. ويلوح ما في اقحام المصرية القديمة بالمنهج التدريسي في الجامعات الافريقية، من أهمية يرتجى منها الكثير لفائدة الدراسة الحية للتراث الثقافي الافريقي، بما له من عمق في الزمان وفي المكان.

أما عن الانتفاء الالسنى للمصرية القديمة، فهذه تدقيقات مستمدة من التقرير النهائي للملتقى الدولي الخطير حول «عمران مصر القديمة واكتشاف قراءة اللغة الميروتية» (القاهرة ٢٨ جانفي (كانون الثاني) - ٣ فيفري (شباط) ١٩٧٤) فلا يمكن الفصل بين اللغة المصرية وبين السياق الافريقي، ولا تنفي السامية بالجواب عن مشكل مولدها، فصار اذن من المعقول أن يبحث عن آباء وأعمام في افريقيا (التقرير النهائي ص ٢٩ فقرة ٥).

وبعبارة أوضح أن اللغة الفرعونية ليست لغة سامية، فمن الواجب حينئذ أن تخرج اللغة المصرية في مجال «الشامية السامية» أو «الأفرو-آسية» التي وضعها فيها بعض الكتاب ولوأنهم في الغالب ليسوا إخصائين في السامية ولا في المصرية. فيمثل المشكل الأساسي المطروح للتقريب بين المصرية القديمة ولغة السود الافريقية الحالية، باستخدام تقنيات ألسنية ملائمة، قصد ارجاع صيغ سابقة مشتركة، قدر المستطاع، انطلاقا من التقابلات والمقارنات الشكلية والمعجمية والصوتية. وينتظر الالسنى عمل عملاق، وعلى المؤرخ هو الآخر أن يتقرب تغيرا جذريا في المنظور، اذا ما كشف عن بنية ثقافية عظمى مشتركة بين مصر الفرعونية وسائر افريقيا السوداء. وهذا الاشتراك هو بالمعنى الرياضي بديهية حدسية تتقرب البرهان الشكلي عليها، وهنا، أكثر مما في محل آخر، يكون المؤرخ والألسني مضطرين الى العمل يدا واحدة، وذلك أن الألسنية مصدر تاريخي، وهي كذلك خاصة في افريقيا، حيث تشعب اللغات العديدة.

والمقصود خاصة الالسنية المقارنة أو التاريخية. والطريقة المستعملة هي المقارنة والاستقراء، إذ أن هدف المقارنة إعادة البناء أي البحث عن نقطة التجمع لكل اللغات المقارنة. وسنسمي هذه النقطة التجمعية «اللغة المشتركة قبل اللهجية».

ولكنه من الواجب أن يكون الباحث شديد الحذر. «فالبنتو المشترك» مثلا المبني انطلاقا من دراسة معمقة لمختلف لغات البنتو المثبتة اليوم، ليست لغة قديمة ولا لغة واقعية أعيدت عناصرها. فعبارة «البنتو المشترك» أو «البنتو الأول» لا تعني سوى نظام التطابق بين لغات البنتو المعروفة، فيرجع إليه الى عهد كانت فيه هذه اللغات تقريبا هي ذاتها. وكذلك الأمر بالنسبة الى «الهندية الاوربية» مثلا، ففي المستوى الدقيق من الواقع أن الأثرية الالسنية هي، في النهاية محض وهم لأن العصر المستغرق في القدم، قبل التاريخي، الذي كانت فيه اللغة المشتركة المستعادة مستعملة في التخاطب، لم يبق منه أي أثر تاريخي أو حتى ألسني.

ولا تكمن صلاحية الالسنية التاريخية كثيرا في كونها توجد «لغة مشتركة قبل اللهجية» بل لكونها تلمس، ان صح القول، المساحة الالسنية الكاملة للغات مختلفة في الظاهر، غريبة الواحدة عن الأخرى، فقلما تحصر لغة في منطقة محددة أتم التحديد، بل هي تفيض في غالب الأحيان عن مساحتها الخاصة، رابطة بينها وبين سائر اللغات المتفاوتة البعد عنها علاقات، أحيانا لا يشعر بها في البداية. ومن وراء ذلك بالطبع مشكل مهم هو مشكل تنقل السكان. فالوحدة الالسنية لا تنطبق حتما على وحدة العرق. بل هي ترشدنا ارشادا لاثقا الى وحدة أساسية، هي الوحدة الفريدة في الواقع، أعني الوحدة الثقافية الأساسية للشعوب الموحدة ألسنيا، المختلفة أحيانا اختلافا كبيرا من حيث الأصل ومن حيث النظم السياسية المتغيرة.

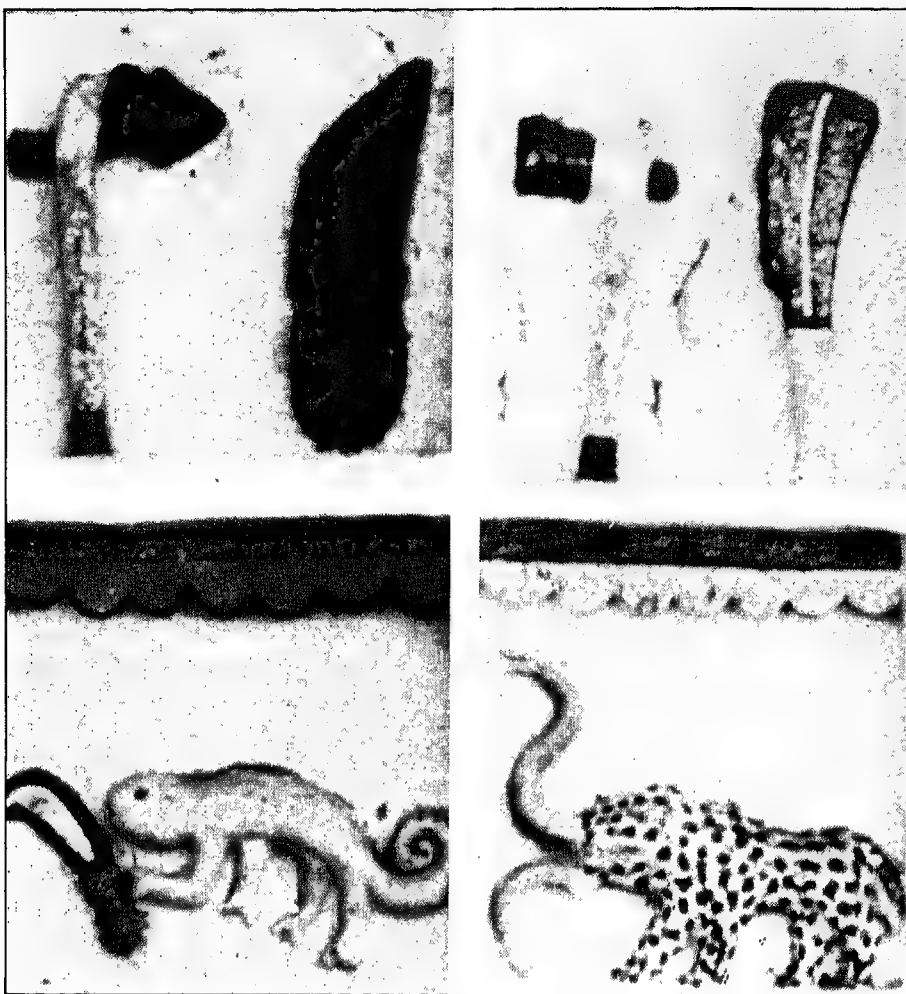
فعائلة «النيجر-الكنغو» مثلا اذا ما تم قط اثباتها تمكن من الاستنتاج أن روابط اجتماعية

ثقافية عريقة جدا وجدت بين شعوب الغرب الاطلسي، شعوب منده وقور وكوا. والشعوب الكائنة بين البنبوي والكنغو (زاير) وشعوب الآدما والشرقي وشعوب البنتو في افريقيا الوسطى والشرقية والجنوبية.

الالسنية التاريخية اذن مصدر ثمين للتاريخ الافريقي كالرواية الشفاهية التي طالما استخف بها. والحال أنه أحيانا تكون الرواية الشفاهية هي المصدر الوحيد المتوفر مباشرة بين أيدينا. وذاك هو مثلا شأن مبوشي الكنغو. اذ أن تاريخ مختلف أماراتهم لم يكن بالمستطاع استعادته في المكان وفي الزمان (وهذا الزمان نسبيا قصير) الا بالاعتماد على الرواية الشفاهية. وقد تأتي هذه الرواية أيضا بالحواف الحاسم لمسألة عجزت في حلها الوثيقة المكتوبة. فؤرخو الأحداث (دولابورت ١٧٥٣، وبروبا ١٧٧٦). أجمعوا على أن ملوك لونقو (افريقيا الوسطى الغربية) دفنوا في مقبرتين متميزتين: في لوبو في لواندجيلي. فلماذا تم هذا التمييز ومتى وقع؟ ان الوثائق المكتوبة المعروفة حتى الآن بقيت ساكنة بالنسبة الى هذا السؤال، وفي هذا الشأن ان الرواية الشفاهية عند الفيلي الحاليين هي وحدها التي تمكن من تفسير هذه الازدواجية. وذلك أن خصومة شديدة جدا بين بلاط ملونقو وسكان لواندجيلي بعثت الملك وامراء ذلك العصر على تبديل مكان دفنهم. فهجرت مقبرة لوندجيلي اذن لفائدة مقبرة لوبو تبعا لخصومة بين الأسرة المالكة وسكان مقاطعة غنية من المملكة. و يوجد في افريقيا عدد عديد من الأمثلة حيث توجه الرواية الشفاهية — ان صح التعبير — التنقيب الأثري كما تلقى أضواء على الخبر المؤرخ المكتوب.

فتنقيبات (نفداوست) في مملكة غانة (بالسودان الغربي) أشرف عليها في نهاية ١٩٦٠ الأساتذة ج دوفيرود. وسن روبرت، وكانوا اذاك في جامعة دكار، فاستغلوا في آن واحد وبكيفية متقاطعة الروايات المحلية والتواريخ العربية الوسيطية والتقنيات الأثرية الخاصة. وهكذا تم استرجاع فترة من تاريخ افريقيا لم تكن تعرف كما يجب (القرنان السابع والثالث عشر) الى ذاكرة البشر بفضل علم الآثار نفسه طبعاً، ولكن كذلك بفضل الرواية المحلية والوثائق المكتوبة. ويمكن تعدد هذه الأمثلة، وهي توضح ان في افريقيا أكثر مما في سواها، تمثل الرواية الشفاهية جزءاً لا يتجزأ من القاعدة الوثائقية للمؤرخ. وهكذا تتسع هذه القاعدة. ولم يعد في الامكان أن يمارس التاريخ الافريقي كما في الماضي بالغاء الرواية الشفاهية من البحث التاريخي وهي مفصل من مفاصل الزمن.

ولم يؤكد بعد على هذه النقطة الأساسية بالذات أي كيف تقدم الرواية الشفاهية الزمن، من جهة، وكيف تعرض الرواية الشفاهية الأحداث خلال الزمان، من جهة أخرى؟ كيف اذن يقدم التاريخ الشاعر القصص؟ ذاك سؤال حاسم. فالقصص الافريقي يكاد لا يعمل على لحمة زمنية، وهو لا يعرض مجرى الأحداث البشرية بتسارعاتها أو بنقاط انقطاعها، وما يقوله وما يستعيده جدير بأن يسمع مسقطاً على المستقبل. وليس خلافاً لذلك. وذلك أن القصص لا يهجم الانسان الا ضمن الوجود كحامل للقيم، وكعامل في الطبيعة، بدون فكرة زمنية، ولذا لا يميل القصص الافريقي الى تأليف مختلف فترات التاريخ التي يذكرها، وهو يعالج كل فترة في ذاتها، كأن لها معنى خاصاً، ولا علاقة مدققة لها مع سائر الفترات، وفترات الأحداث المروية مقطعة. انه حقاً التاريخ المطلق،



● نقش بارز (تصویر نوین).

وهذا التاريخ المطلق الذي يعرض، اجمالاً بدون أزمنة، مراحل التطور هو، التاريخ البنيوي، لا أكثر ولا أقل.

ويجهل القصص الإفريقي عملياً كعبارات ممكنة في خطابه ما يطفو زمنياً أو يظهر أحياناً ويدعى عند غيره «دورا» (فكرة الدائرة) أو «طورا» (فكرة الزمان والمكان) أو «فترة» (فكرة التوقف أو الوقت الذي يبرزه حدث مهم) أو «جيل» (فكرة الدوام وانسياب الزمان) أو «سلسلة» (فكرة متتالية والتتابع) أو «حصنة» (فكرة البرهة والظرف والزمن الحاضر) الخ... نعم إن القصص الإفريقي لا يجهل الزمن الكوني (الفصول، السنين الخ) ولا الماضي البشري إذ هو يعي فعلاً ما مضى وانقضى. ولكنه من الصعب عليه أن يصور نموذجاً من الزمن بل يدي دفعه واحدة بالجزئيات التي بها يمتلئ الزمان.

وفي حقل العلوم البشرية والاجتماعية أيضاً فإن مساهمة علماء الاجتماع وعلماء السياسة تمكن من إعادة تعريف المعارف التاريخية والثقافية وذلك إن مفاهيم «المملكة» و «الأمة» و «الدولة» و «الامبراطورية» و «الديموقراطية» و «القطاعية» و «الحزب السياسي» الخ. المستعملة في غير إفريقيا استعمالا لا شك لا تنطبق دوماً وحتماً على الواقع الإفريقي.

فإذا نعتي حقاً «بمملكة الكنفو» مثلاً؟ والقوم أنفسهم يسمون الأشياء هكذا نسي الكنفو أي حرفياً «البلد» (نسي) «التباع لأهالي كنفو» فلنا إذن مجموعة جنسية (أهالي كنفو) بمنطقة (نسي) ووعي هذه المجموعة بأنها تسكن هذه المنطقة التي تصير هكذا بلد (نسي) المجموعة الجنسية المشار إليها. والنهايات أو الحدود شديدة التموج وهي تابعة لتشتت العصبية وتحت مجموعات الجنس المتميز. ولفظ «مملكة» يدل هنا على منطقة ترابية لا يسكنها سوى رجال ونساء ينتمون كلهم إلى جنسية واحدة. والتجانس الجنسي والالسنى والثقافي، تجانس دقيق و «الملك» (مفومو) هو في الواقع الأكبر (مفومو) والحال (مفومو) لكل الأسر (نزو) وكل العصبية المرتبطة بالأم (مكندا) وهم يتميزون عن الحدود المنشئين المشتركين (بنكلومبنغو).

وإذا ما نظر الواقع من قريب إن «مملكة كنفو» ترجع في النهاية إلى إمارات فسيحة، أي إلى نظام حكم يتضمن الإمارات الصغيرة المحلية و «الملك» هو أكبر الأكاير والحال الأقدم بين الأحياء، ولذا هو «ثتينو» (الرئيس الأعظم) «فلكة كنفو» لا تعني إذن دولة يحكمها ملك بالمفهوم الغربي، على أن هذا المفهوم (مملكة لويس الرابع عشر مثلاً) هو معنى هجين متأخر، غير لائق، وهو بالجملة صورة خاصة من المرور من الدولة إلى الدولة القومية بواسطة الحكم الفردي المطلق.

وبالعكس إن مملكة دنكسو «بنان الحالية» تقترب أكثر من نمط الحكم الفردي المطلق، في صورة المسخ المنكر من حكم هنري الرابع إلى حكم لويس السادس عشر في الإطار الفرنسي. وذلك أنه توجد أرض أساسية مستمرة تتمتع كما يؤكد الاستاذ م. غليلة بسلطة قضائية مركزية: الملك ووزرائه ونوابهم المفوضون. فالملك جوهر السلطة نفسه، بيده كل خواص السلطان والقيادة، له على رعاياه حق الحياة والموت، ورعاياه هم الاناثو «رجال الشعب» ويختار من بينهم الملك، مولى الخيرات كلها (دوكنو) ويصطفى (القليسي) أي الفلاحين الذين يعدهم لأراضيه أو يهديهم للأمرأ والقواد. وتمارس السلطة المركزية في القرى والجهات، بواسطة قواد باسم الملك. فمملكة دنكسوم «تلوج حينشند» كمنظمة دولية شديدة التركز يتدرج فيها نظام اللامركزية الإدارية المتمثل في.

«القيادة». فلها سلطة مركزية تراقب الشعب (دنكسومنو) من خلال مخفضات القيادات. وعلى مر التاريخ وحسب صدف الغزوات، تضاف البلدان المغزوة الى النواة الجنسية القديمة والى الأرض الدائمة. ففي وقت ما تم الغزو وتم عمل التأقلم الثقافي والهضم بين شعوب وأقارب وجيران مثل (فن، ماهي، الدا، سافي، جودا الخ) وصارت «المملكة» بذلك دولة متعددة الأجناس لها بنيتها ومركزة بفضل تنظيم اداري وحرري قوي وكذلك بفضل اقتصاد موجه حركي. وقبل التدخل الاستعماري كانت مملكة دنكسوم حقا دولة شعب، حيث كان الحوار والخطاب وموافقة السكان (عن طريق المحافظات) مبدأ من مبادئ الحكم.

على أن كلمة «مملكة» ليس لها عين المدلول في كل مكان من افريقيا. فعلى المؤرخ اذن أن يكون متحفظا عند استعماله هذا اللفظ. وقد يلاحظ أيضا أن المحافظة تقابل نظام حكم في الكونغو، بينما هي نمط من اللامركزية الادارية في المملكة القديمة بالدنكسوم (أبو ماي).

وأما لفظ «اقطاعية» وضمن نطاق الملاحظة المتمثلة في أوروبا الغربية (وهو لم يكن له دائما خاصية نموذجية) فيمكن أن يعني به مفهوم الاقطاعيين في القرون الوسطى أصحاب النزعة القانونية، ان الاقطاعية هي ما يرتبط بالاقطاع (وقد ظهر حوالي القرنين العاشر أو الحادي عشر) وبمجموعة العلاقات (وفاء وولاء وأتاوة) التي تربط بين الولي والسيد صاحب الملك. و يبعد عن هذا المدلول، الفلاحون الذين ليسوا من الطبقة العليا من المجتمع.

وأما الماركسيون فيجعلون للفظ «الاقطاعية» مدلولاً أفسح. هي نمط من الانتاج يتميز بالاستغلال الاقتصادي للطبقات السفلى (عبيد الأرض) من قبل الطبقات المسيرة (القطاعيين). فعبيد الأرض مقيدون بها تابعون للسيد الذي لم يعد في مكانه أن يقتل القن بل في وسعه أن يبيعه (له) ملكية محددة على العامل). فنظام القن حل محل نظام العبودية، ولكن عددا من مظاهر العبودية مازالت قائمة. وليس للقن أو الفلاحين أن يشتركوا في ادارة الأمور العامة وليس لهم أي مسؤولية في أي وظيفة ادارية. والنظام الاقطاعي من وجهة نظر تطور المجتمعات الاوربية. مرحلة وسطى من مراحل تكوين الاقتصاد الرأسمالي. ولكن الكثير من الماركسيين مازالوا يخلطون بين مفهوم «الاقطاعية» السياسي وبين مفهوم «السيادة» الاجتماعي الاقتصادي. وقد علم ماركس المؤرخين منذ ١٨٤٧ كيفية التمييز بين المفهومين.

ومهما يكن المدلول المحتفظ به، فهل النظم الوسيطية الاوربية توجد بخداقيرها في افريقيا السوداء في ما قبل الاستعمار؟ والدراسات الاجتماعية المقارنة وحدها (وهي لم توجد بعد) قادرة أن تجيب على هذا السؤال جوابا لا ثقابا يقتضيه من الفروق الدقيقة.

وقد أشير سابقا الى صفة «الاقطاعية» في نظام البار بيا (داهايا) وذلك خاصة كفرضية للعمل. وقلة تقدم البحوث في هذا الموضوع أي في مسألة «الاقطاعية» في افريقيا السوداء من شأنها أن تقود المؤرخ الى المزيد من الحذر، وفيما يبدو ان «الاتجاهات الاقطاعية» التي تقدمها المجتمعات السوداء الافريقية لم تكن لتحديد تبعا لحقوق عينية يكشفها اسناد أرض «مقطعة»، بل هي تحدد شكلا من التنظيم السياسي يعتمد على نظام من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية الخاصة. فمن الممكن هكذا أن تكون تحاليل علماء الاجتماع وعلماء السياسة مصدرا قابلا للاستغلال من

قبل المؤرخ و «خزانة وثائق» المؤرخ بافريقيا تتغير تغيرا كبيرا بحسب المواد والفترات التاريخية وبحسب فضول المؤرخ نفسه أيضا.

وفي إفريقيا المجموعات الوثائقية تتجمع من كل أنواع العلوم، الصحيحة والطبيعية والبشرية والاجتماعية، و «العرض» التاريخي يتجدد تماما بقدر ما تمثلت المنهجية في استخدام عدة مصادر وتقنيات خاصة في آن واحد وبكيفية متقاطعة. فأخبار الرواية الشفاهية والمخطوطات العربية النادرة والحفريات الأثرية وطريقة الفحم المتخلف أو فحم ١٤، كل ذلك ادخل من جديد وبصفة نهائية شعب صاو «الخزافي» (تشاد، كامرون، نيجيريا) في تاريخ إفريقيا الأصيل... وقد احتلت هضبة مداقا في جمهورية التشاد مدة طويلة جدا أي طيلة ما يقرب من ٢٥٠٠ عام، من القرن الخامس ق. م. الى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. ولولا استغلال جملة المصادر المتنوعة استغلالا متقاطعا لكان من المتعذر أن نصل الى ما وصلنا اليه من استنتاجات موفقة غير متوقعة.

ونبذت الآن التصورات الدراسية للنقد التاريخي «كالعلوم المساعدة» و«اختيار المصادر» و«المواد التاريخية الشريفة» الخ. نبذا من البحث التاريخي الإفريقي الذي مثل هكذا مرحلة مهمة في التدوين المعاصر للتاريخ.

وصارت ممارسة التاريخ في إفريقيا حوارا مستمرا بين مختلف الاختصاصات، وتلوح آفاق جديدة بفضل مجهود نظري لم يسبق له مثيل.

واستخرجت فكرة «المصادر المتقاطعة» من خفايا المنهجية العامة، طريقة جديدة لكتابة التاريخ. ويمكن حينئذ اعداد تاريخ إفريقيا وتفصيله أن يلعب دورا مثاليا رائدا، في اشراك اختصاصات أخرى لفائدة البحث التاريخي.



## الفصل الخامس

# المصادر المكتوبة السابقة للقرن السادس عشر هـ. جعيط

ان فكرة المصدر الكتابي فسيحة الى حد تصبح فيه مبهمة. فاذا ما قصد بالكتابي كل ما يوصل الصوت والحس، فان ذلك يشمل الشاهد الكتابي والرسوم المحفورة في الحجر وفي الصخر أو في قطع النقود... وبالاختصار كل رسالة تحفظ اللغة والفكرة، بقطع النظر عن حاملها (١)، وقد يبدو بنا تمديدنا هذا الى أن نقحم في ميداننا العملة والخطاطة وسائر العلوم «المساعدة» التي صارت في حقيقة القول مستقلة عن دائرة النص المكتوب، لذا سنقصر بحثنا على ما هو مخطوط أو مطبوع في علامات تواضعية على حامل ما — بردي أو ورق أو عظم أو ورق، وإن هذا الحقل فسيح للبحث والنظر: أولا لأنه يشمل جزءا من الزمن يبتدئ باستنباط الكتابة وينتهي بعتبة الأزمنة المعاصرة (القرن الخامس عشر). ثم لأنه ينطبق على قارة بأكملها، حيث تجاوزت وتعاقت حضارات متنوعة. وأخيرا لأن هذه المصادر تجد التعبير عنها في لغات مختلفة، وتتطور ضمن تقاليد متغايرة وعلى أنماط متنوعة.

وسننظر فيما تعرضه هذه المصادر من مشاكل عامة (ضبط الفترة والتقسيم الى مناطق ودراسة الأنماط) قبل أن نقيم منها استقراء نقديا.

## المشاكل العامة

لا وجود حتى الآن لدراسة عامة للمصادر الكتابية للتاريخ الافريقي، ولأجل التخصيص في الزمن أو في المنطقة، بقيت الدراسات القليلة التي أنجزت معقدة بميادين مفصلة من البحث العلمي. فصر الفرعونية مثلا ميدان لدارس الحضارة المصرية القديمة، ومصر البطلمية والرومانية ميدان

للباحث الكلاسيكي، ومصر الاسلامية للباحث في الاسلاميات: هي فترات ثلاث واختصاصات ثلاث تدور حول مدارات أفسح (العالم الكلاسيكي والاسلام). والأمر نفسه بالنسبة الى المغرب، ولو أن الباحث في البونيقيات هو في نفس الوقت مستشرق وباحث كلاسيكي، كما أن باحث البربريات هامشي لا يحصر في فئة ما.

وامتد فيما بعد، التاريخ الكتابي، والبحث العصري أيضا، الى افريقيا السوداء في مجال متنوع يتضمن لغات عدة واختصاصات مختلفة، وفيه مصادر كلاسيكية ومصادر عربية ومصادر افريقية صرفة. ولئن وجدنا نفس المصادر الثلاثية الموجودة في شمالي الصحراء، فاننا لا نرى فيها الامتداد نفسه أو المعنى المائل. وثمة منطقة واسعة لم تكن قبل القرن الخامس عشر تحوي أي مصدر كتابي، وفيما تبقى من مناطق تحوي مصدرا عربيا ذا قيمة ثانوية في المغرب مثلا، هو ذو أهمية أساسية فما يخص حوض النيجر، ولكن اذا ما أكب مؤرخ افريقيا السوداء على وثيقة كتابية عربية فلا ينكب عليها انكباب مؤرخ المغرب عليها، ولا انكباب مؤرخ الاسلام بصورة عامة.

وتتم هذه التقسيمات وهذه التداخلات عن بنية التاريخ الافريقي الموضوعية، وكذلك على اتجاه العلم التاريخي المعاصر منذ القرن التاسع عشر. فالواقع أن مصر فعلا قد ضمت الى العالم الهلنستي وإلى الامبراطورية الرومانية وإلى بيزنطة، وعند اعتناقها الاسلام، أصبحت مركز إشعاع له. والواقع أيضا أن الكتاب الكلاسيكيين رأوا تاريخ افريقيا كما لو أنه صورة من تاريخ روما، وإن ثمة افريقيا قد ارتبطت ارتباطا عميقا في مصير الرومانية، ولكن ما هو حقيقي أيضا أن المؤرخ العصري لافريقيا الرومانية استمر تابعا للاتجاه الروماني قبل أن ينتسب للافريقية، وأن القسم الاسلامي قد انتفى من حقله الاستيمولوجي.

وهكذا فإن ادراك التاريخ الافريقي ككل والقاء نظرة من خلال هذا المنظور على المصادر الكتابية، مازال مشروعا دقيقا عسيرا جدا.

## مشكل ضبط الفترة

ونحن حين نقوم بدراسة المصادر الكتابية نتساءل كيف يمكن تبرير الانقطاع الموجود في بداية القرن الخامس عشر؟ أيم ذلك بالبنية الداخلية للكتلة الوثائقية التي بين أيدينا وهي رغم الخلافات الشكافية والزمنية، تحتفظ ببعض الوحدة، أم بحركة التاريخ العام نفسها وهي بجمعها بين العصور الخالية والقرون الوسطى في مدة طويلة واحدة تفصل بينها وبين الزمن المعاصر. والواقع أن الحجتين تشدد إحداهما الأخرى وتتكاملان: فالمصادر العتيقة والوسطية تتميز بكتاباتها الادبية، فهي شواهد واعية في معظمها، سموها حوليات و يوميات ورحلات او جغرافيات، بينما صارت منذ القرن الخامس عشر المصادر الوثائقية والشواهد اللاواعية متكاثرة، ومن جهة أخرى لأن كانت النصوص (الكلاسيكية) العربية، في هذه الفترة، أكثر انتشارا فإن المصادر العربية قد نصب معينها منذ القرن الخامس عشر، بينما ظهرت الوثيقة الاروبية (الاطالية او البرتغالية الخ...) في حقل الشواهد، كما ظهرت الوثيقة الاهلية في افريقيا السوداء. ولكن هذا التغيير في طبيعة المصادر وفي أصلها يعبر أيضا عن تحول في المصير التاريخي الحقيقي لافريقيا. فالقرن

الخامس عشر هو قرن الانتشار الاوربي (٢): زحف البرتغاليون سنة ١٤٣٤ على سواحل افريقيا السوداء وقد اقاموا قبل ذلك بعشرين سنة في سبتة ١٤١٥ (٣) وأما الشريط الافريقي الاسلامي على البحر الأبيض المتوسط (المغرب - مصر) فظهر فيه فصل بين عصرين تاريخيين منذ القرن الرابع عشر، وقد أحس هذا العالم بآثار توسع الغرب البطلي، كما أحس بلا شك بعمل قوى الانحلال الداخلية. ولكن القرن الخامس عشر كان حاسماً، اذ به انقطعت التجارة الاسلامية في الشرق الأقصى فانهى بذلك ما كان لهذه التجارة من دور بين القارة. ومنذ ذلك انزلت الاسلام الافريقي المتوسطي على هاوية انحطاط، ما فتئ يتفاقم ونجد النهاية الفاصلة في القرن الخامس عشر ما يبررها تبريراً واسعاً على أن تبقى مبررة، ولكن تبريرها قد يزداد، اذا ما تجاوزت الزمن بقرن (الى بداية القرن السادس عشر).

هذا وسوف نقسم الفترة، موضوع دراستنا، الى ثلاثة أقسام رئيسية نظراً لخصميتها مزدوجة، خصميتها التنوع وخصميتها الوحدة.

— العصور العتيقة حتى الاسلام: الامبراطورية القديمة حتى ٦٢٢ م؛

— العصر الاسلامي الأول: من ٦٢٢ م الى منتصف القرن الحادي عشر (١٠٥٠ م)؛

— العصر الاسلامي الثاني: من القرن الحادي عشر الميلادي الى القرن الخامس عشر الميلادي.

ومن المؤكد أن مفهوم «العصور العتيقة الكلاسيكية» هنا لا يشابه نظيره في تاريخ الغرب، من حيث أنه لا ينطبق الا جزئياً على «العصور العتيقة الكلاسيكية»، فلا ينتهي بزحف أقوام «البربر» بل بانتشار الواقع الاسلامي. ولكن الاسلام، بما كان لأثره من عمق وسعة، يمثل القطيعة مع ماض في الامكان أن ينعت «بالعتيق» أو بما قبل التاريخ، أو ببداية التاريخ حسب المناطق. ثم انه في الواقع أيضاً فان معظم مصادرها القديمة منذ العصر الهلنستي مكتوبة باليونانية واللاتينية.

ولئن كان من اللازم حسب بنية وثائقنا وحسب الحركة التاريخية الشاملة، أن نعتبر القرن السابع، عصر ظهور الاسلام والمصادر العربية، كبداية لعصر جديد، فان العهد الاسلامي يقضي أن يقسم الى قسمين فرعيين: الأول من الفتح الى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، والثاني من القرن الحادي عشر الميلادي الى القرن الخامس عشر الميلادي. وبالنسبة الى تاريخ افريقيا شمالي الصحراء، فان التطور الأول يوافق طور تنظيم هذه المنطقة على النمط الاسلامي وارتباطها بالامبراطورية العالمية (الخلافة الأموية والعباسية والفاطمية)، وأما التطور الثاني، فيشاهد بالعكس ظهور مبادئ التنظيم الوطني، بينما يطرأ على المستوى الحضاري تحول عميق، في المغرب، يمثل منتصف القرن الحادي عشر الميلادي عهد تشكل مملكة المرابطين واسترجاع الحكم الذاتي من قبل بني زيري وما نتج عنه من زحف الهلاليين، وفي مصر تقع القطيعة بعد ذلك بقرن مع الايوبيين، على أن هذا العصر شهد تحول المراكز الحية للتجارة العظمى من الخليج العربي الى البحر الأحمر، وقامت تدريجياً تشكيلات للتبادل على المقياس العالمي، كان لها وقع عظيم.

(٢) يقترح موني تاريخ ١٤٣٤ وهو تاريخ الانتشار البرتغالي البحري على افريقيا السوداء: مشكل مصادر تاريخ افريقيا السوداء حتى الاستعمار الاوربي ضمن المؤتمر الدولي الثاني للعلوم التاريخية، فينا، ٢٩/٨، ١٩٦٥، ٢، تقارير تاريخ القارات ص ١٧٨، انظر أيضاً موني، ١٩٦١، ص ١٨.

(٣) العروي، ١٩٧٠، ص ٢١٨.

وتوثقت في جنوبي الصحراء أيضا، ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي، علاقات مستقرة مع الاسلام، ولا سيما في الحقلين التجاري والديني. وجهازنا الوثائقي نفسه قد تغير شكله، فمن حيث الكم، صار غزيرا متنوعا ومن حيث الكيف وكلمنا انحدروا مع الزمن، في افريقيا المتوسطة، عثرنا على مصادر لم نشعر بها (وثائق السجلات، فتاوى قضائية)، كما وجدنا في افريقيا السوداء ارشادات مدققة.

### المناطق العرقية الثقافية وأنماط المصادر

ليس تصنيف المصادر حسب العصور التاريخية فحسب كافيا، بل يجب أن تأخذ بعين الاعتبار انفصال افريقيا الى مناطق عرقية ثقافية تعمل فيها عدة قوى وذلك لابرار فردية هذه المناطق. ومن ثم ايضا نماذجية المصادر التي بين أيدينا فيما وراء العصور التاريخية والفروق المكانية.

### المناطق العرقية الثقافية

إذا ما نظرنا في النقطة الأولى فقد نندفع منذ البداية نحو الفصل العنصري بين افريقيا شمال الصحراء — أي افريقيا البيضاء المعربة المسلمة، والتي أثرت في أعماقها حضارات البحر الأبيض المتوسط ونزعت عنها افريقيتها وبين افريقيا جنوب الصحراء، السوداء الافريقية الى أقصى حدود الافريقية، وما لها من نوعية عرقية تاريخية متميزة. ودون أن ننكر ما لهذه التنوعات من وزن، فإن النظر التاريخي الأشد تعمقا يكشف في الواقع عن خطوط فصل أشد تشعبا وأشد تميزا. فالسودان السنغالي والنيجيري مثلا، عاش في اتحاد وثيق مع المغرب العربي البربري، فكان من جهة المصادر أقرب اليه منه الى العالم البنّو، وكذلك الأمر بالنسبة الى السودان النيلي ازاء مصر، بالنسبة الى القرن الشرقي الافريقي ازاء جزيرة العرب الجنوبية، وقد يستهوي الانسان أن يقابل بين افريقيا المتوسطة الصحراوية والسهوب التي تشمل المغرب ومصر والسودانين واثيوبيا والقرن الافريقي والساحل الشرقي حتى زنجيبار، وبين افريقيا أخرى وثنية، عميقة، استوائية أو فوق الاستوائية — حوض الكونغو، والساحل الغيني ومنطقة الزمبابو، ومنطقة ما بين البحيرات، وأخيرا منطقة افريقيا الجنوبية، وهذا النوع الثاني من التمييز ما يبرره الى حد بعيد من جراء عامل الانفتاح على العالم الخارجي أي بسبب أهمية التسرب الاسلامي.

وتؤكد المصادر المكتوبة هذا الحدث الحضاري، بما تجعل من افتراق بين افريقيا لها نصيب كبير من هذه المصادر — بتدرج من الشمال الى الجنوب، وافريقيا أخرى تعوزها هذه المصادر، على الأقل في الفترة المدروسة، الا أن هذا الاعتبار المزدوج للانفتاح على الخارج والحالة المصادر المكتوبة، قد يؤدي الى أحكام تقويمية، وقد تسدل حجابا قاتما على نصف افريقيا تقريبا (افريقيا الوسطى والجنوبية) وقد لفت عدد من المؤرخين النظر الى خطورة «الرجوع الى المصادر العربية» اذ تبعت على الظن بما أكدت به على المنطقة السودانية، ان هذه المنطقة كانت المركز الوحيد للحضارة والدولة المنظمة (٤) وسيكون لنا عود الى ذلك، الا أننا نعتزف منذ الآن أن هناك رابطا بين حالة حضارة ما

وحالة مصادرها، وإن هذا الرابط ليس من شأنه أن يوحي تماما بحركة التاريخ الحقيقية. فالمؤرخ الموضوعي لا يسمح لنفسه بالحكم على القيم انطلاقا من جهازه الوثائقي، ولكنه كذلك غير قادر أن يغفل عما يوفره له هذا الجهاز، بدعوى أنه قد يكون في استغلاله افراط.

وإذا ما كان بمقدور تاريخ عام يشمل كامل المدة التاريخية ويعتمد على المادة الوثائقية المتوفرة بأكملها، أن يعرّض الحوض الزاير من الأهمية ما يعيره لحوض النيجر أو لمصر. فالدراسة المحددة بالمصادر المكتوبة حتى القرن الخامس عشر لا يمكنها ذلك.

وبناء على كل الملاحظات التي قدمناها، يمكننا أن نعرض الهيكلية الجهوية الآتية:

أ — مصر، ليبيا الشرقية، السودان النيلي.

ب — المغرب بادخال الشريط الشمالي من الصحراء، مناطق أقصى الغرب طرابلس وفزان.

ج — السودان الغربي، بالمعنى الواسع أي حتى بحيرة التشاد من الشرق شاملا جنوبي الصحراء.

د — اثيوبيا وارتريا والقرن الشرقي والساحل الشرقي.

هـ — بقية افريقيا أي خليج غينيا، وافر يقيا الوسطى والجنوب الافريقي.

وإن من مزية هذا التقسيم ألا يعارض بين الافريقيتين، وأنه يجعل للقارة بنية موافقة لمواءمات جغرافية تاريخية موجهة نحو منظور افريقي، كما يعتبر ما للمصادر المكتوبة التي بين أيدينا من طابع خاص. فافر يقيا الوسطى أو الجنوبية مهما كانت ثروتها الحضارية، تظهران في مظهر الفقر في المصادر المكتوبة بالنسبة الى أصغر جزء من الوحدات الأخرى (فزان وارتريا مثلا).

ومن جهة أخرى ما من شك في أنه علاوة على التضامن العام الذي يربط بين مصادر افريقيا المعروفة، يوجد تضامن نوعي أدق بين ما لدينا من معلومات عن كل المناطق المحددة، وثمة كشف مفصل لابد أن يمر عبر النصوص حسب العصور وحسب المناطق، ولكننا نعترف مسبقا أن من وراء المناطق وبكيفية أقل، من وراء الفترات التاريخية، تبدو هذه المصادر ببعض اللغات فحسب، وترجع الى بعض الأنماط المحددة، وأنها ليست دائما مستمدة من المنطقة التي تعالجها ولا هي معاصرة للأحداث التي تصفها.

### نموذجية المصادر المكتوبة

أ — إن اللغات التي كتبت بها وثائقنا متعددة إلا أنها ليس لها عين الأهمية. فاللغات الأكثر استعمالا والتي حملت أكبر كمية من الأخبار هي: المصرية القديمة والبربرية واللغات الاثيوبية والقبطية والسواحلي والهوسا والفلفلد. وأكثر اللغات انتاجا هي لغات من أصل غير افريقي: مثل اليونانية واللاتينية والعربية، ولأنه تم تقبل العربية كلغة قومية من قبل عدد من الشعوب الافريقية. وإذا صنفنا الوثائق مرتين إياها ترتيبا حسب كمية وكيفية الأخبار معا، حصلنا على القائمة التقريبية الآتية: العربية، اليونانية، اللاتينية، المصرية القديمة (الكهنوتية والشعبية) القبطية، العبرية، الآرامية، الاثيوبية، الايطالية، السواحلية، الفارسية، الصينية، الخ..

وبحسب التاريخ إن أولى مصادرنا المكتوبة برديات كهنوتية مصرية ترجع الى الامبراطورية الحديثة، ولكن تحريرها الأول قد يرجع الى بداية الامبراطورية الوسطى (بداية الألف الثاني قبل

الميلاد) وخاصة البردي المعروف بعنوان «تعليم للملك ميريكاري» (٥) ولدينا برديات الامبراطورية الحديثة والمحاذيات كلها بالمصرية الكهنوتية. والمصادر اليونانية التي تعود الى القرن السابع قبل الميلاد المستمرة بلا انقطاع الى فترة متأخرة، تنطبق تقريبا مع انتشار الاسلام (القرن السابع ب. م) والمصادر العبرية (التوراة) والآرامية (يهود فيله) التي تعود الى الأسرة السادسة والعشرين، والنصوص الشعبية من العصر البطلمي، والأدب اللاتيني القبطي (باللغة المصرية لكن باستعمال الأبجدية اليونانية مضافا اليها بعض الحروف)

ودشنت هذه ابتداء من القرن الثالث للميلاد، والعربية والصينية (٦) والفارسية فيما يظن، الايطالية ثم الاثيوبية التي يرجع أقدم نص مكتوب فيها الى القرن الثالث عشر الميلادي (٧).  
ب — وإذا ما صنفنا هذه المصادر حسب نوعها فانها تتوزع الى مصادر قصصية والى مصادر وثائقية، وقد سجل بعضها بأمانة كي تبقى شاهدا، وأما غيرها فينتهي الى الحركة العادية للحياة البشرية. وفيما يخص افريقيا ماعدا مصر ولكن بادخال المغرب، فإن المصادر القصصية تمثل تقريبا كل الجهاز الوثائقي المكتوب حتى القرن الثاني عشر الميلادي، فهي تضم اذا الجاهلية وفجر الاسلام. ومنذ القرن الثاني عشر الميلادي ظهرت التسجيلات الوثائقية، ولو كانت قليلة، وبالمغرب (سجلات موحدية، فقاوى أو استشارات قضائية من العصر الحفصي) وتكثفت هذه الوثائق في عهد الايوبيين والمماليك (ق ١٢، ١٥) بينما كانت مخطوطات الديارات الاثيوبية تزدل بوثائق رسمية، ولكن هذا النمط من النصوص بقي عمليا مفقودا من سائر افريقيا في كل الفترة المشار اليها (٨). وعلى كل فإن المصادر القصصية كانت هي الغالبة، وظهرت منذ القرن الثاني عشر الميلادي المصادر الوثائقية أو هي تكاثرت نسبيا في افريقيا المتوسطة، وكانت هذه مفقودة بافريقيا السوداء. ولكن بصفة عامة فإن جهازنا الوثائقي قد تضخم تضخما لا بأس به بعد القرن الحادي عشر الميلادي حتى بلغ القمة في القرنين الثاني عشر والرابع عشر. ودونك خاصيات فترتنا:  
يمكن تعداد أنماط المصادر كما يلي:  
المصادر القصصية:

- تواريخ وحوليات.
- مصنفات جغرافية ورحلات ومؤلفات علماء الطبيعة.
- مصنفات فقهية ودينية سواء كانت كتب الفقه أو الكتب المقدسة أو المذائع.
- مصنفات أدبية حقا.

(٥) غولينشاف: البرديات الكهنوتية رقم ١١١٥ و ١١١٦ أو ١١١٦ ب من المنسك الامبري يالي بسان بترسبورغ ١٩١٣، وقد ترجم الرقم ١١١٦. أ. قارندار في «مجلة الآثار المصرية» لندن ١٩١٤ ص ٢٢ وما بعدها. انظر في الموضوع أ. بر يوتون وج. فنديي ١٩٦٢، ص ٢٢٦.

(٦) يوجد نص صيني من النصف الثاني من القرن الحادي عشر ولكن أهم المصادر الصينية التي لم تخصص بعد بالبحث تعنى بالقرن الخامس عشر وساحل الشرق الافريقي ويمكن أن نشير الى الأعمال الآتية: ج. دوجيفندك ١٩٤٩، ف. هرث ١٩٠٩ — ١٩١٠: فيلزي ١٩٦٢، ابرا ١٩٦٣ ب. ويتلاي ١٩٦٤.

(٧) سرجيو هابل سلاسي، ١٩٦٧، ص ١٣.

(٨) بين أيدينا محارم، وهي رسائل أعطها ملوك برنوقد ترجع الى نهاية القرن الحادي عشر: رسالة أم جلبي ورسالة أسرة مسبرما. انظر في الموضوع موني ١٩٦١، بلمار ١٩٢٨ ج ٣، ص ٣.

### مصادر وثائقية:

- وثائق خاصة: رسائل عائلية ومكاتبات تجارية الخ.
- وثائق رسمية نابعة عن الدولة أو ممثليها: مكاتبات رسمية، قرارات، رسائل تحريم نصوص شرعية ووثائق تتعلق بالضرائب.
- وثائق فقهية دينية.

ونلاحظ أن المصادر القصصية ظهرت في القرن الثامن قبل الميلاد مع هوميروس وهي تشمل عددا وفيرا من أمهات الفكر والعرفة البشريين. ونجد فيها عددا من أساء الاعلام ولو أن معظم شواهدنا لا يعالج افرقيا بصفة خاصة ولكنها تجعل لافريقيا مكانة تزداد أهميتها أو تقل في اطار نظرة الى آفاق أفسح. ومن بين هذه الأسماء: هيرودوت وبوليبس وبلين القديم وبطليموس وبروكوب والخورزمي والمسعودي والجاحظ وابن خلدون. والتسجيل الوثائقي هو الأقدم في العالم، بينما برديات رافينا المحفوظة في أوروبا وهي أقدم وجود للوثائق تؤرخ ببداية القرن السادس بعد الميلاد، على أن برديات الامبراطورية الحديثة المصرية سابقة لها بعشرين قرنا. أجل ان هذا النمط من الشواهد لم يتجاوز في فجر الاسلام حدود مصر، ولم ينتشر انتشارا كبيرا حتى نهاية الفترة التي ندرسها. ويعود ذلك بدون شك، الى كون الحضارة الاسلامية الوسيطة تجاهلت عمليا مبدأ الحفاظ على وثائق الدولة، ففي القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وهي أغنى الفترات بالوثائق المكتوبة، فإن المؤلفات الموسوعية هي التي أمدتنا بهذه الوثائق. وينبغي أن ننتظر الفترة الحديثة العثمانية والاوروبية، لنشاهد تأسيس مستودعات حقيقية للوثائق.

### الاحصاء حسب الفترات

#### الجاهلية: (من البداية الى سنة ٦٢٢م)

ان ما يميز هذه الفترة عن الموالية لها هو أولوية المصادر الأثرية، وبصفة عامة المصادر الغير الأدبية، على أن الوثائق المكتوبة رغم وضعها الثانوي فهي تمدنا أحيانا بتدقيقات تفصيلية، وهي تتكاثر وتزداد دقة كلما انحدرنا مع الزمن، وفيما يخص التوزيع المنطقي نلاحظ أن افرقيا الغربية والوسطى لا وجود لها تماما فيها.

#### مصر، النوبة، افرقيا الشرقية

(أ) ان المصادر المكتوبة الخاصة بمصر حتى الألف الأولى قبل الميلاد هي مصرية تماما وهي برديات كهنوتية وأسطراكا لا يتجاوز أصلها أبعد من الامبراطورية الحديثة. ولكنها كما ذكرنا، قد تروي أخبارا أقدم (٩)، والبردي والمحاذايات هي عبارة عن المواد المكتوبة: الأول هونبات والثاني كسرة كلسية. وتميز الرسوم الكهنوتية عن الهيروغليفية لشكلها النسخي الذي كان يعددها خاصة الى أن ترسم لا أن تحفر. فالبرديات والاسطراكا المتعددة بالنسبة الى الأسترتين التاسعة عشرة والعشرين من الامبراطورية الحديثة أو فترة الرامسة (١٣١٤ — ١٠٨٥) عنيت بالحياة الادارية عنايتها بالحياة الخاصة، ففيها تقارير ادارية وعدلية، ووثائق محاسبية، ورسائل خاصة كما فيها

(٩) در يوتون وفنديني ١٩٦٢ ص ٧ — ٩، جان يويوط، مصر القديمة ضمن التاريخ العالمي مجموعة التراث.

القصص والروايات. والبرديات الفقهية القضائية (١٠) والبرديات الأدبية (١١) خصت بدراسات متقنة ونشرت منذ القرن التاسع عشر.

وإذا لم تأت اكتشافات جديدة بما يخالف ذلك، فإن معرفتنا للنوبة وبلاد البونت ليست مدينة بشيء إلى المصادر المكتوبة، بل هي تعتمد على المادة الأثرية والخطية (ولا سيما النقوش الإثرية).  
(ب) إن فترة الألف الأولى قبل الميلاد ولا سيما بداية القرن السادس قد نعت ما أتت به المصادر وجددته، وانضمت الوثائق القصصية إلى التسجيلات الوثائقية وأحيانا عوضتها، فهذا «سفر الملوك» وهو جزء من التوراة يمدنا بإرشادات قيمة عن انتصاب الأسرة الثانية والعشرين (حوالي ٩٥٠) و يبقى كبير الفائدة بالنسبة إلى الفترة الموالية أي حتى سيادة الفرس (٥٢٥)، وحرر «سفر الملوك» أولاً قبل تخريب القدس أي قبل ٥٨٦ (١٢) وتناول زمن النبي، إلا أنه يرى تقاليد ترجع إلى بداية الألف الأولى. وتلقي المصادر الأجنبية ولا سيما اليونانية أضواء على الفترة الدنيا، منذ أسرة السائت الأولى (القرن الثامن): ميناندر وأرستوديموس وفيلوكوروس وهيرودوت. ومن وجهة النظر الوثائقية فإن البرديات تكتب الآن إما باليونانية وإما بالشعبية، وهي كتابة منقولة أقرب إلى النسخي من الكهنوتية. وفي القرن الخامس فإن المصدر الرئيسي مستمد من برديات يهود فيله، بينما حررت في القرنين الرابع والثالث تسلسل التاريخ الديوطيقي أي الشعبي.

(ج) والفترة الفاصلة بين حكم البطالسة في مصر (نهاية القرن الرابع) والفتح العربي ٦٣٩ م تمتد على ألف عام تتميز بالأهمية الكمية للمصادر اليونانية وبروز المنطقة الإثيوبية الأريترية في حقل معرفتنا. فيحدثنا عنها بوليب واسطرابون وديودور وبلين القديم بدقة نسبية لا تخلو من جهل أو بساطة. ويمدنا عالم الطبيعيات الروماني في «تاريخه الطبيعي» بمجملة من المعلومات عن العالم الإثيوبي وبخاصة عن منتجات التجارة ودورات التبادلات. نعم إن هذا المؤلف عمل استقرائي تتفاوت قيمته، ولكنه ثري بتفاصيل متنوعة. وفي منتصف الألف الذي يلي ظهور المسيحية تصبح معلوماتنا أكثر دقة. وكما نعلم أصبحت مصر في القرن الثاني المركز الرئيسي للثقافة الهلنستية فكان من الطبيعي أن تنتج مؤرخين وجغرافيين وفلاسفة وآباء للكنيسة. وقد ضمت سياسياً للإمبراطورية الرومانية ثم البيزنطية فعنى بها عدد من الكتابات اللاتينية أو اليونانية الخارجية، سواء منها القصصية أو الوثائقية (قانون تيودوز مثلاً أو أحداث جوستنيان) ومن الملاحظ أيضاً أن تيار البرديات لم ينضب. ويبرز من هذه المجموعة الوثائقية الداخلية والخارجية مؤلفات ذات أهمية

(١٠) من الوثائق القضائية نذكر بردي أبوط برديات أمهرت ومين، وكذلك بردي طورينو وعليها تركز معرفتنا الملك رمسيس التاسع والعاشر والحادي عشر. وقد نشرت هذه البرديات، انظر برديات غنارة بالحروف الكهنوتية من مجموعات المتحف البريطاني لندن ١٨٦٠، إيوبري: بردي أمهرت لندن ١٨٩٩، بيت: بردي ميرلندن ١٩٢٠، بيت: القبور الكبيرة: الأسرة المصرية العشرون مجلدان. أكسفورد ١٩٣٠.

(١١) إن مجموعة المتحف البريطاني ثرية بالبرديات الأدبية، نجد فيها قصة الحق والكذب وقصة هوروس وساث. وقد استقرى بوسن الاختصاص في هذه المادة استقراء مستوفى الآثار الأدبية المصرية فبلغ ٥٨ عنواناً: مجلة الدراسات المصرية، ٦١، ١٩٥١ ص ٢٧ - ٤٨ ونشر بوسن أيضاً بعض المحاربات: جدول الاسطراكا الكهنوتية الأدبية بدير المدينة القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٣٦.

(١٢) أ. لودس: رسل إسرائيل وبداية اليهودية، باريس ١٩٥٠ ص ٧ ديوتون وفنديني: الكتاب المذكور قبله، دورس ١٩٧١ ج ١ ص ٤٧ - ٦١.



خاصة. الجغرافيا لبطليموس (حوالي ١٤٠٤) (١٣) رحلة بجرارتيريا (١٤) وهي من عمل كاتب مجهول ويعتقد أنها أنشئت حوالي عام ٢٣٠م وقد زعم أنها ترجع الى القرن الأول، الطبوغرافيا المسيحية (١٥) لكسماس انديقبلوستاس (حوالي ٥٣٥م) وتمثل هذه الكتب قاعدة معرفتنا فيما يخص اثيوبيا والقرن الشرقي لافريقيا. ولكن هذا العرض الخاطف يبرز في الجملة اختلالين للتوازن، عدم توازن معرفتنا لمصر ازاء معرفتنا للنوبة وللعالَم الاريتري.

#### المغرب القديم

ان التاريخ المكتوب للمغرب القديم نشأ عن مجابهة قرطاج لرومة ، أي أنه ليس لدينا أي معلومات هامة سابقة للقرن الثاني قبل الميلاد، فهناك بدون شك اشارات مبعثرة عند هيرودوت وفي آثار مؤرخين يونانيين آخرين، والفترة البونيقية حقاً مدينة لعلم الآثار وللخطاطة، ومن جهة أخرى فان تاريخ قرطاج قبل هنيبعل كما هو الشأن أيضاً بالنسبة الى تاريخ مجابهتها لرومة ثم بقائها المؤقت، يكاد لا يدين بشئ الى المصادر البونيقية المكتوبة، وقد أثبت الآن أن رحلة حانون التي تمتد وصفها الى السواحل الشمالية الغربية لافريقيا مزورة، وأن انشاءها باليونانية، لا يتجاوز القرن الأول. وبقيت الأعمال الفلاحية المنسوبة الى ماقون، فلم يحفظ لنا منها الا مقتبسات اقتبسها المؤلفون اللاتينيون، الا أنه من بين المصادر الوطنية ينبغي أن نذكر ملاحظات يوبا الثاني وقد استغلها بلين القديم في كتابه «التاريخ الطبيعي».

وهكذا فإن أكثر، بل جميع المصادر المكتوبة عن تاريخ المغرب العتيق — الاطوار القرطاجية والرومانية والفلغندية والبيزنطية، يتمثل في مؤلفات المؤرخين والجغرافيين الكلاسيكيين، أي الذين حرروا كتاباتهم باليونانية أو اللاتينية: وهؤلاء المؤلفون في جملتهم، غرباء عن افريقيا، ولكن كلما كانت افريقيا تنغمس في الرومانية كل ثمة كتاب مواطنون يظهرون، وخاصة منهم آباء الكنيسة. (أ) في الفترة بين ٢٠٠ قبل الميلاد و١٠٠ بعده، أي الفترة التي تقابل بلوغ قرطاج أوج مجدها، ثم سقوطها وتنظيم المقاطعة الرومانية في افريقيا ابان الجمهورية والامارة، لدينا من المصادر عدد من الكتابات اليونانية واللاتينية المعروفة مثل: بوليب (٢٠٠ الى ١٢٠ ق.م) وهو مصدرنا الرئيسي، واسطرابون وديودور البصقلي وسيلوست (٨٧ الى ٣٥ ق. م) وتيت ليف وابيان وبلين وتاسيت وبلوتارك (القرن الأول الميلادي) وبطليموس (القرن الثاني الميلادي) بقطع النظر عن الكثير من الكتاب الصغار (١٦).

(١٣) من علماء الجغرافيا الكلاسيكيين وغير الكلاسيين الذين تعرضوا لافريقيا، انظر المؤلف الأساسي ليوسف كامل: المعلمة الخرائطية لافريقيا ومصر، القاهرة وايدة ١٩٢٦ الى ١٩٥١، ١٦ مجلدا ومن المأمول أن يعاد نشر هذا العمل مع جهاز نقدي جديد مهم.

(١٤) نشره ملّر: جغرافيون يونانيون صغار باريس ١٨٥٣ ج ، أعاد نشره هيلمارفرسك بقوتبرغ سنة ١٩٢٧، ونشر هذا العمل الهام عدة طبعات منذ القرن السادس عشر ١٥٣٣م ثم ١٥٧٧م.

(١٥) كسماس رحلة زاراثيوبيا وجزيرة سومطرا. ويوجد مؤلفه ضمن «آثار آباء الكنيسة اليونانية» لبني مجلد ٨٨، وهي مجموعة لا بد من الاطلاع عليها فيما يخص القرون الحالية، بجوار آثار آباء الكنيسة اللاتينية لبني نفسه: ونشر مصنف كسماس نشرة حسنة جدا في ثلاثة مجلدات بمنشورات دار سيرف بباريس ١٩٦٨ — ١٩٧٠، كما نشر لأهمية معلوماتنا عن تنصير أثيوبيا الى كتاب «تاريخ الكنيسة» الروفنيوس و «آثار آباء الكنيسة اليونانية» لبيني الذي يمدنا بترجمة لاتينية.

(١٦) نذكر ارسطو (السياسة) وقيصر (الحرب الأهلية وحرب افريقيا) أوتروب وجستان وأوروز. وفيما يخص تاريخ هنيبعل وحده فهناك أكثر من ٣٠ مصدرا مكتوبا.

## جدول تاريخي لأهم المصادر القصصية

المصادر المكتوبة			
التواريخ	الأخبار والحكايات	الجغرافيا الرحلات	مصنفات قضائية دينية
٢٠٦٥			
١٥٨٠			
٨٠٠	هيريودوت (٤٨٥ - ٤٢٥)		هيريودوس (ق ٨)
٥٠٠	أخبار شعبية (ق ٣) بوليب (٣٠٠ - ١٢٠)	اسطرابون، رحلة حانون المزعومة	سفر الملوك (قبل ٥٨٦)
٢٠٠	ديودور		
١٠٠	سلوست (٨٧ - ٣٥)		
١٠٠ +	طاسيت، بلوتارك	بلين القديم	
٢٠٠ +		بطليموس	القديس سيريان (٢٥٨ - ٢٠٠)
٣٠٠ +		رحلة بحر ارنتر يا (٢٣٠)	
٤٠٠ +			القديس اغستان (٤٣٦ - ٣٥٤)
٥٠٠ +	بروكوب (٤٩٢ - ٥٦٢)	كساس الديقوبلستس (٥٣٥)	
٦٢٢ +			
٨٠٠ +	ابن عبد الحكم (٨٠٣ - ٨٧١ م)	الفزاري، الخوارزمي (قبل ٨٣٣ م) اليقوني	الموطأ، المدونة أحكام السوق
٩٠٠ +	الكندي	المسعودي (٩٤٧ م) ابن حوقل (٨٧٧ م)	غاوثي نعمان (شيمي) ابنوا لعرب (سني) ابن الصنوبر (خارجي)
١٠٥٠ +	الريقق (١٠٢٨ م)		
		البكري (١٠٦٨ م)	المالكي
١١٠٠ +	الاستبصار	الادريسي	ابوزور كوجا
١٢٠٠ +	مجهول المؤلف ابن الأثير (١٢٣٤ م)	ياقوت (١٢٢٩ م) ابن سعيد (قبل ١٢٨٦ م)	الحزومي مناقب حفصية
١٣٠٠ +	ابن العذارى الذويري ابن إلي زرع، الذهبي ابن خلدون	العبدري (١٢٨٩ م) العمرى (١٣٣٦ م) ابن بطوطة التجاني الأطلس الميرقي (١٣٧٦ م) لكرمسك المقر نيزي	عنطوطات الديارات الاثيوبية
١٤٠٠ +	ابن تغري بردي		القاضي القاضي الصعدي
١٤٥٠	زراره		

المصادر الوثائقية		
أوراق رسمية	وثائق خاصة	الأحداث التاريخية
		٢٠٦٥ الامبراطورية الوسطى ١٥٨٠ الامبراطورية الحديثة
برديات كهنتوية	برديات يهودية في فيلة	٨٠٠ اختطاط قرطاج، العصر المصري التأخر ٥٠٠ ٢٦٠ البطالسة ١٠٠ الفتح الروماني (١٤٦م) لافيقيا
أخبار حديثة		١٠٠٠+ ترمين أفريقي ٢٠٠٠+ أوج المدرسة الاسكندرية ٣٠٠٠+ أكسوم - تنصير ٤٠٠٠+ اثيوبيا (٢٣٣) ٥٠٠٠+ استرجاع بنزلة لافيقيا (٥٣٣)
		٦٢٢ الهجرة
برديات افرقية وقبطية برديات عربية بافروديت		٨٠٠+ الفتح العربي الخلافة الاموية (٦٦١ - ٧٤٩) افريقيا الاغلبية (٨٠٠ - ٩١١) ثورة الزنج (٨٦٨) ٩٠٠+ انتصاب الفاطميين في مصر (٩٦٩) ١٠٥٠
مراسلة فاطمية في افرقية برديات عربية بالقوم واشمونين صكوك فاطمية في مصر		
رسائل، مراسلة مهم ام جلبي	الجنيزة	١٠٧٦ ١١٠٠+ الهلايون في افرقية، فتح المرايطون لغانة
رسائل موحدة		١١٥٠+ الموحدون بالمغرب، الايوبيون بمصر
وثائق ايطالية	الجنيزة وثائق ايطالية	١٢٠٠+ الحفصيون في افرقية، المريثيون بالمغرب، المماليك بمصر
رسوم وقف	فتاوى	١٣٠٠+ امبراطورية مالي كنكوموسي (١٣١٢ - ١٣٣٥)
الفلقشدي		١٤٠٠+ سقوط مالي، بروسنغاي احتلال سبتة من قبل البرتغاليين (١٤١٥) اكتشاف البرتغاليين لرأس بوجدور (١٤٣٤) ١٤٥٠+
المريزي		

وكان من المفيد جدا أن يجمع ما بعثر من الكتابات الخاصة في إفريقيا الشمالية، ولكن هذا لم يتم إلا بالنسبة إلى المغرب الأقصى (١٧)، فصار لزاما على الباحث أن يتصفح نظام المجموعات الكلاسيكية الكبرى، تلك المجموعات التي عرض فيها التبحر العلمي الأوروبي في القرن التاسع عشر كل ما كان لديه من وسائل النقد ومن العمل الجبار: الخزنة الطينية، الخزنة الكلاسيكية لوب (نص وترجمة إنكليزية)، مجموعة ج. بودي (نص وترجمة فرنسية) مجموعة جامعات فرنسا، المخطوطات الكلاسيكية في خزنة أوكسنيونزيس. يحسن أن يضاف إلى هذه المصادر القصصية مصادر أكثر مباشرة متمثلة في نصوص القانون الروماني، ولأن هذه النصوص كانت في أصلها من النقوش الكتابية (١٨).

ولم تكن كتابات الحوليات ومؤرخي اليوميات والجغرافيين اليونانيين واللاتينيين ذات قيمة واحدة بالنسبة إلى الفترة الفرعية المدروسة كلها. فالبعض يرمي إلى اقتباس المعلومات من الكتاب السابقين، بينما يقدم غيرهم معلومات طريفة قيمة، وأحيانا شواهد مباشرة. فهذا بوليب مثلاً قد عاش في ظل أسرة سيبليون ولعله حضر حصار قرطاج سنة ١٤٦ ق.م. وهذا كتاب سلوست حرب بوغرتا الذي يعتبر «وثيقة ممتازة عن الممالك البربرية» وكتاب قيصر «الحرب الأهلية» هو كتاب صانع للتاريخ.

وتسيطر على هذه الفترة صورة بوليب وآثاره. فقد قيل (١٩) إن بوليب وليد العصر الهلنستي وثقافته. ولد حوالي سنة ٢٠٠ ق.م أي في الوقت الذي التقت فيه رومة، عند انفجار امبراطوريتها، بعالم البحر الأبيض المتوسط وخاصة منه الهلنستي. ثم سجن وعرف النفي بروما وذاق ضروب المرارة، وهو «المعلم القاسي» المؤرخ والفيلسوف. ولقد راقته الحياة برعاية آل سيبليون بل إنه مدين لها بمعرفة الكثير عن تاريخ رومة وقرطاج، ثم عاد إلى موطنه اليونان بعد سجن دام ستة عشر عاماً، ولكنه ما لبث أن هاجر سائحاً في الدنيا، وخلال إقامته في إفريقيا يقال إن سيبليون إيميليان عرض عليه اسطولا يمكنه من استكشاف الساحل الأطلسي الإفريقي، فنحن إذن أمام رجل مقدم مجرب لا يفتقر له فضول. ولم يكن بوليب فحسب المصدر الرئيسي لكل ما يتصل بالصراع البونيقي الروماني، بل هو بصفة أعم مشاهد من الطراز الأول لما يجري في زمنه في إفريقيا ومصر، ولو كانت الأجزاء الأربعة من كتابه «الذرائعية» باقية بين أيدينا، لكانت معلوماتنا أكثر بكثير مما نعلم الآن، وقد يكون لنا فيها معلومات أدق منها في أي مكان آخر عن إفريقيا السوداء نفسها. إن ما تبقى لدينا من أجزائها الستة تتميز بتميز كبير عن سائر مصادرنا بمجودة المعلومات والنظرة الثاقبة.

وبعد القرن الأول وطيلة القرون الأربعة التي تعمقت فيها جذور التنظيم الإمبريالي إلى أقصى حد في إفريقيا، ثم أهميتها باعتبارها أزمناً مطولة، صارت المصادر الأدبية ضئيلة ووجد فراغ يكاد يكون تاماً في القرن الثاني الميلادي، وتميز القرنان الثالث والرابع بهيمنة الكتابات المسيحية ولا سيما كتابات سيبريان وأغستان. وهي مصنفات عامة تتجاوز الأطوار الإفريقي وأضعها أهم

(١٧) روجي: المغرب عند المؤلفين القدامى ١٩٢٤.

(١٨) ب. أ. جيرارد: نصوص من القانون الروماني، الطبعة السادسة ١٩٣٧.

(١٩) «التاريخ القديم، كيمر يدج» المجلد الثامن: «روما والبحر المتوسط».

المشاكل الدينية دون أن تساهم في القول التاريخي المباشر، بل هي لها وقع مباشر على الأحداث بما اتصفت به من كتابات جدلية ظرفية.

فنعرفتنا للحركة الدونانية انما تعتمد على تهجمات أكبر مناوئها القديس أغستان (٣٥٤ — ٤٣٠)، ولذلك صار من اللازم أن نحتري بشأنها احترازا جديا.

وبالنسبة الى المصادر المكتوبة أيضا، فإن آثار الآباء في الفترة الامبريالية تبدو كأداة رئيسية ولكنها جزئية لمعرفةنا. وفي هذا الشأن أيضا يمكن للباحث أن يرجع الى المجموعات الكبيرة.

— مجموعة برلين باليونانية (النص وحده)

— مجموعة فينا باللاتينية (النص وحده)

ولهذه المعالم من التبحر العلمي الالمانى ما يقابلها في التبحر الفرنسى، وهي مجموعتا ميني:

— آثار الآباء اليونانية (نص وترجمة لاتينية).

— آثار الآباء اللاتينية (نص لاتيني فحسب).

وكان التدخل الفندالي وإعادة الفتح البيزنطي والحضور البيزنطي طيلة أكثر من قرن، شديدة الاثارة للاستلهايات، فتكاثرت الكتابات الموضوعية «الصغيرة» وظهرت المصادر الوثائقية (مراسلات ونصوص تشرعية)، ومن حسن حظنا ان كان لنا مشاهد خصب بارع هو بروكوب (القرن السادس) فكان الى حد بعيد مصدرنا المعتمد، بكتابه «الحرب الفندالية».

ويمكن العودة الى «المجموعة البيزنطية» في بون والاستعانة «بالقطع التاريخية اليونانية فيما يخص النصوص اليونانية، وتوجد النصوص اللاتينية المتعددة اما في «آثار الآباء اللاتينية» (وآثار القديس فلقيانس لها بعض الأهمية بالنسبة الى معرفة الفترة الفندالية) واما «العلمة الجرمانية التاريخية، لمؤلفين قدامى» (٢٠) وهي من معالم التبحر الالمانى، فهي تجمع «التواريخ اليومية الصغيرة» من الفترة البيزنطية: كسيودور وبرسبرتيرو ولا سيما فكتوردي فيتا وكوربوس، ويستحق هذان الأخيران أكبر العناية، الأول فيما يخص الفترة الفندالية والثاني بالنسبة الى الفترة البيزنطية اذ هما يلجان باطن افريقيا ويلقيان بعض الأنوار على افريقيا هذه «العميقة» التي طالما أغفلت (٢١). ويوضح شارديهل في كتابه الدراسي عن افريقيا البيزنطية انه في الامكان استغلال المادة الأثرية ومادة النصوص في آن واحد لتمثيل الواقع التاريخي تمثيلا أتم ما يمكن. لقد استخدم من المصادر المكتوبة لوحة فسحة قدر ما يمكن: فأولا بروكوب وكذلك كوربوس، ولكن أيضا أقاطيلاس وقاسيودور وجورج القبرصي (٢٢)، ورسائل البابا قريوقار الكبير وثائق قضائية كالأحداث وقانون جوستينال، النافعة ايمانا نفع لاستكشاف الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

ويبدو أن الاحتمال ضعيف بامكان اثراء القائمة الميتة لوثائقنا المكتوبة بواسطة اكتشافات

(٢٠) في «علمة ميسن» مجلد ١/٩ — ٢ (١٨٩٢) ١١ (١٨٩٤) و ١٣ (١٨٩٨) يوجد نص فكتوردي فيتا في المجلد ٣ — ١ (١٨٧٩) نشره ص. هولم، ويوجد نص كوربوس في المجلد ٣ — ٢ (١٨٧٩) نشره ج. بارتش.

(٢١) عن افريقيا الفندالية والبيزنطية لدينا مصنفان عصريان أساسيان يوضحان تفاصيل المصادر الممكن استغلالها: كرميتيان كورتوا ١٩٥٥ وش. ديبل ١٩٥٩، وفيما يخص الفترة القديمة: التاريخ القديم لافريقيا الشمالية لاستينف ترال ولأنه تقادم فهو مازال صالحا للمطالعة.

(٢٢) وصف العالم الروماني نشر جازر.

جديدة، على أنه، بالعكس، من الممكن أن تستغل استغلالاً أحسن وأن تعمق وأن يتم عليها تحقيق دقيق وأن تقابل بالمادة الأثرية والنقشية التي لم تنفذ بعد، وخاصة أن تستخدم بنزاهة وموضوعية (٢٣).

### إفريقيا الصحراوية والغربية

ليس لدينا في حقيقة الأمر أي وثيقة يوثق بها عن إفريقيا السوداء الغربية. فإذا ما وافقنا موني (٢٤) على أن القدماء — قراطاجيين ويونانيين ورومانيين — لم يتجاوزوا رأس جوبي وخط عرض الجزر الخالدات — وهذا هو الأرجح، فإن الارشادات التي توفرها لنا كتاباتهم إنما تخص الجنوب الأقصى المغربي. نعم هي على حدود العالم الأسود ولكنها لم تدخله.

ورحلة حانون مزيفة، إن لم تكن بأكملها في معظمها (٢٥) وهي مؤلف خليط تتلاقى فيه اقتباسات من هيرودوت ومن بوليب و بوسيدونيوس وسيلاكس المزعم الذي قد يؤرخ بالقرن الأول، وتأليف هذه المصادر هي أشد جدية، ففي هيرودوت صدى للتجارة الصامتة التي كان القرطاجيون يجرونها مع الجنوب المغربي. ويمدنا تابع سيلاكس المزعم (القرن الرابع ق. م) بدوره بأخبار ثمينية عن علاقات القرطاجيين بالليبيين البربر، إلا أن بوليب يلوح مرة أخرى، المصدر الأقرب إلى الواقع، إذ أن بقايا نصه التي اقتبسها بلين القديم توفر لنا أولى المسميات المكانية في العصور الخالية التي يمكن تحقيق مواقعها، إلا أن في ذلك أيضاً تقف ارشاداته عند حد رأس جوبي، وفيما يخص أرخبيل الخالدات ينبغي أن تكمل تقريراته بمذكرات الجوبا الثاني التي جمعها بلين واسطرابون وديودور الصقلي. ولم يقدّر المؤرخين الجغرافيين في القرن الأول ق. م. وب. م. إلا بتصفح المؤلفين السابقين، إذا استثنينا بعض التفاصيل الجزئية. وأخيراً في القرن الثاني، كثر بطليموس ما جاء عند كل سابقه، واعتمد خاصة على بوسيدونيوس وماران الصوري، فقيّد في «جغرافيته» أوسع المعلومات عن محيط إفريقيا في العصور القديمة (٢٦)، وقد استغلت الخريطة التي أبقاها لنا الجغرافي الاسكندر عن «ليبيا الداخلية» عن ما جمعه الجيش الروماني من معلومات خلال حملاته العقابية من رواء الحدود حتى فزان، مثل حملة بلبوس سنة ١٩ ق. م وحملة فلكوس سنة ٧٠ ب. م ومترنوس سنة ٧٦ ب. م. وقد توغل إلى أقصى حد في الصحراء الليبية (٢٧)، وبقيت من العصور الخالية أسماء شعوب ومناطق مثل موريطانيا وليبيا والقوارمنت والجيتول والنوميديون والهسبريد وحتى النيجر الذي تقدم عبره بطليموس، واسترده ليون الإفريقي من جديد ثم الاوربيون العصريون. هذا ما أتت به نصوصنا التي أمدتنا علاوة على ذلك، بالتشخيص الذي تصورته به

(٢٣) عن التحرّفات الناشئة عن قراءات متحيزة للنصوص، ان النقد الذي قدمه عبد الله العروي سنة ١٩٧٠ على التدوين التاريخي الغربي وجيه بقدر ما هو عجيب الاطلاع.

(٢٤) (د. موني ١٩٧٠ ص ٨٧ — ١١١).

(٢٥) عين المصدر ص ٨٨، طوكسيي ١٨٨٢ ص ١٥ — ٣٧، ج جرمان ١٩٥٧ ص ٢٠٥ — ٢٤٨.

(٢٦) يوسف كامل: معلمة، المصدر المذكور ج ٢ فصل ١ ص ١١٦ وما يليها، ر. موني (غرب إفريقيا عند بطليموس)، ضمن أعمال المؤتمر الدولي الثاني للعلماء الافريقانيين للغرب: بساو ١٩٤٧.

(٢٧) مارين الصوري (أحد مصادر بطليموس)، ذكر ذلك، انظر يوسف كامل ج ١٩٢٦، ص ٧٣.

العصور القديمة عن إفريقيا، أكثر مما أمدتنا بمعطيات حقيقية. على أن الاشارات التي تبدو من ذلك، إنما تهتم الصحراء الليبية وسواحل الصحراء الغربية، أما إفريقيا السوداء، فتبقى مجهولة غامضة على حدود المعرفة.

### العصر الأول الاسلامي (حوالي ٦٢٢م - ١٠٥٠م)

كان الفتح العربي وتشكل الخلافة سببا لتوحيد المجالات السياسية الثقافية التي كانت قبل متفرقة (الامبراطورية الساسانية والامبراطورية البيزنطية) وافساح الأفق الجغرافي للانسان، وتحويل تيارات التبادل، والولوج الى أعماق شعوب لم تعرف من قبل. فلا غرابة إذن أن يكون لنا لأول مرة معلومات أدق فأدق عن العالم الأسود، الشرقي والغربي. ولكن بينما كانت مصر والمغرب الأقصى مسندجين في صلب الامبراطورية ثم الأمة الاسلامية، كان العالم الاسود مجرد جزء من منطقة النفوذ الاسلامي، ولذا كان الخبر عنه جزئيا، متقطعا أحيانا وخرافيا ولكنه مع ذلك خبر ثمين.

وإذا استثنينا المصادر الوثائقية التي استمرت تقاليدتها في مصر (برديات قبطية و يونانية في أفروديت، وبرديات عربية في الفيوم وفي اشمونين (٢٨) وأخيرا في القرن العاشر الميلادي بعض النسخ من الوثائق الفاطمية، وهي خاصة بهذا البلد، فإن معظم المصادر القصصية بالمعنى الاوسع أو الغير المباشر كانت متداولة في إفريقيا كلها. والأمر واضح بالنسبة الى الكتابات الجغرافية التي ترى في عدة نصوص قانونية. ولذا يبدو من الملائم أن نقوم باحصاء حسب الاغراض، مسجلين مع ذلك التتابع الزمني، غير غاضين الطرف عن البنية الجهوية.

### الأخبار التاريخية

أ) ليس لدينا أي خبر تاريخي قبل القرن التاسع، ولكن الخبر الشفاهي قد تم اعداده، ومركزه بلا منازع مصر، فها عدا الساحل الشرقي الافريقي المرتبط تجاريا مباشرة مع العراق الجنوبي، ومن جهة أخرى نظرا لصفته اللامركزية بالنسبة الى مصر، فإن المغرب الأقصى ومن باب أولى السودان، حظيا بمكانة ضعيفة في التواريخ الكبرى (٢٩) (الطبري والدينوري والبلاذري في أنساب الاشراف) التي كانت مركزة على المشرق. ويشذ عن ذلك تاريخ يكاد يكون مجهولا حتى زمن قريش: تاريخ خليفة بن خياط (٣٠) ولم يكن هذا الكتاب مجرد أقدم كتاب عربي في الحوليات (توفي خليفه سنة ٢٤٠ هـ ولكنه احتفظ بمواد قديمة أغفلها الطبري) واشاراته حول فتح المغرب خاصة، لها أهمية كبرى. فبينما تركت روايات المغازي المدنية فتح مصر والمغرب جانبا، فإننا نرى منها الأحداث البارزة فقط وبصفة مقتضبة في كتاب فتوح البلدان «للبلاذري». وثمة قاص

(٢٨) أعمال قرومان هي المعتمدة: برديات عربية في الحزاة المصرية ٥ مجلدات ١٩٣٤ - ١٩٥٩ «مختارات من البرديات العربية» براغ ١٩٥٥. وقد درس هـ. بل البرديات اليونانية والقبطية عن الرسوم الفاطمية: الشيا: مجموعات الوثائق الفاطمية القاهرة ١٩٥٨.

(٢٩) على أنه من المهم أن نشير إلى أن أحد المدونين الاولين للتاريخ العربي، وهو عمر بن شابه، أبقي لنا أقدم شاهد عربي متعلق بالسود، وروى هذا النص الطبري، التاريخ مجلد ٧ ص ٦٠٩ - ٦١٤. وهذا الشاهد هو ثورة السودان في المدينة سنة ١٤٥ هـ ٧٦٢م. مما يدل على حضور افريقي قوي في ذلك العصر. ولم يشر الى هذا النص ولم تتم ملاحظته حتى الآن. (٣٠) نشره في التجف ١٩٦٥ العمري مع مقدمة لـ أ. س. العلي ٣٤٤ ص.

مصري كرس نفسه من أجلها في مؤلفه الذي كان أهم وثيقة عن القرن التاسع، ان كتاب «فتوح مصر والمغرب» (٣١) لابن عبد الحكم شبيه بالحوليات أو بكتب المغازي، وهو في الواقع مجموع تقاليد قانونية تتصل بالتاريخ (٣٢).

ب) وبعد سكوت قرن (٨٥٠ - ٩٥٠) (٣٣) ظهر مؤلف سياسي لا يبدو أنه استغل من جميع أبعاده: هو كتاب «ولاة مصر وقضاتها للكندي» (ت: ٩٦١) وهو كتاب تراجم لا توارى يومية ولكنه قد يشابهها ويحتوي لا على معطيات مدققة مباشرة عن مصر فحسب، بل هو بموجب ما كان لهذا البلد من صلات أولى مع المغرب يلوح مضدرا من أثبت المصادر لمعرفة المغرب في القرن الثامن الميلادي (٣٤).

والقرن العاشر الميلادي هو قرن الإسماعلية في الاسلام، الاسلام الافريقي أولا وبالذات وعليه فن الممكن أن نتصفح في ذلك كتابات الشيعة مثل «سيرة الحاجب جعفر» ولا سيما «افتتاح الدعوة» للقاضي النعمان، وهو مؤلف أساسي لا يذكر الكثير من التواريخ، ولكنه غني بالأخبار عن بداية الحركة الفاطمية (٣٥).

ج) وفي النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، ظهر الكتاب الشهير «تاريخ الرقيق» (ت: ١٠٢٨) وهو مصدر أساسي، وتعتبر النسخة الأصلية من هذا الكتاب مفقودة، ولكن أهم ما فيه نقله المؤرخون من بعده مثل ابن عذاري. قد عثر أخيرا العالم المغربي المنوني على جزء منه مخصص للعصر القديم الافريقي ونشره الكعبي في تونس عام ١٩٦٨. دون أن نشق بصحة نسبته الى الرقيق (٣٦).

في كل هذه التواريخ نرى المكان المخصص لافريقيا السوداء يضيق بل انه يتطلب أن يقوم المؤرخ بنقد دقيق لها، ومقارنة مستمرة مع معطياتها، فيما بينها، ومع المعطيات التي تعود لأصول مختلفة أيضا. وليس بمقدور مؤرخ المغرب ومصر بصورة خاصة، أن يقف عند هذا الحد، بل ان حصولها على معرفة معمقة عن الشرق، هو ضرورة مطلقة. ويقتضي ان تكتمل ملازمته لهذه المصادر بملزمة معمقة للتواريخ الشرقية الكلاسيكية.

(٣١) نشره طري سنة ١٩٢٢ وترجمه جزئيا قاتو، وأعيد طبعه في القاهرة. نشره عامر سنة ١٩٦١ وعن التحفظات عند استعماله: (برنشفيك ابن عبد الحكم وفتوح افريقيا الشمالية: حوليات معهد الدراسات الشرقية بالجزائر، ١٩٤٢، ٤٧ دراسة نقدية لأذعة لا تنقص في نظرنا مساهمة هذا النص الأساسي بالنسبة الى مصر، والمفيد بالنسبة الى افريقيا والمهم بالنسبة الى العالم الأسود (اتصالات عتبة المحتملة مع فزان التي ينكرها برنشفيك في مقال آخر، الاتفاق الشهير المدعوبت مع النوبين).

(٣٢) لا شئ يستمد من جامع مؤرخ عبيد الله بن صالح الذي اكتشفه لبني بروفنسال ونوه به. انظر ازابيكا ١٩٥٤ ص ٣٥ - ٤٢ كمصدر جديد لفتح المغرب، وياسر لبني بروفنسال ماني «جدول»، المصدر المذكور ص ٣٤ وتحليله للمصادر العربية المتأثر الشامل لا يعني كثيرا بالنقد الدقيق.

(٣٣) باستثناء بعض التواريخ مجهولة المؤلف وهي مهمة: «كلامامة والسياسة» القاهرة ١٩٠٤ المنسوب لابن قتيبة والأخبار المجموعة مدر يد ١٨٦٧.

(٣٤) نشره ر. جامست سنة ١٩١٢ وأعيد طبعه في بيروت سنة ١٩٥٩.

(٣٥) نشره في تونس م. الدشاوي ونشر أيضا في بيروت.

(٣٦) يرفض محمد الطالبي رفضا باتا نسبته الى الرقيق (انظر كرايس تونس مجلد ١٩، ١٩١٧، ص ١٩ وما بعدها، دون أن يأتي بالحجة المقنعة، فالشك باق في شأنه.



## مصادر جغرافية

المصادر الجغرافية هامة ووافرة منذ القرن التاسع الميلادي، فسواء كانت تنتمي الى نوع رسم الخرائط، كصورة الأرض التي أوضحها الخوارزمي، أو الى الجغرافية الادارية، أو الى نوع المسالك والممالك، أو الى مجرد فن الرحلة المروية كقصة قليلا أو كثيرا، فإن الكتابات الجغرافية العربية تدل على رغبة لادراك المعمورة بأكملها. فلا غرابة اذا أن تكون افريقيا السوداء ممثلة فيها، وأن تكون هذه المصادر هي الأساسية لمعرفة هذا الجزء من افريقيا. وحسب المجموعة المستقاة من قبل كوبل وماتيف (٣٧) التي تنتهي عند القرن الثاني عشر الميلادي، تبين أن من بين ٤٠ مؤلفا ذكرها يوجد ٢١ جغرافيا، نصوصهم هي أكثر النصوص مادة. ولكنه لا يمكن استثمار هذه المصادر استثمارا حقيقيا ما لم تقرأ بعمل نقدي مسبق، فعلى مؤرخ افريقيا السوداء أن يحل الآثار الجغرافية العربية محلها في إطاره الثقافي الخاص. فالى أي حد مثلا يوافق وصف ما الواقع الحقيقي، والى أي حد لا يكون سوى خيال لأغراض ردها الأدب بمختلف مركباته؟ (٣٨) وما هو نصيب التراث الاغريقي والتراث الفارسي والتقاليد العربية الخاصة، وما هو حفظ التصريح كما هو نصيب المشاهدة الحسية. ولكن لابد، ومن جهة أخرى، أن يجري على هذه النصوص النقد من الداخل، أي بدءا من معرفة معمقة للتاريخ الافريقي، مع التحفظ من الاطلاع على هذا التاريخ من المصادر الجغرافية فقط، وتبقى غير مقبولة وجهة النظر الايديولوجية الضيقة لدى من يرفضون النظر الى المعنى في هذه المصادر بسبب كرههم للإسلام — (٣٩) وهو اتجاه في غير محله يفسر افريقيا مكمشة على نفسها — (٤٠).

جملة من الجغرافيين أفردوا نصيبا لافريقيا، من منتصف القرن التاسع الى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي — بل كلهم تقريرا فعلوا ذلك — ولكن هناك قلة فحسب ساهمت بخبر طريف جدي مثل ابن خرداذبه واليعقوبي (ت ٨٩٧) والمسعودي (٩٦٥) وابن حوقل (٩٧٧) والبيريوني (٤١). فاليعقوبي سافر الى مصر والمغرب فأبقى لنا منها لوحة خصبة، في «تاريخه» كما في «بلدانه» (٤٢) قد أمدنا بارشادات عدة عن العالم الأسود: عن أثيوبيا والسودان والنوبة والبجة والزنج. وفي السودان ذكر الزغاوى من كانم، ووصف مسكنهم، ثم هو يصف مملكة غانة العظيمة

(٣٧) كوبل وماتيف ١٩٦٠ و ١٩٦٥، انظر أيضا كوك.

(٣٨) أ. ميكال ١٩٦٧ و ١٩٧٧.

(٣٩) انظر في هذا الشأن موقف ج. فروبنوس النقدي الحرج وموقف ج. روش: مساهمة لتاريخ السنغالي، دكار ١٩٥٣، الذي يشهر خاصة بالتحريف الايديولوجي الوارد في التواريخ السودانية.

(٤٠) صحيح أن هذه النصوص تنطبق خاصة على الخزام السوداني، وإن الاقتصار على قراءة المصادر العربية وحدها دون الاستعانة بعلم الآثار، يمكن بالتالي أن يربف الصورة. غير أنه ليس صحيحا أن نقول أن المؤلفين العرب كانت تعوزهم الموضوعية. أما أن نأخذ عليهم افتقار كتاباتهم الى التكامل والنظام فعنا اغفال وجه نظر المؤرخ المحض للأخذ بوجهة نظر مؤرخ الأدب. وفي هذا الصدد، أصدر ن. ليفيتسون أحكاما غير قاطعة. كذلك من المفيد الرجوع الى الدراسة التي قدمها أ. هربك الى المؤتمر الدولي الثاني عشر للعلوم التاريخية في فيينا أعمال المؤتمر، الصفحات ٣١١ وما يليها، أنظر أيضا ت. ليفيتشكي «نظرات جديدة على التاريخ الافريقي»، محاضر مؤتمر دار السلام ١٩٧١، و «المصادر العربية الخارجية» لتاريخ افريقيا جنوبي الصحراء وركلو- وارسو- كراكو ١٩٦٩.

(٤١) انظر — مجلة كوربيه التي تصدر عن اليونسكو — عدد الشهر السادس ١٩٧٤.

(٤٢) نشره ضمن «الخزائن الجغرافية العربية» ج ٧، دوقوجي، كمعظم الجغرافيين العرب ترجمة ج. فيت بعنوان «كتاب البلدان» مفيدة ولكنها غير مدققة.

ويعالج بصدد هذا مشكل الذهب كما يتعرض لمشكل العبيد عن حديثه عن فزان. «ومسالك» (٤٣) ابن حوقل أكثر تفصيلا، فلقد زار المؤلف النوبة، واحتمالا السودان الغربي، وتكمن قيمة وصفه فيما يوفره من فكرة عن العلاقات التجارية بين المغرب والسودان، ويمدنا معظم الجغرافيين الآخرين في القرن العاشر الميلادي بمعلومات عن افريقيا السوداء: ابن الفقيه عن غانة وكوكي، والرحالة بزري بن شهر يار عن الساحل الشرقي والزننج، والمهلي الذي حافظ في مؤلفه على مقاطع من كتاب الاسواني. وفي النهاية ان «مروج الذهب» للمسعودي (٩٦٥ م) غنية بالمعلومات عن الزنوج والساحل الشرقي. ولفتت هذه النصوص من بعيد نظر الاخصائيين الافريقيين والمستشرقين، أمثال دولافوس وتشرولي (٤٤) وكرامرس (٤٥) وموني (٤٦).

### المصادر القضائية والدينية

ان مؤلفات القانون ومراحل السير في الطبقات، من مدونة «سحنون» حتى مؤلفات الخوارخ هي منجم للمعلومات عن المغرب، وبعضها صالح فيما يخص المنطقة الصحراوية الموصلة الى افريقيا السوداء، وحوليات الأئمة الرستميين بتاهرت لابن الصغير (بداية القرن العاشر الميلادي) (٤٧) تمكننا من القول بوجود روابط تجارية منذ نهاية القرن الثامن الميلادي بين الامارة الاباضية وبين ثاو، كما تمكننا بعد اكملها بما جمع في المؤلفات الموالية مثل «السير» للوسياتي، من افساح ذلك الى كل الحدود الصحراوية ولكن هذه المؤلفات في المناقب لا تعرض أخبارها الا تلميحا، ومن الواجب أن تطالع في اطار اشكالية موضوعية مسبقا وأن تقارن دائما بأنماط أخرى من المصادر. وهي لا تسمح في نظرنا ببناءات واستنتاجات جريئة من نوع ما يتقدم به لويكي.

### العصر الاسلامي الثاني (١٠٥٠م - ١٤٥٠م)

تمتاز هذه الفترة الطويلة بتراتها وبنوعية ما تمدنا به من خبر وتنوعه. على أن المصادر الوثائقية رغم ثنائيتها بالنسبة للكتابات الأدبية ذات أهمية مثل: وثائق الجنيزة، ورسائل مرابطية وموحديّة، عقود الوقف، فتاوى، ووثائق ايطالية، أوراق رسمية مودعة في كبريات المجموعات. وينتج المؤرخون أعمالا من طراز أول، تكتسب قيمتها من مشاهدة الأحداث المعاصرة، وكذلك مما تنقله عن المصادر القديمة المفقودة، ثم انه فيما يخص افريقيا السوداء تبلغ معرفتنا الأوج عند ظهور وثائق افريقية جديدة متمثلة في المخطوطات الاثيوبية.

(٤٣) «كتاب المسالك والممالك» ب. ج. أ. ٢، كوبل وما تيفي، ٢، ص ٣٣ وما بعدها.

(٤٤) وثائق عربية لتاريخ اثيوبيا ١٩٣١.

(٤٥) جغرافيا: دائرة المعارف الاسلامية، ارتريا موصوفة في مصدر عربي من القرن العاشر، أعمال المؤتمر التاسع عشر للمستشرقين، رومة ١٩٣٨.

(٤٦) الباب الأول من «لوحته» احصاء منهجي للمصادر الجغرافية.

(٤٧) نشرت في أعمال المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين (الجزء الثالث) ١٩٠٨ ودرسها لويكي ١٩٧١، مجلد ١٣ ص ١١٩ وما بعدها.

## المصادر الوثائقية

لها قيمة خاصة بالنسبة الى مصر والمغرب

(أ) لدينا الآن وثائق الجنيزة الخاصة بالقاهرة، والتي تمتد على الفترة المدروسة كلها، على أن معظمها من العهد الفاطمي، وقليلاً منها ينتمي الى مصر المماليك، وهذه الوثائق خليط من الأوراق العائلية ومن المراسلات التجارية فتعكس اهتمامات المجموعة اليهودية بمصر وغيرها من البلدان، كتبت هذه الوثائق باللغة العربية وبحروف عبرية بدون تأريخ، فلزم اتخاذ عديد من الاحتياطات الفنية عند استخدامها، ولكنها على حالها تلك تمثل ذخيرة من المعلومات لا تنضب (٤٨). ويمكن أن يجمع في عين الصنف — صنف الوثائق الخاصة — رسوم رسم الوقف الكثيرة في عصر المماليك المحفوظة بمحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة (٤٩) وكذلك بدون شك فتاوى العهد الحفصي.

(ب) وبالعكس فإن الوثائق الاوربية الخاصة بمصر والمغرب والتي تعود الى القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر للميلاد، والموجودة في البندقية وجنوة وبيزا وبرشلونة، تقع في منزلة بين الحقل الخاص وبين الحقل العام. وهي محفوظة في مستودعات الوثائق العامة والخاصة، وهي تتألف من معاهدات وعقود ورسائل تهتم عادة بالعلاقات التجارية، وقد نشر اماري وماس لتري (٥٠) البعض منها فحسب. وهي توفر في مجموعها مادة وثائقية من شأنها أن توسع مجال البحث في حقل التاريخ الاقتصادي والاجتماعي.

(ج) وليس بين أيدينا وثائق دولة بالمعنى الكامل فيما يخص هذه الفترة، بل هي أوراق رسمية مرابطية وموحدية حفظت ونشرت، فألقت أضواء جديدة على المذهبية التي أفرزتها هاتان الحركتان العظيمةتان وعلى منظماتها (٥١). ويقول العروي في هذا الصدد: «بدأنا نشاهد الموحدية من الداخل ولم يعد من المتعذر أن يكتب تاريخ ديني سياسي لهذا الاسرة» (٥٢) وفيما بعد نجد في مصر موسوعات تاريخية شرعية انتحلت عددا من الوثائق الرسمية، وما تمدنا به من وصف مفصل للبنى المالية والتنظيمية في مصر متأه عامة من المطالعة المسبقة للوثائق العامة. ففي هذا النوع الوثائقي والاحباري في آن واحد يمكن أن نضم «قوانين الدواوين» لماتي (العصر الأيوبي) و«المنهاج» للمخزومي، وصبح الأعشمي للقلقشندني (القرن الرابع عشر الميلادي)، وعديد من مؤلفات

(٤٨) إن أعمال كويتين معتمدة: مقال «جنيزة» في دائرة المعارف الاسلامية ١، ٢: جنيزة القاهرة كمصدر للتاريخ الاجتماعي بالبحر الابيض المتوسط، مجلة الجمعية الشرقية الاميركية ١٩٦٠. س: د. وقد شرع كويتين في نشر دراسة مهمة جدا عن مصادر الجنيزة، جمعية البحر الابيض المتوسط: المجموعات اليهودية بالعالم العربي كما تصورها وثائق الجنيزة القاهرية مجلد ١ أسس اقتصادية بركلای لوس انجلوس ١٩٦٧، ص ١. شاك: محاولة للمصادر والمراجع لوثائق الجنيزة بارس، لاهاي ١٩٦٤، هـ. رايي ١٩٧٢ ص ٣، ١، يوجد كثير من هذه الوثائق في المتحف البريطاني وفي كمبردج.

(٤٩) رايي ١٩٧٢ ص ٦ — ٨ و ٢٠٠.

(٥٠) اماري شهادة عربية بالبحر الابيض المتوسط، فلورنسا ١٨٦٣، ماس لتري: معاهدات صلب وتجارة ووثائق مختلفة عن علاقات النصارى بغرب افريقيا الشمالية في العصر الوسيط بارس ١٨٦٦ ملحق ١٨٧٢.

(٥١) رسائل رسمية مرابطية نشرها ج. مؤنس وأ. م مكلي، سبع وثلاثون رسالة رسمية موحدية نشرها وترجمها ليبي بروفنسال، الرباط ١٩٤١، (البندق: وثائق غير منشورة عن التاريخ الموحد ونشر وترجمة فرنسية بقلم ليبي بروفنسال بارس ١٩٢٨.

(٥٢) العروي ١٩٧٠، ص ١٦٢.

المقريزي ومنها «خططه» العظيمة القدر (القرن الخامس عشر الميلادي) (٥٣). والمقريزي مصدر ثمين ليس بالنسبة الى تاريخ مصر الاسلامية كله وحسب، بل كذلك فيما يخص النوبة والسودان واثيوبيا (٥٤).

### المصادر القصصية

أ) الأخبار: بعد قرن من الصمت — القرن الثاني عشر الميلادي، حيث لا نجد أكثر من كتاب «الاستبصار» المجهول المؤلف ومصنفات صغيرة — أمدنا القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين بعدد من الأخبار الثرية من كل الوجوه، من الكامل لابن الأثير الى كتاب العبر لابن خلدون مروراً بابن عذاري والنويري، وابن أبي ذرع والذهبي. كان هؤلاء المؤلفون شهوداً لزمانهم كما قاموا أيضاً بمجهود قصد التأليف فيما يخص القرون الخالية. فالنويري هام بالنسبة للمماليك، كما هو هام بالنسبة لفتوح المغرب (٥٥). وابن عذاري هام بالنسبة للتاريخ الموحد، كما هو كذلك بالنسبة لكل الماضي الافريقي، ابن خلدون، أخيراً، هو الحجة القصوى في مادة تاريخ افريقيا.

ب) الجغرافيا: كانت مصنفات الجغرافيا خصبة طيلة هذه القرون الأربعة وقيمتها تتفاوت في حد ذاتها كما تتفاوت حسب المنطقة الموصوفة. ومن بين مجموعة المؤلفين يمتاز جغرافيان بسعة مشاهدتهما وجودتهما: البكري: (١٠٦٨م) في القرن الحادي عشر، والعمرى (١٣٤٢م) في القرن الرابع عشر. وإذا كان عمل شهير كعمل الادريسي محل نقاش ومناقشة بالفعل، ففي الامكان أن نحصل على أخبار طريفة من خلال مؤلفات جغرافية أقل شهرة، كمؤلفات ابن سعيد المفيدة جداً فيما يخص السودان (٥٦). وتمثل «المسالك والممالك» (٥٧) للبكري ذروة معرفتنا الجغرافية عن المغرب والسودان والبكري نفسه لم يرق بأسفار الى هذه الجهات، ولكنه استغل استغلالاً ذكياً ملاحظات الوراق — وقد ضاعت اليوم — كما استخدم أخبار التجار والرحالة.

وينقل الادريسي (١١٥٤م) في كتابه «كتاب روجر» — وهو بصدد الطبع بايطاليا — الكثير عن سابقه، ووصفه مضطرب فيما يخص اثيوبيا، ولكنه أكثر دقة بالنسبة الى افريقيا الغربية، على أننا نجد فيه، هنا وهناك ملاحظات طريفة أحياناً وثمينة.

«وجغرافيا» ابن سعيد الغرناطي (قبل ١٢٨١م) تنقل عن الادريسي في وصفه لاثيوبيا ولكننا نعرفه على معلومات جديدة. ولكن الأهمية في وصفه للسودان وقد استخدم فيه كثيراً

(٥٣) رابي ١٩٧٢، ص ١٠ — ٢٠.

(٥٤) مؤلف كتاب الامام يدينا بقائمة الممالك الاسلامية باليوبيا مستمدة من العمري نشرته اقباس في لايدن سنة ١٧٩٠ بعنوان «تاريخ الممالك الاسلامية بالحشة».

(٥٥) وما زال هذا الجزء مخطوطاً بالمكتبة الوطنية بالقاهرة. ونشير الى أن ابن شداد الذي كتب تاريخاً للقيروان قد ضاع اليوم، يعتبر مصدراً من المصادر الرئيسية لابن الاثير والنويري. ونشر حديثاً «كتاب العيون» المجهول المؤلف، نشره بدمشق م. السعيد فيمينا بارشادات مفيدة عن المغرب.

(٥٦) عن قائمة الجغرافيين المستقرا انظر كوبل وما تفيد مضافاً الى ذلك الباب الأول من مؤني ١٩٦١، وتقييد لويكي ١٩٧١ ومقدمة أ. ميكال لرسالة دكتوراه ١٩٦٧.

(٥٧) نشره وترجمه دوسلان بعنوان «وصف افريقيا الشمالية» باريس ١٩١١.

اِذْ نَسَاغُ زَانَا غُلُوْشُ فَيَسْرُنَا      كَوْنَتُ مَشِي نَكِي نَاجِ بَادُ زَكْسَانَا  
 دَشِي بِيْعِي دُرْ نَاغْنِي يَانْمَا      دِيْدُو بِي رَانَاد هَسْبِي نَسَا  
 اَوَانَاغ كِيَاوُنْدَا نِي نَس  
 كُدُو بِي وَتَارُنْدِي رُوْمَس      دَهَسْبِي شُرْدُكُ دُولِي يَدُرْ قَس  
 كُدُو بِي شُرْدُ نِيَاغْنِي يَانَس      دِيْع وَتَادُكُ دَكِيَاوُنَس  
 اَوَانَاغ كِيَاوُنَا هَسْكَاتَس  
 نَسَاغْ جُومُ دَنَارُنُشُرْدُكُ      يِيَاوُ دِي نَسَم لَسْرُ غَمِي شُرْدُكُ  
 نَدُو بِي شُرْدُ نِيَاغْنِي يَانَس      دِيْع جُومُ دَنَارُنُشُرْدُكُ  
 اَوَانَاغ تَارُنْ هَجَبِي مَس  
 نَسَاغْ نِي وَنْدُ كَسْرُ نَشَبَكُ      دَلْمَشِي بِيَا نِي سَكِي يَابِ اِسْكُ  
 نِي كَرُ مَرْتَبَاتِي رُمِيَا كَقَدُكُ      اَكْلُ نَاغْنُو مَرْتَبِي يَابِ شَكُ  
 اِنَانَاغْ اِنْعَرْدِي يُوْمَس  
 اِذْ نَسَاغْ هَسْبِي دَنِيْعُ نَسْرْدُكُ      دَعْمَرَاكُ لُولُوْ مَرَجَارْدُكُ  
 كَوْنَتُ مَشِي مَكِي اَحْمَدِيَا بِيْسُرْدُكُ      بَلِي وَلَقِيَا كُوْدَنِيْعُ تَدُكُ  
 اَوَا مَرُ مَشِي نِي مَسَالِي نَس      كُو

• ظهر الورقة رقم ١٠٣ من المخطوطة العربية رقم ٢٢٩١ المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس «رحلة ابن بطوطة — الجزء الثاني». والشعر هنا مكتوب بالحروف العربية ولكن بلغة مالي، حيث الإشارة إليها. (صورة عن المكتبة الوطنية بباريس).

كتابات رحالة من القرن الثاني عشر الميلادي هو ابن فاطمة. وأهم مؤلف في القرن الرابع عشر الميلادي عن افريقيا السوداء هو تأليف العمري، «مسالك الأبصار» (٥٨) وهو شهادة ملاحظ قدير، يعتبر مصدرنا الرئيسي لدراسة مملكة مالي في تنظيمها الداخلي كما في علاقاتها مع مصر والبلاد الإسلامية. وهو أيضا أغنى عرض عربي للممالك الإسلامية في الحبشة في القرن الرابع عشر، وعلاوة على أهمية وصفه يضع كتاب العمري قضية ظهور الدولة في العالم الأسود، وقضية دخوله في الإسلام، كما كان البكري قبله بثلاثة قرون، قد عرض قضية تجارة الذهب الكبرى، وبينما أشار هذا الأخير الى متانة الروابط بين المغرب والسودان، يشير الأول الى تحول هذه الروابط نحو مصر. ويجب أن يكمل مؤلف العمري بمؤلف مراقب مشاهد مباشر للواقع السوداني والمغربي، وهو ابن بطوطة.

على أن الجغرافيين الأقل أهمية، ومصنفي الرحلات متعددون، وعلى كل فن الواجب أن يتم الاطلاع عليهم. ونذكر منهم الزهري (القرن ١٢م) وياقوت الدمشقي (القرن ١٤م) والجغرافيا المنعوتة «بالمظفرية» وابن جبر وياقوت والبغدادى والعبدري والتجاني والبلوي والحيمري.

**ج) مصادر ذات روح دينية وأدبية:** ان المصادر الدينية ترد من آفاق متنوعة، ونذكر منها كتب الطبقات والسير السنية، وسير الخوارج والطرفية وحتى النصرانية (من المجموعة القبطية) ونذكر أيضا مخطوطات الكنائس الاثيوبية وقد نقلت في هوامشها وثائق رسمية، وتبدو هذه الكتابات مفيدة ليس لمعرفة الاحساس الديني والعالم الديني فحسب، بل وكذلك لمعرفة تطور العالم الاجتماعي. فكتاب «الرياض» للمالكي مثلا أو كتاب المدارك لعياض، ثريان بما يتخللها من ملاحظات اجتماعية. ومصادر الخوارج كما هو معلوم أساسية بالنسبة الى كامل المنطقة الصحراوية في المغرب، أي منطقة الاتصال بالسود، ومن أهم ممثلها الوسياني والدارجيني وأبو زكريا وكتاب متأخر كالشماخي. وأخيرا فإن جملة المخطوطات باللغة العربية أو القبطية التي أنتجتها الكنيسة المحلية في مصر الوسيطية تنير العلاقات بين الكنائس والعلاقات بين طبقات القساوسة والدولة (٥٩). وأما المصادر الأدبية بآتم معنى الكلمة، فكثيرة في هذه الفترة، وهي تكاد لا تعني بسوى المغرب ومصر. على أن لرسائل القاضي الفاضل مكانة خاصة في هذا النوع، كذلك الأمر خاصة بالنسبة لموسوعة الصفدي العظمى: الوافي بالوفيات.

وهكذا في هذا العصر الثاني الإسلامي يبدو أن وثائقنا غزيرة، متنوعة وذات نوعية جيدة، وبصورة عامة، خلافا لما كان عليه الأمر في العصر السابق، ففي افريقيا الإسلامية تنير كتاباتنا سير المنظمات وحركة التاريخ العميقة. وهي لا تكتفي بعد بمجرد الرسم للآطار السياسي. وفي افريقيا السوداء فان القرن الرابع عشر الميلادي يشكل ذروة معرفتنا، حتى تمكنا الوثائق الأوروبية والأهلية من التعمق في هذه المعرفة، ومن افساح الميدان لمناطق بقيت الى الآن في حلقة ظلام لا ينقشع.

(٥٨) ترجمه جزئيا قودفروا ديموبيي بعنوان «افريقيا ما عدا مصر» باريس ١٩٣٧.

(٥٩) مؤلفات شرقية لأباء الكنيسة. مجموعة أساسية، ومن المؤلفات التي تهمننا نذكر مؤلفات سيفار الاسكندري (القرن الأول م) وابن مفرج (القرن الحادي عشر) فيما يخص اثيوبيا، كتاب سير الآباء البطارقة، انظر أيضا ميشال السوري نشره وترجمه شابو ٣ مجلدات ١٨٩٩ - ١٩١٠.

## النتيجة

يبقى من الخطأ أن يظن أن حالة المصادر المكتوبة في القارة الافريقية قبل القرن الخامس عشر كانت قليلة قلة تبعث على اليأس، ولكن الواقع ان ما توفر منها لافريقيا بمجملة أقل مما كان لاوريا أو آسيا. وإذا ما كان قسم كبير من القارة تعوزه تمام المصادر المكتوبة، فإن معرفتنا للتاريخ بالنسبة لباقي القارة ممكنة، وهي تعتمد — بالنسبة الى مصر — على مجموعة وثائقية شديدة الغنى. أي ان استغلال هذه النصوص استغلالا دقيقا حكما، اذا انعدمت اكتشافات جديدة غير محتملة، من شأنه أن يزيد امدادنا بالكثير، فمن الضروري اذن أن يشرع في عمل كامل للنقد النصوص، واعادة نشرها والمقارنة بينها وترجمتها، وهذا عمل قد شرع فيه بعض الرواد و ينبغي أن يستمر.

ومن جهة أخرى، اذا ما حررت مصادرنا في اطار ثقافات «عالمية» بؤرتها خارج افريقيا — ثقافات «كلاسيكية»، «ثقافات اسلامية» — فإن لها مزية انها في معظمها مشتركة، وفي الامكان أن تقرأ حسب نظرة افريقية مع التحفظ الحتمي ازاء كل فكرة مسبقة مذهبية، و يصبح ذلك خاصة بالنسبة الى المصادر العربية وهي القاعدة الأساسية لمعرفتنا. وكونها خارجية نسبيا، أو بصفة مطلقة بالنسبة الى موضوعها، فإن هذا لا ينقص شيئا من قيمتها إلا فيما توحيه المسافة والبعد.

واذا ما وجب الاعتراف بالفروق الاجتماعية الثقافية، فإن هذه المصادر تبرز قيمة بعض التضامن في الاتصال الافريقي، لم يكن علماء الاسلاميات والافريقانيون حتى ذلك ليشعروا به، ولتكون لهم حساسية به.





## الفصل السادس

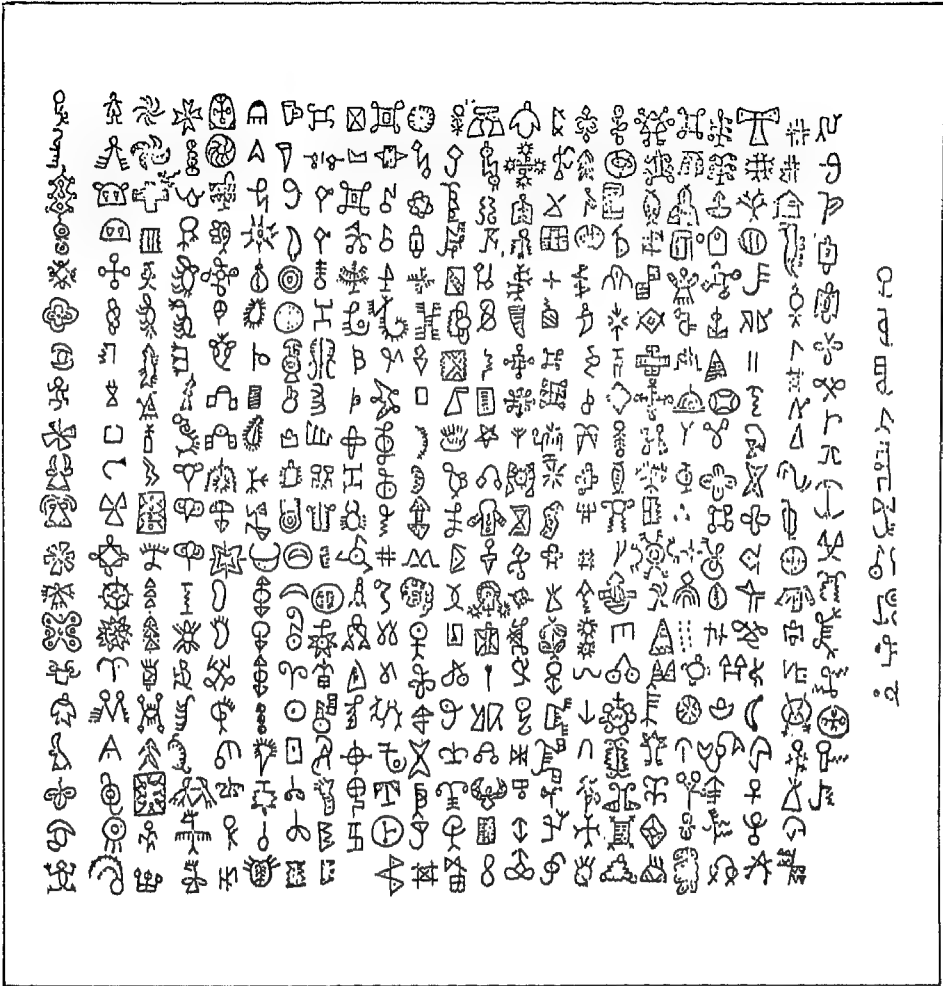
# المصادر المكتوبة بدءا من القرن الخامس عشر أ. هربك

على توازي التغييرات العميقة التي حدثت في العالم وبخاصة في أفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، نلاحظ تغييرات في طبيعة المواد المكتوبة الصالحة كمصادر لتاريخ أفريقيا ومآثاها وحجمها، وبالمقارنة مع الفترة السابقة يمكن تمييز عدد من الاتجاهات الجديدة في إنتاج هذه المواد، بعضها ينتمي الى القارة جمعاء، والبعض ينتمي فقط الى بعض أجزاء أفريقيا في جنوبي الصحراء.

يبدو الآن بالارتباط مع التزايد المستمر للمصادر الروائية من كل نوع (روايات الرحالة، أوصاف، توارخ يومية الخ) أن ثمة عددا كبيرا من المواد الأولية الجديدة كالمراسلات والتقارير الرسمية، والتقارير الصادرة عن التجار والمبشرين، عقود وسائر الوثائق المحفوظة، لم يرجع إليها قبلا إلا من حين إلى آخر. وتكاثرت هذه المواد المتزايدة من شأنه أن يعين المؤرخ اعانة ناجعة، ولكن في الوقت نفسه يكون من العسير أكثر فأكثر، أن يحصل الانسان على نظرة عامة.

ثم اننا نلاحظ نقصا واضحا في حجم المصادر الروائية العربية فيما يخص أفريقيا جنوبي الصحراء. على أن هذه الفترة بالعكس، هي التي شهدت ازدهار التأليف التاريخي المكتوب بالعربية من قبل الأهالي. وبدءا من هذه الفترة فحسب، أصبح بمقدورنا أن نستمع الى أصوات أفارقة أصليين نتحدث عن تاريخها الخاص. والنماذج الأولى وأشهرها من هذا التدوين التاريخي المحلي أتت من المنطقة السودانية ومن الساحل الشرقي الأفريقي، وأما في سائر أقسام أفريقيا المدارية فإن هذا التطور لم يطرأ إلا متأخرا.

وخلال القرنين الأخيرين شرع الأفارقة أيضا في التحرير بلغاتهم الخاصة، مستخدمين الأبجدية



● نسخة طبق الاصل من مخطوط بامون (تصوير ايفان).

العربية (مثلا بالنسبة الى السواحي والهوسا والفلفلد والكانمبو والديسولا والملاغشية) ثم الأبجدية التلاتينية، وتوجد أيضا مواد تاريخية (وغيرها) في الكتابات الأصلية الإفريقية المحضة أمثال أبجديات باموم وفاي.

والنزعة الثالثة، وهي تابعة للسابقة، تتمثل في ظهور أدب كتابي بالانكليزية (وبقدر أقل باللغات الأوروبية الأخرى) حرره أفارقة، عبيد محررون أو أحفادهم في أميركا، وهم مدركون لماضيهم الإفريقي.

وفي النهاية ان المصادر العربية الخارجية تترك محلها تدريجيا لروايات في لغات أوروبية مختلفة، ويتكاثر عدد الآثار من هذا النوع تدريجيا، فصارت الكتب التي تشير الى المراجع الكتابية وحدها تعد بالعشرات، في القرنين التاسع عشر والعشرين.

ومن المؤكد أنه رغم هذه التغيرات فثمة استمرار في التدوين التاريخي تم في بعض المناطق من إفريقيا، ولا سيما في مصر والمغرب وإثيوبيا. وفي هذه البلدان واصل المؤرخون ومؤلفوا التراجم تقليدا ورثوه من الفترة السابقة، وإذا ما لوحظ في مصر — وبكيفية أقل في إثيوبيا — بعض الهبوط الكيفي وحتى الكمي بالنسبة الى هذه المؤلفات فالمغرب ولا سيما المغرب الأقصى، قد استمر في إنتاج أدباء أكفاء كانت مساهماتهم في تأريخ بلادهم عظيمة.

ويلوح تطور الوضع أيضا في المناطق الجغرافية التي تغطيها المصادر المكتوبة، فبينما كانت حدود الساحل السوداني وشريط ضيق من الساحل الشرقي الإفريقي، هي نهاية المعرفة الجغرافية وبالتالي التاريخية، قبل القرن السادس عشر، فإن العصور الجديدة سوف تضم شيئا فشيئا مناطق جديدة كانت تجهل حتى ذلك الوقت مصادر من هذا النوع. وبالطبع فإن عدد هذه المصادر وقيمتها يختلفان اختلافا كبيرا من جهة الى أخرى ومن قرن الى آخر، وصار تصنيف هذه الوثائق حسب اللغة والطابع والهدف والأصل أشد تشعبا وعسرا.

وبصورة عامة سينمو الانتشار من الساحل الى داخل البلد، ولكن هذه الحركة كانت بطيئة شيئا ما ولم تتسارع بكيفية محسوسة الا منذ نهاية القرن الثامن عشر. وقد وصف البرتغاليون الساحل الإفريقي وبما اتصل به مباشرة من البلاد منذ القرن الخامس عشر. وخلال القرون التالية أخذت المصادر المكتوبة، في عدة لغات تدلي بمعلومات أكثر عددا وأشد دقة عن سكان الجهات الساحلية. وتوغل الأوروبيون داخل البلاد في عدد قليل من الجهات فقط (في السنغال وقببيا وفي دلتا النيجر والبنين وفي مملكة الكونغو وعلى طول الزمبار حتى امبراطورية مونومتابا) فأضافوا هذه الجهات الى مجال المصادر المكتوبة.

وفي الفترة نفسها صارت بعض الأجزاء من إفريقيا معروفة — ولم تكد تكتشف قبل — ومن ذلك الساحل الجنوبي الغربي ومدغشقر.

وكانت المصادر الكتابية العربية تغطي منطقة أفسح، وأصبحت المدرسة التاريخية السودانية كلما حصلت على معلومات عن جهات مجهولة في السابق، تمتد الى بلدان أخرى وبخاصة نحو الجنوب، حتى أصبح من الممكن أن تعتبر في القرن التاسع عشر — كل المنطقة الكائنة بين الصحراء والغابة وفي بعض النقاط حتى الساحل، مشمولة بالمصادر المكتوبة المحلية، ولكن مناطق فسيحة من داخل القارة انتظرت حتى القرن التاسع عشر كي يظهر في شأنها أول التواريخ المرتقبة.

وعلى الجهات الساحلية، نلاحظ فروقا كبيرة في طبيعة الخبز التاريخي، وبصورة عامة تتوفر في الساحل الاطلسي الوثائق المكتوبة أكثر مما تتوفر في الساحل الشرقي، وما يتوفر من المواد فيما يخص الكنغو القديم وصنغان والساحل بين رأس بلماس ودلتا النيجر أكثر بكثير مما يوجد منها في شأن ليبيريا والكامرون والقبابون أو ناميبيا مثلا وتتغير الحال أيضا بحسب الأزمنة، فالساحل الشرقي والبنين أو اثيوبيا تمدنا بعلومات مكتوبة في القرنين السادس عشر والسابع عشر أكثر منها في الثامن عشر، وهي متوفرة في الصحراء خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر أكثر منها في النصف الثاني.

ونظرا لعدم الانتظار في توزيع المواد بحسب المكان والزمان والطابع، وكذلك بحسب أصلها ولغتها، فإنه لمن المفضل أن ينظر فيها تبعا لمعايير متنوعة عوض التقيد بطريقة واحدة، وهكذا سنقدمها أحيانا حسب الجهات الجغرافية وأحيانا حسب أصلها وطابعها الخاص.

## افريقيا الشمالية واثيوبيا

أ — ان المواد الصالحة لافريقيا الشمالية العربية اللسان تعرضت هي وجهات أخرى من القارة، لتغيرات عميقة بالنسبة الى الفترة السابقة. ولم تؤثر هذه التغيرات كثيرا في اليوميات التاريخية المحلية التي استمرت كما في الماضي تسجل الأحداث الرئيسية حسب الطريقة التقليدية. ولم توجد من بين مؤرخي اليوميات أو أصحاب المنتخبات في هذه الفترة شخصية فذة تشابه شخصية كبار المؤرخين في القرون الوسطى، ولم يرق من جاء بعد ابن خلدون باتباع ما كان قد نصح به من طريقة نقدية للمؤرخ. ولم يظهر التدوين التاريخي العربي العصري الا في القرن العشرين.

وأما التغيرات فهي تمس خاصة ضربين من المصادر: وثائق الخزائن المتجمعة من أصول مختلفة، وكتابات الاوربيين. اذ لم تظهر المواد الأولية بالعربية والتركية بكثرة الا انطلاقا من بداية القرن السادس عشر. وخزائن الوثائق العثمانية تضاهي أغنى الخزائن الاوربية من حيث حجمها ومن حيث قسعتها، ولكنها في تلك الفترة لم يستخدمها مؤرخو هذا الجزء من افريقيا الا قليلا، ولم يستغلوها بكثرة. والى هذه الفترة أيضا ترجع الوثائق الثانوية للبلدان التي كانت تحت الخلافة العثمانية (مصر، طرابلس، تونس، الجزائر) (١)، وأما المغرب الأقصى فهو نسيج وحده، فقد حافظ دائما على استقلاله، وستحوي خزائنه مواد تاريخية ثرية (٢). وأهم الوثائق محفوظة حكومية وإدارية وقضائية، والمواد التي تعالج التجارة والصناعة والحياة الاجتماعية والثقافية أقل عددا على الأقل قبل القرن التاسع عشر. وهذا يرجع جزئيا لانعدام الوثائق الخاصة التي تمدنا بكثرة بالمعلومات الثمينة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في أوروبا. وبالنسبة الى بعض البلدان وبعض الفترات أصبح من الممكن سد الثغرة: فما يمكن وجوده من المواد الخاصة بالمغرب الأقصى في عدد من البلدان الاوربية، قد تم تجميعه ونشره في المؤلف الفخم الذي صنفه هنري دي كستري (٣). على أن

(١) ج. دني ١٩٣٠، ر. منطران ١٩٦٥، ر. لوطرون ١٩٥٤.

(٢) أ. مكناسي ١٩٥٣، ج. عياش ١٩٦٦.

(٣) المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب الأقصى ٢٤ مجلدا. باريس ١٩٠٥ — ١٩٥١.

الحصول على مجموعات مماثلة أو على الأقل على سجلات وثائق تابعة لبلدان إفريقيا الشمالية الأخرى يشكل جزءاً من مهمات عاجلة جداً لا بد من إنجازها في المستقبل القريب. وإذا ما تصفحنا المصادر الروائية، نلاحظ انتقاصاً مستمراً كما وكيفاً في الكتابات التاريخية عن إفريقيا الشمالية، باستثناء المغرب الأقصى وحده، حيث واصلت مدارس المؤرخين اليوميين التقليديين في توفير توارخ مفصلة للأسرتين الشريفتين حتى عهدنا هذا (٤). ويمكننا أن نذكر مثلاً المعمول للمختار السوسي المتوفي مؤخرًا، والذي كتب في ٢٠ مجلداً، وتاريخ تطوان لداود، وهو بصدد النشر.

ومن بين سلسلة المؤرخين المتصلة لا بد أن نذكر بعض أسماء أشهر المشاهير فلقد وجدت أسرة السعديين مؤرخاً جليلاً هو الأفراني (توفي حوالي ١٧٣٨) (٥) فشمّل السنوات ١٥١١ - ١٦٧٠ وحظيت الفترة التالية (١٦٣١ - ١٨١٢) بوصف مفصل من قبل أكبر مؤرخ مغربي منذ القرون الوسطى، الزباني (ت. ١٨٣٣) (٦)، بينما حرر الناصري السلاوي (ت. ١٨٩٧) تاريخاً عاملاً لبلاده، عالج بزيادة من التفصيل القرن التاسع عشر وجمع بين الطريقة التقليدية والطريقة العصرية مستخدماً أيضاً وثائق الخزائن. كما ألف كتاباً في الجغرافية يدنا بالكثير من المواد على الحياة الاجتماعية والاقتصادية (٧). أضف إلى هذه المؤلفات التاريخية المحضة روايات الرحالة، وكانوا في الغالب من الحجاج الذين لم يصفوا المغرب الأقصى فحسب، بل أيضاً سائر البلدان العربية حتى جزيرة العرب. وأحسن الكتابات من هذا النوع بلا شك كتب العياشي المتوفي (سنة ١٦٧٩) وأحمد الدرعي من تامكروت على حدود الصحراء (ت. ١٧٣٨) (٨)، ومن النصوص المفيدة نذكر أيضاً تقرير التامكروتي، سفير المغرب إلى البلاط العثماني بتاريخ ١٥٨٩ - ١٥٩١ (٩) ورحلة ابن عثمان سفير المغرب إلى البلاط مدر يد.

أما البلدان التي بين المغرب الأقصى ومصر، فلم تكن التواريخ المحلية فيها بعين الغزارة ولا مماثلة في القيمة. ففي الجزائر نجد توارخ مجهولة المؤلف بالعربية والتركية عن أرو وخير الدين بربروس (١٠)، وتاريخ حربي حتى سنة ١٧٧٥ بقلم محمد التلمساني (١١).

ويمكن أن نتبع خطى التاريخ التونسي بفضل سلسلة من الحوليات ابتداء من الزركشي (حتى سنة ١٥٢٥) (١٢) حتى مقديش الصفاقسي (ت. ١٨١٨) (١٣). وكتب محمد غلبون (١٧٣٩) (١٤) تاريخ مدينة طرابلس، وتستحق يوميات الاباضية وتراجهم، كمؤلفات الشماخي

(٤) أ. لبني بروفنسال ١٩٢٢، المختار السوسي المعسول: ٢٠ مجلداً منشوراً، داود تاريخ تطوان.

(٥) نشره وترجمه أ. هوداس، باريس ١٨٨٩.

(٦) نشره وترجمه أ. هوداس، باريس ١٨٨٦.

(٧) نشر بالقاهرة سنة ١٨٩٤ في ٤ مجلدات. عدة ترجمات جزئية إلى الفرنسية والإسبانية.

(٨) ترجمتهما كلٌّ من س. بربورجر، باريس ١٨٤٦.

(٩) ترجمه ه. دي كستري، باريس ١٩٢٩.

(١٠) نشره نور الدين، الجزائر ١٩٣٤.

(١١) ترجمها أ. روسو، الجزائر ١٨٤١.

(١٢) ترجمه أ. بانيا، قسنطينة بدون تاريخ.

(١٣) نشره بتونس ١٩٠٣.

(١٤) نشره أطورسي، بولونيا ١٩٣٦، توجد أيضاً يوميات تركية عن طرابلس.

(ت ١٥٢٤) عناية خاصة، اذ هي تحتوي على معلومات ثمينة عن الصحراء والسودان (١٥). والتراجم أو معاجم التراجم العامة أو الخاصة اقتضرت غالبا على شخصيات لامعة (أدباء، قضاة، أمراء، متصوفين، كتاب الخ)، وكثيرا ما ضمت الى مواد التراجم أخبارا تاريخية وأنارت عديد الجوانب من التاريخ الثقافي الاجتماعي. وكانت آثار هذه الصنف غزيرة في كل البلدان العربية وخاصة في المغرب الأقصى، وبعض القصائد الشعرية نفسها في اللهجات المحلية، من الممكن أن تكون أحيانا مصادر تاريخية، مثلا اهاجي الشاعر المصري السجزي (ت ١٧١٩) التي لم يصف فيها أهم أحداث عهده (١٦).

وفما يخص تاريخ مصر العثمانية يجب الرجوع الى يوميات لم تنشر في معظمها ولم تستغل. فلم تنتج البلاد في هذه الفترة سوى مؤرخين عظيمين أحدهما في بداية الهيمنة العثمانية والثاني عند نهايتها: سجل ابن اياس (ت ١٥٢٤) يوما يوما تاريخ زمنه موفرا كثرة من التفاصيل قلما توجد عنده غيره من الكتاب (١٧)، والجبرتي (ت ١٨٢٢) هو مؤرخ الأيام الأخيرة من السيطرة التركية والاحتلال النابليوني وصعود نجم محمد علي، فيضم فترة حاسمة من التاريخ المصري (١٨)، ولو أنه تم نشر الكثير من اليوميات ومن المصنفات التاريخية من كل البلدان العربية، فزال عدد كبير منها مخطوطا موزعا في عدد كبير من الخزانات في بلدانها الأصلية أو خارجها، يترب من ينشره ويستغله. وازدادت أهمية روايات الرحالة الاوربيين في ذلك العصر، ورغم كون أصحابها لهم رأي مسبق مناوئ للإسلام الا قليلا من الادلاء بتقارير موضوعية حقا، فاننا نجد فيها كمية من التأملات والملاحظات لا توجد فيما عداها وذلك أن الكتاب المحليين كانوا يعتبرون الكثير من مظاهر الحياة عاديا غير جدير بالاهتمام. وجمهور الاوربيين من رحالة وسفراء وقناصل وتجار وحتى الاسرى (ومنهم ميقال سرفانتس) — الذين أبقوا لنا ذكرياتهم وأوصافا تتفاوت تفصيلا لبلدان المغرب التي زاروها: هذا الجمهور من الاوربيين، لا نهاية له وبخاصة بالنسبة الى مصر التي كانت تجلب زوارا عديدين لما كان لها من أهمية تجارية ولقرها من الأرض المقدسة (١٩). وكتاب «وصف مصر» الضخم في ٢٤ مجلدا (باريس ١٨٢١ — ١٨٢٤) الذي حققه أفراد البعثة العلمية المصاحبة لغزوة نابليون بونابرت له أهمية خاصة، فهو مصدر لا ينضب من المعلومات من كل الأنواع عن مصر قبيل العصر الحديث.

ومصادر تاريخ افريقيا الشمالية في القرن التاسع عشر لها من الغزارة ما لها بالنسبة الى أي بلد أوروبي، وتراجعت التواريخ المحلية وروايات السياح الى مستوى ثانوي أمام مصادر أكثر موضوعية، مثل خزائن الوثائق وانحصائيات وصحف وسائر الشهود المباشرين، وغيرهم مما يمكن المؤرخين من استعمال الطرق الدراسية الدقيقة المستعملة في تاريخ أوربا. وثمة منطقتان لغتها هي العربية، وهما موريتانيا والسودان الشرقي، يجب أن تعالج معالجة

(١٥) ت. لوكي ١٩٦١.

(١٦) استغلها الجبرتي.

(١٧) ج. فيات: يوميات مواطن بالقاهرة.

(١٨) عدة طبعات، ترجمة لا يعتمد عليها لشفيق منصور، القاهرة ١٨٨٦ — ١٨٩٦.

(١٩) ج. م. كرى القاهرة ١٩٣٢.

متميزة، إذ لها وضع خاص على حدود العالم العربي، ويغلب على مصادر هذين البلدين التراجم والانساب والشعر أكثر من الحوليات التاريخية الحقيقية، استمر ذلك على الأقل حتى نهاية القرن الثامن عشر. ففيما يخص موريتانيا نشر اسماعيل حامد عدداً من التراجم وكتب الانساب (٢٠)، وأضيف إليها عدد من القصائد الشعرية ومن أدوات الأدب الشعبي، جمعها روني باسي، وحديثاً هـ. ت. نوريس (٢١)، وعمل العالم الموريتاني المختار ولد حمدون عملاً نشيطاً ناجحاً قصد دراسة مواد جديدة، وأول أثر تاريخي حقاً يرجع إلى بداية القرن الحالي الوسيط كان بقلم أحمد الشنقيطي وهو موسوعة تاريخية ثقافية موريتانية عن الماضي والحاضر (٢٢). وتوجد عدة يوميات عملية مخطوطة متفاوتة القيمة في شكل أخبار قصيرة من نيا والالاته وشنقيط (٢٣). وللمصادر العربية الواردة من موريتانيا قيمة وأهمية خاصتان إذ هي في الكثير من الأحيان تشمل موريتانيا بالذات وتتجاوزها أيضاً إلى كل البلدان المجاورة للسودان الغربي. ونظراً لما كان في الماضي من علاقات وثيقة بين موريتانيا والمغرب الأقصى، فإن خزانات هذا البلد الأخير ومحفوظاته ستوفر مواد تاريخية ثمينة عن موريتانيا. ولدينا علاوة على المصادر العربية، روايات الأوربيين، وهي تبتدئ في القرن الخامس عشر بالنسبة للمناطق الساحلية وفي المناطق النهرية في نهاية القرن السابع عشر، وبداية القرن التالي نجد حتى المراسلات الدبلوماسية والتجارية مكتوبة باللغة العربية واللغات الأوربية.

ويبدو أن تدوين التاريخ المحلي في السودان الشرقي بدأ في السنوات الأخيرة من سلطنة فنج فحسب، أي في بداية القرن التاسع عشر حيث سجلت الرواية الشفاهية كتابة في نص سمي تاريخ الفنج ويوجد منه عدة روايات (٢٤).

وتكون الانساب في مختلف المجموعات العربية (٢٥) مصدراً ثميناً وكذلك المعجم الكبير لتراجم العلماء السودانيين، الطبقات الذي ألفه ولد ضيف الله وهو منجم من المعلومات عن الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية في مملكة الفنج (٢٦). وأقدم زائر أجنبي معروف هو الرحالة اليهودي داوود روبيني (سنة ١٥٢٣). وحتى القرن التاسع عشر لم يكن يوجد سوى عدد صغير من الآثار القيمة، إلا أننا نجد من بينها روايات ملاحظين متبصرين أمثال جاسم بروس (سنة ١٧٧٥) و. و. براون (١٧٩٢ — ١٧٩٨) والتونسي (١٨٠٣) وهذان الأخيران هما أول من زار درفور (٢٧).

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر زار السياح بلاد السودان أكثر من أي جزء آخر من إفريقيا المدارية، فكانت رواياتهم عديدة ومتفاوتة القيمة كمصادر تاريخية، وحتى سنوات ١٨٣٠ لم يكن يوجد أي مصدر مكتوب عن مناطق وادي النيل العالمي (جنوبي ١٢ درجة من

(٢٠) يوميات موريتانيا السنغالية، باريس ١٩١١.

(٢١) ر. باسي ١٩٠٩ — ١٩٤٠، نوريس، ١٩٦٨.

(٢٢) أحمد الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، القاهرة ١٩١٠ وعدة طبعات جديدة ترجمة فرنسية جزئية، سان لويز ١٩٥٣.

(٢٣) ب. مرتي باريس ١٩٢٧، نوريس في ب. ب. ي. ف. ان ١٩٦٢، منتال في بيفان ١٩٦٥ ج ٣ — ٤.

(٢٤) درس هذا النص مكسي شبيكة في كتابه «تاريخ ملك السودان» الخرطوم ١٩٤٧.

(٢٥) جمعها هـ. أ. مالك ميخايل في «تاريخ العرب في السودان»، ٢، كمبريدج ١٩٢٢ مع وثائق تاريخية أخرى.

(٢٦) أحسن نشرة مشروحة هي نشرة يوسف فضل الحسن، الخرطوم ١٩٧١.

(٢٧) جاسم بروس ١٧٩٠ و. ج. براون ١٨٠٦ عمر التونسي ١٨٤٥.

العرض)، بينما تغطي القسم الشمالي وثائق الخزائن المصرية (خزائن القاهرة)، وبصورة أقل الوثائق الأوروبية. وخزائن وثائق المهديّة التي تشمل نحو ٨٠٠٠٠ وثيقة عربية، وهي محفوظة الآن في معظمها بالخرطوم تمثل مصدرا ذا قيمة استثنائية فيما يخص العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر.

## اثيوبيا

ولا تقل الحالة شبا بما سبق في اثيوبيا فيما يخص المصادر المكتوبة، فللمؤرخ كما في بلدان شمال افريقيا وثائق داخلية وخارجية متنوعة أشد التنوع. وفيما يخص بعض الفترات الحاسمة يكون في وسعه أيضا ان يستعمل مواد من مصادر متناقضة: فالزحف الاسلامي مثلا الذي قام به أحمد قران في النصف الأول من القرن السادس عشر تغطيه من وجهة النظر الاثيوبية «اليومية الملكية» (بلغة القان) للإمبراطور لبني دنجل. ومن الجانب الاسلامي اليومية المفصلة التي حررها سنة ١٥٤٣ كاتب أحمد قران عرب فقيه بقطع النظر عن روايات شهود العيان البرتغاليين (٢٨).

وشرع في تحرير اليوميات الملكية منذ القرن الثالث عشر، و يوجد بالنسبة الى كل مملكة تقريرا في عصر الانحطاط، يومية أو عدة يوميات مفصلة تروي الأحداث الرئيسية في تلك المدة (٢٩). واستمرت هذه التقاليد طيلة القرن التاسع عشر وجزء كبير من القرن العشرين، كما توضح ذلك اليومية الامهرية للإمبراطور منليك الثاني (٣٠). وقد يوفر العديد من الآثار الأدبية الاثيوبية من أصناف أخرى مواد تاريخية مفيدة، مثلا تاريخ القديسين والجدالات الدينية والشعر والحرفات وتواريخ الاديرة، وتاريخ الكالا للراهب بهري (١٥٩٣) وهو شاهد عيان لزحف القلا الكالا على اثيوبيا يمثل وثيقة فريدة (٣١).

وبعد ذلك بقرن جمع هيوب لودلف، منشئ الدراسات الاثيوبية في أوروبا، ونقلنا عن أخبار اثيوبي مثقف، أحد التواريخ العامة الأولى لهذا البلد (٣٢).

وحيث كانت اثيوبيا البلد الوحيد الذي بقي على المسيحية في افريقية، فإنها بالطبع جلبت اهتمام أوروبا إليها أكثر من اهتمامها بالأقسام الأخرى من افريقيا وذلك منذ القرن الخامس عشر. فلا غرابة إذن ان ارتفع عدد الأجانب الذين زاروا البلد ووصفوه، من سياح ومبشرين وديبلوماسيين وجنود وتجار ومغامرين.

ولم يكن يوجد من الأجانب، البرتغاليون والفرنسيون والايطاليون فحسب، بل أيضا من ينتمون

(٢٨) 'عرب فقيه ١٨٩٧ - ١٩٠١ م. كستنهورز ١٥٤٨، ترجمة انكليزية ١٩٠٢.

(٢٩) انظر. بنكهريست ١٩٦٦، بلنديل (هـ. و) ١٩٢٣.

(٣٠) كتبها جبري سيلاسي، ترجمت الى الفرنسية، باريس ١٩٣٠ - ١٩٣١.

(٣١) انظر بكنغهام ج. وب هنتفرد ١٩٥٤، علاوة على تاريخ بحري يحتوي هذا الكتاب على قطع من «تاريخ اثيوبيا العليا» لأليدا (١٦٦٠).

(٣٢) هيوب لودلفوس ١٦٨١ ترجمة انكليزية ١٦٨٢ - ١٦٨٤.



الى العديد من البلدان الأخرى، روسيون وتشيكويون وسويديون وأرمن وجرجانيون (٣٣)، ومن حين الى آخر تكمل الوثائق التركية أو العربية سائر المصادر (٣٤) بشقي الكيفيات.

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، صارت وثائق الخزان من كل الدول الأوروبية العظمى، ووثائق أديس أبابا وحتى الخرطوم، هي التي توفر أهم المواد التاريخية. وقد أقيم الدليل في التحليل اللامع الذي قدمه سفان روبنسون (٣٥) لمعاهدة ويشال (١٨٨٩) على ما في الدراسة اليقظة للوثائق الامهرية الأصلية من أهمية للحصول على التفسير التاريخي الصحيح.

## افريقيا الجنوبية

ازاء سائر أقطار القارة ( ماعدا البلدان العربية للسان و اثيوبيا التي نظرنا فيها قبله ) فان افريقيا الجنوبية تمدنا فيما يخص الفترة التي ندرسها هنا، بعدد أكبر من المواد المكتوبة المهمة، اما وثائق واما أخبار. على أن انعدام المصادر الافريقية الاصل المحضة قبل القرن التاسع عشر هو نقص لا شك فيه، ولو أن العديد من الأخبار الأوروبية قد احتفظ بأجزاء من الروايات الشفاهية بين السكان المحليين.

وأقدم الأخبار التاريخية ما ذكره تجار هولنديون أو برتغاليون غرقوا على الساحل الجنوبي الشرقي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر (٣٦).

وبقيام المستعمرة الهولندية في الكاب (١٦٥٢) ازداد انتاج المواد التاريخية غنى وتنوعاً، من بينها وثائق رسمية حفظت الآن في خزائن افريقيا الجنوبية نفسها وكذلك في لندن وفي لاهاي، وطبع البعض منها أو نشر بوسائل أخرى ولكن معظمها لم يطبع (٣٧)، ووثائق روائية من جهة أخرى، تمثلها كتب حررها البيض، من سياح وتجار وموظفين ومبشرين ومستعمرين — الذين شاهدوا المجتمعات الافريقية مباشرة. ولكن كثيراً ما كان افق البيض الجغرافي محدوداً اذ هم لم يشعروا فعلاً في التوغل داخل البلاد الا أثناء النصف الثاني من القرن الثامن عشر. فمن الطبيعي اذن أن تذكر الأخبار الأولى جماعة النحوي في الكاب (وقد انقرضوا اليوم). وأول وصف مفصل لهذا الشعب، بعد بعض المحاولات في القرن السابع عشر (٣٨)، هو ما كتبه بيتر كلب (٣٩) (١٧٠٥ — ١٧١٢).

(٣٣) انظر المجموعة العلمية للبيكاري: كتابات غربية عن الامور الاثيوبية، لم تنشر، من القرن ١٦ الى القرن ٢٠، ١٥ مجلدات، رومة ١٩٠٣ — ١٩١٠. واكتشف الكثير من المواد الأخرى بعد بيكاري وهي تنتظر النشر والاستغلال.

(٣٤) مثلاً الرحالة التركي الشهير اوليا شلي (ت ١٦٧٩) وكتابه (كتاب رحلات) يشمل في المجلد العاشر وصفاً لمصر واثيوبيا والسودان. وابقى السفير البني الخيمى الكوكبا في (سنة ١٦٤٧) ملخصاً حياً لمهمته لدى الامبراطور فاسيلاداس، ولا يوجد أي تاريخ اثيوبي فيما يخص مدة ملكه. نشره ف. أ. بيسر في مجلدين، برلين ١٨٩٤ و ١٨٩٨.

(٣٥) سفان روبنسون: فترة الحماية في معاهدة ويشال ج. أ. ه. ك، ١٩٦٤ عدد ٢ ومناقشة مع س. جيلويج أ هـ ٢ و ٦، ١٩٦٦ عدد ٢ و ٧، ١٩٦٦ عدد ٣.

(٣٦) انظر ج. م طيل ١٨٩٨ — ١٩٠٣ وس. ر. بوير.

(٣٧) توجد مقتطفات من مجلات رسمية ووثائق أخرى تتعلق بالسكان المتكلمين لغات سان وخوي و بانتو في د. مودي ١٩٦٠،

انظر أيضاً ج. م. طيل ١٨٩٧ — ١٩٠٥.

(٣٨) شاربس (١٦٦٨)، ويلهم تان راين (١٦٨٦) وج. ج. جريفبروك (١٦٩٥)، الكاب ١٩٣٣.

(٣٩) بيتر كلب ١٧١٩.

وزار العديد من الاوربيين بلاد الكاب في عهد الهولنديين، ولكنهم قلما أبدوا ازاء الافريقيين غير الاهتمام العابر، وقلما غامروا متوغلين داخل البلاد. وجمع عدد من تقاريرهم كودي ملسبركن والفاضل نابري. وعملت جمعية فان ريبك في الكاب على نشر عدة مواد لم تعرف معرفة كافية، وذلك منذ سنوات ١٩٢٠ (٤٠) وقد نجد صورة أكثر تفصيلا عن المجتمعات الافريقية في خزائن المبشرين (٤١) أو بناء على تقييدات بعض الملاحظين الجريين منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، أمثال سيرمان ولوفيان وألبرتي وجون باراو وليشتشتاين (٤٢) ويجدر أن نحل جون فيليب عمل الشرف فقد أهدى عمله وحياته للدفاع عن حقوق الأفارقة، فيكشف بذلك عن جوانب لا توجد عادة في التقارير الأكثر انسجاما (٤٣).

وعند انتشار التجارة والتبشير والاستعمار في القرن التاسع عشر، صار في متناولنا عدد أكبر وأغنى من المواد عن مجموعات عنصرية أشد بعدا. فميمبيا وإن قد تمت زيارتها زيارات متقطعة حوالي نهاية القرن التاسع عشر (٤٤) إلا أنه لم يشرع في تقديم أوصاف مفصلة لحياة السان والناما والهريرو، إلا منذ عام ١٨٣٠، اذ منذ ذلك الوقت فحسب، اهتم المبشرون (٤٥) ورواد الاستكشاف أمثال ج. الاسكندروف. كلتون وج تندال اهتماما نشيطا بهذا البلد (٤٦).

والأمر شبيه بذلك فيما يخص الجهات الواقعة شمالي نهر اورانج، فعوضت تقارير التجار الاولين والصيادين بعدد أكثر من المؤلفات المكتوبة التي صنفها الرواد والمبشرون، وقد تطور استعدادهم للملاحظة، بفضل تجربة أكثر اتساعا، ومعرفة أحسن للغات الافريقية، ومن بينهم روبرت معرفات، وأ. كازليس وت. اربوس وأشهرهم بالطبع دافيد ليفنستون (٤٧)، وجمع ج. هـ. تيل (٤٨) الوثائق المختلفة عن بداية تاريخ ليسوتو (وثائق خزائن مراسلات، عقود وأوراق رسمية الخ).

وتسجل ظاهرة ايجابية في هذه الفترة وهي ظهور وثائق تعبر عن رأي الأفارقة كالرسائل التي كتبها مصباح (موشيش) وغيره من الزعماء الأفارقة.

وخلافا للساحل فإن داخل بلاد الناطل وبلاد الزولوم يشرع الأجانب في معرفتها إلا في

(٤٠) كودي ملسبركن ١٩١٦ — ١٩٣٢، الفاضل نابري ١٩٣١.

(٤١) انظر مثلاً د. ك. ملر ١٩٢٣.

(٤٢) أ. سيرمان ١٧٨٥، ج. لوفيان ١٧٩٠، ل. البرتي ١٨١١، جون باراو ١٨٠١ — ١٨٠٣، هـ. ليشتشتاين ١٨١١.

(٤٣) ج. فيليبس ١٨٢٨.

(٤٤) اد. واطس، ١٩٢٦.

(٤٥) المصنف الدراسي مؤلفه هـ. فيدير (افريقيا الجنوبية الغربية في الزمن القديم) اكسفورد ١٩٣٨، حرر بالاستناد أساسا الى تقارير المبشرين الالمان.

(٤٦) سرجامس الكسندر ١٨٣٦، ف. كالتون ١٨٥٣، يومية جوزاف تيندال ١٨٣٩ — ١٨٥٥ الكاب ١٩٥٩.

(٤٧) روبرت موفات ١٩٤٢ — ١٩٤٥.

أ. كازاليس: جماعة البستو، باريس ١٨٥٩، ط. انكليزية لندن ١٨٦١، ت. اربوس: خبر رحلة استكشافية باريس ١٨٤٢، ط. انكليزية: الكاب ١٨٤٦ د. ليفنستون ١٩٥٧.

(٤٨) ج. م. تيل: ذكريات باسوتولند، ٣ مجلدات الكاب ١٨٨٣ (لم ينشر المجلدان ٤ و ٥ ويوجد بخطوطها بخزانة محفوظات الكاب).

العشرية الأولى من القرن التاسع عشر. فأول الملاحظين أمثال ن. اسحاق أو. هـ. ب فن (٤٩) لم يكونوا من الاختصاصيين، فكان يعوزهم الدقة كما تعوزهم الموضوعية إذا ما تعلق الأمر بغيرهم من البيض، وأما الزولو فعلى العكس، قد كان لهم من الحظ ما جعل تسجيل الروايات الشفاهية يشرع فيه مبكراً منذ سنوات ١٨٨٠. ولم يتم نشرها إلا مؤخراً من قبل أ. ت. بريانت، على أنه لا ينبغي أن يستخدم كتابه إلا مع الحيلة والحذر (٥٠).

وهنا كما في سائر أجزاء إفريقيا، فإن كمية المواد المكتوبة من قبل الأوروبيين تضخمت تضخماً كبيراً خلال القرن التاسع عشر، وليس من اللازم أن ينظر بتعمق في أنواعها كافة وفي جملة مؤلفيها. ولكن المهم هو ما قدم من ملاحظات عن ردود فعل الأفارقة الأولين، الذين انخرطوا في سلك التعليم، أو ردود فعل الرؤساء التقليديين وملاحظات قدمت وحفظت ضمن مراسلات وصحف وشكايات ويوميات شخصية وعقود أو، فيما بعد، ضمن أولى المحاولات لكتابة تاريخ شعبهم. فعلاوة على المراسلة الضخمة بين رؤساء أفارقة (مشيش وودنقتان وستوايو ومزيليكا زوي ولوبنيكويلا وو يطيوي ورؤساء الكريكا الخ) وبين السلطات الاستعمارية، توجد وثائق أخرى أمثال قوانين الاسلاف (فادرليك ويط) لمجموعة ريسهوبوث منذ سنة ١٨٧٤، أو يومية هنريك وبيوي (٥١) وكلاهما بلغة إفريقيان.

وتوجد عدة عرائض وشكايات من الأفارقة محفوظة بخزانة محفوظات إفريقيا الجنوبية أو في لندن، كما توجد دراسات ونسخ تسجيل وإحصائيات ضبطت بناء على معلومات إفريقية شفاهية. وبفضل ما ظهر من جرائد باللغات المحلية، صار في وسعنا أن نتبع آراء الممثلين القدامى لمجتمع يسير في طريق التطور. ففي الصحيفة الأسبوعية اسيدميجمي (الصادرة بين ١٨٧٠ و ١٨٨٠) نشر أول نقد للسياسات الأوروبية وآثارها السلبية على الحياة الإفريقية، كتبه أول الوطنيين أمثال طيو سوكا (ت سنة ١٨٧١). أوج. شمراش (ت ١٨٦٠) مع مجموع التقاليد التاريخية عند الكسوزا بقلم و. و. كقوبا (ت ١٨٨٨). ومنذ سنة ١٨٨٤ وجد لسان حال آخر للرأي الإفريقي: ابن زيانسوندو (صوت الشعوب السوداء)، وكان رئيس تحريرها لمدة طويلة ت. جباوو (ت ١٩٢١). وقبل الحرب العالمية الأولى كانت إحدى عشرة صحيفة تصدر باللغات الإفريقية، ولكنها لم تكن كلها تدافع عن قضية الأفارقة. وكان نيوكي (ت ١٩٢٤) من أعظم شخصيات هذه الفترة. فبعد أن ساهم نشيطاً في حرب الزولوسنة ١٨٧٩، نشر (في الولايات المتحدة) ذكرياته وعدداً من الفصول عن الحياة في إفريقيا الجنوبية (٥٢). ولم تظهر أولى التواريخ التي كتبها الأفارقة إلا في

(٤٩) ن. اسحاق ١٨٣٦ عن. ف. فن. ١٩٥٠.

(٥٠) أ. ت. بريانت ١٩٢٩، انظر أيضاً مصنفه «تاريخ الزولو» وقد نشر أولاً في شكل سلسلة من المقالات سنة ١٩١١ — ١٩١٣ ثم في صورة كتاب بالكاب ١٩٦٤، انظر أيضاً جون برد: حوليات الناطال ١٤٩٥ — ١٨٤٥، مجلدان بيترماريتسبورغ ١٨٨٨.

(٥١) القوانين محفوظة في ريهوبوث ووندوهوك، نشرت «يومية و يتيوي» بالكاب سنة ١٩٢٩.

(٥٢) انظر ل. هـ. طرنر ١٩٥٥.

القرن العشرين (٥٣) مدسنة عصرا جديدا للتدوين التاريخي الإفريقي الجنوبي. نعم ان تاريخ هذا الجزء من القارة قد اعتبر طويلا من وجهة نظرة المجموعة البيضاء التي كانت تميل الى معاملة تاريخ الشعوب الإفريقية على انه أمر تافه لا قيمة له، والصراع الجاري اليوم في كل ميادين النشاط البشري يتطلب أيضا سلوكا جديدا ازاء المصادر، ويجدر ان ينظر الى كل المواد المكتوبة والشاهدة عليها للكفاح المرن المتصير الذي قاموا به في سبيل حقوقهم، نظرة اعتبار خاص (٥٤).  
والبحث المركز على هذه الشهادات وهذه المواد هو وحده الذي سوف يمكن من كتابه تاريخ حق لإفريقيا الجنوبية.

## المصادر الروائية الخارجية

إذا ما كانت الفترة بين القرنين التاسع والخامس عشر تدعى «عصر المصادر العربية» وذلك بسبب سيطرة المواد المكتوبة في هذه اللغة، فان الفترة المدروسة هنا تنطبع بنقصان فجائي في هذا الميدان. وحيث أن أسباب هذا التغير ترتبط بالتطور العام السياسي والثقافي للعالم الاسلامي، فانا سننظر فيها في محلها في مجلد تابع. ولا يعني ذلك أنه لا وجود لأي مصدر عربي، بل ان عدد المصادر وقيمتها قليلة، الا في حالات استثنائية، ولا سبيل لمقارنته بالفترة السابقة ولا بالمصادر من أصل آخر.

وأثار ليون (أوجان ليون) الإفريقي (في الأصل الحسن الوزان الزياتي) ولو أنها كتبت بالاطالقية، فانها تنتمي للتقاليد الجغرافية العربية، ثم انه انما شرع في رحلاته عبر السودان الغربي والأوسط في بداية القرن السادس عشر بصفته عربيا مسلما. ولا تخلو هذه الآثار من عيوب جغرافية وتاريخية، ولكنها هي التي أمدت أوربا خلال ما يقرب من ثلاثة قرون بالمعلومات الحق الوحيدة التي كانت فيها عن داخل إفريقيا (٥٥).

ومصنفات أحمد بن ماجد عن الملاحة (في بداية القرن السادس عشر)، وهو الربان الذي قاد فاسكودي جاما من مالندي الى الهند، لها أهمية كبيرة جدا. ومن عديد كتبه عن نظرية الملاحة وتطبيقها، يبقى أهمها هو ذلك الذي يتحدث عن الساحل الشرقي لإفريقيا، اذ هو يحتوي علاوة على مادة طوبوغرافية غزيرة وعلى خطط الطرقات البحرية، على آراء قطعية عن البرتغاليين في المحيط الهندي (٥٦).

وفي يومية قلعة عدن التي حررها أبو محرم (ت ١٥٤٠) (٥٧) نجد عدة تفاصيل طريفة عن

(٥٣) انظر س. ت. بلاتج ١٩١٦ - ١٩٣٠، مولنا ١٩٢٠، سرقا. ج. هـ. بنتو الجنوب شرقي جوهانسبرغ ١٩٣٠ كذلك أما كسوزا: الحياة والعادات، جوهانسبرغ ١٩٣٠ ت. ب. سوقا لوفدال ١٩٢٩.

(٥٤) انظر مثلا د. ت. جابفو ١٩٢٠ و. ج. ماها باقا ١٩٢٢.

(٥٥) الطبعة الأولى في رومة ١٥٥٠، وأحسن ترجمة معاصرة هي: جان ليون الإفريقي وصف إفريقيا ل. إ. إولارد علق عليه إ. بولارد و. م. م. و. لوط وزموني، مجلدان باريس ١٩٥٦.

(٥٦) شومفسكي: ثلاثة كتب مجهزة للقيادة البحرية لأحمد بن ماجد بقلم أ. بن م. موسكو ١٩٣٧.

(٥٧) أ. لوفجرن: نص عربي من قلعة عدن في القرون الوسطى ٣ مجلدات ليزنغ أيسالا ١٩٣٦ - ١٩٥٠.

افريقيا الشرقية وعن الزنج. وتدرس عن المنطقة، يومية أحدث من الأولى هي يومية سليل بن رزيق (ت ١٨٧٣)، عنوانها «تاريخ الأئمة وسيد عمان» وقد أقحم فيها مؤلفا سابقا حرره سنة ١٧٢٠ سرحان بن سرحان العماني (٥٨).

ولا يمدنا القرن الثامن عشر بأي مصدر عربي متأخر ذي قيمة عن تاريخ جنوبي الصحراء. ولم تلاحظ بعض النهضة في هذا الميدان الا في بداية القرن التالي. فيزور التونسي (ت ١٨٥٧) المذكور آنفا بلاد السودان ويروي قصة اقامته بها في يوميات هي الأولى من نوعها عن هذه المملكة، علاوة على تقريره الجليدي عن الدرفور (٥٩). وقبل ذلك ببضع عشرات من السنين نقل المغربي عبد السلام الشيباني بعض المعلومات عن تمبكتو وعن منطقة مسينا قبل تسلم السلطة من قبل الدين (٦٠).

وتاريخ امبراطورية سنغاي وسقوطها والتطور اللاحق لوادي النيجر كل ذلك سجل من المؤرخين السودانيين بل أيضا من قبل المؤرخين المغاربة المذكورين آنفا. وقد اكتشف أخيرا في الخزائنات المغربية عدد من المصادر المجهولة قبلا، عن العلاقات بين المغرب والسودان، وهي الآن تنتظر من ينشرها ويستغلها من مؤرخي افريقيا. ولا بد انه يوجد عدد آخر من المواد الثمينة بالعربية أو التركية مشتتة في سائر بلدان افريقيا الشمالية وفي تركيا لا نعلم عنها حتى الآن الا القليل. وفي ذلك ما يفتح للمؤرخ آفاقا مفيدة و يكون من أكثر الأعمال الحاحا للمستقبل المباشر، أن يتم ضبط مواطن هذه المصادر والتعليق عليها وترجمتها.

والمواد في سائر اللغات الشرقية أقل منها في العربية، ولا يعني ذلك طبعا انه ليس في الامكان أن نعثر على مواد مجهولة تتفاوت قيمتها مثلا في الفارسية أو في بعض لغات الهند. و يبقى حتى الآن المصدر الأساسي متمثلا في الرحالة التركي أوليا شلي الذي زار مصر وبعض مناطق السودان واثيوبيا، ولكن معرفته لمناطق أخرى من افريقيا كانت معرفة غير مباشرة (٦١). وكذلك الأمر بالنسبة الى مواطنه أمير البحر سيدي علي الذي نسخ عن العربية وترجم أجزاء من مصنف ابن ماجد عن المحيط الهندي، في كتابه «المحيط» مضيئا اليه بعض الجزئيات لا غير (٦٢). وفي بداية القرن التاسع عشر زار أديب اذربيجاني هوزين العابدين الشرواني بلاد الصومال واثيوبيا والسودان الشرقي والمغرب ووصف أسفاره في كتاب عنوانه «بستان السياحة» (٦٣)، ويبدو أنه كان ثمة اهتمام كبير بافريقيا وخاصة اثيوبيا من قبل بلدان ما وراء القوقاز ولا سيما الاهالي الأرمن. ففي نهاية القرن السابع عشر شرع قسيسان أرمنيان استفاكاتور طمبوك وأفاتييك بقداسريان في رحلة عبر افريقيا انطلاقا من اثيوبيا ومرورا بالنوبة والدارفور وبحيرة تشاد وبلاد التكرور حتى المغرب

(٥٨) ترجمة ج. ب. بدجر، لندن ١٨٧١.

(٥٩) رحلة الى كوادي. ترجمة الدكتور برون باريس ١٨٥١.

(٦٠) نشر ج. ج. جكنسن: خبر عن تمبكتو وهوسا، من الأراضي الداخلية الافريقية، لندن ١٨٢٠ (أعيد طبعه ١٩٦٧).

(٦١) أوليا شلي: سياحة نام، اسطنبول ١٩٣٨.

(٦٢) م. بتر ١٨٩٧.

(٦٣) أنظر م. خانيهوف في «كشكول آسيوي» سان بترسبرغ ١٨٥٩، والأجزاء الخاصة بافريقيا الشرقية بصدد الأعداد لترجمتها من قبل ف. ب. سمرنوف في ليننغراد.

الاقصى. وأبقى ثانيها وصفا لرحلتها (٦٤). وفي عام ١٨٢١ اخترق واركا الارمني الاسترخاني الصحراء منطلقا من الشمال، وزار طمبكتو وبلغ ساحل الذهب حيث حرر بالانكليزية وصفا مختصرا مليئا بالمعلومات المفيدة عن رحلته (٦٥). وتوجد مواد أخرى بالارمنية والجيورجانية عن افريقيا بخزانات هذه الجمهوريات السوفياتية ومحفظات وثائقها (٦٦).

## في اللغات الاوربية

ان ضخامة الأدب الاوربي عن افريقيا المدارية منذ بداية القرن السادس عشر تجعل من المتعذر حتى تعداد أهم الآثار أو المؤلفين. فيكفي لفائدة هذا الفصل، أن يؤخذ هذا الأدب كمصدر لتاريخ افريقيا وأن يدرس طابعه العام. وهذا أفضل من الرجوع الى قائمة لا نهاية لها من الاسماء والعناوين. ويبقى ما طرأ على الحدود الجغرافية من تغيرات معلوما: ففي بداية القرن السادس عشر كان الساحل بأكمله من السنغال الى رأس كادرفوي معروفا من قبل البرتغاليين، ولكنهم، في نهاية القرن نفسه، لم يتوغلوا حقا داخل البلاد إلا في الكونغو القديم وآنقولا وعلى امتداد نهر الزمبار.

ولم يضيف القرنان التاليان شيئا الى معلومات الاوربيين، فكانت ثمة محاولات من حين الى آخر لاخترق الصحراء، واستتبت اتصالات أوثق على طول السنغال وقبليا، وسافر رحالة من الزمبار الى كلوا متوقفا على بحيرة ملوي. والأخبار عن أهالي السواحل، ولا سيما أهالي افريقيا الغربية قد أصبحت مفصلة متنوعة. ولم يشرع في الرحلات الاستكشافية المنظمة عبر افريقيا الا في نهاية القرن الثامن عشر، وانتهت بتقسيم القارة بين الدول الاستعمارية.

وأما من جهة التمثيل القومي فيمكن أن يقال أن القرن السادس عشر هو أساسا قرن البرتغاليين، والقرن السابع عشر للهولنديين والفرنسيين والانكليز. والقرن الثامن عشر، انكليزي وفرنسي على الخصوص، والقرن التاسع عشر انكليزي الماني فرنسي، وبالطبع فان سائر البلدان الاوربية كان ممثلا خلال هذه القرون المختلفة، مثلا الايطاليون في الكونغو في القرن الثامن عشر وفي السودان الشرقي في القرن التاسع عشر، والدانمركيون على ساحل العبيد وعلى ساحل الذهب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومن بين مؤلفي الرحلات والأوصاف (لكن بصفة خاصة في القرن الأخير)، نجد من ينتمون الى اسبانيا وروسيا وبلجيكا والمجر والسويد والنرويج وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا وسويسرة والولايات المتحدة والبرازيل، ونجد فيهم أحيانا حتى اليوناني والروماني والمالطي. ومن حسن الحظ أن ترجم معظم الكتب في لغات قليل من يعرضها الى لغة أو عدة لغات من أكثر اللغات انتشارا.

(٦٤) ج. خالاسيانك، ارمينانسكيف بامياتنيك ١٧ (مذكرة أرمنية من القرن السابع عشر عن جغرافية اثيوبيا وافريقيا الشمالية بصفة عامة) ضمن زملدنيا مجلد ١ - ٢ موسكو ١٨٩٩.

(٦٥) انظر فيليب د. كرتين (مدير النشر): ذكرى افريقيا، مديسن ١٩٦٧ (ص ١٧٠ - ١٨٩). ولكس «واركي استرخان» انظر أيضا أولدروج (استرخان) في طمبكتوسنة ١٨٢١ افريقانا ٨ ليننغراد (١٩٧١).

(٦٦) بصدد النشر من قبل معهد الدراسات الشرقية بالجمهورية الروسية الاشتراكية السوفياتية بارمينيا، إريوان، مجموعة من الوثائق المتعلقة بالعلاقات الاثيوبية الارمنية من العصور الحالية الى القرن التاسع عشر.

وكي نقوم المواد الاوربية ينبغي أن لا نعتبر جنسية المؤلف فحسب بل، وعلى الخصوص، تغير موقف الاوربيين ازاء الافارقة ومجتمعاتهم بصفة عامة. فقد يكون في الامكان أن نبسط الأمر بقولنا ان الكتاب البرتغاليين كانوا أميل الى النظر الى الشعوب التي يصفونها من زاوية الآراء المسبقة المسيحية، أكثر مما كان عليه الانكليز مثلاً، أو ان الهولنديين كانوا أقدر على الملاحظات الموضوعية من كتاب سائر البلدان. وبالطبع ان هناك فرقاً بين صاحب اليوميات البرتغالي في القرن السادس عشر وقد اتصلت طريقتة بالقيم الوسيطة، وبين العالم الفيزيائي الهولندي في نهاية القرن السابع عشر، وهو حصيلة ثقافة مرتكزة أكثر على العقل. ولما لدينا من مواد متعددة متنوعة لا يسمح لنا بالتعميم السريع، ولا يمكن أن نصل الى حكم قطعي الا بعد تحليل كل أثر على حدة حسب مزاياه، معتبرين بالطبع، تاريخه وموضوعه. كما ينبغي أن نتجنب الاعتقاد أننا لاحظنا تحسناً مستمراً في موضوعية الأخبار مع تقدم الزمن، واننا كلما اقتربنا من العصر الحاضر. أصبحت ملاحظات الواقع الافريقي ملاحظات علمية، وهذا يؤول الى الاعتقاد مسبقاً أن خبر رحالة من القرن التاسع عشر، له بطبيعة الحال قيمة أكثر من خبر كتب منذ ثلاثمائة سنة. فبرتن وستانلي باعتبارهما ملاحظين، كانا أسيري فكرة قدمت على أنها علمية موثوقة، وهي فكرة تفوق الجنس الابيض، كما كان المؤلفون البرتغاليون أسرى للتفوق المزعوم الذي كان لعقيدتهم المسيحية، وبصفة عامة ان عصر نخاسة السود لم يكن يلائم المعلومات الموضوعية عن الأفارقة.

ولكن ضرورات النخاسة العملية كانت تتطلب دراسة فطنة لنشاطهم الاقتصادي ونظم حكمهم، بحيث انه توفرت لنا، حتى منذ ذلك العهد سلسلة من المصادر النفيسة جداً. لقد حرر الكتابات عن افريقيا والأفارقة مبشرون وتجار وموظفون وضباط جيش البر أو البحر، وقناصل ومستكشفون ورحالة ومستعمرون وأحياناً مغامرون وأسرى الحرب. ولكل منهم مصلحة خاصة بحيث اختلفت أهدافهم وطرقهم اختلافاً عظيماً، «فالرحلات» كانت انموذجاً لغرض أدبي معين اذ كانت تهتم بعالم مجهول غريب طريف، وكانت ترمي الى ارضاء ما يتطلبه قراؤها بصفة عامة. واستمر هذا التذوق للغرابة والمغامرة تحليه آراء تتفاوت أوهامها وخرافاتها عن الشعوب الافريقية، أو أوصاف مجاملة لعديد الأخطار التي لاقاها السائح البطل، وبقي الأمر مستمراً حتى القرن التاسع عشر (٦٧). وحاول المبشرون القدامى أو من كان منهم أقرب منا أن يفهموا الديانات الافريقية، ولكنهم في معظمهم كان يعوزهم التكون وحسن الاستعداد اللازمان لادراكها حقاً، فتقيدوا خاصة بعرض «أخطائنا» و«وحشيتنا» على أنهم بالعكس كانوا في حاجة الى معرفة اللغات المحلية، وهذا كان يمكن أن يكونوا في وضع أحسن من غيرهم لادراك الاطار الاجتماعي، بيد أنهم أبدوا أحياناً اهتماماً بالتاريخ، وأخذوا في جمع الروايات الشفاهية المحلية.

وفي القرن التاسع عشر كان جل الادب القصصي يصدر عن المستكشفين، فكانوا يهتمون بحل المشاكل الجغرافية العظمى، حسب هواية العصر، بحث غنمت من مساهمتهم الجغرافيا الطبيعية أكثر من معرفة المجتمع الافريقي، وكان معظمهم يعني بالطرق الصالحة للملاحظة أكثر غناية بطرق

الشفافة (٦٨) وكان العديد منهم من الطبيعيين، فأعوزتهم حاسة التاريخ أو هم كانوا يعتقدون خرافة انعدام التاريخ الافريقي، وبالطبع ان لهذه القاعدة شواذ أشهرها شذوذ هينريش بارت. وظهرت بالعكس، منذ القرن الثامن عشر، بعض التواريخ الخاصة بشعوب أو بدول افريقية، كتاريخ الداهامي لارشيبا لدزل (لندن ١٧٩٣) الذي يبدو بعد تمحيصه في صورة كتيب مضاد لمنع النخاسة.

بعد أن عرضنا بعض عيوب المصادر القصصية الأوبية، لننظر الآن في جوانبها الايجابية، فهي توفر لنا قبل كل شيء الاطار الزمني الذي نحن في حاجة أكيدة اليه فيما يخص تاريخ افريقيا، حيث ضبط الزمن المؤرخ به هونقطة الضعف في التراث المنقول. فالتاريخ الوحيد الذي ينص عليه رحالة أو مؤلف من نوع آخر، كتاريخ علاقاته بشخصية افريقية، قد يكون المنطلق لتاريخ كامل لشعب أو حتى لعدد من الشعوب. ولا يعني ذلك أن كل التواريخ صحيحة حتما لكونها مسجلة بالكتابة، ففي بعض الأحوال قد أخطأ المؤلفون الاوربيون أخطاء تتفاوت خطورة عند نقلهم أخبارا مبنية على «يقال»، أو عند محاولتهم أن يحسبوا فترة زمنية بناء على مصادر لا يمكن مراقبتها. على أن الاوربيين بصفة عامة كان لديهم قياس للزمان متقدم تقنيا.

ان الأدب القصصي كبير الأهمية كمصدر للتاريخ الاقتصادي: فسالك التجارة وأهم الأسواق، والبضائع والأسعار، والفلاحة والصناعة، والمواد الطبيعية، كل ذلك كان في الامكان أن يشاهد وأن يوصف بدون تحيز وقد تم ذلك فعلا. فكان الاوربيون محتاجين في هذا الشأن، لصالحهم الخاص، الى تقييدات أقرب ما تكون الى الموضوعية. نعم ان الموارد الطبيعية أو الامكانيات الاقتصادية في بعض الجهات قد صورت بألوان براقة مضخمة للمبالغة في فضائل المكتشف، ولكن المؤرخ قد تعود على هذا الضرب من المبالغة وهو يحسب له حسابه.

ان أهم ما نجح فيه الاوربيون هو ملاحظة المظاهر الخارجية في المجتمعات الافريقية وهو ما يسمى «بالعرف والعادات»، فتشتمل الوثائق على أوصاف مدققة رائعة للغاية، لحفلات مختلفة وللملابس والتصرفات والخطط والأساليب الحربية وطرق تنفيذها وتقنيات الانتاج الخ. ولو أن هذه الأوصاف تتبع أحيانا بنوع «وحشي» «بدائي» «أخرق» «تافه» أو ما شابهها من الفاظ الاستهجان التي لا معنى لها سوى أنها حكم تابع لعادات الملاحظ الثقافية. وأما الأمر الأخطر فهو الانعدام التام لتفهم البنية الداخلية للمجتمعات الافريقية، والشبكة المتشعبة للعلاقات الاجتماعية، وتفريع الالتزامات المشتركة، والعلل العميقة لبعض التصرفات. وباختصار ان هؤلاء المؤلفين لم يكن في مقدورهم أن يكتشفوا العلل العميقة لأنواع النشاط الافريقي.

ومع ذلك فان تدوين التاريخ الافريقي قد يكون شبه مستحيل بدون المواد التي توفرها لنا المصادر الروائية الاوربية، وقد يكون لها عيوبها، وقد تغفل عن عدد من التفاصيل، أو قد تعالجها باحتقار وبتحيز، أو قد تفسرها تفسيراً خاطئاً، ولكن لا بد من مجازفات عادية يتضمنها كل عمل للتدوين التاريخي. فلا موجب اذن لرفض هذا المجموع الضخم الكبير الأهمية من الأخبار. بل أنه



من الضروري أن يعاد طبع أكثر ما يمكن من الروايات من هذا النوع، وأن تنشر بشروح وتعليقات لاثقة حتى يتمكن من تقويمها ومن إعادة تفسيرها على ضوء التدوين الجديد للتاريخ الإفريقي.

## المصادر الروائية الداخلية

في الفترة المدروسة هذه، نشاهد ظاهرة جديدة لها عظيم النتائج وهي ظهور أدب تاريخي مكتوب من قبل أفارقة جنوبي الصحراء، وانتشار هذا الأدب.

لم تكن وسيلة التعبير حتى ذلك الوقت لغة إفريقية محلية، بل كانت في البدء اللغة العربية، ودورها في العالم الإسلامي بمثابة دور اللاتينية في أوروبا في القرون الوسطى، أي سبيل الاتصال بين شعوب مثقفة. ثم ظهرت فيما بعد بعض اللغات الأوربية.

و يبدو أن عادة التدوين التاريخي قد بدأت في آن واحد في المنطقة السودانية وعلى الساحل الشرقي الإفريقي، أي بالضبط في الجهتين الكبيرتين التي غطتها حتى ذلك الوقت المصادر العربية الخارجية، والتي أثر فيها الإسلام تأثيراً طويلاً المدى. وأقدم التواريخ الموجودة ترجع إلى بداية القرن السادس عشر، ولكنها تذكر بصيغة الماضي أحداث فترات أقدم. فالأول «تاريخ الفتاش» من تحرير ثلاثة أجيال من أسرة القيطي من جنه، وهو يغطي تاريخ السنغاي والبلدان المجاورة حتى الفتح المغربي سنة ١٥٩١. «وتاريخ السودان» هو أضخم وأغنى بالتفاصيل، ولقد قام بتحريره المؤرخ التيبكتي السعدي، وهو يشمل جزئياً عين الفترة، ولكنه يستمر حتى سنة ١٦٥٥. وكلا المؤلفين من عمل أدباء طرفاء يتسع اهتمامهم إلى ميدان فسيح ولهم دراية معمقة بالأحداث المعاصرة. والأهم هو أننا لأول مرة نستمع إلى صوت أفارقة أصليين، ولأن المؤلفين يتحيزون إلى الإسلام، وينظرون إلى الأمور من وجهة النظر هذه. وفي القرن الثامن عشر يبدأ تاريخ مجهول المؤلف ولكنه مفصل جداً للشعوب المغاربة في تمبكتو من ١٥٩١ إلى ١٧٥١. وفيه أيضاً مواد مفيدة عن البلدان والشعوب المجاورة (٦٩).

ولدينا ضرب آخر من المصادر في معجم التراجم لأدباء السودان الغربي حرره العالم الشهير أحمد بابا التيبكتي (ت سنة ١٦٢٧) (٧٠)، وإلى عين الجهة من امبراطورية سنغاي ينسب «تاريخ ساي» وهو يومية عربية لابن ادور كتبها على ما قيل سنة ١٤١٠، فإن ثبتت صحته سيكون هذا الكتاب أقدم وثيقة موجودة مكتوبة عن إفريقيا الغربية، ولكنه يبدو أنه من الأرجح أن يكون نسخة مؤرخة من رواية شفاهية (٧١).

ومن تمبكتو ومن جنه انتشرت عادة تحرير اليوميات إلى جهات أخرى، ولا سيما نحو الجنوب والغرب في المنطقة الكائنة بين الساحل والغابة المدارية، وأحياناً بتوغل أكثر نحو الجنوب. وشرع

(٦٩) «تاريخ الفتاش» ترجمه وعلق عليه أ. هوداس و م. دولافوس، باريس ١٩١٣ (أعيد طبعه سنة ١٩٦٤)، تاريخ السودان «ترجمه وعلق عليه» أ. هوداس باريس ١٩٠٠ (أعيد طبعه سنة ١٩٦٤)، «تذكرة النسيان» ترجمه وعلق عليه أ. هوداس باريس ١٨٩٩ (أعيد طبعه سنة ١٩٦٤).

(٧٠) نشر بفاس سنة ١٨٩٩ وبالقاهرة سنة ١٩١٢.

(٧١) انظر فنسان منتال بيان ٢٨، ١٩٦٦، ص ٦٧٥.

الأدباء المسلمون منذ منتصف القرن الثامن عشر أو قبله، في كتابة التواريخ المحلية وانساب القبائل والتراجم المختصرة والرسائل الدينية. وأبرز مثال لذلك «كتاب الغنجة» المكتوب بعد سنة ١٧٥٢. وهوتاريخ مملكة الغنجة ويستند جزئياً إلى الروايات الشفاهية (٧٢).

وهناك عدد كبير من اليوميات الأقل أهمية، ومن المؤمل أن يعثر على مصادر مشابهة في أجزاء أخرى من هذه الجهة، تحت نفوذ مجموعات ديولا أو الهوسا أو كليهما. ومعظم هذه الآثار مكتوبة بالعربية. كما حرر عدد من اليوميات بلغات العجمي أي لغات جنوب الصحراء المكتوبة بالحروف العربية (٧٣).

والحالة عينها في الجهات الناطقة بالفلوذية، ولا سيما في الفوطاطورو والفوطاد جالون، في غينيا وفي الخزانة بداركار أو بباريس، يوجد عدد من اليوميات المحلية محرر بالعربية أو الفلوذية (أو كليهما) ومعظمها مؤرخ بالقرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ولم تنشر مواد الفوطاد جالون إلا مؤخرًا، واستغلت في مؤلفات علمية. ولنذكر في هذا الشأن مجموعة جلبرت فيليارد في إيفان (المعهد الفرنسي لأفريقيا السوداء) بداركار. على أن الوضع في فوطاطورو أحسن، وقد جعلت «يوميات فوطا السنغالية» لسيري عباس صوح، من القرن الثامن عشر، في متناول الباحث منذ خمسين سنة (٧٤) وأثر آخر قديم وهو معجم تراجم لمحمد البرطاييلي بعنوان «فتح الشكور» (حوالي ١٨٠٥) هو الآن، بصدد الإعداد من قبل جون هويك قصد نشره. وهناك تاريخ معاصر لفوطاطورو كتب سنة ١٩٢١ بقلم الشيخ كمرا موسى الكانكالي، عنوانه «زهور البساتين» وهو لم ينشر بعد (٧٥).

والسنيجيريا الشمالية يمكن اعتباره أيضًا بلدًا لم تظهر فيه التواريخ وسائر المصادر العربية إلا في وقت متأخر نسبيًا. فترك لنا الإمام ابن فرتوة (نهاية القرن السادس عشر) وصفًا مفصلاً لمتعة حياة ماي ادريس وعصره وحروبه (٧٦). وقرىبا منا نجد مختلف القوائم لقواد برنو ويوميات لهذا البلد. ويمثل المحارم مصدرا مهما جدا (٧٧). وهي رسوم امتيازات يمنحها الرؤساء لأسر الأعيان من رجال الدين، وهي تمكن من معرفة الظروف الاقتصادية والاشتراكية.

وفي بلاد الهوسا لا يوجد شيء يذكر من المواد التاريخية السابقة للجهاد، ولو أن مستوى التعليم ولا سيما لدى (رؤساء الدين الفلانيين) كان مرتفعًا جاد نسبيًا (٧٨) ولكن بعض القصائد بلغة الهوسا أو الكنوري (برنو) تتضمن شروحا للأحداث المعاصرة (٧٩).

(٧٢) انظر في هذا الشأن وعن مواد أخرى الفولكلور ١٩٦٣، ث. هودكين ١٩٦٦، ٤٤٢ — ٤٥٩.

(٧٣) أ. ١. شو ١٩٦٨، طيروديالو ١٩٦٨.

(٧٤) أ. سوترجه م. دولافوس وه. كاهان، باريس ١٩١٣.

(٧٥) محفوظ بخزانة إيفان (المعهد الفرنسي لأفريقيا السوداء) انظر ف. مختال ١٩٦٥ ص ٥٤٠.

(٧٦) نشره ه. ر. بلمر، ١٩٣٠، ترجم ضمن «مذكرات سودانية» لاقوس ١٩٢٨ وفي «تاريخ العشرين سنة الأولى لماي ادريس الوما» لاقوس ١٩٢٩.

(٧٧) جمعه ه. ربلمر في «مذكرات سودانية» المجلد ٣، لاقوس، ١٩٢٨ وفي كتابه «البوربو»، الصحراء، والسودان. لندن ١٩٣٦.

انظر أيضًا ي. أورفوا «أخبار بورنو» جورن جمعية الأفريقيين ٢ — ١٩٤١.

(٧٨) م. هسكت ١٩٥٧، ٥٥، ٥٧٨، أ. د. ه. بيفاروم. هسكت ١٩٦٢، ١٠٤ — ١٤٨.

(٧٩) انظر ج. ر. بترسن ١٩٢٦.

وشاهدت بداية القرن التاسع عشر ظهور نهضة حقيقية للأدب العربي في السودان الأوسط والغربي، وعلاوة على المؤلفات باللغة العربية، فكان ثمة عدد متزايد من الكتب تحرر في اللغات المحلية كالهوسا والفلفودية والكنوري والمندرا والكوتوكو، إلخ.. بحروف عربية.. وأخصب الكتاب كانوا رؤساء (الجهاد الفلاني) في نيجيريا الشمالية، ولو أن معظم انتاجهم الأدبي يعالج قضايا دينية وإن عددا قليلا منها فحسب يمكن اعتباره توارخ حقا (٨٠). وكل هذا الانتاج الأدبي سواء بالعربية أو بأحدى اللغات المحلية، يعين في الحصول على فكرة أشد تنسيقا عن الحياة الاجتماعية والفكرية في هذه الجهة. ومع أن يوميات مدن الهوسا (كانو، كتسينا، أبوجا، إلخ) لا تراجع إلا إلى نهاية القرن التاسع عشر، فهي إلى حد ما تستند إلى وثائق أقدم أو إلى روايات شفاهية (٨١). وطراً تطور مماثل جهة الشرق في الباقيمي والكوتوكو والمندرا والوادي. وقد نشرت فيما بعد بعض اليوميات أو قوائم الملوك، ولكن الكثير منها مازال مخطوطاً، ومن المؤمل أن يعثر على غيرها ضمن المجموعات الخاصة (٨٢).

وتوجد يومية مسجعة في اللغة الفلفودية تصف حياة المصلح العظيم التكروري الحاج عمر (٨٣) ونشاطه — وهونفسه مؤلف الكتاب الديني «رماع حزب الرحيم» وفيه عدد من التلميحات التاريخية إلى ظروف العيش في السودان الغربي (٨٤).

ويمكن للساحل الشرقي الأفريقي أن يقارن بالسودان فيما يخص عدد يومياته. فلعدد من المدن يومياتها المكتوبة بالعربية أو السواحيلية بحروف عربية تعرض فيها قوائم الملوك وأخبار الحياة السياسية ومن بينها واحدة.. لا غير قديمة حقا، يومية كلوا، وقد تم تحريرها حوالي سنة ١٥٣٠ ولنا منها روايتان مختلفتان، روى أحدها دي بارتوس ونسخت الأخرى في زنجبار سنة ١٨٧٧ (٨٥). وأما معظم اليوميات الأخرى فلم تحرر إلا مؤخراً، وبعضها يرجع إلى ما وراء النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ويتركز عدد منها على الأحداث قبيل مجيء البرتغاليين. فهي إذن إلى حد ما تسجيل لروايات شفاهية، وينبغي أن تعالج وتقوم على هذا الأساس (٨٦) ومازال عدد كبير من

(٨٠) محمد بلو «اتفاق المسور» نشره س. أ. ج. وتينغ، لندن ١٩٥١، ترجمة إنكليزية مع شرح قسم الهوسا بقلم أ. ج. أرنت: «ظهور السوكوتو الفلانيين» كانو ١٩٢٢، عبد الله دان فوديو: تزيين الورقات، ترجمة وتعليق بقلم: ه. هسكت، لندن ١٩٦٣، حاجي سعيد: تاريخ سوكوتو ترجمة س. أ. ج. وتينغ، كانوبدون تاريخ وهناك أيضاً ترجمة فرنسية أ. هوداس ضمن «ذخيرة النسيان» باريس ١٨٩٩.

(٨١) يومية كانو: ترجمة ه. ر. بلمر ضمن «مذكرات سودانية ٣»، عن كتسينا انظر المصدر المذكور ص ٧٤، ٩١، عن أبوجا انظر معلم حسن وشعير: يومية أبوجا، نقلًا عن الهوسا بقلم ب. ل. هيث إبادان ١٩٥٢.

(٨٢) انظر بلمر ١٩٢٨ وعدة مصنفات لـ ج. ب. لوبوف وم. رودنسن ضمن «دراسات كامرونية» ١٩٣٨، ١٩٥١، ١٩٥٥، وبيفان (مجلة المعهد الفرنسي لأفريقيا السوداء) ١٩٥٢، ١٩٥٦، م. أ. طويبانان عن الوادي ضمن «كراريس الدراسات الأفريقية» ١٩٦٠، ١٩٦١.

(٨٣) م. ل. ريام: حياة الحاج عمر — قصيدة بلغة البولار، ترجمها ه. كاهن باريس ١٩٣٥.

(٨٤) كتاب رماع حزب الرحيم، القاهرة ١٩٢٧، ويعد ج. ر. و. يليس طبعة جديدة وترجمة له.

(٨٥) حلها ج. د. س. فرعان جر ينغيل: التاريخ الوسيط لساحل طنجانكا، أوكسفورد ١٩٦٢.

(٨٦) عن اليوميات العربية والسواحلية عامة انظر فرعان جر ينغيل ١٩٦٢، أ. ه. ج. برنس ١٩٥٨، ج. ر. ط. ألسن، ١٩٥٩، ٢٢٤ — ٢٢٧.

المخطوطات ضمن المجموعات الفردية الخاصة، فاكشف منذ سنة ١٩٣٥ أكثر من ٣٠.٠٠٠ صفحة مخطوطة سواحلية (وأىضا عربية). ومن المؤمل بعد التنقيب المدقق على كل الساحل ان توجد مواد من شأنها أن تنير عددا من الجوانب التي مازالت مجهولة من تاريخ الشرقي الافريقي (٨٧). على أن المؤرخين في وسعهم أن يستثمروا اليوميات بل وغيرها من الأصناف الأدبية، كالشعر السواحلي مثلا، ولا سيما قصيدة «الانكشافي» (وقد نظمت خلال العشرية الثانية من القرن التاسع عشر) وهي تصف صعود باتي (٨٨) وانخطاطه.

ولم يظهر الانتاج الأدبي الافريقي باللغات الاوربية الا قرنين بعد الانتاج بالعربية، وكانت النماذج الأولى — كما هو متوقع — صادرة عن سكان الساحل الغربي، حيث كانت الاتصالات مع العالم الخارجي أكثر منها عند غيرهم.

ولأنه يجدر أن تحفظ أسماء جاكوبس كبتان (١٧١٧ — ١٧٤٧) وأ. ويليام أمو (المولود حوالي ١٧٠٣، ت حوالي ١٧٥٣) وفيليب كواك (١٧٤١ — ١٨١٣)، وثلاثتهم من أصل فنتي، كالرواد الأولين للأدب الافريقي باللغات الاوربية، فإن مساهمتهم في تدوين التاريخ الافريقي ضئيلة جدا. وبالعكس ان مؤلفات العبيد المعتقين في النصف الثاني من القرن الثامن، لا نظير لها من حيث القيمة كمصادر تاريخية، ومنها مؤلفات انياتوس سنشو (١٧٢٩ — ١٧٨٠) وأطوية كوقوانو (حوالي ١٧٤٥ - ١٨٠٠) وألودوه أكويانو قسطافوس فاسا (حوالي ١٧٤٥ - ١٧٨٠). وعني ثلاثتهم أساسا بمنع نخاسة السود، فكانت كتبهم جدالية، ولكنها في آن واحد تمدنا بالكثير من مواد التراجم الذاتية عن وضع الأفارقة في افريقيا كما في أوربا (٨٩). وإلى هذا العهد ترجع وثيقة وحيدة فريدة، يومية انتيراديوك، من أهم تجار كالا بار، وكتبت بلغة «بدجن الانكليزية» المحلية وغطت مدة طويلة، وهذه اليومية مع قصرها تلقي أضواء ساطعة على الحياة اليومية في ميناء من أهم موانئ تجارة العبيد السود (٩٠).

وعن مدغشقر لدينا نوع من اليومية سجلها الملك العظيم المرينا، رداما الأول (١٨١٠ - ١٨٢٨) بحروف عربية. وحوالي ١٨٥٠ حرر اثنان من أعيان المرينا وهما راومبانا ورهانيرا كأخبارا بحروف لاتينية تعين على استعادة بناء الصورة الكاملة للحياة اليومية عند المرينا في القرن التاسع عشر (٩١).

وخلال القرن التاسع عشر ساهم عدد من الأفارقة أو الافروأمريكيين في رحلات الاستكشاف، ونشروا تأملاتهم عن الحياة الافريقية تتخللها أحيانا جدالات ذات صبغة عامة.

(٨٧) أهم اكتشاف من هذا النوع في السنوات الأخيرة «كتاب الزنج» الذي يعالج تاريخ بلد الصومال الجنوبي وكنينيا الشمالية، انظر شرطي ١٩٥٧.

(٨٨) انظر هريس، ١٩٦٢.

(٨٩) انياتوس سنشو ١٧٨١، اطوبه ١٧٨٧، القصة الممتعة لحياة الودوه اكويانو أو قستافوس. فاسا الافريقي، لندن (١٧٩٨).

(٩٠) داريل فوردي ١٩٥٦. اتلف المخطوط الاصل أثناء الرمي بالقنابل في ايقوسيا أثناء الحرب الأخيرة، ولكن ثمة نصوص تتعلق بالفترة ١٧٨٥ — ١٧٨٧ كانت محفوظة بشكل نسخ.

(٩١) هـ. برتيني ١٩٣٣، مخطوطة راومبانا وراهانريكا، نشرة الأكاديمية الملاغشية ١٩، ١٩٣٧ ص ٤٩ — ٧٦.

فساهم صموئيل كروثر من أوروبا — قد واصل دراساته في سيراليون وفي بريطانيا — في استكشافات النيجر سنة ١٨٤١ و ١٨٥٣. وترك لنا أوصافاً عن هذه الرحلات (٩٢). وانتقل طوماس ب. فريمان، المولود بانكلترا من أصل هجين، انتقالات كثيرة في أفريقيا الغربية، ووصف شعوب ساحلها وداخل ترابها وصف تعاطف ملهم (٩٣). وسافر أميركيان من أصل أفريقي هما، روبرت كمبل ومرتان ر. دولاني إلى نيجيريا في السنوات ١٩٥٠ للبحث عن منطقة من شأنها أن تليق بمستعمرة محتملة من الأفرو-أميركيين (٩٤)، ووصف مواطن من ليبيريا هو بنيامين أندرسن، بكثير من التفاصيل ملاحظات مدققة لاحظها أثناء رحلته في وادي النيجر الأعلى (٩٥). ومن الواجب أن يصنف زعيمان أفريقيان عظيمان هما، ادوارد و. بليدن وجامس أفريقانوس هرطن، في صنف على حدة. فبعض كتب بليدن وبعض مقالاته تمثل في حد ذاتها مصدراً تاريخياً، ويكتسي البعض الآخر صبغة التفسير التاريخي. ولكنها كلها لازمة للبحث عن ظهور الوعي الأفريقي (٩٦) وكذلك الشأن بالنسبة إلى آثار هرطن، مع وجود فرق وهو أنه كان أميل إلى الملاحظات الدقيقة للمجتمعات التي اتصل بها اتصالاً وثيقاً جداً (٩٧).

وتكون هاتان الشخصيتان مرحلة انتقال مع مجموعة الأفارقة الذين شرعوا في كتابة تاريخ بلدهم أو شعوبهم. وثمة محاولة أولى تمت، ولكن مع التأكيد على الاتوغرافيا، قام بها الراهب بولات وهو مولد سان لوي، ضمن كتابه «نظرات سنغالية بمجمل» (٩٨) فيلاحظ لديه اهتمام أكبر بتدوين التاريخ، يتسند أساساً على الروايات الشفهية، وذلك في أجزاء القارة الخاضعة للهيمنة البريطانية، ولكن في نهاية القرن التاسع عشر فقط. ونشر ج. س. ريندوف سنة ١٨٩٥ ببال كتابه «تاريخ ساحل الذهب والا سنتي» ويعتبر هذا المؤلف أول مؤرخ عصري من أصل أفريقي. وبدأت به وبصموئيل جونسون — ويعاصر كتابه «تاريخ أوروبا» كتاب ريندوف، إلا أنه لم ينشر إلا سنة ١٩٢١ — بدأت بهما سلسلة غير منقطعة من مؤرخين أفارقة، هاووين في البداية (ومعظمهم مبشرون) ثم محترفين. وعلجت آراؤهم ومؤلفاتهم في الفصل المخصص لتطور التدوين التاريخي الأفريقي. وكل هذه المصادر الروائية المكتوبة بالعربية أو بعدة لغات أفريقية وأوربية، هي مجموعة من المواد التاريخية فسيحة ثرية. وهي بالطبع لا تعطي كل أوجه السير التاريخي، ولها طابع جهوي فلا تمدنا أحياناً إلا بصورة جزئية. وما كتب منها من قبل كتاب مسلمين، كثيراً ما تبدي تحيزاً واضحاً يظهر في الكيفية التي يعالجون بها المجتمعات غير المسلمة. وأما غيرهم من مؤلفي المصادر الروائية في اللغات الأوروبية، فكانوا في آن واحد جدليين مكافحين ضد نخاسة السود، أو في سبيل المساواة. وبذلك قد كانوا ينجحون إلى التحيز. ولكن تلك عيوب طبيعية في كل المصادر السردية. وحتى لو أننا

(٩٢) انظر يوميات الأفضل ج. ج. شون وم. كروثر، لندن ١٨٤٢، صموئيل كروثر ١٨٥٥.

(٩٣) طوماس ب. فريمان ١٨٤٤.

(٩٤) روبرت كمبل ١٨٦١، مرتان ر. دولاني ١٨٦١.

(٩٥) بنيامين أندرسن ١٨٧٠.

(٩٦) عن بليدن، انظر هليس ر. لنش ١٩٦٧.

(٩٧) ج. أ. ب. هستن ١٨٦٨، رسائل عن الظروف السياسية في ساحل الذهب، لندن ١٨٧٠.

(٩٨) باريس، ١٨٣٣.

كنا شاعرين بذلك، فإن هذه الوثائق تتقدم لنا بميزة حاسمة: هي أصوات أفارقة يصورون لنا المنقلب الثاني من التاريخ، ذلك الذي غمرته أمواج الآراء الأجنبية.

## مصادر خزائن الوثائق الخاصة، والتقارير السرية وغيرها من الشهادات

نعني بمصادر خاصة: أساسا، الوثائق المكتوبة الناتجة عن حاجة التسجيل لمختلف أنواع النشاط البشري التي لم تكن في البداية موجهة للجمهور الكبير، بل لجمع صغير من الأشخاص الذين يهمهم الأمر فقط، فهي تشتمل خاصة على المراسلة الرسمية أو الخاصة، والتقارير السرية، وعروض مختلف المعاملات والسجلات التجارية والإحصائيات والوثائق الخاصة باختلاف أنواعها، والمعاهدات والاتفاقيات، ويوميات السفن الخ. وهذه المواد هي حقا المادة الخام للمؤرخ الباحث، إذ هي تمدّه، خلافا للمصادر الروائية المنشأة لغرض معين، بشهادة موضوعية خالية مبدئيا من كل قصد خفي، موجهة لجمهور فسيح أو للأجيال القادمة. وتوجد هذه المواد أساسا في خزائن الوثائق والخزائن العامة أو الخاصة.

إن الرأي القديم القائل بأن ليس لتاريخ إفريقيا ما يكفي من المصادر الخاصة، قد تراجع. فعلاوة على ما يوجد من المجموعات الغنية جدا من الوثائق في الدول المستعمرة السابقة، ومن المواد المهمة جدا في إفريقيا نفسها مما انتج في فترات ما قبل الاستعمار والحظبة الاستعمارية، من قبل منشآت خاصة أو تابعة للدول الأوروبية، فإن البحوث الحديثة قد جددت مواقع كمية من المواد الخاصة، أو كشفت عنها: المواد الصادرة عن أفارقة والمكتوبة بالعربية أو بلغات أوروبية. فبينما كان يعتبر في السابق أن الوثائق من هذا النوع شاذة، وأنها لم تكن لتوجد إلا في أماكن متميزة، فلقد اتضح الآن أنه يوجد عدد من المصادر المكتوبة من أصل إفريقي في الكثير من أقسام القارة، كما في خزائن الوثائق في أوروبا وآسيا.

فلننظر أولا في المواد المكتوبة بالعربية، ففي الفترة السابقة عن القرن التاسع عشر، لم يكتشف بعد نماذج مجزأة من المراسلة المحلية أو الدولية، ولا سيما الصادرة عن إفريقيا الغربية.

فهناك رسائل من السلطان العثماني إلى ماي ادريس ببرنو (سنة ١٥٧٨) اكتشفت في المحفوظات التركية، ورسائل ترجع لنهاية القرن السادس عشر أيضا من سلطان المغرب إلى أسكيا من السنغاي والي كنتا من الكبي. وكانت العربية مستعملة كلغة دبلوماسية، ليس في البلاطات المسلمة بالسودان وحسب بل أيضا من قبل الأمراء الغير المسلمين. وأشهر هذه النماذج هم «الأسننهان» الذين استكتبوا كتابا مسلمين بالعربية، لمراسلتهم مع جيرانهم في الشمال ومع الأوروبيين على الساحل. ووجد عدد من هذه الرسائل في الخزانة الملكية بكونها كن. واستعملت العربية لمسك دفاتر القرارات الإدارية والقضائية والحسابية الخ. وفي الطرف الآخر من إفريقيا، لدينا مثل المعاهدة بين النخاس الفروسي مورييس وسلطان كلوا سنة ١٧٧٦.

وشهد القرن التاسع عشر انتشارا عظيما للمراسلة العربية على كل القارة. فقد تطلب إنشاء دول متمرزة في السودان، نشاط إداري ودبلوماسي ازداد أهمية أكثر فأكثر، واكتشفت مادة خصبة من

هذا النوع خصوصاً في سلطنة سوكوتو والامارات التابعة لها، من كواندو الى آداماوا. وفي دولة معينة أو دولة لبتاكو وفي امبراطورية برنو. وحافظ كل المسلمين رؤساء الدول كباراً وصغاراً على مراسلة نشيطة فيما بينهم ومع السلطات الاستعمارية المتقدمة. ففي الكثير من خزائن الوثائق ببلدان أفريقيا الغربية (وأحياناً في أوروبا) نجد آلافاً من الوثائق العربية الصادرة عن شخصيات، أمثال الحاج عمر، وأحمد ساكو، ومابا ولات ديون، ومحمد دولامين، وسموري، والبكائي ورابع، وكثير من سائر الرؤساء الأقل أهمية. وأقامت الادارة الاستعمارية أيضاً مراسلة عربية معهم بسيراليون وغينيا ونيجيريا وعلى ساحل الذهب.

و يوجد تبادل رسائل بين الباشا العثماني بطرابلس ومشايخ برنو، وبين سلطان دارفور ومصر، وبين تمبكتو والمغرب الأقصى. وكان الوضع مماثلاً في أفريقيا الشرقية. على أنه يبدو أن محفوظات زنجبار ليس غنية بالوثائق التي كانت ترخي منطقياً من مدينة كان لها ما لها من علاقات تجارية وسياسية، وبالطبع لا بد أنه يوجد في خزانات خاصة عدد من الوثائق المتفاوتة القيمة. وسوف يكون جمع هذه الوثائق وفهرستها عملاً عسيراً، ولكنه لا بد منه في المستقبل القريب.

ولعين الصنف، تنتمي النصوص المكتوبة بحروف فاي وهي كتابة استنبطها حوالي سنة ١٨٣٣ مومولودويلا بريكلي، وانتشرت بسرعة بين شعب فاي، بحيث كان الكل تقريباً يعرفون هذه الكتابة في نهاية القرن، ويستعملونها بكيفية اعتيادية في المراسلة الخاصة والرسمية ولمسك دفاتر الحساب، ولتسجيل القوانين العرفية والأمثال والقصص والروايات. وكثير من الشعوب المجاورة مثلاً المندى والطوما (لوما) والكرزي والباسا. استعملوا كتابة الفاي في لغاتهم، واستخدموها لعين الأغراض (٩٩).

وفي بداية القرن الخامس عشر، استنبط السلطان نجويا من باموم (كامرون) كتابة خاص للغة الباموم، حورها أربع مرات خلال حياته، ولكن خلافاً لكتابة الفاي التي عمم استعمالها على معظم الأهالي، فإن كتابة الباموم لم تكشف إلا لجمع صغير في بلاط السلطان، ومع ذلك فإن نجويا قد ألف مجلداً ضخماً في التاريخ، وفي عادات شعبه حرره بهذه الكتابة، وهو مجلد جدّ في كتابته طيلة سنين عديدة، وهو يمثل كنزاً حقيقياً من المعلومات الثينة عن الماضي (١٠٠). وينبغي أن يضاف إليه نصوص بالنسيبيدي (١٠١) من وادي نهر الصليب (الجنوب الشرقي من نيجيريا) تتمثل في نقوش على معابد وعبارات للتعارف بين أعضاء بعض الجمعيات السرية.

وأما المواد المحررة باللغات الأوروبية، فتمتد من القرن السادس عشر الى عصرنا هذا، وقد كتبت في نحو اثنتي عشرة لغة وهي غزيرة جداً مشتتة في العالم كله ومحفوظة في مئات من البقاع المختلفة في خزائن وثائق أو مخازن أو مجموعات خاصة. ونتج عن ذلك أن استغلالها من قبل المؤرخ كان صعباً نوعاً ما، خاصة إذا لم يوجد دليل أو فهرست. ولذا شرع المجلس الدولي للوثائق بإشراف اليونسكو

(٩٩) انظر د. أ. دلي ١٩٦٧، ١ - ٥١.

(١٠٠) تاريخ الباموم وعاداتهم، حرر بادارة السلطان نجويا، ترجمة ب. هنري مرتان باريس ١٩٥٢ وحفظ الأصل بقصر السلطان بقمبام.

(١٠١) انظر دايرل ١٩١٠ - ١٩١١ وماك كريكور ١٩٠٩.

وبدعمهما الأدبي والمالي في اعداد سلسلة من الأدلة لمصادر التاريخ في إفريقيا. وكان الغرض الرئيسي من ذلك ارضاء حاجيات الباحثين العاملين في تاريخ إفريقيا وجعل الوصول الى كافة المصادر الموجودة سهل المثال. واذا تركز البحث التاريخي طويلا على عدد قليل من خزائن الوثائق مما يتصل بذكريات الفترة الاستعمارية. فقد كان من المفيد أن يلفت النظر أيضا، الى وجود مجموعة مهمة مشتتة تشتتا كبيرا، من المواد التي لم تستغل بعد. وإذا ما خصصت الأدلة أولا وبالذات لخزائن الوثائق العمومية والخاصة، فهي أيضا تأخذ بعين الاعتبار المواد ذات الأهمية التاريخية المحفوظة في الخزائن والمتاحف. وستشتمل هذه السلسلة على أحد عشر مجلدا، تمدنا بمعلومات عن المصادر الوثائقية المحفوظة في بلدان أوروبا الغربية والولايات المتحدة الدراسة لافريقيا على جنوبي الصحراء وقد تم حتى الآن نشر المجلدات الآتية: المجلد ١ الجمهورية الألمانية الاتحادية، ١٩٧٠، المجلد ٢ اسبانيا ١٩٧١، المجلد ٣ فرنسا ١٩٧١، المجلد ٥ ايطاليا ١٩٧٣، المجلد ٦ ايطاليا ١٩٧٤، المجلد ٨ اسكندنافيا ١٩٧١. وينتظر اصدار المجلدين ٤ (فرنسا ٢) و٧ (فاتيكان) عما قريب وستصدر المجلدات التي تغطي بلجيكا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة كل على حدة، ولكنها ستتبع نفس طريقة العرض (١٠٢)، وكما قال جوزيف كي زربوي مقدمته للسلسلة: «في المعركة في سبيل استكشاف الماضي الافريقي من جديد، فان دليل مصادر التاريخ لافريقيا يمثل سلاحا جديدا، تخطيطا وعمليا» (١٠٣).

وعلاوة على هذا المشروع المهم، توجد من قبل أدلة أخرى للمصادر خاصة، أدلة حسب المناطق أو تبعا لشروط خاصة. ومن أكملها الأدلة الثلاثة لتاريخ إفريقيا الغربية، وقد نشرت في السنوات ١٨٦٠. وهي تغطي خزائن الوثائق بالبرتغال وإيطاليا وبلجيكا وهولندا (١٠٤). وأما نشرات ووثائق الخزائن، مطولة أو في شكل سجلات، فهي أشد طموحا الى حد ما أكبر جدوى، وحتى الآن فان المواد الوثائقية البرتغالية وحدها هي التي عرضت في هذا الشكل، فلدينا اليوم، علاوة على أعمال پايفنا منصو (نهاية القرن التاسع عشر) (١٠٥) مجموعتان عظيمتان من وثائق المبشرين، مصدرها خزائن الوثائق البرتغالية (وخزائن غيرها)، احدهما من عمل أ. داسلفا ريقو (١٠٦)، والأخرى من عمل أ. برازيو (١٠٧). ومنذ بضع سنوات شرع في مجموعة معلمية أعدتها الجهود المتضافرة لخزائن البرتغال وروديسيا، ستشرفها الوثائق البرتغالية الخاصة بالجنوب الشرقي بنصها الأصلي مع ترجمة انكليزية (١٠٨). وتوجد أيضا مطبوعات مختصرة في الزمن وفي مضمونها أو موضوعها، ويتمثل هذا النوع من جهة

(١٠٢) مجلدات الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى سوف تمدنا بقوائم من الوثائق تتعلق بكامل القارة.

(١٠٣) دليل مصادر التاريخ لافريقيا مجلد ١، زوق، سويسرة ١٩٧٠ مقدمة ص ٧.

(١٠٤) ب. كرسن ١٩٦٢، ريدر. ف. س ١٩٦٥، قرأى و. د. شميرس ١٩٦٥.

(١٠٥) پايفنا منصو ١٨٧٧.

(١٠٦) أ. داسلفا ريقو ١٩٤٩ - ١٩٥٨.

(١٠٧) أ. برازيو ١٩٥٢.

(١٠٨) الوثائق التاريخية لافريقيا الشرقية والوسطى لشبونة، سلسبوري منذ ١٩٦٥ ستشمل ٢٠ مجلدا تقريرا.



[illegible]

في «الاوراق البرلمانية الانكليزية» وفي عدة كتب زرقاء أو كتب بيضاء مؤرخة على الخصوص في الفترة الاستعمارية، ومن جهة أخرى هناك منتخبات حديثة لها صبغة علمية أكبر (١٠٩)، من ذلك أعمال كوفليي ول. جادان عن وثائق الفاتكان حول تاريخ الكنغو القديم (١١٠) أو مختارات س. و. نيوپوري عن السياسة البريطانية في افريقيا الغربية. ودراسة ج. أ. ميتكالف الوثائقية عن العلاقات بين بريطانيا العظمى وغانا (١١١). وإلى هذا النوع أيضا تنتمي المجموعة الفسيحة من المواد الوثائقية عن السياسة الإيطالية ازاء اثيوبيا والبلاد المجاورة، والتي هي بصدد النشر من قبل «جيليو» (١١٢) وعدد كبير من المنشورات الأخرى من هذا النوع، انطلاقا من خزائن وثائق أوربية، قد يسهل الوصول إلى الوثائق الخاصة لهذا الوجه أو ذاك من التاريخ الاستعماري. ونقطة الضعف في هذه المقتطفات فعلا وبدون شك، هي في الطابع الانتقائي، وذلك ان كل مؤلف يتبع في اختيار مواده قواعده الخاصة الذاتية، بينما يحتاج الباحث الذي يدرس مسألة من المسائل، إلى كل الارشادات وإلى مراجع كاملة.

ويوجد اليوم في كل الدول الافريقية المستقلة، خزائن وثائق حكومية تحفظ المواد الموروثة عن الادارة الاستعمارية السابقة. وإن نشرت في بعض البلدان أدلة أو فهراس، فعظم وثائق افريقيا. ما زالت بصدد التصنيف والوصف (١١٢) فصار اذن من الحتمي الضروري اليوم، ان تنشر سلسلة من الأدلة عن كل الوثائق العامة والخاصة لافريقيا، كالتى هي بصدد النشر بالنسبة إلى الوثائق الاوربية.

وخزائن الوثائق الحكومية في افريقيا اذا ما قورنت بوثائق الدول المستعمرة القديمة فإن لها حسناتها كما لها مساوئ، ويقطع النظر عن بعض الشواذ فإن الوثائق المفصلة لم يبدأ بحفظها في افريقيا الا في السنوات ١٨٨٠. وفيها كثير من النقص وكثير من المواد المفقودة. فينبغي أن تسد هذه الشغرات بواسطة مصادر أخرى، أهمها وثائق المبشرين ورجال الأعمال والوثائق الخاصة، بقطع النظر طبعا عن خزائن الوثائق بالعواصم الاوربية.

وبالعكس، فإن مزايا الوثائق الافريقية على وثائق الدول المستعمرة السابقة عديدة، أولا: الوثائق الافريقية تحفظ مواد ووثائق لها صلة أشد مباشرة بالحالة المحلية، بينما تشمل «الوثائق الاستعمارية» خاصة، على وثائق عن سياسة المستعمر، والخزائن الافريقية تحفظ غالبا وثائق من فترة ما قبل الاستعمار، كتقارير رواد الاستكشاف الاولين والأخبار التي جمعها مختلف التجار والموظفين في جهات داخلية نائية، ولم تعتبر هذه التقارير جديرة بأن ترسل إلى أوروبا، ولكنها ذات أهمية كبرى بالنسبة إلى التاريخ المحلي، وتشتمل هذه الخزائن على عدد من الوثائق الصادرة عن أفارقة يفوق عددها الموجود في خزائن أوروبا. وبصفة عامة لئن وجد في افريقيا كثرة من الوثائق هي

(١٠٩) أدلة المواد لتاريخ افريقيا الغربية في خزائن الوثائق الاوربية نشرت جامعة لندن بطبعة اثلون منذ ١٩٦٢ انظر تعليق ١٠٤.

(١١٠) ج. كوفليي ول. جادان ١٩٥٤.

(١١١) نيوپوري ١٩٦٥، متكالف ١٩٦٤.

(١١٢) جيليو كارلو: إيطاليا في افريقيا. السلسلة التاريخية مجلد ١.

(١١٣) لدراسة الوضع قبيل الاستقلال انظر فيليب د. كورتن ١٩٦٠، ١٢٩ - ١٤٧.

تكرار لما وجد في أوروبا، فإن الباحث الذي استخدم فقط المصادر الموجودة في الدول المستعمرة القديمة، قد يكون ميالاً إلى كتابة تاريخ المصالح الأوروبية في أفريقيا، أكثر من كتابة تاريخ الأفارقة، وبالعكس، فإن استخدام الخرائط الموضوعة في أفريقيا وحدها قد لا يعطي صورة كاملة، إذ قد ينقصها عدد من الوثائق أو من التقارير أو هي قد تكون مبتورة.

وأخيراً يجب أن نذكر بعض الوثائق الأخرى المنتمية إلى هذا الصنف. أولاً الخرائط وسائر المواد الخرائطية. فلأن عدد الخرائط المطبوعة عن أفريقيا ازداد سنة بعد سنة منذ القرن السادس عشر، فإن كثيراً منها ما زال محفوظاً في شكل مخطوطات في عدة خزائن للوثائق، وعدة خزانات في أوروبا، بعضها مزركش وملون أجل تلوين.

فإن هذه الخرائط نتمكن غالباً من العثور على أسماء المدن التي اندثرت اليوم، أو التي تعرف باسم آخر، بينما تذكر الأسماء القديمة في مصادر أخرى شفاهية أو مكتوبة. مثلاً أن بعض شعوب البنتو الشرقيين كان لهم عادات الهجرات انطلاقاً من جهة تدعى شنقوايا، ولا تعرف اليوم مدينة بهذا الاسم، ولكننا نجد مرسوماً على بعض الخرائط القديمة، كخريطة فان لنشوتن (١٥٩٦) أو خريطة وليام بلاو (١٦٦٢) وغيرهما، حيث تظهر شنقوايا بكتابات مختلفة على أنها مدينة، ثم على أنها جهة قريبة من الساحل. وتفيدنا هذه الخرائط القديمة أيضاً بإرشادات عن توزيع المجموعات العرقية، وعن حدود الدول والمقاطعات، وتسمي الأنهار بأسماء متباعدة، وكذلك الجبال وسائر العناصر الطبوغرافية، وبالجملة توفر لنا مواد خاصة بأسماء البقاع مفيدة جداً وهي بدورها تفيدنا أخبار «تاريخية» نفيسة. وعرض و. ج. ل. رندلس طريقة عملية لاستغلال المواد الخرائطية لأغراض تاريخية بالنسبة إلى أفريقيا الجنوبية الشرقية في القرن السادس عشر (١١٤) وقد اعترف بصلاحيته هذه المادة، وبين يدي المؤرخ المؤلف الكبير الذي وضعه يوسف كمال «المعلمة الخرائطية الإفريقية والمصرية» وبه أيضاً عدد من النصوص السردية في روايتها الأصلية وضمن ترجمات، ولكنه يقف عند القرن السادس عشر (١١٥). فإن الواجب إذن أن نوافق على طلب جوزيف كزي زربو الرامي إلى نشر مجموعة من كل الخرائط القديمة لأفريقيا ضمن أطلس مع نصوص للشرح (١١٦). وثمة خطوة في هذا الاتجاه تمت عندما نشرت أخيراً نحو مائة خريطة في لايبزغ ولكن الشروح ناقصة واستمدت الخرائط كلها من مواد مطبوعة (١١٧).

كما يوجد في المصادر المكتوبة مواد أخرى هي المعطيات اللسانية، وإذا خصص فصل متميز من هذا المجلد للنظر في اللسانية كعلم تاريخي مشارك، فإننا نترك جانباً مسائل المنهجية ونقصر نظرنا على الإشارات إلى طبيعة المصادر التي يمكن أن يعثر فيها على هذه المعطيات اللسانية، ومنذ عهد الاتصالات الأولى في أفريقيا، كان من حسن الذوق أن يضاف إلى أخبار الرحالة الأوروبيين وإلى تقاريرهم المتنوعة قوائم تطول أو تقصر من الألفاظ باللغات المحلية، وترجع المعاجم الأولى إلى القرن

(١١٤) و. ج. ل. رندلس ١٩٥٨.

(١١٥) القاهرة ١٩٢٦ - ١٩٥١.

(١١٦) انظر التعليق ٢ ص ٣٢.

(١١٧) خرائط أفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن الثامن عشر.

الخامس عشر. وحتى القرن التاسع عشر قلما نجد كتابا عن إفريقيا لم يذيل بملحق من هذا النوع مشفع أحيانا بملخص نحوي. وبالرغم من كون الرسم لم يكن دائما منظما، فليس من الصعب أن يوقف على هوية الألفاظ واللغات. وأهم نشرة من هذا الصنف، المجموعة الكبيرة اللغوية الجامعة لنحو ١٦٠ لغة ونشرها كولي (١١٨). وقيمة هذا العمل لا تقتصر على اللسنية كما أظهر ذلك كرتن وفانسينا وهير (١١٩). وكانت مملكة الكونغو القديمة، محظوظة في هذا المجال: فنشرت كتب تتحدث عن الكونغو منذ القرن السابع عشر مثل كتاب نحوبقلم بروشيوطو (١٦٥٩) ومعجم بقلم دي كيل (ت ١٦٥٢) (١٢٠) وعلاوة على هذه المصنفات المطبوعة، يوجد غيرها في مختلف الخزائن الوثائق (الفاثكان، المتحف البريطاني بيزنسون الخ) وقيمتها بالنسبة إلى المؤرخ أكبر من قيمة قوائم الألفاظ المجردة إذ هي أكمل، وهي تمكن من الدراسة في أزمنة مختلفة، لمجموعة المصطلحات الاجتماعية والثقافية (١٢١).

إن المصادر السردية أو الوثائقية المكتوبة باللغات الإفريقية والشرقية أو الأوروبية، تمثل مجموعا ضخما من المواد لتأريخ إفريقيا، فهما كانت الوثائق غزيرة من كل نوع، كالكتب والتقارير المعروفة، فما هي حسب كل احتمال إلا أجزاء من المواد الموجودة، وسواء في إفريقيا أو خارجها، لا بد أنه توجد بقاع عديدة لم تستكشف بعد من وجهة نظر المصادر الممكنة لتأريخ إفريقيا. وهذه المناطق التي لم تستكشف هي الآن «لطخات بيضاء» على خريطة معارفنا لمصادر تاريخ إفريقيا. وبقدرا ما تزول بسرعة تكون الصورة التي سنعطياها عن الماضي الإفريقي أثري وأغنى.

(١١٨) س. و. كوال ١٩٦٣.

(١١٩) ب. د. كرتن وج. فانسينا ١٩٦٤، ب. ي. ه. هير ١٩٦٥.

(١٢٠) كتاب نحوبروسيو، رومة ١٦٥٩، ج. فان ونغ وس. بندرس: أقدم معجم بنتو، معجم ب. جورج جيليس لوفان

١٩٢٨.

(١٢١) استعانة د. أ. أولديروج بكتاب نحوبروسيو لهذا الغرض، وذلك في مقاله القيم «Sistema rodstva Bakongo v XVII»

المشور في: Afrikanskiy etnograficheskiy sbornik III. Moscou, 1959

## الفصل السابع

# المأثور المنقول ومنهجيته

جان فانسينا

ان الحضارات الافريقية في الصحراء الكبرى وجنوبها كانت الى جانب كبير حضارات كلمة، ولو أن الكتابة كانت معروفة في افريقيا الغربية منذ القرن السادس عشر، غير أن معرفة الكتابة كانت وقفا على قلة قليلة من الناس، وكثيرا ما بقي دور الكتابات هامشيا بالنسبة الى مشاغل المجتمع. وقد يكون من الخطأ أن تقصر حضارة الكلمة على نفي «انعدام الكتابة» فقط وان يحتفظ بما يبدية فطريا المثقفون من احتقار للأميين، ذلك الاحتقار الذي يلمس في الكثير من العبارات كما في المثل الصيني: «ان أبهت الخبر أحسن من أقوى كلمة» ويكون ذلك إنكارا تاما لطابع هذه الحضارات الشفاهية. وبحكم على ذلك ما كان يقوله طالب منتم لسلوك باطني: «ان قوة الكلمة رهيبة فهي تقيدنا الواحد بالآخر، وفي افشاء السرها لكانا» (وذلك باهلاك المجتمع اذ هي تفسد السرا المشترك).

## الحضارة الشفاهية

فعلى من أراد استخدام المأثور المنقول، أن يتعمق قبل كل شيء في موقف الحضارات الشفاهية ازاء الخطاب، وهو موقف يخالف تماما موقف الحضارات التي سجلت فيها الكتابة كل الرسائل المهمة. فاجتمع الشفاهي يعلم الكلام الدارج ولكنه يعلم الخطاب الأساسي، تلك الرسالة التي أورثنا أجدادنا اياها، أي المأثور المنقول. نعم المأثور يحدد بكونه شاهدا سلمه شفاهيا جيل الى جيل. ويكاد يكون «اللفظ» في كل مكان قوة سرية، اذا أن الكلمات تخلق الأشياء، وعلى الأقل ان ذلك هو الموقف السائد في معظم الحضارات الافريقية. ولا شك ان الدوكون قد عبروا عن هذه الاسمية أوضح تعبير، ولكننا نلاحظ دائما في المناسك، ان الاسم هو الشيء وان «القول» هو «الفعل».

وتتضمن صفة الشفاهية موقفا إزاء الواقع وليس إزاء نقصان شيء ما وحسب. فبالنسبة إلى مؤرخ العصور الحاضرة وقد غرق في أكوام البلاغات المكتوبة، فصار مرغما على تطوير تقنية تمكنه من القراءة بسرعة ولأنه لا يبلغ الإدراك الكامل إلا بفضل تكرار المعطيات عنها في العديد من البلاغات، وهكذا فإن المأثورات قد تدخل عليه الحيرة. فهي تفتضي بالعكس، العودة المستمرة إلى المصدر. ويلفت الزايري فوكيا والنظر فعلا، إلى أنه من السذاجة أن نقرأ نصا شفاهيا مرة أو مرتين وأن نظن أننا فهمناه، بل ينبغي أن نستمع إليه ونبغي أن نحفظه وأن نستبطنه استبطان القصيدة، وإن نسأله كي يكشف عن معانيه المتعددة، وهذا على الأقل إذا ما كان الخطاب هاما. فعلى المؤرخ إذن أن يتعلم كيف يخفف من السرعة، وكيف يتأمل، ليتوغل خلال تمثيل جماعي أجنبي، إذ أن مجموع المأثورات يشكل ذاكرة جماعية لمجتمع يوضح نفسه لنفسه. وقد عبر عدد من العلماء الأفارقة أمثال أهمياتي بابوبوهاما عن التفكير تعبيرا بلغيا. وعلى المؤرخ أن يبدأ بالاطلاع على طرق التفكير في المجتمع الشفاهي قبل أن يفسر مأثوراته.

### طبيعة المأثور المنقول

يحد المأثور المنقول بكونه شهادة ينقلها شفاهيا جيل إلى جيل من الأجيال التالية. وصفاته الخاصة هي اللفظية والنقل الذي يختلف عن المصادر المكتوبة. ومن الصعب جدا أن نعرف اللفظية، فالوثيقة المكتوبة هي شيء محسوس، هي مخطوط، وأما الوثيقة الشفاهية فقد تحدد بعدة طرق، إذ أن الشاهد قد يوقف شهادته وقد يصلحها وقد يستأنفها الخ. لذا لا بد من بعض الاعتباطية لتحديد الشهادة كمجموعة من كل التصريحات التي صرح بها شخص فيما يخص سلسلة واحدة من الأحداث الماضية، ما لم يحصل الشاهد على معلومات جديدة فيما بين التصريحات. وذلك أنه في هذه الصورة قد يتغير النقل، وقد نجد أنفسنا أمام رواية جديدة، ومن الناس من يعلم روايات تتعلق بسلسلة أحداث مختلفة بأكملها، ولا سيما الاختصاصيون أمثال القصاصين.

ونحن نعلم حالة شخص يروي روايتين مختلفتين في موضوع تطور تاريخي واحد ويقص الرواة الرونديون رواية أولى تذكر أن أول توتسي، سقط من السماء والتقى بالهوتو على الأرض، وفي آن واحد، رواية ثانية تنص على أن توتسي، هوتو كانا أخوين، فهذه روايتان متميزتان، يرويها شخص واحد، في موضوع واحد، ولهذا أدخلت عبارة «سلسلة واحدة من الأحداث» في تحديد الشهادة.

وأخيرا الكل يعلم قضية الراوي المحلي الذي يقص قصة ملفقة مؤلفة من مختلف الروايات التي يعرفها.

والمأثور رسالة تنقل من جيل إلى الجيل الذي يليه، ليست كل المعطيات الشفاهية مأثورات. فنفرق بين الشهادات الشفاهية والتي تصدر عن شاهد عيان، لذا قيمة كبيرة فهي مصدر «مباشر» غير منقول يقل فيه خطر تحريف محتواه، وكل مأثور منقول مقبولا لا بد أن يرجع إلى شاهد عيان، ومن الواجب أيضا، ترك الشائعات التي هي نقل لخبز، إلا أن طابعها الخاص هو أنها تعالج «الأصدا» الجارية. ولذا فهي تدعى في يومنا هذا «إذاعة الرصيف»، وبداخلها من التحريف

ما يجعلها لا تصلح إلا للتعبير عن رد الفعل الشعبي إزاء حدث معين. وهي عنها قد تولد تراثا إذا ما رددتها الأجيال المتتالية، وأخيرا يبقى المأثور الحق الذي ينقل وثيقة إلى الأجيال المقبلة. ويقع منشأ المأثور أما في شهادة العيان أو في الاشاعة أو في خلق جديد انطلاقا من مختلف النصوص الشفاهية الموجودة، بعد عجنها وتنقيحها قصد خلق خبر جديد. ولكن المأثور المعتمد عن شهادة العيان هو وحده الصالح، وقد أدرك مؤرخو الاسلام ذلك ادراكا جيدا، فكونوا طريقة مشعبة للتحقق من الحديث الشريف، هذه الأحاديث التي تعلمها عن النبي مجموعة من أصحابه. ويزداد عدد الأحاديث مع الزمن مما يوجب الغاء ما لم يكن في الامكان اثبات صحة اسناده الواصلة بين العالم الذي سجله كتابة وبين أحد أصحاب النبي. وطور علم التدوين التاريخي الاسلامي بالنسبة إلى كل تواتر، معايير الاحتمال والتصديق بشكل يطابق قوانين النقد التاريخي المعاصر. فهل كان في امكان الشاهد الوسيط أن يعلم المأثور؟ وهل كان في وسعه فهمه؟ وهل كان له فائدة في تحريفه؟ وهل أمكنه نقله؟ ومتى وكيف وأين؟.

ومن الملاحظ أن حد المأثور المعطى هنا لا يتضمن قيودا سوى اللفظية والنقل الشفاهي. فهولا يتضمن فحسب البلاغات التي تريد قصدا أن تقص أحداث الماضي، كاليوميات الشفاهية في مملكة ما، أو شجرات الانساب في مجتمع مجزأ، بل هو يشمل كل النصوص الشفاهية المنقولة عمليا ضمن أدب شفاهي بأكمله. وفي الأدب اشارات ثمينة، بقدر ما تكون شهادات غير مقصودة تتعلق بالماضي، وبقدر ما تكون أيضا مصدرا عظيما لتاريخ الأفكار والقيم والفن الشفاهي. وأخيرا ان جميع المأثورات هي في آن واحد اثر أدبي ينبغي أن ينظر فيه من هذه الزاوية، كما أنه من اللازم أن تدرس الأوساط الاجتماعية التي أنشأته وسلمته إلى غيرها، والنظرة إلى العالم التي يعبر محتواها عن حضارة معينة. لهذا ستعالج الأقسام التالية على الترتيب، النقد الأدبي والنظر في الوسط الاجتماعي، وفي الوسط الحضاري قبل أن تتعرض للمشكل الزماني ولتقويم المأثور تقوينا عاما.

## المأثور، أثر أدبي

ان معظم الأعمال الأدبية هي من المأثورات. وكل المأثورات الواعية هي خطب شفاهية، وكما هو الأمر في كل خطاب، فإن الشكل والقوانين الأدبية تؤثر في محتوى الخبر، وهذا الموجب الأول لكي يوضع المأثور في الاطار العام للنظر في البنيات الأدبية، وكي ينفذ من هذه الوجهة. وأول مشكل هو مشكل الخبر نفسه، فهناك أربعة أشكال أساسية حاصلة من التألف العملي بين مبدئين. فأحيانا تحفظ الألفاظ عن ظاهرها قلب وأحيانا يبقى الاختيار للفنان، وفي بعض الأحيان يخضع نحو اللسان العادي لسلسلة من القواعد الشكلية الخاصة، وأحيانا أخرى لا وجود لهذا الجهاز الاتفاقي.

## الأشكال الأساسية للموثرات الشفاهية

المحتوى			
حر (اختيار الكلمات)	جامد		
ملحمة	قصيدة	مقعد	الشكل
سرد	عبارة	حر	

ولفظ «قصيدة» ماهو الا علامة تدل على جميع المعطيات المحفوظة عن ظهر قلب، المخصصة ببنية متميزة، ويشمل الأغاني.

ولفظ «عبارة» تسمية تشمل غالبا الأمثال والأحاجي والأدعية وقوالم الميراث، أي كل ما يحفظ عن ظهر قلب ولكنه ليس خاضعا لقواعد تركيب خاصة، غير قواعد النحو العادي. وفي كلا الحالتين فالمأثورات لا تشمل الخبر بمفرده، بل تتضمن أيضا الكلمات التي صلت لحمله. ففي الامكان اذن نظريا أن يعاد بناء النموذج أصلي، بالفعل كما يمكن ذلك في المصادر المكتوبة. اذ يمكن بناء قياسات تاريخية، على الكلمات وليس على المعنى العام للخبر فقط. وقد تتعذر بالنسبة الى العبارات وبصفة أقل، بالنسبة الى القصائد، إعادة بناء النموذج، اذ ان الاستكالات تكون متعددة جدا، مثلا اذا ما تعرفنا أن شعار «قبيلة» نشأ عن سلسلة اقتباسات من شعارات أخرى دون أن نتمكن من فرز ما كان يتركب منه النص الأصلي المتميز. وفي الحقيقة يبقى واضحا لماذا يكون الاستكمال سهلا في العبارات، اذ لا قاعدة تحدد هذا العمل.

وبالمقابل فان المصادر الجامدة مبدئيا هي أكثر أهمية، اذ هي أدق من ناحية النقل. وعمليا فإن عدد هذه المصادر التي تقوم بنقل المعطيات التاريخية بأمانة عدد قليل. وبالطبع نجد هنا ألفاظا قديمة لا تفسر أحيانا. وقد نعر على مدلوها في صورة لغات البنتو، ذلك لأن الفرص كبيرة، تلك التي توفرها لغة مجاورة تحتفظ بلفظ، جذره عين جذر اللفظ القديم المدروس. وفيما عدا ذلك نضطر الى الأخذ بشرح الرواية الذي يكون نقل شرحا تقليديا... أو يكون استنبطه، ومن المقلق أكثر من ذلك أن يختلط هذا النوع من التصوص بتلميحات شعرية وبتشابه غامضة وبكت تتحمل معاني متعددة. فلا يمكن أن يفهم النص المستغرق بدون شرح، بل أكثر من ذلك، في غالب الأحيان، فان صاحبه وحده هو الذي يكون ملما بكل دقائقه. ثم أنه لا ينقل كل شيء من الشرح المفسر للنص بكيفية تتفاوت صلاحية، وقد ينقل في آن واحد مع القصيدة نفسها.

وهذه الخاصية منتشرة جدا، ولا سيما بالنسبة للقصائد أو الأغاني المدحية الافريقية الجنوبية (تسوانا، سوتو) والافريقية الشرقية (منطقة ما بين البحيرات) والافريقية الوسطية (لوبا كنفو) أو الافريقية الغربية (ايجو).

ولفظ «ملحمة» تسمية، مدلوها أنه داخل اطار مفروض من القواعد الشكلية كالقوافي، والأنماط التابعة للمقام ولطول المقاطع الخ، يحتفظ الفنان لنفسه باختيار ألفاظه. ولا ينبغي أن يختلط هذا بالقطع الأدبية ذات الاسلوب الحماسي الطويلة المدى، كأخبار سندجاتا ومر يندو



(الزايير) وغيرهما كثير. ففي الغرض المقصود هنا يشمل الأثر، علاوة على الخبر، الاطار الشكلي لاغير، على أنه أحيانا توجد في أبيات متميزة على سبيل الحشو أو لتذكير الفنان بالاطرار والقالب الشكلي. ومن المحتمل أن بعض هذه الأبيات تعود الى عهد انشاء الملحمة، فهل توجد ملاحم من هذا النوع في افريقيا؟ اننا نرى الجواب بالايجاب ونظن أن بعض الأغراض الشعرية بروندا على الخصوص، تدخل في هذا الصنف، وكذلك منشود الأمثال الفنگ (كامرون - غلبون)، ثم اننا نلاحظ أنه نظرا لكون اختيار الالفاظ باقيا حرا، فليس في الامكان أن يعاد بناء انموزج حقيقي لهذه الملاحم. ولكننا نضيف في الحال، أن متطلبات الشكل تكمن في احتمال أن يرجع قالب «الملحمة» الى أصل وحيد. وتدل على ذلك في الغالب دراسة الروايات المختلفة.

بقيت «الروايات» وهي تشمل غالب الوقت أخبارا تاريخية وإعية. ان الحرية المتروكة هنا للفنان تمكنه من عدد من التأليفات، ومن التنقيحات المتعددة، ومن إعادة تنظيم المشاهد ومن التمديد في الأوصاف وتحليل المواضيع الخ.. و يكون اذن من الصعب أن يعاد بناء انموزج. فحرية الفنان كاملة، لكن من وجهة النظر الأدبية فقط: وقد يفرض عليه الوسط الاجتماعي أحيانا أمانة قاسية إزاء المصادر. ورغم العوائق المذكورة فانه في الامكان أن يكشف عن الاصل المجهن للتراث، بجمع كل رواياته بما فيها مما لا يعتبر تاريخيا وباللجوء الى روايات صادرة عن الشعوب المجاورة. وقد ننزل هكذا دون أن نشعر من الأمر التاريخي الى العجيب، ولكننا نتوصل أيضا الى حذف سلسلة من الروايات الشفاهية التي لا يرجع فيها الى شاهد عيان. وهذا نقد أساسي لا بد من تطبيقه.

وكل أدب شفاهي له تقسيمه الخاص الى أغراض أدبية، فالمؤرخ يعني بالتعرف ليس فقط على ما تمثل هذه الأغراض بالنسبة للحضارة المدروسة، بل على الأقل سيجمع عينة ممثلة لكل منها، اذ من المتوقع في الأغراض أن توجد معطيات تاريخية، وما يهتم به بصفة خاصة من المأثورات يكون أقرب للفهم في الاطار العام. و يأتي التصنيف الداخلي بارشادات نفيسة. وسوف يكشف هل ان مروجي هذه النصوص يقيمون حدا، مثلا بين الأخبار التاريخية وغيرها. وأخيرا ان الأغراض الأدبية خاضعة لمواضع أدبية ينبغي الاطلاع عليها كي يفهم معنى النص الحق، وليس الأمر هنا القواعد الشكلية، بل اختيار الالفاظ والعبارات والسوابق الغير المألوفة ومختلف الجوازات الشعرية. وينبغي أن يلفت النظر بخاصة الى الالفاظ أو العبارات ذات الاصدااء المتعددة، ثم ان الالفاظ «المفاتيح» المرتبطة أو ثل الارتباط بالبنية الاجتماعية وبتصور العالم وهي عمليا لا تقبل الترجمة، يجب تأويلها من خلال شبكة السياق الادبي الذي تظهر فيه.

وليس في الامكان أن نجمع كل شيء، فالمؤرخ يضطر الى قبول المتطلبات العملية وسيقتيد بها — مع كامل الوعي بذلك — اذا ما حصل على عينة تعبر عن الأغراض الادبية.

وفما يخص الروايات فان قائمة بأصناف المرويات التابعة للجنس المدروس أو لغيره، هي وحدها الكفيلة بالكشف عن التشابه أو العبارات المحبة. بل أيضا عن المشاهد المحجرة مثلا في العلاقات التي يمكن أن توصف «بالخرافات الهجرية» (واندرساغن). وثمة رواية من لوبا على ضفاف بحيرة طنقانيكا تصف كيف تخلص بعض الامراء من آخر باستدعائه الى الجلوس على حصير قد حفر من تحته بئرا غرست فيها أوتاد مدببة، فجلس الضيف ولقي حتفه. و يوجد عين السينار يوفي

مناطق البحيرات العظام حتى المحيط، بل أيضا حتى لدى الفلانيين من لبتاكو (فولطا العليا) كما لدى الهوسا (نيجيريا) والموسي في باطنغا (فولطا العليا). وقيمة هذه الصور الرواسم واضحة. ومن سوء الحظ أنه ليس لدينا أي مرجع في موضوعها، ولو أن هـ. بومان يبدنا بارشادات عن سلسلة من الرواسم المتعلقة «بالاصول» (١) ويبدولنا من الضروري اعداد فهارس عملية للبحث عن هذه الصور المتحجرة. ففهارس الأغراض الشعبية صعبة الاستعمال، غامضة لأنها تعتمد على أوصاف صغيرة اختيرت اعتباطا، بينما يمثل المشهد في المرويات الافريقية وحدة طبيعية في مصنف ما. فإذا وجدنا روسيا من هذا النوع، فليس من الحق أن يرمي بكل الأثر أو حتى بالجزء الذي وجدت فيه هذه اللقطة على أنه غير صالح، بل يجب أن يفسر لماذا استعمل هذا الروسم، والمثال المذكور يوضح فقط أن رئيسا ما تخلص من رئيسا آخر، ولكنه يضيف شرحا اصطلاحيا يروق للمستمعين. وسيلاحظ في الغالب أن هذا النوع من الرواسم يدعم تفاسير وشروحا على معطيات قد تكون صالحة.

والنقد الأدبي بمعناه الصحيح لا يهتم بالمعاني اللفظية والمعاني التي يقصدها الأثر فحسب، بل كذلك بالضغوط المفروضة على عبارة الخبر بسبب المتطلبات الشكلية والاسلوبية. وهو سيقوم اثر التحريف الجمالي، ان كان موجودا، وهذا ما يحصل غالبا. وفي الواقع حتى رسائل الماضي يجب أن لا تكون شديدة الازعاج. وهنا تكتسي ملاحظة التمثيلات الاجتماعية الخاصة بالمأثور أهمية أساسية. ونحن نقول «تمثيلات» لا «نسخا» إذ في معظم الحالات يلعب العنصر الجمالي دورا. فإذا ما تفوقت العلامات الجمالية، على أمانة النسخ ينتج عن ذلك تحريف جمالي عميق يعكس ذوق الجمهور وفن الأديب التقليدي. وحتى في غير ذلك من الحالات فاننا نجد غالبا اصلاحات للنصوص تصل الى إكساء المأثورات ذات المحتوى التاريخي المدقق، كسوة القوانين الفنية الجاري بها العمل. ففي المرويات مثلا يرتب العقدة الأساسية سلسلة من المشاهد توصل الى القمة، بينما يمثل غيرها اعدادات موازية، ومع ذلك فان غيرها أيضا ما هو الا معابر ينتقل الخبر فيها من درجة الى أخرى. وبصفة عامة يمكن أن نقبل أنه كلما اقترب نص من النموذج المتوقع الرائق للجمهور، كلما ازداد انحرافا. ومن بين سلسلة من الرويات، فان الرواية الصحيحة تتميز بكونها تسير على عكس النموذج، كما أن الرواية التي تناقض الوظيفة الاجتماعية للمأثور، من المحتمل أن تكون أصح من غيرها. ولا ننسى هنا أنه ليس كل فناني الكلام جيدين. فمنهم من هوسيء وسيكون نصيب روايته دائما الخيبة. ولكن موقف الجمهور وهو في هذا كتركيب تمثيلية ليس حدثا فنيا فقط بل هو قبل كل شيء حدث اجتماعي، وهذا ما يفرض علينا أن نعتبر المأثور في وسطه الاجتماعي.

## الاطار الاجتماعي للمأثور

ان كل ما يراه المجتمع مهما لحسن سير منظماته ولتفهم الأوضاع الاجتماعية والوظائف المنوطة بها تفهها حسنا، ولحقوق كل شخص وواجباته، كل ذلك ينقل باتقان. ففي المجتمع الشفاهي يتم ذلك بالرواية، بينما في المجتمع الكاتب لا يترك للرواية سوى الذكريات الأقل أهمية. وهذا ما أوقع طويلا المؤرخين في الخطأ، اذ ظنوا أن الروايات ضرب من حكايات بيرو ومن أناشيد تنويم الأطفال أو الألعاب الصبائية.

لكل مؤسسة اجتماعية ولكل مجموعة اجتماعية أيضا هوية خاصة يتبعها ماض مسجل في التمثيلات الجماعية لتقليد يفسرها ويبررها. ولهذا يكون لكل مأثور «سطحه الاجتماعي» حسب تعبير هـ. مونيرو. فلولا سطحه الاجتماعي لانقطع المأثور عن الانتقال، وأصبح غير ذي وظيفة، فيفقد مبرر وجوده وتهمله المؤسسة التي تشده.

وقد يميل إلى اتباع بعض ممن ظنوا أنه في الامكان أن يتكهن بلامح الجمهور من خلال المأثور التاريخي لمجتمع معطى، انطلاقا من تصنيف الجماعات إلى أنماط، أمثال «دول» «مجتمعات فوضوية» الخ. فلئن صح أنه يمكن تصنيف سلسلة المجتمعات الأفريقية تصنيفا تقريبا إلى أنماط من هذا النوع، فليس من الصعب أن يبرهن أن هذه النموذجية في وسعها أن تنابع إلى مالا نهاية، اذ يختلف كل مجتمع عن غيره، عدا أن المعايير المستعملة هي اعتبارية محددة. فلا وجود لدولتين متطابقتين أو حتى متشابهتين بالتفصيل. وتوجد فروق عظيمة بين الخطوط العظمى لتنظيم مجتمعات مساي (كينيا - تنزانيا) وإمبو (كينيا) وورو (كينيا) وكالا (كينيا - اثيوبيا) ولو أنه في وسعنا أن نصنفها جميعا كمجتمعات «ذات فئات أعمار» وهي كائنة في جزء واحد من أفريقيا. وإن أردنا أن نتخذ كمثال مجتمعا منعوتا «بالفوضوي البسيط» يشتمل على جماعات صغيرة ترتبط بقرابات متعددة، فقد يكون مجتمع الكورو (ساح العاج) مثالا حسنا لذلك. ونتوقع هنا «ملامح» للمأثور لا تحتفظ إلا بتواريخ الانساب والأجيال، ونجد فعلا تلك التواريخ. ولكننا نجد أيضا تاريخا باطنيا ينقله مجتمع سري. ولئن أخذنا مثال الكونكا الطونكا بزامبيا، فإنا نجد من جديد تاريخ النسب، ولكن في الوقت نفسه نجد تاريخ مراكز المناسك التي يحركها «الممطرون». فما من مجتمع من هذا الصنف لا توجد فيه مؤسسة رئيسية «غير متوقعة». والمثال النهائي للدول، هو مثال مملكة باتيكبي (طيو)، حيث لا ترجع التقاليد الملكية إلى أكثر من جيلين، بينما يفترض أن تكون للمالك تقاليد قديمة جدا. ثم اننا ونحن نجتمع المأثورات من الرموز السحرية للاسياد. نطلع بعيدا في الزمن أكثر مما نطلع إذا نحن تتبعنا الرموز المتعلقة بالرمز الملكي.

والتعميمات السريعة ليست في محلها. وإنما تعين لاحقا «ملامح» مجموع المأثورات المعطاة. ومن الواضح أن ما تقوم به المأثورات من وظائف تعمل على تحريفها، ولو أنه ليس في الامكان أن يوضع سجل كامل للوظائف، اذ أن مأثورا ما في امكانه أن يقوم بعدة وظائف، وأن يلعب دورا مدققا أو غامضا بالنسبة لما يقوم به من وظائف. ولكن السبب الرئيسي هو أن لفظ وظيفة فيه لبس، فيستعمل في غالب الأحيان للتعبير عن كل ما من شأنه أن يقوي المؤسسة التي يتبعها أو أن يحافظ عليها. ونظرا لكون الرابط غير محسوس، فقد يوفر الخيال قائمة الاختيار بينها. على أنه في الامكان أن يميز بعض المأثور وذلك «كالمواثيق الاسطورية» تلك التواريخ الخاصة بعائلات الملوك

والانساب وقوائم الملوك التي يمكن اعتبارها حقا، كدساتير غير مكتوبة. ويمكن افساح هذا الصنف بأن يضم اليها كل المآثور المتعلق بالأغراض القضائية العامة، كالذي يعمم الحقوق العامة على نطاقات. وهو عادة مأثور رسمي، بمعنى أنه يدعي الصلاحية المطلقة للمجتمع. وأما المآثورات الخاصة المقترنة بمجهر أو مؤسسات تنضوي تحت غيرها، فقد تحفظ حفظا أقل، إذ هي أقل قيمة، ولكنها غالبا أصدق من سواها. على أنه يجدر أن يشار إلى أن المآثور الخاص هو رسمي بالنسبة إلى الجمهور الذي ينقله، فتاريخ أسرة من الأسر تاريخ خاص بالنسبة لتاريخ الدولة كلها، وما من شأنه أن يتضمن أمورا عن الدولة لا يقبل المراقبة من الدولة بقدر ما يقبله المآثور العام الرسمي. ولكن المآثور الخاص يكون رسميا داخل الأسرة، وفي كل ما يخص الأسرة ينبغي أن يمارس هكذا. فن المفهوم إذن أنه ليس مفيدا أن يستعمل المآثور العائلي أو المحلي لتوضيح نقط من التاريخ السياسي العام. وشهادته من شأنها أن تحرف أقل من غيرها فتمكن من مراقبة التصريحات التي ينص عليه المآثور الرسمي مراقبة ناجعة. وبالعكس فلان الأمر بهم «تحت مجموعات» فإن عمق نقله والعناية به كثيرا ما يكونان غير مرضيين، كما تدل على ذلك روايات متعددة.

ومن الوظائف الأخرى المتداولة نذكر باختصار الوظائف الدينية والطقسية (كيفية القيام بالشعائر) والوظائف القضائية الخاصة (السوابق)، والوظائف الجمالية والتعليمية والتاريخية، ووظيفة شرح نص سري، وما يسميه علماء الانثروبولوجيا بالوظيفة الاسطورية.

فإذا ما وضعنا الوظائف في جهة والغرض الأدبي في جهة أخرى، أمكننا أن نكون للمؤرخ نموذجية صالحة تجعله قادرا على القيام بتقويم عام للتحريفات المحتملة التي تحملتها مصابره، مع اعطائه ارشادات عن نقلها. وإذا ما اقتصرنا على النماذج التي أنتجها هذا التصنيف، فبوسعنا أن نميز الأسماء والالقباب والشعارات أو الرموز والعبارات التقليدية والعبارات التعليمية (الأمثال) وقوائم أسماء المكان وأسماء الأشخاص والانساب الخ. وفي كل ذلك فإن الأمر يتعلق «بعبارات» ينظر إليها من خلال الشكل الاساسي. فالقصائد التاريخية والمدائح والشعار الدينية أو أشعار المناسبات الالتهالية أو الشخصية (الغنائية أو غيرها) والأغاني من كل الانماط (لتنويم الأطفال، وأغاني الشغل، والصيادين والقذافين، الخ...) كل ذلك «قصائد» من وجهة النظر هذه. و«الملحمة» كشكل أساسي تتمثل في بعض القصائد التي تقابل ما يسمى عادة بهذا الاسم. وأخيرا تشمل «القصة السردية» الأخبار العامة، التاريخية أولا، والأحاديث المحلية والعائلية والمحمية والباحثة عن أسباب الأمراض والجمالية والذكريات الشخصية. ويضاف إلى ذلك هنا السوابق القانونية التي قلما تنقل بواسطة الرواية الشفاهية، وشروح النصوص والمذكرات والأحاديث العرضية، وهي أساسا أجوبة مختصرة عن أسئلة كهذه: كيف توصلنا إلى زراعة القطن؟ من أين أتى قناع الرقص؟ الخ...

من القائمة السابقة نشاهد في الحال ما يمكن أن يكون العمل المتحرف لمؤسسة من المؤسسات على كل هذه النماذج. على أنه يجب أيضا أن يبين أن هذا العمل تم بالفعل أو أن احتمال التحريف فيه قوي جدا. وقد نصل أحيانا إلى أن نظهر مآثوراتنا صالحة حقا لكونها لا تخضع للتحريف المتوقع — مثلا، هذا شعب يدعي «أصغر» من آخر، أو أن يومية ملكية تفرهزمة، أو تلك العبارة التي من شأنها أن تفسر الجغرافيا الطبيعية والبشرية لبلد ما لم تعد تنطبق على الواقع الحاضر. ففي كل هذه

الحالات يبين التحليل صلاحية الأثر لكونه قاوم عملية التسوية.

زعم كودي وواط في كتابهما الخاص بظاهرة الكتابة، أن المجتمع الشفاهي يقوم دائما وتلقائيا بعملية انضباط ذاتي تمحو من الذاكرة الجماعية — ومن ثم عبارة سهو بنيوي — كل تناقض بين المأثور وبين سطحه الاجتماعي، وتدلل الأمثلة السابقة على أن هذا الانضباط ما هو إلا جزئي، ولذا لا يمكن أن نرفض رفضا اجماليا قيمة المأثورات التاريخية بدعوى أنها تتخذ بعض الوظائف، ويتبع ذلك أيضا أنه من الواجب أن يُجرى نقد اجتماعي دقيق لكل أثر من المأثورات.

ويزعم هذان المصنفان في عين الكتاب أن ثقافة المجتمع الشفاهي متجانسة، أي أن محتوى المعلومات في مخ كل مراهق هي ذاتها تقريبا. وليس ذلك صحيحا تمام الصحة، فالاختصاصيون الصناع والسياسيون ورجال الدين يعلمون عدة أشياء لا يعلمها معاصروهم من بين جنسهم، ولكل جنس مفكره، فلدى الكوبا (زاير) مثلا، وجدنا ثلاثة أشخاص انطلقوا من نظام واحد من الرموز، فبلغوا ثلاث فلسفات متباينة، ونظن أن الأمر هو ذاته عند الدوكون. وفيما يخص التراث فانا نلاحظ في عدد كبير من الجماعات وجود تراث باطني سري من نصيب جماعة صغيرة، في نفس الوقت عدا تراثا باطنيا عموميا. فأسرة أشنتي المالكة مثلا كانت تعرف خبرا سريا عن أصلها، بينما لم يكن في متناول الجمهور العظيم إلا الرواية العامة. وفي رواندا كان الاختصاصيون بإيرو وحدهم يعلمون شعائر الملك، ومع ذلك كان من اللازم أن يلتصقوا جميعا لتكون معرفتهم كاملة، إذ لم يكن بين يدي كل جماعة بإيرو إلا جزء منها. وفي معظم الحفلات التذكارية التاريخية في نيجيريا كما في معظم تقاليد الملوك في أفريقيا، توجد أعمال وتقاليد سرية. فهل يعني ذلك أن المأثور السري هو حتما أصح من المأثور الظاهر؟ إن الأمر تابع للسياق، فقد يحرف المأثور السري نفسه لأسباب قاهرة خصوصا وإن الهيئة التي بيدها الجماعة أساسية في المجتمع. ولنلاحظ هنا أننا بالتجربة لا نعرف إلا القليل من المأثور الباطني، إذ أن النظام القديم الذي تمتد فيه جذوره لم ينقرض تماما. وما نعرفه منه منشؤه المجتمعات التي انقلبت حتى أعماقها. ولا شك أن الكثير من هذا المأثور سيفتح دون أن يتمكن المؤرخ من جمعه. ولكننا انطلاقا من التنف التي بين أيدينا نستطيع مع ذلك أن نؤكد أن بعض المأثور الأوكبوني من بلاد ياروبا قد حُرف إلى حد أنه لم يعد يؤلف خبرا صالحا عن أصول الأوكبوني. بينما يبدو البايرو مثلا أكثر صلاحية، وليس منشأ ذلك طابعه الباطني بل هدف هذه المأثورات، فالأول يبرر سلطانا قويا في يد جماعة صغيرة من الناس، والثاني ما هو إلا حفظ شعائر عملية داخل الذاكرة.

ولكل مأثور سطحه الاجتماعي. فللحصول على المأثور التابع له وللنظر في قيمة نقله، ينبغي للمؤرخ أن يعرف إلى أقصى حد ممكن هذا المجتمع. فعليه أن يفحص مؤسساته كلها للوقوف على المأثور، تماما كما يفحص كل الأغراض الأدبية كي يكتشف فيها المعطيات التاريخية. ففي يد الجمهور المسير للمجتمع المأثور الرسمي، وغالبا ما يتم نقله بواسطة إخصائين يستعملون طرقا مقربة للذاكرة (غالبا الغناء) ليتذكروا نصوصا، عليهم حفظها. ويراقبهم أحيانا زملاء لهم عند تلاوتها في مجلس خاص، وعند التباري بين العموم أثناء احتفال عظيم. ولكن الإخصائين ليسوا دائما مقيدين

بالسلطة، وكذلك الشأن بالنسبة لعلماء الأنساب وطبالي الرؤساء أو الملوك وحراس القبور (٢) وكهنة المعتقدات القومية. ويوجد أيضا إخصائيون من مستويات أخرى. فعند الكسوزا (افريقيا الجنوبية) وجد نسوة إخصائيات في فن التمثيل للأخبار المسلية تتسومي — وبحوارهن نسوة أخريات يحسن هذا التمثيل أيضا ولكنهن لم يجعلن منه اختصاصا. وهذا الأمر متداول في الحفلات الشعبية، وأحيانا يكون بعض القائمين بالأعمال الدينية من الإخصائيين في المآثور المنقول: فحراس مهندوروشونا (روديسيا) مثلا يعرفون تاريخ الارواح التي انتدبوا لحراستها. وأخيرا فإن بعضهم من رواة الشعر كالسحرة يجمعون المآثورات من كل المستويات ويمثلون النصوص الاصطلاحية أما مستمعين مناسبين في ظرف معين: عرس، موت، حفل عند الرئيس الخ. وقلما توجد صورة لا اختصاص فيها حتى في مستوى تاريخ الأراضى أو الأسرة، فهناك دائما أفراد من مستوى عال اجتماعيا (مثلا الأبشكا تنابي في البدرندي في مسائل الأرض)، أو ممن له مواهب أحسن يترك لهم السهر على حفظ المآثور وعلى نقله. وفي النهاية هناك صنف أخير من الناس أحسن علما (ولا نحرؤ على استعمال لفظ إخصائيين) هو صنف الذين يسكنون بحوار المواقع التاريخية الهامة. فهنا الحياة وسط المنظر نفسه الذي شاهد معركة مثلا تكون وسيلة لادخار التراث في الذاكرة.

فتفحص السطوح الاجتماعية، يمكن من الكشف عن المآثور الموجود ومن وضعه في سياقه، ومن إيجاد الإخصائيين الذين ينقلونه، ومن النظر في نقله. كما يمكن من العثور على اشارات نفيسة عن تردد التمثيلات نفسها وشكلها. ان التردد معيار صدق النقل، فعند الدوكو (مالي) لا تنقل مناسك السيجي إلا مرة كل ستين سنة تقريبا. وهذا مما يساعد على النسيان، وقلما شاهد انسان مرتين السيجي وفهم هويته، المرة الاولى حتى يتمكن من مسيرة الثانية، ولا يتمكن من ذلك إلا أشخاص عاشوا ٧٥ سنة على الأقل، ومن المفروض أن محتوى السيجي وما يلي من تعليم، يتغير تغيرا أشد من أي شكل من أشكال المآثور، ومثال ذلك شكل حفل سنوي في نيجيريا الجنوبية.

ومن جهة أخرى فإن تكريرا كبيرا لتمثيلية لا يعنى بالضرورة ان صدق النقل كان كبيرا أيضا. فهذا يتبع المجتمع. فإذا كان المجتمع يتصف بصدق دقيق جدا. فإن التكرار يساعد عليه، وذلك الشأن في العبارات السحرية كتلك التي يتفوه بها لدفع السحر مثلا. فبعض العبارات مبهون (زايير) لطرد المطر تحل في اطار جغرافي عتيق جدا، بحيث لا وجود الان لاي عنصر يذكرك فيها في بلاد مبهون الحالي. وبالعكس اذا كان المجتمع لا يعبر أي أهمية لصدق النقل، فتكرار التمثيل الكبير يفسد النقل بكيفية أسرع من التكرار الصغير. وهذه حال الأغاني الدارجة وبخاصة الروايات الشعبية الأكثر وضوحا، على أنه يمكن، بل يجب أن يراقب كل ذلك بدراسة الروايات المجموعة، ويكون مداها قياسا مباشرا لصدق النقل.

و يسدو أن التغيرات تقع دائما في اتجاه يقوى الارتباط بين المؤسسة والأثر الذي يتبعها. وهكذا فإن كودي وواط لم يكونا مخططين تماما، فإذا ما وجدت روايات وإذا ما اصطفت على محور معين، فلسوف نستنتج ما كان منها أقل تنسيقا مع الهدف، ومع وظائف المؤسسة الأكثر صلاحية. ثم إنه قد

(٢) على أنه في بعض البلدان يمثل هؤلاء جزءا لا يتجزأ من الفئة المسيرة، مثلا فيما يخص البند — نابا (رئيس الطبول) عند الموسي.

يدل على أن أثرا ما غير صالح، سواء في حال ما اذا فقدت الروايات، وما اذا صار الأثر محجرا من نوع «أتينا كلنا من (س)» وان (س) موافق تماما لحاجيات المجتمع أو في حال تباين الروايات تباينا، كما في الأخبار الشعبية، بحيث نكاد لا نعرف على ما يتكون منه الأثر وما يميزه على غيره. فيصير من الواضح اذاك أن معظم الروايات هي من صنع يتفاوت جدة، عن أخبار شعبية أخرى. ولكنه في كلتا هاتين الحالتين القصويين يجب التمكن من البرهنة على أن فقدان الروايات يقابل حقا معلومات قوية للمجتمع، كما أن تكاثر الروايات يقابل حقا أغراضا جمالية أو تسليات تحل محل كل اعتبار آخر. ويقتضي أن نتمكن من البرهنة، على أن مصادرات الحضارة غير الواعية هي التي عملت على تجانس الاثر الى حد تحجيره في روم لا تنوع فيه. وهذا هو فعلا تأثير الحضارة الذي يجب النظر فيه الآن بعد قيامنا بالنقد الاجتماعي.

## الاطار الذهني للأثر

نعني بالاطار الذهني التمثيلات الجماعية اللاواعية للحضارة ما والتي تؤثر في كل عباراتها وتكون في آن واحد نظرتها للعالم. ويختلف هذا الاطار الذهني من مجتمع الى آخر، وعلى مستوى سطحي فاننا نجد بسهولة جزءا من هذا المجموع، ونحن نتفحص محتوى المأثورات بأكملها، بواسطة النقد الأدبي الدراسي، وبمقارنة هذا المجموع بسائر مظاهر الحضارة ولاسيما الرمزية منها. فالأثر، وبخاصة عندما يكون بصورة قصيدة أو قصة، يرتفع الى المثالية، وهو يخلق صورة مثالية. ويميل كل تاريخ الى أن يصير نموذجا وبالتالي اسطوريا. سواء أكان محتواه «حقا» أم لا. وهكذا نجد أنماطا من السلوكات المثالية وقيما، وليس من الصعب كثيرا أن نكتشف أن في التراث الملكي يصير الافراد محجرين كما في أشرطة الوستارن؛ فهذا الملك «الساحر» وذلك السلطان «العادل» وذلك «بطل الحرب»: وفي هذا ما يحرف المعطيات اذ قد تنسب سلسلة من الحروب مثلا الى ملك محارب بينما تمت معاركها في الواقع على يد غيره، ثم ان كافة الملوك يشتركون في سمات تعكس فكرة الملكية المثالية، وليس من الصعب أيضا أن نجد تحجيرا لشخصيات مختلفة، ولا سيما الزعماء، في مجتمعات أخرى. وذلك مثل «البطل الشقي» الذي يحول الفوضى الى نظام اجتماعي والذي نلقاه في كل مكان. وتحجير الفوضى يتمثل حينئذ في وصف عالم انقلب بالضبط رأسا على عقب. فعند الايجالا (نيجيريا) ان بعض المنشئين صيادون والبعض الآخر من سلالة الملوك، فيمثل البعض الأول انموذج الوضع المكتمل، ويمثل الثاني الوضع الوراثة، وقد يفسر (التأمل وجود الوضعين وهو يوحي كما لاحظنا أن التحجير الأول يحجب المجموع الجديدة عن السلطة وان التحجيرين يعكسان وضعين تاريخيين متباينين حقا.

ولكن الشرح المرضي حقا يجب أن يوصل الى استنباط كل نظام القيم والأمثلة المرتبطة بأوضاع وأدوار هي قواعد كل عمل اجتماعي وكل نظام عام. وكان من اللازم أن تنتظر السنوات الأخيرة كي يجد ماك كافي لدى أهل الكنگو (زاير/الجمهورية الشعبية الكنگولية) نظاما متحجرا بسيطا يعتمد أربعة أنظمة مثالية: الساحر والكاهن والرئيس والنبى، وهي أوضاع تكاملية، والتعرف على أن قيمة عامة هي ايجابية أو سلبية أمر يسير، وتذوق الكرم ورفض الحسد على أنه علامة سحر ووظيفة القدر، كل تلك قيم تشاهد مباشرة في تقاليد خليج البنين، كما في البلدان الواقعة بين البحيرات

أيضا. ولكن القيم تكشف واحدة واحدة كنظام منسجم يشمل كل التمثيلات الجماعية: إذ أن القيم والمثاليات لا تصنف الا مثلا للسلوك الأفضل، أو أحيانا السلوك الواقعي الصلف، ومن شأنها أن تهدي السلوك الواقعي، وما يرتجى من كل فرد من الأدوار... والأدوار مرتبطة بالأوضاع وهي ترتبط بالمؤسسات والكل يكون المجتمع. وهكذا فنظر يا يجب أن «يفكك» المجتمع للوقوف على أنماط عمله وعلى مثله وقيمه. و يقوم المؤرخ بذلك غالبا دون أن يشعر وبكيفية سطحية، وهو يتجنب ما اتضح من الافخاخ ولكنه يعود بسهولة دون أن يعلم، الى المقدمات التي يفرضها النظام بأكمله. ولا يوفق في «قلع» مصادره من وسطها. ونحن نعلم ذلك جيدا إذ قضينا ثمانية عشر عاما في الكشف عن علاقات من هذا النوع، في تحوير المأثورات التي أصلها قبيلة كوبا بالزاير.

ومن التمثيلات الجماعية التي تؤثر أكبر تأثير على المأثورات نذكر خاصة سلسلة من المقولات الأساسية تتقدم على تجربة الحواس وهي مقولات الزمان والمكان والحقيقة التاريخية والسببية. ويوجد غيرها كمثل تقسيم الطيف الى ألوان، وهي أقل قيمة، وكل شعب يقسم المدة الى وحدات، اما استنادا الى النشاط البشري المرتبط بعلم البيئة، أو الى النشاط الاجتماعي المستقرا (الزمان البنوي) وكلا الشكليين من الزمان استعمل في كل مكان، كالفصل بين اليوم والليل، وتقسم اليوم الى أجزاء بتقابل الشغل أو الوجبات الغذائية، وجعل النشاط مرتبط بارتفاع الشمس كما أخذت أصوات بعض الحيوانات لتقسيم ساعات الليل الخ.

ويحدد عادة الشهر (القمرى) بالبيئة وما يتبعها من نشاط، وكذلك الفصول والسنة. وفيما بعد ذلك يصير من اللازم أن يتم العد بواسطة الوحدات البنوية للزمان، وفيما أقل من ذلك يحدد الاسبوع بالتواتر الاجتماعي، بسير دورية الأسواق وهي تقرن كذلك بدورية دينية في الكثير من الحالات. وفيما وراء السنة يكون العد بتلقين ديني، أو بطبقات العمر أو بمدة الملك أو بالجيل. وفي التأريخ العائلي قد تتبع الولادات وقد يستعمل تقويم بيولوجي، وبصفة مهمة قد يتم الرجوع الى أحداث استثنائية كاجتماعات الكبرى والجوائح الحيوانية أو الأوبئة المشهودة، أو ذوات الذنب أو لاحتياجات الجراد، وبالطبع ان هذا التقويم المبني على الكوارث ليس منتظما في مسيرته، ولأول وهلة قد تبدو قليلة الفائدة بالنسبة الى التأريخ، بينما يلوح أن الأحداث المستقرة تعد بامكانية تحويل التأريخ النسبي الى تأريخ مطلق، اذا ما علم تكرار الأجيال وأصناف العمر ومدد الملك الخ...

والعمق الأقصى للزمان الذي وجدته من جديد الذاكرة الاجتماعية يتبع مباشرة المؤسسة المرتبطة بالمأثور، فكل منها عمقه الزماني الخاص، ولا يرجع تاريخ العائلة الى بعيد، إذ أن الاسرة لا تعد سوى ثلاثة أجيال، وانه في الغالب لا فائدة كبرى في تذكر الأحداث السابقة، فالمؤسسات التي تشمل أكثر عدد من الناس، لديها الحظ الأوفر لكي تدفعنا الى الغوص في الزمان الى أبعد مدى. ويحقق ذلك فيما يخص القبيلة، والنسب الأقصى وصنف العمر من نوع «ماساي» والملكية. وفي السهوب السودانية فان تقاليد الممالك والامبراطوريات بتكرور وغانة ومالي، التي عالجها المؤلفون العرب والسودانيون تصل حتى الى القرن الحادي عشر. على أن المؤسسات كلها تكون محددة أحيانا، بنفس مفهوم عمق الزمان، كما هو الأمر عند البتيكي (الجمهورية الشعبية الكونغولية). حيث يرجع الكل الى جيل الأب أو جيل الجد. ويدخل الكل في باب الزوج والفرد، فالفرد يقع في زمان «الآباء» والزواج في عهد «الأجداد» بما في ذلك التأريخ الملكي.



ويبين هذا المثال أن فكرة شكل الزمان مهمة جدا. ففي منطقة ما بين البحيرات تعترضنا فكرة الزمان الدورية. ولكن حيث أن الأدوار تتعاقب فإن هذا المفهوم يؤدي إلى الحلزونية، وفي منظور آخر للمجتمعات عينا غير فترات، وعلى الخصوص فترة الفوضى والفترة التاريخية. وفي بلدان أخرى كما عند البتيكي، فإن الزمان ليس خطيا، وهو يتأرجح بين أجيال متعاقبة، ولا يخفى ما لذلك من النتائج في عرض المأثورات.

وأما أن يكون تصور المكان ذا أهمية، فإنه في هذا السياق أقل وضوحا. ولكننا غالبا نميل إلى جعل أصل شعب من الشعوب في مكان أو في اتجاه التقويم: اتجاه «مقدس» أو «علماني»، حسب ما يظن من أن الإنسان يسير من المقدس إلى العلماني أو العكس. وكل شعب يفرض نظاما من اتجاهات جغرافيته. وكثيرا ما كانت الأنهار محاور الاتجاهات الأساسية. فيسجل معظم الشعوب اتجاه قراهم وحقولهم أحيانا (كوكويا في جمهورية الكونغو) في هذا النظام من المحاور، كما يعمل الكثير منهم أيضا على توجيه قبورهم. وتكون النتائج أحيانا غير متوقعة، والفضاء المرتب حسب محور واحد، داخل في جملة التضاريس، يتغير بحسب الوضع النسبي لعناصر هذه التضاريس. فهنا يكون «الحضيض» في الغرب وهناك يكون في الشمال، وهنا يكون «نحو القمة» جهة الشرق وهناك جهة الغرب، فيلاحظ أن الهجرات قد يكون منشؤها اتجاهات مغيرة كما هو الشأن لدى الكوبا (زاير) والكاكورو (تنزانيا). ويدخل هذا الخبر في علم الكونيات أكثر منه في التاريخ، ولكن قد يؤدي الأمر إلى أن تشاهد تغيرات في نقط الأصل، نتيجة مفاجآت مما يبرز أمامنا، فالمجتمعات التي تستعمل سير الشمس لتعيين محور الفضاء هي وحدها التي قد توفر إرشادات صحيحة في مادة حركات الهجرة العامة، ولكن من سوء الحظ هذه الشعوب قلة فيما عدا ربما إفريقيا الغربية، حيث معظم الشعوب يرجعون إلى الشرق لتعيين أصلهم.

وفكرة السبب ضمنية في كل مأثور منقول، وقد تعرض في شكل سبب مباشر متميز بالنسبة لكل ظاهرة. ففي هذه الصورة لكل أمر أصل يقع مباشرة في بداية الأزمنة، وتدرك السببية أحسن إدراك بالنظر في الأسباب المنشوبة إلى الداء. فهي مرتبطة بقوة مباشرة بالسحر والأجداد الخ. والرباط مباشر، ويبدو من هذا النمط من السببية أنه يشعر بالتغير أساسا في بعض الميادين المحددة كالحرب وتتابع الملوك الخ، حيث تتدخل المتحجرات. ولنذكر أخيرا أن هذه اللمحة عن فكرة «السبب» هي ملخصة جدا ويجب أن تستكمل بفكرات سببية أكثر تعقيدا ولكنها موازية لها، وهي لا تهم سوى مؤسسات اجتماعية ثانوية.

وأما الحقيقة التاريخية فتبقى مرتبطة جدا بصدق الكلمة المنقولة، وهكذا فقد تكون نتيجة إجماع المسيرين (إبودوما، نيجيريا) أو التأكد من أن المأثور موافق لما قاله الجيل السابق. وتتألف مقولات المعرفة فيما بينها وتترابط مع عبارات ترمز للقيم وتتألف، لانتاج نص يصفه علماء الأنثروبولوجيا «بالأسطورة». والمأثورات الأكثر ارتباطا بالبيئة الأسطورية، هي تلك التي تعبر عن بدء الخليقة حيث الجوهر هو علة وجود الشعب. وهكذا فإن كتلة متشعبة من أخبار الكوبا التي تعالج الأصول والهجرات على متن الزوارق الجذعية، وجد لها أخيرا تفسير بفضل ما اكتشف من تصور باطن للهجرة: وعند الكوبا تتم الهجرة في زوارق جذعية من المصب (المقدس) إلى (اللاذيني)، وكذلك تفسير عدد من أسماء الهجرات، ومن مشاهد الخلق التي تقدم بألفاظ علم الكونيات. ولم

يكن الأمر هنا واضحا، بينما كان الترابط جليا في كثير من الأجناس الأخرى. وهكذا فإن عددا من علماء الانتولوجيا، ممن ساروا على منوال بيدلمان من سوء الحظ، ومن العلماء البنيويين أو الاجتماعيين الوظيفيين قد آل بهم الأمر إلى انكار أي قيمة لكل المأثورات السردية إذ ربما يكون كله عبارة عن بنيات معرفية للعالم توتر كل فكرة مسبقة، كالمقولات الختمية. والرأي نفسه يطبق على ما أمامك من نص كما على نص بيدلمان... ومن الواضح أن هؤلاء الانتروبولوجيون تجاوزوا الحدود. ثم إن عددا من تفاسيرهم تبدو افتراضية. ولكن على المؤرخ أن يتذكر أنه ملزم في كل صورة خاصة، أن يدقق بما لديه من موجبات لرفض مأثور أو للشك فيه. وليس في إمكانه أن يرفض مأثورا، إلا إذا كان احتمال الإبداع فيه مدلول رمزي، حصرا، وأنه احتمال قوي حقا يمكن إقامة الدليل عليه. ذلك أن المأثور يعكس عموما «أسطورة» بالمعنى الانتروبولوجي لهذا اللفظ وللمعطيات التاريخية. وفي هذه الظروف، فإن كتب التاريخ هي نصوص من علم الأساطير، إذ أن كل نموذج متحجر نابع عن نظام من القيم والأغراض، هو خبر أسطوري، ولكنه في آن واحد شبكة تاريخية يجب فك رموزها.

## التاريخ اليومي

لا تاريخ بلا يوميات ولا فنانا لا يميز بين السابق واللاحق. ويمدنا المأثور المنقول دائما بيوميات نسبية تتمثل في قوائم أو في أجيال. وبصفة عامة تمكن هذه اليوميات من وضع كامل مجموع المأثور للجهة المدروسة في إطار الانساب أو قائمة الملوك أو أصناف الأعمال التي تشمل الساحة الجغرافية الواسعة، ولكنها لا تمكن من الربط بين المتواليات النسبية وبين أحداث خارج المنطقة. وتتم أكبر الحركات التاريخية وحتى بعض التطورات المحلية دون أن يشعر بها، أو تبقى مشكوكا فيها، ذلك أن الوحدة المتوفرة للتاريخ اليومي، ضيقة جدا من الناحية الجغرافية. فنسب الأسرة لا يصلح إلا لها وللقرية أو القرى التي تسكنها، فيوميات الامبو مثلا مؤسسة على طبقات الأعمار مما لا يشمل لكل منطقة ضيقة يلحق فيها الشبان في آن واحد. ومن اللازم إذن أن يربط في ما بين اليوميات النسبية وإن أمكن أن تحول إلى يوميات مطلقة، وينبغي قبل ذلك أن يحل مشكل آخر وهو أن يتم التحقق من كون المعطيات المستعملة توافق واقعا لم يحرف من الناحية الزمانية.

هذا ويتضح أكثر فأكثر أن اليوميات المنقولة خاضعة لبعض عوامل التحريف المتصاحبة العاملة على اتجاهات متعاكسة، فبعضها يقلص المدة الحقيقية للماضي وبعضها يمددها. ثم إنه يوجد اتجاه إلى جعل الأجيال والوراثات وسلسلة أصناف الأعمال منتظمة حتى تصير موافقة للنظم المثالية الحالية للمجتمع. والا توفر المعطيات لنا سوابق من النزاعات من كل نوع. وعملية الانضباط واقعية حقا، وفي بعض الصور الممتازة كما في رواندا تناط عهدة التصرف في المأثور بجمع متشعب من الاختصاصيين، أكدت أقوالهم التنقيبات الأثرية.

لقد أثبت الانتولوجيون أن المجتمعات المنعوتة بالمتقطعة ترمى إلى الغاء الأجداد الذين «لا فائدة فيهم»، أي الذين لم يكن لهم أعقاب ومازال فريق منهم يعيش اليوم كفرق متميز. وهذا ما يفسر السبب الذي من أجله يؤول العمق النسبي في كل جماعة من مجتمع معين إلى أن يبقى ثابتا. ولا يستعمل إلا الأجداد «الصالحون» لتفسير الحاضر. وينشأ عن ذلك أحيانا تصادم قوي في العمق

النسبي. ثم أن الأحداث الديموغرافية قد تقتصر فرعا من الأعقاب على عدد قليل جدا بالنسبة الى سائر الفروع المتفرعة عن إخوة أو أخوات مؤسس الفرع الأول، بحيث لا يتمكن هذا من البقاء في الموازاة من جموع كبيرة مجاورة، فيمتصه أحدهم، واذك يعاد تعديل النسب ويعوض مؤسس النوع الصغير بمؤسس الجمع الأكبر. ويختزل النسب، ويعبر غالبا عن وحدة العرق بوضع جد وجيد في بداية النسب، فهو الرجل الأول والبطل المؤسس الخ. وسيكون أب أو أم الجد «الصالح» الأول وهكذا يتم موازاة الفجوة بين الخلق وبين التاريخ الواعي. ومن سوء الحظ فإن عمل هذه الطرق قد أدى في غالب الأحيان الى وضع يتعذر فيه الرجوع بأمان الى أكثر من بضع أجيال سابقة. وقد ظن أن عددا من المجتمعات الافريقية أفلتت من هذا العمل ولا سيما الدول. فلا موجب لكون قائمة تعاقب الملوك مخطئة، أو لكون نسبهم مشكوكا فيه، ماعدا أنها أحيانا زيفت عندما عاوضت أسرة منه أسرة أخرى متبينة نسب الأولى لتبرير نفسها. ولكن عدد الملوك وعدد الأجيال كان في الظاهر صحيحا. وعمل التصادم والتدبير وإعادة التنظيم قد يلحق المعطيات التابعة للأسر المالكة كما يلحق غيرها. ففي قوائم الملوك مثلا قد يحذف أسماء الغاصبين أي الذين اعتبروا غاصبين في الحال أو في أي وقت لاحق لحكمهم. وقد يغفل عن الملوك الذين لم يروا بكل الطقوس الرسمية التدرجية التي قد تكون طويلة جدا، وقد يعد ملكا واحدا ملك تخطى عن العرش ثم استعاد السلطة. وفي كل ذلك ما يقصر السير التاريخي.

ولارجاع الامور الى نصابها حيث تكون الوراثية على خط الابوة وحسب أولوية الولادة كما هو الأمر في المنطقة بين البحيرات، يوجد عدد عجيب من التعاقبات النظامية أبا عن جد، تتجاوز بكثير المعدل وحتى الارقام القياسية التي شوهدت في غيرها من المناطق بالعالم. وينتج عمل التنظيم هذا نسبا نموذجيا خطيا، يستمر منذ البداية حتى القرن التاسع عشر تقريبا حيث يصير متداخلا متشعبا. والنتيجة أننا نطيل في امتداد الاسرة، ونحن نزيد في عدد الأجيال، حيث يقدم الورثة من الحواشي في مقام الأب والابن، وقد يحدث التدبير أو التقصير ما يوجد من اشتباه بين الترادف، وبين الاسم في الحكم أو اللقب وبين الاسم الشخصي، وخواص أخرى من هذا القبيل. وكما كان الشأن في العهد الاستعماري ولا سيما في جهات الادارة غير المباشرة، فإن الضغط في تمدد الاسر كان قويا، إذ أن الاوربيين يولون احتراما كبيرا للقديم، شأنهم شأن عدد من المجتمعات الافريقية أيضا، فاستخدموا كل ابهام وكل الوسائل التي من شأنها أن تمدد الاسر الحاكمة، واستعملت كل الأسماء الممكنة، وضوعفت عند الإقتضاء دورات أسماء الملوك أوزيد فيها، وشذبت الحواشي كي يستطيل الجدع.

وأخيرا وضمن نطاق الممالك أيضا، فإننا كثيرا ما نجد الهوة واسعة بين البطل المؤسس الذي ينتمي الى عالم الكونيات وبين أول ملك تاريخي «صالح». والنتيجة أنه يجب القيام ببحث مدقق لمعرفة هل ان السبل الموصوفة قامت بعملها أولا في الحالات الخاصة. وفي هذا الشأن وجود مواطن خلل في الخلافة وفي الانساب هي أحسن ضمان للاتصال إذ هي تظهر مقاومة للتسوية الانضباطية. ولم تكن مجتمعات طبقات الاعمار موضوع بحث منظم هكذا، وبعض الحالات تظهر ان عمليات التعديل تتدخل لاصلاح الدورات أو الحد من الخلط بين الترادفات. ولكن ضرور تعاقب

فئات الأعمار لم تدرس بعد، ولا يمكن التعميم الا بالقول بأن المشكل المعروض شبيه بمشكل الأجيال، اذ يتم العد بواسطة الأجيال.

وينتج عن دراسة احصائية مدققة أتت بالمعطيات السابقة، أن معدل الجيل الحاكم يقع عادة فيما بين ٢٦ و ٣٢ سنة. وكانت العينة غالبا على الخط الابوي. ولكن الاسر الحاكمة على الخط الامسي لا تتجمع مثلا في الجزء الاسفل من التوزيع الاحصائي، وتكون المعطيات صحيحة أيضا في هذه الصورة. ومعدل مدة الملك يتغير تغيرا كبيرا مع نظام الخلافة حتى أنه لا يمكن أن نتقدم بمعطيات عامة صالحة. وحتى في صور الخلافة المتطابقة توجد انحرافات عظيمة بين مختلف الاسر الحاكمة.

واذا ما تجهزنا بالمعطيات التي عرضناها آنفا، يكون في الامكان أن نحول اليومية النسبية للأجيال بيومية مطلقة، على الأقل إذا لم يكن التفاوت في الأجيال كبيرا بحيث يصير ممارستها تافهة. فيحسب أولا المعدل بين أول علامة زمنية مطلقة يوفرها تاريخ مكتوب، وبين الحاضر، ويطبق هذا المعدل على الماضي إذا وقع بين ٢٦ و ٣٢ سنة، ولكن المعدلات الوسطية ليست غير ذلك، وبقوى احتمالاتها مع عدد الأجيال المعتبرة، ولا يمدنا الحساب بتاريخ معقول الا فيما يخص رؤوس المتتاليات، وفي أحسن الحالات مرة في القرن. وثمة خطأ ينشأ عن كل تدقيق أكثر تركيزا، وعلى كل يقتضي أن تسبق هذه التواريخ المطلقة المشتقة هكذا بعلامة تدل على ذلك. فتأريخ ١٦٣٥ (المسبوق بهذه العلامة) بالنسبة الى قيام مملكة كوبا يشير الى أن هذه القيمة حسبت انطلاقا من أجيال ومن قوائم الملوك.

وذلك أن هذا العمل ينطبق على قرار مدة الملك المعدلة. وقد شاهدنا لماذا يكون هذا المعدل أقل صلاحية منه بالنسبة الى الأجيال وأحد الأسباب في ذلك، هو أننا اذا طبقنا المعدل على الماضي نفترض أنه لم يقع أي تغيير في سنن الخلافة، على أنها ربما تغيرت على مر الزمان، وفعلا انها تغيرت حقا منذ عهد مؤسس الاسرة اذ أن التأسيس تجديد، وقد تكون التعاقبات على العرش قد اقتضت بعض الوقت كي تستقر في غمطها، وينبغي أيضا أن تعتبر التغيرات التي تكون قد طرأت على معدل الحياة، واذا أن مجال الخطأ أكبر، فيكون من المفيد أن يكون لدينا توارخ مطلقة مثبتة بالكتابات أو بوسائل أخرى ترجع بعيدا الى الماضي.

وفي مادة اليوميات النسبية يمكن السعي أيضا للتنسيق بين متتاليات مختلفة متجاورة وذلك عن طريق التزامن، فمعرفة بين ملكين ذكر اسمهما تمدنا بتزامن، وهذا مما يمكن من التأليف بين يوميات نسبية متضمنة كما يمكن من صهرها في يومية واحدة. وقام الدليل بالتجربة على أن التزامنات بين أكثر من ثلاثة وحدات منعزلة ليست صالحة، وبرهن على أن أ - وب - تعايشا في فترة واحدة أو أن أ و ج تعايشا لأنها كليهما التقيتا مع ب، اذن أ = ب = ج ولا يمكن تجاوز ذلك، وكون التقاءات أ - وب - مع ب، قد تمد على طول مدة الحياة النشطة لـ (ب) يبرر لماذا أ = ج يمثل الحد النهائي. وأقامت الدراسات التجريبية على يوميات الشرق الاوسط الدليل على هذه النقطة، ولا ممانع اذا استعملنا التزامنات بتحفظ من أن نبي حقولا موحدة كبيرة بما فيه الكفاية، ذات يوميات نسبية مشتركة.

وبالنظر في معطيات الأجيال يمكن الحصول على تاريخ مطلق، فاذا ذكر الماثور كسوف للشمس، واذا كان لدينا عدة توارخ للكسوفات يجب اقامة الدليل على الكسوف الأكثر

احتمالا. ويمكن القيام بعين العمل بالنسبة الى أحداث فلكية أخرى، أو الى أحداث مناخية خارقة للعادة تسببت عنها بعض الكوارث. وهنا يكون اليقين أقل منه في صورة كسوفات الشمس، إذ يوجد مثلا في افر يقيا الشرقية عدد من المجاعات أكثر من عدد كسوفات الشمس، وفيما عدا هذه الظاهرة الطبيعية فإن سائر المعطيات من هذا النوع صالحة على الخصوص للقرنين الأخيرين مع أن قليلا من الشعوب احتفظ بذكرى كسوفات ترجع الى مدة أقدم بكثير.

### تقوم المأثور المنقول

بعدما أخضعت المصادر الى نقد معمق من الناحية الأدبية والاجتماعية، يكون في الامكان أن تلحق بها درجة من الاحتمال، ولا يمكن أن يكون هذا الحكم كميًا ومع ذلك فهو لا يقل واقعية، وفي الامكان أن يزداد بقوة، في الحظوظ التي توفر صحة أثر، إذا أمكنت مواجهة المعطيات التي تحتوي عليها بالمعطيات المستمدة من آثار أخرى مستقلة أو من مصادر أخرى. فإذا ما اتفق مصدران مستقلان تحول الاحتمال الى ما يقرب من اليقين. ويصبح الأمران نبرهن على استقلال المصادر. ومن سوء الحظ لقد وثق كثيرا بنقاوة النقل وانعزال الخبر انعزالا محكما من عرق الى آخر. وفي الواقع فإن قوافل التجار كالامبقلانغول، وبلا شك كالديولا والهوسا، قد تأتي بنتف من التاريخ تقحم في التاريخ المحلي، إذ هي تجد لها فيه محلا لائقا. وثمة روابط تكونت بين ممثلي جموع مختلفة في بداية العهد الاستعماري فتبادلو أخبارا تهم تقاليدهم. ويلاحظ ذلك بوضوح في الجهات ذات الادارة الغير المباشرة حيث، حض الامتياز العملي الممالك على انشاء تاريخها. أضف الى ذلك أن هذه الوثائق تأثرت بالانماط الأولى التي كتبها الافارقة، ككتاب جونسن عن ملكة أوبو (نيجيريا) أو كتاب كاكوا (أوغندا) بالنسبة الى بوكندا. ونشأ عن ذلك عدوى عامة بين كل التواريخ المكتوبة بعد. أو أنها في بلاد ياروبا، وفي منطقة ما بين البحيرات الناطقة بالانكليزية، مع محاولات للترامن حتى ترغم القائمة المسلكية الى بلوغ ما للنماذج من طول. وهذا المثلان يوضحان مدى ما يجب من الحذر قبل أن نصرح بأن المأثورات مستقلة حقا. فيجب التنقيب في خزائن الوثائق والنظر في العلاقات القائمة قبل الاستعمار، وتقدير كل شيء باهتمام قبل أن نصرح بالحكم.

وقد تمدنا المواجهة مع المعطيات المكتوبة أو الأثرية بآثار الاستقلال المنشود، بيد أنه ينبغي هنا أيضا أن يقام الدليل على هذا الاستقلال. فإذا ما خصص الأهالي موطننا مشهودا لأول المحتلين للبلاد بالاستناد الى المأثور، وذلك بموجب ما يشاهد من آثار الاحتلال البشري المخالفة للآثار التي يبقيا السكان الذين يعيشون هناك حاليا، فلا يمكن بكيفية آلية أن يعزى هذا المواطن للمحتلين الاولين للبلد. وليست المصادر مستقلة إذ ينسب المواطن الى هؤلاء السكان بعمل منطقي مسبق، وهذا مثل من تعظيم الصور، وتفرض هذه الملاحظة تخمينات مفيدة ولا سيما فيما يخص الآثار المدعوة (تلم) ببلاد دوكون (مالي) وكذلك بالنسبة لمناطق سير يكو (كينيا)، إذ ما اقتصروا على هذين المثالين المشهورين، على أن أمثلة مواقع كمبي صالح (موريتانيا) وبحيرة كيسال (زاير) الشهيرة توضح ان علم الآثار قد يوفر الدليل الساطع على صحة المأثور المنقول.

وكثيرا ما يعسر التوفيق بين المصدر الشفاهي والمصدر المكتوب، وأثبت ذلك إذ يتحدث المصدران عن أمور مختلفة. فالأجنبي الذي يكتب يقتصر عادة على الأحداث الاقتصادية والسياسية

التي لم تدرك بعد ادراكا حسنا في بعض الأحيان. والمصدر الشفاهي الموجه الى الداخل لا يذكر، اذا ما ذكر الاجانب. ولذلك تتكرر المواطن التي لا يلتقي فيها المصدران ولو أنها عاجلا فترة واحدة. وتوجد حالات التوافق، ولا سيما التوافق الزمني، في الأماكن التي أقام فيها الأجانب منذ عهد بعيد، حتى صاروا يهتمون بالسياسة المحلية ويدركونها. ووادي السنغال مثال لذلك منذ القرن السابع عشر.

وفيما اذا اختلف مصدران شفاهيان، فالاولوية للأشد احتمالا. ولا معنى للبحث عن حل وسط، كما هو السلوك المتداول بكثرة، واذا ما كان التخالف واضحا بين مصدر شفاهي ومصدر أثري يكون الحل بجانب الأثري، ان كان من المعطيات المباشرة، أي شيئا محسوسا لا نتيجة استقراء، وفي الحالة الأخيرة يكون احتمال المصدر الشفاهي أقوى. والتناقض بين المصدر المكتوب والمصدر الشفاهي يفصل بالضبط كما لو كان الأمر خاصا بمصدرين شفاهيين. ولذا ذكر ان المعطيات الكمية المكتوبة غالبا ما تكون هي الأحسن، وأن معطيات الحفز الشفاهية كثيرا ما تتفوق على المصادر المكتوبة.

ولكن المؤرخ يسعى في النهاية الى اثبات الأمر الأكثر احتمالا. وأخيرا، اذا ما كان لدينا مصدر واحد شفاهي، بينما أنه من المحتمل أن تكون لحقته تحريفات، فمن الواجب تأويله بعد أخذ التحريفات بعين الاعتبار، ومن الواجب استغلاله. واذا ما تعذرت اقامة الدليل «عامة» أو «منطقيا» على عمل التحريف، فلا يكون في الامكان تأويل المصدر، تماما كما لو قامت التحريفات بعملها الكامل. وهذا عيب علماء الانتولوجيا الذين ينكرون كل قيمة تاريخية للمأثور. وكثيرا ما يشعر المؤرخ بعدم الرضى بمعطياته المنقولة، وقد يسجل أنه لا يثق حقا بصحتها، ولكن يتحتم عليه أن يستخدمها ما لم تكتشف مصادر أخرى.

## الجمع والنشر

ينتج عن كل ما عرض أنه يتحتم أن يتم ميدانيا جمع كل العناصر التي تخول تطبيق النقد التاريخي على المأثور، وهذا يقتضي معرفة حسنة بالحضارة والمجتمع واللغة أو اللغات المعنية بالأمر، وفي امكان المؤرخ أن يحصل عليها أو أن يضم اليه إحصائيين، ولكن حتى في هذه الحالة يكون عليه أن يتعمق في كل المعطيات التي يعرضها عليه عالم الانتولوجيا واللسني والمترجم، الذين يساعدونه في عمله، وعليه أيضا أن يتخذ سلوكا منظما ازاء المصادر التي يجب جمع كل رواياتها. وهذا كله يفترض مسبقا اقامة ميدانية طويلة، يزداد طولها كلما كان المؤرخ قليل الاستئناس بالحضارة المعنية. ويجب أن نؤكد أن ثمة معرفة فطرية تحصل لمن يدرس تاريخ مجتمعه الخاص، لا تكون كافية، بل لا بد من تأمل اجتماعي ولا بد من اعادة اكتشاف حضارة الباحث الخاصة، وحتى التجربة اللسانية تبين أن المؤرخ المنتسب الى البلد المعني، لا يفهم بسهولة بعض الوثائق كالمدايح، أو هويلقى صعوبة لأن اللهجة المتحدث بها غير لهجته. على أنه ينصح بمراقبة ما نقله اللساني في لهجته الأم ولو مراقبة جزئية للوثوق من أن النقل يشمل كل العلاقات اللازمة لفهم النص بادخال الجرس الصوتي مثلا.

يتطلب جمع المأثورات اذن وقتا طويلا، وكثيرا من الصبر ومن التأمل، فبعد الفترة الأولى للمحاولة يجب أن ينظم الباحث تصميا لعمله مع الانتباه الى ما لكل حالة من خصائص. وعلى كل، فلا بد من زيارة المواقع المقترنة بالسير التاريخية المدروسة وقد يضطر الباحث أحيانا الى استعمال عينة من المصادر الشعبية، ولكنه لا يمكن استعمال عينة عشوائية. ويجب أن تدرس في منطقة ضيقة، القواعد التي تعين نشأة روايات مختلفة وان يستخرج منها المبادئ التي يجب الاحتفاظ بها لتكوين العينة، ولا يمكن أن تضمن النتيجة عنها بالجمع المكثف العشوائي، ولو أن العمل يسير بسرعة. فعلى الباحث أن يعتني بدراسة النقل. ونحن نجد مخبرين يأخذون معلوماتهم أكثر فأكثر عن مؤلفات نشرت عن تاريخ المنطقة: كتب مدرسية، صحف أو نشرات علمية، ولعلمهم أخذوها عن محاضرات اذاعية أو تلفزيونية، ولا مناص من تأكد هذا المشكل كلما تكاثرت البحوث.

و يلاحظ الآن وجود عدوى أقوى، فقد أخذ المأثور، بعض المخطوطات من عهد قديم جدا أحيانا، وخاصة تقارير بداية الادارة الاستعمارية، على أنها حقيقة «الأجداد» ومن الواجب أن تراقب خزائن الوثائق كما يراقب وجود كتب علمية وكتب مدرسية واذاعات الخ. اذ أنه اذا درس الأمر ميدانيا، يكون في الامكان غالبا أن تصحح هذه المداخلات بالبحث عن روايات أخرى، وبالتوضيح للمخبرين، ان الكتاب أو الاذاعة ليسا حتما على حق في هذه المادة، ولكن اذا ما ترك الميدان فقد فات الأوان.

وينبغي أن تكون للبحث بنية حسب وعي تاريخي واضح. وليس بالامكان جمع «كل المأثورات» وإذا ما حاولنا القيام بذلك، فلا نخفي سوى كومة مضطربة من المعطيات. ويجب أن نعلم قبل كل شيء ماهية المشاكل التاريخية التي نريد درسها، وأن نبحث عن مصادرها تبعا لذلك. ولعرض المواضيع، يجب بالطبع أن نتعمق في الحضارة المعنية. ويمكن اذن كما هو الشأن غالبا، أن نقرر متابعة درس التاريخ السياسي. ولكن في الامكان أيضا أن نختار مسائل من التاريخ الاجتماعي أو الاقتصادي أو الديني أو الثقافي أو الفني الخ... وفي كل حالة تكون الطريقة المستعملة في جمع المعطيات متباينة. وأكبر عيب في البحث حاليا، هو انعدام الوعي التاريخي، وانقيادنا بقوة الى ما نجد أمامنا.

وفقدان الصبر عقبة أخرى، يريد المرء أن يقطع بسرعة ميدانا كبيرا، وتكون المصادر المجموعة في هذه الظروف عسيرة التقويم وتبقى متباينة جزئية. وتنعدم الروايات، ولا يكون لدينا كثير من الارشادات عن تغير المصدر وتمثيله ونقله، فالعمل عقيم، وشر الآثار هو ما يخلقه العمل في نفوس الباحثين الآخرين من انطباع يظن بمقتضاه أن هذه «المنطقة» تم درسها. وفي ذلك ما يوقف احتمال بحوث أحسن في المستقبل. ولكن لندكر أن المأثور المنقول يضيع، ولو أنه من حسن الحظ انما يضيع بسرعة أقل مما يظن عامة، وليست ضرورة العمل بمرر لعدم اتقانه.

ولقائل أن يقول — وقد قيل ذلك بالفعل — إن ما نعرضه هنا خيالي مثالي مستحيل. ومع هذا فانها الطريقة الوحيدة التي تمكنا من العمل كأحسن ما يمكن مما لدينا من وسائل في فترة من الزمان معينة. وليس هناك طريق أقصر. وان رأى بعضهم أن هذا المجموع من العمل لا يوفر لنا الا حصيلة هزيلة للتاريخ في بعض الأحيان، فهو يغفل عن أننا أثرينا في الوقت نفسه المعلومات العامة في اللغة والأدب والتفكير الجماعي والبنى الاجتماعية للحضارة المدروسة.

ولا يكون العمل كاملا بلا نشر، اذ هو لا يكون في متناول مجموعة العلماء. فيجب أن نفكر على الأقل في تصنيف المصادر مع مقدمة وتعليقات وفهارس لنكون رصيدا من الوثائق مفتوحا للجميع. وكثيرا ما يقرن هذا العمل بنشر مؤلف مستند جزئيا أو كليا على هذا الرصيد. وما من ناشر ينشر المجموع بأكمله، مع الروايات وتأويل المعطيات. ولا يليق بالتأليف أن يكون مغمورا وسط كتلة من الوثائق الخام. ولكن كل مؤلف سيفسر كيف جمع المآثور، وسيعطي فهرسا مختصرا للمصادر والشواهد من شأنه أن يمكن القارئ من الحصول على رأي عن قيمة الجمع وعن مساهمة المؤلف على حدة في المؤلف، بعين السبب. والمؤلف الذي يصرح: «يذكر الأثر...» يكون قد قام بتعميم خطير. ويبقى أن نتحدث عن نوع من المطبوعات الاختصاصية، وهو نشر النصوص. هنا يطبق نفس الأسلوب المتبع في نشر المخطوطات. ويؤدي هذا عمليا، وفي أكثر الأحيان، الى تعاون بين اختصاصيين مختلفين. لا يجمع الواحد منهم أكثر من صفة واحدة، مؤرخ، لغوي أو عالم أجناس. والواقع أن أفضل مطبوعات النصوص، المتوفرة اليوم، هي كلها تقريرا عبارة عن مؤلف ضخم بقيادة واحدة، يشترك فيها عدد من المساعدين، أحدهم لغوي. ونشر النصوص عبء جحود وصعب. وهذا ما يفسر سبب قلة ما يحقق منها، بيد أن عددها يزداد بفضل المؤازرة التي يقوم بها اختصاصيون في الآداب اللفظية الافريقية.

## النتيجة

يتابع حاليا جمع التراث المنقول في كل بلدان افريقيا. وتهم مادة المعطيات المجموعة خاصة القرن التاسع عشر، وهي لا تمثل سوى مصدر من المصادر لاعادة البناء التاريخي، وتمثل الوثائق المكتوبة المصدر الآخر الرئيسي لهذه الفترة. وتعرض سنويا خمسة أوسمة مصنفة دراسات تكاد تكون مبنية كلها على المآثورات. وهي تعالج خاصة التاريخ السياسي والممالك، بصورة نموذجية، بينما نجد من الوجهة الجغرافية تجمعا أقوى في افريقيا الشرقية والوسطى والاستوائية، حيث المآثور هو الوثيقة الوحيدة غالبا. ولعلنا نرجع اليوميات الى ما بعد عام ١٧٠٠ وتصبح مشكوكا فيها فيما قبل هذا التاريخ. ولكن معرفة ظاهرة المآثور بكيفية أعمق تساعد على تقويم ما جمع منها من قبل تقوينا أحسن، فمن ذلك أن استغلال المآثور الذي رواه كفازي في القرن السابع عشر، لم يعد ممكنا الا بعد دراسة ميدانية أجريت سنة ١٩٧٠. وعلاوة عن المآثورات الحديثة يوجد رصيد فسيح من المعطيات الأدبية، كالقصص الملحمية والمعطيات الكونية التي يمكن أن تكون أخبارا تاريخية تتعلق أحيانا بفترات بعيدة جدا. وملحمة سندجاتا مثال من ذلك. فالمآثور لا يمكن أن يؤرخ من ذاته، فالذاكرة المحرفة فيما يخص بعض المواقع التاريخية فيما بين البحيرات، احتفظت بذكرى تؤرخ بالقرن الأول من التاريخ الميلادي أو حتى بما قبل هذا التاريخ. ولكن المآثور المنقول يصمت عن التاريخ، ولم يحل هذا المشكل سوى علم الآثار. ويلوح أيضا أن مآثورات كفازي تحتوي على راسب تاريخي على قيمة عالية بالنسبة الى ماضي شعوب انغولا. فيوجد فيه مراجع مكثفة عن أسر مالكة تعاقبت، والى أشكال حكم توالى، وبالاختصار هو يعرض باقتضاب عن جهة كوانغو العليا تغيرات اجتماعية سياسية قد ترجع الى عدة قرون، أو حتى ألف عام قبل ١٥٠٠. ولكن هذا المنظور لا يوجد عليه علامات زمانية.



ولنشر الى عقبة أخيرة وذلك ان جمع المأثورات مازال سطحيا على الأغلب وتأويله ما زال متقيدا بالنص الحرفي «ملتصقا» بالحضارة التي نشأ عنها. وتساهم هذه الظاهرة في الابقاء على صورة لافريقيا يكون فيها التاريخ حديثا عن أصول وهجرات، والمعلوم أن لا شيء من ذلك حق. ولكن لا بد أن نلاحظ أن هذه الصورة هي التي يعكسها المأثور الرامي الى اثبات «هوية». على أن التأويل الغير المتعمق والجمع الذي يعوزه النظام تلحقها معظم الانتقادات الموجهة ضد استعمال المأثور المنقول، ولا سيما من بين علماء الانثولوجيا.

وبرهنت التجربة المحسوسة على أن أنفس قيمة للمأثور تتمثل في تفسيره للتغيرات التاريخية داخل حضارة ما. وذلك حق الى حد أنه، كما يشاهد ذلك في كل مكان، ورغم غزارة المصادر المكتوبة للفترة الاستعمارية، يجب اللجوء دائما اما لشاهد عيان واما للمأثور لتكاملها قصد توضيح التطور السكاني. ولكننا نلاحظ أيضا أن المأثورات كثيرا ما تقود الى الخطأ بسهولة في مادة الترتيب الزمني وفي المعطيات الكمية. ثم ان كل تغير لا واع، كالتحول المرتبط بمذهبية دينية مثلا، ينفلت بسبب بطئه، عن ذاكرة المجتمع. فلا يوجد سوى نتف من التغيرات في النصوص التي لا تتعرض بوضوح للتاريخ، ومع ذلك يكون من الواجب أن يؤق بتفسير مركب. ومعنى ذلك أن المأثور المنقول ليس دواء لكل داء، ولكنه يتضح في الواقع أنه مصدر من أعلى طراز بالنسبة الى القرون الأخيرة. وفيما قبل ذلك ينحط دوره فيصير علما مساعدا لعلم الآثار. ولم يقم الدليل بعد كما ينبغي على دوره بالنسبة الى المصادر الألسنية الانثوغرافية، ولو أن هذه النماذج الثلاثة من المصادر المجتمعة من شأنها مبدئيا أن تساهم بقوة في معارفنا عن افريقيا، كما هو شأن علم الآثار.

وقد برهنت المأثورات على قيمتها التي لا عوض لها. وليس الشأن أن تأتي بما يقنع أنه قد يكون مصدرا، فكل مؤرخ يعلم ذلك. والمسألة الآن هي أن نحسن طرقنا العملية كي تمدنا المصادر بكل ما تشتمل عليه بالقوة، وذلك هو العمل المطلوب منا.



## الفصل الثامن

# المأثور الحي

أ. هيباتي با

«أن الكتابة شيء، والمعرفة شيء آخر.  
والكتابة صورة المعرفة وليست المعرفة ذاتها،  
والمعرفة نور كائن في الإنسان، هو تراث كل  
ما أمكن الأجداد معرفته وما أبلغونا آياه في صورة نبتة،  
كما أن شجر البابواب موجود بالقوة في بذرته». تيرنوبوكار (١).

ان من يتحدث عن المأثور في التاريخ الإفريقي يعني المأثور المنقول، ولا يمكن لأي محاولة أن تلج  
التاريخ الإفريقي وروح الشعوب الإفريقية بكيفية مقبولة، ان لم تركز على هذا التراث من  
المعارف، من كل الرتب، والذي نقل بصبر بواسطة السماع من شيخ الى تلميذة عبر الأجيال. ولم  
يضع بعد هذا التراث، وهو جاثم في ذاكرة الجيل الأخير من حفظته العظام الذين يمكن أن يقال فيهم  
إنهم ذاكرة إفريقيا الحية.

وفي الأتوم المعاصرة، حيث تسمو الكتابة على القول، وحيث يكون الكتاب الحامل الرئيسي  
للتراث الثقافي، لطالما ظن ان الشعوب الحالية من الكتابة كانت شعوبا بدون ثقافة. وهذا الرأي  
الذي لا مبرر له بدأ من حسن الحظ يتفتت منذ الحربين الأخيرتين بفضل الأعمال المعتبرة التي قام  
بها بعض كبار الاثنولوجيين من كل القوميات. واليوم بفضل عمل منظمة اليونسكو التجديدي  
الشجاع، ارتفع الحجاب ارتفاعا عن كنوز المعرفة التي نقلها المأثور الشفاهي والتي تنتمي الى التراث  
الثقافي للبشرية جمعاء.

و يتمثل المشكل كله لدى بعض الباحثين في معرفة هل يمكن أن نمنح النقل الشفاهي عين الثقة  
التي نمنحها للنقل الكتابي ليكون شاهدا على أمور الماضي. وفي رأينا أن المشكل بهذه الصفة أسوأ  
وضعه، فالشاهد الكتابي والشفاهي، ما هو في النهاية سوى شاهد بشري وقيمه هي قيمة الانسان.

(١) تيرنوبوكار سالف، توفي سنة ١٩٤٠ وقضى كل حياته في بندياكارا (مالي) شيخ الفرقة الاسلامية التجانية قد كان أيضا  
تقليديا في المواد الافريقية أنظر أ. هيباتي با وم. كردار، ١٩٥٧.

أولم تكن الشفاهية أم الكتابي خلال العصور كما هو الأمر في الفرد نفسه؟ ان أول خزان الوثائق أو الخزانات في العالم كانت أدمغة الرجال.

ثم ان الكتاب أو العالم، قبل أن يرسم على الورق ما يتصوره من أفكار، يشرع في حوار سري مع نفسه، وقبل أن يحرر الانسان القصة فانه يتذكر الأحداث كما رويت له أو، ان هو عاشها، كما يرويها لنفسه.

ومبدئيا لا شيء يدل على أن الكتابي يحكي الواقع بأمانة أكثر من الشاهد الشفاهي المنقول من جيل الى جيل، وتدل يوميات الحروب العصرية كما يقال على أن كل حزب أو كل قوم «يرى الزوال على عتبة بابه» من خلال موشور أهوائه وعقليته الذاتية أو مصالحه، أو غرض تبريره لوجهة نظره. على أن الوثائق المكتوبة نفسها لم تكن محمية من التدليس والتغييرات، ارادية كانت أولا ارادية من فعل النساخ المتعاقبين، الأمر الذي نشأت عنه، على الخصوص، الجدل المتعلقة «بالكتابات المقدسة».

وموضوع الخلاف في النهاية، من وراء الشاهد ذاته، هو حقا قيمة الانسان الشاهد ذاته، وقيمة سلسلة الرواية التي يرتبط بها، وصدق الذاكرة الفردية والجماعية، وما يعطي للحقيقية من قيمة في مجتمع معين. وبالاختصار الرابطة بين الانسان والكلمة...

وظيفة الذاكرة هي أقوى لدى المجتمعات الشفاهية، وفيها تكون العلاقة بين الانسان والكلمة أشد، فحيث لا كتابة، يتقيد الانسان باللفظ وبه يلتزم، فهو كلمته وكلمته تشهد عما هو، وترابط المجتمع نفسه يرتكز على قيمة الكلمة وعلى مدى احترامها.

والعكس، كلما ازداد زحف الكتابي نشاهد أنه محل محل الكلمة فيصير الحجة الوحيدة والمرجع الأوحد، فيصير الامضاء الالتزام الوحيد المعترف به، بينما ينحل تدريجيا ما كان يجمع بين الانسان والكلمة من رابط مقدس لفائدة الشهادات الجامعية المتفق عليها.

وعلاوة على الكلمة الاخلاقية الاساسية فقد كانت في التراث الافريقي — على الأقل ما أعرفه منه المتعلق بمنطقة السهوب جنوبي الصحراء — تكتسي طابعا مقدسا يرتبط بأصلها الالهي وبالقوى الباطنية المودعة فيها، فهي عامل سحري من أعلى طراز وحامل عظيم «هي قوى اثيرية» لم تكن تتارس بدون حذر.

كانت اذن عدة عوامل دينية وسحرية أو اجتماعية تتضافر لحماية صدق النقل الشفاهي وبدا لنا من اللازم أن نقدم فيما يلي دراسة موجزة عن ذلك، كي نضع بكيفية أحسن، المأثور الافريقي المنقول في إطاره وكبي نيره، ان صح القول، من الداخل.

فاذا ما قيل لعالم افريقي تقليدي حقيقي. «ما المأثور المنقول؟» فانه سيحتار بدون شك، وربما أجاب بعد صمت طويل: «هو المعرفة التامة» ولا يز يد شيئا.

فاذا تحت لفظ «مأثور منقول؟» وما هي الأمور الواقعية التي يجملها، وما هي المعارف التي ينقلها والعلوم التي يلقيها؟ ومن هم نقلته؟ وخلافا لما يظن بعضهم، فان المأثور المنقول الافريقي لا يقتصر على القصص والخرافات، أو حتى على الأخبار الاسطورية أو التاريخية، وليس القصاصون هم الحفظة الأوحدون والثقله الفر يدون المؤهلون.

فالمأثور المنقول هو مدرسة الحياة الكبرى، يغطي كل وجهها وإياها يعني. وقد يعتبر سدنيا لمن لا يسبر سره، وقد يحير فيه الفكر الديكارتى، وقد تعود أن يفصل كل شيء الى مقولات مضبوطة معينة. ففيه لا يفترق الروحي عن المادي.

وعمروره من الباطن الى الظاهر، يعرف المأثور المنقول كيف يكون في تناول بني البشر، وكيف يكلمهم بما يفهمون، وكيف ينتشر حسب ملكاتهم وهو في آن واحد دين ومعرفة وعلم بالطبيعة وتدريب على مهنة وتاريخ وسلوى واستراحة، وكل جزئية تفصيلية قد تساعد دائما على الرجوع الى الوحدة الأساسية.

يرتكز المأثور المنقول على المبادأة والتجربة، فهو يلزم الانسان كليا، وهكذا يصح القول بأنه ساعد على خلق افئذج خاص من الانسان وعلى تكوين الروح الافريقية.

و«الشقافة» الافريقية اذ ترتبط بالسلوك اليومي للانسان وللمجموعة، ليست هي مادة مجردة يمكن عزلها عن الحياة، وهي تتضمن نظرة خاصة للعالم، أو بالأحرى حضورا خاصا في العالم، وقد تصور ككل ترتبط فيه كل الأشياء وتعمل فيما بينها الواحد في الآخر.

ويرتكز المأثور المنقول على تصور معين للانسان ولكائته في العالم ووظيفته فيه. ويجب علينا اذن كي نحسن وضعه في اطواره الجملي وقبل أن ندرسه على مختلف ظواهره، ان نعود الى السر ذاته في خلق الانسان، وفي الانشاء الاساسي للكلمة، كما تعلمه وكما تنبعث منه.

## منشأ الكلمة الإلهي

نظرا لأنني لا أستطيع أن أتحدث حديثا صالحا عن تراث لم أعشه أو لم ادرسه شخصيا، ولا سيما المأثورات التابعة لبلاد الغابة. سأتناول أمثلي الأساسية من مأثورات السهوب جنوبي الصحراء (أي ما كان يسمى سابقا البافور، وما تكونت منه مناطق السهوب من افريقيا الغربية الفرنسية قديما).

ان مأثور بامبارا بكومو (٢) يعلم أن الكلمة، كوما، هو قوة أساسية تنبعث من الخالق ذاته مانكالا بارئ الأشياء كلها. وهو إله الخلق. فيقول منشد الآله كومو: «ما قاله مانكالا كان».

واسطورة خلق العالم والانسان التي يلقيها المعلم المدرب بكومو (وهو حداد دائما) للشبان المحتونين، تكشف لنا أنه لما حنّ مانكالا الى مخاطب، خلق الرجل الاول: ما.

وقديما كان سفر التكوين يلقي المحتونين في الحادية والعشرين من عمرهم أثناء الخلوة المفروضة عليهم طيلة ثلاثة وستين يوما، ثم كانوا يقضون احدى وعشرين سنة لدراسته والتعمق فيه.

فعلى حدود الغاب المقدس، حيث موطن كومو، يرتل المحتون الأول هذا القول:

مانكالا ! مانكالا !

من هو مانكالا ؟

أين مانكالا ؟

فيجيبه المنشد:

«مانكالا هو القوة اللانهاية

(٢) احدى المدارس العظمى للتدريب بالماندي (مالي).

ليس لأحد أن يضعه في الزمان ولا في المكان  
فهو دومبالي (لا يعرفه أحد)  
دومبالي (لم يخلق ولا نهاية له).  
ثم، بعد التدريب، تبدأ قصة الخلق الأساسي:  
«ما كان أحد، سوى كائن  
وكان هذا الكائن خلاء حيا  
يضمّن بالقوة الوجودات المحتملة  
وكان الزمن اللانهائي مأوى هذا الكائن الأحد  
وتسمى الكائن الأحد باسم مانكالا  
وهكذا خلق «فان»  
بيضة عجبية ذات أقسام تسعة،  
فأولج فيه الحالات الأساسية التسع للوجود».  
«وعند فقس هذه البيضة الأساسية أنجبت عشرين كائنا خرافيا، منها تكون العالم  
بأكمله، وكذلك كامل القوى الموجودة للمعرفة الممكنة.  
«ولكن وأسفاه لم يبد أحد من المخلوقات العشرين الأولى قابلية ليكون المخاطب  
(كومانيون) الذي رغب فيه مانكالا لنفسه.  
«عندها أخذ جزءا من كل المخلوقات العشرين الموجودة، وخلط الأجزاء ثم نفخ في  
الخليط شرارة من روحه الناري، وخلق كائن جديدا، الانسان، وأعطاه جزءا من اسمه  
ذاته: ماء، فكان هذا الكائن الجديد يحمل، من اسمه ومن الشرارة الالهية التي داخلته،  
جزءا من مانكالا ذاته».

فما، الإنسان، محطة لكل ما وجد، وقابل ممتاز للقوة العليا، ومجمع كل القوى الموجودة ما،  
الانسان يرث جزءا من طاقة الخلق الالهية، أي هبة الفكر والكلمة.  
وعلم مانكالا مخاطبه، ماء، السنن التي تكونت كل عناصر الكون بمقتضاها، واستمرت موجودة.  
وجعله حارسا لعالمه، وكلفه بالعمل على الحفاظ على التآلف العام، ولذا أن يكون الإنسان إنسانا  
عبء ثقيل.

وبدافع من «خالقه نقل «ما» فيما بعد لاعتقابه مجموع المعارف الكاملة، وكانت بداية السلسلة  
الكبرى للرواية التلقينية التي ترى فرقة الكومو (كما في مالي أو ناما أو كوري النخ) انها هي المتابعة  
لها.

وعندما خلق مانكالا مخاطبه، ماء، كلمه وأمده في الوقت نفسه بملكة الجواب، ودار حوار بين  
مانكالا، خالق كل الاشياء، وما، نتاج تآلف الاشياء كلها.

ولقد كانت الكلمات وهي تنزل من مانكالا الى الإنسان، إلهية اذ لم تكن قد اتصلت  
بالمادية، وبعد ملامسة الجثمانية أضاعت شيئا من الاهيتها ولكنها صارت حاملة للقداسة، تقديس  
الجسم اذن بالكلمة الالهية، فاشع بدوره هزات مقدسة ستقيم الصلة مع مانكالا.

ان المأثور الافريقي اذن يتصور الكلمة كهبة من الله، فهي في آن واحد إلهية في الاتجاه التنازلي ومقدسة في الوجهة التصاعدية.

## الكلمة في الإنسان كقدرة خلاقة

وجاء في التعليم أن مانكالا وضع في ما الامكانيات الثلاث من القدرة والمشية والمعرفة الموجودة في العناصر العشرين التي منها ركب. ولكن كل هذه القوى التي ورثها تكمن فيه كالقوى الصامتة، وتكون في حالة سكون قبل مجيء الكلمة لتحركها، وبفضل حيوية الكلمة الإلهية تشرع هذه القوى في الإهتزاز، فتصير في مرحلة أولى فكرة وفي ثانية صوتا وفي ثالثة كلمة، فالكلمة إذن تعتبر تجسيدا أو إظهارا لهزات القوى.

ولنشر مع ذلك في هذا المستوى إلى أن لفظي «كلمة» و«استماع» يغطيان أمورا واقعية أفسح مما ننسب اليها عادة. فيقال «ان كلمة مانكالا تُرى وتُسمع وتُشم وتُذاق وتلمس» فهو احساس كامل ومعرفة تدرج فيها الذات كلها.

واذ أن الكلمة اظهار لهزات القوى، وكل ظهور لأي قوة في أي شكل من الأشكال سيعتبر اعتبار كلمتها، ولذا الكل يتكلم في العالم، والكل كلمة أخذت لها جسما وشكلا.

وبالفلسفة ان لفظ «كلمة» (هالا) مشتق من مادة الفعل (هال) ومعناها «أعطي القوة» ومن ذاك المعنى المجازي «التجسيم»، ويروي المأثور الفلاني أن كوينو، الكائن الاعلى، منح القوة كيكالاً أي الانسان الأول بتوجيه الكلام اليه. فيقول السيلاتيقي (أي شيخو التدريب الفلانيين): «قد أعطى كيكالاً الاله القوة للانسان حين كلمه».

وان كانت الكلمة قوة، فذلك لكونها تخلق رابطة ذهاب واياب (يا ورطا بالفلانية) مولدة للحركة والتناسق، أي للحياة والعمل، وترمز رجلا الحائك الصاعدتان النازلتان الى هذا الذهاب والاياب، وذلك كما سنشاهد فيما بعد عند ذكر الصناعات التقليدية. (فرمزية المنوال ترتكز تماما على الكلمة الخلاقة أثناء عملها).

وكلمة الانسان، على صورة كلمة مانكالا التي هي صداها، تحرك القوى الباطنة وتنشطها وتثيرها كمثال الانسان الذي ينتصب واقفا، أو يلتفت اذا ما سمع نداء باسمه.

وقد تخلق الكلمة السلم كما قد تحطمه. فهي بمثابة النار، فكلمة واحدة في غير عملها قد تثير حربا كجزئية القش الملتبهة التي قد تتسبب في حرب عميم. وفي المثل المالي هذا القول «ما الذي يهيبىء الشيء؟» (أي يرتبه ويعده) ذاك هو الكلمة، «وما الذي يفسد الشيء؟ إنها الكلمة، وما الذي يقر الشيء في وضعه؟ هي الكلمة».

ويمنح المأثور للكلمة، (كوما) وليس فحسب القدرة الخائفة، ولكن أيضا وظيفة مزدوجة للمحافظة وللهدم. ولذا هي أكثر من كل شيء، العامل الأعظم النشط في السحر الافريقي.

## الكلمة عامل منشط للسحر

ينبغي ألا يغيب عن ذهننا أن التراث الافريقي، بصفة عامة، يفترض رؤية دينية للعالم. ويتصور

العالم المرئي ويحس به كعلامة وكتجسيم أو كقشرة بالنسبة لعالم خفي حي متكون من قوى في تحرك دائم. وفي صميم هذه الوحدة الكونية الفسيحة، يبقى الكل مرتبطا بالواحد بالآخر، ومتضامنا، وسيكون سلوك الانسان نحو نفسه كما هو نحو العالم المحيط به (العالم المعدني والنباتي والحيواني والمجتمع البشري) موضوع تنظيم مدقق للطقوس – وقد يكون مختلفا في شكله بحسب العروق أو الجهات.

وكان من المفروض أن يستتبع خرق القوانين المقدسة اضطرابا في توازن القوى تعبر عنه مختلف التشويشات. ولذا كان العمل السحري، أي ممارسة القوى، ترمي عادة الى اصلاح الموازنة المختلفة والى ارجاع التآلف، وقد وضع الانسان كما شاهدنا من قبل، حارسا عليه من قبل الخالق. وفي أوروبا يتحمل لفظ «السحر» دائما المعنى الرديء، بينما هو في افريقيا يدل فحسب على ممارسة القوى، وهو أمر محايد في حد ذاته، وقد يبدو نافعا أو مضرًا بحسب الوجهة التي يوجه بها. وقد قيل: «لا السحر ولا الحظ قبيحان في حد ذاتهما، بل ان استعمالهما هو الذي يجعلهما حسنين أو قبيحين».

فالسحر الحسن، سحر المرئيين أو «الشيخ العارفين»، يهدف الى تطهير البشر والحيوانات والأشياء، لكي يعاد الى القوى ترتيبها، وفي هذا المجال تكون قوة الكلمة حاسمة. فكما جاءت كلمة مانكالا الالهية لتحبي القوى الكونية الساكنة القارة في ماء، كذلك كلمة الانسان تأتي لإحياء القوى الساكنة في الأشياء وتحريكها واثارتها. ولكن الكلمة كي يكون لها أثرها الكامل تتطلب أن ترتل ترتيبا متوازنا، اذ لابد للحركة من توقيع وإيقاع. ذاك الذهاب والاياب الذي هو جوهر الإيقاع.

وفي الأناشيد الطقسية كما في عبارات التعزيم، الكلمة هي تجسيم لإيقاع الحركة، وإذا ما اعتبرت كأنها من شأنها أن تؤثر في العقول فذاك لان تألفها يخلق الحركات، تلك الحركات التي تولد القوى، تلك القوى العاملة في العقول التي هي ذاتها قدرات على العمل. ان الكلمة عندما تستمد القدرة الخلاقة العاملة من الأمر المقدس، حسب التقليد الافريقي، تدخل مباشرة، مع الحفاظ على التآلف أو مع قطعه، داخل الانسان ودخل العالم الذي يحيط به. لذا يعتبر معظم المجتمعات الشفاهية التقليدية أن الكذب جذام أخلاقي، ومن ينكث كلمته في افريقيا التقليدية يقتل شخصه المديني والديني والباطني، ويقطع نفسه عن المجتمع، ويكون موته أفضل من بقائه بالنسبة لذاته وبالنسبة لذويه أيضا.

وأشدد المنشد من أهل كومودوبي، من كوليكيور وبالي، ضمن قصيدة له دينية:

«ان الكلمة حق بصفة الهية

فن اللائق أن تكون معها محقا

ان اللسان الذي يفسد الكلمة

ليس دم الذي قد كذب»

و يرمز الدم هنا الى القوة الحيوية الباطنة والتي أحل الكذب تألفها. يقول المثل: «ان من أفسد كلمته أفسد نفسه»، فإذا ما فكر المرء بشئ وصرح بغيره، يكون قد انفصل عن ذاته، وهكذا تنقطع الوحدة المقدسة، وهي انعكاس للوحدة الكونية، ويخلق التنافر داخل الذات وفيما حولها.



وهكذا نزداد ادراكا للاطار السحري الديني والاجتماعي الذي يحل فيه احترام الكلمة داخل المجتمعات ذات المأثور الشفاهي، ولا سيما عند نقل الكلمات الموروثة عن الأجداد، وعن من هو أكبر منا سنا. وما تثبتت به افريقيا التقليدية أكثر من كل شيء، هو كل ما ورثته من الأجداد. وفي القول (أخذته عن أستاذي) (أخذته عن أبي) (رضعته من ثدي أمي) ما يعبر عن التقيد الديني بالتراث المنقول.

## العلماء التقليديون

ان أعظم الخبازين لهذا المأثور الشفاهي، هم من ندعوهم بـ «التقليديين» فهم ذاكرة افريقيا الحية وأحسن شهودها. فمن هم هؤلاء الشيوخ؟ فهم يدعون في البامبارا دوما أو سوما أي «العارفين» أو دونيكبا أي «صانعي المعارف»، وفي اللغة الفلانية هم يدعون سيلاتيقي أو جندو أو تشيوركيني هذه الألفاظ، تشمل على مفهوم (العارف).

وقد يكونون شيوخا متدربين (أو مدربين) في فرع تقليدي خاص (التدريب على الحدادة أو النسيج أو الصيد البري أو الصيد البحري الخ).

أو قد يكون لهم المام بالمعرفة الكاملة للمأثور في كل مظهره. فمن الدوما اذن من هو مطلع على علم الحدادة أو علم الرعي أو الحياكة مثل ما تم من اطلاق عليها من قبل المدارس العظمى التدرجية في السهوب، مثال ذلك ما في مالي، والكومو والناما والدو والدياراوارا والنياروي الخ.

ولكن لا نخدع أنفسنا في ذلك فالمأثور الافريقي لا يقسم الحياة قطعا وقلما يكون العارف «أخصائيا» بل هو في الغالب «ذو معرفة عامة». فالشيخ ذاته مثلا قد يكون له معرفة في علم النباتات (معرفة منافع كل نبات ومضاره) كما في «علم الأراضي» (الخصائص الزراعية أو الطبية التابعة لكل أنواع الأراضي) أو في «علم المياه» والفلك وعلم الكونيات وعلم النفس الخ، ويتعلق الأمر بعلم الحياة مع المعارف التي يكون في امكانها دائما أن تستخدم إستخداما تطبيقيا.

وإذا ما ذكرت علوم «التدريب» أو العلوم «الباطنية» وفي هذه الألفاظ ما قد يحير القارئ العقلاني فالمقصود دائما، بالنسبة الى افريقيا التقليدية، هو علم تطبيقي في أساسه، يمكن من الاتصال اتصالا ملائما بالقوى التي تتعلق بالعالم المرن والتي تستخدم في صالح الحياة.

والعالم التقليدي، الحافظ لأسرار الخلق الكوني وعلوم الحياة المجهز عادة بذاكرة عجيبة، كثيرا ما يكون أيضا حافظا لوثائق الأحداث الماضية المنقولة من قبل التراث أو الأحداث المعاصرة.

والتاريخ الذي يريد لنفسه أن يكون أساسا افريقيا، لا بد أن يركز على الشهادة التي لا بدليل لها ونابعة من الأفاقة الأكفاء. وكما يقول المثل: «لايزن رأس المرء وهو غائب».

وكان الدوما العظام، ممن كانت معرفتهم كاملة، مشهورين مبجلين يستحضرون من بعيد للاستفادة من معرفتهم وحكمتهم.

وكان من لقني أمور الفلانيين، أردو ديمبو، من دوما فلانيا (سيلاتيقي) وقد توفي الآن. أما علي عيسى وهو سيلاتيقي آخر فما زال على قيد الحياة.

ودانفوسيني الذي كان يتردد على منزل أبي زمن طفولتي قد كان دوما يكاد يكون عاما؛ فعلاوة على كونه شيخا عظيما مدرسا بالكومو، فقد كان له علم بسائر المعارف (التاريخية والتعليمية أو التي تتعلق بعلوم الطبيعة) في عصره. وكان الجميع يعرفه في البلدان الممتدة بين سيكاسو وباما كواي بين الملكات القديمة في كيني دو كويبي دو كوي.

ولطيف أخوه الأصغر، وكان مطلعا على ما كان لأخيه من علم، قد كان أيضا دوما عظيما. وكان له ميزة التأدب بالعربية كما قد قام بالخدمة العسكرية (ضمن القوات الفرنسية) بالتشاد، مما سمح له بجمع الكثير من المعلومات في سهوب التشاد، فبدت شبيهة بما كان قد تلقته في مالي. وإيوا، من طبقة القصاصين، من أعظم التقليديين بندي وهو يعيش حاليا في مالي، مثله مثل بنزومانا الموسيقي العظيم الأعمى:

ولنوضح منذ الآن أنه ليس من الحتمي أن يكون القصاص تقليديا «عارفا» ولكنه قد يصير كذلك إذا كانت ملكاته تساعد على ذلك. على أنه لن يمكنه ادراك العرافة بالكومو وقد طرد منها القصاصون (٣) (كر يوا).

وبصفة عامة فإن التقليديين قد أبعدوا ان لم يطاردوا من قبل السلطة الاستعمارية التي كانت تسعى، بالطبع، الى قلع التقاليد المحلية لتزرع آراءها الخاصة. اذ، كما يقال: «لا يزرع في الحقل المغروس ولا في الأراضي المستريحة». ولذا التجأ المدربون غالبا الى الأدغال وهجروا العواصم المسماة «طوبا بودوكو» (٤) «مدن البيض» (أعني المستعمرون).

على أنه مازال في مختلف بلدان السهوب الافريقية المكونة لبافور القديم — وبدون شك في غيره من البلدان — «عارفون» واصلوا نقل المستوى المقدس لمن قبلوا أن يحفظوه ويسمعوه، وأظهروا جدارة في تقبل تعليمهم بصبرهم وكنماهم، وهي القواعد الأساسية المفروضة من قبل الآلهة... وفي ظرف عشرين سنوات أو خمس عشرة سنة يحتمل انقراض كل أواخر الدوما العظام وكل الشيوخ الاخيرين وارثي مختلف فروع التراث. فان لم نسرع بجمع شهادتهم وتعليمهم، سيفرق في النسيان معهم كل التراث الثقافي والروحي لشعب، تاركا شبابا بدون جذور.

## صدق النقل

ان التقليديين الدوما كبارا وصغارا، أكثر من سواهم، مقيدون باحترام الحقيقة. والكذب في نظرهم، ليس عيبا أخلاقيا فحسب بل هو تحريم شعائري اذا ما خرقوه حرم عليهم القيام بوظيفتهم. ولم يكن الكاذب ليكون ملقنا أو «صاحب السكن» أو دوما أيضا، فاذا ما ثبت الأمر الخارق للعادة المتمثل في كذب تقليدي دوما، لم يعد أحد يرجع اليه في أي مجال من المجالات، وتضمحل وظيفته في الآن نفسه.

وبصفة عامة ان التقاليد الافريقية تخشى الكذب، وقد قيل: «حذار من لغة تنقطع عن ذاتك، ولن يقطع العالم عنك، فخير من أن تنقطع أنت عن ذاتك» على أن التحريم الشعائري المتمثل في

(٣) عن «السحرة» انظر ما بعده.

(٤) انظر به طوبا بودوجو.

الكذب يمس خاصصة «القائمين بالقداسات» (أي المضحجين أو أصحاب السكين) (٥) من كل الدرجات، ابتداء من أب الأسرة وهو القائم بالقداس العائلي إلى الحداد والحائك أو الصانع التقليدي، حيث إن ممارسة الصناعة نشاط مقدس، كما سنرى. ويقع التحريم على كل من أنيطت بهم مسؤولية سحرية دينية، ويقومون بأعمال شعائرية، فهم بمثابة الوسيط بين عامة الناس والقوى الحافظة، وفي القمة القائم بالقداس للبلد (مثلا الهوكون عند الدوكون) وعرضا، الملك.

وهذا التحريم الشعائري موجود فيما أعلم، في كل التقاليد في السهوب الافريقية. وتحريم الكذب يرجع إلى كون القائم بالقداس إذا ما كذب فهو يفسد الأعمال الشعائرية، ولم تعد تتوفر فيه الشروط المطلوبة ممن يقوم بالعمل المقدس، والشرط الأساسي هو أن يكون المرء متألّفا في ذاته قبل أن يمارس قوى الحياة. ولنتذكر أن كل النظم السحرية الدينية الافريقية ترمي إلى الحفاظ على توازن القوى أو إلى إعادة هذا التوازن الذي به يتعلق تألف العالم المحيط، المادي والروحي..

والدوما، أكثر ممن سواهم، مقيدون بهذا الالتزام، إذ بصفتهم شيوخا عرفيين هم حاملوا الكلمة العظام، الكلمة التي هي أهم عامل نشيط في حياة البشر وفي العقول، وهم ورثة الكلمات المقدسة التعزيمية التي نقلها سلسلة الأجداد التي ترجع إلى أولى الهزات المقدسة المنبعثة من ما، الانسان الأول.

وإن كان التقليدي الدوما هو حامل الكلمة، فسائر الناس هم خازنو المحادثة. وسأذكر مثل صاحب سكين دوكون، من بلاد بنياري (دائرة بنديا كارا) وقد عرفته في شبابي فاضطرب يوما إلى أن يكذب لانقاذ حياة امرأة مطاردة فأخفاها في بيته، وبعد هذا الحادث تحلّى تلقائيا عن وظيفته، إذ هو رأى أنه لم تعد تتوفر فيه الشروط الشعائرية لتحملها كما ينبغي.

وفي الأمور الدينية والمقدسة لا يخشى الشيوخ التقليديون العظام معارضة الجمهور، فإن هم أخطأوا يعترفون بخطئهم على رؤوس الملائم ولا يلتمسون أعذارا مدبرة، ولا يلجأون إلى تعلقة أو مهرب.

والاعتراف بأغلاطهم المحتملة واجب عليهم، إذ فيه تطهير من الدنس. وإذا كان التقليدي أو العارف محترما هكذا في أفر يقيا، فذلك لكونه يحترم نفسه قبل كل شيء، فهو منظم داخليا إذ لا ينبغي له أبدا أن يكذب، وهو إنسان «مستقيم تماما» مالك للقوى التي تسكنه. ومن حوله تترتب الأمور وتخمد الاضطرابات.

وبقطع النظر عن تحريم الكذب فيعمل العارف على ضبط الكلمة ولا يلقها بلا روية، إذ أن كل كلمة، كما رأينا آنفا، تعتبر اظهارة لحرّة القوى الباطنة، وبالعكس فإن القوة الباطنة تنشأ عن استبطان الكلمة.

وندرك بهذه النظرة أحسن ادراك ما تمنحه التربية الافريقية التقليدية لعملية التحكم في النفس، من قيمة. فقلة الكلام دليل على حسن التربية وعلامة الشرف، فالصبي الصغير سرعان ما

(٥) لا تتضمن حتما كل الحفلات الشعائرية التضحية بمجوان، وقد تمثل «الضحية» في هدية ذرة أولبن أو نتاج طبيعي آخر.

يتعلم كيف يتحكم في التعبير عن مشاعره أو ألمه، وكيف يكبح ما فيه من قوى، على صورة ما الاساسي الذي يحبس في نفسه، القوى الكونية، بصورة خاضعة منظمة. فيقال عن العارف المحترم أو عن الانسان المالك لنفسه: (هو «ما» أو ندو بالفلاي) أو إنسان كامل.

وينبغي ألا يلتبس الأمر أمامنا بين التقليديين «دوما» الذين يعرفون كيف يعلمون الناس وهم يلعبون ويخاطبون المستمع بما يفهم، وبين الشعراء المتجولين والقصاص والمنشطين العموميين الذين هم عامة من فريق «الديلي» (القصاصي) أو وولوسو «سجناء الكوخ» (٦) ان انتظام الحق لا يوجد لدى هؤلاء، وتعترف لهم التقاليد بحق طمسه أو تجميله ولو بصفة تفريرية، ما داموا يسلمون جمهورهم أو يثيرون اهتمامه، كما سنرى فيما بعد. ويقال «يسمح للقصاص أن يكون ذا لسانين». وبالعكس انه لن يخامر ذهن أي افريقي مكون تكوينا تقليديا أن يشك في صدق أقوال التقليدي «الدوما» ولا سيما اذا كان الأمر بهم نقل المعارف عن سلسلة الأجداد. فيتوجه «الدوما»، قبل أن يتكلم، الى أرواح أجداده محترما أيها طالبا منها أن تساعد كي لا يزل لسانه وكي لا يعتوره سهوينسيه بعض الأمور. وكان «دانفوسيني»، «الدوما» الأعظم من «بامبارا» وقد عرفته في طفولتي في بوكوني وكان منشدا الكومو، كان يقول قبل الشروع في الحديث أو التعليم:

«أيا روح أستاذي طيما بلن ساما كي!  
يا أرواح الحدادين الشيوخ وكبار الحائكين،  
الأجداد الأوائل الملقنين القادمين من الشرق،  
أيا جييجي، أيها الكبش الكبير الذي كان أول من نفخ في بوق الكومو،  
يامن قدمت على الجلبيا (النيجر)!  
تعالوا جميعا واستمعوا الي.  
سأشرح، تبعا لأقوالكم،  
وسأقص على مستمعي  
كيف وقعت الأمور  
وكيف مرت منكم الينا في الزمن الحاضر.  
لكي يبقى هذا القول محفوظا بعناية بالغة  
وكي ينقل بأمانة  
الى رجال الغد  
وهم أولادنا  
وأولاد أولادنا.  
فامسكوا (يا أجدادنا) بعنان لساني!

(٦) وولوسو (حرفيا: المولدون في البيت) أو «سجناء الكوخ» كانوا خداما أو أسرا خدام ارتبطوا منذ أجيال بأسرة واحدة. وكانت التقاليد تعترف لهم بمرتبة كاملة في الحركة والقول، كما تعترف لهم بحق مادية جسيمة على مكاسب أسيادهم.



- (١) موسيقى من شعب التوكولور،  
يعزف على آلة الاردين. (كاييس،  
مالي، أ. و. ٢٩٢).
- (٢) مغن من الـ «مقيت» (مجموعة  
التوثيق الفرنسي).



واهدوا خروج كلماتي،  
كبي تتبع وتحترم  
ترتيبها الطبيعي»

ثم كان يضيف:

«أنا دانفوسيني»، من فريق «ساماكي» (الفيل الذكر)، سأقص كما تعلمت أنا بين  
يدي شاهدي «ماكورو ومانفين» (٧).  
كلاهما يعلم مثلي اللحمة (٨) فسيكونان لي حاميين ودعامتين.

واذا ما أخطأ المنشد أو اذا ما أظهر نقصا، قال شاهده: «يا هذا، تحر كيف تفتح فاك» فيقول:  
«انه لساني الجامح الذي خائني».

وثمة تقليدي «دوما» لم يولد حدادا ولكنه يعرف العلوم المتعلقة بالحدادة، مثلا يقول، قبل  
الشروع في الخطاب: «(في مدين بهذا لفلان وهو نقله عن فلان الخ...)» ويحيي جد الحدادين،  
وكعلامة ولاء يجلس القرفصاء واضعا مرفقه الايمن على الأرض رافعا ساعده.  
وقد يذكر «الدوما» أيضا شيخه قائلا: «(احيي كل الوسطاء حتى نونفايري» (٩) دون أن  
يلتزم بذكر الأسماء كلها.

ولابد من عودة دائما الى السلسلة التي يمثل «الدوما» نفسه حلقة منها. ففي كل فروع المعرفة  
التقليدية يكون لسلسلة الرواية أهمية كبرى، وبدون رواية منظمة لا يوجد «السحر» بل توجد  
فقط ثثرة أو قصة. ولا اثر اذن للكلمة، ومن المفروض أن تحمل الكلمة التي نقلتها السلسلة، منذ  
النقل الأصلي، قوة تجعلها فعالة جوهرية.

وهذه الفكرة «احترام السلسلة» أو «احترام النقل» هي التي تجعل الافريقي غير المتأقلم ثقافيا  
يميل الى رواية الخبر في الصورة نفسها التي سمعها بها، تعينه في ذلك ذاكرة الاميين المدهشة.  
واذا ما عورض فهو يكتفي بالاجابة قائلا: «علمنية فلان» ذاكرة دائما مصدره.

وعلاوة على ما للتقليديين الدوما من قيمة أخلاقية خاصة وعلى تعلقهم «بسلسلة الرواية» ان  
هناك ضمنا اضافيا لصدق رواية توفره المراقبة الدائمة من قبل نظرائهم أو من قبل القدماء المحيطين  
بهم، وهم يسهرون بعناية قصوى على صدق ما ينقلونه، و يصححون روايته عند أقل خطأ، كما  
شاهدنا في مثال دانفوسيني.

وأثناء خروجاته الشعائرية الى الأدغال، قد يضيف المنشد للكوموتأملاته الخاصة أو موحياته  
لل كلمات التقليدية التي ورثها عن «السلسلة» والتي يتغنى بها لرفاقه. وتأتي كلماته كحلفات

(٧) ماكورو ومانفين هما زميلاه.

(٨) لكل خبر تقليدي لحمة أو قاعدة قارة لا يمكن أبدا أن تتغير ولكنه في الامكان أن تطرز حولها استطرادات أو تحسينات حسب  
الوحي أو حسب اهتمام المستمعين.

(٩) سلف الحدادين.

عديدة لتشري كلمات سابقة، ولكنه يلفت النظر إليها قائلا: «هذا من ز يادتي وهذا من قبلي، لست معصوما، وقد أخطئ، وإذا ما أخطأت فتذكروا أنني مثلكم أتغذى بقبضة من الذرة وبجرعة من الماء وبنفحات من الهواء. وليس الإنسان معصوما». ويحفظ كلماته الجديدة من تبعه من المدربين ومن الاتباع الجدد بحيث تكون كل أناشيد الكومو مروفة محفوظة في الذكريات.

وتقاس درجة التطور لدى التابع للكومولا بكمية الكلمات المحفوظة بل بتطابق حياته مع كلماته. فإذا ما كان لرجل عشر كلمات أو خمس عشرة فحسب، وإذا ما كان يجيها، إذن يكون أبعا صالحا للكومو ضمن الجمعية. وكلي يكون منشدا للكومو، أي شيخا متدربا، ينبغي أن يعلم كامل الكلمات الموروثة وأن يجيها.

والتعليم التقليدي، خاصة إذا تعلق بمعارف مرتبطة بالتدريب، هو مرتبط بالتجربة ومقحم في الحياة. ولذا فإن الباحث الاوربي أو الافريقي إذا ما رام أن يقترب من الأحداث الدينية الافريقية، ضى على نفسه أن يبقى على حدود الموضوع أن رفض أن يعيش التدريب التابع له، وأن يتقبل واعدته، وهذا ما يفترض على الأقل أن يعرف اللغة. فن الأمور ما لا يمكن «تفسيره» بل ما يجب أن يرب وأن يعيشه الباحث.

وأذكر أنه في سنة ١٩٢٨، اذ كنت في مأمورية بطونجان، قدم عالم شاب بالانتولوجيا الى البلد فجاء بحث على ذلك الضحية بمناسبة الختان، فوجهه الضابط الفرنسي الى رئيس المقاطعة الاهلي لالبا منه أن يعمل كل ما يمكن كي يحصل العالم الانتولوجي على ما يرضيه ومؤكدا على أن «يقال ه شي».

وجمع رئيس المقاطعة بدوره الأعيان وعرض عليهم الأمر مكررا كلام الضابط فقال كبير الجماعة، وهو صاحب السكن بالمكان، أي أنه المسؤول على حفلات الختان وما يتبعها من تدريب:

«يريد أن نقول له كل شيء؟»

— قال رئيس المقاطعة: نعم.

— قال: «ولكن هل أتى كي يختن؟»

— قال: لا، بل أتى ليستخبر».

فأدار كبير الجماعة رأسه قائلا:

«كيف نقول له كل شيء، ان لم يكن أتى بقصد الختان؟»

أنت تعلم، أيها الرئيس، ان الأمر مستحيل. فعليه أن يعيش حياة المختونين كي يتمكن من تعليمه كل شيء.

— قال: اذن نحن مرغمون على ارضاء القوة الحاكمة، عليك أنت أن تجد الحل كي نخرج من هذا المأزق».

— قال: حسنا سنصرفه دون أن يشعر، وذلك اعتمادا على عبارة «الوضع على التبن».

واستنبطت بالفعل هذه الطريقة «للوضع على التين» المتمثلة في امداد شخص برواية مختلفة اذا تعذر اعلامه بالحقيقة، استنبطت انطلاقا من الوقت الذي أرسلت فيه السلطة الاستعمارية أعوانها أو ممثليها للقيام ببحوث اثنولوجية، دون أن يعيشوا الظروف المطلوبة. وكم اتنولوجيا فيما بعد صار ضحية لا واعية لذلك... ودون أن نصل الى ذلك، فكم منهم تخيل أنه فهم أمرا بأكمله، بينما هو لم يعيشه. فكان من المتعذر أن يعرفه حقا.

وعلاوة على التعليم الباطني الذي كان يلقي داخل المدارس التدريسية الكبرى — كالكمومو وغيرها مما ذكر آنفا — فإن التعليم التقليدي يبدأ في الواقع في كل أسرة حيث يكون الأب أو الأم أو الأفراد الأكبر سنا في آن واحد معلمين ومربين، و يكونون أول خلية تقليدية. فهم الذين يلقون الدروس الأولى في الحياة ليس حسب التجربة ولكن أيضا بواسطة القصص والروايات والخرافات والأمثال والحكم الخ... والأمثال هي رسائل أورثها الاجداد والأحفاد وعددها لا نهاية له.

وقد حرر بعض المدرسين العبابا للأطفال كي تحمل على مر السنين بعض المعارف الباطنة «المرموزة»، ولندكر مثلا لعبة البينكولو بمالي المعتمدة على نظام عددي يتعلق بالسقيا بأرقامها ٢٦٦ أو العلامات المقابلة لصفات الله.

ثم ان التعليم ليس نظاميا بل مقترنا بظروف الحياة، وقد تبدو هذه الحالة فوضوية ولكنها في الواقع عملية حية جدا. فالدرس المستمد بمناسبة حادثة أو تجربة ينقش في أعماق ذاكرة الطفل. وأثناء جولة في الأدغال فان العثور على قرية نخل سيعطي المعلم الشيخ فرصة لتلقين معلومات متنوعة بحسب نوعية مستمعيه. فاما أن يتحدث عن الحيوان ذاته أو عن القوانين العاملة في حياته، أو عن «صنف الكائن» الذي ينتمي اليه، أو أنه يلقي درس أخلاق على الأطفال مبينا لهم كيف تعتمد حياة المجموعة على التضامن وتكرار الذات. أو أنه يفسح المجال الى معلومات أرقى، اذا كان يشعر أن مستمعيه في وسعهم ادراكها. وهكذا فإن كل حدث في الحياة وكل حادث صغير يمكن دائما أن يكون مناسبة لشروح متعددة ولرواية اسطورة أو قصة أو خرافة. وقد تسمح كل ظاهرة يلاحظها الانسان بإمكان الرجوع الى القوى التي انبثقت منها وبالتذكير بأسرار وحدة الحياة التي يحركها كلها السي، القوة المقدسة الأساسية، التي هي نفسها مظهر الإله الخالق.

في افريقيا كل شيء «تاريخي» وتاريخ الحياة العظيم يشمل تاريخ الأراضي والمياه (الجغرافيا) وتاريخ النباتات (علم النبات والاقرباذين) وتاريخ أبناء قبل الأرض (المعادن والفلزات) وتاريخ الكواكب (فلك وتنجيم) وتاريخ المياه الخ...

وفي تقاليد السهوب ولا سيما تقاليد بامبارا والفلانين، ان مجموع مظاهر الحياة على الأرض يقسم الى ثلاثة أصناف، أو أن «أصناف الكائنات» تقسم بدورها الى ثلاثة فروع:

— في أسفل السلم الكائنات الغير الحية، المسماة «صبا» التي تعتبر لغتها لغة باطنية اذ هي لا تدرك أو لا تسمع من عامة الناس. ويشمل هذا الصنف من الكائنات كلما يقع على سطح الأرض (رمل، ماء الخ...) أو يكمن في أعماقها (معادن، فلزات الخ...).

ومن بين الكائنات الغير الحية الصماء توجد، الغير الحية الجامدة والسائلة والغازية (حرفيا الدخانية).



— وفي الدرجة الوسطى تقوم الكائنات «الحية الساكنة»، وهي كائنات حية لا تتنقل، وذلك صنف النباتات التي قد تمتد أو تنتشر في الفضاء ولكن ساقها لا تتحرك. ومن بين الكائنات الحية الساكنة توجد النباتات الزاحفة والمتسلقة والرأسية وهاته الأخيرة هي أرفع الأصناف.

— وفي النهاية «الكائنات الحية المتحركة» وتشمل كل الحيوانات حتى الانسان. وتشتمل الكائنات الحية المتحركة الحيوانات الارضية (منها ذات العظم ومنها ما بدونه) والحيوانات المائية والحيوانات الطائرة.

فيمكن اذن أن يرتبط كل كائن موجود بأحد هذه الأصناف (١٠) ومن بين كل «التوار يخ» فان أعظمها وأكبرها دلالة تار يخ الانسان نفسه ملخص كل «التوار يخ» اذ، حسب الاسطورة، هو مؤلف من جزء من كل ما وجد قبله. فكل ممالك الحياة توجد فيه (معدني، نباتي، حيواني) مقرونة بالقوى العديدة وبالملاكات العليا. ويرتكز ما يهمه من التعاليم على أساطير علم الكونيات معينة مكانته ووظيفته في العالم كاشفة عن ماهية علاقته بعالم الأحياء والأموات. وتفسر رمزية جسمه كما يفسر تشعب حياته النفسية، «ان شخصيات الشخص متعددة في الشخص» هكذا تقول مأثورات بامبارا والفلائين.

و يعلم السلوك الذي يجب أن يكون له ازاء الطبيعة وكيفية احترامه لتوازنه وعدم اطلاق القوى التي تنشطه والتي هو مظهرها المرئي. ويكشف له التدريب عن علاقته مع عالم القوى و يقوده شيئا فشيئا الى تمالك النفس، ويبقى الهدف النهائي أن يصير «ما» «وانسانا كاملا» ومخاطبا لمانكالا حارس العالم الحي.

## الصنائع التقليدية

ان الصنائع التقليدية حوامل كبرى للمأثور المنقول  
ففي المجتمع الافريقي التقليدي كثيرا ما يكتسي النشاط البشري طابعا مقدسا أو باطنيا، ولا سيما منها ما يتمثل في التأثير على المادة وفي تحويلها باعتبار كل شيء ككائن حي. وكل وظيفة صناعية كانت، ترتبط بمعرفة خفية نقلها جيل عن جيل، وأصلها الوحي الأول. فكان عمل الصنائع مقدسا اذ كان «يحكي» عمل مانكالا ويتم خلقه. فتقول مأثورات بامبارا إن الخلق ليس تاما وان مانكالا عند خلقه لأرضنا أبقى فيها أمور ناقصة كي يأتي ما، مخاطبه، ليتممها أو ليغيرها حتى يقود الطبيعة نحو الكمال، وكان من المفروض أن «يردد» النشاط الصناعي في عمله سر الخلق. وهو «يركز في البؤرة» قوة باطنة لا يمكن الاقتراب منها بدون احترام الظروف الشعائرية الخاصة.

و يصاحب الصنائع التقليديون شغلهم بأناشيد شعائرية أو بكلمات موقعة جوهرية. وتعتبر حركاتهم نفسها كلغة، وذلك ان حركات كل حرف تعيد في رمزية خاصة بها، سر الخلق الاساسي المرتبط بقدرة الكلمة، كما أشرنا الى ذلك آنفا. فيقال:

(١٠) انظر أ. هباتي با، ١٩٧٢، ص ٢٣ وما يليها.

«يصنع الحداد الكلمة  
والنساج يحوكها  
والاسكافي يملسها ويطربها».

ولنتخذ مثل النساج وصناعته مقترنة برمزية الكلمة الخلاقة المنتشرة في الزمان وفي المكان.  
فنساج الفريق (مابو، لدى الفلانيين) مستودع لأسرار القطع الثلاث والثلاثين التي تتركب منها القاعدة الأساسية للمنوال، والجميع يعلم معناها. فلهيكل مثلاً يكون من ثمانية خشبات رئيسية: أربع رأسية لا ترمز إلى العناصر الأربعة فحسب (التراب والماء والهواء والنار) بل أيضاً إلى الجهات الأساسية الأربع، و٤ خشبات مستعرضة ترمز إلى الجهات الأربع الملحقة، ويمثل النساج في وسطها الإنسان الأصلي ماء، في قلب الجهات الثمان في الفضاء. وبحضوره تحصل على تسعة عناصر تذكرنا بحالات الوجود الأساسية التسع، وبأصناف الكائنات التسعة، وبفتحات الجسم التسع (أبواب قوى الحياة) وبأصناف البشر التسعة عند الفلانيين الخ.. الخ..  
فقبل الشروع في العمل يمس النساج كل قطعة من المنوال متفوها بكلمات أو إبتهالات توافق قوى الحياة التي تجسمها.

وحركات الأرجل ذهاباً وإياباً صعوداً ونزولاً لتحريك الدواسة، تذكر بالايقاع الأصلي للكلمة الخلاقة المرتبطة بثنائية كل شيء وبقانون الدورات، فكأن رجليه تتكلمان قائلتين:

«فونيونكو فونيونكو ثنائية ثنائية

إذا ما ارتفعت واحدة تنزل الأخرى

يموت الملك و يتوج الأمير

ويموت الجد و يولد الحفيد

خصوصيات طلاق تمتزج بأصداء حفلة الزواج...»

و يقول المكوك من جهته:

«أنا سفينة القدر

أمر بين صخور خيوط اللحمية

التي تمثل الحياة

من الجانب الايمن الى الجانب الأيسر

ناشراً أمعائي (الخيوط)

لأساهم في البناء

ثم من الجانب الايسر الى الجانب الايمن

ناشراً أمعائي

والحياة ذهاب وإياب مستمر

تضحية مستمرة بالذات»

وقطعة النسيج المتجمعة المطوية على عصي مرتكزة على بطن النساج تمثل الماضي بينما يرمز

مطوى الخيوط المنسوجة الى سر الغد والمصير المجهول. وسيقول النساج دائما: «أيها الغد لا تحتفظ لي بمفاجأة كريهة».

ويمثل شغل النساج في الجملة ثماني حركات من الذهاب والاياب (بالرجلين واليدين والمكوك والتقاطع الايقاعي لخيوط اللحمة) تقابل خشبات الهيكل الثمان وسوق العنكبوت الاسطوانية الثمان تلك التي علمت علمها حد النساج.

وحركات النساج وهويشغل المنوال هي الخلق أثناء عمله، وكلماته المصاحبة لحركاته هي انشودة الحياة نفسها.

واما الحداد التقليدي، فهو مستودع سر الاستحالات، فهو «سيد النار» من أعلى طراز أصله اسطوري، وفي مأثوري البامبر، يدعى «ابن الأرض الأول» وترجع معلوماته الى ما الانسان الأول. وقد علمه الخالق مانكالا فيما علمه، أسرار «الحدادة»، ولذا سمي كور الحدادة فان أي باسم فان، البيضة الاصلية التي خرج منها العالم كله وكانت المصهر المقدس الأول.

وترتبط عناصر المصهر برمز جنسية هي عبارة عن عمل كوني للخلق أو انعكاسه.

فالزقان المستديران اللذان يحركهما مساعد الحداد يشبهان بخصيتي الذكر، وما يمثلان به من الهواء هي مادة الحياة المرسل، من خلال نوع من الجعاب يمثلها القضيب، الى موقد المصهر المتمثل في الرحم حيث تعمل النار المحولة.

فلا يدخل الحداد التقليدي المصهر الا بعد الاستحمام الشعائري كي يتطهر، يهأ له الحمام بطبيخ بعض الاوراق والقشور والجذور من الاشجار، تختار بحسب اليوم. فالنباتات (كالمعادن والحيوانات) تقسم الى سبعة أصناف تقابل أيام الاسبوع وتقترب بقانون «التقابل القياسي» (١١) ثم يرتدي الحداد زيا خاصا اذا لا يمكنه أن يدخل المصهر وعليه ثياب غير لائقة. وكل صباح، يطهر الحداد المصهر ببخورات خاصة مستمدة من نباتات يعرفها.

واذا ما تمت هذه العمليات، واذا ما اغتسل الحداد من كل ما لاصقه في الخارج يكون في حالة طقوسية ويصير طاهرا شبيها بالحداد الأصلي، واذاك فحسب يكون في امكانه الاقتداء بمانكالا، أن «يخلق» بتغيير العادة وصنعها (واسم الحداد بالفلانية هو بيلوأي، حرفيا، المحول المغير) ويذكر الحداد قبل الشروع في العمل العناصر الاصلية للخلق الاربعة (التراب والماء والهواء والنار) وهي جميعا، يتحتم تمثيلها في المصهر، ففيه دائما حوض ماء والنار في الموقد والهواء يبعث به الزقان وبجوار المصهر كدس صغير من التراب.

ويتفوه الحداد أثناء شغله بكلمات خاصة عند لمسه كل آلة، فعند لمسه للسندان، رمز القابلية النسائية، يقول: «لست مانكالا، بل أنا ممثل مانكالا. فهو الخالق، لا أنا» ثم يأخذ الماء أو بيضة ويهدبها السندان قائلا: «هذا مهرك».

و يأخذ مطرقة الضخمة، رمز القضيب، ويضرب بها ضربات على السندان «ليحسسه» ويتم هكذا الإتصال، ويصير في امكانه أن يشرع في العمل.

(١١) عن قانون التقابل القياسي انظر أ. هباتي با: مظاهر من الحضارة الافريقية الحضور الافريقي، باريس، ١٩٧٢، ص ١٢٠ وما بعدها.

وعلى المساعد ألا يسأل أي سؤال، وما عليه إلا أن ينظر وأن ينفخ. وهذا هو الطور «الصامت» في التدرّيب. وكلما تقدم في المعرفة يكون نفخه حسب إيقاعات تزداد تشعباً، ولكل إيقاع مدلوله، ثم أثناء الطور الشفاهي من التدرّيب، ينقل المعلم كل معلوماته إلى تلميذه شيئاً فشيئاً، ويمر به ويسدد خطاه إلى أن يحصل على الأستاذية، فيمكن الحداد الجديد بعد «حفلة تحرر» أن يفارق أستاذه وأن يجعل لنفسه مصهراً خاصاً.

وعموماً إن الحداد يرسل بأبنائه للتدرّيب عند حداد آخر. وكما يقول المثل: «ليس أزواج المعلم وأبنائه خيرة تلاميذه».

وهكذا فإن الصانع التقليدي، عندما ينسج على منوال مانكالا «مكرراً» بحركاته الخلق الأولى، لا يقوم «بعمل» بالمفهوم الاقتصادي المحض بل بوظيفة مقدسة تدخل فيها قوى الحياة الأساسية وتجعل الصانع ملتزماً بكل ذاته. ففي سر مصنعه أو مصهره هو يساهم في السر المتجدد للخلق الأزلي. وينبغي أن تغطي معارف الحداد قطاعاً فسيحاً من الحياة. هو باطني شهير ومهارته في أسرار النار والحديد تؤهله وحده لعملية الختان، وكما شاهدنا فإن «مالك السكين» في تدرّيب الكومو هو الحداد دائماً. فليس هو مجرد عالم بكل ما له صلة بالمعادن، بل إنه يعرف تمام المعرفة تصنيف النباتات وخصائصها.

وحداد الفرن العالي في آن واحد مستخرج للمعدن وصاهر وهو الأقوى معرفة. فيضيف إلى معارف الحداد الصاهر معرفة تامة بأبناء قلب الأرض (علم المعادن) ومعرفة أسرار الأدغال والنباتات. وهو يعرف العمران النباتي الذي يغطي الأرض إذا ما حوت معدناً معلوماً، ويعرف كيف يتحسس مناجم الذهب بمجرد النظر في النباتات والحجارة.

وهو يعلم تعزيمات الأرض وتعزيمات النباتات. وإذا اعتبرت الطبيعة حية تنشطها قوى، فكل عمل لابد أن تصحبه «آداب للسلوك شعائرية» من شأنها أن تحفظ توازنه المقدس وأن تحميه، فكل الأمور مرتبطة بعضها ببعض، ولكل صدى في الكل، وكل عمل يزعزع قوى الحياة وتتبعه سلسلة من النتائج التي يتحمل الإنسان ردود فعلها.

وكانت علاقة الإنسان التقليدي اذن بالعالم علاقة حية من المشاركة لا مجرد علاقة استعمال. ومن المفهوم في هذه النظرة الشاملة للعالم أن مكانة الجاهل ضئيلة.

وفي بلاد باولي القديمة مثلاً، كان الذهب الذي تعج به الأرض يعتبر معدناً إلهياً، ولم يكن مادة استغلال متطرفة. فكان يستخدم بخاصة لصنع أدوات الملك وأدوات الثقافة، وكان يقوم أيضاً بدور العملة للتبادل في صورة هدية. وكان في إمكان الكل أن يستخرجوه ولكنه لم يكن في وسع أحد أن يحتفظ لنفسه بتبر يتجاوز حجماً معيناً.

وكل تبر تجاوز الوزن العادي يسلم إلى الإله ويفخم «الذهب الملكي» ذلك المستودع المقدس الذي لم يكن في وسع الملوك أنفسهم أن يغترفوا منه. وتناقلت هكذا بعض الكنوز الملكية دون أن تتغير حتى الاحتلال الأوربي، فالأرض لله وليس لاحد أن يملكها، بل له منها فقط حق الانتفاع. ولنعبد إلى الصانع التقليدي، فهو المثال النموذجي لتجسيم معارفه ليس في حركاته وأفعاله فقط بل في حياته كاملة، إذ من واجبه أن يتجنب مجموعة من المحرمات، وأن يقوم بعدة واجبات مقترنة بوظيفته، وذلك قانون حقيقي للسلوك إزاء الطبيعة وإزاء بني جنسه.

فيوجد ما يسمى «طريق الحدادين» في (البامبرا، نوموسيرا أو نومويا) و «طريق الفلاحين» و «طريق النساجين» الخ وفي مستوى الجنسية طريق الفلانيين (لؤل فلفلد) وهي قوانين حقيقية أخلاقية واجتماعية وقضائية خاصة بكل مجموعة، نقلت بأمانة واحترمت عن طريق المأثور المنقول. ويمكن القول إن الصناعة أو الوظيفة التقليدية تجسم ذات الانسان وذلك هو كل الفرق بين التربية العصرية والمأثور المنقول.

فكل ما يدرس في المدرسة الغربية مهما كان مفيدا فاننا لا نعيشه دائما بينما تتجسم المعرفة المتوارثة بواسطة الرواية الشفاهية في الكائن بأكمله:

وتجسم الآلات وأدوات الصناعة الكلمات المقدسة، فيضطر المتعلم عند اتصاله بالصناعة، وعند كل حركة أن يعيش الكلمة.

ولهذا فان التراث المنقول في مجموعه، لا يتلخص في نقل الأخبار أو بعض المعارف، بل هو يولد ويكون نموذجا خاصا للانسان ويمكن أن يقال، توجد حضارة الحائكين وحضارة الرعاة الخ...

اني اقتصرت هنا على التعمق في مثال الحائكين والحدادين، اذ هي افوخجية خاصة، ولكن كل نشاط تقليدي يكون عموما مدرسة عظيمة للتدريب، أو هي سحرية دينية، ومسلك نحو الوحدة التي هي «حسب المدرسين» إنعكاس لها أو عبارة من عباراتها الخاصة.

وللاحتفاظ داخل النسب بالمعلومات السرية والقوى السحرية المتوارثة، فان على كل مجموعة غالبا أن تراقب المحرمات الجنسية القاسية ازاء الاشخاص الخارجة عن المجموعة، وان تتعاطى التزاوج داخلها. وليست علة ذلك اذن فكرة النبذ والتحذر من التعاطي مع الغير، بل هي ارادة الاحتفاظ في المجموعة بالأسرار الشعائرية. ونرى هكذا كيف وصلت هذه الجموع المتخصصة تخصصا ضيقا، والمتصلة بالوظائف المقدسة شيئا فشيئا الى فكرة «الطبقة» كما هي موجودة اليوم في افريقيا السهوب. يقول المثل: «إن الحرب والشريف هما اللذان صنعا الاسير، ولكن الله هو الذي كون الصانع (نياما كالا)».

ان فكرة التفوق أو الدونية بالنسبة الى الطبقات، لا تتركز على أي واقع اجتماعي تقليدي، وقد ظهرت على مر الازمنة في بعض الجهات فحسب، ومن الراجح أن يكون ذلك تابعا لظهور بعض الامبراطوريات، حيث قامت الوظيفة الحربية المخصصة للاشراف، بمنح هؤلاء ضربا من التفوق. وفي الازمنة العتيقة بدون شك، فان فكرة النبالة لم تكن هي عينها، وكان للسلطة الروحية الأولية تفوق على السلطة الزمنية. وفي تلك الازمنة كان السيلاتيقي (الشيخوخ العارفون الفلانيون) وليس الأردو (الرؤساء والملوك) هم الذين يسيرون المجموعات الفلانية.

وخلافا لما كتب أو ظن بعضهم، فان الحداد في افريقيا يخشى أكثر مما يحترق هو «أول ابن للارض»، مالك للنار ومارس للقوى السرية. فيخشى على الأخص ماله من سلطة.

وعلى كل فان التقاليد أوجبت على الاشراف أن يحققوا القيام بشؤون الفئات «الطبقية» أو فئات النياما كالا (في البامبرا) (نيانيو وجمعه نيابي بالفلانية) فكان لهذه الفئات ميزة امكانية طلب الخيرات (أو المال) لا كأجر عن عمل، بل كحق لاسبيل للاشراف أن يرفضوه.

وفي تقاليد مندي ومجاله في مالي، وإن كان يمتد قليلا أو كثيرا على كامل تراب بافور القديم (أي

قديمًا افريقيا الغربية الفرنسية ما عدا مناطق الغابة وشرقي النيجر) فان الفئات الطبقيّة تشتمل على:

- الحدادين (نوموفي لغة ببارا، بايلوبالفلائية)
- الحائكين (مابو، بالفلائية كما في الببارا)
- عمال الخشب (من حطابين ونجاري الاثاث، ساكي بلغة بامبارا ولاوبوفالفلائية)
- عمال الجلد (كرانكي بالبامبارا، سكي بالفلائية)
- المنشطين العموميين أي القصاصين (ديالي بالبامبارا، ويسمون بالفلائية بالاسم العام نيايبي، نياماكالا) ويعرفون بالفرنسية باسم غريو (Griots).
- ومع أنه لاوجود للتفوقيّة بالمعنى الكامل، فإن الفئات الأربع للنياماكالا الصناع، لهم الاولوية على القصاصين، اذ هي تقابل تدريبات ومعرفة. ففي القمة يوجد الحداد، ثم يليه الحائك اذ صناعتهما أكثر تدريسًا. وللحدادين والحائكين أن يتزوجوا على السواء من نساء الفريقين اذا كنّ من الفخارين التقليديين ولهن عين التدريب النسائي.
- وفي تصنيف ماندي يكون الصناع نياماكالا مصنفين دائماً ثلاثة ثلاثة: فهناك ثلاثة حدادين (نوموفي البامبارا وبيلوفي الفلائية).

احدهم حداد منجم (أوذو فرن عال) يستخرج المعدن و يصهر الفلز. وكبار العارفين منهم يمكنهم العمل أيضا في المصهر.

والثاني حداد الحديد الأسود، وهو يعمل في المصهر ولا يستخرج المعدن.

والثالث حداد المعادن الكرمة، او الصائغ، وهو عامة من أهل البلاط وهذه الصفة يستقر في سقيفة الرؤساء أو النبلاء.

وهناك ثلاثة نساجين: مابو

— نساج الصوف، وهو اعرفهم، والصور المرسومة على البطانيات دائما رمزية، وترتبط بأسرار الأعداد وعلم الكونيات، ولكل رسم اسم.

— نساج الكركا، وينسج بطانيات كبيرة والناموسيات أو الكلات من القطن، يمكن أن يبلغ طولها ستة أمتار، وعليها لا نهاية من الصيغ التصويرية. ويشاهد منها ما يشتمل على ١٦٥ عنصرا فنيا (ولكل عنصرا اسم ومدلول، والاسم نفسه رمز يدل على الكثير من المعاني).

— النساج العادي، و يصنع أشرطة بسيطة بيضاء ولا يتلقى تدريبا كبيرا وقد يستعمل الاشراف النسج العادي، ومن ذلك بعض البامبرا حيث يصنعون قطعاً بيضاء دون أن يكونوا من فريق النساجين، ولكنهم ليسوا عارفين وليس في وسعهم أن ينسجوا الكركا ولا الصوف ولا الناموسيات.

ويوجد ثلاثة أنواع من عمال الخشب (ساكي في بامبرا ولاتوفي الفلائية).

— صانع المهاريس والمدقات والدميات المقدسة. فالمهراس الذي تدق فيه الادوية المقدسة آلة شعائرية ولا يصنع من أي نوع من الأخشاب. وهو، كالمصهر، يرمز الى القوتين الأساسيتين: المهراس كالسندان يمثل القطب المؤنث بينما يمثل المدق، كالمطرقة، القطب المذكور.

وتصنع الدميات المقدسة بطلب من عارف — دوما «يشحنها» بطاقة مقدسة بقصد استعمال



- (١) عازف على آلة الـ «قالها»  
الخشبية ذات الاوتار الفولاذية.  
(مجموعة متحف الانسان).
- (٢) فنان (شاعر وقصاص وعازف)  
متجول من شعب الـ «هوتو» يمثل دور  
الموامي (السيد) الذي تدهورت به  
الحال. (مجموعة ب. مائتيه).



معين. وعلاوة على شعائرية «الشحن» يجب أن يتم اختيار الخشب وتفصيله في ظروف خاصة يعلم الحطاب سرها.

وصانع الخشب يقطع هو نفسه ما يحتاج إليه من خشب، فهو أيضا حطاب و يقرن تدريبه بمعرفة أسرار الادغال والنباتات. وحيث ان الاشجار تعتبر حية مكونة من أرواح أخرى حية، فلا تقلع ولا تقطع بدون تحفظات طقوسية خاصة يعلمها الحطاب.

— صانع الأدوات أو أثاث المنزل من خشب.

— صانع الزوارق الجلدية، ويجب عليه أن يكون عارفا أيضا بأسرار الماء.

وفي مالي ان السومونو وقد صاروا صيادي أسماك دون أن يكونوا من جنس البوزو، شرعوا في صنع الزوارق الجلدية بدورهم. وهم اللذين يشاهدون بصدد العمل بين كولييكورو وموبيتي على ضفاف النيجر.

وهناك ثلاثة أصناف من عمال الجلد (كرانكي بالبامبرية وساكي بالفلاندية):

— صانعو الأحذية.

— البرادعيون.

— السراجون.

وعمل الجلد يقابل أيضا تدريبا، فالكرانكي اشتهروا كثيرا بكونهم سحرة. والصيادون وصيادوا الأسماك والفلاحون لا يعتبرون طبقات بل أجناسا، ونشاط من أقدم أنواع النشاط في المجتمع البشري، و «الجنى» (فلاحة) و «الصيد» (و يشمل صيدين: في البر وعلى الماء) يمثلان مدرستين كبيرتين للتدريب، اذ لا تواجه قوى أرض الام المقدسة مواجهة كما يتفق، ولا كذلك قوى الأدغال حيث تعيش الحيوانات.

فالصياد كحداد القرن العالي يعرف عموما كل «تعازيم الادغال» وينبغي له أن يملك بتعمق علم العالم الحيواني.

والمستطبون (بواسطة الأعشاب و «بموهبة الكلمة») قد ينتمون الى أي طبقة أو أي جنس، وهم

غالباً من الدوما.

ولكل شعب غالبا ميراث من المواهب الخاصة نقل بالتدريـب جيلا بعد جيل. فالدوكون في مالي اشتهروا بمعرفة سراجذام الذي يعالجه بسرعة كبيرة دون أن يبقى أي أثر، وكذلك سرمعالجة السل. وهم علاوة على ذلك مجبرون بارعون، يعلمون كيف يرجعون العظام المكسورة الى محلها حتى في حالي الكسور الخطيرة جدا.

## المنشطون العموميون أو «القصاصون» (الديلي في البامبرا)

اذا كانت العلوم الباطنية الحفية نصيب «أصحاب السكين» ومنشدي الالهة، فالموسيقى والشعر الغنائي والقصاص التي تنشط التسلية الشعبية والتاريخ أحيانا، ترجع كلها الى «القصاصين» وهم نوع من المنشدين المتجولين أو الشعراء الموسيقيين الذين يجوبون البلاد أو يخدمون أسرة من الأسر.



وكثيرا ما ظن خطأ أنهم «التقليديون» الوحيدون الممكنون. فمن هم؟

انهم يقسمون الى ثلاثة أصناف:

- «القصاصون» الموسيقيون الذين يوقعون على الآلات كلها (وحيدة الوتر والقيثارة والكُر والدف الخ)، هم أحيانا مغنون رائعون يحفظون الموسيقى القديمة وينقلونها وهم في آن واحد ملحنون.
- «القصاصون المسفراء» والملحونون بالبلاطات وهم يتكفلون بالوساطة بين كبار العائلات اذا كانت بينها خصومات. وهم دائما مرتبطون بأسرة مالكة أو شريفة وأحيانا بشخص واحد.
- القصاصون النسابون، المؤرخون أو الشعراء (أو ثلاثهم معا) وهم بصورة عامة أيضا قصاصون ورجالون غير مرتبطين حتما بأسرة من الأسر.

وتمنحهم التقاليد نظاما خاصا ضمن المجتمع. وخلافا للهورون (الاشراف) كان لهم الحق في الجسارة وفي حرية كبيرة في القول وفي سماعهم أن يبدأوا غير متحرجين بل وتحين وقد يمزحون في أمور كبيرة جديدة أو كبيرة التقديس دون أن يؤخذوا على ذلك. وليسوا مقيدين بحفظ السر أو باحترام الحق احتراماً مطلقاً. فقد يكدبون بكل جرأة وليس لأحد أن يقسو عليهم «هكذا قال الديلي فليس هذا هو الحقيقة الحق، ولكننا نقبله على هذا الشكل» فهذا المثل يبين الى أي حد تقبل التقاليد دون اغترار تزييفات الديلي وتقول عنهم «ان لهم فم ممزقا».

وفي تراث البافور كله يحجر على الشريف أو الرئيس أن يتعاطي الموسيقى في الاجتماعات العامة، كما هو يلتزم بالتلطف في العبارة أو الكلمة يقول المثل: «لا يليق الهذربفم الهورون» لذا يؤول الأمر طبعاً بالقصاصين المرتبطين بالأسر الى أن يقوموا بدور الوساطة أو حتى السفارة اذا نجمت مشاكل كبيرة أو صغيرة، وهم «لسان» مولاهم.

واذا كان بينهم وبين أسرة أو شخص ولاء، فهم يكلفون عادة بقضاء الحوائج العادية وخاصة بالقيام بالمساعي الرامية الى عقد زواج، فالشاب الشريف مثلاً لا يخاطب مباشرة امرأة ليبوح لها بحبه، بل يكلف بذلك «قصاصه» الذي يتصل بالبنت أو «بقصاصتها» ليصرح لها بمشاعر مولاها وليطري لها مزاياءه.

ويعتمد المجتمع الافريقي أساساً على الحوار بين الأفراد، والخطاب بين المجموعات أو الأجناس، فيكون الديلي أي «القصاصون» العمال الناشطين الطبيعيين لهذه المحاورات وإذا سمح لهم أن يكون لهم «لسانان في فيهم» فقد ينكثون كلمتهم إذ اقتضى الأمر دون أن يؤخذوا على ذلك، وهذا ما لا يمكن للشريف، إذ لا يسمح له بالرجوع فجأة في كلمته أو في القرار الذي أخذه، بل ان «القصاصين» قد ينسبون لأنفسهم ذنباً لم يقترفوه لارجاع المياه الى مجاريها أو لالتماس مخرج للشرفاء. وللحكماء الشيوخ في المجموعة وحدها أن يجلسوا جلسات سرية وأن يتحملوا العبء الثقيل المتمثل في «النظر الى الأمور من الكوة اللائقة» ولكنه من خصائص «القصاصين» أن ينفذوا ما أقره الحكماء وسطوره. ولقد درّب «القصاصون» على تلقي الأخبار وعلى نشرها، فهم الحملة الكبار للأخبار ولكنهم في الوقت ذاته هم مثيروا القيل والقال.

واسمهم بالامبراء، ديلي، يعني «الدم» فهم بمثابة الدم يحلون في جسم المجتمع، يبرثونه من علة أو مريضونه، كما يلففون به الخصومات بكلامهم وبأناشيدهم أو يشعلون أوارها.

على أننا نصرح منذ الآن، أن تلك هي الخاصيات العامة، ولكن ليس كل القصاصين حتماً

وقحين سيئتي الخلق، بل بالعكس، انه يوجد من بينهم من يسمون «القصاصين الملوك» دييلي فاما. لا ينقصون شيئا عن الشرفاء من حيث الشجاعة وحسن الخلق والفضائل والحكمة، وهم لا يتجاوزون أبدا ما يمنحهم العرف من حقوق.

وكان القصاصون عاملا نشيطا عظيميا للإتصال البشري ولتبادل الثقافة، فكثيرا ما كان لهم ذكاء كبير، وقد قاموا بدور عظيم في المجتمع التقليدي ببافور بفضل نفوذهم على الاشراف والرؤساء. وفي كل المناسبات، حتى اليوم، هم يحسون أنفة الشريف العصبية ويثيرونها بأناشيدهم، أحيانا للحصول على الجوائز، وأخرى لتشجيع الشريف في ظرف عصب.

وفي السهرة قبل الختان مثلا، يشجعون الطفل أو الشاب حتى يعرف بصبره كيف يبدو جديرا بأجداده. فيقول المغني عند الفلانيين: «ان أباك (١٢) فلانا في ساحة الوغى ابتلع عصيدة الحديد الحامية» (الخرطيش) دون أن يحرك جفنا، فأرجوك غدا أن لا تبدي خوفا من سكين الحداد المرفف. وفي حفلة العصا أو سور لدى فلانيي برورو بالنجر، يعاضد القصاصون الشاب بأناشيدهم حتى يبرهن على شجاعته وصبره عند تلقية ضربات العصا القاسية على صدره، دون أن يرتجف له جفن ولا تفارقة الإبتسامة.

وساهم القصاصون في كل معارف التاريخ بجانب مواليمهم محمسين لهم بذكر أنسابهم وإيادي آبائهم وأجدادهم. وذلك لما في ذكر الاسم من قوة عند الافريقي، فترديد عمود نسبه يحیی الافريقي ويمدح.

وكان نفوذ الديلي عبر التاريخ طيبا أو رديئا بحسب ما كانت كلماتهم تثير من نخوة الرؤساء وتدفعهم الى تجاوز الحدود أو بحسب ما كانت تذكرهم باحترام واجباتهم التقليدية — كما كان الشأن غالبا.

وكما نرى فان تاريخ الامبراطوريات العظيمة في افريقيا البافور لا ينفصل عن دور الديلي الذي يستحق وحده دراسة معمقة.

وانما يمكن السري قوة الديلي ونفوذهم في الهورون (الشرفاء) في معرفتهم للانساب ولتاريخ أسرهم. حتى أن بعضهم قد جعل من هذه المعرفة له اختصاصا، وهذا الصنف من القصاصين كثيرا ما لا ينتمي الى اسرة بعينها، فهم يجوبون البلاد باحثين عن أخبار تاريخية دائما في اتساع. وذاك يضمن لهم الامتلاك لوسيلة تكاد تكون سحرية لا يقاد التحمس لدى الاشراف عند انشادهم لهم انسابهم وشعاراتهم وتاريخهم فيتلقون منهم بصفة آلية جزيل العطايا، فقد يتخلى الشريف عن كل ما يحمل معه وكل ما ببيتة ليكافئ قصاصا عرف كيف يضرب على وتره الحساس. وأنى ذهب القصاصون فهم آمنون أمنا كبيرا للحصول على قوتهم.

ولا يظن أحد مع ذلك أن الأمر متعلق «بأجر عن عمل»، ففكرة الأجر عن العمل منافية للتصور التقليدي لحق النيامكالا على الطبقات الشريفة (١٣)، فهما كانت ثورة الأشراف وحتى

(١٢) أبوك في اللغة الافريقية قد يعني أيضا عمك أو جدك أو جدك الأعلى هونسي كامل من جهة الأب.

(١٣) شريف ترجمة تقريبية جدا لهورون، والواقع أن الهورون، هو كل من لا ينتمي الى طبقة النيامكالا ولا الى طبقة الجون (الأسرى) التي نشأت اثرسي حروب قديمة. ويجب على الهورون أن يحققوا الدفاع عن المجموعة وان يبذلوا حياتهم في سبيلها وان يضمنوا شؤون سائر الطبقات.

لدى افقرهم فانه يجب على هؤلاء تقليديا أن يبذلوا العطايا للديلي كما لكل نياما كالا أو ولوزو (١٤) «أسير الكوخ» ولو كان السائل أغنى بكثير من المعطي. وبصفة عامة أن طبقة الديلي هي الأكثر سؤالا، ولكن الديلي مهما كان ربحه فهو دائما فقير إذ هو ينفق بدون احتراز معتمدا على الاشراف ليتمكن من العيش.

فينشد القصاصون السائلون: «الا ان يد الشريف لا تبقى مغلوطة الى عنقه ببخل، بل هي دائما مستعدة للغوص في جيبه ليتبرع على السائل» وان اتفق أن توقفت الهدية فحذار من أذى «الرجل ذي الفم المحرم» «فلسنا» قد يفسدان الكثير من الامور ويحطون من الصيت.

ومن الوجهة الاقتصادية فان طبقة الديلي، كسائر طبقات النياما كالا وولوزو كلها يتحملها تماما المجتمع وخاصة طبقات الاشراف، وان ما تم من تغيير تدريجي للأوضاع الاقتصادية وللأخلاق نقص من هذا الوضع إذ حصل أشراف قدامى أو قصاصون قدامى على وظائف ذات رواتب، ولكن هذا التقليد بقي حيا وما يزال الناس ينفقون أموالهم بمناسبة أعياد التعميد أو حفلات الزواج ليدرؤا الهدايا على القصاصين الذين يقدمون لتنشط هذه الحفلات بغنائهم. وقد حاولت بعض الحكومات العصرية القضاء على هذه العادة ولكنها فيما أعلم لم تنجح بعد.

ومبدئيا فعل الديلي وهو من النياما كالا، أن يتزوج من طبقات النياما كالا. لقد شاهدنا كيف تمكن القصاصون النسابون المتخصصون في معرفة تاريخ العائلات وقد وهبوا غالبا ذاكرة عجيبة، من أن يصبحوا بطبيعة الحال بمثابة المثقفين للمجتمع الافريقي وأحيانا مؤرخين عظاما ولكن لا ننسى أنهم ليسوا وحدهم المختصين بهذه المعارف، فيمكن في الأكثر أن نسمي القصاصين المؤرخين «علماء تقليديين» ولكن مع الاحتراز ان هذا اما هو فرع تاريخي محض من التراث الذي له عدة فروع أخرى.

ولأن يولد الشخص، قصاصا (ديلي) فلا يلزم عنه حتما أن يكون الديلي مؤرخا، بل ذاك يهيؤه لأن يكونه، كما يترتب عليه أن يكون عالما في مادة التقاليد، «عارفا» وبصفة عامة ان طبقة الديلي أبعد الطبقات عن مجالات التدريب التي تفترض وجوب الصمت والستر وامتلاك الكلمة.

على أن امكانية صيرورتهم «عارفين» ليست محرومة عليهم ولا على غيرهم. وكما أن التقليدي الدوما (العارف التقليدي) قد يكون في الوقت نفسه عالما جليلا بالانساب ومؤرخا، فان القصاصة ككل فرد من أي صنف اجتماعي، في وسعه أن يصير تقليديا دوما اذا مكنته مواهبه من ذلك، واذا عاش التدريبات التابعة لذلك (ما عدا تدريب الكوموالمحرم عليه).

لقد ذكرنا أثناء هذه الدراسة مثالا من قصاصين «عارفين» يعيشان حاليا بمالي: إيوا وبنزومانا وهذا الأخير موسيقي كبير ومؤرخ وتقليدي دوما.

ان «القصاص» التقليدي الدوما في نفس الوقت، يمثل مصدرا للإرشادات موثوقا به تماما. إذ تمنحه صفة «العارف» التي يتصف بها قيمة أخلاقية عالية، وجدارة لامتناعه عن الكذب ويصبح إنسانا آخر. إنه هذا «القصاص الملك» الذي تحدث عنه أنفا، والذي يستفتي لحكمته ومعارفه، وهو وان كان يعرف كيف يسلي لا يبالغ في التمتع بحقوقه العرفية.

فاذا ما روى «القصاص» قصة يقال له عموما: «أهي قصة دييلي أم قصة دوما؟» فاذا كان

الاحتمال الأول قيل: «هذا قول دييلي» وبهذا يتوقع السامع بعض التجميل للحقيقة قصد ابراز ما كان لأسرة أو أخرى من دور، ولا يفعل التقليدي الدوما ذلك، اذ يهمل قبل كل شيء النقل الحقيقي.

فهذا تمييز لا بد منه اذا كنا أمام قصاص مؤرخ، ومن المناسب أن نعرف هل هو اعتيادي أو دوما، على أنه يجب أن نعترف أن أساس الأحداث قلما يغير، ولكنه منطلق القفز الى الوحي الشعري، أو المدح الذي يأتي على الأقل «لتزيينه» ان لم يكن ليحرفه.

ويجب أن نزيل سوء فهم ما زالت رواسته تبدو في بعض المعاجم الفرنسية. فقد عني بالقصاص (دييلي) أن يكون «ساحرا» وهذا لا يطابق أي واقع. فقد يتفق أن يكون قصاص كرتي تيجي «ملقيا الاذى بالسحر» كما قد يتفق ان يكون دوما «عارفا تقليديا» وذلك لا لكونه ولد قصاصا، بل لأنه درب وتحصل على المهارة، الصالحة أو الطالحة، في مدرسة شيخ في الفن.

ويأتي سوء الفهم من ايهام لفظ «كرويو» (قصاص) الذي يعني بالفرنسية أحيانا مجموع النيامكالا — والديلي جزء منها — وفي الأغلب طبقة الدييلي وحدها.

ويصرح الماثور أن النيامكالا كلهم سباء، ويعني ذلك الرجل المضطلع بالمعارف الخفية التي لا يعلمها الا المدربون، أي من بعض الجهات «العالم الباطن».

على أنه يخرج عن هذا المعنى طبقة فريق الدييلي وهم لا يتبعون أي مسلك خاص للتدرب فالنيامكالا الصانع هم السباء، ومن بين هؤلاء الكرانكي عامل الجلد، يتمتع بشهرة كونه «سباكا» أي ساحر بالمعنى السيئ للفظ، واني قد أظن أن لفظي سباء وسباجا اشتباها على المترجمين الأوروبيين الاوليين (لقرها في النطق) وان ايهام لفظ «كرويو» (القصاص) أكمل بقية الخلط.

فإذا جاء في الاثر أن «كل النيامكالا» هم من السباء «علماء الباطن» فقد فهموا، من ذلك ان النيامكالا هم من «السحرة» ونتج عن ذلك الاستعمال المزدوج للفظ كرويو الجماعي أو الخاص: «كل القصاصين سحرة» ومنه جاء سوء الفهم.

ومهما يكن من الأمر، فان قيمة الدييلي لا تكمن في خصائله المحتملة السحرية، بل في براعته في ممارسة الكلمة وهي شكل آخر من السخر.

وقبل أن نفارق «القصاصين» لنشر الى بعض الحالات الاستثنائية التي تجعلهم يلتبسون علينا. فقد نجد بعض النساكين وقد تركوا ممارسة الصناعة التفكيرية، فصاروا عازفي قيثارة. ويسميهم الفلانيون بمبادو (حرفيا «يحملون على الظهر») اذ يتحمل عبأهم دائما الرجل أو المجموعة: وهؤلاء الجبادو هم قصاصون دائما، وقد يكونون شعراء ونسابين ومؤرخين.

وقد يستعاض بعض الخطابين أدواتهم بالقيثارة، فيصرون موسيقيين ونسابين طيبين. فبوكارايو وادريس نكادا وقد كانا في علمي من بين كبار النسابين في فولتا العليا، كانا خطابين وصارا موسيقيين، ولكن ذلك من باب الاستثناء.

وقد يصير أيضا بعض الاشراف، وقد سقطوا، منشطين مسلين عموميين على أنهم ليسوا

موسيقيين (١٥) و يطلق عليهم اسم تياورتا (بالبربرا كما في الفلانية) وهم أكثر وقاحة وفجورا من أوقح القصاصين، ولا يحمل أحد أقوالهم على محمل الجد. ويسألون القصاصون الهدايا، فيفر هؤلاء كلما رأوا واحدا منهم.

ولئن كانت الموسيقى، عامة، هي الاختصاص الأعظم للديلي، الا أنه توجد مع ذلك موسيقى شعائرية يعزفها «العارفون» يصلحون بها الحفلات أو الرقصات الطقوسية. وأدوات هذه الموسيقى المقدسة هي أدوات ثقافية حقة تمكن من الاتصال بالقوى الخفية. وسواء أكانت ذات أوتار أو هوائية أو ايقاعية فإنها تبقى متصلة بالعناصر: التراب والهواء والماء. والموسيقى الصالحة «لتعزيم» أرواح النار هي من اختصاص جماعة «آكلي النار» الذين يطلق عليهم اسم كرسى — كولونين أو دونكاصورو.

## كيف يصير المرء تقليديا؟

كما أشرنا فان جميع الناس في افريقيا البافور كان بإمكانهم أن يصيروا تقليديين دوما أي «عارفين» في مادة أو عدة مواد تقليدية. وكانت المعرفة في متناول الكل (مع وجود التدريب في كل مكان بشكل أو بآخر) وكان الحصول عليها تابعا لمواهب كل منهم.

وكان للمعرفة من القيمة ما جعلها تفوق كل شيء وتكسب الشرف. فالعارف، في أي مادة من المواد، كان له أن يجلس في مجلس القدماء المكلفين بإدارة المجموعة، مهما كان صنفه الاجتماعي، هورون (شريف) نيامكالا أو ولوزو (أسير الكوخ). والمثل يقول: «ان المعرفة لا تعرف العرق و الباب الأبوي (أي الفریق)، وهي تكسب صاحبها الشرف.

ولم تكن التربية الافريقية نظامية تشابه التدريس الاوربي. وكانت تكتسب على طول الحياة، وكانت الحياة ذاتها هي التربية. فحتى سن الاثني والاربعين في البافور، كان من المفروض أن يكون الانسان في مدرسة الحياة «ولا حق له في الكلمة» في الاجتماعات، الا بصفة استثنائية. فهو من المفروض أن لا يزال «مستمعا» معمقا المعارف التي كان تلقاها انطلاقا من تدريره في الحادية والعشرين من عمره.

وابتداء من سن ٤٢ من المفروض أنه هضم التعاليم التي تلقاها منذ الصغر وتعمق فيها، وصار له حق الكلمة في المجالس وصار بدوره معلما يعيد الى المجتمع ما كان قد أخذه منه، ولكن ذلك لا يمنعه اذا كان له غرض في ذلك، أن يتابع تعلمه من لدى من هم أكبر منه سنا ملتصا نصائحهم. وكان يجد الشيخ من هو أسن منه أو من هو أعلم منه يسأله رأيا أو تكملة لخير. ويقال: «ان الاذن كل يوم تسمع ما لم تكن سمعته من قبل» وهكذا كان في الامكان أن تدوم التربية كل الحياة.

فبعدما تعلم الشاب النيامكالا الصانع صناعته وبعدها تناول التدريب التابع لها، يكون مستعدا لأن يطير بجناحيه وكثيرا ما كان ينتقل من قرية الى قرية طالبا المزيد من معارفه لدى

(١٥) لنذكر ان المهورون (الاشراف) البيل أو الببرا لا يعزفون أبدا أي نوع من الموسيقى على الأقل بين العموم ولقد حافظ التياورتا عامة على هذه العادة.

شيوخ جدد. فيقول الناس: «من لم يسافر لم ير شيئا» لذا كان يذهب من معمل الى معمل متجولا الى أبعد ما يمكن في البلاد. فأهل الجبل كانوا ينزلون الى السهل، وأهل السهل يصعدون الى الجبل، وأهل بلي دو كوالى مندي الخ. الخ. وللتعريف بنفسه، كان الحداد الشاب يتأبط زقه في سفره، والخطاب شاقوره، أو بليطته، وكان النساج يحمل منواله على ظهره، وعلى كتفه مكوكه أو بكرته، والحدائي كان يسك حقيق ألوانه الصغيرة.

ولما كان الشاب يصل إلى قرية كبيرة حيث تكون الحرف متجمعة حسب الأحياء كان يوجه الى الحلي الذي يضم المحترفين الذين ينتمي الى حرفتهم. وكان أثناء سفراته وبحوثه، يحصل على مقدار من المعلومات يكبر أو يصغر بحسب براعته وطبيعته ذاكرته، وبصفة خاصة بحسب طبعه. فان كان مهذبا سهل الجانب، سريعا في مديد المساعدة، كان الشيوخ يكشفون له أسراراً كانوا يخفونها عن غيره اذ كما قيل: «ان سر الشيوخ لا يقتنى بالمال، ولكن بالسلوك الحسن».

وأما الشباب الهورون فيقضي طفولته في قصر أبيه وفي القرية حيث يحضر كل الاجتماعات ويسمع ما يحكيه كل أحد، ويحفظ كل ما يمكنه أن يحفظه. وفي جلسات المساء في «جمعية السن» كان كل طفل يروي ما سمع من القصص التاريخية والتدريسية — ولكن في هذه الحالة دون أن يدرك كل مغزاها.

ومنذ السابعة من عمره يلحق آليا بجمعية التدريب في قريته، ويشرح في تلقي التعاليم منها. وهذه التعاليم كما رأينا أنفا تخص كل أوجه الحياة.

واذا ما روى شيخ قصة تدريبية في جمعية، فهو يشرح رمزيها بحسب نوعية مستمعيه وملكة فهمهم، فقد يجعل منها مجرد قصة عجيبة للأطفال تتضمن معنى أخلاقيا تربويا، أو درساً معمقا عن أسرار الطبيعة البشرية وعلاقتها بالعالم الخفية. وكل يحفظ أو يدرك بحسب مؤهلاته.

وكذلك الأمر بالنسبة للأخبار التاريخية التي تنشط الاجتماعات، حيث تذكر الأحداث وحركات القدامى أو أبطال البلد بأقصى تفاصيلها. ويسمع الغريب المار بالقرية أخبار البلدان النائية. وهكذا يكون الطفل منغمسا في محيط ثقافي خاص يتشبع منه حسب خصال ذاكرته. ويصبح التاريخ والقصص والروايات والأمثال والمغازي معالم في حياته.

وبصفة عامة فان الهورون الشاب لا يتغرب، اذ هو مهيا للدفاع عن بلده. فيساهم في أشغال أبيه، وقد يكون فلاحا أو خياطا أو ممارسا لنشاط من سائر الأنواع المخصصة لطبقة الهورون، وان كان فلانيا تبع نخيم آبائه، وتعلم منذ زمن مبكر كيف يحرس وحده قطعانه في قلب الأدغال ليلاً ونهاراً، ويتلقى التربية الفلانية المقترنة برمزية البقرات.

وبصفة عامة لا يصير الرجل تقليديا دوماً وهوايا في قريته. فالداوي اذا اراد التعمق في معارفه، يجب عليه أن يسافر ليتعرف على مختلف أنواع النباتات، وأن يتلقى المعلومات من سائر العارفين في هذه المادة.

والانسان الذي يسافر يكتشف ويعش تدريبات أخرى، ويسجل الفروق أو التشابهات،

ويفسح مجال ادراكه. ومهما يكن فهو يساهم في الاجتماعات ويستمتع الى أخبار تاريخية ويتوقف عند ناقل ضليع في التدريب أو في الانساب، ويتفتح على تاريخ البلدان التي يمر بها وعلى عواثدها. ويمكن أن يقال ان من صار تقليديا دوما قد كان كل حياته بحثا سائلا وأنه لا يفتأ دائما كذلك. وكان الافريقي في السهوب يسافر بكثرة، ونتج عن ذلك تبادل للمعارف وانتقالها. وهكذا قلما كانت الذاكرة التاريخية الجماعية في افريقيا مقتصرة على مكان واحد، بل هي مرتبطة بالسلاسل والعروق التي هاجرت عبر القارة.

وكانت قوافل عدّة تشق البلاد على شبكة من الطرقات الخاصة المحمية تقليديا من قبل الالهة والملوك، حيث يأمن المسافر من الغزو والتعدي. ولولا ذلك الأمن لكان عرضة الى غارة من الغارات، أو دون أن يعلم، الى ارتكاب خرق حرمة محلية، ودفع الغالي من جراء ذلك. وعند ما يحل المسافرون ببلد مجهول، يتجهون عند أحد أعيانه كي «ينحوه رأسهم» فيصير هكذا هو الضامن لهم، اذ «من مس الضيف مس المضيف ذاته».

وأما عالم الأنساب الكبير فهو حتما ودائما، رحالة كبير. فان أمكن للقصاص أن يكتفي بمعرفة نسب الأسرة التي تعلق بها، فعالم الأنساب الحق — سواء كان قصاصا أولا — يجب عليه حتما، أن يخترق البلدان ليوسع معلوماته، وليستخبر عن أهم الفروع لعرق معين، ثم يجب عليه أن يرحل الى الخارج ليسترشد عن تاريخ الفروع المهاجرة.

وهكذا فان مولوم كاولو، كان أكبر عالم بالأنساب الفلانية عرفته، كان متمكنا من أنساب كل الفلانيين بالسنگال. واذا منعه كبر سنه من التنقل أرسل ابنه ممادو مولوم، ليتابع بحثه لدى عائلات الفلانيين المهاجرة عبر السودان (مالي) مع الحاج عمر. ففي المدة التي عرفت فيها مولوم كاولو، كان قد جمع وحفظ تاريخ الماضي لنحو الأربعين جيلا.

وكان من عاداته أن يحضر في كل حفلات التسمية أو المآتم في الاسر الكبيرة ليسجل ظروف الولادات والوفيات التي كان يضيفها الى القوائم المستودعة في ذاكرته العجيبة. في امكانه أن يقول لكل شخصية فلانية « انت ابن فلان وابوه فلان بن فلان وابوه فلان بن فلان الخ » وقد توفوا في المحل الفلاني ويذكر أسباب وفاتهم وأين دفنوا أو يقول: «أسمي فلان في يوم كذا وساعة كذا، على يد الولي فلان...» بالطبع أن كل هذه المعلومات كانت وما زالت تنقل شفاهيا، وتسجل في ذاكرة عالم الأنساب وحده. وليس في الامكان أن نتصور ما يمكن أن تحتزنه ذاكرة الأمي. فخير يسمعه مرة واحدة ينقش كما لو أنك نقشته في قالب يظهر من جديد من أول كلمة إلى آخر كلمة، اذا ما طلبت منه الذاكرة ذلك.

وتوفي مولود كاولو عن سن ١٠٥ سنة حوالي عام ١٩٦٨ فيما أظن، وأما ابنه ممادو كاولو فعمره اليوم ٥٠ سنة، وهو يعيش في مالي حيث يواصل عمل أبيه، بعين الطرق الشفاهية المحضة اذ هو أيضا أمي.

وهاب كاولو، معاصر لمادو وكاولو، وهو ما زال على قيد الحياة وقد قام من جهته ببحث عن العروق الفلندية اللسان (فلانيين ونكروا) في التشاد والكامرون وفي جمهورية افريقيا الوسطى وحتى الزاير، ليسترشد عن الانساب والتاريخ فيما يخص العائلات المهاجرة الى هذه البلدان. وليس آل كاولو من الديبلي (القصاصين) بل هم من عرق فلندي اللسان مشبه بطبقة نيامكالا

له عين الامتيازات. وهم متملكون منشدون أكثر منهم موسيقيون (ما عدا النسوة اللاتي يغنين مصاحبات غناءهن بالآلات بسيطة جدا) وقد يكونون حاكين ومسلين، ويضمون من بينهم عددا من علماء الانساب.

وعند المركا (عرق مندي) يسمى النسابون «كسيري» باسم عرقهم المرتبط بالمركا. ومن قال «نسابا» قال أيضا «مؤرخا» إذ ان النساب الحسن يعلم التاريخ والاحداث وحركات كل من الشخصيات المذكورة، وعلى الأقل من اشتهر منهم. وهذا العلم هو أساس تاريخ افريقيا نفسه، إذ أنه إذا ما اهتمنا اهتماما كبيرا بالتاريخ، فما ذاك من أجل معرفة الأزمنة بل من أجل الأنساب، كي نتمكن من رسم انتشار أسرة أو فريق أو عرق عبر الزمان والمكان رسا جديدا. ولذا كان كل شخص في افريقيا عالما بعض العلم بالانساب، قادرا أن يعود الى بعيد في نسبه الخاص. ولولا ذلك يكون كأن قد حرم «بطاقة تعريف». ففي مالي قديما، لم يكن لأي شخص أن لا يعلم على الأقل عشرة أو اثني عشر جيلا من أجداده. ومن بين التكرور القدامى الاتين الى المسينا مع الحاج عمر، لم يكن واحد يحمله نسبه في فوتا السنغال (البلد الاصلي) أو يجهل كيف يتصل بالعائلات الباقية هناك. وهم الذين أتاهم ممادو مولوم إين مولوم كاولو يسترشدهم في مالي لمواصلة بحث أبيه.

لقد كان النسب في آن واحد شعورا بالهوية ووسيلة بعث المجد العائلي ومرجعا إذا ما ثار جدال. فخصومة من أجل أرض مثلا قد تفصل بفضل النسب الذي يبين من من الأجداد أحياها ثم زرعها، ولمن أعطاه وفي أي الظروف الخ...

ويوجد ضمن السكان حتى اليوم، عدد كبير من العارفين في الانساب والتاريخ ليسوا لا من طبقة القصاصين ولا من فريق الكاولو. ويكون هذا بالنسبة لتاريخ افريقيا، مصدرا عظيما من الأخبار مفيدا على الأقل، لمدة أخرى معينة.

وكل شيخ هونساب لفريقه الخاص. وفي الواقع فان القصاصين والكاولو إليه يرجعون وإياه يسترشدون لإكمال معلوماتهم.

وبصفة عامة، كل شيخ في افريقيا هودوما «عارف» في مادة أو أخرى تاريخية أو تقليدية. وليس للقصاصين وللكاولو وحدهم خاصية معرفة الأنساب، بل لهم وحدهم خاصية «الإنشاد» يتقدمون بها لدى الاشراف، ليحصلوا على ثواب.

## تأثير الإسلام

ان خصائص الذاكرة الافريقية وطرق نقلها الشفاهي لم يغيرها دخول الاسلام الذي عم جانبا وافرا من بلدان السهوب، أي بافور القديم. فحيثما انتشر الاسلام لم يطمس التراث الافريقي على تفكيره الخاص، بل أنه تلائم هو مع النقل الافريقي، كلما كان هذا النقل غير مخالف لمبادئه الأساسية. وذلك كان الشأن في غالب الاحيان. وكان التوافق بينها وثيقا الى حد أنه صار أحيانا من الصعب أن يميز الانسان بين أحد التراثين وبين الآخر.



فلما أدخلت أسرة كنتة الكبيرة العربية البربرية البلاد في دين الاسلام قبل القرن الحادي عشر بكثير، ومنذ أن تعلم الأهالي اللغة العربية، شرعوا في استخدام تراث الجدود لنقل الاسلام وشرحه. فشوهدت هكذا مدارس عظمى اسلامية شفاهية محضة، تعلم الاسلام باللغات المحلية، ما عدا القرآن والنصوص المستعملة في أداء الصلاة.

وأذكر من بين العديد منها، مدرسة جلكوجي الشفاهية (المدعوة كابي) ومدرسة براني، ومدرسة أمادو فدية في الفارماكي (دائرة نيافنكي في مالي) ومدرسة محمد عبد الله سعادو، في دلي (دائرة نارة في مالي) ومدرسة الشيخ عثمان دان فوايو، في نيجيريا والنيجر، حيث يلحق كل التعليم بالفلانية. وقرىبا منا نذكر زاوية تيرنوبوكار سالف في بندياكارا ومدرسة الشيخ صالح الوالي الكبير الدوكوني، الذي مازال على قيد الحياة.

ولتصور قابلية الذاكرة الافريقية، فلنذكر أن معظم الأطفال عند خروجهم من المدارس القرآنية، كان في وسعهم أن يتلوا القرآن كاملا عن ظهر قلب، يرتلونه بالعربية ترتيلا مناسبا، دون أن يفهموا معناه.

وفي كل المدارس لم تهجر المبادئ الاساسية للتراث الافريقي، بل بالعكس انها استعملت وشرحت على ضوء الوحي القرآني. واشتهر بتطبيق معمق لهذه الطريقة التعليمية تيرنوبوكار، وقد كان في آن واحد تقليديا في المادة الافريقية وفي الاسلاميات.

فبقطع النظر عن الرؤية المقدسة المشتركة للعالم، وعن التصور المشترك للانسان وللأسرة، فاننا نجد في كلا التراثين عين الاهتمام دائما بذكر المصادر (بالعربية اسناد)، وبعدم تغيير أقوال الشيخ. وعين الاحترام لسلسلة الاستاذ التعليمية، وعين النظام للطرق التدريسية (الطرق الصوفية بالجمع، طريقة بالمفرد وتنتهي سلسلتها الى الرسول نفسه) مما يمكن من تعميق معطيات العقيدة بالتجربة الشخصية.

وانضاف الى أصناف «العارفين» التقليديين المشهورة أصناف الفقهاء (المثقفين بالعربية أوفي الفقه الاسلامي) وكبار مشائخ الصوفية، بينا احتفظ ببنيات المجتمع (طبقات وصناعات تقليدية) حتى الاوساط الأكثر تمسكنا في الاسلام فقد بقيت حاملة لتعليماتها الخاصة. وصارت معرفة المواد الاسلامية مصدرا جديدا للشرف. فألفا علي المتوفي سنة ١٩٥٨ وأصله من الكاولو، كان أكبر مرجع اسلامي بدائرة بندياكارا ككل أفراد عائلته من قبله، وكابنه من بعده (١٦).

## تاريخ جني

لكي أصور تصويرا عمليا كيف تعيش الاخبار التاريخية أو غيرها وكيف تبقى بأمانة مدققة في الذاكرة الجماعية لمجتمع ذي تراث منقول، سأقص كيف أتيج لي أن أجمع العناصر التي مكنتني من

(١٦) بصفة عامة حيث ان الاسلام أتى من الشمال ومن الشرق فقد أثر على الخصوص في بلاد السهوب بينا أتت النصرانية من البحر فأثرت تأثيرا أكبر في مناطق الغابات من الساحل ولا يمكنني أن أتحدث عن التقاء التقاليد بالنصرانية اذ ليس لي علم بالموضوع.

تحرير تاريخ «الامبراطورية الفلانية بالمسيينا في القرن الثامن عشر» (١٧) بالاعتماد فحسب على المأثور المنقول.

وحيث أنني أنسب لأسرة التجاني، الذي كان يرأس مقاطعة، وجدت نفسي منذ الصغر في أحسن الظروف لأسمع وأحفظ. فبيت أبي ببندياكارا، كان دائما عامرا بالناس، وكانت تقام فيه اجتماعات كبيرة، ليلا ونهارا حيث كان كل واحد يروي فيها المواد المختلفة من المأثور. وإذا كانت أسرتي داخلة في أعماق أحداث العصر، فكثيرا ما كانت الروايات تهم التاريخ، فيروي أحدهم جزءا معروفا من معركة أو من حدث مشهور. وكنت دائما أحضر هذه الاجتماعات، فلم أفلت منها كلمة، وكانت ذاكرتي بمثابة الشمع الصقيل، تسجل كل شيء.

فهناك، منذ صغري، عرف كوكل القصص الكبير وكان نسابة ومؤرخا فلفلدي اللسان، وكنت اتبعه في كل مكان، وتعلمت منه الكثير من القصص والأخبار التي كنت فخورا بروايتها فيما بعد لاقواني الصغاري «جمعية السن» حتى أنهم لقبوني «آمكول» أي «كوكل الصغير».

وقد حدث لي ظروف خارجة عن ارادتي، باتباع أسرتي، الى أن أزور الكثير من البلدان، حيث كان في وسعي أن أتصل بكبار التقليديين. فحين أرغم أبي مثلا على الإقامة الجبرية في بوكوني، حيث تبعنا كوكل، تعرفت على الدوما الكبير البميري دانفوسيني، ثم على أخيه الصغير لطيف.

وفيا بعد، في باماكو كما في كاتي، أعيدت سلطة أبي أو كادت وكان التقليديون يردون من كل البلدان ليجتمعوا عنده، علما منهم أنهم سيلتقون «بعارفين» آخرين، يمكنهم بجوارهم أن يراقبوا معارفهم الخاصة أو أن يتوسعوا فيها، إذ أن المرء يجد دائما من هو أعلم منه.

وهناك، شرعت في معرفة الكثير من الأمور الخاصة بتاريخ الامبراطورية الفلانية بالمسيينا وذلك في رواية مسينسكا (أي من كان أصلهم من المسيينا من أتباع أسرة الشيخ امدادو) كما في الرواية التكرورية، لساوثيم، وحتى عروق أخرى (بامبرا، مركا، سراكي سنغاي الخ) ممن ساهموا في الأحداث أو حضروها.

وقد انطلقت هكذا من قاعدة شخصية، مهينة أحسن تهيئة فشرعت بعد ذلك في جمع الأخبار بكيفية منتظمة. وتمثلت طريقتي أولا في تسجيل كل الأخبار، غير مكترث بصحتها أو بما قد يداخلها من المبالغة. ثم اني عارضت أخبار المسيينكي بأخبار التكرور وغيرها من الأجناس المعنية.

ففي كل منطقة يمكن أن نجد أجناسا تمكننا رواياتها من مراقبة تصريحات أهم المعنيين بها. وكان عملا طويل النفس. وتطلب مني جني هذه الارشادات خمس عشرة سنة وتنقلات قادتنني من فوطاجالون (السنغال) الى كانو (نيجيريا) كي أستعيد كل رحلات الشيخ امدادو، والشيخ عمر، وكل الطريق التي قطعها.

فسجلت بهذه الطريقة ما لا يقل عن أخبار ألف مخبر، ولم أحفظ في النهاية الا بما توافق من هذه التصريحات أي ما كان مطابقا في الآن نفسه لروايات مسينكي والتكرورا وغيرهما من الأجناس التي يهمها الأمر، فأوردت ذكر المصادر في كتابي.

وأمكنني أن ألاحظ في الجملة، أن مخبري الالف قد راعوا حقيقة الأحداث. فلحمة الخبر كانت

هي هي في كل مصدر وانما تسببت الفروق المتعلقة ببعض الجزئيات الصغيرة، اما عن قيمة ذاكرة المخبر أو عن ذلاقة لسانه الخاصة. فبحسب انتهاء الناقل الى عرق أو آخر، قد يكون ميالا الى الخط من بعض الهزائم أو الى السعي في تبريرها. ولكنه لم يكن ليغير المعطيات الأساسية. وقد يستسلم القصص بتأثير الموسيقى المصاحبة له الى الحماس يهزه، ولكن العناصر تبقى هي نفسها كذل الأماكن والمعارك والانتصارات والهزائم والتلاقيات وما تبودل من أقوال، وما تفوه به أهم الشخصيات الخ....

وبرهنت لي هذه التجربة أن المأثور المنقول له القيمة الكاملة من الوجهة العلمية. فليس في الامكان فقط، كما فعلت، ان يقارن بين روايات من مختلف الأجناس لمراقبتها، بل ان المجتمع عينه يقوم بمراقبة ذاتية مستمرة. ولن يسمح راو لنفسه أن يغير الأحداث، اذ يكون بجواره دائما أصحاب أو من هم أسن منه، يشيرون في الحال الى كل خطأ و يلقون في وجهه سبة الكذب الخطيرة. وذكر لي الاستاذ منتي، أنني رويت في تاريخ الامبراطورية الفلانية بالمسينا، أخبارا جمعها أبوه قبل ذلك بخمسين سنة، فلم يتغير منها حرف واحد. وفي ذلك ما يعطي فكرة عن أمانة الاحتفاظ بالمعطيات في المأثور المنقول.

## خاصيات الذاكرة الإفريقية

لقد لوحظ أن من بين كل شعوب الدنيا، ان الذين لا يكتبون هم الذين لهم أقوى ذاكرة. وقد ذكرتُ مثال النسايين الذين في وسعهم أن يحتفظوا بعدد من العناصر، ويمكن أن نذكر كذلك مثال التجار الاميين (وأعرف منهم الكثير) ممن يارسون أعمالا تقدر أحيانا بعشرات الملايين مقرضين المال للعديد من الأشخاص أثناء تنقلاتهم ويحفظون في أدمغتهم أدق الحسابات عن حركات البضائع والمال، دون أي مذكرة مكتوبة ودون أقل غلط. وتسجل المعطاة التي يجب الاحتفاظ بها في ذاكرة التقليدي دفعة واحدة كما لو كانت على شمع بكر، وتبقى في متناوله بأكملها (١٨).

واحدى خاصيات الذاكرة الإفريقية، هي أنها تسترجع الحدث أو الخبر المسجل بأكمله كالشرط الذي ينتشر من بدايته الى نهايته، وترجع ذلك بصيغة الحاضر. وليس الأمر تذكرا، بل هو تحويل حدث منصرم الى الحاضر حدث ساهم فيه الكل. الراوي ومستعموه.

وهنا يكمن كل فن القصص. ولا يكون القصص قصاصا اذ لم يقدر على رواية الخبر كما وقع فعلا، بحيث يصير المستمعون كالقصص نفسه شهداء أحياء نشيطين من جديد. وكل إفريقي نسبيا قصصا. فاذا وصل غريب الى قرية فهو يسلم فيقول: «أنا غريبكم» فيقال له: «مدنا بأخبار»

(١٨) يمكن أن تقرب هذه الظاهرة من كون الملكات الحاسة عند الانسان هي أقوى كلما كان مضطرا الى استخدامهما بقوة، وتتضاءل في الحياة العصرية. فالصبي التقليدي الإفريقي مثلا في وسعه أن يسمع بعض الأصوات على بعد عدة كيلومترات وأن يعرف هويتها. ونظرة حادة للغاية، وبعضهم «يخس» بالماء، شأن كشافي الينابيع بدون عصا. وللطوارق في الصحراء حاسة التوجه تشبه المعجزة الخ... بينما يغمر الانسان العصري من كل جانب بالأصوات والأخبار فتتضاءل ملكاته شيئا فشيئا... ومن الثابت طبيا أن ساكن المدن تنقص حاسة سمعه شيئا فشيئا.

فيقص اذن حكايته، منذ انطلاقه من موطنه وما شاهد وما سمع وجرى الخ. وذلك بحيث يشهد مستمعوه رحلته ويعيشونها معه. ولذا تستعمل دائما صيغة الرواية في الحاضر. وبصورة عامة فان الذاكرة الافريقية تسجل المشهد كله: المهاد والاشخاص وكلامهم وحتى زهم في أدق جزئياته. ففي أخبار الحرب عند التكرور يعرف أي بوبومطرز كان يلبسه البطل الأعظم عمر لصمبا دوندو في معركة من المعارك ومن كان سائسه وماذا جرى له، وما كان اسم حصانه وما جرى له الخ... وكل هذه الجزئيات تحيي القصة وتجعل المشهد حيا. لذا لا يستطيع التقليدي أن «يلخص» او هو لا يقدر على ذلك الا بصعوبة، فاذا ما طلب منها أن يلخص مشهدا، فذاك يعني عنده أنه يبتريه، وليس له تقليديا الحق في ذلك، فلكل جزئية قيمة في حقيقة اللوحة.

فاما أن يقص الحدث بأكمله واما أن لا يقصه، واذا ما طلب منه ذلك يقول: «ان لم يكن لديك الوقت الكافي لتسمعي فسأقصه عليك يوما آخر». وكذلك فهو لا يخشى أبدا التكرار، ولا يمل أحد من الاستماع اليه وهو يروي قصته، بعين الألفاظ، كما قد يكون حكاها عدة مرات، وكل مرة ينتشر الشريط بأكمله من جديد، والحدث هو هناك، وقد استعيد ويصير الماضي حالا والحياة لا تلخص. وعند الاقتضاء قد تقتضب القصة للأطفال بتداخل بعض الفصول، ولكنها في هذه الصورة لا تبقى حقيقية. واذا ما كان الأمر موجها للكهول، فاما أن يروي الحدث بكامله واما أن لا يروي. وهذه الخاصية للذاكرة الافريقية التقليدية المقترنة بسياق الاثر المروي، هي في حد ذاتها ضمان للصحة والصدق.

وأما ذاكرة التقليديين، ولا سيما التقليديين الدوما أو «العارفين» التي تجمع بين مجالات فسيحة من المعرفة التقليدية، فهي تمثل خزانة حقا لم «تصنف» فيها الوثائق ولكنها مجردة تماما. وبالنسبة للعقل العصري، فان هذا فوضى، ولكن بالنسبة للتقليديين اذا ما كانت هناك فوضى فهي على شاكلة ذرات الماء الممتزجة في البحر لتكون «كلا حيا»، وفي هذا البحر هي تنتقل بسهولة تنقل السمكة في الماء.

والجذاذات السلامادية للمأثور المنقول هي المغازي والأمثال والقصص والخرافات والاساطير الخ... وهي تمثل مجمل ما سيشرح، أو مدخلا لخبر تربوي قديم أو مرتجل. ففيا يخص القصص مثلا ولا سيما القصص التدرجية، هناك لحمة لا تتغير أبدا، لكن القصص في وسعه أن يضيف اليها تحسينات وشروحا أو تعاليم ملائمة لفهم المستمعين. وكذلك الشأن بالنسبة الى الأساطير، وهي خلاصات للمعارف في شكل تأليفي يمكن المدرب دائما أن يشرحها أو يعمقها لتلامذته. ويجب أن نكون يقظين لمحتوى الأساطير وأن لا نبوبها بسرعة فقد تغطي حقائق من مراتب مختلفة جدا بل أحيانا قد تدرك في عدة مستويات في آن واحد.

واذا ما عاد بعضها الى معارف باطنية و «ستر» المعرفة مع نقلها عبر العصور، فان البعض الآخر قد يكون له صلة بأحداث واقعية. ولندكر مثل الطيانابا، الحية الاسطورية الفلانية، وتروي خرافتها ومغامراتها وهجرتها خلال السهوب الافريقية منذ المحيط الأطلسي. وحدا حب الاطلاع بالمهندس بليم الذي كلف حوالي ١٩٢١ ببناء سد سنصندنغ ان يتبع اثر الاشارات الجغرافية الموجودة في

الاسطورة التي علمها اياه حمادي جنكودو «العريف الكبير الفلاني». ووقع له عجب كبير حين اكتشف هكذا، اثر المجري القديم لنهر النيجر.

## الخلاصة

ان العصر الحاضر بالنسبة لافريقيا عصر الشعب والتحرك، تتراكم فيه عوالم وعقليات وأزمنة متباينة، يتداخل بعضها في بعض، متأثرة أحيانا بعضها ببعض لا يفهم أحدها الآخر دائما. فيتجاوز فيه القرن العشرون مع القرون الوسطى، ويساير الغرب المشرق، والديكارتية تلك الطريقة الخاصة «لتعقل» العالم تحاذي «الاحيائية» وذلك الوجه الخاص لعيشه وتجربته بكل ذاته.

ان الموجهين الشبان المعاصرين يسرون الادارة بعقليات وأنظمة قانونية أو مذاهب موروثة مباشرة، من أنماط أجنبية، شعوبا وحقائق تنتمي الى قوانين أخرى وعقليات أخرى. مثلا في معظم أراضي افريقيا الغربية الفرنسية كان القانون القضائي المقرر عقب الاستقلال من قبل أهل القانون الشبان عندنا، وهم حديثو العهد بالجامعات الفرنسية، نسخة مجردة لقانون نابليون. وتبع ذلك أن الأهالي، وقد كانت تتحكم فيهم حتى ذلك الوقت عادات مقدسة ورثوها عن الأجداد وضمنت تكتل المجتمع، صاروا لا يفهمون لماذا يحكم عليهم باسم «عادة» ليست عاداتهم لا يعرفونها ولا تلائم واقع البلاد العميق. ان مأساة ما سأسميه «افريقيا القلعة» هي انها كثيرا تسيرها أقلية مثقفة لم تعد تفهمها، حسب مبادئ لا توافقها.

فبالنسبة للطبقة المثقفة الجديدة في افريقيا، وقد كونتهم النظم الجامعية الاوربية، وفي كثير من الأحيان فان التقاليد عندهم ماتت، أو انها مجرد «خرافات شيوخ»، على أنه يجدر أن نقول إن جزءا هاما من الشباب المثقف يشعر أكثر فأكثر، منذ بعض الوقت، بالحاجة الملحة لتولية وجوههم نحو المأثور المنقول عن الأجداد، وإبراز قيمه الأساسية لاكتشاف جذوره الخاصة وسر هويته العميقة. وبالعكس في «افريقيا الأصل» التي تعيش غالبا بعيدا عن المدن الكبيرة التي — وكأنها جزر من أوروبا — مازال التراث حيا ويمكن العثور حتى الآن — كما أشرت الى ذلك آنفا — على عدد كبير من ممثليه أو من حفظته، ولكن الى متى سيدوم ذلك؟

ومشكل المشاكل في افريقيا التقليدية هو بالفعل مشكل الانقطاع في النقل. وأول قطع تم في المستعمرات الفرنسية القديمة، مع حرب ١٩١٤، اذ جند معظم الشبان للقتال في فرنسا ولم يعد منهم الكثير. فقد فارق الشبان البلاد في فترة كان من الواجب أن يخضعوا فيها الى التدريبات الكبرى، وأن يعمقوا معارفهم بأشرف من هم أكبر منهم سنا.

وساعد أيضا على هذا العمل الایفاد الاجباري لا بناء الأعيان الى «مدارس البيض» بقصد قطع الصلة بينهم وبين التراث. وكان الهم الأعظم للسلطة الاستعمارية — وهذا متروك — ان تقتلع بقدر ما يمكن التراث الاهلي لتفرض في مكانه تصوراتها الذاتية. وكانت المدارس العلمانية أو الدينية هي الآلات الأساسية لهذا العمل التمهيدي.

وما تلقاه شبابنا من تربية عصرية منذ نهاية الحرب الأخيرة، أكمل هذا العمل وخلق ظاهرة حقيقية من الانسلاخ الثقافي.

ففر التدرّيب من العواصم والتجأ الى الأدغال حيث صار «الشيخ» يجدون من حولهم الأقل فالأقل من «الأذان المطيعة» التي ينقلون اليها تعليمهم، من جراء الجاذبية الكبيرة، من قبل المدن والحاجات الجديدة، فهذا التعليم لا يمكن أن يمنح الا بحسب العبارة الشائعة، «من فم عطر الى أذن مطيعة نظيفة» (أي حسنة التقبل).

ونجد أنفسنا الآن في كل ما يخص المأثور المنقول أمام آخر جيل من كبار المستودعين، لذلك لا بد أن يقوى مجهود الجمع في السنوات العشر أو الخمس عشرة المقبلة، والا سيضيع آخر المعالم العظيمة الحية من الثقافة الافريقية، ومعها ستضيع الكنوز التي لا تعوض من تعليم خاص، مادي ونفسي في وروحاني في الآن نفسه، معتمد على الشعور بوحدة الحياة، تعليم يغرق مصدره في ظلمات الزمان.

وعلى الباحث أن يتسلح بالصبر للقيام بعمل الجمع هذا، كما ينبغي عليه ذكر واجب أن يكون له «قلب يمامة وجلد تمساح ومعدة نعامة». قلب يمامة لكيلا يفتناظ أو ينفعل ولوقيل له ما يكره من الامور، واذا ما رفض سؤاله فلا فائدة في اللاحق، بل عليه أن يستقر على فرع آخر. فالخصومة هنا لها آثار في مكان آخر، بينما اذا ما انصرف بهدوء فقد يتأسف عليه وكثيرا ما يطلب من جديد. وجلد تمساح كي يتمكن من الرقاد في أي مكان وعلى أي فراش بدون كلفة. وأخيرا المعدة نعامة كي يتمكن من أكل كل شيء دون أن يحصل له سوء أو يتقزز.

ولكن الشرط الأهم هو أن يعلم كيف يتخلى عن الحكم على كل شيء حسب معايير الذاتية، ومن يشأ أن يكتشف عالما جديدا لا بد أن يعلم كيف ينسى عالمه الخاص، والا فما هو الا ناقل عالمه معه ولا يكون في موقف «المستمع».

وافريقيا الشيخ العارفين، تحذر الباحث الشاب، على لسان تيرنو بوكار، حكيم بندياكاوا بقولها:

«ان أردت أن تعرف من أنا  
وان أردت أن أعلمك ما أعلم  
توقف مؤقتا عن أن تكون ما أنت  
وتناس ما أنت به عليهم».

## الفصل التاسع

# علم الآثار الافريقي وتقنياته بما في ذلك أساليب تحديد تاريخ الآثار

زكي اسكندر

إذا ما اكتشف عالم الآثار حادثاً عارضاً فهو يبدأ عامة بحثه في المستوى الاثري المحض، فيسجل الطبقة التي وجدت فيها العينة، ويحل رموز النص المحتمل المصاحب له، ويصف شكلها ويقدر أبعادها الخ... ثم تدرس هذه المعطيات في مستوى علم الطبقات وفقه اللغة والنمذجة، وتنتج عن ذلك معلومات أثرية مهمة فيما يخص القدم والاصول الخ... على أنه في غالب الأحيان يتعذر عليه أن يحصل على معطيات تبوح بالجواب على أسئلته، أو تساعد على اثبات الاستنتاجات المرجوة. ولذا لزم الالتجاء الى اختصاصات أخرى كي يكمل بحثه العلمي، ومن المفروض أن يمده هذا البحث بالمعلومات المطلوبة عن مادة الشيء وأصله وتقنية صنعه وعمره وما أعد له في الاستعمال. ويجدر مع ذلك أن نشير الى أن هذه البحوث لا تتجاوز زاوية جديدة يجمع عالم الآثار أن يدرس من وجهتها مشكلاً من المشاكل الخاصة، وينبغي أن تكون المعطيات العلمية كلاً مع الاعتبارات الاسلوبية واللغوية والتابعة للطبقات (١).

وقد تأتي التقنيات العلمية أيضاً بمساعدة علم الآثار في دراسة الطبقات الجيولوجية التحتية، باستثناء الحفريات، وفي حفظ المعالم والانقراض المكتشفة.

وللتقنيات العلمية المستخدمة في علم الآثار ميزة عالمية. فهي تنطبق على افريقيا تماماً كما تنطبق على أوروبا وآسيا أو أميركا مع اللجوء أحياناً الى طريق نوعية متميزة. وهذا موضوع واسع جداً، ولذا سنعالج النقاط التالية في مجلتها دون أن ندخل في كثرة من التفاصيل المخبرية.

- التقنيات التحليلية المستعملة في القياسات الاثرية.
- اهداف البحث والتحليل في القياسات الاثرية.
- تقنيات تعيين التواريخ.
- التقنيات المستعملة في البحث الاثري.
- تقنيات الاحتفاظ.

## التقنيات التحليلية في القياسات الأثرية

ان تقنيات التحليل قد انتشرت حتى أصبح من العسير أحيانا أن نختار التقنية اللائقة بالنسبة الى عينة معطاة للحصول على الارشادات المطلوبة. وستراعي الفقرات الموالية جميع أوجه المشكل.

### إختيار طريقة التحليل

ان العينات الاثرية ثمينة من وجهين، وذلك أن عدد العينات المتوفرة عادة قليل جدا بحيث تكاد لا تكفي لحاجيات تحليل كامل، وقد يتعذر تعويضها اذا ما استعملت بأكملها، ومن جهة أخرى ينبغي الاحتفاظ بالعينة على الأقل لتكون مرجعا أو لصالح العروض المقبلة. لذا سيقام بالتحليل القياسية الاثرية بكل عناية حتى نحصل منها على أهم الارشادات. ويمكن تلخيص المعايير التي تفرض الاختيار لتقنية أو أخرى فيما يلي (٢).

### أهمية مجموعة العينات المتوفرة

اذا كانت مجموعة العينات المتوفرة كبيرة، يحسن القيام بتحليل كيمائي في وسط مائي لتعيين النسبة لأهم مركباتها، وقد يستعمل التحليل الذري لاثبات نسبة المعادن القلوية، كالصوديوم والبوتاسيوم والليثيوم. واذا كانت العناصر أو المركبات لا موزونة (آثار) يكون من الافضل استعمال التحليل بطريقتي التفلور أو المتعلقة بحيود أشعة اكس ولو أن نتائجها تشتمل على خطأ بين (١٠ و ٢٠٪).

واذا ما كانت كمية العينات ضئيلة، وإذا كان من اللازم أن تحلل عدة عناصر، يكون من اللائق أن يلجأ الى الاستضاء الطيفي أو الى حيود أشعة اكس. وإذا تعذر على الاثري ان يوفر عينة مهما كانت صغيرة، فتعالج المادة المزمع تحليلها بواسطة التحليل الطيفي أو التفلور في صورة ما اذا مكن حجمها وشكلها من استخدام هذا التحليل.

### نوعية المواد المحللة

ان تنوع الانقراض الاثرية كبيرا جدا، فبعضها كالغذائيات والمراهم والراتنجيات والزيوت والشموع الخ... مواد عضوية في جلها أو في القليل منها وغيرها — كالفلزات والادهان والخرف والزجاج والجبس الخ... ليس عضوية.

(٢) هال أ. ت (المرجع السابق).



أما المواد العضوية فتعرض عامة على معالجة النار، والتصبين والتحليل والأشعة تحت الحمراء والتحليل الحراري والكروماتوغرافية. كما تعرض على التحليل العياري في وسط مائي، وإلى التحليل الطيفي وإلى التفلور والحيود لأشعة اكس، وكذلك التنشيط بواسطة الكهرباء المحايدة، حسب النموذج الإرشاد المطلوب.

### النموذج الإرشاد المطلوب

كبي نربح الوقت ونختصر التكاليف يجري التحليل طبقا لبرنامج مثبت يضعه عالم الآثار للحصول على الجواب على أسئلة معينة. فالبرونز والنحاس القديمان متشابهان في المظهر، وإنما يميزهما القصدير، فيعالج بصورة عامة جزء من العينة بواسطة محلول الحامض النتري المركز، ويحل في الماء المقطر ما ينتج منه من راسب الحامض الميتاستانيك المائل إلى البياض، وهذه التجربة البسيطة في تناول كل عالم أثري. وكذلك كانت معادن الرصاص تستعمل قديما في مصر لإعطاء الحرف مظهر الزجاج، فيكني الرصاص اذن لتعيين، تاريخ صنع الشيء المزجج بالتقريب.

### عرض النتائج

إن الأثرين المدعويين لدراسة نتائج البحوث العلمية ولاستعمالها في شروحاتهم وفي استنتاجاتهم ليسوا، هم أنفسهم من أهل العلم إلا في قليل من الأحوال. فيجدر إذن أن تعرض عليهم النتائج في شكل يسهل عليهم فهمه، فتقدير عنصر من عينة وزنها ١٠٠ غرام بواسطة كسور الغرام يليق أن يعرض بعض لكل النتائج طبقا لفكرة سهلة الإدراك من الجميع، فكرة النسبة المئوية. ويكون لهذا التعويض مزية تسهيل مقارنة النتائج بين عدة مختبرات.

### طريق الفحص والتحليل

سنشير فيما يلي، في إطار هذه الاعتبارات، إلى أهم الطرق المستعملة للتحليل في القياسات الأثرية.

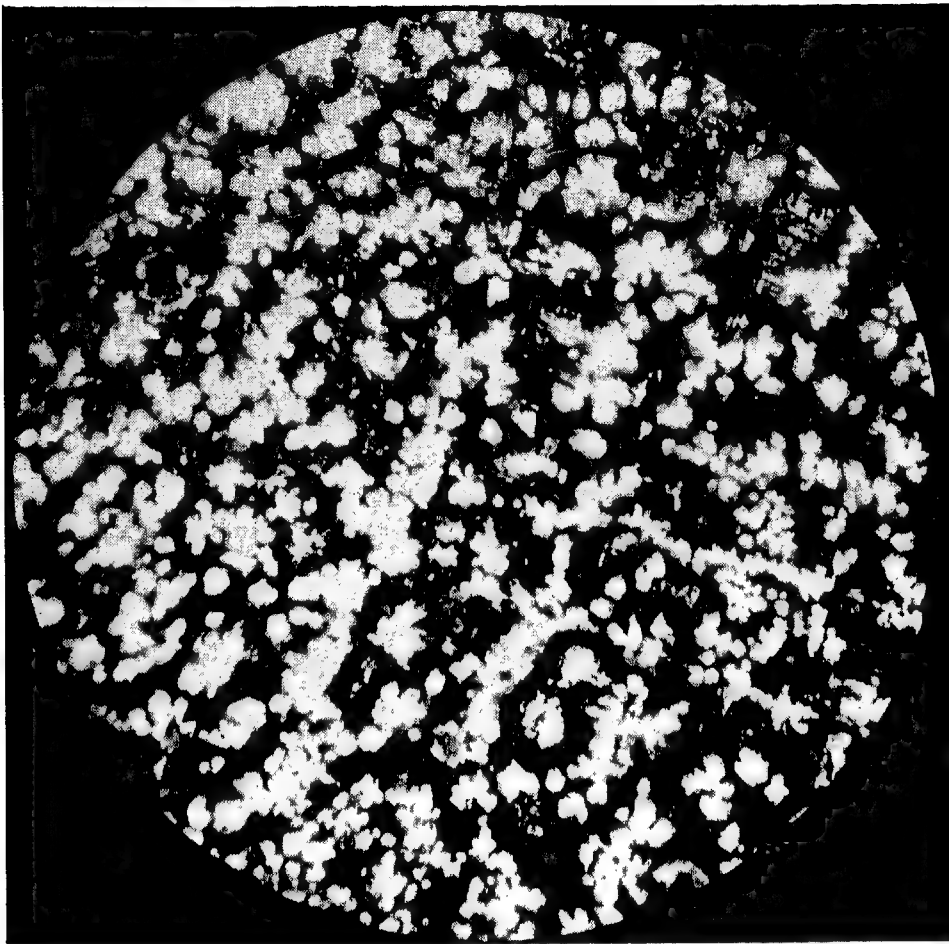
#### الفحص المجهرى

إن الفحص بواسطة عدسة مكبرة بسيطة (تضخيم ١٠ أو ٢٠) كثيرا ما يكون مفيدا للحصول على انطباع أول من حادث عارض أو من عينة قديمة. ومن المفضل استعمال مكبرة مزدوجة العينية ذات تضخيم مقداره ٧ مرات أو ١٠ أو ٢٠ مرة وذات مجال فسيح بين العدسة والمستوى البؤري. ويستطيع هذا الجهاز سبر تجاوى عميقة لا يمكن للمكبرة الاعتيادية أن تدخله.

ويتم الحصول على معطيات أدق بواسطة مجهر مركب يشتمل على عدسة ذات تضخيم ١٠٠ أو ٢٠٠ أو ٤٠٠ أو ٢٥٠ منغمس في الزيت. ويمكن استعمال الفحص المجهرى للغايات التالية:

— تعيين الهوية: في معظم الحالات يكون من الممكن أن تعين هوية عينة معطاة (في حالتها الخالصة أو في حالة تركيبها من عناصر متباينة، وذلك بدراسة تركيب الجسم بالمجهر أو بدراسة الخواص البلورية لمركباته.

— التحليل الكيفي: إن التقنيات العصرية تمكن من الترسيب والحل ومن مشاهدة التطور الغازي



- (١) صورة شمسية مكبرة  
(ميكروفوتوغرافية) لقطاع في مرسة  
نحاسية من سفينة الملك خوفو (مركب  
الشمس) في الجزيرة.
- (٢) صورة أمامية بالاشعة لصدر  
مومياء الملكة نيجيميت من الاسرة  
الفرعونية الحادية والعشرين. (متحف  
القاهرة).



وغير ذلك من الأساليب الممكن تطبيقها على قطعة صغيرة من العينة (٣). مثلاً اذا ما بللت قطعة العينة الموضوعة على صفيحة من زجاج قد ينتج عن ذلك تحليلها اولاً. فإذا ما أضيفت الى المحلول المحتمل قطرة من نترات الفضة، واذا ما ظهر راسب مائل الى البياض غير محلول في الحامض النتري يمكن أن نستنتج وجود كهيبر موجب من الكلورور. التحليل الكمي: وتكتسب الطرق المجهرية كل اهميتها في التحاليل الكمية بمركبات متباينة مشعبة من الصعب ان تعالج بالطرق الكيماوية الاعتادية (٤) فهي تمكن من تعيين عدد مختلف المركبات وحجمها. واذا ما علمت كثافة كل منها، امكن تحويل نسبة مئوية في الحجم الى نسبة مئوية في الوزن (٥).

### التصوير الاشعاعي

يبقى التصوير الاشعاعي كبير الفائدة في فحص الآثار الفنية، فيمكن من اكتشاف وجود اجسام خارجية داخل مومياء مغطاة بعصابتها، او وجود نقوش مزينة تحت طبقات البلسمات الخ... وهذه الارشادات تساعد على تعيين التقنية التي يجب استعمالها لتجريد المومياء من العصابت، وهي مفيدة للحفاظ على الاحداث العارضة المعدنية وتستخدم اثناء الدراسات العلمية والاثريّة. وفي متحف القاهرة كشف التصوير الاشعاعي للمومياء الملكية عن كون البعض منها حتى التي ازيلت عصابتها، يحتوي على مصوغات أخفته عن عيون الباحثين طبقات سميكة من الراتينج (٦) (الشكل ١).

### تحديد الوزن النوعي

في العصور الخالية كان الذهب يحتوي عامة على الفضة أو النحاس، والأشياء الذهبية لها من النفاسة ما لا يسمح في غالب الأحيان لاي قطعة مهما كانت ضئيلة ان تستهلك في التحلي. ولذا فكر كالاي أن يلجأ في ذلك الى تحديد وزنها النوعي، ولا يداخل هذا الأسلوب أي خطر للافساد وهو يمكن من الكشف عن معدل الذهب الخالص المستعمل في الاحداث العارضية الذهبية (٧). والطريقة سهلة جداً تعتمد مبدأ أرخيدس. فاذا كان وزن الشيء في الهواء الطلق (و) غراماً وفي الماء (س) غراماً كان وزنه

$$\frac{و}{و-س}$$

واذا كان وزن الذهب النوعي (١٩ر٣) يساوي تقريباً ضعف الوزن النوعي للفضة (١٠ر٥)

(٣) ج. و. ايونغ، ١٩٥٤، ص ٤١١.

(٤) آ. م. شامو، س. و. ماسن، ١٩٣٨، ص ٤٣١.

(٥) أ. م. كلتوف، أ. ب. صندل، أ. ج. ميهان وس. بركنستين، ١٩٦٩.

(٦) ج. وهلبرن، ج. أ. هريس وس. برنس. يوليه (تموز) ١٩٧١، ص ١٨.

(٧) أ. ر. كالاي، ١٩٤٩، ص ٧٣ - ٨٢.

أو للنحاس (٨٩) صار من اليسير الكشف عن وجود عناصر ضعيفة من النحاس والفضة. وإذا ما فرض غياب البلاتين ومعرفة مركب المزيج (فضة أو نحاس) واستحالة التقلص أثناء عملية المزج، فالمتوقع أن مجال الخطأ في حساب معدل الذهب الخالص لا يتجاوز ١٪.

### التحليل الكيماوي المعياري في وسط مائي

هذه التقنية لازمة في علم الآثار لدراسة المادة التي يتكون منها حادث عارض كما هي لازمة لاختيار احسن طريقة للحفظ. فهي تستعمل للتحليل الكيفي والكمي للملاحظات والخصوص ببقايا الحوادث العارضة المعدنية المتآكلة وبقايا الطعام وادوات التجميل وبقايا البلاسم وغيرها من المواد المشابهة لها الخ...

ولا محل لوصف التقنيات المستعملة للتحاليل المشابهة في هذا الفصل، وهي مألوفا عند كل الكيماويين البارعين في الآثار، وتوجد معروضة مفصلة في كتب الكيمياء التحليلية، ككتب كلثوف ومن معه من مؤلفيها (٨) بالنسبة الى المواد العضوية. واعمال اسكندر (٩) و سطورس (١٠) بالنسبة للمواد العضوية والغير العضوية وثمة أدوات من حديد اكتشفت في نياي (غينيا)، مؤرخة فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، عرضت على التحليل الكيماوي فكشف انه يوجد فيها النحاس والفسفور والنيكل والتغنستين والتيتان والمولبدان، وهي من المحتمل ان تكون ادرانا موجودة في المعادن المستعملة (١١).

### القياسات الطيفية

استعملت هذه التقنية في تحليل البقايا القديمة كالبرونزيات والحرف والملاط والاصباغ الخ.. هناك عدة عوامل في هذه التقنية متميزة بالنسبة لسائر الطرق الخاصة لتحاليل هذه البقايا. ان لها حساسية مرضية، ثم انها تمكن من تقدير نسب عالية (حتى ٢٠٪) من معظم العناصر. ثم انه في الامكان ان تكشف كل العناصر الموجودة في العينة بتسجيل الحزوز الطيفية على صفيحة تصويرية خلال بث واحد. وينتج عن ذلك وثيقة يمكن الرجوع اليها فيما بعد. وهناك اموزج آخر من القياسات الطيفية يتمثل في «اللازمليروب مقياس طيفي» (١٢). ان التحليل الطيفي لكل البرونزيات النيجرية الطبيعية في إيني، قد اظهر أن هذه الأدوات ليست من البرونز بل هي من الليط (١٣).

(٨) أ.م. كلثوف: أ.ب. صندل، ا.ج. ميهان، س. بركنستين، ١٩٦٩.

(٩) ن. فريج وأ. اسكندر ١٩٧١، ص ١١١ - ١١٥.

ز. اسكندر، ص ٥٩ - ٧١: «ديرفومون في الطيبة» مجلد ٣، نشر بشانلي، القاهرة، جمعيات الآثار القبطية ١٩٦١؛

ز. اسكندروا. و. شابين، ١٩٦٤، ص ١٩٦ - ٢٠٨.

أ. زكي وز. اسكندر ١٩٤٢، ص ٢٩٥ - ٣١٣.

(١٠) ف. ه. سطورس واودنال، ١٩٧٢، ص ١ - ١٦.

(١١) أ. موزو وأ. نوزيك، ١٩٧٤، ص ١ - ٩٦.

(١٢) أ. ت. هال، ١٩٧٠، ص ١٣٥ - ١٤١.

(١٣) ف. ويلت، ١٩٦٤، ص ٨١ - ٨٣.

### التحليل بواسطة الامتصاص الذري

تليق هذه الطريقة تماما بعينات من المادة الغير العضوية (فلزات، اسمنتات، خلائط زجاج، خزفيات، املاح الخ....) ولها في القياسات الاثرية المزايا الآتية: يمكن بلوغ درجة مرتفعة من الدقة (نحو ١% من الخطأ) باستعمال عينات بوزن ٥ الى ١٠ مليغرامات فيمكن ان تعين على انموذج واحد عناصر كبرى وصغرى او مجرد آثار، وفي النهاية فان هذه التقنية متداولة الاستعمال. وبواسطتها تكون المقارنات يسيرة بين نتائج مختلف المختبرات، ويكون من اليسير ايضا ان تراقب الاسباب المحتملة للاخطاء التجريبية (١٤).

### تفلور أشعة أكس

ان تنشيط عينة بواسطة أشعة أكس هي طريقة للحل مفيدة جدا. ومبدؤها: ان قذف ذرة بواسطة اشعة مرتفعة التردد يمكن من قلع كهيرب من مدارها الداخلي ويسد الفراغ المكون بواسطة كهيرب من مدارها الخارجي. والتغير في الطاقة بين المستويين الأعلى والسفلى منشأة اشعة ثانية او تفلورات مميزة للعناصر المكونة للعينة (١٥) وحيث ان قوة خرق اشعة اكس محدودة، فان هذه التقنية ليست صالحة الا لسطح الاشياء، فلا تطبق إذن الا لتحليل البقايا الغير العضوية، كالزجاج والخزف الصيني والخزف المزجج والابسيديان ومعظم الاحجار. ولكن الاشياء المعدنية القديمة قد تضررت من اتلاف الزمان، ويسعى المعدن الخبث الذي تشتمل عليه الى الظهور على السطح. ولذا فان تحليل لسطح هذه الأشياء قد يمدنا بنتائج مخالفة جدا للتي يكشفها لنا تحليل الشيء في كليته (١٦).

### التحليل بتنشيط الكهيربات المحايدة

تتمثل هذه التقنية في الاستشعاع بواسطة الكهيربات المحايدة، البطيئة (او الحرارية) لمجموعة من العينات، ومن منتجات كيميائية معيارية موضوعة في مفاعل نووي ذري. ويكون لبعض النظائر المشعة الناتجة وجود يمكنها من بث أشعة غاما. وحيث ان كل نظير مشع يبث أشعة غاما طول موجتها خاص مميز لكل منها، فان تحليل هذا الطول للموجة يمكن من التعرف على هوية العناصر المكونة للعينة، ومن تعيين تركز هذه العناصر، كبيرة كانت أم مجرد بقايا. وقوة خرق الكهيربات المحايدة وخرق اشعة غاما اكبر من قوة خرق اشعة اكس، فهي تمكن اذن بالنسبة لعينة معطاة، من الاغارة على عمق اهم، وينتج ان ظهور النحاس على السطح يمكن تجاهله في الفلزات (١٧).

واثناء هذه التحاليل، واذا كانت العينة المدروسة ستعود الى المتحف، يصبح من اللازم ان

(١٤) أ. ورز، ١٩٧٠، ص ١٧٩ - ١٨٥.

(١٥) أ. م. كلفوف، ا. ب. صندل، أ. ج. ميان، وس. بركنستين، ١٩٦٩.

(١٦) أ. ت. هال، ١٩٧٠، ص ١٣٥ - ١٤١.

(١٧) أ. ت. هال، ١٩٧٠، ص ١٣٥ - ١٤١.

نسعى الى تخفيض الاشعاعية المتبقية الى مستوى غير ضار، في فترة من الزمن معقولة. مثلا نظير الفضة المشع له بقية عيش قدرها ٢٢٥ يوما، فاشعاع قوي لشيء فضي يحجر ارجاعه الى المتحف الاصلي قبل مئات السنين (١٨).

وفي هذه الحالة يقتضي ان تتخذ الفضة من عينة معطاة بواسطة الفرق بقرص صغير من الصوان الحرش. ويتعرض هذا الصوان لتشعيع داخل المفاعل، ويبحث التحليل عن الفضة والذهب والنحاس والاثمد والزرنيخ المعهودة. وطبقت هذه التقنية في اطار الاثار الافريقية لدراسة لآلئ الزجاج المنشطة مرتين بواسطة الكهيرباء المحايدة فقيم بالقذف الاول في مدة قصيرة ثم بحث في الحين عن النظائر المشعة ذات الدورة القصيرة في اللآلئ، وكان القذف الثاني قويا متواصلا ودام ثمانين ساعات وحفظت اللآلئ بضع أيام عرضت للبحث عن النظائر المشعة ذات الدورة المتوسطة، ثم خزنت اللآلئ من جديد واجريت عليها تجارب قصد الحصول على نظائر مشعة طويلة الدورة (١٩) ونشر سايرميريس دراسة عن تطبيقات عديدة لهذه التقنية في علم الآثار (٢٠).

## أهداف التحليل في القياسات الأثرية

اهم اهداف البحث العلمي والتحليل في القياسات الاثرية هي التالية:

### التعرف المدقق على هوية الأشياء

لا بد ان يجري التعرف على البقايا الاثرية بكل دقة، ولا بد ان يكون في وسع الاثري ان يصفها بدقة في المنشورات الاثرية وفي أدلة المتاحف.

والتعرف بالضبط على هوية مادة الاحداث العارضة لا يقل أهمية، اذ ان مرمى المشاهدات التابعة للمواد المدروسة يتبع عامة طبيعتها الحق. ومن سوء الحظ الأخطاء لا تغيب عن الوثائق الاثرية السابقة، فخلقت الكثير من البلبلة، واشتبه النحاس احيانا بالبرونز على الرغم من ان اكتشاف البرونز واستعماله يتضمنان ظهور ثورة ثقافية معينة. واشتبه البرونز بدوره بالليط، وفي ذلك ما يجعل التقدير في قدم الشيء مخطئا، فأولى المنتجات من الليط تعود تقريبا الى منتصف القرن الاول قبل الميلاد، بينما عرف البرونز واستخدم حوالي عشرين قرنا قبل ذلك (٢١).

واذا كان معظم الاخطاء في معرفة هوية الاشياء تعود الى تقديرات بصرية مختلة، يكون من الجدير ان نشير الى أننا اذا اردنا تجنب كل خطر في التقدير المخطئ، يجب أن نجري عملية التعرف للبقايا الاثرية بواسطة التحاليل الكيماوية او التحاليل على حيود اشعة اكس.

(١٨) نفس المرجع.

(١٩) س. س. دافيزون، ١٩٧٣، ص ٧٣ - ٧٤.

(٢٠) ا. ف. سايروب. ميريس، ١٩٧١، ص ١١٥ - ١٥٠.

(٢١) أ. ر. كالاي، ١٩٤٨، صفحة ١ - ٨.

## نقل الفاظ قديمة مجهولة

وقد يتفق أن يمكن التعرف المدقق الى ترجمة أسماء مجهولة، ففي سقارة بمصر اكتشف في مقبرة الملك حورع حا (الاسرة الاولى، حوالي ٣١٠٠ ق. م) وعاءان من الخزف وعلى كل منها كتابة هيروغليفيه تقابل كلمة «سيريت» المجهولة المعنى. وأدى التحليل الكيماوي الى ان هذين الوعاءين كانا يحويان الجبن، فاستنتج ان لفظ سيريت يعني الجبن (٢٢).

مثال ثان: وجدت على بعض التماثيل الصغيرة كتابة هيروغليفيه تكون لفظ «بخين» وتعرف في بعض الحالات ان الحجارة كانت من النضيد، وان الكلمات كانت في نصوص تتعلق بوادي الحمامات (٢٣)، فاستنتج ان «بخين» من الراجع أن يكون حجر النضيد بوادي الحمامات.

## الكشف عن أصل الانقراض الأثرية

ان وجود عدد من العينات من مادة اصلها اجنبي، في موقع اثري معين يبدو كإشارة واضحة الى استيراد هذه المادة عن الطرق الصناعية او التجارية. واذا ما امكن ضبط المصادر فسرعان ما يتم تصوير السبل التي اتبعتها؛ فتحن نعلم مثلا ان الابسديان لا توجد في مصر، ومع ذلك فهي كانت مستعملة في عصر ما قبل الاسرات (قبل ٣١٠٠ ق. م) فحصدت ابيسديان بعض القطع التي تعود الى هذا العصر وقورنت مع مثيلها مما كانت تنتجه البلدان المجاورة. فكانت خصائصها قريبة جدا من خصائص ابيسديان الحبشة. وهكذا من الواضح انها استوردت عن هذه المنطقة، وان ثمة علاقات تجارية كانت موجودة من عهد بعيد بين البلدين (٢٤).

والتعرف على بقايا الخزف بواسطة التنشيط بالكهرباء المحايدة، أو بفلورة اشعة اكس، يمكن من دراسة المسالك التجارية المحلية والدولية (٢٥). وان شوائب في شكل بقايا في معدن النحاس او في الاحداث العارضة من هذا المعدن قد تساعد على ربط الحادث بالمعدن الذي استعمل في صناعته (٢٦).

ويساعدنا اكتشاف النيكل في حادث من الحديد القديم من التعرف هل ان هذا الحديد من رجم من الرجوم ام هو قد صنع تصنيعا، اذ ان حديد الرجوم يشمل دائما من ٤ الى ٢٠% من النيكل. واستعمل المؤلف اشعاعا طيفيا ليفحص خنجر توت عنخ آمون الشهير، فوجد ان حديد الشفرة يشتمل على نسبة مئوية من النيكل كبيرة، فكان الحديد المستعمل اذن مستمدا من رجم.

## البحث عن الإستعمال السابق للأشياء المفحوصة

قد يكون من الصعب أحيانا أن نعرف لم أعدت هذه الاداة أو تلك، وقد يلوح التحليل

(٢٢) أ. زكي وز. اسكندر ١٩٤٢، ص ٢٩٥-٣١٣.

(٢٣) أ. لوكا، ص ٤١٦، ٤١٩-٤٢٠.

(٢٤) أ. لوكا، ١٩٦٢، ص ٤١٦ و ص ٤١٩-٤٢٠.

(٢٥) أ. بيرلمان وف. البارو، ١٩٦٩، ص ٢١-٥٢.

(٢٦) ب. ر. فليدس، وج. ملستد، أ. هنركسن ور. و. رامات، ١٩٧١، ص ١٣١-١٤٣.

الكيمائي مساعدًا قويا في هذا المجال. فاكشف مثلا سنة ١٩٥٦ في الفيوم بمصر في قبر نفررتاح (تقريبا سنة ١٨٠٠ ق م) جرة كبيرة من الالباترفيا نحو ٢٥ كغ من مادة غريبة، فأوضح التحليل الكيمائي انه مركب يشتمل خاصة على اجزاء مساوية تقريبا، ٤٨,٢٥ % من القالان (كبريتيت الرصاص الطبيعي) و ٥١,٦٦ % من الراتينج. وحيث ان هذا التركيب لم يوقف على مثله من قبل، فقد كثرت التخمينات فيما يخص وجودها في القبر ولكن تفحص الاشارات الطبية الموجودة في بردي ايسرس، مكن من الوقوف تحت رقم ٤٠٢ على «دواء جديد من شأنه أن يحو اللطخات البيضاء الظاهرة في العينين، كحل أسود (قالان)، وخطوة (راتينج) أنعم سحقهما ليذرا في العينين». ان هذا النص المتضمن التركيب الكيمائي للمادة المكتشفة في الجرة، كشف أن نفررتاح كانت تتألم من بياض باحد عينيها، وقد يكون بكليها. ولذا قدمت لها كمية كافية من هذا الدواء لمعالجتها والعمل على شفائها (٢٧).

## البحث عن الطرق القديمة للصناعة

ان البحث المثلوغرافي للادوات المعدنية يمكن من الوقوف من جديد على أشغال القدماء وصناعاتهم الكيمائية. وتعطينا الامثال التالية نظرة عن ذلك:

### صناعة الازرق المصري

عرضت نماذج من هذا الصبغ الازرق على الفحوص الكيمائية والمجهريه وعلى تشتت اشعة اكس، بل تم الوصول الى ما يسمى «فريت» أي اعادة الصنع تجريبيا لخليط (٢٨) ازرق مشابه. فكشفت كل هذه الدراسات انه يحصل على هذا الصبغ الازرق في العهود الحثالية بتسخين الى درجة ٨٤٠ درجة مئوية خليط من مسحوق الرمل أو المرو ومن الكلس والمالاكيت وصبة من الملح الاعتيادي أو من ملح الصودا (٢٩).

### فحص الادوات المعدنية بالمجهر

ان الفحص المثلوغرافي للادوات المعدنية يمكن من توضيح هل هي صببت صبا او طرقت او دخلت في صنعها التقنيتان، وظهر الفحص لمرساة من نحاس تابعة لسفينة كيبوس وقد اكتشفت سنة ١٩٥٤ وراء الهرم الكبير بالجيزة، سنيئات ضمن المعدن (الشكل ٢)، فقد صنع المعدن اذن بالتطريق (٣٠).

### فحص بقايا التحنيط

أظهر فحص بقايا التحنيط المكتشفة في سقارة والاقصر والمطرية (مصر) أنها كانت تشتمل على نسبة صغيرة من صوابين الحوامض الدهنية الجامدة، وهذا نتيجة تصبين الشحوم الجسمانية بتأثير الصودا

(٢٧) ن. فرج وأ. اسكندر، ١٩٧١، ص ١١١ — ١١٥.

(٢٨) تعبير قديم يشير الى خليط من الرمل والصودا يستخدم في صناعة الزجاج والحرف.

(٢٩) أ. لوكا، ١٩٦٢، ص ٤١٩ — ٤٢٠.

(٣٠) أ. اسكندر، ١٩٦٠، ص ٢٩ — ٦١، القسم الاول.





- (١) كتلة تزيجيج، وقد ظهر منها السطح الاعلى المستوي، والجواف الجانبية، وجزء من السيوتقة لا يزال لاصقا بالحافة الجانبية اليمنى.
- (٢) قاعدة لاحد الاعمدة المنحوتة من الحجر الرملي في معبد بوهن (النوبة). ويلاحظ ما طرأ عليها من تآقر في الطبقة السطحية.



أثناء تهيئة المومياء، فاستنتج من ذلك ان هذه المواد كانت تسد مؤقتا تجايف الجسم قبل تحفيفه في كتلة من الناطرون (٣١) على فراش التحنيط (٣٢).

### بوتقات التزجيج (أو إذابة دقيق المعادن)

ان البحوث التي اجريت بوادي النطرون على انقراض معمل زجاج، تظهر ان الزجاج صنع في مصر في العصر الروماني، ويمكن تمييز مرحلتين، فخلال الأولى كان يحصل على التزجيج في بوتقة خاصة، تسمى بوتقة التزجيج (٣٣)، وذلك بحمل خليط من الرمل الخالص (المرو) ومن ثاني فحمات الكلسيوم، والناطرون او الرماد النباتي، وكلها الى درجة من الحرارة تحت ١١٠٠ درجة مئوية، وكان صلصال البوتقة غنيا بالرمل وبالتبن المدقوق قطعاً صغيرة. وكان هذا الصلصال في الفرن يمكن من انصاج فخار نفيذ جدا — وتلك خصلة كان الزجاج يتطلبها في العصور الحالية — اذ كانت تمكنه من تحرير قالب التزجيج (الشكل ٣) بكسر البوتقة، التي كانت اذن لا تستعمل الا مرة واحدة. وفي المرحلة الثانية يحصل الزجاجون على زجاج من نوع حسن مختلف الالوان، وكانت التزجيجات الاولى تدق حتى تعطي مسحوقاً متجانساً، وتجراً الى صبات صغيرة، ويضاف الى كل منها بعض المقادير من الاكاسيد الملونة ومن المكثفات او المزيلات للاصباغ، ويجري الطبخ حتى يتم الصهر قصد الحصول على نوع الزجاج المطلوب (٣٤).

### إختيارات الأصالة

طيلة سنين عديدة كان اثبات تابعا لمعايير تاريخية جمالية فقط، ومؤخرا سمح التقدم العظيم في ميدان البحث العلمي، بالحكم مع ثقة أكبر على صدق واصالة اداة معطاة. واثبت التقنيات هي:

#### الفحص بواسطة الاشعة ما فوق البنفسجية

هذا الاسلوب صالح على الخصوص في تقوم ادوات العاج والرخام. وينشر مختلف انواع الرخام اشعاعات مختلفة تحت الاشعة ما فوق البنفسجية اذ يسقط سطح قطع الرخام القديمة لونا متميزا بعيدا جداعن لون الكلسيات من عين النوع ولكنها أجد. وكذلك الأمر بالنسبة لقطع العاج اذ حتى التنقيحات او الاصلاحات التي اصلحت بها هذه الادوات من العاج او الرخام، وحتى الرسوم وقد صارت غير ملاحظة في الضوء الطبيعي، فهي تصبح ملحوظة تحت الاشعة ما فوق البنفسجية. وكذلك فان اشعة اكس والأشعة ما تحت الحمراء مفيدة جدا لكشف الغش (٣٥).

(٣١) الناطرون: فحمات الصود يوم المتبلور.

(٣٢) ز. اسكندر، و. شاهين ١٩٦٤، ص ١٩٧ — ٢٠٨.

(٣٣) التزجيج الاولي او اذابة دقيق المعدن قصد ازالة العناصر المتبخرة (تعليل الترجمة).

(٣٤) س. أ. صالح، ا. و. جورج، وف. م. حلمي، ١٩٧٢، ص ١٤٣ — ١٧٠.

(٣٥) ا. ر. كالاي، ١٩٤٨، ص ١ — ٨.

## فحص التآكل السطحي

ان المعادن القديمة عامة تتآكل شيئا فشيئا، ومع الزمن يولد هذا التآكل قشرة متجانسة. وفي صورة الادوات المعدنية المغشوشة فان طلاء سطحها يمر على وجهها يعتبر من شأنه ان يمنحها طابعا قديما. وعامة هو «يلتصق» التصاقا رديئا وتزيله المحللات كالماء والكحول والاسيتون او البيريدين، ثم ان هذه الاضافة الاصطناعية لا تشتمل في غالب الأحيان الا على طبقة واحدة ويمكن تمييزها بسهولة عن القشرة الطبيعية التي تنشطر عموما على أدوات النحاس والبرونز الى شريط اول باطن أحمر من اكسيد النحاس، وإلى شريط ثان خارجي اخضر وهو من فحمات النحاس او كبريتاته او كلوراته. ومن العسير ان يستعمل هذا المحلل بحيث يغتربه كيميائي متحرف أثري نبه.

## تحليل مادة الشيء

ان تحليل حبة الخزف الصيني المصري العتيق، لتوضح كثيرا من مزايا هذه التقنية. فبينما كانت حبة الصيني القديم الأصيل في مصر مركبة من الكوارتز المزجج فان التقليدات العصرية لها تتكون عامة من الصلصال والطفل الأبيض أو من الخزف الصيني فتعرفها اذن سريع ثابت. مثال آخر: كانت تقنيات العدانة في العصور الخالية تعوزها طرق الفحص الملائمة، فكانت المعادن القديمة تشتمل على بعض الشوائب — زرينخ — نيكيل — منغنيز الخ... فيكفي اذن أن تتخذ عينته منفصلة من الحادث المصطنع المشكوك فيه، وان تعرض على فلورة أشعة اكس أو على تنشيط الكهروبات المحايطة، واذا لم توجد هذه الشوائب في صورة بقايا فذاك ما يرجح الكشف عن الغش.

## تعرف الاصباغ والملونات في التصوير الملون

ان التقنيات الكيماوية المجهرية تمكن من التعرف ببعض الدقة على الاصباغ المستعملة في لوحة من اللوحات. فاذا ما كان الصبغ من بين الملونات المحدث مؤخرًا، فيكون سن اللوحة موضوع نقاش، مثلا ان فحص يونغ لصورة جانبية منسوبة الى رسام من القرن الخامس عشر الميلادي، قد اظهر ان الصبغ الازرق المستعمل فيه مستمد من اللازوردي الاصطناعي الذي لم يكتشف ولم يستخدم كصبغ الا منذ القرن التاسع عشر، واما الصبغ الابيض فمستمد من اكسيد التيتان وكان عالم التصوير يجهله قبل ١٩٢٠ م. وهكذا كانت هذه الصورة مزيفة (٣٦).

## فحص الزنجرة والبقالة السطحية

ان معظم الحجارة على مر الزمن تكتسي زنجرة سطحية: هي طلاء الصحراء. وهذه الظاهرة ناشئة عن البروز التدريجي لأملاح الحديد والمنغنيز التي تتأكسد على السطح مكونة ضربا من القشرة أو البشرة تتحد مع الحجارة فتختلط مع السطح. ومن الصعب ازالتهما بالغسل بواسطة محلل او بالحك. وفي ذلك ما ييسر التمييز بين سطح قديم حقا وسطح آخر نقش مؤخرًا ولوانه كسي ببقشرة اصطناعية.

وعلاوة على هذه القشرة الطبيعية، فإن آثار النقش والصقل القديمة تمدنا بوسيلة أخرى للحكم على الأصالة. فهذه البقايا مازالت تلوح من تحت القشرة السطحية للحجارة أو المعدن في شكل خطوط غير منتظمة التقاطع. فلم يكن للشعوب في العصور الخالية محكات للنقش ولا مبارد دقيقة ولا قماش خاص للصقل، وتتميز هذه الخطوط بسهولة عن الخطوط المتوازية المنتظمة التي هي علامات الصقل الحديث.

### تجربة اللمعان الحراري للخزف

إن الخزف كالارض التي دفن فيها يحتوي على نسبة مئوية ضئيلة جدا من العناصر المشعة. فتتشر هذه العناصر اشعة تتجمع كهاريها على مر آلاف السنين في مادة الخزف. فإذا ما خضع الخزف الى ما فوق ٥٠٠ درجة من الحرارة، ينبعث من الكهارب المتجمعة لمعان حراري يختلف بحسب عمر الخزف. وهكذا يساعد اللمعان الحراري محافظي المتاحف على الحكم بروية على أصالة خزف معين. وقد تؤخذ العينة اللازمة بواسطة حفر منزل فيسخن المسحوق الناشئ عن ذلك، في الظلمة، الى ما يزيد على ٥٠٠ درجة مئوية. فإذا ما لوحظ لمعان حراري، فذلك دليل على قدم الخزف، وإذا كان العكس فهو مزيف (٣٧).

## تقنيات تعيين التواريخ

تسمح عدة تقنيات علمية بالقيام بتعيين تواريخ الاشياء القديمة وهذه أهمها:

### تعيين التاريخ التقريبي بالتحليل القياسي الأثري

إن تحليل عينات من مجموعة واحدة (املاط، زجاج، صيني، معادن، اصباغ) إلا أنها ترجع الى عصور مختلفة، يمدنا بنتائج يمكن استخدامها كإشارة، فتوحي تقريبا بعمر عينات أخرى مازال مجهولا. ولنا في الأمثلة التالية ما يؤيد ذلك.

### تعيين التاريخ بواسطة جواهر الزجاج في إفريقيا الغربية

إن جواهر أكوري المتلونة التي تبدو زرقاء إذا سقط عليها ضوء منعكس، وخضراء إذا كان الضوء مباشرا، قد عرضت على التحليل بواسطة فلورة اشعة اكس. ولقد أمكن هذا التحليل من تصنيفها الى مجموعتين أ و ب، فعينات المجموعة (أ) أفقر في الرصاص (٠.٥٪) وفي الزرنيخ (٠.٥٪) من عينات المجموعة (ب) حيث تكون النسبة المئوية من الرصاص تقارب ٢٧٪ ونسبة الزرنيخ ٢٪ والفرق النسبي في المنغنيز أصغر (مجموعة أ: ٠.٣١ + ٠.٣١٪، مجموعة ب: تقريبا ٠.٥٪) ومن العناصر الأخرى المكتشفة الحديد والكوبالت والزنك والروبيديوم والترونيتيوم والقصدير والالمنيوم والباريوم، ولم يسجل أي فرق ملحوظ، وتوجد جواهر المجموعة (أ) في إفريقيا الغربية بمواطن جزرية

قديمة نسبيا (٤٣٠ الى ١٢٩٠ ب.م) بينما لا توجد جواهر المجموعة ب الا في أطار اجد. فاذا ما اكتشفت هذه الجواهر في قبراو في طبقة معينة فهي توجي بعمرها، بدقة يتفاوت مقدارها (٣٨) بالزيادة أو النقصان.

### تعيين تواريخ الرسوم الصخرية بتحليل املاطها-شبه الزلالية

يمكن تقدير سن الرسوم باحصاء عدد الحوامض الامينية التي تشتمل عليها املاطها شبه الزلالية بواسطة التحليل بالماء. ولقد سمحت هذه الطريقة بتعيين عمر ١٣٣ لوحة من الرسوم الصخرية في افريقيا الجنوبية الغربية مع مجال للخطأ يقرب ٢٠% «فالسيدة البيضاء» بيرندبرغ ترجع فيما يبدو الى ما بين ١٢٠٠ و ١٨٠٠ سنة، ولوحات ليميو يتوقع بين ١٠٠ و ٨٠٠ سنة، وعينات دراكنبرغ تمتد فيما بين ٦٠ و ٨٠٠ سنة. وينحط عدد الاحماض الامينية المتماثلة مع عمر الصورة من ١٠ (في المحشرات من ٥ الى ١٠ سنوات من العمر) الى سنة واحدة (وفي المواد القديمة من ١٢ الى ١٨ قرنا) (٣٩).

### تحديد التواريخ بتحليل الاملاط

ان تحليل مختلف الاملاط في مصر يظهر ان ملاط الجير لم يظهر فيها قبل بطليموس الاول (٣٢٣ — ٢٨٥ ق.م) (٤٠) فكل مبنى من (احجار او اجر) كَوْن بواسطة هذا الملاط انما يرجع الى ما بعد ٣٢٣ ق.م.

### تعيين التواريخ بالفحم المشع

#### المبدأ:

اذا لاقت الاشعة الكونية ذرات الهواء في الطبقات العليا من الجو حطمتها الى اجزاء صغيرة من بينها الكهربي الحامد، وتقذف الكهربياء المكونة للذرة التي يكون جوها أكثر غنى، الازوت ذا كتلة ١٤، فتحولها الى فحم وزنه الذري ١٤. وهذا الفحم ١٤ الجديد التكوين مشع، فيمتزج باكسجين الهواء ليكون (CO<sub>2</sub>) ١٤ ويمتزج مع ثاني اكسيد الفحم الاعتيادي الذي يشتمل على ذرات فحم كتلتها ١٢ (٩٩%) و ١٣ (١%) فيدخل هذا الفحم ١٤ في النباتات مع عناصر الفحم الاعتيادية CO<sub>2</sub> 12 و CO<sub>2</sub> 13 وتكون أنسجتها حسب عملية التركيب الضوئي. وحيث ان الحيوانات تتغذى بالنباتات فان العالم الحيواني والنباتي بأكملهما يكونان مشعان اشعاعا خفيفا لوجود نسبة ضئيلة من الفحم ١٤ (تقريبا ذرة واحدة من فحم ١٤ لكل مليون مليون من ذرات الفحم الاعتيادي) ويدخل ثاني اكسيد الفحم أيضا في تركيب المحيطات في شكل فحمات فيكون من المحتمل أيضا أن

(٣٨) دافيسون س. س، جيالك ر د، كلارك ج. د، ١٩٧١، ص ٦٤٥ — ٦٤٩.

(٣٩) دننجر أ. ١٩٧١، ص ٨٠ — ٨٤.

(٤٠) لوكا أ. ١٩٦٢، ص ٤١٦ و ٤١٩ — ٤٢٠.

يكون ماء البحر مشعا اشعاعا خفيفا، وكذلك الشأن بالنسبة الى كل المحاريات والرواسب التي يشتمل عليها (٤١).

وعند الموت فإن المادة العضوية القديمة من المحتمل أن تكون قد اشتملت على عين الاشعاعية التي تشتمل عليها المادة العضوية الحية حاليا. ولكن بعد الموت يكون العزل، أي أنه ينقطع كل نقل أو كل مبادلة مع الفحم الاشعاعي، فيأخذ الفحم ١٤ في الانحطاط أو قل، حسب عبارة الاستاذ تبي، «أنت ساعة الفحم الاشعاعي أن تشرع في العمل» (٤٢) فإذا ما قيست الاشعاعية ونظر بينها في عينة قديمة وفي عينة شاهدة ومعاصرة، يكون في الامكان بمراعاة طول عمر الفحم ١٤ (٤٣) أن يحسب عمر العينة القديمة، بحل المعادلة المتعلقة بانحطاط الاشعاعية.

### المواد الملائمة لتحديد التواريخ بواسطة الاشعاع

تطبق هذه التقنية على المواد العضوية (خشب، فحم، عظم، جلد، انسجة، نباتات، اغذية، فخار الخ...) ولكن قبل كل شيء تطبق على النباتات السنوية كالقصب، والحبوب والعشب أو الكتان. فإذا ما جمعت العينات ينبغي ألا تجري عليها أي معالجة كيميائية، بل يجب أن تعزل في قوارير من زجاج أو أكياس من نايلون كي يتجنب اتصالها المحتمل بمواد عضوية أخرى. ويتم العمل على خمس مراحل وهي، تطهير العينة، وإحراقها، وتطهير غازات ثاني أكسيد الفحم الناتجة، ثم عد الجزيئات المنتشرة.

### النتائج والاحتمالات

قد مكنت دراسة مقارنة على عينات شواهد وعلى تحديدات للتواريخ بواسطة الفحم الاشعاعي (٤٤) من التحقق من دقة هذه الطريقة، وحيث أن أقدم طريقة تاريخية وأشهرها طريقة التأريخ المصرية، فقد تقرر على المستوى الدولي أن يقاس الفحم المشع في سلسلة طويلة من العينات المصرية، مدقة التأريخ، والتي تنتمي إلى فترة تمتد من الأسرة الأولى إلى الأسرة الثلاثين (تقريباً من ٣١٠٠ إلى ٣٤١/٣٧٨ ق. م) وأخذت عدة مختبرات توارخها باعتبار أن دورات النشاط الاشعاعي للفحم تقابل لـ ٥٥٦٨ سنة أو بصفة أدق ٥٧٣٠ ± ٤٠ سنة، فظهرت النتائج أن التاريخ المعتمد على دورة تساوي ٥٧٣٠ سنة يقابل تسجيل الأحداث التاريخية حتى عهد سنوسرت (حوالي ١٨٠٠) ولكن تاريخ العينات السابقة أثار عدة جدالات، على أن تطبيق طريقة ستوفيي سواس للاصلاح على العينات السابقة لـ ١٨٠٠ سنة، قد يمكن من الحصول على نتائج توافق التأريخ الاثري بتقريب ٥٠ أو ١٠٠ سنة (٤٥) وعلى سبيل المثال قام مختبر البحث في المتحف البريطاني

(٤١) م. ج. إيتكن، ١٩٦١، ١٨١ ص.

(٤٢) و. ف. بيتي، ١٩٧٠، ص ١ - ١٠.

(٤٣) طول العمر ودورة الفحم ١٤ (أي مدة تبديد نصف الجسم المشع) يقدر بقدر ٥٥٦٨ سنة أو بصفة أدق ٥٦٣٠ ± ٤٠ سنة.

(٤٤) ر. بريس، ١٩٧٠، ص ٢٣ - ١٤٣٦، و. س. ادورس، ١٩٧٠، ص ١١ - ١٩١٩ د. ن. ميخائيل وأ. ك. رالف، ١٩٧٠ ص

١٠٩ - ١٢٠ أ. ك. رالف و. ه. ن. ميخائيل وم. ج. هن، ١٩٧٣، ص ٢٠ - ٢٠.

(٤٥) ر. بريس، ١٩٧٠، ص ٢٣ - ٣٦. ه. ن. ميخائيل وأ. ك. رالف، ١٩٧٠، ص ١٠٩ - ١٢٠ أ. ك. رالف و. ه. ن.

ميخائيل وم. ج. هن، ١٩٧٣، ص ١ - ٢٠ م. ستوفيي و. ه. أ. سواس، ١٩٦٦، ص ٥٣٤ - ٥٤٠.

بتحديد تاريخ قصبات مصطبة القاع، من الاسرة الأولى، بسقارة. فكان التاريخ الناتج عن طريقة الفحم ١٤ هو  $2450 \pm 65$  بعد الاصلاح، وهو ما يطابق التسجيل التاريخ ٢٩٠٠ ق. م (٤٦). ويظن الآن ان انتقاص الحقل المغنطيسي الارضي (٤٧) وتغيرات قوة الريح الشمسية التي تمثل الاشعة الكونية، هي الأسباب الرئيسية للانحرافات التي نلاحظها (٤٨). ومن جهة اخرى فان مدة دورة الفحم المشع ليست مثبتة اثباتاً قوياً. ونحن بصدد البحث عن اسباب اخرى، ويعمل العديد من المختبرات في هذا الاتجاه. واذا ما علمنا الجواب فسيكون في الامكان ان نصل الى تعيين توارخ بقايا العصر العتيق فيما قبل ١٨٠٠ ق. م. وحتى ذلك اليوم يجب ان تخضع التقديرات الاصطلاحية للبقايا العضوية بواسطة الفحم المشع الى التصويب المشار اليه.

### تحديد التوارخ بواسطة البوتاسيوم - أرغون

ان تحديد التوارخ بواسطة الفحم ١٤ حتى ٧٠ ٠٠٠ سنة تقريباً يحدث فراغاً في تاريخ التطور البيولوجي والجيولوجي حتى ما يقرب من ١٠ ملايين من السنين، الا انه صار من الممكن ان نطبق بعض الطرق الجيولوجية الاشعاعية، امثال نسبة تحول الاورانيوم ٢٣٥ الى رصاص ٢٠٧ اي ٧١٠ ملايين من السنين، او تحول الروبيديوم ٨٧ الى سترنسيوم ٨٧، اي ١٣٩٠٠ مليون من السنين. ويمكن سد هذا الفراغ الى حد ما بتحديد التوارخ بواسطة البوتاسيوم - أرغون (٤٩). والواقع ان هذه الطريقة مستعملة في الغالب لتوارخ العصور الجيولوجية القديمة، فتستخدم عناصر مهمة من مادة لحمتها دقيقة نسبياً (الا أنها لا تقل عن ١٠٠ ميكرون) لا تشتمل الا على القليل من الارغون الجوي. وفي الامكان ان تستعمل لعصور جديدة نسبياً، مما يسمح بمراقبة النتائج الحاصلة بواسطة الفحم ١٤ (٥٠).

### المبدأ الاساسي

ان البوتاسيوم كما تجده في الطبيعة يشتمل على ٩٣.٢٪ من البوتاسيوم ٣٩ و ٠.٨٪ من البوتاسيوم ٤١ و ٠.١١٨٪ من البوتاسيوم ٤٠. وكانت نسبة البوتاسيوم ٤٠ وقت تكوين الارض تقارب ٠.٢٪ ولكن، في قسم كبير منه، تجزأ لكي يحدث مشتقين اثنين الكلسيوم ٤٠ والارغون ٤٠. ودورة البوتاسيوم ٤٠ الكبيرة جداً (١٣٣٠ مليوناً من السنين تمكنه من البقاء بنسبة ضئيلة جداً، تقرب من ٠.١١٨٪).

ومن بين ١٠٠ ذرة من بوتاسيوم ٤٠ تتبدد، تتحول ٨٩ الى كلسيوم ٤٠ بزوال الأشعة بيتا وتصير ارغون ٤٠ اثر امسакها لجزيئات بيتا. والارغون جسم غازي محبوس في حبة المعدن (٥١).

(٤٦) و. س ادوريس، ١٩٧٠، ص ١١ - ١٨.

(٤٧) ف. بوشا، ١٩٧٠، ص ٤٧ - ٥٥.

(٤٨) س. ز. لوين، ١٩٦٨، ص ٤١ - ٥٠.

(٤٩) م. ج. ايتكون، ١٩٦١.

(٥٠) وجنتنرو. ج لبلت، ١٩٦٣، ص ٧٢ - ٨٤.

(٥١) نفس المرجع والصفحات، أ. ا. هملتن، ١٩٦٥، ص ٤٦ - ٦٩.

و يتم تحديد التواريخ بواسطة البوتاسيوم-أرغون للأسباب الآتية:

- أ — ان البوتاسيوم الموجود في القشرة الأرضية يمثل ٢٨٪ من وزنها أي انه من العناصر الغزيرة جدا، ثم انه يكاد يكون موجودا في كل الأجسام المركبة.
- ب — ان طول عمر البوتاسيوم يمكن من تكوين الارغون ٤٠ في بعض المعادن أثناء الفترات المهمة من الوجهة الجيولوجية. وبحساب تركيز الارغون ٤٠ وكمية البوتاسيوم الموجود في المعدن، يكون في الامكان تعيين عمر هذا المعدن بواسطة معادلة تابعة لتبديد الاشعاعية (٥٢).

### مشاكل يجب حلها عند تعيين التواريخ بواسطة البوتاسيوم — أرغون

استعملت حديثا طريقة لتعيين التواريخ بالفحم المشع لحساب الثابتة من المرتبة الاولى في الوضع، قصد مرازمة الحامض الاسبرتي في العظام القديمة. فاذا ما تمت معايرة تفاعل المازمة في موقع ما، يصير من الممكن ان يستعمل هذا التفاعل لتعيين تواريخ لعظام أخرى من عين المنجم. وتوافق الاعداد المحسوبة هكذا الاعداد التي تم الحصول عليها بواسطة الفحم المشع. وتبرهن هذه النتائج على أن تفاعل المازمة هالة زمنية مهمة لتعيين تواريخ العظام القديمة جدا او الصغيرة جدا، والتي لا يمكن معالجتها بالفحم المشع.

وكمثال على تطبيق هذه التقنية في تعيين تواريخ الحجرات البشرية ثمة تجربة تمت على عظم بشري وهي قطعة من إنسان روديسيا من الهضبة المكسرة «بروكن هل» في زامبيا، وعندما حللت اعطيت موقتا عمرا ١١٠٠٠ سنة (٥٣). وتعيين التواريخ بالبوتاسيوم — أرغون لعصور البليوسين والبليستوسين من شأنه ان يسمح باقرار تأريخ مطلق، يقدر اصول الانسان وعمر المتحجرات التي يتفق وجودها في عدة نقط من الارض، واصل «التكتيت» وعددا اخر من المشاكل الجيولوجية.

ان تعيين التواريخ بالبوتاسيوم — أرغون اعان في الالدفاي على تعيين عمر الطبقات البازلتية وطبقات الفليس التي كانت تغطيها، بأمل تدقيق العمر الحق لبقايا الزنجيتروب المكتشفة في قعر الطبقة الاولى من الفليس، في «الطبقة ١» واستنتج كرتيس وايفرند ان بازلتيات الالدفاي هذه تؤرخ على الأقل باربعة ملايين من السنين على أنها ليست صالحة لتعيين التاريخ بكيفية مدققة من جراء تغييرات كيمياوية تلوح في الجزء الضيق من كل البازلتيات المؤرخة بالالدفاي باستثناء ما يمكن ربطه بالصناعة السابقة «للحصى المشدبة». وهذا رأي كنتنروليولت عن مختلف النتائج الحاصلة «وحيث لا وجود لتنافرات أخرى بين تعيينات التواريخ الخاصة بالبازلتيات وبالفليس الذي يغطيها، فليس من غير الممكن ان يكون عمر الزنجيتروب نحو المليونين من السنين (٥٤).

### التعيين الأثري المغنطيسي للتواريخ

كفي نعطي فكرة مبسطة عن هذه التقنية يجب ان نطرق للنقط الآتية:

(٥٢) و. جنتزوه. ج. لبت، ١٩٦٣، ٧٢ — ٨٤.

(٥٣) ج. ل. بودا و. أ. شروود، وزبروتس ور. بروجو، ١٩٧٤، ص ١٢١.

(٥٤) انظر تعليق ا.



### المغناطيسية القديمة

ان المقصود دراسة المغناطيسية المتبقية في الانقاض الاثرية وتستند هذه الدراسة الى كون الحقل المغناطيسي الارضي يتغير دائما اتجاهها وقوة، وتفيد المشاهدات الممتدة خلال خمسين السنة الأخيرة، ان الحقل المغناطيسي ينتقل نحو الغرب بقدر ٠.٢ درجة طول سنويا (٥٥).

واجريت بحوث على المغناطيسية القديمة تعتمد على المغناطيسية المتبقية في الطين المشوي الاثري وفي الصخور، فظهرت انه بالنسبة الى قوتها الحالية الرموز اليها بواحد، فان قوة الارض المغناطيسية بلغت حوالي ٤٠٠ الى ١٠٠ ق. م قيمة قصوى قدرها ٥١٦ ومرت بقيمة دنيا حوالي سنة ٤٠٠ ق. م قدرها ٠.٦ (٥٦) وتسمى هذه الآثار او التغيرات في الاتجاه والشدة (تغيرات قرنية). ولها طبيعة جهوية، فتشمل القاعدة لتعيين التواريخ المغناطيسية، اذ ان تغيرات الحقل المغناطيسي الارضي تبقى اثرا في الحرف على شكل مغناطيس حراري متبق.

#### تطبيق المغناطيس الحراري المتبقي لتعيين التواريخ الأثرية

لتعيين تاريخ طين مشوي بقي في محلة منذ شتبه، بواسطة المغناطيس، يجدر أولا اثبات احتمال الحقل المغناطيسي الارضي بقياسات تجري في الجهة التي اختيرت، لتطبيق الطريقة على بنيات اثرية عمرها معروف. وترسم النتائج على منحنى يمثل التغيرات الطويلة المدى في هذه الجهة طيلة فترة ممتدة. واذا ما عرف اتجاه الحقل المغناطيسي المسجل في طين مشوي مجهول العمر في هذه الجهة نفسها، يصير من اليسر تعيين تاريخه بالمقارنة مع منحنى التغيرات الطويلة المدى.

والسيق العينات المعدة للتأريخ المغناطيسي، عينات الطين المشوي المستمدة من أفران او مواقع بقيت في محلها حتى يومنا هذا. ولعدم وجود آلة قياس المغناطيس القابلة للحمل والتي من شأنها ان تسهل على العين حساب اتجاه الحقل المغناطيسي الارضي، تحمل العينات الى مختبر تكون فيه هذه الآلة. ومن الاساسي ان يمثل على العينة اتجاهها الاصلي كي يكون هذا الاتجاه مرجعا بالنسبة الى اتجاه المغناطيس المتبقي.

وفي التطبيق، تتمثل العملية في طلي العينة بمحس باريس، مع التحفظ من كون السطح العلوي للقلب افقيا ويشير الى اتجاه الشمال الجغرافي قبل قلع العينة. وهكذا يمكن في آن واحد من تعيين زاوية الحدود المغناطيسية (ح) وزاوية الميل القديمة (م) (٥٧) وكى نحتز من الشوائب يجدر بنا ان نتزود على الأقل بنحوست من العينات المستمدة من بقاع مختلفة البنية الاثرية، مع مراعاة شيء من التناظر (٥٨).

وسجلت نتائج مغناطيسية اثرية فيما يتعلق بالانحراف والميل في انكلترا وفرنسا واليابان

(٥٥) م. ن. ايتكن، ١٩٦١ ف. م. كوك، ١٩٦٣، ص ٥٩ - ٧١.

(٥٦) ف. بوشا، ١٩٧٠، ص ٤٧ - ٥٥؛ ف. بوشا، ١٩٧١، ص ٥٧ - ١١٧.

(٥٧) م. ج. ايتكن، ١٩٧٠، ص ٧٧ - ٨٨.

(٥٨) ر. م. كوك، ١٩٦٣، ص ٥٩ - ٧١.

وايسلاندا وروسيا. ولم يقم، فيما اعلم، بمحاولة لتطبيق هذه الطريقة على افريقيا. فالمرجوان يقام بذلك عما قريب خصوصا وانها تقدمت كثيرا في السنوات الأخيرة.

## تعيين التواريخ بالإضاءة الحرارية

الإضاءة الحرارية هي بث للضوء ينتج عند تسخين مادة معطاة تسخيناً قوياً، وهي تختلف تماماً عن التأجيج (الحاصل نتيجة الوصول بالجسم الجامد إلى الحمرة) وتنتج عن تحرير الطاقة المتجمعة في شكل كهيربات محايدة محبوسة في المادة المسخنة.

### اصلها

كل خزف أو صيني يشمل نسباً ضعيفة من المركبات المشعة (بعض الأجزاء من مليون من الاورانيوم والطوريوم وبعض الاجزاء من المائة من البوتاسيوم) ثم ان الارض المجاورة لموضع اكتشاف الخزفيات قد تشتمل على الاوساخ، وقد تكون الاشعة الكونية تخللتها اشعة قذفت بها المادة المبلورة كالمرو في الخزف. وينتج عن تأينها كهيربات قد تحبس في البنية البلورية، و«افخاخ الكهيربات» هذه في وضع غير مستقر، فتزول اذا ما سخنت عينة الخزف محررة مازاد من الطاقة في شكل ضوئيات، وقوة الضوء أي الإضاءة الحرارية تتبع طرداً عمر الخزف، وهي تتبع أيضاً الطبيعة الخاصة لمولدات الإضاءة الحرارية الموجودة في الخزف وفي الجوار المباشر للموضع الذي اكتشف فيه (٥٩)، ويمكن قياس عناصر الاورانيوم والبوتاسيوم بالاشعة التي تقبلتها كل سنة. ويعين العمر مبدئياً بواسطة المعادلة التالية (٦٠):

$$\frac{\text{شدة الأشعة المتجمعة}}{\text{شدة الأشعة السنوية}} = \text{العمر}$$

### دقة النتيجة والاحتمالات

ان النتائج في عصرنا صحيحة إلى  $\pm 10\%$  فهي اذن من مرتبة ادنى بعض الشيء مما يوفره تعيين التواريخ بالفحم المشع، يعزى السبب في ذلك إلى عدد من الترددات المتعلقة بالظروف التي دفن فيها الشيء المدروس، وإلى درجة رطوبة الأرض المجاورة التي تتبعها شدة النظائر المشعة في قطعة الخزف. ومن المؤمل ان تذلل البحوث المقبلة هذه الصعوبات، الا ان عدة اسباب عملية تجعلنا نعتقد ان تحسین النتائج لن يتجاوز أكثر من  $\pm 5\%$  (٦١).

وعلى كل ورغم قلة الضبط هذه، فإن هذه التقنية تتقدم على تقنية تعيين التواريخ بالفحم المشع، لان الخزف موجود في المواطن الاثرية أكثر من المواد العضوية، ثم ان الحدث الذي يجدر

(٥٩) م. ج. ايتكن، الجمعية الملكية، لندن، مجلد ٢٦٩، عدد ١٩٩٣، ١٩٧٠، ص ٧٧-٨٨؛ أ. ت. هل، ١٩٧٠، ص ١٣٥-١٤١.

(٦٠) م. ج. ايتكن، ١٩٧٠، ص ٧٧-٨٨.  
(٦١) نفس المرجع.

تعيين تاريخه هوشي الحزف، بينما يرمي تعيين التاريخ بالفحم المشع لعينة من الخشب او الفحم الى تقدير زمن قطع الشجرة، لا تاريخ استعمالها فيما بعد.

وفي مصر، سيكون لهذه التقنية مجالات فسيحة لاستغلالها، وحتى الآن فان نباتات العصر الحجري الحديث، وعصر ما قبل الاسرات كان تعيين تواريخها في اكثر الأحيان حسب النموذج الحزف الذي تتميز به طبقا لنظام تاريخ اللقطات المتعاقبة الذي ابتكره فلندرس - بيري (٦٢)، فبفضل الاضاءة الحرارية سيكون في الامكان ان يعين العمر الحق لهذه النباتات.

## التقنيات المستعملة في التنقيب الأثري

ان الغرض الاساسي من استعمال التقنيات العلمية في استكشاف الارض هو البحث عن ارشاد عن المواقع الاثرية المدفونة لتحضير الحفريات او تعويضها. والامر هو ان نربح اكثر ما يمكن من الوقت ومن الجهد ومن التكاليف.

والبحث الاثري المعتمد على الطرق العلمية يستخدم التقنيات التالية:

### التصوير الجوي

و يستعمل على الخصوص للتعرف على بنية معطاة حسب رسمها الهندسي، وله استعمالان رئيسيان: وهو يمكن من النظر من على اي من مشهد اوضح للنقط التي تلوح فيها البقايا او التباشر البارزة كأنها تجمع كى تكون رسما أكثر ايجاء (٦٣) وتسمح دراسة الصور الجوية بتحديد المناطق التي يكون من اللائق ان تستكشف للحصول على فكرة عامة من البنية الاثرية. واستعملت هذه الطريقة في مصر، بالاقصر لدراسة معابد الكرنك في مساحة ١٥٠ هكتار تقريبا.

وثمة استعمال آخر يمكن من الكشف عن وجود بقايا أثرية تغطيها الاراضي المزروعة بواسطة العلامات النباتية، ان هذه الآثار بصمات حقيقية تنتج عن تغير الرطوبة في التربة، فالنبات على جدار من حجارة مغمورة يتميز قليلا بواسطة خط أكثر وضوحا ويكون أغنى، ويبدو أشد دكنة عندما يكون فوق حفير مردوم، ويمكن الشكل الهندسي لهذه الآثار من التعرف على الانقاض المدفونة ومن الشروع في استكشافها (٦٤).

### تحليل التربة

نستطيع بصورة عامة تعيين الانقاض القديمة للمدن المسكونة والمقابر، بتحليل التربة، فاذا كان فوسفات الكالسيوم هو المكون الرئيسي للهيكل العظمى ولخثلف ما يتبقى مما يتركه الانسان، فستكون نسبتها المشوية بالطبع مرتفعة على الأراضي التي سكنها الانسان في الماضي او في التي كانت له

(٦٢) و.م. ف. بيري، ١٩٠١.

(٦٣) ب.أ. لينينغتن، ١٩٧٠، ص ٨٩ - ١٠٨.

(٦٤) م.ج. ايتكن، ١٩٦١.

مقابر، لذا تحدد هذه القطاعات الاثرية بواسطة التحليل لعينات من الاتربة مأخوذة على مسافات منتظمة قصد استنتاج نسبة الفوسفاط.

## تحليل غبار الطلع

ان تلقيح النباتات الزهرية يتم عامة بفعل الطيور والحشرات أو الريح. والأزهار التي لقحتا الريح تنتج كميات كبيرة من حبات غبار الطلع يسقط معظمها على الارض دون ان يساهم في عملية التلقيح. وتحلل هذه الحبات بصفة عامة، ولكنها ان وقعت على تربة ملائمة، كالوحل أو الترب، فقد تتحجر، ويكون اذن من اليسير ان تفحص بالمجهر. وقد يكون للتعرف على مختلف نماذج غبار الطلع الموجودة في عينة ولتعدادها اهمية في علم الآثار من جراء ما يوفر من وسائل الاسترشاد، عن المحيط الذي كانت فيه بقايا بشرية واحداث عارضة، ويمكن معرفة هذا المحيط بدورها من توضيح نمط العيش الذي كان يسود في تلك الفترة.

على ان تحليل غبار الطلع لا يصلح كتقنية لتعيين التواريخ، الا اذا امكن ربط عينات غبار الطلع بتاريخ، يعتمد على طريقة مباشرة لتعيين التاريخ كطريقة الفحم المشع. ولزيادة التفاصيل عن هذه التقنية انظر فاكري وفرنس (٦٥) ودمبلاي (٦٦).

## دراسة المقاومة الكهربائية

هي أول تقنية لفيزياء الارض تم تطبيقها على الآثار وهي تتمثل في ارسال توتر كهربائي في الارض، وقياس مقاومة التيار الكهربائي، وهذه المقاومة تتبع طبيعة التربة وكمية الماء التي احتفظت بها مساهما ونسبة املاحها المحولة. فللصخور الصلدة المتراصة كالكرانيت والديوريت مقاومة مرتفعة جدا بالنسبة الى مقاومة الاتربة الصلصالية. وتطبق دراسة المقاومة الكهربائية خاصة على البحث عن بنيات حجرية مغمورة تحت ارض ذات أوحال، او بنيات حفرت في الصخر وردمت (٦٧).

ويتمثل الجهاز المستعمل عادة لذلك في ادخال اربعة مسابر معدنية في الارض، وامرار تيار كهربائي بين المسبارين الخارجيين، وقياس المقاومة بين الاثنين الباقين، وقيمة المقاومة الناتجة هي معدل تقريبي بالنسبة للمادة الكائنة تحت المسبارين الداخليين، على عمق يساوي تقريبا مرة ونصف المرة من البعد بينهما، مادامت هذه المادة في الجملة متجانسة (٦٨).

وفي العادة، تتمثل معظم تطبيقات دراسة المقاومة في رسم خطوط قياس مع الاحتفاظ بنظام الوصل وبنفس المسافات بغية تحديد التغيرات التي تطرأ على قيم المقاومة. وكثيرا تضم هذه الخطوط لكسي تكون معا شبكة مستطيلة من القيم، ويتبين موضع البنى المدفونة من الأجزاء، التي تنتج قويا غير عادية.

(٦٥) ك. فاجري وج فرنس، ١٩٥٠.

(٦٦) ج. و. دمبلاي، ١٩٦٣، ص ١٣٩ - ١٤٩.

(٦٧) م. ج. ليتكن، ١٩٦١.

(٦٨) لينتغن، ١٩٧٠، ص ٨٩ - ١٠٨.

وقد حل محل هذا الأسلوب جزئياً أسلوب التنقيب المغنطيسي، وذلك بسبب ما يشوبه من عيوب يذكر منها بطء الفحص، ولأن النتائج تتأثر في المدى البعيد بالظواهر المناخية، بالإضافة الى أن تفسير النتائج الى الصعوبة في كل الحالات إلا أبسطها (٦٩).

## الفحص المغنطيسي

وهو التقنية الأكثر انتشاراً في البحث عن الآثار، وتتضمن قياس شدة الحقل المغنطيسي الأرضي، في نقاط كائنة فوق السطح الحالي للموقع المراد سبره. وقد تدل التغيرات في هذه القياسات على وجود بنايات أثرية، فتمكن هذه التقنية من الكشف عن بقايا حديد مردومة، وعن منشآت من الطين المشوي، وعن الأفران مثلاً، أو عن آبار حفرت في الصخر وتم ردمها، أو عن بنايات من الحجارة مغمورة في تربة صلصالية.

وتسبب الأدوات الحديدية المدفونة تغيرات مهمة جداً، وفيما عدا الحديد فإن التغيرات ضئيلة. ولا تكون تقنية الدراسة المغنطيسية صالحة اذن، ان لم تكن آلة الاستكشاف حساسة بالنسبة للتغيرات الصغيرة جداً، ثم انه ينبغي ان تكون سريعة سهلة المراس (٧٠). وقد نجح مختبر البحوث الاثرية في جامعة اكسفورد، في ضبط مقياس للمغنطيس يستخدم البروتونات، تتوفر فيه كل هذه الشروط (٧١)، وهو يتركب من قسمين: قارورة الاستكشاف والآلة المسجلة. وتحمل قارورة الاستكشاف على ثلاث ارجل من خشب، وينقلها عامل المختبر من نقطة الى اخرى على المساحة المراد درسها، ويراقب عامل ثان اشارات المسجلة ويرسم بواسطة القياسات مستوياً يؤول تعبيره الى الاشارة الى موقع العناصر الاثرية، والخطوط العريضة لها داخل الارض (٧٢).

وهناك أصناف أخرى من مقاييس المغنطيس قد دقق صنعها ولا سيما «المقياس الفرقي ذو البروتونات» (٧٣) والمقياس ذو الجيز يوم، والمقياس بالضخ للرنين الالكتروني (٧٤) ولكل مزاياه، ولكن انفعها في غالب الحالات هو المقياس الفرقي ذو البروتونات. وللطريقة المغنطيسية كثير من المزايا بالنسبة الى المقاومة، فهي ابسط واسرع، وتفسير نتائجها ايسر (٧٥).

## سبر الأهرام المصرية بواسطة الأشعة الكونية

ان الأشعة الكونية هي تيار من جزيئات ذات شحنة كهربائية تسمى (ميزون مو) او (موون) تبلغ هذه الاشعة الارض بشدة متساوية من كل نقاط السماء. فيدخل كل متر مربع، نحو ١٠ ٠٠٠

(٦٩) لينغتن، ١٩٧٠، ص ٨٩-١٠٨.

(٧٠) م. ج. ايتكن، ١٩٦٣، ص ٥٥٥-٥٦٨.

(٧١) م. ج. ايتكن، ١٩٦١.

(٧٢) نفس المرجع.

(٧٣) أ. ت. هل، ١٩٦٥، ص ١١٢.

(٧٤) باسكولان، ١٩٧٠، ص ١٠٩-١١٩.

(٧٥) ر. أ. لينغتن، ١٩٧٠، ص ٨٩-١٠٨.

مليون في الثانية، مها كان اتجاهها. وللأشعة الكونية قوة نفوذ كبيرة جداً، أكبر بكثير من قوة أشعة أكس، وتكاد تكون سرعتها مساوية لسرعة الضوء.

ويستند سبر الأهرام بواسطة هذه الأشعة إلى كون المون تفقد من طاقتها عند اختراق المادة. إن ضياع الطاقة (أو امتصاص المون) يتناسب مع كثافة المادة التي تخترقها ومع سمكها، ولشدة أو كمية الأشعة الكونية التي تنفذ تقدر بجهاز معروف باسم «غرفة الشرارة» يوضع في حجرة تحت الأرض داخل الهرم. والمون التي اخترقت الفراغ (أو غرفة أو ممراً مجهولاً) تخفض سرعتها تخفيضاً أقل، إذا ما مرت خلال صخرة صماء، فتكون الأشعة الكونية التي اخترقت الفراغ أشد وتظهر ذلك غرفة الشرارات. وبواسطة غرفتين للشرارات موجهتين اتجاهها أفقياً على بعد ٣٠ سنتيمتراً تقريباً الواحدة عن الأخرى في الاتجاه الرأسي، يمكن أن تستكشف كل حجرة خفية بل إن يتعرف على موقعها بتقريب بعض الامتار، فتوجه الحفريات في ذلك الاتجاه كي يتم الوصول إلى الفراغ أو الحجرة التي أشارت إليها الأشعة.

وبدأ السبر بالأهرام الثاني، هرم الملك خفرع، من الأسرة الرابعة (٢٦٠٠ سنة ق. م) وحللت الارشادات بواسطة الحاسب ونشرت النتائج يوم ٢٠ أبريل — (نيسان) ١٩٦٩ فكشف عن أمرين مهمين: إن حجرة الميت الملك لا تقع بالتدقيق وسط قاعدة الهرم، بل تقع بضعة امتار نحو الشمال. ووافق هذا الاكتشاف النتائج التي تم الحصول عليها بواسطة الدراسة المغنطيسية، وهو يدل إذن على صلاحية هذه التقنية لسبر الأهرام. ثم إن الثلث الأعلى من الهرم لا يشمل على غرف أو معابر مجهولة.

واعيدت التجربة بواسطة جهاز آخر ركب لاستكشاف الهرم كله. ودل التحليل للنتائج إن الهرم لا يشمل على أي تجويف مجهول وبذلك تأكدت التكهّنات الأخيرة.

## تقنيات الحفاظ

ليس الغرض من هذا العرض أن نصف الطرق التقنية المستعملة للحفاظ على الأحداث العارضة المؤلفة من مختلف العناصر كالخزف والصيني والزجاج والخشب والجلد والبردي والأنسجة والفلات الخ. وإن هذا التنوع يخرج عن نطاق هذا الفصل، وقد عولج الموضوع في عدة كتب تقنية (٧٦) وفي عدة دوريات، من بينها دراسات في الحفاظ وهي صحيفة المعهد الدولي للحفاظ على الأعمال التاريخية والفنية في لندن.

على أن أهم المشاكل التابعة للحفاظ في أفريقيا هي التي تتعلق بهشاشة الأشياء الكبرى، والعطب العظيم للمعالم الحجرية.

## هشاشة مختلف المواد الكبيرة

بسبب الحرارة والجفاف الشديدين، في كثير من البلدان الأفريقية، صارت الأحداث العارضة المصنوعة من مواد عضوية (رق، بردي، جلد، خشب، عاج، الخ...) عرضة للكسر السريع، مما

(٧٦) ر. م أنجان، ١٩٦٨ هـ. ج. بلندرلث، ١٩٦٢ أ. بيدوك، ١٩٦٣ ج. سافاك، ١٩٦٧.

دعى الى معالجتها بكل عناية حتى لا تهدد بالتفتت، و يقتضي اولا حفظها في محل مغلق رطب وان تلف في انسجة ندية، او ان تعالج بالبخار في وعاء خاص حتى تتمكن من استرجاع بعض او كل مرونتها. فيصير في الامكان اذن ان تنشر او تبسط دون أن يخشى عليها من الكسر. واذا ما رجعت لها مرونتها يجب ان تحفظ هذه الأحداث او ان تعرض في متاحف مجهزة بالهواء المكيف، او في مستودعات طقسها  $17 \pm 2$  درجة مئوية ورطوبتها النسبية من ٦٠ الى ٦٥% حتى لا تصير من جديد سهلة الكسر باتصالها بظروف مناخية اشد قساوة.

## الفساد الملحوظ للمعالم الحجرية

ويجدر ان ينظر عن قرب في هذا المشكل الهام:

### أهم اسباب العطب

ان اهم هذه العوامل هي عطب المباني الحجرية بافريقيا:

— تجول الاملاح: عن طريق الماء او الرطوبة تنتقل الاملاح القابلة للتحلل من التربة المالحة الى حجر المعالم الاثرية وذلك بتأثير عامل ظاهرة التسرب، وتمر هذه الاملاح في المناخ الجاف من داخل الحجارة الى سطحها الخارجي في صورة محلولات مائية، وقد تتبلور على السطح نفسه وتسبب في تفكيكه، او تتبلور تحت السطح وتعمل على فرقهته. وتتضخم هذه العمليات في قاعدة الجدران او الاعمدة حيث تتصل الحجارة بالتربة المالحة كما يشاهد ذلك على بعض الأعمدة في معبد بوهان بالسودان (الشكل ٤).

— العوامل الجوية: تتحمل الحجارة في افريقيا قساوة التغيرات المتطرفة في الطقس وفي الرطوبة، فتؤول بها الى فصل العناصر السطحية في معظم الاحجار .

وفي عدة مناطق، ولا سيما في الجهات الساحلية، يتضافر عاملا العطب، فيتسبب عنها افساد كبير للمعالم، كما يلاحظ ذلك بسهولة في ليبيا في المعابد الرومانية في لبدية (لبتيس باكنة) وفي صبراتة.

### معالجة السطوح — عدم نجاعتها

وقعت عدة تجارب مؤخرا لتقوية سطوح الأحجار بمعالجتها بمولد حافظة عضوية أو برمليات (سيليكات) لاعضوية. وبدت كل هذه العلاجات ليس فحسب غير نافعة، بل مضرة حيث تزيد في سرعة العطب وفي كسر الاحجار. ونبه على خيبة هذه المساعي في الملتقى الدولي للحفاظ على المعالم الحجرية. واعترف ان مشكل تقوية الحجارة لم يحل بعد، وانه يجدر الاشتغال به بكل سرعة.

### الجهود الدولية لحل المشكل

ان الصعوبات الملازمة لهذا المشكل وخطورتها قد دعت سنة ١٩٦٧ منظمتي الايكوم والايكوموس والمركز الدولي للحفاظ لتكوين هيئة مؤلفة من عشرة اخصائيين في المحافظة على الحجر لدرس القضية، فتمت بعض الدراسات وقدمت عدة تقارير واستمر نشاط هذه اللجنة الى سنة

١٩٧٥ لتقترح سلسلة من التجارب المعيارية التي تمكن من تقدير درجة عطب الحجارة وما يحتمل من نجاعة في علاجات الوقاية.

### أهل جديد

لقد أعد الاستاذ لوين اسلوبا جديدا لحماية سطوح الرخام والكلس (٧٧) يتمثل في معالجة الاجزاء الفاسدة بحلول قوي التركيز من هيدرواكسيد الباريوم (نحو ٢٠٪) يشتمل على كمية من الاوربا (نحو ١٠٪) والغليسول (نحو ١٥٪) فن الناحية الكيماوية تركز الطريقة على التعويض في الحجارة المعطوبة عن ايونات الكلسيوم بايونات الباريوم. وبعد المعالجة تبين ان الحجارة تبدي صلابة واضحة ومقاومة افضل لعوامل العطب، اذ يلتصق بالحجارة فحمت الباريوم الجديد التكوين دون ان يكون كساء سطوحيا، له خواص مغايرة لخواص الباطن، ويرجى من هذه الطريقة الا تفتت السطوح المعالجة وأن تعمل على حماية الطبقات التحتية من تعديات التغيرات الطقسية.

استخدم هذا العلاج في شهر يوليو (تموز) ١٩٧٣ لتقوية التمثال الكلسي لابي الهول في الجزيرة الآخذة في التآكل. وتبدو النتيجة حتى الآن مرضية، ولكن علينا ان نراقب هذه الرقبة طيلة عشر سنين على الاقل، قبل ان نقرر نهائيا ان هذه التقنية قينة بحماية الاحجار والصخور الكلسية والمحافظة عليها.

### التدابير العلاجية للوقاية

نمهما كانت الثقة التي نولها لتقنية لوين فان مشكل الحفاظ على المعالم الحجرية بالمعالجة الكيماوية لم يحل بعد، على ان هناك بعض التدابير الميكانيكية يوصي بها لحماية هذه المعالم من عوامل التخریب، ومن هذه التدابير:

— لا ينبغي استخدام اي مادة وقائية من شأنها ان تسد مسام الحجارة لمعالجة سطوح المعالم الاثرية الموجودة في الهواء الطلق والمعرضة مباشرة لأشعة الشمس فقد تتقشر الطبقة الخارجية من السطح بسبب ذلك.

— ينبغي القيام بانتظام بعملية ازالة الملح من التربة التي بنيت عليها المعالم الاثرية ويجب ان يحلي الماء المستعمل هذه الغاية بواسطة مصارف لائقة.

— يجب ان تعزل المعالم الحجرية بقدر الامكان عن الأراضي المالحة لايقاف تنقل الاملاح القابلة للتحلل من الأرض الى الحجر. ويمكن الحصول على هذا العزل بازلاق ورقة من الرصاص او بافراغ طبقة سميكة من القار تحت التمثال او الجدار أو العمود التي تقصد حمايتها.

— اذا اشتمل المبنى الاثري على املاح قابلة للتحلل، وقد تتسبب في العفن او تكون فطريات يجدر ان تزال هذه الاملاح بالغسل بالماء وان تظلى الاجزاء المصابة بصلصال رملي حتى تتخلص الحجارة منها تماما او تكاد.



— اذا ما كان حجم المعلم متوسطا يكون من الممكن نقله الى متحف او الى ملجأ لوقاية جوانبة من تأثيرات العمل المناخي المضرة. وحل اخر يتمثل في حفظه في محله الاصلي بتغطيته ببناء اخر.

— واذا ما اتلف السقف، فيجب اعادة بنائه لحماية الرسوم الجدارية والتصاوير الناتئة، وبذلك يحد شيئا ما من الاضرار الناشئة عن التغيرات الكبيرة للحرارة والرطوبة.

### توصيات فيما يخص التجديدات

ان معاملة الأحداث العارضة والمعلم الاثرية بكيفية غير مناسبة، قد يتبعها عدد من الاضرار، بل حتى الخراب الكلي لبعض هذه الاثار، ولعله ينبغي التذكير ببعض القواعد المهمة الموصى بها اثناء المؤتمرات الدولية.

(أ) ينبغي باي حال الا تغسل القشرة التي تغطي المعالم القديمة، وان لا تزال بقصد الكشف عن لون الحجر الاصلي، ويقتصر في تنظيف الواجهات على ازالة الغبار بحيث تبقى القشرة كاملة، وهذا هو الطابع الاهم للمعلم.

(ب) عند تجديد المعالم القديمة ينبغي الا يعاد البناء الا بالنسبة الى الاجزاء المتداعية الآيلة للسقوط، ويعاد البناء في مكانه الاصلي. وينبغي ان نتجنب التعويضات والاضافات الا ما دعت اليه الحاجة لتدعيم الاجزاء المنهارة او لوقاية الواجهات القديمة من تغيرات الطقس.

(ج) في جميع حالات اعادة البناء، يجب ان يوضع الملاط بين الاحجار حتى يتوزع وزنها توزعا متساويا والا يتسبب عنها تبديل في الشكل ولا شقوق.

(د) يجب أن يكون الملاط المستعمل، بصفة عامة، في تجديد الجدران مطابقا للملاط الاصلي، الا فيما اذا كان هذا الاخير من الجبس. ولا يوصي باستعمال الاسمنت في المنشآت المبنية بالصخور الرسوبية، كالكلس أو الصوان.

(هـ) ان أحسن ملاط بالنسبة لجميع أعمال اعادة البناء، هو ملاط الجير بلا ملح، فهو مرن، مسامي وبذلك لا يمنع تنفلا صغيرا للحجارة بموجب تغيرات الحرارة، ولا يخشى معه حدوث توترات أو شقوق.

(و) وأما الطرق التي تمكن من تمييز واجهات الاحجار المضافة فدونك ما يستحق الذكر منها:

- يمكن الزينة الجديدة ان تختلف قليلا عن مستوى العمل الاصلي.
- ليس محظورا ان تستعمل مواد مختلفة، لكنه يجب التقيد بابعاد القطع الاصلية.
- يمكن ان تستعمل ايضا عين المادة ولكن في هذه الصورة يمكن ان يختلف الشكل والابعاد بالنسبة الى العناصر الاصلية.
- ان صفوف الاحجار وكل المفاصل يمكن صفها على البناء الاصلي ولكن القطع الجديدة يمكن صنعها من مجموعة من الحجارة ذات احجام مختلفة.
- يمكن وضع علامات للتعريف بتاريخ اعادة البناء تنقش على كل الاحجار الجديدة.
- يمكن ان تختلف واجهة الاحجار الجديدة تماما عن واجهة الاحجار القديمة. ويكفي لذلك ان تعالج بألة ذات حد، او ان تنقش في عمقها بمكشط حتى يكون لها بعض الشكل الهندسي ومن الافضل ان يكون من خطوط متوازية ومن قواطع.



## الفصل العاشر

### القسم الأول

# اللغات والتاريخ الافريقي

باتية ديانى

آدا كوي دمنكا! ووي (فلفلدية)  
لمي أي دكال دمب (وولوف)  
ان الكلمة هي التي تشكل الماضي.

ان الزنجي الافريقي يربط التاريخ باللسان، وتلك نظرة مشتركة بين البنو واليوروبا الماندانك. ولكن ليس هذا هو الطريف فالعربي واليوناني قبل توسيديد يتفقان على القول، مع الفلاني، «ان الخبر هو المحل الذي يوجد فيه الماضي» (هنكي كوي دارل اوراتي) وما يميز الرابطة بين التاريخ واللسان، في التراث الزنجي الافريقي يرجع الى ما احتفظ به عموما هذا التراث، من تصور لهاتين الظاهرتين.

فهو يابق بسهولة بين اللغة والتفكير، والتاريخ لديه ليس علما بل هو المعرفة وفن الحياة. ان التاريخ يهدف الى معرفة الماضي، واللسانيات هي علم اللسان والكلام. والخبر والعمل التاريخي من محتويات التفكير ومن أشكاله. وأما اللغة فهي محل التفكير وهي الحاملة له. ولللسانيات وللتاريخ بالطبع مجال خاص بكل منهما، ولكل موضوعه الخاص وطرقه. ولا يمنع ذلك من تداخلهما على الأقل باعتبارين اثنين:

أولا: ان اللغة كنظام وكآلة للابلاغ هي ظاهرة تاريخية، ولها تاريخها الذاتي. ثم هي كحامل للفكرة وبالتالي كحامل للماضي ولعرفته، هي المحل والمصدر المفضل للوثيقة التاريخية، وبالمعنى الواسع الذي نعطيها هنا لللسانيات فانها تشمل حقلا لبحوث تمد التاريخ على الأقل بانموذجين من المعطيات، خبر لساني محض من جهة، ووثيقة يمكن أن تسمى فوق اللسانية من جهة أخرى. وهي

تمكن بفضل معطيات التفكير وعناصر التصور المستعملة في اللغة وفي النصوص الشفاهية والكتابية، من مطالعة تاريخ البشر وحضارتهم. وإذا وضعت المشكلة هكذا، يبدو لنا، بكيفية أحسن، ما بين المؤرخ والعالم باللسانيات العاملين في إفريقيا من مجال مشترك.

## العلوم اللسانية والتاريخ

من شأن جميع العلوم التي يكون اللسان والتفكير موضوعا لها أن تساهم في البحث التاريخي، على أن عددا منها أكثر ارتباطا مباشرة بالتاريخ. وهذا من التقاليد المستقرة، ولو أنها عند التأمل تبدو محل نقاش. فموجب التعود ترجع دراسة القرابة بين اللغات دفعة واحدة إلى نقطة التقاء بين اللسانيات والتاريخ، وذلك بكيفية أسهل من ارجاع تحليل تطور المادة المستمدة من النصوص المكتوبة أو الشفاهية، ومن مفردات لهجة من اللهجات. هذا على أن كلا الباحثين يتعلق بالأحداث اللسانية أو الفكرية وبالتالي بالتاريخ.

وأوحى تدوين التاريخ الأوروبي هنا بالفصل بين العلم التاريخي الحق وبين التاريخ الأدبي أو تاريخ الأفكار. ولا يبرر هذا التمييز إلا في بعض السياقات.

إن البكنغو من حضارة البنوتو، والايو من البنين والسوسو ذوو الثقافة السودانية، لم يقولوا لنا إلا القليل أو لا شيء، من النصوص التي تتوفر فيها الشروط النظامية لعلم تاريخي عصري. وبالعكس انهم انتجوا كمصادر للخبر أدبا شافيا غزيرا تميز أغراضه تميزا كبيرا أو صغيرا، وفتحوا كذلك آثارا قد نهم اليوم بادراجها مع القصص والروايات والأخبار واليوميات الخاصة بالملاحم التاريخية، والخرافات والأساطير والأعمال الفلسفية أو التابعة لنشأة الكون، والتأملات التقنية والدينية أو المقدسة، فيخلطون فيها بين الواقع الذي عاشوه وبين الخيال، بين الحدث الذي يمكن تعيين تاريخه وبين الأسطورة الخيالية المحضة. وتم إعادة البناء لتاريخ البكنغو والايو أو السوسو بالتحليل النقدي لهذه الآداب وهذا المأثور المنقول. ولا يمكن أن نفعل عن خطتهم وتقنياتهم ومعارفهم، وعن حل ألغاز لغاتهم وعن تصوراتهم وما استعملوا من تعبير بما هو باق يكشف عن تاريخ كل منهم.

والعلوم والطرق التي نرجع إليها هنا على أنه من شأنها أن تنير الطريق للمؤرخ الإفريقي، ليست إذن نتيجة استقراء مستوف. وهذا ليس عيبا في مستوى الموضوع. وإذا ما حدد الاختصاص في اللغة لنفسه حدودا معقولة، فهو يوفر لنفسه وسائل أحسن للتعلم في قطاعات مدققة. ويبقى هكذا لغيره من الباحثين، كمؤرخي الأفكار واختصاصيي العلوم والاقتصاد أو الآداب، مهمة الامام بهذه القطاعات مع اعتبار ما لبحوثهم من بعد لساني.

## العلم التصنيفي وتاريخ الشعوب الإفريقية

إن تصنيف اللغات فيه ما يكشف عن القرابة بين الشعوب التي تتكلم بها وعن تاريخها، وهناك عدة نماذج من التصنيفات:

### التصنيف التوليدي

وهو يثبت القرابة رابطة التسلسل داخل أسرة لسانية من الاسرات، وهو يساعد ولوجزئيا، على اعادة الوحدة التاريخية للشعوب والثقافات التي تستعمل لغات من أصل واحد.

### التصنيف النموذجي

وهو يجمع بين لغات بينها تشابهات او توافقات واضحة في مستوى البنيات والنظم. فلغات من أصل واحد أو من أصول مختلفة تماما، قد تستعمل عين الأنماط من التكوين المعجمي، الاسمي والفعلية والضمير، مع كونها من ناحية التوليد والتاريخ أو الجغرافيا بعيدة جدا الواحدة عن الأخرى.

فيوجد مثلا في الـوولوف والانكليزية ميل الى استعمال عين الصيغة الاسمية والفعلية.

لجاي بي = العمل

لجاي = عمل

The work = العمل

To work = عمل

ومع ذلك فان هاتين اللغتين من ناحية التوليد، ومن ناحية الجغرافيا بعيدتان جدا رغم ما ذكر من التوافقات النموذجية. ويتفق أحيانا أن تكون اللغات من أسرة واحدة ومن نماذج متباينة. وتقام القرابة بينهما على أساس الألفاظ المعجمية المشتركة، ولو أن هذه اللغات قد تطورت حسب اسس بنسوية متفرقة، وقد يظهر أحيانا حدث الألفاظ المستعارة (من الخارج) أو التخليات عن الألفاظ المستعملة حتى في المستوى المعجمي. وما أعد من تصنيفات تابعة للغات الافريقية لم يجمع مثلا بعض العناصر من الاسرة المعروفة بالتشادية أو الاسرة المسماة السنغالية الغينية. على أن النظم الصوتية والظواهرية والبنية النحوية تفرض على النظر أن يتم التجميع النموذجي لأكثر عدد منها على الأقل.

### التصنيف الجغرافي

يعبر هذا التصنيف عن ميل طبيعي الى المقارنة بين لغات توجد مع بعضها، وضمنها الواحدة الى الأخرى، ويتم هذا غالبا نتيجة لخبر غير كاف.

وما اقترح من تصانيف كي تطبق في افريقيا هي في غالب الأحيان من النوع الجغرافي في القطاعات الأساسية. فهي تغفل من جراء ذلك ظاهرة الهجرة وتشابك الشعوب، وبحيل كمواو وم. دولافوص ود. وسترمان وج. غرينبرغ أساسا الى مسميات وتجمعات اتوبولوجية وجغرافية. فرتبوا اللغات الى «الغربية الأطلسية» و«النيجيرية، الكونغولية»، و«السنغالية الغينية» و«النيجيرية التشادية» الخ.

ويتضمن التصنيف الدقيق للغات الافريقية استعمال طرق تبين أن ما عرض من الأشكال والمفردات والبنيات اللسانية كعناصر للمقارنة ليست تمثيلية فقط بل هي كذلك خاصة بالتراث الاصلي للغات المقارن بينها. ولا يكون الشبه اذن نتيجة للاستعارة أو للاتصالات القديمة أو الحديثة.

فن المعلوم أن العربية واللغات السامية، كما أن الفرنسية والبرتغالية والافريقندرية أو الانكليزية، قد أودعت بفعل التاريخ منذ عدة قرون أو حتى بضع الآلاف من السنين عددا كبيرا من المفردات في كثرة من اللغات الافريقية، فبعض اللهجات الكسواحلية، وهي من لغة البنسو، تشتمل على أكثر من ٦٠٪ من المفردات العربية. وما هي الا خطوة كي يتم الاستنتاج، بموجب العاطفة الدينية أو بنتيجة لعدم التحلي بالتحفظ العلمي، بأن الكسواحلية تنتمي الى المجموعة السامية العربية، وقد اجتاز بعضهم أحيانا هذه الخطوة.

وقد تكون الصيغ المشتركة في البداية بين عدة لغات قد تعرضت على مر الزمن الى تغيرات صوتية أو صرفية أو بنيوية. وهذا التطور خاضع لبعض القوانين، وهي ظاهرة معروفة يمكن تحليلها. فقد تتغير معاني الصيغ أو مدلولات المفردات المتخذة للمقارنة في حدود حقل دلالي يحاط به بسهولة أو بصعوبة. مثاله: ان الـ «بوب» أو «فط» عوض «بوتيا» و «فطا» كما ينطق بها حتى الآن أهل كامبيا والليبو. وصيغة (ندس) في المصرية القديمة صارت في الفلفدية المصرية (ندو) وبالوولوف، (نيت) و يقول البوننو «موتومتو» والهوسا «موتو» والمندنج «ميكسي» أو «موكسو» وعند الفون «كبيتو» والمينا «أكبتيو» الخ واللفظ المصري «كيميت» كان يعني محروق، أسود، و يؤدي اليوم معنى الرماد والحروق الخ.

### اعادة البناء التاريخي للغة من اللغات

وهي تقنية لاعادة الإكتشاف المعجمي والتراث البنيوي المشترك، آخذة بعين الاعتبار أحداث التغيير هذه.

وهذه العملية تمكن من اعادة تاريخ لغة أو أسرة لسانية، وتساعد على اثبات اللغة الأم الأولى، وعلى تعيين الفترات الفاصلة بين مختلف الفروع، وهذا المعنى هي مساعد ممتاز للعلم التصنيفي بالذات. وتوجد عدة معايير وعدة تقنيات لاعادة بناء لغة من اللغات واستنباط معطياتها الاصلية من جديد.

وتلعب الأواصر الصوتية دورا أساسيا في اعادة بناء اللغة الأم، أو لاثبات قرابة من القرابات، فإذا ما علم مثلا أن الياء قد تصير في رواية ثانية ف أو أن أو قد يصير أ وهكذا اذا اعتبرنا أن فا تساوي با وأن لو تساوي ل أمكننا أن نعيد الصوتية والصيغ الاصلية.

### اعادة البناء الصوتي

هي خطوة في اعادة بناء الرصيد المعجمي والمفردات الاصلية. وليست النبرات هي وحدها التي تتغير، فالصرف والبنيات تتطور أيضا، فوظيفة الفاعل في اللاتينية يدل عليه باعراب خاص يسمى رفعا، وفي اللغات ذات الاصل اللاتيني أو المتأثرة باللاتينية الفاعلية تعرف بمحل الفاعل في الجملة هو موفيديت = فيديت هو مو = رأى الرجل

وعند وضع أصول اللغات مثل البانتو والتشادي ونحوهما تقع الاحالة دائما الى المفردات والرصيد المعجمي المشترك، وهكذا يمكن أن تقام «نسب مثوية» للكلمات المشتركة بانشاء

لوحات من «العد المعجمي». ويلجأ تصنيف ج. غرينبرغ (١) الى هذه التقنية في غالب الأحيان. كما يستعمل هذه الطريقة د. ساير في دراسته لمجموع غربي المحيط الاطلسي (٢) و يقرر هكذا أن السيرير والبوكار المحشودين في جمع واحد يشتركون في ٣٧% من الكلمات. والباكاكوبا والتني في ٧٩% والتني والسيرير في ٥% فحسب، والتشري والسافين في ٥%.

والحالة أن هذه اللهجات تجتمع كلها في أسرة واحدة ولكن لا يكتفي الاشتراك في المفردات المعجمية، التي قد تكون بكثرة من الدخيل، لنفي العلاقة التاريخية أو لإثباتها. فيلجأ الى الشبه في السمات النموذجية أو الى تطابق البنيات (المقارنة بين نظام الضمائر والنظام الفعلي أو الاسمي الخ).

ويمكن العنصر النموذجي مضافا الى معطيات التحليل المعجمي أو المعطيات الصوتية، من الحصول على نتائج قطعية بقدر ما يعتبر التاريخ والتأثيرات. وترمي اعادة البناء أيضا الى تعيين التاريخ الذي فيه توزع هذا الميراث المشترك ضمن اللغة الاصلية، ثم استخدم من قبل لغات متقاربة آخذة في طريق التميز. وإعادة البناء تهتم كذلك بتسخير طبيعة اللغة القديمة التي منها نشأت مختلف اللغات التي يمكن ربطها بأصل لغوي واحد.

### اعادة البناء وتعيين التاريخ

يمكننا من ضبط عمر المواد المعجمية والبنوية المجموعة أثناء دراسة اللغات، حتى يتيسر بالمقارنة تدقيق المستوى الذي تقع فيه القرابة اللسانية تدقيقا كبيرا أو صغيرا. وعليه فهي امداننا باشارات مدققة عن تاريخ تفرقة الشعوب الذين انتموا الى عالم ثقافي ولساني واحد. وهما يلقيان ضوءاً مدهشا على تاريخ العروق وتوارخ الحضارات المتعددة القوميات والمتعددة العروق.

وفي إطار البحث المتعلق بفترة حديثة، وفيما يخص اللغات المكتوبة، فإن المجهود أيسر نسبيا. وقلة الوثائق عما وراء الالف الرابعة قبل الميلاد تجعل العمل أصعب بصفة عامة. على أن المقصود في هذه المرحلة أن يوضح تاريخ فترات حاسمة من التحول اللساني. وعمليات تحول المعجم أو البنيات التي نعتبرها في هذا المستوى هي كما سنرى، بطيئة جدا ولكن يصعب وضع الاصبغ عليها، ولعلاجة هذا النقص في الخبر يلجأ الى أساليب لها نجاعة تكثُر أو تقل.

### التأريخ المبني على تطور المفردات والصيغ

وهو من احدث التقنيات في هذا الموضوع، ولقد جرى العمل به في الحقل الافريقى. ويرتكز مبدأ هذه الطريقة على تأريخ التطور المعجمي في لغة ما، بالرجوع الى حركة تغيير معجمها، المعجم الثقافي (المفاهيم الفلسفية والتقنية الخ) والمعجم الأساسي (أسماء أعضاء الجسم، العد من واحد الى خمسة، مفردات تدل على أحداث طبيعية الخ) وتهدف هذه التقنية الى الأخبار عن عمر المفردات والاشكال المعجمية ومرآحلتها وحالة تطورها.

(١) ج. غرينبرغ، ١٩٦٣.

(٢) د. ساير، ١٩٧٣.

وتطور المعجم الأساسي نسبيا بطي في المجتمعات القديمة، فيما عدا حالات التحول العنيفة التابعة لأحداث حاسمة.

ففي إفريقيا السوداء على الخصوص مكنت أعمال دولافوص من تصور حركة هذا التطور بالرجوع الى احصاء الكلمات التي أثبتتها الكتابة منذ القرن الحادي عشر الميلادي. وهذا هو معجم اللغات السودانية الذي جمعه النصوص العربية. وقد بقيت هذه الألفاظ تقريبا بدون تغير بعد ما يقرب من ألف سنة من التاريخ. على أن أنصار هذه الطريقة يتجاوزون هذا الحد قائلين: ان تطور المعجم الأساسي ليس بطيئا فقط، بل انه قار في كل اللغات. وهذا رأى م. سوادش الذي حاول أن يطبق هذه النظرية على اللغات الإفريقية. وتبدو المحاولات المجربة في بعض الحالات الدقيقة قطعية حاسمة. و يقدر التاريخ المبني على تطور المفردات أن حركة تحول بين ٨١ ± ٢ و ٨٥ ± ٠٤١٪ لمدة قدرها ١٠٠٠ سنة. وأمدتنا هذه الطريقة، على هذا الأساس، بنتائج ملخصة في المعادلة الشهيرة:

$$D = \frac{\log M}{\log 4}$$

حيث D يمثل المدة، و M النسبة المئوية للألفاظ المشتركة بين اللغات المقارنة و C نسبة الاحتفاظ.

فهل في الامكان ما أحرزناه من نتائج، أن نعتبر هذه التقنية قياسا زمنيا لا ثقافيا، أي ضربا من «الساعات» التاريخية؟ لقد كانت النتائج أقل من المأمول، وذلك لسبب بسيط: ففي سياق من التداخل اللساني ومن تراكم المعاجم، مما لا نعلم الا القليل عن غايته، حيث تعوزنا الوثائق المدققة المكتوبة أو غيرها، ليس من اليسير في الحالة الراهنة للبحوث أن تصنف الأحداث، وأن يميز مثلا بين التغير العادي والتحول الناتج عن الدخيل، هذا حتى في المعجم الاساسي. على امكانية علم تصنيفي يستخدم كل هذه التقنيات، وقد يمدنا بفتاح العلاقة العرقية واللسانية.

## تصنيفات لسانية وقربات عرقية ثقافية

بالرغم عن الأعمال الجليلية التي أجريت، فان مشكل القرابة اللسانية والعرقية مازال بعيدا عن الحل في إفريقيا، وفي الكثير من القطاعات تتغلب الحُدس بهذه الرابطة، على الحجة العلمية الثابتة. ان فكرة المجموعة البنتو والاعتقاد بأنها تجمع معظم السكان في إفريقيا الوسطى والجنوبية، قد نشأ في القرن التاسع عشر مع اعمال و. بليك. فكان هذا يثبت في مؤلف شهر نشره سنة ١٨٦٢، القرابة بين اللغات ومختلف صورها اللهجية في منطقة فسيحة جدا تسكنها عروق عدة تستخدم لغات تقتضي الفهم فيما بينها فهما قليلا أو كثيرا، فقرابة اللغة والثقافة قد تكون واضحة من أول وهلة بالنسبة الى عروق تعيش جنبا لجنب وهذه حال الشعوب المعروفة بالبنتو. وتقوم أحيانا مشاكل من جراء المسافة في المكان أو في الزمان والفلاينيون يقدمون مثلا يوضح



هذا. فهم يشكلون، من حوض السنغال الى حوض النيل، مجموعات كثيرا ما تكون منعزلة في قلب عروق متجاورة أحيانا ولكنها مختلفة عن بعضها كثيرا.

ويتكلم دولا الكامرون لغة البانتو، ويمكن عمليا أن يعتبر الدولا كنسخة مغايرة من البانتو وهي لهجة مثل اللنكالا، وكما هو الشأن بالنسبة للغتين مبانداكا وكينشاسا. وهذا رغم الابتعاد والانعزال النسبي للمجموعتين اللتين تتكلمان هاتين اللغتين.

وتقدم اللغة المصرية الفرعونية التي كان يتكلم بها قبل خمسة آلاف سنة، تشابها واضحا مع الهوسا والولوف والسنغالي (٣).

وهنا أوضاع التراكم. فإزالت كبار اللغات الموحدة تستعمل لأسباب مختلفة (سياسية واقتصادية وثقافية الخ) كحوامل لإدماج العروق المتباينة. وتلغي من جراء الضغط الاجتماعي والوزن التاريخي لهجات وثقافات لم يبق منها غالبا الا بعض البقايا.

فلايين من الأشخاص من أصول مختلفة أو قلة عشرات الملايين تتكلم اللينكالا والهوسا والكيسواحي واليوروبا والتوى والايو والهراجولا والفلفلدي والعربية والولوف. وكحوامل للإبلاغ تجاوزت هذه اللغات اطارها العرقي والجغرافي الاصلي، فصارت لغات حضارة مشتركة بين شعوب كانت في البداية متباينة جدا.

ففي السنغال تكون الفلانية والسيرير معظم الاغلبية من الأشخاص الذين عمهم الولوفية، وفي الأصل لغة الولوف هي لغة عرق ليو الذي يوجد منه بقايا على الحدود السنغالية الموريتانية. والآن ليس الليسوالا أقلية ضعيفة محصورة في شبه جزيرة الرأس الأخضر. ومع هذا فان ثقافة الولوف ولغتهم تطمس تحت أعيننا، بفضل تكاثر المدن بالسنغال، لغات ولهجات عديدة: سيرير وليبو وفلفلدي وديولا ونونو الخ. وهذه اللهجات لشعوب مختلفة، ومع ذلك لعبت في فترة تزيد عن عدة قرون، دورا مهما في تاريخ المنطقة.

وهذا التطور عام في الكيسواحي يتكلمه عدة عشرات من الملايين من ذوي اللسان البنتو، وقد نشأ عن لهجة من الزنجارية كانت مستعملة في البداية في بعض القرى. ثم انتشر بسهولة بمناطق تستعمل لغة متجانسة نسبيا، من أصل البانتو اليوم، مع اللنكالا، أهم أداة مخاطب في افريقيا الوسطى والجنوبية. في البلدان الآتية: الزاير والجمهورية الشعبية الكونغولية والامبراطورية الافريقية الوسطى \* و (أوغندا وطانزانيا والكينيا وزامبيا والملاوي وافريقيا الجنوبية، والسودان، وأثيوبيا الخ). خسون أوستون مليونا من البشر يتكلمون لغة من هاتين اللغتين أو لهجة قريبة منها.

وكثيرا ما كان التفكير الافريقي التقليدي واعيا، لا بهذا التراكم فحسب، بل أيضا بما قد يكون للظاهرة اللسانية من دور في توضيح التاريخ.

ونجد في التقاليد عددا من النوادر تتحدث عن القرابة بين اللغات أو عن أصل تفرقها الاسطوري

(٣) عن هذه المسألة من المفيد الرجوع الى أعمال الانسة مبركر، والى فصول الاستاذ غرينبرغ واوبنكا والى تلخيص ملتقى القاهرة. (الجزء الثاني)

\* سابقا: اما الآن فهي جمهورية افريقيا الوسطى (تعليق مراجع الترجمة العربية. محمد الفاسي)

من قريب أو من بعيد، وهي في الغالب ملاحظات صحيحة، وهذا الشأن بالنسبة لما قام به الفلانيون والسيرير من مقارنات مؤكدين بصفة تكاد تكون تنبعث من إحساس باطني، ما بينهم من قرابة عرقية ولسانية، والمندانك البنتو والكان والفلانيين وهم يتقدمون كأشخاص لهم عين اللغة يشعرون أحياناً، بصفتهم جماعة أو بطناً، انهم يكونون أسرة عظيمة مشتركة.

وفي أكثر الأحيان، فإن القرابة الثابتة لم تنشأ إلا بموجب الحاجة إلى الاندماج أو إلى التعايش مع تاريخ مجموعة «من المفروض» أنها ستظهر بكيفية أو أخرى في عالم عرقية معينة. وكبي تكون الاسطورة التقليدية منسقة، يصبح من اللازم أن توجد روابط حقيقية أو أسطورية بين المجموعات التي تعمر اليوم موطننا مشتركاً.

على أن المعرفة التقليدية للمجتمعات الأفريقية في مادة اللسانيات لا تمدنا بإشارات مدققة من شأنها أن توحي بوجود علم قديم أو تأمل نظامي حول هذه القرابات. وخلافاً لما يلاحظ في مواطن أخرى، كما في علم الاشتقاق مثلاً، وتحليل اللغة نفسه، أو كذلك كما هو الشأن في الظواهر المعجمية. فإن المتضلع في الكلمة والفصاحة من البيل الفلانيين أو البانتو أو الولوف كثيراً ما يعني عن قصد بأصل الكلمات. وكثيراً ما يكون عالماً به. فيلذ المؤرخ الكيور مثلاً أن يسجل الكلمات المستعارة أو أن يحلل لفظاً للكشف عن أصله. فيقول التقليدي بالكيور أن برجل مشتق من باروجل. وهو يشرح في آن واحد ما طرأ على مركبات اللفظ من تقلص في الشكل والسياق ومعاني هذا اللفظ. ويوجد في مقال أ. طل (٤) بعض الأمثلة من عمل علماء الاشتقاق التقليديين بالموسى ولدي الكرمنتشي. وقد ظهر العلم التصنيفي في مادة اللسانيات بصورة خاصة مع دراسات س. كول وو. بليك والبحث العلمي الأوربي وهو الذي استنبط هذا العلم في القرن التاسع عشر مع أعمال علماء مقارنة الهندية الأوروبية، وأصبح الباحثون في مادة اللسانيات الأفريقية من تلامذته.

وكان و. هـ. بليك (٥) من أوائل المجتهدين في إثبات ما بين لغات البانتو من قرابة. وله فضل سبق في هذا المجال على مؤلفين من أمثال ماينوف أو هـ. جونستون. على أن مساهمة دولافوس (٦) فيما يخص لغات إفريقيا الغربية مساهمة مشهورة. وكذلك الشأن بالنسبة لمساهمة س. ل. لبيسوس (٧) و أ. ن. تكرر (٨) وج. و. مري (٩) فيما يخص اللغة النيلية وباسي فيما يخص البربرية. وكانت دراسة اللغات المصرية القديمة الأساسية للبحث في اللغة الزنجية الأفريقية، وكذلك دراسة اللغات السامية والهندية الأوروبية في إفريقيا الشمالية، بل حتى اللغات البونيقية واليونانية اللاتينية. قد أتت كلها بنتائج وافرة.

(٤) انظر «التراث الشفاهي» المركز الجهوي لتوثيق التقاليد الشفاهية، نيامي، ١٩٧٢.

(٥) و. هـ. ج. بليك، ١٩٦٢ — ١٩٦٩.

(٦) م. دولافوس: عن أ. ميلي وكوهان — ل. همبركر، اللغات الزنجية الأفريقية الخ. ولندكر أيضاً من بين من اقترحوا تصنيفات: أ. وبي، ١٩٢٥.

(٧) ش. ل. لبيسوس، ١٨٨٨.

(٨) أ. ن. تكرر، ١٩٤٠.

(٩) ج. و. مري، مجلد ٤٤.

وكما يشير الى ذلك ج. هـ. غرينبرغ (١٠) مؤلف كتاب تصنيف اللغات الافريقية، وهو أحدث التصنيفات وأكثرها عرضة للنقاش الآن، ان الاعمال العصرية التي تهتم بمجموع القارة والتي لفتت الانتباه أكثر من غيرها، هي أعمال دركسل (١١) وماينوف (١٢). ولم تكن هذه الأعمال هي الاولى ولا الوحيدة. ومنذ عام ١٩٥٦ \* عرض كوال (١٣) وكذلك ميخود (١٤) سنة ١٩١٤ \* طرقا وأمطاطا للتصنيفات. ويمدنا بومان ووسترمان (١٥) سنة ١٩٤٠ بنظام طريف في عين الموضوع.

على أن هذه الأعمال بقيت محل نقاش ونوقشت فعلا من عدة وجوه، ولا لأن اللسانيات الافريقية لم تنجح من المذهب العرقية المركزية، وفي هذا المستوى فان الانتقادات الحديثة ج. هـ. غرينبرغ نفسه، تتفق تماما مع النقد الذي صرح به منذ عشرين سنة الشيخ أنطادوب في «القوميّات الزنجية والثقافات» والذي رده ت. أوبنكا مجددا المعطيات في كلمته في مهرجان لاجوس ١٩٧٧.

والوجه الثاني علمي محض، يتفق عليه علماء اللسانيات في شبه اجماع، يتلخص في أن مساعي التصنيف سابقة لأوانها، وأن التحفظات والاحتراقات المنهجية اللازمة لم يتم اتخاذها، ولم تجمع بعد المادة المحللة حق تحليلها والمهياة للمقارنة التوليدية أو حتى النموذجية.

## عدم كفاية الأعمال

ان تعدد اللغات الافريقية وحده تعترضه عقبات، ولم ينته احصاؤها الى نتائج مدققة جدا، على أن عدد اللهجات المصنفة كلغات في القارة يقدر تقريبا بين ١٣٠٠ و ١٥٠٠.

وتتلخص أحيانا الدراسات الخاصة بهذه اللهجات في جمع نحو العشرين كلمة مكتوبة بقليل أو كثير من التحريف وانعدام تحليل معمق للبنية والمعجم وإمكانية التفاهم بين مختلف هذه اللهجات، أمر عادي بالنسبة الى الاغلبية الساحقة من اللهجات الافريقية. وبذلك سرعان ما تسقط التصنيفات التي تجري محاولات القيام بها دوريا. وكم من لهجة صنف تحت عنوان «لغة» ولم تكن الا نسخة مختلفة من عين اللهجة.

وبناء على بعض شهادات مبهمة تستند اليها استنتاجات مصنفين أو مخبرين قليلي التجربة والعلم، صنف بسرعة روايات مختلفة ليس فحسب، كلغات متباينة ولكن كعناصر لاسر مختلفة. كما لوزعم أن البامبرا لغة تخالف المنديكوفي كازامنس، أو أن اليوروبا في البنين يخالف اليوروبا

(١٠) ج. هـ. غرينبرغ، انظر ١٩٥٧ خصوصا التحليل النقدي المنشور في «النيلية الحامية والسامية الحامية في افريقيا، ١٩٥٨. وكذلك لغات افريقيا، لاهاي ١٩٦٣.

(١١) انظر ج. هـ. غرينبرغ.

(١٢) س. ماينوف، ١٩٠٤، ١٩٠٦، ١٩١٢، ١٩٣٢.

(١٣) س. و. كوال، ١٨٥٤.

(١٤) ف. و. ميخود، ١٩١١.

(١٥) هـ. بومان، ود. وسترمان ١٩٦٢.

في النسخة المطبوعة ١٨٥٤ (تعليق مراجع الترجمة العربية عماد الفاسي).

في النسخة المطبوعة ١٩١١ (تعليق مراجع الترجمة العربية عماد الفاسي).

في الإيف. والامر مع ذلك يتعلق في الحاليين بروايات مختلفة لأصل واحد. وفي مثل هذا، اشتهر ماينوف بصدد لغات الكردفان بأخطائه الجسيمة.

نعم انه قد تم أخيرا بعض التقدم، ولكنه لم يتوفر بعد سياق ملائم لعمل تأليفي دقيق. وكذلك ليس في الامكان أن تصنف لغات مازالت هويتها غير معروفة بدقة ولم تحلل تحليلا مضبوطا، وتوضح الأمثلة المحسوسة التالية مدى الجدالات ومجموعة الشكوك.

يتعلق المثالان الاولان باللهجات الكائنة على الحدود الجغرافية الحالية للأسرة الهندية الاوربية السامية من جهة وللأسرة النجحية الافريقية من جهة أخرى، ويتعلق المثال الثالث بمجموعة «الاطلسي الغربي» أو كذلك «السنغالي الغيني».

فن أعمال ماينوف ١٩١٢ (١٦) وم. دولافوس ١٩٢٤ (١٧) وش. ميك ١٩٣١ (١٨) وج. لوكا ١٩٣٦ (١٩) وم. كوهان ١٩٤٧ (٢٠) الى أعمال غرينبرغ المؤرخة بسنة ١٩٤٨ أو أ. تكتروا. بريان سنة ١٩٦٦ (٢١) والى دراسات النقدية الحديثة التي قدمها ث. اوبنغا (٢٢)، لا يوجد اتفاق تام لا في المعطيات ولا في المنهج ولا في مركبات المجموعات او الائتاء وطبيعة العلاقات بين اللهجات؛ فالجغرافيا على الخصوص والاتصال يجمعان حقا بكيفية لاشك فيها بين اللغات الممتدة من النيل الى حوض التشاد. وان التعايش طيلة آلاف السنين بين النجحية الافريقية والسامية ترك فيها رصيدا مشتركا كبيرا من الدخيل من كليهما. وتمنع هذه التبادلات من امكانية التمييز بين المعطيات الاصلية والمكتسبة من الخارج. ومشكل من المشاكل يتمثل في معرفة الى أي حد تكون المفردات الخاصة بالمصرية القديمة وبالهوسا والقبطية والبيغرية والسرا واللغات التشادية والتي توجد في البربرية أو في اللغات السامية كالعربية والامهرية شاهدا على قرابة أو على تأثيرات بسيطة.

ان معطيات المصرية القديمة ترجع الى ٤٠٠٠ سنة، ومعطيات السامية الى ٢٥٠٠ سنة. وأما التشادية والبربرية والكوشيتية التي درست في نفس الاطار لا تمدنا بارشادات دسمة الا انطلاقا من القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد.

ونشر م. كوهان سنة ١٩٤٧ كتابه «محاولة مقارنة حول المعجم الشامي السامي وصوتياته» ويفرب فيه بين المصرية والبربرية والسامية والكوشيتية والهوسا التي يذكرها من حين لآخر. وانتقد ليسلو (٢٣) وهنتز (٢٤) استنتاجات كوهان حتى في مستوى المنهجية. وبناء على أن مبدأ الحقل «الحامي السامي» نفسه محل جدال أوحى غرينبرغ بعنصر خامس متميز هو،

(١٦) س. ماينوف، ١٩١٢.

(١٧) م. دولافوس، ١٩٢٤.

(١٨) ش. ميك، ١٩٣١.

(١٩) ج. لوكا، ١٩٣٢.

(٢٠) م. كوهان ١٩٤٧، ج. غرينبرغ «الحامية السامية» س. ج. أ. ٦-٤٧-٣٦-١٩٤٨.

(٢١) أ. تكتروا، بريان، ١٩٦٦.

(٢٢) ث. اوبنغا، ١٩٧٧.

(٢٣) و. ليسلو، ١٩٤٩.

(٢٤) ف. هنتز، ١٩٥١.

التشادي. وسمي المجموع باسم «الحامي» أو «الافريقي الآسيوي». وأثارت هذه الاستنتاجات الجدل منذ نشرها. فعارض بولوتسكي (٢٥) امكانية وجود الفروع الخمسة في الحالة الراهنة. بدون أن يقنع الى اقتراح يستند بالخصوص على الناحية الجغرافية ورد في «لغات العالم» ويكفي أن نتصفح تصانيف ج. غرينبرغ وتكروبريان المتباينة والمنقحة دائما من قبل أصحابها أنفسهم لكي نقف على مدى الصفة الموفقة لهذه الاستنتاجات.

وثمة أشغال حديثة للواقع التشادي تضع تحسبا حدوده أبعد بكثير من ضفاف البحيرة. وعمق نيومن وما (٢٦) سنة ١٩٦٦ وإلى سفيتيا (٢٧) سنة ١٩٦٧ معرفة التشادية القديمة. ودقت أعمال ي. ب. كابريل (٢٨) محي انتشار هذه اللغة في التشاد نفسه. ويمكن بالاستناد الى ملاحظات نظامية، أن يوحي برابطة توليدية بين مجموعة لغة سرا ومجموعة لغة التشادي، وعدد من اللغات المصنفة ضمن «الاطلسي الغربي» (سيرير وبولار، وولوف، وسافين) (٢٩) الخ. وهذه المساهمات وحدها تعيد النظر في مجموع الجهد الذي بذل قصد الترتيب، كما يلاحظ ذلك س. ت. هودج في مقال نفيس (٣٠).

وإن المشكل الأعظم المتعلق بطبيعة الروابط بين لغات الحد الزنجي الافريقي والهندي الأوروبي لم يحل بعد وأهمية الأعمال التي تدمج العالم الثقافي الافريقي في السامي مازالت محل اشكال. وذلك ان مشكل الهوية نفسه، ومشكل مركبات الزنجي الافريقي مازالا قائمين، وأكد ذلك الملتقى الذي نظمته اليونسكو في القاهرة سنة ١٩٧٤ حول «عمران مصر القديم». فذكر س. سونرون، بالمناسبة ولتوضيح هذه الشكوك، أن «المصرية مثلا لا يمكن أن تعزل عن سياقها الافريقي وان السامية لا تعرف بولادتها».

والكوشيتية تصور مثلا آخر يوضح الشك القائم الآن حول البحث والتصنيفات. فيعرض اليوم ج. ه. غرينبرغ وتكروبريان والسوفيائي دلكوبلسكي ثلاثة تصنيفات مختلفة، ان لم تكن متباينة لهذا المركب من اللغات المسماة بالكوشيتية (صومالية، كلاء، سيدامو، ميوكوالخ) و يتركب تصنيف دلكوبلسكي حول اعادة بناء صوتي انطلاقا من أمثلة محدودة، فيقارن على الخصوص بين الشفويات (ب. ب. ف) والاسنانيات (ت، د) في اللغات التي يحللها ويصنفها الى نحو العشر من تحت المجموعات، بينما يتعرف زملاؤه على ٣ أوه.

ويهمل ج. غرينبرغ المعطيات الصوتية والشكلية الصرفية والنحوية ويعتني خاصة بالمقارنة المعجمية، ولكن الدخيل له دور كبير في هذا المستوى. ويعيب تكروبريان على ج. غرينبرغ منهجه، ويضعان تصنيفا يعتمد على مقارنة نظام الضمائر والبنية الفعلية. وهما نفسهما يعتقدان ان

(٢٥) هـ. بولوتسكي، ١٩٦٤.

(٢٦) ب. نيومن «التشادي القارئ» مجلة لسانيات افريقيا الغربية ٥، ٢، ١٨، ٢٥.

(٢٧) اللي سفيتيا: «تاريخ الصوامت التشادية» انظر س. هودج، المصدر المذكور.

(٢٨) ي. ب. كابريل، ١٩٧٢.

(٢٩) انظر ب. دياتي، ١٩٧٦.

(٣٠) س. ت. هودج، ١٩٦٨.

بعض اللهجات «مبهمة» ويجمعان بينها هنا، مع تأكيدهما على ما يكتسبه مجهودهما من صبغة المحاولة البسيطة. كما أننا نلاحظ ان قيمة الاستنتاجات المقدمة ما هي الا في طابعها المؤقت. ونجد عين المشاكل فيما يخص اللغات التي حددت جغرافيا بغربي المحيط الاطلسي. فهي تمتد على الساحل من جنوبي موريتانيا إلى السيرااليوني. و يصنفها كوال سنة ١٨٥٤ في كتابه «تعدد اللغات الافريقية» تحت عنوان «الغربي الاطلسي» ويعرفها على أساس ما فيها من تغيرات السوابق أو الإمالة الصوتية في الحرف الأول أو الأخير. وهذا وصف نموذجي للبانتي. ولا يكفي لتحديد مجموعة من المجموعات. على أن كوال سيعتبر جملة هذه اللغات على أنها «غير مصنفة».

ويصرح م. دولافوس سنة ١٩٢٤ (٣١) ود. وسترمان سنة ١٩٢٨ ان هذه مجموعة توليدية. وسنة ١٩٦٣ اغرق ج. غرينبرغ (٣٢) في هذا الاتجاه، فهو يعتبر هذه اللغات كمجموعة متطرفة غربي الاسرة النيجرية الكونغولية.

وفي سنة ١٩٦٣ نفسها رغم ما سجله ولسن (٣٣) ود. دلي (٣٤) من عناصر نموذجية للتشابه داخل هذه المجموعة، فهما ينكران كل امكانية لأن يجعل منها جعاً لسانيا متقاربا متجانسا، ففي تفاصيل الصرف والنحو والمعجم، كما يقول ولسن، ان «الاطلسي الغربي» أو المجموعة «السنغالية الغينية» بعيد كل البعد عن الوحدة، وفعلنا ان الأعمال الحديثة التي نشرها د. ساير (٣٥) سنة ١٩٧٤ تدل على أنه لا يوجد أكثر من ٥ الى ١٠٪ من المعجم المشترك بين الأغلبية السباحقة من هذه اللغات التي يبدو أن الجغرافيا هي الوحيدة التي توحد بينها. فعملية الهجرة قد مزجت هنا كما في المنطقة النيلية التشادية شعوبا من أصول مختلفة، وربما أن في التقريب بينها عند انعدام الارشادات المدققة التي تنير التاريخ والمؤرخ تسرعا في الحكم.

وعلى هذا المستوى بالذات تكون الحدود الحالية لللسانيات كآلة للبحث التاريخي متسعة فسيحة. ويتعرض الباحث هنا، العقبة المزدوجة التي ذكرناها آنفا، فلم يصل البحث الى نتيجة، لأنه لا يزال جزئيا وبصدد التكون، ثم أن نتائجه مؤقتة فهي غالبا غير قابلة للاستغلال اذ تفسدها نظرات ومذاهب محرفة.

### الايدولوجيا المحرفة

ان التاريخ هو موطن الايدولوجيا بالذات. والأعمال الاولى عن ماضي افريقيا واللغات الافريقية وافقت فترة الزحف الاستعماري الاوربي. فتأثرت تأثرا قويا بالنظرات التفوقية السائدة اذاك. والتفكير العرقي الخاص يعبر عن اهتمام قطري بالحكم على قيم الحضارات بمقارنتها مع ذاته،

(٣١) م. دولافوس «الجمع السنغالي الغيني» ضمن «لغات العالم» نشر ميل وكوهان. باريس.

(٣٢) ج. غرينبرغ، ١٩٦٣.

(٣٣) و. ولسن، ١٩٦٦.

(٣٤) د. دلي، ١٩٦٥.

(٣٥) د. ساير، ١٩٧٤.

وذلك ما يؤدي الى الاستحواذ على آيات الحضارة العليا، كي يبرر الانسان نفسه كفكرة وقوة مسيطرتين على العالم.

ونظريات التفوق الهندي - الاوربي والآري أو الابيض باعتبار أهلها ممدنين تشهد على تطرفات مازال حتى اليوم يتردد صداها العميق في عدد من المؤلفات التاريخية واللسانية حول افريقيا (٣٦).

وهكذا طالما وضعت مصر بين قوسين بالنسبة الى سائر القارة، وأحيانا قد ينقص من قدمها لصالح وادي الرافدين أو غيره من المراكز الهندية - الاوربية أو السامية المفروضة بالاعتماد على تخمينات خطيرة. وقد بحث أحيانا عن ملقنين خياليين لفن البنين، وركبت نظرية «الحامية» تركيبا اصطناعيا لشرح كل ظاهرة ثقافية ايجابية في افريقيا السوداء وتفسيرها بتأثير خارجي (٣٧).

على أن ج. غرينبرغ عند سعيه في وضع مناهجة دقيقة علمية، وقد كانت مساهمته طريفة هامة على الرغم مما احتوت عليه من أمور قابلة للنقاش، فانه أحيانا، كان لسان حال هذا الأثر السلبي من المذهبية العرقية.

و يدلي سليجمان وماينهوف، وكذلك بعدهما مصنفون قيمون أمثال دولافوس وبومان وسترمان أو ملر، بحجج ذات ضعف مذهل من الوجهة العلمية، وذلك انهم يستندون الى أحكام مسبقة من نوع الرأي الذي يصرح به ماينهوف بالعبارة التالية: «خلال التاريخ تكرر حدث باستمرار، أعني ان الشعوب الحامية قد اخضعت الشعوب ذات البشرة السوداء وساسوهم كأسايد لهم».

ان مثل هذه الملاحظة تبرر ما يجدر أن يتخذ من الاحتراز عند استعمال ما توفره اليوم الأعمال اللسانية من مادة للمؤرخ أو للأخصائيين في العلوم الانسانية عامة.

يقول ج. غرينبرغ: «ان الاستعمال المهم للفظ حامي كمقولة لسانية واستعماله في تصنيف الأعراق لتعيين نموذج يعتبر أساسا شبه قوقازي، قد أدبأ الى نظرية عرقية ترى أن معظم الأهالي المتأصلين في افريقيا السوداء هم نتيجة خلط بين الحاميين والسود».

وهكذا فان تسمية «شعوب اللغة النيلية الشاميتية» ترجع الى مؤلف س. ج. سليجمان «اعراق افريقيا». «هذه الشعوب تعتبر عرقيا من أنصاف الحاميين» ويمثل البانتوصفا آخر من السود المنتسبين الى الحامية. ويضيف غرينبرغ شارحا: «وذلك على أساس تخمينات ماينهوف، وهي تخمينات لم يدل قط بأي حجة في شأنها، اذ لا وجود لحجة على أن البانتوكما يقول سليجمان، لغة مختلطة، وعلى أن الانسان البانتو، ان صح القول، تناسل من أب حامي وأم سوداء».

(٣٦) انظر بعده ج. ه. غرينبرغ في هذه النقطة.

(٣٧) ان العبارات (الحامية) (الشاميتية) (الشاميتية) قد استعملت كثيرا في العالم الغربي خلال قرون ضمن المعجم العلمي والمعجم اليومي، وهي تتضمن قراءات عميقة وموجهة مأخوذة عن التواراة. ولقد ظهرت اسطورة لعنة الاعقاب السود من نسل شام نتيجة هذه القراءات. ولئن كان حقا انه في القرن التاسع عشر، وتأثير علماء اللسانيات والانولوجيين، أخذت هذه العبارة معنى بدأ أقل سلبية، وفي جميع الحالات أصبحت مستقلة عن أي دلالة دينية، فانها مازالت تستخدم كتميز لبعض السود المعترين كفضة أعلى من غيرهم. ولهذا الأسباب فان الجمعية العلمية الدولية، تشجع الدراسات النقدية المتصلة بالاستعمالات التاريخية لهذا المعجم الذي يجب عدم استخدامه الا بتحفظ شديد.

ويستنتج ج. غرينبرغ ان هذه الايديولوجيا في الواقع تفسد تماما حتى اليوم وضع علم لساني من شأنه أن يتر العلاقات الحق بين اللغات والحضارات في أفريقيا. ان الهجرة في الاتجاه شرق - غرب أو شمال - جنوب للشعوب الافريقية، قد شوشت المظهر العرقي والنسبي واللساني في القارة. ويشير الى ذلك أسماء الأشخاص والأماكن والاحداث اللسانية المحضة المتعلقة بالمعجم الأساسي ذاته. ويظهر ذلك في عدة دراسات، وتشهد اللغات في السنغال كالولوف والديولا والفلفلدي والسيرير بأوجه شبه مع لغات البانتو في أفريقيا الجنوبية وفي طانزانيا والكامرون والزاير أعمق منها مع لغات أسرة ماندانك التي اقحمت الجغرافيا داخلها. ومعجم المصرية القديمة وبنيتها، ومبادئ كتابتها عنها، كما سنرى فيما بعد، أقرب الى واقع لغات الولوف والهوسا أو التراث الخطي الداهومي، منها الى البنيات اللسانية السامية أو الهندية الاوربية التي تضم اليها بدون احتراز.

لقد ربطت المصرية القديمة والهوسا ولغات الرعاة الرواندية والحبشية والفلانية والنوبية بلغات سامية أو هندية أوربية على أسس واضحة الضعف، أو انطلاقا من منهجية واختيار المعايير الأقل اقناعا:

والفلانيون تهجنوا، تماما كالبالوبا والسوسو والسنغاي اذ أن عددا من الشعوب السوداء في موطنهم القديم أو الحديث كان لهم اتصالات بالسكان البيض، على أن هذه الفرضية للتهجين قد أعيد فيها النظر اليوم بناء على مكتشفات حديثة عن عملية تحول اللون.

ولا تبدي الفلفلدية من حيث صوتياتها ومعجمها وبنيتها شبا مع أي لغة معروفة أقوى منه مع السيرير. حتى أنالشعبين اللذين يتكلمان هاتين اللغتين يوحيان نفسها بقرابتهما لا اللسانية فحسب بل أيضا العرقية، وهذا لم يمنع بحثين أمثال ف. ملر وجفريس وماينهوف ودولافوس ووسترمان من السعي في اثبات اصل أبيض الفلانيين، بتصریحهم ان الفلفلدية هي حامية قديمة (٣٨) بل يصل تايلر الى حد أن كتب: «ان الفلانية بما لها من ثروة في المفردات ومن رنة في الالقاء ومن لطف كبير في العبارات، لا يمكن ان تنتمي الى الاسرة السوداء السودانية»، وهذه الملاحظات جميعها تبين الى أي مدى تعمست الفوضى بين مقولات متباينة كاللغة ونوع العيش و«العرق»، بقطع النظر عن مفهوم الجنسية المستعمل، حسب الظروف للاحالة الى مفهوم من المفاهيم السابقة أو الى غيره.

وكما لاحظ ج. غرينبرغ أن ما أقر من علاقة بسيطة بين الماشية والغزو واللغة الحامية قد اتضح خطأ على كامل القارة الافريقية، فيقول: «انه لمن السخرية في السودان الغربي أن يشاهد المزارعون ذوو اللغة الحامية تحت سلطة الرعاة الفلانيين اللذين يتكلمون لغة سودانية غربية (نيجرية كنغولية)، وقد تكون سخرية أخرى، اذا ما اتبعنا القوالب المثبتة، ان نلاحظ قدم سلطان الماندانك أو الولوف ودوامه في هذه الاسرة اللسانية السودانية، على شعوب تم ضمها بسرعة الى «الحامية» أمثال الفلانيين المنعوتين الحامين القدماء أو أمثال «البربر».

وحتى اليوم لا يوفر أي تصنيف موضوع على المستوى القاري أو الاقليمي ضمانات علمية لا نخش فيها، وقد ساهمت العرقية مساهمة قوية في افساد تحليل المواد.



وفي الكثير من الحالات نبقى في التخمينات وإصدار قرارات مبدئية وفي اللحظات الحاطفة. وهناك عدد من الشروط لدراسة اللغات الافريقية في إطار العلم المدقق تنير لنا تاريخ شعوب القارة وحضارتها. أولا يجدر أن تحرر هذه الدراسة من وساوس الحكم المتجه كلياً الى الخارج انطلاقاً من السامية أو الهندية - الاوربية، أي بناء على الماضي التاريخي للانسان الاوربي. ومن جهة أخرى يجب الاحالة على المادة اللسانية القديمة لاثبات القرابة بين اللغات الافريقية، لا الاحالة على المعطيات الجغرافية الحالية أو على التأثيرات القديمة أو المتأخرة، أو على المخططات الشارحة المختارة مسبقاً، أو على الأشكال اللسانية الهامشية، بالنسبة الى الأحداث السائدة في الانظمة اللغوية.

## العلوم المساعدة

### التحليل الراجع للتأثيرات الاجنبية

ويسمى «طوبولوجيا» (٣٩) في الاصطلاح الانكليزي وهو يعود الى علم غرضه دراسة أصل الآثار الشفافية وطرق نشرها (الأفكار والتقنيات الخ) وقد دشن بجاثون ألمان هذه الطريقة معارضين بها دراسة الأدوار الثقافية التي وضعها فرو بنينوس، وسترمان - بومان الخ. وكثيراً ما ألقت النظر الى هذا المستوى، نشر تقنيات المزارعين وثقافتهم، وطرق الرعاة، واستنباط تقنيات الحديد وسائر المعادن ونشرها، واستخدام الحصان، وقرار التصورات التابعة للكون ولجميع الالهة أو للأشكال الفنية. على أن الطوبولوجيا قد تجاوزت مجالها أحياناً، وعلى الخصوص انها أدخلت الكثير من الأخطاء في العلم التصنيفي. وذلك ان عدداً من المؤلفين قليلي التحفظ قد ظنوا انه في الامكان أن تستنتج قرابة لسانية بناء على ملاحظة بسيطة لآثار ثقافية، وأحال أن هذه الآثار كثيراً ما تعود الى ظاهرة الاستعارة أو الاتصال أو التقارب.

### علم الإعلام

هو علم أسماء: أسماء المكان (أسماء المواقع) وأسماء الأشخاص (الأعلام) أو أسماء أماكن الماء (أسماء المياه الخ). وعلم الأعلام مقترن اقتراناً وثيقاً بمعجم اللغات. فالجماعات العرقية المتجانسة نسبياً في فترة معينة، والمجموعة العرقية اللسانية الأكثر تنافراً ولكنها تتكلم بلهجة مشتركة، تكون أسماءها خاصة بالاحالات على واقعات لغاتها. يطلقون على العالم الأرضي والجغرافي الذي كان لهم أولاً يزال موطناً، أسماء يركبونها على هذا الاطار. وعلى هذا فباستكشاف أسماء الأشخاص، نتعرف في الوقت نفسه على العناصر العرقية التي تكون مجموعة ما. فالسريرهم عامة (جون وجووف

وسيين النخ) والفلانين (سو، وجالو وواوكا، الخ) الماندانك (كيتا وتوري وجازي الخ) وللبربر والبانوأسر من الأسماء خاصة بهما.

ولعلم الأعلام دور كبير في دراسة تاريخ العروق والجماعات السياسية أو الثقافية. وتدل دراسة الأسماء المستعملة لدى التكرور (٤٠) في السنغال اننا أمام جماعة عرقية لسانية متباينة جدا. ان هذه المجموعة المتكلمة بالفلفلدية، المتأصلة بالسنغال، على طول النهر، على حدود المالي وموريتانيا، متجانسة تجانسا كبيرا في المستوى الثقافي، وعن هذا نتج احساس «قومي» قوي جدا، وفي الواقع هذه المجموعة تكون انطلاقا من عناصر فلانية تغلبت لغتهم ومن الماندانك والسيرير واللبوولوف والبربر.

ويمثل علم أسماء المكان وعلم أسماء المياه، أيضا علمين أساسيين لدراسة هجرات الشعوب. ويمكن رسم خرائط مدققة انطلاقا من أسماء القرى المندثرة أو الباقية حتى الآن تمكن من تتبع طريق الماندانك حيث تحمل القوى أسماء مركبة انطلاقا من الدوكو. ومن الممكن أيضا أن ترسم بالطريقة نفسها خريطة مسميات الأماكن للمواطن القديمة أو الحالية عند الفلانين الذين يستعملون لمشتاتهم اسم ساري، وكذلك بالنسبة للوولوف الذين يستعملون لفظ كر، وللعرب والبربر: دار والهوسا النخ.

### الانثروبولوجيا الدلالية

وهي تكون طريقة جديدة لادراك الامور، وتسعى الى الكشف عن ثقافة الانسان عن طريق لسانه، وتستند الى تحليل جلي لمجموعة المعطيات التي تمدنا بها لغة عرق من الاعراق، أو جماعة لا متجانسة والتي تستعمل لغة مشتركة، كي تظهر للعيان في آن واحد، ثقافتها وتفكيرها وتاريخها. وتتجاوز الطريقة مجرد جمع المأثور والأدب المكتوب أو المنقول، انها تتضمن اللجوء الى اعادة بناء كامل للافكار التي تحملها اللغة والتي لا ترجع حتما الى أثر معين، أو الى خطاب منظم. ويجري البحث في هذا الشأن في مستوى تحت المستوى اللساني وفي مستوى فوق المستوى اللساني. وهي تفك الرموز انطلاقا من المفردات، ومن تقسيم الفكرة، ومن وسائل التعقيد ومن ايجاد بنية اللغة، تفك رموز مختلف نماذج المعرفة التي تتبلور فيها النظرة الى العالم والتاريخ الخاص بالمجموعة التي تستخدم اللغة المعطاة. وهذه اللغة العرقية تصل الى الكشف عن نظم هي: التصور الميتافيزيقي، الأخلاق، علم الكائن، الجمالية، المنطق، الدين، التقنيات النخ.

وهكذا فان الأدب المكتوب أو المنقول عن ماضي الهوسا بما فيه من الوثائق الدينية والأمثال والأعمال القضائية والطبية والعنانية والتربوية، يجبرنا في الآن نفسه عن تطور محتوى فكرة الهوسا وكذلك عن تاريخها وثقافتها.

وفي الحضارات التي تغلب فيها الرواية الشفاهية، حيث تكون نصوص المراجع قليلة، لا وجود عمليا للتفسير التطوري المعتمد على مقارنة النصوص من فترات مختلفة. وتصير اذن اللسانيات وسيلة لاعادة اكتشاف التراث الفكري، وسلم لتسليق الزمن.

(٤٠) ينقل هذا الاسم عادة في شكل «Toucouleur».

والثقافات ذات العبارة الشفاهية التي تكتشفها الانثروبولوجيا الدلالية، تمدنا بآثار يجب جمعها وإقرارها وتمدنا بمؤلفين وباختصاصهم. وقد أبقت كل ثقافة إفريقية شفاهية أو مكتوبة، كما لدى الوولوف، حكيمها مثل ندامال كساس، وعالمها في السياسة مثل ساباسي، وكوكو بورما، وصاحب الكلمة والفصاحة فيها، وصاحب الملحمة أو القصة كابن مبنك (٤١) وأبقت كذلك مبتكري التقنيات في الأقرباذين أو الطب أو الفلاحة أو الفلك (٤٢).

وتصبح هذه الآثار ومؤلفوها مصادر جلية للتحليل الحركي التطوري للثقافة في مجتمع على مختلف أشكاله.

ويمكن حل رموز الكائن البنتو، بل يمكن تفسيره وتنظيمه بالاحالة إلى الألفاظ البنتو عن الكائن في العالم، انطلاقاً من عمل التكوين والتصور الذي يعطي، من خلال المفردات والنصوص البنتو، شكل التصورات التي تكون للبنتو عن هذه الظواهر.

وإذا كانت اللغة محل تبلور كل الوسائل الذهنية أو المادية التي صنعتها الأجيال المتعاقبة، استطعنا القول إن التجربة التاريخية لشعب، مسجلة في طبقات متتالية من نسيج اللغة نفسه.

### حامل الوثيقة والفكرة التاريخية

تم الاتفاق عامة اليوم على ما للمأثور من دور في التاريخ الإفريقي، بل أن «الرواية» التقليدية يلتبس حضورهم إلى المؤتمرات، ويقترح بعضهم أن يخص لهم مناصب جامعية أو حتى يكلفوا بالبحث وتدريس التاريخ.

نعم أن أولوية المقول على المكتوب قد بقيت في الجملة ضمن الثقافات التقليدية التي يغلب فيها الريف في إفريقيا كما في غيرها من البلدان.

والشفاهية كوسيلة لإعداد المنتجات الفكرية وضبطها لتقنياتها. وإذا كان المجال، بالنسبة لأشكال الفكرة المكتوبة أو المنقولة، مشتركاً على مدى كبير، فالطرق ووسائل تصورها ونقلها ليست دائماً هي ذاتها (٤٣).

ونلاحظ ببساطة أن الفكرة المكتوبة، والأدب بالمفهوم الاشتقاقي، إذا ما ثبتنا، فإنها ميلان إلى التحجر بكيفية أيسر في شكل دائم. وفي ذلك القطيعة مع المأثور المنقول الذي يوفر مجالاً أكبر للاستنباط وللأسطورة. وفي مستوى اللغة تزداد إمكانيات استعمال اللهجات، من جراء التطور غير المراقب. فاللغة التي يغلب عليها التعبير الشفاهي تبقى أكثر شعبية، حساسة للتحريفات الصوتية التي يفرضها عليها التطبيق في مستوى البنية والأصوات المستعملة، بل حتى في مستوى الأشكال المكتسبة. واللغة الأدبية بالمعكس، يداخلها العمل في اتجاه التوحيد، وهي تكتسي من جهة أخرى، بعداً مرثياً أوسع وتدمج كعناصر معبرة للمعطيات البيانية التي تمنحها نوعية خاصة: ضبط الاملاء بقطع

(٤١) كلهم شخصيات تاريخية مشهورة في التفكير الوولوف.

(٤٢) آثار جونستون عن اليوروبا، وطمبلس عن البنتو، وكر يول عن الدوكون، وطرات عن الطب الإفريقي وكيري عن العدانة الخ.. كلها تمثل مع الآثار الدراسية الأدبية المثبتة مساهمات مهمة للأنثروبولوجيا الدلالية.

(٤٣) انظر ب. دياني، المصدر المذكور أعلاه.

النظر عن أصواته، ووضع علامات الوقف الخ. أما اللغة الشفاهية على العكس فانها تستمر في الرجوع الى العنصر الصوتي. وهي تبرز بالايقاع والأوزان والاسجاع أو التنافرات ما للخطاب من بيان. وأهمية دورة الذاكرة في معاوضة انعدام الحامل الكتابي، يعدل أيضا طابع الشفاهية في أشكائها التعبيرية، بل هو يفرض نفسه بما للتحفيظ من تقنيات، ومن علم متخصص للاحتفاظ بالنصوص. وتصير هكذا الوثيقة المكتوبة والمأثور المنقول ظاهرتين متكاملتين، وذلك بتضافر ما لكليهما من مزايا ومن خصائص (٤٤).

ثم أن النصوص الشفاهية اذا ما سجلت صارت بدورها من الآداب (٤٥).

### المأثور المكتوب — الكتابات الافريقية

ان ابتكار الكتابة يستجيب الى حاجيات لم يعلم دائما كيف توضح حسب الظروف والطابع والأصل. والكتابة كوسيلة للتجارة والادارة تعني طبعاً المدينيات الحضرية. ولكن دوافع الانطلاق قد تتغير كثيرا، وفي افريقيا سواء في العهد الفرعوني أو في عهد ملوك الداهمي أو المنسا الماندانك، كان استعمال الكتابة يستجيب أساساً الى حاجيات لا مادية.

ان الكتابة المصرية وكتابة النقوش الداهمية ورسوم الباميرا أو الدوكون، كان لها في البداية وفي اطار ظروفها الخاصة وظيفتان: تجسيم الفكرة، ويتم بذلك تحقيق عمل له مرمى ديني أو مقدس. فللكتابة المصرية التي استنبطها حسب الاسطورة الاله توت بقيت محصورة خاصة في المعابد بين يدي الكهنة، وكانت تختم الأسرار. وهي تستعمل كوسيلة عمل، لفكرة لوحظت كمادة يمكن تجسيمها في شكل كلمة أو خط.

وثاني وظيفة كبيرة جعلت للكتابة في الحضارات الافريقية توافق الحاجة الى التخليد التاريخي. فالكتابة المصرية ككتابة قصور أبوماي هي تمجيد الملوك وشعوب اهتموا ببقاء ذكرى مآثرهم الى من هم بعدهم. وكان الباميرا أو الدوكون حتي يخطون على جدران بنداكارا علاماتهم الرمزية، يرمون الى عين الهدف.

فبين لوح الملك كليبي، ساطور الحفل الحاملة للرسالة، وبين لوح نمر يوجد الكثير من أوجه الشبه، الروح واحدة وكذلك المبادئ وتقنيات الكتابة (٤٦).

تعزى الكتابة المصرية لالة توت، وهو أيضا مبتكر السحر والعلوم على غرار الاله ذي رأس ابن آوى عند الدكون، وهو أيضا حافظ الكلمة والمعرفة وقول الفعال.

والقليل من الاختصاصيين الذين انكبوا على نظم الكتابات ذات الأصل الافريقي، ولو أن عملهم هذا كان في غاية الدقة، لم يعيروا جميعاً أي اهتمام للعلاقة التي تبدو واضحة وسهلة الابانة تقنيا بين الهيرغليفات وأشهر الكتابات في افريقيا السوداء.

(٤٤) انظر بدياني، المصدر المذكور أعلاه.

(٤٥) انظر عديد المنشورات في هذا المستوى: أعمال هباتي باوأ. ابراهيم سووموفوتا وا. دمبيا وك. موين ف. ولا كروا ود. كريول وك. ديتزلان ونريس وك. كستلود. ت. نيان وم. ديابات وج. مبي الخ، وقد نشروا في هذا الشأن مصنفات دراسية، ضمن مجموعات اكسفورد، وجليار وكاليمار في مركز نيامي الخ.

(٤٦) م. جليبي، ١٩٧٤.

وبقي الهيروغليف المصري أساسا على شكل تصويري في وظيفته الأصلية كوسيلة للمعابد. وهو كنظيره الداهومي يرجع حسب الامكان الى الصورة. فهي كتابة واقعية بصورة ارادية، مهما نجسم الكائنات والأشياء والآراء. ويتم ذلك بأشد الطرق حسية وأكثرها مادية، كما لو كان ذلك لارجاع بعض صفاتها الطبيعية أو للاحتفاظ بها.

وليس من باب الصدفة أن يكون تحريف الكتابة التصويرية الى الكتابة بالخط اللين الذي يغير العناصر الممثلة ويجردها، مسموحا به خارج المعابد فقط. فالخط الكهنوتي (الهيرواطيقي) المستعمل في الأكثر خارج الوسط الكهنوتي، خلافا لما يوحي به الاشتقاق اليوناني للفظ، والخط الشعبي (الديموطيقي) وقد ازداد بساطة في رسم هذه العناصر، كلاهما خط غير مقدس، انفعالي. وكما يلاحظ حقاً م. كوهين فإن الهيروغليفية تتضمن في فكر الكاهن المصري «قوة إيماء سحرية» وهذا يفسر حسب قوله، «أنه كان يحتز من تصوير الكائنات النحسة أو أن صورها كانت تشوه» ونحن هنا تجاه تصور للذات تتصل جذوره بالتراث الزنجي الافريقي وتسبح في أعماقه. فلم يصل هذا التراث خلال الآف السنين، بالهنود - الاوربيين وخاصة باليونانيين، الى نزق القداسة عن الفكرة وعن حواملها الشفاهية أو الخطية، وتلك نظرة البامبر واليوروبا والنصبيدي أو كهنة دوكون، ازاء النظم المرسومة التي يستخدمونها في معابدهم أو في جلسات طقوسهم.

ووحدة الرسوم المبتكرة في افريقيا، لا تكمن فحسب في المسبقات الايدولوجية التي تمنح لنظمها وظائفها وطبيعتها، بل هي أيضا في التقنية الوحيدة للنقل. وفي تاريخ الكتابة الافريقية يبدو الرجوع المستمر الى تقنيات ثلاث لتثبيت الفكرة بالرسم: الالتجاء الى نسخ صورة الكائن أو الشيء بواسطة علامات تصويرية، الالتجاء الى الرمز لتشمل واقع بواسطة علامات الرموز وهي اشارت لا علاقة مباشرة لها من الشبه الطبيعي مع المفهوم الذي ترمز اليه، وأخيرا استعمال الحاكي لتمثيل ذوات الأصوات المتماثلة كلها، أي كل الظواهر الواقعية التي يشير اليها صوت واحد أو مجموعة واحدة من الأصوات. وهذا مبدأ الخط التصويري. هذا وان المقارنة بين لوح نمرور وساطور كليلي أو دكادونو لشديدة الإيماء، فهي تنقل الخطاب حسب المبادئ ذاتها.

وعلى لوح نمرور صورة ملك يقبض على عدوه المنهزم من شعره، ويصرعه، بينما يلوذ باقي الجيش المنهزم بالفرار بين رجلي الفرعون العملاق، والرسوم المصورة واضحة ناطقة. وأما باقي الاشارات فعلامات رمزية، يميز من بينها شكل بيضوي «تا» يرمز الى الأرض، ومن أعلى مجموعة من الرموز واطار مرتع لطابع اسم الفرعون حورس. سمكة وطانر يمثلان اسم الفرعون، وهما صورتان لرسوم الأصوات.

وساطور كيزو تمثل الملك الداهمي في شكل جاموس، كما يمثل الفرعون في شكل باز. ويكشر الجماموس عن أسنانه مما يفيد أنه ينشر الرعب بين أعدائه. وفي هذه الصورة إيماء رمزي، وفي حالات أخرى يكون أكثر دلالة.

وساطور الملك داكودو أو دوكودونو وهو أقدم يرجع الى عام (١٦٢٥ - ١٦٥٠ م) ووصفها لو هريسسي وهي تبين بوضوح مبدأ «الهيروغليف» الداهومي. وهذا مضمون النص تقريرا، النقوش على شفرة الساطور: هناك رمز به رسم يمثل صوانا «دا» ومن أسفله صورة الارض «كو» بها ثقب في

وسطها «دونون». فهذه رموز تصويرية استعملت كرموز للأصوات. فإذا ما جمعنا بينها كما بالنسبة لاسم الفرعون على لوح نمر، فإننا نقراً اسم الملك الداومبي داكودونو. ويلتقي الخط الداومي مع الهيروغليف الفرعوني مبدأ ومعنى، وهو يكشف عن التقنيات الثلاث التي يحيل إليها الخط المصري أي الصورة الرسمية، الرمز، وعلامة رسم الأصوات (٤٧).

وقد ذكر العالم السوفياتي ديميتري أ. الدروج في مقال تاليفي جليل على اثرش. انتاديوب بان نظام الهيروغليفيات بقي قائماً حتى عهد متأخر في إفريقيا السوداء.

و يصرح كافاسي دى مولوكولو في كتابه «الوصف التاريخي للممالك الثلاث في الكونغو والماتمبا والانكولا» المنشور سنة ١٦٨٧ ان استعمال الكتابة الهيروغليفية مازال قائماً في هذه المناطق.

واكتشفت سنة ١٨٩٦ كتابة هيروغليفية منقوشة على صخور التيتي في الموزمبيق، على نهر الزمبار ونشر نصها اذالك. ويلاحظ ش. انتاديوب أيضاً استعمالاً متأخراً لخط ذي رسوم في الباول، حيث أمكن العثور في عصر قريب على نقوش هيروغليفية على أشجار بابو باب عميقة جداً واستعمل الفاي في ليبيريا مدة طويلة خطأ ذا رسوم على شرائط من اللحاء. والخط الميروي في الحدود الجنوبية لمصر القديمة امتداد للخط الفرعوني ومنه كان يقتبس، الا أن يكون هو الذي أثاره أو أن يكون قد اشترك معه في أصل واحد.

على أنه يبدو أن نظم الخطوط الرمزية قد كانت على الأرض الزنجية الافريقية الغربية أشد مقاومة من الهيروغليفيات. وعملياً فإن معظم الشعوب الزنجية الافريقية تعرف استعمال الكتابة الرمزية، إما عن طريق التقنيات الكهنوتية، أو بناء على ما يقوم به رجال الدين من أعمال أو عن نقاشي لآثار فنية الخ.

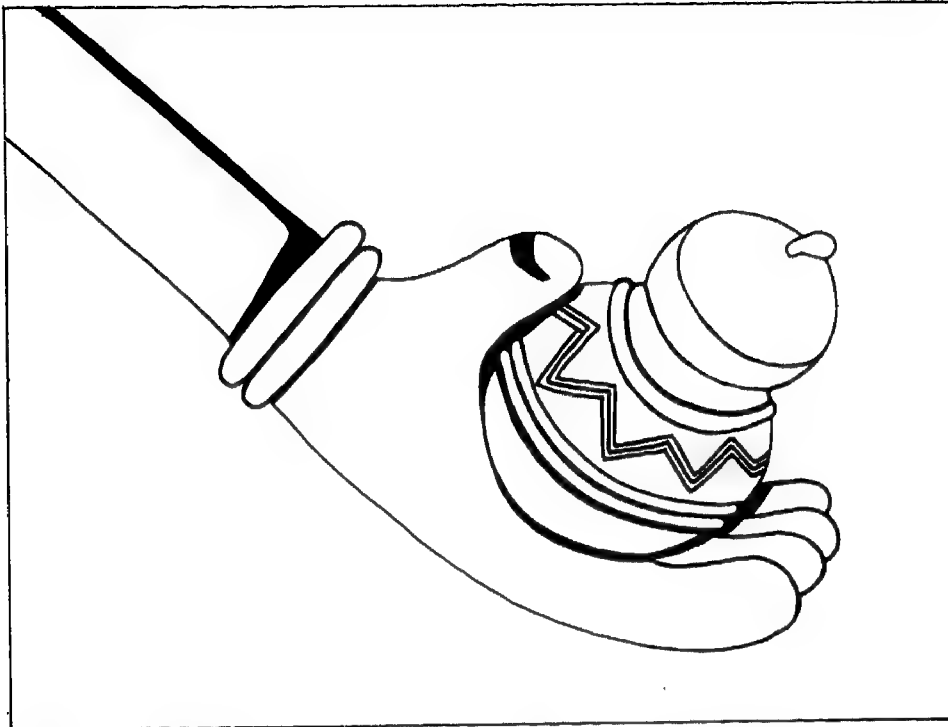
ويخط الرمل عند الكورمانتشي له تقنية فنية راقية (وهو المسمى عندهم كامبيوالو)، يرسم الرمال والرموز على الرمل ويعبرها، ثم يتقدم بضرب من «الوصفة» تتمثل في رموز منقوشة بالموسى على قطعة من الدباء، وتشير هذه العلامات المجردة الى الهياكل والمذابح التي يجب المثل فيه قصد تقديم القرابين، والى نوع الدابة التي يجب ذبحها والى عدد القرابين الخ. وهذه «كتابة رمزية». والتكهن بواسطة علامات «فا» غزير الثروة: وذلك أن الكاهن يقوم بعمليات شعوزة ماسكا بعدد من جوز النخيل بيد ناقلاً اياها من يد الى أخرى ثماني مرات. ويسجل كل مرة على طبق مرشوش بالغبار أو على الأرض، عدد الجوزات الباقية في يده اليسرى. وتكون جداول (عددها الممكن ٢٥٦) منها ستة عشر أساسية، هي الـ «دو» التي تمثل القدر فيها «خيوط» الالهة أو كلامها، ويتحكم فيها «الفا». فكل انسان مطالب بعبادة الدو الذي ينتمي اليه ولكنه في آن واحد، عليه أن يأخذ بعين الاعتبار ما لأقاربه وأجداده وبلاده من «دو» الخ.. والتأليفات متعددة جداً. وتعدد «الدو» يتألف في ضرب من الاستراتيجية الأسطورية، وهي أيضاً تقنية خطاطية. ويستعمل التكهن «بالفا» على طول ساحل البنين.

وكان ما جمع من نظم الرسوم الرمزية (٤٨) غزيراً خاصة في بلاد السهوب، وقد بقيت تقليدية

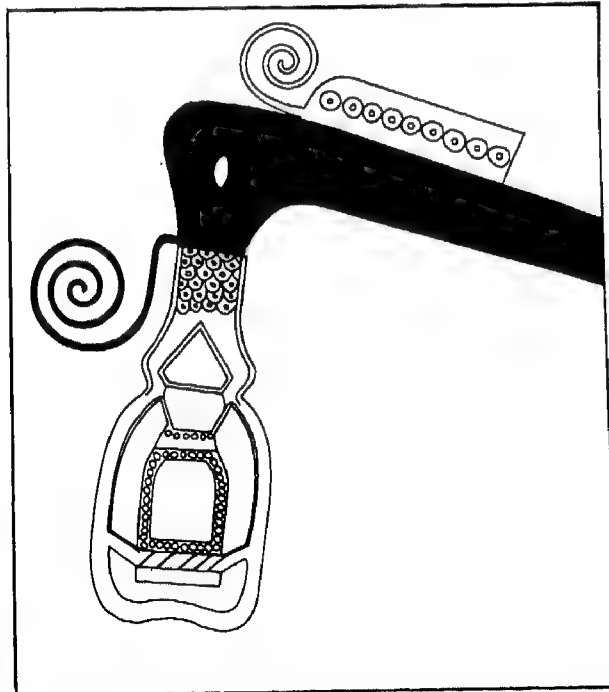
(٤٧) انظر الفصل الرابع.

(٤٨) انظر نينكوران بواه: «بحوث عن الصنجات لوزن الذهب عند الاكان» رسالة دكتوراه دولة نوقشت سنة ١٩٧٢.




















- (١) رسم يثل يقطينة، وهي رمز القوة  
(تصوير نوبيا).
- (٢) رسم مهدى الى داكوتودو  
(تصوير نوبيا).
- (٣ و ٤) شبل ينشر الرعب (تصوير  
نوبيا).





كتابة تصويرية مصرية (حوالي ١٠٠٠ سنة قبل الحاضر)	كتابة تصويرية نسيبيدية
 رجل يجري، ذراع ممدودة؛ اينو = رسول	 دابر يل: رجل يجري، ذراع ممدودة
 بطن حيوان ثديي؛ كت = بطن، جسم	 ماكفر يغور (ص ٢١٢)، رسول
 سحلية؛ انشا = غني	 دابر يل: رمز يحوي سماً في داخله
 دودة أو ثعبان (كفؤو)؛ دودة (دفت)	 تلبوت: سحلية
 شمس ساطعة؛ وين: يظهر	 ماكفر يغور (ص ٢١٢) ثعبان؛
 هلال؛ اعك = قر	 دابر يل: ثعبان طويل جداً؛ أوروك
	 ايكوت، ثعبان بالافيك و«شاو» بالأور يانجا
	 تلبوت: شمس ساطعة؛ أوتين
	 شمس بالافيك و«رواوينج» بالأو يانجا
	 تالبوت: هلال؛ سبي = قر
	 بالأو يانجا

١. مفردات من الكتابة التصويرية المصرية والنسيبيدية (مأخوذة من كتاب «أفريقيا في العصور القديمة»، والمهامش السفلي ٣٤ في الصورة بحيل إلى: ج. ك. ماكفر يغور ١٩٠٩؛ أ. دير يل ١٩١١؛ تالبوت ١٩٢٣).
٢. لوحة نارمر (مأخوذة من: شينغ أنتاديوب، ١٩٥٥).



قاي (١٨٤٩)	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
(١٩٦٢)	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
ميندى	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١
لوما	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨
كيلي	٢٩	٣٠	٣١	٣٢	٣٣	٣٤	٣٥
بانتا	٣٦	٣٧	٣٨	٣٩	٤٠	٤١	٤٢
باموم (١٩٠٦)	٤٣	٤٤	٤٥	٤٦	٤٧	٤٨	٤٩
(١٩١٦)	٥٠	٥١	٥٢	٥٣	٥٤	٥٥	٥٦
أوبارى أوكامبي	٥٧	٥٨	٥٩	٦٠	٦١	٦٢	٦٣
دجوكا	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	٧٠
ماندينجو	٧١	٧٢	٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	٧٧
وولوف	٧٨	٧٩	٨٠	٨١	٨٢	٨٣	٨٤
فولا (ديتا)	٨٥	٨٦	٨٧	٨٨	٨٩	٩٠	٩١
فولا (يا)	٩٢	٩٣	٩٤	٩٥	٩٦	٩٧	٩٨
(بوت)	٩٩	١٠٠	١٠١	١٠٢	١٠٣	١٠٤	١٠٥









• عينات من أنواع متعددة من  
الكتابات الأفرقية القديمة (مأخوذة  
من: د. دالي، ١٩٧٠، ص ١١٠  
- ١١١).














ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ	a é ē i ō ō ū	ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ	ga gé gē gi gō gō gō gū	 ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ	la lé lē li lō lō lō lū	 ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ	ra ré rē ri rō rō rō rū	ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ	wa wé wē wi wō wō wō wū
ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ	ba bé bē bi bō bō bō bū	ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ	ha hé hē hi hō hō hō hū	ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ	ma mé mē mi mō mō mō mū	ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ	sa sé sē si sō sō sō sū	ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ ṣ	ya yé yē yi yō yō yō yū
ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ	da dé dē di dō dō dō dū	ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ	ja jé jē ji jō jō jō jū	ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ	na né nē ni nō nō nō nū	ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ	ta té tē ti tō tō tō tū	ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ	za zé zē zi zō zō zō zū
ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ	fa fé fē fi fō fō fō fū	ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ	ka ké kē ki kō kō kō kū	ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ	pa pé pē pi pō pō pō pū	ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ ḡ	va vé vē vi vō vō vō vū		






• رموز (عناصر) من كتابة الـ «فاي» (مأخوذة من كتاب «أفريقيا في العصور القديمة» لمؤلفه ت. أوجنغا، نشر مؤسسة الحضور الأفريقي — باللغة الفرنسية).

cha	△	kpa	𐌲	nda	𐌲	nya	𐌲	zha
ché	+	kpé	𐌲	ndé	𐌲	nyé	𐌲	zhé
chē	𐌲	kpē	𐌲	ndē	𐌲	nyē	𐌲	zhē
chī	𐌲	kpi	𐌲	ndī	𐌲	nyī	𐌲	zhī
chō	◇	kpō	𐌲	ndō	𐌲	nyō	𐌲	zhō
chö	𐌲	kpö	𐌲	ndö	𐌲	nyö	𐌲	zhö
chū	𐌲	kpū	𐌲	ndū	𐌲	nyū	𐌲	zhū
dha	𐌲	lba	𐌲	nga	𐌲	sha	متنوعات	
dhé	𐌲	lbé	𐌲	ugé	𐌲	shé	𐌲	fas
dhē	𐌲	lbē	𐌲	ugē	𐌲	shē	𐌲	hn
dhi	𐌲	lbi	𐌲	ngi	𐌲	shi	𐌲	kpna
dho	𐌲	lbo	𐌲	ngō	𐌲	shō	𐌲	nwa
dhö	𐌲	lbö	𐌲	ngö	𐌲	shö	𐌲	nwo
dhū	𐌲	lbū	𐌲	ngū	𐌲	shū	𐌲	whew
gba	𐌲	lda	𐌲	nja	𐌲	tha	𐌲	ahn
gbé	𐌲	ldé	𐌲	njé	𐌲	thé	الترقيم والعلامات الأخرى	
gbē	𐌲	ldē	𐌲	njē	𐌲	thē	شرطة فاصلة علامة استفهام نقطة علامة تعجب علامة تشديد علامة خفض صوت أنقى علامة استمرار الوصت	
gbi	𐌲	ldi	𐌲	nji	𐌲	thi		
gho	𐌲	ldo	𐌲	njo	𐌲	tho		
ghö	𐌲	ldö	𐌲	njö	𐌲	thö		
ghū	𐌲	ldū	𐌲	njū	𐌲	thū		
hna	𐌲	mba	𐌲	nkpa	𐌲	wha		
hné	𐌲	mbé	𐌲	nkpe	𐌲	whé		
hnē	𐌲	mbē	𐌲	nkpe	𐌲	whē		
hni	𐌲	mbi	𐌲	nkpi	𐌲	whi		
hno	𐌲	mbö	𐌲	nkpo	𐌲	whö		
hnö	𐌲	mbö	𐌲	nkpo	𐌲	whö		
hnū	𐌲	mbū	𐌲	nkpu	𐌲	whū		

الكلمة بلغة «موم»	معناها	العلامة المسجلة في ١٩٠٠ (كلايوت)	العلامة المسجلة في ١٩٠٧ (غورنغ)
بي Pè	حبة الكولا		
فوم Fom	ملك		
نتاب Ntab	بيت		
نياد Nyad	عجل		

• نظام الكتابة «موم» (عن كتاب «أفريقيا في العصور القديمة» بقلم ث. أوجنفا، نشر «الحضرة الإفريقية» بالفرنسية).  
الى أعلى: نظام الكتابة التصويرية (بالصور)  
جانبا: نظام الرموز المقابلة للأفكار، وفي المستطيل الأسفل نظام المقاطع الصوتية.

بوين أو بورين	- ، التاس	
نغوا أو نغومي	- ، الموطن	
نديا	- ، اليوم	
نسي	- ، الأرض	
يو	- ، الغذاء	
بو	- ، نحن	
في	- ، و	
غبيت	- ، يعمل/يصنع	
مي	- ، أنا	
فا	- ، يعطى	
هوام أو موم	- ، يبدى إعجابه	

المقطع «با» من «إيبا» ومعناها: إثنان	-	
المقطع «بين» من «بين»: نوع من الرقص	-	
المقطع «بي» من «بييت»: يختن	-	
أو من «بي»: يمك	-	
المقطع «تشا» من «تشا»: سمكة	-	

ونسبها ضعيفة الانتساب الى الاسلام. وليس ذلك من باب الصدفة وقد عرّف الاخصائيون ببعضها، ومن أول هؤلاء م. نيجود..

وقدم م. كريول وج. ديتزلان الكتابة الرمزية للدوكون، ونحن ندين لها كذلك بتحليل نظام بامبرا وتقدير مركّب جيد لكتابات المنطقة،

واكتشف الاوربيون في نهاية القرن الماضي الخط الرمزي النصيدي المستعمل عند الايو في جنوبي نيجيريا وهويتركز على مبادئ النقل التي انتشرت انتشارا قويا على ساحل غينيا بأكمله. والكتابات الصوتية (٤٩) التي تعمم بانتظام استعمال صور الأصوات سواء البسيطة أو المركبة بعلامات منتظمة، تظهر في نظرا، بافريقيا، كثمرة لتطور متأخر. وكانت الهيروغليفات في مصر القديمة كما هي في الداهومي، تمثل العديد من الأصوات بواسطة الرموز. ولكن النظم الصوتية المحضة التي أساسها الكلمة، والمقطع أو الصوت البسيط - النقل الالفبائي - تشير الى مرحلة جديدة (٥٠).

ولعل الكتابة البربرية المستعملة عند «طوارق» الصحراء والمعروفة باسم تيفيناغ قد انتشرت بتأثير البونيقية بالاتصال مع قرطاج. وتكوّن نظام الكتابة النوبية في القرن العاشر عن طريق الاتصال بالخطاطة القبطية، التي نشأت هي بدورها بتأثير اليونانية. والخط الاثيوبي في تيكرينيا وفي الأمهارا مشتق من الخط السبني بجنوب الجزيرة العربية.

أما الكتابات المقطعية والالفبائية الافريقية الغربية المنتشرة انتشارا كبيرا منذ نهاية القرن الثامن عشر على السواحل الغينية وفي البلاد السودانية، فلعلها نشأت عن تطور داخلي، أو قد تكون اكتست صبغتها النهائية، بتأثير قريب أو بعيد من دخیل أوربي أو عربي (٥١). والكتابة الفاي التي أظهرها لأوربا سنة ١٨٣٤ ايريك باطس الاميركي وكويل سنة ١٨٤٩، قد انتشرت على أرض لوحظت فيها خطوط من النظام الهيروغليفي. ووصف مومولو مساكوقنصل ليبيريا في انكلترا في القرن التاسع عشر، مبادئ النظام الهيروغليفي المستعمل في منطقته وفي عصره (٥٢).

وللدلالة على الانتصار على العدو، يروي مومولوان الفاي يصورون على اللحاء الذي يقوم مقام البردي عندهم، خيال رجل يجري ويدها فوق رأسه. وتضاف نقطة بجانب صورة المتشرد للدلالة على عدد كبير من الناس الفارين، وعلى جيش ولى الأدبار، ويوجد هنا من جديد حتى علامة الجمع بوضع نقطة عوضا عن عدة خطوط كانت مستعملة في وادي النيل العتيق، وهي من معطيات الكتابة الفرعونية.

(٤٩) عرض د. دلي استقراء مها لها في «اللغات والتاريخ في إفريقيا» لندن ١٩٧٠.

(٥٠) أ. هار، ١٩٥٩.

(٥١) تجمع الخطاطات السودانية بين الصور الواقعية والعلامات ذات المعاني الرمزية (انظر رسال كريول وج. ديتزلان) فبالجمع بين هذه العلامات، ينقل الخطاط ويثبت ويصير في الامكان حل رموزه من قبل متعلم الكتابة المدرك لما يحويه من معارف.

(٥٢) انظر المقال التأليني المهم بقلم د. الدورج في «رسالة اليونسكو» مارس ١٩٦٦ بعنوان: «خطوط مجهولة في إفريقيا السوداء».

ولعل الفاي حولوا نظامهم القديم في اتجاه النقل الصوتي، ولنا اليوم أنماط مشابهة من كتابة الفاي لدى عدد من الشعوب الأفريقية الغربية: مالنكي، مندي، بّسا، كرزي، كَبيلي، طوما الخ. وحتى الولوف والسيرير فإنها تجهز أخيرا بكتابة مستوحاة من هذه المبادئ.

وخلافا لما يعتقد عادة، فإن فكرة الكتابة بقيت مستمرة في التاريخ وفي التفكير الأفريقي، من لوج نمر إلى ساطور كليلي. وتشهد بذلك كثرة الأعمال وتعدد الخطوط.

والكتابات الأفريقية بعد الفرعونية، قد اتبعت لعدة أسباب، مجرى تطور اعتيادي، وتلاءم هذا المجرى مع الظروف ومع متطلبات التاريخ لمجتمع واقتصاد ريفيين أحرزا الكفاية الذاتية، ولم يدفع هذا الأخير بضغط الحاجة إلى أن يدعم، مع الأيام المكاسب المادية أو الذهنية المهددة باستمرار. هذه البيئة السهلة وهذا التوازن اليسيرين الموارد والديموغرافيا في معظم الحضارات الأفريقية ولاحداث ثقافتهم، قد جعلت ولمدة طويلة من الزمن، إمكانية الحل والعقد الشكليين في المدى الواسع، غير محتفظة إلا بالأمر الأساسي: المبادئ. فعل مستوى التوازن الباطن لم يكن الخطر كبيرا جدا، وتجاه الخارج، وتجاه تراكم التقدم قد كان هذا الضعف مضرا.

## الخلاصة

لابد من اللسانيات لإنشاء علم تاريخي أفريقي، وسيكون لها دور كبير يعادل ما قدم من جهد هام في المجال الذي هو مجالها، وحتى الآن كانت مساهمتها نسبيا مساهمة ضعيفة وأحيانا قليلة الفائدة في المستوى العلمي. وما زالت الأعمال جارية، وازدادت الطرق دقة وتوسع حقل البحوث كثيرا. ومن المتوقع في هذا السياق أن يتمكن تحليل اللغات الأفريقية في القريب العاجل، من المساهمة في توضيح نقاط مهمة من تاريخ القارة.



القسم الثاني

## النظريات

### المتعلقة بـ «العروق» وتاريخ أفريقيا

ج. كي زربو

ان مفهوم العرق من أصعب المفاهيم حصرا من الناحية العلمية، فإذا ما أقرنا كمعظم العلماء، بعد داروين أن أصل الجنس البشري واحد (١)، فان نظرية «العروق» لا يمكن علميا أن تنتشر الا في اطار التطورية.

وذلك ان تكون العرق ينخرط ضمن العملية العامة للتطور المتنوع. وكما يلاحظ ج. ربي فان ذلك يقتضي شرطين: أولا الانعزال الجنسي، وهو غالبا نسي، وينشأ شيئا فشيئا منظرا وراثيا ومورفولوجيا. فتكون العرق إذن مبني على ذخيرة نطفية مختلفة، أنشأها اما الانحراف الوراثي، اذ أن الصدفة في نقل عناصر الوراثة قد تجعل تكرار النقل في فصيلة ما، أشد منه في أخرى اذا لم يكن بالعكس، أي ان المتباين هو الذي ينتشر انتشارا فسيحا، واما الاصطفاء الطبيعي. ويستتبع هذا تنوع تلاؤمي يعمل بفضل جماعة على المحافظة على الجهاز الوراثي الذي يلائم أكثر ملاءمة بينه وبين محيط محدد. وفي افريقيا قد يكون للوجهين دور. وذلك أن الانحراف الوراثي الذي يعبر عن نفسه الى أقصى حد في الجموع الصغيرة، قد عمل في العرقيات الضيقة الخاضعة الى عمل اجتماعي تقسمي مناسبة الخصومات في الارث أو في شأن الأراضي بسبب المساحات الفسيحة البكر المتوفرة. ومن المحتمل أن هذا العمل قد أثر خاصة في التراث التناسلي لدى العرقيات المتزوجة مع بعضها أو التي تقطن الغابات. وأما الاصطفاء الطبيعي فكان من شأنه أن يقوم بدور مساعدة البيئات المتنافرة، كبيئة الصحراء والغابة الكثيفة والمضاب العليا والسواحل التي يوجد بها المنغروف.

(١) عن نظريات تعدد المراكز ومختلف مظاهرها، انظر أعمال، ج. وابندنرايش وكون ومناقضات روبرتس.

وبصورة عامة من الوجهة البيولوجية، فإن أهل «عرق» من الأعراق يشتركون في بعض العوامل الوراثية التي يستعاض عنها في مجموعة «عرقية» أخرى بعوامل مباينة لها، ويتعايش النطان من النطقات عند الهجناء.

وكما كان متوقعا، فإن التعرف على العروق تم في البداية انطلاقا من معايير ظاهرة، ثم اعتبر شيئا فشيئا مظاهر واقعية أعمق. على أن الخواص الخارجية والظواهر الباطنة ليست منفصلة انفصالا مطلقا.

فاذا ما كانت بعض النطقات تتحكم في الأجهزة الوراثية المنظمة للون البشرة فهذا اللون مرتبط أيضا بالمحيط، ولوحظ ترابط إيجابي بين القامة وأقوى حرارة في أحرّ شهر، وترابط سلبي بين القامة والرطوبة. وكذلك فإن الأنف الضيق يعمل على اسخان الهواء بكيفية أحسن في مناخ أبرد، ويندي الهواء الجاف المستنشق. وهكذا تزداد الإشارة الانفية عند الأهالي جنوبي الصحراء، من البيداء إلى الغابة مروراً بالسهب ومع أن عدد الغدد المفرزة للعرق عند الزنج هو نفسه عند البيض، فإن الزنج يعرقون أكثر، مما يبق جسمهم وجلدهم في درجة من الحرارة أقل. فهناك عدة مراحل في البحث العلمي عن العروق.

## التهديد الشكلي

يعرف ايكستدت، مثلا، العروق على أنها «مجموعات حيوانية. طبيعية تنتمي أشكالها إلى جنس البشريات، يبدى أفرادها عين التناسق النموذجي في الطباع العادية والموروثة في المستوى الشكلي وفي المستوى السلوكي».

فسجلت مجموعة من الملاحظات والقياسات، من لون البشرة وشكل الشعر أو الجهاز الشعري، إلى الخواص القياسية أو غير القياسية إلى التقوس الخلفي الفخذي والكؤيسات والشقوق المرسومة على الأضراس. فتجمع من كل هذا مجموعة مهمة من الملاحظات والقياسات. ووقع الاهتمام خاصة بالإشارة الدماغية لعلاقتها بالجزء من الرأس الذي يحمي الدماغ. وهكذا وضع دكسن الأنواع المختلفة حسب نماذج ثلاثة تبعا لثلاث إشارات مركبة، مع بعضها بكيفية مختلفة: الإشارة الدماغية اللافقية، والإشارة الدماغية الرأسية والإشارة الانفية.

ولكن من بين التأليفات السبع والعشرين الممكنة، قد احتفظ بشمانية فحسب (أكثرها ترددا) على أنها تمثل نماذج أساسية. واعتبرت الثمانية عشر الباقية \* على أنها أخلطة. ولكن الخواص الشكلية ما هي إلا انعكاس منحرف قليلا أو كثيرا من الرصيد التوليدي. وقليلا ما يتم بصفة كاملة تجمعها في نموذج مثالي، وذلك أنها تفاصيل وجزئيات واضحة على حدود الإنسان والبيئة، فهي لذلك ذاتة فطرية أقل منها مكتسبة.

وهذه من أكبر نقائص النظرة الشكلية والنموذجية حيث ينتهي الاستثناء إلى أن يكون له من الأهمية أكثر مما للقاعدة. على أنه من اللازم ألا نتهاون بخصوصيات المدارس حول أساليب القياسات

(كيف ومتى الخ) مما يمنع المقارنات المفيدة. فاحصائيات البعد المتعدد التغير، ومعاملات وجوه الشبه العرقية، واحصائيات «المقاس» و«الشكل» والمسافة المعممة لهنلا نوبيس، كل ذلك مما يرجع الى المعالجة الرتيبة. وهكذا فان الاعراق كيانات بيولوجية واقعية من الواجب فحصها ككل، وليس قطعة قطعة.

## النظرة الديموغرافية أو السكانية

ستؤكد هذه الطريقة من البداية على واقع المجموعات (رصيد توليدي أو «جينوم») وهي أكثر استقرارا من البنية التوليدية الطرفية لافراد. فأيما العرق أكثر من الخواص التي تلاحظ فيه، هوتردد هذه الخواص. وحيث تركت الطريقة الشكلية عمليا (٢) كان من الممكن أن تعرض العناصر المصلية أو التوليدية على قواعد تصنيف أكثر موضوعية. وفي نظر لندمان، العرق «هو مجموعة من الكائنات البشرية يظهر بعضها مع البعض الآخر (فيما عدا قليلا من الاستثناءات) في كثير من التشابه في الخلقة النموذجية، وكذلك غالبا في الطباع الخلقية، مما هو الشأن مع أفراد مجموعات أخرى». ويسبب الكساييف أيضا تصورا ديموغرافيا للاعراق مع مسميات جغرافية محضة (أوربيون، شماليون، أفارقة جنوبيون الخ) وألح سويدكي وبويد على النظامية التوليدية: توزع المجموعات الدموية أ. ب. أ. وتآلفات عامل الزمرة، نقطة الافراز، اللعابي الخ.

ويتعاطى عالم النموذجية الدموية أيضا التشريح، لكن في مستوى الجزئية، فهو يتعاطى الشكلية المجهرية واصفا الخلايا البشرية التي تميزت ببنيتها المانعة وجهازها الخميري، وتكون المادة الأكثر عملية في هذا الشأن متكونة من النسيج الدموي. وهذه المؤشرات الدموية تقفز بنا قفزة كيفية تاريخية في التعرف العلمي على الجموع البشرية، ومزاياها على المعايير الشكلية حاسمة. فأولا تكاد تكون دائما وحيدة القياس أي أن وجودها تابع لنطفة واحدة، أما الإشارة الدماغية مثلا، فهي نتيجة مركب من العوامل التي يعسر استكشافها (٣).

ومن جهة أخرى بينما تترجم المعايير الشكلية بأرقام تستخدم للتصنيف على حدود اعتباطية أو غامضة، مثلا بين الاصلع النموذجي والمستطيل الرأس النموذجي، فان المؤشرات الدموية تخضع هي الى قانون الكل أولا شيء. اما ان نكون (أ) أولا (أ)، زمرة ايجابية أو زمرة سلبية الخ. ثم ان العوامل الدموية تكاد تنفلت تماما عن ضغط البيئة. فالنموذج الدموي يحدد نهائيا منذ تكوين البيضة. ولذا لا تخضع المؤشرات الدموية للاحاساسات الباطنية النموذجية الشكلية. فالفرد يعرف هنا بمجموعة من العوامل التوليدية ومجموع السكان بسلسلة من الترددات النطفية. وتعود دقة هذه العوامل الكبيرة ما لها من طابع جزئي بالنسبة لكتلة النطف في مجموع نطفية (جينوم). وهكذا تم وضع أطلس «للاعراق» التقليدية.

على أنه يظهر ثلاثة أنواع من العوامل الدموية. و يوجد البعض منها مثل نظام أ. ب. أ.، في

(٢) انظر ويرسكي، ١٩٦٥.

(٣) انظر ج. روليه.

كل الأعراق التقليدية بدون استثناء. فقد كانت بدون شك موجودة قبل المرور الى جنس الإنسان. وأما البعض الآخر كعوامل نظام الزمرة فوجود دائما لكن مع بعض التفوق العرقي، فصبغية (ر) توجد خاصة لدى البيض والصبغية رو (RH) المسماة «الصبغية الافريقية» تتردد ترددا كبيرا خاصة عند السود جنوبي الصحراء. ومما لا شك فيه أن ثمة أنماطا ترجع الى الوقت الذي شرعت فيه البشرية في الانتشار في مخبثات بيئية مختلفة. ويظهر نوع آخر من النظم توزيعا عرقيا أوضح. مثلا عوامل ستروهنشا والتي تكاد لا تظهر الا في نطاق السود. وعامل كل الموجود خاصة عن البيض ولو ان هذه العلامات ليست دائما خاصة تماما، فانها وصفت بعبارة «المؤشرات العرقية» وأخيرا ان بعض العوامل محددة تحديدا جغرافيا كبيرا مثلا الخضاب (ج) عند أهالي النجد الفولطاني.

ورغم كون العوامل الدموية عديمة القيمة التلاؤمية، فهي لا تنجو تماما من عمل الوسط المعدي أو الطفيلي الذي قد يحث غرزا بين العوامل الدموية التي لها قيمة انتقائية، فينتج عن ذلك مثلا وجود خضاب مميز كخضاب S المقترن بوجود خلايا منجلية الشكل من بين الكريات الحمر. ولقد اكتشفت في دم السود في افريقيا وآسيا، وهي خطيرة بالنسبة لواقع الدم فحسب، والخضاب هـ. ب. س. (H b s) هو عنصر موامة لحضور (البلسموديوم الفلسياروم) المتسبب في حمى المستنقعات. ان دراسة نماذج الدم في مساحات فسيحة تمكن من رسم منحنيات متماثلة النطف، تجسم للعيان التوزيع الجغلي للعوامل الدموية. وتشترك هذه الدراسة مع حساب الابعاد التوليدية فتعطينا فكرة عن الكيفية التي تقع بها مجموعات السكان احدها بالنسبة للآخرى، أن يمكن اتجاه التدفق التوليدي من تشخيص العملية السابقة لتطورها.

ولكن الطريقة النموذجية الدموية والاسكانية رغم نتائجها الاستثنائية، تعترضها عقبات، أولا لأن الثوابت التي تعتمد عليها مدعوة الى التضاعف بكثرة، فتؤدي هكذا الى نتائج غريبة حتى يراها بعضهم شاذة.

فالشجرة النسالية للسكان التي أقامها ل. ل. كفي - سفرزا تختلف عن الشجرة القياسية الانسية. فعلى هذه يقع «البكمي» (الاقزام) والسان في افريقيا على فرع واحد قياسي إنسي مع سود غينيا الجديدة وأستراليا، بينما على الأولى يقترب «البكمي» (الاقزام) والسان من الفرنسيين والانكليز اقترابا أكبر، ويقترب سود أستراليا أكثر من اليابانيين والصينيين (٤). وبعبارة أخرى الصفات القياسية الانسية، تتأثر بالمناخ أكثر مما تتأثر به النطف، الى حد أن التوافقات الشكلية تتبع البيئات المتشابهة أكثر مما تتبع الوراثة المتشابهة. وبينت أعمال ر. س. لونتين على أساس بحوث العلماء النموذجية الدموية، انه بالنسبة الى العالم كله، أكثر من ٨٥% من قابلية التغير تقع داخل القوميات، و٧% فقط تفصل القوميات المنتمية لعرق تقليدي واحد، و٧% تفصل الاعراق التقليدية. وبصورة عامة فإن الافراد من عين المجموعة العرقية، يختلفون فيما بينهم أكثر من اختلاف «الاعراق» فيما بينها. ولذا يتخذ عدد أكثر فأكثر من العلماء موقفا قطعيا يتمثل في انكار وجود أي عرق فحسب ج.

(٤) ذكره ج. رني، المصدر قبله ص ٣٨٥. وكذلك من جراء التهجين في الولايات المتحدة ان نسبة الخلط الأبيض عند سود أميركا باعتبار بعض الصفات الفصيلة (فصيلة FY من نظام دفي، غتلط RO الخ) قد تكون ٢٥ الى ٣٠% واستنتج بعض العلماء أن هذه مجموعة سرعان ما لقبوها «عرق أمريكي شمالي ملون».

رفي، في بداية البشرية كانت جموع صغيرة من الأفراد موزعة في مناطق بيئية متنوعة متباينة خاضعة لضغوط انتقائية قوية جدا، وكانت الوسائل التقنية ضئيلة، فكان من الممكن أن تتميز إلى حد أنها أدت إلى نسخ مختلفة، منها الإنسان القائم، وإنسان نياندرتال، والإنسان للعائل في بدايته. فمجموع الوجه مثلا، وهو المعرض أكثر من غيره للأوساط المتميزة، يتطور تطورا متباينا، فازدادت ثروة البشرة في الملونات القاتمة في المنطقة المدارية الخ. ولكن هذا الميل إلى التميز قد أوقف بسرعة، بقي في مستوى بسيط.

ويتلاءم الإنسان في كل مكان من حيث الظروف الثقافية (في الملابس والسكن والمأكل الخ) ولكن لا يتلاءم شكليا مع بيئته. فالإنسان المولود في البلاد المدارية ذات المناخ الحار تطور سريعا كإنسان الجنوب وكالإنسان البار وحتى الإنسان القائم، «ففي العهد الجليدي الثاني فقط وبفضل المراقبة الناجعة للنار، اتخذ الإنسان القائم مسكنه في المناخات الباردة، وتحول الجنس البشري من النموذجية المتعددة إلى النموذجية الوحيدة، وبدأت عملية نزح العرقية هذه بلا رجعة. وينبغي أن تعتبر البشرية جمعاء اليوم، كمجتمع واحد لنطف متداخلة في ما بينها (٥).

وفي عام ١٩٥٢ نشر ليفنجستون مقالة الشهر «في عدم وجود الأعراق البشرية» فامام الشعب العظيم للمسألة وكذلك أمام ضعف المعايير المحتفظ بها لوصف الأعراق، يوصي ليفنجستون بالتخلي عن نظام العالم لبني في التصنيف، ويوحى باستعمال «شجرة النسب» في المناطق الغير المنعزلة فإن تردد بعض الصفات أو بعض الفصائل يتطور تدريجيا في اتجاهات متنوعة، وتكون الفروق بين مجموعتين من السكان مناسبة لبعدهما الطبيعي، طبقا لضرب من الانخفاض الجغرافي (مالم)، وإذا ما قورن كل وصف يميز بعوامل الانتقاء والملاءمة التي تكون قد ساعدت عليه، تسجل ترددات ترتبط أكثر فيما يبدو بعوامل تقنية وثقافية وغيرها، ولا تنطبق البتة على خريطة «الأعراق» (٦). وبحسب المعيار المختار (لون البشرة والاشارة الدماغية، والاشارة الانفية، والطباع النطفية الخ) نحصل كل مرة على خرائط متباينة. ولذا يستنتج عدد من العلماء ان «كل نظرية للأعراق غير كافية هي أسطورة».

«ان التقدمات الأخيرة في الموراثيات البشرية أصبحت اليوم في وضع جعل كل البيولوجيين يرفضون وجود أعراق في الجنس البشري» (٧) ومن الوجهة البيولوجية ان لون البشرة عنصر تافه بالنسبة إلى جملة النطف (الجنوم). ويرى بنتلاي كلاص أن لا وجود لأكثر من ستة أزواج من النطفيات يخالف بها العرق الأبيض العرق الأسود. وكثيرا ما يختلف الأبيض فيما بينهم وكذلك السود فيما بينهم بعدد كبير من النطفيات ولذا صرحت اليونسكو، بعد أن جمعت ندوة من الاختصاصيين الدوليين أن «العرق ظاهرة بيولوجية أقل مما هو أسطورة اجتماعية» (٨) وفي ذلك من الصحة ما جعل الياباني في أفريقيا الجنوبية «أبيض شرقيا» والصيني يعتبر «ملونا».

(٥) مايو، رواه ج. رفي، المصدر المذكور ص ١١٥.

(٦) انظر منتاجو «مفهوم العرق».

(٧) ج. روفي، المصدر المذكور ص ١١٦.

(٨) أربعة تصريحات حول المشكلة العرقية، اليونسكو، باريس، ١٩٦٩.

وفي نظر هيرنود، الجنس البشري يشابه شبكة من الأراضي الوراثية، وفي «الجنومات» الجماعية التي تكون سكاننا يتشابهون كثيرا أو قليلا، ويعبر عن بعدهم الكيفي بتقدير كمي (علم قوانين للتصنيف العددية) وحدود هذه الأراضي انطلاقا من الانخفاض الممالي تتأرجح مع كل التغيرات التي تبقى صداها في الظواهر (الطبائع الوراثية) والمعطيات المصلية (الأمثلة الخلقية) للمجموعات. وطبقا لما كان لداروين من حدس عبثي يكون في الجملة عملا يتحرك، يتبع، ان صح القول، حركية المواقع، وتكون الشعوب، هجاء تم تهجنهم أو هم بصدد التهجن. ويحل كل لقاء بين شعوب في الواقع كهجرة فضيلية، ويعمل هذا التدفق النطفي على إعادة النظر في الرصيد البيولوجي لدى الفريقين المتقابلين.

ولكن وان كانت هذه النظرة أكثر علمية، وان كانت هذه الأراضي الوراثية الماثجة تعترف بها المجموعات المعنية، فهل سيلغى من جراء ذلك الشعور بالتوذج «العرقى»، اذ هو يحتفظ بأساس مادي مرئي ملموس في شكل الظواهر الوراثية.

ومنذ أن أكد واضعو النظرية النازية، ابتداء من هتلر، ومن بعدهم من المفكرين المزعومين، أن بين الآري «بروميثيوس الجنس البشري» وبين الأسود «الذي هو حسب أصله نصف قرد» يوجد انسان البحر الابيض المتوسط المعبر واسطة، ولم تمت الاسطورة العرقية. واستمر علماء المورفولوجيا المتعددون على تأجيج هذه النار الفظيعة ببعض الأغصان الميتة (٩) وكان ليبي يقسم الجنس البشري الى ستة أعراق: الاميركي والاوربي والافريقي والآسيوي والمتوحش والشاذ، وبلا شك ان العنصرين يحلون في أحد الصنفين الآخرين.

ولنحتفظ من كل هذه النظريات، قضايا وفرضيات، بطابع الحركية للظواهر «العرقية» من كون هذه الحركية بطيئة كثيفة تعمل على عدة سجلات، فلون البشرة ولوقيس بواسطة المستضوي الطيفي الكهربائي - وكذلك شكل الأنف، ليسا سوى ظاهرة تافهة أو تكاد. وفي هذه الحركية يجب الاحتفاظ بمركبتين متداخلتين، التراث الوراثي ويمكن أن يعتبر مصرفا عظيما للمعطيات البيولوجية حال عملها، والبيئة بالمعنى الاعم اذ هي تبتدىء في الوسط الجنيني.

وما يطرأ من التغيرات من جراء العمل المشترك هذين العاملين الاساسيين، يتم اما في شكل غير مراقب من الانتقاء وهجرة النطفة (تهجن)، واما في شكل خطير من الانحراف النطفي أو التحول. وبالاختصار هذا هو كل تاريخ مجموعة سكانية تفسر ملمحها «العرقى» الحالي، بما في ذلك، عن وساطة التمثيلات الجماعية والأديان والانماط الغذائية واللباسية وغيرها.

وفي هذا السياق ماذا يمكن أن يقال في الوضع العرقي بالقارة الافريقية؟ يصير التحليل التاريخي صعبا في هذا المجال من جراء صعوبة الاحتفاظ بالمتحجرات البشرية بموجب الرطوبة

(٩) يذكر ج. ر. في معجما فرنسيا للطب والبيولوجيا يبتى سنة ١٩٧٢ مفهوم الاعراق التي توجد منها ثلاثة جموع أساسية (الببيض والبيد والصفير) تعتمد على معايير تشكيلة وتشريحية الخ. وكذلك نفسانية.

في بداية القرن كتب سينيبويس في مؤلفه «تاريخ الحضارة» ان الرجال المعمرين للأرض يختلفون أيضا في اللسان والذكاء والاحاسيس. ويمكن هذه الفروق من تقسيم سكان الارض الى جموع عدة تسمى «اعراقا».

وحوضه الأرض، على أنه يمكن أن يقال، خلافا للنظريات الأوروبية المفسرة لعمران إفريقيًا بواسطة هجرات قادمة من آسيا (١٠)، أن سكان هذه القارة في معظمهم من الأهالي.

وأما لون بشرة أقدم سكان القارة في خطوط العرض المدارية، فإن الكثير من المؤلفين يعتقدون أنه كان اداكن (براس ١٩٦٤) إذ إن اللون الأسود نفسه هو مواعمة احتماء ضد الاشعاعات الضارة ولا سيما أشعة ما وراء البنفسجي. وأما لون البشرة الفاتحة وكذلك لون العينين لدى شعوب الشمال، فقد يكونان طابعين ثانويين ولدهما التحول أو الضغط الانتقائي (كول ١٩٦٥).

واليوم، ودون أن نتمكن من رسم حدّ خطي بين المجموعات «العرقية»، فإنه يمكن أن نقف على مجموعتين كبيرتين منها من جهتي الصحراء. في الشمال المجموعة العربية البربرية ويغذيها تراث وراثي من «البحر الأبيض المتوسط» (البيون، ساميون، فينيقيون، آشوريون، يونان، رومان، أثراك الخ) وفي الجنوب مجموعة زنجية. ولنلاحظ أن التذبذبات المناخية التي عمت أحيانا الصحراء، قد أنشأت الكثير من الامتزاجات خلال آلاف السنين.

وانطلاقاً من بعض العشرات من المؤشرات الدموية، عرض ناي ماساطوشي وأ. ر. روي كودوري على الدرس، الفروق الوراثية داخل المجموعة الواحدة وبين المجموعات وذلك في المجموعتين القوقازية الشكل والمنغولية الشكل (١١). وحددا معاملات الارتباط ليضبطوا الفترة التقريبية التي انفصلت فيها المجموعتان وتكونتا كل واحدة على حدة. وقد استقلت المجموعة الزنجية الشكل منذ ١٢٠٠٠ سنة، بينما تخصص القوقازيون والمنغوليون منذ ٥٥٠٠٠ سنة فقط. وحسب ج. روفي أن هذا «المخطط» يتفق مع معظم المعطيات من النموذجية الدموية الأساسية (١٢).

ومنذ ذاك طرأت امتزاجات عدة على القارة، وقد وقع السعي في تشخيص المسافات البيولوجية للمجموعات السكنية بفضل التقنية الرياضية للمركبات الرئيسية. حاوّن ذلك أ. جاكوار على سبع وعشرين مجموعة سكنية متوزعة من جهة البحر الأبيض المتوسط الى جنوبي الصحراء، موصوفة بخمسة نظم دموية تمثل ثمانية عشر عاملاً (١٣)، فحصل على ثلاثة جموع رئيسية توزع على أربع تراكيمات، أحدها في الشمال وهم القوقازيون المركبون من أوربيين، والرقيبات، والعرب السعوديين وطوارق كل — كمر.

ويشتمل التراكيم الجنوبي على جموع السود في أغادس. والتراكيم الوسطيان يشتملان على الفلانيين المنعوتين بورورو وطوارق الغير التاسيلي والأثيوبيون الخ، ولكن أيضا الحرافين وقد اعتبروا تقليدياً من السود. وقد يكون اذن من الخطأ أن يظن أن هذا التقسيم تأكيد للقسمة الى أعراق تقليدية إذ يقطع النظر عما قيل أعلاه، فإن ملامح التقسيم تنتج عن كمية المعلومات المحتفظ بها، فإذا كانت هذه المعلومات قليلة، تمكنت جميع النقاط من التجمع.

وفيما يخص الانسان في جنوبي الصحراء، فإنه ينبغي أن نسجل أن تسميته الاصلية عند لتي

(١٠) ان النظرية الحامية (سولينيان وغيره) الناشئة جزئياً عن جهل بعض الأحداث وجزئياً من ارادة تبرير النظام الاستعماري، أشد الاشكال العنصرية لهذه التركيبات التي تدعي العلمانية.

(١١) ناي ماساطوشي وأ. ر. رويكودوري ١٩٧٤، ٢٦، ٤٢١.

(١٢) ج. روفي، المصدر المذكور، ص ٣٩٩.

(١٣) جاكوار، ١٩٧٤، ص ١١ — ١٢٤.

كانت «الانسان الافرى» (الافريقى) ثم وقع الكلام عن الزنج، ثم السود، وأحيانا عن لفظ أوسع بمعنى «زنوج الشكل» ليضم كل من يشابه السود على حدود القارة أو في قارات أخرى. واليوم، رغم بعض الأصوات المعارضة، فإن معظم العلماء يقرون بالوحدة الوراثة الأساسية لشعوب جنوبي الصحراء. فحسب بويد، مؤلف فكرة التصنيف التوليدي للعروق الانسانية، لا يوجد الا مجموعة زنجية الشكل تشمل كل القسم من القارة الكائن جنوبي الصحراء، وتشمل أيضا أثيوبيا، وهو يختلف اختلافا محسوسا عن سائر المجموع.

وأثبتت أعمال ج. هيرنوهذه النظرة بوضوح عجيب ودون أن ينكر التغيرات المحلية الظاهرة، بين هيرنوبالتحليل لقدر ٥٠٥٠ مسافة بين ١٠١ مجموعة من السكان، وحدة الشكل لسكان المدى العظيم الواقع جنوبي الصحراء الذي يشمل «السودانيين» كما يشمل «البنوتو» وأهل الشواطئ والسواحليين، و«الخوازان» والأقزام وأهل النيل والفلايين وغيرهم من «أشباه الأثيوبيين». وبالعكس انه يبين البون الشاسع من الناحية الوراثة بين «السود الآسيويين» والسود الافريقين. ولقد أوضحت التصنيفات أكثر فأكثر الوحدة الأساسية للغات الافريقية حتى في اللسانيات التي لا علاقة لها بالحدث «العرقى»، ولكنها جتدت نفسها ضد النظريات العنصرية لاستنباط سلسلة لغوية تعكس الطبقة «العرقية» المزعومة التي يحتل فيها «الزنوج الحق» الدرجة السفلى من السلم. والتغيرات الجسدية تفسر علميا بأسباب التغيرات التي ذكرت أعلاه، وخاصة البيوطوبات (المدى الجغرافي) التي تشير أحيانا التراكمات السكنية المتنوعة (وادي النيل)، وأحيانا الجماعات المتوحدة من الشعوب المظهرة قليلا أو كثيرا لخصائص لا نموذجية (جبال، غابات، مروج، الخ). وفي النهاية أن التاريخ يفسر بعض الشواذات الأخرى بواسطة الغزوات أو الهجرات، ولا سيما في المناطق الحدودية. فالتأثير البيولوجي للشبه في الجزيرة العربية على القرن الافريقى يشعر به على شعوب هذه الجهة: الصومال والقالا والأثيوبيين، ولكن أيضا بدون شك بشعوبه التوبو والفلايين والتوكولور والسنغاي والهوسا الخ... واتفق أن شاهدنا من المراكا (فولطا العليا) من له ملامح «السامي» المتميزة جدا.

وخلاصة القول، أن التنوع العجيب في الطبايع الوراثة الافريقية، يشير الى تطور طويل المدى في هذه القارة. وما لدينا من بقايا متحجرة مما قبل التاريخ يبين انتشارا واسعا جدا لنموذج جنوبي الصحراء، من افريقيا الجنوبية حتى شمال الصحراء، وكان لمنطقة السودان دور مفترق الطرق بالنسبة الى هذا التفشي.

نعم ان تاريخ افريقيا ليس تاريخ «أعرق» ولكنه قد أسرف كثيرا في استعمال الاسطورة العلمية المزعومة القائلة بتفوق بعض «الاعراق» لتبرير نوع من التاريخ. وحتى اليوم ان الهجين مازال يعتبر أبيض في البرازيل وأسود في الولايات المتحدة. وعلم الانثروبولوجيا، وقد برهن أن لا علاقة بين العرق وبين درجة الذكاء، يلاحظ بالعكس أن هذا الترابط موجود أحيانا بين العرق والطبقة الاجتماعية.

ومن الأمور الواضحة منذ ظهور الانسان على هذا الكوكب أن الثقافة كان لها عبر التاريخ قصب السبق على البيولوجيا. فتي يفرض هذا المبدأ نفسه على الأذهان؟



## معجم المصطلحات

البيولوجية فهوثير مشاكل اجتماعية.	مختلط: (أو مدغوش) نسخة من الجينة.
انحراف وراثي: اضطراب التراث الوراثي في مجموع بشري محدود	انتقاء: توليد مفرق للطرازات العرقية من جيل لآخر.
منعزل، من جراء حادث تسبب في انحطاط التردد أو في	هجرة جينية: انتقال الأفراد المولدين لمجموعتهم السكنية
اضمحلال نسبة جينية.	الاصيلة، الى مجموعة متبناة (تهجين)، والتهجين الذي يعتبره
تغيير إحيائي: ظهور تغير موصوف وراثي من جراء التبدل في	العنصر يون انحطاطا للعرق الاعلى، هو بالعكس هنا التراء
جينة أو عدة جينات.	للمجتمع البشري للجينات، ومع كونه ايجابي من الوجهة

**تعليق:** أجريت هذه الدراسات في اطار الاعداد لمشروع التاريخ العام لافريقيا بطلب من اليونسكو:

- ج. هيرنو: تقرير عن مفهوم العرق، باريس، ١٩٧٤.
- ج. ب. ريتيم، شروح عن تاريخ العرق والعرمان البشري في افريقيا، نيويورك، ١٩٧٤.
- أ. ستروهاال، مشاكل الدراسة للاعراق البشرية، براغ، ١٩٧٦.



## الفصل الحادي عشر

# الهجرات والاختلافات السلوكية واللغوية

د. أولدروج

اعتقد المؤرخون طويلا أن الشعوب الافريقية لم تحدث تاريخا مستقلا في اطار متطور متميز. فكل ما كان يمثل مكسبا ثقافيا كان يبدو واردا اليهم من الخارج، أثبت به موجات من الهجرات من آسيا. وانتشرت هذه النظريات في عدد عديد من المؤلفات الاوربية في القرن التاسع عشر. وتعددت وتبلورت في شكل مذهب لعلماء من الألمان (من علماء خصائص الشعوب أو اللسانيين) في العشريات الاولى من القرن التاسع عشر. وكانت المانيا في ذلك العصر مركزا رئيسيا للدراسات الافريقية.

وبعد اقتسام القارة الافريقية من قبل السلطات الامبريالية، وجد في انكلترا وفرنسا ومانيا عدد كبير من المؤلفات عن عادات الشعوب المستعمرة، ولكنه في المانيا على الخصوص جرى الانتباه الى أهمية الدراسة العلمية للغات الافريقية. فند ١٩٠٧ انشئ في هيمبورغ، المعهد الاستعماري المعد لان يكون فيما بعد مركزا عظيما أعدت فيه أجل الأعمال النظرية للمدرسة الالمانية عن الدراسات الافريقية. وفي هذا الشأن كانت المانيا متقدمة جدا عن سائر البلدان الاستعمارية، فسنه ١٩١٦ فقط شرع في تدريس اللغات الافريقية في انكلترا، بمدرسة الدراسات الشرقية، بينما كانت مدرسة اللغات الحية الشرقية في فرنسا في ذلك العهد لا تخصص اي جزء من مناهجها لهذه المسألة. ويجب ان ننظر إلى سنة ١٩٤٧ لتنشأ مدرسة للدراسات الشرقية في لندن وهي مدرسة اللغات الشرقية والافريقية. وبعد ذلك بقليل، شرع أيضا في فرنسا في تدريس اللغات الافريقية تدريسا منتظما.

## نظريات المدرسة الألمانية والاكتشافات الحديثة

وهكذا، حتى قبيل الحرب العالمية الأولى، كانت لألمانيا الزعامة في تدريس التاريخ والانتوغرافيا واللغات الأفريقية، وكانت آراء علماء الألمان تظهر خلال المؤلفات المنشورة بانكلترا أو فرنسا أو بلجيكا. لذا كان علماء الانتوغرافيا في أوروبا الغربية يؤكدون في بداية القرن العشرين، أن الشعوب الأفريقية لا تاريخ لها. وبناء على ذلك استنبط علماء اللسانيات النظرية الحامية القائلة بأن تطور الحضارة في إفريقيا إنما تم بتأثير الحاميين الواردين من آسيا ونلاحظ هنا أثر آراء هيجل الذي كان يقسم العالم إلى «شعوب تاريخية» وإلى «شعوب لا تاريخية»، وكان الأولون هم محررو الرقي البشري، بينما كانت سلبية الآخرين تجعلهم في موقع هامشي بالنسبة للتطور الفكري العالمي. فحسب هيجل، فأننا لا نستطيع أن نكتشف أي تطور تاريخي واقع في إفريقيا الحق، وفي رأيه أن الشريط الشمالي من القارة قد يلحق بالمصير الأوروبي. وقرطاج كمستعمرة فينيقية، ما هي إلا زائدة ملحقه بآسيا، بينما تصبح مصر غريبة عن الفكر الإفريقي.

وقد اضطغت معظم البحوث العلمية الخاصة في إفريقيا خلال القرن التاسع عشر بآراء هيجل، والأمرو واضح في أول محاولة لرسم لوحة عن التاريخ الإفريقي بقلم ه. شورتس. فيشبه هذا المؤلف تاريخ الأعراق الأوروبية بالنشاط الذي يتسم به يوم مشرق مضيء، بينما قد يشبه تاريخ إفريقيا سباتا عميقا لا يكشف بعده شيء عند اليقظة.

وهكذا في نظرهيجل، نور الفكر قد اشع من آسيا حيث يرى أن التاريخ قد بدأ منها، وكان العلماء الأوروبيون يعتقدون أن لا شك في كون آسيا، مهد البشرية، قد كانت نبت الشعوب التي زحفت على أوروبا وإفريقيا. ولذا كان يبدو من الواضح للعالم بالانتوغرافيا الانكليزي ستوان جماعة السان وهم من أقدم المجموعات البشرية في إفريقيا قد جاؤوا من آسيا على فريقيين متميزين: جماعة سان الرسامين، وجماعة سان النقاشين، فسلخوا مسلكين مختلفين لعبور البحر الأحمر بمضيق باب المندب، وبعد أن قطعوا الغابات الاستوائية، التقوا من جديد على حدود إفريقيا الجنوبية. واننا لنجد في مؤلفات ف. ستولمان الجغرافي والرحالة الألماني صورة مدققة عن موجات الهجرات وعن مختلف المراحل التي مر بها عمران القارة الإفريقية بالسكان. ويعرض المؤلف في كتابه النظريات التي قدمتها المدرسة الألمانية للتوجيه التاريخي الثقافي. فعند مفصل القرنين التاسع عشر والعشرين، قامت حلة عنيفة ضد المذهب التطوري الذي يكون الأساس النظري لأعمال ر. تايلور ول. هـ. مورغان ولبوك الخ. فكان علماء المدرسة التوجيهية التاريخية الثقافية يرفضون قبول فكرة التطور المنتظم الشامل لجملة البشرية. بل اتخذوا موقفا مقابلا لهذه النظرية، وصرحوا بوجود دوائر متميزة للحضارة، يمكن التعرف عليها بواسطة معايير ملائمة تتعلق خاصة بالثقافات المادية.

وفي نظر هؤلاء المؤلفين فإن بث المكاسب الثقافية قد يتم خاصة عن طريق الهجرات. وكان العالم الألماني ليوفرو بينيوس هو أول من صرح بهذا الرأي، ثم جاء دور أنكرمان الذي يصف انتشار دوائر الحضارة عبر إفريقيا. ولكننا إنما نجد عرضا مفصلا لهذا العمل في كتب ستولمان. ففي رأيه أن شعوب الأقزام يكمي وسان — هي المكونة لل عمران السكاني الأهلي الأقدم في إفريقيا، وتكاد هذه

الجموع لا تملك اي عنصر ثقافي. ثم اقبل الزوج ذوو البشرة الدكناء والشعر الجعد، آتين موجات مهاجرين من اعماق الجنوب الشرقي الاسيوي. وانتشر هؤلاء الزوج خلال السهوب السودانية، وتوغلوا في الغابة الاستوائية مدخلين معهم فلاحه بسيطة وغرس الموز والفلقاس، واستعمال الآلات الخشبية والقوس والسهام والبيوت المدورة او المربعة. وكانت هذه الشعوب تتكلم لغات متقطعة. ثم تبعهم اول الحاميين من اصل آسيوي أيضا لكن من مناطق تقع شمالي المهد الاصلي للزوج وكان هؤلاء الفلاحين الجدد يتكلمون لغات. ولعلمهم علموا الاهالي الفلاحه بالمساحة وزراعة الذرة وغيرها من الحبوب وتربية الماشية الصغيرة ذات القرون الخ. وقد يكون تهجين الحاميين الاولين بالزوج ولد شعوب البانتو. ثم جاءت زحافات الحاميين ذوي البشرة المفتوحة وقد تمت إما عن طريق برزخ السويس، واما عن طريق مضيق باب المندب. وقد تكون هذه الشعوب هي اجداد الفلانيين والماساي والباري والكلال والصومال والخيوي خوي. وقد يكونون ادخلوا عناصر جديدة ثقافية مثل المواشي الكبيرة ذات القرون، والرمح ومختلف الاستعمالات الجلد، والترس الخ. ويجعل ستولمان البلاد الاصل للحاميين ذوي البشرة المفتوحة في سهوب آسيا الغربية، وفي نظره تكون موجة الهجرة التالية اتت بالساميين الذين يكونون قد اسسوا الحضارة في مصر القديمة، وأتوا بزراعة الحبوب وباستخدام المحراث وباستعمال البرونز. ثم اتى دور الهكسوس واليهود القادمين الى مصر ودور الحبشات والمهري النازحين الى هضاب اثيوبيا. وآخر من قدم مصر العرب في القرن السابع. وعند دخول هذه الشعوب القارة ادخلوا اليها عناصر جديدة من الحضارة لم تكن البتة معروفة عند اهالي البلاد السابقين. وظهر كتاب ستولمان سنة ١٩١٠ في هيمبورغ، قبيل الحرب العالمية الاولى، ولكن آراءه فيما يخص البناء التدريجي للحضارة الافريقية بفضل اعراق اجنبية قد كررها وطورها فيما بعد علماء اتنوغرافيا آخرون: سبانوس ولوشان في المانيا، وسليغمان في انكلترا وهونيا في النمسا الخ.

وطبقا لنظريات المدرسة التاريخية الثقافية، فاننا نشاهد في اللسانيات ظهور جملة من النظريات توصف بأنها المذهب الحامي. فيرى س. ماينهوف، وهو باعثها، ان اجداد السان كانوا أقدم شعب أهلي في افريقيا. فكانوا يمثلون عرقا متميزا تماما، و يتكلمون لغات ذات تنغم خاص. واما الزوج فكانوا يعتبرون من اهالي المنطقة المدارية والسودانية، وكانوا يتكلمون لغات متقطعة ذات اصوات وجذور وحيدة المقطع ثم تظهر الشعوب من العرق الحامي الواردة من جزيرة العرب الى السودان مرورا بافريقيا الشمالية، وهي تتكلم لغات اعرابية وتتعاطي تربية المواشي، وهم في نظره ثقافيا من درجة اعلى من الزوج، على ان جزءا من الزحف الحامي امتد على سهوب افريقيا الشرقية واختلط بالاهالي في تهجين أدى الى الشعوب الناطقة بالبانتو. وبصورة عامة يمكن اختصار هذا التطور التصاعدي في صورة شريط ذي اربع لقطات، في البداية اللغات ذات تنغم خاص، ثم اللغات المتقطعة البسيطة جدا التي يتكلم بها الزوج السودانيون.

وعند الاختلاط باللغات الحامية ظهرت اللغات البانتو الملتصقة وهي لغة الإشراف. واخيرا اتت لغات الفاتحين الحاميين لغات ذات إعراب وهي من مستوى عال جدا. وقد انتصر عدد كبير من العلماء للنظرية الحامية التي فرضت نفسها انطلاقا من المانيا مرورا باوروبا الغربية جمعاء وبما وراءها.

على ان هذه النظرية انهارت فيما بين الحربين العالميتين، واكتشاف الانسان الجنوبي القديم سنة

١٩٢٤ بمقاطعة الكاب كان باعثا على وجوب اعادة النظر فيها، وتبع ذلك اكتشافات اخرى، وهي مستمرة دائما في شمال افريقيا وفي جنوبها ولكن بصفة خاصة في الشرق، في طانزانيا وكينيا واثيوبيا. فتثبت كل هذه الوثائق بصفة قطعية لاشك فيها ان تطور الانسان وكل النماذج العرقية وقع داخل هذه القارة نفسها منذ الاصول. واكتسحت بذلك ذاته نظرية الموجات الهجرية الواردة من الخارج. وكما يصرح بذلك حقا العالم الباليونتولوجي الشهير س. أرمبرج، ان افريقيا هي القارة الوحيدة التي يوجد فيها، في خط تطور غير منقطع، كل مراحل التطور البشري. فالانسان القديم الجنوبي وانسان جاوة والنياندرتالي والانسان العاقل تتعاقب فيها مع الوسائل الملائمة، منذ العصور الخالية حتى العصر الحجري الجديد. وهكذا تتأكد فكرة داروين الذي كان يضع اصل الانساق الاول في افريقيا. ثم ان هذه الاكتشافات قد اتت بالحجة الملموسة على أنه من المشين أن ننكر لافريقيا تطورا ثقافيا داخليا. وفي هذا الشأن فان الرسوم والنقوش الصخرية في الاطلس وفي افريقيا الجنوبية وفي الصحراء، تقدم لنا عن ذلك شهادة ساطعة لها أهمية قصوى.

واما قدم البقايا الاثرية فلا شك فيه منذ ان شغفت اليوم التاريخية النسبية المرتبطة بصناعة الاشياء وموقعها داخل الطبقات، بتأريخ مطلق يركز على طرق توقيتية علمية كطريقة الفحم ١٤ والبوتاسيوم - أرغون. فتغير بذلك جدول التطور الثقافي للشعوب الافريقية وقلب ظهرها على عقب. وقد لوحظ مثلا في خطوط العرض الصحراوية والساحلية، ان العصر الحجري الحديث يرجع الى فترة اقدم من التي كانت تظن، وهذا مما قبل جدول التطور الافريقي بالنسبة الى عالم البحر الابيض، وبالخصوص الشرق الاوسط.

وما اكتشف من البقايا في تاسيلي ناجر كما في تادراكت اكاكوس على حدود الجزائر وليبيا قاطع حاسم: ففحص المواد وشظايا الحرف فيها يدل على ان الفخار كان مستعملا منذ ٨٠٠٠ عام، وفي اكاكوس يحمل هيكل لشخص من نوع الزنجي الشكل وقع الكشف عنه، آثار ثياب من جلد، ولما درست هذه المواد، اعتبرت من تاريخ يرجع الى ٩٠٠٠ عام، وكذلك ان البقايا التي عثر عليها في الهكار والتي وقع تحليلها بثلاثة مختبرات مختلفة، كشفت كلها عن سن مشابهة. وينتج عن ذلك ان العصر الحجري الحديث في تاسيلي ناجر وفي اللايندي يبدو أنه أقدم من مثيلة في المغرب ومعاصرا لنظيره في اوربا الجنوبية وفي برقة (شرقي ليبيا).

واعجب من ذلك ما استنتج من فحص القطع العضوية المجموعة في النوبة السفلى في حقول العصر الحجري الجديد. ويقدر انه في سنة ١٣٠٠٠ ق. م. تقريرا وفي هذه الجهة، كانت تحيي مواسم الحبوب البرية وكانت تهيأ للطعام. فالتحليل بالفحم المشع للبقايا المتحجرة في بلدة بلانا، اعطى تاريخ ١٢٠٥٠ ± ٢٨٠. وعين التجربة وعلى انقاض طوشكي كشفت عن تاريخ ١٢٥٥٠ ± ٤٩٠ مما يدل على أن زراعة النباتات في وادي النيل كانت جارية اربعة آلاف سنة قبل العمل بها في الشرق الأوسط.

وحسب تقليد مستقر، كان كل عرض عن تاريخ افريقيا يبدأ دائما في مصر. واليوم، كل شيء يدل على وجوب اعادة النظر في هذا التقليد.

وقد سمي عالم المصريين الاميركي بريستد جملة البلدان المكونة من مصر وفلسطين وما بين الرافدين باسم «الهلل الخصيب». وذلك ان هذه المنطقة شبه هلالا عظيما ازدهرت في صلبه ومن

اجله الحضارة الفرعونية وحضارات المدن الدول في سومر وأكاد. والواقع ان هذا العمل لم يشرع فيه الا حوالي ٥٠٠٠ او ٦٠٠٠ قبل الميلاد.

هذا بينما قبل ذلك بكثير كانت الظروف المناخية من وادي الهندوس الى المحيط الاطلسي ملائمة لانتشار تربية الماشية وللزراعة البدائية، اي كل مامن شأنه ان يكون مجتمعا تشاهد فيه اولى خطوط الطبقات والدولة.

وهكذا فان «الهلل الحصب» لا يمثل سوى النهاية والشاهد لمجال فسيح مفعم بالحياة، اخذ الناس يستأنسون فيه بالحبوب البرية وشرعوا في جعلها اهلية في آن واحد مع الدواب الضخمة، من البقر الى الماعز. و يشهد على هذا التطور العظيم ما تعبر عنه الرسوم والنقوش الصخرية بالصحراء، وما يبدنا به الفحم المشع وتحليل غبار الطلع المتحجر من ارشادات الخ. ومن الممكن ان تصلح بعض الخطوط التوقيتية بفضل التدقيقات الواردة فيما بعد، ولكن الصورة المقدمة حتى الآن فيما يخص العمران في العالم القديم، قد تجاوزتها الأحداث على الإطلاق، وعوضا عنه فلا بد ان يعترف لافريقيا بدورها كقطب لانتشار الناس والتقنيات في أقدم العصور من التاريخ البشري (اول عصر الحجارة القديم). وفيما بعد قد لوحظت تيارات للهجرات المعاكسة اي رحلات العودة الى القارة الافريقية.

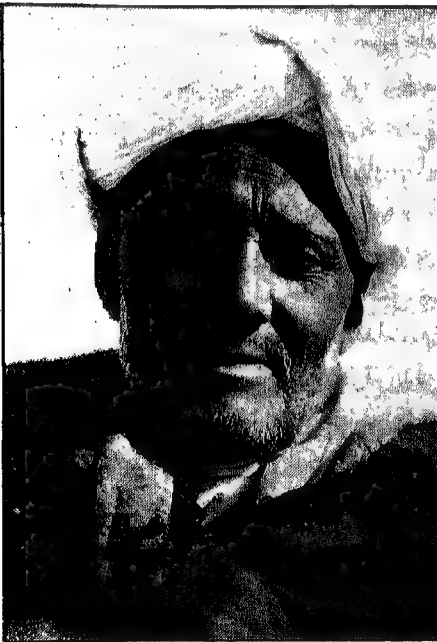
## مشاكل انتروبولوجية ولسانية

تمدنا الاشارات الأنتروبولوجية بصورة عامة بعلامات اثبت واشد استقرارا من أحداث اللغة التي تخضع لتغيرات سريعة أحيانا في ظرف بضعة أجيال، مثلا اذا هاجر شعب الى وسط لساني جديد، أو كذلك في حالة الغزو اذا ما كان الفاتحون يتكلمون لهجة تخالف لهجة الاهالي.

ومثل الاستيطان الزنجي في اميركا الشمالية له دلالة في هذا الشأن: حين حل هذا المجتمع البشري بمناخ وفي وسط جغرافي يخالفان ما كان سائدا في قارته الاصلية، فقد احتفظ عمليا بنموذجه الانتروبولوجي (الاصيل كاملا) بينما هوفيا يحنس اللغة او الحضارة لا يختلف في شيء عن السكان الببيض في الولايات المتحدة ولا تبقى عناصر الثقافة الافريقية القديمة الا في المجالات الثقافية والروحية: الموسيقى والرقص والمعتقدات. ويجدر ان نشير الى وضع مقابل لهذا هو وضع مجموعة قليلة العدد جدا نعني السيدي احفاد الافارقة الذين نقلوا من الساحل الشرقي الافريقي الى الهند منذ بضعة قرون. فقد كانوا في بداية القرن التاسع عشر يتكلمون لغتهم الاصلية، ولكنهم اليوم يتكلمون لغات الشعوب الهندية المحيطة بهم، الكوجاراتي، الاردو الخ. ولم يحتفظوا من آثار تعكس نسبتهم الافريقية الا بملاحمهم الطبيعية.

في كلتا الحالتين اذن، فإن الافارقة الذين فارقوا موطنهم قد غيروا لغتهم في فترة قصيرة من الوقت، احيانا في ظرف جيل او جيلين.

ويجدر ايضا ان نذكر اللغات التي يتكلمها اهالي افريقيا الشمالية. فبعد الفتح العربي لبلاد المغرب، وخاصة بعد اندماج «القبائل» العربية في القرن الحادي عشر، صارت شعوب افريقيا الشمالية كلها ثقافيا، عربا من حيث اللغة ومن حيث الحضارة، ولم تبق اللهجات القديمة الا في بعض الجهات من المغرب الاقصى وبلاد القبائل بالجزائر، وفي جبل نفوسة وفي الواحات. وحسب



- (١) امرأة هاراتينية من ايدليس في الجزائر (تصويراً. أ. أ. نود).
- (٢) رجل من شمال أفريقيا، المغرب، (تصوير هوا - كوي، ريشيه).
- (٣) امرأة جزائرية وطفلها (تصويراً. أ. أ. أ.، جيهانت).



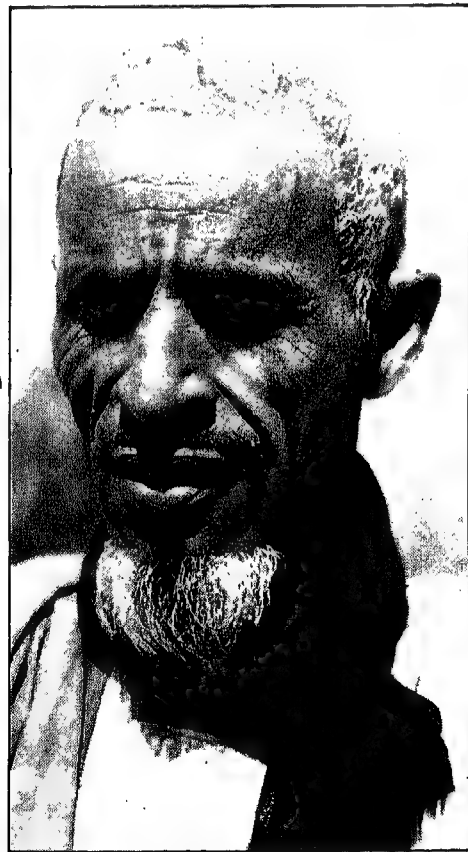
علماء الانثروبولوجيا فإن الملامح الاساسية التي كانت للانموذج القديم الطبيعي مازالت باقية. فالعناصر الانثروبولوجية اذن، في جملتها، ما لم تؤثر البيئة الحيوية على الجسم، أكثر استقرارا من المعطيات التي تمدنا بها اللغة والحضارة. وما لدينا اليوم من الاحداث، يمكننا من التصريح بان توزيع النماذج العرقية المعاصرة في القارة الافريقية، يعيد في اهم الامور، الخريطة القديمة للجموع الكبيرة الانثروبولوجية الموصوفة احيانا في عجلة بـ «الاعراق». فختلف النماذج من «عرق» البحر الابيض المتوسط، كانت ممثلة في افر يقيا الشمالية منذ عهد بعيد جدا، وفي الشرق كانت تسكن شعوب من الانموذج الاثيوبي الشكل وهذا ما تؤيده اكتشافات علماء الانثروبولوجيا في الكينيا. وأما القطاع الجنوبي من القارة فكانت تشغله جموع سان.

وكانت الغابة المدارية والاستوائية تمتد قديما على مساحة افصح بكثير، ومن المحتمل ان يكون هناك تغيير جمع طريف، هوجع الاقزام، وسماهم مدنة بالكثير للرطوبة الكبيرة والى انعدام يكما. يكون تاما للاضاءة في الغابة. و «العرق» الزنجي من الانموذج المعروف بالسوداني والكنغولي قد يكون قد تميز في خطوط العرض المدارية ولا سيما في افر يقيا الغربية. وفي هذا الموضوع ليس لدينا عدد كبير من المتحجرات الممتحنة المؤرخة كما ينبغي، وذلك بدون شك من جراء التحلل الكيماوي التابع لحموضة التربات. ومع ذلك فبعد انسان اسلار، اكتشفت في الصحراء وفي نيجيريا الجنوبية هياكل عظمية من انموذج زنجي الشكل، تعود الى فترات مختلفة وأحيانا قديمة جدا. وهي فيما يبدو، تشير الى أن هذه المنطقة بؤرة أصلية لهذا الانموذج البشري.

وثارت جدالات قوية حول مشكل الاستيطان الاصلي بالصحراء، ولكن دراسة الفن الجداري لا تبقي اي شك في هذا الموضوع. ان الاستيطان البشري الاسود كان سائدا في هذا القطاع، وهولا يمنعنا ان نجد منذ عهد بعيد في هذه الجهات نماذج بشرية أخرى، هي مجموعات ملامح وجهها افريقية متوسطة (نسبة البحر الابيض المتوسط). وفي مصر، في الوثائق وعلى معالم الامبراطورية القديمة، يشار الى الليبيين تامهو ذوي البشرة المفتوحة والعيون الزرق، ولكن تذكر ايضا شعوب تنو ذات بشرة أقم. وفي المصادر اليونانية ايضا نجد إحالات خاصة باثيوبيين ذوي بشرة مفتوحة، ولكن كذلك احالة اخرى خاصة باثيوبيين جنوبيين لهم بشرة اذكن، فيبدو حينئذ ان السكان الاصليين في ليبيا كانوا خليطا. و يصرح كاتب لا تيني مثلا: «شبه البعض من الليبيين الاثيوبيين والبعض الآخرهم من أهل جزيرة إقريطش (١)».

ويبدو ان التركيب العرقي لعمران وادي النيل كان متشعبا، ان شعوب هذه الجهة فروا من جفاف الصحراء فانزروا الى رطوبة الوادي. واختلطت مجموعات «اثيوبية» وافارقة متوسطيون بالسود من الانموذج السوداني. ولا بد ان امتزاجات من هذا القبيل قد تمت للأسباب ذاتها في الاحواض النهرية — البحرية الملاصقة لصحراء السنغال الادنى والنيجر الأوسط والتشاد.

وان صبح ما اشير اليه اعلاه من كون الملامح انثروبولوجية تتمتع بثبات عجيب احيانا الى حد عدة آلاف من السنين، فليس من المنوع ان نستكمل في ما قبل التاريخ بعض الصفات الرئيسية للشبكة العرقية الحالية، وعلى كل ان عملية تكوين «الاعراق» هي حاصلة تفاعل بين عوامل



- (١) رجل من سكان الثولنا (تصوير  
أ. أ. أ.، نود).
- (٢) امرأة من شعب الـ  
«سارا كولية»، موريتانيا، منطقة النهر،  
جماعة سونينكية، (تصوير ب. نانتيه).
- (٣) رئيس عشيرة رخل من الركيزي في  
موريتانيا (تصوير ب. نانتيه).

متعددة تخصص شيئا فشيئا الملامح الموروثة، ولكنها أيضا تنقل بالوراثة الملامح المتميزة. وكانت هاته الملامح تخصص اساسا بموجب ظاهرة الملاءمة للوسط المحيط: أثر الشمس، الحرارة، الغشاء النباتي، درجة الرطوبة الخ. وحسب قاعدة عامة، تضعفها بالطبع استثناءات كثيرة، في نظر علماء الانثروبولوجيا فان افريقي الغابة اقصر قامة وواضح اللون، بينما يكون إنسان السهوب والساحل طويل القامة اذكن اللون. ولكن لا ينبغي ان ينظر الى الامور بطريقة جزئية، اذ ان كل العوامل اتت بفعلها في آن واحد، فهكذا انتقال للمجموعات الحاملة لثرائث وراثية متباينة يكشف في الحال عن مصدرين ممكنين للتحويلات: اولا تغير البيئة الحيوية ثم التقاء مجموعات مختلفة تساعد على امكان تهجنات متنوعة. فاذا ما لوحظ شبه بدني عجيب بين اعراق بعيدة جدا الواحد عن الآخر في المدى، كما بين الدينكا في الصعيد المصري والولوف في السنغال وهم يتشابهون في دكنة البشرة وطول القامة فيبدو ان وجودهم على خط عرض واحد يوفر امكانية مرضية للتفسير. ولكن يجب ان لا نغفل عن تظافر العوامل المستخدمة من حركة التاريخ نفسها (٢).

وفي هذا السياق ان المثل المثير للكثير من الجدل، مثل الاقزام والسان، يجدر ان ينظر فيه بالتفصيل.

وفي القديم كان يظن ان هناك تطابقا عرقيا بين الاقزام في افريقيا واقزام آسيا الجنوبية. و يبدو ان وجهة النظر هذه قد تركت اليوم. فكل يرجح الظن بان ذلك نتيجة مواعمة قديمة جدا بين افمؤذج بدني مع الوسط المحيط، وان هذا العمل قد جرى في فترة طويلة من الانعزال، واليوم نجد الاقزام في غابات الكامرون وفي الكابون وفي المناطق في افريقيا الوسطى، بالزاير ورواندا. ولكنه يظهر من المتحقق ان مجال انتشار الاقزام في القديم كان اكثر امتداد. وفي الماثور المنقول لدى بعض الشعوب من افريقيا الغربية، يروى ان مجموعات من الاقزام كانت تسكن الغابة قبل مجيء الشعوب ذوي القامات الطويلة. نعم ان بعض الخرافات في اوربا الغربية ايضا تذكر اقزاما حدادين استقروا على الجبال. ولكن الماثور المنقول الافريقي لا يبدو وليدا للمخيلة الشعبية فقط، فهو ينطبق من بعض المصادر التاريخية التي تكشف عن وجود الاقزام في مناطق لا وجود لهم فيها اليوم.

وفي مصر، في كتابة تعود الى الاسرة السادسة من الامبراطورية القديمة على جدران قبر هرهوف (٣) في اسوان نشاهد نقل من رسالة الفرعون بيبي الثاني يشكر فيها الملك الشاب الأمير الذي أهدها قزما اسمه دنك، ويوجد هذا اللفظ في اللغات الحالية في اثيوبيا، بالامهرية ومختلف لهجاتها، كما في التكرينيا والكلال والكمباطا بالصيغ الثلاثة: دنك، دانك، دنكي، دنكو، دينكا، (٤) وتذكر رسالة الفرعون ان قبل ذلك بقرن، في عهد الأسرة الخامسة، اتي بقزم مشابه للفرعون ايزيسي، وفي هذا السياق، لنذكر ان رحالة انكليزيا اثبت وجود اقزام دوكو في اثيوبيا الجنوبية. ويمكن ان نستنتج وجودا قديما للاقزام في المناطق التي يحلها اليوم السودان واثيوبيا.

(٢) انظر ج هيرنو، ١٩٧٠، مجلد ٥٣ ص ٥٥.

(٣) ان النقل الحرفي لهذا الاسم: هير- هوي، (هرزق، ١٩٣٨، ص ٩٠).

(٤) و. ليلسو، ١٩٦٣، ص ٥٧.



- (١) امرأة من عشيرة الـ «بورورو»  
من شعب الفلاني، تاهورا، النيجر  
(تصوير ب. نانتيه).
- (٢) طفلة طارقة، أغاديس، النيجر  
(تصوير ب. نانتيه).
- (٣) امرأة من جرما سنغاي، بالاييرا،  
النيجر (تصوير ب. نانتيه).



وشيثاً فشيئاً حل أقوام أتوا حديثاً محل اقزام الغابة الاستوائية والمدارية، وهم شعوب تتركب من اشخاص طويلي القامة يتكلمون لغات بانتو. وكما يروي النسونك الياخجا، في الدورة المحمية للمنكو عن استيطان وادي الزاير، فإن الاقزام الاهالي تراجعوا شيئاً فشيئاً الى المناطق النائية في غابات الاثوري والاولي. ولشعوب بانتو آخرين قصص اصلها متشابه. ويمكن ان نستنتج ان ما بقي من مجموعات الاقزام اليوم هي كجذيرات تشهد على استيطان قديم أوسع بكثير في غابات افريقيا الاستوائية والمدارية.

والسان يمثلون جمعا آخر طرifa في القارة الافريقية، لهم قامة قصيرة ولون نحاسي واصفر وشعر محبب «كحب الأبرار» وما زالت كتب الانثروبولوجيا تحشرهم مع الخوي خوي في «العرق» الخويسان. وبدون شك ان هداماً خارجياً للتصنيف اللساني الذي يجمع بين السنة السان والخوي خوي في مجموعة واحدة، خاصتها المشتركة هي وجود مصوتات ممتطة ذات تنغم خاص لها قيمة صوتية. ولفظ «خويسان» الذي اقترحه ج. شابرأ وتبناء عدد من المصنفات، وارد في الاصل من لفظين خوي وسان \*: خوي بمعنى «انسان» وسان حيث المادة سا معناها «كدس، جنى الثمار، قلع الجذور، قبض على حيوانات» اي انه وصف لجمع من الناس بكيفية عيشهم «بنمط انتاجهم». وفي الواقع ان الصفات المشتركة بين الخوي خوي والسان قليلة جداً: نذكر منها اللون المفتوح واللغات ذات تنغم خاص. ولكن هذه الصفة الاخيرة ليست خاصة، اذ هي توجد في اللغات البانتو في الجنوب الشرقي كالزولو والكسوزا والسوطوالخ.

على انه توجد فروق عديدة بين المجموعتين: اذ يتميز الخوي خوي بقامة اطول وبوضع الشعر والعلامات الجمجمية (٥) وضخامة الاردا في لدى النسوة، بينما يختص السان بوجود ظفيرة على عيونهم، ثم ان لغات الخوي خوي تختلف عن لغات السان من حيث المعجم ومن حيث النظام النحوي. وبين أ. ج. وستفال \*: الاختصاصي الكبير في هذه المادة ان الضمائر عند خوي وهي تمثل أقدم قسم واثبت في الخطاب، لها صيغ واضحة وضوحاً كبيراً، اذ يوجد فيها جنسان والمفرد والمثنى والجمع مع صيغ الضمنية والحصر بينما لا يوجد شيء من ذلك في لغات السان (٦). وليس الامر هنا يتعلق بمجموعة واحدة لسانية. واما من حيث الثقافات فهما يختلفان من كل وجه، كما سجل ذلك منذ القرن السابع عشر الرحالون الاولون ومن بينهم بيتر كلب. فكان الخوي يعيشون في القرى ويتعاطون صناعة المعادن ويشغلون بتربية الماشية. بينما كان السان رحالة يعيشون على الصيد وجني الثمار. وهكذا فان عملي الانثروبولوجيا واللسانيات يعارضان في تجميع هذين الشعبين في كتلة واحدة. وكل منها ايضاً كان له تطور تاريخي متميز. فالسان بدون شك، يكونون بقايا الاستيطان الاصلي في الجنوب الاقصى من افريقيا. واليوم لقد دفعوا الى المناطق الصحراوية المنفرة في نميبيا والكلاهاري، وتوجد منهم كذلك جوع منعزلة في انكولا، ولكنهم في القديم كانوا ينتشرون خلال السهوب الجنوبية والشرقية حتى حدود الكينيا، كما تشهد بذلك اسما الأماكن واسماء المياه، اذ ان

(٥) انظر الكيساف: في التصنيف الانثروبولوجي لأهالي افريقيا «ضمن المشاكل الاساسية — للدراسات الافريقية» \*.

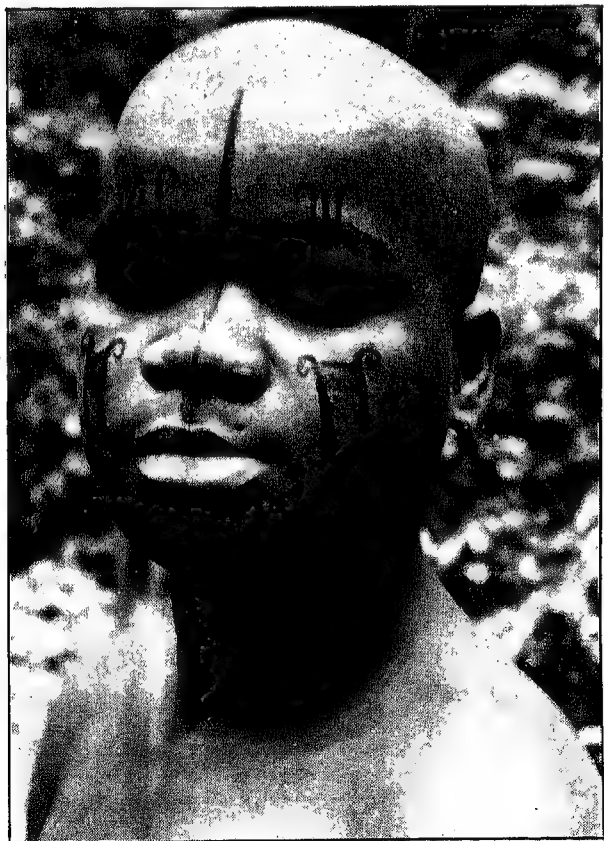
(٦) انظر أ. و. ج. وستفال: ١٩٦٢، ص ٣٠-٤٨.

\* الأصل المترجم عنه وكما في المطبوع خوي خوي.

٥٥ ليس في المطبوع وستفال: انظر الكيسابدي.



- (١) قزم من الـ «توا»، رواندا (تصوير. نانتيه).
- (٢) جماعة من الـ «سان» (تصوير ف. بالسان، مجموعة متحف الانسان، باريس).
- (٣) قزم من الكونغو (تصوير كونغو — بريس، دانداي، مجموعة متحف الانسان).



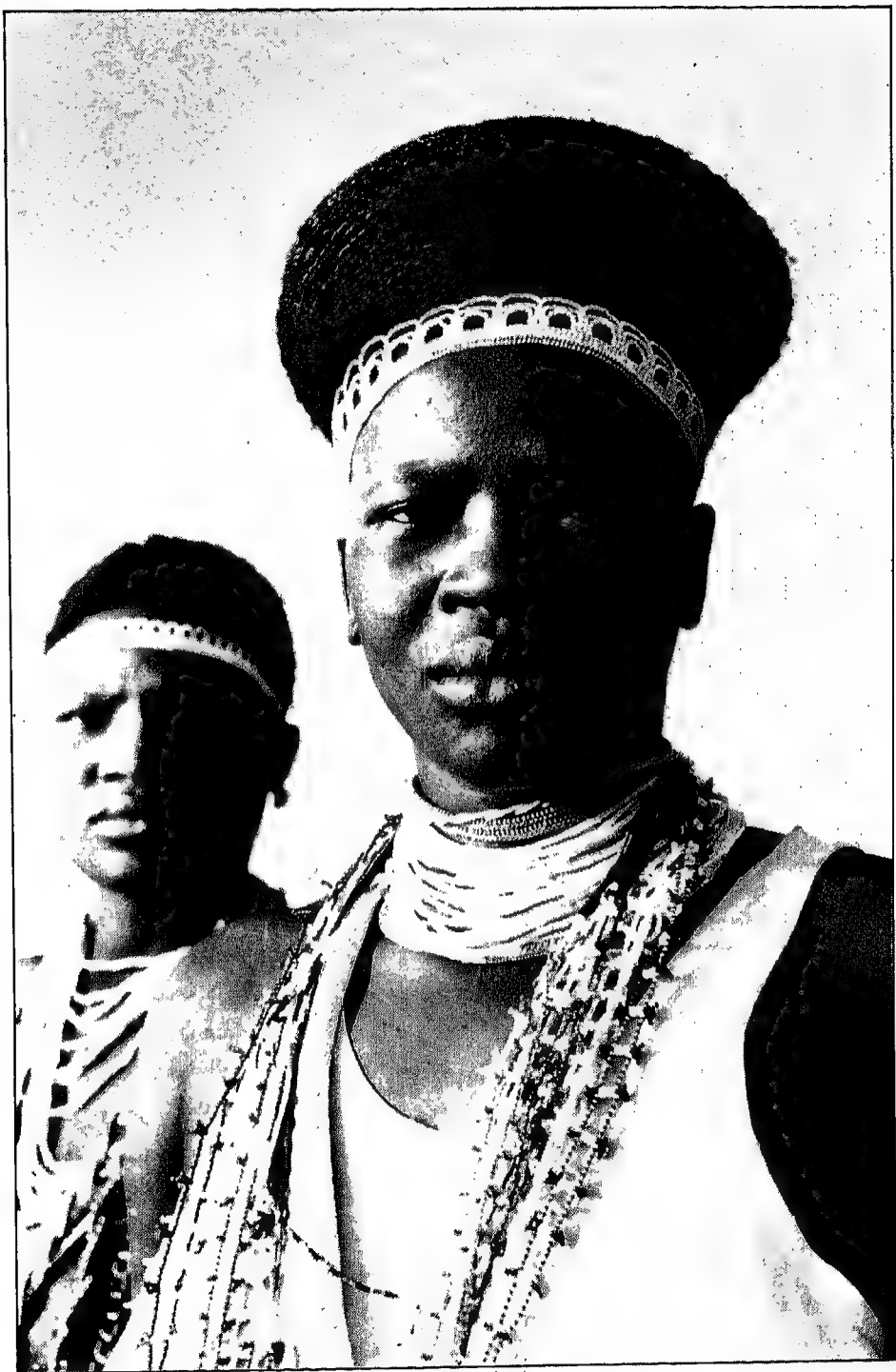
مسميات الانهار المحلية والجبال مقتبسة من لغات السان. وكذلك المصوتات ذات التنغم الخاص قد اقتسبتها عدة لغات بانطو. ثم ان الرسوم الجدارية على الهضاب العليا في افريقيا الجنوبية تمثل احيانا معارك بين السان ذوي القامة القصيرة واللون المفتوح، وبين محاربين سود ذوي قامة طويلة يمكن تعيين انتمائهم العرقي حسب شكل التروس التي يستعملونها.

والهدزاي، وهم جمع عرقي صغير يعيش قريب بحيرة اياسبي (طانزانيا) يمكن اعتبارهم شهودا على الانتشار القديم لاستيطان السان عبر افريقيا، ومع ان لغتهم لم تدرس درسا عميقا فانه من الغالب على الظن، انها قريبة من لغة السان. وتأيداً لنظرية قائلة بانتشار السان انتشارا قديما على اماكن افسح، نذكر الحجارات المستديرة المثقوبة الوسط التي توجد أيضا في افريقيا الشرقية. ويسمى السان هذه الحجارات كوى وكانت تستعمل لأثقال العصي المستخدمة لقلع الجذور الصالحة للاكل. ولكن نشر هذه التقنية عن السان، لم يرق عليه الدليل. فعند الكالا مثلا في اثيوبيا الجنوبية وبالحرار، يستعمل الدوندار وهو وتد مثقل بحجارة لحفر الأرض، ويستعمل الجهاز نفسه لأثقال المدق المستخدم لسحق التبغ.

وعلى كل، فانه من اللازم ان نقصر الاستطيان الاقدم في افريقيا الجنوبية على الاقزام في الغابات وعلى السان في السهوب. فقد تكون مجموعات أخرى وجدت معهم. وهكذا فقد اكتشف مثلا في انكولا مجموعة الكوادي وهي قريبة جدا من السان من حيث اللغة ومن حيث نوع العيش. وفي بداية القرن العشرين درس أيضا فيدار المجموعة العلمية الاوطان ورغم قامة القصيرة وعيشهم من جني الثمار ومن الصيد، فإنهم يتميزون عن السان بلون بشرتهم الشديدة السوداء وبشفاهم الثخنة، وهم يسمون بالنوخوا أي «الرجال السود» خلافا للخوى الخوى الموصوفين «بالرجال الحمر» ونظامهم الطريف في العد يتميز عن النظام العشري المستعمل لدى الخوى خوي. ومثل هذه المجموعات، وهي بدون شك مازالت باقية في مناطق أخرى، تلقي ضوءا ثميناً على تاريخ الاستيطان الاصلي المنتشعب في الغابات والسهوب في افريقيا الوسطى والجنوبية، ويظهر هذا التشعب في لغات البانتو في المستوى المعجمي والصوتي، مثلا عندما يدل وجود الاصوات ذات التنغم الخاص على اتصالات قديمة جدا بين الاعراق. ويتبع ذلك فروق بين لغات البانتو وقد يصل الامر احيانا كما هي حال مجموعة دزنيك في الشمال الغربي من منطقة البنتو، الى فروق في بنية جذور الكلمات. ومن دون شك فان هذا الخلاف ناشىء عن اسس لسانية سابقة، ويشكل الاقزام والسان اليوم جموعا ضئيلة عدديا بالنسبة الى مجموعة «الدزنيك» السائدة، بل وحتى بالنسبة الى العرق الافريقي الوسيط في افريقيا الشمالية.

وفي يومنا هذا لا تنطبق الخريطة اللسانية في القارة مع توزيع النماذج «العرقية» ولعل هذا الانطباق كان موجودا في البداية، ولكن منذ عهد بعيد. وقد تطورت الديموغرافيا والهجرات والتهجرات، وزال الانطباق بين التطور اللساني والعمل التكويني للنماذج «العرقية» ونعني بالعبارة الاخيرة، ارث المؤشرات الوراثية وملاءمتها التدريجية للوسط، واختلاف الخريطة ل«العرقية» واللسانية واضح بالنسبة لشعوب السودان، منطقة التجمع لثوذجين مختلفين من الاسر اللسانية.

وينتمي شمال افريقيا، بما فيه موريتانيا واثيوبيا، الى حقل فسيح من اللغات السامية الشاميتية. ويظهر ان هذه التسمية غير صحيحة، اذ هي تتضمن وجود مجموعتين: السامية من جهة



• امرأة من الزولو (تصويراً. روبيان، مجموعة متحف الانسان).



والشاميتية من جهة أخرى، وفي القرن التاسع عشر قد سميت بالفعل سامية، لغات هذه المجموعة التي كانت مستعملة في الشرق الاوسط، وسميت شاميتية لغات افريقيا. ولكن م. كوهان، عالم الساميات الفرنسي، لا حظ انه لا موجب ولا حجة تبرر هذا التقسيم الى مجموعتين، وتصنف اليوم بصفة عامة، لغات هذه الأسرة الى خمس مجموعات: السامية والكوشية والبربرية (٧) والمصرية القديمة (٨) والمجموعة التشادية اللسانية. فيتكلم لغات هذه العائلة اللسانية الكبيرة عدد كبير من الاعراق (ساميين وسود). وفي أقصى جنوب القارة الافريقية فان لغات السان مع ما يضاف اليها من لغات كوادي في بانكولا وهذراي في طانزانيا، تنتمي فيما يبدو الى مجموعة متميزة، صفاتها المشتركة هي وجود الاصوات ذات التنغم الخاص والمقطعة والبنيات المقطعة.

وقد يكون من الاضمن ان تسمى هذه المجموعة باللغات الافريقية القديمة كما يتحدث عن اللغات الاسيوية القديمة في الحدود الشمالية الشرقية من القارة الاسيوية. ولا يمكن حصر لغات الخوي خوي في هذه المجموعة لاختلاف نظامها النحوي. فالخوي خوي شعب من الرعاة قد هاجر بدون شك من الشمال الشرقي من القارة نحو الجنوب، حيث احاطت به جموع السان الالهية. وقد اقتبس البعض من هؤلاء، كاهالي جبال أوتا في وحتى النارون بالمنطقة الوسطى، لغة الخوي خوي، وهناك ما يؤيد فرضية التطريف المشار اليه اعلاه لانتشار الخوي خوي ابتداء من مناطق الصعيد المصري مرورا بالسهوب الشرقية، وهو اننا نجد في طانزانيا قرب بحيرة اياسي جمعا من السنداوي تبدو لغتهم منسوبة الى لغة الخوي خوي على ان تاريخ هؤلاء الخوي خوي من اغمض النقط في التطور العرقي في افريقيا. فحسب أ. وستفال ان الاصوات المقطعة ذات التنغم الخاص في لغات الخوي خوي قد تكون مقتبسة من لغات السان وهذا رأي مفيد ولكن لا حجة تؤيده.

ومن المحتمل ان تكون سهوب افريقيا الشرقية اقدم منطقة استوطنت في القارة. ويحتلها اليوم سود يتكلمون لغات البانتو. ولكن، كما تدل على ذلك الشعوب الشواهد السنداوي والهدزاي، وجد قبلهم السان والخوي خوي، وهناك شعوب اخرى من المنطقة ذاتها يتكلمون الكوشية، وغيرهم له لغات تابعة لجموع مختلفة كالاراكو وقد سبق هذه اللغات كلها زحف اللغات البانتو التي ظهر البعض منها في فترة متأخرة نسبيا.

وبين اللغات السامية الشاميتية في الشمال، واللغات الافريقية القديمة في الجنوب، يقع مجال فسيح هو مجال اللغات التي سماها العالم اللساني دولافوس «اللغات الزنجية الافريقية»، ويصفها، س. ماينهوف ود. وسترمان بكونها لغات سودانية بانتو، بينما يحشرها ج. غرينبرغ في الاسر الكنغو-كردوفانية والنيلية الصحراوية.

وتعرفت منذ عام ١٦٦٣ على هذه اللغات واقترحت تسميتها بالزنجية، وفي الاطار العام قد تميز اسراو جماعات لسانية، عرضا بحسب نتائج البحث.

والتعبير «اللغات الزنجية الافريقية» المقترح من م. دولافوس غير موفق، فالجزء الاول من العبارة فيما يبدو يمزج بين مفهومي العرق واللغة، على ان الزنوج في اميركا الشمالية والجنوبية كما في

(٧) يلحق بعض المؤرخين اللغة البربرية بالمجموعة السامية.

(٨) حسب بعض علماء المصريات الافارقة، المصرية القديمة تنتمي الى اللغات «الزنجية الافريقية» (انظر فصل ١، من المجلد ٢).

أفريقيا نفسها يتكلمون لغات متباينة تماما. والجزء الثاني من العبارة أيضا ليس في محله، إذ كل اللغات المستعملة من الشعوب القاطنة في أفريقيا بما في ذلك الأفريقان، هي لغات أفريقية. على أن تصنيف هذه اللغات إلى مجموعتين — السودانية والبانتيو — هو أيضا مخطئ منذ أن بينت دراسات د. وسترمان القرابة المعجمية والبنوية بين لغات أفريقيا الغربية واللغات البانتو. وقد مهدت هذه الدراسات لإعادة النظر الشاملة في تصنيف اللغات الأفريقية، الذي التزمته خطأ المدرسة اللسانية الألمانية، ويعتمد تصنيف ج. غرينبرغ على الطريقة المدعوة «المقارنة الجمالية» فمع اعتبارها للعناصر الأساسية في النظام النحوي فهي تعتمد أيضا على المعجم. لقد ميز غرينبرغ سنة ١٩٥٤، عند تطبيق هذه الطريقة ست عشرة أسرة لسانية في أفريقيا، ثم جعلها اثني عشرة فحسب، ثم اختصر هذا العدد إلى أربع سنة ١٩٦٣، وإن هذا التخفيض السريع في عدد العائلات اللسانية ليبرهن على أن الطريقة لم تركز تركيزا لائقا، وأنه افترض في الإسراع قصد الحصول على تصنيف مهما كان الأمر.

ومن الأسر الأربع المحتفظ بها، فإن المجموعة الأفريقية الآسيوية ما هي إلا الأسرة السامية الشاميكية. وأما الأسرة المسماة باللغات الممطقة ذات التنغم الخاص ثم المسماة الكويزان، فتجمع لغات شعوب سان والخليج خوي. وكما صرحنا بذلك أعلاه، فإن هذا الإدماج خاطئ. وعلاوة على الأسرة النيجرية الكونغولية التي يضيف إليها غرينبرغ لغات كردوفان، إنه يميز مجموعة رابعة تكونها اللغات النيلية الصحراوية. وحتى الآن فإن بنية المجموعة الأخيرة لم تدرس إلا قليلا. وسنة ١٩٧٢ طبق ادغار كريكرسن طريقة غرينبرغ على هذه اللغات، فإدى ذلك إلى نتيجة، هي أن كل اللغات في هاتين الأسرتين يمكن إرجاعها إلى أسرة واحدة يقترح لها اسم الكونغولية الصحراوية. وتلتقي هذه النظرة بما كنت قد اقترحت من جمع هذه اللغات تحت عنوان مجموعة الزنج. وأما المجموعة المميزة بالنسب الممتلئة وبالفئات الاسمية، فقد يتعارض مع اللغات السامية الشاميكية أو الأثرية التي تقع معاييرها الخاصة في النبرة وفي الجنس النحوي. على أنه ليس من المتعذر أن تكشف الدراسات المقبلة عن خصوصية للغة من اللغات، أو مجموعة من اللغات داخل أسرة الزنج أو الكونغولية الصحراوية. ولكنها من الآن تبدي من الترابط والاتساق ما يوجد في الأسرة الهندية الأوروبية مثلا.

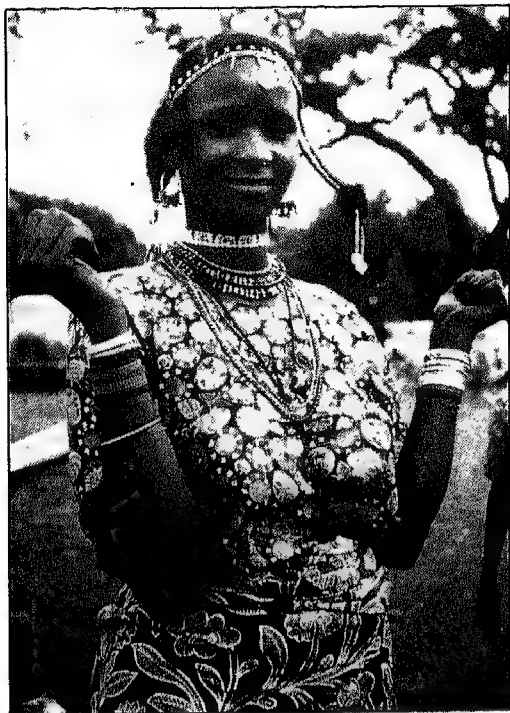
وداخل هذه الأسرة الكبيرة الزنجية، فإن لغات البانتوبلا شك، تبدي وجها كثير التجانس أقرته أعمال و. هـ. ل. بليك وش. ماينوف وم. كشري. ومن بين المجموعة التي كشف عنها د. وسترمان ضم المجموعة اللسانية السودانية، فإن أوضحها هوية هي مجموعة المندي. وعلى شرقي هذه المجموعة الأخيرة. وعلى غربيها لغات سماها وسترمان اللغات غور أو الأطلسية. ويعوزها ما للماندي من تجانس، حتى أن علماء اللسانيات الانكليز حددوا فيها جمعا متميزا هو جمع اللغات الميل. وفعلا فإن هذه المنطقة الكائنة في أقصى الغرب من القارة، قد أوت إليها أمواج من الشعوب الصغيرة أو التقت بها ثم أزاحها القادمون الجدد. فاحتفظت لغاتهم ببعض خاصيات اللغة البانتو، وأوضح الأمثلة لغة بلوم. وأتت مصنفات مانسي الإحصائي في هذه اللغات، على الفرضية السابقة القائلة بوحدة لغات الغور وقوضتها. وإن ما يوجد في هذه اللغات من الأصناف الاسمية المكونة بطريقة متنوعة، بواسطة السوابق

واللواحق، بل حتى الحشو، ليعكس التشعب العرقي في هذه المناطق التي كانت تمثل ملجأ لعدة جموعاً بشرية تسمى «زنجية قديمة»، وتمتد على مناطق الجبال عبر السودان بأكمله من السنغال الى كردوفان... وقد اعتبروا أقدم الاهالي المستوطنين في السودان، على ان ذلك يبدو غير محتمل تبعاً للتنوع اللساني واختلاف النماذج البدنية في هذه الفسيفساء من الجموع التي اتت هذه المناطق المنفردة، وتكدست فيها. وتشير التواريخ السودانية الى البعض من هذه الاحداث، مما يدل اذن على ان هذا العمل ليس عملاً عتيقاً. ان التقسيم اللساني في افريقيا اذن، لابد ان يعزى كل شيء الى اسباب تاريخية دفعت موجات الهجرة الى الامام.

ومن بين لغات السودان الشرقي التي هي من أقل ما درس من اللغات، نذكر اللغات النيلية القديمة؛ وتمثل جمعاً متميزاً كثيراً وضرباً من الاسرة المندجة وراثياً، لعلها تكونت اثناء فترة طويلة من العزلة.

وتكشف المصنفات الجليلية التي قدمها عالما اللسانيات الانكليزيان م. أ. بريان وأ. ن. تركس، تشعباً قوياً في السودان الشرقي، في المستويين العرقي واللساني. وقد استعملنا طريقة تبدو موفقة، متخذين كمعايير بعض العناصر اللسانية المميزة للمقابلة بين لغات ت/ك ون/ك. ومن بين المجموعات اللسانية كلها في هذه الاسرة العظمى الكونغولية الصحراوية، تبدي اللغات البنتوقرابة وراثية ملحوظة، الى حد جعل هذا الامر يعتبر حدثاً جديداً.

وعلاوة على اللسانيين، فان المؤرخين وعلماء الآثار حاولوا ان يوضحوا «كيف تكون البانتو» ولكن فرضياتهم متباينة. فيقول بعضهم ان هجرة البانتو انطلقت من الشمال من جهة الكامرون أو من حوض التشاد، فسايرت الغابة في الشمال، ودارت معها شرقاً مارة بافريقيا الشرقية، ثم انتشرت في افريقيا الجنوبية. ويرى غيرهم امثال هـ. هـ. جونستن ان البانتو قدموا مباشرة من جهة وسط افريقيا عبر الغابة الزايرية. واخيراً فان بعض العلماء طبقاً لنظرية العالم باللسانيات م. كشرى، التي تجعل النواة اللسانية النموذجية الاولى للبانتو تقع في أعلى الزايرلدى اللوبابو وبيمبا، يجعلون الموطن الاصلي للبانتو في هذا القطاع. بل قيل اكثر من ذلك، وعرضت الشعوب الناطقة بالبانتو كوحدة بيولوجية وثقافية. على ان بعض علماء الآثار يربطون بين انتشار الحديد في جنوبي القارة وبين هجرة البانتو الذين وردوا عليه مجهزين بتقنيات رفيعة. ولكن البرتغاليين، عندما وصلوا في آخر القرن الخامس عشر الى جزيرة فرناندو بو، وجدوا فيها اهالي يتكلمون البوي وهي لغة بانتو ولكنهم يجهلون استعمال الحديد. وهذا الخطأ المتمثل في الخلط بين اللغة وبين نمط العيش او الانتاج، قد وقع فيه من قبل علماء الانثروبولوجيا الذين جمعوا في مفهوم الشامييتي وحدة العرق واللغة والحضارة. وفي التطور التاريخي يجدر الان نعمل، مهما كان الامر، على ايجاد نماذج خالصة. فالشعوب البانتو تختلف كثيراً من الوجهة الانثروبولوجية من حيث اللون والقامة والقياسات البدنية الخ. وبانتو الغابات لهم اوصاف بدنية مخالفة لوصاف بانتو السهوب وكذلك فان نموذج النشاط الاقتصادي والتنظيم الاجتماعي متنوع جداً، والبعض يتبعون النظام الابوي والبعض الآخر يتبع النظام الاموي. وفي موضع ما تستعمل الاقنعة وتوجد الجمعيات السرية وفيها عداة لا جود لذلك، والعامل المشترك الوحيد هو البنية اللسانية المعتمدة على اصناف الاسماء، ولكل اشارات هذه الاصناف في كل مكان عبارة صوتية متشابهة ترتكز على نظام موحد للافعال.



- (١) امرأة من الفلانيين (صورة من محفوظات ما وراء البحار).
- (٢) امرأة من الفلانيين، قرب غارووا — بولاي (تصوير هوا — كوي).
- (٣) فتاة من الفلانيين، مالي (تصوير أ. أ. أ. نود).



وبالعكس في سهوب السودان، يبدو ان الشعوب الناطقة بلغات ذات اصناف اسمية، يلعب فيها ارتفاع الصوت دورا مهما، قد ساكن بعضها بعضا مدة طويلة. وكلما ازدادت الصحراء جفافا انزوت هذه الشعوب متنقلة الى مناطق أشد رطوبة: الجبال في الشمال ووادي النيل شرقا والبحيرة الكبرى في تشاد القديم جنوبا، وعاموض هذه الجماعات من الصيادين الرعاة الشعوب الاهلية الذين توغلوا نحو الجنوب داخل الغابة أو دائرين بها من جهة الشرق. ودون أن تكون هذه الهجرات مقترنة ببداية انتشار الحديد فانها كانت تجري لصالح القادمين الجدد، وقد كانت لهم براعة في صناعة المعادن. واتفق ان حددت المناجم وعمل النحاس القديم بالمنطقة ذاتها التي اليها أشارم. كثرى كبؤرة المجال البانتو حيث تشتمل اللغات اللوبا والنجبا على أكبر نسبة من الكلمات المنتمية للمعجم «المشتركة بين كافة اللغات البانتو».

وكان من شأن ازدهار صناعة النحاس هذه، ان دفعت بانتشار لاحق للحضارة وكلما ابتعدنا من البؤرة المشار اليها، انتقص صفاء النموذج اللساني البانتو، اذ كلما تم ذلك اختلط الناطقون بالبانتو اختلاطا اكبر بالشعوب المستعملة للغات الأخرى.

وهذا المثال الدقيق يدلنا على أنه لا يجب الخلط بين مفاهيم اللغة والنموذج الانثروبولوجي والحضارة، بل انه حسب تشعب القارة ببطء بهذه الموجات البشرية المتنوعة فان نوع الانتاج كثيرا ما كان يصلح كوسيلة أساسا للتوسع اللغوي، بل ولتغلب ذلك الوجه البيولوجي او غيره.



## الفصل الثاني عشر

### القسم الأول

## تصنيف لغات افريقيا

ج. هـ. غرينبرغ

ان عدد الطرق التي يمكن أن تصنف بها اللغات، كغيرها من سائر الأشياء، لا نهاية له. على أنه ينبغي أن نضع على حدة طريقة خاصة، تسمى طريقة التصنيف الوراثي، لها صفات فريدة مهمة، مما يجعلنا إذا استعملنا لفظ «التصنيف» بدون تدقيق فيما يخص اللغات، انما نلمح الى هذا النموذج من التصنيف. وعليه فان هذه الطريقة هي التي سوف تكون دعامة التصنيف المفصل المعروض في الأقسام الأخيرة من هذا الفصل.

### طبيعة تصنيف اللغات وأهدافه

يلوح التصنيف الوراثي في شكل سلسلة من وحدات مرتبة، لها من التنظيم المنطقي ما للتصنيف البيولوجي الذي يقسم الى أنواع وأجناس وأسر، الخ. حيث يكون كل مستوى من السلسلة مشمولا ضمن عناصر المستويات العليا. وفي الامكان أيضا أن يعرض في صورة شجرة نسب. فاذا ما كان للغات جد مباشر مشترك على شجرة النسب، فذلك يعني أن الشأن هو نهايات ميزها التطور مما كان في القديم لهجات من لغة واحدة. ويمكن أن نوضح هذا التصنيف بواسطة مثال مشهور جدا مثال الهندية — الاوربية. واذا لم يثبت بعد أن الهندية — الاوربية كانت تنتمي الى جمع أوسع فستكون هي مستوانا الاعلى.

تقسم الاسرة الهندية الاوربية الى عدة فروع من بينها الجرمانية والسلتية والسلافية والهندية الايرانية، وهذا يؤول الى القول بأن المجموعة اللسانية الاصلية الهندية الاوربية قد تفرعت الى عدد من

اللهجات الجرمانية، السلتية الخ. والجرمانية، بدورها، تنقسم إلى ثلاث لهجات، الغوطية والجرمانية الغربية والسكندينية.

أما الغوطية فانقرضت، ولكننا نعرفها من خلال وثائق قديمة. بينما انقسمت الجرمانية الغربية إلى إنكليزية فريزية، والمانية سفلى متأخرة والمانية عليا قديمة، ويكون كل من هذه الأخيرة مجموعة من اللهجات المحلية، يكون البعض منها قاعدة لغات موحدة الانماط مثلا: الألمانية (لهجة المانية عليا) النيرلندية (لهجة المانية سفلى) والانكليزية (لهجة إنكليزية فريزية).

وقيمة هذه التصنيفات المبنية على هذه المبادئ أنها أولا تعكس التاريخ الواقع للتميزات العرقية في ميدان اللغة. ثم أنها تكون الأساس اللازم لتطبيق ما لللسانيات المقارنة من أساليب، ذلك الأساس الذي يميكن من إعادة بناء الجزء الكبير من التاريخ اللساني بمختلف المجموعات. وأخيرا أن معرفة التاريخ اللساني توفر عناصر لا بد منها للاستنتاجات المتعلقة بتاريخ الثقافة الغير اللسانية للمجموعات المعنية.

## تاريخ تصنيف لغات إفريقيا

من الواضح أنه لولا مجموعة كافية من المعطيات التجريبية عن اللغات في إفريقيا لما أمكن السعي في تصنيف كامل هذه اللغات. ففي بداية القرن التاسع عشر فقط أمكن الحصول على عدد كاف من المعطيات للقيام بأول محاولة للتصنيف. على أنه، قبل ذلك تمت بعض الملاحظات حول التصنيف تبعا لجملة من الأحداث يمكن ضبطها في بداية القرن السابع عشر، تلك الفترة التي ظهرت فيها كتب النحو الأولى والمعاجم للغات إفريقيا (١). فلاحظ مثلا لويس موربانو في بداية القرن السابع عشر أن لغة المرينا «شبيهة بالملاييزية» مما يدل بصفة شبه قطعية على أن السكان الأولين قدموا من «موافي مالكا» (٢).

وحوالي الفترة نفسها، سجل بعض الباحثين البرتغاليين، الشبه الموجود بين لغات الموزمبيق على الساحل الشرقي لإفريقيا ولغات انغولا والكنغو في الغرب، مما فتح المجال إلى تصور للغات البانتو المنتشرة على معظم الثلث الجنوبي من القارة. ويمكن أيضا أن نذكر وصف الكيز والامهرية من قبل جوب لودلفوس، في القرن السابع عشر، فابان هذا الوصف قرابة بين اللغات الاثيوبية والعبرية والآرامية والعربية.

ولم يشاهد القرن الثامن عشر سوى اضافات زهيدة إلى معرفتنا باللغات الإفريقية، ولكن، حوالي نهاية هذه الفترة، نلاحظ أن الفكرة الأساسية للتصنيف الوراثي أخذت تبدو في شكل فرضيات متميزة حول وجود بعض الأسر اللغوية. وكانت هذه الفرضيات هي التي كانت في القرن التاسع عشر الأساس لتطور اللسانيات كعلم تاريخي مقارن.

(١) لزيادة الارشادات عن تاريخ اللسانيات الإفريقية أنظر س. م. دوك ود. ت. كول ١٩٦١، ص ١٢٩ ود. ت. كول ص ١ - ٢٩، ١٩٧١. توجد أحيانا بعض الالفاظ من لغات إفريقية في مؤلفات القرون الوسطى، أنظر في هذا الشأن م. دولافوس، ١٩١٢

— ١٩١٤، ص ٢٨١ — ٢٨٨ وس. ماينوف ١٩١٩ — ١٩٢٠، ص ١٤٧ — ١٥٢.

(٢) رحلة استكشافية إلى جزيرة سان لوران سنة ١٦١٣ — ١٦١٤، مخطوط برتغالي نشرت ترجمته الفرنسية عند أ. ج. كرانديبيي ١٩٠٣ — ١٩٢٠، ص ٢٢.



ان كتب تاريخ اللسانيات تذكر عادة تصريحا لويليام جونز سنة ١٧٨٦ كحدث حاسم في هذا التطور، وكانت الآراء منتشرة في الجو كما يدل على ذلك، قبل ذلك بخمس سنوات، اذ أن مرسدن صرح بصورة واضحة على الأقل، بفرضية مشابهة في شأن اللغات الماليزية - البولينزية، بينما كان جيارمائي يقوم بعين العمل بالنسبة الى اللغات الفنية الاوغرية.

وتبع هذا التطور هوية حقيقية لجمع مواد المقارنة في عدد كبير من اللغات، وأول مصنف من هذا النوع كتاب «معجم مقارني للغات العالم كله» لسنة ١٧٨٧ وقد شجعت عليه الامبراطورة الروسية كاترينا العظمى، وكان يشمل معطيات عن ثلاثين لغة افريقية، في طبعته المنقحة سنة ١٧٩٠ - ١٧٩١.

وفي بداية القرن التاسع عشر لوحظ تسارع واضح الى انتاج كتب النحو والمعاجم في اللغات الافريقية، كما شوهد نشر قوائم مقارنية من الكلمات من عدد كبير من اللغات الافريقية، كقوائم كلهام (١٨٢٨) نوريس (١٨٤١) وكلارك (١٨٤٨) (٣) وأهم هذه القوائم، من بعيد، من حيث محتواها ومن حيث الطابع المنهجي لتنظيمها ولرموزها الصوتية. الكتاب الدراسي «تعدد اللغات الافريقية» ووضعه س. و. كوال (٤) في فريتاون (سيراليوني).

ان تجمع هذه المعطيات في الجزء الأول من القرن التاسع عشر واكب المحاولات الأولى لتصنيف المجموع، كمحاولة بالي ومحاولة برشارد في الطبقات المتوالية لكتاب «بحث عن التاريخ الطبيعي للبشرية» (٥).

ورغم بعض الفروق في الجزئيات، قد برزت استنتاجات تم تقبلها عامة أثناء النصف الاول من القرن التاسع عشر وتحمل بعضها بنجاح محنة التجارب الموالية، وكان للبعض الآخر على الأقل مزية اشارة المسائل التي عمل المصنفون المتأخرون على حلها. ويمكن تلخيص النتائج المتجمعة سنة ١٨٦٠ فيما يلي:

— ان لفظ «سامي» الذي أدخله شلوزر سنة ١٧٨١ كان له تقريبا معناه الحالي (٦) وقد ثبت وجود فرع اثيوبي لهذه الاسرة يشمل الكيز (الاثيوبي الكلاسيكي) واللغات العصرية كالامهرية والتغرينا

— قد لوحظ منذ ذلك العهد تشابه قرابة بين بعض اللغات الأخرى وبين السامية. وكانت هذه اللغات، المصرية القديمة والبربرية واللغات الكوشيتية، وكان يتكلم بهذه الأخيرة خاصة في اثيوبيا وفي بلاد الصومال. وأقبح بعض المصنفين الهوسا في افريقيا الغربية في هذا الصنف، وسميت هذه اللغات أحيانا باسم «السامة الفرعية» ولفظ الشاميية استعمله رينان سنة ١٨٥٥ (٧).

(٣) هـ. كلهم، ١٨٢٨، أ. نوريس، ١٨٤١، ج. كلارك، ١٨٤٨، ص ١٠٤.

(٤) س. و. كوال، ١٩٦٣.

(٥) أ. بالي، نقح. أ. هريس الطبعة الأخيرة من برشارد وزاد فيها، ج. س. برشارد ١٨٥٥.

(٦) أ. ل. فون شلوزر القسم ٨، ١٧٨١، ص ١٦١.

(٧) أ. رينان، ١٨٥٥، ص ١٨٩.

— يعزى الى ليختنشتاين فضل التمييز الواضح ، لأول مرة، بين لغات افريقيا الجنوبية، لغات خوي وسان من جهة، ولغات بانتوم من جهة أخرى (٨).

وقد تم التعرف بوضوح، منذ تلك الفترة، على هذه المجموعة الأخيرة، من اللغات الوثيقة القرابة. وسموها أيضا أسرة الكافر أو أسرة اللغات الافريقية الجنوبية. ولفظ بانتو هو مشتق في عدد كبير من هذه اللغات من أصل معناه الرجال، قد عرضه و. هـ. أ. بليك الذي وضع سنة ١٨٥١ أسس الدراسة المقارنة للغات البانتو، وهذا اللفظ مستعمل منذ ذلك الوقت وحتى اليوم من قبل كل الناس.

— بقيت مجموعة كبيرة من اللغات تشمل معظم اللغات المستعملة في السودان الغربي والشرقي، ولم يكن في الامكان أن تصنف ضمن المجموعة المذكورة أعلاه. كالمجموعة التي لم تكن سامية ولا شاميكية ولا سانا ولا بانتو. وكانت عموما تسمى لغات «زنجية» وفيها يتمثل أكبر مشكل للمصنفين، فاعترف نوريس في تنقيحه لكتاب بريشارد سنة ١٨٥٥ انها «فلتت من التصنيف» وأن «السود اعتبروا حتى ذاك مكونين لعرق، لأسباب فيزيولوجية أكثر منها لغوية»؟ (٩).

ورغم كون التصنيفات العامة للغات الافريقية حتى وقت قريب قد فصلت لغات البانتو تماما عن اللغات المسماة «زنجية»، فان بعض الملاحظين سجلوا أن بعض اللغات المعتبرة «زنجية» أو الأكثر منها، ولا سيما في افريقيا الغربية، تظهر قرابته مع مجموعة البانتو. ويبدو أن أول من لاحظ ذلك القس و. أ. فيدال في مقدمته لنحويوروبالساموثيل غروثر (١٠) وأعطى بليك لللفظ «بانتو» حدا عاما مفسحا تطبيقه على معظم افريقيا الغربية حتى الدرجة الثالثة عشرة من خطوط العرض الشمالية، من السنغال الى النيل الاعلى (١١). وأعيد القول بهذه الفكرة الاساسية بعد ذلك بكثير، في شكل منقح، من قبل وسترمان، وبكيفية أوضح من قبل غرينبرغ في التصنيف الذي صار اليوم أمرا عاديا.

— لوحظ منذ القرن السابع عشر — كما أشرنا الى ذلك — ارتباط المرينا باللغة الماليزية البولينيزية وبذلك انعدمت قربتها باللغات الافريقية وأذعن الى ذلك الجميع.

امتازت عشرية ١٨٦٠ بالتصنيفين التامين اللذين نشرنا خلاهما واللذين سادا هذا المجال حتى حوالي ١٩١٠. وأولها تصنيف لپسيوس وظهر في طبعين احدهما سنة ١٨٦٣ والاخرى سنة ١٨٨٠ (١٢) وثانيها تصنيف فريدريك مولر وعرض أيضا في طبعين سنة ١٨٦٧ وسنة ١٨٨٤ (١٣) وكان كتاب مولر أساسا للدراسة المهمة التي قام بها ر. ن. كوست والتي ساهمت في نشر أعماله في البلدان الناطقة بالانكليزية. ودراسة كوست مصدر نفيس جدا فيما يخص بيبلوغرافيا اللسانيات الافريقية حتى تلك الفترة.

(٨) هـ. ليختنشتاين، ١٨١١ — ١٨١٢.

(٩) ج. س. بريشارد. المصنف المذكور، مجلد ١، ص ٤٢٧.

(١٠) و. أ. فيدال، عند غروثر، ١٨٥٢.

(١١) و. هـ. أ. بليك، ١٩٦٢ — ١٩٦٩، مجلد ١ ص ٨.

(١٢) ر. لپسيوس ط. ٢، ١٨٦٣، ١٨٨٠.

(١٣) ف. مللر ١٨٦٧، ١٨٧٦ — ١٨٨٤ عن اللغات الافريقية أنظر مجلد ١، ٢ (١٨٧٧) ومجلد ٣، ١ (١٨٨٤).

وأخرج لبيسيوس ومولر في تصنيفهما المرينا كلغة غير افريقية، وفيما عدا ذلك فإن أهم مشكل شغل بالهما هو مشكل اللغات «الزنجية» ووضعها بالنسبة الى البانتو، اذ ثبت أن هذه هي المجموعة الوحيدة الفسيحة من اللغات التي تنطق بها الشعوب السود. وكان للاعتبارات العرقية دور مهم في هذين التصنيفين لكن بأساليب مختلفة.

اتخذ لبيسيوس قاعدة لتصنيفه معيار فئات الاسماء. وهي فكرة مستمدة من عمل سابق لبليك (١٨٥١) (١٤)، فقد تأثر هذا الأخير بما كان يعتبره فرقا أساسيا بين لغات البانتو التي كان لها نظم مشعبة من أصناف الاسماء، لا دور للجنس فيها، وبين اللغات السامية والشامية التي يوجد فيها تمييز بين الجنسين يعتمد على العضو الجنسي كמידأ لتصنيف الأسماء. وبناء على هذا المعيار صنف بليك الخوي خوي ضمن اللغات الشامية اذ يوجد فيه تمييز الجنس، ولو أن معظم الخواص الأخرى تقربه من لغات سان.

وانطلق لبيسيوس من الفكرة العامة عند بليك واعتبر من بين اللغات التي ينطق بها الأهالي السود، ان البانتو، بموجب تصنيفه للأسماء غير المعتمد على الجنس، هي اللغة الأصلية بينما تهجن سائر اللغات بتأثير اللغات الشامية. وهو يصنف اللغات الى أربع مجموعات (١) البانتو (٢) الزنجي المختلط (٣) الشامي (٤) السامي على أنه يوجد قسمان أساسيان: أ — لغات البانتو، والزنجية المختلطة (لغات ذات أصناف اسمية).

ب — اللغات السامية والشامية (لغات ذات جنس). وفي النهاية لا بد أنه من الممكن أن يبين أن هذه الأخيرة لها قرابة بالهندية الاوربية التي هي بدورها لها تمييز يعتمد على الجنس. وفعلًا فإنه يضم الهندية — الاوربية والسامية والشامية في أسرة واحدة يسميها «النوحية» لها ثلاثة فروع تقابل أبناء نوح الثلاثة: سام وشام و يافت. وهو يصرح بوضوح أن اللغات ذات الجنس هي العليا. «على أنه يبدو مما لا شك فيه، أن الفروع الثلاثة الكبيرة من اللغات ذات الجنس، لم تكن فحسب في الماضي مستودع السبر التاريخي للحضارة البشرية وأعضائها، بل أيضا انه عليها هي، وخصوصا على فرعها الأحدث، أليافيثي، يرتكز أمل العالم المقبل» (١٥).

والقرابة الفكرية بين «النظريات الشامية» واضحة، من بليك الى نظريات مانيهوف المتأخرة مروراً بنظريات لبيسيوس.

وفي كتاب مولر الشامل المنشور سنة ١٨٨٤ صنف لغات العالم المعروفة حسب الفرضية القائلة بوجود علاقة أساسية بين اللغة وبين النموذج البدني للناطقين بها. وأقسامه الرئيسية، «لغات الشعوب ذات الشعر الصلب» و«لغات الشعوب ذات الشعر الجعد» الخ، وتؤدي هذه الفرضية مثلا الى تصنيف الخوي لا مع الشامية كما فعل لبيسيوس، ولكن مع البابو ضمن لغات العروق ذات الشعر الصوفي، ومعظم اللغات «الزنجية» وزعت الى اللغات الزنجية الافريقية والبانتو. وفرضه في هذه النقطة معاكس تماما لفرضية لبيسيوس، اذ هو يعتبر أن بعض اللغات الزنجية الافريقية تمثل النموذج الأصلي وأن البانتو مشتق منها و يعتبر أن بعض اللغات المستعملة لدى الأهالي السود تنتمي

(١٤) و. هـ. أ. بليك، ١٨٥١.

(١٥) لبيسيوس، ١٨٨٠، ص ٩٠.

الى مجموعة متقدمة عليها ثقافيا تقدما كبيرا وهي المجموعة المسماة نوبا فوله، و يقارن الناطقون بهذه اللغات بدنيا بأهالي البحر الأبيض المتوسط وبالدرافيدين وهم مصنفون من بين الشعوب ذوي الشعر المجعد. وفي نشر آراء مؤلر من قبل كوست يجعلها في متناول قراء اللغة الانكليزية صنف لغات افريقيا الى ست مجموعات، ١ - السامية ٢ - الشاميتية ٣ - النوبا فوله ٤ - الزنجية ٥ - البانتو ٦ - الخويسان.

وبقيت مسائل التصنيف معلقة مدة من الزمن، وتمركز الاهتمام على العمل العلمي العظيم المتمثل في وصف اللغات الافريقية. وفتح مصنف وسترمان عن اللغات السودانية (١٩١١) وكتاب ماينهوف عن اللغات الشاميتية (١٩١٢) الباب الى الفترة العصرية (١٦)

وأول هذين المصنفين، و يبدو أن فكرته الأساسية مستوحاة من ماينهوف، قد أدخل لفظ «السوداني» وكان يشمل تقريبا كل اللغات في افريقيا الغير التابعة للمجموعة السامية والشاميتية (بالمعنى الفسيح الذي أعطاه اياها ماينهوف) والسان. وهو يعني بذلك أساسا كل اللغات التي كانت في ما قبل تسمى «لغات زنجية». واختار وسترمان من بين هذه المجموعة الفسيحة ثمانية لغات (ولا يقدم أبدا قائمة كاملة) خمس منها من السودان الغربي وثلاث من السودان الشرقي، وحاول أن يوجد القرابة بينها بواسطة سلسلة من الاشتقاقات ومن الصيغ القديمة بعد أن ركبها من جديد.

وقام ماينهوف، وقد اشتهر من قبل بمصنفة الاساسي عن الدراسة المقارنة للبانتو، بمحاولة في كتابه عن اللغات الحامية، ليفسح حدود الاسرة الحامية الى ما وراء ما كان مسلما به عادة، فأفحم فيها لغات كالفلفلدية والماساي والخيوي (متبعا في هذا لپسيوس) مستندا أساسا الى معيار الجنس. و يبرز هذا الكتاب بوضوح اعتقاده بتفوق العرق «الحامي» (١٧).

و يبرز اذن من عملي ماينهوف و وسترمان، اذا جمعناهما تقسيم الى خمس مجموعات (السامي والحامي والسوداني والبانتو والسان) ونشرت هذه الاستنتاجات في البلدان الناطقة بالانكليزية، نشرتها اليس و يرز وصارت القاعدة في كتب الانثروبولوجيا واللسانيات (١٨).

وقد وقع الرد على هذا التصنيف منذ الفترة التي ساد فيها (حوالي ١٩١٠ - ١٩٥٠) ولو أن النقد لم يبرز في الكتب المعهودة فقد أتى الأهم منه من وسترمان نفسه، في دراسته الجلييلة سنة ١٩٢٧ عن اللغات السودانية الغربية (١٩)، في هذا المؤلف يقصر تصويره السابق عن اللغات السودانية على لغات غربي افريقيا، وصار يميز بواسطة وثائق معجمية ونحوية مفصلة، بين عدد من المجموعات الفرعية المتخصصة ضمن السودانية الغربية (مثلا الاطلسي الغربي وكوا وجور). وأشار وهذا أشد أهمية - الى أوجه شبه جزئية من حيث المعجم ومن حيث البنية النحوية بين السودانية الغربية والبانتو، ولكنه لم يقل بالقرابة بينها بكيفية صريحة: فكان السر هنري جونسون في كتابه الواسع عن

(١٦) د. وسترمان ١٩١١ء، س. ماينهوف ١٩١٢.

(١٧) صارت الفرضية الحامية قاعدة متقدمة للتفسير الثقافي والتاريخي. أنظر عن هذه المسألة إ. ر. صندر، ١٩٦٩، ص ٥٢١ - ٥٣٢.

(١٨) أ. ورنر ١٩١٥، و ١٩٣٠.

(١٩) د. وسترمان، ١٩٢٧.

البانتو ونصف البانتو هو الذي رأى أن كثيرا من اللغات في افريقيا الغربية لها قرابة بالبانتو (٢٠) وهي التي كان يشير اليها بتعبيره «نصف بانتو». على أنه استمر على الأخذ بالمعيار النموذجي للأصناف الاسمية، بحيث اذا كانت لغتان وثيقتي القرابة وكان لواحدة فقط أصناف اسمية، فهي التي تعتبر نصف بانتو بينما الأخرى ليست كذلك.

ويجدر أن نشير باختصار الى تصنيفات أخرى في الفترة ١٩١٠ - ١٩٥٠ لم يشتهر من بينها سوى تصنيف دولافوس. وأحد هذه التصنيفات اقترحه أ. دريكسل، فحاول أن يظهر علاقة بين أسر اللغات في افريقيا والثقافات، وكانت هذه العلاقة موضوعة كمبدأ مسلم به من قبل دارسي الثقافة الالمان. وخلافا للباحثين الالمان في هذه الفترة، جعل الباحث الفرنسي دولافوس الإحصائي في الدراسات الافريقية «الحامية» محدودة في البربرية (٢١) والمصرية وللكوشيتية واعتبرت سائر اللغات الأخرى الغير السامية أو الخويسانية كأسرة كبيرة زنجية افريقية (٢٢) فعلاوة على الفروع الستة عشر المتبقية من غير البانتو، وقد حدد كثيرا منها بناء على معايير جغرافية أكثر منها لسانية، يبدو أن دولافوس اعتبر أنه يجب أن يكون البانتو ضمن اللغات الزنجية الافريقية، وما زالت بعض المصطلحات التي استخدمها دولافوس مستعملة بين علماء الدراسات الافريقية الناطقين بالفرنسية. ويجب أيضا أن نذكر الآنسة هيركر التي انطلقت من فكرة الوحدة اللسانية الافريقية، لكن بصورة أفسح، فأتخذت نظرية المصدر المصري كتفسير لهذه الوحدة بل، بقطع النظر عن التضارب، نظرية الاشتقاق البعيد انطلاقا من لغات درافيدية هندية (٢٣).

وسنة ١٩٤٩ - ١٩٥٠ حدد صاحب هذا الفصل، في سلسلة من المقالات المنشورة في المجلة الجنوبية الغربية للأنثروبولوجيا، تصنيفا كان جديدا من عدة وجوه وتم التسليم به نهائيا بصفة عامة (٢٤). وكان هذا التصنيف يخالف التصنيف السابقة في عدة نقاط. فكان وراثيا تماما بالمعنى المحدد في مقدمة هذا الفصل، فيعتبر أوجه الشبه المتعددة بين مجموعات اللغات أوجها قطعية، فهي تتعلق في آن، واحد بالصوت وبالمعنى، سواء كان الشأن درس الجذور (للمعجم) أو المركبات النحوية.

فكانت التشابهات المتعلقة بالصوت فقط، كوجود النبرات مثلا أو المتعلقة بالمعنى فقط، كوجود الجنس النحوي دون مطابقة في الأشكال الصوتية للخواتم، غير مقنعة.

(٢٠) هـ. هـ. جوينستون، ١٩١٩ - ١٩٢٢.

(٢١) أضيف هذا التعليق بطلب من عضو من اللجنة: إن هذا التصنيف ليس فحسب معاكسا لآراء الباحثين الألمان، ولكنه معاكس فعلا للحقيقة العلمية المحضة. لقد اكتشف علماء اللسانيات بافريقيا الشمالية العمل السياسي التي دفعت المدرسة الاستعمارية الفرنسية لعلماء البربرية، الى تصنيف اللغة البربرية ضمن اللغات السامية الشامية، والواقع أن البربرية لغة سامية بل هي من أقدم اللغات السامية، ولها علاقات وثيقة جدا مع الأكادية والعبرية. فليست إذن حامية سامية ولا أفروآسيوية كما سبق أن قيل في هذا الفصل. أنظر خاصة بالعربية م. الفاسي: البربرية شقيقة العربية، مجلة مجمع القاهرة ١٩٧١.

(٢٢) م. دولافوس، ١٩٢٣ ص ٤٦٣ - ٥٦١.

(٢٣) ل. هيرجر ١٩٤١.

(٢٤) عن النسخة الحديثة من تصنيف كرينر أنظر ج. هـ. كرينر. وتوجد ببليلوغرافيا المؤلفات التي ناقشت هذا الموضوع لدى د. ونستن: تصنيف غرينبرغ للغات الافريقية دراسات عن اللغة الافريقية، مجلد ٧، ١٩٦٦، ١٦٠ - ١٧٠ ولوجهة نظر أخرى، أنظر الفصل ١١ للأستاذ ألدرودج.

وكانت هذه الصفات النموذجية كما شاهدنا تلعب دورا مهما في التصنيفات السابقة. فوجود الجنسين مثلا، المذكر والمؤنث لم يكن وحده يعتبر حجة قرابة، إذ أن هذا التمييز للجنس قد يظهر، ويظهر فعلا بكيفية مستقلة في أجزاء مختلفة من الدنيا. وبالعكس فإن وجود حرف ك علامة للشأنيت في كل الفروع الإفروآسيوية (حامية — سامية) إشارة إيجابية للقرابة. كما أن انعدام التمييز للجنس بفقدان النوع ليس في حد ذاته حجة سلبية.

وبصفة عامة، فإن هذه المبادئ من المسلم بها في المجالات التي استقرت فيها الأساليب المقارنة، مثلا في الهندية — الأوربية، الفارسية والآرامية والحلية على الخصوص لا تميز بين الجنسين، بينما نجد تمييزا لذلك في معظم اللغات الأخرى من هذه الأسرة.

ثم إن التصنيفات القديمة، كتصنيف ليسيوس، لم تستند ولم تدل بأي حجة مادية لجمعها في تصنيف واحد. ووترمان في كتابه عن السودانية أعطى الاشتقاقات إلا أنه اقتصر على ثماني لغات من بين مئات منها، والمصنف الوحيد الذي أتى بالحجة مفصلة قبل سنة ١٩٥٠، وهو كتاب لوترمان عن السودانية الغربية، ولم يعين إلا بجزء من إفريقيا..

وفي تصنيف صاحب هذا الفضل قدمت اشتقاقات وخصائص نحوية مشتركة الميزة بالنسبة لكل المجموعات المهمة، بناء على دراسة استقصائية للأدب.

وأهم المقترحات المادية، وقد أثار بعضها جدالات عنيفة هي الآتية:

— تتقبل قرابة البانتومع السودانية الغربية حسب معطيات وترمان، فبصير البانتولا قرعا متميزا من هذه الأسرة الفسيحة، بل مجموعة فرعية مما سماه وترمان المجموعة الفرعية بينوي — كنغو (نصف البانتو) من فرع السودانية الغربية. ثم إن عددا كبيرا من اللغات المستعملة جهة الشرق (فرع إداماوا الشرقي) ينتمي إلى هذه الأسرة التي صار لها اسم جديد النيجر — كونغو.

— من بين امتدادات الحامية التي اقترحها ماينهوف بقيت واحدة فحسب هي الهوسا. ثم إن الهوسا ما هي إلا عنصر من فرع أفسح (التشادي) من الحامية السامية، والسامية مشحمة فيها إلا أنها ما هي إلا فرع في رتبة سائر الفروع. فتصير الحامية إفروآسيوية للفروع غير السامية من أسرة أفسح تسمى اليوم إفروآسيوية، ويستبر أنها تشمل خمسة فروع: (٢٥) ١ — البربرية ٢ — المصرية القديمة ٣ — السامية ٤ — الكوشيتية ٥ — التشادية.

— واللغات «الزنجية» التي لم تدخل ضمن المجموعة نيجر — كنغو قد صنف في مجموعة أخرى كبيرة سميت النيل — الصحراوي.

— كان الخوي حوي مصنفا كلغة سان، وينتمي إلى المجموعة الوسطى من الخويسان في إفريقيا الجنوبية.

والنتيجة العامة هي أن لغات إفريقيا ما عدا (الرينا) صنف إلى أربع أسر رئيسية توصف في الأقسام التالية، وخصص كل قسم بالتفصيل لكل أسرة من هذه الأسر (٢٦) وسيذكر العرض

(٢٥) ج. لوكا، ١٩٣٨، ص ٢٨٦ — ٢٩٩، ج. ركوهان، ١٩٤٧.

(٢٦) توجد قوائم من اللغات أكثر تفصيلا مما هو ممكن في مثل هذا الفصل في غرينغ، المصدر المذكور، وفي مجلدات السلسلة، كتاب الجيب للغات الإفريقية نشرها المعهد الدولي الإفريقي في لندن، وفي فوكالين (س. ف. وق. م): فهرس لغات الدنيا، واشنطن، ديوان التربية، مكتب البحث، ماي، ١٩٧٣، ٦ أجزاء.

الآتي، عند الحاجة، المقترحات الحديثة التي تعدل محور أو توسع مجال التصنيف الاصيل، وكذلك الانتقادات الموجهة له في المحتوى.

## اللغات الافروآسيوية (٢٧)

هذه اللغات المدعوة أيضا حامية سامية تمتد على كامل افريقيا الشمالية وتقريبا على كامل القرن الشرقي الافريقي (اثيوبيا، الصومال) وبعض اللغات من فرعها الكوشيتي نحو الجنوب حتى طانزانيا، ثم ان الفرع السامي يشمل لغات تغطي اليوم أو غطت في الماضي كل الشرق الاوسط تقريبا.

وتعتبر الافروآسيوية عامة مشتملة على خمسة فروع متساوية التمييز تقريبا: البربرية (٢٨) المصرية القديمة، السامية، الكوشيتية والتشادية. على أن فليمنج تقدم مؤخرا بما مفاده، أن من بين اللغات المصنفة حتى الآن ضمن الكوشيتية الغربية مجموعة تضم الكافا وعدة لغات من الجنوب الغربي في اثيوبيا تكون في الواقع فرعاً سادساً، اقترح لها اسمي: الاوموتي وآري ياناً (٢٩).

ويعرض الفرع البربري من الافروآسيوية من التفرقات الداخلية أقل مما تعرض سائر فروع هذه الاسرة ماعدا المصرية، وأهم تقسيم له يبدو بين لغات مختلف المجموعات الطوارق في الصحراء وبين البربرية الحق المتكلم بها في افريقيا الشمالية وفي موريتانيا. ومن المحتمل ان لغة الغوانش التي انقرضت من الجزر الخالدات، كانت تنسب الى البربرية. ثم انه يجدر أن نذكر ما يوجد من نقوش بالليبية القديمة لم تفهم تمام الفهم؛ ولعلها تكون شكلاً سابقاً للبربرية.

ويشهد على فرع ثان من الافروآسيوية، وهو فرع المصرية في أقدم فترة له، نقوش بالهيروغليفية وبرديات كهنوتية (هيراطيقية)، وأخيراً، وثائق بكتابة شعبية (ديموطيقية). وتسجل كل هذه الكتابات نفس اللغة المتكلم بها، وفي العهد المسيحي توصل التكلم بهذه اللغة، فانتجت أدبا جليلاً كتب بالنبائية مقتبسة من الالفبائية اليونانية. وفي هذا الشكل المتأخر المدعوبالقبطية، وجدت عدة لهجات أدبية، منها البحرية وهي مازالت باقية كلغة دينية طقسية في الكنيسة القبطية. وبعد فتح العرب لمصر، تقلص ظل اللغة المصرية شيئاً فشيئاً. ومن المحتمل أنها انقرضت كلغة تخاطب في القرن السابع عشر الميلادي.

وأما الفرع السامي من الافروآسيوية ففيه من الفروق الداخلية أكثر مما في البربرية أو العصرية. ومن المسلم به عامة أن أهم تقسيم لها هو وجود سامية شرقية وسامية غربية. ولا يمثل الاولى سوى الأكادية المكتوبة بالخط المسماري. وقد انقرضت منذ عهد بعيد، وكان لها لهجتان جهويتان أساسيتان، هما البابلية في الجنوب والآشورية في الشمال. وتقسم السامية الغربية بدورها

(٢٧) ذكر الباحثون الافارقة في لقاء القاهرة عن «عمران مصر القديمة» ان الأستاذ غرينبرغ كان أغفل في تصنيفه معطاة رئيسية: وضع القواعد الصوتية. وكان موقفهم هو موقف الأستاذ استفان فودور. وقدم هؤلاء الباحثون الافارقة حججاً تدل على القرابة اللسانية الروائية بين المصرية القديمة واللغات الافريقية المعاصرة.

(٢٨) انظر تعليق رقم ٢١.

(٢٩) هـ. س. فليمنج ١٩٦٦، ص ٣-٢٧.

الى سامية الشمال الغربي وسامية الجنوب الغربي. وتشمل الاولى الكنعانية (عبرية، موابية، فينيقية ومن المحتمل اوغاريتية) والآرامية. ولم يبق من هذه اللغات سوى العبرية وقد تم احيائها خلال القرن الفاتت كسلغة لاسرائيل وبعض اللهجات الآرامية. وتمثل الأشكال المعاصرة من الآرامية أحفاد الآرامية الغربية، بالجبل المقابل لجبل لبنان في سوريا. والآرامية الشرقية في العراق الشمالي. ولسامية الجنوب الشرقي أيضا فرعان، فرع الشمال وفرع الجنوب، ويشمل الأول معظم اللهجات المعروفة في الجزيرة العربية، واللهجات العصرية السائدة في منطقة فسيحة تشمل شمال افريقيا والشرق الأوسط وبعض اجزاء السودان وهي اللغة العربية الحق. وفرع الجنوب يشمل عربية الجنوب من جهة ولغات اثيوبيا السامية من جهة أخرى، وعرفت العربية الجنوبية في أشكالها القديمة من خلال نقوش كتابية منوية وسبابية وكتيبانية وفي أشكالها العصرية المهرية والشهرية، في جنوب الجزيرة، والسوقطرية، لغة جزيرة سوقطرا في المحيط الهندي.

وتقسم اللغات السامية الاثيوبية الى مجموعة شمالية (تغرينيا، تيكرى وكاز أو الاثيوبية الكلاسيكية) ومجموعة جنوبية (أمهرية وكوارج وأركبنا وكافات وحرارية).

وأما المجموعة الرابعة من اللغات الافروآسيوية أي الكوشيتية فتشمل عددا كبيرا من اللغات تتوزع الى خمسة فروع قوية التميز: الشمالي والأوسط والشرقي والجنوبي والغربي. والكوشيتية الشمالية تشمل أساسا لغة واحدة، البجة، والوسطى تسمى أحيانا لغات أغاو. ومن المحتمل أنها في الماضي كان يتكلم بها على مساحة متصلة، ولكن الناطقين بها القدامى قد استعملوا بنسبة قوية اللغات السامية الاثيوبية وكان الفلاش أي اليهود الاثيوبيون في القديم يتكلمون بلغة أغاو. وتشمل اللغات الكوشيتية الوسطى على مجموعة شمالية (بيلين، خيرقنت) وعلى الآوا في الجنوب. وتشتمل الكوشيتية الشرقية على اللغتين الكوشيتين اللتين يتكلم بها أكبر عدد من الناطقين وهما الصومالية والكللا. وتتوزعان على المجموعات الآتية: ١ — أفار ساهو، ٢ — الصومالية البيسو الرنديل، البوني، ٣ — الكلا، كنسو جيدولي، اريوري، وزري، تساماي، جلابا، موكونودو. ٤ — سيدامو، ألأبا، دراسا، هاديا، كمباطا، برجى، ويمكن بدون شك أن يعتبر المجموعة الأخيرة أي «سيدامو — برجى» فرعا معاكسا للمجموعات الثلاث الأخرى. وتستعمل الكوشيتية الجنوبية في طانزانيا وتشتمل على البرنجي والكزوا والالاوا والنكومفيا (أسو) والساني والمبوجو، وهذه المجموعة الجنوبية أقرب لسانيا الى المجموعة الشرقية منها الى سائر المجموعات، ومن الممكن جدا أنه ينبغي أن تعتبر مجرد مجموعة فرعية. وقد تأثرت لغة كوشيتية جنوبية، المبوجو، تأثرا قويا بالبانتو، من حيث النحو ومن حيث المعجم، فيعتبرها بعض الباحثين لغة مختلطة.

وتختلف اللغات الكوشيتية الغربية اختلافا كبيرا عن سائر اللغات المعتمدة تقليديا كوشيتية. وعلى الأقل يجب تقسيم الكوشيتية الى مجموعتين، الغربية وغيرها. وكما ذكرنا أعلاه فان فيلمنج اقترح أن تعتبر الكوشيتية الغربية فرع سادس متميز عن الأفروآسيوية، ويمكن تقسيم اللغات الكوشيتية الغربية الى مجموعتين: الآري — بنا (وقد استعمل في الأدب القديم لفظ با كوعوضا عن آري) وغيرها. ويمكن تفريع هذه الأخيرة بدورها كما يلي: ١ — ملجي، ناو، مشيكو؛ ٢ — جنجيرو؛ ٣ — كفا، موشا، شيناشا، ماو الجنوبي؛ ٤ — جيميرا؛ ٥ — المجموعة أوميتو



«سيداموغري» و يضم الشارا والمالي والبسكيتو، والمركب و يلامو والزياس والكويرا — جيدشو.

وأخر فرع من الافروآسيوية يجب اعتباره هو الفرع التشادي، و يتضمن الهوسا، أكثر اللغات انتشارا في افريقيا الغربية، ومن المحتمل على الأقل وجود مائة لغة أخرى يستعملها ناطقون بها، عددهم أقل بكثير. وقسمت اللغات التشادية عند غرينبرغ (١٩٦٣) الى تسعة مجموعات فرعية:

— (أ) الهوسا الغوندرا، (ب) بيد نغيزم، (ج) ١ مجموعة ورجوا (البنشي الشمالي) ٢ مجموعة بروا (البنشي الجنوبي)، (د) ١ — مجموعة بلوا ٢ — مجموعة انكاس ٣ — مجموعة الرون، ٢ — مجموعة كوتوكو، ٣ — بتامرجي، ٤ — (أ) مجموعة مسغوي (ب) مجموعة مكتام، ٥ — جدر، ٦ — مندرا كامركو، ٧ — مسكو، ٨ — مجموعة ماسا بانا، ٩ — التشادي الشرقي (أ) مجموعة سمراري (ب) مجموعة كابري (ج) مجموعة سوكورو (د) مدجل (هـ) توبوري (و) مجموعة موي.

وأوحى نيومن وما، أن من بين الاسرات الفرعية أعلا عدد ٣ و ٦ متقاربان جدا، الواحدة من الأخرى، وكذلك الرقان ١ و ٩. وهما يقترحان للأولين اسم بيومندارا وللآخرين اسم نجد — ساحل (٣٠) وهما لا يقترحان أي تبديل فيما يخص سائر المجموعات الفرعية.

## النيجر الكردوفاني

تشمل هذه الاسرة فرعين مختلفي القيمة من حيث عدد الناطقين بها ومن حيث انتشارهما الجغرافي، فالفرع الأول، النيجر — كنغو يمتد على جزء كبير من افريقيا جنوبي الصحراء، يشمل تقرىبا كل افريقيا الغربية، وعدة جهات من السودان الاوسط والشرقي، وبجزئه ألبانتو، معظم افريقيا الوسطى والشرقية والجنوبية، والفرع الثاني من النيجر الكرد وفاني وهو الكردوفانية بالذات، محصور في منطقة محددة من جهة الكردوفان الكائنة بالسودان.

والتقسيم الاساسي في مجموعة النيجر — كنغو هو التقسيم بين لغات مندي وغيرها. فيتميز المندي من جهة بانعدام عدد من الوحدات المعجمية الموجودة في سائر لغات النيجر — كنغو، ومن جهة أخرى بانعدام كل أثر موثوق به من تصنيف الاسماء الموجود عامة في الكردوفانية وفي سائر لغات النيجر — كنغو. وبالطبع يوجد عدد كبير من هذه اللغات قد أضاع هذا النظام اضاءة فردية. واقتراح موكارفسكي بموجب هذا التخالف من قبل لغة مندي، ان تعتبر الاسرة الكبيرة الثانية من اللغات الزنجية، فرعا من النيلية الصحراوية، الا أن الخبير الشهير بلغات مندي ويليام أ. ولرس لا يقبل هذا الاقتراح (٣١).

ومن المسلم به بالاجماع اليوم، هو أن التقسيم الداخلي للمندي الى مندي — طان ومندي — فو الذي اقترحه دولافوس (٣٢) والمعتمد على اللفظ الدال على رقم العشرة هو تقسيم لا قيمة له. وتصنف لغات مندي كما يلي:

(٣٠) ب. نيومن ور. ما، ١٩٦٤، ص ٢١٨ — ٢٥١.

(٣١) هـ. غ. موكارفسكي، ١٩٦٦، ص ٦٧٩ — ٦٨٨.

(٣٢) م. دولافوس، ١٩٠١.

— مجموعة الشمال الغربي: ١ — المجموعة الفرعية الشمالية وتشمل اليا لونكا الفرعية والسونينكي والكوالا نومو، اللكي والوادي كونو والخصنكي والمانكا ببرا — ديولا؛ ٢ — المجموعة الفرعية الجنوبية الغربية: مندي — بندي، لوكو لوما، كباتي.

مجموعة الجنوب الشرقية: ١ — المجموعة الفرعية الجنوبية، مانو، دان، تورا، مواء، نوا، كان، كورو؛ ٢ — المجموعة الفرعية الشرقية: سامو، بيسا، بوسا؛ ولغة واحدة، السيا (بوفونك) لا تجد لها محلا في هذا الجدول. وهي مندي بوضوح، ولكن يمكن اعتبارها فرعاً أولاً متميزاً من هذه المجموعة، بحيث أنها قد تمثل وراثياً إحدى مجموعتين ثانيتهما المندي بالمعنى الدقيق.

وتصنف سائر لغات النيجر — كونغو عند غرينبرغ (١٩٦٣) في خمسة فروع: ١ — الغربي الأطلسي؛ ٢ — كورو؛ ٣ — الكوا؛ ٤ — البينوي كنغو؛ ٥ — أدما والشرقي. إلا أن المجموعات ٢ و ٣ و ٤ متقاربة بصورة خاصة وتكون نوعاً من نواة ليس الحد داخلها واضحاً فيما بين البينوي — كنغو والكوا (٣٣).

وقد أدخل وسترمان تسمية لغات أطلسية غربية سنة ١٩٢٨ فهي تغطي تقريباً عين اللغات التي تغطيها السنغالية — الغينية عند دولافوس والباحثين الفرنسيين من بعده. وتكون هذه اللغات مجموعتين محددتين واضحتين، مجموعة شمالية ومجموعة جنوبية. وذلك مع ما يوجد من تنوع داخلي بين المجموعة الشمالية مما دفع دالي إلى أن يقترح التخلي عن مفهوم الأطلسي الغربي واعتبار المجموعة الجنوبية كفرع مستقل متكون من المجموعة الأطلسية الجنوبية الغربية عند غرينبرغ ما عدا الليمبا. ويقترح اسم ميل (٣٤) لهذه المجموعة، ومع ذلك فإن دافيد ساير في دراسة قرية العهد، مدعمة بحجج تسلسل زمني صوتي، يؤكد من جديد الوحدة الأساسية للغرب الأطلسي كما تم تصوره تقليدياً، ويدخل الليمبا ضمن فرعه الجنوبي (٣٥). وأهم تجديد يتقدم به هو اعتبار البجا كولغة لجزء بيجاكو، كفرع منفصل، له عين الرتبة التي للفرع الشمالي والفرع الجنوبي. وهذا يوافق ملطدي من شعور بمباينة هذه اللغة لغيرها، ويجدر أن نذكر أن الفلفلية (فولا أو فوليا) التي اعتبرها ماينوف كلفة شاميتية وكانت محل عديد من الجدالات، صارت اليوم في رأي الجميع، ضمن الغرب الأطلسي، وتصنيف هذا الأخير كما يلي:

الفرع الشمالي: ١ — (أ) فولا، سيرير، (ب) وولوف؛ ٢ — مجموعة نون؛ ٣ — ديولا، منجك، بلنتي؛ ٤ — (أ) تندا، بساري، بديك كونياجي؛ (ب) بيافادا، باجادي؛ (ج) كيبانا — بنوم — (د) نالو.

الفرع الجنوبي: ١ — سوا (كوننتي)؛ ٢ — (أ) تمي، باكا؛ (ب) شبرو — كرم، كيسبي؛ (ج) كولا؛ ٣ — ليمبا.

بيجاكو: ويمثل الكور داخل النيجر — كنغو مجموعة أخرى منها. ويسمى أيضاً، خاصة في

(٣٣) عن هذا الموضوع انظر ج. هـ. غرينبرغ، ١٩٦٣، ص ٢١٥ — ٢١٧.

(٣٤) د. دلي، ١٩٦٥، ص ١ — ١٧.

(٣٥) أنظر هـ. ساير، ص ١١٣ — ١٤٠ في المجموعة المنشورة بأشرف سيك، المصدر المذكور، إلا أن ساير احتريز بعض الاحترازاات عن النتائج المذكورة في النص.

الأدب الفرنسي، فلسطيني. وأحدث الآراء عن التصنيف داخل مجموعة كورهي آراء بندر - سامويل ونحن نتبع خطوطها العريضة.

ويجدر أن نلاحظ معظم اللغات التي اعتبرت ضمن الغور تنتمي الى مجموعة فرعية فسيحة جدا سماها بندر - سامويل بالكور الأوسط (٣٦) وهو يقابل الموسي كرنشي في البحوث السابقة. ويمكن تقسيم الكور الأوسط الى ثلاثة مجموعات فرعية: ١ - المور كورما؛ ٢ - مجموعة كروسي؛ ٣ - التمري. أما سائر المجموعات الفرعية للكور فهي: ١ - بركو (باريتا)؛ ٢ - اللوبيري؛ ٣ - بومو؛ ٤ - كولنكو؛ ٥ - كرما طيوراما؛ ٦ - وين؛ ٧ - مجموعة سنوفو؛ ٨ - سيمي؛ ٩ - دوكون. وحتى ولو سلم بوجود مجموعة كوا متميزة عن البينيوي - كنغو المذكور أعلاه، فإنه يوجد مجموعتان فرعيتان، الكرو في أقصى الغرب، والايجو في أقصى الشرق، وقد يثار الشك في انتمائها لمجموعة كوا. وفيما عدا هذا الاحتراز فإن أهم المجموعات الفرعية للكوا هي الآتية: معددة بقدر الاستطاعة من الغرب إلى الشرق: ١ - لغات كرو؛ ٢ - الكوا الغربي ويشمل الاو - فوولا لا كان - كنك (ومسي اليوم أحيانا فولطا - كاموي) والكا - ادنكي واللغات المتبقية في الطوغو؛ ٣ - اليوروبا، الايكالا؛ ٤ - مجموعة النوب؛ ٥ - مجموعة الايدو؛ ٦ - مجموعة ايدوما؛ ٧ - ايبو؛ ٨ - ايجو.

أما البينيوي - كنغو فهو أساسا مجموعة النيجر - كنغو التي كانت تسمى بينوي كروس، أو نصف بانتو من قبل وسترمان بإضافة البانتو لقسمه «الشبيه بالبانتو». وهناك أربعة أقسام أساسية في البينيوي - كونغو: ١ - لغات النجد؛ ٢ - الشبيه بالجوكو؛ ٣ - وادي كروس وأهم لغة فيه هي مجموعة إفيك إيببيو؛ ٤ - الشبيه بالبانتو ويشمل البانتو والتيف وعددا كبيرا من لغات أصغر في جهة بينوي الاوسط.

وعدد من لغات نيجيريا التي كانت تعتبر سابقا نصف بانتو بالمعنى الأعم، صارت اليوم تعتبر عامة بانتو، ومن الممكن أن نذكر في هذا القليل مجموعتي إكوي وجراو. والتقسيم الأساسي للبانتو نفسه قد يكون بين اللغات المذكورة أعلاه والبانتو بالمعنى التقليدي.

وفي هذا المعنى الأخير يبدو مقسما الى مجموعة شرقية ومجموعة غربية. ولزيادة التدقيق في القسمة تستعمل عامة قسمة كشرى الى مناطق معينة بالحروف، تتغير بطرق مختلفة حسب عدة انحصائين (٣٧).

وكان تصنيف مجموعة البانتو في جلته كمجموعة فرعية من البينيوي - كنغو الذي هو نفسه فرع من الاسرة العظمى النيجر - كنغو، أحد الأوجه التي داخلها النقاش الأكبر في تصنيف غربنبرغ. فستبقى كشرى على الخصوص النظرية القائلة بأن البانتو مستقل وراثيا وإن عديد وجوه الشبه الموجودة بين البانتو وسائر لغات النيجر - كنغو هي نتيجة لتأثيرات البانتو على مجموعة من اللغات متباينة أساسا. وهو يستنتج من هذه الفرضية أن نقطة الأصل للبانتو هي «نواة» الشابا الجنوبي، بينما يجمعها

(٣٦) أني أتبع هنا، من أجل تفاصيل المجموعة الفرعية، ج. ت، بندر سامويل النيجر - كونغو، كور، ص ١٤١ - ١٤٨ في سيبوك، المرجع قبله.

(٣٧) عن هذا التصنيف انظر م. كشرى، ١٩٤٨.

غر ينبرغ في الوادي الاوسط من البنيوي في نيجيريا، اذ هناك تستعمل اللغة الأوثق تناسباً مع المجموعة الفرعية الشبيهة بالبانتو في بينوي — كنغو (٣٨).

وأخر مجموعة تنتمي للنيجر — كنغو هي فرع آدماء الشرقي، فمجموعة آدماءوا يشمل عددا كبيرا من المجموعات اللسانية الصغيرة نسيبا، ومن بينها نذكر كمثالين التشمبا والمبوم. والفرع «الشرقي» يشمل عددا من اللغات ذات الاهمية الكبرى كالفنبا، في الجمهورية الافريقية الوسطى، والزندي (٣٩).

على العكس الاسرة الواسعة نيجر — كنغو التي نظرنا فيها قبلا، فان الآخر من النيجر — كردوفاني، أعني اللغات الكردوفانية لا يشتمل على أي لغة ذات قيمة كبيرة، وهو يتقاسم هضاب الكردوفان مع لغات متنوعة. من الأسرة النيلية الصحراوية. ويمكن تقسيم هذا الفرع الى مجموع فرعية خمسة متميزة كثيرا، ابعدها مجموعة التومتوم: ١ - كوالب؛ ٢ - تكالي؛ ٣ - طالودي؛ ٤ - كانلا؛ ٥ - تومتوم (و يسمى أيضا كوغلى — كرونكو) (٤٠).

## الأسرة النيلية الصحراوية

الاسرة الأخرى الكبرى من اللغات الزنجية الافريقية، هي النيلية الصحراوية، ويتكلم بها بصفة عامة في شمال لغات نيجر — كنغو وشرقيتها، وهي سائدة في وادي النيل الاعلى وفي الجهات الشرقية من الصحراء ومن السودان. ولكن لها مركز متقدم غربي في السنغاي في وادي النيجر السفلي. وتشمل فرعا متسعا جدا، الشاري — نيل، وهو يحوي معظم لغات الاسرة وفروعها، ونحن نسير من الغرب الى الشرق كلما أمكن ذلك، فان فروع الاسرة النيلية — الصحراوية هي التالية:

- ١ — السنغاي؛ ٢ — الصحراوي؛ أ — كانوري — كامبو، ب — تيدا — دازا، ج — زغاوا — برتي؛
- ٣ — مابان؛ ٤ — فرويان؛ ٥ — شاري نيل (ولزيادة التفاصيل انظر الأقسام والفقرات بعده)؛
- ٦ — كومان (كوما، غنزا، أدك، غولي، كوموز، وماو).

ولغات الشاري — نيل تشمل مجموعتين رئيسيتين، السوداني الشرقي والسوداني الاوسط، كما تشمل لغتين منعزلتين، البرتا والكوناما.

والسوداني الشرقي، هو المجموعة الأكثر أهمية من بين اللغات النيلية الصحراوية، وتحتوي على عشرة مجموعات فرعية هي: ١ — النوبي: أ — نوبي النيل، ب — نوبي كردوفان، ج — ميدوب، د — بركاد؛ ٢ — مجموعات مورلي ديدينغا؛ ٣ — باريا؛ ٤ — انكسانا (طابي)؛ ٥ — نيبا أفيثي؛ ٦ — تمين طويس — أوم — دنب؛ ٧ — مجموعة مراريت؛ ٨ — داکو (مجموعة داجو)؛ ٩ — نيلي مقسم الى: أ — نيلي غربي، بوروم، مجموعة لودو دينكا نويز، ب — نيلي شرقي: (١) — مجموعة

(٣٨) عن النقاش حول البانتو انظر م. كشي، ١٩٦٢، ص ٢٧٣ — ٢٨٢، ر. البيني ١٩٦٦، ص ٣٦١ — ٣٧٦ وج. هـ.

غر ينبرغ، ١٩٧٢ — ص ١٨٩ — ٢١٦.

(٣٩) توجد قائمة مفصلة للغات آدماءوا الشرقية لدى غرينبرغ، ١٩٦٦، ص ٩.

(٤٠) توجد ارشادات أكثر تفصيلا عن اللغات الكردوفانية عند غرينبرغ، ١٩٦٦، ص ١٤٩.

باري (٢) — كراموجونج، تيسو، تور كانا) ماسيا؛ ج — نيلي جنوبي، ناندي، سوك، تاتوجا. ١٠ — نيانغيا، توسو (ايك).

وتصنيف مجموعتين النيلي الفرعيتين، الشرقية والجنوبية، آثار جدالات حادة، فحين ضم ماينهوف الماساي الى اللغات الشاميتية، كان على ما يظهر ينوي ادخال لغات أخرى من هاتين المجموعتين، رغم شبههما مع اللغات المصنفة هنا. ضمن المجموعة النيلية الغربية، كالشكوك واللوو والدينكا.

وان هو فرق بين لغتين متشابهتين مثل الشلوك والماساي مثلاً، فذاك أساساً لأن الماساي له ميزة الجنس. وحاول وسترمان حلاً وسطاً بتسميته بالنيلية الشاميتية للغات النيلية الشرقية والجنوبية، معتمداً بدون شك، على فرضية انها لغات مختلطة. وخصص لفظ النيلي للنيلي الغربي. وتبنى توكر في البداية رأياً مشابهاً، ثم انه قرب أكثر هذه اللغات من النيلي مسمياً اياها ملحقات النيلي (٤١). وتوجد آراء أخرى حديثة متباينة: عنها رأي هو هنبركر الذي يقارن الماساي بالسامي، ورأي هنتنغفرد الذي يبدو أنه حاول احياء فكرة ماينهوف القديمة القائلة ان هذه اللغات شاميتية (٤٢). والمجموعة الثانية من الشاري — نيل، هي السوداني الاوسط. ويقسم الى ست مجموعات فرعية: ١ — البنكو — باكرمي؛ ٢ — الكرايش؛ ٣ — مورو — مادي؛ ٤ — مانكيتو؛ ٥ — مانكيتوايني؛ ٦ — لنسو.

## أسرة خويسان

لكل اللغات الخويسان، مصوتات ذات نغم خاص، ومعظم الذين يتكلمون بها ينتمون الى نموذج سان المتميز جسمانياً.

وتستعمل معظم اللغات الخويسان في افريقيا الجنوبية، الا أنه توجد مجموعتان صغيرتان من السكان منقطعين بعيداً جداً نحو الشمال في طانزانيا، هما الهاتسا والصنداوي وتختلف لغاتها كثيراً فيما بينها، كما تختلف مع لغات مجموعة افريقيا الجنوبية، وتقسم الاسرة الى ثلاثة فروع: ١ — الهاتسا؛ ٢ — الصنداوي؛ ٣ — خويسان افريقيا الجنوبية. ويقسم هذا الأخير ذاته الى ثلاثة فروع: ١ — الفرع الشمالي ويشمل لغات سان الشمالية وبعض آون والكنغ؛ ٢ — خويسان الوسيط وبه مجموعتان: أ — الكيشوار؛ ب — نارون، خوي خوي؛ ٣ — سان الجنوب، وهو الذي يظهر أكبر تفرقة داخلية، ويشمل عدداً كبيراً من لغات سان المتميزة (٤٣).

وكما شاهدنا في قسم من هذا الفصل خاص بتاريخ التصنيف فإن عدداً من علماء اللسانيات، بليك ولبسيوس وفيما بعد ماينهوف، قد فصلوا الخوي خوي عن سان، وجعلوا هذه اللغة ضمن

(٤١) انظر أ. ن. توكر، و. م. أ. بريان، ١٩٦٦.

(٤٢) انظر عن ذلك ج. و. ب. هنتنغفرد، ١٩٥٦، ص ٢٠١-٢٢٢، ج. هو هنبركر، ص ٢٨١-٢٨٧، و. ه. غرينبرغ،

١٩٥٧، ص ٣٦٤-٣٧٧.

(٤٣) انظر الرأي المعاكس للأستاذ أولدرج، الفصل الحادي عشر.

الشاميتية، ويدعم حاليا أ. و. ج. وستفال (٤٤) شكلا منقحا من هذه النظرية، وهو يقسم المجموعة الموصوفة هنا باسم خويسان إلى أسرتين مستقلتين، أحدهما الصنداوي وخوي خوي ويشمل الصنداوي ولغات خويسان الوسطى. ولكل هذه اللغات ما عدى الكيشوار تميز للجنسين، ولا يتقدم وستفال بأي رأي فيما يخص القرابة الممكنة مع الشاميتية - السامية. ومجموعة وستفال الثانية، الهندزاسان، يشمل الهاتسا ولغات سان الشمالية والجنوبية. ولكنه يعتبر أن القرابة بين الهاتسا ولغات سان غير ثابتة كامل الثبات.

ولغة مرينا التي فرضت نفسها بالنسبة إلى اللغات من أصل إفريقي المتداولة في بعض الجهات من الجزيرة الكبرى، ليست ضمن التصنيف أعلاه، فلم تناقش قط نسبتها إلى الأسرة الجزرية الجنوبية (ماليزية بولينيزية) وأقرب قريب لها داخل الأسرة في الراجح هو المانيان بورنيو (٤٥). وهناك لغة أخرى لم تذكر في هذا التصنيف: الميروتية (٤٦) وهي لغة ميتة كتبت بألفبائية ذات شكلين شكل هيروغليفي وشكل عادي لين وقد انقرضت هذه اللغة منذ القرن الرابع للميلاد تقريبا وليست معروفة إلا من اكتشافات أثرية تمت في منطقة تمتد تقريبا من أسوان في مصر الجنوبية إلى الخرطوم في السودان. ورغم كوننا نجعل قيمة الحروف المستعملة الصوتية، فليس لنا، بسبب انعدام النقوش المزودة للغات، إلا معرفة محدودة غير ثابتة بالمفردات والنحو، وأقدم نظرية كانت، أن هذه اللغة من النوبية (غريفيث) ورفضت فرضية حامية (ماينوف، زهلاز) بمقال جليل لهنتز. وأعيد عرض الفرضية النوبية مؤخرا في شكل أوسع، قدمها ترجر الذي يذكر أنها تنتمي إلى الفرع الثانوي السوداني الشرقي من النيل - الصحراوي، وهو يشمل النوبية (٤٧) حسب تصنيف غرينبرغ.

وفي النهاية ينبغي أن نذكر اللغات الأوروبية والهندية المستوردة حديثا ويتكلم بها، في بعض الحالات سكان مولودون في إفريقيا. فالانكلزية، علاوة على كونها يتكلم بها في إفريقيا الجنوبية وفي زيمبابوي، هي لغات أحفاد السود الأميركيين الذين أسسوا ليبيريا، وهي مستعملة أيضا في صورة مزيج (كريو) فريطاون (سيراليوني). والافريقان، قريب من النيرلندية، وهو مستعمل في إفريقيا الجنوبية. ويوجد في إفريقيا الشمالية عدد كبير من السكان يعرفون الفرنسية والإسبانية والإيطالية، ويوجد شكل مزيج من البرتغالية وهي اللغة الأولى لبضع الآف من الأشخاص في غينيا وفي جهات أخرى. وأخيرا عدة لغات ذات أصل هندي مستعملة في إفريقيا الشرقية، وهي تشمل اللغات الآرية والدرافيدية، وأهمها الكجراتي.

(٤٤) أ. و. ج. وستفال، ١٩٧٧، ص ١٥٨ - ١٧٣.

(٤٥) الاشارات التي تستند إليها هذه الفرضية مقدمة عند و. س. داهل، ١٩٥١.

(٤٦) نذكر أن في جانني (كانون الثاني) وفيغري (شباط) ١٩٧٥، أقيمت ندوة مهمة التأمّت في القاهرة للإشراف على مجلة البحوث عن حل: الغاز الميروتية، (انظر المجلد الثاني).

(٤٧) عن هذه المسألة انظر. هينتسيه، ١٩٥٥، ص ٣٥٥ - ٣٧٢ وترجر (ب. ج.)، كوش مجلد ١٢، ص ١٨٨ - ١٩٤.

## مختلف مراحل التصنيف التي اقترحها صاحب المقال

١- (١٩٤٩م - ١٩٥٠م)

١- النيجر - كنغو

٢- السنغاي

٣- السوداني الأوسط

٤- الصحراوي الأوسط

٥- السوداني الشرقي

٦- الافروآسيوي (حامي سامي)

٧- «كلك»

٨- «مابان»

٩- «ميمي ناشتكال»

١٠- «فور»

١١- تماني

١٢- كردوفاني

١٣- «كومان»

١٤- «برتا»

١٥- «كوناما»

١٦- نيانغيا

٢- (١٩٥٤م)

١- النيجر - كنغو

٢- السنغاي

٣- سوداني أعظم (١٥ سوداني شرقي) (١٣ سوداني أوسط) (١٤ برتا) (١٥ كوناما)

٤- صحراوي أوسط

٥- افروآسيوي

٦- «كلك»

٧- مابان (١٨ مابان) (١٩ ميمي ناشتكال)

٨- «فور»

٩- تماني

١٠- كردوفاني

١١- «كومان»

١٢- «نيانغيا»

### ٣- (١٩٦٣ م)

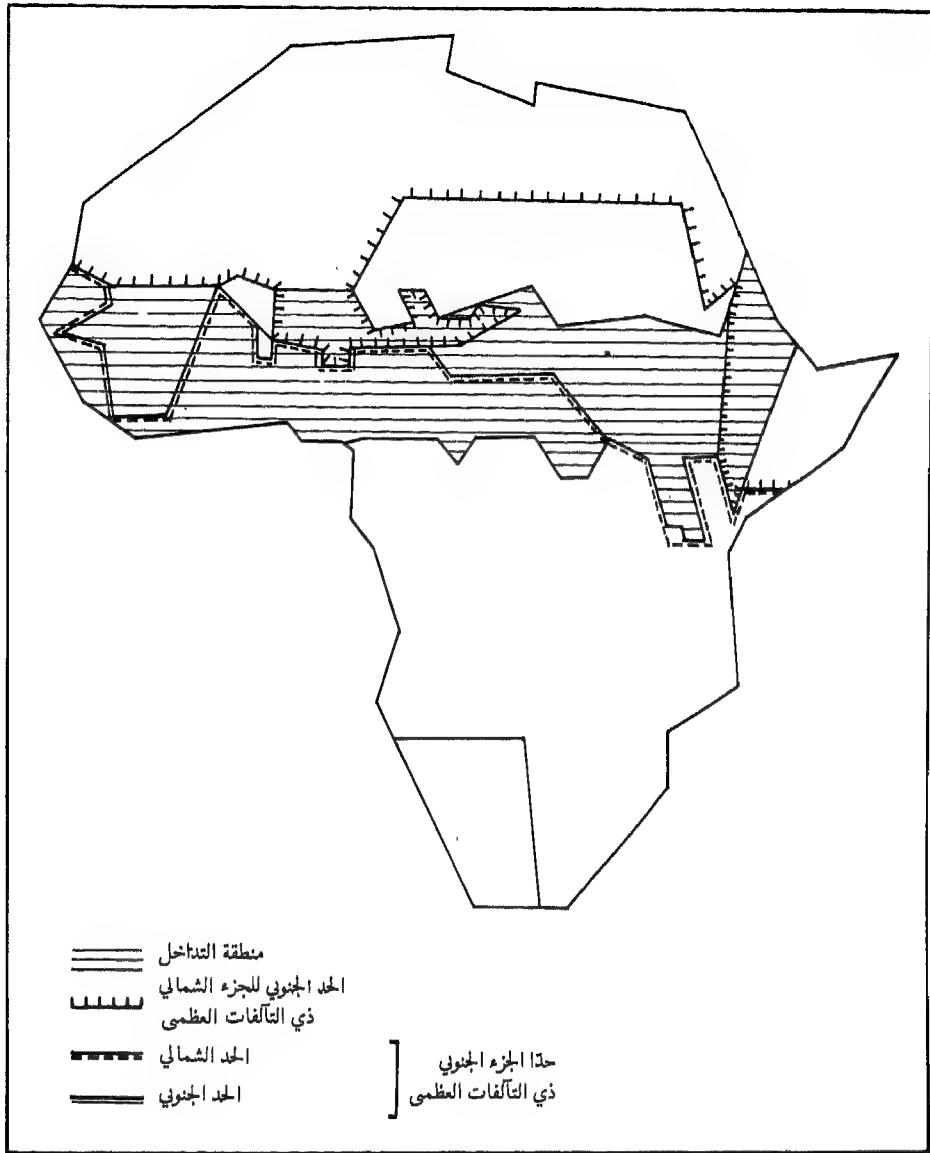
- ١- نيجري - كردوفاني (٢١ نيجر - كنغو. ٢١٠ كردوفاني)
- ٢- أفروآسيوي
- ٣- خويسان (انظر ٢٦ كلك)
- ٤- نيلي صحراوي (٢٢ سنغاي، ٢٤ صحراوي (انظر صحراوي أوسط) ٢٧ مابان، ٢٨ فور، ٢١١ كومان بإدخال، شاري - نيل، ٢٣ سوداني أعظم، ٢٩ تماني، ٢١٢ نيانغيا.

### - احالات

- ١- المجلة الجنوبية للانثروبولوجيا ١٩٤٩ - ١٩٥٠.
- ٢- المجلة الجنوبية للانثروبولوجيا ١٩٥٤.
- ٣- لغات افريقيا ١٩٦٣.







● رسم توضيحي للمخرطة اللغوية لأفريقيا

صحيحة صحة مطلقة، ينبغي أن يمثل عليها كل واحد من سكان القارة الافريقية بنقطة منيرة منعزلة. وقد تنتقل هذه النقطة تنقل الشخص نفسه، وإذا ما اضاءات فينبغي ان تتمكن من المرور بنحو الني لون مختلف حسب اللغة التي يتحدث بها ذلك الشخص المعني في ذلك الوقت المحدد بالذات.

وإذا يستحيل ماديا ان توضع خريطة من هذا النوع، فمن اللازم ان نكتفي بوثيقة، ان لم تكن بلغت الكمال، نأمل ان تكون فيها من التفاصيل والصحة مايفوق ما كان بين يدينا حتى الآن.

فإن عشر سنوات يعمل على وضع خريطة افريقية لغوية خاصة (بالمقابلة للخريطة السلاية). والهدف من هذا الفصل ان نؤكد على ملامح هذا العمل التي تتعلق بتاريخ افريقيا (٤).

ولو ان الدراسة المقارنة للغات الافريقية كانت تبدو في الخارج تقنية، فانها كثيرا ما قيم بها بكيفية ساذجة جدا. وقد نميل الى ان نسلم بان الخريطة اللغوية المشعبة الحالية، نشأت عن خريطة لغوية قديمة أبسط بكثير، وان العلاقات اللغوية قد تعبر عن نفسها في شكل «أشجار أنساب» متفرعة حسب طبقية تنازلية («الاسر» ما تحت الاسر «الفروع») وان الفكرة التي تقول: ان مئات ومئات من اللغات المعاصرة في افريقيا قد ترتفع، على نظام تصاعدي منظم، الى بعض «اللغات الامهات» هذه الفكرة قد حدت بالاخصائيين في اللسانيات المقارنة الى النظر في العلاقات الممكنة بين اللغات الافريقية حتى البعيدة بعضها عن بعض، قبل أن يشتوا ما بينها من علاقات مباشرة على اساس صحيح. وادى ذلك باللغويين الى الاعتناء اساسا بالسير التاريخي للتباين في اللغات ذات الاصل المشترك افتراضا، والى الا يعيروا اهتماما بسير التجمع بين لغات لا قرابة بينها، أو العودة الى الجمع بين لغات لها قرابة الواحدة من الاخرى. وازدادت نتائج هذه النظرة السيئة تعمرا بسبب ان التصنيفات التاريخية المزعومة التي وصلوا اليها بهذا الاسلوب، جعلت ايضا اطارات المرجع، (لا بالنسبة الى اللغات فقط بل حتى بالنسبة الى الاهالي في افريقيا). ونتيجة لذلك اثرت بدون موجب في تفكير المؤرخين في افريقيا.

ويمجد اذن قبل كل شيء ان يخلص ما للخريطة اللسانية الافريقية من تشعب، وذلك باختصارها الى ابسط مركباتها (اعني الجموع اللسانية التي توجد بينها صلات وثيقة وعلاقات جماعية، والتي تكون لها وحدة خارجية ووحدة داخلية (٥) (وحدات مركبة)، او لغات متميزة لا يمكنها ان تدخل في اية واحدة من هذه المجموعات = (وحدات بسيطة). وهذا العمل يكشف عن خاصية من خواص مهمة للخريطة اللسانية قد حجبها التصنيفات السابقة، وهي انه من بين ما يقرب من ١٢٠ وحدة بسيطة ومركبة في كل افريقيا، انحصرت مائة منها تماما في منطقة واحدة

(٤) خريطة لغوية لافريقيا والجزر المجاورة لها، شرع في وضعها من قبل (مكتب الدراسات الشرقية والافريقية والمعهد الدولي الافريقي). وتهدف هذه الخريطة الى ابراز التوزيع الحالي للغات «الام» او «الاولية» وعلاقاتها اللسانية، بمقياس ١: ٥٠٠٠٠٠٠، وعلى هذه الخريطة مثلت أيضا جهات أكثر تشعبا لغويا بمقياس ١: ٢٠٠٠٠٠٠، و١٢٥٠٠٠٠، ويعمل المعهد الافريقي الدولي حاليا (١٩٧٧) على طبع نشرة مؤقتة تتضمن قائمة نظامية للغات الإفريقية (تمهيدا لنشرة نهائية ستطبع فيما بعد من قبل لوكازان).

(٥) لأن قامت علاقة بين اللغات (أ)، و (ب) و (ج) يمكن ان تعتبر ذات «وحدة داخلية» على أن هذا التجميع لا معنى له اذا لم يكن لهذه اللغات «وحدة خارجية» اي اذا كانت العلاقة بين أ و ب، وبين ج و ب، وبين ج و ب في كل هذه الحالات اوثق منها بين كل من هذه اللغات الثلاث وبين اي لغة ليست من مجموعتها.

تمتد عبر إفريقيا كلها، من ساحل السنغال غربا حتى مرتفعات إثيوبيا وإفريقيا الشرقية، شرقا (٦) فإذا ما اعتبرت اللغات المختلفة (٧)، أن ثلثي المجموع تقريبا بالنسبة للقارة الإفريقية يتكلم بها داخل المنطقة التي تمتد تقريبا على ٥٦٠٠ كيلومترا طولاً، ولكن ليس لها أكثر من متوسط ١٠٠٠ كيلومتر عرضاً.

وتمتد هذه المنطقة على طول القفر الصحراوي، ونظرا لموقعها الجغرافي ولتشعبها اللساني يمكننا للتسهيل أن نسميها «منطقة التفريع تحت الصحراء». ويمكن تحديد نهاياتها حسب الجغرافيا الطبيعية واللسانية، فإنها بالجملة تجاور شمالا المغازات الصحراوية وشرقا الخصائص الجبلية وجنوبا حافة الغابة، وتنتهي غربا إلى الساحل الأطلسي وجهات التقسيم الأقصى؛ ومن الوجهة الجغرافية الطبيعية، تقع على طول المحيط «لمنطقة التفريع» في الشمال الشرقي، في الوسط وفي غربي هذه المنطقة وفي أقصى الجنوب من قرن إفريقيا الشرقية، وفي كتلة تشمل معظم إفريقيا الغربية. ومن حيث العلاقات البنوية والمعجمية العامة، فإن أشد الجهات تقسما تقع في الأرجح داخل قرن إفريقيا الشرقية وحول طرفها حيث تستعمل لغات تمثل «الاسر» الأربع التي يفترضها غرينبرغ في دائرة لا يتجاوز قطرها أربعين كيلومترا.

ففي هذه الصورة كما في مثل جبال الطوكو ونجد جوس وهضاب الكامرون وجبال نوبا والأراضي العليا في غربي إثيوبيا، يظهر أنه يوجد ارتباط بين بلاد الجبل وظاهرة التقسيم اللساني الشديد (٨). ويجدر أيضا أن يلاحظ، أن العلاقات الداخلية بين بعض الوحدات المركبة المتمثلة في لغات داخلية في منطقة التقسيم كلغات خارجة عنها أيضا، هي أقل وضوحاً أكثر فأكثر في نقطة التداخل بمنطقة التقسيم (٩).

وقد حجب ما لمنطقة التقسيم من قيمة لسانية وتاريخية تراكم شبكة من «الاسر» و«شبه الاسر» اللسانية التي افترضها علماء اللسانيات الأوروبيون والأميركان. ومن هذه الاسرائيتين من أهمها، بما لها من قيمة واضحة ومن فائدة، تفوقان الاسرتين الكبيرتين الاخيرتين في تصنيف غرينبرغ بل عدة «اسرة فرعية» رتبت ضمنها تقليدياً. وإذا أن كلمة «اسرة» تتضمن ترتيب بنوة ذات طابع بشري أو بيولوجي لا تليق بظاهرة اللغة،

(٦) من بين الباقية يوجد لا أقل من سبع وحدات تشمل لغات يتكلم بها على حافات منطقة التفريع (كما يستثنى لحسب بعض الوحدات الغير البنوية من جنوبي إفريقيا ومدغشقر).

(٧) في صورة العديد من مجموعات أشكال اللغات المتقاربة كثيرا أو قليلا لا يمكن أن تثبت سوى تميزات اعتباطية بين «اللغات» و«هجات اللغات» فإذا ما اعتبرنا جميع أشكال الكلام المفهومة قليلا أو كثيرا كلغات «متميزة يكون المجموع في إفريقيا نحو ١٢٥٠ لغة وإذا ما اعتبرت كل الاشكال كلغة قائمة بذاتها أتى تلوح هكذا لمن تكلمها، وأتى اتخذت لنفسها اسما متميزا، يقترب المجموع اذن من ٢٠٥٠ لغة.

لوطبقت هذه الطريقة الاخيرة على أوروبا واعتبرت السويدية والنرويجية والدانمركية لغات متميزة، ولكن اذا ما اتبعت الطريقة الاولى لزم عدها لغة واحدة. وكى نحصل على فكرة فيما يخص تقدير عدد اللغات المتكلم بها في إفريقيا، نقترح أن نتخذ معدل التقريرين تقريرا ١٦٥٠ لغة لإفريقيا، منها ١١٠٠ تقريرا (حسب بالطريقة نفسها) يتكلم بها في منطقة التفريع. (٨) نشير إلى نقطة مقارنة مهمة هي أنه توجد «منطقة تقسيم» مماثلة بالنسبة للغات الهندو في اميركا الشمالية. وهذه المنطقة الجبلية في معظمها لها نحو ٣٠٠ كيلومتر من الطول و٣٠٠ كم عرضاً. وتمتد على موازاة ساحل المحيط الهادي، من جنوبي الأسكا حتى الحدود المكسيكية، وتشتمل على منطقة تقسم أقصى في شمال كاليفورنيا (حيث أن مثلثات ست اسر كبيرة من ثمان فرضت للغات الهندو في اميركا الشمالية تقع في دائرة شعاعها نحو ١٦٠ كم).

(٩) اعني لغات سامية «كوشيتية» شرقاً وبانتو (بإدخال اللغات الشبيهة بالبنوية).

يمكن أن يفكر في تعويضها بعبارة «ناحية التآلفات الكبرى» «للدلالة دلالة صحيحة على كل من هاتين الاسرتين، خصوصا وانها تحتل نواحي متلاصقة تلاصقا قويا او ضعيفا في القارة الافريقية. واولى هذه النواحي أي الناحية الشمالية ذات التآلفات الكبرى» تعرف عادة باسم «الهامية السامية» وسميت حديثا «الأفرو آسوية» (غرينبرغ) او «الاريترية» (طكرو). والثانية أو «الناحية الجنوبية» للتآلفات الكبرى» سميت حديثا «النيجرية الكنفولية» و«الكنفولية - الكردوفانية» (غرينبرغ) او «الزنجبية» مردوك (١٠). ولم يحدث اي جدل حول الصلاحية العامة لهاتين الناحيتين ذاتي التآلفات الكبرى التي ظهرتنا لعلها اللسانيات الاوربيين منذ القرن السابع عشر (١١) وبدون شك ايضا للملاحظين الافارقة منذ عهد اقدم بكثير. ويعتبر من الاهمية النسبية لهاتين الناحيتين أنها تشمل على اكثر من ٨٠٪ من اللغات المتكلم بها في افريقيا، وتشمل الناحية الجنوبية بمفردها ما يقرب من ٦٦٪ من مختلف اللغات بالقارة. وحسب التصنيف التقليدي المستعمل في الخريطة اللسانية الموجودة حالية، فان لغات الناحية الشمالية تتوزع في الجملة الى سبع عشرة وحدة بسيطة ومركبة (اثني عشرة منها توجد تماما في منطقة التقسيم) وتتوزع لغات الناحية الجنوبية الى ثمان وخمسين وحدة بسيطة ومركبة (سبع وخمسون منها توجد تماما في منطقة التقسيم) (١٢).

وهناك سبب حاسم لكلي لا توضع مستويات متوسطة في العلاقات الموجودة بين المناطق الاساسية ذات التآلفات الكبرى على مستوى القارة والوحدات البسيطة او المركبة، على المستوى النسبي المحلي. وذلك انه، لموجب مازلنا نجهله، هذه المستويات الوسطية في العلاقات اللسانية ليس لها ما يفرضها بوضوح، وتحديد لها اصعب بكثير من تحديد المستويات الاساسية والمباشرة. فوحدة الاسرة «الاطلسية الغربية» أو «كوا» أو «كور» أو «بينيوي - كونكو» الداخلة في اطار الاسرة الجنوبية ذات التآلفات الكبرى أو وحدة «الاسرة» الكوشيتية أو «التشادية» في اطار الاسرة الجنوبية ذات التآلفات الكبرى، لم يتم بعد التدليل عليها بصفة قطعية. ولو أنه لوحظ منذ بعض سنين، ما للتصانيف التقليدية الاوربية والاميركية للغات الافريقية (١٣) من ضعف في هذه النقطة المهمة، فان المستويات الوسطية للتصنيف، مازالت تحتل مكانة ذات قيمة في المصنفات المخصصة. ومن بعض النواحي، انه في الامكان ان يقارن هذا الابقاء على التقسيمات الاعتبارية المفروضة على

(١٠) ان اسرة «الكنفولية الكردوفانية» غرينبرغ تشمل الاسرة التي يسميها «النيجرية - الكنفولية» مع مجموعة صغيرة من اللغات ذات قيماتها قرابة اقل مع الاسرة الكردوفانية وعبارة «زنجبي» توضع لتصنيف اقدم اعاد استعمله مردوك سنة ١٩٥٩.

(١١) انظر دراسة غرينبرغ في هذا المجلد (ص ٣ من النص المرفق) ويشير فيها غرينبرغ أيضا الى ان العلاقة بين اللغاشية والماليزية قد لوحظت بالطريقة نفسها منذ القرن السابع عشر الميلادي.

(١٢) داخل الناحية الجنوبية للتآلفات الكبرى فان الوحدة المركبة الوحيدة الواقعة (في معظمها) خارج منطقة التقسيم هي وحدة البانتو. على ان هذه الوحدة المركبة تشتمل بمفردها تقريبا على عدد من اللغات (نحو ٥٠٠) يساوي مجموع العدد في الوحدات السبع والخمسين الاخرى في هذه الناحية ذات التآلفات الكبرى.

(١٣) انظر دافيد دالي: [تأملات حول تصنيف اللغات الافريقية، مع احالة خاصة الى عمل سيكوتوند والهم كوال وملكم غوثري] دراسات اللسانيات الافريقية ١٩٧٠، ١ [ص ١٤٧ - ١٧١ (خاصة ١٥٧ - ١٦١).

• كل ما بين القعتين لا يوجد في النص المطبوع (تعليق المراجع محمد القاسي).

الخريطة اللسانية في إفريقيا، بتاريخ التقسيمات الاستعمارية الاعتبارية المفروضة على الخريطة السياسية للقارة الأفريقية.

وان كان غرينبرغ قد أدى خدمات جلي لعلماء اللسانيات الإفارقة نظراً لفت نظره إلى الاستعمال الاعتباري للفظ «حامي» للدلالة على نوع مستوى متوسط للتصنيف الموجود (١٤). فعليه من سوء الحظ مسؤولية الحفاظ الاعتباري على عدد كبير آخر من هذه المستويات وقد أثر سابقاً عدد من الشكوك على عدة من هذه المستويات (١٥) ولكن الأستاذ ستيرت قد نشر أخيراً تأكيداً واضحاً لتصنيف مجموعة «بينوي كنغو» وهي أكبر «أسرة فرعية» افترضها غرينبرغ.

وان من أهم النتائج لهذه الأعمال كلها (الحديثة) على لغات «بينوي كنغو» هو إثارة الشك حول صلاحية البينوي — كنغو كوحدة وراثية، ولقد بدئ بتقبل رأي غرينبرغ دون مناقشة حين زعم أن عدة تجديدات صودق عليها بصفة عامة، قد يكون لها قيمة الحجة. والواقع أنه لم يذكر منها سوى واحدة. اللفظ الذي يدل على «الطفل»، بينما يشير ولسون إلى أنه إذا ما اعتبرت المقابلات العادية المقبولة، قد نشاهد أن هذه الخاصية لا تنحصر في لغات بينوي — كنغو، فلا تكون إذن حجة قطعية، وزد على ذلك أنه، في كل الجزء الأول من كتاب «قائمة اللفاظ المقارنة» (١٦) لبينوي — كونغولا يوجد مثال واحد في مقام الحجة القاطعة. وحين يجربنا ستيرت بشكوكه منذ عهد بعيد حول الوحدة الخارجية لبينوي — كنغو، لا يسعنا إلا أن نتساءل عن السبب الذي من أجله أحجم اختصاصيو اللسانيات المقارنة عن ترك نظام تصنيفهم. ومن سوء الحظ أن كل المعوقة العملية المستمدة من البينوي — كونغواضعت، وعوض أن يتخلى ستيرت عن هذا المستوى وعن غيره من المستويات التي لم تثبت في تصنيفه المتوسطي — بفضل مواصلة تخطيط غرينبرغ ضاماً «بينوي كونغو» إلى «كوا» و«كور» (وهذان تصوران اعتباطيان أيضاً) ليكون تقسماً آخر، اعتباطياً هو بدوره، النيجر — كونغو «ويسمى الآن فولتا — كنغو» (١٧). ويلزمنا بدون شك أن ننتظر نتائج أعمال لسانية مقارنة أخرى لنرى «الفولتا — كونغو» لستيرت تتسع أكثر، كي تضم كل «النيجر — كونغو» أو الناحية الشمالية ذات التآلفات الكبرى وهو المستوى الأساسي الوحيد للوحدة الخارجية والداخلية الواضح المعالم المتفق عليه.

ومما يجب على المؤرخين أن يلاحظوه، أن «التقبل الفسيح» للتصنيف المعياري لغرينبرغ يتركز إلى حد بعيد، فيما يخص النيجر — كونغو، على تقبله هو ذاته — «مجموعات وسترمان» أو «الأسر الفرعية» للغات إفريقية الغربية. وكما أشرنا إلى ذلك من قبل، فإن وسترمان لم يثبت وحدة

(١٤) انظر مقال غرينبرغ في هذا المجلد.

(١٥) انظر دالي، المصدر قبله، ص ١٦٠.

(١٦) ج. م. ستيرت، ١٩٧٦، ص ٦.

(١٧) من السخرية أن نلاحظ أن «الأسرة الفرعية» الوسيطة الوحيدة الواضحة التي لا يداخلها شك لأسرة نيجر — كونغو غرينبرغ، هي المادني. ووضح هذه القسمة يشهد على أن هذه هي من «أسرها الفرعية» التخمينية الوحيدة التي لم يشك في انتمائها الأساسي إلى أسرة «النيجر — كنغو».

«مجموعاته» الخارجية (١٨) بينما تدل وحدتها الداخلية الواضحة فحسب، على ان اللغات التي تكونها تنتمي الى الناحية الشمالية ذات التآلفات الكبرى.

واذا صح انه ليس للمؤرخين ان يتقبلوا بدون احتراز التصنيفات الموجودة للغات الافريقية، فيجب ان نلح بكل قوة على ما للخريطة اللسانية في افريقيا من اهمية كمصدر للخبر عما قبل التاريخ لهذه القارة. ومازال الأمر يحتاج للقيام باعمال عديدة للتعلم في هذا الموضوع، ونحن ننتظر الجيل الجديد من مؤرخي اللغات الذين يكونون ايضا يتكلمون اللغات الافريقية، فيكون في متناولهم ان يدعموا الاعمال التمهيدية التي لا يستغنى عنها للمقارنة الدقيقة المفصلة للغات المجاورة الوثيقة القرابة. ومنذ ذلك يمكن حينئذ الرجوع الى التعبير التخطيطي الافصح لجملة الخريطة اللغوية في افريقيا. وعلى تشعبها اللغوي الذي يفوق تشعب سائر القارات. فان افريقيا حقا بارزة لكون ثلثي لغاتها يرتبطان بناحية واحدة ذات تآلفات كبرى، ولكون هذين الثلثين المتنوعي التركيب، ينحصران في حدود منطقة التقسيم في جنوب الصحراء. وافريقيا التي يتكلم فيها بالبانتو هي الناحية الوحيدة من القارة التي كانت موضوع نقاشات مهمة حول التعبير فيما قبل التاريخ للمعطيات اللسانية.

ومفتاح هذا التعبير في السلم القاري، يكون من شأنه ان يجعلنا نتفهم تفهما احسن العلاقات اللسانية داخل منطقة التقسيم. ومع ذلك لا يمكن ان ينقص من قيمة ضخامة العمل الذي يجب القيام به.





## الفصل الثالث عشر

# الجغرافيا التاريخية: المظاهر الطبيعية

د. دايارا

من الصعب، دون شك، أن يفصل التاريخ الافريقي عن الجغرافيا التي كانت له اطارا وحاملا. ولكنه من الصعب أن يعتمد على اعتبارات حتمية لادراك العلاقات التي تكونت بين المجتمعات الافريقية وبيئتها الخاصة، بما لهذه العلاقات من التشعب. وفي الحقيقة ان كل مجموعة قد تفاعلت بطريقة ازاء الوسط الذي واجهها. فاما من محاولات موفقة قليلا او كثيرا، لتنظيم المدى يشهد، هنا وهناك، بدرجة تنظيم البشر، وبما لتقنياتهم من النجاعة لاستغلال الموارد المحلية. على انه من المهم بالنسبة الى افريقيا المتحركة، أن ينظر في بعض الخصائص الجغرافية التي من شأنها أن توضح الأحداث العظيمة التي انتصبت كعلامات على طول المنظور الجغرافي التاريخي للقارة. وفي هذا الشأن، ان خواص التشكل التكويني العام الافريقي، وما يوحى به من منطق مناخي عجيب، وأخيرا ما للاوساط الطبيعية المكونة للقارة من طرافة، كل ذلك جوانب موروثه قد أعادت النشاط البشري، أو قد يسرته، لكن دون أن تتحكم أبدا وحتمًا في تطوره. وفي الخلاصة ليس الامر سهلا فيما يخص العلاقات في الصميم بين الطبيعية الافريقية وبين الرجال الذين يشغلونها ويستغلونها ويصلحونها ويغيرونها، حسب ما لهم من نظام سياسي، وما لديهم من وسائل التقنية، وما لهم من مصالح اقتصادية.

## خصائص التشكل التكويني في القارة الافريقية

انه من المسلم به عموما، أن افريقيا تنتمي الى قارة قديمة جدا كانت تشمل، قبل تصدعها نتيجة انهزام بطيء، على أميركا وآسيا الجنوبية واستراليا. من المحتمل أن تكون هذه القارة، هي غندوانا



وهي مظهر الجهود الاولى لانشقاق القشرة الارضية التي أثارت سلاسل ضخمة من الجبال، اتجاهاها العام من الجنوب الى الغرب، ومن الشمال الى الشرق، وانحرفت هذه التعاريج بشدة من جراء تعرضها الطويل، فردت الى اشباه سهول يشاهد أوسع أمثلتها في افريقيا.

### طرافة افريقيا الجيولوجية

ان طرافة افريقيا، يشهد بها أولا هذا الامتداد الحارق للقاعدة الكمبرية الاولى الذي يغطي معظم مساحتها. وتبدو هذه القاعدة على ثلث القارة وأحيانا تغطيها قشرة، تختلف سمكا من الرواسب والمواد البركانية، وهذه القاعدة تشتمل على صخور متبلورة (غرانيتات) أو متحولة (شيبست، مرو، غنيس) شديدة الصلابة. فنيا عدا النظام الالبى في المغرب، والتعاريج الهرسية في الكاب، وفي جنوب جبال الاطلس، فان المجموع الافريقي والملاغشي يشكل مصطبة عتيقة قارة متكونة من ترس لم يتحمل تعاريج ذات قيمة منذ العهد الكمبرى القديم. وعلى القاعدة وقد حتما انجراف طويل ترسبت مع تقصف في الطبقات، تشكيلات رسوبية في صورة غشاوات تحت الافقية متنوعة الأعمار منذ بداية الدهر الجيولوجي الأول، حتى الدهر الرابع. وهذه السلاسل الرسوبية مركبة من مواد خشنة في الغالب حثية (ترابية - رملية)، وهي أقرب الى الطبيعة القارية منها الطبيعية البحرية، اذ أن الزحوف البحرية لم تغط القاعدة الا في فترات مؤقتة وبكيفية جزئية. ففي افريقية الغربية يكون حُث الدهر الأول هالة داخل مبرز من الساحة القبل كمبرية. وفي افريقيا الجنوبية فان التراكمت العظيمة القارية من العصر البرمي الترياسي تكون سلسلة كارو التي يبلغ سمسك سلاسلها الحثية أحيانا ٧٠٠٠ متر. وشمال القارة ولا سيما في الصحراء الشرقية وفي النوبة، فإن الحث الجوراسي والطباشيري «قاري متداخل».

ولكن في الدهر الثاني تراكمت السلاسل البحرية من الجوراسي الى العصر الفجري في المناطق الساحلية وفي الأحواض الداخلية وإنها تشاهد في خلجان السنغال وموريتانيا والبنين والكابون وانكولا وفي حوض التشاد، وفي السهول الساحلية في افريقيا الشرقية من الصومال الى الموزمبيق. ومنذ العصر الفجري تراكمت الرواسب النهرية والهوائية في الأحواض الكبيرة الداخلية في افريقيا. وكل هذه السلاسل من الأغصية، التي تتركز على القاعدة الصلبة، لم تؤثر فيها تعاريج بل تغيرات في الشكل كبيرة منقوصة الشكل جدا، توالى منذ الدهر الأولى حتى فترة حديثة. فكانت هزات في شكل رصيف وانهارات بعيدة المدى، وذلك ما يفسر بنية التتواتر والأحواض المميزة لافريقيا. وفي الدهر الثالث عندما بلغ التكون الالبى للجبال أشده، أثارت حركات رأسية أقوى حدة، تقصفت كبيرة في افريقيا الشرقية. وتصور هذه الكسور خنادق طويلة تقع تحت خطوط الزوال، تحيطها انهدامات، «أودية الرقت». وقد يصحبها أحيانا انصبابات بركانية مولدة لتضاريس أقسى، مثل الكيلمسندجارو وعلى رأسه كتلة الجليد والبالغ من الارتفاع ٦٠٠٠ متر. وفي الغرب كانت الانفصامات الطف، ولكن الانفصام الواقع في قعر خليج غينيا، أظهر نشاطا بركانيا قويا يشهد عليه بقوة جبل الكرون (٤٠٧٠ م).

## تأثيرات مناخية قديمة

تأثرت القارة الافريقية بأطوار طويلة من الانجراف تابعة لحركات تشقق القشرة الارضية، التي يبدو أنها كانت بطيئة طيلة العصور الجيولوجية. فأطوار الاستقرار تبعتها عودة للانجراف أدت الى تشكيل مساحات فسيحة ممهدة. وفي سير تطور أشكال التضاريس فإن أهم عامل هو عامل التغيرات المناخية، وأبرزها تغيرات الدهر الرابع. فتداول المناخات الرطبة والمناخات نصف الجافة، يظهر بأطوار لتغير الصخور والانجراف الخطي أو الطيني، وينتج عن ذلك ردم للمناطق المنخفضة وإبراز للصخور الصلبة المكونة غالبا للتضاريس منخفضة تطفو أحيانا فجأة فوق المساحات المنبسطة. وهذه «الجيال الجزرية» الموحدة منتشرة انتشارا كبيرا في الجهات الكائنة جنوبي الصحراء. ويتبع التغيرات المناخية في الدهر الرابع وتغيرات مستوى البحر، تنقيحات مهمة للتشكل المدرج للمقالب الافريقي الناشئ عن تعاقب دورات التعرية والتجميع خلال الفترات السابقة. فالمناخات القديمة مسؤولة عن وجود الصحراء، حيث توجد بقايا حجرية متعددة، ومتحجرات حيوانات من نموذج استوائي تدل قديما على ظهور مناخ رطب مساعد لنشوء الانسان. ولكن امتداد المناطق المناخية الحالية، خلال الدهر الرابع، نحو الشمال أو نحو الجنوب، يتبع الزيادة أو النقص في الأمطار. فالنظم المطرية مثلا نتج عنها الزيادة العظيمة في نسبة المساحة الكاملة من القارة المساعدة على حياة البشر. وبالعكس فإن الفترات الجافة ساعدت على امتداد المساحات الصحراوية من وراء حدودها الحالية، وجعلت من الصحراء هوة مناخية بين عالم البحر المتوسط والعالم المداري الاستوائي. ولكن هذه الصحراء التي تغطي ما يقرب من ثلث القارة، وتمتد على نحو خمس عشرة درجة من العرض، لم تكن قط حاجزا فاصلا بين شمال افريقيا وجنوبها؛ فهي يسكنها الرحل وقد شقتها مسالك القوافل منذ قرون طويلة، وإن هي لم تمنع العلاقات بين افريقيا السوداء وبين البحر الابيض المتوسط منذ القرون الحالية حتى الفترة المعاصرة، فإنها مع ذلك كانت كالمصفاة، حددت اختراق تأثيرات البحر الابيض المتوسط، ولا سيما في مجالات الفلاحة والبناء المعماري والصناعة التقليدية. فكان لأكبر صحراء في الدنيا دور رئيسي في التقسيم الجغرافي لجزء كبير من افريقيا.

## ضخامة القارة الافريقية

إن قوة الصفات الطبيعية في افريقيا ووضوحها، يميزان هذه القارة عن سائر القارات. وضخامتها وثقل آفاقها كانا نتيجة لتاريخ جيولوجي طويل. ويمكن أن ننظر الى الخريطة كي نلاحظ أن المجموعة الافريقية بما لها من مساحة ثلاثين مليونا من الكيلومترات المربعة، تمتد قطعة واحدة على ما يقرب من ٧٢ درجة في العرض منذ رأس ابن سكا (٣٧° — ٢١° شمالية، قرب بنزرت) حتى رأس الابري (٣٤° — ٥١° جنوبية). فنحو ٨٠٠٠ كم تفصل بين هاتين النهايتين للقارة، بينما يوجد ٧٥٠٠ كم طولاً بين الرأس الأخضر ورأس غردافوي. وتظهر القارية العظمى شمال خط الاستواء، إذ أن القطعة الشمالية تمتد على ثلثي افريقيا التي تقتلص في النصف الجنوبي، ويؤكد طابع الكثافة لهذه القارة أن لا وجود لفجوات شاطئية عميقة، خلافا لاوربا ولا ميركا الوسطى مثلا. ثم إن الجزر تمثل جزءا ضئيلا من المجموعة الافريقية التي بدأ شكلها المنقوش واضحا بقوة بسبب بساطة المحيط وضعف تطور السطح القاري. وإن انخفاضاً

للمستوى البحري يؤثر قليلا في شكل افريقيا، اذ أن منحني العمق البحري ١٠٠٠ متر عمادة قرب الشاطئ، وتتأكد ضخامة القارة بثقل التضاريس التي تمثلها في الغالب هضاب تعلو نهاياتها لتكون مرتفعات شاطئية تخترقها بصعوبة الأجهزة النهرية، ورغم قلة السلاسل الجبلية المعرجة فإن افريقيا تتميز بارتفاع معدل ملحوظ قدره ٦٦٠ متر من جراء الجهود التشيقية التي أكدت بقوة في دهر البليوسين تكسيرات وعمليات رفع للسطح القاعدي، على أن بساطة التضاريس الظاهرة تغطي تفرقات جهوية محسوسة. وهكذا يتميز المغرب المنتسب للعالم الاوربي بسلاسل جباله وتضاريسه المقسمة. ويميز فيه بين مجموعتين كبيرتين: سلاسل التل والريف في الشمال وسلاسل الاطلس في الجنوب، وتتجه هذه السلاسل كأشرطة ممتدة من الغرب الى الشرق، بين البحر الابيض المتوسط والصحراء.

وثمة أسرة أخرى من التضاريس تمثلها منطقة فسيحة تشمل افريقيا الشمالية الشرقية وافريقيا الغربية ووحوض الكونغو. فهناك تسود السهول والأحواض والهضاب المنخفضة التي تحيط بها مرتفعات جبلية.

وأهم الأحواض في قلب القارة المتجمعة في هذه المنطقة هي أحواض النيجر والتشاد والكونغو وبحر الغزال.

وأخيرا ان افريقيا الشرقية والجنوبية تمثلان مجال الأراضي المرتفعة حيث تحل المرتفعات التي تفوق ١٥٠٠ متر مكانا فسيحا. ويحيط بالهضاب العليا في الجنوب مرتفع هامشي. ذلك المنحدر العظيم الذي يشرف على الشاطئ بمجدار صخري قد يبلغ ارتفاعه ٣٠٠٠ متر. ولكن طرافة افريقيا الشرقية تكمن في قوة التضاريس الناتجة عن الحركات البنيوية للقشرة في الدهر الثالث. فاهتزت مصطبة القاعدة بشدة وقطعتها انقصاصات عميقة وكسور. كما أثرت فيها بركانيات قوية. فالمجموعة الجبلية في الحشة، المكونة من هضبة يعلوها أكثر من ٢٠٠٠ متر من اللابة البركانية، تبلغ أقصى ارتفاعها على أكثر من ٤٠٠٠ متر. وتمتد حفر انهدام على طول ٤٠٠٠ كم من البحر الأحمر الى الموزمبيق. هذه الأودية التي لعبت دورا عجيبا في جولان الانسان وفي نشوئه فيها سلسلة من البحيرات كببحيرة النياسا والطنكنيكا والكيفو وعيدي أمين (سابقا ادوارد) وموبوطو (سابقا الببرت) وفكتوريا ورودلف. وعلاوة على ذلك فهي تحف بها جبال بركانية ضخمة أشهرها جبال كينيا والكيليمندجارو.

## العزلة الجغرافية

ان ضخامة افريقيا وثقل تضاريسها نتج عنها نتيجة عظمى هي عزلتها حتى فترة قريبة. ففيا عدا افريقيا الشمالية المتوجهة نحو عالم البحر الأبيض المتوسط، فإن باقي القارة بقي طيلة قرون على هامش تيارات التبادل العظمى، نعم، ان هذه العزلة لم تكن قط مطلقة ولكن كان لها وزن كاف على مصير عدد من المجتمعات التي تطورت داخل تقسيم جغرافي وقد انفصلت افريقيا عن العالم القديم من جراء انفصال القارات، ولكن بقي لها نقطة اتصال بآسيا: برزخ السويس الذي كان الممر المتميز لأكبر الهجرات فيما قبل التاريخ.

وتسبح الشواطئ الافريقية في أكثر امتدادها في كتلتين محيطيتين، اختلف استعمالها قبل

العصر الحديث. فلم يسلك المحيط الاطلسي قبل القرن الخامس عشر الميلادي حيث بدأت الرحلات البحرية العظمى انطلاقاً من أوروبا. وقبل ذلك فان تقنيات الملاحة الشراعية لم تكن لتمكن البحارة العرب مثلاً، من الشروع في سفرات تتجاوز الشواطئ الصحراوية، اذ أن المراكب الشراعية لم يكن في وسعها أن تعود في معارضة عصف الرياح الصايبات الموجهة باستمرار نحو الجنوب. وخلافاً للمحيط الاطلسي فان المحيط الهندي منذ عهد بعيد، ساعد على التواصل بين افريقيا الشرقية وآسيا الجنوبية. فكان المراكب الشراعية العربية والهندية من القيام برحلات نحو القارة الافريقية، والعودة الى قواعد انطلاقها بفضل النظام التناوبي للرياح الموسمية على المحيط الهادي. ولئن قامت علاقات مكثفة بين افريقيا الشرقية وعالم المحيط الهندي، فان هذه العلاقات اقتصرت على الساحل، اذ كان الهدف عند الشعوب البحرية الآسيوية ممارسة التجارة وليس استعمار الأراضي الداخلية. وبالجملية فان آثار الحضارات البحرية للقارات الأخرى لم تدخل الى أعماق افريقيا السوداء التي بقي معظمها معزول عن العالم القديم.

ومن التقليدي أن تذكر صفة الشواطئ الافريقية الغير المضيفة لتبرير عزلة القارة، فقلة الفجوات على الشواطئ، تحرم الساحل من الملاحة، فهو غالباً منخفض رملي، والشواطئ الصحيرية وهي قليلة في افريقيا الغربية، تظهر بكيفية أبرز في المغرب وفي مصر وعلى طول البحر الأحمر، وفي الطرف الجنوبي من افريقيا الجنوبية. وفي افريقيا الغربية تمتد شواطئ الأودية البحرية، من السنغال الجنوبي الى غينيا، وعلى سواحل الكامرون والكابون، وهي مصبات فسيحة ناتجة عن انغمار أودية نهريّة قديمة، ولكن معظمها كثير الأوحال. وتحمل بعض الشواطئ المنخفضة التي زحف عليها المد والجزر موائل المنغروف ولا سيما في منطقة «أودية الجنوب» حتى السيراليوني، وفي دلتا النيجر وعلى طول الساحل الكابوني. وفي مواطن أخرى تكون أشربة ساحلية حاشية للقارة، عازلة أحيانا بمحيرات شاطئية كبحيرات خليج غينيا. وأخيراً تمتد شعب المرجان قريبا من الشواطئ الافريقية في البحر الأحمر في قناة الموزمبيق وعلى الساحل الشرقي في مدغشقر. ويعزى ما للساحل الافريقي من صفة غير مضيفة، في جانب كبير الى «الموج العالي» أي الى تدفق الأمواج في صورة لفائف قوية تجعل من العسير الوصول الى بعض الجهات الساحلية من القارة. على أن ما جعل للشواطئ الافريقية من مناوئة تتضمن بعض المبالغة، اذ أن شواطئ البحر الابيض المتوسط سمحت لافريقيا الشمالية بالمساهمة طيلة القرون في المبادلات مع الخارج. ونذكر أيضا انعدام الموافي الطبيعية لتبرير عزلة افريقيا السوداء حتى عهد قريب. و يكفي أن تستعرض المواقع المساعدة على النشاط البحري كي تلاحظ ثروة السواحل الافريقية، في هذا المجال، على الواجهة الاطلسية كما على واجهة المحيط الهندي. على أن العقبات المذكورة، لم تكن قط متعذرة لاقتحام اذ أن التأثيرات الاثيوبية وفيما بعد التأثيرات الاوربية قد طبعت الشعوب الافريقية بقوة بحيث أن عزلتهم لم تكن الا نسبية. وقد تفسر العوامل البشرية بلا شك قلة اهتمام سكان السواحل الافريقية بالرحلات البحرية الكبيرة.

## منطقية افريقيا المناخية

ان الاطار المعروض على الحياة في افريقيا يتبع أساسا الاحداث المناخية وتناظر القارة وامتدادها العظيم من جهتي خط الاستواء وكثافتها وتجانس تضاريسها النسبي، وتضاف آثارها لتمتع المناخ منطقية لا مثيل لها في الدنيا. فتقدم افريقيا طرافة عجيبة بتعاقب الأشرطة المناخية مرتبة على توازي خط الاستواء. وفي نصفي الكرة الأرضية، تتدرج النظم المطرية الافريقية نحو خطوط العرض العالية. لأن افريقيا أفسح القارات فيما بين المنطقتين المداريتين فهي أكثر مناطق الأرض تجانسا في الحرارة. ويتبع هذه الحرارة اما جفاف يزداد كلما وقع الاقتراب من المنطقة المدارية، واما رطوبة تزداد عادة باتجاه خطوط العرض المنخفضة.

## عوامل كونية

في هذه القارة الواقعة أساسا بين المدارين، فإن الفروق المناخية تتبع الأمطار أكثر مما تتبع الحرارة التي هي مرتفعة في كل الفصول في معظم الجهات. ومهما يكن من أمر، فإن النظم المطرية والحرارية مرتبطة قبل كل شيء بعوامل كونية، أي بخط العرض وبحركة الشمس الظاهرة، فالشمس تمر مرتين في السنة بسمت الرأس فيما بين المدارين، ومرة واحدة في مدار السرطان يوم ٢١ جوان (حزيران) تاريخ المنقلب الصيفي، ومرة واحدة في مدار الجدي يوم ٢١ ديسمبر (كانون الأول) تاريخ المنقلب الشتوي في النصف الشمالي من الكرة الأرضية. ويشاهد مرورها بسمت الرأس مرتين في السنة بخط الاستواء عند الاعتدالين الربيعي ٢١ مارس (آذار) والخريفي ٢١ سبتمبر (أيلول) والشمس في حركتها الظاهرة لا تنزل قط كثيرا تحت الافق. ولذا تكون الحرارة مرتفعة كل السنة في المنطقة المنحصرة بين المدارين. وفي الجهات القريبة من خط الاستواء حيث يتأرجح الموقع الظاهر للشمس حول سمت الرأس، يلاحظ انعدام الفصل الحار إذ أن التغيرات الفصلية للحرارة ضعيفة. فالفروق السنوية فيها نحو ٣ الى ٤ درجات. ولكن كلما تقدمنا نحو المدارين شمالا وجنوبا تصير المعطيات الحرارية أكثر تعاكسا. ففي الصحراء مثلا سجلت فروق قوية من نحو ١٥ درجة بين الحرارة المعتدلة في شهر جانفي (كانون الثاني) ويولييه (تموز). وينتمي الطرفان، الشمالي والجنوبي من افريقيا للمنطقتين المعتدلتين. ففيها تتعكس النظم الحرارية، إذ أن الفروق القوية السنوية تنتج عن التقابل بين الاشتية الباردة والصيفيات الحارة، ثم أن الانحرافات اليومية قد تكون في هذه المجالات الوسطية مرتفعة ارتفاعها في منطقة ما بين المدارين. وبصورة عامة إن العوامل الكونية تعين في افريقيا نموذجين كبيرين من النظم الحرارية: في خطوط العرض الاستوائية، نظم منتظمة، وفي جهة المدارين نظم تتعكس أكثر فأكثر.

## الآلية الغيئية

ان التغيرات الموسمية للمناخ الافريقي تفسر بوجود مراكز عمل كبيرة في الجو، تحرك كتلات من الهواء من النماذج المدارية أو الاستوائية البحرية أو البرية. وتعود المحيط الاطلسي باستمرار اعصارات معاكسة مدارية أو مراكز ضغط عليا، أحدها في النصف الشمالي من الكرة الأرضية (اعصار معاكس في الاسور) والثاني في النصف الجنوبي (اعصار معاكس بسانت هيلين).

وتوجد خليتان أخريان من الأعاصير المعاكسة، أحدها في الصحراء والثانية في الكالاهاري. وهذه الأعاصير القارية طابع موسمي. فليس لها دور معتبر إلا في الشتاء الشمالي أو الجنوبي. وفي الصيف، يضعفان ويدفعان إلى طرفي القارة. وتشمل مراكز العمل في النهاية منطقة للضغوط الخفيفة، متمركزة على خط الاستواء الحار، ومتأرجحة من ٥ درجات من خط العرض الجنوبي في جانفي (كانون الثاني) إلى ١١ درجة من خط العرض الشمالي في يولي (تموز). تثير الأعاصير المعاكسة في اتجاه الضغوط المنحطة الاستوائية رياحا ملاصقة للأرض، هي الصبايات التي تكتسح مجال ما بين المدارين. فمن أعاصير الأسور المعاكس تنطلق رياح باردة قارة، في الصبايات الأطلسية، واتجاهها الشمالي الشرقي، ولا تؤثر إلا في حاشية ضيقة من الساحل الصحراوي حتى الرأس الأخضر. وأعاصير المرتفعات بالصحراء تصدر عنه رياح شمالية شرقية، والصبايات القارية، جافة وباردة نسبيا ولكنها تسخن كلما انتشرت نحو الجنوب. أما هارطمان تلك الرياح الشديدة الحرارة ذات الاتجاه الشرقي اللافحة المحففة، فإنها تستقر بانتظام كبير على كل إفريقيا الساحلية من التشاد إلى السنغال، وتتبعها دوامات متصاعدة رافعة للرمال أو الغبار مولدة ضبابات جافة. وفي النصف الجنوبي من الأرض تظهر أيضا في الشتاء الجنوبي رياح جافة حارة نسبيا تصل بعض القطاعات من الحوض الكنكولي. ولكن، خاصة في هذا الفصل الذي يقابل الصيف الشمالي، تجذب الضغوط المنحطة القارية المتمركزة جنوبي الصحراء الصبايات البحرية الناشئة عن أعاصير سانت هيلين المعاكس، والمنحرفة نحو الشمال الشرقي بعد عبورها لخط الاستواء. تلك هي الرياح الموسمية الغينية التي تغوص تحت الهارطمان، دافعة إياها نحو الشمال ونحو المرتفعات. والتقاء هاتئ الكتلة الهوائية ذات الاتجاه والحرارة والرطوبة المتباينة، يمثل منطقة التجمع بين المدارين أو واجهة ما بين المدارين التي تعين الفصول المطيرة.

وفي الصيف الشمالي، من ماي (أيار) إلى سبتمبر (أيلول)، تنتقل واجهة ما بين المدارين ممتدة من الغرب إلى الشرق فيما بين الدرجة العاشرة والدرجة العشرين من خط العرض الشمالي، وتحمل الصبايات الآتية من الجنوب اذك كتلات رطبة من الهواء نحو خليج غينيا فتبعث فصل الأمطار. وفي الشتاء، تتكون منطقة التجمع في خليج غينيا ثم تصل القارة عن طريق الساحل الكامروني وتقطع النصف الجنوبي من القارة لتعبر قناة الموزمبيق والشمال الغربي من مدغشقر. في شمالي خط الاستواء تسود الرياح الشمالية الشديدة الجفاف في إفريقيا الغربية. وفي جنوبيه، تتجمع الصبايات القارية الجنوبية مع كتلات هواء الصبايات البحرية الواردة من شمال المحيط الهندي فتبعث الأمطار.

وقد تتغير الآلية العامة للمناخ بعوامل جغرافية كالتيارات البحرية والتضاريس واتجاه الشواطئ. فالتيارات الباردة المنتظمة على الواجهة الأطلسية لإفريقيا، متناظرة من جهتي خط الاستواء. وفي الشمال فإن تيار الخالدات الذي أثارته الرياح الناشئة عن الأعاصير المعاكس في الأسور، يساير الشواطئ من جبل طارق إلى دكار. فيكون فيها انعطافات في درجة الحرارة وضبابا. وحوالي الدرجة الخامسة عشرة في خط العرض، يتحول تيار الخالدات نحو الغرب. أما نظيره في نصف الكرة الجنوبي، فهو تيار بنكيلا الذي تثيره الرياح الناشئة عن أعاصير سانت هيلين. وتتبعه درجات منخفضة من الحرارة وضباب كثيف على طول الشواطئ الجنوبية الغربية



الافريقية، قبل تحوّلها الى الغرب في مستوى رأس فريو. وهكذا تفسر الصحاري الساحلية في موريتانيا في ناميب. وبين التيارات الباردة على الواجهة الاطلسية، يتسرب التيار المعاكس الاستوائي في غينيا والذي ينقل من الغرب الى الشرق كتلات من الماء الحار رافعا نسبة الرطوبة، وعدم استقرار الجو، موفرا بهذا امكانيات الامطار على الساحل من كونكري الى ليبرفيل.

ويظهر تنقل التيارات البحرية على واجهة المحيط الهندي بكيفية مخالفة. ان المياه الاستوائية التي تدفعها نحو القارة رياح الجنوب الشرقي الناشئة عن الاعصار القائم شرقي مدغشقر، تكون تيار الموزمبيق الحار الموجه نحو الجنوب الممتد بواسطة تيار الابر، فيجلب الرطوبة على الشاطئ الجنوبي الشرقي من افريقيا. وعلى شمال خط الاستواء، تنعكس التيارات البحرية مع تغير في اتجاه الرياح. ففي الصيف يسير الساحل الصومالي تيار حار متجه نحو الشمال الشرقي، وفي الشتاء يغمر السواحل ذاتها تيار بارد متقدم من جزيرة العرب نحو خط الاستواء.

ورغم تشابه التضاريس النسبي، فان لها أثرا على المناخ، اذ تعاكس بوضوح المرتفعات الساحلية، وهي حواجز حقيقية على طريق كتل الهواء الرطب، مع الأحواض الوسطية والمضاب الداخلية وحفر الانهدام الواقعة كلها تحت تأثير الجفاف المختلف الشدة.

وضعية الساحل بالنسبة الى الرياح المطيرة عامل من عوامل التفرقة المناخية. فالقطاعات المعروضة مباشرة على الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، ولا سيما اذا كانت جبلية، تتلقى أمطارا غزيرة في افريقيا الغربية (نحو ٥ أمتار في غينيا). وفي افريقيا الجنوبية وفي مدغشقر تتقبل الشواطئ العمودية على وجهة الصايبات البحرية، أمطارا غزيرة. وبالعكس فان قطاعات الساحل الموازية لاتجاه الرياح، والحالية من التضاريس الملحوظة كما في الداهامي والصومال تستفيد من غيث أقل.

وفي افريقيا تحدد الدورات المناخية الموسمية أساسا، من قبل المعطيات الإمطارية. فالأمطار تقل حجما تدريجيا من خط الاستواء الى المدارين، حيث يسجل قفرا الصحراء والكلاهاري أقل من ٢٥٠ مم من الأمطار في السنة. ويتبع هذا التدهور في مجموعات الأمطار تغير في تداول الأمطار الموسمية متعاكسة أكثر فأكثر نحو الشمال. ففي الجهات القريبة من خط الاستواء المعروضة بذلك على تأثير مستمر للضغوط الخفيفة، تظهر الأمطار على طول السنة مع تباطؤ محسوس عند المنقلبين. وفيما وراء ذلك، نحو الشمال ونحو الجنوب، تنحصر الأمطار في فترة واحدة تقابل الصيف في كل من نصفي الأرض. وثمة فصل ندي يقابل فيها فصلا جافا يزداد امتدادا نحو المدارين. ولكن طرفي القارة، المغرب ومقاطعة الكاب، يبديان خاصية ملحوظة تتمثل في أمطار الفصل البارد، وتلك المناطق أمطار متوسطة غير منتظمة في المدى.

## المناطق المناخية

ان تغيرات النظم الغيشية، من حيث مجموعاتها السنوية ومن حيث توزيعها حسب الفصول أيضا، تفرض تقسيم افريقيا الى مناطق مناخية كبيرة.

## المناخات الاستوائية

وهي تميز المناطق الوسطى التي تشهد، من جهتي خط الاستواء، مرورين في اعتدالي الواجهة

الواقعة بين المدارين التي تربط بها التهاطلات المطرية القوية، فمن الكامرون الجنوبي الى حوض الكونغو، ينزل المطر بغزارة طول السنة، والهواء مشبع ببخار الماء في كل الفصول، و يفوق مجموع التهاطلات في السنة عادة المترين. وفي هذا الجو الهندي، يكون لدرجات الحرارة تغيرات شهرية ضئيلة، اذ هي تتأرجح حول معدل سنوي قدره ٢٥ درجة مئوية.

وجهة الشرق، في المناطق الاستوائية المتأثرة مناخيا بالمحيط الهندي، توجد عين التداولات المطرية، ولكن المجموعات السنوية أقل من ١٥٠ متر. وللحرارة تغيرات سنوية أكبر منها على الواجهة الاطلسية في المنطقة الاستوائية. والفروق اليومية على الخصوص هي أقوى في الجهات المنتمية مناخيا للمحيط الهندي.

### المناخات المدارية

وهي تقابل المساحة الفسيحة التي تحمل تنقلات الواجهة بين المدارين، في شمالي المنطقة الاستوائية وجنوبيها. فالشمال الغربي الافريقي الممتد بين الدرجة الرابعة من العرض ومدار السرطان، يشتمل على مناخات متنوعة، من المجال ذي المرور بين الاعتداليين في الجنوب، الى المجال الذي لا يشمل الا مرورا واحدا لانقلاب الشمس في الشمال.

وعلى ساحل خليج غينيا يسود مناخ تحت الاستوائي يدعى الغيني و يتميز بنظام مطري بدون فصل جاف، لكن مع غزارة ملحوظة عند مروري الشمس في سمت الرأس، والأثر الجلي المتمثل في الهضاب الساحلية يتسبب في تكثيف رطوبة قوية تحملها الريح الموسمية الجنوبية الغربية. لهذا تتقبل الحاشية الساحلية الممتدة من جمهورية غينيا الى ليبيا أكثر من مترين من الأمطار سنويا.

والمجال السوداني الواقع جهة الشمال، يبدي عدة ملامح من مناخ منطقة ما بين المدارين، يميز نوع ندي ونوع جاف منذر بالصحراء، وكلما صعدنا مع خطوط العرض قل التمييز بين مروري جهة ما بين المدارين، وهكذا من الأمطار الاستوائية المتأصلة الى جفاف مدار السرطان نلاحظ الفروق الطفيفة التالية:

— منطقة فرعية أولى تتميز بمجموعات سنوية من الأمطار بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ مم فيها أكثر من ستة أشهر مطيرة؛ وتزداد الفروق الحرارية بالنسبة الى المنطقة الاستوائية.

— المنطقة الفرعية الوسطى وتسجل جفافا أصبح أوضح، اذ أن الأمطار التي لا تنزل الا مدة ثلاثة الى ستة أشهر تتراوح بين ٦٠٠ و ١٥٠٠ مم، وتزداد الفروق الحرارية زيادة محسوسة.

— المنطقة الفرعية الشمالية وتسمى في افريقيا، الساحل الغربي، ولها أقل من ٦٠٠ مم من الأمطار السنوية التي تنزل في أقل من ثلاثة أشهر، ويقل انتظام الأمطار ويزداد انحراف الحرارة.

ويميز عين التوزيع العرضي لأنواع المناخات المدارية جنوبي خط الاستواء. ولكنه يوجد أنواع أشد وضوحا من جراء طابع عدم التكتل في افريقيا الجنوبية، ونظرا لأهمية التضاريس المرتفعة التي تشرف على السهول الساحلية التي يغمرها المحيط الهندي: ويتسبب تجمع الهواء البحري الاستوائي الشمالي الغربي مع الهواء البحري المداري الشرقي، تهاطلات غزيرة على سواحل الموزمبيق، وعلى الواجهة الشرقية من مدغشقر، والساحل الاطلسي على العكس هو جاف بسبب وجود التيار البارد في بنكلا المحدث لقفر نيمب.

## المناخات الصحراوية

وهي تميز المناطق الكائنة على جهتي المدارين، وفيما يهب التهاطل عن ٢٥٠ مم ويسبب اختلالا كبيرا. وتتقبل الصحراء وهي أكبر قفر حار في العالم، أقل من ١٠٠ مم من الماء سنويا. ولكننا نلاحظ فيها فروقا بسبب تأرجحات الأعصار المعاكس الصحراوي الذي ينتقل على البحر الأبيض المتوسط وقت الانقلابين، ثم ينزل فيها نحو خطوط العرض المنخفضة. ففي وضعه الأول يسهل دخول الرياح الموسمية، وفي وضعه الثاني يسمح بزحف الرياح القطبية. ويمكن هذه التآرجحات من التمييز بين الصحراء الشمالية ذات الأمطار من جنس أمطار البحر الأبيض المتوسط في فصل الجفاف، وبين الصحراء الوسطى، عمليا عديمة الأمطار والصحراء الجنوبية، ذات الأمطار المدارية في الفصل الحار.

وفي مدار الجدي تصيب تأثيرات المحيط الجنوبية الغربية صحراء كالاهاري بكيفية أيسر من أصابتها الصحراء، إذ أن تضاييق القارة يخفف من تأثير الخلية الأعصارية المعاكسة على المناخ، لذا تشاهد رطوبة أوفر وفروق حرارية أقل حدة.

## مناخات البحر الأبيض المتوسط

في المغرب والطرف الجنوبي من إفريقيا، تكتسب طرافتها من تقسيم السنة إلى فصل شتوي بارد مطير، وإلى فترة صيفية حارة جدا جافة. ومجال البحر الأبيض المتوسط هذا الخاضع لنظام الرياح في المنطقة المعتدلة، يتميز في الشتاء بمرور أعصارات محيطية محملة بالرطوبة. وهو يشهد أحيانا زحف الهواء القطبي متسببا في برد قاس يتبعه جليد وتساقط الثلج، ولا سيما على السلاسل الجبلية بالمغرب. وأما حرارة الصيف وجفافه، فنشأتان عن تأثير الرياح الواردة من الصحاري المجاورة، أي الصحراء في نصف الأرض الشمالي، والكالاهاري في النصف الجنوبي.

## الأوساط البيولوجية المناخية الإفريقية

في إفريقيا أكثر مما في غيرها، تنظمت الحياة البشرية في أطارات طبيعية تبدو قبل كل شيء أوساطا بيولوجية مناخية. والحق أن المناخ والتضاريس تبرز تأثيراتها لتعين المجموعات الجبلية العظمى المتميزة بمجهازها المائي وخصائص تربتها ومناظرها النباتية.

## جريان المياه القارية

ينعكس تنوع المناخات في الجهاز المائي. ولكن في إفريقيا فإن جريان المياه نحو المحيطات أقل أهمية بكثير مما توحي به التهاطلات. إن أكثر من نصف المساحة في هذه القارة مركب من جهات جافة أو محبوسة المياه. هذا وإن الأجهزة النهرية تعترضها عقبات في سيرها، وذلك إن ملاحظها الجانبية تتكون من قطاعات ذات ميل ضعيف تتصل بعنف بمنحدرات سريعة ومساقط أو شلالات. لذا تخضع كمية كبيرة من المياه التي تحملها، إلى رشح مستمر وبالحصوص إلى تبخر قوي ناتج عن الركود في الأحواض أو في الخنادق أو في منخفضات الساحة القاعدية.

## تنظيم الشبكة المائية

مساحات كبيرة من القارة تقل فيها الأمطار أو تنعدم، فهي خالية من مجاري المياه المستمرة، ولكن إفريقيا الجافة وإفريقيا البحر الأبيض المتوسط، تشهدان أحيانا أمطارا قوية تتولد عنها طبقات من المياه الجارية قد تتجمع في أودية ثم تنضب هذه الأودية في النهاية من جراء التبخر ورشح المياه. وفي الجهات المكتفية الري، في المناخ المداري أو الاستوائي، تكون الأنهار الكبار وأهم روافدها شبكة منظمة تجمع جزءا من مياه الأحواض، وتعمل على إفراغها في ظروف كثيرا ما تكون صعبة. وذلك أن الأحواض التي يتكون فيها معظم الأنهار الإفريقية تظهر عتبات محيطية غير ملائمة لتصرف المياه نحو البحر تصرفا لائقا.

فإفراغ المياه القارية يتم من خلال نتوءات ساحلية بواسطة مضائق قليلة العرض عميقة تتم عن انقطاعات حرارية عديدة في المجرى السفلي من بعض الأنهار الكبيرة. فالكونغوي يدي ٣٢ منحدرًا سريعًا بين صهر يج ستاني والمصب. والزامبي يقفز قفزة ذات ١١٠ أمتار بشلالات فكتوريا، قبل أن ينسدرج في مضيق كرييا وأن يعبر عدة شلالات بزلتية. وهي أسفل الخرطوم، يقطع النيل ستة منحدرات سريعة تدعى شلالات قبل أن يصل إلى البحر الأبيض المتوسط. وسائر الأنهار الكبيرة كالنيجر والسنغال والأورنج واللمبو تظهر جانبا في شكل المدرج ولا سيما في جزء مجراها السفلي. ومن السهل إذن أن نفهم صعوبات الملاحة على الأنهار الإفريقية التي تبدو مسالك ضعيفة للمواصلات. ومع ذلك فلقد مكنت في الماضي من اتصالات مثمرة بين شعوب مختلفة من القارة.

وبين هذه الأنهار العظيمة وروافدها تشاهد شبكة غامضة من الجداول والبرك والمستنقعات غير منظمة لا وجود فيها لجرىان مستمر نحو الخارج. فهي تارة تمتدات من الماء الرائد، وتارة مصبات لما فاض من الأنهار المجاورة، وطورا بالعكس رافدة تساعد على المحافظة على تدفق هذه الأنهار، وقد تكونت هذه الروافد في العصور الجيولوجية في أحواض الحنف حيث تجمعت في أعماقها، في شكل بحيرات، المياه القارية المحملة بالطين. ومن الممكن أن يتم الإفراغ إثر حركات تشققية في المصطبة المساعدة. وهكذا فإن سيل المياه الداخلية الضخمة تم بواسطة مخارج سايرت خنادق الانخفاض أو الانقصاصات. وبدون شك أن ظاهرات الحصر التابعة لكسور طرأت على المصطبة وللتطور الشكلي، قد ساهمت في تنظيم الشبكات المائية. ولكن هذا الحبس مازال يلوح في أحواض التشاد والاكوفانكو التي تحتلها بحيرات قليلة العمق ومستنقعات ذات أبعاد مدهشة مما تأتي به الفصول من المياه الجارية. ولأحواض خسف أخرى بعض المخارج نحو المحيط، ولكنها مع ذلك لها ميل مشابه إلى الحبس، وهكذا تكونت مستنقعات ماسينا أو «الدلتا الداخلي للنيجر» ومستنقعات بحر الغزال في السودان وحوض الزاير.

## السرعات العادية للأنهار الإفريقية

في كل ناحية من إفريقيا، فإن نظام الأمطار يتحكم في سرعة الجهاز المائي، أي أن التغيرات الموسمية لحمل الأنهار تتبع نظام الأمطار السنوي. أما مجاري المياه في الجهات الاستوائية، فلها سرعة منتظمة بمياه غزيرة تسيل كل السنة. على أنها تظهر في مستوى عال من المياه في فترتين توافقتان الأمطار المعتدلية.

وفي المنطقة المدارية فترة من المد توافق فصل الأمطار، أي في المنقلب الصيفي، تتلوها فترة جزر قوي في الفصل الجاف. لذا كان نظام الأنهار كثير التضاد. ثم انها تنقضي مدة بين ارتفاع المياه وبين نزول الأمطار من جراء سير المياه ببطء على مساحات قليلة الانحدار عموما.

وفي الجهات القريبة من الجافة، تجري «الوديان» بتقطع عند نزول الأمطار القليلة العنيفة، التي تسبب فيضانات فجائية، الا أنها قصيرة المدة، اذ أن المياه تضيع عند أسفل الوادي. وفي منطقة البحر الأبيض المتوسط، فإن عنف الشآبيب، ووجود التضاريس الجبلية، تجعل لمجري الماء طابعا تدفقيا، سرعتها قليلة الانتظام، مما يؤدي الى فيضانات في المنطقة المناخية تمثل في وديان سيلها متقطع.

والأنهار الكبيرة ذات الشبكات الممتدة على عدة مناطق مناخية، لا تدخل تحت الصور البسيطة المذكورة أعلاه، فيميزها نظام عام متشعب متغير تغيرات موسمية في حملها، تتبدل من أعالي النهر الى أسفله.

### مجري المياه الكبيرة في افريقيا

إن بعض الأنهار الكبيرة، وهي من أهم الأنهار في العالم، تكون أحواضا فسيحة، يقع معظمها في منطقة ما بين المدارين. ويرتب نظام جربها بظروف تغذية أحواضها بالأمطار النازلة من الأعالي.

ويلوح نهر الكونغو مثلا نموذجيا لمجري الماء الاستوائية التي يتميز نظامها بمستويي مد أقصى اعتداليين، والواقع ان شبكته تنتشر على ما يقرب من أربعة ملايين من الكيلومترات المربعة بين ١٢ درجة من خط العرض الجنوبي و ٩ درجات من خط العرض الشمالي. وهكذا بواسطة الكاساي واللوالابا، يخترق جهات جنوبية فيها أقصى الامطار الانقلابية. وأهم روافده في النصف الشمالي من الأرض تغذيه بالعكس أمطار الانقلاب الشمالي، بينما يمتد جزء كبير من مجراه على جهات لها فترتان توافقتان قيمة قصوى من الأمطار الاعتدالية، وتضافر التضخمين المختلفين يولد في كنفها نظاما مائيا ذا مدين عظيمين في مارس (آذار) وفي يوليه (تموز). فالكونغو نهر غزير منتظم حله المتوسط السنوي ٣٠ ٠٠٠ م<sup>٣</sup>/ ثانية، ولا يفوقه في ذلك سوى الأمازون.

والنيل يأخذ مصدره في رواندا والبورندي، بفرعه الاصلي الكبير و يتقبل المياه الاستوائية المفترشة في مستنقعات بحر الغزال، وبعد اختراقه لبحيرة فكتوريا تقويه الروافد المدارية الواردة من الجبال الاثيوبية. وهكذا فان النيل الأزرق ونهر الاتبرا ولها نظام ذو مد انقلابي، يمكنان النهر من اختراق منطقة صحراوية فسيحة، قبل أن يدرك البحر الأبيض المتوسط. ورغم طوله الذي ليس له مثيل في افريقيا (٦٧٠٠ كم) فان النيل قليل القوة، لأن حله السنوي المتوسط لا يصل ٣٠٠ م<sup>٣</sup>/ ثانية. ولكنه منذ العصور الحالية كان من أنفع الأنهار على البسيطة.

ونهر النيجر يمتد حوضه من ٥ درجات الى ١٦ درجة من خط العرض الشمالي، وله نظام أكثر تشعبا. وهو يرسم انعطافا فسيحا بشكل طريف، وذلك انه بعد أن يترك منبعه على حاشية المحيط الاطلسي الجبلية، يتجه نحو الصحراء، ثم يتوجه نحو خليج غينيا حيث ينصب في دلتا فسيح. فمجراه الأعلى ومجراه السفلي يخترقان جهات جنوبية ذات مناخ مداري رطب، وقطاعه الأوسط يتأخر في «دلتا داخلي» ذي مناخ ساحلي، ويتقوس بعناء في الجهة تحت الصحراوية في تمسكت قبل أن

يستقبل تغذيات تزداد غزارة نحو الأسفل. ويحدث فصل الأمطار فيضانيين معا، أحدهما في المجرى العلوي والآخر في المجرى السفلي، ولكن الأول الذي يظهر حتى النيجر ينخفض تدريجيا من جراء التبخر والرشح في المنطقة المدارية الجافة. ويشاهد الفيضان الثاني منذ شمال الداهامي، ولا يزال شديد السيطرة عند مجراه السفلي بسبب الأمطار المحلية ذات القيمة القصوى الانقلابية، ويتقوى النيجر في مجراه السفلي بنهر البينوي، أهم روافده.

## التربات الافريقية

ان التوزيع الجغرافي للتربة يتبع منطقة هي نسخة من منطقة المناخات. وتختلف التشكيلات الترابية ينتج أساسا عن عمل الماء والحرارة على الصخور الموجودة في محلها. ففي الحقل المداري فان الأمطار الفاترة الغزيرة المحملة بالحامض تغسل الصخور وتحل المعادن القاعدية وتدفعها الى الأعماق. وفي خطوط العرض المنخفضة الرطبة جدا حتى ١٠ درجات في الشمال وفي جنوب خط الاستواء، فان التحليل الكيميائي للصخور يؤول الى تشكيل التربة المحتوية على الحديد، وهي عموما صلصالات محمرة سهلة التفتت، لها عدة أمتار من السمك، وهي ناتجة عن تغير الصخرة الأم الى عناصر غروانية تشتمل على الصلصال الصيني (الكاولان) والهيماتيت ونسبة من رمل الصوان تقرب من ٣٠٪ من المجموع. ويحتمي الغطاء الغابي التربة من الرشح، وهكذا فان التربات الحديدية لا تحوي الا القليل من المواد العضوية ومن الدبال.

وفي الجهات السودانية ذات الفصل الجاف الواضح، تتكون تربات حديدية مدارية أقل عمقا من السابقة غنية بأكسيد الحديد، وهي رملية في السطح صلصالية في الأعماق. وهذه التربات قليلة الاستقرار، وهي حساسة للانحراف بالماء وبالرياح. وتندور بنيتها بسرعة كبيرة على السطح في غياب الغشاء النباتي. وكثيرا ما تكون هذه التربات متكتفة أو مصفحة في افريقيا الغربية، حيث يتناوب الغسل في فصل الأمطار مع التجفيف القوي في فصل الجفاف، ولا سيما اذا ما صاحب هذا التجفيف لفح الحرور، وفي بعض الجهات الواقعة شمالي الحاشية الساحلية في خليج غينيا، تمتد مساحات عتيقة انحرافية عارية ذات تربات مصفحة أو مدرعة تسمى «بوي». وهذه التشكيلات الترابية تتميز بتجمع قوي لأكسيد الحديد والالومين، يتبعه تصلب على عمق ضعيف، بيد أن عددا من هذه «البوي» القديمة يرجع الى الدهر الثالث. وعريت مساحاتها الزراعية المحدودة نتيجة انحراف السطوح العلوية الكاسية. ولوحظت تربات مشابهة في مدغشقر على «الطمبوكنسا» على الشمال الغربي من طناناريف. ومن جهة الشمال في نصف الأرض الشمالي، تكونت في مناخ ذي فصول متعاكسة، وتحت غشاء من الأعشاب، تربات سمراء مركبة لها قيمة زراعية كبيرة. ورغم حساسية هذه التربات للعذوب، فقد مكنت من تطوير حضارات فلاحية مصاحبة للامبراطوريات السودانية في فترة ما قبل الاستعمار.

وجنوبي خط الاستواء، في بلدان الزمبار، تكونت تحت غشاء الغابة الجافة تربات غسلت غسل خفيفا، تشبه التشكيلات الرمادية.

وفي الشمال وفي الجنوب، في الجهات شبه الجافة المجاورة للصحراء ولكلاهما، توجد تربات سمراء سهوبية تقابل رمالا دغصية مشبعة قليلا أو كثيرا، أو تشكيلات صلصالية رملية في

المنخفضات، هذه التربة خفيفة قابلة للتفتت تكون مزروعات حسنة، إلا أن أحياءها يستدعي أن تبقى هذه الأراضي بورا لمدة طويلة لا تنبت إلا الأعشاب. وفي المناطق الجافة حيث يسود الانجراف الميكانيكي، فإن التغيرات القوية للحرارة تساعد على فرقة الصخور، وهي من جهة أخرى متأثرة بعمل الرياح العنيف وبعمل الأمطار القليلة التي تتسبب في جريان طبقات من الردوم. فيميز في هذه المناطق رمال جدداء تكون الكثبان، وركامات الحصى، أو العروق الرملية الممتدة على مساحات فسيحة، وقشور صلبة في السهول. وفيما عدا الواحات فإن الصحاري خالية من التربة الصالحة للزراعة.

وفي أوساط البحر الأبيض المتوسط فإن عمل الماء وتأثير الفصول المتعكسة يظهران في تغير كيميائي أقل للصخور بالنسبة إلى ظاهرة التحليل الملاحظ في المنطقة المدارية الندية. وتذكر التربة بالتربة المدارية الجافة وتشتمل على ملامح حراء ورمادية أو كستنائية، وهي تربة في عمومها غنية بالأملاح، وبعضها كالتربة السهبية الغنية بالكلس تنهى بالأوساط المعتدلة. والبعض المكون من قشور كلسية أو من الجبس يميز لمناطق البحر الأبيض المتوسط.

## المجالات البيولوجية — الجغرافية

إن عوامل المناخ والتربة تفسر تنوع الظروف الوسطية التي تتكون فيه المناظر الطبيعية النباتية.

### الغابات الكثيفة الندية

إن أضخم مجموعة من بين المناظر الطبيعية النباتية يوجد في وسط القارة بين ٥ درجات من خط العرض الشمالي و٥ درجات من خط العرض الجنوبي من جهتي خط الاستواء، والنبات المميز هنا هو الغابة الندية الكثيفة المرتفعة. تتوزع على عدة طبقات متتالية، بينما تقوى المستلقات والنباتات المعيشة في الظلمة الناشئة على تراكم طبقات الأوراق الدائمة الخضرة. على أننا نميز فيها ألوانا وأنواعا، سواء أكان الأمر يتعلق بأدغال المستنقعات على أرض الوحل (١)، أو بوطوط أو في الفرجات التي تملن عن المرور إلى أشكال مميزة لمناخات أشد جفافا. وأصناف الغابة الندية كثيرة التنوع والتداخل، مما يجعل استغلالها صعبا. والحرارة والرطوبة المستقرتان إضافة إلى مساعدتهما لغزارة النباتات تساعدان على انتشار الجراثيم والديدان والحشرات. وهذا وسط مناوئ عالا للإنسان، ورغم صمته فهو يستوعب عددا متنوعا من الحيوانات، كأفراس الماء وكالفيلة وخنازير الأنهار والنمور. ولكن الطيور والزواحف واللبونات الشجرية وحدها تستطيع أن تنتقل فيها كما تشاء، وأن تشكل أثر رغم عوامل الامانة كوفرة الطفيليات. وخارج المنطقة الاستوائية، قد توجد الغابة الكبيرة الندية على المرتفعات المعرضة طويلا إلى الرياح المحملة بالرطوبة، كمقلب الماء الشرقي من الهضاب العالية المالقشية.

(١) البولو بولو: تربة وحلية تتربك أساسا من صلصال على عمق بضع سنتيمترات.

## السهوب والغابات الوضاء

ان منطقة الغابة المظلمة، تحف بها غابة جافة تنفض أوراقها تتميز بها المناطق التي تتجمع فيها الأمطار في الفصل المنقلي. وتلوح هذه الغابة في الأغلب كتشكيلة مفتوحة، لا يغطي فيها مجموع الأشجار الا تغطية ناقصة نبات الحراج من الشجيرات والأعشاب. وأفسد الانسان هذا المجموع فحلت محله مناظر عشبية تتميز بها المناطق ذات فصل جاف أوضح. فالسهوب المدارية تتغلب مثلا كلما ابتعدنا عن خطوط العرض الصغيرة. وتظهر هذه التشكيلة النباتية في المناطق ذات الفصول المتباينة، تظهر فروقا تابعة لأنواع المناخات المدارية الكثيرة الرطوبة أو قليلتها.

وعلى حافة الغابة وفي السهوب القريبة منها مازالت أشجار ضخمة، ولكنها أقل من الشجيرات، ويكتسب بساط العشب أهمية كبيرة. والغابة — الرواق تسير مجاري الماء في شكل سيور يزداد عرضها أو يقل. والغابة — المربد، تجعل المساحات المشجرة بجوار مساحات سافرة تلاحظ فيها نباتات حبوب عالية. والسهوب العشبية الحالية تقريبا من الأشجار، ناتجة دون شك عن قلع الغابات من قبل الانسان، وعن تدريع التربات. وعن مسافة أبعد عن الغابة الكثيفة، يحل شيئا فشيئا محل السهوب الشجرية المركبة من بساط مسترسل من الحشائش العالية، سهوب شجرية تبدو فيها التربة عارية من بين الغشاء العشبي، وفي مختلف أنواع السهوب تجد الحيوانات آكلة العشب الظروف المناسبة لعيشها. ففيها يكون الصيد مثمرا، وفيها يمكن تربية المواشي الضخمة. وفي وسع الانسان أن يشتغل بالفلاحة في هذه المناظر النباتية التي يسهل استصلاحها.

## مناظر الفيافي السهوية

يطبع السهوب المناطق ذات الفصل الجاف الطويل بطابعه، وهي تتركب من آجام من النجيليات ومن الشجيرات الشائكة ولا سيما الاقاصيا. وتوجد هذه التشكيلة المفتوحة، في الجهات الشمالية من إفريقيا الغربية والشرقية.

كما توجد أيضا مقطعة في إفريقيا الجنوبية وفي الكلاهي وفي الجنوب الغربي من مدغشقر. وتوجد النباتات تحت الصحراوية في فياف تحف تدريجيا في الجهات التي تتقبل أقل من ٢٠٠ مم من الأمطار.

## التشكلات النباتية حول البحر الابيض المتوسط

تشمل أطراف القارة الإفريقية فيافي مدغلة أو ذات نجيليات في الجهات الأكثر جفافا، وفي الجهات الأكثر رطوبة، وخاصة على سلاسل الجبال في المغرب، حيث تظهر غابات جافة مكونة من البلوط الأخضر ومن بلوط الفلين ومن الصنوبر. وهي تشكيلات نباتية ذات أوراق ثابتة تنبت تحت الحراج المدغلة.



## الخلاصة

تلوح إفريقيا كقارة عتيقة احتلتها من عهد بعيد بشرية بعثت فيها منذ القديم حضرات باهرة. وتبدي الجغرافيا الإفريقية بمعالها المعمارية وبأوساطها الطبيعية صفات قوية مستمدة من تراث ماض جيولوجي سحيق. لذا كان الفضاء الإفريقي أشد كثافة وأكثر قارية من أي فضاء آخر في كوكبنا. وبقيت جهات فسيحة في قلب القارة على بعد يفوق ١٥٠٠ كم من البحر، مدة طويلة على هامش تيارات المرور الكبرى الواردة من الساحل. وقوى هذا التقسيم الجغرافي ما كان في المناطق المدارية من تغيرات مناخية في الدهر الثالث والدهر الرابع. فطيلة آلاف السنين، كانت الصحراء الندية من أقدم مراكز الاستيطان في العالم وتدخلت الحقبات المجذبة، فيما بعد، في تكوين الفيضاء الواسعة، مثل الصحراء والكالاهاري، فتضايقت التبادلات بين مختلف الحضارات في القارة الإفريقية، ولكنها لم تنقطع. ويبدو المناخ حينئذ عاملاً أساسياً لادراك الماضي الإفريقي، ثم إن النظام الأمطاري والأوساط البيولوجية المناخية كلها، تؤثر تأثيراً حقيقياً في حياة البشر اليوم. واستفادت المجتمعات الإفريقية من التكامل بين المناطق المناخية لتربط فيما بينها أقدم تيارات التبادل وأقواها. وأخيراً فإن تاريخ إفريقيا تأثر تأثيراً قوياً بالثروات المنجمية التي كانت من أقوى عوامل جذب الشعوب الغازية للقارة الإفريقية. فذهب النوبة والكوش تم استغلاله من سلالات مصر العتيقة، وفيما بعد كان ذهب إفريقيا المدارية وخاصة ذهب المنطقة السودانية وزمبابوي مصدر ازدهار لمجتمعات إفريقيا الشمالية والشرق الأدنى، وعماد الإمبراطوريات الإفريقية العظمى في جنوبي الصحراء. وكان الحديد موضع تبادلات قديمة بين المناطق الغابية والمدرية في إفريقيا. وكان للملاحة الواقعة على حاشية الصحراء دور مهم في العلاقات بين الدول السوداء في السودان وبين البلاد العربية البربرية في إفريقيا الشمالية. وفي عهد قريب منا استغلت الثروات المنجمية الإفريقية لفائدة السلطات الاستعمارية. وحتى اليوم مازالت هذه الثروات تصدر في معظمها في شكل مواد أولية خام.



## الفصل الرابع عشر

# الجغرافيا التاريخية: الجوانب الاقتصادية

آكن مابوكونجي

يرى جلبرت «ان الهدف الحقيقي للجغرافيا التاريخية، هو إعادة بناء الجغرافيا الجهوية للماضي» (١) وفي مجلد كهذا كان من اللازم أن يؤدي مثل هذا التحديد الى عرض الجغرافيا الجهوية فيما قبل التاريخ الافريقي مع التأكيد على جوانبها الاقتصادية. ومن الواضح أن مشروعاً كهذا يتضمن اختياراً تاماً للظروف الطبيعية والبشرية في ماضٍ سحيق، ولا بد من أن يمتد الى عدد من سائر الفصول في هذا المجلد... وهكذا سيرمي هذا الفصل خاصة الى إبراز الموارد الطبيعية الأساسية كما اكتشفت وكما استعملت في افريقيا فيما قبل التاريخ، واذ نكشف عن الأنواع المتعددة للثروات الطبيعية في القارة كما وصلت الى علمنا اليوم، فإن هذه النظرة سوف ترمي الى التأكيد على ما اعتبر منها ثورة في الماضي البعيد، والمواضيع التي اكتشف فيها، والطريقة التي استعمل بها، وإلى أي حد ساعد على مراقبة الإنسان لأقسام متسعة من القارة، أو بالعكس الى أي حد عمل على إبطاء هذه المراقبة.

## المعادن وتطور التكنولوجيا البشرية

لعل المعادن هي الأكثر دلالة من الموارد التي تمكن الإنسان من مراقبة محيطه. فالمعادن هي المادة المفتاح في العالم. وسارتكوينها ببطء شديد، فقد يمتد على ملايين السنين، وبالقياس الى حلول الإنسان على الأرض مما قد يعود الى ثلاثة ملايين من السنين، فإن السلم الزمني الجيولوجي طويل جداً، فهو يمتد على أكثر من خمسة آلاف مليون سنة.

(١) أ. و. جلبرت، ١٩٣٢، ص ١٣٢.

إن مناطق فسيحة من إفريقيا تتركز على كتل صخرية من أقدم الكتل على كوكبنا. والصخور المتبلورة القديمة، وتعتبر مصطبة القارة الصخرية تغطي على الأقل ثلث مساحتها. وهي تشمل خاصة الغرانيتات مع صخور تحملت تغيرات شديدة كالكشيت والغنيس؛ وبعضها تعدن تعدنا قويا. فمن أهم التشكيلات، يجدر أن نشير إلى المنطقة النحاسية في الشاها (بالزاير) وهي تمتد على أكثر من ٣٠٠ كم وتحتوي على أفسح مناجم النحاس في العالم بل أيضا على أغنى مناجم الراديوم والكوبالت. وفي الترانسفال (في إفريقيا الجنوبية) يفيض المركب الناري ببوشفلد، ومساحته ٦٠٠٠ كم<sup>٢</sup>. وكربت دايك الذي يخترق الترانسفال على طول ٥٠٠ كيلومتر حتى روديسيا، يفيض كل ذلك أيضا بالمعادن، كالبلاتين والكروم والألمنيات. ومنطقة الألماس الإفريقية لا مثيل لها في بقية الدنيا، وتبلغ تجمعها الأقوى في إفريقيا الجنوبية، على أنه توجد مناجم أخرى في طانزانيا وأنكولا والزاير. وإفريقيا الجنوبية وغانة والزاير مناجم من الذهب، ويوجد القصدير في الزاير وفي نيجيريا، ولندكر أيضا مناجم هامة من معدن الحديد في إفريقيا الغربية، كمناجم ليبيريا وغينيا وسيراليون.

وقد تحملت المصطبة الإفريقية القديمة عدة كسور بركانية ترجع إلى ما قبل العصر الكمبري. فتسببت هذه الكسور في ترسبات غرانيتية حاملة للذهب والقصدير، وفي تشابكات الصخور القاعدية وما وراء القاعدية، كما انتجت صخورا بركانية أو اندفاعية الكثير منها أكثر حداثة، لم تكتف بالتفتت لتكوّن تربات غنية خصبة، بل انتجت أيضا معادن وصخورا كهازالت السج في الكينيا، لها قيمة حقيقية في تاريخ القارة.

وعلى ما بقي من المصطبة، أي على ثلثها تقريبا، توجد صخور رسوبية قديمة تعود إلى ما قبل العهد الطباشيري، وتبعاً لسنها فإن هذه الصخور تحتوي أيضا على عدة رواسب معدنية. فعلى طول الحاشية الشمالية للقارة مثلاً، في منطقة تمتد من المغرب الأقصى إلى تونس مروراً بالجزائر، يوجد حزام الفوسفات الكبير، مقترناً بمناجم الحديد الغنية جداً.

وتوجد أيضاً مناجم هامة من معدن الحديد من أصل رسوبي في جهة كارو في أفريقيا الجنوبية وفي الدامارا في نميبيا. وعلى النقيض فإن الفحم يكاد يكون منعدماً في القارة إلا في بعض الحالات الشاذة في البلاد العليا من إفريقيا الجنوبية وفي حقن ونكي في روديسيا، وكأن في الأمر تعويضاً لهذا النقص، فإن الصخور الرسوبية الحديثة مما بعد العهد الطباشيري، تشمل في الصحراء وعلى ساحل إفريقيا الغربية طبقات فسيحة من النفط ومن الغاز الطبيعي.

وساهمت هذه الثروة المعدنية مساهمة كبيرة في دعم التنظيم البشري واستغلاله في فترة طويلة من التاريخ.

فلنلاحظ مثلاً أن مراقبة تجارة الذهب بين غرب إفريقيا وشمالها عبر الصحراء، كانت في العصر الوسيط من الأسباب الرئيسية التي بعثت على إنشاء إمبراطوريات وممالك في السودان الغربي وساعدت على سقوطها. فبلا شك أن تجارة الذهب ومناجم الحديد قد جلبت العرب نحو إفريقيا الشرقية في الألف سنة الأخيرة.

ومن جهة أخرى إن الأوروبيين بعدما سحرتهم الثروات المعدنية في أميركا اللاتينية، تجمعوا في إفريقيا باعتبارها خزاناً استعمارياً للمعادن الخام وذلك قصد تغذية تنمية صناعاتهم.

على أنه في عصر ما قبل التاريخ، فإن المعادن التي تمثل أهمية رئيسية في تقدم التكنولوجيا عند الإنسان، كانت في مستوى أضعف، وكان توزعها أغمض. وأهمها كانت تلك المعادن الحجرية ذات البنية المتجانسة الشديدة الصلابة التي توفر إمكانات حسنة جدا للتفكك (٢). ومن أهم معادن هذا الصنف، الصخور النارية المزججة التي توجد في المناطق البركانية من أفريقيا الشرقية، وخاصة بجوار وادي رفعت الكريكوري. وكان هذا النوع أساسا لصناعة العصر الحجري القديم القفصي في الكينيا حيث وفرت شفرات طويلة وعدة آلات من الحجارة الصغيرة.

وهناك مادة أخرى حسنة الصفات، هي الأشكال السيليسية كالحث الصواني والصخور ذات التركيب الدقيق، المتصلة كالسلكرات والشبست والفليسات، ففي الزيمبابوي استخدمت صناعة العصر الحجري الأوسط بمباطا كمية كبيرة من الكالسيدوم، بينما استعمل صوان العصر الفجري وسيليسية على الهضاب التونسية وفي مصر، ومن المحتمل أنها مستوردان. والحث الصواني أكثر انتشارا في أفريقيا، ولا سيما في شكل حصاء في مجاري المياه. وهو الأساس في الصناعات الأشولية في العهد الحجري القديم. وفي بعض البقاع كما في المجرى الأوسط من نهر الأورنج في أفريقيا الجنوبية، استعمل الشبست المتصلب تقرينا لعين الأغراض التي استعمل فيها الحث الصواني.

والخصائص الحجرية للصخور الحائرة ذات التركيب الدقيق المعروفة باسم «الحجارات الخضراء»، وللصخور النارية العميقة أو الوسطى كالبازالت والاوليريت والديوريت — وهي كلها توفر مادة صالحة لصنع البلطات والقاطعات — لها مع ذلك أقل أهمية. وهي تستعمل أيضا لصنع الأسلحة كحجارات الرمي وشوكات السهام. ومن بين الصخور النارية الكثيرة الاستهلاك، لعل البازالت هو الأكثر استعمالا في صنع الأواني الحجرية، ولوأنه عمليا استخدمت لهذا الغرض كل أنواع الصخور الموجودة. ومن سائر الصخور النارية استعمل محليا وبكيفية مكثفة الغرانيتات والدولوريت والديوريت. وأما الصخور الأقل صلابة كاللكسيات، فلم تكن مجهزة، بل إن في مصر استعملت صخورا ناعمة كحجر الطلق والمرمر المرقط. هذا وإن الصلصال مثل في أفريقيا بأجمعها الأساس في صناعة الفخار، وكانت منتشرة جدا متنوعة أكبر التنوع وهي ترجع إلى العصر الحجري الأوسط.

وأهمية المعادن في رقي التكنولوجيا البشرية في أزمنة ما قبل التاريخ قد تجاوزت صنع الأدوات والأسلحة والأواني. بل هي توجد أيضا في بناء المنازل حيث يحل الجبس محل الوحل البسيط. والعمارات العامة ذات الأهمية والمعال كالأهرام المصرية، كل ذلك اقتضى كميات عظيمة من الصخور الغرانيتية الصلبة أو الحث الصواني. وقد أمدتنا المعادن أيضا بأصباغ الرسوم الصخرية، وقد حفظ البعض منها بكيفية عجيبة حتى اليوم في الصحراء وفي أفريقيا الجنوبية. وكانوا يحصلون على هذه الأصباغ بتهريس عدة أنواع من الصخور كالهيماتيت والمنغنيز والصلصال الصيني، ويخلط الدقيق الحاصل ببعض العناصر الدهنية أو الصمغية.

ولكن الحديد بلا شك، هو الذي سيصير المعدن الحاسم فيما حصلت عليه أفريقيا من رقي في آخر عصور ما قبل التاريخ. فلو أن التكنولوجيا العصرية، بما لها من آلية متشعبة وما يتبعها من

(٢) أندرية روزنفلد، ١٩٦٥، ص ١٣٨.

استثمارات اقتصادية، تفرض استغلال مناجم غنية نسبيا بالمعدن وبصورة عامة مجتمعها كبيرا، فإن الوضع فيما قبل التاريخ كان أقل تحديدا وتقييدا. والقشرة ذات الصبغة الحديدية تفتش على مناطق فسيحة من السهوب العشبية في إفريقيا. وهي تغطي عدة أصناف من الصخور على الهضاب السهبوية العتيقة. وإن لبعض الأصناف من الثروة ما يكون الأساس للأنواع النشطة الأولى لعدانة الحديد في القارة، وما إن اكتشفت تقنياتها حتى انتشرت بسرعة من طرفها إلى طرفها الآخر، وهذا ما يعاكس وضع النحاس والقصدير المحددين في المكان في توزيعهما، حتى أنها لم يتمكن من منح إفريقيا ثقافة برونزية كبيرة الانتشار، فيما عدا بعض المجموعات فيما قبل التاريخ المستعملة للنحاس، كسكان النجد الشمالي الشرقي في إثيوبيا وجموع لوبا في الشاها. على أنه من الواجب أن نذكر بوجود عصر للنحاس في موريتانيا، قبل الميلاد بخمسة قرون.

## الموارد النباتية ونمو الاستيطان

إن الموارد النباتية هي التي تعتمد عليها القارة الإفريقية للقيام بحاجيات استيطان لم ينفك يزداد كثافة. فكما ذكرنا آنفا فإن إفريقيا قبل كل شيء قارة مروج، تغطي أعشاب معمرة متنوعة أكثر من ٥٠٪ من مساحتها الكاملة، وتغطي الصحراء نحو ٣٠٪، ثم تغطي الغابة أقل من ٢٠٪. وفي مستوى الاستيطان البشري، فإن تنوع هذه المجالات كان له دور من حيث أنها أمدت الصيد بما يقتات به، وفرت الثمار والجذور المأكولة، كما منحت من المواد ما مكن من صنع الآلات والملابس والمأوى، وقدمت أخيرا نباتات قابلة للزراعة، في إمكانها أن تتأقلم وأن تتحول إلى مزارع وفلاحية. ومنطقة المروج هي أساسا مستودع الصيد الإفريقي بأنواعه المختلفة، من الظباء والغزلان والزرافات والحمر الوحشية والأسود والجواميس والحيارم والفيلة والكركدانات وأفراس البحر، بقطع النظر عن الصيد الصغير. فلا غرابة إذن كما لاحظ كلارك، أن وجدنا بعضا من أقدم مواقع الاحتلال البشري على طول مجاري المياه أو الأنهار وعلى ضفاف البحيرات أو على شاطئ البحر، في مشهد هو اليوم المرج والسهب المشجر، والساحل النصف الصحراوي أو الصحراء (٣).

والغابة عموما خالية من السكان، على أنه مع مرور الزمن ازداد عدد السكان وتطورت التقنيات مما دفع الإنسان إلى أن يحل في كل أنماط المناطق، من سواحل المحيط حتى الهضاب الجبلية العالية، ومنذ ما صار اليوم صحراء جافة حتى أعماق الغابة الكثيفة.

ومع ذلك فإنه يجدر أنه نذكر أن مناطق النباتات اليوم لا توافق حتما ما كان يسود من وضع في عصور ما قبل التاريخ. فعدة دورات من التغيرات المناخية العظمى أثرت في الصحراء التي كانت في الدهر الرابع القديم أكثرطوبة، وعرفت نباتات شجريا من نوع نبات السهوب، ترعى فيها حيوانات، كالشور والخنزير الوحشي (خنزير أبو قرن) والظبي وفرس الماء. ومن المعتقد، بحسب عامل التقابل، أن الغابة الاستوائية قد مرت في الوقت نفسه، بفترات أشد جفافا.

وفي الوقت الذي كان فيه الانسان يستفيد من الموارد الحيوانية التي كانت مناطق النباتات المختلفة توفرها له، فانه كان يستغل عين هذه المناطق للحصول على الثمار وعلى الجذور المأكولة. وفي هذا الشأن كانت الغابات — الممرات، على طول مجاري المياه في مناطق المروج، تمكن الانسان في العصر الاشيلي من استغلال الثمار والحبوب والجوز في الغابات والسهوب. وحسب كلارك فان عددا كبيرا من الثمار البرية ومن الجوز ومن نباتات السهوب التي كانت في شمالي زامبيا في متناول الناشيكيكوفيين من العصر الحجري الحديث كثمار الموبويو والموسوكو — ما زالت حتى اليوم تحمي بانتظام وتستهلك من قبل الشعوب المتكلمة بالبانتو (٤). وعندما تكاثرت السكان تم احتلال كل أشكال المناطق، وأن مجموعة المنتجات الاستهلاكية المتوفرة للانسان قد اتسعت اتساعا كبيرا. ويظن مثلا أن ما تحيط به بعض المجموعات التي تعيش بالجني في وادي النيل من أهمية كبرى لأشكال من الحبوب، قد سبق زراعة هذه الحبوب المقصودة، وأدى الى عصر انتشار الفلاحة الذي كان له الأثر الحاسم في احتلال الانسان لافريقيا.

ويقطع النظر عن الصيد وجني الثمار، فان الموارد النباتية كان لها أهمية أساسية فيما يخص التجهيز بالآلات والملبس والسكن، ففي أقصى الجنوب من بحيرة طنجانيكا قرب شلالات كالمبو احتفظت الآت من الخشب احتفاظا كبيرا بشكلها ومادتها وهي نوع من بعض الأدوات القصيرة المحددة من طرف أو من الطرفين، وأعمدة مقلمة بالميل، كانت بلا شك تستعمل كمعزقات، وهي كلها ترجع الى العصر الحجري القديم. ولو أنه قل ان تحفظ مثل هذه الأدوات في مواضع أخرى، فانه يبدو أنها كانت مستعملة استعمالا عاديا. ففي الغابة الاستوائية يعكس التجمع الصناعي اللومبي من العصر الحجري الأول بواسطة آلاته ذات الوجهين النحوية الشكل، ما كان من أهمية كبرى لتقنية الخشب. وكذلك في السهب العشبي في زامبيا وفي الملوي، فان ما يوجد من عدة نماذج من الجرفات الثقيلة من بين الأدوات الحجرية التي تعود للعهد الناشيكيوفي من العصر الحجري القديم المتأخر، يوحي باستخدام متداول للخشب ومشتقاته في صنع كل أنواع السياجات والأوتاد والافخاخ المستعملة للصيد.

وفي الجهات الكثيفة الأشجار مثلا، حيث الصيد الفني قليل، فلا يمد بالجلود الصالحة للكساء، تقدم الأشجار لحاءها، ومن المحتمل أن استعملت البلطات الحادة ذات النصاب، كالتى وجدت بجوار صخور مويا بشمال زامبيا، لقلع اللحاء ولتهيئة لصنع الثياب والأواني والحبال. ومنذ العصر الحجري الوسيط على وجه التحديد بدئ في استعمال الانتاج النباتي لبناء الملاجئ التي حلت محل المساكن داخل الكهوف. مثل ذلك أن بعض الأغصان والقش والتبن المضغوط استعمل لبناء شاطرة الريح من العصر الحجري الأوسط، والتي عثر على أنقاضها في شلالات، كويشوسبرينغ، وهي ترجع الى الألف الثالثة قبل الميلاد. وفي العصر الحجري الحديث، ولا سيما في المناطق التي اكتشفت فيها الزراعة، تكاثرت الملاجئ المبنية بالمواد النباتية، وأحيانا بخلط الوحل بالنباتات، وقد انتشرت انتشارا كبيرا. وسجلت بلا شك أول أثر ثقافي للانسان في المشهد الطبيعي.

ولكن لئن كان وجود هذه المنازل المتواضعة علامة على بداية الاحتلال الفعلي لسطح الارض من

(٤) ج. د. كلارك، ١٩٧٠، ص ١٧٨، المصدر المذكور.

قبل الانسان، وعلى قابليته لاختيار نباتات جديدة يؤهلها من بين مجموعة الأنواع الوحشية المحيطة به، فانه في هذا كرس تفوقه نهائيا.

وبقيت الظروف التي مكنت الانسان من خلق أنواع جديدة قابلة للزراعة انطلاقا من الأنواع الوحشية محل جدال بين العلماء، وليست مساهمة افريقيا في هذا الحدث العظيم وما يحيط به من ألفاظ، بأقل حظ في هذا الجدل. وفيما نعلم حتى اليوم، فانه من المسلم به عموما أن هذه المساهمة أقل خطرا من مساهمة آسيا، وشرع في بحوث حديثة بعد أن حرر العالم الثباتي الروسي، فافيلوف كتابه الضخم في الموضوع، حيث يرفض أن يسلم أنه لم يكن يوجد في افريقيا مركزا لهذا الاختيار سوى مركز الأراضي المرتفعة الاثيوبية، وبدأت هذه البحوث تقدم منظورا أحسن توجيها نحو المساهمة الداخلية لأفريقيا في تطور الزراعات الفلاحية (٥). وفي هذا الشأن لا يختلف اثنان، في أن السهب كان له أهمية محسوسة أكثر من الغابة. ففي السهب، بين الألف الرابعة والألف الثانية قبل الميلاد. تم اختيار عدد كبير من الأنواع الأهلية الصالحة للزراعة. وكوّن عدد كبير من هذه النباتات الصالحة للزراعة «مركب الفلاحة ذات البذور» وقد تميزت ببذر الحبة قبل زراعتها (٦).

وفي مقابل ذلك فان بعض التأقلمات التي أجريت في الغابة، تنتمي الى مركب الزراعات التي تقتضي مسبقا تحضير النباتات والفسلات والجذامير الدرنات. وأهم تأقلم في هذه المنطقة تأقلم الأنثيم (ديوسكوريا - سب) الذي يزرع منه اليوم عدة أنواع، ومن النباتات المستأنسة في نفس هذه المنطقة: نخل الزيت (الايس - غينينسيس).

ورغم الزراعات القليلة المؤقلمة، فان اكتشاف الفلاحة تضمن علاقة جديدة خصبة بين الانسان وبيئته. فهي تدل خاصة على قابلية للتجديدات، وذلك كنشر النباتات القابلة للزراعة الواردة من أقاليم أخرى. وافريقيا مدينة لآسيا وأميركا الجنوبية بعدد كبير من المزروعات الجديدة. وفي اطار الموارد النباتية الطبيعية، فإن الأخذ بالاختيار لعدد محدود من النباتات الأهلية أو الأجنبية يدل على أن الانسان كان في وسعه أن يستخرج قوته من وسطه الطبيعي، بل انه أيضا كان منذ ذاك الوقت على طريق التغييرات البيئية العظمى.

وما كان لازما من استصلاح الارض لاحتلال مزروعات جديدة فيها، ومن ابادة بعض النباتات الأخرى التي قد تتقاسم معها العناصر المغذية في التربة، كل ذلك آل في كل افريقيا الى تغييرات جذرية لطابع النباتات.

ولعل النار هي العنصر الأقوى الذي اتجه اليه الانسان لهذا الغرض: ويشهد على استعمال الانسان الافريقي للنار شواهد تدل على أن الانسان كان يستخدم النار استخداما متداولاً في افريقيا منذ ٦٠ ٠٠٠ سنة. على أنه في البداية يبدو أنه استعملها لحماية نفسه ولصنع الآلات، ولعله استعملها للصيد باحراق الاعشاب قصد اخراج الصيد منها. وعند اكتشافه للزراعة قد كان من الطبيعي أن يستخدم النار للتخلص من النباتات المضرة. واثّر هذا الكفاح بواسطة النار ضد النباتات الطبيعية في صالح الزراعة تأثيرا متنوعا في الأعشاب وفي الأشجار. ففي السهب وفي الفصل

(٥) أ.أ. فافيلوف، ١٩٣٥.

(٦) رولند برتيرس، ص ١٩٥ - ٢١٠، انظر في الموضوع الفصل ٢٧ من هذا المؤلف.



الجاف يحرق العشب حتى مستوى التربة، ولكن الجذور المخفية في الأرض تمنع من إبادة هذا العشب. وبالعكس فإن الأشجار ما لم يحميها لحاء كثيف قد تموت فعلا، أن هي تبقى مشوهة الشكل منكشحة.

ودخول النار في الوسط الطبيعي قد أدى حينئذ الى تحول عظيم للمشهد تسبب فيه الانسان على مر العصور. وحيث ان تكرار النيران يقتل الأنواع القابلة للعطب في الغابة الغضة الكثيفة، فان ظروفًا جديدة تخلق مساعدة على امتداد تدريجي للمروج. ففي افريقيا الغربية كان لهذا الوضع من الحركية ما خلق منطقة مهمة من «السهب المشتق» تمتد من الجنوب حتى ست درجات من العرض الشمالي (٦ مكرر) وفي السهب الحقيقي يلاحظ أن طابع النباتات يتغير بتأثير النارين الناشبتين في السنة، وبحسب الخواص الدنيا للمشهد، فيمر من المروج في السهل الى سهب ذي أشجار في التراب الأكثر صخرية. وفي الواقع فان هذا الاحتفاظ بالحريجات المتبقية على التراب الصخرية، يؤدي الى الاعتقاد بأن النباتات الرئيسية في معظم المروج الحالية من الراجح أن تكون هي الغابات (٧).

ومهما يكن من الأمر، فان المروج الافريقية وفرت للانسان في القديم موارد عظيمة. فلم تكن فحسب قابلة للاستصلاح بسهولة، بل كانت أيضا سهلة الاختراق. وكانت سهولة التنقل العامل الحاسم في العمران. فافريقيا قارة ممتازة بالنسبة الى كبر الهجرات البشرية، وقد استعبد وصف البعض منها بفضل الشواهد الأثرية والاثولوجية واللسانية والتاريخية. وكان لهذه التحركات السكنية أهمية في سرعة انتشار الأفكار الجديدة وبث الآلات والتقنيات بالخصوص. وكان لهذا الاشعاع من السرعة أحيانا، ما جعل البحوث الرامية الى التعرف على مناطق أصلية لتجديد ما، تصطدم بعقبات كأداة.

وحركية الانسان كانت دائما عاملا حيويا في تنظيم المجموعات السكنية الى وحدات سياسية، فكان للسهب اذن دور حسن ساعد في افريقيا على توفير الظروف التمهيدية لنشأة الدول. وحين حصلت هذه الدول على وسائل القمع، كان من الطبيعي أن تفرض هيمنتها على مجموعات أخرى لها نظام أو تجهيز عسكري أضعف مما لديها. وبعد محق مقاومة هذه الجموع لم يبق لها سوى أن تندمج في الغالب أو أن تلتجىء إلى خلوات صعبة المنال أو صعبة المعاش. وبكلمة مختصرة فان ظهور الدول في مناطق السهب تبعه تشتت للجموع الأكثر ضعفا، والأقل تنظيما في أوساط منفرة كالمناطق الجبلية الوعرة أو الصحاري أو الغابات الكثيفة.

شاهدنا أن الموارد النباتية في القارة لعبت دورا قويا في التطور التاريخي للانسان في افريقيا، فهي وفرت له ذخائر غزيرة من الثمار والدرنات، كما مكنته من خلق مزروعات تمهدها وحماها فأمدته بوسائل للقتل جديدة غنية. فحتى عام ١٦٥٠م حسب كارل صوندرس، لم يفق القارة سوى آسيا في الاستيطان. وكان ماها من مئة مليون نسمة يمثل ٢٠٪ من المجموع العالمي (٨). ومن أهم عوامل

(٦ مكرر) و. ب. مرجن، و. ج. س. بوغ، ١٩٦٩، ص ٢١٠.

(٧) س. ر. اير، ١٩٦٣.

(٨) أ. م. كارل صوندرس، ١٩٦٤.

التنمية الاستيطانية ما وفرته الوحدات الاجتماعية السياسية الأحسن تنظيماً من زيادة في استتباب الأمن.

وحيث أن انتشارها الأقوى كان في مناطق السهوب، فانه من اليسر أن ندرك، لماذا كانت في ذلك العهد هي المناطق ذات النسبة العليا من الاستيطان الأقوى في القارة، وستأخذ هذه النسبة في التغير شيئاً فشيئاً، خاصة في إفريقيا الغربية، منذ القرن السادس عشر الميلادي، مع تجارة العبيد ثم مع الاستعمار الأجنبي.

## الموارد الحيوانية والتنوع الثقافي

إن توزيع الموارد الحيوانية مرتبط أوثق الارتباط بتوزيع المواد النباتية. وفي كل الأزمنة اعتبرت إفريقيا قارة متميزة الغنى في اللبونات. والواقع أنه يعتقد أن اللبونات الإفريقية، بقطع النظر عن الحفاش، تشمل ثمانياً وثلاثين من الأسر.

وتطور توزيع هذه الحيوانات بحسب العصور وبحسب الأمكنة. وتدل الآثار المتحجرة على أن جميع المناطق كانت عامرة في وقت من الأوقات بأعظم الأنواع الوحشية. وفي منطقة البحر الأبيض المتوسط في إفريقيا الشمالية، كانت توجد بعض الحيوانات كالأسد والفيل، ومن المعتقد أن الكثير منها قد طارده فترات الجفاف القوي في العهد البليستوسيني. وتحمل ما بقي منها أثناء آلاف السنين الأخيرة انقاصات ثقيلة مما كانت تتطلبه مثلاً حاجيات الملاعب الرومانية. وقرىنا منا في أواسط القرن التاسع عشر اكتشفت الجيوش الفرنسية بقيادة الدوق دومال، أينما مرت في الجزائر بين الصخور الوعرة في مقاطعة قسطينة وحتى سهول مقاطعة وهران، أعداداً ضخمة من الحيوانات الوحشية ومن جملة الأسود.

وتحتفظ الصحراء نفسها حتى الآن بسلسلة عجيبة من غاذج الحيوانات الوحشية: غزلان «موزكا» وفاما واضاكس وأوريكس ذات القرون على شكل الخنجر الخ. ونحن نعلم أنه في العصور البعيدة الكثيرة الرطوبة، كانت هذه الموارد أكثر أهمية بكثير، فكان من بينها حيوانات كالغزل والكركدن وفس الماء والزرافة والجاموس العملاق الذي انقرض اليوم وغزلان كبرى.

على أن السهوب الإفريقية تشكل المأوى الحقيقي لمعظم الصيد الضخم الإفريقي (٩) ففي المناطق الواقعة في غربي إفريقيا وشرقيها ووسطها وجنوبيها، توجد الحيوانات الضارية كالأسد والفهد والقط النمر الإفريقي والضبع. وهنا توجد الحيرم والطواي والغزال والخنزير أبو قرن والغزال الأغبر وحمار الوحش والزرافة والنعام. وهنا الموطن الطبيعي للفيل والجاموس والكركدن الأسود وفيلند دربي وعلمند الكاب ورأسى الأرجل وكب سنغ وكب القصب. وعلى مر العصور تغيرت أهمية الموطن الذي احتلته كل من هذه الأنواع. وقد لحق هذه الحيوانات كثير من الأضرار من قبل الإنسان. وفي الكفاح القوي في سبيل البقاء قد اضطرب بعض الأجناس إلى ترك محلها لغيرها كلما تغيرت الظروف البيئية. وهكذا فإن انعدام الكركدن الأبيض بين الزامبيز والنيل الأبيض

(٩) فرنسو سومر، ١٩٥٣، ص ٦٤ (أنظر في هذا الشأن الفصل ٢٠).

الأعلى، قد يعزي الى ما وفرته تغيرات المناخ والنبات خلال العصر البليستوسيني في صالح الكركدن الأسود الأكثر عدوانية.

ورغم كون الصيد الوحشي في معظمه يتردد على الغابة المدارية الافريقية، فإن هذه المنطقة في جملتها منحت القليل في مستوى الموارد الحيوانية، ومن أهم سكان الغابة يجب أن نذكر البوسايغ أي خنزير الدغل والخنزير الوحشي العملاق والبونكو، وكبار القردة كالشبنزي والغوريلا وكذلك الأوكايبى. وفي هذا أيضا فإن التغيرات الحادثة في البيئة أثرت في امتدادات المواطن السابقة. وما لوحظ من فراغات في تعمير البونكوناشىء عن تراض ما سيكون يوما الغابة الكثيفة الممتدة على افريقيا الاستوائية بأكملها.

ولقد أدت غزارة الموارد الحيوانية خدمات جليلة للانسان خلال المدة الطويلة من حياته التي كان فيها صيادا قبل كل شيء. وكانت تبدو هذه الذخائر غير نافذة، حتى أن بعض المجموعات الافريقية بقيت حتى اليوم في هذا المستوى من النمو. وهناك صنف آخر من الموارد الحيوانية: الأسماك، فهي أيضا قد تم اقتناصها منذ العصر الحجري الأوسط، فجارى المياه وأيضاً بحيرات الماء العذب — رودلف وناكورو وعيدي أمين (سابقا ادوارد) في افريقيا الشرقية والوسطى وفي التشاد في افريقيا الغربية — جذبت أولى المجموعات البشرية بفضل الموارد السمكية (١٠). ومن بين الأنهار كان بالطبع للنيل قيمة فريدة، فوجدت على ضفافه أنقاض مجموعات مجاورة كانت تستخدم المخاطيف وصنارات العظم، وكانت أيضا تصطاد فرس الماء والتمساح وتستهلكها، ومازال حتى اليوم من طرف افريقيا الى طرفها الآخر يستعمل فلك بسيط محفور في جذع شجرة قصد الصيد في المياه الداخلية. وقد تتجراً قليل من مجموعات الصيادين على صنع أفلاك ذات أهمية للمخاطرة بها للصيد على الساحل البحري. وفي كل مكان وحتى عصر قريب، فإن التطور التقني الغير اللائق، قد منع الناس من استغلال الموارد الغنية على المناطق الجافة في القارة.

والثروة الرائعة للحيوانات البرية وتنوعها، وفراً ذخيرة عظيمة مليئة من الحيوانات الأهلية على أن تدجين الحيوانات في افريقيا اقتصر عملياً على الحمار والقط والدجاج الحبشي (١١). وأحد أسباب هذا العمل المتواضع هو أن افريقيا في العصر الحجري الحديث قد برزت عليها الأساليب السابقة الأكثر نجاحاً والمجربة في الجنوب الغربي من آسيا. وأذاك تعلمت القارة حياة الرعي. فالرعاة الأولون في العصر الحجري الحديث ظهروا، حسب كلارك، في الصحراء خلال الألف الخامسة قبل الميلاد وربما قبل ذلك فكانوا يسوقون قطعاناً من الدواب ذات القرنين الطويلين أو القصيرين، ومن الماعز والحرفان. واستمروا على ذلك حتى طاردتهم جفاف الصحراء المتزايد.

على أن صناعة الرعي لم تنتشر بكيفية منتظمة في كل الأوساط في القارة. فإن كان معظم المجموعات قد نجح في مراقبة عدد من القطعان الصغيرة، فإن قلة فقط تمكنت من تدجين القطعان الكبرى. ومن هؤلاء طوارق الصحراء الفلانيون في السهب الافريقي الغربي، والماساي في مروج

(١٠) أنظر بوتون، في هذه النقطة أنظر الفصل ٢٠.

(١١) ج. دسمند كلارك، ١٩٧٠، المصدر المذكور ص ٢٠٤.

إفريقيا الشرقية، وقد بقوا مرتبطين ارتباطا وثيقا بحياة الرعاة، وتركوا كل محاولة للجمع بين هذا النمط من العيش وبين نمط الفلاحة.

وتتبع هذه المجموعات بلا فتور قطعانها في طلب الماء والكلاء، فعاشت حتى اليوم حياة البدو الرحل في أدق شكل لها. على أن بعض مجموعات البوتي في إفريقيا الشرقية وفقت في مشاركة تربية الماشية مع العمل الزراعي، لصالح الواحد منها بتأثير الآخر. ولعله مما منع ازدهار الرعي في إفريقيا، تكاثر أجناس حيوانية أخرى كان لها أثر متميز السلبي على غزو الموارد بالقارة.

وفي هذا المجال، لابد من ذكر ذبابة النعاس (تسي، تسي)، وهي ذبابة ضخمة كثيرة التحرك، وهي العامل الرئيسي وليس الوحيد في داء المثقبيات، وهو مرض يسبب للإنسان مرض النعاس، وهو يعني الموت بالنسبة للحيوانات. وتوجد اليوم هذه الذبابة في منطقة تحترق إفريقيا بين الدرجة ١٤ من العرض الشمالي إلى الدرجة ١٤ من العرض الجنوبي. ولا يشذ عن ذلك سوى الأراضي المرتفعة التي تتجاوز ١٠٠٠ متر وهي نسبيا باردة، وسوى مناطق الأعشاب القصيرة، حيث يكون الفصل الجاف شديد الحرارة والجفاف، فلا تتمكن ذبابة النعاس من التكاثر فيها.

وجدت ذبابة النعاس في إفريقيا منذ أقدم العصور، واذ وجدت آثار متحجرة من هذا الحشرة في أميركا الشمالية في طبقات الميوسين فإنه يبدو أنها كانت أكثر انتشارا في ما قبل التاريخ (١٢)، وقد يكون انقراضها من بعض الجهات الأفريقية أو الخارجية عن إفريقيا ناتجا عن التضافرين التغيرات المناخية والحواجز الطبيعية والعهد الجليدي. ومن الثابت في إفريقيا ذاتها أن التداولات المناخية في عصر البليستوسين، قد كان لها كبير الأثر على توزيع مختلف أجناس ذباب النعاس، بل وحتى على نسبة ضررها.

والمناطق التي عاثت فيها هذه الذبابة فسادا، قد كونت حاجزا كبيرا الفاعلية ضد انتشار تربية المواشي. ومن المحتمل أن الرعاة قد فهموا بسرعة أن قطعانهم كانت مهددة بأخطار جسيمة عند مرورها بالمناطق التي أفسدها.

لذا فإن نزول القطعان نحو الجنوب انطلاقا من إفريقيا الشمالية، كان تابعا لوجود ممرات خالية من الذباب، كما هو الشأن القطعان التي كانت تنشؤها مجموعات زراعية منظمة لها كثافة كافية. ومثال مفيد على ذلك، مثال هجرة الرعاة المربين للحيوانات منذ ما يقرب من تسعة قرون، من صهرين مع شعوب أخرى لإنشاء مجتمع التنسي وهوتو في روندا وبرندي الحاليين.

ولا شك أن تاريخ إفريقيا كان من المتوقع أن يكون مخالفا كثيرا لما هو عليه، لولم تعرف القارة ذبابة النعاس. إذ أن هذه الحشرة كانت تمنع المجموعات الزراعية المنظمة من استخدام الدواب الضخمة، فلم يلجأ قط إلى هذه الحيوانات كدواب للجبر والنقل. ولم تتوفر قط أيضا للأفارقة فرصة اكتشاف العجلة الكبيرة الأهمية. وفي هذه الحالة فإن ما مكن الدواب الضخمة عند بعض الشعوب من حرية الحركة، لابد أنه شجعهم على التعدي على الشعوب المستقرة (١٣).

(١٢) ت. د. أ. ككرال، ١٩٠٧، ١٩٠٩، ١٩١٩، ص ٣٠١ - ٣١١.

(١٣) أنظر في هذا الصدد دور الخيالة (الفرسان) في تكوين الدول، ولا سيما في شماله. نمط الاستواء.

ومن العوامل الحيوانية السلبية نجد بعوضة حمى المستنقعات والجراد. فمن عديد أنواع البعوض التي في امكانها أن تنقل عدة أصناف من طفيليات حمى المستنقعات، يوجد ما يجلبه الدم البشري أكثر من غيره. فمن البعوض الذي يبعث أكثر من غيره في افريقيا، بعوضة الملاريا جامبيا التي تجد غذاءها على الحيوانات أيضا، فيكون من الصعب القضاء عليها اذ هي تتمكن من البقاء حتى ولو منعت مؤقتا من الهجوم على الانسان. ويتكاثر البعوض على المياه الراكدة، ويتوالد بجوار المستنقعات والجلداول. ويتكاثر خاصة عند ازدياد الأمطار. وتساعد درجات الحرارة المرتفعة على نمو دعائيصها وعلى دورة الطفيليات الدموية في البعوضة البالغة. وبالعكس ان الطقوس الباردة في المرتفعات العالية تخفض من حداثها. فالملاريا المستوطنة تميل نحو الانقراض في ارتفاع يفوق ١٠٠٠ متر، ولو أن نقلها يستقر على أكثر من هذا الارتفاع.

ولا يعلم منذ متى صارت هذه البعوضة جزءا من المحيط البشري في افريقيا. ونسبة خلايا جلجسي الكبيرة الموجودة عند الكثير من الأهالي الافريقيين، قد يشير الى علاقة وثيقة طويلة المدى بين هذه الخلايا وبين تطور الاستيطان الافريقي. وبدون شك، فإن هذه الخاصية ناتجة عن أثر عدة قرون من الانتقاء الذي ساعد هؤلاء السكان على البقاء في ظروف وباء كبير الاستيطان من الملاريا. وبقدر ما كانت هذه البعوضة تهدد حظوظ البقاء لهذه المجموعات البشرية غير المكيفة تهديدا خطيرا، فهي أيضا قد لعبت دورا مهما في تاريخ القارة. ومن الأكيد أنها بالفعل، حتى القرن العشرين، أياست الاروبيين في محاولاتهم الاقامة في المناخ الحار الرطب في افريقيا الغربية، وحفظت هذه المنطقة من المشاكل الشائكة القائمة بين الأعراق، تلك المشاكل التي اضطرب منها تاريخ الأراضي المرتفعة في افريقيا الشمالية والشرقية والوسطى أو الجنوبية، وقد كانت ضحية للاستعمار الاستيطاني.

والجراد من المصائب التقليدية في افريقيا. وهي حشرات ضخمة تعيش عادة منعزلة أو جماعات صغيرة. وهي توجد في مناطق التحول النباتي، على حافة الصحراء أو على حدود السهوب العشبي والغابة، ويوجد في افريقيا على جنوبي الصحراء، الجراد الأحمر والجراد الرحال الافريقي وجراد الصحراء، وتحتاج ثلاثها الى نوعين من المواطن: تربة عارية لوضع بيضها، ومشهد مخضر لتغذي منه. فاذا ما ضاقت تربة تغذيتها أكثر مما يلزم لسبب من الأسباب، فهي تتجمع فرقا كبيرة لتهاجم مناطق قريية أو بعييدة. ويوجد في الماضي أمثلة من هذا النوع من الزحف، تنص عليه التوراة كاحدى الكلوم التي رمى بها موسى مصر. ومنذ القرن التاسع عشر صارت التقارير عنها أكثر غزارة. فنحن نعلم مثلا أن افريقيا الوسطى قاست من هذه الزخوفات المتكررة بين سنة ١٨٤٧ و ١٨٥٤ و ١٨٩٢ و ١٩١٠، وقرىبا منا بين ١٩٣٠ و ١٩٤٤. وفي نظر الأهالي المزارعين المستقرين، ان الأضرار الناجمة عن تهاطل سيول الجراد، ولا سيما اذا وقعت في فصل الحصاد بالذات، فانها تعني المرور العنيف من الخصب والثروة الى المجاعة. وفي الماضي اذا وافقت الظروف المناخية السلبية - كالجفاف مثلا - وقوع هذه الهجومات، فهي تساعد على انبعاث الانقلابات السياسية والاجتماعية.

## الثروات المائية والحركية البشرية

يجدر أن لا ننقص من قيمة الثروات المائية في تطور التاريخ الأفريقي، فإن وجدنا في قطاعات مختلفة من القارة أرقاما تسجل أقوى التهاطلات في العالم، فإن أرقاما أخرى تشير إلى بعضها الأكثر ضعفا. وامتدادات الصحراء والكلاهاري العظيمة شاهد لا يقبل الطعن، على ما في قطاعات فسيحة من إفريقيا من الجفاف القاسي. وحتى خارج الصحاري، فإن منطقة السهوب الفسيحة لا تتقبل الا تهاتلات كافية تماما، وفي هذه المناطق فإن الحياة البشرية تابعة في جانب كبير للتأرجحات الاتفاقية للرياح المحملة بالأمطار. ولو كان في الامكان أن يلجأ إلى موارد أخرى للماء، كالجداول والبحيرات وحقول الماء الجوي، لكان الأمر أقل خطورة.

ولكن في مناطق متسعة من القارة، ولا سيما في الجهات الحارة نسبيا من الأراضي المنخفضة، فإن الأودية النهرية التي تعيش فيها الحشرات الضارة، غير صالحة بموجب ذلك للاستقرارات البشرية. ثم إن نظام الأنهار يتبع من قريب نظام الأمطار وهكذا تكون مساعدتها قليلة، في فترات التهاطلات غير الكافية مثلا، إذا ما استطال فصل الجفاف، وإذا ما كان مجرى الأنهار ذاته ناضبا. وفيما عدا وادي النيل، فإن التكنولوجيا التقليدية لم يكن لديها أي وسيلة لحزن الماء استعدادا للأيام التي لا مطر فيها. والتقنية الناقصة في التقدم تعني أيضا، أنه لم يكن في الامكان الوصول إلى ما تحت الأرض من مياه على عمق يتجاوز عمقا معيناً حتى في مناطق الأحواض الارتوازية. حيث خزنت البنيات الجيولوجية كميات ضخمة من الماء. وعلى جانب كبير فإن القارة تبطنها قاعدة من الصخور، لا يوجد فيها الا القليل من امكانيات الحزن لطبقات مائية غزيرة. ولا يمكن للمستوطنين البشر الا أن ينتظروا التهاطلات السنوية.

ولذا فإن قلة الماء الناتجة عن الجفاف كانت دائما من خواص الحياة الأفريقية. والتاريخ المناخي لعصر البليوسين، يدل على أن عدة قطاعات من القارة تبعت على الأرجح، نظاما دوريا طويل المدى من تهاتلات تزداد أو تقل قوة. ومهما يكن من أمر، إن الجفاف يمثل ضغطا من النطاق المكاني على الجموع البشرية، وهو يضطرها إلى رد الفعل، ويعبر عن هذه التفاعلات في الأكثر بالبحث عن مناطق أكثر أمطارا للاستقرار فيها نهائيا، أو بصفة مؤقتة.

وقد تكون هذه الهجرات مسالمة، ولكنها غالبا وبحسب تنظيمها وبحسب الكيفية التي وجهت بها، قد تميل إلى التعدي. ويرتاز تاريخ العديد من الجماعات الأفريقية حركاتها الهجرية من قطاع إلى آخر، أو ذلك زحف جمع مهاجر قوي أخضع لسلطانه المجتمعات ونظمها.

وحيثما وجد الماء بكيفية كافية، سواء في ذلك ماء المطر أو الماء الجوي، وحيثما تمكنت الفلاحة من التطور والنمو، انتشر استيطان منظم حسب سیر تدريجي للتطور الاجتماعي، على الطريق الطويلة الوعرة، قصد السيطرة على الطبيعة، ونضجت المحاصيل غنية متنوعة، وفرضت سرعة نضجها بسرعة الحياة الاجتماعية. وصار لفصل الحصاد أهمية حاسمة، ووضعت أعمال طقوسية تقدس حدثا مجهول التفسير، حتى أنه نسب إلى بعض القوى المحسنة. ويتبع الصعود في السلم الاجتماعي لهؤلاء السكان المنظمين عددا من سائر العوامل، أحدها — على الأقل — غزارة الموارد الغذائية التي تمكن

من تقسيم العمل ضمن المجموعة، وتساعد على ظهور جموع مخصصة في نشاطاتها. وليست هذه الامكانية تابعة فقط لمحتزانات الماء، بل كذلك لخصب الأراضي.

## ثروات التربة والتطور الاجتماعي للمجموعات

ان الخواص الجيولوجية لقطاعات فسيحة في افريقيا عينت الى حد بعيد طبيعة التربة. ونظرا لتنوع الصخور في القاعدة كانت صفات التربة التي تكونت من عناصر متشابهة، هي ذاتها متنوعة جدا. ولكن خصبها في الغالب ضعيف، نعم ان تلك الصخور تبدي عادة ذخيرة ملائمة من معظم العناصر المعدنية اللازمة لتغذية النباتات، ولكن تنوعها يؤدي الى تغيرات مهمة في شعاع جغرافي صغير. وما تكون من التربة على الصخور الرسوبية، يرمي الى الاحتفاظ بتجانس أكبر على مساحات كبرى، على أنه لا صلة له بالمساحات الممتدة التي لها خصب التشرونزيوم في أراضي القمح في اكرانيا، أو بمروج أميركا الشمالية.

ان التفاعل بين خواص التربة والعوامل المناخية، بدا حاسما تماما بالنسبة الى خصب التربة وقدرتها على الوفاء بمحاجيات عمران كثيف لمدة طويلة. وفي المناطق الندية فان الخصب الموهوم الذي يظهر من نبت النباتات الغضة، يخفي طبيعة التربة الهزيلة. وإذا ما استصلحت الارض بقلع النباتات الطبيعية تفتت المواد العضوية للتربة بسرعة بعمل الجراثيم القوي، تنشط حرارات عادة مرتفعة. ففي وقت قصير ينحط الخصب، ويتضاءل انتاج المحاصيل، ويضطر البشر الى البحث عن موطن آخر.

وعلى النقيض في المناطق الناقصة الرطوبة، يكون خصب الأرض أحسن، الا أن تغيرات رطوبة الأرض الدورية تساعد على تكوين قشور من معدن الحديد الوعي غير صالحة للزراعة. و ينتج عن هذه القشور تشتت التربة المتوسطة الخصب، فتكون امكانياتها لتغذية استيطان بشري كثيف محدودة جدا. وتلك هي طبيعة التربة التي نجدها في افريقيا الغربية شمالي الغابة الغضة، وعلى هضاب افريقيا الوسطى عى حافات حوض الزاير. كما توجد هذه المساحات أو القشور الملموسة من بين الأراضي نصف الجافة المستقبل لتهاطلات معتدلة، الا أنها أكثر تشتتا، و ينتج عن ذلك أن التربة السمر والرملية في هذه الجهة، هي أكثر خصبا، وإذا ما كانت السنة مطيرة بقدر كاف، فهي تنتج محاصيل لا تئق. وفي الشمال فان تربة الصحراء سطحية وملاعها ضعيفة وتعوزها المواد العضوية.

ومن الصفات الملحوظة في جغرافية افريقيا قلة امتداد التربة الخصبة تماما، وشدة تشتتها. وتشمل هذه التربة الصلصالات العميقة المشتقة من البازلت ومن سائر صخور العصر البليوستوسيني، أو صخور فترات أكثر حداثة، ويعثر عليها خاصة، في بعض أجزاء افريقيا الشرقية. وفي الغابة الكثيفة يكون لهذه التربة في المرتفعات لون الشوكولاتة وفي البقاع المنخفضة لون الحمرة. وهناك تربة ماثيلة لها في الخصب هي التربة الغنية المشتقة من عين الانموذج من الصخور، والموجودة في السهول المعرضة لفيضان الأنهار كالنيل.

وساعدت المحاصيل الغزيرة في هذين النموذجين من التربة، على نمو استيطان بشري كبير كثيف. فإذا ما أدى هذا التجمع — كما في وادي النيل إلى درجة عليا من التنظيم الاجتماعي ومن رقابة المحيط — مثل ما كان في العصور الحجرية الحديثة وقبل عهد السلالات — فتكون الظروف متوفرة لتسارع الرقي. ويتضمن ذلك تطور الحضارة في المدينة، والتمييز بين الطبقات، كما يتضمن صناعة مهذبة وفنا معماريا علميا. وفي النهاية استعمال الكتابة. وكان هذا، أكثر فأكثر مآل العلاقات المنتظمة مع وادي الرافدين، بل كذلك مآل الامكانيات التي وفرها الاستيطان الكثيف المتكون من جموع اجتماعية متنوعة لتحقيق ازدهار الفلاحة التي بلغت في ذلك العصر السحيق درجة مذهلة.

ووجدت ظروف مماثلة لذلك فيما بعد في عدة أماكن من إفريقيا، وذلك كمثال منعطف النيجر عند انشاء امبراطورية غانة في بداية العصر «الوسيط». ومع أن مناطق أخرى تظهر تراتب خصبة نسبيا، فإن امتدادات كبيرة، ولا سيما على سهول الأراضي المرتفعة حيث عاث فيها غسل منذ ملايين السنين، ليس فيها سوى تراتب سهلة الفلاحة تعوزها السمد الملائم للنباتات، فبقيت حتى في عصرنا هذا ذات قيمة ضعيفة من الوجهة الفلاحية. ففي هذه الجهات لم يتمكن الانسان من البقاء الا بالمرور من زراعة إلى أخرى منذ العصر الحجري الحديث. وهذا الصنف من الاقتصاد فيه تدمير ثابت للتربة، ولهذا كان حائلا دون تكوين مجموعات سكانية كثيفة، قليلا أو كثيرا. وهذا الوضع الاستيطاني المتفرق على مساحات فسيحة من القارة، وآثار هذا التوزيع على التطور الاجتماعي، لابد من اعتباره عامل نحس في تاريخ إفريقيا. وكل يعلم أن خصب منطقة من المناطق يتبع في أن واحد خواصها الذاتية ونجاعة استغلال تربتها. ومن الحقيقي أيضا أنه في جهات أخرى من العالم، قد مرت مجتمعات بلغت اليوم مستوى عاليا من التطور الاجتماعي، مرت بأطوار تبع فيها اقتصادها أيضا، زراعات طارئة. فبالنسبة إلى إفريقيا اذن فإن الاستغلال اللائق للتربة يكتسي أهمية رئيسية في التطور الاجتماعي، وإن كان هذا الاستغلال محدودا في الماضي، فهو يدل اليوم على الطريق التي ينبغي سلوكها للشروع بمجد في دورة الرقي الحاسم.

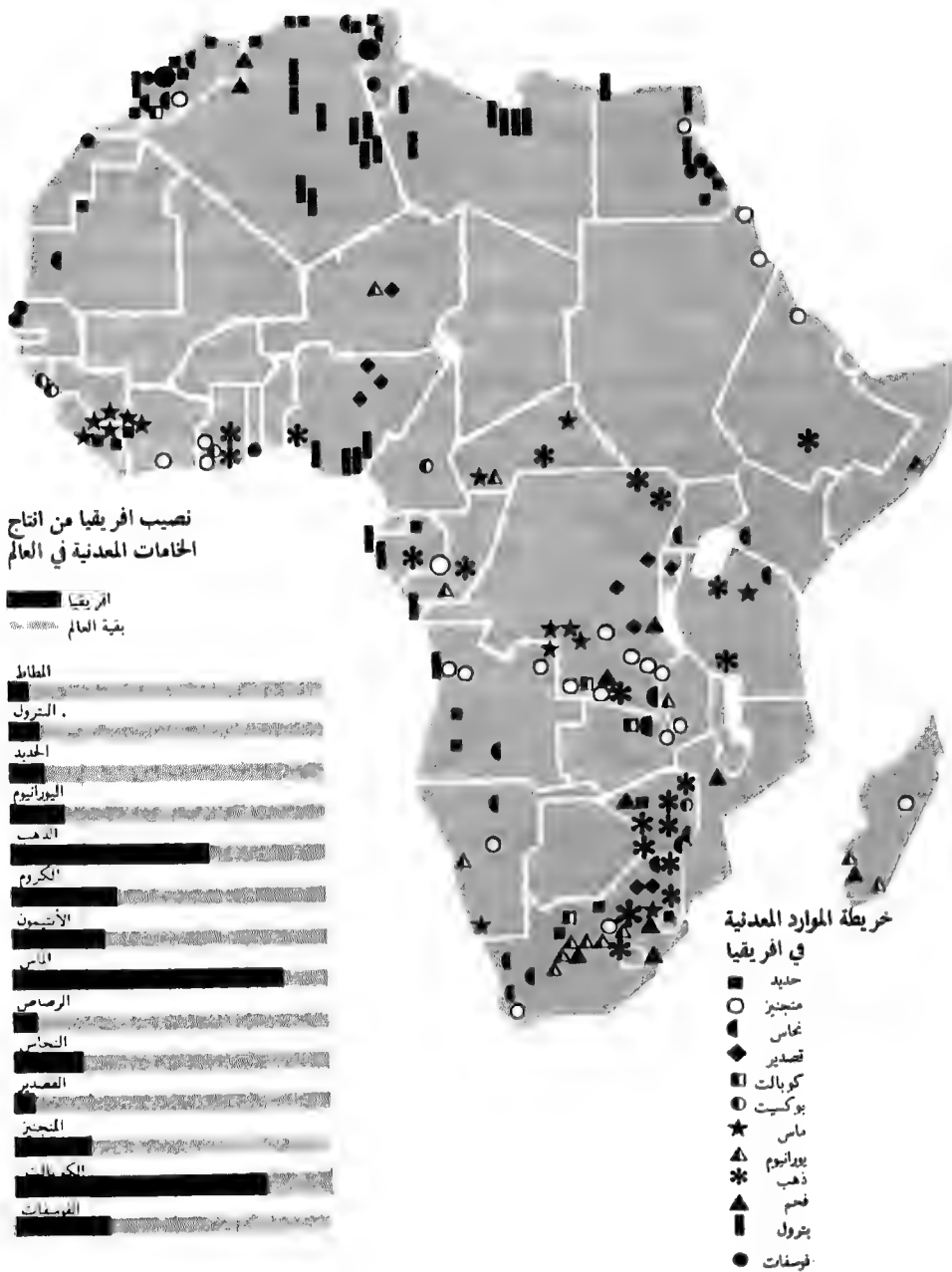
## الخلاصة

إن الجغرافيا التاريخية الإفريقية، وبخاصة منها ما له علاقة بالمظاهر الاقتصادية، تمدنا بصورة قارة كانت الطبيعة معها في غاية اللطف. وعلى الأقل في المستوى السطحي، فإن هذا الطابع الظاهر للحلم الطبيعي التي توضحه الغزارة الواهية للغاية المدارية، كون ضربا من الفخ لشعوب هذه القارة. وهذه المجموعات البشرية وقد توقفت عند سهولات للعيش كبيرة، مرت بمجوار ظروف مزرقة للتطور الاجتماعي. ولا شك أن بعض الرجال أو بعض المجموعات من الناس ظهرت هنا أو هناك وحاولت أن تستقطب أتباعها وأن تسير بهم إلى الامام. ولكن عنفهم بقي أثرا على ورق. وبما لا شك فيه وبصفة مبدئية، فإن التدخل الأجنبي، خلال مغامرة النخاسة الطويلة القاسية، قد طبع تطور القارة العام بميسم الشؤم. ولكن لئن كان هذا التدخل حادثا، ألم يكن ذلك ليذكر بعنف ما يمكن



أن يجابهه من مخاطر كل أخطار جمع بشري يتأخر عن أن يدعوا دون تلكؤ دائما الى انشاء منظمات اجتماعية أشد تماسكا، وأقوى امتدادا، وأكثر تشعبا، وأقوى مواجهة للتحديات المحتملة؟. ولن يأتينا تاريخ افريقيا بشيء، ان لم يبرز هذا الأمر ابرازا واضحا. وتكشف لنا الجغرافيا المعاصرة لافريقيا عن قارة حازت منذ ما قبل التاريخ على ثروات طبيعية غزيرة — على أن الماضي الاستعماري الحديث قد أعان على انشاء وضع مكن من استغلال هذه الثروات على نطاق واسع في شكل مواد خام، صدرت لصالح مجتمعات أخرى.

ثم ان الاقتصاد العصري، الذي يملك كفاءة تقنية عالية، لا يسمح باستغلال هذه الثروات، الا اذا انتظمت الشعوب الافريقية في مجموعات عظيمة مندمجة لتكون قواعد كافية للنمو الحقيقي. وتاريخ عشرية من سنوات الاستقلال لبقى انطباعا غائما، ويبدو أن حتمية بناء مجموعات كهذه تقابل مجموعات مشابهة، تتكون أكثر فأكثر على أرضنا، مازالت حتى الآن، بعيدة جدا عن الادراك... وان كان لهذه اللحمة من الجغرافيا التاريخية والاقتصادية للقارة الافريقية، أن تؤتي أكلها، فلتذكر أن الطبيعة لا تعين مصير شعب ولا مساره، وهي لا ترغم على أمر ما، وفي أحسن الأحوال هي تؤثر وتغري. والشعوب كالأفراد كانت دائما وستبقى بناءة لمصيرها الذاتي.



● الموارد المعدنية في إفريقيا — خريطة مأخوذة من كتاب «أفريقيا» (بالفرنسية) — مجموعة دار «هاتيه» للنشر، ١٩٧٦.

## الفصل الخامس عشر

# مناهج تداخل العلوم المعتمدة في هذا الكتاب

بقلم ج. كي. زيربو

## منهج تداخل العلوم

ان اعتماد منهج تداخل العلوم في ميدان البحث التاريخي يعتبر موضوعا موافقا لذوق العصر، الا أن تطبيقه أصبح عسيرا سواء لتباين الطرق المنهجية التي تختص بها العلوم المعنية بالأمر، أو لأثر العادات الخصوصية التي انغلق فيها الباحثون، غيرة منهم على نوع من السيادة الترايبية العلمية. وقد كان لذلك أثر على عرض نتائج البحث الذي ما انفك يميز في حياة شعب من الشعوب، الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها وذلك من خلال قطاعات مفصولة عن بعضها، فإن بدا لباحث أن ينفج منهج تداخل العلوم، فإن ذلك غالبا ما يتخذ أسلوب الاستيعاب والشمول. ان التاريخ يحتل في حرب التصدر والهيمنة هذه، مرتبة غير واضحة: فهو طبعا ضروري لجميع العلوم، الا أنه لما قصر عن الاشتغال على مصطلح خاص شبه سرّي كثيرا ما يتحصن به الاختصاصيون في العلوم الأخرى، فإنه يبدو وكأنه ملتقى الطرق، ولهذا يُخشى عليه أن يفقد شرعيته بسبب وجوده في كل مكان.

فالتاريخ باعتباره مادة رئيسية، كان يعتمد تقليديا على عنصر أساسي، وهو الوثيقة المكتوبة. الا أن تاريخ القارة الافريقية ولا سيما ما وجد منها جنوب الصحراء، يتميز بقلّة نسبية من حيث المصادر المدونة خاصة قبل القرن السادس عشر الميلادي. والأمر أسوء بالنسبة لما قبل القرن

السابع الميلادي. واعتباراً لذلك فإن المثل الإفريقي يقول: «ترضع الجدة عندما تفقد الأم» (١) فوجب عند فقد المصادر المدونة، أن يستجمع تاريخ القارة الإفريقية كل المصادر المتوفرة من أجل استعادة أسس الماضي. ويمكن أن يتحول النقص إلى عنصر إيجابي، وذلك بالتخلص من الأثر السلبي للنص المكتوب، الذي يتسبب أحياناً في تهاون ضمني بالمصادر الأخرى. ومن جهة أخرى، لقد عانى البحث في التاريخ وفي العلوم الإنسانية بإفريقيا متاعب كثيرة من داعمين متناقضين: أولهما التحريف التاريخي الذي يؤدي إلى اعتبار مجرى الأحداث في النظام الاجتماعي كأنه سبحة تشكّل حباتها الأحداث المسجلة في التاريخ. ولذلك أصبح الشغل الشاغل هو إعادة عناصر التوقيت التي تساعد على توضيح تطور الشعوب، مع إهمال كل ما تبقى (الاقتصاد والبنى الاجتماعية والثقافات).

ومن هنا نشأ ذلك التاريخ التسلسلي الذي يعتمد الانساب والأحداث والذي جاء هزئاً لأنه متجرد من كل لحة تربطه بالحياة. ويوجد انحراف أسوأ، يبدو أنه نشأ جزئياً عن الحكم المسبق بالبدائية على الواقع الإفريقي، وقد أطلقت نظرية التطور السطحية. فهو يحل بنيات خارجة عن الزمن، مهدماً العمق التاريخي الذي لا يمكن دونه أن يكون لتلك البنيات معنى موضوعي أو شعوري.

وكذلك الشأن بالنسبة لبعض الباحثين المعجبين بكمال العلوم التي ينتسبون إليها. ومنهم اللغويون الذين يرفضون كل ما هو من قبيل التداخل الثقافي، وعلماء الأجناس اللغويون الذين ينكرون كل بعد تاريخي. ولكن هذه الأسوار المنيعية بين المواد العلمية أخذت لحسن الحظ تنهار تدريجياً. وفي هذا المجال يقول ج. دسمند كلارك (لقد ثبت أن علماء الآثار واللغويين وعلماء الإنسان الشقائي وعلماء الأجناس، يواجهون في أغلب الأحيان نفس المشاكل، وإن أحسن طريقة لحلها تكون في العمل ضمن مجموعة العلوم المتداخلة. وهذا عامل من أكثر العوامل تشجيعاً على الدراسات الإفريقية اليوم وحثاً عليها.. (٢).

إن شبه التاريخ المطبوع بالاعجاب بالترتيب التاريخي فحسب، وبسرّاب التحليل البنيوي السكوني والشكلي المحض، يضمحل شيئاً فشيئاً، مثلما تشهد بذلك المدارس التي تدرج التطور الزمني والتفاعل في منهج تحليلها، وذلك بادماج الظاهرة الثقافية والظاهرة اللغوية معاً، مثلما فعل كالامبي وغريول وهويس، أو بالتخلي عن طريقة الاجتماعيين الجامدة مثلما فعل بلندية، واعتماد طريقة دينامية تتخذ الحركة والمقابلة وسيلتين للتحليل. أليس التناقض جزءاً لا يتجزأ من الواقع؟ فالمؤكد هو أنه ليس من مصلحة أي علم كان أن يعالج وحده العالم الإفريقي الذي هو على غاية من الكشافة والتعقد. فكأننا نبغي حل المشكلة بضربة حاسمة. وذلك شأن الباحثين الذين يظنون بأنه يمكن العثور في عنصر واحد، على التفسير الأساسي الخاص بهذا. أو ذاك من المجتمعات الإفريقية، مثلاً باعتماد التحليل البنيوي للرقابة، أو نظام التصورات والمعتقدات والأساطير والرموز التي تعتبر

(١) قد يبدو أن الرضاع عملية قائمة على رد فعل. إلا أن النظام الإفريقي للأدوية كان يشتمل على وسائل لتثبيطه.

(٢) جاك دسمند كلارك: ما قبل تاريخ أفريقيا: إمكانيات التعاون بين علماء الآثار وعلماء الأجناس وعلماء اللغة، صدر بمجلة اللغة والتاريخ بإفريقيا — فرنك كاس، ١٩٧٠.

متميزة باستقلال ذاتي أو بمنطق خاص، فتكون مستقلة مثلا عن علاقات الانتاج (٣). وفيما يخص القرابة، فإن تحليلها مرتبط في افريقيا بنظم أقل «صفاء»، وأكثر تعقيدا مما هي عليه باستراليا مثلا. وتلك بنيات يعتبر ليفي ستراوس انها خاضعة لعناصر أخرى (اقتصادية وسياسية)، تختلف عن القانون الوحيد الخاص بقواعد القرابة.

إن التاريخ الافريقي أقل العلوم احتمالا للحصار المضروب عليه، ويصدق ذلك حتى على وضع يعتبر فعلا من خصائص التاريخ، وهو الترتيب الزمني، ففي كثير من الأحيان لا يمكن أن نثبت بالدليل القاطع حل مشكل من مشاكل الترتيب الزمني، الا بالاعتماد على أربعة مصادر مختلفة: الوثائق المكتوبة، وعلم الآثار، واللسانيات، والتقاليد السماعية. فالمؤرخ الذي يلتفت الى الماضي يشبه سائق السيارة الذي توفرت له، لتقدير المسافات، آلات متعددة: عداد سيارته، وساعته، والعلامات الكيلومترية، وربما أيضا أقوال أحد من أهالي المنطقة. إن هذا التأثر الضروري يعتبر فعلا عنصرا إيجابيا يضمن استعادة صورة الماضي في وضوحها وكماها، في حين أن مصدرا واحدا قاصر عن استعادتها مكتملة. إن وصف كومبي في كتاب المسالك للبكري يمكن أن يظل ناقصا لولم يستخرج الأثر يون الأطلال ولم يفسروها تفسيرا أبلغ مما قاله عنها البكري. ولنصف هنا أيضا أن التقاليد السماعية لم تكن مفقودة، بل كانت السبب في اكتشاف موقع كومبي صالح، وفي هذه الأحوال، هل يمكن لنا أن نقول بالمصادر الجيدة أو بالمصادر الرديئة، عندما نصفها حسب سلم تمايزي تحتل فيه الوثائق المكتوبة القمة وتنزل التقاليد السماعية المنزل الدنيا؟ ذلك ما يمكن تصوره. إن قيمة مصدر من المصادر لا تشكل واقعا في حد ذاتها، فهي مرتبطة بالموضوع الخاص المستهدف بالبحث. ففي كل حالة يوجد ضمن مجموعة الروايات المتوفرة لدينا، مصدر محوري ومرجع أساسي يمكن أن يختلف بحسب الموضوع. إن الوثائق المكتوبة لا تعتبر المصدر المثالي بالنسبة لما قبل تاريخ افريقيا، أو بالنسبة للمجتمعات (القرمية) لأن تلك الوثائق مفقودة. إن مجموعة الأدلة التاريخية نخضع، حسب الأزمنة وحسب المناطق الأفريقية، لهذا المصدر المحوري أو لذلك، وتؤدي المصادر الأخرى وظيفة تكميلية أو ثانوية. فالمصدر الأساسي قد لا يكون واحدا إذا تعلق الأمر مثلا بجماعة مجهولة من قبائل الجيتول، أو بمملكة يوغرطا أو الكيردي بشمال الكرون أو قبائل الأشني في بلاد غانا أو قبائل الكابني بشمال الطوكو، أو امبراطورية كاوو التي سجل أحداثها تاريخ الفلانيين فلا يمكن استعمال نفس المصدر من مصادر التاريخ ولا يمكن أن يعتبراي مصدر أساسيا الا بعد الانتهاء من التحقيق، لأن المصدر هو الذي يكتف النتيجة، ولكن النتيجة هي التي تبرز المصدر. فإن كان ذلك صحيحا، يمكن حينئذ أن نقول دون خطأ، بأن منهج تداخل العلوم، في مستوى المادة التاريخية الافريقية، ليس من باب الترف، بل يعتبر مقدمة من مقدمات المنهج الأساسية. ولذلك لا يوجد بديل لمنهج تداخل العلوم.

## تكامُل المصادر

ان مصادر التاريخ الإفريقي — لا شك في ذلك — متكاملة الى حد أن كل واحد منها عندما يقتصر عليه، يظهر مشوهاً ويعكس صورة باهتة لا يمكن توضيحها الا اذا اعتمد على مصادر أخرى. ان علم الآثار لا يعدو في حد ذاته أن يكون وصفاً جافاً، ومعاينة قد تبث على الأسف، خاصة اذا اعتمد على أسلوب مرتجل، انطلاقاً من بعض العينات، ويمكن أن يتباطأ الاكتشاف تباطؤاً مزعجاً اذا ما اضطر الباحث لانتظار حفريات أخرى لتأييد أو تفنيد الافتراضات المقدمة. على أن علم الآثار يمكن أن يقدم خدمات جلية للعلوم الأخرى التي تعامله بالمثل اذا ما وضع في إطار الحياة المتعددة الأشكال التي يريد الكشف عنها. ان تفسير ما يعثر عليه من اكتشافات يوجد في غالب الأحيان خارج ميدان علم الآثار نفسه. ففي الزمبابوي مثلاً نجد في مناجم الذهب، والدفاع عنها الاعتقادات الدينية، نجد التفسير الصحيح لأغلب البنيات التحتية والبنيات الفوقية. وفي مكان آخر لا يمكن تفسير محتوى القبور ووضع الموق في أضرحتهم الا بالاعتماد على معتقدات الناس وتصوراتهم للأخرة. وعلى العكس، اذا كشفت الحفريات بشمال غانا عن تصميم معماري مشابه للتصميمات المعمارية الموجودة بالسودان الساحلي، فذلك يعني أن علم الآثار يضع أو يحل مشكلاً مهماً من مشاكل التأثير الثقافي.

وكذلك الأمر بالنسبة للفن الإفريقي الذي يجب أن يسلط عليه ضوء التاريخ ليسلط عليه ضوءه بدوره. فالفن ولا سيما فن ما قبل التاريخ خاضع لعناصر متعددة، انطلاقاً من الجيولوجيا، الى الديانات، والأساطير وخلق الكون، مروراً بالبنيات الاجتماعية — السياسية وبتمسك الملوك بالسلطة. وفي هذه الأحوال فان الجمال يخضع خضوعاً مباشراً للاخلاق ويخضع في نفس الوقت. أما الفن، فهو مكان تحفظ فيه تحف الانثروبولوجيا الثقافية، وحتى الطبيعة، نظراً لما يتوفر فيه من الطقوس والتشريعات وتسريحات الشعر، والملابس والمناظر.

لكن فهم الفن نفسه كوسيلة تقنية ملهمة، لا يمكن أن يتحقق خارج التاريخ. فيمكن مثلاً أن نفسر الأسلوبية بالاعتماد على التنظيم الاجتماعي. ففي بلاد بينان يتولى الفنانون أنفسهم (إيكبي مابتوا) النقش على الخشب والعاج، ويعمل آخرون على الفخار والبرونز. ومن الواضح أن استعمال مادة دون أخرى يفسر على العموم صفات الأواني من العاج أو البرونز. ولا يمكن أن نفسر الرسم الداخلي والصور الخارجية لأواني الفخار طيلة ما قبل التاريخ الا باعتبار كونها قد اخترعت انطلاقاً من سلات التبن المفتول، وما عسانا أن نقول في شأن الأقفنة التي استوحاها الأفارقة عند صنعها من خيالهم الفياض، مثال ذلك أقنعة بوبو، لاسيما الثلاثة الرئيسية منها: كيبي (القناع العتيق) وكييمي (رأسه رأس الطائر الملك الحزين)، وتيبيلي الذي له جمجمة الجاموس. إنها تعبر عن شخصيات حقيقية معروفة بالقرية، فهي من شواهد التاريخ، بل تساهم مساهمة فعالة في صنعه (٤).

(٤) (ان قناع هتاف الغيب الأكبر أو «روح الاله» هو الكوجي الذي يحمله كاهن أكبر يسمى كزولا، ويلعب هذا القناع دوراً هاماً في النظام السياسي لتلك المجتمعات. انه امتداد عملي لعبادة الأجداد، ويقوم بوظيفته ليلاً في السرية الكاملة. ففي حلقات البروز، يؤتى بالقناع الأكبر مسبقاً الى الغابة المقدسة، يغطيه غطاء أبيض. ويقوم الكونولا بدور الرئيس والكاهن، فينطق بالحقيقة التي يوحى بها الأجداد. ويعتبر الكوجي أيضاً مشرعاً لأن قراراته تعلن على الملأ في القرية ولها قوة القانون). انظر: م. هويس، في: «دراسات غينية» ١٩٥١، ج. ف، ك. و. هارلي ١٩٥٠.

وما عسانا أن نقول في شأن «الكوري» التي أشار ابن بطوطة الى وجودها منذ سنة ١٣٥٢م ببلاط بلاد مالي، وكانت الغاية الأولى منها نقدية، إلا أنها كانت تستعمل للزينة عندما ترتب في صفوف ترتيبا فنيا. ولقد كانت لها قيمة خاصة في الالتزامات الاجتماعية والاحتفالات الدينية. فالفن منغمس هنا في نظام معقد يزوده بالمعلومات التي تبث فيه الحياة. ان الشروع في وضع تاريخ بعض المجتمعات الافريقية دون فهم المغزي من «الكوري» والأقنعة يعني أننا ندخل قاعة وثائق ونحن نجهل كل شيء عنها، وبذلك يكون فهمنا لحركة التطور ناقصا.

ويمكن أن نقول نفس الشيء بالنسبة للتقاليد السماعية (\*) التي وقع الاعتناء بها اعتناء كبيرا في غير هذا المقال. فالتقاليد السماعية، هي التاريخ الحي، الذي ترويه الذاكرة الجماعية مع كل ما يطرأ على ذلك من اتفاق ومن سذاجة، وكل ما فيه من طرافة وعذوبة. يوجد في التقاليد ما يوجد في لسان ايزوب من خير ومن شر. ولا شك أن التقاليد السماعية قد لا تهتم بالعناصر الاقتصادية والبنائية. ولكنها تصلح في حالها تلك لاكتشاف مصادر أخرى أكثر تعبيرا من المخطوطات والمواقع الأثرية. ويستحسن أن يشرح الباحثون قبل القيام بعملية حفرة في استقرار التقاليد المحلية، لأنها تساعد أيضا على تصحيح الأخطاء في التأويل الناتجة عن نظرة خارجية بحتة. هي تسمح فضلا عن ذلك بحصر عدد الفرضيات، وتحدد نطاق الاختيارات (٥). فان تعددت الروايات يعتمد مصدر آخر يسمح بحسم المشكلة، وذلك مثلا بمراجعة خريطة المناطق التي وقعت فيها الحادثة المتناقلة بالرواية. ان الطبول التي لها صلة وثيقة بالتقاليد، تعتبر من أمهات الكتب الحية، فبعض الطبول تقوم بدور البشر والنذير، والبعض الآخر يبلغ الأخبار والبعض الآخر يؤدي صراخات الحرب التي تبث الحماس، ومنها ما يقوم مقام المؤرخين الذين يروون مراحل الحياة الجماعية. ان لغتها هي قبل كل شيء رسالة تحمل في طياتها التاريخ. وبخصوص هذا الموضوع، أمكن التمييز بين علم موسيقى الأجناس الداخلي أو الفني وعلم موسيقى الأجناس الخارجي، أي المتصل بالنسيج الاجتماعي والثقافي (٦).

وكثيرا ما تتغنى بالملاحم أو الوقائع الكبرى جماعات منظمة لهذا الغرض وبشكل خاص في افريقيا، وذلك في أداء يشترك فيه الجميع مشاركة حية، ان الموسيقى لا تسمع أبدا سماعا سلبيا لأن الجماعة كلها تؤثر فيها. فهي حفلة جماعية يدعون فيها الثلاثي المتكون من الغناء والرقص والموسيقى الى التأويل التركيبي، اعتمادا على اللسانيات، والتاريخ، وعلم النبات، وعلم النفس

(٥) تستعمل في هذا الكتاب أيضا عبارة الشفاهي لترجمة (ORALE) وهي ترجمة صحيحة ولم أغيرها بمراجعتي لهذا الجزء وأرى أن التعبير سماعية أحسن (تعليق المراجع محمد الفاسي).

(٥) لا بد أن تنزل التقاليد منزلتها. فلقد حدد بعض الباحثين في ٧ دواول. اعتمادا على لوحة منهجية مفيدة للحكايات والسبع المعطيات الداخلية للحكاية (لا سيما الدلالية والبلاغية منها) ومعطياتها الخارجية التي يربط بعضها بالساق الثقافي والحضاري. أما البعض الآخر فهو يوجد خارج هذا السياق. انظر: الآداب السماعية العربية والبربرية، النشرة الرابعة للاتصالات ١٩٧٠، مركز الدراسات المغربية. متحف الانسان باريس.

(٦) ان الباحث الذي يسلك هذا المنهج، يستطيع أن يصل الى ميادين عديدة أكثر اختصاصا: من ذلك علاقات الموسيقى باللغة، والرموز الاجتماعية والفلسفة التي لها صلة بالموسيقى، وعلاقة الايقاعات بمظاهر المسّ الجنوبي، وعلاقات الموسيقى بالحيط الاقتصادي والمناخي والعلاقات بين أنواع الموسيقى من مختلف الأجناس: انظر: سيمها آروم رئيس كونستانت، في كتاب «دليل البحوث — أفريقيا السوداء»، د. مارتن وت. يانوبولوس. الناشر: آرمان كولان، باريس، ١٩٧٣.

الاجتماعي، وعلم النفس العام، (والفيزيولوجيا) والتحليل النفسي، والدين الخ. ودون أن نعقد الآمال العريضة على علم الموسيقى التاريخية، فإن الدراسة المقارنة لآلات الموسيقى ومادتها باعتماد قياسات رياضية يعالجها التحليل الإحصائي، تستطيع أن تفيدنا بنتائج مقنعة فيما يتعلق بنشر الثقافة وتطويعها. إن عالم النغم الإفريقي يتقلص أمام غزو موسيقى كثيرا ما تكون أقل منه ثراء، تروجها نظم اقتصادية أكثر منه غنى. فهل سيصبح طبل الطام طام الذي صنع التاريخ في حذ ذاته موضوعا من مواضيع التاريخ؟

أما اللسانيات، فإنها قد أصبحت رفيقا جديدا أميننا وثر يا يلزم التاريخ، لأن التقاليد محفوظة في الأجناس وفي المتحف الحي لللغات التي يجب أن نحصل عليها لنستخرج منها «اللب المغذي». فكل لغة ابتداء فكري، وهي كذلك ظاهرة اجتماعية. إن مفرداتها تعكس مثلا وجوها من الواقع قد صهرها تاريخ كل شعب. وبالمقابل فإن اللغة والكلمة، يدرجان في عقليات الشعوب وحوافرها نظاما من التصورات والمعايير التي تهذب سلوكها. ويعسر أن نعبر تعبيرا متشابهة عن بعض تلك التصورات بلغة لها صلة بسياق إجمالي مغاير، ومن الأمثلة على ذلك فكرة (سانا كوبا) في لغة الماندي، وفكرة (راكيري) في لغة الموري، فيمكن ترجمتها بـ «قربة فكاهية». وهو معنى له دور تاريخي على غاية من الأهمية في المنطقة السودانية الساحلية. وذلك أيضا شأن كلمة (دياتيكي) بالماندي التي لا تعبر فقط عن مجرد معنى (المؤجر للسكن). أما كلمة (تنكهوبا) فإنها تعبر حرفيا فقط عن معنى «رئيس الأرض». إن المؤرخ محتاج دوما إلى النقد اللغوي وإلى مساعدة مصادر أخرى. وهكذا فإن الترتيب التاريخي والبحث عن أصل الآثار الدائرية الشكل ببلاد لوبي ناشئان عن توافق أدلة تتنافى وتتآزر: فهي تدحض الفرضية التي تعود بها إلى أصل برتغالي والتي تعتمد نقبا لباروس وهذا يخالفه تخطيط الطريق الذي له دخل في الموضوع، كما تخالفه معاناة غلاف التلبس الذي لا تسمح لنا حدائته بأن نعود به إلى تاريخ قديم، ويمكن أن نعتد تسمية (وي لي وبريفور) لتلك الآثار (كول ناوو) أي (مرابط بقر الأجانب). ويمكن التعرف على هوية هؤلاء الأجانب في شخص قبائل (كولانكو) إذ أخذنا بعين الاعتبار أسلوب آنية الفخار الموجودة بالآثار، كما لنا أن نقومها باعتبار الترتيب التاريخي الذي نصله بتقاليد هجرة شعوب المنطقة. وهنا نلمس الدور الأساسي الذي تلعبه اللسانيات في محاولة تأويل حدث تاريخي معين (٧).

ولا يجوز — لكي لا تقع في خطأ فاحش — أن نخلط بين الظاهرة اللغوية وهي ظاهرة ثقافية، وبين الظاهرة القبلية، أو المظهر البيولوجي الخاص بالجنس البشري. يبدو أن لغة فرسان داكوميا الذين غزوا وادي الفولطا في القرن الرابع عشر الميلادي قد انقرضت وحلت محلها لغة النساء كوساسي اللواتي تزوجهن في عين المكان وأصبحن أمهات أبنائهم — وهذه عدوى لغوية قد وقعت كما يحدث أحيانا على حساب من كانت يدهم مقاليد الحكم السياسي: أما تاريخ الأجناس المقصور على الحاضر المخطط الذي يعتمد الوظيفيون، فإنه ليس تاريخيا بآتم معنى الكلمة ولا يمكن له أن يلعب دورا إيجابيا في هذا التفاعل بين المصادر، حيث لا يشكل كل واحد منها عنصرا ستاتيكيًا بل عنصرا متحولًا يحمله مجرى النظام التاريخي. إن تاريخ الأجناس الوظيفي، كثيرا ما يتهاون

(٧) انظر: ب. برنكو، و. ب. ج. هيرت، ١٩٦٢.



بالشفافيات المادية وبتلك الحركة العامة للمنتجات التي يعتبرها لوروا كورهان أساس الحضارات. أوليس العدد الزوجي في التجارة عبر الصحراء (ملح مقابل ذهب السودان)، الذي عوض بعد عدة قرون بالعدد الزوجي (السجناء مقابل النادق)، أهم الأسس التي شيدت عليها ممالك الغرب الافريقي وامبراطورياته؟

وفي هذه الأحوال يشكل علم الاجتماع الدينامي مجالا أساسيا يحسن أن يطبق فيه حكم النقد التاريخي الافريقي. ان الأمر لا يتعلق بأن ننقل في المكان أو في الزمان أدوات تحليل لنسيج اجتماعي سياسي معين، بدون دراسة، الى نسيج آخر، لأنه يُخشى أن نعدد المشاكل أكثر مما نحل منها. ففي ما يتعلق بضبط المُعدلات لدوام عهد المُلك، لا يمكن لنا بالنسبة لفجر التاريخ أن نتصور دون حذر، مدة وسطى تُستنتج من فترة معاصرة معروفة لأن الاستقرار أو عدم الاستقرار السياسي والشفافي غير متشابهين بالضرورة. ولا يمكن في نفس الحالة المتعلقة بالوراثة الجانبية (أخ عن أخ) المستحبة في مملكة موسي من ياتنكا أن تفيدنا بمعدلات تشابه معدلات مملكة واجادوجو حيث أن الوراثة المستحسنة تجري مباشرة (ابن عن اب). ان المدة الوسطى لعهد الملك في واجادوجو تدوم أكثر ويكون فيها عدد الأجيال أوفر. ويضاف الى ذلك إمكانية الأخذ بالاعتبار العناصر الدينية في الموضوع. ويكون معدل مدة عهد الملك أكثر طولاً اذا اعتبرنا سلالات ملوك كان (كان ماسا) الذين كانوا ينتخبون من بين الرجال الراشدين والأصغر سناً، وهذا يعني انه لا يمكن تحديد الخط الأفقي الزمني بمعزل عن معرفة علم الاجتماع السياسي الخاص بقطر معين. ان مفهوم الاستقرار ليس نموذجاً جاهزاً يطبق دون تحوير على جميع الفترات وجميع الاقطار. فمن الممكن أن يكون الاستقرار ظاهراً وأن يقدر بثمن اجتماعي ثقيل جداً. ففي أثيوبيا وكذلك واجادوجو، كان يضمن استقراراً نسبياً بالقضاء على المترشحين الخائبين والورثة الجانبيين أو نفيهم، مما يتسبب في دفع ثمن باهظ من الضحايا البشرية التي يجب على التاريخ أن ينظر اليها بأنها من عوامل عدم الاستقرار حتى يوفر تفسيراً مفيداً لتطور تلك الاقطار.

ويمكن أن نقول أيضاً على العلوم الطبيعية والدقيقة من أجل الإحاطة بصورة الماضي الافريقي أو تدقيقها، وذلك بالعقل الالكتروني لمعالجة معطيات مرقمة، وبالطرق التقنية، والفيزيائية والكيميائية والبيوكيميائية لوضع التواريخ، وبتحليل المعادن، والنباتات والمواد الغذائية، والماشية والدواب، وبعلم الأوبئة والكوارث المادية المتصلة بالمناخ الطبيعي. وليس غريباً أن يعنى عناية كبرى في التقاليد الافريقية بالمجاعات التي يؤرخ بها، مثلها في ذلك مثل الحروب. ولا شك أن دور العنف بافريقي كان يشابه، في تطور القارة، دوره في تاريخ قارات أخرى. الا أن المستوى التكنولوجي الضعيف قد قلل من حدة وقعه المطلق، وان كان وقعه النسبي قد تضخم، إذ أن تقدم شعب على آخر بعض الشيء في هذا الميدان كان يكتسي معنى كبيراً. ألم يكن اختلاف الأسلحة حاسماً في بسط هيمنة الأشوريين على مصر، وملوك غانا الأولين وتشاكا الزولو؟ من واجب علم الإحصاء أن يقدم مساهمة مهمة مدعومة بالأرقام، ومن دونها تأتي وجوه الواقع مشوهة حتى في مستوى الكيف، لأننا نستطيع أن نقول، انطلاقاً من مستوى معين، بحصول وثبة كافية فيما يتعلق بطبيعة الظواهر، اذ لا يمكن أن تتشابه طبيعة بنيتين لشعبيين أولهما يشمل ١٠ ٠٠٠ نسمة والآخر ١٠ ٠٠٠ ٠٠٠. ان الخطأ التاريخي عندما نتحدث عن الغزوات، والأسلحة الافريقية في القرن

الرابع عشر الميلادي، يمكن في تصور تلك التحركات حسب منظار القرن العشرين. لذلك فإن المرجع الاحصائي يساعد، ولوباعتبار تقديراته التفرعية، على وضع الأشياء في نطاق سَلَم من الحجم الطبيعي يكون أقرب الى مجرى الحوادث الواقعي.

لا يستطيع علم الحرب الافريقي أن يساهم مساهمة مفيدة في تاريخ افريقيا اذا لم يربط بالدين الذي له به صلة وثيقة، لأن فن الحرب كان جزئيا مجابهة سحرية. فيكفي أن ننظر الى لباس البوري ندياي الحربي الموشى بالحروز لنقتنع بهذا الأمر. ولقد استمرت هذه التقاليد جارية حتى عند الجنود الأفريقيين من صنف المشاة أثناء الحربين العالميتين.

أما الانثروبولوجيا الطبيعية، فيمكن من جهة أن تسهم في وضع تاريخ صحيح. ان الأساطير العنصرية، من أمثال النظرية الحامية المعتمدة على مظاهر واهية، قد غفلت هذا الميدان من البحث. ولا يمكن أن يظهر فعلا إلا بالاعتماد على منهج تداخل العلوم الذي تشتبك فيه أدلة متنوعة تقود الى الحقيقة. فيمكن للرسوم الجدارية فيما قبل التاريخ أن تنير طريقنا الى بعض الاكتشافات، شريطة ألا يخلط بين نمط المعيشة مثلما يظهر على سطح صخرة، وبين الجنس، لكن لا ننسى أن تشويه الهيكل العظمي، وتطويل الجمجمة اللذين كانا جاريين عند المانكبيتو، متصلان بنمط المعيشة والثقافة. فاذا استطاع التحليل المصلي ان يساعد على رفع الالتباسات، فانه من جهة أخرى قد أفادنا أن الفئات الدموية قابلة للتكيف مع البيئة وذلك ما يبينه أثر العامل البيولوجي الحاسم على الجنس البشري الذي لا يمكن إدراكه على حقيقته — مثله في ذلك مثل جميع الأشياء المتصلة بالتاريخ — الا بعد وضعه في مكانه بين الطبيعة والثقافة، مروراً بعلم الأحياء. وقد كان للطبيعة الافريقية وقع شديد على التاريخ ولهذا وجب — دون أن نقع في حتمية ميكانيكية — ألا ننسى الأحوال الجغرافية أبداً (٨).

فلا يمكن أن ندرك خاصية الثقافات وتطور ما قبل التاريخ بافريقيا الوسطى الا بالتفكير في وجود الغاب الكثيف الذي يذكرنا بأثر المكان في الزمان (٩). فكيف يمكن لنا أن نتحدث عن سكان نهر النيل الأولين دون أن نعتد على شكاله الأرض (الجيوغرافيا) وعلم المناخ الأحاثي (بليوكليمااتولوجيا) (١٠).

## وكيف ذلك؟

وهكذا فإن تداخلات العلوم وتفاعلاتها التي يحتاج اليها من يؤرخ لافريقيا، كثيرة. لكن كيف يمكن أن نعد هذه المعركة التي تشارك فيها علوم متباينة تريد كلها أن تكشف عن وجه افريقيا القديمة.

(٨) «الطبيعة تجرد الإنسان بقر» ذلك ما كتبه فيدال دي لا بلاش أو كما يقترح ب. تيلاردي شردان الذي يقول «أليس التاريخ عندما ينظر اليه من على، أكثر فصول التاريخ الطبيعي حداثة».

(٩) انظر: هـ. لوفير ١٩٧٤. وهو كتاب رصين يعالج فيه المؤلف نظرية موحدة للمكان. (الفيزيائي والمثالي والاجتماعي).

(١٠) إن إعادة أساس الحمية التي توفر بعض المعطيات عن الديمغرافيا وعن مدة الاستيطان بموقع من المواقع، يمكن أن تستخرج من اختبارات كيميائية تجري على الكلسيوم، والفوسفات، واللحاح والبروتينات. ويسمى علماء اللقاح لتكوين مصرف لللقاحات الافريقية.

يمكن لنا أن نتصور نوعاً من التعاون البسيط المقصر على ضبط بعض الأهداف المشتركة، تاركين لكل واحد السير حسب مشكلية علمه الخاص، أملاً في الالتقاء عند خط الوصول لمقارنة النتائج. ويبدو أن هذه الاستراتيجية غير مرضية لأنها لا تقتضي على جميع العراقيين الخاصة بكل علم، بدون أن نستفيد من فضائل كل منها، وكان من الممكن أن نستفيد فائدة كبرى من تعاونها الوثيق في الأساليب. وعلينا أن نفضل على تداخل العلوم التصاقاً، تداخلها تطعياً للطرق والعلوم. ويجب أن نتخذ قراراً مشتركاً يضع استراتيجية عامة للبحث ومراحله التكتيكية. وينبغي بعد الاتفاق على التساؤلات الأساسية في تعقدها الأصلي، أن نوزعها على فئات، بحسب ما يلزم من تدخل هذا العلم أو ذاك. ويجب أن توضح بعض الأمور أو أن تجمع بعض الآراء، في آجال تحدد وبطلب من الدوائر المعنية بالبحث، فتكون أنواع من الندوات التي تطرح المشاكل في صور جديدة حسب ما يقتضيه تقدم الطريقة المشتركة. وتوضع عند الاقتضاء برامج طارئة وتضاعف الجهود عندما تظهر عقد أو عراقيل في المسيرة. إن هذا التعاون الدائم، أو هذا البحث عن التعاون يستوجب مديراً يدير مجموع العمل أو البرنامج. ولكن يمكن أن يعين مسبقاً رؤساء مختلفون مختلف فترات البحث، باعتبار أن حالة ما تستدعي رئاسة لغوي، وأن حالة أخرى تستدعي رئاسة اجتماعي الخ. فشل هذه الاستراتيجية المتداخلة الاختصاصات كفيلة بأن تثير ثراء كبيراً طريقة كل علم وبأن تجعل أثره محمداً على الموضوع المشترك من البحث. فهي تحببنا من أن ننتهي في المزالق، وتفتح مجالات ثرية وتوفر طرقاً موجزة سريعة. إن مثل هذا البحث الجماعي الذي يدعو المؤرخين والاختصاصيين في علم الإنسان، وفي الفن، وعلماء النبات، إلى النزول إلى المواقع مع الأثرين، يظهر في مظهر شبكة صيد ضخمة تزيد مادة الواقع التاريخي اتساعاً وعمقاً. وذلك يفرض أن تتكيف مع هذا النوع من العمل بنيت معاهد الدراسة الأفريقية التي يوجد منها عدد كبير. كما يفرض ذلك أن تسود بين الباحثين أنفسهم روح جديدة.

فأهو عندئذ هدف هذا المسمى؟ هو أن يستعيد الأفارقة ماضيهم ويشعروا به، وهذا الماضي لن يكون صورة عن الحياة الغابرة، بل يجب أن نستعيد مشاهدته بطريقة الإسقاط، كما كان الأمر في كهف أفلاطون.

والملاحظ أن الحياة أساساً اندماج وتماسك وتلاحم بين قوى مختلفة حول مشروع مشترك. فالموت يفيد التلاشي، والانفصام. والحياة الفردية أو الجماعية ليست وحدية الخط، ولا وحدية البعد. فهي نسبي كثيف وتماسك. ويحدث أن يعتمد أحد الكتاب الرواية التاريخية (في ظروف أسهل طبعاً) وأن يبلغ الهدف من هذا المشروع الذي قل أن حققه المؤرخون، ونعني بذلك إحياء الماضي. ويمكن لأساتذة في التاريخ والاقتصاد، وعلم الاجتماع الخ... أن يجدوا مادة للدرس مشتركة في تلك اللوحات الحية مثل رواية أعناب الغضب لستاينبك والمصير الانساني لمارلو أو تشاكا، لـ. ث. موفولو.

يجب إذن أن نتحاشى الوقوع في أدب الرواية، وأن نهدف إلى استعادة الماضي بهذا النوع من الكشافة، لأن الحياة الواقعية أكثر إثارة من الرواية. إن الواقع يتجاوز بكثير الخيال، لأن كل حركة تاريخية تستوحي في نفس الوقت من كل مظاهر الواقع الاجتماعي. والاستعادة التاريخية التي لا تأخذ بعين الاعتبار كل هذه الجوانب، تكون في الواقع استعادة نافية للتاريخ، بل تكون على الأقل

تاريخنا آخر، فهي عندئذ نظرة متحيزة لأنها جزئية. ويمكن فعلا أن نركز على نقطة دقيقة من اللوحة التاريخية لنصنع منها مظهرا ضخما، ولكن شريطة أن لا ننسى أنه جزء من اللوحة التي لا يمكن دونها أن يدرك إدراكا كاملا. وتنطبق هذه الملاحظة أكثر على مجموع اللوحة. ان الأحداث التاريخية الكبرى، مثل التوسع المندي بالغرب الافريقي، ناتجة عن لقاء، وعن توافق بين القوى: أي التكنولوجيا، والجهاز المادي، والتجارة، ومزايا اللغة، وأهمية التنظيم السياسي، وحاس الشعور الديني. إن السعي، حسب العادة، الى تفضيل السبب الرئيسي تفضيلا محجفا قبل محاولة فهم جميع الأسباب الأخرى في فيضها الحيوي، هو كمن يبني صرحا بخياله، عوضا عن السعي الى استعادة الماضي عقليا. ان هذا الإدراك الشامل للتاريخ المتعدد المصادر أكثر وجوبا بالنسبة لمجتمعات فيها الحياة أكثر اندماجا. وأقل انفصالا مما عليه في الأقطار التي أدى فيها الانشقاق الى طبقات متنافرة. ولعله قد وقع التسرع بالنسبة لافريقيا، في تمييز المجتمعات التي لها دول، عن المجتمعات التي خلت منها وذلك بتحديد النوع الثاني باعتبار المعايير الخاصة بتجربة إفريقيا الجماعية (١١). وربما نسي البعض أن انعدام الطرقات المسلوكة، والادارة البيروقراطية، واختيار المسؤولين عن قصد للامركزية في البلدان الافريقية، بل حتى في امبراطورية مالي، كل ذلك، كان من نتائجه أن الحياة الحقيقية لمعظم السكان كانت تجري خارج نطاق (الدولة)، أي في القرى المتمتعة منذ القديم باستقلالها، اذ لم تكن مرتبطة بالحكم المركزي لا بعلاقة اقطاعية متمثلة في التبعية له، ولا بواقع محسوس متمثل في الطرق المعبدة والسكك الحديدية، ولا بوجود أوراق الضرائب والقرارات الصادرة عن الوزارات أو الولايات. واذا تجاهلنا هذا، فانا نكون قد ألزمتنا أنفسنا أن ننظر الى تاريخ افريقيا نظرة سطحية، على أساس أنه حلقات من الملوك والأمراء الذين لا نعرف أحيانا من مآثرهم سوى حادثة أو اثنتين، في عهد قد يدوم ١٥ أو ٢٠ سنة، فلا يكون منا بعد ذلك الا ان نعدها حلقات من حياة الشعوب. ان حياة الشعوب الافريقية في أغلبيتها العظمى كانت حياة المجتمعات المتكاملة أو المستقلة بأموالها، فاما من شيء الا ويعالج داخلها، ابتداء بصنع الأدوات، الى العوائد الزراعية، مروراً بطقوس الحب والموت. ومن هذه الناحية، فان المجتمع الإفريقي المعتنق للحياة ليس أقل تكاملا من المجتمع المعتنق للإسلام، فهذا المجتمع لم يكن لا ثكيا لعدة اعتبارات: فلو اعتبرناه لا ثكيا لحذفنا جزءا مهما من الواقع. وبصفة عامة فان المركزية موجودة أيضا في تلك الأقطار. ولكنها ليست مركزية الدولة العصرية (١٢)، التي تكاد تكون هي الثمن أو هي الدواء للتقسيم الجنوني للعمل الاجتماعي، وكثيرا ما كانت مثلا عند السنوفو (بورو) واللوئي (ديورو) والديولا تلعب دورا مركزيا تنتظم حوله الحياة الجماعية كلها. ولذلك شيدت فيدراليات حقيقية في القرى حول معبد أو ديانة مشتركة مثلما هو الشأن في بلاد سامو (فولتا العليا) وفي بلاد ايبو.

والملاحظ أن الأقطار الافريقية التي ظلت فيها القوى المنتجة في مستوى منخفض، تتميز على العكس بنشاط ثقافي يكاد يكون خارقا. فكل لباس تحفة وإن كان الخضوع للطبيعة يكاد يكون

(١١) انظر في هذا الصدد ماكي ج، ج، ١٩٦١. ان المؤلف يستعمل بالتناوب التحليل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي سعيا الى تحديد «مثال» يطبق على مجتمع السوكا.

(١٢) وأكبر دليل على ذلك القصة التي رواها ابن بطوطة عن شعب البوري الذي حاول امبراطور مالي عبثا أن يدبجه، ثم انتهى به الأمر الى الاعتراف باستقلاله الثقافي.

كلياً. إن أثر الفن واضح في كل آلة وكل أداة. فحتى التشريطات الجسمية العميقة أو السطحية، تدخل على خاصية عرقية أو تعبر عن غاية جمالية. وهذا شأن نقود الحديد (الكينزي) المستعملة عند قبائل لوما (طوما) والكيسي والكونيانكي، والمندي والكورينكو في سيراليوني وليبيريا. إن الكنزي كانت بلا شك تؤدي وظائف كثيرة: النقود، وحماية المساكن والحقول، وإيواء أرواح الموتى والأجداد. ولا يمكن دون خطأ أن نحصرها في بعد واحد من أبعادها. إن هذه المجتمعات الكاملة تستوجب تاريخاً شاملاً يكون على قدرها. فيكون تداخل العلوم أحسن طريقة للتعبير عنه. وذلك ما يدل عليه مؤلف د. طايست المتخصص في علم الإنسان (الانثروبولوجي)، وج. فاج المؤرخ، حول قبائل كونكومبا، والمنهج التركيبي الذي اعتمده جاك بيرك لدراسة التاريخ الاجتماعي لقرية مصرية (١٣)، وفي هذه الأحوال فإن المنهج الشامل يفرض طريقة تأخذ بعين الاعتبار كل العوامل الخارجية وكذلك العناصر الداخلية وهي تفرض أن تتجاوز الحدود الأفريقية لتستوعب الشخصية الأفريقية الإسهامات الآسيوية والأوروبية والأندونوسية والأمريكية. فلا يمكن أن يكون ذلك في شكل توزيع سطحية لأنه وأن وجد تدخل خارجي، فإن القوى العاملة في الداخل تستوعبه وذلك ما يستفاد من حكمة الفلاسفة المدرسين: (إن كل ما يؤخذ يؤخذ بقدر سعة الظروف وشكله). وهكذا تأقلم الرز الآسيوي في المكان الذي كان يوجد به الأوريذا (ORYZA) الأفريقي الأهلي وذلك شأن البانتوي حيث كان يوجد الإينيام (IGNAME). إن الثقافة الأفريقية تبدو كأنها تشكيلية بديعة من العوامل. إلا أنه لا يمكن أن نلخصها في مجموع تلك العوامل العديدة لأن تلك العوامل لا تضاف ولا ترتب ترتيب السلع بتجرب. فالثقافة الأفريقية هي كل ما يستوعب العناصر المكونة ويعوها. إن المثل الأعلى بالنسبة للتاريخ الأفريقي ينحصر في الاعتماد على جميع تلك العناصر ليعبر عن الثقافة نفسها في تطورها الدينامي. وذلك يعني في النهاية أن منهج تداخل العلوم يدعو إلى وضع مشروع يشمل جميع العلوم<sup>٩</sup>.



## الفصل السادس عشر

# الاطار الزمني للمراحل المطرية والجمودية بأفريقيا

القسم الأول

رشدي سعيد

ان هدفنا هو أن نقدم عرضاً عاماً عن بعض التغيرات الفيزيائية التي حدثت بالقارة الإفريقية في البليستوسين والهولوسين من العصر القديم أو من العصر الحديث. فلقد طرأت في تلك الحقبة التي تقارب مليوني سنة تحولات كبرى على المناخات والبيئات الأرضية. وأخضعت سلسلة من الحوادث المناخية الرئيسية التي وقعت أربع مرات في ذلك العصر، خطوط العرض الشمالية لتمدد طبقات جمودية وتقلصها (تجمدات جونز ومندل وريس وورم بجبال الألب). وتشكلت أودية وسطوح نهريّة، كما تشكلت السواحل الحالية وطرأت على الحيوانات والنباتات تغيرات هامة. وتفرعت أشكال ما قبل الإنسان انطلاقاً من جذع المقدمات وذلك في مطلع الهولوسين. وعثر على أقدم الأدوات المشخصة في حدود البليستوسين الأعلى. ويبدو أن تطور الثقافة، ابتداء من ظهور الإنسان كحيوان ثديي يستعمل الأدوات، قد تأثر إلى حد بعيد بالعوامل البيئية التي اختصت بها المراحل المتوالية من البليستوسين.

ان الرأي القائل بأن الجموديات كانت في عصور متعددة من البليستوسين أكثر امتداداً مما هي عليه الآن، قد أصبح بأوروبا، مفهوماً مقروءاً، وسرعان ما اتضح أن تلك الفترات من تدهور حالة المناخ في أوروبا لم تكن ذات طابع محلي. ولقد دلت الأبحاث المنجزة في القارة الإفريقية مثلاً، ان هذه القارة خضعت أثناء الهولوسين لتحولات مناخية كبرى. ونحن، وان كنا لم نستطع بعد أن نضبط بطريقة قطعية صلتها بالأحداث التي طرأت بأوروبا وغيرها، فإنها مربوطة بها إلى حد بعيد وذلك بصفة لا تزال تستوجب الاستكشاف.

ولقد تحسنت في العقد الأخير من السنين تحسناً مهماً إمكانيات وضع ترتيب تاريخي

للسينوزويك الحديث والبليستوسين، وفُورَت التنقيبات في أعماق البحار معلومات مفيدة جدا تهم حوادث رسوبية متعادية نوعا ما تذكر بأحداث القسم الأخير من تاريخ الأرض. ولقد ساهمت الدراسات المتعددة الجوانب والمفصلة لعينات ترايبية حصل عليها ضمن هذه البرامج، وكذلك التقدم الحاصل في علم الجغرافية الفيزيائية وخاصة الدراسات الجغرافية المغناطيسية، وتحسن تقنيات قياس قوة الأشعة، كل ذلك ساهم مساهمة كبرى في وضع تاريخ دقيق بعض الشيء لتلك الحقبة. والطريق مازال طويلا في هذا الميدان لأنه لم يتيسر اقرار صلة نهائية بين أحداث مختلف العهود. إلا أن الترتيب الزمني لأحداث أقسام تاريخ الأرض، يعتبر من أحسن ما تم إثباته، حتى وإن اختلف الاختصاصيون في شأن تحديد البليستوسين نظرا للالتباس الكبير الناشئ عن تصنيف الأنواع الطباقية، من البليوسين والبليستوسين، وذلك باعتبار القطعة المدروسة اعتمادا على الأعماق البحرية. ونشر فيما يلي إلى التصنيف الذي سيعتمد في هذا الفصل. إن الترتيب الزمني الجغرافي المغناطيسي الخاص بالـ ٥٠٠٠٠٠ سنة الأخيرة يبين أن الحقل المغناطيسي الأرضي قد كان بالتناوب «عاديا» و«مقلوبا». ولقد وقع انقطاع في تلك العصور المختلفة نتيجة «أحداث» طفيفة تميزت بالقلب. والعصور المعنية هي، تنقلا من أحدثها إلى أقدمها: برونس (— ٠٦٩ مليون سنة) ماتوياما (— ٠٦٩ — ٢٤٣ مليون سنة) كوس (— ٢٤٣ — ٣٣٢ مليون سنة) وجلبار (— ٣٣٢ — ٤ مليون سنة). ولقد اختص الفاصل المغناطيسي لجلبار وكوس بتدهور كبير في المناخ، ويمكن ملاحظته في مناطق عديدة من الكرة الأرضية (انظر في هذا الشأن هابس وآل ١٩٦٩). وتوافق هذه الفترة الباردة بداية تجمد نبراسكا والشاهد على ذلك خليج المكسيك، وكذلك ظهور رواسب جمودية بالمحيط الأطلسي الشمالي وظهور الحيوانات البرية في الفيلافرنشي المتوسط. إن هذا الحدث يدل على بداية البليستوسين، اعتمادا على بعض المؤلفين الذين يعتبرون أن بداية تدهور المناخ هي الحد الفاصل بين البليستوسين والبليوسين. إلا أن اعتماد هذا الحد ينافي توصية مؤتمر الجمعية الدولية لبحوث الدهر الرابع المنعقد في ١٩٥٥، لأنه يفيد أن المجموعات الحيوانية الخاصة بالمقطع الكلاسيكي كاستيلار كواتر، خارجة عن البليستوسين. ولعله من الأفضل أن نضع الحد — في ١٨٥ مليون سنة، ذلك ما يوافق أساس الكلابري والحدث المغناطيسي للأولدواي أي من عصر ماتوياما. ولقد دلت أبحاث حديثة على أن تلك الحقبة كانت حقبة تميل إلى الدفء ولم تكن حقبة تبرّد. فتكون التجمّات الكبرى الأولى من البليستوسين بخطوط العرض المعتدلة قد وقعت حوالي ٥٠٠٠٠٠ - خلال فاصل برونس - ماتوياما. وهذا التجمد يوافق تجمد جونز الألبى. وعلى هذا الأساس يمكن أن يقسم البليستوسين إجمالا إلى قسمين، يكون أحدثها الحقبة الجمودية ويكون أقدمها بليستوسينيا ما قبل التجمد. ويرجع تجمد ريس الألبى إلى ما بين ١٢٠٠٠٠ - و ١٣٠٠٠٠ - ويتبدئ تجمد وورم في ٨٠٠٠٠ - ويمكن أن نعتبر أن هذا التجمد الأخير من أحسن ما ضبط تاريخه ودرسه. ولقد دام حتى الهولوسين الذي حدد بحوالي ١٠٠٠٠ -.

إننا نسعى في هذا الفصل، كما أشرنا إلى ذلك سلفا، إلى استعراض أهم التغيرات التي طرأت على القارة الإفريقية تأثرا بالتحويلات المناخية في البليستوسين. إن القارة الإفريقية تشمل بيئات عديدة متميزة قد تأثرت كل واحدة منها حسب طريقة معينة ودرجات مختلفة بالتغيرات الجغرافية المناخية الكبرى في البليستوسين. ولذا سنفحص هذه التحويلات باعتماد اطار المناطق المناخية



الأساسية الحالية من القارة الإفريقية التي يمكن تصنيفها الى نوعين: المناطق الاستوائية وفوق الاستوائية والمناطق المدارية، وفوق المدارية.

## المناطق الاستوائية وفوق الاستوائية

تشمل المنطقة الاستوائية حاليا حوض الكونغو بغربي افريقيا الذي يختص برياح قليلة التحول، وباختلافات فصلية طفيفة في مستوى الحرارة والرطوبة الجوية، وبالأعاصير أو الزواجع الرعدية المطردة. وتغطي هذه المنطقة حاليا غابات ذات طابع خاص. أما المنطقة فوق الاستوائية فهي تشمل أكبر جزء من وسط افريقيا وهي تختص بوجود كتل هوائية من النوع الاستوائي في الصيف وبكتل هوائية من النوع المداري في الشتاء. وفصل الشتاء غير ممطر، مع زيادة طفيفة في البرد على فصل الصيف. ويشمل الجزء الأكبر من هذه المنطقة جهات تنشأ من رطوبتها الوافرة نباتات السبب المداري الا أنه يوجد بالحواشي الجنوبية والشمالية حاليا نباتات السهب المدارية.

ان تقلبات الأمطار بتلك المناطق مدة البليستوسين تسمح بأن نقسم ذلك العصر الى سلسلة من المطاريات والمطاريات البينية. وتعرف المطاريات باسماء الكاكيري والكاماسي والكنجيري والكنبلي التي تعتبر نظريات التجمدات الأربعة الكبرى بنصف كرة الأرض الشمالي. الا أن هذه الصلة تحتاج الى برهان. ولقد اختص الهولوسين بفوق مطارين، يسميان الماكالي والناكوري.

تتميز المطاريات بتكدس أكبر للرواسب البحرية وبارتفاع في الخطوط الساحلية التي بقيت في أحواض متعددة مسدودة بسبب توسيع البحيرات الموجودة. وتتميز المطاريات البينية بتزايد نشاط الرياح. ففي هذه الأثناء تنقلت الرمال الريحية، أو توزعت الى أقصى الجنوب من الحد الشمالي الحالي من التلال المتحركة، وصاحب ذلك تغيرات عميقة طرأت على النباتات. وتمتاز قمم بركانية عديدة في تلك المناطق بجموديات توجد بمرتفعات هي دون الحد الحالي للثلوج الدائمة، مما يدل على وجود مناخ أكثر بردا في بعض الأوقات في الماضي. وسنقدم في الفقرات التالية أمثلة عن هذه التغيرات التي طرأت بافريقيا الاستوائية وما فوق الاستوائية.

## الأحواض البحرية بافريقيا الشرقية

تعتبر افريقيا الشرقية، لا سيما في أحواضها البحرية، منطقة نموذجية للمناطق المطارية وبين المطارية المقترحة لوصف تطور افريقيا فوق الاستوائية. توجد بحيرات افريقيا الشرقية في مجموع أغوار الأنهدام الافريقية، وليس للبحريات التي تملأ أعماق القسم الشرقي مخارج باستثناء بحيرة فكتوريا وتوجد في مناخات أكثر جفافا. وخلافا لذلك فان بحيرات القسم الغربي مملوءة الى حد الفيضان.

ويبدو بديها من أول وهلة أن دلائل ارتفاع المستويات البحرية في منطقة معرضة للزلازل — كما هو الشأن بافريقيا الشرقية — توحى بفرضيات، ولكن لا تسمح باستخلاص النتائج. ينبغي أن نستصور في تلك المنطقة التي هي على غاية من الاضطراب امكانية تنقلات في بنية الأديم، وتغيرات في مستويات فيضان البحيرات، وانقلابا في الاحواض البحرية. ولهذا السبب تحلّى العلماء عن

فكرة مطاريات البليستوسين القديم أو المتوسط، (نظرية كوك ١٩٥٨، وفلنت ١٩٥٩، وزونز ١٩٥٠). ولقد أدت الدراسات الحالية للأحواض البحرية في أفريقيا الشرقية إلى الحد من استعمال هذه العلامة المناخية الطبقة بالمطار الكبلي الذي يحوي في بعض الأماكن رواسب لم يطرأ عليها التواء في بنية الأديم.

وتفيد شواهد جيولوجية عديدة بصفة قطعية أن الحدود الرئيسية للغابات ذات الأمطار قد تحولت كثيرا في الماضي. ولقد شكلت الغابات الكبرى الواقعة غربا، في الأحواض الجارفة للمياه، عاملا مهما في تكييف حياة الإنسان طيلة الحقبة التي توفرت لنا عنها شواهد أثرية. إن الموقع المشهور والمعروف بفتح أولدواي والواقع بشمال طانزانيا يشتمل بأسفله على حيوانات فقيرة قد صينت صيانة كاملة، وتدل قطعا على أنها منذ البليستوسين القديم. وتفيد الصلات المناخية وجود حقبة من الأمطار على غاية من الأهمية (والكاغيري أو الأولدواي الأول). ويوجد فوق ذلك تشكيلان يدل كل واحد منهما على فاصل زمني أكثر جفافا قد تبعه مطار هام نسبيا. كما توجد بذلك الموقع الخاص، قطعة طبقيّة تحتوي على أكمل سلسلة تطورية من الآلات ذات الوجهين ابتداء من الأشكال البدائية المغرقة في القدم، إلى أهم الأنواع المتخصصة من هذه الآلة من العصر الحجري القديم الأسفل، مثلها هو معروف عنها بأوربا وآسيا الغربية.

تتكون الشواهد على المطار الكبلي خاصة من الشواطئ المرفوعة ورواسب الأحفورات البحرية في ثلاث بحيرات كانت سابقا متجاورة، وتقع في الشمال الغربي من نايروبي (نكورو، المنتيتا، نايفاشا). ولنايفاشا مستوى من الشاطئ المرفوع سبق بقليل العصر الحجري القديم الأعلى، وهذا يعني أنه كان للبحيرة عمق أقصى قدره ٢٠٠ متر، ومن المحتمل أنها كانت تنصب من خلال خط عال مجاور. إن المساحة الضعيفة لحوض البحيرة المنحدر وكذلك عمق البحيرات الحالي الذي لا يتجاوز ١٠ أمتار يسمحان بأن نعتبر ذلك التوسع القديم للبحيرة دليلا على وجود مناخات أكثر رطوبة في الماضي.

لقد اكتشف لايكبي في ملجأ يقع تحت صخرة ويشرف على بحيرتي نكورو والمنتيتا الحاليين موقعا بكهف كبلي طبقاته واضحة ويحوي صناعة حقيقية منظمة للشفرات. ولقد وصف الترسيب الواقع بالطابع الأسفل بأنه يتكون من الحصاة الملساء البحرية المفروشة على السطح الصخري للملجأ وذلك على ارتفاع يقارب ٢٠٠ متر تحت المستوى الحالي للبحيرة. أما الترسيبات التي تحوي الأدوات فإنها توجد كامنة فوق الحصاد وتتكون من ترسيب هش فيه «رماد وغبار، وعظام وسبج». وتعتبر الحيوانات المعزوجة به قطعا من النوع المصري. ويرى لايكبي أن ترسيبات الأدوات تعود إلى آخر حقبة تختص بمطار غزيرة (يسميه الكبلي، نسبة إلى الموقع المعنى بالامس) وهو أول مطار يتبع مباشرة مطار المستويات الأخيرة من الأولدواي التي كانت لها أدوات (أشولية) وحيوانات انقرضت ولها مميزات خاصة.

تعتبر دراسة نلسن الكلاسيكية (١٩٣١ - ١٩٤٠) المتعلقة بأحواض إفريقيا الجنوبية البحرية من أحسن الوثائق عن تقلبات مستوياتها في الماضي. إن هذا المؤلف يصف خطوط شواطئ بحيرة تانا المرفوعة (مستوى المساحة يقدر بـ ١٨٣٠ متر). وهي منبع النيل الأزرق. ويسجل خمسة خطوط شاطئية رئيسية تبلغ حتى + ١٢٥ متر، وجود مستوى أقل وضوحا يبلغ + ١٤٨ متر. ويبين نلسن أيضا

أن أربعة بحيرات من وادي الريف (زقاي، أبياتا، لنكانا، وشالا) كانت متصلة ببعضها وكانت تصب لمدة ما في نهر أوأش.  
ان المعطيات الجيولوجية المناخية المتعلقة بحيرة فكتور يا تبين ان البحيرة كانت منخفضة وقد حبست مياهها لحقبة أجعلها غير محدود سبقت - ١٤٥٠٠ وهو عصر أخذت فيه نباتات السهب العشبية. ولقد أخذت البحيرة في الصعود حوالي - ١٢٠٠٠ وهو عصر أخذت فيه نباتات غابية تظهر أولا حول التخوم فوق الاستوائية من البحيرة. ولكن من الممكن أن يكون مستواها قد نزل الى ١٢ مترا تحت المستوى الحالي وذلك في حقبة قصيرة تدو حول - ١٠٠٠٠. وكانت بحيرة فكتور يا مملوءة تماما بين - ٩٥٠٠ و - ٦٥٠٠. وكانت تحيط بها غابة دائمة الخضرة. ولقد تأثر مستوى بحيرة فكتور يا جزئيا بشق غرجها الا أن مستوايتها السابقة وكذلك القطعة البليولوجية كانت بالتأكيد مستقلة عن هذا العامل.

قام بوتز وآل، (١٩٧٢) بدراسة مفصلة تخص الأحواض البحرية لا فريقيا الشرقية ووفرنا تواريخ باعتماد الراديو كربون الخاص برواسب الشواطئ القديمة. ان وقائع الدهر الرابع الحديث وتواريخه المتعلقة بحيرات رودلف، ونكورو، ونايفاشا ومكادي متوافقة الى حد كبير وتعتبر بحيرة رودولف التي تبلغ مساحتها حاليا ٧٥٠٠ كلم مربع أكبر بحيرة حابسة للمياه بافريقيا. انها موجودة بمنطقة غورية ويزودها بالمياه أساسا نهر أومو الذي ينبع بالاراضي العالية بغربي أثيوبيا. وتبين دراسات بوتز أن الساحل، والمجاري الدلتائية النهرية المتصلة بتلك البحيرة كانت على مستوى يفوق تقريبا بستين مترا المستوى الحالي وذلك في حقبة تعود الى ما حول - ١٣٠٠٠ سنة، كما كان يفوقه بـ ٦٠ الى ٧٠ مترا في حوالي - ١٣٠٠٠ سنة. وأصبحت البحيرة أصغر حجما مما هي عليه الآن بين تلك الحقبة و - ٩٥٠٠، كما أصبح المناخ أكثر جفافا. ولقد ارتفع مستوى البحيرة من جديد ابتداء من هذا التاريخ الأخير وتآرجح مستواه بين ٦٠ و ٨٠ مترا فوق المستوى الحالي الى حدود - ٧٥٠٠ - وهو تاريخ ابتدأت تضيق فيه بحيرة رودولف. وظهرت بعد ذلك مستويات أكثر ارتفاعا حوالي - ٦٠٠٠ وابتداء من - ٣٠٠٠، استقرت البحيرة على ابعادها الحالية.  
ان الشواهد التي توفرها البحيرات الأخرى بافريقيا الشرقية والتي درسها بوتز وآل تشير إلى تاريخ مماثل بالنسبة للدهر الرابع الحديث.

### حوضا التشاد والسد

يستحق حوض بحيرة التشاد عناية خاصة باعتبار وجوده بالطرف الجنوبي من الصحراء وبطرف المساحة الكبرى للبحر الداخلي الذي ملأ كامل الحوض في البليستوسين. ان بحيرة التشاد الحالية هي أثر لذلك البحر الداخلي (انظر مونود ١٩٦٣، وبوتز ١٩٦٤) وتأتي مياهها من سباسب افريقيا الوسطى. وتقع مساحة البحيرة الحالية على ارتفاع يبلغ ٢٨٠ متر، وتتراوح تلك المساحة بين ١٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ كلم مربع.

اما معدل عمقها فهو يتراوح بين ٣ و ٧ أمتار و يبلغ في الحالة القصوى ١١ مترا. يفصل البحيرة عن منخفض بوبيلي والجوراب خط قاسم للمياه غير مرتفع، يشقه وادي بحر الغزال الناشف. إن اسفل خط من الخطوط الشاطئية لبحيرة التشاد الحالية، وهو يتراوح بين ٤ و ٦ أمتار، يسمح للمياه

بأن تفيض في منخفض بوديلي الذي يبعد عن البحيرة ٥٠٠ كلم. أما في مستواه الأعلى الذي يبلغ ٣٢٢ متر فقد كَوّن سلف التاشد البليستوسيني خطوطا شاطئية تظهر بوضوح على بعد ٤٠ أو ٥٠ مترا، وتعاادل مساحتها ٤٠٠٠٠ متر مربع. وتوجد أيضا آثار متقطعة تدل على خطوط شاطئية متوسطة. ولقد بين كروف وبولان (١٩٦٣) أن المياه التي تفقدها البحيرة تبخرها يعوضها تعويضا كبيرا منسوب المياه الواردة من اللكون والشاري القادمين من الجنوب. ويعتبر المؤلفان أن تبخر البحيرة في البليستوسين كان يفوق ذلك بست مرات الى حد أنها كانت تستوعب سنويا كمية من المياه تعادل ثلث منسوب الكونغو السنوي.

ولقد قال بوتزر (١٩٦٤م) عن صواب بأن بحر التاشد السابق يمثل نتيجة لذلك أبلغ شاهد على وجود رطوبة كثيرة بالخطوط العريضة المدارية الرطبة جدا، الا أنه لم يمكن مع الأسف أثبات الترابط بين الخطوط الشاطئية لمختلف أجزاء الحوض. ان طبقة أراضي البليستوسين التي يبلغ سمكها ٦٠٠ مترا والموجودة تحت بعض أجزاء الحوض تدل على تعقد هذا الحوض الداخلي وطول تاريخه. أما فيما يتعلق بنيجيريا — فيري كروف وبولان أن المناخ قد جف وصاحبه تشكيلات تلالية هامة بالسهل الذي كانت تحتله البحيرة سابقا وذلك بعد حقبة كان فيها مستوى البحيرة في البليستوسين القديم يفوق بـ ٥٢ مترا مستواها الحالي. ولقد أعقبت تشكّل شبكة جديدة من الأنهار في تاريخ لاحق حقبة رطبة أخرى تميزت بارتفاع مستوى البحيرة لا يقل عن ١٢ مترا في الهولوسين. فيمكن أن نؤكد أن حركتين إيجابيتين. بالبحيرة حللتا تحليلًا سيئا، قد وقعتا قبل — ٢١٠٠٠، وتبعهما فصل طويل من النشف ومن النشاط الريحي حتى قبيل — ١٢٠٠٠، وهي فترة أخذت البحيرة تمتد فيها من جديد وبلغت البحيرة في حوالي — ١٠٠٠٠، مستوى أقصى صاحبه فياضانات متناوبة. ودامت هذه الحقبة من المياه العالية حتى قبيل — ٤٠٠٠. ويبدو أن تاريخ هذا البحر الداخلي بالبليستوسين القديم والهولوسين يكاد يوافق عندئذ وحتى في التفاصيل تاريخ أحواض إفريقيا الشرقية.

ان كاتب هذا المقال يعتبر أن بحيرة سد بالسودان الجنوبي تمثل بحرا داخليا كبيرا، ومن المحتمل أن يكون تاريخها مماثل تاريخ حوض بحيرة التاشد. فالسد بحيرة ميتة يحتمل أنها شملت منطقة سد وحوض النيل الأعلى وامتدت الى ما وراء النيل الأبيض وإلى أجزاء من النيل الأزرق وبحر الغزال. ولقد نشأت فكرة وجود هذه البحيرة القديمة عند المهندسين المختصين في الري والعاملين بمصر (وهم لومبرديني، وكريستان، وول كوكس. وكان لوسن (١٩٢٧) واضعها. ولقد تعجبوا جميعا من انبساط سهول السودان الأوسط والجنوبي ولا حظوا أن كل ارتفاع صغير في مستوى النيل يؤدي الى الفيضان على مساحات واسعة. ويعتبر بول أن بحيرة سد قد كانت تحتل مساحة قدرها ٢٣٠٠٠ كلم<sup>٢</sup> (المنطقة التي يحدها منحنى الـ ٤٠٠ متر، وهي ارتفاع شعبة). ويغطي تلك المنطقة تشكّل (أم روابة) الذي وضعت له خريطة حديثا والذي يتكون من سلسلة طويلة من الرواسب النهرية، والدلتائية والبحيرية. وتتجاوز قته العليا ٥٠٠ م وهذا يعتبر أعلى بكثير من أسفل نقطة السيول عند قمة سبلوكة بشمال الخرطوم (٤٣٤م). ومن المحتمل أنه كان الحد الشمالي للبحيرة. ان تلك القمة توجد، كما أشار الى ذلك سعيد (م. س.) على الخطوط الرئيسية من التصدعات التي تحاذي جنوب الجبل النوبي الذي يعتبر مركزا لنشاط زلزالي كبير، ولا يمكن اعتبار هذا الارتفاع، سواء هذا السبب أو لأسباب أخرى لها صلة بشق فج سبلوكة إثر اجتفاف سابق، لا يمكن اعتباره مثالا لعلو القمة

عندما كانت البحيرة مملوءة. ويدخل في الحساب تعقد آخر ينشأ مدة الفيضانات عن رد فعل سد مياه النيل الأزرق التي تصب في النيل الأبيض. ورغم أن تاريخ بحيرة سد، غير معروف بصفة مفصلة إلا أن في امتداده ثابت، يشهد به بوضوح الشاطئ الذي يبعد ٣٨٢ م والذي يحيط بمناطق شاسعة من النيل الأبيض. ومثلها مثل حوض التشاد، اذ يبدو أنها كانت واسعة جدًا بين ١٢٠٠٠ و ٨٠٠٠. وقد كان لها في الشمال عرض ٥٠ كلم (ويليم، ١٩٦٦). وضافت البحيرة بعد ذلك وفي حوالي ٦٠٠٠ انخفض الامطار السنوي الى ما يقرب من ٦٠٠ مم، غير بعيد من الخرطوم، وانخفض مستوى النيل الأبيض الى ٥٠ سم، أو متر واحد، تحت المستوى المتوسط الحالي للمياه العالية.

### الظواهر الجمودية

ان تجمد افريقيا القديم مربوط ربطا وثيقا بالجموديات الحالية، التي ترتبط بدورها أساسا بتوزيع المرتفعات الكبرى. فباستثناء جبال الأطلس، توجد القمم ذات الجموديات بافريقيا الشرقية، على بعض الدرجات من خط الاستواء. وتتراوح المرتفعات من حوالي ٣٩٠٠ م الى ٦١٠٠ م، ولقد لخص فنت (١٩٤٧ - ١٩٥٩) المعطيات المفيدة الخاصة بتلك المناطق الجمودية ويشير الى أن تساقط الثلوج التي تزود تلك الجموديات قد يكون ناشئا عن رطوبة جبلية ناتجة عن كتل الهواء البحرية المتنقلة نحو الشرق والآتية من المحيط الأطلسي الجنوبي أو المتنقلة حسب درجة أدنى، من المحيط الهندي الى الغرب.

يبلغ ارتفاع جبل كينيا (خط العرض ١٠°، جنوبا، خط الطول ٣٧°١٨ شرقا) ٥١٥٨ م ويضبط حد الثلوج الحالية بـ ٥١٠٠ م. ومن الثابت أن حد الثلوج الدائمة في البليستوسين قد نزل الى حد أسفل يقدر بـ ٩٠٠ م (فلنت، ١٩٥٩). ويبلغ جبل التكلمنجارو، وبنجينا (خط العرض ٣٠°٥ جنوبا، خط الطول ٢٧°٢٢ شرقا ارتفاعا قدره ٥٨٩٧ م. ويبدو أنه يوجد حاليا بالتدقيق دون الحد المناخي للثلوج الدائمة. فلقد كان الحد الأدنى في البليستوسين يتجاوز ١٣٠٠ م (فلنت ١٩٥٩). ويبلغ ارتفاع جبل الكن بأوغندا (خط العرض ١٠°٨ شمالا، ٣٣°٣ شرقا) ٤٣١٥ م، ويوجد حاليا دون الحد المناخي للثلوج الدائمة بكثير. وكانت له جموديات في البليستوسين. ويبلغ ارتفاع جبل رونزوري (خط العرض ٢°٤ شمالا، ٢٩°٥ شرقا) ٥١١٩ م كما يبلغ حد الثلوج الدائمة ٤٧٥٠ م على السفح الغربي بالزاير و ٤٥٧٥ م على السفح الشرقي (أوغندا). وكانت جموديات البليستوسين تنزل الى ٢٩٠٠ م على السفح الغربي والى حد ٢٠٠٠ م تقريبا على السفح الشرقي.

ان الأراضي المرتفعة بأثيوبيا لا تحتوي على جموديات ولكن يبدو أن جبال سميان (خط العرض ١٣°١٤ شمالا، وخط الطول ٢٨°٢٥ شرقا) كانت تحتوي على جموديات في البليستوسين فلقد اثبت نلسن (١٩٤٠ م) وجود تجمدين على بعض قمم هذا الجبل (ارتفاعه ٤٥٠٠ م تقريبا) مع اعتبار الحدود المناخية للثلوج الدائمة البالغة ٣٦٠٠ م الى ٤١٠٠ م و ٤٢٠٠ م. ان الانسحاب الجمودي المصاحب للبليستوسين الحديث يوافق حدا من الثلوج الدائمة يقدر بـ ٤٤٠٠ م. ويصف نلسن (١٩٤٠) كذلك تجمدا بالبليستوسين الحديث كاجا (خط العرض ٥°٧ شمالا، وخط الطول

٣٩٢٤ شرقاً) يبلغ حد ثلوجه الدائمة ٣٧٠٠ م. ان القمم البركانية الأخرى باثيوبيا التي توجد حالياً دون حد الشلوج الدائمة بكثير توفر أيضاً شواهد على التجمدات، من ذلك جبل كونه (خط العرض ١١٤٣ شمالاً، خط الطول ٣٨١٧ شرقاً) وجبل أمباريت (خط العرض ١٠٥٣ شمالاً، وخط الطول ٣٨٥٠ شرقاً) وجبل شلاي (خط العرض ٧٥٠ شمالاً، وخط الطول ٣٩١٠ شرقاً).

وتوجد شواهد قاطعة على التجمد الذي وقع على الأقل مرتين بالمناطق الجنوبية وفوق الجنوبية من أفريقيا، وعلى مناخ أشد بردا طيلة الحقبة الموافقة لتجمد (وورم). ولقد اكتشفت في أثيوبيا، فضلاً عن العلامات ذات الأصل الجمودي الملحوظة في بعض قمم هذه المنطقة، آثار عن انزلاق التربة وعن تغيرات الأديم ناشئة عن الجليد (على ارتفاع ٤٢٠٠/٤٣٠٠ م) ويرى بودل (١٩٥٨) ان الحد الأسفل لظواهر انزلاق التربة بلغ ٢٧٠٠ م في حقبة وورم. ولوحظت أيضاً رسوبات جمودية نهريّة في مناطق مختلفة من أفريقيا الجنوبية. ولقد درس دي هنزلي ١٩٦٣ رسوبات جبل رونزوري وتبين أنها موازية للسطوح الغمبية لنهر سليكبي. ان هذا النهر الذي يصل بمحيرتي ادوارد وألبورت عند حدود الكونغو وأوغندا، يمر بمجار تكثر فيها الحصاة، والحصباء، والرمل والتربة الحمراء ذات الطمسي، مع الرسوبات الخفيفة. ويبين دي هنزلي أن السطوح السنغوثينية — اللومبينية معاصرة للرسوبات الجمودية النهريّة لجبل رونزوري.

## المنطقة المدارية والمنطقة فوق المدارية

تختص المنطقة المدارية الحالية بنظام من الرياح الشرقية الغالبة وتحولات فصلية حرارية محسوسة. ويختص القسم الغربي من هذه المنطقة التي توجد على الساحل الأطلسي، برياح صابية قارة، وبطقس يميل إلى البرودة نسبياً، وبرطوبة فضائية مرتفعة وبانعدام المطر تقريباً. أما الباقي من هذه المنطقة فإنه يشمل الصحاري الكبرى بالشمال وبالجنوب من القارة. ان هذه المناطق جافة وحارة يصحبها تحول نهاري هام في الحرارة وارتفاع أقصى مطلق في تلك الحرارة.

وتشمل المنطقة فوق المدارية الأطراف الشمالية والجنوبية من القارة وتختص بكتل هوائية من النوع المداري في الصيف وبكتل هوائية من النوع المعتدل في الشتاء، وتتبدل الحرارة والأمطار الفصلية بتدلاً كبيراً. أما المناطق التي لها مناخ البحر المتوسط فهي تمتاز بطقس صاف وهادئ في الصيف وبشتاء ممطر.

## الصحراء

يمكن أن نعد الصحراء أكبر العناصر أهمية في هذه المنطقة. فهي تمتد على ما يفوق ٥٥٠٠ كلم من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي ولها عرض متوسط من الشمال إلى الجنوب يفوق ١٧٠٠ كلم. فهي تشمل ما يقرب من ربع المساحة الكاملة من القارة الإفريقية. فالأمطار الموزعة توزيعاً متفاوتاً على مجموع تلك المنطقة، يفوق في بعض الأماكن ١٠٠ م سنوياً، أما المعدل فهو دون ذلك بكثير فلا

يوجد استنتاجا من ذلك انهار دائمة المياه، باستثناء النيل الذي تأتي مياهه من منابع موجودة في أماكن خارجة تماما عن الصحراء. وليس لكيات الماء العارضة او الدائمة الناشئة عن السيلان السطحي أية أهمية بالنسبة لحياة الإنسان في العصر الحديث باستثناء الينابيع والآبار التي تزودها المياه الجوفية. تتكون الصحراء من قاعدة صماء من الصخور الماقبرية التي تغطي رواسب من عهد الباليوزويك الى عهد السينوزويك، وظلت ثابتة طيلة جزء كبير من عهد الفانيروزويك. ان النشاط الذي تسبب في تغيير المعالم والالتواء لم يحدث الا في جبال الاطلس، وخليج قابس بتونس وعلى هضاب البحر الأحمر، شرقي نهر النيل. ويمكن ملاحظة نشاط مشابه ببرقة وتحت الأرض بالمنطقة الساحلية من شمال افريقيا. ان هذه الحركات الالتوائية تنتسب الى النظام الالبي، وقد تشكلت منها الجبال بعهد السينوزويك والحديث والذهري الرابع. أما جبال البحر الأحمر، فانها على العكس مرتبطة بالحركات التي طرأت على بنية الأرض وامتداد الرفت الافريقي الكبير.

تعتبر منطقة جبل الأطلس أوسع المناطق تضاريسا. وهي تمتاز بأقطار غزيرة. وتوجد تضاريس قليلة الأهمية ببرقة وبجبال الهقار والتبستي من الصحراء الوسطى. ويشكل الجبلان الأخيران منطقتين ذاتي طوبوغرافية جبلية تتصلان ببعضهما عن طريق سرج طومو المنخفض. وللمنطقة ارتفاع متوسط يبلغ ٢٠٠٠ م مع وجود قمم تبلغ ٣٠٠٠ م وتتكون اغلب القمم من صخور بركانية تشكلت طيلة حقبة متواصلة من النشاط البركاني الذي يعود الى ما قبل البليستوسين.

وتوجد مناطق أقل اتساعا متكونة من الصخور البركانية بجبال العاير، بالجنوب الغربي من الهقار، ومنها الأوجيات الذي يرتفع ارتفاعا شاهقا في منتصف الطريق بين التبستي والنيل، وجبل الحاطر الخ. ويعتبر حاليا أثر هذه الجبال على المناخ ضعيفا، الا أنه توجد علامات جيولوجية عديدة تدل على أن الصحراء كانت أقل جفافا طيلة حلقات عديدة من البليستوسين.

أن أكبر عامل من عوامل الاجتراف بالصحراء حاليا وفي جميع حقبات الجفاف هو الاجتراف الريحي الذي يعتبر المسؤول عن تكوين سهل هذه الصحراء. ان الرمال الحشنة التي تنقلها الرياح تتراكم حسب مساحات تدعي عرق أورك. أما المواد الناعمة، فتتقلب الى الأعلى بالفضاء حيث تظل معلقة تعليقا جزئيا متواصلا. وتسمى المساحة الصخرية المعراة الناشئة عن هذا الاجتراف حَمَادَة. وتمثل هذه المساحات أحواضا ووهادا تتراوح بين الأحواض الضيقة والوهاد الضخمة التي يبلغ عمقها في بعض الأماكن ١٣٤ م تحت مستوى البحر (مثال ذلك وهدة قطارة). وقد فسحت هذه الوهاد، في مواسم المطر، المجال لنشوء الطمي، وظهرت بها عيون من الماء ونشاط ترسيبي بحيري عندما هبطت الى مستوى المياه الجوفية. وتوجد الوهاد الكبرى أساسا على حافة المنحدرات، وقل أن تحيط بها تلك المنحدرات من جميع جوانبها. ومن المؤكد أنها تكونت بعامل اجتراف ريحي لانها تشكل أحواضا داخلية لا مسيل لها.

ان الآراء تختلف في شأن تاريخ الصحراء الجيولوجي. و يعتقد بعض المؤلفين أنها كانت صحراء طيلة حقبة الفانيروزويك كلها وأن الحقبات الرطبة تمثل تقلبات غير عادية في تاريخ جفاف متواصل. و يعتقد آخرون أن التصحر (أي التحول الى صحراء) ظاهرة حديثة توافق النظام الحالي لتوزيع كتل الهواء.

وهناك علامات ثابتة تدل على وجود مناخات أكثر رطوبة سابقا في الصحراء، ومن بينها نظام

توزيع النباتات، وخصائص الرواسب التي لا يمكن تفسيرها إلا بافتراض وجود مناخ قديم أكثر رطوبة. أن بعض الحيوانات الأهلية بافريقيا تعيش دوما في الصحراء، وما كانت لتهاجر إليها لو لم توجد مناطق تتوفر فيها النباتات والأحواض من الماء. ولقد اكتشفت أنواع من تماسيح إفريقيا الوسطى بحفر مائية داخل أغوار عميقة من جبلي الهقار والتبستي. وعثر على «المدفش» الإفريقي (وهو حوت) بالشمال وحتى بواحة بسكرة بالجنوب الجزائري. أن خصائص نظام تصريف مياه الصحراء تدل على أن الأمطار كانت غزيرة، إذ يمتد، غربي الهقار، سهل مترامي الأطراف يقف دون المحيط الأطلسي ببعض المئات من الكيلومترات، وينحدر إليه، ويتبع منحدرًا ابتداء من وهدة الجوف. وهنا تشكل في الماضي حوض التبخر لمجموعة من الأنهار. أن خطوط تصريف المياه المتجهة نحو الجنوب، ابتداء من منحدرات الأطلس الجنوبية. ومنها منحدر وادي الساور الذي تتبع العلماء مجراه على مسافة تزيد على ٥٠٠ كلم، هي على غاية من الإفادة في هذا الشأن. وذلك يعني أن الوادي كانت تجري به في الماضي مياه كثيرة قادرة على حمل الرمال الريحية التي تسد حاليا مجراه الأوسط.

وتمتد بعض الأودية، ابتداء من هضاب البحر الأحمر، على ٣٠٠ كلم وتحترق مساحات تبلغ حوالي ٥٠٠٠ كلم. وتحتضن أحدهما، وهو وادي جهاريت الذي يمر بسهل كم أمبو، بشمال أسوان ضفاف ضيقة من الطمي ذي الحب الناعم يزيد سمكه على ١٠٠ م. ومن المؤكد أن مرسبه نهر كبير لا تنضب مياهه.

لقد استعرض مونود (١٩٦٣م) الدراسات الهامة الخاصة بالتقسيمات المناخية الطبقيّة، فأشار إلى بحوث إيمان وشيفايون ومركا (١٩٥٩م) الخاصة بحوض الساور الكلاسيكي الذي اقترحت في شأنه التقسيمات التالية، تنقلا من أقدمها إلى أحدثها:

— المطار الفيلافرنشي (= عائدي): رمل، حصباء ومشبكات لونها أحمر نازلة فوق صخور أكثر قدما.

— ما بعد الفيلافرنشي الجاف: حطام انهيالات، وغرين رملي الخ، تعلوه تربة متطورة سمراء وحمراء. ولقد عثر بموقع في الجزائر على حصى مهياة هجينة الصنع.

— المطار الأول المازيري (Q/a) مشبكات ورمال.

— ما بعد المازيري الجاف: ترسبات من الطين الرملي، ورمال ريحية وانهيالات.

— المطار الثاني التاوريرتي أو الأوغرتي الأولى (Q/b) مشبكات وزراعة على الحصى المهية المتطور جدا من العهد الأشولي المتوسط.

— ما بعد التاوريرتي الجاف: اجتراف.

— المطار الثالث (أو الأوغرتي الثاني): حصى ذات ألوان متنوعة ورمال أو تربة متطورة حمراء وسمراء.

— ما بعد التاوريرتي الجاف: اجتراف.

— المطار الرابع الساورى (Q1) رمال رمادية وخضراء. ومواد حثائية، وتربة ذات أحفورات سوداء — عاطري.

— المطار ما بعد الساورى: غلاف من الصلصال الرملي، عنصر حجري جديد.



— مرحلة رطبة غيرية (Q2d): عصر حجري جديد.

ويرى أرمبورغ (١٩٦٢) ان الممطارات الاربعة الأساسية وهي المازيري والأوغرتي الاول والأوغرتي الثاني والساوري شمال الصحراء قد توافق ممطارات افريقيا الشرقية وهي الكاغيري (أولدواي الاول) والكاماسي والكنجيري والكمبلي. وقد يوافق الغيري في الشمال الغربي من افريقيا المراحل الرطبة لما بعد الكمبلي.

## النيل

اعتنى الاختصاصيون منذ القديم بالنيل وخصصت مختلف جوانبه مؤلفات كثيرة. ولقد درس نندورف (١٩٦٨م) وبوتنر وهانسن (١٩٦٨م) وهنزلين (١٩٦٨م) وشيلد (م س) وكيكنك (١٩٦٨م) وسعيد (تحت الطبع) دراسات مكثفة لما قبل تاريخ هذا النهر وتطوره الجيولوجي. وتمثل الملحوظات التالية نتيجة عمل قدمه سعيد واعتمد فيه على فن رسم الخرائط وركز فيه بعين المكان على الترسيبات النهرية والرواسب المشتركة. وعلى فحص عدد كبير من التفتيبات العميقة أو السطحية التي أجريت بحثاً عن الماء والبتروول. ويمكن أن نعتبر أن النيل قد مر بخمس حلقات منذ أن شق مجراه في الميوسين الأعلى. ولقد اقتصت كل حلقة بوجود نهر كان يأخذ أكبر قسط من زاده المائي من منابع خارج مصر. ويبدو أن النهر قد نقص أو كف نهائياً عن الجريان في مصر وذلك جوالي آخر الحلقات الاربع الاولى (والحلقة الأخيرة تجري الآن). ولقد صاحبت هذه الحلقات الانحسارية تغيرات فيزيائية ومناخية، ومائية هامة. ويبدو أن البحر قد تقدم، مدة الانحسار الاول، في الأرض مكوناً خليجاً يشمل الوادي المحفور حتى جنوب أسوان. واستقر مدة الانحسار الثاني الذي ابتداءً بالبليستوسين الجاف، وتواصل مدة تفوق ١١٠٠٠٠ سنة، مناخ على غاية من الجفاف بمصر التي تحولت الى صحراء قاحلة. وكان النشاط الريحي في ذلك العهد هاماً، وأخذت الوهاد الصحراوية الكبرى تتشكل، وضاع الغطاء النباتي الذي كان يكسو مصر مدة البليستوسين. وتوجد شواهد على مرحلة ممطرة قصيرة نسبياً وقعت في بداية هذه الحقبة. ولقد نشأت في هذا الممطار أنهار متكونة من سيول قصيرة المدة، تتزود تماماً في مصر. ان الانهار الخمسة التي احتلت وادي النيل منذ أن جفر مجراه في الميوسين تدعى.. ايونيل (Tmu) بالونيل (Tplu)، بروتونيل (Q1)، برينيل (Q2)، نيونيل (Q3).

ويمكن أن نلخص في اللوحة التالية، التحولات المناخية التي سجلت بمصر، تنقلاً من أقدمها الى أحدثها.

## ممطار بليستوسين

(Tplu) يقدر بـ (٣٣٢ الى ١٨٥) مليون سنة.

وتتكون رواسب البليونيل أساساً من رواسب متفتتة ذات حب دقيق في المجاري الضيقة، ومن الطين، وذلك في باطن الوادي وعلى امتداد الأودية. وكانت منابع البليونيل موجودة في مصري افريقيا الاستوائية وما فوق الاستوائية. والملاحظ وجود غطاء نباتي واسع، وحدوث انحلال

كيميائي قوي، وسيلان ضعيف. ومن المحتمل أن الأمطار كانت تتوزع بها توزيعاً منتظماً على كامل السنة.

### الطور الجاف جدا من البليستوسين الحديث (Tplu / Q1) يقدر بـ (١٨٥٠ إلى ٠.٧٠) مليون سنة.

ولقد أصبحت فيه مصر صحراء معرضة لنشاط زلزالي في وادي النيل حيث بلغ مفعول الريع أشده. وقطع هذا المطور مطار قصير (أرمنت) تكونت فيه مجار من الحصر متناوبة أحياناً من مجار من الرمل، حباته مرصوفة أو من المارن الممزوج بقلب أصفر وأحمر، وتعلوها ثغرة مؤسمة. ولم يعثر على أية أداة بهذه الترسبات.

### مطار أدفن

و يقدر بـ (٧٠٠٠٠٠ إلى ٦٠٠٠٠٠)

ففيه عادت الأحوال المناخية الخاصة بالبليونيل. أما البروتونيل فإنه يحتص بمنايع مائية تشابه منابع النيل السابق اذ دخلت مصر وحفرت مجراه حسب ممر مواز لجري النيل العصري وموقعه بشمال هذا الأخير توجد به رواسب في شكل مجار من حصي الصوان وحتات الصوان الممزوج بقلب من الملح الأحمر الآجري. ولقد أتت تلك الرواسب من أرض تفتتت تفتتاً عميقاً، وغسلت تغسلاً. اذ الرواسب الموجودة بالصحراء المشابهة لشبكات الاودية تظهر على شكل قنوات مقلوبة وقد عثر في هذه الرواسب على أدوات مصنوعة حسب التقاليد الشالية.

### مطار البرينيل الجاف

(Q2) يقدر بـ (٦٠٠٠٠٠ إلى ١٢٥٠٠٠) مليون سنة

فيه ظهر نهر جديد دخل مصر، وزودته مياه آتية من الأراضي العالية بأثيوبيا. ان التركيب المعدني لرواسب البرينيل يدل على وجود معدن الأوجيب (وهو من خصائص رواسب النيل العصري، الآتية من مرتفعات أثيوبيا)، كما يدل على وجود كمية وافرة من معدن الأبيدوت الذي يميز هذه الرواسب عن رواسب النيونيل الموالي والنيل العصري. يوجد كذلك مطار صغير خلال الأطوار الاولى من هذا الفاصل الزمني.

### مطار العباسية

(Q3) (١٢٥٠٠٠ إلى ٨٠٠٠٠)

وفيه كف البرينيل عن السيلان بمصر لأن منابع النهر قد انقطعت بعد نهوض جبل النوبة و يتميز هذا المطار بحصى متعددة الاصل آتية من هضاب البحر الأحمر الذي تفتت سطحه تفتت عميقاً الا أنه لم يغسل الا تغسلاً قليلاً. ويحتوي الحصى على أدوات وافرة من العهد الأشول الحديث.

### طور العباسية/مخدمة الجاف

(يقدر بـ ٨٠٠٠٠ الى ٢٤٠٠٠).

و يتميز بالاجتراف.

### ما فوق ممطار مخدمة

(٤٠٠٠٠ الى ٢٧٠٠٠).

فيه اجتراف طبقي وأدوات تقليدية سنغونية لومبية تظهر بمنحدرات عديدة من المجري المعروف من البرينيل. وتوجد في كل مكان من الصحراء أدوات تقليدية موسيرية وتليها فيما بعد أدوات عاطرية.

### طور النيونيل الجاف (Q 3)

من ٢٧٠٠٠ الى يومنا هذا)

وفيه دخل مصر نهر هو النيونيل، له منابع ونظام يشابه ما يوجد بالنيل المصري. ولقد مر النيونيل بطورين انحسارين نتج عنهما ما فوق المطارين الأقصيين: وهما ما فوق ممطار دير الفاخوري (١٠٠٠٠ الى ١٢٠٠٠) وما فوق ممطار دشنة (١٠٠٠٠ الى ٩٢٠٠) والعصر الحجري الجديد (٧٠٠٠ الى ٦٠٠٠).

ويمكن أن نؤكد أن رواسب وادي النيل لا تختلف كثيرا عن الرواسب التي عثر عليها بالصحراء ومن الممكن أن نعلم وأن نبين أن ممطار أرمنت بمصر قد يوافق ممطار الفيلافرنشي بالشمال الغربي من الصحراء، وأن أدفن يوافق المازيري، وأن العباسية يوافق الأوغرتي، والمخدمة يوافق الساوري ودير الفاخوري، والدشنة والعصر الحجري الجديد يوافقان الغيري.

وينبغي أن نلاحظ في الختام أن المطارات الافريقية قد تكون ناشئة عن تحولات مناخية عالمية، توافق نظريا التجمدات بأوروبا وأمريكا الشمالية. وإذا كان من العسير إقامة الدليل على هذا الأمر، يمكن بصفة عامة افتراض وجود ارتباط بين الأوغرتي (بالشمال الغربي من إفريقيا) والعباسية (بالشمال الشرقي من إفريقيا) والكنكري (أولدواي ٤) بأفريقيا الشرقية، وبين التجمد الالبي لريس. ومن الضروري أن تجري دراسات تكميلية، لا سيما في ميادين القياس الجيولوجي المغناطيسي والاشعاعي قبل استخلاص استنتاجات مضبوطة.



# الاطار الزمني للمراحل المطرية والجمودية بأفريقيا

القسم الثاني

هـ. فور

لقد طرأ على تاريخ معمرتنا في ملايين السنوات الأخيرة تعاقب مطرد من تحولات مناخية عميقة وأهم ظاهرة من ذلك، وقد عرفت منذ أكثر من قرن، وهي تقدم وتأخر الجموديات بصفة خارقة للعادة في خطوط الطول العليا وفي المرتفعات (شكل ١). وقد تجلّى ذلك في برد شديد كان له أثر عميق على البيئة وعلى حياة البشر. وكان من المظاهر المشهودة للتحوّلات المناخية في الدهر الرابع بأفريقيا أن توسعت المساحات البحرية بالمناطق الجافة، وتقدمت مساحات شاسعة من الهضاب الرملية نحو المناطق التي لها الآن مناخ أكثرطوبة.

ولقد أحرز العلماء منذ عشر سنوات تقدما ملحوظا في ضبط تواريخ تلك الأحداث بالنسبة للشلائين ألف سنة الأخيرة، وذلك بعد استعمالهم استعمالا منهجيا للقياسات الراديوية تاريخية بالكربون ١٤. ان الترتيب التاريخي للتقلبات المغناطية، المعتمد على قياسات راديومترية بحسب طريقة أرغن بوطاسيوم أوك/ك يسمح بايجاد علاقة ارتباط من بعيد مع المناطق الأخرى التي استعملت فيها تلك الطرق، لا سيما، فيما يتعلق بميدان المحيطات.

فقبل ان تستعمل طرق الارتباط تلك، كانت طبقية الدهر الرابع الأرضية تعتمد على تعاقب الاحداث المناخية الذي اعتبر اطارا تاريخيا. ان علاقة الارتباط بين منطقة وأخرى كانت تقع بالاستناد الى موازاة الفترات الزمنية المتعاقبة بالمناخات المتشابهة. وعلى هذا الأساس اقترح اعتبارا بوجود توافق بين الحقبات الجمودية الاوربية والاطوار الممطارية الافريقية.

ولقد كان لهذه النظرة اعتراضات قدمها مؤلفون عديدون (انظر تريكار، ١٩٥٦، وبالوت ١٩٥٢ الخ).

ان الجواب على هذه المسألة المتعلقة بالارتباط قد كان أكثر تعقدا في الواقع ولم يدرك الا بفضل

المعرفة الدقيقة لآليات المناخ الشاملة من جهة، وللترتيب التاريخي المناخي في بعض الآلاف من السنوات الأخيرة من جهة أخرى.

### الطبقة الأرضية المغناطية والترتيب التاريخي الراديوميتري

يجب أن نسجل، فضلا عن الملاحظات التي أبدتها رشدي سعيد قبله، أن التباسا مطردا قد وقع بين الوحدات الطبقة الأرضية الحجرية، والطبقة الأرضية الأحيائية والطبقة الأرضية التاريخية، حتى أن انعدام الدقة في التعريفات قد تسبب في وضع قائمة من المصطلحات لا تفيد أحيانا في ميدان التاريخ الذي أخذ يميل إلى الدقة.

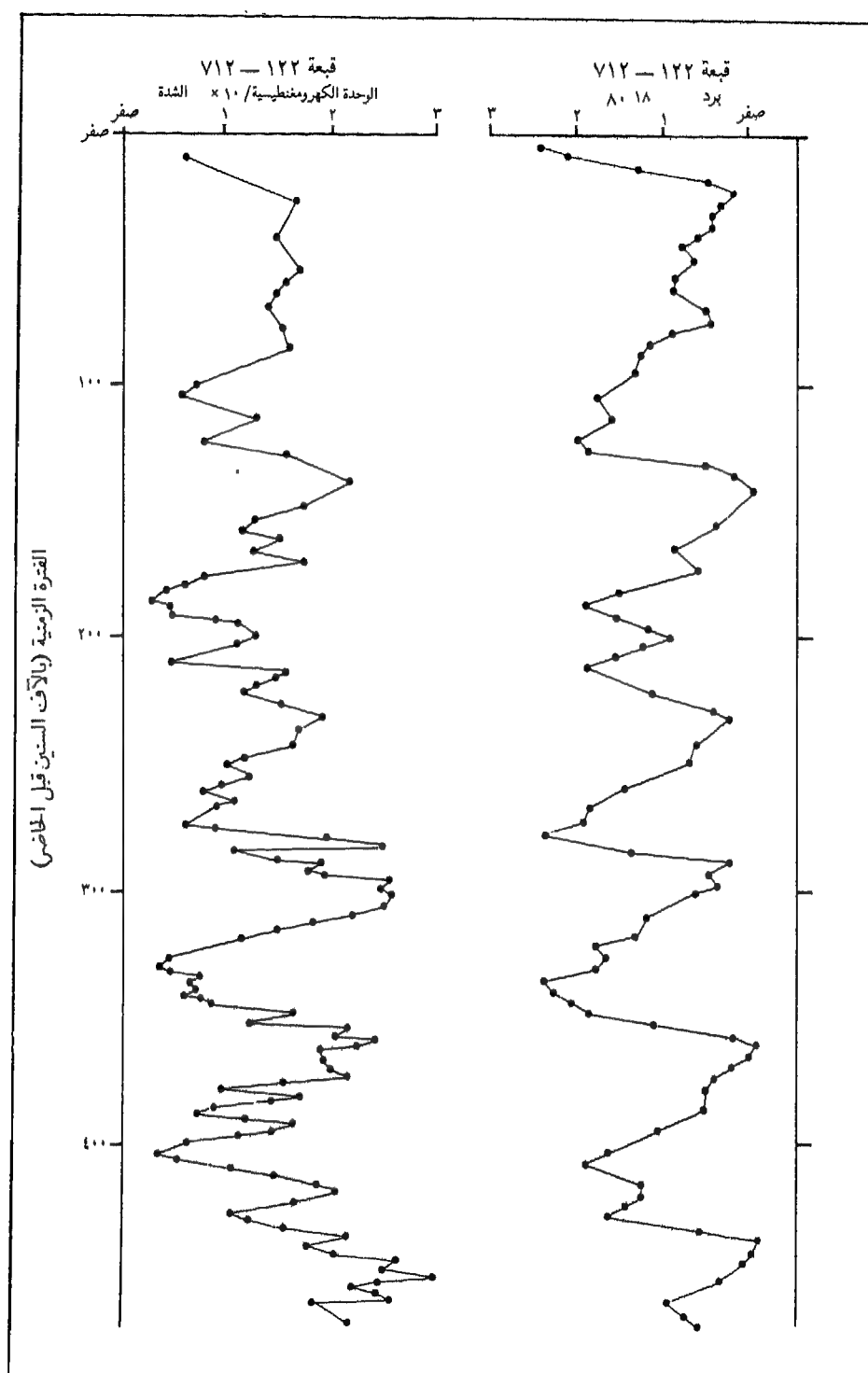
ويظهر من جهة أخرى أن بعض عناصر الحقل المغناطيسي، كالانحناء أو الشدة متصلة اتصالا وثيقا بعناصر مناخية (شكل ٢ وشكل ٣ حسب وولان وآل ١٩٧٤).

## تجمدات الدهر الرابع، والترتيب التاريخي

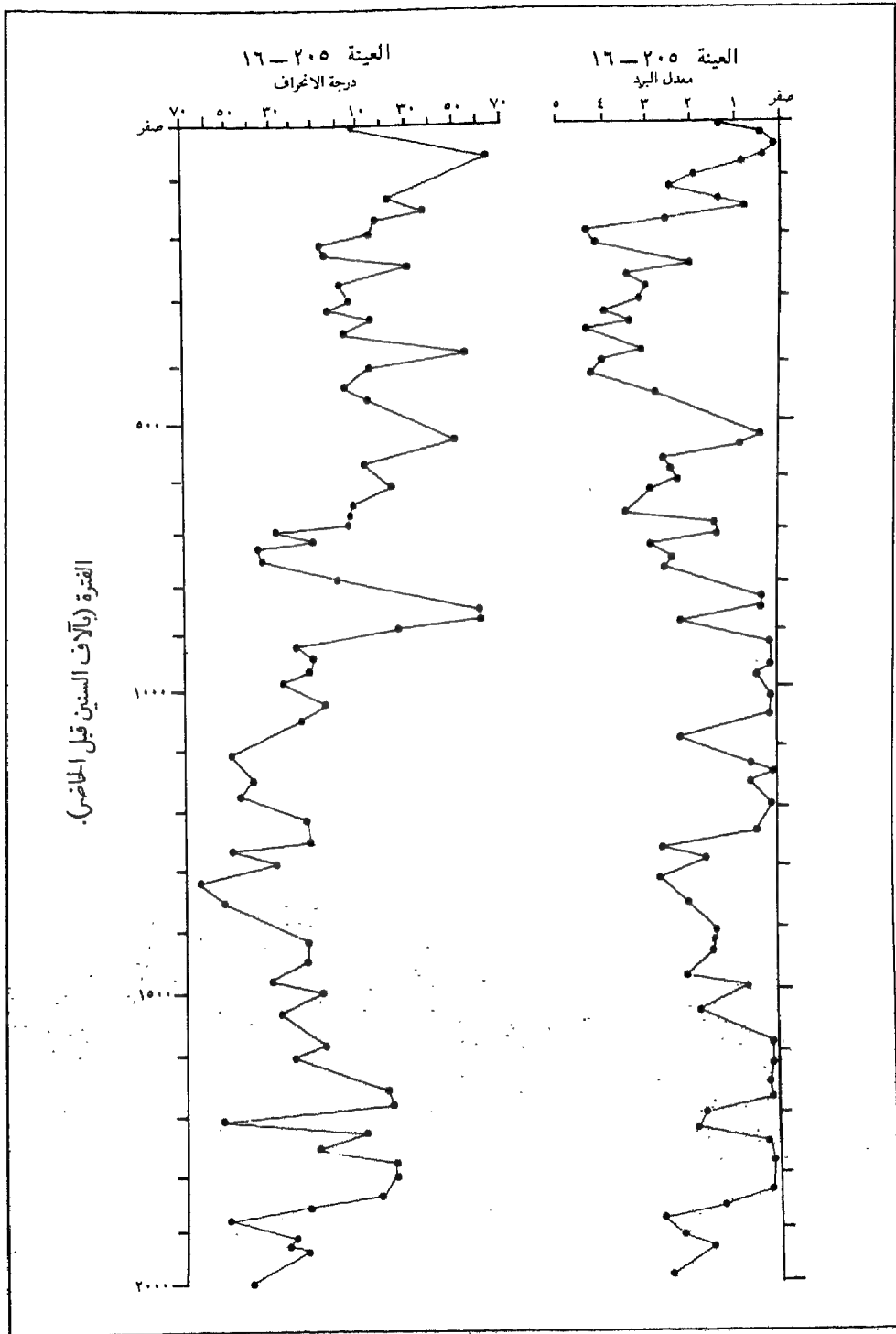
يبدو أنه سجل في العهد الرابع ما لا يقل عن اثنتي عشرة موجة هامة من البرد وذلك في الترسبات المتراكمة باستمرار في عمق البحار، ولم يعرف منها سوى ثمانية في الترسبات القارية بأوروبا الشمالية، وترتبط السطوح النهرية والترسبات الجمودية التابعة للمنطقة الالبية بأربعة (أو ستة) تجمدات كلاسيكية، وهي: غونز، مندل، ريس، وورم (وكذلك دونو وبيبر)، وكل تجمد من تلك التجمدات قد يشتمل على مراحل.

إن ما تتميز به الشواهد القارية من تقطع يجعل من العسير إن لم يكن من الخيالي، وضع علاقات ارتباط بين الحقبات الجمودية بالمناطق البعيدة عندما لا تكون مضبوطة ضبطا دقيقا بالنسبة إلى سلم تاريخي مغناطيسي أو راديوميتري. والملاحظ فعلا أن الترتيب التاريخي للتجمدات الالبية لم يضبط ضبطا دقيقا من حيث الزمن. ولقد أطلقت مصطلحات غونز، مندل، ريس، وورم، بيبر فيما يتعلق بمناطق متنوعة باعتبار تشكلات غير متزامنة. وعلى هذا الأساس ينسب الترتيب التاريخي للمصخور البركانية المقحمة في سطوح نهر الراين والمسماة «مندل ١ و ٢»، عمرا قدره ٣٠ إلى ٢٦ مليون سنة. وينسب للسطوح المسماة «غونز ١ و ٢» عمرا يقدر به ٤٢٠ إلى ٣٤٠ مليون سنة. إلا أن نفس المصطلح «غونز» يطبق أحيانا على الحقبة الباردة التي تسبق البرومري والتي قد يكون عمرها ٩٠ إلى ١٣٠ مليون سنة. مما يوافق الحقبة الباردة السابقة لحدث جارميو في العينات الترابية تحت البحار. وفي إطار هذا التأويل الأخير، وجب أن يشمل (دونو)، وهي حقبة باردة سابقة، حدث جللسا وإن يكون معادلا للابوروني.

واعتبارا لهذا المثال ندرك الخطر الناشئ عن أن نعمم من منطقة إلى أخرى، ترتيبا زمنيا مرتكزا على تعاقب مناخي قاري: فبقدر ما نتأخر في الزمن اعتبارا لعدد الاحداث الباردة، واعتبارا



● شكل ١ - منحنيات تبين التشابهات الموجودة بين العلاقات النظائرية للاوكسجين (أو التغيرات في الحرارة) وشدة الحقل المغنطيسي الأرضي في قبة تحت البحر، وذلك بالنسبة لفترة الـ ٤٥٠٠٠ سنة الأخيرة. اعتماداً على وولين واريكسون وولين (١٩٧٤)



• شكل ٢ - منحنيات تبين التشابهات بين درجات الحرارة كما تدل عليها الحيوانات الصغيرة والاختناء المغناطيسي، وذلك بالنسبة للمليون سنة الأخيرة. اعتماداً على «وولين وآخرين» (١٩٧٤).



للمصطلحات التي أطلقت عليها اعتباراً، تتسبب الاختلافات في عدم توضيح علاقات الارتباط القائم بين الشواهد الدالة على التجمدات الألبية، وموجات البرد المتتابعة المقاسة بالعينات الترابية في المحيطات.

فلا بد من تسجيل كامل ومتواصل للظواهر المناخية من جهة، وللعلامات الطبقة الأرضية المغناطية والراديو مترية من جهة أخرى، لكي نضع، ولو تقريباً، سلماً طبقياً أرضياً ونساعد على الوصول الى مقارنة مفيدة بين منطقتين.

ان القلب المغناطيسي ماتياما — برونس (٠٦٩ مليون سنة) قد حدد في الطبقة الكروميرية بفضل البليولوجيا، كما حدد حدث جلسا (١٧٩ مليون سنة) بالابوروني. (فان منفرنس ١٩٧١).

## التعدي البحري في الدهر الرابع والترتيب التاريخي

يتسبب كل تجمد في تهقر جودي لمستوى البحار يقدر تقريباً بمائة متر. ان التعديت البحرية الناشئة من ذوبان الثلوج، تسمح اذن في المناطق الساحلية، بالربط بين الترتيب التاريخي الطبقي الارضي المناخي وبين الترتيب التاريخي الخاص بالدورات البحرية.

أما في المناطق التي تكون فيها التشكلات البحرية مرجانية (وذلك في برباد وبرمودا وغينيا الجديدة والبحر الأحمر) فقد سمح ضبط التواريخ بطرق عدم اتزان الاورانيوم، المطبقة على ارغونيت المرجان بضبط عمر التعديت التابعة لما بين التجمدات (٢٠٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠٠٠ و ١٠٥٠٠٠ و ٨٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد تقريباً). ونلاحظ (مع اعتبار فارق الخطأ الفيزيائي الناشئ عن مختلف الطرق الراديوية تاريخية) ان تلك المستويات البحرية العالية توافق بالتدقيق المراحل الحرارية الأكثر علواً وتدل عليها الحيوانات البحرية الصغيرة واللقاحات، كما تدل عليها نظائر الأكسجين.

## آلية المناخ الشاملة

ان المناخ ليس وسيلة لاقامة علاقة ارتباط تاريخي. وذلك أن تعقد العوامل القائمة في وقت معين (أو في فترة تدوم بعض القرون أو بعض الألوف من السنين) تمنع من أن نستعمل المعطيات غير المؤرخة تاريخياً مضبوطاً كمعيار طبقي أرضي أو تاريخي.

ان العوامل التي تؤدي الى هذه الملاحظات على نوعين:

— أولاً: ان معرفة التطور المناخي العام على مستوى بعض عشرات السنين (أو بعض القرون استناداً الى معطيات تاريخية) تبين تعقد المسألة في مستوى الكرة الأرضية، ولذلك وجب معرفة جميع العوامل، ومن بينها «الشمس» كعامل ثابت، وحركة المحيطات، ووضع الجبهات القطبية، والامطار (ليس معدها. فحسب بل كذلك تفاوت نسبتها).

— ثانياً: ان معرفة تحولات بعض العوامل المناخية منذ ٢٥٠٠٠ سنة تقريباً (آخر البليستوسين والهولوسين) اعتماداً على القياسات الراديومترية، تدل من جهة على سرعة تغيرات هامة توفرت لنا عنها وثائق مفيدة، ومن جهة أخرى على تعقد علاقات الارتباط على مستوى الكرة الأرضية. وبذلك يلعب سلم الأزمنة المعبر دوراً هاماً.

ان «النظام المناخي»، كما عرفه المجمع القومي للعلوم بواشنطن (١٩٧٥) يتألف من الخصائص والعمليات المسؤولة عن المناخ وتحولاته، كالخصائص الحرارية: (حرارة الهواء، والماء، والمثلج، والترربة). والخصائص الحركية: (الرياح، والتيارات البحرية، وتنقلات المثلجات)، والخصائص المائية: (رطوبة الهواء، السحب، الماء المطلق أو الجوفي، المثلج الخ). والخصائص السكونية: (الضغط، وكثافة الفضاء والمحيطات، وملوحة الماء الخ)... ثم الحدود الهندسية والعوامل الثابتة التابعة للنظام المناخي. وترابط جميع متحولات النظام بالعمليات الطبيعية التي تطرأ عليها، مثل نزول الأمطار، التبخر، الإشعاع، التنقل، ارتفاع الهواء الساخن، اضطراب الجو. وتشمل المقومات الفيزيائية للنظام المناخي: الفضاء، المحيط المائي والمحيط البارد، وقشرة الأرض، والمحيط الحيوي. أما العمليات الفيزيائية المسؤولة عن المناخ فانه يمكن التعبير عنها كمياً باعتبار المعادلات الدينامية للحركة، ومعادلة الطاقة الحرارية الدينامية ومعادلة التوازن للكتلة والماء.

ان التحولات المناخية ستكون أكثر تعقداً بقدر ما يوجد من تفاعلات كثيرة بين عناصر النظام المناخي، ولهذا فإن أسباب التغيرات المناخية عديدة ومتنوعة لا سيما اذا اعتبرنا سلم الزمن المعتمد، وآليات التفاعل (المفعول الرجعي). ويعتبر دور المحيطات مهماً في التحولات المناخية من خلال عمليات مقابلة الهواء للماء، والمتحركة في تبادل الحرارة والرطوبة والطاقة.

ان هذه الاعتبارات المبدئية تبين ان مرحلة الطبقة الأرضية المناخية في الدهر الرابع كانت من باب المقاربة الضرورية، ولكنها تفسح المجال تدريجياً للبحث عن الآليات الخاصة بحالة معينة جداً على سلم مختلف من الزمن. ولهذا السبب سندرس عدة أمثلة من النتائج الحديثة التي تهم الحاضر ثم الهولوسين، والبليستوسين، والبليو—بليستوسين.

## المناخ الحالية والحديثة بإفريقيا

ان النسق السنوي لتناوب فصل جاف وفصل رطب بإفريقيا في المنطقة المابين الاستوائية مربوط بتنقل منطقة التقارب المابين الاستوائية.

ان «السيت»، كما خصه حديثاً ج. مالي (١٩٧٣) ول. دوريزيثل مكان المجابهة بين الرياح الموسمية (وهو هواء رطب أصله المناطق الاستوائية أو الصحايبات البحرية من نصف كرة الأرض الجنوبية) وبين ((الحرمتان)) (هواء صحراوي). ان «السيت» الموجهة تقريباً غرباً — شرقاً تنتقل من الجنوب الى الشمال مدة الربيع والشهرين الاولين من الصيف، ثم من الشمال الى الجنوب. ان هذا التأرجح الفصلي يقع بين الدرجة الرابعة (٤) شمالاً والدرجتين (٢٠ — ٢٣) شمالاً. ان مساحة انقطاع التوازن ترتفع ببطء بين الهواء الرطب والهواء الجاف من الشمال الى الجنوب. ولا

تشكل الطبقة الرطبة من الرياح الموسمية في الصيف الا كتلة باردة ضيقة مجدا في الشمال فلا تأتي الا بأمطار ضعيفة، اذ يجب أن يبلغ الهواء الرطب من السمك ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ متر حتى تسقط أمطار غزيرة. وتلك أحوال لا تتحقق الا على ٢٠٠ أو ٣٠٠ كلم جنوبا من خط «السيث» (انظر ل. دوريز. ١٩٧٤)، وتطراً على موقع السيث تحولات مهمة جدا لا على سلم الفصل بل على السلم النهاري، باعتبار حقل الضغط بافريقيا والمحيط الاطلسي. وكما بين ذلك ب. بودي لا بورد (١٩٧٠) فان الدفع الآتي من المحيط الاطلسي الجنوبي مربوط بنشاط الجبهة القطبية الجنوبية يمثل المحرك الأساسي الذي يدفع بمنطقة التقارب نحو الشمال. ويعتبر تقلص «السيث» نحو الجنوب ناشئا في نفس الوقت عن ضعف الإعصار المعاكس جنوب المحيط الأطلسي (في سبتمبر) ولتأثير نصف كرة الأرض الشمالي. إن هبوب الهواء الشمالي الجاف بعد أن يمر بالصحراء، لا يتسبب الا في بعض الأمطار على الجبال الصحراوية. وبالعكس يأتي الهواء الجنوبي بعد مساره البحري، بالرطوبة. ان الازمة المناخية الحالية بمنطقة الساحل تعود حينئذ الى أن «السيث» قد تركز في ٣ الى ٤ درجات الى الجنوب أكثر من وضعه المعتدل. وكانت الصحراء قد تقلصت مدة العشرية الرطبة (١٩٥٠ - ١٩٥٩): فوافقت الرطوبة، كما بين ذلك مالي (١٩٧٣) انخفاض الحرارة القصوى على الهوامش الجنوبية.

ولذلك فان قوة الجبهات القطبية وتوسعها نحو خط الاستواء يتعاظمان بقدر ما يكون الهواء القطبي أكثر برودة. وذلك ما دعا مالي (١٩٧٣) الى التمييز بين آليتين: آلية الحقبات الجمودية وآلية الفترة الحالية. ففي الأول طرأ على المساحة المتجمدة القارية من نفس كرة الأرض الغربي توسع كبير، ولم يطرأ الا شيء قليل على المساحة المتجمدة القارية الجنوبية، فكان للجبهة القطبية الشمالية اثر غالب وكانت تدفع بالموسمية في الصيف بعيدا نحو الجنوب. وعندئذ وقع التجفاف الذي صاحبه الزحف الجمودي، وضعف أثر المركز القطبي في التسخن الهولوسيني، وذلك منذ ٥٠٠٠ - ٤٠٠٠ سنة ق. م. ان تقلص الجبهة القطبية (ج. ق) الشمالية قد ساعد، مدة الصيف الشمالي، على توسع الموسمية نحو الشمال من خط الاستواء بينما كانت الجبهة القطبية الجنوبية تدفع بشدة الإعصارات المعاكسة الماتحت الاستوائية نحو خط الاستواء. واستطاعت الجبهة القطبية مدة الشتاء الشمالي ان تضاعف أثرها في الصحراء وأن تتسبب في أمطارها. ان هذه الأمطار الشتائية والصيفية تفسر المناخ الرطب الذي ساد الصحراء الجنوبية، كما تفسر تقلص الصحراء مدة النصف الاول من الهولوسين.

ان تقلص الجموديات القارية منذ ٥٠٠٠ سنة قد قلل من قوة الجبهة القطبية كما أن تقلص منطقة القطب الشمالي منذ ٥٠٠٠ سنة قد أضعف قوة الجبهة القطبية الشمالية، وتناقصت في نفس الوقت قوة تأثير القطب الجنوبي. ولذا يفسر التجفاف التدريجي بالصحراء التناقص المزدوج الطارئ على دفع الموسمية وعلى تأثير هواء القطب الشمالي على الصحراء.

ان هذه الآليات المناخية كفيلة بان تساعد على ادراك التغيرات المناخية بافريقيا مدة الدهر الرابع.

## الترتيب التاريخي والمناخات منذ ٢٥٠٠٠ سنة

تعطينا الـ ٢٥٠٠٠ سنة الأخيرة من الدهر الرابع (آخر البليستوسين والهولوسين) مثالا حديثا ومعتمدا على معلومات ثابته، عن توسع جمودي كبير جدا وعن تقلصه الى حد الحقبة المابين جودية الحالية. ولقد طرأ في نفس الحقبة على المناطق ما بين المدارين جفاف شديد، تبعته مرحلة رطبة ثم تجفف جديد. ان الامر يتعلق هنا بالاضطراب المناخي الوحيد الذي يمكن دراسته على سلم يقدر ببضعة قرون أو بضع الألف من السنين، والذي يسمح بالمقارنة بين عناصر النظام المناخي وتقلباته في مناطق عديدة على جميع خطوط الطول من الكرة الأرضية. ونضيف في شأن تلك الحقبة ان العلامات التي وفرتها اللقاحات، والمشطورات والحيوانات المشابهة للأنواع الحالية تسمح بأن نضبط كميا مدى التحولات الطارئة على المحيط الجغرافي. أما معدل مستوى البحار فقد أصبح معروفا، بل يوفر فضلا عن ذلك، وفي كل لحظة، فكرة عن الحجم العام للمثلجات وعن العلاقات النظائرية للأوكسيجين في أهم المستودعات (المحيطات، المثلجات) انظر موزير (١٩٧٥م).

أما فيما يخص إفريقيا الصحراوية، ومنذ أن تم انجاز الدراسات الاجمالية الاولى المعتمد على التواريخ بالكربون ١٤ (بوتزر، ١٩٦١، مونود ١٩٦٣م، فور ١٩٦٧، ١٩٦٩) تعتبر الأعمال الأكثر حداثة التي يجب الإعتماد عليها من أجل الوقوف على ترتيب تاريخي مفصل للتقلبات المناخية، هي أعمال م. سرفنت، ببلاد التشاد والنيجر، وف. غاس ببلاد العفر، وبإفريقيا الشرقية. وأعمال الفرق من العلماء: فان زندرن باكر، ولفنغستون، ورشاردن، وويليامز، وفيكنس الخ. وفي الامكان مقارنتها بنتائج دراسات اجمالية عديدة خصصت للمناطق من خطوط الطول العليا القريبة من القطب، ومنها دراسات فلتشكو ودراميس الخ. ويعرف ميدان المحيط الأطلسي في مجمله من خلال اعمال فرق كليما (١) ومكانتاير. أما فيما يتعلق بنصف الكرة الأرضية الجنوبي فيعمل على ما نشره فان دراهم وويليامز وبول، وآل.

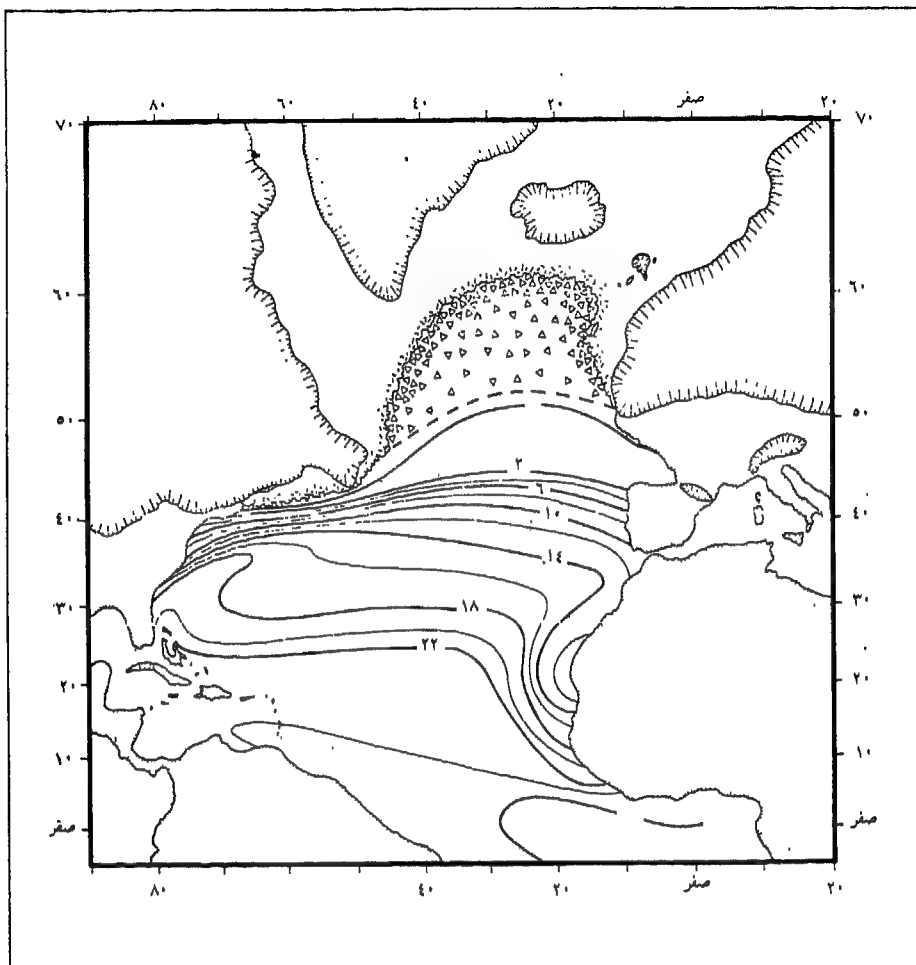
ان السعي الى وضع تاريخ تطور المناخ بإفريقيا في اطاره منذ ٢٥٠٠٠ سنة يجعلنا نميز مراحل زمانية عديدة:

## ٢٥٠٠٠ — ١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد

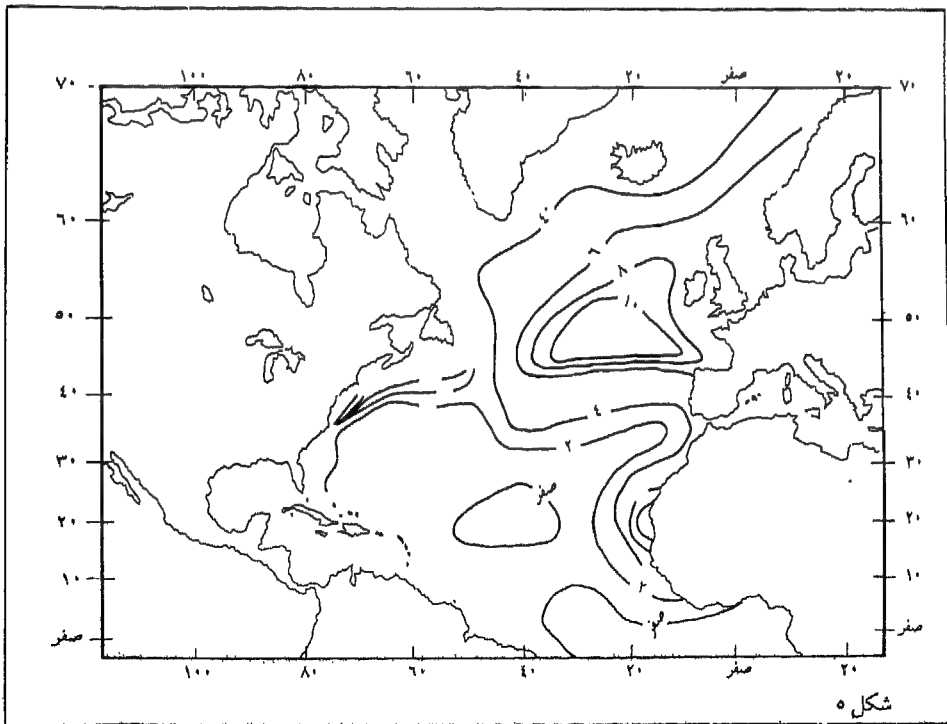
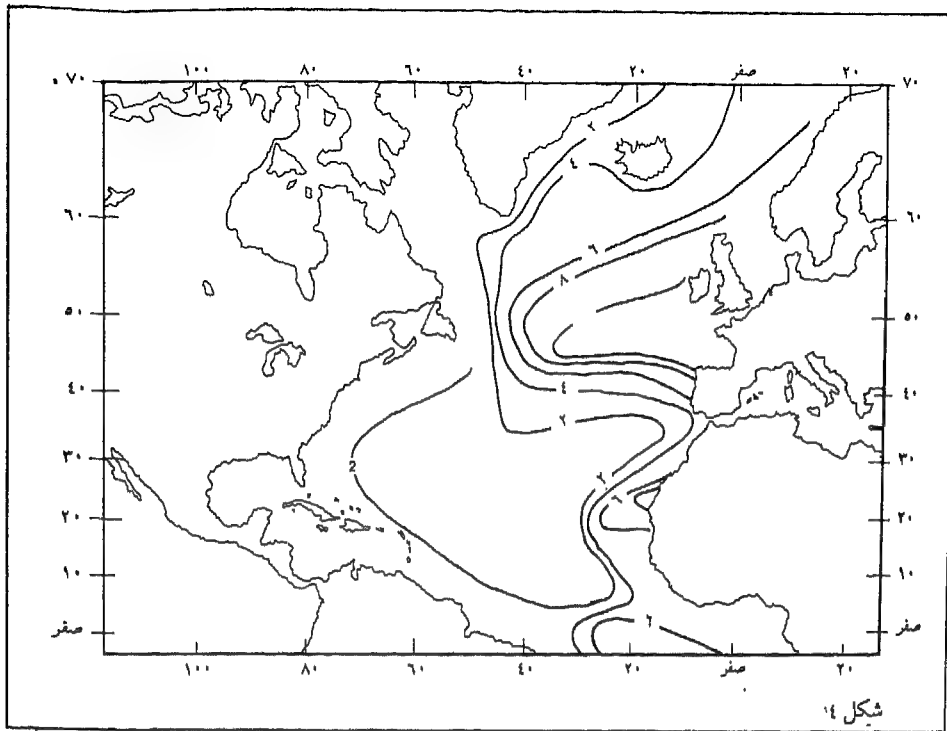
### خطوط الطول العليا القريبة من القطب

توافق الحقبة الزمنية بين ٢٥٠٠٠ و ١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد، نهاية التوسع الأقصى للبقعات الحمودية التي كانت تمتد على النصف الشمالي من الكرة الأرضية. ان هذا التوسع من تجدد وورم = (فيسكونس = فايشلسين = فلداي) قد غطى بالمثلجات مساحة تمثل ٩٠ أو ٩٥ في المائة من المساحة التي احتلت مدة كل التجمدات السابقة في الدهر الرابع (فلنت، ١٩٧١)، ولهذا فان الأمر يتعلق هنا بنموذج يمثل تمثيلا صحيحا تجمدا معينا. يبدو أن البيرمافروست (أي تغطية الأرض

(١) كليما (التاويل الواسع المناخي، والتخریط والتوقع) من العشرة الدولية لاستكشاف المحيطات.



● شكل ٣ - خريطة خطوط الحرارة المتساوية للمياه السطحية في شهر فبراير في المحيط الأطلسي ١٨٠٠ قبل الحاضر، وخطوط الحرارة المتساوية المرسومة بالشرط الصغيرة تفسيرية، بينما تبين الحدود المشرقة الكتلة الجليدية القارية الكبرى، وتبين الحدود المبنية بالحبيبات الجليدية الساحلي المستديم. وقد رسم خط الساحل الجليدي على أساس مستوى لسطح البحر يقل بمقدرا ٨٥ مترا على المستوى الحالي. (استنادا الى ماكنتاير وآخرين، ١٩٧٥).



● خريطة تبين اختلافات حرارة المياه السطحية بين الزمن الحالي وبين سنة ١٧٠٠ قبل الحاضر. (استناداً إلى ماكنتاير، ١٩٧٤،  
كليماب)، شكل ٤: فصل الشتاء، وشكل ٥: فصل الصيف.

بالجليد بصورة دائمة طوال السنة) كان أكثر اتساعا مما كان عليه مدة التجمدات الأخرى (فلتشكو ١٩٧٣، ١٩٧٥ م). ومن المحتمل أن امتداد التجلد الدائم مربوط خارج القارت، بجليد يجري متطور جدا امتد على المحيطات الشمالية وساهم في الحد من التبخر عند تقابل الهواء والبحر.

### المحيطات

ساهم انخفاض معدل مستوى المحيطات من ٥٠ الى ١٠٠ متر، فضلا عن تقلص المساحة الطلقة الناتجة عن جليد البحر، في تقليص مساحة تلك المحيطات بحوالي عشرة في المائة فبرزت خارج الماء، في نهاية الحقبة المعنية، أغلبية المسطحات القارية. ولقد استطاع الباحثون من فريق كليما ب (مكأنتاير وآل ١٩٧٤، ١٩٧٥، وهيس، في كليما ب ١٩٧٤ الخ...) وضع خرائط عن حرارة المياه السطحية بالمحيط الأطلسي بالنسبة للحقبة الموافقة للتجمد الأقصى (١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد) (الشكل ٣). ان تلك الخريطة، عندما تقارن بالخرائط الحالية (وهي خرائط ما بين جمودي) تبرز معدلا عاما من فروق حرارية لا يزيد على ٢.٥° بين التجمد الأقصى والتجمد الحالي. الا أن توزيع الفروق الحرارية يبين حدا أقصى بالنسبة لخطوط الطول المتوسطة (٦° الى ١٠° من الفرق) كما يبين فروقا أضعف بكثير (أقل من ٣°) بالنسبة لخطوط الطول ما بين المدارين (الشكلان ٤ و ٥). ومثال ذلك أن الحرارة السطحية بالنسبة للنقطة ٥٠° شمالا - ٣٠° غربا كانت في الشتاء أقل من ٧.٣° الى ١٢.٧° في ١٨٠٠٠ (أو ١٧٠٠٠) سنة قبل الميلاد، مما هي عليه اليوم، أما في الصيف، فان الفرق ينخفض الى ١٢° إلى ١٦° (كليما ب، ١٩٧٤).

ان انتقال المياه القطبية من نصفى الكرة الأرض كانت العامل الغالب بهذه المرحلة الجمودية، ففي شمال المحيط الأطلسي نزلت المياه القطبية حتى خط الموازية ٤٢° شمالا (ابتداء من وضع قريب من الوضع الحالي أي نحو ٦٠° شمالا) متسببة في انخفاض سريع في الحرارة جنوب خط ٤٢° شمالا، كان المحور المحتمل للرياح الغربية في العصر الجمودي. أما في جنوب هذا الحد، فان النموذج ظل قريبا من النموذج الحالي، وان كنا نلاحظ أن خطوط التحارر، الموجهة نحو سواحل افريقيا، تتسبب، خاصة في الصيف، في مياه باردة نسبيا ناشئة عن ينابيع متفجرة قوية (جاردنر، هايس، ١٩٧٥).

تنتقل الجبهات القطبية ومحور الرياح الغربية نحو خط الاستواء بأكثر من ٢٠٠٠ كلم بالمحيط الأطلسي الغربي وبـ ٦٠٠ كلم في نصف الكرة الأرضية الجنوبي بالنسبة لنفس المحيط (في المحيط الهادي، لم تنتقل الجبهات القطبية الا قليلا في الحقبة الجمودية) وهكذا ندرك انخفاض تسرب الموسمية الى الصحراء (انظر ص ٧ - ٨، مالي، ١٩٧٣) وحالة الجفاف بالمنطقة الساحلية في نهاية الحقبة الجمودية.

### افريقيا

ان التطور المناخي العام لـ ٢٥٠٠٠ سنة الأخيرة بمناطق الصحراء الجنوبية والساحل تكشف عن اتجاه مماثل ابتداء من سواحل المحيط الأطلسي الى سواحل البحر الأحمر. وان هذه الحقيقة الزمنية

تشمل نهاية طور رطب من البليستوسين الأعلى (الذي دام تقريبا ٣٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد) وبداية طور جاف ينتهي حوالي ١٢٠٠٠ قبل الميلاد. ان دراسة الرواسب البحرية بحوض التشاد قد دلت على أن العلاقة بين الأمطار والتبخر (م/ت) كانت كافية لاستمرار بحيرات واسعة جدا منذ ٤٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد الى حوالي ٢٠٠٠٠ سنة (م. سرفنت ١٩٧٣). الا أن الجفاف يمتد بعد ذلك وطيلة الثمانية آلاف سنة الموالية، ويتجاوز بمقدار ٤٠٠ كلم الحدود الحالية نحو الجنوب. ان هذا التحول من حادثة بحيرية الى حقبة جافة جدا ملحوظ أيضا في رواسب بحيرات بلاد العفر حيث استطاع ف. جاس أن يبين وجود حلقات بحيرية ثلاث وقعت في البليستوسين الأعلى ولقد تدهورت البيئة البحرية بين ٢٠٠٠٠ و ١٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وتحتل النباتات النجيلية أعماق بحيرة آبس الناشئة (جاس، ١٩٧٥ م).

ويلاحظ سرفنت (١٩٧٣ م) وف. جاس (١٩٧٥ م) عند تحليلهما المؤلفات الحديثة، تطورا ماثلا طرا على البحيرات الشرقية الإفريقية، وذلك على ارتفاعات وخطوط عرض متفاوتة، وتدل على ذلك أعمال ريتشاردسن وكندل وبتزروليفنغستون بالنسبة لبحيرات رودلف، نكور ونايقاشا، مكدي، البرت الخ. والشكل ٧ يلخص هذه المقارنة و يبين تطورا متماثلا تقريبا لحوالي اثنتي عشرة بحيرة افريقية.

## ١٨٠٠٠ — ١٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد

### خطوط العرض العالية

توافق هذه الحقبة في المناطق ذات خطوط العرض العالية النهاية الجمودية القصوى وتوقف التجمد. إن القبعات الجمودية التي كانت تغطي شرقي أمريكا الشمالية واسكندنافيا والتي بلغت أقصى امتدادها بين ٢٢٠٠٠ و ١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد، أخذت تذوب بسرعة بعد ذلك التاريخ ولم يبلغ غشاء جبال الكورديير في الشمال الأمريكي أقصاه الا حوالي ١٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ثم اختفى في حوالي ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وهكذا فان توقف التجمد بدأ في حوالي ١٤٠٠٠ سنة ق.م. أما في نصف كرة الأرض الجنوبي، فيبدو ان القبة الجمودية القارية في القطب المتجمد الجنوبي لم تتبدل الا قليلا في الناحية الشرقية بينما نقصت كثيرا في الناحية الغربية منه، وتوجد قاعدته تحت مستوى البحر. (المجمع القومي للعلوم، واشنطن ١٩٧٥ م).

### المحيطات

من المؤكد ان المساحات الشاسعة التي كانت تغطيها الثلجات البحرية قد زالت عندما ارتفع مستوى البحر ارتفاعا سريعا نتيجة توقف التجمد. ولقد بلغ ذلك الارتفاع معدل ١٥ م في كل قرن وذلك بين ١٥٠٠٠ و ١٢٠٠٠ سنة ق.م. وفي التاريخ الثاني، من المحتمل أن ذلك الارتفاع تجاوز النصف بل الثلثين. وتحولت في نفس الوقت مياه المحيط الأطلسي القطبية الى خطوط عرض شمالية.



## افريقيا

تعتبر حقبة الجفاف الكبرى الفاصلة بين ١٨٠٠٠ و ١٢٠٠٠ سنة ق. م من الظواهر التي تمتد على أكبر قسم من افريقيا والتي لنا عنها أحسن المعلومات، وذلك ما تعبر عنه بوضوح رسوم تطور المستويات البحرية بالنيجر والتشاد (سرفت، ١٩٧٣) وبلاد العفر (جاس ١٩٧٥) والسودان (ويليمز ١٩٧٥) وفيكنس (١٩٧٥) انظر الرسم ١٢) ولقد مكن اندثار النباتات الرياح من أن تقدم التلال الرملية بقدر ٤٠٠ الى ٨٠٠ كلم نحو خط الإستواء وعلى الهضاب الداخلية المرتفعة. ومن المؤكد ان الصحراء المتوسعة قد كانت طيلة آلاف من السنوات حاجزا في وجه الإنسان عاقه أكثر مما تعوقه الصحراء الحالية. ويبدو ان هذا التجفف قد كان على غاية من الانتشار، وهناك ما يدل على أن جفافا نسبيا بلغ أغلب المناطق الواقعة بين المدارين بافريقيا (دي بلوى، فان زردن باكر... ) في كتاب ويليمز (١٩٧٥)، وآسيا وخاصة الهند (سنغ، ١٩٧٣ م) ولقد استعرض ويليمز (١٩٧٥ م) حديثا المؤلفات المتعلقة بذلك الطور وبين امتداده الإستثنائي وتزامنه التقريبي.

### حوض البحر الأبيض المتوسط

خلفا للتاريخ المناخي السائد خلال التجمد الأخير (منذ حوالي مائة ألف من السنين) والذي يبدو معقدا فيا يتعلق بحوض البحر الأبيض المتوسط (انظر ص ٤١٢) تشهد النتائج البليولوجية (بوناتي، ١٩٦٦ م.) والنتائج البليولوجية (رودنبرغ، ١٩٧٠ م) بان المناخ كان جافا وباردا في النهاية الجمودية القصوى. واحتل سهب جاف جدا منطقة البحر الأبيض المتوسط بين ١٦٠٠٠ و ١٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد وكثرت الغشاءات الكلسية بالأرض.

### نصف الكرة الجنوبي

ان مستويات الحرارة باستراليا التي تشهد بها اللقحات قد هبطت بانتظام في حدود ١٨٠٠٠ أو ١٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، بينما كان الجفاف يحل بالمكان وكانت الهضاب تمتد على المسطحة القارية البارزة (بولر، وآل، ١٩٧٥ م) وكان التجمد يحتل طزمانيا والجبال المكسوة بالثلوج، وجفت بحيرات أستراليا الجنوبية في حوالي ١٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ان الدفء الذي يدل عليه صعود خط الأشجار في المرتفعات (تمبرلين) ابتداء في حوالي ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد ولم يبدأ امتلاء البحيرات الشمالية باستراليا من جديد الا بعد ١١٠٠٠ سنة قبل الميلاد (بولر، وآل ١٩٧٥). ولقد بين فان درهامن ١٩٧٤ م وويليمز (١٩٧٥ م) الخصائص المتشابهة التي تتميز بها مناخات نصف الكرة الأرضية مدة التجمد الأقصى الأخير منذ حوالي ١٨٠٠٠ سنة. وباستثناء الجنوب الغربي من الولايات المتحدة، استمر جفاف عام مدة آلاف عديدة من السنين بمجموع مناطق المعمورة ذات الخط العرضي الأسفل.

## ١٢٠٠٠ سنة — إلى ٠ سنة قبل الميلاد

### خطوط العرض العليا

تختص هذه الحقبة بانتهاء التجمد وعودة دفء ملحوظ، فارتفعت الحرارة الى أقصى درجة فيما بين ٧٥٠٠ و ٤٥٠٠ سنة قبل الميلاد. (الدرجة المناخية القصوى التي لا تزال تدعى «الحقبة الأطلسية»). وسرعان ما ذابت القبة الجملدية للكورديليين واضمحلت في حوالى ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد كما اضمحلت قبة اسكندينايفيا بعد ذلك بقليل (٩٠٠٠ سنة قبل الميلاد). وسجلت تقلبات واضحة وسريعة مع فاصل زمني يقدر ب ٢٥٠٠ سنة (من ذلك تبرّد درياس (DRYAS) الحديث بين ١٠٨٠٠ و ١٠١٠٠ سنة قبل الميلاد).

وسادت في أوروبا الشمالية أحوال تشابه أحوال الحاضر فيما يتعلق بالتلج الذي أصابها في حوالى ٨٠٠٠ سنة وأصاب أمريكا الشمالية نحو ٧٠٠٠ سنة (المجمع القومي للعلوم ١٩٧٥ م) وفي تلك الحقبة أيضا تقلصت القبة الجملدية للمحيط المتجمد الجنوبي.

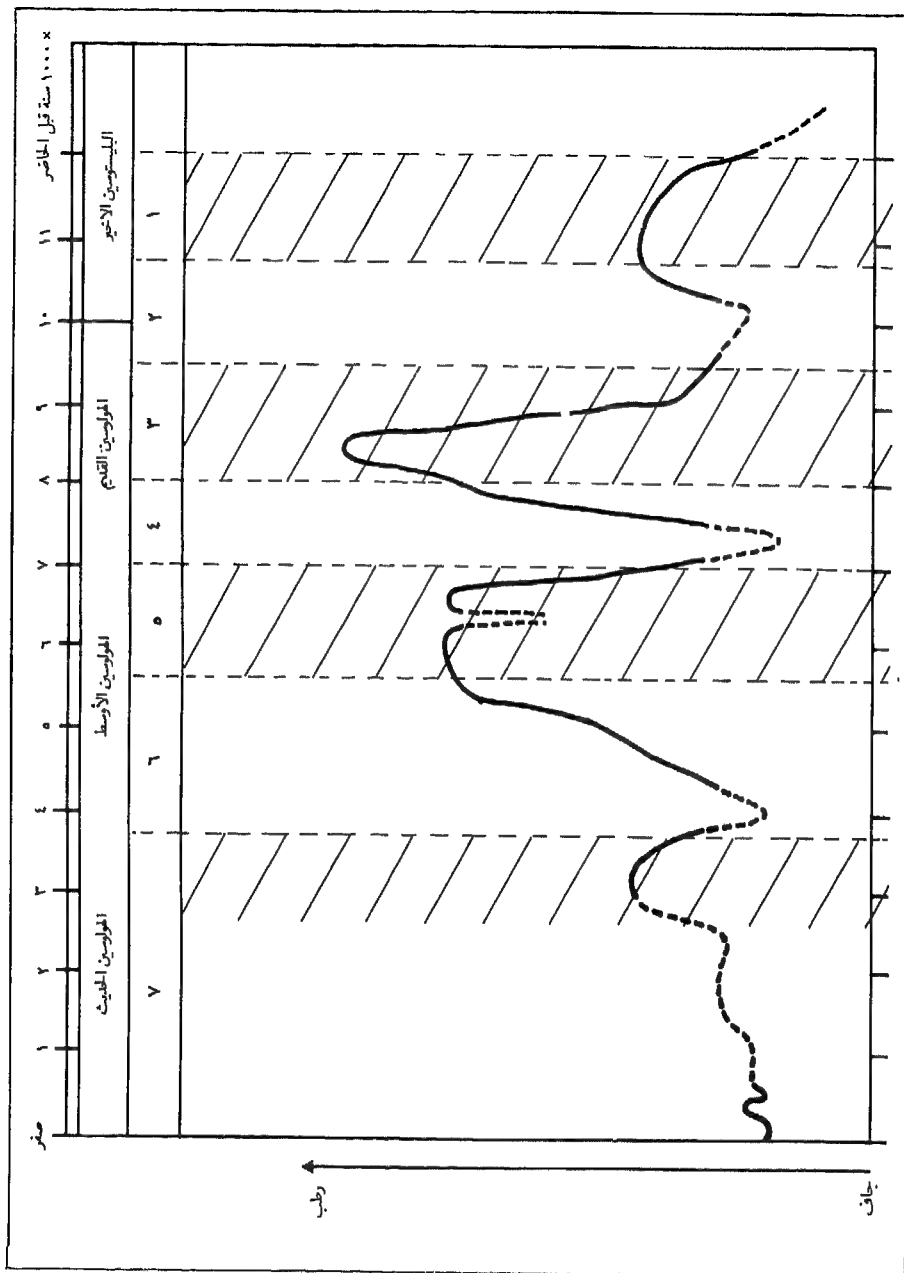
### المحيطات

ان صعود مستوى البحر الذي يسجل معدل ذوبان جميع جوديات العالم، كان لا يزال سريعا جدا بين ١٢٠٠٠ و ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد (أكثر من متر واحد في القرن معدلا، يصاحبه تباطؤ كبير أو انسحاب حوالى ١١٠٠٠ قبل الميلاد). ويبدو أن المحيطات بلغت مستوى يقرب كثيرا من المستوى الحالي ابتداء من ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد، كما يبدو أنه ظل متأرجحا حول ذلك المستوى منذ ذلك العهد، مع الامتداد بقدر لا يتجاوز بعض الأمتار. وتتطابق مع هذا الاتجاه العام تقلبات يشهد بها منحني الصعود الذي يؤكد وجود تحولات مناخية هامة (مورنر ١٩٧٣).

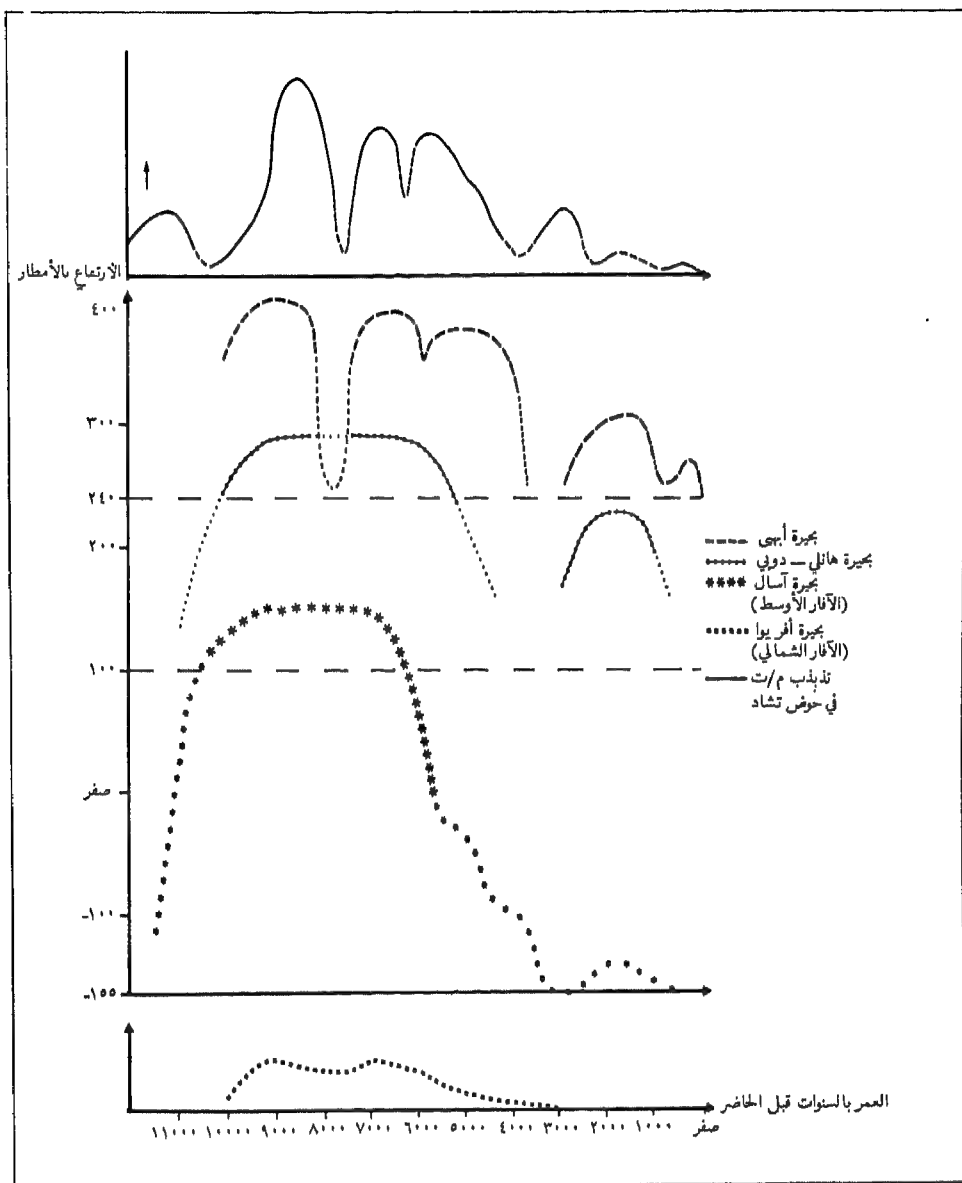
ان مناطق الترسيب البحري التي درسها وولن وأريكسن دراسة كافية، تسمح أيضا بأن نتتبع التبدلات في توزيع الفورامينيفير وخاصة تغير النسبة المئوية للغلوبوروتاليا / ترونكاتولينويد التي لها التفاف مياسر، ان قمم المنحنى الموافقة لها قد توافقت حسب مورنر (١٩٧٣) قم التبدلات المناخية التي سجلتها العلاقات النظائرية لجوديات غروثلاند والسلام البليينولوجية وتقلبات المستوى البحري. وهنا نبلغ حدود الدقة التي تسمح بها طريقة التاريخ الاشعاعي، فلا بد عندئذ من تحشيات خطية بين التواريخ مع اعتبار تحولات مقدار الترسيب. يضاف الى ذلك أن التفاوت في السلم الزمني للكربون ١٤ بالنسبة لسلم الزمن يفرض ادخال تصويبات تجعل من العسير وجود صلات بين الظواهر التي تقاس حدودها باعتبار قرن كامل.

### إفريقيا

لقد شهدت المناطق الصحراوية الإفريقية بعد الجفاف الشديد خلال سنوات ١٦٠٠٠ الى ١٤٠٠٠، وإبتداء من ١٢٠٠٠ قبل الميلاد، توسعا خارقا للعادة في البحيرات انطلاقا من سواحل المحيط الأطلسي الى سواحل البحر الأحمر. وتسمح كل المناطق المنهارة بأن نلاحظ في الواقع رواسب بحيرية متشكلة في أكثر الأحيان من المشطورات.



● شكل ٦ - التطور النسبي للعلاقة بين معدل المطر/البخر منذ ١٢٠٠٠ سنة في حوض تشاد، بين خطي عرض ١٣ و ١٨ شمالاً. وقد تم تحديد هذا التطور بعد دراسة مقارنة للتغيرات في مناسيب عدد من البحيرات التي تشتمل مياهها بصفة رئيسية من الطبقات الجوفية، والسيلان، أو الأنهار. (استناداً إلى سرفانت، ١٩٧٣، ص ٤٠ - ٥٢).



● شكل ٧ - تذبذب مستويات البحيرات في أحواض الافار (العفر). ويحتوي نفس الرسم على المنحنيات الخاصة ببحيرات أبيي، وهانلي - دوبي، وآسال التي ترجع إلى العصر الحجري القديم وتقع في إقليم الافار الأوسط. أما المنحني الخاص ببحيرة أفريرا فهو مستقل، والمقارنة مع المنحني م/ت في حوض تشاد. (استناداً إلى ف. غاس، ١٩٧٥).

وفيا يتعلق بالنيجر والتشاد استطاع م. سرفنت أن يستنتج وجود منحني متواصل يمثل العلاقة م/ت (الشكل ٦) وذلك باعتماد دراسة نماذج مختلفة من البحيرات و باعتبار طرق تزويدها بالماء وأحوالها المائية الجيولوجية والجيومورفولوجية. ان ذلك المنحني المناخي يدل على التبدلات الكبرى التي يبدو أنها تحدث باطراد: من ذلك توسع البحيرات توسعا كبيرا في حوالي ٨٥٠٠ قبل الميلاد وتقلصها في حوالي ٤٠٠٠ قبل الميلاد ووقوع تقلبات طفيفة بعد ٣٠٠٠ قبل الميلاد وتحدث هذه التحولات الأساسية في مختلف بحيرات العفر (جاس، ١٩٧٥) (الشكل ٧)، مع اعتبار بعض الاستثناءات الناتجة عن طرق تزويدها بالمياه. ونلاحظ تشابها واضحا بين منحني التشاد ومنحني رطوبة المنطقة البرية السيبيرية.

ان دراسة البحيرات الافريقية الأخرى تبين اتجاهها تطوريا عاما، متشابه، و يرى ليفنغستون وفان زندرن باكر وجود توافق وثيق بين التطور المناخي بالشرق الافريقي وتطوره بأوربا. و يبدو أن توسع البحيرات الصحراوية الى حدود ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد مرتبط بمطار موزعة توزيعا أحسن طيلة السنة وبضبابية شديدة للتقليل من التبخر. ويعتقد م. سرفنت (١٩٧٣) ان الحركة المناخية كانت مختلفة عما هي عليه اليوم، ان وجود مستويات عديدة من مشطورات مناطق «باردة» يجعله يفترض تسربات محتملة من الهواء القطبي الى الصحراء و يبدو ان النظام المناخي الحاضر لم يستقر الا بعد ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

### نصف كرة الأرض الجنوبي

يحدد بولر وآل (١٩٧٥) اضمحلال الجموديات وتزايد الأمطار في حوالي ٨٠٠٠ سنة ق. م (جبل ويلهلم). وفي نفس الوقت طرأت تقلبات طفيفة وذلك بشمال استراليا وغينيا الجديدة. ولقد كانت حرارة الطقس الوسطى ما بين ٨٠٠٠ و ٥٠٠٠ سنة ق. م. تفوق بدرجة أو درجتين الحرارة الحالية، ويعتبر الحد الأقصى المناخي (حسب قياس الحرارة) حدا ذا قيمة عالمية. وخضعت غابات المناطق المطيرة والحارة (الغابات المطيرة) لأحوال تطور مواتية جدا (منذ الجمودي السابق قبل ٦٠٠٠ سنة) بين ٧٠٠٠ و ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وكذلك الشأن بجنوب استراليا، اذ أن البحيرات الناشئة في ١٥٠٠ قبل الميلاد أخذت تمتلئ في ١١٠٠ قبل الميلاد وعرفت مستويات عالية من ٨٠٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

ويبدو أن الدفء وتزايد الرطوبة المعروفة برطوبة خطوط العرض القريبة من الإستواء ظاهرة عامة برزت مدة النصف الأول من ١٢٠٠٠ سنة الأخيرة، وهي حالة يتميز بها ما بين الجمودي الحالي.

### خلاصة تخص التاريخ المناخي لـ ٢٥٠٠٠ سنة الأخيرة

تعطينا هذه الحقبنة صورة عن التطور المناخي إثر التوسع الجمودي الأقصى (في نهاية حقبة

جمودية) وخلال زوال التجمد الذي أدى الى المابين جمودي الحالي. ويشهد هذا النموذج من نصف دورة في زوال التجمد بجفاف عام دام ٥٠٠٠ سنة بأفريقيا ويميز انتهاء التجمد الذي تبعته مرحلة رطبة لها نفس المدة، متقلبة، عادة تدريجيا الى حالة الجفاف.

ويمكن ان نفسر هذه التقلبات المناخية في مستوى الـ ٢٠٠٠٠ سنة باعتبار تنقل الجبهات القطبية وأثرها على الجبهة ما بين المدارين (فيت: FIT)، وباعتبار النوعين من الحركات: أي السريعة والبطيئة.

ومن الممكن أن يكون هذا النموذج معبرا عن أحوال أخرى مشابهة ومن نفس السلم في الدهر الرابع، أي الاحوال التي كانت لها نفس المدة ونفس السعة. الا أنه لا يوجد ما يسمح بتعميم ذلك على مجموع حقبة جمودية مدتها ١٠٠٠٠٠ سنة، كما لا يمكن أن نعمم بالاحرى على مجموع التجمدات الحاصلة في الدهر الرابع والتي دامت ملايين عديدة من السنوات. واعتبارا لما سبق، سندرس الآن تاريخ حقبة جمودية في مجموعها.

## التاريخ والمناخات منذ ١٣٠٠٠ سنة

ان الـ ١٣٠٠٠ سنة الأخيرة (أو البليستوسين الأعلى) تسمح بدراسة نموذج مناخي تطبيقي في مستوى زمني يتعلق بحقبة جمودية — بين جمودية كاملة. إن تاريخ تلك الحقبة يتجاوز تجاوزا كثيرا امكانيات التاريخ بشاعاع الكربون التي مكنت من اثبات التتابع الدقيق نسبيا (بقياس القرن أو الالف سنة بالتقريب) للـ ٢٥٠٠٠ سنة الأخيرة، الا أن هذا الفاصل الزمني الموافق لما بين الجمودي الكبير الأخير (الايبي السابق للحالي)، وللتجمد الكبير الأخير (وورم = فسكنسي = فايشسلن = فلداي) أصبح معروفا نسبيا اعتمادا على ضبط زمني من درجة ١٠٪ أو ٢٠٪ فيما يتعلق بجزئه الأكثر قدما.

ان تعميم سرعات الترسيب المعروفة، وتطبيق مناهج عدم توازن الاورانيوم والبوتاسيوم — آرغن الى الحد الأقصى من إمكانياتة يوفران لنا في المحيطات وفي الأحواض الترسيبية، معطيات تاريخية اضافية. ان الادمج الخطي بين نقطتين مؤرختين من سلسلة متواصلة، تسمح بوضع تاريخ تقريبي، الا أنه لا يمكن تدقيق علاقات الترابط البعيدة تدقيقا كافيا اذا اعتبرنا الأحداث في مستوى زمن يكون دون بعض آلاف السنين. فيمكن أساسا ان نحدد أحسن تحديد الاتجاهات العامة التي تم حقبة متوسطة (١٠٠٠٠ سنة) والتي يمكن مقارنتها بالنسبة الى منطقة وأخرى.

## مقارنة بين المناطق

### خطوط العرض العليا

ان نباتات البين جمودي تبين أن الحرارة بأوراسيا وأمريكا تقريبا حرارة الحقبة الأطلسية (بين ٧٠٠٠ و ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد) وذلك طيلة أطوار هذا البين جمودي الأكثر حرارة (بين ١٢٥٠٠ و ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد) وهذا يعني أنها كانت مختلفة قليلا عن الحرارة الحالية. وقد حدث هذان

البين جموديان فجأة بعد برد كبير (آخر طور بارد جدا لر يس: ١٣٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد وآخر طور بارد جدا لوورم: ٢٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد).

### المحيطات

يسجل تفاوت مستوى المحيطات تسجيلا حسنا الحدين الجموديين الأقصىين، باعتبار انخفاضات هامة في الحرارة ( $- ١١٠ \pm ٢٠$  بالنسبة للحد الأقصى الثاني في حوالي ٢٠٠٠٠ الى ١٨٠٠٠ سنة) وتشابه المستويات العليا المسجلة التي وقعت خلال البين جموديين الايمي والحالي (بنسبة ٥% بالتقريب) وقد تكون ارتفاعات مستوى البحر مدة بين الطورين (٤٥٠٠٠ و ٣٠٠٠٠) بلغت ما بين ٦٠ و ٨٠% من الارتفاع الأقصى (انشيري موريتانيا مثلا)، مما يؤكد ذوبان كتلة جمودية مساوية مدة ما بين الطورين.

### افريقيا

من المحتمل أن يكون أثر الظواهر الجمودية، على غرار ما يجري في المحيطات، أقل وقعا في خطوط العرض القريبة من خط الاستواء. ان اختلافات الحرارة من طور جمودي الى طورين جمودي والبالغة ٥° الى ١٠° في خطوط العرض الوسطى، يمكن أن تتراوح بين ٢° الى ٣° في خط الاستواء. أما الظاهرة التي يمكن تسجيلها بسهولة في افريقيا، فهي توزيع الامطار وكمياتها.

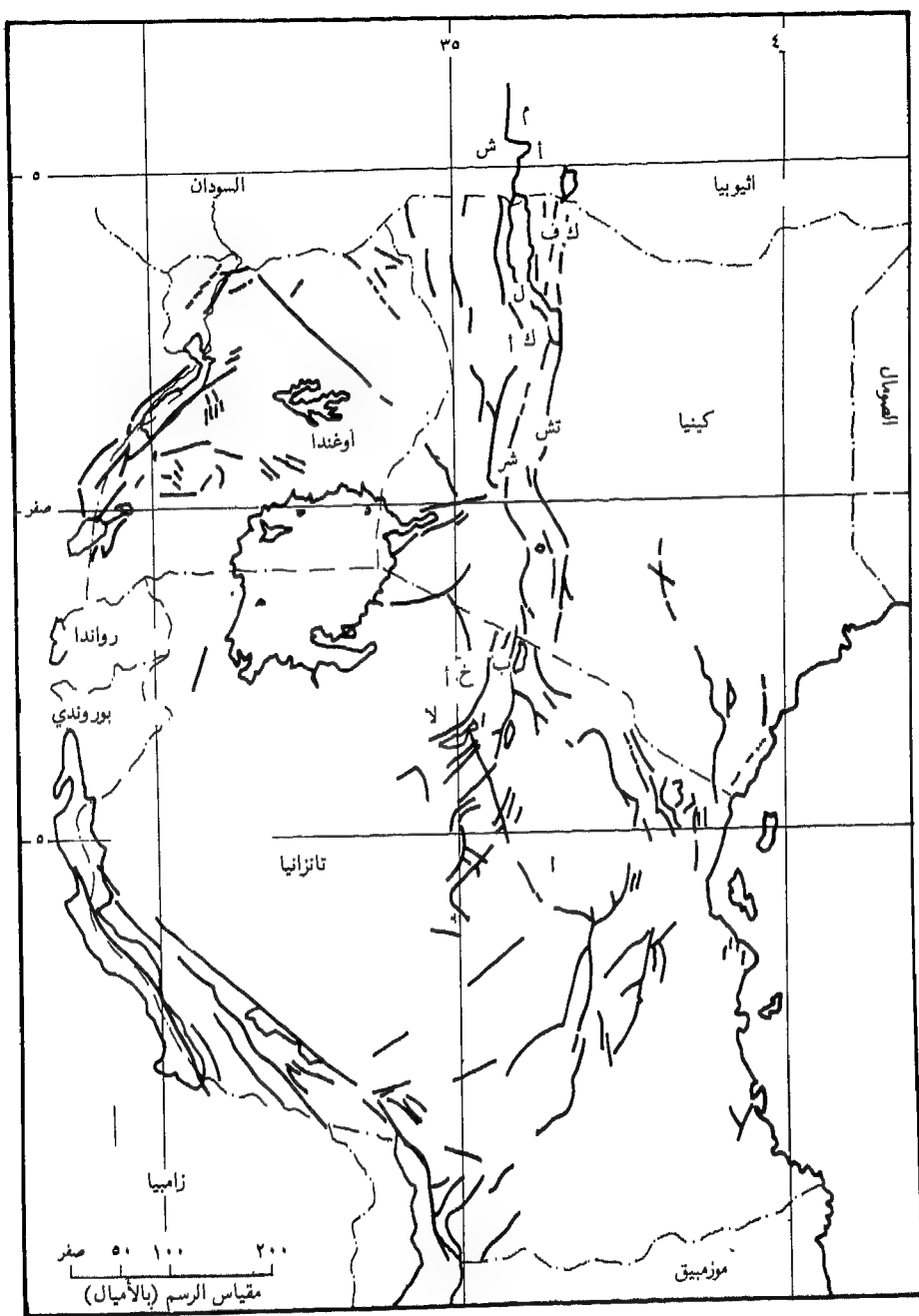
ان المناطق الافريقية التي توفر لها تأريخ قياسي اشعاعي مضبوط ضبطا محكما بالنسبة لـ ١٣٠٠٠٠ سنة الأخيرة، عددها قليل. الا أن سبر بحيرة أبيي (ABHE) قد مكن ف. غاس (١٩٧٥م) من أن يبرز ثلاثة أطوار بحيرية بالبليستوسين الأعلى قبل وقوع التجحف من ٢٠٠٠٠ سنة الى ١٤٠٠٠ سنة. وأليك هذه الحقبات البحرية المعتبرة: حقبة ٣٠٠٠٠ سنة الى ٢٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد (المناخ رطب استوائي معتدل)، يفصلها عن توسع بحيري آخر وقع منذ حوالي ٤٠٠٠٠ الى ٣٠٠٠٠ قبل الميلاد تقلص هام وقع منذ حوالي ٣٠٠٠٠ سنة. ولذلك قد يعود تاريخ أقدم طور بحيري الى ٥٠٠٠٠ أو ٦٠٠٠٠ سنة (أو ربما ٦٠ — ٨٠٠٠٠ سنة) و يوافق، حقبة أكثر برودة تدل عليها المشطورات النباتية.

لقد وفرت لنا دراسة اللقاحات بالوادي الاعلى من آواش في بلاد العفر علامة أخرى عن تحول مناخي تاريخه غير مضبوط يعود الى البليستوسين، حيث استدل ر. بونفي (١٩٧٣م، ١٩٧٤) على وجود مناخ أكثر رطوبة من المناخ الحالي، ومن المحتمل أن يكون أبرد منه، وهو خاص بالسهوب الواقعة في المرتفعات.

### حوض البحر الأبيض المتوسط

ان حوض البحر الأبيض المتوسط الكائن بين المنطقتين الجغرافيتين المدرستين سابقا يشكل ميدانا مناخيا هاما ويدو تطوره معقدا. ولا يمكن أن نعتبر بصفة خاصة أن التجمدات قد مكنت بكل بساطة استقرار مناخ رطب به.

فلقد توصل فاران (١٩٧٧) بعد تحليل الدراسات البلبلجية والميكرو بليونولوجية والنظائرية التي جرت بالشرق من البحر الأبيض المتوسط، واليونان، واسرائيل (قام بهذه الدراسات ايلياني،



● شكل ٨ - خريطة المواضع الاحفورية من عصر البليو-بليستوسين في شرق افريقيا.  
 المفتاح: م = مورسي، أ = أوسنو، ش = شونجورا، أي = ايليرت، ك ف = كوني فورا، ل = لوثاغام، ك/أ = كلنابوي وايكوراء شر = شرمون، تش = تشيسووانجا، ك = كانام، ب = بنينج، خ أ = خافق اولدوفاي، لا = لايتوليل - سهل سرينغيتي. والخريطة مأخوذة في جانبها الأكبر من الخريطة الجيولوجية المرسومة بمقياس ١:٤٠٠٠٠٠٠ لشرق أفريقيا (كينيا). (استنادا الى ف. كلارك هويا، ١٩٧٢).



[illegible]

١٩٥٥ وفرنو - كرازيني، وهرمن - روزنبرغ، ١٩٦٩، وويمسترا ١٩٦٩ وفان درهامن، ١٩٧١، ورويسنيول، ١٩٦٩، وايسار، ١٩٦٨، وايسار وبيكار، ١٩٦٩) الى النتيجة التي تفيد أن انخفاض الحرارة مدة التجمد الأخير قد يكون بمعدل ٤° بالنسبة للفضاء وبمعدل ٥° الى ١٠° بالنسبة للبحر. ولقد كان الجفاف أكبر باليونان طيلة الحقبة الجليدية بينما جرى عكس ذلك على سواحل اسرائيل. وعلى النقيض من هذا، فإن دراسة البقايا الصغيرة من الثدييات (القواضم) (انظر تشرنوف، ١٩٦٩ بكتاب فاران، ١٩٧١) قد تفيد تطور أحوال جوية رطبة تطورا تدريجيا نحو أحوال جوية جافة مدة الـ ٨٠٠٠ سنة الأخيرة. ولقد انخفض مستوى بحيرة لسان باسرائيل في حوالي ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد بمقدار ١٩٠ في ظرف ١٠٠٠ سنة بسبب انتشاف (متربط مع حركة بنيوية أدمية بالرفت في البحر الأحمر). ولقد سبق أن رأينا (ص ٤٠٣) أن انتهاء التوسع الأقصى من برد وورم يوافق أحوالا جوية باردة وجافة في مجموع البحر الأبيض المتوسط. ان تعقد الحالة الجغرافية المناخية بحوض البحر الأبيض المتوسط مازال يستوجب كما هو الشأن بافريقيا، دراسات مفصلة ستفيد في ضبط تطور المناخ باعتبار طور وورم.

## خلاصة تتعلق بالتاريخ والمناخات منذ ١٣٠٠٠ سنة

توفر الحقبة الجليدية الأخيرة نموذجا عن دور مناخي كامل يقاس بحوالي مائة الف من السنوات (بين جمودي — جمودي — بين جمودي) مع اعتبار تقلباته البين طورية والطورية التي دامت تقريبا ١٠٠٠٠ سنة. ولقد تميزت هذه الفترة بافريقيا بتوسعات بحيرية (مدتها تقارب الاولى)، تفصلها أطوار من التجفاف.

ان التدقيق التاريخي لا يسمح نظرا الى معارفنا الحالية، بربط الصلة ربطا مؤكدا بين الاطوار الباردة أو الدافئة مع الأطوار الرطبة أو الجافة بافريقيا. ونحن نأمل ان نحيب على هذه المسألة في المستقبل، الاعمال الجارية المعتمدة على مقاطع واستبارات تدل على تتابع متواصل في الأحداث.

## التاريخ والمناخات منذ ٣٥٠٠٠٠٠ سنة

ان الاتجاه البطيء نحو البرد الذي يميز الدهر الرابع، ابتداء منذ ٥٥ مليون سنة تقريبا (انخفاض المناخ في الدهر الحديث) (المجمع القومي للعلوم ١٩٧٥). ان القبة الجليدية بالقطب الجنوبي التي تشكلت منذ حوالي ٢٥ مليون سنة، قد ازدادت كثيرا منذ حوالي عشرة ملايين سنة ثم حوالي ٥، أو ٤ ملايين سنة، اذا كادت تبلغ عندئذ حجمها الحالي. وظهرت قبة القطب الشمالي المبسوطة على القارات المجاورة للمحيط الاطلسي الشمالي منذ حوالي ٣ ملايين سنة. وابتداء البرد الاكبر الأول الطاريء على جميع المحيطات منذ حوالي ١٨ مليون سنة (انظر بندي في كتاب بيشوب، ميلر ١٩٧٢) وذلك قبيل قاعدة الطبقة البحرية «كالابري» عند حدوث جيلسا (١٧٩ مليون سنة).

لقد زودتنا مناطق عديدة من افريقيا (تشاد، افريقيا الشرقية الخ) بحيوانات فقيرة وافرة، فاعتبرت انها ترجع الى عهد الفيلافرنشي (بين ٣٣ و ١٧، أو مليون سنة). ولكن بعض المجموعات من الثدييات تدعو الى الاعتقاد بوجود أحوال من الرطوبة تفوق الرطوبة التي تختص بها البيئة الحالية للطبقات المعدنية. ولذلك فلقد اعتبرت دليلا على أنها ترجع الى عهد «المطارات» بافريقيا.

ان الطبقات الأكثر تفصيلا، المعتمدة على تاريخ (أ/ك) وجيولوجي مغناطيسي، هي ترسبات الاغوار (رفت) بالشرق الافريقي. ففي هذا النوع من الملء الرسوبي يكون ابراز أثر المناخ أعسر مما هو على بنية الأرض أو في البراكين أو في التغيرات الطبوغرافية مما حدا بالمؤلفين الى أن يتركوا حاليا اعتماد تسلسل مناخي مفصل. وعلى النقيض من ذلك فان التأريخ الطبقي يعتبر أمرا ثابتا ويعتبر مرجعا من المراجع العالمية.

ان التسلسلات الرسوبية المؤرخة، الموجودة بمختلف الطبقات الفقيرة أو البشرية بافريقيا الشرقية (الشكلان ٨ و ٩) هي:

— اومو (بأثيوبيا): يختص بتشكيل طبقي هو تشكل شنغورة البالغ سمكه تقريبا ١٠٠٠ م وتتراوح مدته ما بين ٣٢ الى ٨ مليون سنة (اعتمادا على هنزليين، وبروان، وهول ١٩٧١م، وكوبنس، ١٩٧٢م وبيشوب، وميلر، ١٩٧٢م، وهول، ١٩٧٢م، وبروان ١٩٧٢م، ١٩٧٥م).  
ان دراسة اللقاحات لتشكيل شنغورة قد أبرزت تحولا مناخيا هاما استحال الى الجفاف وذلك منذ مليوني سنة، ونموساسب عشبية من النجيليات (بونفي ١٩٧٣م، ١٩٧٤م). وتؤكد دراسة الحيوانات هذا التحول. ويمكن أن تقترح موازاته بحقبة برد عالمي طرأ على المحيطات (٨ مليون سنة).

— أولدواي (طانزانيا): ان تسلسل التشكلات الكلاسيكية وتأريخها هو كما يلي

— مجاري ندوتو ٠.٣٢ مليون سنة

٠.٤

٠.٦

— مجاري ماسين

٠.٨

مجرى ٤

١.٥

مجرى ٣

(الكنكري القديم)

١.٧

مجرى ٢

٢.١

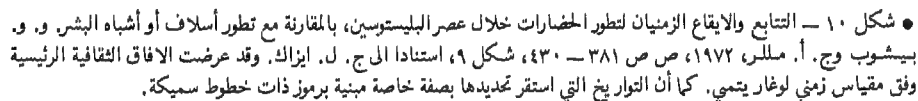
مجرى ١

(الكاماسي القديم)

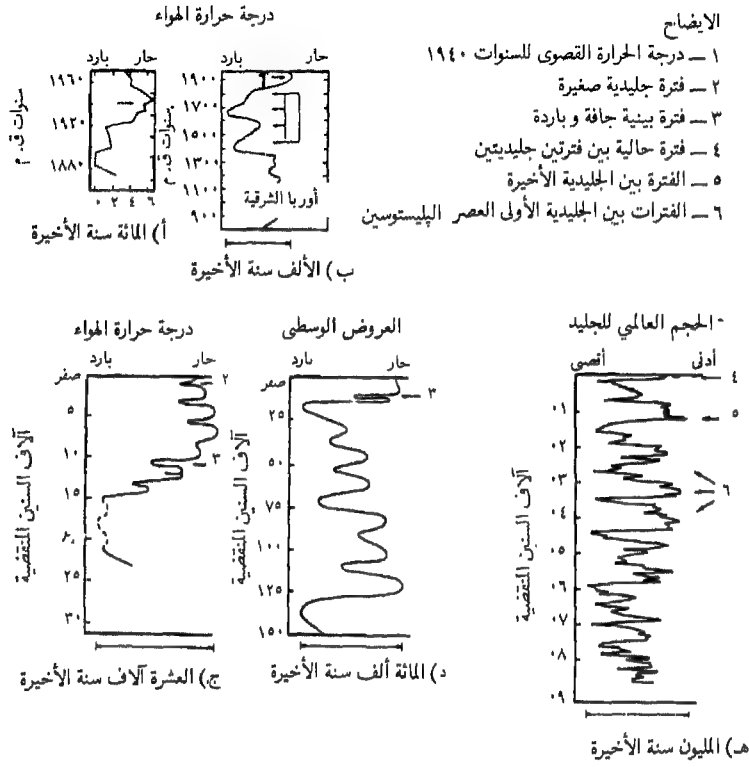
(بالاعتماد على ليكي وكوك، وبيشوب ١٩٧٦م، وهول، ١٩٧٢م، وهاي، ١٩٧٥م)

— شوقي رودولف (كينيا): ان الطبقة المخصصة في الشكل ١٠ والتي وضعها بروك واسحاق (١٩٧٤) تهتم ٣٢٥ مترا من الترسبات التي تمتد على الزمن المتراوح بين ٣٥ الى ١٥ مليون سنة (اعتمادا على بوون، وبروك، واسحاق، وفندرا، ١٩٧٤م).

— هدر، في العفر الأوسط (اثيوبيا): ان التشكلات البشرية ذات الأحفورات الوفرة الموجودة في هدر، في العفر الأوسط، التي درسها المجموعة (المتكونة من البعثة الدولية من أجل البحث بالعفر) تعود الى حوالي ٣ ملايين سنة حسب يوهنسن والطيب ومجموعتها (١٩٧٤، ١٩٧٥).



## الاختلافات المناخية



● شكل ١١ - الاتجاهات العامة للمناخ في العالم منذ مليون سنة.

أ) تغيرات المتوسط الحامسي لدرجات الحرارة السطحية في المنطقة بين خطي عرض صفر و ٨٠ شمالاً خلال المائة سنة الأخيرة (ميتشل ١٩٦٣)؛ ب) مؤشر قسوة الشتاء في أوروبا الشرقية خلال الألف سنة الأخيرة (لام، ١٩٦٩)؛ ج) الاتجاهات العامة لدرجات حرارة الهواء في العروض الوسطى لنصف الكرة الشمالي خلال ١٥ ٠٠٠ سنة الماضية، طبقاً للارتفاعات القصوى للأشجار (لامارش، ١٩٧٥)، والتغيرات الهامشية في التلججات الجليدية والقارية (دنتون وكارلن، ١٩٧٣)، وتغيرات الغطاء النباتي التي سجلت من مجموعات القلح (فان دير هامن وآخرين، ١٩٧١)؛ د) الاتجاهات العامة لدرجة حرارة الهواء في نصف الكرة الشمالي خلال الـ ١٠٠ ٠٠٠ سنة الماضية، وفقاً لدرجات حرارة المياه السطحية في العروض الوسطى، وبيانات الباليونتولوجيا (دراسة البطون الاحفوري) والبيانات العالمية الخاصة بمناسيب البحار؛ هـ) التغيرات في حجم الجليد العالمي منذ مليون سنة، وفقاً لتطور التكوين النظائري للبلانكتون الاحفوري في القبة تحت البحرية ٢٣٨ - ٢٨ (شاكتون واوبدايك، ١٩٧٣).

ان الاعمال الجارية حاليا بتلك المناطق من الشرق الإفريقي ستسمح في بضع سنوات باقتراح تطور مناخى جديد يعتمد على الرسوبية وعلى علم البيئة النباتي والحيواني و يأخذ بعين الاعتبار تداخل العوامل البنيوية والبركانية. ولقد درست دراسات مكثفة مناطق أخرى من أفريقيا مثل سوارا (أثيان وجماعته، ١٩٥٩م، اليان ١٩٧٥م) ووادي النيل (وندورف، ١٩٦٨م، بوتزروهنسن، ١٩٦٨م، وهنزلين، ١٩٦٨م، وفيغنباك، ١٩٦٨م، وسعيد (تحت الطبع) والتشاد (كوبنس، ١٩٦٥م وسرفنت، ١٩٧٣م)، وأفريقيا الشمالية. ان التحولات المناخية المقترحة تعتمد على تسلسل الترسيبات والتحفرات النهرية، أو على تعاقب الحيوانات الثديية، ولا يمكن الآن، لا سيما عند فقدان تأريخ بالقياس الاشعاعي، أو المغناطيسي الطبقي، أن نربط هذه التحولات بالتقلبات الجيومودية الأوربية.

## الخلاصة

ان تزايد الانخفاضات الحرارية بالمعمورة، المربوط بتغيرات المناخ عبر الزمن من مميزات السينوزويك الأعلى منذ ٥ ملايين سنة. ولقد تسبب على مستوى خطوط العرض القطبية في تغيرات حرارية هامة، كانت أساسا للحقبات الجيومودية والحقبات بين الجيومودية. ان التقلبات الحرارية تضعف نسبيا في مستوى خطوط العرض بين المدارين. الا أن التقلبات الطقسية التي يشوشها تعزيز أو ضعف الجبهات القطبية، تتسبب في تغيرات هامة في توزيع الأمطار وكمياتها التي تساهم في تبديل محيط مختلف المناطق المناخية تبديلا عميقا. ان هذه التغيرات المناخية عندما تحول دوريا الوسط الجغرافي والنباتي، وهواطار حياة الحيوان وتطور البشر، تنظم تاريخ تطور إفريقيا بطريقة أكثر خفاء من طريقة الجيوموديات بأوروبا.

ان ما يجدر الاحتفاظ به من هذه اللوحة السريعة عن حالة معارفنا المتعلقة بالتأريخ والتغيرات المناخية بأفريقيا، هو ضرورة متابعة رصد الأحداث الملحوظة والمقيسة قبل أن تجمد معارفنا المتناثرة في قالب نظرية متحجرة. ولا بد من جهة أن نعتبر أهمية السلم الزمني المتصل بمختلف المظاهر من تغيرات المناخ، فيجب أن ننتبه الى وضع كل مشاهدة وكل ظاهرة في سلم الزمن الذي تنسب اليه. وذلك ما يشهد به الشكل ١٤، المأخوذ من مؤلف المجمع القومي للعلوم (١٩٧٥م)، حيث ذكرت أمثلة خمسة من التغيرات المناخية باعتبار سلام من الزمن تتراوح بين القرن ومليون سنة.

## الفصل السابع عشر

# ظهور الانسان المشاكل العامة

القسم الأول

بقلم: ل. بالوت  
واي. كوينس

## المعطيات الاحاثية

الإنسان حيوان ثديي، وبعبارة ادق حيوان ثديي مشيمي (١). وهو من فصيلة المقدمات (Primates).

### المعايير الاحاثية (Paléontologiques)

تختلف المقدمات التي ينتسب إليها الإنسان عن الثدييات الأخرى المشيمية بنمو المخ المبكر، وتحسن الرؤية المجسدة للأشكال، وصغر الوجه، والاستعاضة عن المخالب بأظفار مبسطة، ومقابلة الإبهام للأصابع الأخرى. ان المقدمات تنقسم الى ما قبل القردة والى القردة. وينتسب الإنسان الى القسم الثاني الذي يتميز بتزايد القامة، وانتقال محاجر العينين الى القسم الأمامي من الوجه، مما كان له أثر في تحسن الرؤية واستقلال الفراغين الصدغيين.

ولقد حدث فجأة انقلاب في أشكال تلك القردة، وذلك في الأوليفوسين الأعلى منذ حوالي ٣٠٠٠٠٠٠ سنة، مما يجعلنا نفترض أن تميز فصيلة البشريات يمكن أن يعود الى ذلك العهد. ان كتابة تاريخ هذه البشريات يستوجب ان نبحث في تلك الأحفورات التي تتجه ميولها التطورية نحو الصفات المميزة للجنس البشري الذي نحن منه، ومن ذلك خاصية الرجلين وما ينتج عنها من تغيرات في القدم، والرجل، والحوض، واتجاه الدماغ، ونسبة العمود الفقري ونمو الجمجمة وصغر الوجه، واستدارة قوس الأسنان وصغر الأنثياب، وتعمق الحنك الخ.

(١) تمثل الثدييات أكثر ما تطور من أقسام الفقريات الجنس، وتعتبر الثدييات المشيمية أكثر الثدييات تطوراً اذ لها عضواً جديداً، وهو المشيمة الصالحة لتنفس الجنين وتغذيته.

ان قرد بروبليو (Propliopithèque) الذي عاش في الاوليغوسين الأعلى يتميز الى حد ما ببعض تلك الصفات، مما نشأ عنه حماس سابق لأوانه عند بعض المؤلفين الذين يعتبرونه من جنسنا.

أما الصفات الملحوظة عند قردة راما (Ramapithèque)، فتبدو أكثر دلالة، اذ يظهر ان المخ قد بلغ عندها ٤٠٠ سنتمتر مكعب واصبح الوجه أصغر، واستدار قوس الأسنان، ونبتت بشكل عمودي الثانية والأنياب التي أصبحت أصغر أيضا. وبما أن مقعدا بشريا آخر، وهو قرد أوريو (Oreopithèque) الذي عثر على هيكله كاملا، بما أنه يتصف بنفس الصفات الخفية وبحوض يناسب من يشي أحيانا على رجلين، لذلك يمكن لنا أن نفترض أن الهيكل الواقع أسفل المخ عند قرد راما الذي لم يعثر عليه بعد، قد يشمل هو أيضا على كل هذه الصفات الأولى المناسبة لاستقامة الجسم.

أما الصفات التطورية الخاصة بقردة أسترالو (قردة الجنوب Australopithèque) فانها لا تدع مجالاً للشك، فهي تمشي دوما على رجلين، ولما قدم انسان، ويد عصرية جدا ومخ متزايد الحجم، وأنياب صغيرة ووجه مصغر، فلا بد اذن من ان نعتبرها من البشرات. يتميز جنس الإنسان الذي يأتي في نهاية السلسلة، عن قردة أسترالو، بتزايد القامة، وتحسن في الوقوف مستقيما، وتزايد في حجم المخ الذي كان يبلغ بالنسبة لأقدم الأنواع ٨٠٠ سنتمتر مكعب، كما يتميز بتحول في الأسنان يتمثل في غوا الأسنان الامامية بالنسبة للأسنان الجانبية وذلك إثر تغير نظامه الغذائي النباتي الى نظامه الغذائي القارتي (ياكل كل ما يجده).

ومن هنا ونرى أن طريقة عمل الباحث الإحاثي (Paléontologist) تستوجب دراسة تشريحية مقارنة ودينامية على السواء. واعتبارا أن التطور ينطلق دائما من البسيط الى المعقد، ومن العام الى الخاص، وجب عليه أن يعثر على أحفورات صالحة للمقارنة وتكون، مع اعتبار العمر الجيولوجي، على درجة من الاختلاف عن الإنسان الذي يبحث عن أسلافه.

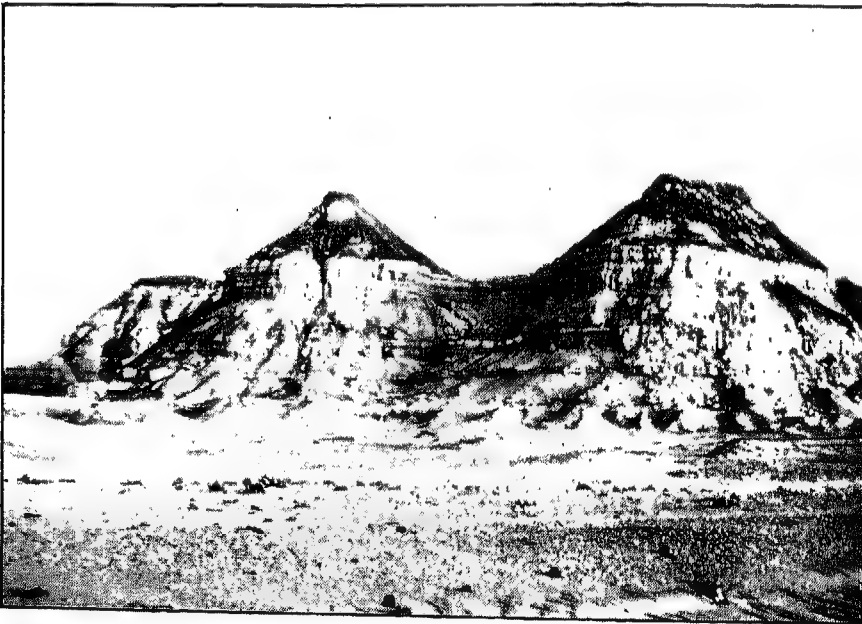
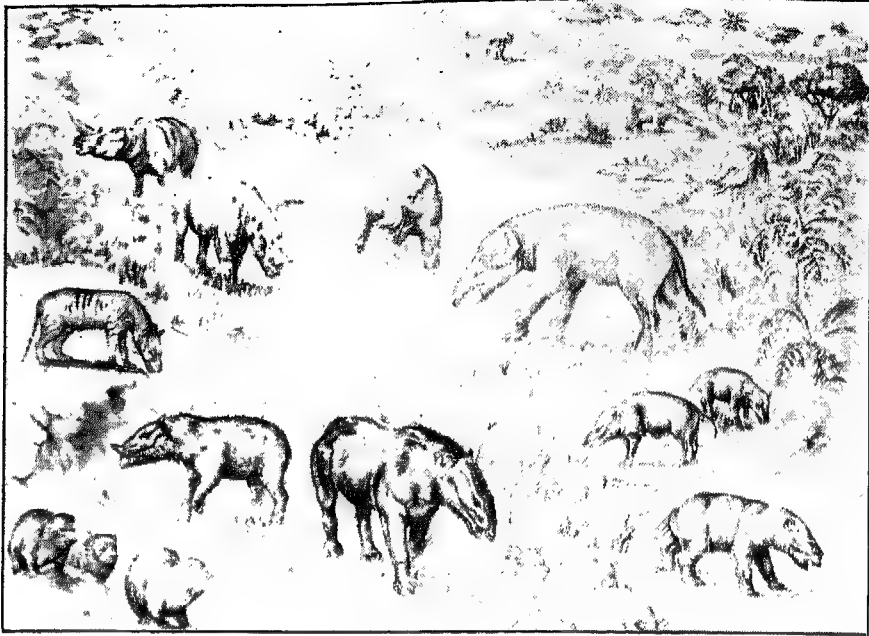
ان أقدم المقدمات هي مخلوقات ما قبل القرد (Prosimiens) التي تمثلها اليوم الليموريات الملعاشية، والترسيات الفيليبينية والاندونيسية، والغالاغوس الصغير في افر يقيا المدارية وقد انقسمت القردة منذ الايوسين (٢) الى مجموعتين كبيرتين: الفنتاسيات (٣) أو قردة العالم الجديد، المستعرضة الأنوف والتي لها ٣٦ سنا، وسفليات المنخرين، أو قردة العالم القديم الرقيقة الأنوف والتي لها ٣٢ سنا.

وستنقسم سفليات المنخرين الى عدد من الأسر وهي الذبالات، والبنجديات، والبشريات والشقوق، وقردة الجبال وقردة سيفا والقردة العملاقة الخ.

(٢) انشا نذكر ان الزمن الجيولوجي ينقسم الى عهود: الأول، والثاني، والثالث، والرابع. ولقد ظهرت المقدمات البشرية في آخر العصر المهد الثاني، وذلك منذ ٧٠ مليون سنة وأخذت تتطور منذ العصرين الثالث والرابع. وينقسم العهد الثالث الى خمسة طبقات وهي، ابتداء من اقدمها الى أحدثها، البليوسين، والايوسين والأوليغوسين والميوسين والبليوسين. أما العهد الرابع فانه لا يشمل الا طبقتين: البليستوسين والهولوسين.

(٣) يوجد في آخر هذا الفصل معجم يفسر معاني مختلف المصطلحات العلمية المستعملة.





- (١) إعادة بناء بيئة الفيوم كما كانت منذ ٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠ سنة. رسوم برتولتشييني — غايار باشراف إيف كوبان، معرض أصل الإنسان، متحف الانسان (سبتمبر/أيلول ١٩٧٦ — أبريل/نيسان ١٩٧٨)، (تصوير: إيف كوبان)، مجموعة متحف الانسان.
- (٢) طبقات عصري الايوسين والاوليغوسين في الفيوم، مصر. مجموعة متحف الانسان (تصوير الوين سايتون).

## ما بين ٢٠ و ٤٠ مليون سنة

ليس من السهل أن ندرك ما عسى أن يكون قد وقع بالايوسين والأوليغوسين، أي بين ٢٠ و ٤٠ مليون سنة، لأن المنافذ المفتوحة على هذا الماضي قليلة.

الا أن الموقع الرائع الموجود بالفيوم، على بعد بعض الكيلومترات من القاهرة، قد زود مختلف البعثات التي أتت لاستقاء المعلومات منه، بأنواع مدهشة من المقدمات البشرية وهي: شبه القرد، والقرد الذبائي ذو الذيل الاوليغوسين، وقرد ما قبل البليستوسين، وقرد الريح، وقرد مصر. ان شبه القرد والقرد الذبائي ذا الذيل يختصان بثلاثة أضراس أمامية أي ٣٦ سنا مثل ما بعد القرديات ومثل قردة العالم الجديد، أي الفطاسيات. ويوجد جنس ثالث، له مرفولوجية مشابهة، وهو القرد البري — المائي الذي يوجد في بورما.

وهناك خصائص كثيرة وأخرى تجعل هذه المقدمات البشرية شبيهة بسفليات المنخرين التي تختص بـ ٣٢ سنا. ويتعلق الأمر هنا بأسلاف سفليات المنخرين. ان أول نظرة الى الوراء تبرز لنا كيف أصبح السبيل ممهدا لظهور ما قبل البشر، ويستدل عليه بمرحلة سفليات المنخرين ذات الـ ٣٦ سنا وبثلاثة أشخاص، وهي شبه القرد، والقرد البري — المائي والقرد الذبائي.

ويختص قرد الأوليغوسين، وقرد ما قبل البليستوسين، وقرد الريح وقرد مصر، بضرسين أماميين. فيتعلق الأمر بسفليات المناخر ذاتها التي لها ٣٢ سنا. ان قرد أوليغوسين، وهو مقدم بشري صغير ذو ٣٠ سنتمترات علوا يختص بأضراس من النوع البدائي، ويدل على أنه من طبقة القرد الذبالي. فهو أقدم مقلّم بشري معروف له ٣٢ سنا. أما قرد الريح فانه يختص بأنياب كبيرة وأضراس لها حديبات مستقلة. ويحتمل أن يكون سلفا للجيونوات أو الشقوق (Gibbons). وتوجد قرابة بينة وبين قردة (البليوبيتيك)، من الميوسين بأوربا، وقردة البحيرات (اللمنوبيتيك). من الميوسين بالكينيا والأوغندا.

ويختص قرد مصر أيضا بأنياب كبيرة وأضراس أمامية متغايرة الشكل (٤) إنه سلف قردة الدريوبيتيك التي عثر عليها بالعالم القديم، ويحتمل أن يكون سلفا للشمبنزي. ويختص قرد ما قبل البليستوسين بأنياب أضعف وبضرس أول سفلى له حديبة ونصف. ويعتبر أنه فاتحة لتشابه أشكال الضرسين الأسفلين، اللذين تختص بهما البشرىات. فهل يعني ذلك أنه سلف المجموعة، أم أنه بكل تواضع للسلف المشترك للقردة الكبرى وللإنسان أم أنه أصبح بنجديا؟.

ومهما كانت درجة القرابة، فان أهمية تلك الفترة بالشمال الشرقي من افريقيا، منذ ٣٠ مليون سنة تبين وجود تنوع كبير في المقدمات الصغيرة التي أذنت بالمقدمات الحالية كلها، أي القردة الذبالية، والبنجديات، والهيلوباتيديات، والبشرىات. وذلك يعني أن جميع الاتجاهات الأساسية قد تحققت.

(٤) الأضراس الأمامية والأضراس لها تيجان تفصلها شقوق في شكل حديبات صغيرة تدعى المذائق أو الحديبات، ويتشابه الضرس الأول الأسفل عند القردة الكبرى (البنجديات) الناب وله مذائق، ويشبه ذلك السن عند البشرىات ضرسا أماميا ثانيا وله مذلق فيتعلق الأمر في الحالة الأولى باختلاف أشكال الأضراس، وفي الثانية بتشابه الاشكال.

## ما بين ١٠ و ٢٠ مليون سنة

حصلت أنواع أخرى في التقدم.

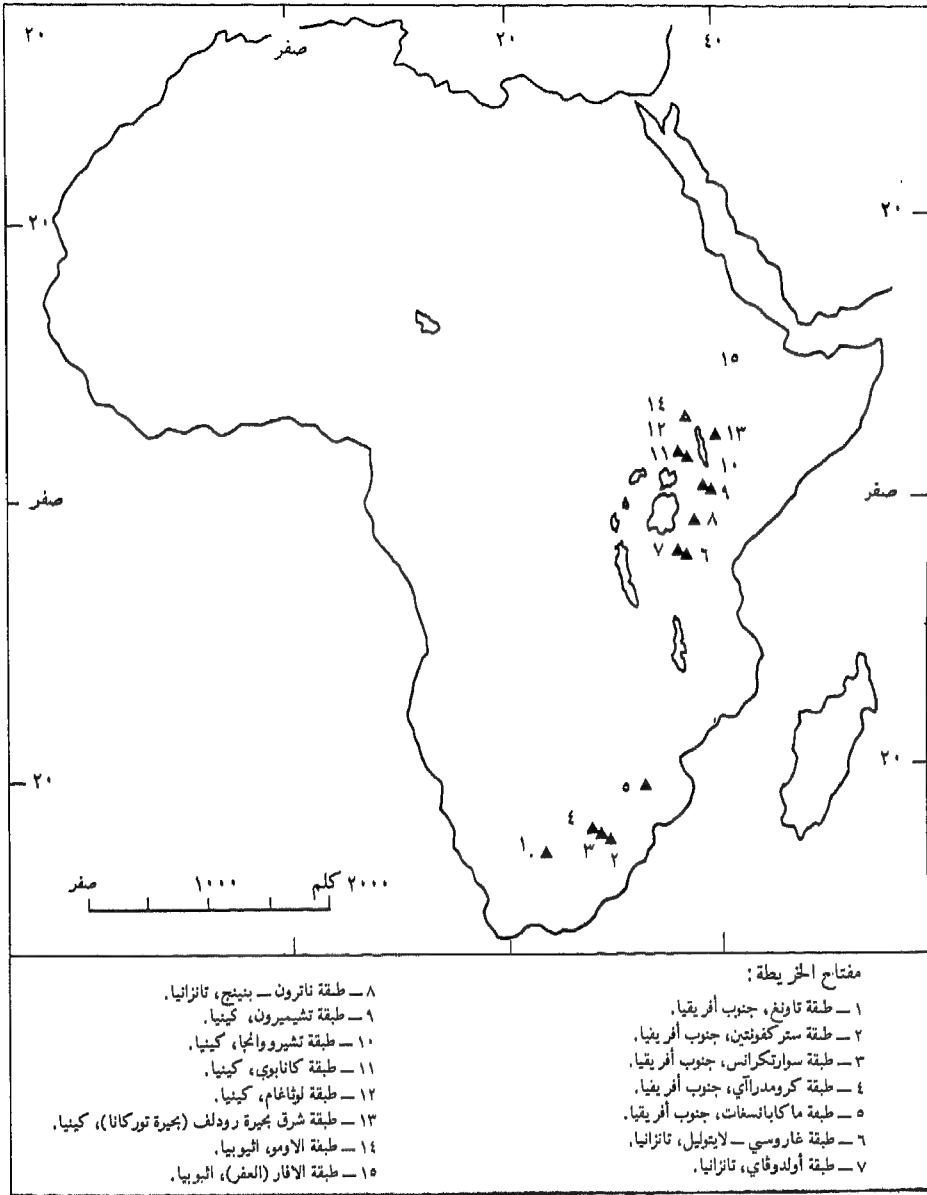
اكتشف ل. س. ب. لايكبي بالكينيا والأغندا، بقايا مقدم بشري صغير وهو القرد الكيني الإفريقي فصنفه في فصيلة البشريات. ويرجع هذا المقدم البشري الى عهد ٢٠٠٠٠٠٠٠ سنة، وقوس أسنانه مستدير، وأسنانه الخدية (٥) العليا متباعدة، وتوء فكه ضعيف (٦) وثناياه وأنيابه نابذة عموديا، وتيجان أضراسه الامامية واطئة. ولقد رأى فيه كثير من المؤلفين سمات القردة الكبرى. ولقد وجد ل. س. ب. لايكبي بالكينيا أيضا، في فورتران، ما يعتبره نوعا آخر من نفس الجنس، وهو قرد الكينيا فكري، وقد أرجعه في هذه المرة الى تاريخ ١٤٠٠٠٠٠ سنة. ونجد مؤلفين آخرين ينسبون هذا المقدم الى البنجديات اعتمادا على سمات أخرى، أولتاو يلهم بطريقة مختلفة الخصائص الموصوفة. وكان ل. س. ب. لايكبي قد أتى لصالح مرشحه الجديد، بحجج قاطعة لأنه اعتمد حججا ثقافية. ولقد قدم في المؤتمر الافريقي بداكار سنة ١٩٦٧، أحجارا من البازالت كانت حوافها الطبيعية تشتمل على آثار تدل على استعمالها. وصرح سنة ١٩٧١ بأديس أبابا أن معظم العظام الحيوانية المكتشفة والمتعلقة بقرد الكينيا فكري كانت مهشمة تشبها مصطنعا. فن العجيب جدا تصور ذلك المقدم الصغير الافريقي وهو يختار أحجارا حادة أو قاطعة لتحضير طعامه. وعلى أية حال، فهذا ليس بمستحيل نظريا.

ولقد عثر في ١٩٣٤، بالتشكلات نصف البليوسينية بشمال الهند والباكستان، على مقدم آخر وهو قرد راما البنجابي. ويرجع عهده أيضا الى ٨ أو ١٤ مليون سنة. ولقد درسه سيمونز دي يال من جديد وربطه بقايا تنسب الى قرد راما. فهو مقدم صغير يزن بين ١٨ و ٣٦ كلغ. ان وجهه القصير وفكه الكثيف ذا الفرع المتصاعد العمودي، واستقامة أنيابه وثناياه الصغيرة وتأخر بروز أضراسه، ومشابهة أضراسه الامامية السفلى لأضراس البشر، قد جعلت كثيرا من المؤلفين، وليس كلهم، يقولون أن قرد راما البنجابي من البشريات. بل ذهب سيمونز الى ربط هذا الأحفور الهندي بالقرد الكيني من افريقيا الشرقية وبعض الإكتشافات المعزولة في الصين وأوربا ليؤلف من مجموعها قاعدة بشرية ميوسينية تشمل العالم القديم كله. وهو لم يكن مخطئا لأن الابحاث الواقعة في الثلاث سنوات الأخيرة، دلت على وجود قرد راما هذا بتركيا (اتيكايا) وبالجرج (م. كرتزوا) فضلا عما وفرته الوثائق الباكستانية الجديدة (بعثة د. بليم) من معلومات جديدة عن هذا المقدم.

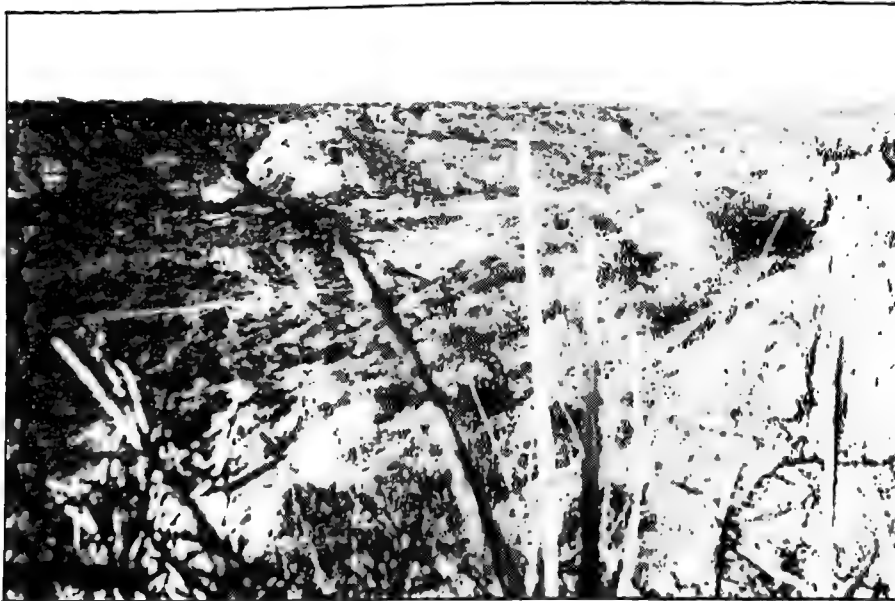
وعثر في الصين والهند على مقدم ضخم وهو القرد العملاق وهو يدعى القرد العملاق الأسود بالصين، والقرد العملاق بيلاسبورانسيس بالهند التي يقدر فيها عهده ببعض الملايين من السنوات. ان ثناياه صغيرة، وأنيابه ليست كبيرة الا أنها ليست بشرية. ولضره الأمامي الأول السفلي مزدلقان، وأسنانه الخدية كبيرة وقوية وتدل على اهتلاك كبير، ووجهه قصير، وفكه قوي ذو فرع متصاعد عال وعمودي، الا أن جميع المؤلفين رفضوا تماما ترشيحه ليكون أصلا للإنسان، وكشفت

(٥) تسمى الاسنان الخدية أو أسنان الخلد ويعني بها الأضراس الامامية والأضراس.

(٦) الفك الناقص أو الفك البارز الى الأمام (Prognathisme) يعبر عن إسقاط الوجه كله أو جزء منه مما يوجد تحت الانف، الى الامام.



● خريطة المعطيات الاحاثية (الخاصة بعلم المتحجرات).



٧

- ١ • خوائق أولدوفاي، تانزانيا: حفريات لويس وماري ليكي (تصوير أ. كوبان)، مجموعة متحف الانسان.
- ٢ • جمجمة انسان الجذوب الافريقى البدائي (أسترالوبيثيكوس أفريكانوس)، من اليمين الى اليسار: منظر جانبي لجمجمة صغير (تاوانغ، بوتسوانا) ومنظر جانبي لجمجمة بالغ (ستيركفونتين، الترنسفال)، مجموعة متحف الانسان (تصوير أ. كوبان).

أبحاث باليونان باشراف ل. دي بونيس على مقدم له ١٠٠٠٠٠٠٠ سنة وهو قرد أورانو المقدوني الذي يحتمل أن يكون جد القرد العملاق. وأخيرا فنذ ١٢٠٠٠٠٠ سنة مضت كان يتأرجح بين أغصان الشجر في غابات توسكانا، وربما أيضا بغابات الكينيا، مقدم آخر وهو قرد أوريو (Oréopithèque). ان مكتشفه هوجري الا أن واصفه هو الإحاثي الممتاز السويسري يوهانيس هرزل الذي قام بحفريات في غروسيو، بتوسكانا فعثر على هيكل عظمي يكاد يكون كاملا من قرد أوريو الببلي الذي له وجه قصير وعظام انفه بارزة بالنسبة لجانبية وجهه، وثناياه صغيرة، وكذلك أنيابه، وضرسه الامامي الاول السفلي له مذلقان، وحوضه حوض ذي الرجلين، الا أن اعضاءه الخليفة طويلة جدا. و يبدو أن قرد أوريو من البشريات الصغيرة، وهو على كل حال مقدم يتنقل في الأشجار (٧)، ومتكيف لنوع من العيش في الغابة.

لقد عرفنا قرد كينيا الافريقي، وقرد الكينيا فكري، وقرد راما، وقرد راما البنجابي، والقرد العملاق الاسود، والقرد العملاق بيلاسبورنيس، وقرد أوريو ببلي، ولكن الأهم من كل هذا ليس أن نعلم الآن من هو سلف الاخر منها. ولقد مثلنا هنا بسلاسل عديدة. لكنه يبدو لنا ان هذه الأجناس الأربعة التي ترجع الى الميوسين، تبرز صورة مقدم كان يعيش بالغابة ويأتي على ما يظهر لأول مرة يتغذى جزئيا بمناطق مكشوفة، حول البحيرات وعلى ضفاف الأنهار. ومن الواضح أن طرقا في العيش جديدة ستظهر اثر ذلك الخروج من الغابة وسيظهر معها في نفس الوقت صغر الاسنان الخلفية وصغر الوجه، وميل الضرس الامامي الاول، الذي لم يبق الناب يعرقله، الى مضاعفة مذلقة الاول. وذلك يدل على بداية غزو السبابس ومعها التميز برجلين اثنتين (٨).

## ما بين ١٠ ملايين ومليون واحد من السنوات

في البليوسين والبليستوسين، بين عشرة ملايين ومليون سنة، نواجه مجموعة متعددة الأشكال ومحصورة في المكان وهي تؤلف القردة الجنوبية. ولا بد من نبذة تاريخية عن اكتشافها لنتمكن في نفس الوقت من تحديدها في المكان.

### تاريخها

ففي ١٩٢٤م قام الأستاذ ر. دارت (R. Dart) بوصف وتعميد أول قرد من القردة الجنوبية وكان يتعلق الأمر بمجموعة قرد شاب عمره ٥ أو ٦ سنوات، اكتشف بجنوب افريقيا، في شق كهف بمنطقة بشوانالاند يسمى تونغ. وتبع هذا الاكتشاف اكتشافات أخرى ابتداء من ١٩٣٦م قام بها الأساتذة ر. بروم وج. روبنسون ثم الأساتذة ر. دارت، وب. توبياس في أربعة كهوف من الترنسفال، وستر كفتاين، وشفا رتكرنس، وكرم دراي قرب يوهنيسبورغ ومكبنسغات قرب بوتغيتسرست.

(٧) ان التنقل الشجري هو نوع من التنقل بواسطة الشجر وذلك بالانتقال من فرع شجرة إلى آخر مع التعلق بها بواسطة الأعضاء الأواخر.

(٨) ان التنقل على الرجلين هو نوع من التنقل برا، ويعتمد على الوقوف على الأعضاء الخلفية.

واكتشف في ١٩٣٩م، الأستاذ الألماني ل. كوهل لرسن (Kohl Larsen) مكان يدعى غروزو او (لالتوليل) بالشمال الشرقي من بحيرة اياسي في طانزانيا، اكتشف فكا لقرد جنوبي، وبذلك توسعت الى افريقيا الشرقية مساحة توزع هذه البشريات. ولقد عادت الى العمل بهذا المواطن ماري لاكيي فحالفها النجاح اذ أنها أبرزت الى الوجود مجموعة مهمة جدا من البشريات الأحفورية التي يمكن نسبتها بلا شك الى القردة الجنوبية.

وتبع ذلك أعمال مشهورة قام بها أعضاء أسرة لاكيي بفتح أولدواي، بطانزانيا، وهي أعمال وفرت سنة ١٩٥٥م، ما يقرب من ٧٠ قطعة تنسب الى البشريات، ومنها ما كان قطعاً ممتازة. واكتشف سنة ١٩٦٤م ر. لاكيي وج. اسحاق موطناً ثالثاً للمواقع الطانزانية عندما عثرا على فك قرد جنوبي قرب بحيرة ناترون، ثم تحولت الاكتشافات نحو الشمال.

في سنة ١٩٦٧م، عادت بعثة عالمية الى استكشاف مواطن احاثية تقع بالقرب من الضفة الغربية من الوادي السفلي من الأومو بأثيوبيا. وكانت تتركب من ثلاثة فرق: الفريق الاول فرنسي بإشراف الاساتذة ك. أرمبورك واي. كوبنس، والثاني أمريكي بإشراف الاستاذ ف. كلارك هويل والثالث كيني بإشراف الدكتور ل. س. ب. لاكيي وابنه ريتشاد. ان تلك المواطن التي اكتشفها في مطع العصر مسافرون فرنسيون، كانت قد استغلتها منذ ١٩٣٢م - ١٩٣٣م بعثة من المتحف القومي للتاريخ الطبيعي بباريس بإشراف ك. أرمبورك. ولقد كان من حظ تلك البعثة الجديدة ان اكتشفت ابتداء من الشهر الاول، أول فك لقرد جنوبي بتلك المواطن. وتبع ذلك الاكتشاف، اكتشافات أخرى، وتوصلت البعثتان الفرنسية والامريكية، في ٩ زيارات إلى تحقيق نتائج باهرة، أي ما يقرب من ٤٠٠ بقية من البقايا البشرية.

وترك الفريق الكيني أومو منذ ١٩٦٨م ليستكشف بإشراف ر. لاكيي، الشواطئ الشرقية من بحيرة تركانا بالكينيا. واستطاع ذلك الفريق أن يجمع إثر ١٠ زيارات أكثر من ١٠٠ قطعة من البشريات، منها ما هو مهم جداً.

وكانت بعثة أمريكية من هارفارد بإشراف ب. بترسن تستغل في نفس الوقت، بالشواطئ الجنوبية الغربية من نفس البحيرة ثلاثة مواطن صغيرة، سيوفران منها بقايا بشريات. واكتشفت بعثة انكليزية من بدفورد كولاج بلندن بقايا جيولوجية احاثية بخمسة مواقع. وفي سنة ١٩٧٣م اكتشفت بعثة عالمية بإشراف موريس طيب وايف كوبنس، ودنلد س. يوهنسن في هدر بمنطقة العفر بأثيوبيا، وذلك في أربع زيارات، أكثر من ٣٠٠ قطعة جيولوجية احاثية حفظت حفظاً حارقاً للعادة، وتنسب الى شكل أوشكلين من البشريات. ولقد عثرت بعثة ثانية بالعفر، متفرعة عن الأولى، على جمجمة تنسب الى الإنسان القرد.

وفي النهاية، اكتشف جان شافايون، بعد ٩ سنوات من الحفريات المتأنية، وذلك سنتي ١٩٧٥م و١٩٧٦م بملكا - كنتوري، ثلاث قطع هامة لها صلة بالصناعات الأولدواية والاشولية. ان هذه المجموعة من الاكتشافات قد حددت مساحة توزع القردة الجنوبية في المناطق الشرقية والجنوبية من افريقيا.



● (١) خوانق أولدوفاي، تانزانيا (حفريات لويس وماري ليكي). (تصويراً، كوبان)، مجموعة متحف الانسان.



● (٧) طبقة الأومو في اثيوبيا، (تصويراً، كوبان) مجموعة متحف الانسان.





٢

● ٢ طبقة الأومو في إثيوبيا، (تصويراً. كوبان)، مجموعة متحف الإنسان.

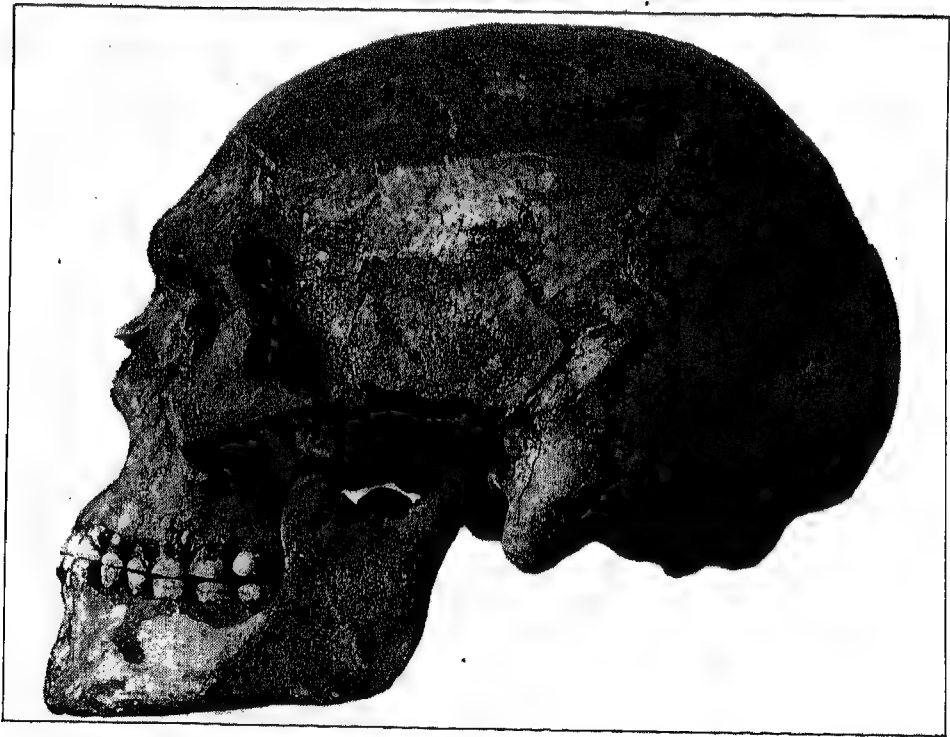


٣

● ٣ و ٤) جمجمتان لإنسان الجنوب البدائي في بوزي، (أستراليا) بيشيكوس بوزي، طبقة الأومو في إثيوبيا — بعثة إيف كوبان ١٩٧٦، (تصوير ج. أستر)، مجموعة متحف الإنسان.



٤



- (١) طبقة الأتار (العفر)، أثيوبيا. بعثة م. الطيب، وأ. كويان ود. ك. جوهانسون (تصوير م. الطيب)، مجموعة متحف الإنسان.
- (٢) جمجمة إنسان أفالو الكرومانيوني، الجزائر. مجموعة متحف الإنسان (معهد الاحاث والآليات البيولوجية البشرية)، (تصوير ج. أوست).

## ضبط التاريخ

ان أقدم هذه المواطن، موطن نكورورا بحوض بحيرة بارنكو، بالكينيا، اذ أنه يبلغ ٩ الى ١٢ مليون سنة. ولم يوفر الا ضرسا أعلى لبشري غير محدد. الا أن الحفارين يأملون كثيرا فيما ستأتي به استغلالات هذا الموقع في المستقبل. ولقد كان تاج ذلك الضرس منخفضا مثل تيجان أسنان قرد راما. ان بنية مذالقه تشابه بنية قردة الجنوب. ولعل الامر يتعلق بقرد سيفان. ولقد وفر أيضا موطن آخر من حوض بحيرة بارنكو وهو لوكينو الذي يعود تاريخه الى حوالي ٦ أو ٦٥٠٠٠٠٠ سنة، وفر ضرسا وهو هذه المرة آخر ضرس سفلي يشابه كثيرا أضراس قردة الجنوب.

وفي لوثاغام، بالجنوب الغربي من بحيرة تركانا، بكينيا، اكتشف ب. بترسين، قطعة من فك فيه سن يذكر شكله بقرد الجنوب. ان الحيوانات الفقيرة المربوطة به تفيد أن تلك الفترة الزمنية ترجع الى البليوسين، اي الى ٥ أو ٦٠٠٠٠٠٠ سنة. ويوجد موقعان بالكينيا، أحدهما بحوض بحيرة بارنكو، وهوسمرون والآخر بحوض بحيرة تركانا، وهو كتبوا اللذان يقدران بـ ٤٠٠٠٠٠٠ سنة، واللذان وفرا صدغا، ونقا (عظم العضد) بشريين.

ان مواطن لا توليل بطانزانيا قد أرخ على الأقل بـ ٣٥٠٠٠٠٠ سنة، وتشابه بشريات الاحفورية مشابهة غريبة البشرية المجموعة بهدر في العفر من أثيوبيا، والتي تنسب الى ما بين ٢٨٠٠٠٠٠ و ٣٢٠٠٠٠٠ سنة.

وتتكون مواطن الاومو من مجموع ترسيبي يتجاوز ١٠٠٠ متر بالقوة، ويشمل سلسلة متوالية من الرمال الاحفورية، ومن الطين ورواسب بركانية تسمح بتاريخها تاريخا مطلقا. فلقد أمكن تأريخ المقطوعة بأكثر من ٤٠٠٠٠٠٠ سنة في القاعدة، وبأقل من ١٠٠٠٠٠٠ سنة في القمة.

أما باقي البشريةات فانها توجد ابتداء من ٣٢٠٠٠٠٠ حتى القمة، اي بطريقة متواصلة على مدى ٢٠٠٠٠٠٠ سنة أو أكثر.

ان مواطن الشرق من بحيرة تركانا التي توفر البشريةات تتراوح بين ٣٠٠٠٠٠٠ و ٦٠٠٠٠٠٠ سنة. ولقد قدرت حديثا أقدم الكهوف الخاصة بقردة الجنوب، أي مكبنسغات وستركنتاين بـ ٢٥٠٠٠٠٠ سنة الى ما يتجاوز ٣٠٠٠٠٠٠ سنة. الا أن هذا التاريخ ما انفك محل نزاع كبير. وتوفر فجاج أولدواي في طانزانيا بقايا بشرية أرخت صناعاتها على طول المائة متر من قاعدة الرواسب بـ ١٨٠٠٠٠٠ سنة.

ويمكن أن يكون كهفان آخران خاصان بقردة الجنوب بجنوب افريقيا، وهما سفرتكرنس وكرمدراري معاصرين لطبقات قديمة بأولدواي، أو سابقة لها بقليل (٢٠٠٠٠٠٠ الى ٢٥٠٠٠٠٠ سنة)

وفي النهاية وفر شاسوونجا الموجود بحوض بحيرة بارنكو بالكينيا، وموقع بحيرة ناترون بطانزانيا وحتى ثغرة تورينغ بجنوب افريقيا، القردة الجنوبية الاصغر سنا، لانها لا تكاد تتجاوز المليون سنة. ويبدو ان القردة الجنوبية قد ظهرت منذ حوالي ٦ أو ٧ ملايين سنة ثم انقرضت في حوالي المليون سنة.

فما وفرت تلك المواطن «كثيرا من البشريةات، وبعضها ينسب الى هذا العصر. أحدهم قرد الجنوب القوي أو ما قبل الانسان (Paranthrope) او الإنسان الزنجي (Zinjanthrope).

أما الآخر فيسمى قرد الجنوب الرشيق، أو قرد الجنوب بالمعنى الدقيق، أو إنسان البليستروب (Plesianthrope) أو ما قبل القرد الجنوبي (Paraustralopithecus). أما الثالث فلقد سمي الإنسان الماهر أو قرد الجنوب الماهر. ودعي الأخير الإنسان المستقيم (Homo erectus) أو الإنسان البعيد (Telanthropus) أو الإنسان الكبير (Méganthropus).

(أ) القرد الجنوبي القوي: هذا القرد معروف بجنوب إفريقيا في كهوف لها ٢ الى ٢٠٥ مليون سنة، وبوادي أوموباثيوبيا وبشرق بحيرة تركانا بالكينيا، وبنفس السن بأولدواي منذ حوالي ١٨٠٠٠٠٠ سنة وشيسوونجا منذ ١١٠٠٠٠٠ سنة، وهو يسمى القوي لأنه فعلا أقوى وأكبر من الآخرين. ان مرفولوجيته تدل على جهاز ماضغ قوي اذ له اضراس واضراس أمامية ضخمة. فنتج عن ذلك فك قوي، وعضلات ماضغة متينة، وله قوس وجني (٩) قوي، وعرف سهمي (١٠) مدھش بالنسبة للعضلات الصدغية. ان حاجبه منخفض ووجه عال ومنبسط وأسنانه الخلفية صغيرة مما ييسر حركات المضغ الجانبية. وللفك شعبة صاعدة عالية جدًا، وذلك من شأنه ان يز يد في حركات مضغ العضلات الماضغة والجناحية. ان جسم قرد الجنوب هذا أصلب من أجسام الانواع الاخرى. ويقدر وزنه بـ ٣٥ الى ٦٥ كـلـغ بالنسبة الى طول ١٥٥ (متر). ان رجليه لم تكونا كاملتين، إذ لعظمي الفخذين رأسان صغيران وعنقان طويلان وسعة الجمجمة مقدرة بـ ٥٣٠ سنتمتر مكعب في سوار تـكـرنـس وأولدواي أيضا. ونلاحظ في هذا الصدد تطورا طرا على المنحني، مما يدل على بلوغه درجة أكبر في ضبط الحركات (حركتا اليد، والمشي مثلا).

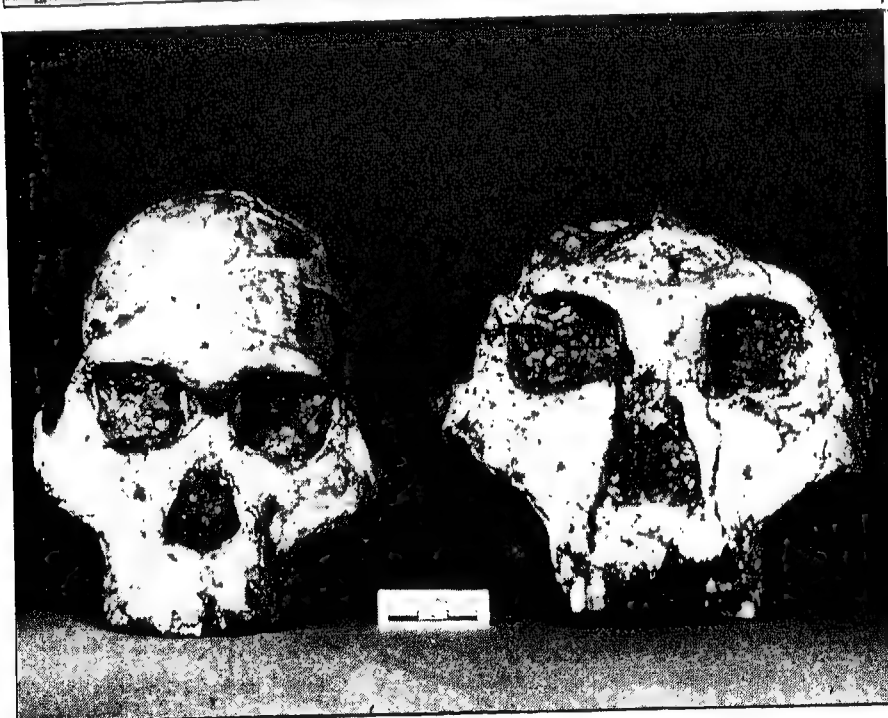
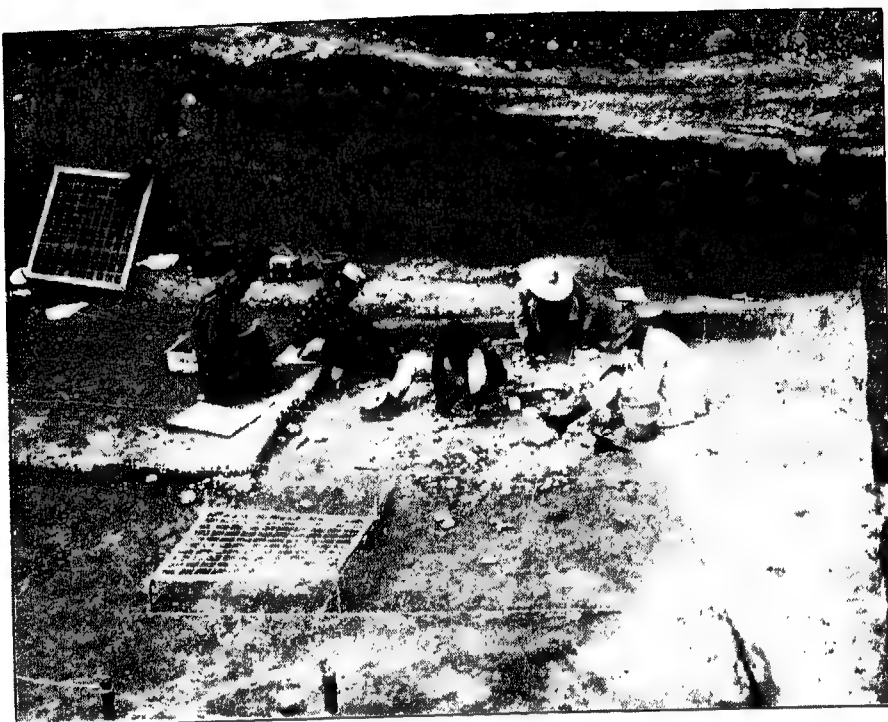
(ب) ينتسب قرد الجنوب الرشيق الى مكبنسغات وستركفنتاين بجنوب إفريقيا. ويعتقد أنه عثر عليه في أوموباثيوبيا، في غروسي أو في لا توليل بـطانزانيا، وبالعفر بأثيوبيا، ولوثاغام بالكينيا، وله متر واحد أو ١٢٥ من المتر، طولاً، و ١٨ الى ٣١ كـلـغ وزناً، فوجهه أكثر اسقاطاً من وجه القرد الجنوبي القوي، وقوساه فوق المحجرين (١١)، ناميان نموا معتدلاً، ومتصلان بجبين نام نسيبا. أما الشنايا الملحقية فلقد أثبتت عمودياً. أما الانياب، وهي صغيرة، فتشبه الشنايا، وأسنانه الوجنية متباعدة مما جعل قوس أسنانه على شكل قطع مكافئ. ان أسنانه الوجنية كبيرة ومذلقها مستديرة، ميناؤها كثيف، واهتلاكها قد بلغ النهاية.

ان هذا القرد الجنوبي، وان كان قارتياً (يأكل كل شيء) أكثر من السابق، إلا أن غذاءه الأساسي متكون من النبات. ان كثافة الفك وكثافة المينا، والاهتلاك المتناهي، وقصر الوجه، وكبر حجم الأضراس الامامية والاضراس، كل ذلك يدل على وجود جهاز ماضغ قوي. ولقد حدث تأخر في بروز الاسنان، وهذا التأخر، مضافاً الى كثافة المينا، يدلان على تكيفه مع حياة ومراقة طويلة. ان سعة القحف في الداخل تتراوح بين ٤٢٨ و ٤٨٥ سنتمتر مكعب، أي بمعدل ٤٤٤ سنتمتر مكعب بالشكل الإفريقي الجنوبي. وتشير العظام الطويلة، لا سيما النقا وعظم الكتف، الى ما

(٩) القوس الوجني هو جسر يربط الصدغ بالوجه.

(١٠) العرف السهمي هو غوغظمي، له في أعلى الدماغ، حد يشبه زينة الخوذة.

(١١) القوسان فوق المحجرين هما الحاشيتان العظيمتان العلويتان من المحجرين (المحجر: الذي يحتوي العين).



- ٧
- (١) منطقة حفائر أولدوفاي (تصويرج. شافايون)، مجموعة متحف الانسان.
  - (٢) انسان الجنوب البدائي القوي (الى اليمين) والرشيقي (الى اليسار). (تصويرج. روينسون)، مجموعة متحف الانسان.



● ١ و ٢) الانسان الماهر. (تصوير متحف كينيا الوطني).

درج عليه أسلافه من التنقل على الأشجار. ومع هذا، فإن القرد الجنوبي الرشيق يعد من ذوي الرجلين الدائمتين.

(ج) وصف الإنسان الماهر في أولدواي (طانزانيا) سنة ١٩٦٤، ويبدو أنه عثر عليه في أمو باثيوبيا، وبشرق بحيرة تركانا وكنبوى بالكينيا. ولأسنانه الوجنية أحجام دون أسنان القرد الجنوبي الرشيق من جنوب افريقيا. وتتميز أسنانه بنسب مختلفة: فهي أكثر استطالة وأكثر ضيقا. ولقد قدرت سعة داخل القحف ابتداء من العظام الجدارية وبـ ٦٨٠ سنتيمتر مربع، وبلغت حجمه من شرق تركانا ما يقرب من ٨٠٠ سنتيمتر مكعب. فيبدو أن الامر يتعلق بكائن يقترب أكثر من قرد الجنوب باعتبار ميل أسنانه ونمجه الى التطور. الا أن هيكله ما وراء الجمجمي (١٢) يقربه من قرد الجنوب الرشيق. ان ترقوته تشير الى العادة القديمة في التنقل على الأشجار، وقد تحدثنا عنها لما ذكرنا هذا الأخير. وتقدر قامته بين ١٢٠ و ١٤٠ من المتر.

(د) الإنسان المستقيم: ان الحفريات قد تمخضت في النهاية عن اكتشاف الإنسان المستقيم، أي عن بشريات أكثر تطورا من كل ما سبق ذكره، وذلك في سوارتكرنس بجنوب افريقيا. ويعود تاريخه الى ٢٥٠٠٠٠ سنة، وفي أولدواي بطانزانيا يؤرخ بـ ١٥٠٠٠٠ سنة، وبشرق بحيرة تركانا، يؤرخ بـ ١٥٠٠٠٠ سنة، وهملكا كنتوري، وبودو، وأموباثيوبيا بين ٥٠٠٠٠ و ١٥٠٠٠٠ سنة.

وكان بروم وروبينسن قد قاما منذ ١٩٤٩، في سوارتكرنس، بفرض بعض العظام ونسبها الى شكل أكثر بشرية يسمى التيلانثروب كابنيسيس (*Telanthropus Capensis*)، ولقد رأى روبينسن سنة ١٩٥٧، أن ينسب ذلك الشكل الى الإنسان القرد والى الإنسان المستقيم.

وفي ١٩٦٩، فحص رون كلارك، وكلارك هويل. وبرابن نماذج سوارتكرنس وتبين لهم أن حجمه قرد الجنوب القوي ٨٤٧ (SK)، يمكن وصلها تماما بفك التيلانثروب فنتج عن هذا الجمع صورة مفيدة تؤكد تخمينات روبينسن، اذا لاحظ تحت الجين المنحني المتصاعد، وجود انتفاخ (١٣) فوق محجري ناتيء، بعكس ما لاحظته من ضمو رجين القرد الجنوبي القوي. وهذه الجمجمة جيوب (١٤) جبهية كبيرة وانقباض بعد محجري (١٥) كما له عظام أنفية ناتئة، وقوس سني قصير، مما يدل على فك صغير ذي فرع صاعد منخفض. ان الأسنان وبنية الهيكل الوجهي تقربه من الإنسان وخاصة من الإنسان المستقيم.

وفي الأولدواي يختص الإنسان ١٣ بعدد من الأسنان يقل بنسبة ٢٠٪ عن أسنان الإنسان الماهر وبفك أصغر منه. ويختص الإنسان ١٦ بقوس فوق محجري بارز. ويعتبره لاكي وطوبياس أحيانا انسانا مستقيما. فان كان لهذين الأحفورين وضع غير واضح، فذلك ليس شأن الإنسان ٩ الذي له قبة دماغية تنتسب لا منازع في ذلك الى الإنسان المستقيم.

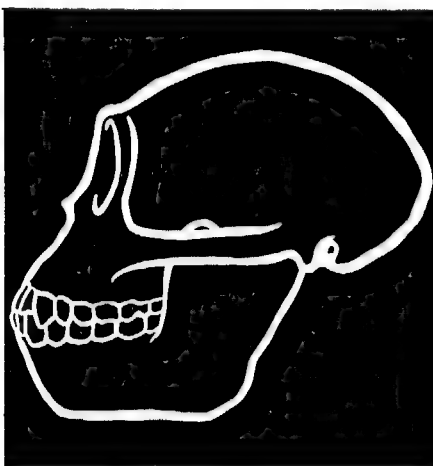
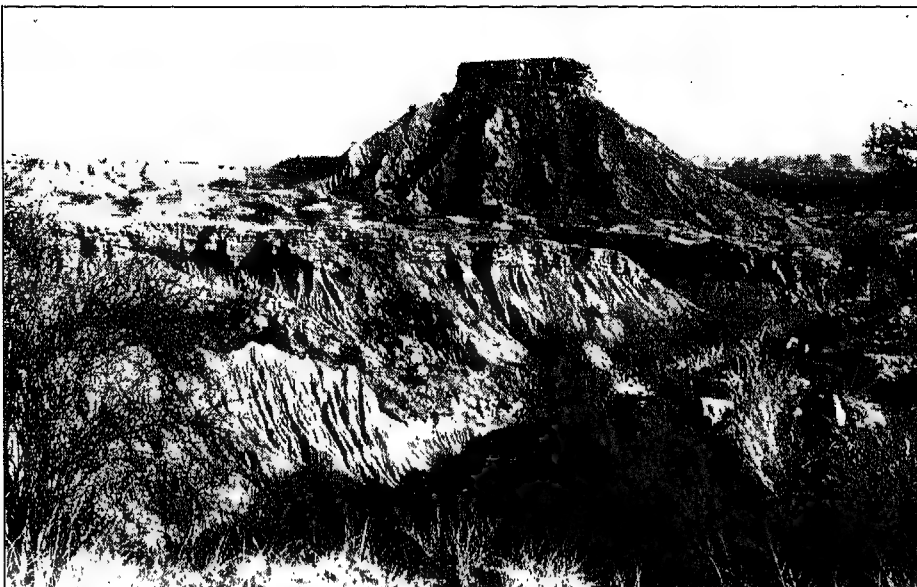
وتتصلب اكتشافات عديدة بشرق بحيرة تركانا بهذا النوع المتدرج من جنس الانسان. ولندكر

(١٢) يعني بالهيكل العظمي ما وراء الدماغ، مجموع تلك الهياكل دون الجبهية.

(١٣) عندما يعول الحاشية العليا من المحجر نمو عظمي واق، يسمى هذا النمو (توروس) واقية أو انتفاخ زائد، أو فوق محجري.

(١٤) الجيوب هي تجاويف.

(١٥) تنقبض الجمجمة جانبيا، وراء المحاجر، وهذا ما يسمى الانقباض المحجري.



- (١) طبقات سيواليكس في شمال باكستان. بعثة د. بليج، مجموعة متحف الانسان (تصوير ه. توماس).
- (٢) اعادة بناء جمجمة الانسان البدائي راما بيشيكوس. مجموعة متحف الانسان (تصوير ج. أوست).
- (٣) هيكل عظمي للانسان البدائي أور يوبيشيكوس بامبولي، عمره ١٢٠٠٠٠٠ سنة، عثر عليه في موقع غروسيو (مقاطعة توسكانيا بايطاليا) يوهانس هورتسلي في ١٩٥٨ (تصوير ج. أوست)، مجموعة متحف الانسان.





- ١ • إعادة تشكيل بيئة الانسان المستقيم في تشوكوتين (أو انسان الصين البدائي - سينانشروب)، بالصين (٤٠٠٠٠ سنة. تصوير أ. كوبان)، مجموعة متحف الانسان، معرض «أصل الانسان»، نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٧٦ - أبريل/نيسان ١٩٧٨. رسم برتوتشيبي - غايارد باشراف أ. كوبان).
- ٢ • انسان تشوكوتين المستقيم (إعادة تشكيل). صورة جانبية وأخرى أمامية. (تصوير ج. أوست)، مجموعة متحف الانسان.

خاصة الثلاث مجسمات التي عثر عليها حديثاً، وهي تنتمي الى عهود مختلفة، وتقدم أحسن مثال عن نموايول التطورية ضمن هذا النوع.

ولنذكر هنا أنه تم حديثاً ضبط تاريخ أقدم إنسان قرد جاوى، وهو جمجمة طفل مودجوكرتو الذي ضبط بـ ١٩٠٠٠٠٠٠ سنة. لكن هل يتعلق الامر بإنسان مستقيم؟

ان المقارنات التي اجريت بكامبريج بين قطع أصلية من جاوا وپانازانيا من طرف طوبياس وفون كونكسوالد أدت الى استخلاص ما يلي، وهو التماثل المورفولوجي بين الإنسان الماهر القديم وبين الإنسان الكبير الحجري الجاوي، وربما بينه وبين نصف الإنسان من الصين، وكذلك التماثل بين الإنسان الماهر الحديث (الإنسان ١٣) وبين الإنسان القرد ٤، وسنجيران ب والتيلاتروبوس كابينسيس.

### الصناعات

لقد حدث أن هذه البقايا كانت لأول مرة في تاريخ المقدمات البشرية، مربوطة بأدوات مصنوعة.

اكتشفت البعثة الفرنسية بموطن أومو، سنة ١٩٦٩م، بعض الأدوات الحجرية والعظمية تزيد على أكثر من مليوني سنة. وفي السنة الموالية عثرت البعثة الكينية بشرق بحيرة تركانا في موقع بركاني يعود الى ٢٠٠٠٠٠٠ سنة، عثرت على صناعة من الحجر والعظام تشابه أدوات أومو.

وأخيراً كان دور البعثتين الأمريكية والفرنسية اللتين عثرتا على ١٢ مستوى جيولوجيا أرخت بمليون سنة. اننا نستطيع أن نقول أن هذه الإكتشافات الواقعة بحوض البليوبليستوسين من بحيرة تركانا، قد أضافت الى عمر الأدوات الأولى المنحوتة أكثر من مليون ونصف المليون سنة، بل ٣ ملايين سنة بما زاد مليون سنة في عمر أقدم الصناعات المعروفة الى الآن.

ان هذه الصناعة الأولى في التاريخ تتكون من كمية من الشظايا، التي قرعت اصطناعيا واستعملت قواطعها، ومن حصة هي أحد حديثا أو قاطعها بطرق عدة، ومن عظام أو أسنان هيئت واستعملت مباشرة عندما تسمح بذلك أشكالها (أنياب فرس البحر أو أنياب الخنزير مثلاً).

يمكن ترتيب هذه الأدوات حسب عدد من الأنواع. ولقد صنع من هذا النوع عدد معين من النماذج. وهذا يعني أن شكلها كان موضوع بحث، وأنها اكتساب ناتج عن خبرة يرثها جيل عن جيل، مما يفترض وجود حياة اجتماعية معينة، وهذا يعني أنه رغم مرور ٢٥٠٠٠٠٠ سنة فإننا لم نصل الى معرفة أصل الأداة، لكن من المحتمل أننا نقرب من حدود ادراكها. وهي تلبس وراء تلك الحدود، مع الأشياء الطبيعية.

وفي مكينسغات بحنوب أفريقيا تم اكتشاف صناعة متكونة من العظام، ومن القرون والأسنان فسميت لهذا السبب صناعات عظمية سنية قرنية ويمكن أن تكون قديمة جدا اذا صحت المحاولات الحديثة في وضع توافق بين الكهوف الإفريقية الجنوبية والمواطن الكبرى بشرقي إفريقيا. وعلى كل حال نستطيع أن نلاحظ نفس الشيء فيما يتعلق بحوض بحيرة تركانا التي تصنع فيها مختلف الأدوات جملة، وذلك يدل على أنه قد كان لها تاريخ عريق.

وكشف هـ. روش حديثا في هدر صناعة من الحصاة المهيأة، تقترب من حصاة أولدواي في مستوى لا يستغرب إذا أرخ بـ ٢٥٠٠٠٠٠ سنة.

وهكذا فإن الأدوات ظلت متوفرة وملحوظة في كل مكان، ابتداء من الطبقات الأكثر قدما بأولدواي (١٨٠٠٠٠٠ سنة). ان الحصارا المهيأة المتوافرة بصفة خاصة استوجبت تسمية هذه الصناعة بـ «ثقافة الحصاة» أو الأولدوايية. ولقد لاحظ الدكتور لايتكي، وهو يحفر أقدم مستوى بأولدواي، تراكما كبيرا من حصاة البزلت. وكلما تقدم الحفر، أدرك أن تلك الحصاة لم تكن مبعثرة بل كانت على عكس ذلك مرتبة حسب أكداش لها رسم الدائرة. ويحتمل أن يكون كل تكداش متكونا من حجارة لتركيذ عمود، فلو تصورنا دائرة من الأوتاد ومن أقواس العقد وجلودا وسعفا مبسوطة لدعانا هذا الأمر الى تصور آثار بناء، فنكون أمام بنية سكنية تعود الى نحو مليوني سنة.

واكتشف ج. شفيان، هلكا كنتوري بنية مشابهة تقريبا قرب أديس أبابا، بالمستوى الأولدواي بأكدم موقع (١٥٠٠٠٠٠ سنة). فلقد وقع على حين غرة، في الوسط بالضبط من محل الإقامة الذي تبعثرت فيه الأدوات، وقع على مساحة دائرية قطرها ٢٥٠ مترا، خالية من أية أداة بها، ويبلغ علوها ٣٠ سنتيمرا بالنسبة لما تبقى من الأرض التي يحيط بها ميزاب طوله متران. وكانت بعض أكداش من الحجارة توجي هنا أيضا بوجود أوتاد.

يقال إن القرد الجنوبي القوي يحتمل أن يكون ذكر القرد الجنوبي الرشيق. ويرى بعضها أن الإنسان الماهر كان قردا جنوبيا رشيقا، أصغر سنا من النوع الجنوبي الأفريقي وأكثر منه تطورا. ويقول البعض الآخر أن الإنسان المستقيم من سوارتكرنس قابل لأن يتدرج في الحدود السفلى من تبدلات القرد الجنوبي القوي من نفس الموطن، ويقال أن الجاوي كان قردا جنوبيا. وأن بعض القردة الجنوبية (أولدواي، سوارتكرنس) كانت أيضا من نوع الإنسان القرد. ونخرج من هذا الالتباس الظاهري بما يلي:

ظهر الجنس الإنساني، وظهرت الاداة المصنوعة من بين مجموعة القردة الجنوبية، المستوطنة أولا بافر يقيا الشرقية وبافر يقيا الجنوبية، (في شكل القرد الجنوبي أو في شكل أكثر منه تطورا والمتوسعة بعد ذلك الى آسيا جنوب الهيمالايا. وسرعان ما أصبحت الأداة عنوانا على صانعها. فلقد أبدعت بسرعة أنواع عديدة من الأدوات لغايات مضبوطة. وأصبحت صناعتها تلقن وظهرت بعد ذلك بنيات سكنية. وعلى هذا الأساس يمكن لنا أن نتحدث عن الأصل الإفريقي للإنسان.

## الخاتمة

وهكذا يبدو أن الإنسان ظهر في نهاية التاريخ طويل جدا، في شكل مقدم بشري أخذ يحسن الاداة التي كان قد استعملها منذ أمد طويل. ان الأدوات المصنوعة والمساكن تدل على كائن مفكر، مدبر، يتعلم ويعلم، ويشيد المجتمع الأول ويضع له ثقافته الاولى.

ولقد اقترح حديثا تاريخ يزيد على مليوني سنة لبعض البقايا الأحفورية البشرية من جاوا. وقدترت أحيانا الحصى المهيأة من جنوب فرنسا بعمر يعادل ذلك. الا أن حالة معارفنا الراهنة باعتبار عددها وأهمية مستكشافاتها القديمة جدا، جعلت افريقيا هي التي تنتصر في هذه المباراة.

ولنختتم قائلين بان كل شيء وقع كما لو نشأت، منذ ٦ الى ٧ مليون سنة، بالربعية الجنوبية الشرقية من القارة الإفريقية، مجموعة من البشريات تسمى قردة الجنوب. فلقد برز منذ مليونين ونصف أو ثلاثة ملايين سنة، برز من تلك المجموعة المتعددة الأشكال، كائن هو قرد الجنوب نفسه الذي كان انسانا، قادرا على نحت الخجر والعظم، وعلى بناء الأكواخ وعلى العيش في مجتمعات صغيرة، تمثل في جميع تظاهراتها الأصل الأصيل للإنسانية الصانعة.

### المليون الأخير من السنوات

لقد شهد المليون الأخير من السنوات نشأة الإنسان العارف، وتكاثره بشكل يبعث على القلق في القرون الأخيرة إذ في ١١٥ سنة ارتفع عدد الافراد من مليار الى مليارين ثم ارتفع في ٣٥ سنة من مليارين الى ثلاثة مليارات ثم ارتفع في ١٥ سنة من ٣ مليارات الى ٤ مليارات، ولا يزال التكاثر مستمرا....

# ظهور الانسان المشاكل العامة

القسم الثاني

بقلم: ل. بالوت

## المعطيات الأثرية

ان دراسة مشكل (ظهور الانسان) في افريقيا تستوجب من الباحث في ما قبل التاريخ منهجا يختلف كثيرا عن منهج الاحاثي. ان ظهور الإنسان بالنسبة لهذا الأخير هو هذا التطور التدريجي في المخ الذي سمح للانسان بالتصور والإنجاز، وذلك بوضع تقنيات تزداد تعقدا وصنع أدوات (و يؤخذ هذا المصطلح في معناه الواسع) بلغت من التنوع والفعالية حدا جعله عبر العصور يضاعف تأثيره على البيئة الطبيعية، حتى وصل الى الاخلال بالتوازن البيولوجي لصالحه. ان التطور الأحاثي الذي يفضي الى الإنسان لا يسمح بتحديد عتبة ظهور الإنسان. ان الحجارة المنحوتة تبين أنه تجاوز تلك العتبة. ولقد سبق أن عبر عن ذلك ب. تيلاردي شاردان تعبيرا مأثورا «لقد ظهر الانسان دون ضوضاء... وسار سيرا لا يكاد يحس به، حتى اذا مادلت عليه الادوات الحجرية الثابتة التي هي خير شاهد على وجوده، عندئذ فقط أخذنا نتفطن له... ولكنه كان حينئذ قد ملأ العالم القديم».

ان موقف الباحث في ما قبل التاريخ له ما يبرره لأن الحلقة المفقودة ليست الشكل الاوسط بين قرد الجنوب والإنسان القرد وبين النياندرتالي والإنسان العارف. بل هي الشكل الأوسط بين الحجارة والعظام المنحوتة وبين تلك الأحفورات. ان صناعات ما قبل التاريخ المنسوبة بقيتين مطلق للإنسان العارف، ابتداء من العصر الحجري الأعلى، بالإعتماد على برهان لا نزاع فيه، والى انسان نياندرتال بالعصر الحجري الوسيط، لا يمكن نسبتها الى الإنسان القرد والى قردة الجنوب الا افتراضا. ويغلب على الظن أنها الفرضية الوحيدة التي يمكن التعبير عنها علميا. الا أن الصناعة التي تصاحب إنسان الصين مخالفة للتي عثر عليها عند الإنسان القرد، وهذه بدورها تختلف عن التي عثر

عليها عند الإنسان القرد بجاء، وإنسان الأطلس بالجزائر، وبافريقيا الشرقية. أما فيما يتعلق بقردة الجنوب فهي تمثل مجموعة غير متجانسة ولا نعرف بالضبط الى أي نوع منها يمكن أن ينسب العصر العظمي الإنساني القري (Ostéodontokératique)، وكذلك ثقافة الحصى.

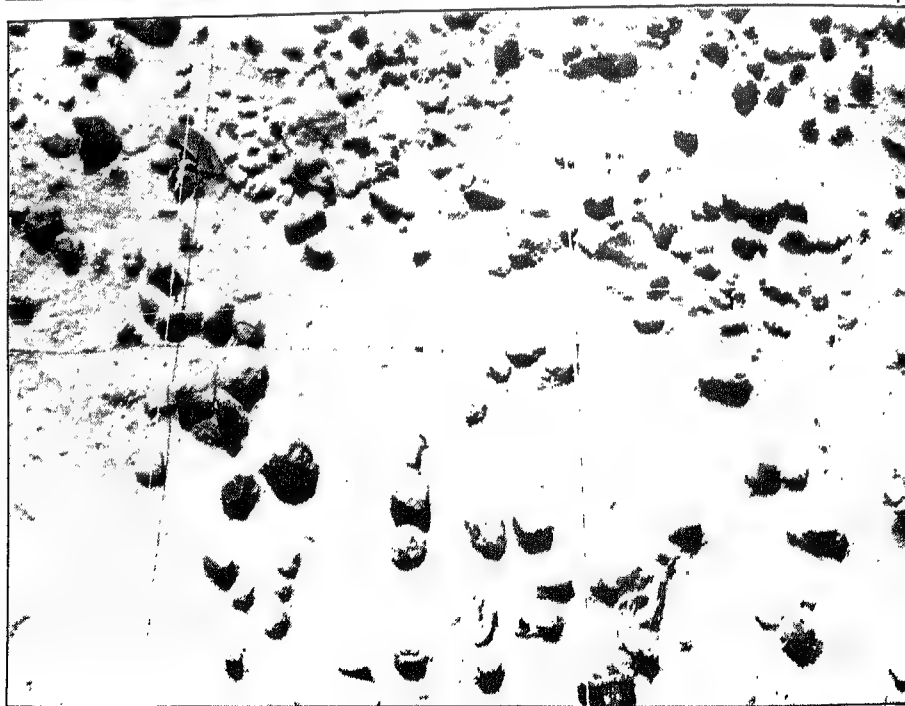
فاذا وجدت «عتبة» لظهور الإنسان بالنسبة للاحيائي، أو «حد مخي» ضبط سعته الاستاذ فالوا (Vallois) بـ ٨٠٠ سنتمتر مكعب، فانه يوجد بالنسبة للمؤرخ «عتبة تقنية» ما كاد الإنسان يتخطاها حتى انفتح طريق التقديم امامه الى يومنا هذا. ان تحديد تلك العتبة يستوجب حل مشكلين: كيف ومتى وقع ذلك؟ فالمشكل الاول يستدعي أن نترك جميع الأسباب الطبيعية، لكي نعرف من خلال الأداة، بأن اليد التي استعملتها هي يد الإنسان. أما الثاني فهو يستوجب توفر الإطارات الزمانية التي تسمح بأن نؤرخ تاريخا تقريبا مقبولا الشواهد المتأخرة جدا من الصناعة الإنسانية.

ان افريقيا، الى يومنا هذا، هي القارة الوحيدة التي اعطت الجواب المقنع لهاتين المشكلتين واعتبارا أن نظرية الأصل الواحد أصبحت مقبولة عالميا، تعتبر افريقيا اليوم مهد الإنسانية. ان هذا «المهد المتنقل» كما عبر عنه القس بروي (Breuil)، والذي طالما رأيناه ينتقل من قمم جبال سهل الفرات، قد استقر الآن بافريقيا الشرقية، ويكون ذلك الاستقرار قد وقع منذ ٣٠٠٠٠٠ سنة على الأقل. والحقيقة أن سفر العهد القديم (سفر التكوين) حدد موقع الجنة في الدنيا، وهي عدن، بمكان طبيعي فيه جنات ونباتات وأشجار، وخلق الله آدم ليتعاطى الفلاحة وتربية المواشي، أي ليعيش عيشة «العصر الحجري الجديد» في منطقة ما لبث أن أخذ يبرز فيها عصر حجري قديم. ان جميع التواريخ المستخرجة من الكتاب المقدس تؤرخ الخلق ابتداء من ٦٤٨٤ و ٣٦١٦ سنة قبل عصرنا. والغالب على الظن أن الشرق الأدنى كان من أقدم، ان لم يكن أقدم مكان للعصر الحجري الجديد وليس هناك من مبرر اليوم للقول بأنه كان مهد الإنسانية.

لقد ظهر الإنسان دون ضوضاء، ثم دلت بعد أمد طويل الحجارة التي نحتها على وجوده. ان النوع الإنساني «لم يزعزع شيئا مما في الطبيعة عند ظهوره... فرأيناه يبرز كنوع متميز مثلما يبرز تماما أي نوع آخر» (تيلار). وعلى هذا الأساس تصبح مسؤولية الباحث في ما قبل التاريخ عظمى عندما يأتي، وهو يعرف أقدم آثار الصناعات الإنسانية التي يمكن الإطلاع عليها، ببرهان كان علم الاحاثية عاجزا عن تقديمه. «يدرك أصل الإنسان بفضل الأداة التي استعملها. ذلك هدف علم ما قبل التاريخ الأسمى».

ان الباحث في ما قبل التاريخ بافريقيا مدعو الى الاجابة مسبقا على ثلاثة أسئلة:

- هل تعتبر الاداة على وجه اليقين معيارا دالا على ظهور الإنسان السوي؟.
  - هل تمكّننا الاداة من ادراك بدايات ظهور الإنسان السوي؟.
  - هل تدرك الأداة الإنسانية ادراكا واضحا، عندما يعثر عليها في حالة جيدة من المحافظة؟.
- ان معطيات هذا المشكل افريقية في جلها. لقد كان القس بروي في آخر حياته، وقد اعتبر بسلوك بعض الحيوانات، يسر الى أنه يتساءل هل الأداة تدل حقا على تجاوز عتبة البشر السوي ولماذا لا نختار الفن كمعيار؟ فذلك يفيد التمييز بين انسان «عارف» حقا، وهو راسم



- (١) تفاصيل التربة الأولدوفائية (تشتمل على حصي متعدد الجوانب وعظمة سميكة لفرس نهر)، (تصوير ج. شافيون)، مجموعة متحف الانسان.
- تفاصيل التربة الأولدوفائية (تصوير ج. شافيون)، مجموعة متحف الانسان.

لسكو (Lascaux) سلفنا المباشر، وبين مجموعة أخرى من الكائنات المدبرة التي يمثلها الإنسان (الصانع) السابق للاول في الظهور.

وكما قالت السيدة تترى (Tetry) بعبارات دقيقة، فإن استعمال أدوات مستقلة عن أعضاء الكائن الحي، وهي «أدوات طبيعية» هذا الإستعمال ليس من خصائص الإنسان ولا حتى من خصائص المقدمات البشرية. وأكبر دليل على ذلك، الزبور المسلح والنملة الحياطة (في الحشرات) وشرشور جالاباجوس، وزمج الماء، وكاسر العظام، والمزرة، والسمنة الشادية (في الطيور)، وقضاعة البحر، والقنندس وحيوانات أخرى. ان الشمبزي، في رتب المقدمات، يعتبر أقرب الحيوانات الى الإنسان. فهو يستعمل في حياته اليومية أدوات وأسلحة للدفاع عن نفسه ضد الحيوانات النهابة مثل الحيات. ان الخوف والدفاع عن النفس بدفعانه الى التقاط عصي وأشهارها (١). ان هذا السلوك الملحوظ لدى الحيوانات، وهي حيصة في الحدائق، قد استكملت دراسته بين ١٩٦٤م و ١٩٦٨م بملاحظة سلوك الحيوانات في الغابات المخصصة لها في طانزانيا. ان الشمبزي الذي يعيش في جماعات تتكون من ٣٠ فردا أو أكثر يعرف كيف يمسك بعض الأغصان الصغيرة لاستخراج الأرضيات، ويستعمل العصي لتشميم الأعشاش للوصول الى العسل، ويستعمل الأوراق ليأخذ الماء الموجود بثقب الأشجار، ويثبت المقابض بالعصي لبلوغ الموز.

اما الحجارة، فيستعملها لتشميم الثمار، أو لإبعاد الحيوانات المخاصمة عن طريق الرمي من فوق ومن تحت عضده، مثلها مثل العصا. وهو يتفاهم مع غيره باستعمال اشارات صوتية. ويمكن لنا أيضا أن نستشهد بملاحظات أجريت على قردة الغوريلا في رواندا (٢).

ولتصبح الاداة معيارا للدلالة على ظهور الإنسان السوي، فلا يكفي استعمال شيء خارج عن «الأدوات الطبيعية» للكائن الحي، ولذا فلا بد من حصول التحويل المقصود، ولا بد من «التهيئة» لتلك الاداة، وذلك ما سيساعدنا على إعطاء جواب إيجابي على السؤال الثالث المطروح، والامتناع عن هذا الجواب بالنسبة للسؤال الثاني.

ان الاداة لا تسمح لنا بأن ندرك بدايات البشرية أولا لأنه لم يبق محفوظا الى عهدنا إلا عظام أحفورية وأحجار. ودون أن ندعو الى مقارنة اثنوغرافية غير معقولة، فاننا نذكر بأن جماعة إنسانية تستطيع أن تستمد مجموع أدواتها من العالم النباتي وحده. ويمثل لهذا بقبيلة المونكوي من جزر اندامان. فان كانت الشجرة، بالسبابس المشجرة في الهضاب الإفريقية، قد وفرت للبشر الأولين الادوات الأولى، فهذا امر لا يمكن اقامة الدليل عليه، وان كان أمرا محتملا. وحتى فيما يتعلق بالعظام الأحفورية، والأسنان، فلقد نسب ر. دارت الى القردة الجنوبية من ترانسفال، صناعة أساسها العظام، والأسنان والقرون وسماها الصناعة العظمية الإنسانية القرنية، وهي صناعة ظلت قائمة طويلا، وسنعود الى ذلك فيما بعد. ولقد ميزر. فان ريت لوف في «ثقافة الحصاة» بين «المشقوق» و«المنظم» منها. فالأولى، وهي حصاة مشقوقة فقط قد كانت على العموم موضع شك فان كان من المؤكد أن الحصاة التي التقطتها اليد الإنسانية وألقته لم تحتفظ بأي أثر ملحوظ من ذلك

(١) انظر: الانثروبولوجيا المعاصرة، يونيو ١٩٦٧

(٢) الجمعية الجغرافية الوطنية، واشنطن، أكتوبر، ١٩٧١.

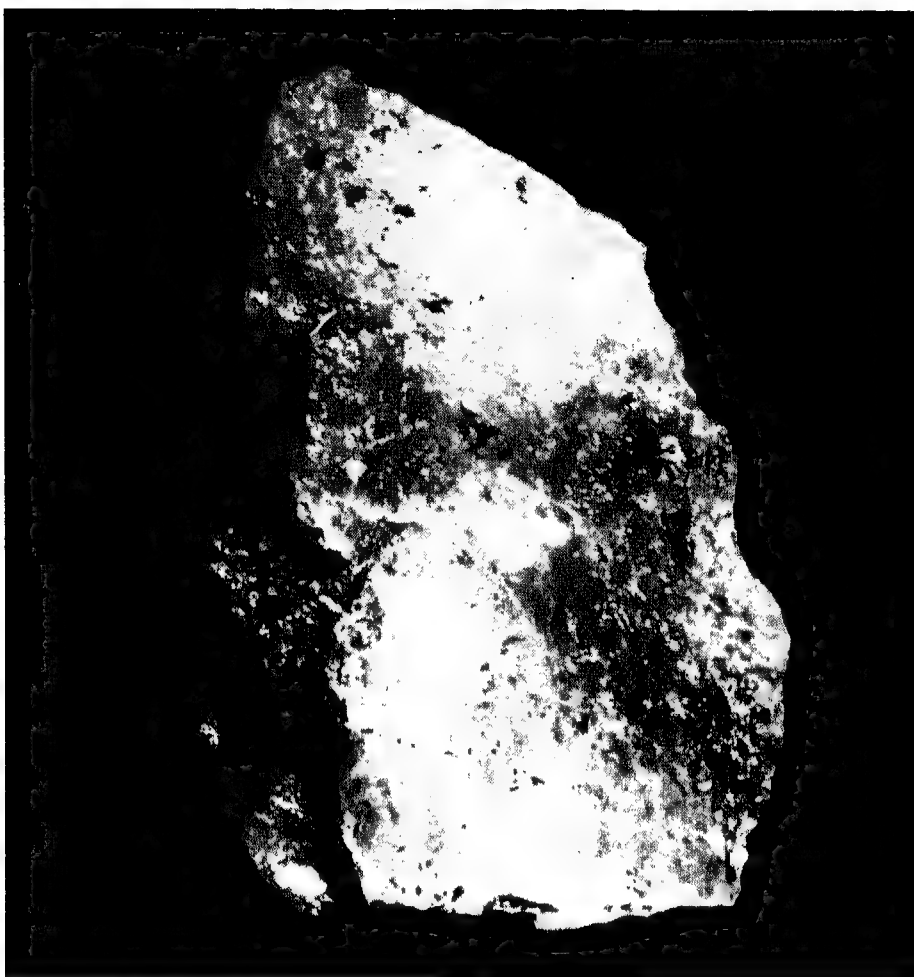


الإستعمال، فحتى الحصاة المهشمة يمكن أن تكون لعبة من لعب الطبيعة: ان الانهار في أسفل مسقطها، وارتداد الأمواج ينقشان الحصاة نقشا لا يختلف عما هشمه الإنسان منها. ان صناعة (الكافوئين) لم تصمد أمام هذه الحجة.

ان نص تيلاردي شردان الذي ذكرت جزءا منه في أول هذا العرض يحتوي على اخطاء جسيمة وبه نقص كبير. (لقد ظهر الإنسان دون ضوضاء... وسارسيرا لا يكاد يحس به، حتى اذا ما دلت عليه الأدوات الحجرية الثابتة التي هي خير شاهد على وجوده، عندئذ فقط أخذنا نتفطن له.... ولكن كان حينئذ قد ملأ العالم القديم، من رأس الرجاء الصالح الى بكين. وقد كان — على وجه اليقين — يتكلم ويعيش على شكل مجموعات. وكان يوقد النار، وعلى أية حال، أليس ذلك ما كنا ننتظر بالفعل؟ فكلما انبثق شكل حي جديد أمام أعيننا من أعماق التاريخ، نراه قد برز شكلا سويا وأصبح آفا مؤلفة...) و يبدو أن الإنسان الناطق لم يظهر الا في زمن الإنسان القرد. ان نسبة النار الى القرد الجنوبي البروميتي، كانت نسبة تأولية خاطئة اذا لم تتوفر لدينا علامة ثابتة على ذلك قبل الإنسان القرد. ولم يكن ذلك بافر يقيا، وبالعكس فان «الأدوات الحجرية الثابتة» من الأولدواي لا تدل يقينا على البداية اذ ان تنوع أشكالها، وعددها، وانتظام نحتها تجعل منها على العكس علامة على النهاية. ان الباحثين في ما قبل التاريخ بافر يقيا هم الذين طالبوا بهذا المليون من السنوات الذي زودهم بها حديثا أومووكوي فورا، وهذا أمر لا يرضينا!

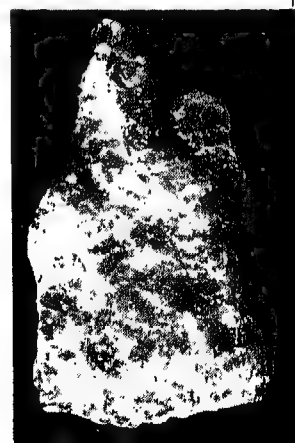
ولهذا وجب علينا أن نقتصر على حل المشكل الثالث وهو استدعي أن نوضح أغراض الإنسان «الأدوات» البسيطة جدا والأقل تهذبا. ان افر يقيا هي القارة الوحيدة الكفيلة، بما لها من ثروة وثائقية، بأن تسمح بذلك البحث الذي يشمل ميدانين: العظم والحجر.

أ — الصناعة العظمية السنية القرنية: لقد كانت الفرضية التي عبر عنها ر. درات سنة ١٩٤٩م موضوع تقييم من طرف دونالد ل. ولبرغ سنة ١٩٧٠م (ك. أ. فبراير ١٩٧٠) ولقد سبق للقس بروي أن اقترح بعد دراسة العظام المكتشفة لانسان الصين، من شوكويتان، بأن «عصر العظم» ربما سبق «عصر الحجر»، فن المحتمل وجود عصر «ما قبل الحجري» سابق للعصر الحجري القديم. ولم تعرف صناعة حجرية متصلة بملاحيى عردة الجنوب قبل ١٩٥٥م (جنوب افر يقيا) و١٩٥٩ - ١٩٦٠م (أولدواي طانزانيا) و١٩٦٩م (أومو، أثيوبيا) و١٩٧١م (بحيرة رودولف، الكينيا). الا أن درات قد قام مدافعا عن صناعة عظمية، أساسها العظام والأسنان والقرون، يسميها الصناعة «العظمية السنية القرنية» ولم يتوفر لنا مع الأسف ترتيب تاريخي دقيق، سواء كان نسبيا أو مطلقا، عن عردة الجنوب بافر يقيا الجنوبية، التي كانت من هذه الناحية أقل حظا من أثيوبيا والكينيا وطانزانيا. وإذا اقتصرنا على مشكل الصناعة فإن ر. دارت الذي ظل من ١٩٤٩م الى ١٩٦٠م يدافع عن وجوده، قد اعتمد في حكمه على فحصه لكسور دماغية للقرادح (بابوان) ولقردة الجنوب. ولقد فضل فيما يبدو أن يختار بين العظام المتراكمة في ما كابنسغات (٣٣٦ قنا، و٥٦ عظمًا فخذيًا مثلا) والفقرات الحية (الأطلس والفائق) التي تمثل ٥٦% من الفقرات مع جمجمات البقرريات. وقد رأى بأن العظام المتراكمة الخاصة بقردة الجنوب، هي أكدرس من الفضلات ومن



● (١) حصاة من أقدم الحصوات  
المشكلة في العالم (حفريات ج.  
شافايون).

● (٢) حصاة من أولى الحصوات  
المشكلة في العالم (حفريات ج.  
شافايون).



بقايا طعام تركه صياد نهاب، مكنه تحريره، نظرا لقدرته على الوقوف، من أن يستعمل الأسلحة والأدوات. وفي هذا الميدان استطاع (دارت) بعد فحصه لخمسين جمجمة للقرادح و٦ لقردة جنوبية أن يؤكد وجود رضوض في ٨٠٪ منها، وقد تسببت فيها أسلحة يدوية. وكانت الضربات تصيب غالبا الوجه، ويمكن للضرر أن يكون مضاعفا، مما يدل على سلاح ذي رأسين. ويوجد في ماكا بنسغات عدد من عظام النقا، لذوات الحافر عليها آثار اهتلاك حدث قبل التآحفر، بينما كانت العظام الطويلة الأخرى سليمة. وذلك ما دفع دارت الى استنتاج ما يلي: (ان الاداة التي يختص بها قرد الجنوب هي هراوة من عظم، وعلى الأخص من نقا حيوان ذي حافر). ولقد استعمل الصياد أيضا فكوكا. ان التكسير باللي (كسر لولي) في النقا والعظام المستدقة يفيد هنا أيضا تدخل اليد كما اقترح ذلك بروي وتيلاردي شردان في شوكتين موطن إنسان الصين. ان ذلك القرن الأيمن المتآحفر من الغزالة الرشيق، المغروز بعظم فخذي لطفي كبير، حيث تصلب بفعل الكلسيت، يعبر عن فعل انساني، سواء أكان أداة أثبتت على تلك الحال أم أداة لكسر عظم الفخذ. وكذلك شأن عقب جمجمة ضبع قد غرز بها عقب ظبي، بين القبة والقوس الوجني.

وهكذا فقد سبق أن وجدت مرحلة «عظمية سنية قرنية» ما قبل المرحلة الحجرية تلاها العصر الحجري، الذي واصلته «ثقافة الحصة» ثم صناعات الأسلحة ذات الوجين. وكان ذلك بداية لنشاط ثقافي قائم على استعمال الأدوات).

ان مثل هذه الفرضية قد تسببت في مناقشات عنيفة تتعلق بموضوع «الصيد أو المصيد» ويرى بعضهم أن جميع العظام، حتى عظام قردة الجنوب ليست الا شواهد على مآدب الحيوانات اللاحمة. ويرى فيها آخرون أنها تراكمات موجود بملاحي الضبع، الا أن هذا يتنافى مع عوائد ذلك الحيوان آكل الجيف، أو أنها من أعمال الشياهم (بورك ابيك). والحال تشهد بأنها من الـ ٧١٥٩ قطعة عظمية المجموعة في ماكا بنسغات، لم يقضم منها سوى ٢٠٠ قطعة. يضاف الى ذلك ان الضباع تعيش وسط عظام ضبعية. ولقد بين موطن يرجع الى عهد ريس وورم أنه يوجد ١١٠ ضبعا بين ١٣٠ حيوان، بينما لا يوجد منها في ماكا بنسغات الا ١٧ من ٤٣٣ حيوان. ويوجد في الركام الخاص بقردة الجنوب ٤٧ سنا منفردة للضباع، من ٧٢٩. ويوجد بموطن ريس. وورم ١٠٠٠ على ١١٠٠.

ولقد تغلبت شيئا فشيئا النزعة المناصرة للصناعة العظمية السنية القرنية، من دون أن تحكم مسبقا على نوع القرد الجنوبي الذي قد يعتبر أنه كان الصياد. ان وجود صناعة حجرية معها (ستركفنتاين ١٩٥٥) جاء ليؤيد ذلك، ولقد أثبت بالبرهان الصناعة العظمية بأولدواي التي نشرها أحسن نشرم. لا يكي (٣). فهي لا تقبل النزاع وقد مهدت السبيل للصناعة المنسوبة للإنسان القرد بافريقيا وآسيا (شوكتيان) وأوربا (ترالبا وأمرونا مثلا).

ويوجد على طول ازمنا ما قبل التاريخ عرق من الصناعة العظمية كان موازيا لعرق الصناعة الحجرية. ان تحليله يعتبر أدق، الا أن ذلك لا يمنع وجوده. وهذه الصناعة ليست في أي مكان آخر أقدم مما هي في افريقيا، وإن كان البرهان على وجود مرحلة «قبل المرحلة الحجرية» لم يحصل.

**ب - الصناعة الحجرية:** منذ أن تركت فرضية «الصوانيات»، تمثل الحصاة المهيأة التي سميت مدة طويلة «ثقافة الحصاة»، أقدم صناعة حجرية معروفة لدينا، ونحن نعلم كيف أن ج. ويلاند، الذي كان مدير المصلحة الجيولوجية بأوغندا، قد لاحظ سنة ١٩١٩م بذلك الجزء من إفريقيا الشرقية وجود حصاة منحوتة تشابه تلك التي اكتشفت بأستراليا قبل ١٩١٤م. ولقد وضع سنة ١٩٢٠م مصطلح «ثقافة الحصاة» و«كفوين» (نسبة إلى نهر كفو). وميز سنة ١٩٣٤م مراحل تطويرية عددها أربع. وهو الذي أشار على ل. لاكي سنة ١٩٣٦م بأن يضع مصطلح أولدواي لوصف ثقافة الحجارة المتطورة الموجودة بفتح أولدواي (طانزانيا). وحاول فان ريت لوو سنة ١٩٥٢م أن يضع تصنيفاً تقنياً ومرفولوجياً أولاً لثقافة الحصاة. ولقد أتى من آسيا مرة أخرى، على لسان ه. موفيسيس، تعريف أشكال تعتبر أساسية: الساطور، والساطور الأداة، والفأس اليدوي (١٩٤٤م). ويقتنع بذلك تدريجياً المؤرخون لما قبل التاريخ بإفريقيا، ولا سيما باوربا: الجزائر (ك. آرمورك)، المغرب (ب. ببيرسن)، الصحراء (ه. هوغو، ه. إيمان، ج. هيفايون) كتنكا (مرتلمان) الخ... ولقد اقترحت تصنيفات مرفولوجية، معتمدة على تقنيات التحت (ل. رمندو، ب. ببيرسن). و يبرز من هذا ملاحظتان:

١ - أن «ثقافة الحصاة» تعتبر معقدة جداً لأن أشكالها متنوعة جداً، وقارة ومنظمة. فهي لا تمثل بداية الصناعات الحجرية.

٢ - أن «ثقافة الحصاة» تشمل بالقوة كل الإمكانات التطورية التي ستوفر الصناعات الكلاسيكية بالعصر الحجري الأسفل بإفريقيا، أي صناعة الأسلحة ذات الوجهين، والقذومات، ولن نحفظ إلا بالنقط الأولى.

واعتباراً إلى ذلك التعقيد الخاص بثقافة الحصاة وبانتشارها، أصبح الباحثون في ما قبل التاريخ بإفريقيا يتطلعون إلى وضع ترتيب تاريخي أطول من الذي لم يقبل إلا بصعوبة، والذي أعطى سنة ١٠٠٠٠٠ سنة للدهر الرابع. ولقد أصبح تاريخ الأولدواي بطريقة البوطاسيوم أرغن (١٨٥٠٠٠ سنة) إلى ١١٠٠٠٠٠ سنة لهذا «الباد ١» مؤكداً بتاريخ موطن بحيرة تركانا أي بما قدره ٢٦٠٠٠٠٠ سنة. إلا أن هذه الصناعة الأخيرة، وإن كانت تشمل حصاة مهيأة، فهي لا تنتسب في جملها إلى «ثقافة الحصاة». لأنها صناعة شظايا، في سنة ١٩٧٢ جمعت بأوموشطايا، يغلب على الظن أنها برهان ضعيف ونحن نتساءل أن لم يسبق تهيئة الحصاة لتكون أداة، استعمال الشظايا المقطوعة من صخرة معنية من المادة الخام. إلا أننا نصل هنا إلى حدود إمكانية النسبة إلى سبب غير طبيعي: فإن كانت آثار النحت غير واضحة (عقب - بصلة)، وإن جاز أن نؤكد على «صقل الإستعمال» فإننا سنعود إلى مشكل «الصوانيات» القديم.

ولذلك فإن الموجود الذي لا يفسر بغير تدخل الإنسان هو الذي يلفت النظر. لكن أين سينتهي بنا التساؤل؟ إن الحد الأكثر جرأة في هذا الصدد قد بلغه ل. لاكي الذي ينسب إلى قرد الكينيا

«نشاط القرع بالعظم» لأنه استعمل قطعة من طفح قرعة الإستعمال وسحقه كما استعمل عظاما طويلا يمثل كسرا عميقا (٤).

وهنا تتلاقى مشاكل الصناعتين العظمية والحجرية في أصليهما. فلقد استحال الإتيان بأي برهان تكنولوجي أو مرفولوجي اذ لم يمكن ملاحظة أي أثر (كلاسيكي) من نشاط إنساني. والبرهان الإيجابي الوحيد هو ذلك الموجود الذي لا يفسر، والمتكون من شظايا بالقرب من بقايا قرد الكينيا. إلا أن نفي دور الطبيعة لا ينفي الاستعمال من قبل كائن شبيه بالإنسان وسابق لظهوره. وما ذكرناه سابقا في شأن سلوك الشمبنزي حاليا يؤيد هذا الاتجاه.

فإن كانت أدوات العظم والحجر تشهد على أن عملية عقلية بشرية حدثت منذ أكثر من مليونين ونصف من السنوات، فذلك لا يعتبر في نظر مؤرخ ما قبل تاريخ إفريقيا، نقطة البداية للعمليات العقلية.

(٤) ل. س. ب. ليكي «Bone smashing by Late Miocene Hominid» «مجلة الطبيعة» ١٩٦٨.

## معجم المصطلحات

انسان التشاد (Tchdanthrope) : من البشريات الأحفورية. يقع من حيث التركيب البدني بين مرحلتين قرد الجنوب والانسان - القرد.

الإنسان العارف (Homo sapiens) : تسمية أطلقها س. ليني (١٩٥٣)، وهي مخصصة للأشكال الحديثة أو للإنسان الجديد، للدلالة على الإنسان الذي تحصل بفضل ذكائه إلى حالة من التكيف مع الوسط تسمح له بأن يفكر ويتأمل بكل حرية.

الإنسان الماهر (Homo habilis) : تسمية أطلقها لاكي، وتوبياس، ونابسي، للدلالة على الأحفورات التي تقع درجة تطورها التشريحي بين قرد الجنوب، والإنسان - القرد.

انفياي: نسبة إلى أنفة ببلاد المغرب. وهو التعدى البحري الثالث الذي حدث في الدهر الرابع بالمغرب.

أوجيت: سيليكات الكالسيوم والمغنيسيوم والحديد الطبيعي. وهذا المعدن يدخل في تركيب البزلت.

أورينياسبي: نسبة إلى أورينياك (جارون العليا بفرنسا). قامت فيه صناعة فيما قبل التاريخ في العصر الحجري القديم الأعلى. ان هذا الاسم الذي (أطلقه ه. بروي، وأ. كارتيلهاك في ١٩٠٦)، يدل على الصناعات المحددة تاريخيا بين الموستيري والبريغوردي، ويتميز بأداة قصيرة من خشب الرنة (حيوان) وحكاكات ثخينة، ونصال عليها زخرفة خطية مستوية ذات قشور، كما يتميز ببعض المناقش، وفيه ظهرت الآثار الفنية الأولى، وهي عبارة عن تماثيل صغيرة حيوانية، وعلامات منقوشة نقشاً سريعاً على كتل من الأحجار الكلسية. ويرجع إلى حوالي ٣٠٠٠٠ سنة.

أوغري ١: المطار الصحراوي الثاني، ويعادل الكاماسي.

أوغري ٢: المطار الصحراوي الثالث، ويعادل الكنفري.

أولدواي: نسبة إلى فوج أولدواي في طانزانيا الشمالية. ويوجد به مركب من الأدوات الحجرية القديمة (حصي مهين) اكتشفه (كاتوينكل عام ١٩١١). وقد ميز (لاكي) في هذا المركب ١١ مستوى تبتدئ بالأولدواي ١ الموافق للشوي القديم، وتنتهي بالأولدواي ١١ الموافق للأشوي ٦، مع أدوات لوفالواسية.

أبفيلي: مظهر من النشاط الصناعي قام بتعريفه (ه) بروي (Breuil) في أبفيل الواقعة بوادي الصوم بفرنسا. ويتميز بأدوات حجرية ذات وجهين، ومنحوتة تحت عميقا بواسطة قارع صلب (من حجر). وهذا المظهر الذي عرف في أوروبا يوافق مطلع العصر الحجري القديم الأسفل.

أشولي: نسبة إلى سان أشول، الواقعة بوادي الصوم بفرنسا. وهو المظهر الثقافي الرئيسي في العصر الحجري القديم الأسفل. وقد دام من تجمد (مندل) إلى نهاية العصر الجليدي البيني (ريس - ووم). والأداة النموذجية المستعملة هي آلة ذات وجهين، أكثر انتظاما من التي استعملت في الأبفيلي، وهي منحوتة بقارع غص (خشب أو عظم).

أمازوفيت: نوع أخضر من الميكرولين.

أميري: دورة قارية مغربية معاصرة للمندل الأوربي.

انسان (Homo) اسم جنس مخصص في تصنيف الحيوانات للإنسان الأحفوري. والإنسان الحالي.

انسان الأطلس (Atlantrope) : أحفور من مجموعة الإنسان القديم، قام بتعريفه س. أرمبورغ في منجم يقع في تيرنيسين (الجزائر). وتعزي البقايا إلى نهاية البليستوسين الأسفل.

انسان التل (Mélanthrope) : تسمية نوعية أطلقها بروي، روبنس على قطعتين من فك أسفل عثر عليها في ١٩٤٩ في منجم سوارتنكزنس (جنوب إفريقيا)، وشكلها شبيه بشكل الفك الأسفل للإنسان القديم.

انسان الصين (Sinanthrope) من السلاتينية سينانيسيس وتعني: صيني، ومن اليونانية أنثرو بوس، وتعني (انسان). يقصد به أحفور تمثل فيه في نفس الوقت خصائص قريية من الإنسان الحالي تجعله ينتمي إلى الجنس البشري، وخصائص أخرى مخالفة للأولى يتميز بها نوع آخر. ان منجم شوكتوتيان (في الجنوب الغربي من بكين) قد استغله بين عامي ١٩٢١ و ١٩٣٩ المكتشف بيبي وم. بلاك، والأب تيلاردي شاردان، وف. فيسندرايخ. وهو ينتمي إلى نوع الإنسان المستقيم.

تكتيت: زجاج طبيعي غني بالسيليس والألمين، ومن المحتمل أن أصله من الكون.

توف (Tuf): صخر بركاني مسامي خفيف وغضن طري.

ثقافة الحصى: يقصد بها صناعة الحصى المثقف، وهي أقدم صناعة حجرية معروفة، وتتألف بصورة أساسية على حصى أحدث فيها حد قاطع بالنزح مرة أو عدة مرات.

جاديت (Jadéite): الألمينو سيليكات طبيعي للصوديوم، مع شئ قليل من الكالسيوم والمغنيزيوم والحديد.

دوليريت: صخر من فصيلة الكابرو، معادن يمكن رؤيتها بالعين.

دهنج (Malachite): كربونات النحاس الأساسي الطبيعي، لونه أحمر.

دياباز: صخر من فصيلة الكابرو (صخر محبب) والديوريت لونه أخضر في الغالب.

ديوريت: صخر متبلر.

ذو الوجهين (بيفاس): آلة من حجر منحوتة على الوجهين، شكلها شكل لوزة. وكانت تسمى (الفاس) ثم (اللكمة) ويبدو أنها كانت تستعمل للقطع، وأحياناً للكشط. وهذه الآلة يتميز العصر الحجري القديم الأسفل.

ريس: نسبة إلى جدول ماء في بافاريا. و يقدر به التجمد ما قبل الأخير الألبى في الدهر الرابع، وقد وقع في ٢٠٠٠ سنة. و-١٢٠٠٠ سنة.

ساوري: نسبة إلى الساور (واد في الصحراء الجزائرية)، ويقصد به المطار الصحراوي الرابع، ويمادل الكبلي.

سبح (Obsidienne): صخر بركاني زجاجي مرصوص يشبه الزجاج الضارب إلى السواد.

ستيلباي: نسبة إلى ستيل باي (مقاطعة الرأس)، قامت فيه صناعة حجرية غنية بالقطع الورقية الشكل ذات تنقيفات على الوجهين شبيه بأوراق الرند في السلوترى الفرنسي وهو معاصر للكبلي.

سربنتين: سيليكات المغنيزيوم الموهية.

أولييكوس: الحقبة الثانية من الدهر الثالث، تتراوح من ٤٥ مليون سنة إلى ٢٥ مليون سنة.

إيبيروموروسي (Ibéromaurusien) مظهر ثقافي من أواخر العصر الحجري القديم، ومن بعد العصر الحجري القديم بالمغرب، ويتميز هذا العهد بكثرة الأدوات الحجرية الصغيرة. وقد دام من الألفية العاشرة إلى الخامسة ق.م.

ايبيدوت: سيليكات الألمينيوم والكالسيوم والحديد الموه الطبيعي.

ايسوسين: الحقبة الأولى من الدهر الثالث، منذ ٦٥ إلى ٤٥ مليون سنة.

بازلت: صخر بركاني.

باليزويك: كلمة مرادفة للدهر الأول.

بشريات (Homínidès) فصيلة حيوانية من المقدمات العليا، يمثلها البشر الأحفوريون (Fossiles) والبشر الحاليون.

بليستوسين: (من اليونانية بليستوسن، وتعني كثير، وكينوس، وتعني حديث) ويقصد به الانقسام الجيولوجي الفرعي للدهر الرابع، ويشمل مظهره والجزء الأكبر منه. إن هذا المصطلح الذي وضعه ش. ليال عام ١٩٣٩ يوافق أوقات التجمدات الكبرى في الدهر الرابع، ويسبق الحقبة الهولوسينية التي تبتدئ منذ ١٠٠٠٠ سنة قبل عهدنا.

بليوسين: حقبة نهائية من الدهر الثالث. ابتداء في ٥٠٠ هـ ملايين وانتهى في ١٨ مليون سنة.

بنجديات (Pongidès): فصيلة من القردة الشبيهة بالإنسان، ونموذجها هو الأورانغوتان، وتشمل أيضا الغوريلا والجيون والشمبزي.

تشيتولي: اصطلاح وضع على اساس مركب حجري عثر عليه في تشيتولو (كاساي). ويدل على مظهر صناعي من العصر الحجري القديم اللاحق ويتميز باستمرار وجود أدوات ضخمة، ولكن أحجامها أصغر مما كانت عليه في اللوبي، وتعدد أسنة السهم المثقف على الوجهين.

تانسيغتي: نسبة إلى غربي تانسيغتي (القسم الغربي من المغرب) ويقصد به الدورة القارية المغربية الموافقة للقسم الأول من ريس.

جديد وليتوس وتعني حجر). يقصد به العصر الحجري المتميز بانتاج القوت (زراعة، رعي). وهذه الكلمة من وضع ج. لوبوك عام ١٨٦٥م.

**عصر حجري قديم (بالبوليتيك):** (من اليونانية باليوس، ومعناها قديم، وليتوس، ومعناها حجر). يقصد به العصر الحجري، بدون انتاج للقوت. وهذه الكلمة من وضع ج. لوبوك عام ١٨٦٥.

**عصر حجري وسيط:** (الكلمة الأجنبية ميزوليتيك أصلها ميزو، وتعني: في وسط، وليتيك، وتعني: حجارة). استعملت هذه الكلمة مدة طويلة لتدل على مجموع المظاهر الثقافية الواقعة بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الجديد. وتنسب اليوم على الأرجح لمرحلة لاحقة للعصر الحجري القديم.

**عقيق أحر (كورنالن):** كلسيدونية حمراء.

**كاليه (Galène):** سلفور الرصاص الطبيعي.

**كامبلي (Gamblen):** هو المصطار الإفريقي الرابع، وقد وصف وصفا علميا بالنسبة لما حول بحيرات ناكورو، ونايفاشا، والماتيتا (الكنيا). وهو معاصر للعصر الجمودي اليورمي، ولكن لا يستعمل اليوم.

**غونز (Günz):** نسبة الى نهر ألمانيا. ويقصد به أقدم تجمد ألي في الدهر الرابع.

**فنتسلي المنخريين (Platyrrhiniens):** قرد العالم الجديد، له ٣٦ سنا، وله وتيرة أنفية ثخينة.

**فورسميث:** نسبة الى بلدة تقع في ولاية أورانج (جنوب إفريقيا). قامت فيها صناعة حجرة تشتمل على مكاشط وأستة ذات وجه واحد تستعمل للتسوية، وآلات ذات وجهين، وقدموات صغيرة. وهي توافق العصر الحجري القديم الوسيط بأوربا.

**فيلافرنشي:** نسبة الى فيلافرنكا داستي (بييمون). ويقصد به التشكل الرسوبي الموافق للفترة الانتقالية بين الدهرين الثالث والرابع.

**قاسبسي:** نسبة الى كابسا (الاسم اللاتيني لقابس في تونس الجنوبية) قامت فيه صناعة من العصر الحجري القديم الإفريقي. تولى تعريفه ج. دي مورغان. احتجعت فيه أدوات من النوع السائد في العصر الحجري القديم الأعلى، الى جانب العديد من الأدوات الحجرية الصغيرة، وآلات الثقب الصغيرة الثخينة،

**سفلات المنخريين (Catarhiniens):** قردة العالم القديم، لها ٣٢ سنا، ولها وتيرة أنفية رقيقة.

**سنهوي:** موقع ينسب الى خليج سنغو (في بحيرة فكتور يا بأوغندا). وهو مركب للصناعات الحجرية اكتشفه وإيلاند عام ١٩٢٠، يتميز بأدوات جمعت بين آلات مصنوعة من شظايا بطريقة لوفالوا، وبين معاول ضخمة، وذوات الوجهين، وقطع مزينة بالأوراق. وقد ازدهر بين الكاماسي والكبيلي.

**سينوزويك:** مرادف للدهر الثالث والدهر الرابع. يبتدى مع الإيوسين منذ ٦٥ مليون سنة، ويشتمل بعد ذلك على الأليفسوسين (— ٤٠ مليون سنة)، والميوسين (— ٢٥ مليون سنة) والبليوسين (— ١١ مليون سنة) والبليستوسين، والحقبة الحديثة.

**شولي (Chelléen):** نسبة الى شول. يقصد به المظهر الصناعي في العصر الحجري القديم الأسفل وصفه ج. دي مورتيلي. وهو التسمية القديمة للابفيلي.

**صناعة عظمية سنية قرنية (Ostéodontokératique):** من صناعات ما قبل التاريخ وهي قائمة على العظم. (من اليونانية أوستيتون، وعلى الأسنان (من اليونانية أودوس، أودنتوس)، وعلى القرن (من اليونانية كيراس، كيراتوس)، اكتشفت في ماكنسفانت (جنوب إفريقيا) من طرف ر. أ. دارت.

**صولتوري:** نسبة الى صولتورا (منطقة الصون واللوار بفرنسا). قامت فيها صناعة فيما قبل التاريخ في العصر الحجري القديم الأعلى، وتتميز بصفائح رقيقة جدا من الصوان (سيليكس). ان المظهر الخارجي للأدوات المميزة له سببه الصنع بتقنيات حائلة متوازية على وجهي القطعة.

**عاطري:** نسبة الى بئر العاطر بالجزائر الشرقية. يتميز بالصناعة في العصر الحجري القديم بشمال إفريقيا، بين المستيري والقاسبسي. ويشتمل على أستة الرماح وبجرفات ذوات ساق، وعلى بعض الأستة التي لها شكل أوراق. وقد توصل العاطري خلال قسم كبير من (وورم)، ومن المرجح أن قسا منه معاصر للعصر الحجري القديم الأعلى بأوربا.

**عصر النحاس والحجر (Enéolithique):** أصل التسمية الأجنبية من اللاتينية اينوس، ومعناه البرونز. ومن اليونانية ليتوس، ومعناه الحجر. كلمة مرادفة للعصر المعدني الحجري (Chaleolithique). وهي حقبة فيما قبل التاريخ بدأ الإنسان يستعمل فيها النحاس.

**عصر حجري جديد (نيوليتيك):** (من اليونانية نيوس، وتعني



(آكلة كل شئ)، من الميوسين ومن المحتمل أن يكون جد البشر يات. ويرجع الى عهد ١٢ أو ١٤ مليون سنة. اكتشف في روابي سيواليك (شمالي الهند)، وتوجد منه نماذج أخرى معروفة في الصين وتركيا وفورتارنان بافر يتشيا اما في أوربا، فهو معروف في فرنسا وألمانيا واليونان والنمسا واسبانيا والمجر.

قرصاني: آلة من حجر شكلها شكل القرص، مستعملة في أواخر الأشولي، ومنحوتة على الوجهين.

كاغيري (Kaguérien): نسبة الى نهر كاغيرا (طانزانيا). ويقصد به المطار الإفريقي الأول، وقد وصفه ا. ج. ويلاند عام ١٩٣٤م. وهو معاصر لتجعد كونز في جبال الألب. ولكنه لا يستعمل اليوم.

كافون: نسبة الى نهر كافو (اوغندا) ويقصد به مظهر صناعي في مطلع العصر الحجري القديم الأسفل بافر يتشيا الشرقية، ويتميز بحصى مسطح منحوت تحت خفياء وغير مصقول، ومن العلماء من ينازع في أصله البشري.

كالابري: نسبة الى كالابر. أقدم طبقة في العصر الرابع البحري، قام بتعريفه م. جينوعام ١٩١٠م.

كاماسي (Kamasien): نسبة الى كاماسا (كينيا). ويقصد به المطار الإفريقي الثاني، والتسمية العادية له هي الكاماسي الأول، وهو معاصر لتجعد مندل الاوربي، ولكنه لا يستعمل اليوم.

كانجيريري (Kanjerien): نسبة الى كانجيريرا (كينيا) ويقصد به المطار الإفريقي الثالث، وقد وصفه ل. س. ب. لايسكي، والتسمية العادية هي الكاماسي الثاني. ويقابل في جبال الألب العصر الجمودي لريس، ولكنه لا يستعمل اليوم.

كلاكوتوني: نسبة الى كلاكوتون - أون - سي (بريطانيا العظمى). قامت فيه صناعة نيا قبل تاريخ من العصر الحجري القديم الأسفل. وصفها هـ. بروي في ١٩٣٢م. وهي تتميز بشظايا من الصوان لها سطح أملس وخر يض يستعمل للضرب. ويبدو أن الكلاكوتوني معاصر للأشولي.

كلسيت: كربونات الكلسيوم المتبلرة. ويوجد منه في الطباشير، والرخام الأبيض والمرمر الكلسي.

كلسيدونية (Calcedonie): نوع ليفي من السيليس يتألف من رمل الصوان وحجر الأوبال.

لازورد (Lapis-Pazuli): صخر أزرق لازوردي يستعمل في

ولعلها كانت تستعمل لثقب القطع من مواقع بيض النعام المستعملة لصنع العقود. ويرجع الى حوالي ١١٠٠٠ سنة.

ما قبل السلطاني (Présoltanien): حقبة قارية مغربية توافق نهاية ريس. وهي سابقة للسلطاني (نسبة الى دار السلطان).

ما قبل الكمبري (Précambrien): يقصد به أقدم تشكل جيولوجي. دام منذ تشكل الكرة الأرضية (و يقدر بـ ٤ مليارات سنة) الى الدهر الأول (— ٥٠٠ مليون سنة).

قدوم: آلة ضخمة مصنوعة من شظية لها حد قاطع يتكون من تلاتي سطحي الشظية. وهذه الآلة يتميز الأشولي الإفريقي، ولكن عثر عليه أيضا في صناعات العصر الحجري القديم والوسط في بعض المناجم من جنوب فرنسا، وفي اسبانيا.

قرد البليستوسين: يقصد به قرد الجنوب الرشيقي. اكتشف في ترانسفال عام ١٩٣٦، في قاعدة البليستوسين.

قرد الجنوب (أوسترالوبيثاك): (أصل التسمية، من الكلمة اللاتينية أوستراليس، أي الجنوبي، ومن الكلمة اليونانية بيتاكوس، أي القرد). اسم جنس أطلقه (دارت) عام ١٩٢٤م على عدد من الأحفورات في جنوب إفريقيا، لها خصائص القرد، وصفات قريبة من صفات البشر، ومنذ ذلك العهد وقعت اكتشافات أخرى في إفريقيا الشرقية والجنوبية.

قرد إنسان (Pithecanthrope) يقصد به أحفوره له خصائص قريبة نوعا ما من الإنسان الحالي، تضعه في جنس الإنسان، وخصائص أخرى يتميز بها نوع آخر. وقد اكتشف أول قرد - إنسان من طرف ا. دو بوا، في جاوة عام ١٨٨٩م وينتمي الى نوع الإنسان المستقيم.

قرد ذيل (Cercopithecus): أصل الكلمة الأجنبية، من اليونانية (كركوس) ومعناها: ذيل. و (بيتاكوس) ومعناها: قرد. وهو قرد إفريقي ذو ذيل طويل.

قرد شبه الإنسان (بارنثروب): صنف من قرد الجنوب القوي، عثر عليه في عام ١٩٤٨م في البليو - بليستوسين في كروم راسي (ترانسفال). ويقال له أيضا: القرد - الإنسان الزنجي، (زنجنثروب)، وشبه قرد الجنوب (باروسترا لوبيتيك). ان هذا الصنف البائد له خصائص قردية كثيرة، ولكن، له سمات تجعله أقرب الى الإنسان منه الى القرد الشبيه بالإنسان، وخاصة في ما يتعلق بانتظام أسنانه.

قردا رامبا: قرد رامبا فيكيري: ينتمي الى المقدمات القارة

## المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا

**معارفي:** نسبة إلى المعارف (المغرب) ويقصد به التعدي البحري على الشاطئ الأطلسي من المغرب في الدهر الرابع.

**مندل:** نسبة إلى نهر يقع في بافاريا. يطلق على التجمد الثاني الألي في الدهر الرابع. ويبدو أنه يتراوح بين ٣٠٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

**موسستيري:** نسبة إلى موتبي (دورونيا). قامت فيه صناعة فخا قبل التاريخ في العصر الحجري الوسيط، وانتشرت في القسم الثاني من البين جمودي الأخير. وصفها أ. لاريت في ١٨٦٥م، وتتميز بكثرة الأسنة والمكاشط المصنوعة بتسوية الشظايا على وجه واحد منها.

**مولوي:** نسبة إلى وادي المولوية بالمغرب. وهي كلمة استعملها ببيرسون وتطلق على الفيلافرنشي الوسيط بالانرب.

**ميكوك:** من مواقع ما قبل التاريخ، شمالي الإيزي بفرنسا (Eyzies) على بعد ٢٥ كلم في الشمال الغربي من سارلا، اكتشفت بهذا الموقع الصناعة الميكوكية (وهي شكل متطور جدا من الأشوبي ومعاصرة لتجمد ورم).

**ميسوسين:** (من اليونانية ميون، وتعني: أقل وكنوس، وتعني: حديث)، أي أنه أقل اشتمالا على الأشكال الحديثة من النظام الموالي له. وهو حقب من الدهر الثالث الواقعة بين ٢٥ و ١٠ ملايين سنة قبل الميلاد.

**نضيد (شيست):** صخر رسوبي سيليكو-ألوميني، مورق يتفلق بسهولة إلى صفحات.

**نياندرتالي:** نسبة إلى واد صغير من حوض دوسيل (ألمانيا)، حيث اكتشف الدكتور فوهلروت عام ١٨٥٦م، أول ممثل لمجموعة خاصة من جنس الإنسان، كان يعيش بأوربا الغربية، في البليستوسين الأعلى، ثم انقرض فجأة من غير أن يترك خلفا له.

**هاروني:** التعدي البحري الرابع في الدهر الرابع على الشاطئ الأطلسي للمغرب.

**هولوسين:** أحدث حقبة في الدهر الرابع. بدأ منذ ١٠٠٠٠ سنة. هيماتيت: أكسيد الحديد الطبيعي.

**وعنة (Latérite):** من (لاتير، أي الآجر)، وهي تربة حمراء فاقع لونها، أو حمراء داكن لونها، غنية جدا باكسيد الحديد والالومين، وتتشكل في المناخ الحار نتيجة للتذبذب.

**الفيسفام (موزاييك)،** ويسمى مسحوقه «Autremer».

**لكمة القبضة:** آلة من حجر على شكل لوزة، منحوتة على الوجهين، وربما كانت تستعمل للحفر والسلخ وهي التسمية القديمة لذي الوجهين (بيفاس).

**لومي:** نسبة إلى لوميا في كاساي (زاير). ويقصد به المظهر الصناعي من العصر الحجري القديم النهائي المتميز بالجمع بين أدوات ضخمة من حجر منحوت (مغاول - مقصات) وبين قطع ورقية الشكل مسواة بدقة على الوجهين. ويرجع إلى حوالي ٧٠٠٠ سنة قبل عصرنا.

**لوفالوا (تقي):** نسبة إلى لوفالوا - بيري، (مرتفعات السين بفرنسا). ويقصد بهذه الكلمة طريقة في تقصيب الحجارة تسمح، بعد إعداد البقايا الحجرية بالحصول على شظايا كبرى لها شكل معين.

**لوفالواسي:** مظهر صناعي تولى وصفه هـ. بروي في ١٩٣١، ويتميز بوجود شظايا غير مسواة عادة أو مسواة قليلا، ومستخرجة من بقايا حجرية من نوع لوفالو. ولا يعتبر اليوم مظهرها حقيقيا.

**ليديانيت:** شيست متصلب.

**مازي:** المطار الصحراوي الأول، و يعادل الكاغيري.

**ماغوسي:** نسبة إلى ماغوسا (أوغندا). قامت فيه صناعة حجرية اكتشفها وبلاند في ١٩٢٦م، وتقع بين الكبلي والمأكالي، وقد جمعت بين أدوات ذات مظهر موسستيري، كالبقايا الحجرية والأقراص والأسنة، وبين قطع ورقية الشكل مسواة على الوجهين، وأحجار صغيرة هندسية الشكل.

**ماكالي:** نسبة إلى ماكالا (كينيا). ويقصد به المرحلة الرطبة من الدهر الرابع بالقسم الجنوبي من إفريقيا، وهي مرحلة معاصرة لما بعد العصر الجمودي الأول في أوربا لا يستعمل اليوم.

**ماكوري:** طور تاريخي رطب عرف بواسطة الترسبات الموجودة فوق سطح أدنى من سطح بحيرة ناكورو (كينيا) ١٠٢ م. وقد اكتشفت في هذه الطبقات صناعات مرتبطة من حيث المظهر بالعصر الحجر الجديد الذي قد يرجع عهده إلى حوالي ٣٠٠٠ سنة.

**مرو (Quartzite):** صخر صلب يتألف أساسا من الصوان.

ووزم: نسبة الى بحيرة والى جدول ماء في بافاريا. و يقصد به أحدث التجمعات الألبية في الدهر الرابع. وهذا التجمد بدأ منذ ٧٥٠٠٠ سنة وانتهى قبل الميلاد بحوالي ١٠٠٠٠ سنة.

يشمب (Jaspe) : كلسيدونية غير صافية ملونة على شكل أشرطة أو بقع، وغالبا ما يكون اللون أحمر.

ولطوني: نسبة الى موقع ولطون (الرأس الغربي). يتميز بصناعة حجرية مؤرخة بحوالي ١٥٠٠٠ سنة، تشتمل على محكات على شكل سفود، وأحجار صغيرة على شكل قطع من دائرة، وعلى شكل مربع منحرف، وكذلك على مثاقب وقطع ذات حواف مسننة. و يعتبر مظهرها متأخرا امتد إلى أن بدأ الإنسان يستعمل الحديد.



## الفصل الثامن عشر

# البشرىات الأحفورية الافريقية

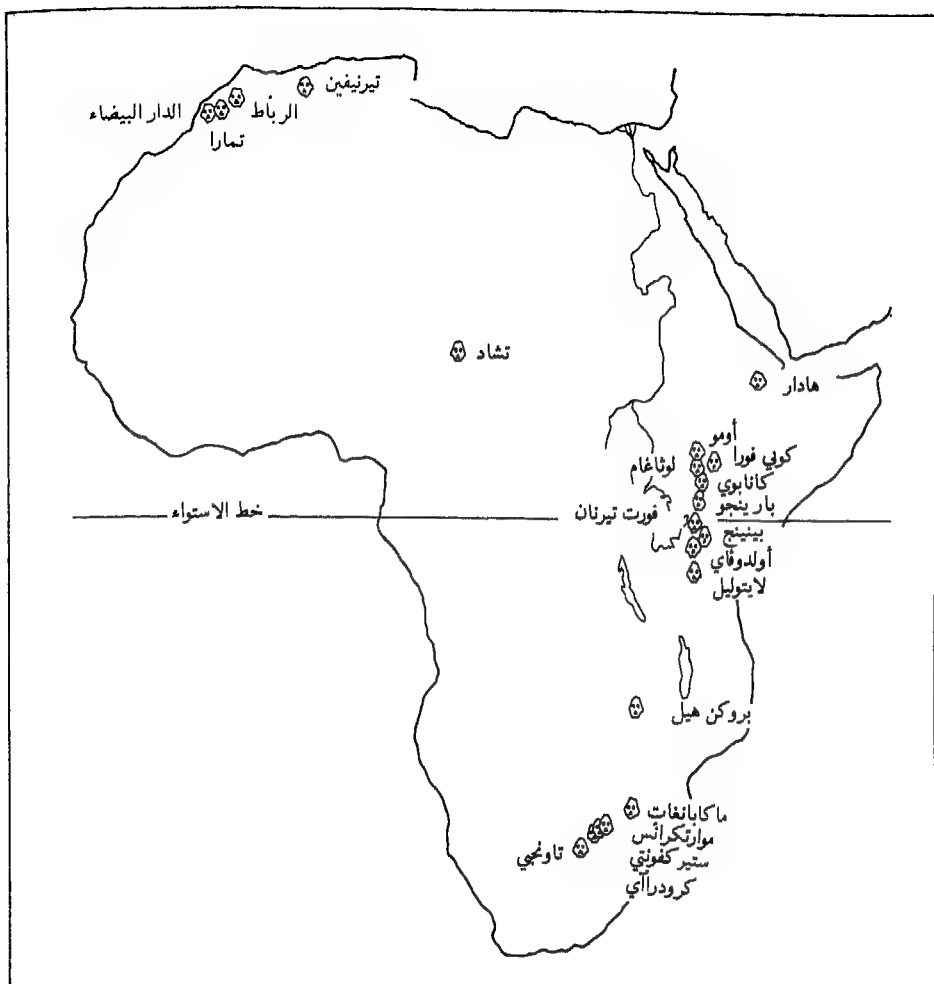
بقلم : ر. لاىكى

## افريقيا مهد الإنسانية

كان شارل داروين أول عالم أبدى نظرية عصرية تتعلق بتطور الإنسان وأصله، وكان أول من اعتبر أن افريقيا مهده الأصلي. ولقد بينت الأبحاث التي أجريت خلال القرن المنصرم كم كان على صواب، لأن كثيرا من المظاهر الخاصة بعمله الرائد قد تأكدت، ولذلك لا يمكن أن نتصور التطور مجرد فرضية نظرية.

إن الشواهد على تطور الإنسان بافريقيا مازالت غير مكتملة، إلا أننا نرى أن عددا كبيرا من الأحفورات قد تمت دراستها وتم تأويلها في القرن الاخير، إذ توجد أسباب راجحة تفيد أن افريقيا هي القارة التي ظهر بها البشر لأول مرة، حيث اكتسبوا لملشي على الرجلين والاستقامة العمودية اللذين يمثلان عنصرين قاطعين لتمام تكيفه. ويجدر بنا أن نبحث متى، وبأية طريقة استطاع الإنسان تحقيق ذلك التكيف. لقد كان التطور طويلا. على أن مراحل عديدة من تطور الإنسان لا تستند الى أية حجة من النماذج الأحفورية، لأن المحافظة على تلك الأحفورات مرتبطة فعلا بأحوال خاصة للغاية.

إن الاحفورية تحتاج الى أحوال جيولوجية يكون فيها الترسيب سريعا ويسمح التركيب الكيميائي للتربة، وكذلك مياه التصفية بتعويض العناصر العضوية بالعناصر المعدنية. إن الأحفورات المتشكلة على هذه الطريقة تظل مخفية في الأعماق تحت الرواسب المتراكمة ولا يمكن للإنسان العصري أن يكتشفها إذا لم تتدخل الطبيعة ببعض الوقائع مثل الإجتفاف، أو الحركات التي تحدث في بنية الأرض. وأمثال هذه المواطن نادرة ومبعثرة. فإن كتب لنا أن نكتشف كل سنة مواطن جديدة فسيمتنع جزء كبير من افريقيا امتناعا باتا من توفير شواهد أحفورية على ظهور الإنسان.



● عدد من أهم مواقع ظهور الكائنات البشرية.

وهنا أن نذكر الأسباب التي جعلت بعض أجزاء إفريقيا ثرية جدا فيما يتعلق بشواهد ما قبل التاريخ. وأولها تنوع السكن بإفريقيا فالقارة شاسعة من جهتي خط الاستواء وتمتد حتى المناطق المعتدلة شمالا وجنوبا. وهذه الحال تتسبب في تنوع المناخات. أضف الى ذلك الأراضي العالية في المنطقة الاستوائية تدخل بعدا آخر. ويرتفع هذا الحجاز الداخلي من الحاشية الساحلية ويتمثل في الانحدار بل في جبال وقم يحتفظ البعض منها بالثلوج الدائمة رغم حرارة المناخ وجفافه.

وتتوافر بالمرتفعات نباتات مختلفة تزداد برودة مع الارتفاع. ولقد كانت تلك العوامل دائما موجودة بإفريقيا. فإذا حدث أن وقعت تغيرات مناخية فعلا، فالذي لا شك فيه أن إفريقيا وفرت دائما للإنسان مسكنا لائقا، وكلما أصبحت منطقة خاصة شديدة الحرارة أو البرد، أمكن دائما التحول تحولاً جهويا نحو محيط ملائم أكثر.

لقد أبدى بعضهم فرضية تفيد وجود علاقة ارتباط بين الحقبات الجلمودية بنصف الأرض الشمالي، وبين الحقبات الرطبة بإفريقيا، باعتبار أننا نلاحظ فعلا أن التحولات الهامة الطارئة على مستوى البحيرات، توافق التحولات الطارئة على نسبة نزول المطر. ولقد درست هذه القضية بتوسع في السنوات الأخيرة. فإذا استطاع تقدم جودي أن يؤثر عموما على الأحوال الجوية فذلك لا يقوم دليلاً قاطعاً على وجود علاقة ارتباط (١). إلا أن تراكم الرواسب بأحواض بحيرات إفريقيا مدة البليستوسين يؤكد الفكرة التي تفيد أن الأمطار كانت أغزر في تلك الحقبة.

إن حجم الترسب كان كبيراً جداً، لقد كانت بحيرات عديدة من البليستوسين الإفريقي صغيرة وقليلة العمق، ويحتمل أنها كانت فصلية يطرأ على مستواها اضطراب سنوي، يعكس طبيعة المناخ المداري نفسه، مع نزول الأمطار قوية في بعض الأشهر فحسب. لقد كانت تلك البحيرات أحواضاً مثالية تتجمع فيها الرواسب التي تنزل سنوياً على شواطئها وحول مصبات الأنهار، وتطفو على حافاتها عند ارتفاع المياه. وكثيراً ما تدفن الحيوانات الميتة قرب شواطئ البحيرة بالرمال أو الأوحال المتجمعة مدة الفيضان. إن هذه الطريقة قد دامت ملايين السنوات، وعثر على آثار حيوانية بمستويات مختلفة، في مجموعات ترسبية يتجاوز سمكها الكامل ٥٠٠ متر.

وجفت أحواض وتكونت أخرى إثر ردم البحيرات وتحولات نظام الأمطار، ولا شك أن عملية التآحفر (Fossilisation) كانت طويلة، لأن البليستوسين يغطي أكثر من ثلاثة ملايين سنة فانطمرت مدة تلك الفترة كلها، بقايا الحيوانات في ترسبات صالحة للمحافظة عليها.

إن العثور على تلك الآثار يعتبر طبعاً مشكلاً هاماً بالنسبة للإحاثيين، غير أن بعض العناصر قد ذلت العقبات، في إفريقيا ولا سيما بإفريقيا الشرقية. فلقد حدث بإفريقيا الشرقية طيلة البليستوسين، وخاصة في نهايته، تحركات بنيوية مرتبطة بكسر أصاب القشرة الأرضية يسمى الرفع (وادي الرفع)، فتسببت هذه التحركات في صدوع جيولوجية، بأماكن عديدة ونتج عنها نهوض كتل من الرواسب. وأبرز الإحتراف المولي طبقات كانت قد تشكلت بها الأحفورات. وقد تركز البحث عن الأحفورات عادة بالأحواض القديمة حيث تكسرت التشكلات الرسوبية، وظهرت في شكل أراض جافة تسود فيها الوهاد.

على أنه توجد امكانيات أخرى، كما يشهد بذلك العدد الكبير من البقايا البشرية بمجنوب إفريقيا. لقد تجمعت تلك الأحفورات بكهوف كلسية حيث طمرت العظام المتراكمة عند امتلاء الكهوف وسقوط سقفها. ولقد نقلت العظام الى الكهف، بفعل عوامل كثيرة منها، حسب الاحتمال، الحيوانات آكلة الجيف او النهابة مثل الفهود والضباع. وتوجد بعض العلامات على احتلال تلك الكهوف من طرف البشر، وبالتالي يمكن أن تعزى اليهم بقايا العظام التي وجدت متحجرة. فالمشكل الخاص بهذا النوع من المواقع هو انعدام معيار عملي في علم طبقات الأرض، فيعسر ضبط العمر النسبي للأحفورات المكتشفة.

ولم تتحقق الشروط الضرورية لتأحضر الآثار الحيوانية في مناطق كثيرة بإفريقيا في البليستوسين. واعتبارا لذلك، فإن انعدام الآثار لا يعني أن الإنسان لم يكن موجودا في تلك المناطق، إذ أن أبحاثا جديدة كفيلة بأن تكشف مواقع جديدة.

إن الأدوات الحجرية أكثر وفرة من الأحفورات العظمية. فهي تظل محفوظة في غالب الأحيان، حتى وإن لم تطمر في الحين تحت الرواسب. ولقد جمع الأثريون عددا كبيرا من المعطيات عن التكنولوجيا البدائية التي تساهم كثيرا في معارفنا عن ظهور الإنسان.

إن الإنسان، وبالأحرى الجنس الإنساني، يعتبر بلا شك الحيوان الوحيد القادر على صنع أدوات من حجر. إلا أن آراء الاختصاصيين تختلف، في هذا الميدان وغيره من ميادين البحث المتعلقة بمستقبل الإنسان.

فدراسة أصل الإنسان تعتمد اعتمادا كبيرا على منهج تداخل العلوم بحيث لا يقتصر على دراسة العظام المتأخرة والمعالم الأثرية، بل تشارك في ذلك مشاركة فعالة كل من الجيولوجيا والبليثيكلوجيا، وعلم الإحاثة، والجغرافيا الطبيعية، والجغرافيا الكيميائية. لقد أصبح علم الآثار ذا أهمية كبيرة عندما شرعت البشريات في استعمال الأدوات. إن دراسة المقدمات الحية بما في ذلك الإنسان، كثيرا ما كانت مفيدة لنذكر أحسن إدراك ما قبل تاريخ معمرتنا.

إن أحفورات فصيلة الإنسان، أي البشريات، تظهر متميزة ومنفصلة عن القردة الكبرى الحالية، أي «البنجديات»، منذ ما يزيد على ١٤ مليون سنة. إن أقدم الشواهد في هذا المجال غير مكتملة ويوجد في معارفنا عن تطور الإنسان نقص يتعلق بالفترة المتراوحة من ١٤ مليون سنة إلى ما يتجاوز قليلا ٣ ملايين سنة. فيبدو أن التميز قد وقع في تلك الفترة لأننا نعرف أشكالا عديدة من البشريات الأحفورية ابتداء من ٥٠٠.٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

وكثيرا ما كانت الشواهد الأحفورية المتعلقة بالمجموعات الأخرى غير الإنسانية، معروفة أحسن معرفة إذ توفرت لنا عنها أدوات أكثر اكتمالا. وتعتبر تلك الآثار مهمة وتسمح بالسعي إلى إعادة تشكيل البيئة البدائية الخاصة بالبشريات في المراحل الأولى من تطورها. ولنا معطيات عن حقبات زمنية عديدة مهمة، طرأت فيها على أجناس حيوانية عديدة، تغيرات سريعة جدا كانت جوابا على ضغوط البيئة.

ولقد تبين أيضا أن الإنسان قد مر بمراحل متنوعة قبل أن يصبح ذا رجلين، وإذا فكر متطور جدا كما هي الحال اليوم. ولقد عاشت في بعض الفترات، أنواع عديدة من البشر وكان كل نوع يتكيف تكيفا خاصا. فالتغيرات الطارئة انطلاقا من الشكل القروي للبشريات في الميوسين تمثل نوعا من



التخصىص أو التكىف تستوجب منا توضىحها. وبالرغم من أن المعطيات المتوفرة لدينا لا تزال ناقصة، فإننا نعرف بعض التفاصيل عن ذلك التطور المعقد. وسندرسه انطلاقا من الأحفورات الحديثة جدا لنصل إلى أكثرها قدما.

## الإنسان الحالى والإنسان العارف

إن التعريف الكلاسيكى للإنسان، لا يرضى كل الرضى فهو يعرف بـ (الكائن الإنسانى والجنس الإنسانى، والكهل الذكر، والفرد من الجنس الذكر). ومن مشاكل هذا التعريف أن الإنسان العصرى يعتبر فيما يبدو النوع المعروف الأكثر تنوعا، نظرا لكثرة الاختلافات الجسدية أو السلوكية بين سكان العالم، وهى تنوعات يجب أخذها بعين الاعتبار. ومهما كانت الاختلافات الظاهرة فإن الإنسان يشكل اليوم نوعا واحدا ويشارك الناس فى نفس الأصل وفى نفس التاريخ طيلة تطوّرهم الأول. ويحتمل أن النوع قد أظهر فى بعض الالفيات الأخيرة تنوعات سطحية، ويرجى أن تساهم هذه الفكرة فى طمأنة الإنسان على وحدة ذاتية وغايته، وأن تجعل الناس أكثر اقتناعا بوحدتهم الطبيعية والمصيرية.

إن الإنسان الحالى الذى ينتمى انتماء كليا إلى الإنسان العارف (Homo sapiens) يستطيع أن يعيش فى مساكن متنوعة جدا. ولقد تيسر ذلك بفضل غو التقنيات. إن الحياة بالمدن المكتظة بالسكان، تقابل حياة البدو الرحل رعاة الجمال بالصحراء، وهما تقابلان بدورهما حياة الصيادين الذين يعيشون فى أعماق الغابة الكثيفة بأفريقيا الغربية. ويستطيع الإنسان أن يعيش فترات طويلة تحت البحر، فى الغوصات، وأن يعيش فى مدار فلكى على متن أقمار فضائية. وفى كل هذه الأحوال يكون التكيف بالإعتماد على التكنولوجيا. فالإنسان الحالى مزود بمخ كبير ومعقد، وببيدين متحررتين من أداء وظيفتها القديمة فى المشى، وأصبعتا متفرغتين تماما لمعالجة الأمور، كما أنه أصبح قادرا على الوقوف مستقيما على رجله. إن هذه الشروط الفيزيولوجية الأساسية قد توفرت للإنسان عبر العصور. وبذلك توفرت لنا الآثار الدالة على نشاطه. ولهذا تعتبر درجة تطور المخ، والقدرة على معالجة الأمور باليدين، والمشى على الرجلين، من أحسن ما يمكن الرجوع إليه لضبط تاريخ النوع البشرى عبر الزمان.

تشهد اكتشافات هامة بأفريقيا على ظهور الإنسان العارف البدائى منذ أكثر من ١٠٠٠٠٠ سنة. وكل شيء يشير إلى أن وجود النوع البشرى بأفريقيا لا يقل قدما عما هو عليه بغيرها من القارات. وبفضل أبحاث حديثة، تم تحديد أقدم أثر عثر عليه فى إفريقيا، ويرجع إلى أكثر من ٢٠٠٠٠٠ سنة.

وفى ١٩٢١م اكتشفت جمجمة وبعض البقايا العظمية فى بروكن هيل ببلاد زامبيا، ولما كان هذا القطر يسمى سابقا روديسيا الشمالية عرف هذا النموذج باسم إنسان روديسيا أو الإنسان العارف الروديسى. والتاريخ المقترح لها ٣٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ولأشك أن هذا النموذج ينتمى إلى نوعنا البشرى، ويبدو أن عمره الواقعى أقدم من التاريخ المقترح، وإن ظلّ مشكلة قائمة. فهو

يشابه مشابهة قريية نموذج نياندرتال بأوروبا ويعتبر فعلا مثالا إفريقيا من ذلك النوع، ولقد عثر على آثار أخرى أكثر قدما تدل على وجود الإنسان العارف بإفريقيا الشرقية.

في ١٩٣٢م عثر الدكتور ل. س. ب. لايسكي بموقع كنجيرا، في غرب الكينيا، على قطع من دماغين. ولقد كانت تلك الأحفورات مرتبطة بحيوانات من آخر البليستوسين الأوسط، مما يفيد عمرا يقارب ٢٠٠٠٠٠ سنة. ولم يقع إلى الآن ضبط تاريخ الموقع وذلك ما يؤسف له، إذ يبدو أن الدماغين وقطعة من عظم الفخذ هي نماذج من الإنسان العارف، ويمكن أن تمثل أقدم الشواهد عن النوع المعروف حاليا بإفريقيا.

وفي ١٩٦٧م عثر على قطع من شخصين بموقع في وادي أومو بالجنوب الغربي من أثيوبيا وهي تتكون من قطع دماغية ومن أجزاء الهيكل ما وراء الدماغ ومن قبة دماغ آخر. ولقد أتت تلك الأحفورات من طبقات أقرح لها تاريخ يعود تقريبا إلى ما قبل ١٠٠٠٠٠ سنة. ويحتمل أن يكون وادي أومو قد عرف بأحفوراته الأكثر قدما. إلا أنه يوجد عدد كبير من الرواسب الحديثة التي تسمح بتوفير معلومات ثرية عن الإنسان العارف الأول بإفريقيا. ويضاف إلى ذلك، أن بعضهم أشار في نفس المنطقة إلى مواقع وفرت الفخار العتيق، وذلك من شأنه أن يقدم أيضا حقائق عن استعمال الفخار في أقدم العصور.

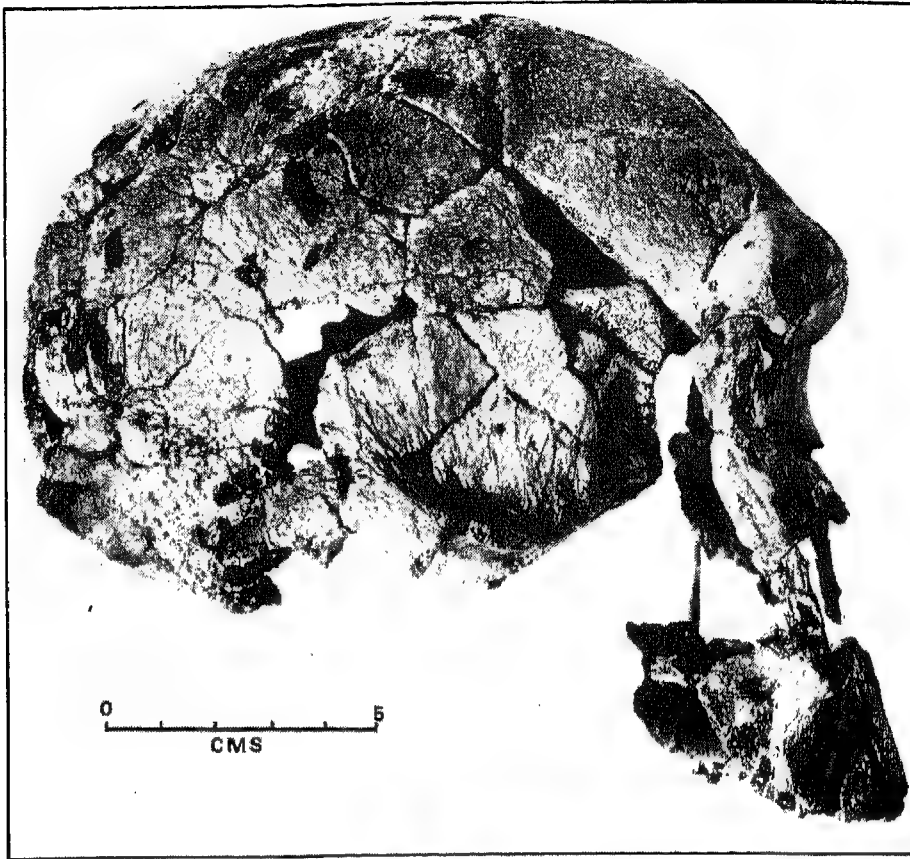
وهكذا يبدو من المعقول أن نفترض بأن النوع البشري انتشر انتشارا واسعا بإفريقيا وغيرها من مناطق المعمورة، وإن كان الإنسان العارف البدائي ممثلا تمثيلا ضعيفا من خلال الأحفورات.

## ما قبل الإنسان العارف

يميل بعضهم دائما إلى ربط الأنواع الأحفورية بالأنواع العصرية، على أن الأمر يستوجب أن يدرك ذلك في نطاق علاقات عامة جدا. ونحن نقترح هنا أن نعتبر أصل الإنسان العارف حسب سلالة يمكن أن تعود إلى ملايين عديدة من السنوات. فقد وجدت احتمالا في عهود مختلفة نماذج عديدة تتميز مرفولوجيا ضمن السلالة مما يجعل التركيب الوراثي للإنسان المعاصر، يعكس جزئيا تلك الوراثة المركبة.

إن تحديد الأنواع الأحفورية صعبة، وكثيرا ما تحدث التباسات ناتجة عن الرغبة في وضع عنوان جديد على كل نموذج مكتشف. والعادة تفرض تصنيف النماذج المتشابهة في نفس النوع. فالاختلافات الطفيفة يعتمد عليها للتمييز داخل النوع الواحد. أما الاختلافات الكبرى، فإنها تصلح لتعريف الجنس. إن الأنواع الحيوانية الحية لا يعسر تصنيفها، ولقد وضع لها العالم الكبير لينى نظاما ممتازا لتصنيفها. فالمشكل الذي يعترض الإحاثيين يتلخص في اعتبار تطور نوع خاص زمنيا مع اعتبار ما طرأ عليه من التحولات السريعة. وفي هذه الأحوال، تستعمل عبارة (النوع المرفولوجي) لوصف الأحفورات التي لها خصائص طبيعية متشابهة. وينبغي أن نضيف أن الخلاف في شأن أصل الإنسان يرجع غالبا إلى آراء مختلفة فيما يخص استعمال المصطلحات الخاصة بالموضوع.

لقد سمحت أحفورات الملايين الثلاثة الأخيرة من السنوات بأن يعرف على الأقل جنسان وأنواع عديدة من البشر، وذلك من شأنه أن يساعد على أن نفهم أحسن أصل النوع البشري.



- (١) جمجمة الانسان الماهر. منظر جانبي، كوني فوراء، كينيا (تصوير متحف كينيا الوطني).
- (٢) جمجمة الانسان المنتصب، منظر جانبي، كوني فوراء، (تصوير متحف كينيا الوطني)



وما انفك الناس يعتبرون اليوم أن التطور قد وقع حسب نسق موحد. إلا أنه يبدو أن السكان المحليين من نوع معين، كانت لهم ردود فعل مختلفة لعوامل الانتقاء. ولعله من الممكن أن توجد أشكال «بدائية» معاصرة لأشكال متقدمة أو «تقدمية»، وإن تحديد الخصائص (البدائية) عند نوع ثابت الوجود على عهد طويل أقل صعوبة مما لو كانت العينة ضيقة، لأنه يمكن تحديد الاتجاهات والتكيفات التي تساعد في تفسير عملية البقاء وذلك بالإعتماد على تغيرات متدرجة.

إن الباقي من الأحفورات الإنسانية بافر يقيا يكشف لدى التحليل عن مجموعتين أساسيتين ونحن نقترح أن نعتبرهما سلاتين تطوريتين، يمثل الأولى منها جنس الإنسان الذي لا يزال باقيا إلى يومنا هذا، أما الأخرى التي يمثلها جنس قرد الجنوب فإنها فيما يبدو قد اضمحلت منذ مليون سنة.

ومن الممكن أيضا أن ننظر إلى الأشكال البدائية التي عثر عليها في الترسبات، حيث لا توجد الأشكال المتطورة، وإن كانت موجودة في طبقات أكثر قدما. فهناك ما يدعو إلى اعتبار هذا الأمر نوعا من التقهقر. على أنه من المحتمل أن استمرار أحد الأنواع المتطورة غير ثابت لدينا لا لشيء سوى لأنه كان يعيش في مناطق لم تساعد على تأخفه.

إن الضرورة في هذا الفصل، تدعونا إلى أن نقترح اعتبار البشريات السابقة للإنسان العارف حسب سلاتين. وليس من السهل وصف الشكل السلفي المشترك للفرعين، لأن الشواهد الأحفورية مجزأة. فلقد عثر على أقدم البشريات الإفريقية في فورتنان بالكينيا، حيث وجدت قطع عديدة من الشدق الأعلى، وقطعة من فك، وبعض الأسنان، ولقد ضبط تاريخ الموقع بـ ١٤ مليون سنة. إن أحفورات تبين أن تميز البشريات عن البنجديات قد تحقق في ذلك العهد. وهكذا صغر الناب، وتلك ميزة تختص بها البشريات، وتواصل صغره انطلاقا من خصائص قرديّة مميزة.

إن الشواهد الأحفورية الموفرة بين ١٤ و ٣٥ مليون سنة ناقصة جدا. ولدينا أربعة نماذج فقط يمكن أن تربط بتلك الفترة. وهي كلها من الكينيا وتتكون من قطعة من فك معطوب كثيرا وأصلها من كانام، وجدها الدكتور ل. س. ب. لاكيكي سنة ١٩٣٢م، ومن قطعة من فك مع تاج سني من لوشاغام، وضرس بمفرده من نكورورا. ولقد أتت النماذج الثلاثة الأولى من ترسبات أرخت بـ ٤ إلى ٥ ملايين سنة، ويعتبر أن الضرس المنفرد أصله من ترسبات تاريخها ٩ ملايين سنة، ولا يعتبر أي نموذج منها مفيدا لأنها مجزأة، ولقد نسبت قطعة لوشاغام إلى قرد الجنوب إلا أن حالة معارفنا الحالية تجعل من هذا الأمر موضوع جدال بين الأثروبولوجيين.

ولقد أصبحت المعطيات عن تطور البشريات بافر يقيا أوفر فيما يتعلق ببداية البليستوسين أي حوالي ٤٠٠٠٠٠٠ سنة، حتى ظهور الإنسان العارف. وأجريت سنة ١٩٧٣م أبحاث في موطنين جديدين وفرا عددا كبيرا من الأحفورات المستخرجة من طبقات أرخت بـ ٣ إلى ٤ ملايين سنة. ويعتبر موقعا لا توليل (Léotolil) في طانزانيا، وهدر بأثيوبيا على غاية من الأهمية بالنسبة لظهور الإنسان العارف، مما يبرر الوقوف عندهما قليلا.

توجد لا توليل على بعد ٥٠ كلم تقريبا من فج أولدواي المشهور على منحدرات جبال لاماكروت التي تشرف على الطرف الغربي من بحيرة إياسي و يعود تاريخ هذا الموقع إلى ٣٥ ملايين سنة تقريبا، وهو تاريخ على غاية من القيمة باعتبار أنه اقترح أن تنسب نماذج مكتشفة لا توليل إلى النوع الإنساني، ويتعلق الأمر بأشداق، وأسنان وقطعة من عضد.

اما مواطن هدر، الموجودة بمنخفض العفرباثيوبيا، فهي معاصرة لما سبق أو أحدث منها قليلا. فلقد اكتشفت أجهزة ثرية منذ ١٩٧٣م منها أمثلة مفيدة من هيكل الدماغ وما وراء الدماغ ويمكن تمييز ثلاثة نماذج يحتمل أن تنسب إلى الإنسان الماهر وإلى القرد الرشيق والقرد الجنوبي القوي. وهكذا نلاحظ أن هذه الفترة الأولى تكاد تكون خالية من كل ما يشير إلى أصول الإنسان أو القرد الجنوبي. وخلافا لذلك، تعتبر الفترة بين ٣ ملايين ومليون سنة ثرية نسبيا فيما يتعلق بالشواهد الأحفورية.

إن العينة المهمة نسبيا المتكونة من النماذج المتوفرة لدينا والمكتشفة في مواقع تؤرخ بـ ٣ ملايين سنة أو أقل تبين أنه كان يوجد مجموعتان متميزتان من البشرىات البدائية التي كانت تقم أحيانا بنفس المنطقة. إن ذلك الشككين: شكل الإنسان، وشكل القرد الجنوبي، من المحتمل أنها كانا يعيشان في أماكن مختلفة، وإن حدث لمواطنها أن تتداخل، فإن التنافس على الغذاء لم يكن فيما يبدو قويا حتى يقضي أحد الشككين على الآخر. وما زلنا في حاجة إلى معلومات كثيرة عن تكيف كل نوع من البشرىات، أما حاليا فإن تعايش الجنسيتين طيلة مدة تتجاوز ٥ ملايين سنة، يعتبر أمرا ثابتا، كما ثبت بأن كل واحد منهما له طابعه الخاص.

فهل كان القرد الجنوبي سلف الإنسان؟ إن هذا السؤال غالبا جوابا إيجابيا. إلا أن المعطيات الجديدة المتوفرة، تجعلنا نتيقن أن الأمر لم يكن كذلك. يميل بعض الاختصاصيين، وفيهم المؤلف، إلى أنه كان للشككين سلف مشترك يختلف عن كل واحد منهما. ولا بد، لإثبات هذه الفرضية، أن ندرس الجنسيتين باعتبار (تكيفهما الخاص) وأن ننظر إلى معدل التحول إذا وجد، في كل مجموعة. وسعيا وراء ذلك، ينبغي أن نحدد بوضوح الخصائص التي يتميز بها كل منهما، والتي تبين أنها قارة عبر الزمن.

ولنلاحظ أخيرا أن بعض الباحثين يجمعون كل هذه الأحفورات في جنس واحد يتميز بتحول كبير بين وراثي، وازدواج شكلي جنسي بارز.

## الجنس الإنساني (ما قبل العارف)

### الإنسان المستقيم

إن شكل ما قبل العارف، المشهور بالإنسان، هو ما نسب إلى نوع مرفولوجي منتشر انتشارا واسعا وكثير التنوع وهو الإنسان المستقيم. فلقد عرف هذا النوع أولا بالشرق الأقصى وبالصين، وحديثا، وجد نفس الشكل بأفريقيا الشمالية وأفريقيا الشرقية وربما في جنوب أفريقيا ولم يضبط تأريخ النماذج الأسبوعية ضبطا مطلقا. إلا أن تاريخا ينطبق على بعضها أصبح معروفا وهو يوحى بأن الإنسان المستقيم ظهر بمواقع يقدر قدمها بـ ٥ إلى ٥ ملايين سنة. أما تاريخ مواقع أفريقيا الشمالية وجنوب أفريقيا المرتبطة بالإنسان المستقيم فيعتمد أيضا على قواعد تؤرخ «بالبليستوسين الوسيط».

إن البقايا بأفريقيا الشرقية أصلها من مواقع تحققت فيها تأريخات فيزيائية كيميائية. ويؤرخ النموذج الأكثر قدما المنسوب إلى الإنسان المستقيم بما قدره ١.٦ مليون سنة. إن هذا التاريخ المتأخر



● (٣) جمجمة انسان الغابات البدائي  
الجنوبي (أسترالوبيثيكوس بوزي)،  
منظر جانبي، خائق أولدوفاي، تانزانيا  
(تصوير متحف كينيا الوطني).  
● (٤) فك انسان الغابات البدائي  
الجنوبي (أسترالوبيثيكوس بوزي)،  
منظر أمامي، كوني فورا، كينيا  
(تصوير متحف كينيا الوطني).



حدا قد يشهد بأصل أفريقي للإنسان المستقيم. ويوجد من الباحثين من هو مستعد لقبول الفكرة التي تفيد بأن كل الشواهد عن هؤلاء البشر، والمكتشفة خارج أفريقيا، أصلها سكان هاجروا من أفريقيا في بداية البليستوسين. إلا أنه توجد بعض التواريخ الجديدة الأكثر تقدما تتعلق بأناس مستقيمين كانوا يعيشون في أفريقيا.

إننا نفتقر إلى حد الآن إلى أجهزة وافرة تسمح بدراسات شاملة وتركيبية. ولكن المعطيات كافية لتبين أن ذلك النوع كان منتشرا انتشارا كبيرا بأفريقيا وأنه كان موجودا أيضا بآسيا وأوروبا. إن ما تبقى من الأعضاء يشهد بالوقوف المستقيم، والتكيف للمشي، والتخصص برجلين تشابهان رجلي الإنسان المعاصر. أما درجة الذكاء، فهي قابلة للتقدير اجمالا وذلك بتقدير حجم الجمجمة، وتختلف تلك السعة من ٧٥٠ سنتيمتر مكعب إلى ١٠٠٠ سنتيمتر مكعب بالنسبة للإنسان المستقيم، بينما يتجاوز معدل الإنسان العارف ١٤٠٠ سنتيمتر مكعب.

ويستدل على تكنولوجيتهما بمشاهدة آثارهما. فالإنسان المستقيم كان يصنع ويستعمل أدوات حجرية وكان يعيش من الصيد وجمع الثمار في السباسب بأفريقيا. ويجمع الإختصاصيون على ربط السلاح ذي الوجهين المميز للصناعة الأشولية بالإنسان المستقيم. إن هذا النوع من الأجهزة الحجرية المميزة متوفرة في مواقع توجد بأفريقيا وأوروبا، وبصفة أقل بآسيا، وليس من المؤكد أن يكون الإنسان المستقيم هو المرحلة النهائية من التطور الذي آل به إلى الإنسان العارف، ويستحسن أن تظل القضية معلقة في انتظار معلومات إضافية فيما يخص هذا النوع.

وقبل أن نترك الإنسان المستقيم سندرس بسرعة خصائصه. تظهر المميزات الأكثر اختصاصا به في الدماغ: قوسا الحاجبين كثيفان وناثان والجبين منخفض، والقذال متشكل ويمكن أن تتميز أسنانه، لكن من الممكن أن تكون لأنواع مختلفة من سلالة الإنسان مرفولوجية أسنانية مشابهة جدا. ومرفولوجية الفك أقل تميزا مما يعتقد عامة. ومن الممكن أن يتكون نوع مختلف ضمن الجنس نفسه من بعض النماذج المزعومة من الإنسان المستقيم التي ليس لنا من شواهد عليها سوى بعض الفكوك والأسنان.

## الجنس الإنساني (ما قبل العارف)

### الإنسان الماهر

إن البقايا التي تنسب إلى سلالة الإنسان، التي تعتبر أقدم من الإنسان المستقيم تقتصر حاليا. على أفريقية الشرقية فحسب. ويمكن أن نعتبر أن من أقدم الأشكال، أشكال لا توليل وهدر التي تنتظر أن تدرس دراسة عميقة. ومن المحتمل أن تكون تلك الأحفورات أشكالا سلفية لأنواع أحدث منها. إن تلك الأنواع المتوسطة، على فرض أن هذا هو الواقع، يمكن أن تسمى الإنسان الماهر ويعتمد تعريف هذا النوع على نماذج اكتشفت في أولدواي، وأخيرا في كوبي فوراً على الشاطئ الشرقي من بحيرة تركانا.

ومن خصائص الإنسان الماهر الأساسية تطور دماغه تطورا كبيرا نسبيا (السعة الدماغية يمكن أن تتجاوز ٧٥٠ سنتيمتر مكعب) وعظام دماغه رقيقة نسبيا، وقبة دماغه متطورة إلى حد ما وانقباض ما

بعد محجري صغير. أما الشايات فهي عريضة جدا والأنياب وما قبل الأنياب مصغرة، وتظهر بالفك مخدة اسطوانية خارجية. وتقترب عناصر هيكل ما وراء الدماغ مرفولوجيا من عناصر الإنسان العصري.

إن الأمثلة الأكثر اكتمالا عن الإنسان الماهر آتية من كوبي فورا حيث اكتشفت أدغة عديدة وفكوك وعظام طويلة. ويسمى الدماغ الذي أحسن المحافظة عليه ك.ن.م.أ. ر ١٤٧٠ (الشكل ٢).

## جنس قرد الجنوب

مازلنا بعيدين عن حل مشكل تحديد أنواع محتملة من جنس قرد الجنوب. إلا أني اعتقد أن لدينا عناصر ثابتة كافية في تشكّل كوبي فورا للتمييز بين نوعين، فأوضحهما هو قرد الجنوب الخشب، وهو شديد الاختصاص، وله فكان قويان جدا، وأضراس أمامية، وأضراس كبيرة مقارنة بالشايات والأنياب، وسعة دماغية دون ٥٥٠ سنتيمتر مكعب. ويظهر الازدواج الشكلي الجنسي من خلال أوصاف خارجية للدماغ مثل العرف السهمي والقفوي النامي عند الذكر (الشكل ٤). وإن ما نعرفه من هيكل ما وراء الدماغ يعتبر أيضا مميزا، وذلك فيما يتعلق بعظم الفخذ والنقا والكعب.

وقد انتشر هذا النوع في مساحة واسعة جدا وهو معروف في مواقع أخرى وهي: شسونغا بيننج وأولدواي، بالجزء الجنوبي من الرفت فالي بالشرق الإفريقي. وليس من المحقق رغم ذلك أن يكون القرد الجنوبي الخشب نوعا حقيقيا، ويمكن أن نعهده مظهرا جهويا من الشكل الجنوبي الإفريقي وهو القرد الجنوبي القوي. فلا يعيننا في حل تلك المشاكل إلا إكتشافات جديدة، تبدو دائما في مستوى تنظيم دقيق جدا في علم أحاث الفقريات. ولذلك يبدو من المستحسن حاليا أن نقر وجود نوعين قوين متقاربين لكنها متميزان جغرافيا.

إن الشواهد على وجود شكل رشيق، من القرد الجنوبي بإفريقيا الشرقية، أقل إقناعا. إلا أننا لو أدمجنا جميع النماذج المكتشفة في نوع واحد، لبدا التحول عندئذ على غاية من الأهمية. إن أحسن مثال على شكل رشيق بإفريقيا الشرقية قد يتجسم في النموذج ك.ن.م.أ. ر. ١٨١٣ (KWM ER 1813) في كوبي فورا (الشكل ٥). ويمكن أن نربط بين فكوك عديدة وقطع من هيكل ما وراء الدماغ مع اعتبار الصعوبة الناتجة عن تصنيف الفكوك. ولم يقترح إلى الآن أي وصف لتلك الأشكال الرشيقة بإفريقيا الشرقية لكنه يمكن أن نسجل خفة الفكوك وما معها من أضراس أمامية وأضراس صغيرة، وسعة دماغية تقدر بـ ٦٠٠ سنتيمتر مكعب، وعرف سهمي صغير أو مفقود. ويبدو هيكل ما وراء الدماغ مشابها هيكل القرد الجنوبي الخشب، وذلك على مستوى أصغر وأقل قوة. ومن خصائص هذين النوعين المشاشة القوية من عظم الفخذ: فالعنق طويل، مكبوس من الامام إلى الوراء، والرأس صغير وكروي، وتوجد خصائص أخرى تستوجب الوصف إلا أن معارفنا ناقصة فيما يتعلق بالتحول الداخلي لتلك الأنواع، والعينات قاصرة الآن لنستدل بها.

الأنبي اعتقد أن هذا النوع الأخير قريب من القرد الجنوبي الإفريقي الرشيق الموجود بجنوب إفريقيا، ويمكن أن يكون مظهرا من مظاهره في المناطق الشمالية. إننا نعرف العظم الحرقض من





- ٥) جمجمة انسان الجنوب البدائي  
الافريقي، منظر جانبي، كوبي فوراً .  
(تصوير متحف كينيا الوطني).
- ٦) فك انسان الجنوب البدائي  
الافريقي، منظر أمامي، كوبي فوراً  
(تصوير متحف كينيا الوطني).



القرود الجنوبي الإفريقي ومن القرود الجنوبي القوي بجنوب إفريقيا. ولقد برزت اختلافات صغيرة بينهما ولا يمكن أن ننسب أية بقية من ذلك الجزء من الهيكل إلى القرود الجنوبي بأفريقيا الشرقية، وعلى العكس من ذلك يوجد نموذجان معاصران يمكن نسبتهما إلى الإنسان، وهما يشهدان باختلافات ملحوظة بين الجنسين. إن تلك الاختلافات أهم من الاختلافات التي يمكن توقعها لدى نوع واحد حتى وإن كانت مساحة انتشاره شاسعة.

## الأدوات والمسكن

إن أكبر عدد من الأدوات والمواقع أصله من بحيرة تركانا بالكينيا، ومن ملكا كنتوري بأثيوبيا ومن فج أولدواي في طانزانيا التي جرت بها حفريات كثيرة منذ ثلاثين سنة. ويمكن أن نتتبع تدرجها ابتداء من الحصاة المهيأة الصغيرة جدا إلى الفؤوس ذات الوجهين الأكثر اتقاناً فيمكن أيضاً وانطلاقاً من تلك المواقع أن نستخلص بعض الاستدلالات على النظام الاجتماعي (أهمية الجماعة) وعوائد الصيد. ففي أولدواي كشف في بلدة عن بقايا بنية حجرية ولعلها قاعدة كوخ، أرخت حسب احتمال مرتجع بـ ١٨ مليون سنة. ولقد اكتشفت بملكا كنتوري عن مسطحة مرتفعة ومستديرة. إن الأصل الحقيقي للملكات التقنية الخاصة بالبشرىات صعبة الضبط وليس في وسعنا إلا أن نقترح في أحسن الأحوال كيف كان ظهورها في البليستوسين، ولعل ذلك يكون مرتبطاً بالقدرة على التكيف الذي يعتبر من صميم ما يميزه الجنس الإنساني.

في البليستوسين القديم أي منذ حوالي ١٨٦ مليون سنة ظهرت فؤوس ذات وجهين خشنة ويمكن أن نتتبع في أولدواي وكذلك بمواقع أخرى من الشرق الإفريقي حركة التطور من الحصاة المهيأة إلى الفأس ذي الوجهين، وكانت الصناعات الأكثر قدماً المكتشفة بأوروبا في فترة حديثة هي صناعات الفؤوس ذات الوجهين. ويبدو لي أن المعطيات قد توحى بوقوع هجرة مجموعات إنسانية ذات فؤوس من إفريقيا نحو أوروبا وآسيا في بداية البليستوسين، وحتى قبل ذلك. إن تطور الصناعات الحجرية الموالي يعتبر معقداً جداً، ولنا عنه شواهد وافرة بالعالم كله، ويمكن أن نفترض وإن كان الدليل يعوزنا — بأن ظهور الصناعات ما بعد الأشولية مرتبط بظهور الإنسان العارف. إن ربط الصناعات الحجرية ببقايا إنسانية قديمة يعتبر نادراً، إذ لم توفر لنا مواقع عديدة من البليستوسين الوسيط، والحديث النموذجاً أو اثنين، على أنه قد توجد استثناءات ملحوظة.

يبدو واضحاً أننا تقدمنا كثيراً جداً في السنوات الأخيرة في البحث عن الشواهد الأحفورية. ولا ريب أن الأبحاث الجارية ستأتي بالمريد. فلقد توفرت لدينا الآن دلالات متنوعة جداً عن بشرىات البليو — بليستوسين بأفريقيا، ولقد أول ذلك كنتيجة للتمييز الذي وقع خلال البليوسين، ثم اعتقته تجارب تطورية مختلفة إلى بداية البليستوسين. إن التقاء يوجد بين ثلاثة أنواع على الأقل بأفريقيا الشرقية يمكن إثباته، وذلك سواء بالإعتماد على أجهزة دماغية أو ما وراء دماغية، علماً بأن كل دراسة تحليلية يجب أن تأخذ بعين الاعتبار جميع النماذج المكتشفة.

## الجدول (أ) قائمة بقايا الإنسان المستقيم المعروفة بأفرىقىا

المنطقة	القطر	الموقع	تفصیل النماذج
الشمال الغربى	الجزائر	ترنیفین	٣ فكوك وقطعة من دماغ
الشمال الغربى	المغرب	سیدی عبد الرحمان	قطعتان من فك
الشمال الغربى	المغرب	الرباط	قطعة من فك ودماغ
الشمال الغربى	المغرب	تمارة	فك
الشرق	طانزانیا	أولدواى	دماغ، بعض بقايا عظام
			مؤخر الدماغ، وفك محتمل
الجنوب	جنوب افرىقىا	سوارتكرنس	دماغ ناقص وبعض القطع من فك.

## مصطلح

لقد قرر المؤتمر الثامن لكل إفريقيا المنعقد فى نىروبی (كنیا) فى شهر سبتمبر-أىلول (١٩٧٧)، الإحتفاظ بالإصطلاحات التالیه باللغة الانكلیزیه فیا یختص بالمنطقة الإفرىقىة الواقعة فى جنوب الصحراء، وهذه الإصطلاحات لم تترجم الى الفرنسیة وانما ترجمت الى العربیة: العصر الحجرى الوسیط، العصر الحجرى القدیم، العصر الحجرى المتأخر.

أورو با	التأريخات المستخدمة لدى علماء الآثار الإنجليز	العصر الحجري المتأخر	عصر المادان	جنوب الصحراء الكبرى	شرق أفريقيا	الغرب	
حالي		عصر الحجري حديث	حالي	غرب الصحراء الكبرى	الغرب		
بد البلدي		عصر الحجري المتأخر	عصر المادان	جنوب الصحراء الكبرى	شرق أفريقيا	الغرب	
فورم		عصر الحجري المتأخر	عصر المادان	جنوب الصحراء الكبرى	شرق أفريقيا	الغرب	
بين رئيس - فورم		عصر الحجري المتأخر	عصر المادان	جنوب الصحراء الكبرى	شرق أفريقيا	الغرب	
رئيس		عصر الحجري المتأخر	عصر المادان	جنوب الصحراء الكبرى	شرق أفريقيا	الغرب	
بين ميندل - رئيس		عصر الحجري المتأخر	عصر المادان	جنوب الصحراء الكبرى	شرق أفريقيا	الغرب	
ميندل		عصر الحجري المتأخر	عصر المادان	جنوب الصحراء الكبرى	شرق أفريقيا	الغرب	
بين غونتر - ميندل		عصر الحجري المتأخر	عصر المادان	جنوب الصحراء الكبرى	شرق أفريقيا	الغرب	
غونتر		عصر الحجري المتأخر	عصر المادان	جنوب الصحراء الكبرى	شرق أفريقيا	الغرب	
بين دوناو - غونتر		عصر الحجري المتأخر	عصر المادان	جنوب الصحراء الكبرى	شرق أفريقيا	الغرب	
دوناو		عصر الحجري المتأخر	عصر المادان	جنوب الصحراء الكبرى	شرق أفريقيا	الغرب	

• فترات ما قبل التاريخ وصناعاتها في أفريقيا، جدول توافقي من اعداد هـ. ج. هوفز.

## الفصل التاسع عشر

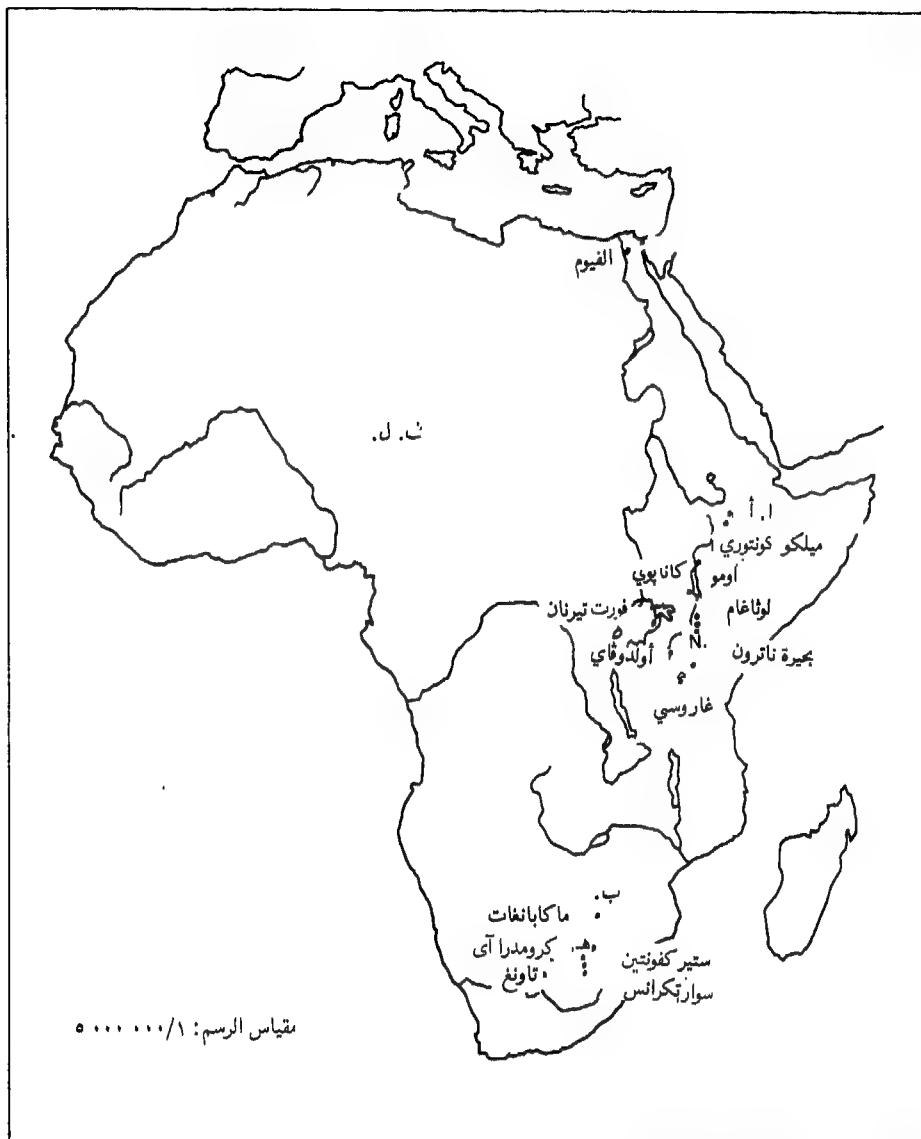
# أفريقيا الشرقية قبل التاريخ

بقلم: ج. أ. غ. سوتن

## البحث فيما قبل التاريخ

### مقدمات منهجية

في الجزء الشرقي من إفريقيا ظهر الإنسان كحيوان ذي استقامة عمودية، يصنع الأدوات وذلك حوالي ثلاثة ملايين سنة تقريبا. ولهذا السبب، فإن التاريخ في ذلك الجزء من العالم دام أكثر مما دام في أي جزء آخر، وامتد فيه خصوصا العصر الحجري أكثر مما امتد في القارات الأخرى وفي الأجزاء الأخرى من إفريقيا. ويمكن أن نضبط نقطة انطلاقه حين شرع البشر في صنع أدوات حجرية تعرف بأشكالها وأنواعها المصنعة تصميا، وبصفة منتظمة. إن هذا الجيع للمؤهلات البدنية والذهنية في صنع الأدوات (وبعبارة أخرى تجلوي الإنسان للحالة البيولوجية) والارتباط أكثر فأكثر بتلك المؤهلات والنشاط الخارج عن الوضع البيولوجي، ونعني به النشاط الثقافي، تميز الإنسان عن الحيوانات الأخرى. وتعرف الإنسانية بأن تطور الإنسان نحو وضع حيوان قادر على الجلوس، والوقوف، والتنقل بواسطة الرجلين، خلافا للقرود والثدييات الرباعية الأرجل أو الرباعية الأيدي، قد يسر استعمال الأدوات وصنعها، وذلك بتخليص الأيدي التي أصبحت مستعدة للقبض، والحمل، والامساك، والمعالجة باليد. ولقد كانت تلك التطورات، فضلا عن ذلك، ضرورية للمحافظة على حياة الإنسان، ولسلوكه في العالم، لاسيما فيما يتعلق بالحصول على الغذاء وتهيئته. وكان على كل جيل جديد أن يكتسب المؤهلات والمعارف الثقافية التي جمعها سلفه. ومن المحتمل أن تظل الأدوات الأولى التي صنعها الإنسان مجهولة لأنها كانت على غابة من البدائية لا تختلف عن بعضها إلا قليلا جدا. مما يجعل من العسير التعرف عليها. ويحتل أيضا أن تكون مواد



● ماقبل التاريخ في أفريقيا الشرقية (١٩٧٤)

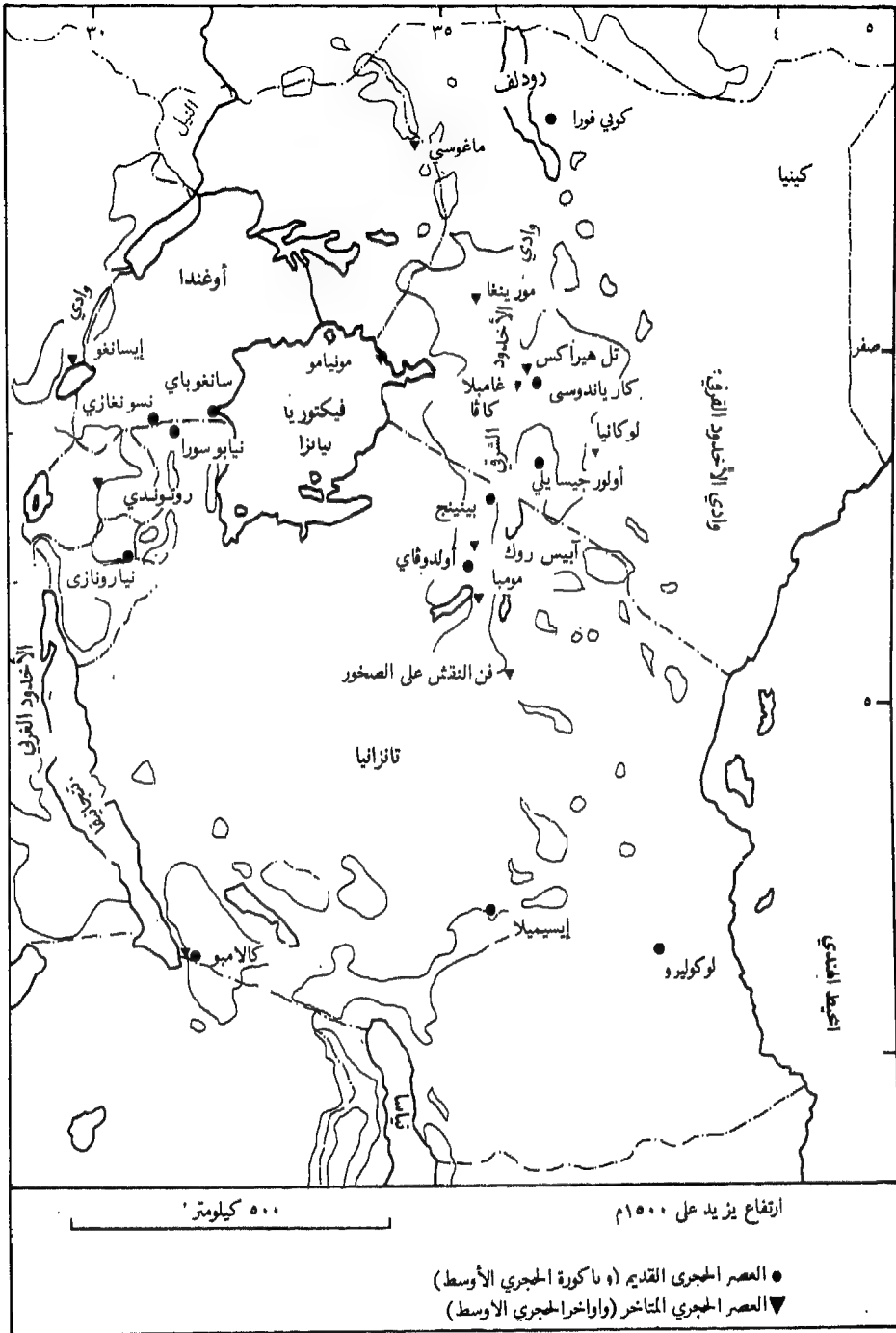
أخرى — تفسخت من دون أن تترك أثراً، لا سيما الخشب، والجلد، والعظم — قد استعملت وصنعت في فترة لا تقل تقدماً عن العصر الحجري على الأقل. إلا أن التقدم في استعمال المواد الأخرى كان محدوداً طالما لم يسيطر الإنسان على التقنية الأساسية التي تمكنه من أن يصنع بصفة منتظمة حداً قاطعاً، وأداة ناجعة، لقرع حجرة معينة وتهشيمها تهشياً دقيقاً بواسطة حجرة أخرى أو بشيء آخر صلب ومناسب.

وهكذا فإن صنع الأدوات، وظهور الإنسانية، قد ابتدأ قبل التاريخ الذي لنا عنه حالياً بعض الشواهد الثابتة الدالة على تلك التطورات الهامة. وتتكون تلك الشواهد من الأدوات الحجرية الأولى المعروفة. وعلى هذا الأساس يجب أن نحدد بداية ما تواضعنا على تسميته بالعصر الحجري.

ولقد ابتدأ هذا العصر الحجري منذ حوالي ٣ ملايين سنة ودام إلى حقبة حديثة جداً من التاريخ الإنساني الذي حل فيه المعدن محل الحجر فأصبح مفتاح التكنولوجيا ومادة أساسية لصنع الأدوات وإنتاج الحدود القاطعة. إن هذا الانتقال من صناعة الحجر إلى صناعة المعدن، قد حدث في عصور تختلف اختلافات طفيفة بمجموع أقطار العالم. فلقد صنع النحاس في آسيا الغربية منذ حوالي ستة أو تسعة آلاف سنة. أما في إفريقيا الشرقية، فلقد صنع الحديد، وهو المعدن الأول والوحيد الذي استعمل بطريقة منتظمة منذ ما يقرب من ألفي سنة.

ولنا أن نتساءل إن كانت التسمية بالعصر الحجري تسمية ترضينا من حيث التاريخ، لأنها تغطي الآلاف ٩٩٩ من الحقبة التي عاش فيها الإنسان بإفريقيا الشرقية. وهي تؤكد فضلاً عن ذلك على الجانب التكنولوجي من تطور الإنسانية، وذلك على حساب جوانب اقتصادية أو ثقافية أعم منها. ويمكن لنا أن نعترض على أنها تاريخياً طويلة جداً وأنها ثقافياً ضيقة جداً. إلا أنه يمكن أن نرد على هذه الاعتراضات، فتظل عبارة «العصر الحجري» مفيدة لفظاً ومفهوماً، إن أحطناها ببعض التحفظات لذلك، ونظراً إلى أن تلك الحقبة الطويلة جداً من الماضي لا تعرف إلا بالاعتماد على شواهد الآثار علماً بأنها ناقصة نقصاناً كبيراً إذ لم يبق منها شيء سوى الحجارة، دون أية تقاليد سماعية أو وثائق مدونة، لذلك اضطر المؤرخون إلى الاصطلاح على لفظ أو عدة ألفاظ لتسميتها ودراستها ووصفها.

ومن جهة أخرى نلاحظ أن العصر الحجري لم يكن فترة قارة من التاريخ إذ أن التطور التكنولوجي الحاصل في العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث، يظهر بوضوح من خلال التغيرات والتنوعات الطارئة على مختلف الأدوات، ومن خلال تزايد نجاعة الأدوات الحجرية وتقنيات صنعها. وعلى هذا الأساس يبدو من الممكن ومن الضروري أن نقسم العصر الحجري إلى فترات متعددة وأن نقرعه إلى فروع تكميلية تاريخية وجغرافية. إن المجموعات من الأدوات الحجرية (عندما نتحرر اختياراً حسناً وتقدم تقدماً مناسباً) يستهويننا منظرها في حد ذاتها، إلا أنها لا تفيدنا إلا قليلاً إن لم ننظم ولم تدرك باعتبار الترتيب التاريخي ومرحلة التطور. وتخلو من المعنى أيضاً العبارتان مثل «عاش في العصر الحجري» أو «إنسان العصر الحجري» المركبتان على المفهوم الخاطئ الذي يرى أن الإنسان ونوع حياته قد ظلّا قارين طيلة تلك الفترة، لأن أدوات أهالي العصر الحجري كانت تختلف بحسب الزمان وبحسب المكان، ولأن أولئك الأهالي قد تطوروا من حيث الثقافة ومن حيث الطبايع. فلقد شهد العصر الحجري تغيرات وتحولات طرأت على جسم الإنسان وداغته وعلى





اقتصاد والنظام الاجتماعي والثقافة عموماً، وهذا يتماشى مع التطورات التكنولوجية التي تشهد شواهد الآثار. وينبغي أيضاً أن نلاحظ هنا بأن التغيرات طيلة كل فترات العصر الحجري، وإن كان بطيئاً جداً بالمقارنة مع المعايير العصرية، فإنه كان أبطأ بكثير في الفترات التي سبقتها: فكلما تربعنا من الفترة الحالية، كانت التغيرات أكثر سرعة. ولقد كانت هذه الفترة الحديثة مرحلة نصيب وتنوع جهويين لها أهمية كبرى. فنتج عن هذا أن ظهرت فجأة في منطقة، خصائص بقيت مدة طويلة تنمو في منطقة أخرى، وذلك في صورتها الكاملة (أثر الهجرات والاتصالات الثقافية) مما بهم بمحدث ثورة في تلك المنطقة الثانية. ولذلك قد يعادل جيلان في آخر العصر الحجري، نصف يون سنة من الحقبة الأولى إذا نظرنا إلى ذلك من حيث معايير النمو.

وعلى هذا الأساس فلا تقتصر الدراسة التاريخية للعصر الحجري على الحجارة والأدوات إذ يكون من حظ عالم الآثار العثور على مستكشفات أخرى توجد غالباً بمواقع سكنية يعود تاريخها إلى العهد ما قبل العصر الحجري حيث بقيت شواهد مباشرة مطبخية أو غذائية، في شكل فحوم خشبية تشهد لي منازك، أو في شكل قطع من العظم الحيواني. إن هذه البقايا العضوية قليلة جداً باقياً فيما يتعلق بالفترات الأولى، باستثناء بعض المواقع التي أديت فيها بعض الأحوال المعدنية المواتية إلى استحجار العظام قبل أن تتفسخ. إن عالم الآثار، مدعوم وجواباً، حتى وإن كان لا يستطيع، إلى اعتماد على الحجارة، وإلى أن يطبق استنتاجه وتأويلاته على ميادين أوسع منها.

فلا يهمل في أول الأمر، الأدوات الخاصة المكتشفة، والمدرسة بمعزل عن بعضها، بل يهملنا لأهم الأدوات مع مختلف أنواع الأشياء التي يمكن العثور عليها في موقع، سواء كان سكنياً مجموعة، أو مخبأ مؤقتاً للصيادين، أو «مخراً» لصنع الأدوات.

إن الشظايا الحاصلة من «تقطيع الحجر» وبقياء أكثر انتشاراً من الأدوات الجاهزة، ولذلك جرت دراستها في نفس الوقت الذي تدرس فيه الأدوات الجاهزة لأنها تدل على تقنيات صنعها إلى مستوى المهارة التي وصل إليها الإنسان. يضاف إلى ذلك أن تلك البقايا لا تعتبر من السقط، إن عدنا من تلك الشظايا، لا سيما ما وجد منها في المراحل البدائية من العصر الحجري كان لها حد طبع، فإذا كان حجمها وشكلها مناسبين للاستعمال، فإنها تكون تكمة للأدوات الجاهزة التي هي أقل منها. وعلى هذا الأساس تعتبر جزءاً مهماً من الأدوات. إن الاقتصاد على جمع ودرس الأدوات جاهزة المعروفة مثل ذي الوجهين والقذومات، يجعلنا نقدم لوحة ناقصة ومشوهة جداً، عن تكنولوجيا بشر ما قبل التاريخ وعن نشاطهم، في الفترات الحديثة من العصر الحجري، لما عوضت أدوات الثقيلة من نوع ذات الوجهين، بأدوات أصغر وأجود وأدق منها، كثيراً ما كانت تثبت بحضة خشبية أو بمقبض عظمي، وكانت تلك الأدوات الحجرية تصنع حسب تهيئة ماهرة للبقايا حجرية وتسوية جيدة للنصال والشظايا المفصلة. ولذلك ينبغي أن تتوفر لدينا مجموعة كاملة على إمكانية من القطع المنجزة، وبقايا تقطيع الحجر، حتى نتمكن من تحليلها وتقديم الاستنتاجات بيدة عنها.

إن ملائمة الأدوات مع ما تنوع من القواطع والحدود الصالحة للقطع والقرص، والسليخ والقشر، شقوب والحزب والضرب، والشق، والتفتيش، تساعد (حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار بعض احترازاات التي لا مناص منها، المتعلقة بالوظيفة التي خصصت لها) على تصور وجود أدوات أخرى

صنعت من مواد سريعة العطب أصلها حيواني أو نباتي، مما كانت تلك المجموعة البشرية تستعمله والمثال على ذلك أن الجلود الحيوانية، عندما تخلّص من دهنها وتُجفف وتُدبغ، يمكن تقطيعها لتصنع منها حبال من جلد وأحزمة، ولقد استوجبت عمليات القنص، والقتل، والسليخ أدوات وأسلحة حجرية وخشبية، وكان من الممكن استعمال السيور مع الأدوات الحجرية لربط وحزم القذائف المستعملة للصيد أو لتثبيت نصل حجري أو حد على رمح خشبي أو سهم، بواسطة راتنج نباتي. إن دراسة البقايا الحجرية من نهاية العصر الحجري دراسة ذكية تستعيد لنا، فضلا عن تلك الأسلحة، أدوات مركبة عادية، متكونة من شظايا صغيرة وحدود صنعت صنعا جيدا، وأثبتت أو ألصقت بدقة بقبضات أو مقابض من العظم أو الخشب. وذلك ممكن ولولم يتوفر لدينا شاهد واحد مباشر على العناصر الخشبية والعظمية وحتى قبل ذلك التاريخ، لما كانت أدوات الخشب والحجر الأكثر بدائية غير متراكبة، فإنها كانت على كل حال مترابطة. فلقد كان من الممكن مثلا قطع رمح خشبي ليكون له الطول المرغوب بواسطة سكين حجري، وإن كان لا بد أن ينجره وأن يسويه مكشط، وهو أداة نجر. ومن الممكن استعمال حزام جلدي أو ليفي نباتي لكي يتيسر قبض ذلك الرمح أو رميه. إن تهيئة حد الرمح، يستوجب من جهة أخرى استعمال أدوات حجرية قاطعة، مما يفرض بعد ذلك تصليبه بالنار كما تشهد على ذلك بعض النماذج التي عثر عليها. إن الصاق حد حجري بحربة الصاقا متقنا، وذلك في أحدث فترة من العصر الحجري، كان ناجما عن عمل جيد من القضم والحز بواسطة أدوات دقيقة.

تلك بعض الأمثلة التي يمكن الحصول عليها اثر دراسة ذكية فيها تحليل للأدوات الحجرية حتى نخلص تلك الأدوات من الجمود، ونبحث فيها الحياة. ومن الممكن أن تأتي بتخرجات فيما يتعلق باستعمالات الخشب والجلود المهيأة لنصل إلى دراسة مسألة الحيايم وحواجز الریح. وهنا فإننا نخرج، مثلما هو الشأن بالنسبة للأدوات والأسلحة التي تحدثنا عنها، من وجهة نظر تكنولوجية ضيقة لنفتتح تأويلا اقتصاديا وثقافيا أشمل عن الشواهد والآثار، ولنستعيد حياة مختلف مجموعات الصيادين القاطنين من مختلف الفترات من العصر الحجري. و ينبغي أن نلاحظ هنا أن جل الأدوات في جميع فترات العصر الحجري، بما في ذلك الأدوات الحجرية، لم تكن أسلحة. فإن كان الصيد دائما مهما وأساسيا لتوفير البروتينات (باستثناء الأماكن التي يكثر فيها السمك، شريطة أن تتوفر الوسائل لصيده) فإن جمع النباتات أيضا، وبالأحرى جني العروق النشوية والعسقلات، كان أساس النظام الغذائي. إن هذا النشاط وكذلك النشاط المتصل بالأشغال المنزلية، وبخدمة الخشب، يساعدان على توضيح وظيفة أغلبية الأدوات.

إن صعوبة نقل الماء كانت بدون شك قد حدثت في اختيار مواقع الخيّمات إذ يجب أن يكون الخيم الفصلي الذي يحتاره الفريق العائلي قريبا من مجرى ماء أو من بحيرة، وأن تتوفر له فضل عن ذلك نباتات كثيرة وأنواع من الطعام الذي يجلب الصيد.

ولقد حاولنا أن نبين بأن دراسة العصر الحجري دراسة تكنولوجية معتمدة على العقل النير والخيال، تساعد في رسم صورة واضحة للوضع الاقتصادي والثقافي. إلا أنه يجب أن نقر أن الشواهد، حتى فيما يتعلق بالجزء الأكثر حداثة من عصر ما قبل تاريخ إفريقيا الشرقية، هي شواهد قليلة جدا، وأن مجهوداتنا في التأويل الموسع هي مجهودات، لا مناص من ذلك، نظرية. فمن الضروري

أن نقاوم التخمينات والنظريات الواهية. إلا أنه لا فائدة، بعد الاتفاق على هذا، من أن نهمّل الآثار المتوفرة لدينا، و ينبغي أن ننظر إليها نظرة إيجابية، فيها ذكاء وخيال، حتى نضبط الأحداث والمفاهيم التي يمكن أن نستخرجها منها. وهكذا تشجّد العزائم الجديدة والبحوث للعثور على وثائق أخرى. ولذلك فأننا سنسعى في ما يلي من هذا الفصل إلى ضبط بعض الوسائل التي تسمح بالحصول على عدد وافر من المعلومات وبالوصول إلى استنتاجات أكثر أهمية.

ولقد ذكرنا سابقاً أنه وجدت مصادفة عظام حيوانية مستحجرة في بعض المواقع القديمة، واكتشفت عظام غير مستحجرة في مواقع حديثة، لا سيما في ملاجئ كانت تحت الصخور. وفي ذلك شاهد مباشر على الحيوانات التي كانت تصطاد وتؤكل. إن دراسة العظام دراسة ثابتة بغية العثور على آثار الأدوات، والكسور، أو حتى على الطريقة التي طرحت بها تلك العظام على الأرض، يمكن أن تفيدنا عن طرق فصل اللحم عن الحيوان واستهلاكه، إلا أن الشواهد المباشرة من هذا القبيل لا تقدم لنا إلا لوحة ناقصة. ومثال ذلك أنه يمكن أن تصطاد ثدييات صغيرة، وزواحف، وطيور وحشرات، إلا أنه لا يبقى لها أثر سواء لأن عظامها أو أجزاءها الصلبة كانت هشّة فلا تدوم، أو لأن الصياد قد استهلك تلك المصيدات الصغيرة بعين المكان دون نقلها إلى الخيم. فالعسل، والثمار والعنبيات، والجوز وحتى بيض الطيور، لا تترك من الأثر إلا القليل أو لا تترك أثراً واضحاً لأنها تستهلك في الطبيعة من دون حاجة إلى أدوات حجرية لجمعها أو لتهيئتها. فنحن لا نكتشف في الواقع إلا نادراً جداً بقايا ما قبل التاريخ من الطعام النباتي. لكن نظام الصيادين القاطنين الغذائي كان بدون شك متوازناً، فلا بد من أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار عند استعادته تاريخياً، بالاعتماد على دراسة ذكية تشمل الآثار والبيئة المحلية مع اعتبار جميع مواردها الغذائية.

إن شواهد الآثار، في بعض المناطق (طانزانيا الوسطى)، والمتعلقة بنوع حياة الصيادين القاطنين في العهد الغابر من العصر الحجري، تكتمل اكتمالاً رائعاً بالاعتماد على فن النقش على الصخر. فبقطع النظر عن كل اعتبار يتعلق بالمهارة الفنية، وبالوضوح والذوق الفني اللذين تشهد به تلك الرسوم، فهي تزودنا بمعلومات مضبوطة عن الصيد المشخص وعن طرق الصيد بالرمح أو بالسهم، وعن بعض الأنواع، من الفخاخ. ويبدو أن التقنيات الأخرى المستعملة للحصول على القوت غير مملثة. في هذه الرسوم، ومن ذلك قلع الغسقلات وجني العسل. وهذا من شأنه أن يثير عقولنا ويوسع رؤيتنا إلى الحياة في ما قبل التاريخ، لا سيما وأن بعض أنواع النشاط المشار إليها في الرسوم قابلاً لأن تقارن بالعوائد الحالية أو المعاصرة عند شعوب إفريقيا الشرقية.

إن شهادة الفن تستوجب مقارنتها بالعتاد التقني الذي له هدف اقتصادي وثقافي. فكلما توضحت لنا هذه اللوحة، أمكن لنا أن نشرع في وضع أسئلة متعلقة بطرق الصيد، ونصب الفخاخ والجني، وعدد فريق الصيادين أو المجموعة البشرية، وتراها ونظامها الاجتماعي الضروري لبقائها على قيد الحياة. إن الجواب على هذه الأسئلة لا يدعو إلى الثقة الكاملة. ولقد تحقق رغم ذلك بعض التقدم الثابت باعتماد الشهادة الأساسية المأخوذة من مختلف المواقع الأثرية. وهذا يعني أن الأمر يستوجب أن نجتمع تلك البراهين باستعمال أدق الطرق، وأكثرها تنظيماً، وأكثرها جودة إن أمكن ذلك. إن المناجم التي اكتشفت فيها الصناعة الحجرية ليست نادرة بأفريقيا الشرقية. فلقد أصبحت معروفة في مطلع القرن العشرين وذلك إثر العمل الرائد الذي قام به الدكتور لويس لاكي بالكينيا

## المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا

في العشريّات من هذا القرن، فكشف عن عدد متزايد من المواقع من جميع حقب ما قبل التاريخ، وذلك بإفريقيا الشرقية. وظل عدد آخر منها لم يكتشف بل كشفت عنها الاجترافات أو تغيرات أخرى طرأت على أرضها. أما الأدوات أو شظايا النحت فقد جرت إلى الوهاد ومجاري الأنهار أو الملاجىء تحت الصخور. وأبرزتها على سطح الأرض الحراثة وحوافر المواشي، أو أشغال البناء. إن تلك المواقع وتلك الأشياء قد اكتشفها أثريون محترفون وكثيرون ما اكتشفها أيضا هواة، وفلاحون، وطلبة الخ، وهي تستحق التعريف بها كما تستحق تنبيه السلطات المعنية إليها. فجميع الأدوات وغيرها من الأجهزة الأثرية المكتشفة تستوجب أن تودع بالمتاحف حيث يمكن دراستها ومقارنتها بمجموعات محلية أخرى. فالعادة التي كان بمقتضاها يأخذ الأثريون الأجانب مكتشفاتهم إلى بلدهم الأصلي لم تكن سائدة فيما يتعلق خاصة بإفريقيا الشرقية، ولقد زالت لحسن الحظ الآن، إلا أن بعض المجموعات من إفريقيا الشرقية مازالت محفوظة في متاحف أوروبية. وقد حفظ الجزء الأكبر وهو أثمن الأجزاء، من الأجهزة الأثرية لإفريقيا الشرقية بالمتاحف الوطنية.

إن المجموعة السطحية لا تفيدنا في حد ذاتها بكثير لأن الأدوات وبقياء النحت قد نقلت خارج موقعها الأصلي. يضاف إلى ذلك أن جمعها يخضع عادة لمبدأ الانتقاء. إلا أننا نعتبر أن مجموعة سطحية صغيرة تستطيع في حد ذاتها أن تزودنا بتوضيحات لأنواع الأدوات أو طريقة صنعها يرشدان إلى الفترة التي تعود إليها الأدوات وإلى الروابط القائمة مع مواقع أخرى معروفة وذلك من شأنه أن يساعد على اظهار الفائدة من استكشاف أكثر تفصيلا ومن حفريات حقيقية.

إن تلك الحفريات تستوجب أن يتبناها وأن يشرف عليها أثريون لهم دراية متعلقة بالموقع المعني بالأمر. إلا أن أولئك الأثريين، مرتبطون كما أشرنا إلى ذلك، بالمعلومات المحلية التي يوفرها لهم الهواة أو الطلبة الذين يمكن لهم علاوة على ذلك أن يساهموا في الحفريات وأن يتدربوا في نفس الوقت على المهنة. إن الطرق التطبيقية، التي تعتمد أحدث التقنيات في الحفر وفي دراسة الآثار، سواء في مكانها الأصلي، أو بعد أن تسجل وتنقل، هي الوحيدة التي تسمح لعالم الآثار، أن يجمع في موقع ما أقصى ما يمكن من المعلومات، وأن يرسم لوحة إن لم تكن مستنفدة فإنها قد تشمل أكثر مما يمكن من أنواع النشاط التي جرت بذلك الموقع. ولقد ساهمت أشغال حفرة مثالية وقعت في مواقع تنتسب إلى العصر الحجري القديم بإفريقيا الشرقية، وذلك في السنوات الأخيرة، في توجيه أسلوب البحث في مناطق أخرى من العالم، وذلك فيما يتعلق بالمنهجية، والتحليل، والتأويل.

إن عالم الآثار المتعهد بالحفريات، لا يهتم باكتشاف نماذج فردية بقدر ما يهتم بالبحث عن أهم المعلومات الممكنة عن نوع حياة مجموعة قديمة، وبالتعرف على أكبر جزء ممكن من «المجموع الثقافي» ودراسته دراسة مستفيضة، وجميع كل المعلومات المتوفرة عن البيئة. وذلك يستوجب اعتماد طرق في الحفر دقيقة وبطيئة. إذ يجب جمع كل الأشياء كما يجب الإشارة إلى كل خصائص الأرض التي يقع فيها السكن، بما في ذلك التغيرات الطارئة على السطح، وتحولات لون الأرض التي يمكن أن تكون شاهدا على النار أو على نشاط آخر. والعادة تستدعي غرلة الرواسب، عندما يحتمل أو يمكن أن توجد أشياء صغيرة مثل شظايا الحجر، وقطع العظام، وحتى الحبوب النباتية، إن تلك الغرلة عادة مطردة في الملاجىء الكائنة تحت الصخور والحديثة حيث تكون الرواسب هشة ورمادية. إن العرف يعتبر الأجهزة الموجودة في ملجأ تحت صخرة، أو في موقع كثير الهواء، أجهزة لا تدل على إقامة واحدة

بل على اقامات متعددة متتالية، قد تركت كل واحدة منها بقايا فوق بقايا الاقامة السابقة. وتستدعي كل اقامة دراسة مفصلة ولذلك وجب على الأثري القائم بالحفريات أن يعنى عناية خاصة بالطبقات الأرضية، لان اختلاط الأشياء الآتية من اقامات مختلفة، قد يشوه التأويل تشويها مؤسفا. وإذا كان الأثري الحافر مسؤولا عن التعرف على الموقع، وعلى التسجيل والدراسة الأساسية المتعلقة بكل الاكتشافات، فهو يحتاج الى مساعدة اختصاصيين آخرين. ويمكن لتلك المساعدة أن تقدم في مرحلة لاحقة في الحفريات، مثلا للتعرف على عظام حيوانية. وإذا توصل القائم بالحفريات بفضل الظروف المواتية لحفظ المواد، الى استخراج بقايا نباتية مثلا، وجوب متفحمة، وجوز أو قطع خشبية، وجب عليه أن يعالجها معالجة خاصة بعين المكان وأن يرسلها الى اختصاصي في علم النبات. ان التعرف على تلك العينات ودراستها يوفران مزيدا من المعلومات عن النظام الغذائي واقتصاد المجموعة لأن ما تزودنا به عن تلك البيئة يعتبر مهما أيضا. فان كتب للقاحات قديمة أن تظل محفوظة، يمكن أن يأتينا فحص تلك العينات فحصا بليولوجيا بفائدة وأن يزودنا بتوضيحات عن نوع النباتات وما طرأ عليها من تغيرات. ويمكن أن نستفيد في هذا الصدد من العينات الأرضية المشتملة على أجسام صغيرة أو على صدقات، لأنها تستطيع أن توضح نوع النبات السائد، وبالتالي تدل على المناخ الطارئ. ان الجيولوجيا والجيومورفولوجيا، وبنية التربة مفيدة أيضا لهذه المحاولات الرامية الى استعادة بناء البيئة القديمة والموارد التي كانت تستثمرها مجموعة ما قبل التاريخ. ومن الواضح أن أكبر جزء من هذا البحث حول البيئة يتطلب، ليكون عميقا ومفيدا، الاستفادة من وجود مختلف الاختصاصيين في الموقع بالذات، ولولمة قصيرة من الوقت، لأن العينات المجموعة والمرسلة الى المختبرات لا تكفي وحدها كدليل، اذ يجب أن تختار بدقة وأن تراقب في عين المكان. فربما طرأت تغيرات كبرى على الطبيعة بين الفترة المدروسة والفترة الحالية، تبعا للتغيرات المناخية، والحركات الجيولوجية، وفي أكثر الاحيان تبعا للنشاط الانساني، لا سيما الفلاحة، واستصلاح الارض في العصور الحديثة. ان دراسة الماضي تخضع دائما لدراسة ذكية للحاضر ولكل العلامات الاثرية وغيرها التي يشملها ذلك الحاضر.

ومن الدراسات الاخرى ما له أيضا صلة ببحثنا، فهي وإن لم تأت بشاهد مباشر على ما قبل التاريخ، فانها تزودنا بايضاحات غير مباشرة ثمينة جدا. ونقصد بهذه الدراسات البحث الانثروبولوجي حول بعض مجتمعات الصيادين القاطنين الموجودين بالعالم، لا سيما ما يوجد منها بافريقيا، فلقد سبقت الإشارة تصريحا أو تلميحيا، الى بعض الاعتبارات المتعلقة بعادات الصيادين المعاصرين مثل قبيلة هدزة في طانزانيا الشمالية وقبيلة سان من منطقة كالاهاري اللتين أهتم بهما الباحثون في السنوات الأخيرة لجمع معلومات أوفر عن ثقافتها وأنواع حياتها القديمة. ان الملاحظات المستنتجة من هدزة وسان توفر لمحات عديدة ومفيدة عن امكانيات العيش، والتنظيم وضغوط نمط العيش المرتكز على الصيد وجني الثمار، وتوحي بعدد من النقاط التي كان من الممكن أن لا ينتبه اليها الأثريون، فمن الخطأ الجسيم أن نعتبر تلك المجموعات كصور مطابقة تماما لمجتمعات العصر الحجري أو من بقاياها.

من الصحيح أن بعض تلك الفرق المعاصرة من الصيادين القاطنين، لا سيما قبيلة سان بجنوب إفريقيا، يعتبرون أحفادا لسكان العصر الحجري المتأخر، وذلك من شأنه أن يوضح بعض مشاكل

الماضي. ومثال ذلك أنه كثيرا ما عثر الباحثون في اطار العصر الحجري المتأخر على حجرة فيها ثقب مستدير. ان عادة قبيلة سان الحالية، التي تؤكد أنها فيما يبدو، رسوم جدارية بمجنوب إفريقيا، تبين أن تلك الحجارة المثقوبة كانت تستعمل أحيانا لترشيح العصي الحادة الصالحة لاستخراج العروق التي تؤكل. إلا أن هذا التوافق الخصوصي من هذا النوع قليل. ولقد حدثت هذه التغيرات في مجتمع قبيلة بوشيمان<sup>٥</sup> وذلك لأسباب مختلفة منها الاتصال المباشر أو البعيد بشعوب تستعمل الحديد وتعيش في اقتصاد قائم على إنتاج القوت. ويوجد عدد قليل من البوشيمان<sup>٦</sup> الذين ظلوا يخدمون الحجر على نطاق واسع لأنه يمكن الحصول على الحديد مبادلة أو من البقايا، مما نتج عنه تغيرات تكنولوجية أو ثقافية حتمية. ولقد اختلط أحفاد آخرون للصيادين القاطنين اختلاطا عميقا بسكان منتجين للقوت. أما البعض الآخر فإنهم لم يصبحوا بعد بلدين بصورة نهائية. فلما عادوا إلى هذا النمط من الحياة منذ عهد قريب، ظلوا يعيشون من مبادلة منتجات الغابة مع جيرانهم الفلاحين والرعاة. أن هذا الاحتياج المتبادل ملحوظ لدى عدد من الجماعات المعروفة باسم «دوروبو» الذين مازالوا يعيشون في المرتفعات من الكينيا وطانزانيا. وإذا كان هذا النوع من الاحتراز يبدو ضروريا لكيلا يقع الباحث في الخطأ، بالحاق الصيادين القاطنين المعاصرين لنا، بسكان ما قبل التاريخ المتأخر، فإن هذا الاحتراز يصبح أكثر ضرورة إن اعتبرنا الفترات المتأخرة جدا. إلا أن هذا لم يمنع توافر توضيحات مفيدة عن المواد الغذائية بالمنطقة وعن التنظيم الضروري لاستثمارها.

يوجد مصدر آخر مفيد من المعلومات. وهو دراسة الحياة الاجتماعية للمقدمات البشرية، لاسيا أقرب أجداد الإنسان الحاليين، أي الشمبزي والغوريلا، وكذلك القرايح (Babouins). فالقرايح هي بيولوجيا أقل مماثلة للإنسان، إلا أنها مهمة بصفة خاصة من جهة السلوك، وذلك بغية دراسة المجتمع الإنساني، لأنها تعيش، أكثر من المقدمات الأخرى، جماعات على الأرض، ويسهل نسبيا ملاحظتها ودراستها. فالإنسان، كما جاء في مكان آخر من هذا الكتاب، ليس من سلالة تلك القردة، ولا نريد أن نقول هنا بأنه لم توجد في ما قبل التاريخ أية جماعة، ولو أنها قديمة جدا، هي أقرب إلى تلك القردة من الإنسان العصري، فلورأدنا أن ندرك السلوك الأساسي للمقدمات البشرية والتقاليد التي ورثها الإنسان عن أسلافه من الحيوانات السابقة له، وحاولنا أن نفهم كيف كان هؤلاء السلف المباشرون للإنسان يقومون بأود العيش بالاعتماد أساسا على النباتات، علما بأنه لم يكن من عاداتهم صنع الأدوات، بل هم عاجزون عن ذلك، إذن لاستفدنا فائدة كبرى من تلك الدراسات التي يجري العديد منها بإفريقيا الشرقية.

لقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن مدة ما قبل التاريخ كانت مديدة، وأن السكان في أواخر تلك الحقبة حققوا تقدما كبيرا، وأنهم كانوا يختلفون كثيرا عن أسلافهم من فجر ما قبل التاريخ، يضاف إلى ذلك أن سكان إفريقيا الشرقية من العصر الحجري المتأخر — وقد بقيت منهم نماذج إلى عهد قريب — كانوا بلا منازع أفريقيين. وكان لبعضهم قرابة مع البوشيمان<sup>٧</sup>، وقد اندمج آخرون في سكان عصريين من زنج العصر الحديدي. وبالمقابل، فإن سكان العصر الحجري القديم، لا سيما في فترته المتأخرة جدا، يمثلون تمثيلا حسنا بإفريقيا الشرقية ولم يعرفوا، لمدة طويلة، إلا بذلك الجزء من

<sup>٥</sup> في الجزء المطبوع لا ذكر للبوشيمان وإنما ورد فيه «سان» — تعليق المراجع محمد الفاسي.

<sup>٦</sup> هذا اللفظ غرض في المطبوع للفظ «سان» كما تقدمت الإشارة إليه — تعليق المراجع محمد الفاسي.

العالم، لأنهم أيضا أسلاف البشرية في مجموعها. ان هؤلاء الصانعين للأدوات البدائية جدا، والذين اكتشفت عظامهم في أعماق الطبقات من الأولدواي، بشمال طانزانيا ومنطقة بحيرة تركانا بشمال الكينيا وبجنوب أثيوبيا، يصنفون عادة ضمن جنس الانسان العارف، الا أنهم كانوا من حيث البنية والدماغ يختلفون عن الانسان العصري. وهكذا أصبح تاريخ افريقيا الشرقية القديم تاريخ الانسانية القديم، وهذا العنصر يضيف عليها دلالة كونية. فافريقيا الشرقية، نظرا الى كونها تحتوي على معلومات لا تقدر بثمن عن الانسان البدائي، وعن ثقافته، وعن مناخ المقدمات البشرية، قد أصبحت بكل جدارة المركز العالمي للبحث عن الحياة، والبيئة، وأصل الانسان.

## الترتيب التاريخي والتصنيف

بينما نجد أن العصر الحجري، في أغلب المناطق من آسيا، وأوروبا وافريقيا الشمالية يقسم اصطلاحا الى العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الحديث، فقد ترك أغلب الاختصاصيين هذا النظام فيما يتعلق بالمناطق الافريقية الواقعة جنوب الصحراء. فالعصر الحجري عموما ينظر اليه ويدرس بحسب ثلاث حقبة هي: (العصر المبكر، والوسيط والمتأخر). وهي حقبة تتميز بحسب تحولات مهمة تعرف من خلال التكنولوجيا (مع كل ما للتكنولوجيا من انعكاسات ثقافية واقتصادية). ان هذه النظم من التصنيف لا تشكل طريقتين للتعبير عن نفس الشيء، لأن معايير التصنيف تختلف اختلافا كبيرا في مستوى التصور والترتيب التاريخي. (انظر الجدول الآتي، وما يتعلق به من الحواشي).

ان الحقب الافريقية الثلاث تؤرخ تقريبا كما يلي:

- العصر الحجري المبكر (أو العصر الحجري القديم): ابتداء من عهد أدوات الحجر الأكثر بدائية (لنفترض، منذ ٣ ملايين سنة الى ١٠٠٠٠٠ سنة).
- العصر الحجري الوسيط: تقريبا منذ ١٠٠٠٠٠ سنة الى ١٥٠٠٠ سنة.
- العصر الحجري المتأخر: من ١٥٠٠٠ سنة الى بداية عصر الحديد (وهو محدد بما يقرب من ٢٠٠٠ سنة في أغلب المناطق).

ويجب علينا أن نؤكد في نفس الوقت أن تلك التواريخ تقريبية وأنها بصفة عامة محل نزاع، فلقد اقترحت الى الآن تواريخ أكثر تأخرا لا سيما فيما يتعلق بفترة الانتقال من العصر الحجري المبكر الى العصر الحجري الوسيط. ان هذه النظرة المحافظة تعود نوعا ما الى قلة المواقع والصناعات الحجرية المعروفة، والموصوفة والمؤرخة بطريقة مرضية. ويضاف الى ذلك أن الانتقال الأول من العصر الحجري المبكر الى العصر الحجري الوسيط، وقع في فترة توجد عمليا في حدود امكانيات ضبط المتوارىخ بالراديو كربون. وبالرغم من أنه حدث أن حددت تولريخ بـ ٦٠٠٠٠ الى ٦٠٠٠ سنة، وأنها معتمدة من قبل الباحثين أحيانا، الا أن تلك التواريخ تعتبر هي الحد الأدنى، لا تواريخ مضبوطة بدقة. وفي الواقع يوجد شك كبير لا يتعلق بأوائل العصر الحجري الوسيط فحسب بل أيضا بالجزء الأخير من العصر الحجري المبكر كله. وتجرب حاليا تقنيات جديدة مشروحة في مكان آخر من هذا الجزء. ولقد ساهمت طريقة البوتاسيوم-أرغون خاصة، في تحديد اطار تاريخي تقريبي

بالنسبة لحقبة من التاريخ تتجاوز نصف مليون سنة. فمن الضروري فعلا أن نعول كثيرا ودائما على التاريخ النسبي المستنتج من علم طبقات الأرض الأثرية والجيولوجية ومن علم النماذج البشرية. إن التواريخ المقترحة هنا لحقب ما قبل التاريخ هي إذن أقدم من التي تقدم عادة، إلا أنها ليست قطعية بقدر ما يريد ذلك حاليا بعض الاختصاصيين. فحتى مدرسة «المراجعة» فهي أقل قطعاً في هذا مما قد يتبادر إلى الذهن، لأن القضايا التي تطرحها تهم في الواقع التعريفات أكثر مما تهم ضبط التواريخ.

وفضلاً عن أن تاريخ هذه الحقب غير مدقق — إن لم يكن محل نزاع — فمن المهم ألا نعتبرها حقبة ثابتة لا تجري داخلها تغيرات ولا تحولات. فلا يجوز أيضاً أن نتصور أن التغيرات من حقبة إلى أخرى قد وقعت ختماً بصفة مفاجئة. لقد طرأت تطورات سواء ضمن كل حقبة أو عند الانتقال من واحدة إلى أخرى. يضاف إلى ذلك أن الانتقالات الواقعة بين التكنولوجيات من العصر الحجري المبكر ومن العصر الحجري الوسيط، وكذلك بين العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري المتأخر تعتبر انتقالات معقدة. ولكي يؤخذ هذا الأمر بعين الاعتبار، يتحدث بعض المؤلفين عن حقب فاصلة هي (بين بين). إلا أن الاتجاه الحديث ينعصر في التخلي عن فكرة هذه الحقب «الفاصلة» كحقب «رسمية» للجدول التاريخي للعصر الحجري. ولأنه كان وصف «الفصل الثاني» بين العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري المتأخر وصفاً ليس على أية حال مرضياً. أما «الفصل الأول» الذي يشمل الصناعات المعروفة باسم (فورسميثي) و«سنگون»، فاته حالياً يعتبر أحياناً مرحلة نهائية من العصر الحجري القديم، إلا أننا نفضل أن ندججه في عصر حجري متوسط أكثر امتداداً. وهذا ما يفسر لماذا كان تاريخ بداية هذا العصر الحجري المتوسط أكثر قدماً في دراستنا هذه.

إن التخلي عن هذه «الفواصل» هو قضية ملائمة لا أكثر ولا يدل على تبسيط للنظريات المتعلقة بالتطور التكنولوجي والثقافي والاقتصادي للإنسان في عهد ما قبل التاريخ. وقد أصبح من الشايت أن الأمر يختلف عن ذلك تماماً. والملاحظة الأولى هي أن تكنولوجيات مختلفة كانت تستعمل في نفس الوقت حتى داخل مناطق ضيقة في مختلف عهود العصر الحجري. ويمكن تفسير هذه الاختلافات في بعض الأحوال بالاعتماد على البيئة، إذ يمكن لتكنولوجية أن تلائم الحياة في منطقة مشجرة أو في منطقة على شاطئ البحر، ويمكن لتكنولوجية معاصرة مختلفة أن تلائم مناطق أكثر جفافاً أو أكثر عراء. ولذلك يمكن للموارد الغذائية وطرق استثمارها أن تفرض تكيفاً ثقافياً وتكنولوجياً مختلفاً (١).

إن التفسير الصحيح قد لا يكون أحياناً بسيطاً. فلقد يحدث أن تظهر أنشطة إحدى المجموعات (مثلاً صيد الحيوانات الكبرى والصغرى، ونصب الفخاخ، وقلع العروق والعسقيات، وخدمة الخشب والجلد الخ.) ويكون بعض تلك الأنشطة فصلية، قد تظهر في مظاهر على غاية من التنوع، فتتوفر فيها أدوات مختلفة من نفس العهد، وذلك بجهة معينة. ويمكن من ناحية أخرى أن تظهر اختلافات تدل على تباعد ثقافي وعلى تخصصات اقتصادية أكثر عمقا، وهي في تصورنا ناتجة عن الاختلاف في العرق أو في المجموعة، أو قد تكون ناتجة عن وجود أنواع من البشر في العصر الحجري

(١) انظر خاصة، فيما يلي، العرض المخصص للعصر الحجري الوسيط.



المبكر. ان هذا موضوع اختلاف، الا أن أحدث الاكتشافات بإفريقيا الشرقية بينت أن ما كان يعتبر الى الآن مرحلتين متميزتين من العصر الحجري القديم والمتمثلتين في الصناعات ذات الحصاة الملساء المهيأة (أو ما يدعى الأولدواي) التي تحولت الى صناعة الادوات ذات الوجهين (وتدعى بالأشولي) إنما يغطي في حقيقة الأمر حقبة طويلة دامت على أقل تقدير نصف مليون سنة. ومن الصعب أن نعتد «النظرية القائلة بنوعية النشاط» لابرار جوانب هذه الملاحظة، ويميل بعض الاختصاصيين الى تأويله كدليل على وجود نمطين من التقاليد الثقافية متميزين، لنوعين من السكان منفصلين تماما، يعيشان جنبا الى جنب ويستثمران موارد غذائية مختلفة.

وفضلا عن هذا يمكن لنا أن نلاحظ أنواعا من التغطية في التقسيم الاعتباطي بين العصر الحجري المبكر، والعصر الحجري الوسيط والعصر الحجري المتأخر. فمن الممكن أن نجد بعض الأدوات من العصر الحجري المبكر أو تقنيات بدائية في محيط هو أساسا من العصر الحجري الوسيط. ان تمازج خصائص محددة وأخرى محافظة قد يكون علامة على تغير متدرج. الا أن فترة الانتقال قد لا يحس بها أحيانا، وقد يحدث في بعض المواقع التي لها مقطوعة طبقية أرضية واضحة أن تظهر بها فجأة تكنولوجيا جديدة وذلك في شكل مكتمل، من غير أن يكون هناك أثر يدل على تطور محلي. وهذا يوحي بانتشار التكنولوجيا من منطقة الى أخرى ويمكن أن يكون ناتجا عن تحرك السكان. ولقد كانت التغيرات المناخية، مع ما لها من أثر على البيئة، من حوافز التكيف الثقافي والتقدم التكنولوجي. الا أنه على عالم الآثار أن يحترز في هذا الميدان من التأويلات الحتمية البسيطة.

ان هذا التقسيم الفرعي الاعتباطي جدا للعصر الحجري هو حينئذ نظام مرجعي مفيد في الحالة الراهنة لمعارفنا. ولكن يجب أن نجعله مرنا بحيث نتمكن من تغييره باستمرار. وربما ذات يوم سوف لا يفيد هذا النظام. ولئن كان هذا اليوم لم يصل بعد، فان فائدة ذلك النظام معرضة للخطر اذا طبق تطبيقا شكليا جدا أو بدقة متناهية في أغراض لم يوضع من أجلها.

سنقدم في الجدول بيانات أكثر تفصيلا توضح الطريقة التي يمكن أن تحد فيها مختلف «الثقافات» من العصر الحجري، ومختلف الصناعات الحجرية التي عرفها الأثريون بإفريقيا الشرقية وفق التقسيم الى ثلاث حقب. ولقد عرضنا هذا الجدول ليكون دليلا لمعارفنا الحالية وللدراسات الأساسية. ولا ندعي بأنه يحتوي على التأويل «الصحيح» ولا التأويل الذي سيعمر طويلا بعد نتائج البحوث المستقبلية، أو بعد إعادة النظر في البحوث التي أنجزت. يجب أن يعتبر بكل بساطة دليلا ودليلا مرنا. ان بعض «الثقافات» المذكورة فيه (وغيرها من التي لم تذكر قصدا) ربما درست على حدة بالاعتماد على بحث أو أوصاف غير مكتملة، ومركزة على استكشاف ووصف موقع واحد وصفا كاملا وهذا من شأنه أن يشكك في وجودها كوحدة ثقافية، وتوجد ثقافات أخرى لها امتداد جغرافي أو تاريخي شاسع. ويقدّر بعضهم أن الأشولي من العصر الحجري القديم يغطي أكثر من مليون سنة بإفريقيا الشرقية ولا يمتد في كامل القارة فحسب، بل يمتد في جزء كبير من أوراسيا الجنوبية والغربية، ولقد امتد السنغوي (Sangoen)، في أول مرحلة من العصر الحجري الوسيط من بعض أجزاء إفريقيا الشرقية والجنوبية الى أقصى الغرب من القارة. ومن الصناعات الأكثر حداثة والمثلة بإفريقيا الشرقية نذكر الستيلباي (Stillbayeis) والولطوني (Waltonien).

الذين وصفا لأول مرة وسميا في مقاطعة رأس الرجاء الصالح (بجنوب أفريقيا). وبفضل الاختصاصيون اطلاق أسماء جديدة ومتميزة على مختلف الأنواع بأفريقيا الشرقية إلا أننا فضلنا أن يكون عرضنا هذا مبسطاً، مع الإشارة إلى بعض الصعوبات البديهية وإلى بعض المراجعات المحتملة. ويمكن للقراء الراغبين في ذلك أن يتبعوا التطورات الجديدة والمجالات وذلك بالشروع في قراءة المؤلفات التي توجد منها قائمة في مراجعنا ولهم الخيار في استعمال مصطلحات أكثر تفنناً.

ان هذا المقال وهذا الجدول مع حواشيها غير مخصصين للمصطلحات، لأن المصطلحات لا تعني شيئاً في حد ذاتها. ولذلك فإن الذي سيحاول حفظ هذا الرسم عن ظهر قلب، سيسئ إلى نفسه ويمكن أن يعرف العصر الحجري كحقة «لما قبل التاريخ» فحسب وأن يناقش وأن يدرس بطريقة مفيدة بالاعتماد على مصطلحات ورموز وضعها الأثريون. إن كل محاولة جدية للاحاطة بتلك الحقة وبالمؤلفات المرتبطة بها، سواء عندما ينظر إليها في مجموعها أو عندما تحلل تفصيلاً، تستوجب استيعاب المصطلحات المستعملة عند مختلف المؤلفين، وإن كانت مضطربة وباطلة في بعض الأحيان. إن هذا الفصل يشكل مدخلاً إلى كل ما ألف حول تاريخ إفريقيا الشرقية في العصر الحجري، من أجل الاحاطة به.

### الحواشي المتعلقة بالجدول

إن العمودين على الشمال يقدمان توافقات أجمالية مع الحقب الجيولوجية وتاريخ العصر الحجري الأول، المنطبق على منطقة الأبيض المتوسط، أما شمال أفريقيا، وأوراسيا، فإنها لم يذكر إلا بصفتها مرجعين لهما ارتباط خاص بفصول أخرى في هذا الجزء وبمصوص أخرى (تشمل مؤلفات قديمة خاصة بعلم الآثار المتعلق بأفريقيا الشرقية). فهذان العمودان غير ضروريين لفهم ما جاء في هذا الفصل.

إن المصطلحات «الأسفل» و«الوسيط» و«الأعلى» تدل على العصور القديمة علماً بأن «الأسفل» هو أقدمها وهي مطابقة للتقاليد الجيولوجية العادية المركزة على المقطوعات من طبقات الأرض وتقدم هذه الجداول حسب ترتيب منطقي من الأسفل إلى الأعلى في أغلب المؤلفات الجيولوجية وفي عديد من المؤلفات الأثرية. ويعرض هذا الجدول حسب الترتيب من الأعلى إلى الأسفل طبقاً للجدول التاريخي.

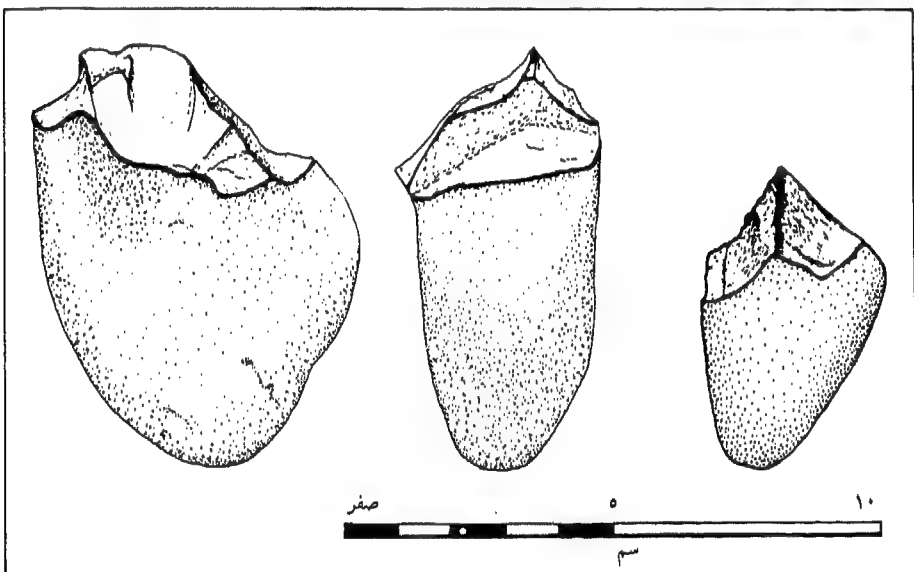
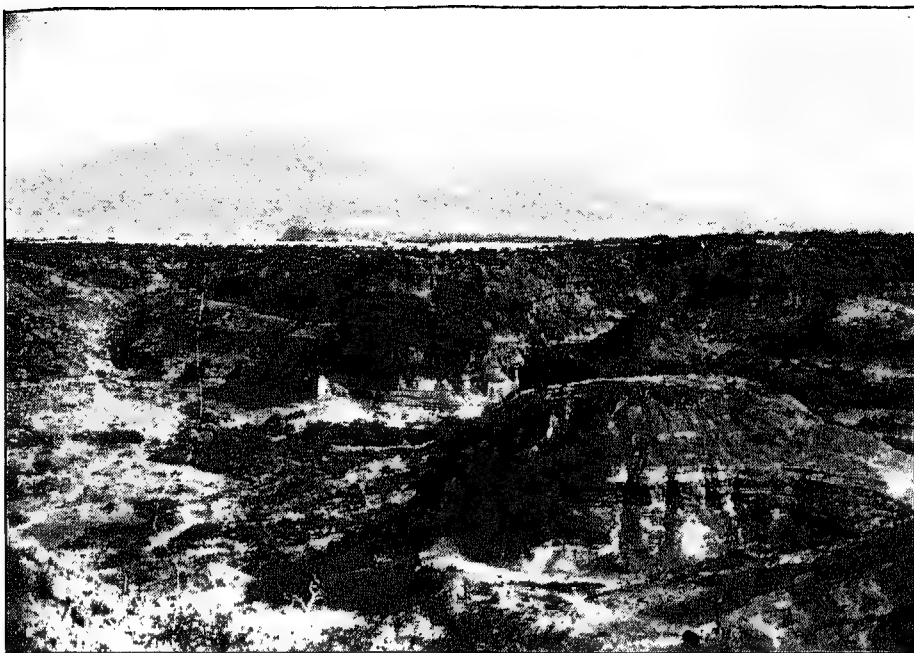
إن لفظ «الحجري القديم» ليس هو اللفظ الذي يعادل العصر الحجري المبكر الإفريقي «فالحجري القديم» يفيد، مثلاً استعمال ولا يزال يستعمل بأوروبا «عصر الحجارة بدون إنتاج القوت». وهو يقابل «الحجري الجديد» أي (عصر الحجر الجديد) الذي يفيد «عصر الحجر مع إنتاج القوت»، وهنا يعني الفلاحة والرعي السابقين لاستعمال المعادن. ويوجد تأويل مخالف شيئاً ما «للحجري الجديد»، وهو مستعمل أحياناً ويفضل أصحاب هذا التأويل معايير ثقافية مادية متقدمة، لا سيما الحرف أو الحجارة المهذبة، عوضاً عن إنتاج القوت، وهناك تمييز في بعض الأنحاء من العالم لحقة انتقالية (أو درجة ثقافية حسب بعض المؤلفين) تدعى «الحجري الوسيط». إننا لا نعتبرها هنا إلا للسجل أنه لا صلة لها بالعصر الحجري الوسيط الإفريقي، خلافاً لخطأ شائع جداً في الدراسات العامة المتعلقة بتاريخ إفريقيا.

## ما قبل التاريخ في أفريقيا الشرقية

العصور (بالترتيب) قبل الميلاد	التقسيمات	المساحات التكنولوجية المتخصصة المميزة	الصناعات الحجرية الرئيسية	الظواهر التاريخية في مناطق البحر المتوسط وأوراسيا	الحضارات الحجرية (تواريخ) تتبعها
٣ ملايين	العصر الحجري المبكر	المرحلة الأولى	حصى مشكلة ومشفقة أدوات ذات وجهين (ذات وجهين، فاسية، الخ.)	أولدواني (صناعات الطحوات المشككة) أشولي (صناعات الأدوات ذات الوجهين)	البليستوسين الأدنى
١٠٠٠٠٠	العصر الحجري الأوسط	المرحلة الأولى	أدوات مشفقة مصنوعة من تويات بجرية استخدام القايض: أدوات أصغر حجماً وأفضل تقنياً	الحجري القديم الأوسط	البليستوسين الأعلى
١٥٠٠٠	العصر الحجري المتأخر	المرحلة الثانية	تصال وأدوات حجرية صغيرة مثقفة أدوات مركبة	الحجري القديم الأعلى - فوق الحجري القديم أو الحجري الأوسط - الحجري الحديث (في بعض مناطق معينة)	المهولوسين

عصر الحليد

بعد الميلاد



- (١) خانق أولدوقاي، تانزانيا الشمالية: يمثل الخانق فجاً عمقه أكثر من ١٠٠ متر في السهل، ويكشف عن طبقات متعاقبة متراكبة (أهمها الطبقات البحرية السفلى)، ويبلغ عمر الطبقات السفلى حوالي مليوني سنة، وهي تحتوي على آثار لبعض أفراد الإنسان الأول (وبعض المخلوقات البشرية) وعن عدد من أدواتهم (من النوع الأولدفاي) وبقايا من أغليتهم. وفي مستوى أعلى، تم العثور على أدوات ثنائية الأوجه وأشياء أخرى من نوع الحياة الأشولية (المرحلة الثانية من العصر الحجري الأول) (تصوير ج. أ. غ. ساتون).
- (٢) العصر الحجري المبكر. المرحلة الأولى: أدوات أولدوقائية نقطية (حصوات مشكّلة).

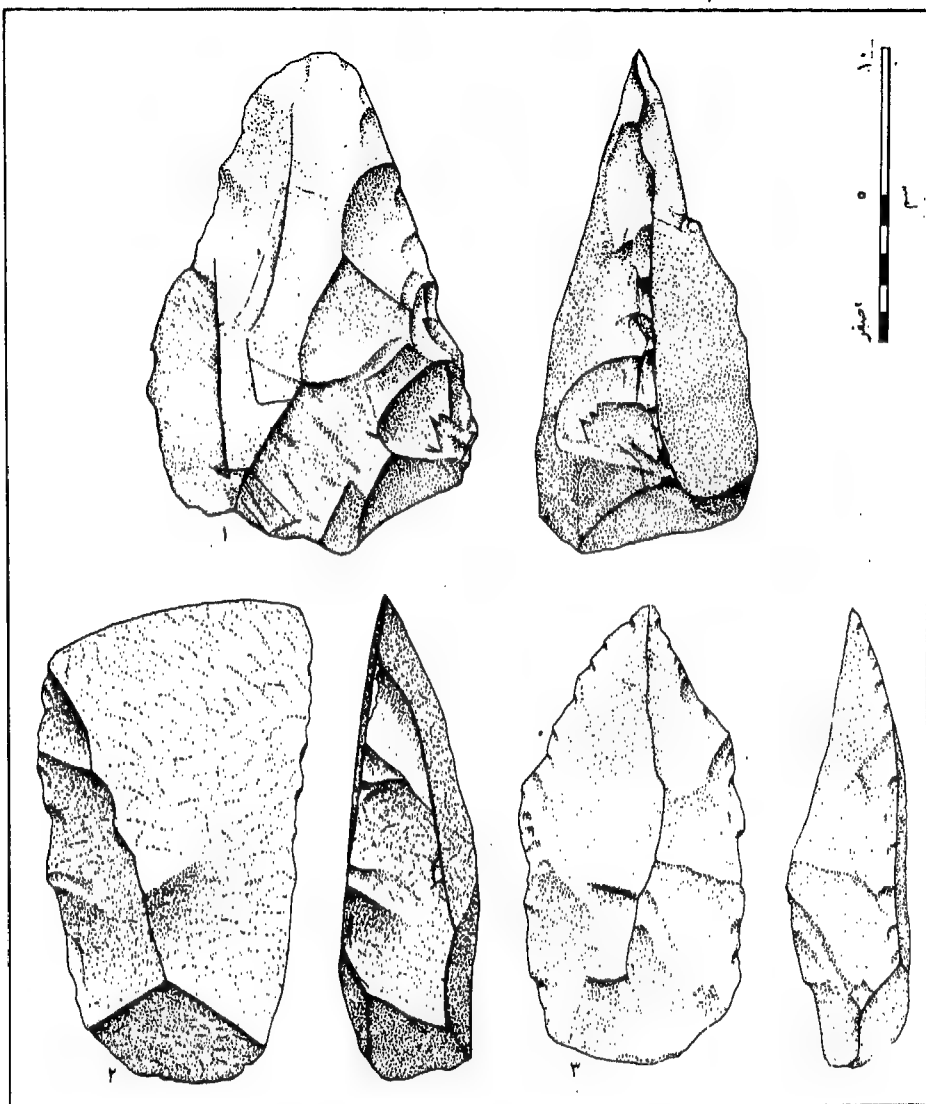
إننا لا نجد تقريرا في مجموع المناطق الأفريقية الواقعة جنوب خط الاستواء ما يعادل العصر الحجري الجديد الخاص بالأقسام الأخرى من العالم، لأن إنتاج القوت لم ينتشر قبل ابتداء عصر الحديد (٢). إلا أنه توجد بالأراضي العالية من الكينيا وشمال طانزانيا، شواهد تدل على إنتاج القوت (الرعي، وعلى الأقل شيء من الفلاحة أيضا) بالعصر الحجري المتأخر النهائي، وذلك منذ اثنين أو ثلاثة آلاف سنة. إن تلك الشقافة وما لها من الحرف وأقداح حجرية تدعى «العصر الحجري الجديد» من طرف بعض المؤلفين.

## العصر الحجري القديم

### المرحلة الأولى

يعود تاريخ الأدوات القديمة جدا التي صنعها الإنسان والتي نعرفها، إلى حقبة تتراوح بين مليونين إلى ثلاثين مليون سنة، وبين مليون سنة على الأقل. ولقد وقع اكتشافها على شواطئ بحيرات قديمة ومستنقعات قرب الريفت فالي بطنزانيا الشمالية، والكينيا وأثيوبيا. ولعل أقدم الأدوات المنحوتة تتكون من تلك الشظايا الصغيرة جدا من الصوان، المفصلة والمستعملة، والتي وجدت في مواقع عديدة من بحيرة تركانا ومن وادي أومو باثيوبيا. ويعتبر استعمالها مشكلا من المشاكل ومن تلك الأدوات ما هو موجود بكثرة ومعروف معرفة حسنة، وهي الحصاة الملساء المهيأة، والمعاصرة للشظايا أو الموالية لها بقليل. فهي حصاة من حجم قبضة اليد، وكتل صغيرة من الحجر، أخذت منها بعض الشظايا (بواسطة حجارة أخرى) لإنتاج أدوات قاطعة، خشنة لكنها صالحة للاستعمال. وبينها نجد أن الأشغال الصعبة ومنها ما يتعلق بقطع جلد حيوان، أو بكسر أو تهشيم مادة نباتية صلبة تستوجب عادة استعمال الأداة الأساسية التي تقبض باليد، فقد كان من الممكن أن يستعمل عدد كبير من الشظايا (وتوصف عادة، لكن عن خطأ، بأنها نفايات)، وهذه الشظايا أكثر رهافة وبالتالي أكثر قطعاً، وأن يستفاد منها في أشغال أخف من غيرها وأكثر دقة، كإعداد حيوان مقتول للأكل، وصنع أسلحة خشبية، أو القيام بأشغال منزلية في الخيم. وفي الواقع فإن الدراسة المعمقة لهذه الصناعات المدعوة «بالباطورية أو صناعة الحصاة» المهيأة، لا سيما دراسة الدكتور ماري لاكي في ما يتعلق بفج أولدواي حيث عثر عليها بالمستويات السفلى، أو مثلما فعل ج. شيفايون في ملكا كنتوري بأثيوبيا، تشهد بوجود نوع كبير في النماذج، وبمهارات تكنولوجية هي أكبر مما كان يتصور من قبل. إن عبارة «حصاة مهيأة» عبارة متقضية بعض الشيء، كما أن عبارة «حصاة الحصاة المهيأة» التي كثيرا ما تستعمل فيما يخص هذه المرحلة من العصر الحجري المبكر، هي عبارة غير صحيحة لأن الحجارة المختارة لصنع السواطير، والشظايا وأدوات أخرى، لم تكن دائما هي الحصاة، يضاف إلى ذلك أن العظم، وكذلك الخشب كانا أيضا مستعملين. وإن أغلب الأثرين يفضلون تسمية تلك المرحلة الأولدواي، نسبة إلى أولدواي، بطنزانيا الشمالية. وهذا لا يعني

(٢) وقد رة على هذا الرأي مؤلفون عديدون.



● العصر الحجري المبكر، المرحلة  
الثانية: أدوات أشولية فطرية (مناظر)  
أمامية وجانبية). ١. منقارة ٢. أداة  
شق ٣. فأس يدوية ذات وجهين.

طبعاً أنها صنعت لأول مرة بأولدوواي<sup>(٣)</sup>. وكان يظن أن صانع تلك الحصاة المهيأة، لا يصيدون ولا يقتلون إلا الحيوانات الصغيرة مثل الطيور، والضباب والسلاحف والهيركسات، لتتمة ما يجمعون من ثمار ونباتات وحشرات، وقد أصبح من الثابت أنهم كانوا يقتلون حيوانات كبيرة إذ أنه يوجد بين العظام المستحجرة المكتشفة مع الأدوات، أو قرب الخيمسات، عظام فيلة أو ظباء كبيرة. ويمكن أن تكون بعض هذه الحيوانات قد ماتت ميتة طبيعية، أو أنها جرحت عرضاً أو قتلها أسود أو غيرها من اللواحم. ولكن من المحتمل أن البعض الآخر قبض عليه، في ذلك العهد القديم بواسطة الفخاخ، أو دفعها إلى المستنقعات جماعات من الصيادين الذين يفتكون بها بنصأهم أو بدبابيس أو بقذائف حجرية.

وكان الصيادون يستهلكون جزءاً من اللحم بعين المكان الذي قتل به الحيوان، أما الباقي فكثيراً ما كان ينقل إلى الخيم ليقسم على ما تبقى من الجماعة، بما في ذلك النساء والأطفال، لأن ما يتبقى من ذلك الحيوان كثيراً ما يشمل عظام حيوانات مختلفة مخلوطة بأدوات متنوعة كانت تستعمل للقطع، والكشط، والمهريس، فهي تشكل شواهد مهمة عما قد يكون محل سكن في هذه المرحلة القديمة جداً من الإنسانية. إن دراسة مواقع الآثار، تفيد فضلاً عن ذلك أن حواجز ضد الرياح كانت قائمة. وقد رأى البعض في دائرة حجرية بأولدوواي أساساً قديماً لكوخ أو ملجأ خشبي، ومن المحتمل أنه كان مغطى بالجلود. ولقد استعملت لنفس الغرض مسطحة اصطناعية في ملكا كنتوري.

لقد أبرزت إلى الوجود مناجم من الحصاة المهيأة ابتداءً من جنوب إفريقيا إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط فضلاً عن المواقع العديدة الموجودة بشواطئ البحيرات التي تمتد من أولدوواي إلى بحيرة تركانا، والتي توجد فيها أقدم المواقع السكنية المعروفة. ولعلها تعود إلى عهد متطور أكثر من أقدم مرحلة بأفريقيا الشرقية. ومن المحتمل — ولكن لا على سبيل اليقين — أن تلك الصناعة قد انبثقت أصلاً من إفريقيا الوسطى، أو الشرقية وانتشرت في كامل القارة واعتباراً لتاريخ تلك الأدوات، فضلاً عن تمازجها العرضي بأفريقيا الشرقية مع العظام الإنسانية، يمكن أن تنسب إلى أكثر البشر بدائية أو إنسان الجنوب، أو بالأحرى إلى الإنسان الماهر، كما يدعوا بعضهم إلى ذلك اليوم (٤).

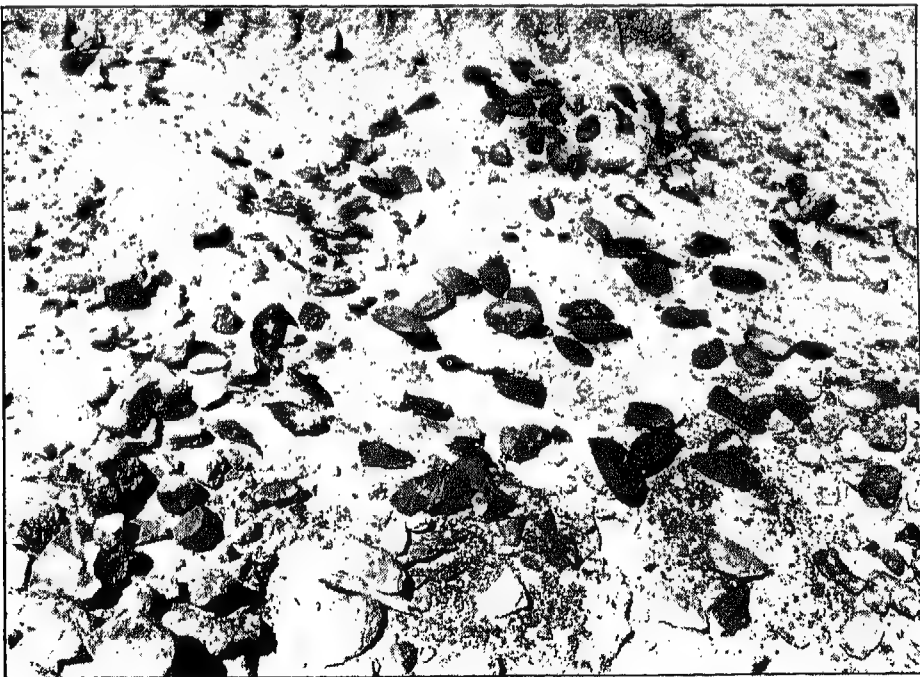
## العصر الحجري القديم

### المرحلة الثانية

إن الأشولي أو «حضارة ذي الوجهين» منتشرة أيضاً بأفريقيا انتشاراً الأولدوواي، وتوجد به مواقع أكثر ولعل ذلك يعود إلى وجود سكان أكثر عدداً، كما يعود إلى صناعة عدد متزايد من الأدوات

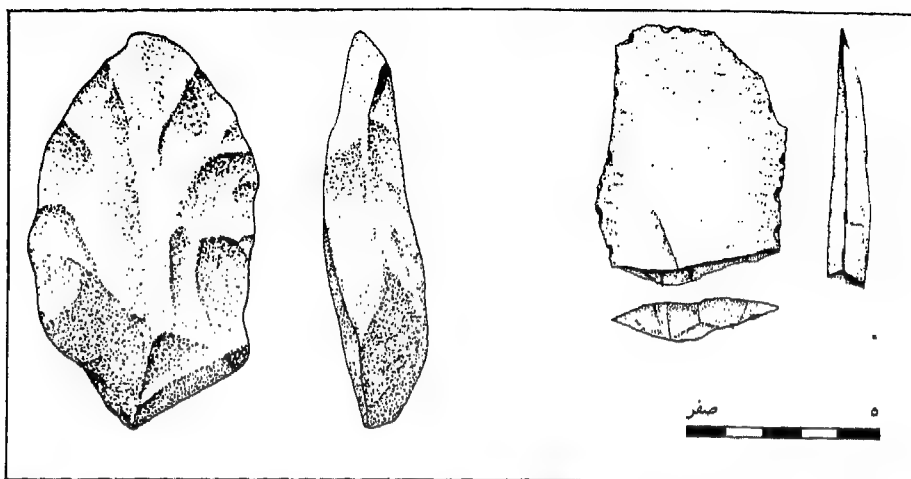
(٣) — ان الرسم الاملائي «أولدوواي» (Oldowayan) مشتق من الصيغة الألمانية لكلمة أولدوواي (Oldoway) المكتوبة هكذا على الخرائط الأولى. واسم المكان من أصل ماسايي، والصحيح أن تكتب «أولدياي».

(٤) انظر الفصل ١٧ من هذا المجلد.



● إيسيمبلا، مرتفعات طانزانيا الجنوبية. ١ - منظر على أرض الحفر المتحات يحثف عن الطبقات التي تتعرض فيها الأدوات  
الاشولية للتحاث؛ ٢ - مجموعة من الادوات ثنائية الالوجه، من فؤوس وأدوات أخرى أشولية (في الوسط، مكشط ملاط لبيان  
المقياس النسبي للحجم).





- (١) العصر الحجري الاوسط والادوات الانتقالية: الى اليمين نموذج لسن مذهب يمكن تركيبه على مقبض، أو ربما كرأس لرمح.
- (٢) أولورجيسايلي، الوادي الاخندودي في كينيا. حفريات جارية في موقع كان مسكونا في الزمن الاشولي. (تصوير ج. أ. غ. ساتون).

ذلت الاحجام الكبيرة، التي يسهل التعرف عليها. وخلافاً للأولسولي، يمتد الاشولي خارج إفريقيا أي في آسيا الغربية والجنوبية وكذلك أوروبا الجنوبية والغربية. ان بدايته بافريقيا تعود الى أكثر من مليون سنة. ولقد دامت منه التقاليد التكنولوجية طيلة مليون سنة الى عهود حديثة نسبياً لا تتجاوز مائة ألف سنة. ولقد سجل هذا المليون من السنوات تغيرات مناخية ملحوظة على المستوى العالمي (٥). وهناك احتمال قليل في أن تكون جميع المناطق التي وجدت بها أدوات أشولية مسكونة بصورة مستمرة، مع الملاحظة من جهة أخرى، أن الصناعات الاشولية كانت بالشرق من الهند قليلة أو مفقودة، ويبدو أن الهند قد احتفظت بتكنولوجيا حجرية متميزة تنتسب الى نوع (الحصاة المهيأة) المتطورة. وهذا من شأنه أن يعتبر حداً ثقافياً بين الشرق والغرب. ان هذه الصناعة الأشولية التي كان فيها ذوا الوجهين أكثر الأدوات تداولاً، تستوجب أن تربط بوجود الإنسان المستقيم، وهو شكل بشري وسط بين إنسان الجنوب والإنسان العصري. الا أن تطور الإنسان المستقيم، نحو نماذج الإنسان العارف الأولى، كان قد أخذ يتحقق في حوالي نهاية الفترة الأشولية.

لقد كانت إفريقيا إحدى المناطق التي جرى فيها تطور الإنسان المستقيم، كما جرى بها التطور الشقافي الذي تدل عليه التقنيات الاشولية لصنع الأدوات، وطرق من العيش كانت مجدية أكثر مما يمكن أن نتصور. ولقد ظلت تقاليد ثقافية أكثر قدماً (ولعلها من النوع الطبيعي البدائي) ظلت قائمة لمدة معلومة جنباً الى جنب مع التقاليد الجديدة. ان أحسن دليل على ذلك يظهر من المستويات المتتابعة من السواحل القديمة البحرية بأولدوواي حيث صنعت واستعملت معاً أدوات متمايزة أولدووائية وأشولية طيلة مدة تقدر بعديد من مئات آلاف السنوات، وذلك منذ مليون سنة تقريباً. ان الاشولي يشمل فضلاً عن ذلك مراحل وتحولات متعددة، الا أنه لا يؤخذ بعين الاعتبار في دراسة عامة، الا التقسيم الاساسي بين الاشولي القديم، وهو أشد خشونة وأكثر بساطة والأشولي المتطور الذي يشمل أحسن ذوات الوجهين وأحسن القدومات. وتزدان المعارض في متاحف إفريقيا الشرقية بمختارات من تلك الأدوات، وتعتبر الأدوات الآتية من إيسميلا (من الأراضي العالية بـتـانـزانيا) من أجمل الأدوات بالعالم. ومن الواضح أن «الأشولي المتطور» كان قد أخذ يتطور في مكان ما انطلاقاً من «الاشولي القديم». وعلى كل حال ظلت بعد ذلك التقنيات الحديثة والتقاليد القديمة قائمة جنباً الى جنب لمدة معينة.

لم تكن إفريقيا الشرقية، في العهد الاشولي، الا منطقة من مناطق العالم القديمة العديدة التي سكنها الإنسان. فهي تشمل مواقع وفرت دراستها أدق المعلومات عن تكنولوجيا الإنسان المستقيم والإنسان العارف البدائي وعن اقتصادهما. فزيدق على مواقع أولدوواي وسلاسل طبقاتها التي لا مثيل لها، وزيادة على مواقع أخرى بنفس المنطقة، توجد مواقع ألرغسيلي Olorgesailie وكريندوسي بالرفرت بالكينيا ومطارح أخرى بشرقى بحيرة تركانا، ونسونغيزي والمواقع المجاورة بحدود طانزانيا وأوغندا، وإيسميلا ولوكويلرو بـتـانـزانيا الجنوبية، وملكا كنتوري Melka Konturé بـأثيوبيا حيث اكتشفت أطوار عديدة من الاشولي.

ان التسميتين «ذو الوجهين» و «القدم» المطلقتين على النوعين المميزين أحسن تمييزاً للأدوات الاشولية، هما بطبيعة الحال من مصطلحات علماء الآثار المتفق عليها. ان ذا الوجهين لم يكن فأساً، بل كان على الأرجح أداة للاستعمال العام، وكان طرفها الحاد وقاطعها الطويلان يمكن استعمالهما للتفتيش والسلخ، فضلاً عن وظائفه الأخرى، و يصلح القدم لسلخ الحيوانات باعتبار طرفها القاطع. ان الفرق بين تكنولوجيات الأولدوواي والأشولي، هو في أغلب الأحيان كمي، ان مجموعة الأدوات، مثل الأدوات الفردية قد أصبحت الآن أكثر تميزاً. يضاف الى ذلك أن التقنيات الاشولية تسمح بصنع أدوات أكبر حجماً، لها قواطع أكثر طولاً، وحدود مشحودة لكي تستعمل سكاكين. ولتلك التقنيات تقطيع أكثر دقة، وأكثر اعتدالاً وانتظاماً بالوجهين، و يكون هذا التقطيع أحياناً بقارح من حجر كما في الأولدوواي، ولكن يكون في أكثر الأحيان بقارح خشبي أسطواني أو بعظم حيواني طويل.

ان السكان طيلة العصر الحجري المبكر، كانوا يشكّلون فرقا من الصيادين القاطفين، وكانوا يتحولون في كل فصل الى السباسب والمناطق القليلة الشجر تبعاً لما يطرأ على الموارد الحيوانية والنباتية من تغيرات. ومن المحتمل أنهم كانوا يتفرون في بعض الفترات من السنة ويجمعون في آخر الفصل الجاف في فرق عددها أكبر، وذلك قرب بحيرة أو منطقة أخرى خصبة. ولقد رأى بعضهم ان التجمعات الضخمة من الأدوات الاشولية ذات الصنع الجيد، بمواقع مثل ايسميلا وألورغسيلي قد تدل على إقامة مخيمات سنوية.

ولقد اكتشفت الشواهد الأولى عن النار في إفريقيا الشرقية بمواقع أثرية أبرزت صناعات من الاشولي المتطور، وتؤرخ المؤلفات الموجودة ذلك الاكتشاف بخمسين ألف سنة تقريباً. وهذا التاريخ لا يخلو من الاحتراز، اذ توجد آثار لا نزاع فيها تدل على النار والطهي تركها الانسان المستقيم بآسيا الشرقية واوربا وذلك منذ نصف مليون سنة. و يبدو من المحتمل جداً، وان لم توجد حجة، أن النار قد عرفت وأن الطعام المطبوخ كثيراً ما استهلك طيلة جزء كبير من الاشولي بإفريقيا.

## العصر الحجري الوسيط

ان سكان العصر الحجري الوسيط ينتمون الى نوع الانسان العارف، وربما كانوا في أول الأمر، ينتمون الى أنواع متفرعة عن الانسان العارف، ومختلفة قليلاً عن الانسان المعاصر. إن الانسان العاصري (الانسان العارف) لم يكن قد ظهر فحسب في آخر العصر الحجري الوسيط بل ان الخصائص البدنية المميزة للأجناس الموجودة، قد ظهرت وتطورت بإفريقيا وفي غيرها من القارات.

لقد سجل العصر الحجري الوسيط، من حيث وجهة النظر التكنولوجية، تقدماً مهماً. وهكذا تركت التقنية الأساسية لصنع أدوات الحجر والتمثلة في نزع شظايا من صخرة حتى يقارب شكلاً نموذجياً له حدود قاطعة صالحة للاستعمال، فاستعير عنها بتقنية أكثر تعقيداً، تستوجب تهيئة النواة بنزع الشظايا نزاعاً دقيقاً حتى يكون له الشكل والحجم المطلوبان للذات يسمنحان باستخلاص الأداة الكاملة الصنع. ولقد استعملت موازنة لذلك تقنية تعتمد على فصل شظايا عادية تهذب بعد ذلك ليصبح لها الشكل معلوم، فنتج عن ذلك صنع أدوات أقل حجماً، لها أشكال أكثر اكتمالاً، وتكون

عادة أرقع من أدوات العصر الحجري المبكر، وأكثر نفعاً منها. ولقد سمح ذلك بتجديدات في الحقبة الثانية من العصر الحجري الوسيط كانت لها نتائج هامة، منها صنع أدوات حجرية منحوتة ذات مقابض من خشب ومن مواد أخرى. إن الحدود الورقية الشكل، التي تخصصت بها الصناعات الستيلباية، والتي تهذب بضغط دقيق جداً، كانت تثبت وتلصق في نواة ذات مقبض خشبي لتكون رمحاً. وحدث أن ركبت بنفس الطريقة أدوات كثيرة ذات استعمال منزلي، مما استوجب تحضير الاصماغ والرتنجات وكذلك نجر الخشب وتقويمه وحزّه وهي أشغال يسرتها بلا شك المعالجة بالنار. إن هذه التطورات التكنولوجية بالعصر الحجري الوسيط كانت مرتبطة بالتطورات الاقتصادية، وعلى الأقل بالتحويلات المتعلقة بالتكيف مع البيئة وهنا يبرز سؤالان مترابطان، أولهما متعلق بالتغيرات المناخية (٦). إن تفاصيلها وضبط تاريخها، وكذلك مطابقتها للشواهد الأثرية ما تزال غير معروفة. ونكون متعسفين إذا فسرنا بعضها بالاعتماد على البعض الآخر. يضاف إلى ذلك أن هذه التغيرات المناخية من الجفاف إلى الرطوبة والعكس بالعكس، وهي تقرأ على توسع الغاب أو تقلصه، وعلى عدد البحيرات والأنهار ومساحتها، مما له أثر على توزيع ووفرة مختلف الموارد الغذائية، هذه التغيرات المناخية لم تكن شيئاً جديداً. فمن الضروري عندئذ أن نتساءل: لِمَ تَسبَبُ التغيرات المناخية الأكثر تقدماً في قفزة تكنولوجية واقتصادية؟ لا يمكن، نظراً إلى وضع البحوث الحالية أن نعطي جواباً مرضياً على هذا السؤال، وإن كان من الممكن أن نتصور أن الضغط السكاني قد فرض وسائل أكثر نجاعة وأكثر تنوعاً لاستغلال موارد المحيط. ومهما كانت الأسباب فذلك ما وقع فعلاً بالعصر الحجري الوسيط.

أما السؤال الثاني فهو يتعلق بالتخصص الجهوي الذي سمح للإنسان باحتلال مناطق جديدة. إن الإنسان العارف كان يستعمل عبر العالم مرونته في التكيف تكيفاً فطرياً والتوسع في المكان. ولقد ظهر بأفريقيا تقسيم ثقافي واضح بين سكان المناطق العشبية أو السهول المشجرة قليلاً وبين السكان الذين يسكنون مناطق أكثر رطوبة ذات غابات أكثر كثافة. فتكونت عند الأولين تقاليد صيد الحيوانات الكبرى بالرمح. (وذلك لا يعني ترك جني الثمار)، بينما تعلق الآخرون بجني النباتات والثمار، وصيد السمك، والفتنص في الساحل بواسطة رماح، وباستعمال فخاخ.

إن ذلك التخصص لم يكن في المرحلة الأولى من العصر الحجري الوسيط مطلقاً مثلما يدعي بعضهم ذلك. فلقد عثر على أدوات تعرف باسم «فورسميثي» بالاراضي العالية من الكينيا، وكذلك في حواشي الغابات. وهذه الأدوات شبيهة بصناعات كندار (Gonder) وكربا وملكاكتوري ويعتبر «الفورسميثي» في كثير من الحالات، من الأشولي المتطور. فالأدوات الأساسية متشابهة لكن عادة من حجم أصغر وتجتمع فيها تقنيات صنع جديدة. وتختلف تلك الصناعات «السغونية» وهي أكثر انتشاراً. وقد عثر على أحسن النماذج منها حول بحيرة فكتوريا، وبالرفرت في الغربي بأوغندا الجنوبية، وفي روندا وواتانزانيا الغربية. وتشمل تلك الصناعات خليطاً من الأدوات الأشولية ومن التقنيات الجديدة. إلا أن خصائصها الكبرى تختلف عن خصائص مظاهر

الفورسميثي. ان مجموعات «السنغون» توحى أولا بخشونة صنعها، ويحتمل أن يكون ذلك علامة على نشاط تكنولوجيا أكثر تنوعاً، لا على تفهق ثقافي. ويحتمل فعلاً أن تكون كثير من تلك الأدوات ذات المظهر الخشن أدوات استعملت لصنع أدوات أخرى، خاصة من خشب، بينما كانت المعاول الكبيرة تستعمل لاستخراج العروق التي تعتبر جزءاً من الحماية الخاصة بالمناطق المشجرة.

ان الشكل المتطور الذي برز فيه أولاً «السنغون» بإفريقيا الشرقية يوحى بأن أصله وتطوره، انطلاقاً من الأشولي، يستوجبان نسبتها إلى مكان آخر، إما في الوسط أو الغرب من القارة. ويمكن أن يكون انتشاره بالأجزاء الغربية من إفريقيا الشرقية قد وقع في فترة رطبة توسعت فيها حدود الغابة الاستوائية. ومن المحتمل أن مواقع المخيمات كان قائمة في مناطق مشجرة، على طول الشطوط المشجرة، لا بالغابات الكبرى الكثيفة. ولنلاحظ أن توزع مواقع «السنغون» المدروسة بمحوض الزاير يفيد أن دخول الغابة الاستوائية لم يزد إلا بقدر قليل عما حصل في الأشولي. ولكن أصحاب الصناعات «اللومبية» (التي تعتبر تطوراً وتجويداً للصناعات السنغوية) — وقد اشتهرت برماحها البديعة الصنع، وذات السنان الحجري — كان أصحاب هذه الصناعات في المرحلة الثانية من العصر الحجري الوسيط يعيشون في وسط الغابات.

يوجد النموذج اللومبي أيضاً حول بحيرة فكتوزيا وبمناطق أخرى غربية من إفريقيا الشرقية وكذلك بمحوض الزاير، وبينه وبين النموذج الستيلبائي اختلاف من حيث الأداة الورقية الشكل، وهو يوجد بالأراضي العالية العشبية التي تحف بالرفث فالي، بالكينيا وأثيوبيا، قرب بحيرة طانا (ملجأ كركورة) أودير داوه (كهف الشيم). وتغلّب في مناطق أخرى، لاسيما في الجنوب الشرقي من طانزانيا نماذج مختلفة من صناعات العصر الحجري الوسيط. وهي أقل اختصاصاً، أو بالأحرى إلى أن يأتي ما ينافي ذلك. وللبعض منها شي من التقليد للعلماء مع «السنغون — اللومبي». ويحتمل أن تكون وجدت تقاليد جهوية عديدة قد نتجت عن التكيف مع بيئات محلية، فحافظت، لما استقرت استقراراً نهائياً، على عدد من خصائصها المميزة، بسبب التقاليد الثقافية وبسبب الضغوط البيئية أو الاقتصادية. ويمكن أن تكون تلك العوامل الثقافية الجهوية مسؤولة عن التحول الذي يظهر واضحاً بإفريقيا الشرقية، بعد تبني التجديدات التكنولوجية من العصر الحجري الوسيط.

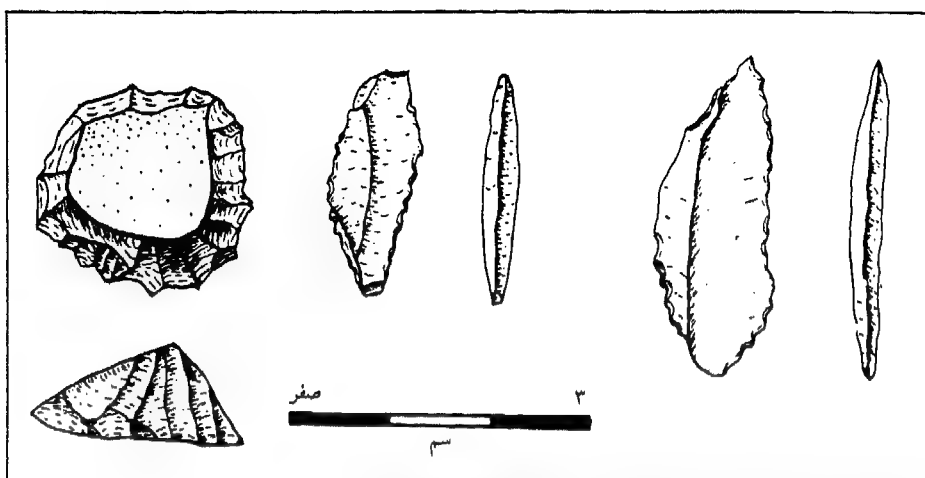
## العصر الحجري المتأخر

ان حدوث هذه التقنيات الأكثر تعقداً بغية صنع الأدوات الحجرية، يعود إلى عشر أو عشرين ألف سنة. وخلافاً للعصر الحجري الوسيط الذي كان التركيز فيه على صنع شظايا انطلاقاً من بقايا حجرية، أصبح التركيز في العصر الحجري المتأخر خاصة على الصفائح المفصلة وذلك باستخلاص مباشر أو غير مباشر لقطع ذات حواف متوازية طويلة رقيقة. وكان من الممكن بعد ذلك تثقيب تلك الصفائح بحسب الأشكال المرغوبة والاستعمالات المتنوعة جداً. وعلى العموم كانت القطع المثقبة صغيرة جداً. أنها «حجيرات» كان طولها أحياناً دون سنتيمتر واحد ويطلق الاثريون على الشكل المشترك اسم «قطعة الدائرة» التي لها قاطع مستقيم وحافة معكوفة. ولم يصنع ليقبض باليد فليستعمل كأداة فردية، بل ليُدْمَج ويثبت بمقابض من الخشب أو العظم. ولقد أصبح وضع

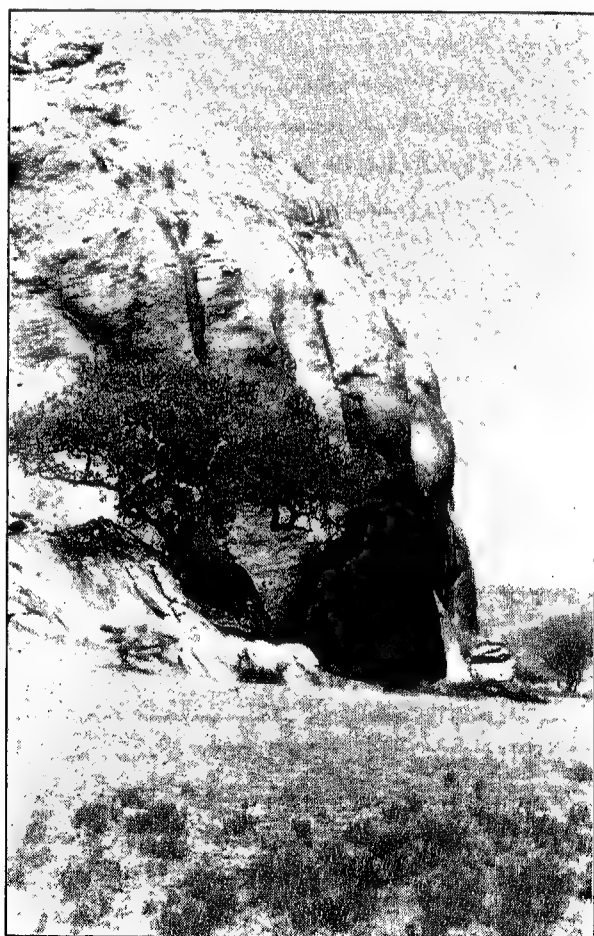
المقايض طريقة محكمة وجارية. وكانت حجارات صغيرة جدا مثبتة معا، بعد ذلك في شق مقبض نحشي لتكون «أداة مركبة» مثل السكين أو المنشار. أما في المناطق التي بها صخور تصلح لصنع صفائح، لا سيما صخور الصوان، وأحسن منها الزجاج البركاني الداكن (السيج) الذي يوجد بأماكن قرب الرفت فالي بطنانزانيا الشمالية، وبالكينيا، فقد كان من الممكن صنع قطع جميلة، وصفائح حوافها معكوفة، ومثاقب، ومحافر ومكاشط وأنواع أخرى خاصة. أما في المناطق الأخرى فهي لا تحوي إلا حجر الصوان أو حجارة دون ذلك قيمة، لا يصلحان لتقطيع الحجر. ولئن أمكن صنع أدوات مفيدة اعتمادا على تلك المواد، فقد كانت تظهر لأول وهلة في مظهر الآلات الغير المنتظمة والخشنة. ولقد كان الأثريون يعثرون أحيانا على آلاف من الشظايا في موقع سكني من العصر الحجري المتأخر، إلا أنهم كانوا لا يستطيعون أن يصنفوا الاثنتين أو ثلاثا بالمائة منها حسب أشكال معروفة من الأدوات.

إن هذه التجديدات التكنولوجية كانت تسمح بالتعرف على عدد من التجديدات الثقافية أو الاقتصادية أو استخلاصها منها. ويحتمل أن يكون القوس والسهم قد استعملوا في ذلك العهد للصيد. فكانت تثبت بحجارة أو اثنتان بعضا من خشب لصنع الأسنة، وكانت أخرى توضع في مكان أسفل من ذلك لصنع الحراب. ومن المحتمل أن تعود إلى ذلك العهد تهيئة السم الخاص بتلك الأسهم ذات الهياكل الحجرية. وتوحي عادات السكان الصيادين القاطنين الحالية أو الحديثة التي احتفظت ببعض تقاليد العصر الحجري المتأخر، باستعمال الشباك في المناطق المشجرة. وكثيرا ما كان يستعمل العظم إذ أن اكتشاف المثاقب الحجرية والثقابات العظمية يدل على خياطة الجلود لصنع ملابس ومخابئ. ولقد صنعت لآلئ من الحبوب والعظم، وقشور بيض النعام، وحتى من الحجارة ويحتمل أنها خيطة بتلك الملابس أو استعملت كعقود. إن الرحي التي ظهرت في بعض المجموعات من العصر الحجري المتأخر، كانت تستعمل فيما تستعمل لطحن المغرة (Ocre)، الحمراء. ولكن يبدو أيضا أنه كان لها استعمال اقتصادي أهم وذلك لطحن أطعمة نباتية.

كانت بعض المخيمات قائمة، في العصر الحجري المتأخر، في الهواء الطلق، قرب أنهار أو بحيرات، مما يستوجب أن ننصو وجود واقيات من الرياح أو أكواخ متكونة من أعمدة، ومن عشب، ويحتمل أنها كانت مغطاة بجلود، ومن العادات المشتركة أيضا في ذلك العهد الإقامة في الملاجئ تحت الصخور (تسمى أحيانا خطأ «الكهوف») توجد تلك الملاجئ الطبيعية تحت صخور شاطئية على طول بعض الأودية أو تحت صخور كبرى من الغرانيت وفي كل مكان يمكن العثور فيه على ما يحمي من المطر والرياح والعاصفة. وكانت بعض تلك الملاجئ تحت الصخور في مواقع ممتازة، على مرتفعات تسمح بمراقبة مساحات شاسعة من السهول وما فيها من حيوانات الصيد فكان يحدث لفريق من الصيادين أن يستريح بها ليلا، ولأسرة أو لمجموعة من الأسر أن تستقر بها لسبب من الأسباب. وكانت بعض الملاجئ الممتازة تستعمل عاما بعد عام أو بالتناوب مدة مئات وحتى آلاف السنوات طيلة العصر الحجري المتأخر. وذلك ما يفسر الطبقات المتتابعة من الحطام المتكون أساسا من رماد الطبخ، وعظام الحيوانات المستهلكة، والأدوات الحجرية وبقياء النحت. وفي منطقة من الوسط — الشمالي بطنانزانيا كان الجدار الصخري لتلك الملاجئ كلها، كما



● (١) العصر الحجري المتأخر: نصل.  
مظهر (الى اليمين)؛ ونصل هلاقي (في  
الوسط)؛ ومكشط (الى اليسار)،  
مصنوعة كلها من الاوبسديان، في  
الوادي الاخدودي في كينيا.  
● (٢) آبيس روك (ناسيرا) في تانزانيا  
الشمالية. تحت الظل الواضح في  
الصورة الى اليمين كشفت الحفريات  
عن مستقرات بشرية متعاقبة من العصر  
الحجري الحديث (تصوير ج. أ. غ.  
ساتون).



لاحظنا ذلك سابقا، مزينا برسوم حيوانية، ومشاهد عن الصيد ورسوم أخرى. ولئن كان من المتعذر أن تربط تلك الرسوم الخاصة بطبقة معينة من مقطوعة من العصر الحجري المتأخر، مما يوجد بتلك الملاجئ، فإن للعلاقة العامة بينها تبدو واضحة للغاية. ويبدو أن أغلب جزء من الفن الذي بقي، يعود إلى الالفيات الحديثة، في حوالي نهاية العصر الحجري المتأخر الذي يتجاوز جزء منه فترة انتشار مجتمعات العصر الحديدي. إن أصل فن الصيادين هذا وما يوافقه من معتقدات وعلم الكونيات يعود رغم ذلك إلى تاريخ قديم جدا.

إن احتمال وجود رصيد قديم من التقاليد، مضت عليه الآف من السنين منذ مطلع العصر الحجري المتأخر، بل ربما منذ العصر الحجري الوسيط، قد يكون فيه دليل على وجوه الشبه بين فن الصيادين بطانزانيا وفي جنوب أفريقيا. وكذلك، الصناعات الحجرية بالمنطقتين، وإن كانت غير متماثلة تماما، إلا أنها تشترك في بعض الوجوه العامة (غالبا ما تدعى «ولطونية»). ولقد تبين في جنوب أفريقيا أن بعض المجموعات الحديثة من الفن الجداري وصناعات حجرية ولطونية كانت من صنع قبيلة البوشيمان<sup>٥</sup>، الذين تعيش فرق منهم عيشة الصيادين القاطنين ببعض المناطق. إن خصائصهم البدنية «سان» ولغاتهم «خوازان» أو اللغات ذات تنغم خاص (click) تعتبر كلها متميزة. ولا توجد فعلا بأفريقيا الشرقية سوى منطقة صغيرة تستعمل فيها اللغات «ذات تنغم خاص». وهي بالذات منطقة الفن الجداري في الوسط — الشمالي من طانزانيا. إن أولئك السكان الناطقين بلغة «خوازان»، يحتفظون بتقاليد عريقة تنتسب إلى الصيادين القاطنين (٧)، وإن كانت لهم خصائص بدنية تدل على أصل «ساني» محتمل.

لا يمكن أن نفسر تفسيراً مقنعا تلك القرابة بهجرة حديثة نسبيا قامت بها قبيلة «سان» من جنوب أفريقيا. ويبدو أنه وقع في وقت ما هجرة متواصلة قام بها أولئك الصيادون القاطنون من شمال طانزانيا إلى رأس الرجاء الصالح، ثم انقطعت طيلة الالفيات الثلاث الأخيرة نتيجة لانتشار سكانها لغات وثقافة واقتصاد مختلف عنهم، ولهم نمط من العيش يقوم على الرعي والفلاحة. إن أصول هذا التبادل الثقافي في سياسب أفريقيا الشرقية والجنوبية، تنتسب بوضوح للعصر الحجري المتأخر، بل إلى مرحلة «الستيلباي» من العصر الحجري المتوسط. إن المسألة المتعلقة بهذه الأقدمية ستظل معلقة إلى أن تعرف وتدمج في المناطق المتوسطة هذه المرحلة من العصر الحجري المتوسط وصلتها بالعصر الحجري المتأخر التي تمثلها الصناعات المعروفة خطأ بالصناعات «الماغوسية». ويمكن لنا أن نلاحظ أن «الماغوسي» في أثيوبيا يأتي في مواقع عديدة مباشرة بعد الستيلباي، وهو متميز عن هذا الأخير بتنوعه الكبير.

إن هذا القول بوجود تقاليد عريقة خاصة بثقافات السباسب في العصر الحجري المتأخر، قد يفسر بعض التنوعات الجهوية الملحوظة في النصف العام من «الولطوني». وكان الأثر بون، في الماضي يميلون، إلى أن يدجوا فيه كل الصناعات التي فيها عنصر حجري صغير مطبوع، سواء بأفريقيا الشرقية أو بأفريقيا الجنوبية. ومن الممكن ألا يكون لبعض تلك الصناعات، في الأقسام الشمالية جدا من

٥ في النص المطبوع «سان» عوض بوشيمان. تعليق المراجع محمد القاسمي.

(٧) أنظر الفصل الحادي عشر من هذا المجلد.



إفريقيا الشرقية، إلا علاقات ضعيفة جداً، كما يمكن ألا يكون لها صلة بالسكان البوشميين\* بالجنوب. وفضلاً عن ذلك قد يكون من المنتظر العثور، في الأجزاء الغربية من إفريقيا الشرقية، على تقاليد متميزة، تقيم الروابط مع حوض نهر الزاير الذي ازدهرت فيه صناعات «التشيتوي» المتفرعة المقتسبة عن صناعات الغابات والمناطق المشجرة من العصر الحجري الوسيط («سغون — لو پمي»)، إلا أن تلك الروابط ليست واضحة، باستثناء رواندا.

ومع ذلك، توجد منطقة تختلف عن غيرها من المناطق، وهي منطقة الأراضي العالية وأراضي الرفت فالي بالكينيا. فمن المحقق أننا نجد بها في العصر الحجري المتأخر صناعات لها خصائص «ولطونية» وكذلك صناعات أخرى تغلب فيها أدوات صنعت على صفائح، عوضاً عن الحجارة الصغيرة. إن تلك الصناعات التي تدعى «قابسية الكينيا»، تستعمل السجح المحلي. وهي تؤرخ بـ ١٠ ٠٠٠ إلى ٥ ٠٠٠ سنة قبل الميلاد. إن أحسن مجموعة هي التي عثر عليها الدكتور لايتي بكيمبار كيف قرب نكورو في العشرينات من هذا القرن. وقد دامت هذه الصناعات المتفرعة أو المقتسبة إلى أقصى نهاية العصر الحجري ولهذا «القابسية الكيني» ارتباطاً بتقاليد أكثر قدما كانت منتشرة في جزء كبير من إفريقيا بالشمال الشرقي، في منطقة البحر الأبيض المتوسط. إلا أن مقارنة الصناعة الحجرية ليست هي الأمر المهم الوحيد. فالأهم من ذلك أن نلاحظ أن «القابسية الكيني» والذين صنعوه يمثلون انتشار الحضارة السوداء نحو الجنوب الشرقي، تلك الحضارة المرتكزة على استثمار الموارد المائية. وقد امتد الانتشار إلى إفريقيا مثل الوشاح، بجنوب الصحراء، وفي أعلى وادي النيل باتجاه إفريقيا الشرقية.

وقد وقع ذلك الانتشار في رطبة مؤقتة، صعد فيها مستوى البحيرات والأنهار القوية وبلغت تلك الحضارة غلها نحو الألفية السابعة قبل الميلاد. وكان أولئك السكان الساحليون يصطادون الأسماك والحيوانات المائية مستعملين الرماح والمخاطافات العظمية الخصوصية المصنوعة بأدوات حجرية. ويمكن العثور عليها في منطقة بحيرة أدوارد بالرفت فالي الغربي، وبحيرة رودلف وعلى الضفاف القديمة لبحيرة نكورو. إن صناعة السلات والفخار كانت معروفة. وكان الفخار يمثل أقدم الاختراعات لِحُمَي الحرف بالعالم. كل ذلك يبين نمط عيش قارة كان السكن الرئيسي فيها على شواطئ الماء.

## العصر الحجري الجديد

إن انعدام الأدلة الأثرية جعلتنا نرى منذ سنوات قليلة أن تربية الماشية وعلى الأخص الفلاحة، كانتا قليلة التطور بإفريقيا الشرقية قبل الألفية الأولى، باستثناء المواقع المحاذية لوادي النيل، والتي تنسب إلى العصر الحجري الجديد للخرطوم. ولا يزال من المجازفة بالرأي القول بأن مجموعات الصيادين الذين استقروا جزئياً ابتداء من الألفيتين السابعة والسادسة حول البحيرات الكبرى والأنهار كانوا هم السبب في نشوء الرعي وربما الفلاحة أيضاً، وذلك تحت ضغط المحيط

\* في النسخة المطبوعة «سان» عوض البوشميين

(سرعة انقلاب منطقة الصحراء إلى أرض قاحلة ابتداء من الألفية الثالثة)، وبفضل ما لديها من تكنولوجية متقدمة (كانوا يستعملون الفخار). ويمكن على أية حال أن نعتبر أنهم تأثروا بتقنيات إنتاج الأغذية الجماعي (تربية الحيوانات الأليفة والنباتات) التي انتشرت بالمنطقة كلها ابتداء من الألفية الثالثة وسمحت بمواجهة أثر التغير المناخي على الموارد الطبيعية.

إن أكثر المواقع شهرة بتلك الفترة، هو موقع الشهاب بالسودان، الموجود على سطح مرتفع قديم، يبعد قليلاً إلى الشمال من ملتقى النيل الأزرق والنيل الأبيض. فلقد عثر أ. ج. أركيل، فضلاً عن الصناعة الحجرية ذات الحجيرات الهندسية، على مخطافات (مثقوبة القاعدة) وضنارات صدفية تشهد بتعاطي الصيد البحري، وقاقات (Herminettes)، من الريوليت، ومناقر، وفؤوس صغيرة مصقولة من العظم، وفخار منمق حسب خطوط متماوجة ومنقطة. ومن الآثار العظمية، توجد آثار الأنواع من الوحوش، أكثرها أسماك، ولكن يوجد بينها ما هو قليل جداً من الضأن. ويعود تاريخ موقع الشهاب إلى النصف الثاني من الألفية الرابعة. أما في موقع كاديرو القريب منه من حيث المكان ومن حيث الآثار المادية، فإن تسعة أعشار من البقايا العظمية هي بقايا أنواع أليفة لاسيما البقرات.

ولقد عثر في أثيوبيا، بأغردات (إريتريا) على آثار أربع قرى للقامة النصف الدائمة. إن الأدوات، وإن كانت مقصورة على الزراعات السطحية، يوجد بينها فؤوس، وهراوات من الحجر المقصول وأوان وأساور من حجر، وفخار ذو زخرفة ناتئة، وشاريات محزوزة، ولآلئ، ولبريات (Laberts)، ومنجذات (Pendentifs). على أن وجود طاحونات وهراصات، وتمثال صغير من حجر يرمز لبقرة ويشابه التمثال التي يشيدها فريق من (وهم سكان مركزهم النوبة وغربها)، كل ذلك لا يكفي كدليل على وجود اقتصاد في ميدان الزراعة والرعي. كل ما في الأمر أنه يوحي بذلك، ولقد عثر على آثار صناعة للحجار الصغيرة الهندسية الشكل وعلى أوان من فخار، وكذلك على حبوب الذرة الألفية (Eleusine coracana). وذلك بملجأ كوديرا (الألفية الثالثة)، قرب أكسوم. ولم يعثر في أي مكان من أثيوبيا على آثار قديمة لزراعة التيف (Era grostis tef) الذي ظل من الحبوب الأساسية المغذية جداً لجناس كثيرة بشمال أثيوبيا، ولا على آثار موز الحبشة (Ensete edule). الموجود بكثرة بالجنوب كما لم يعثر على القمح ولا على الشعير.

وإذا كانت الأدلة على وجود الفلاحة في الكينيا ما تزال مفقودة، فإن وجود الرعي مؤكد على طول الرفت فالي، حتى طانزانيا، وبالمرتفعات العليا أيضاً. وهذه الأدلة متمثلة في مقابر (نجوروي، ريفر، كاف، قرب ناكورو، كرنكت كاف، قرب مولو، وهي مقابر تحرق فيها الموتى، تكورن كورو كراتر، طانزانيا الشمالية، قبر تحت عبوة صناعية (Cairn)، وفيها الهيكل العظمي في وضع انطواء) ومعها أدوات «أثرية» يوجد ضمنها دائماً الطاحونات والمهارس، كما أن هذه الأدلة متمثلة في مساحات سكنية (كريسن، آيلند، قرب بحيرة نايفاشا، ناروسورا جنوب الكينيا) إن ٩٥% من الحيوانات المجموعة في ناروسورا، حيوانات أليفة وهي تتوزع كما يلي: ٥٧% من الماعز والضأن مقابل ٣٩% من البقرات. إن دراسة العظام قد بينت من جهة أخرى أن أغلبية الماشية كانت تقتل مسنة وأن الماعز والضأن كانا يقتلان وهما أكثر صغراً. ونستنتج من هذا أن الماشية كانت تربي حلبها

(أو لدمها كما تفعل قبيلة مسئيس الحالية) أكثر منه للحمه. وهنا أيضا لا يعتبر وجود الطاحونات والمهارس الا دليلا غير مباشر على نوع من الفلاحة. ان دخول الرعي والفلاحة، المترابطين غالبا في الاقتصاد المزدوج، كثيرا ما اعتبر بالنسبة لافريقيا الشرقية على أنه ناشىء عن تأثيرين، أحدهما أتى مما أصبح الآن جنوب الصحراء، الى المنطقة السودانية، والآخر أتى من مصر الى النوبة (الخرطوم). ولقد بلغ العصر الحجري الجديد المرتفعات العالية الأثيوبية ثم انتشر نحو الجنوب اعتمادا على تحركات صغيرة يقوم بها السكان المتكلمون باللغة الكوشيتية. الا أن الانتقال الى اقتصاد إنتاجي، قد وقع، كما يقع كثيرا، بطريقة متدرجة، ولقد أتى علم الآثار بالدليل الذي يشهد بأن الطبقة السفلى قد لعبت دورا هاما في المستوى الثقافي والتكنولوجي على السواء. ولقد دام صيد الحيوانات وصيد السمك ولم تطرأ قطعة مع الفلاحة المادية الخاصة بالجماعات الصغيرة من صيادي السمك المستقرين جزئيا قبل الألفية الثالثة، والصيادين القاطنين الذين لم يكونوا يعرفون صناعة الفخار (القابسي الكيني والنتيتي). فان كان لا يوجد الى الآن براهين على تطور الفلاحة تطورا كبيرا، فاننا نعلم أنه سبق أن وُجدت وأن تربية الضأن، والماعز ثم البقر، قد تطورت تطورا سرعيا ابتداء من الألفية الثالثة وخاصة الألفية الثانية. وعندما ازدهر العصر الحديدي من المحتمل أن يكون أولئك السكان قد تجاوزوا مرحلة ما قبل المرحلة الفلاحية.

### تقاليد صيادي السمك بإفريقيا الوسطى والشرقية

كان طقس إفريقيا، منذ ثمانى أو عشرة آلاف سنة رطبا جدا. ولهذا كانت البحيرات مترامية الأطراف وأكثر عددا. وكانت المستنقعات أكثر اتساعا والانهار قوية جدا وطويلة للغاية وبحاري المياه الفصلية أكثر انتظاما. وفي هذه الأحوال كان نموذج من العيش خاص جدا ومرتبطة ارتباطا وثيقا بالماء، والصفاف ومواردها الغذائية، التي تستدعي تقنيات متقدمة في الصيد البحري، وصنع المراكب، قد استقر بجميع نواحي القارة، من الساحل الاطلسي الى حوض النيل، فامتد على مساحة واسعة، تنحصر بين صحراء متقلصة جدا، وغابة استوائية متسعة جدا، ويشهد على تلك «الحضارة المائية»، كما نسميها، مواقع أثرية عديدة بالأراضي العالية من الصحراء والحاشية الجنوبية من الفيافي، انطلاقا من التيجر الأعلى الى أودية الانهار (رفتقالي) بإفريقيا الشرقية وخط الاستواء. فلقد عثر عليها، بالرفت الغربي في ايشنغو على الشاطئ الكونغولي من بحيرة عيدي أمين (ادوارد سابقا)، ونجد بالرفت الشرقي مواقع مشابهة على حافة خطوط الشواطئ المستحجرة الأكثر علوا من بحيرتي تركانا وناكورو. أما الاول فيقع في قعر الانهار، وأما الثاني، الذي يقع أكثر جنوبا، فهو في الجزء الجبلي من الرفت فالي. ان أكثر المواقع أهمية، والذي لا يبعد عن المكان الذي تسع فيه بحيرة تاكورو، قد سمي كمبرلز كاف، وهو في الواقع ملجأ تحت صخرة اكتشفه حوالي ١٩٢٠م الدكتور ل. س. ب. لايكبي. ولقد وجد في أعماق الطبقات آثارا من «العصر الحجري المتأخر» الذي ينتسب الى «القابسي الكيني». ان وجود خزف متميز وصناعة عظمية خاصة، وتاريخ هذه الطبقة

الحديث (حوالي ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد) تسمح لنا بأن نعتبر «القابسي الكيني» شكلا محليا من التقاليد الكبرى التي يختص بها صيادو السمك الافريقيون.

ان ما وجد في الخيمات القديمة والمنازل الساحلية من حركات الاسماك وصدفات الرخويات، وعظام الشدييات والزواحف المائية (الجرذ، وسلحفاة القصب وحتى فرس الماء والتمساح) يوحي بمعلومات اقتصادية مهمة. الا أن ذلك لا يعني أن الحيوانات البرية، لم تكن تصاد هي أيضا. ويحتمل جدا أن تكون النباتات التي تغذيها المياه الجارية والمستنقعات قد زرعت بانتظام واستهلكت. وكانت تقنيات اقتناء الاغذية وتحضيرها تتميز ببعض الخصائص المتقدمة جدا، ومن ذلك رؤوس المخطافات المنحوتة في العظم (بواسطة أدوات حجرية) وأواني الخزف. وكانت المخطافات مثبتة بطرف رمح خشبي له روابط ليفية، وكانت تصلح لقنص الاسماك وحيوانات مائية أخرى، من القلوكات أو من الضفء. ولقد كان صنع الفخار جيلا، وكثيرا ما كان مزخرفا بحركات سمكية، أو هدفات، أو رسوم تدعى «الخط المتموج»، «والخط المتموج المجهز». ورغم أن تحولات قد طرأت على تقاليد «الخط المتموج» «والخط المتموج المجهز»، فإنه على غاية من الخصوصية، مما يمنع أن يخلط، في تلك المناطق الشاسعة، مع نماذج حديثة من الفخار. ويمكن أن تكون السلالات التي كانت تستعمل لنقل الاسماك بعد صيدها، قد أوحى ببعض الرسوم المنمقة، وكذلك بأشكال تلك الأواني الخزفية التي اتسعت فتحاتها كثيرا.

ان تطور هذه الحضارة بالمواقع الموجودة على الضفاف البحرية الشرقية الافريقية، وعلى طول النيل وبالصحراء، يمكن أن يؤرخ بين - ٨٠٠٠ سنة و - ٥٠٠٠ سنة. ولقد بلغت أوجها وازدهارها في الالفية السابعة. ويبدو أن المخطافات الأولى قد نحتت قبل ذلك بقليل، بينما لا يعود اكتشاف الفخار الى أبعد من ٦٠٠٠ سنة. ان تلك الاواني ليست أقدم أواني افريقيا فحسب، لكنها تعتبر اول الفخار المصنوع بالعالم. ومن المستبعد أن يكون ذلك الاختراع قد حدث بالمصادفة فقط في مكان ما بتلك المنطقة من افريقيا الوسطى..

ولا يوجد ما يوحي بأن أولئك السكان الساحليين قد تعاطوا، منذ سبع الى عشرة آلاف سنة، الفلاحة سواء بافريقيا الشرقية أو بأماكن أخرى من موطنهم الشاسع. لكن مدى انتشارهم، والسرعة التي وقع بها، مع اعتبار التعقد التكنولوجي لهذا النوع الجديد من الحياة، تؤكد ازدهار تلك الحضارة وإشعاعها الثقافيين طيلة تلك الفترة ذات الرطوبة القصوى. ان اعتبارها مجرد نوع من الشقافات المعتمدة على الصيد والجمع، المنتسبة الى «العصر الحجري المتأخر» معناه تجاهل خصائصها ومنجزاتها. فمن الممكن أن أولئك السكان لم يعيشوا في قرى مستقرة بأتم معنى الكلمة، الا أنها استطاعت، بفضل مواد غذائية تضمنها البحيرات الكبرى والانهار، وتكنولوجيا قادرة على استغلال تلك البيئة استغلالا مفيدا، أن تنشئ عمرا بشريا أكثر أهمية وأكثر استقرارا مما أقامه السكان السابقون. ان السكان لم يزدادوا فحسب بفضل تلك العناصر، بل سمحت هذه العناصر فضلا عن ذلك بخلق مناخ فكري واجتماعي جديد تشهد عليه الصناعات التقليدية المعقدة، الضرورية لصنع الزوارق والمخطافات والسلالات والاعوية، كما أن أسلوب العيش المتطور الداعي الى استعمالها، يشهد على ذلك.

ان الدور الذي لعبته صناعة الخزف هو على غاية من الاهمية. ويبدو أنها تجاوزت ما أقره عموما

المؤرخون، وحتى بعض الأثرين. فأواني الخزف المكونة من مادة هشة، لها أهمية قليلة في المجتمعات المتحركة، التي تعوزها القواعد الثابتة، وبالتالي فإن أهميتها قليلة بالنسبة لجميع الصيادين بإفريقيا. إلا أن الخزف يحوي بالنسبة للمجتمعات المنظمة، معنى له شحنة حضارية تعبر عن طرق جديدة لتيسير إعداد الطعام وطبخه.

إن شكل أولئك السبكان الساحليين من إفريقيا الغربية والشرقية قد تطور. إلا أن بقايا الهياكل العظمية المكتشفة تفيد أن الأصل كان أساساً زنجياً (٨). ويبدو أن انتشار ونجاح المجتمعات التي تستغل الموارد المائية، منذ تسع أو عشرة آلاف سنة، قد أقر نهائياً تفوق نوع زنجي بجميع الرقعة السودانية إلى النيل الأوسط والنيل الأعلى والقسم الشمالي من إفريقيا الشرقية. ومن المحتمل أن هذا التفوق كان يتمشى مع التوسع الجغرافي، وتشتت وتنوع الأسرة الكبرى (أو الفصيلة) اللغوية التي يسميها غرينبرغ بالأسرة النيلية الصحراوية. وهي اليوم موزعة على طول المنطقة التي تبتدىء من أعلى النيجر وتنتهي بطانزانيا الوسطى. إن ذلك التوزيع يوحى بالنسبة لتلك الفصيلة المنتشرة جداً بأقدمية لها آلاف عديدة من السنوات. وهو قدم يفوق كثيراً قدم الأسرة اللغوية الأخرى (مثل أسرة النيجر — كونكو، وعدة فروع من الأسرة الإفريقية الآسيوية) التي تسربت إلى تلك المنطقة من إفريقيا الوسطى. فمن المناطق التي بقي بها النيل — الصحراوي، بما في ذلك فرع الشرق، وهو «الشاري — نيل» نذكر المناطق التي تكثر فيها البحيرات والبرك والأنهار، أي المناطق التي استطاعت فيها حياة الصيادين المربوطة ربطاً وثيقاً باللغة النيلية الصحراوية كما تنصورها، أن تدوم كثيراً، حتى بعد أن طرأت عليها تحولات.

إن هذا العرض عن الحضارة الكبرى المزدهرة بالمحيطات المائية، وعن اللغات النيلية الصحراوية، قد ساقنا قليلاً إلى أبعد مما كان يتطلبه هذا الفصل من هذا المجلد. إلا أنه جانب مهم جداً، لم يعن به إلى الآن في تاريخ السكان الإفريقيين. وهو من الجوانب التي تركت آثاراً لا نزاع فيها في السكان التابعين، وفي ثقافتهم واقتصادهم، وذلك على مستوى عظيم من هذه القارة بما في ذلك إفريقيا الشرقية.

على أنه ابتداء من ٥٠٠٠ سنة تقريباً قبل الميلاد، حدث جفاف عام في المناخ، فنزل مستوى البحيرات نتيجة ذلك، وطرأ ركود على اقتصاد استغلال الموارد المائية. ولقد دام ذلك الاقتصاد قليلاً رغم ذلك بالرقت فالي بالكينيا. وحلّت بتلك المنطقة في الألفية الثانية أو الأولى قبل الميلاد، سكان جدد من إثيوبيا، وماشية، وربما بعض العادات الفلاحية.

(٨) الملاحظة المطردة والمتعلقة بالأصل الكوكازي لسكان «الكبي القاسي» تعتمد على تأويل باطل 'الأعمال لا يكي في كمبركاف وغيره.



## الفصل العشرون

# أفريقيا الجنوبية قبل التاريخ

بقلم: ج. دسموند كلارك

## البشرىات الأولى

كان داروين وهكسلي يعتبران أن المناطق المدارية، وربما القارة الإفريقية كانت مسكن الإنسان الأصلي، لأننا نجد فيها الشمبزي والغوريلا، وهما أقرب الأقارب إليه بين المقدمات البشرية. إن تلك البنجديات، وكذلك الجد المشترك للقردة الشبيهة بالإنسان وللإنسان هي من الشجريات. أن خصائصها المرفولوجية تبين أن تطورها كان قد جرى أثناء حقبة طويلة جدا من التكيف مع الغابات المدارية، وذلك بالأراضي المنخفضة والجبال المتوسطة الارتفاع. أما الإنسان، فإنه لم يتطور في الغابة بل في السباسب، ولقد عثر بأفريقيا الشرقية والجنوبية، على البشرىات الأحفورية القديمة جدا، وذلك في المروج النصف الجافة والغابات القليلة الأشجار ذات الأوراق الناقصة ويحتمل أن يكون أجدادهم قد واجهوا مشاكل خاصة للبقاء على قيد الحياة وقد توفرت لهم موارد تفوق كثيرا بتنوعها الموارد التي توفرت للقردة الشبيهة بالإنسان.

لم يحصل إلى الآن اتفاق حول العهد الذي تميزت فيه فصيلة البنجديات عن أسرة البشرىات. إن الاعتماد على تأويل الشواهد الأحاثية، يفيد أن ذلك التميز قد حصل في السينوزيوك القديم أثناء الميوسين الأسفل، وذلك منذ ٢٥ مليون سنة وعلى النقيض من ذلك فإن الأعمال الجارية بالاعتماد على البيوكيمياء المقارنة للمقدمات البشرية (الصبغيات، بروتينات المصل، واليحمور، هييموغلوبين) والفروق في المناعة بين الإنسان والقردة الشبيهة بالإنسان وقردة العالم القديم) تبين أن التميز لم يكن سابقا لعشرة ملايين من السنوات، وحتى لاربع منها. وكان يظن أن العلامات الملحوظة على الأحفورات نفسها قد يكون أكثر اقادة. ولكن ذلك لم يتحقق بتاتا مع

الاسف. فاذا اعتبرنا أن الترتيب التاريخي الطويل صحيح، فإن الحقبة الاساسية التي كانت البشرييات قد تميزت فيها تميزا محسوسا عن سلالة القردة الشبيهة بالانسان، من الميوسين الحديث والبلويسين القديم (من ١٢ مليون سنة الى ٥ ملايين سنة) لم تتوفر لنا إلى حد الآن إلا أحفورات قليلة عن البشرييات بافريقيا. فلم تتوفر لنا الا في آخر البلويسين مواد متفرقة، ويمكن أن نعتبر أن البشرييات الاحفورية في تلك الفترة أمر لا يشك فيه.

أن قرد راما فكري، الأحفوري من الميوسن الحديث، اكتشف في فورتنان بمحوض بحيرة فكتوريا ويعود تاريخه الى ١٢ - ١٤ مليون سنة. فلا نعرف منه مع الأسف إلا أطرافا من الوجه والأسنان، ولكن خصائص تلك الأطراف تدعو الى تصنيفه ضمن البشرييات غير أن التيقن من أن باقي جسمه ونظام تنقله لا يختلفان أساسا عما هما عند البشرييات، يستوجب وجود آثار أقل تقطعا ولا سيما عظام قاعدة الجمجمة. ولذلك وجب مع الاسف أن نعلق حكما مؤقتا قبل القول بأن هذا النموذج قد تميز تميزا كافيا بصفته من البشرييات: وكان قرد راما يعيش في الغابات الشبيهة بالسرداب وفي مجاري المياه والسباسب وذلك في وقت كانت فيه الغابات الدائمة التي لم يبق لها أثر الا بجنوب المنحدر الكبير من جنوب افريقيا، أوسع مما هي عليه اليوم. ولما كان وجود قرد راما ثابتا بافريقيا الشرقية وبالشمال الغربي من الهند، فهو إذن محتمل الوجود بالسباسب من افريقيا الجنوبية.

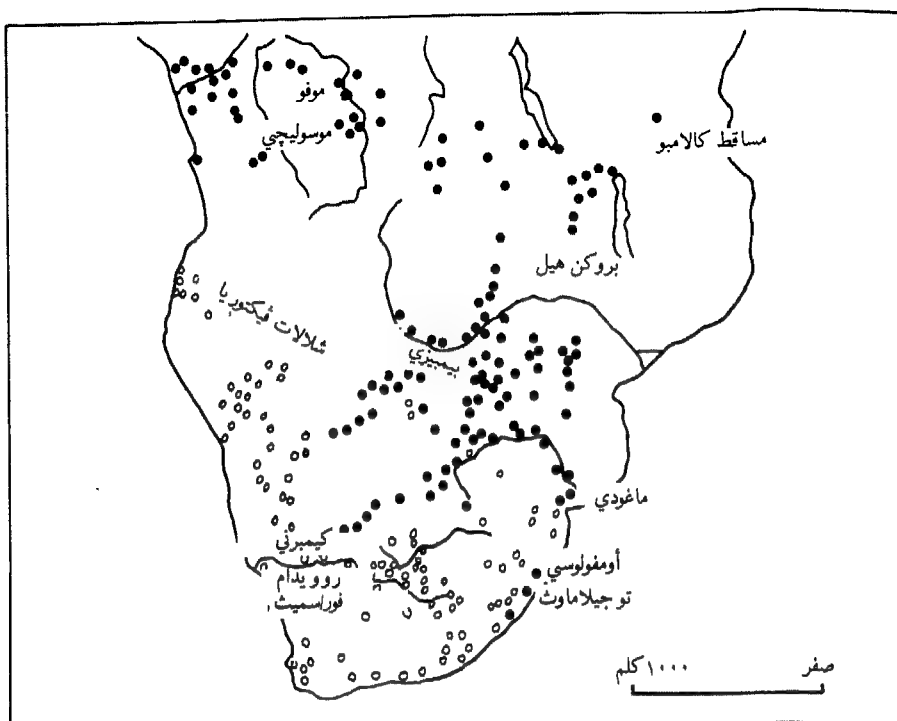
ان الإشارات الاولى التي تدل دلالة قطعية على وجود البشرييات تعود الى خمسة ملايين سنة، وهو عهد كانت فيه قردة الجنوب، أو (البشر القردة) موجودة بالقسم الشرقي من الوادي الكبير من الرفت. ان أولئك البشر القردة كانوا يقيمون بسباسب افريقيا سواء الجنوبية أو الشرقية ويعتقد أن أقدم أحفورات افريقيا الجنوبية ترجع الى آخر البلويسين أو البليستوسين القديم، أي - ٢٥٠ الى - ٣ ملايين سنة.

لقد عرف أكبر جزء من الحقبة الجيولوجية للبلويسين مناخا قارا نسبيا قد يسهل تطور وتوسع انواع متكيفة بيولوجيا في السباسب. ولقد قضى على ذلك الاستقرار النسبي انخفاض الحرارة العام، والانقلابات البنوية والظواهر البركانية، وذلك على طول الوادي الكبير من الرفت خاصة، وطرات في ذلك العهد تغيرات عظيمة أحيانا على نظام تصريف المياه الخاص بعدد من الأحواض النهرية والبحيرية وذلك أثر التواء بنيوي بالقشرة الأرضية. ووافقت الحرارة المنخفضة التي تدل على بداية البليستوسين نقصا في نزول كميات الامطار وتخففا، مما جعل أدغال كروتوسع كثيرا بافريقيا الجنوبية على حساب المروج والغابات.

ان هذه التغيرات الهامة بالمناخ وبالمحيط قد فرضت على البشرييات تعديلات مهمة وتنوعا في الشكل مصاحبا دعت اليها ردود فعل بغية التكيف مع الضغوط الجديدة بتلك البيئة (١) فن الشابت أن جد البشرييات (سواء أكان ذا أربع أرجل أو رجلين) لَمَّا فارق الغابة في ذلك العهد نحو

(١) تعتبر لنغافيج، بافريقيا الجنوبية، غربي مقاطعة راس الرجاء، الجهة الوحيدة المهمة التي وفرت أحفورات من ذلك العهد. فالموقع ليس بعيدا عن الشاطئ، والمحيط هو محيط أرضي ومصب نهر. وتوجد به حيوانات لثدية افريقية وافرة أشكالها عتيقة، بقدر تاريخها ب ٣ الى ٥ مليون سنة. فان لم يثر بها على أثر بشري، فانه توجد بها أحفورات مقدمات بشرية ويحتمل أن تكشف أعمال آتية في لنغافيج عن آثار بشرية يمكن مقارنتها بالآثار الموجودة بافريقيا الشرقية من نفس العهد.





● ١ توزيعة مواقع فورسميث (الدوائر المفرغة) والمواقع السانجوية (الدوائر المصمتة) في أفريقيا الجنوبية (شكل ٢١ في كتاب «ما قبل التاريخ في أفريقيا» (بالإنجليزية) لمؤلفه ج. د. كلارك، ١٩٧٠، دار نشر تيمس وهندسون، لندن).

● ٢ مواقع الإنسان في عصر البلايستوسين الأعلى (الدوائر المصمتة) وبعض مواقع الإنسان الأحفوري في عصر ما بعد البلايستوسين (الدوائر المفرغة) في أفريقيا الجنوبية (شكل ٢٥ في الكتاب المذكور في تعليق الصورة رقم ١ أعلاه).

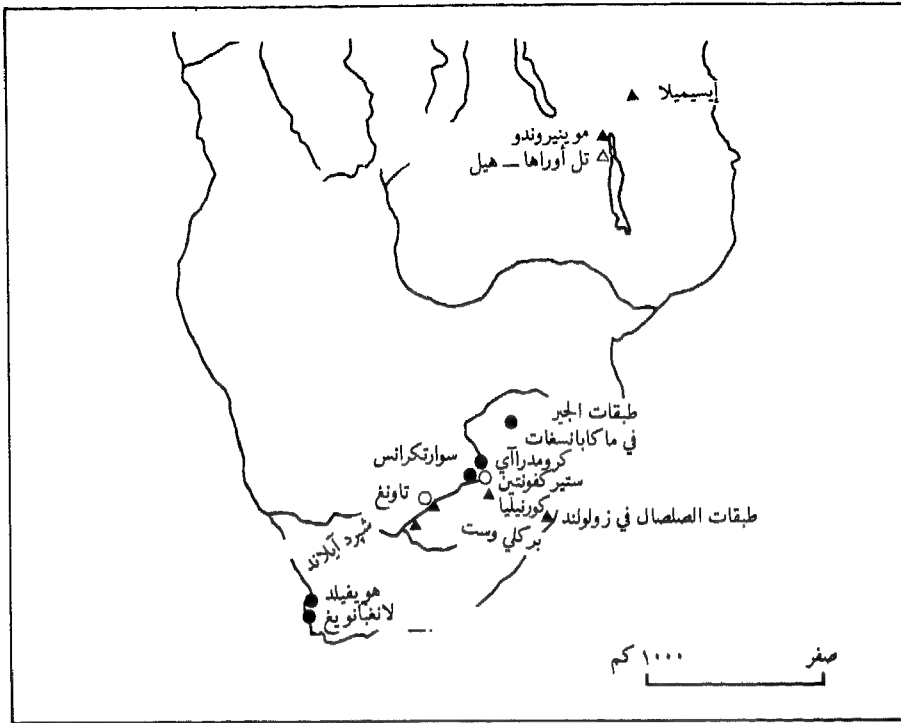


السباسب، وذلك في فترة من البلوسين، أو ربما قبل ذلك، كان قد خضع لتطور وراثي سريع نسبيا يسمح بتكيفه مع ظروف بيئية جديدة. ولذلك يمكن لنا بالنسبة للبلستوسين الأسفل أن نضبط ثلاثة أشكال متميزة من البشريات بافريقيا الجنوبية، يحتمل أنها كانت من نفس النوع، وكانت متكاثرة فيما بينها.

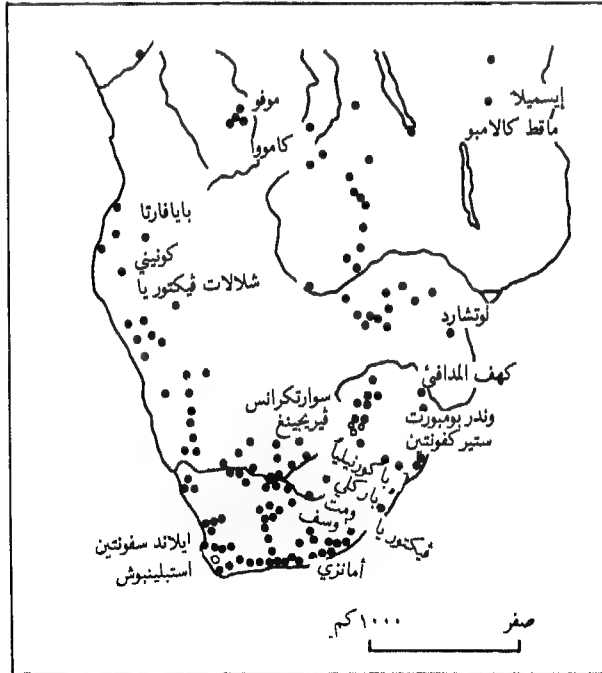
أن أول أحفور عن الإنسان القرد، وهو طفل، وقد استخرج سنة ١٩٢٤م من ثغرة مسدودة بالكلس بكهف، وذلك في تنغ، شمال مقاطعة رأس الرجاء الصالح بجنوب أفريقيا. وفي ١٩٣٦م عثر على أول انسان راشد، في الترسبات القديمة بأحد الكهوف، ولكن هذا الإكتشاف وقع في هذه المرة بولاية ترانسفال، بمنطقة كروغزدر. ولقد عثر منذ ذلك الحين على بشر قردة عديدين وعلى بشريات أخرى بالإعتماد على أعمال جماعية مكثفة، قد أجريت في مستوى الرواسب التي جمعتها المياه بحوض الرفت بافريقيا الشرقية وبالكهوف العميقة من النجد الكلسي بجنوب أفريقيا التي كانت فيها الأحوال تساعد على المحافظة على الأحفورات من ذلك العهد.

وباستثناء تلك المناطق، فإن الأحفور الآخر الوحيد الذي نسب إلى الإنسان القرد، أصله من كوروتورو بحوض بحيرة التشاد. إلا أن هذا الفؤج يعتبر أكثر حداثة. ولهذا فإن كان عدد كبير من الأحفورات الإنسانية القردية معروفا، فإن أماكنها الأصلية محدودة. وقد عثر على الاغلب منها في كهوف جنوب أفريقيا، وفي مناجم الرفت فالي، لأن الأحوال المناسبة للمحافظة على الأحفورات العظمية قل أن تتوفر. إن حوضه التربة، والإجتراف، وعوامل أخرى قد منعت المحافظة عليها في مناطق كثيرة بافريقيا، مثلا بالغابات الكثيفة بافريقيا الغربية. إلا أن ذلك لا يمنع من أن نعتقد أن أنواعا عديدة من البشريات المتميزة كانت منتشرة منذ مليونين أو ثلاثة ملايين سنة، بالسباسب المدارية. أما في إفريقيا الشرقية، فإن تاريخ الأحفورات يزداد دقة بالإعتماد على الطرق الراديومترية وعلى تاريخ التعاكسات الاحاثية المغناطية. ولم تؤرخ أحفورات جنوب أفريقيا الى الآن الا بحساب التاريخ النسبي استنادا الى مقارنات أحيائية وجيومرفولوجية. إن آخر الدراسات المعتمدة على الخنزريات والفيلة والضباع، توحى بأن أقدم الأحفورات بترنسفال تؤرخ على الأقل بمليونين ونصف مليون من السنوات. إن ثغرات الكهوف التي وفرت هذه الأحفورات، وكذلك مقالع الجص في ماكابان والمنجم النموذجي في ستر كفونيان، تشمل بعض الأنواع الثديية الموجودة بالمجموعات الحيوانية بافريقيا الشرقية. فهي توفر خصائص مرفولوجية تشابه خصائص أحفورات الحدود البليو — بلستوسين.

إن أقدم البشر القردة بجنوب أفريقيا كانوا في أكثرهم من ذوي مرفولوجية ممشوقة (الإنسان القرد الإفريقي). إن معدل قامتهم ١،٤٠ من المتر، وكانوا عمودي الإستقامة، وكانت أعضاؤهم السفلى ملائمة للمشي على الرجلين تماما، وكانت أعضاؤهم العليا متخصصة لاستعمال الأدوات. وكان الرأس متمركزا في قمة العمود الفقري القائم على حزام حوضي له شكل إنساني تماما. وتقرب السعة الجمجمية عندهم من سعة جمجمة الغوريلا (٤٥٠ الى ٥٥٠ سنتم مكعب) أكثر مما تقرب من سعة جمجمة الإنسان العصري، وإن كان هيكلا ما وراء الجمجمة والاسنان يوحى بشكل إنساني تماما. إلا أن الوجه كان قرديا، والقسم الأسفل أدفق (Prognathe)، والوجنتين بارزتين،



● (١) المواقع الرئيسية لوجود الحيوانات  
الاحفورية (الثلثات المفرغة) والانسان  
الاحفوري (الدوائر المفرغة) في نهاية  
البلايستوسين، وفي بدايته (الثلثات  
والدوائر المصمتة) في أفريقيا الجنوبية.  
● (٢) توزيع المواقع الأشولية الرئيسية  
في أفريقيا الجنوبية، الأشولي الأدنى =  
الدوائر المفرغة، الأشولي الأعلى =  
الدوائر المصمتة. (الشكلان ٩ و ١٨ في  
كتاب «ما قبل التاريخ في أفريقيا»  
بالإنجليزية، تأليف ج. د. كلارك  
١٩٧٠، دار نشر تيمس وهندسون،  
لندن).



ويعلمو الوقين انتفاخ كبير وتدل نقاط الارتباط بين عضلات العنق وعضلات المضغ على ان هذه العضلات الأخيرة كانت قوية جدا.

وفي المناجم الأكثر حداثة بكهوف سوارنكرنس وكرومداري (ومن المحتمل جدا في تنغ، كما يظن اليوم) فإن النوع الغالب هو أكثر قوة (الإنسان القرد القوي). ان الامر يتعلق بافراد أثقل بكثير، يزنون ٦٨ كلغم. ويختص الذكور الكبار بعرفين عظميين، أحدهما بقمة الجمجمة والأخر بقاعدتها، ويسمحان بالربط بين العضلات القوية للعنق والعضلات الماضية. وكان يعتقد على العموم أن كل الأشكال الأكثر قدما كانت ممشوقة (الإنسان القرد الإفريقي) وأن أحدثها كانت قوية (الإنسان القرد القوي). إلا أن دراسات أنثروبومترية حديثة تبين أن الفارق ليس واضحا بقدر ما كنا نعتقد. ومن العلوم اليوم أن النماذج القوية المشوقة قد تكون متعاصرة. وذلك هو الشأن بأحد مناجم جنوب إفريقيا على الأقل (مأكابن). وكذلك الشأن بالنسبة للبليستوسين الأسفل بافريقيا الشرقية. إن الأحفورات المجموعة بتلك المنطقة تفيد أن الاختلاف الطارئ على السلالتين انطلقا من سلف مشترك مشوق، كان قد وقع منذ ٥ ملايين سنة.

واكتشفت حديثا، أي سنة ١٩٧٢م بالشمال الشرقي من بحيرة تركانا، جمجمة أحفورية (سعتها: ما يقرب من ٨١٠ سنتم ٣)، وعظام طويلة وقطع حجمية أخرى وما وراء جمجمة تؤرخ بـ ٣٠٠ الى ٢٠٦ مليون سنة. ولتلك الآثار صلات عديدة بالإنسان وتشهد بخصائص (لا سيما بالوجه والاسنان) تربطها بالإنسان القرد. واكتشفت بمناجم أخرى من إفريقيا الشرقية، لا سيما بفنج أولدوواي (طانزانيا) أحفورات أخرى تنسب إليها، لها سعة حجمية كبرى، وتصنف سواء كقرد جنوبي متطور أو كإنسان قديم (أي الإنسان الماهر). ويمكن أن نؤرخها بين ٢ - و ١٧٥٠ مليون سنة (٢) ويحتمل أن يكون وجد شكل قديم من الإنسان في نفس العهد بافريقيا الجنوبية. فلم يبق إلا أن نكتشف أحفورات الخاصة به. ويصبح هذا الاحتمال ممكنا إثر الإكتشاف الذي وقع بهدرسنه ١٩٧٥م، بالجنوب الاثيوبي من الرفت فالي، المعروف بمثلث عفر، فعثر على أحفورات بشريات يعود تاريخها إلى ٣ ملايين سنة. ويقترح الدكتور د. يهنس أنه يمكن أن ينسب الافراد الاثنا عشر إلى ثلاثة ضروب متميزة أولها بشري رشيق يمثله هيكل عظمي حفظ حفظا جيدا، وثانيها شكل قوي يشابه الإنسان القرد القوي وثالثها شكل ضبط بفكه الأسفل وفكه الأعلى، وهو أقرب إلى الإنسان العارف. فان تأكد هذا، فهو يعني أن سلالة الإنسان، قد تميزت عن الإنسان القرد منذ ٣ ملايين سنة.

## نخط عيش البشريات الأولى

بالرغم من أن عددا من الأحفورات البشرية للإنسان القرد قد اكتشفت بكهوف جنوب

(٢) يعتبر الآن ان القطعة الوجهية والحنك الموجودين بشونونغ، بحوض بحيرة برنكوتعود الى أكثر من ٣ ملايين سنة. ونظرا الى أن تلك القطع لها بعض خصائص تقترب من خصائص الإنسان (وهو نوع غير محدد)، يمكن أن تكون غير بعيدة عن العهد الذي بدأت فيه سلالة الإنسان تميز عن الإنسان القرد.

أفريقيقا، فن المستبعد، بل من المستحيل، أن تعتبر المواقع التي وجدت بها هي مواطن إقامتها. لقد مضى زمان كان يعتقد فيه أن الكهوف العميقة الكلسية بترنسفال كانت مساكن للبشرىات، وأن العظام التي تحويها كانت بقايا حيوانات جلبتها البشرىات لتصنع منها أسلحة أو وسائل أخرى. لكنه يمكن أن يكون نتاج تلك «الصناعة العظمية الإنسانية القرنية» بقايا طعام قد تركها بعض أكلة اللحم. فلقد بينت دراسة دقيقة للبقايا الحيوانية بمنجم سوار تكرنس أن تراكم أحفورات الإنسان القرد وثدييات أخرى بالكهوف يمكن أن تكون ناشئة عن أسباب مختلفة أوضحتها في هذا الصدد ما كانت تنهت آكلات اللحم الكبيرة، ولعلها الفهود أو النور. لكل الاتفاق في شأن هذه النقطة لم يتحقق (انظر الفصل ١٧، القسم الثاني).

ونظرا إلى أن كل مادة معرضة سريعا للتلف، إلا إذا توفرت ظروف استثنائية، فلم تحفظ إلا أدوات الإنسان الأولى التي صنعت من حجر. والحقيقة أنه لم تكتشف أية أداة حجرية لها هذا الوصف، بشغرات الكهوف التي وجدت بها أحفورات أقدم البشرىات بجنوب إفريقيا (ماكين، ستركنفنتين) وإن عرفت أدوات حجرية في مناجم ثلاثة للبشرىات بإفريقيا الشرقية قدر تاريخها بمليونين ونصف من السنوات قبل الميلاد أو أكثر. ولقد كانت مواقع الإقامة بإفريقيا الشرقية قريبة من بحيرة أو من مجرى يصب في بحيرة. وهي تعرف بما يتجمع فيها من العظام والأدوات الحجرية. إن تعدد الأنواع، وعدد الحيوانات التي تشهد بها العظام المهشمة تشيها كليا الموجودة بتلك المناجم، تجعلنا نتيقن أننا إزاء آثار نشاط جماعي (الصيد/أكل الجيف) قامت به البشرىات التي كانت تستعمل الأدوات الحجرية لتقطع من بين ما تقطع اللحم والعظام والنباتات التي كانت تمثل القسط الأوفر من غذائها. إن تنوع تلك الآثار وحالة حفظها يجعلنا نفكر في أن تلك الحميمات قد احتلت مرات عديدة لا إثر وقفة عبور. إلا أننا نعرف أيضا «مواقع للذبح» عثر فيها على بقايا حيوان واحد كبير الحجم اشتركت مجموعة في تقطيعه. إن المساحة المحدودة على العموم، والتي وجدت البقايا المتروكة بالحميمات توحي بأن المجموعة كانت قليلة العدد ولا تشمل أكثر من أمرتين أو ثلاثا. أما دور القتالين النهائي الذي كثيرا ما ينسب إلى البشرىات الأولى، ففيه خلاف، إذ من المحتمل جدًا أنهم، في سعيهم للحصول على غذائهم من اللحم، لم يكونوا أكثر عدوانية من الحيوانات أكلة اللحم الأخرى. ولا شك أنهم كانوا أقل منها عدوانية، لأنهم لم يكونوا مربوطين باللحم فقط، بل كانوا يستعملون أيضا الموارد النباتية. لكن من الواضح أن تنظيم الصيد هو الذي دفع البشرىات إلى ابتداء نظام اجتماعي اقتصادي أكثر هيكلية. وذلك ما فعلوه اعتمادا على مهارتهم في صنع أدوات لها أهداف محددة. ففي إفريقيا الشرقية تبين آثار مخيماتهم التي يجلبون إليها بانتظام نتاج الصيد والجني. أن البشرىات من البليوسين الأخير والبليستوسين الأسفل. كانوا حسب يبدو منظمين حسب فرق إجتماعية يخضع تركيبها لتغيرات كثيرة. إن توزيع الطعام، وكذلك المدة التي يخضع فيها الصغار لأهلهم من أجل تغذيتهم وتكوينهم (مثل الطفل حاليا) كانت تضمن وحدة تلك الفرق ويحتمل أن يكون الصيد واستهلاك اللحم قد جعل البشرىات الأوّلين يصنعون الحجر لإنتاج شظايا حادة، لأنّ الصيد كان يستوجب تنظيما وتوصلا ناجعين بين المشاركين، وذلك من شأنه أن يقود في النهاية إلى تطور الكلام. فلقد وقع في ذلك العهد تقريبا تقسيم الأشغال بين الرجال والنساء، فكان الأولون يصطادون وكانت النساء تهتم بالجنى وبرعاية الأطفال.

فان كانت كهوف ترنسفال لم تصلح مسكنا للبشرىات بل كانت مستودعات لغذاء أكلة الاحوم - وربما كانت البشرىات نفسها من ضحاياها - يحتمل ان الناس القدرة قد كانوا عاشوا بالقرب من تلك الأماكن، لأنه عثر بالثغور الأكثر حداثة من مجموع كهوف ستركفنتاين (سوار تكرنس، ستركفنتاين، اكستشين سايت، وكرمداري) التي يمكن أن تؤرخ بـ ١٥ مليون سنة، على أدوات حجرية بدائية، ممزوجة بالاحفورات. لقد صنعت تلك الادوات من صخور توجد بالامالكن المجاورة القريبة من الكهف. وهي حصاة من الصوان، والمرو، والدياباز، ولعلها مجلوبة من مخيم مجاور.

ان أكثر بقايا البشرىات الموجودة بالثغرات الحديثة من سوار تكرنس وكرمداري تنسب إلى الإنسان القرد القوي. والرأي السائد انه كان صانع تلك الادوات. وينطبق نفس الشيء على ستركفنتاين (اكستشين سايت). الا أنه اكتشفت بترسب سوار تكرنس قطع عظمية من جمجمة ومن بعض العظام من وراء الجمجمة تنسب للانسان العارف، ولا شك أن الأمر يمكن أن يستدعي نسبة تلك الادوات اليه. وذلك لا يمنع ان الناس القردة كانوا قادرين على صنعها. فلقد بينت تجربة طريفة أجريت حديثا ببرستل أن قردا اورنغ - اوتنغ صغيرا كان قادرا على إنتاج شظايا يحصل بها على القوت بعدما لقن الطريقة وبعد أن أدرك ما يمكن أن تستعمل له. ونظرا إلى أننا نجد في افريقيا الشرقية والجنوبية أحفورات لأناس قردة وللانسان في نفس الأماكن وأنهم كانوا يعيشون في مناطق بيئوية متشابهة، بل متماثلة، فيحتمل أيضا أن يكون الانسان القرد القوي قد اكتسب المهارة الكافية لصنع أدوات بسيطة تشابه الادوات التي تنسب إلى أقدم الصناعات المعروفة، أي الأولدوواي، وإن كنا نشك ان كانت له الملكة الذهنية لصنعها لأن صنع الادوات كانت بحسب أشكالها القديمة المنسوبة للانسان (الماهر وغيره) تعود الى مليونين ونصف مليون من السنين.

## الادوات الحجرية الأولى: الصناعات الأولدووائية

رغم أن أدوات الإنسان الأولى التي بلغتنا كانت من حجر، فلا ننس أن أدوات أخرى خشبية وقرنية، وعظمية، وجلدية الخ، كانت أيضا مستعملة. ويحتمل أن حقبة استعمال الادوات التي لم تتغير فيها الا قليلا أشكال الأشياء المناسبة لها، كانت قد سبقت الصنع المقصود مع العزم على إنتاج عدد صغير من أنواع الأدوات المعينة بالإعتماد على مواد، قد لا تصلح للاستعمال ان لم تحور. ان شكلها كان قابلا، بعد التقطيع أو أي تحويل آخر، ان يتحسن بالتسوية. فلقد كانت أدوات الحجر من البداية تشهد على قدرة البشرىات على نحت المواد وعلى استيعاب قواعد تقنياتها.

لقد سميت أقدم الصناعات الحجرية المعروفة في العالم كله بالصناعات الاولدووائية نسبة الى فتح أولدوواي بطنانزانيا. ويعود تاريخ أقدم نماذج افريقيا الشرقية إلى ٢٥ مليون سنة (٣). ومن

(٣) أرخت أدوات التثف (ك. ب. س) بكوي فوراً بـ ٢٥ مليون سنة حسب طريقة ك/از (البوتاسيوم/ارغن) لضبط البوار يخ. الا أن نتائج حديثة، وكذلك التوافقات الحيوانية مع تشكل شجيرة في أومو، وتشكل كوي فوراً ببجيرة تركانا توسحي بأنه بولغ في قدمها وأنه يصح أن تؤرخ بـ ١٨ مليون سنة.

الممكن أن تكون بعض الاكتشافات الموجودة بالحصباء النهرية القديمة (حصباء فال أو الزمبين) أو على الشواطئ الصخرية الجافة بسواحل إفريقيا الجنوبية، تنسب أيضا إلى ذلك العهد نفسه. ولما كانت تلك الأدوات لم يعثر عليها ضمن طبقة أرضية متصلة بعناصر تسمح بتأريخها، فلا يمكن لنا أن نطلق حكما في شأن قدمها، اذ يمكن الا تكون قديمة جدا. وكان من المنتظر أن يشتمل رفت المولوي، مثلها هو الشأن في الوادي الكبير لرقت إفريقيا الشرقية، على أدوات من ذلك العهد، وعلى عدد متساو من أحفورات البشريات. لقد وفر الطرف الجنوبي من المولوي فعلا مجموعة من الآثار الحيوانية التي يعود تاريخها الى البليو- بليستوسين، وهنا يشكل الصلة الوحيدة المهمة بين آثار الشرق والجنوب من إفريقيا. إلا أن تلك المنطقة، لم يسكنها الانسان وذلك لأسباب غير معروفة بعد، الا مؤخرا. ولا نجد بها الا آثار قليلة عن المقدمات البشرية، وذلك بالرواسب من تلك الاحواض العميقة بالغور الجنوبي.

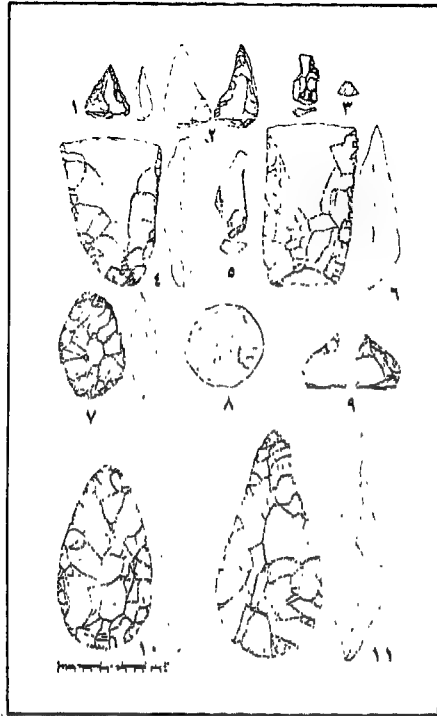
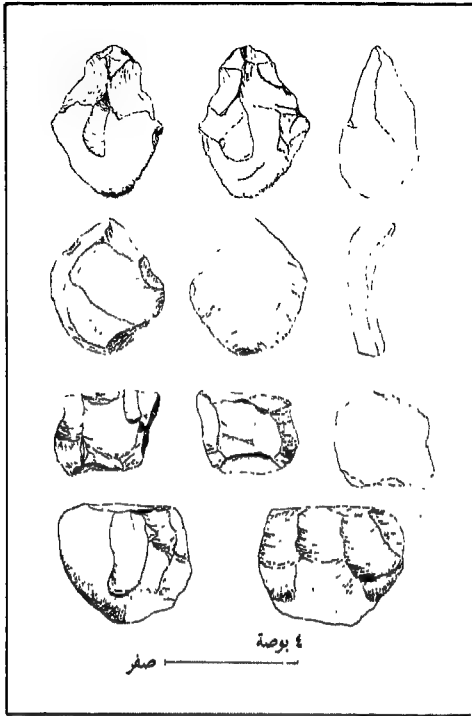
إن الأدوات التي عثر عليها في المناجم الحديثة للانسان — القرد (سوارتكرنس، ستركفنتاين «اكستشين وكرمداري»)، قرب كرو غردرب توفر أنواعا مختلفة. فنها سواطير صنعت بنزع شظايا من وجه أو وجهين من حصاة أو كتلة صغيرة للحصول على حافة قاطعة غير منتظمة. ومنها صفحات عليها آثار قرع تدل على الصنع بالطرق العنيف، ومنها أدوات قاعدتها منبسطة وحافتها معكوفة منحنية لها حافة حادة مكشطة ومنحوتة في جزء من دائرتها، ومنها شظية للتقطيع والتجزئة، ومنها بقايا حجرية قطعت منها تلك الشظايا قصدا. ان الشظايا والبقايا المنحوتة قليلة بصورة عامة في ستركفنتاين اكستشين وسوارتكرنس، وتلك حجة أخرى للافتراض بأنها لم تكونا موطن إقامة. الا أنه على قدر ما يتقدم الحفر الشامل للثغرات بالموقعين و يبرز مجموعات أكثر اكتمالا، من المنتظر أن نعلم أكثر ما نعلم عن أدوات البشريات الاولى.

ان أدوات جنوب إفريقيا تمتاز، بالمقارنة مع صناعات مناجم إفريقيا الشرقية بخصائص قريبة الى صناعات الاولد وواي الحديث أكثر من صناعات القديم منها. ولذا فهي تنتمي الى الأولد وواي المتطور. إن الأولد وواي المتطور الأكثر قدما بإفريقيا الشرقية يعود الى ٥٠ مليون سنة ومن الثابت اليوم، باعتبار الحيوان الأحفوري، أن مناجم الإنسان القرد الحديث بجنوب إفريقيا ترجع إلى نفس العهد (٤). ولذلك توجد سلالتان متميزتان جدا من البشريات. أولهما سلالة الإنسان القرد القوي وثانيتهما تناسب النماذج الأولى من السلالة الحقيقية للانسان.

## المركب الأشولي

برزت في ذلك العهد تقريبا صناعة ثانية تدعى الصناعة الاشولية، تختص بأدوات قاطعة كبيرة تعرف باسم ذوات الوجهين والقذومات. ان تلك الصناعة تتميز عن صناعة أولد وواي بكبر حجم الأشياء التي صنعت من شظايا كبيرة يستدعي قطعها من كتل أو من فخر القوة والمهارة، وعلى

(٤) لقد أعلن الدكتور س. ك. براين حديثا أن أقدم ثغرة تحوي بقايا الإنسان القرد والإنسان، يمكن أن تقسم حسب مستويين. المستوى ١، وهو أقدمها، وقد عثر فيه على الانسان القرد القوي والإنسان العارف وعلى أداة واحدة من الحجر لا شك فيها. أما المستوى ٢، وهو أكثر حداثة، فهو يحوي الإنسان العارف وصناعة حجرية تشمل تدومين أشولين و يعود تاريخ هذا المستوى ٢ الى ٥٠٠٠٠٠ سنة (س. ك. براين — رسالة شخصية).

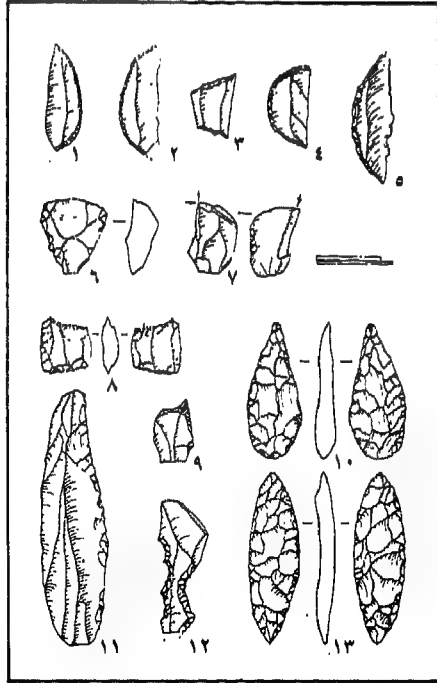


● (١) الاشولي الادنى، ستيركفونتين: أدوات ثنائية الوجه، مشقطة مكعبة الشكل ونويات (شكل ٨٣ في كتاب «ما قبل التاريخ في الترنسفال» مؤلفه ر. ماسون، بالانجليزية ١٩٦٢، مطبعة جامعة ويتواترسراند، جوهانسبرغ).

● (٢) أدوات من الاشولي الاعلى، مساقط كالامبو. الادوات الكبيرة من الكوارتزيت والصنيرة من السيليكس الاسود:

١ - مكشط محدب، ٢ - مكشط مقعر، ٣ - مكشط مستن، ٤ - فأس ذات أشواك متناثرة الاتجاه، ٥ - سكين مشقطة ذات حواف مثقفة، ٦ - فأس ذات أشواك متوازية، ٧ - أداة بيضاوية ذات حدين، ٨ - أداة كروية، ٩ - مخز، ١٠ - أداة بيضاوية ذات حدين وشكل مستطيل، ١١ - أدوات بيضاوية مسحوبة ذات حدين. قبل الزمن الحاضر بأكثر من ١٩٠٠٠ سنة.

● (٣) أدوات من مواقع هوو يسونسبورت: ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥: قطعاعات من دائرة ذات حافة مشطوفة، ٦ - نواة لبقاوا، ٧ - ازميل، ٨ - أداة قشر، ٩ - مشقاب، ١٠ و ١٣ - مخارز أو ابر ذات وجهين، ١١ - مكشط، ١٢ - مكشط ثنائي. والعينات ٢ و ٣ و ٥ من هوو يسونسبورت، أما العينات الاخرى جميعا فهي من مغارة النفق الشكل ٨٤. من كتاب «أركيولوجيا العصر الحجري في أفريقيا الجنوبية» بالانجليزية» تأليف س. ج. سامبسون، ١٩٧٤، المطبعة الأكاديمية، نيويورك).





العكس من هذا، فإن الأدوات الأولدووائية يمكن أن نضعها في كف اليد، وأن نضعها بين الإبهام والأصابع في الأعمال الدقيقة. لقد اعتبر الأولدووائي المتطور والأشولي صناعيتين متعاصرتين تكتشفان أحيانا في شكل أولدووائي محض أو أشولي محض، وأحيانا متمازجين حسب نسب متغيرة في نفس الموقع. ولقد أولت تلك التقاليد التكنولوجية تأويلات متنوعة. ويقال إنها من صنع البشرات المنتسبة إلى أنواع مختلفة أو أنها نتاج نشاط متنوع يستدعي أدوات مختلفة تناسب سلوكا متميزا (انظر الفصل ١٩). إن تلك التقاليد مازالت قائمة وهي موجودة في مركبات عديدة إلى حوالي ٢٠٠ سنة أي بعد مدة طويلة من انقراض الإنسان القرد القوي الذي كان سببه الصراع مع الإنسان ونحن نفضل أن نفسر ذينك النوعين من الأدوات المتميزة باختلافات ناشئة من نشاط أو من طريقة استثمار للموارد، أو باختيارات مركزة على ميول شخصية علما بأن الأهالي من البشرات كانوا يصنعون تلك الأدوات بحسب الظروف. إن بروز الأشولي بصورة مفاجئة نسبيا يبين إذن أن موارد جديدة أصبحت تستغل، أو أن طرقا محسنة قد أدت لاستعمال الطرق التي كان الإنسان يستعمل فيها أدوات من النوع الأولدووائي.

إن المجموعات الأولى بجنوب إفريقيا المنتسبة إلى الأشولي والتي يمكن أن تكون معاصرة للإنسان العارف والإنسان القرد القوي بسوار تكرنس، أصلها من منحمين متجاورين موجودين حيث يلتقي نهر «فال» برافدة كليب، قرب فرينجنج وهي موجودة بحصاء لسطح يرتفع بعشرة أمتار فوق النهر الحالي. وكثيرا ما تكون الأدوات ملساء، أي محولة وليست في إطارها الأصلي، وتوجد بتلك الأماكن مجموعة من تلك الأدوات المتكونة من ذوات وجهين حادة أنجزت بنزع عدد من شظايا كبيرة وقدموات وصفحات وحصاة مهيأة، ومكاشط مصنوعة من بقايا حجرية، وعدد من الأدوات المركبة على شظايا مسواة بعض الشيء، ومن بقايا حجرية وفضلات النحت. وكلها تدل على استعمال تقنية القارع الصلب. ولهذا فهي توافق الإبفيلي الأوربي. ويبدو أن وجود شكلين يشابهان ذوات الوجهين بمنجم ستر كفتناين اكستشين سايت، يفيد أن ذلك المنجم ليس بعيدا جدًا من حيث الزمن عن مناجم كليب (ثري ريفرزو كلييلادريف) ويظهر أنه عثر على مجموعات أخرى تبدو قديمة وذلك بأماكن مختلفة من إفريقيا الجنوبية، مثلا بالسطوح النهرية القديمة بستانلنبوغ، بمقاطعة رأس الرجاء، أو بجوار لفنستون بزامبيا، ولكنها غير كاملة ولم تؤرخ تاريخيا مضبوطا.

وفي ما بين مليون سنة، و٧٠٠٠٠٠ سنة حل محل سلالة الإنسان البدائي (الذي يمثله جمجمة ١٤٧٠ بكوي فوراء، بشرقي بحيرة تركانا، وأحفورات الإنسان الماهر بفتح أولدوواي، بمحوض أمو ومناجم أخرى). حل محلها نوع أقوى له سعة جمجمة أكبر ويعرف باسم الإنسان المستقيم، وفي نفس ذلك التاريخ، وربما قبله بقليل، كانت المجموعات البشرية قد انتشرت بسرعة نحو إفريقيا الشمالية، وخارج إفريقيا، نحو أوروبا وآسيا. ولذلك نجد أحفورات وبقايا ثقافية للإنسان المستقيم بمناطق عديدة من العالم القديم بعيدة جدا عن بعضها. لقد أصبحت أحفورات الإنسان المستقيم بإفريقيا معروفة بفضل ما توفر من آثار في القسم الأعلى من باد ٢ من خن أولدوواي (وبه شكل له مخ متطور) وكذلك بفضل مكتشفات ملكا كنتوري بأثيوبيا ومناجم الساحل والداخل من إفريقيا الشمالية الغربية. وبالمغرب العربي، حيث تتصل بصناعات الأشولي القديم ويحتمل أن الإنسان المستقيم، كان بإفريقيا الجنوبية، صانع تلك الآثار الأشولية، إلا أنه لم يعثر على أحفور واحد.

ونستوعب في ملاحظة تكاثر المناجم الدالة على زيادة عامة في عدد المجموعات البشرية وكميتها وذلك بإفريقيا الجنوبية والأماكن الباقية من القارة إثر بروز الأشولي الحديث أو المتطور. ومن الممكن أن تكون ندرة المناجم المنتسبة إلى أزمنا أبعدها، عائدة جزئياً إلى الندرة النسبية في الرواسب المحفوظة المؤرخة لذلك العهد، ولكن هذا ليس هو السبب الرئيسي الدال على الزيادة الواضحة في عدد المناجم الأشولية الحديثة ولا على توسعها الجغرافي الكبير. وذلك ورغم أننا نعرف مناجم عديدة (منها منجم ٣٨٩ بجنوب إفريقيا بأطلس ما قبل تاريخ إفريقيا. وقد وفرت أغلب الشبكات النهرية المستكشفة مجموعات متواصلة من ذوات الوجهين وقدموات خاصة) ولم تجر الحفريات إلا في القليل منها، وقل إن وجد البعض منها في أماكنها الأصلية (٥) ولوقيت في أماكنها لا تحتفظت الأدوات بأوضاعها، ولقيت كثير من الآثار السكنية بعد أن فارق الموقع ساكنوه.

إن المناجم المحفورة توجي بتنوع مواطن السكن وبعض جوانب سلوك الإنسان الأشولي، ولم يؤرخ أي واحد من تلك المواقع تاريخاً دقيقاً لأنها كلها تتجاوز المدى الذي يصل إليه الراديو كربون ولأن الصخور أو الرواسب التي لها صلة لا تخضع لطريقة البوتاسيوم-أرغن ولا للترتيب التاريخي المعتمد على التعاكسات الاحاثية المغناطية. ويعتبر منجم كلمبوفولز أكثر المناجم شمالاً، محدود زامبيا وطانزانيا (إفريقيا الوسطى) حيث ساعدت أحوال استثنائية على المحافظة على الخشب بمستويات متعددة من مواطن الإقامة. ويمكن ضبط تاريخ ذلك الخشب. ولقد توفر لنا بالنسبة لعينة من إحدى تلك المناجم وبالا اعتماد على طريقة مرازمة الحوامض الأمينية، تاريخ سابق لـ ١٩٠٠٠٠ (ج بيدا، رسالة شخصية). إن ذلك التاريخ يوافق تاريخ اسميلة، بوسط طانزانيا، حيث أرخت مجموعة أشولية طبقية بـ ٢٦٠٠٠٠ سنة، بالا اعتماد على طريقة الثريوم - أورنيوم. ويحتمل ألا تتجاوز أية واحدة من تلك الصناعات - ٧٠٠٠٠٠ سنة، وهو عهد انتهت فيه الحقبة الكبرى من المغناطيسية المعاكسة وهي حقبة ماتوياما. ولا يمكن أن تكون تلك الصناعات قد وجدت بعد - ١٢٥٠٠٠ سنة، وهو بداية الحقبة الأخيرة ما بين جودية (أيمية) التي ظهرت فيها صناعات أكثر تطوراً. فهي تنتسب أساساً إلى عهد يسمى البليستوسين الوسيط.

وكان الباقي من مواطن السكن بشلالات كالمبوموجودا على كثبان من الرمل المحاذي للنهر، ومن المحتمل أن يكون بداخل الغابة الاستوائية التي كانت تغطي الضفتين في ذلك العهد. إن دراسة اللقاحات تبين إن الحرارة كانت في بداية الأشولي أكثر ارتفاعاً، وكمية الأمطار أقل من كميات اليوم بقليل. إلا أن الانتقال نحو جفاف أكبر لا يكفي أن يغير ولو قليلاً عالم النبات الذي كان يتكون مثل اليوم من غابة للرعي ومن أودية قليلة العمق ومعشبة، وتطفو عليها المياه من حين لآخر (دمبوس). وتوجد بالمنحدرات الأكثر علواً غابة براكستيجيا. إلا أن دراسة اللقاحات وإثار النباتات الكبيرة الحجم، تدل في حوالي نهاية الفترة الأشولية على انخفاض الحرارة وبعض الزيادة في كميات الأمطار التي مكنت بعض الأنواع النباتية الموجودة حالياً فيما يقرب من ٣٠٠ م علواً، أن تنزل إلى مستوى الحوض المحلي من كالمبو. ومن المعتقد أن كل مستوى من مستويات السكن لم يكن

(٥) نجد مثلاً بالقسم الغربي من وادي الفال وبعدد من روافده، كثيراً من الأدوات الأشولية. إلا أنه إن كان البعض من تلك المجموعات يشهد بتغيرات تكنولوجية مهمة، فإن الاجتراف قد نقلها وأصبحت في حالة متغيرة.

مسكونا الا في فصل أو فصلين. ثم أصبحت التربة مغطاة بترسبات الرمال النهرية والطين والوحل، فأقيمت فوقها فيما بعد منشآت مماثلة. وقد اكتشف فيها عدد كبير من ذوات الوجهين والقذومات والأدوات المصنوعة من شظايا مسواة، والمكاشط الحجرية، وعدد قليل من المعاول والصفاحات والأدوات الكروية الشكل.

وتتصل بتلك الصناعات الحجرية أدوات خشبية مختلفة من بينها حربة، وعصى للحفر، وعصي قصيرة وحادة (تصلح أيضا على ما يبدو للحفر) وأداة رقيقة لها شكل الصفيحة، وقطع من قشور الأشجار قد تكون استعملت أطباقا. ويوجد ببعض تلك المستويات الطبقية آثار عديدة عن استعمال النار، كجذوع أشجار محرقة، وفحم خشبي، ورماد وأكداس بيضوية الشكل لها شكل الحوض، وعشب محروق ومهشم، وكذلك نباتات ليفية يحتمل أنها كانت استعملت فراشا للدواب. ونجد أيضا عددا كبيرا من الجيوب والثمار المحرقة تنتسب الى أجناس وأنواع من النباتات المستهلكة التي تنمو حاليا بجوض كالمبو. ومن المعتقد ان تلك الاقامات الاشولية كانت مخيمات تقام في الفصل الجاف، نظرا لكون تلك النباتات تبلغ نضجها في ذلك الفصل (سبتمبر/أكتوبر).

ولم يعثر على اثر واحد للحيوانات في كالمبو فولز. أما في موانكاندا قرب كارونكا بالطرف الشمالي الغربي من بحيرة ملوي، فيوجد منجم آخر من البليستوسين الوسيط. قطع فيه فيل، في مكان غير بعيد عن مجرى ماء، يتجه نحو الشرق حتى البحيرة. ويبدو أن فرقا ثلاثا على الأقل شاركت في عمليات القطع اذ وجدت ثلاث مجموعات من العظام المنفصلة، كل واحد منها مرتبط بالأدوات الحجرية المستعملة بعين المكان قبل أن تترك. ان أغلب تلك الادوات متكونة من شظايا لم تهذب الا قليلا، ومن مكاشط صغيرة وبعض الحصاة المهيأة. ان الامر يتعلق هنا بالاولدوواي المتطور الذي ظهرت به أدوات الأولدوواي البدائي. وقد وفرت حفريات في أو بر منسدر يف قرب بلومفوهف أدلة مهمة عن مهارة الإنسان الأشولي الصياد، وكذلك عن تقنياته في تقطيع اللحم وتصريف بقايا العظام التي تتراكم حسب أكداس متعددة، على طول مجرى الماء، وتمتزج بذوات الوجهين التي عثر عليها في نفس المستوى الطبقي.

وتتصل الادوات الاشولية أحيانا بتنوعات المواد المختلطة بالانهالات وشظايا الصنع، وتفيدنا تلك المواقع (مثل موقع كويلو كوججي، بروديسيا) \* بمعلومات قليلة عن المحيط، ويبدو أنها كانت مسكونة بانتظام، وذلك شأن وندر بومبورت قرب بريتوريا، بترنسفال حيث توجد بقايا تشكل طبقة كثيفة لها ٣ أمتار ويبدو أنها متصلة بأحد نقاط مرور حيوانات الصيد بجبال مكاليسبارك بين الميدلفالد والهايفالد.

ومهما يكن من أمر، فقد كان الإنسان يقيم مدة الأشولي، دائما قرب عين ماء مثل «الدامبويات» حيث تتجمع حيوانات الصيد، وحيث الماء متوفر. ويوجد ذلك النوع من المواقع في كبوي (بروكن هيل)، قرب كُنججي المشهورة التي اكتشفت بها ججمة وبقايا أخرى من الإنسان الروديسي. ولقد عثر على مجموعة صغيرة من الادوات الكبيرة القاطعة التي لها صلة بأشكال كروية وبعدها من الادوات الصغيرة المتكونة من المرو. ويوجد بروديسيا \* وفي لوشار، على مسافة متساوية

من خط تقسيم مياه الزمير ولبوبو، منجم آخر في أحد الادمبويات لم يحفر بعد ووفر ذوات وجهين وقدموات عديدة. ويعتبر المكان المعروف بكرتيليا مثلاً آخر وذلك بشمال ولاية اورانج الحرة بجنوب إفريقيا. وخلافاً للمنجمين الأولين، وفرت كرتيليا آثاراً عديدة من الحيوانات. يتعقد أن بعضها متصل بصناعة تشمل بعض الوجهين والقدموات وكذلك عدداً من الصفائح والحصى المهيأة وأدوات صغيرة. ويمكن أن تكون الحيوانات لا سيما الحيام (Bubales) العملاقة قد دفعت إلى وحل الدمبو وقتلت به. وبحق لنا أن نعتقد أن الهايفيلد كان في ذلك العهد كثير المطر تكسوه أعشاب قصيرة، وغيضات مخفية وغبابات عروية مثلما هو الشأن اليوم. وفي الأدغال السهوية (كرو)، شمال مقاطعتي رأس الرجاء وبستوانا، أقام الأهالي الأشوليون حول أحواض بحيرية قليلة العمق كانت كثيرة بتلك المنطقة. أما دورنلاخت قرب كمبرلي فتعد من ذلك النوع من مواطن الإقامة التي يوجد بها سلسلة كاملة من الأدوات المقواة والمختومة في قشرة كلسية، وذلك حسب ما يبدو في إطارها الأصلي. ولقد احتلّ الموقع عدة مرات لمدة طويلة وإن كانت الحيوانات مفقودة فيه.

في اللندز فنتاين قرب هاييفيلد، بالقسم الغربي من مقاطعة رأس الرجاء حول المستنقعات والأحواض الموجودة بين كشان الرمال القارة، كان الإنسان الأشولي قد وجد مناخاً مناسباً لصيد الثدييات الكبيرة. وتعتبر تلك الحيوانات من حيوانات البليستوسين الوسيط. وهي تخصص بصفات الحيوانات التاريخية برأس الرجاء كالفيلة، والكراكة والزرافات، وأفراس البحر، والظباء الكبيرة والصغيرة، والخيول والخنزير الوحشية. وهنا أيضاً يحتمل أن تكون الحيوانات قد قتلت بعد أن طردت حتى المستنقعات، ولا يستبعد أن تكون عيون الماء قد سممت. ولقد وفر ذلك المنجم القشرة الجمجمية لبشري قريب من بشري كبوي في بروكن هيل، وهو بدون منازع أكثر تطوراً من الإنسان المستقيم ولا يوجد هنا ما يمنع من أن نعتبر أن المحيط قد تغير هنا وبغربي رأس الرجاء تغيراً محسوساً يختلف عن المحيط الموجود اليوم.

ولقد عاش البشري الأشولي على الساحل أيضاً كما يدل على ذلك المنجم الهام المكتشف في الجنوب، بالساحل الضيق، وذلك برأس هنك كليب في فولسن باي حيث توجد كشان رمل صلبة تغطي الشاطئ بما قدره ١٨ متراً. ولا توجد به حيوانات لكن المنجم وقرعاً كثيراً من ذوات الوجهين الجميلة وعدداً أقل من القدموات، وكذلك مكاشط عديدة مصنوعة على شكل شظايا، ومكاشط نووية الشكل وأدوات صغيرة. لكن يهمننا أن نلاحظ أن الإنسان، في ذلك العهد، سواء على الشواطئ الأطلسية من المغرب أو بالبحر المتوسط، كان لا يأكل الثدييات البحرية ولا الأسماك، بل كان لا يأكل الثدييات الأرضية.

كان الإنسان الأشولي يقيم أيضاً بجوار عيون الماء مثل أمزي، بمنطقة أطار الشتاء جنوب الإنخدار الكبير قرب فورت أليزيث. ولقد وضعت عيون كثيرة عندما كانت تجري، سلسلة من الرمال الطبقيّة، وتشكلت طبقات من الخث في الأوقات الميتة التي كانت تنمو فيها الاقصاب ونباتات أخرى. كان الإنسان الأشولي يتردد على تلك العيون ويخيم بالامكان التي ترك بها أدواته والتي داسها الفيلة وحيوانات أخرى جلبتها. هي نفسها نفس المياه. ولقد ابرزت إلى الوجود بعض

المركبات المبعثرة، و يبدو حسب آثار الخشب والنباتات واللقاحات ان الأعشاب بذلك العهد لا تختلف الا قليلا عن الأعشاب الموجودة اليوم برأس مكشيا.

اما بافريقيا الجنوبية فلقد أقام الإنسان الأشولي أحيانا بكهوف سنشير الى اثنين منها. أولهما كهف المواقد الذي يوجد في ما كان بالبوشفالد بترنسفال الشمالي، ويحوي تسعة أمتار من الرواسب، وله مستويات إقامة أشولية ومواقد للنار. ان تحليل الرواسب يبين ان كميات الأمطار كانت اذاك أكثر مما هي عليه اليوم، وتعد حيواناته عامة من البليستوسين الوسيط وتنتسب الى حيوانات بوشفالد الحالي. ولقد وفر هذا المنجم أيضا قطعة من فك إنساني، وهو فك شخص شاب يمكن أن تكون له علاقة بالاحفورات الشبه الناندرتلية أو الشبه الروديسية (٦). والأثاث شبيه بأثاث كلمبولوز، وهنغكليب ومناجم أخرى حيث اكتشفت أدوات كبيرة قاطعة مخلوطة بادوات عديدة لها حجم صغير. أما الكهف الثاني، فهو كهف منتكوجنوب مقاطعة رأس الرجاء، وهو قريب من عين ومجرى ماء قارين، وتحيط به أعشاب الجبل. وهو يحوي أيضا عددا من الطبقات المتلاصقة من عهد أشولي حديث، إلا أنه للأسف لم يعثر فيه على بقايا حيوانية.

ان تلك المناجم المختلفة توفر أمثلة حسنة من مختلف أنواع السكن وعن تنوع الادوات الأشولية بالبليستوسين الوسيط. ويشترك جميع السكان في بعض الخصائص فهم يعيشون في أراض مكشوفة، كالأغابات الحقيقية (كلمبولوز، كبوي، بروكن هيل) والمروج والحدائق الطبيعية (لوشار وكريناليا) وأشجار الأدغال (منتكو، وأمنزي) وهي كلها موجودة قرب الماء حيث توفر الأشجار الظلال والثمار الناضجة وحيث يتجمع الصيد كلها تقدم الفصل الجاف. وتقع كلها باماكن يوجد بها اليوم عدد من التجمعات العشبية (وتدعى بالمناطق الايكوتونية). وإذا كان الاطار العام قد ظل قارا لم يتغير عن حاله في الماضي، مثلما تدل على ذلك الاثار الحالية، فيمكن أن نستنتج بأن تلك التجمعات العشبية استغلت بأماكن غير بعيدة عن مواطن السكن. ففي الأماكن التي حفظت فيها الحيوانات، توجد المناجم التي توجد بها آثار الصيد الكبير كالفيلة، وأفراس البحر، والزرافات والبقرات الكبيرة والخيول، ولكننا نجد أيضا بقايا من بقرات صغيرة، ومن الخنزيريات الخ.

وقد استعملت مجموعة كاملة من المواد الأولية في صنع أدوات الحجر اعتمادا على الموارد المحلية. وهكذا يكون لنا دليل على أن الإنسان الأشولي اكتسب مهارة وقدرة على التكيف لا نظير لها لنحت صخور عديدة بالإعتماد على القوارع الصلبة والهشة ولانتاج أدوات جيدة. وكان يحسن الاختيار بين تقنيات متعددة، فيختار أنسبها للمواد المستعملة. وكلما كانت الحصاة الكبيرة من الصوان أو المرو تشكل المادة الأولى، كانت ذوات الوجهين تنحت مباشرة من الحصاة. ولكن اذا دعا الأمر إلى استعمال كتل أكبر من تلك، كان الإنسان الأشولي يستعين بطرق ذكية (٧) وذلك بتهيئة وقطع نواة كبيرة ليتحصل على شظايا كبرى يصنع منها ذوات الوجهين والقذومات.

(٦) انظر ص. ٥٢٩.

(٧) مثلا: شبيه لوفالوا، وما قبل لوفالوا، تاشنقيط وكمبوا. انظر م. ن. بريزيون ١٩٦٨ (M.N. Brezillon).

تسمية الأشياء من الحجارة المنحوتة — تحاليل في ما قبل التاريخ، ملحق ٤، باريس، ص ٧٩ — ٩٦ و ١٠١ — ١٠٢.

ومن المحتمل أن يكون الأشولي الحديث بإفريقيا الجنوبية قد غطى حقبة تماثل تقريبا حقبة الأشولي الحديث بإفريقيا الشرقية، أي ما يوافق تقريبا ٧٠٠٠٠٠ سنة إلى ٢٠٠٠٠٠ سنة. على أنه لا توجد إلى الآن طريقة دقيقة بعض الشيء تسمح بقياس الفروق في الأعمار بين الصناعات الأشولية المتنوعة. فعندما تتوفر لنا تلك الدقة ونكون قد أجرينا عددا أكبر من الحفريات بمواقع تخضع لعلم طبقة الأرض، يمكن اذالك أن نعرف كميا الاتجاهات العامة لتقنية الأدوات وما يوجد من قرابة بين مختلف التنوعات المعروفة ضمن المركب الأشولي؛ وكذلك الجانب الاحاثي البيئي لموقع معين في العهد الذي كان فيه مسكونا.

ان الصناعات الأشولية كما تبين من هذا التلخيص القصير، خاضعة لبعض النماذج النوعية التي توجد بمجموع العالم الأشولي. فتوجد أدوات لا تتكون الا من ذوات الوجهين ومن القدومات، وأخرى تشمل حصة مهيأة وأدوات أصغر حجما، مثلما هو الشأن في الاولدو وأبي المتطور، وتوجد أخرى يظهر فيها المزج بين هذين النوعين من التقاليد، وأخيرا، توجد أخرى أغلبها نقارات ومكاشط نووية الشكل وأدوات أخرى «ثقيلة». وهكذا فقد كان هناك توزيع كبير من حيث الصناعات، والسكن والموارد، ولكن توجد خصائص عامة مشتركة بالنسبة لمجموع الأشولي. ويستفاد من ذلك أن طرق العيش لا تختلف في جميع المناطق التي تستعمل فيها ذوات الوجهين. ويعتبر المظهر العام لسلوك البشرى خلال البليستوسين الوسيط هو سلوك جماعات الصيادين القاطنين الذي لهم نفس أسلوب العيش، والذين يميلون الى التواصل بعضهم ببعض تواصلا متفاوتا. فلقد كانوا يشكلون تجمعات هي أكبر مما كانت في الماضي، وأصبحوا يترددون بانتظام على بعض الأماكن المعينة حسب الفصول. وكانت البنية الاجتماعية مرنة جدا مما سمح بتنقل الأشخاص والأفكار. الا أن مناطق هامة من إفريقيا، ومنها الغابات، ظلت ظاهريا خالية، ويفيد انتشار مجموع السكان، ان كل جماعة كانت معزولة عن جيرانها عزلة تكاد تكون كاملة.

### الأشولي الأخير أو «الفورسميثي»

نعلم منذ أمد طويل أن بعض الصناعات قد وجدت على السجدة الداخلى. فهي تختص بذوات الوجهين التي لها حجم صغير عادة، والمتقنة الصنع، كما تختص بمجموعة كبيرة من الأدوات المنحوتة على الشظايا، وبمكاشط نووية الشكل. أما القدومات فهي قليلة نسبيا، ويبدو أن تلك الصناعات تعود الى عهد أكثر حداثة من الأشولي المذكور أعلاه. فان كان الأمر كذلك، فمن المحتمل أنها تمثل مرحلة «نهائية» من تقاليد ذوات الوجهين. لكن أغلب الأدوات جمعت على سطح الأرض ويمكن أنها كانت مخلوطة بعناصر أكثر حداثة. وكانت المادة الخام المستعملة عادة هي الليديانيت (النفضيد المتصلب) الموجودة بكثرة في بعض المناطق. أما في مناطق أخرى، فالمادة المستعملة أكثر هي الكوارتزيت (الصوان).

لم تتوفر الحفريات الا قليلا من السلاسل، والقليل منها فقط يمكن أن يعتبر ممثلا لتلك الأدوات. ولقد أتت احدى السلاسل من حوض قديم، قرب روثدام، غربي كمبرلي، وكانت الصناعة بها مندمجة في خمسة أمتار من الرواسب على رأسها قشرة كبيرة من الكلس السهي، وتمثل تلك الرواسب تراكما متدرجا من الترسبات الخفيفة وناتجا عن سيلان الماء. ان ذوات الوجهين التي لها أحيانا أحجام

صغيرة تتميز بصنع رديء.. وأغلب الأدوات متكونة من مكاشط صغيرة ومن أدوات صغيرة أخرى مهذبة، قد صنعت كلها من الليديانيت. وتبرز بوضوح في هذا المجموع طريقة تهيئة النواة التي تدعى «تقنية النواة الصحية الشكل» والتي تسمح بالحصول على شظايا صغيرة. وخلافا لذلك، لم يعثر على أثر لتقنية «لوفالوا» التي تعطي شظية أكبر حجما كلها هيئت النواة. ويحوي منجمان آخزان بعين المكان (على الفال، قرب وندسور— تان ومنطقة سد فرفورد على الاورانج) صناعة مماثلة، لكن مع وجود التقنيتين، وهما: تقطيع لوفالوا، والنواة الصحية الشكل. ويبدو أن التقاليد، وربما عناصر أخرى كالزمن، ستساعد على تفسير هذا التنوع في شكل الشظايا والنواة.

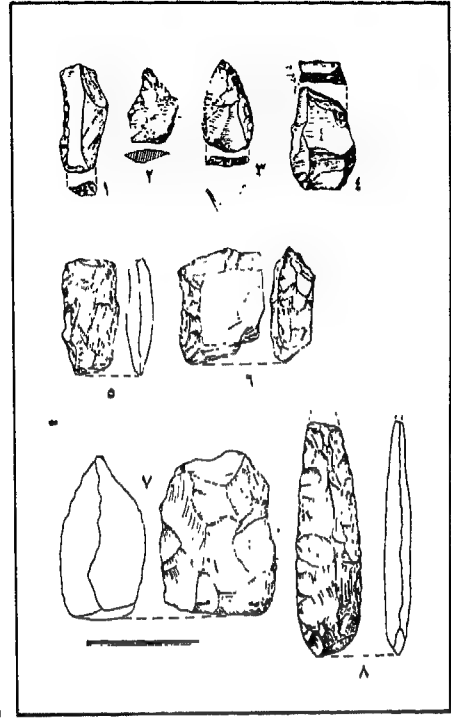
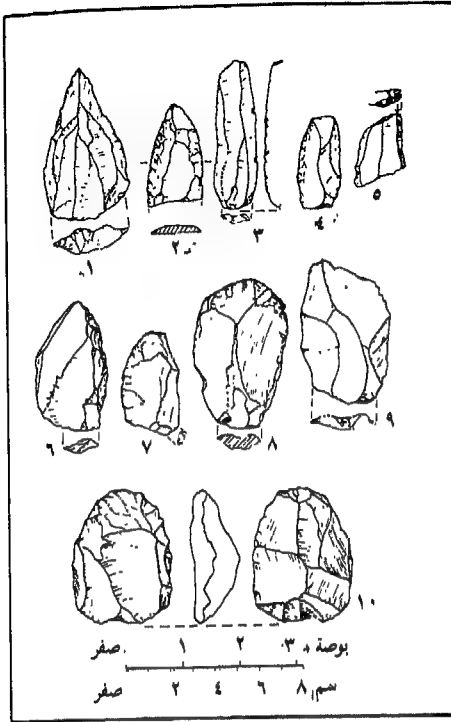
لقد أطلق على تلك الصناعات اسم «فورسميثي». نسبة الى المكان الموجود بولاية أورانج الحرة، حيث عثر لأول مرة بالسطح على عدد كبير من ذوات الوجهين اللوزية الشكل المتميزة. الا أننا لا نعلم الى الآن أكانت تلك الصناعات تمثل وحدة كافية التميز من الأشولي لتستحق تسمية خاصة بها أم لا. فهي توجد غالبا بالمروج والادغال في كارو، وفي جبال جنوب افريقيا وناميبيا. ان العلامة الوحيدة عن عمرها المحتمل قد وفرها التاريخ بالثريوم / أورانيوم على كربونات روثدام. وهو يشير الى تاريخ  $115000 \pm 10000$  سنة قبل الميلاد. ونحن نجهد متى عوضت الصناعات «الفورسميثية» بمركب جديد أو تقاليد تكنولوجية جديدة تهتم بالادوات المنحوتة على الشظايا وعلى الصفائح التي تدل على بداية «العصر الحجري الوسيط». ويبدو أن هذا التحول قد وقع بين  $100000$  و  $80000$  سنة.

أما في المناطق التي تكثر فيها كميات الامطار وتكثف فيها الأعشاب بافريقيا الوسطى فلم يحل «الفورسميثي» محل الأشولي الحديث، بل حلت محله صناعات توجد فيها نسبة كبيرة من الادوات الشظيلة، مثل النقارات وذوات الوجهين، والحصاة المهياة والمكاشط القلبية الشكل. ولقد سبق أن ظهرت تلك الأنواع بالصناعات الاشولية. ولكن باستثناء نوع غير معروف في السابق، فانها لم تتميز في ذلك العهد عن أنواع الادوات الاخرى. على أن تلك الأجهزة ستصبح غالبية فيما بعد بالمناطق التي تكثر فيها كميات الامطار وترتفع فيها الحرارة، حيث نجدها مخلوطة بمجموعة كاملة من الادوات الخفيفة المنحوتة على الشظايا والقطع الحجرية. وهي توجد بزامبيا، بوروديسيا (\*) و ببعض المناطق الشرقية من إفريقيا الجنوبية (لا سيما بسهل الموزمبيق) وبالمناطق الساحلية بالناطال، حيث تنتسب الى ما يدعى بالمركب السنغوني. ان المجموعات السنغونية ليست في جملها مؤرخة اعتمادا على الطريقة الطبقيّة ولا نعلم بدقة ان كان السنغون معاصرا للأشولي النهائي (فورسميثي) بالسباسب العشبية أو أنه أحدث منه.

وفي شلالات كالمبوء، ضبط تاريخ مظهر السنغون المحلي (صناعة شيتا) بـ  $6000$  إلى  $38000$  سنة قبل الحاضر (\*) بالإعتماد على ١٢ نتيجة وفرتها طريقة الراديو كربون، وفي أنجولا الشمالية الشرقية أرخت مرحلة مشابهة بـ  $38000$  سنة قبل الميلاد. ويشابه السنغون المحلي (صناعة

(٥) ح. = قبل الحاضر. والحاضر هو ١٩٥٠م. أي السنة التي استعمل فيه الكربون ١٤ لأول مرة.

(٥) في مطبوع زيمبابوي — تعليق المراجع عمدا الفاسي.



١ • أدوات مشكّلة من العصر الحجري الأوسط، من كهف ويشكرانس (شكل ١١ من كتاب ج. د. كلارك، ١٩٧١ بالانجليزية «الاختلافات في السلوك البشري في أفريقيا الجنوبية خلال عصر البلايستوسين المتأخر»)، في (أميريكان أنثروبولوجيست، المجلد ٧٣). وجميع هذه الأدوات من السيلكس الأسود ما عدا رقم ٦ فهي من الشيست. ١ و ٢ مخرازان وحيدى الوجه، ٣ - نصل مستعمل، ٤ و ٦ و ٧ مكاشط بسيطة، ٥ ازميل على قاطع، ٨ محك، ٩ أداة ليفالوا مشطاة، ١٠ نواة ليفالوا.

٢ • أدوات من اللومبي الاوسط، مساقط كالامبو، السد ١، الموقع ب ١ - ١٩٥٦. وجميع هذه الادوات مصنوعة من السيلكس ماعدا الاداة ٤ - ازميل ذو راية زوجية مصنوع من قشرة سيليكية. ٧ - قاطع (كوارتزيت)، ١ - مكشط مقعر بسيط، ٢ - محط مسنن متراقد الاوجه وذ خطم، ٣ - شوكة وحيدة الوجه، ٥ - فأس نووية الشكل، ٦ - محك نووي الشكل، ٨ - شوكة رحيمة الشكل.

٣ • توزيع النصال وشظايا النصال المستعملة، بالنسبة الى هياكل من كشل الدوليريت، على الافق الاول في أورانجيا (الشكل ٥٨ من كتاب «أركيولوجيا العصر الحجري في أفريقيا الجنوبية»، ص ١٦٦، ١٩٧٤ - بالانجليزية) لمؤلفه س. ج. سامسون، المطبعة الأكاديمية، نيويورك).





كوييلو-بروديسيا) صناعات كانت تسمى «ما قبل الستيليايبي» غير أنه يمكن أن يكون أقدم منها (٨) ومما يزيد في صعوبة إيجاد علاقة الترابط بين هذه الصناعات من نوع «سنغون» أنه يجب علينا اعتبار العناصر البيئية وغيرها لأنه أن كان السكن والتقاليد أو الإعتبارات الخاصة قد يسرت استعمال تلك الأدوات الثقيلة، فمن المحتمل أنها لعبت دورا هاما وأن ذلك الدور قد دام دوام الأسباب التي يسرت استعمالها. ويوجد بلا شك ترابط بين تلك الأدوات من جهة وكثرة كميات الأمطار التي تنشئ مناطق عشبية من جهة أخرى. ولا بد أن نعتبر أن تلك العناصر الثقيلة ناشئة عن معطيات بيئية أكثر مما تمثل فترة ما أو مرحلة ثقافية ضمن تطور الأدوات الحجرية. ونظرا إلى أننا نستطيع في نفس الوقت أن نبين أن تلك العناصر «السنغونية» متصلة بنظم من الأعشاب الأكثر كثافة، يمكن أن ننظر بروزها أولا، بتلك المناطق، في نفس العهد الذي يوافق الفترات النهائية من الأشولي (فورسميثي) بالسباسب العشبية، وإن تكون معدومة بمواطن السكن الأكثر انفتاحا حيث كان الإهتمام، كما رأينا بأنواع أخرى من الأدوات.

لقد اكتشفت صناعات من نوع «سنغون» في زامبيا، وملاي وروديسيا، وموزمبيق وأنجولا وكذلك بالشمال وبالجنوب الشرقي من جنوب إفريقيا. ولذلك يمكن لنا أن نجد في الفورسميثي والسنغون بداية تخصص جهوي للأدوات، يعكس طرق تكيف مختلفة باعتبار استعمالها بالمروج أو بالغابات الخفيفة والغابات الكثيفة.

## العصر الحجري الوسيط

إن ضرورة اعتبار الأدوات الحجرية للإنسان في ما قبل التاريخ وذلك كل ما بقي منه - شاهدا على صانعيها، وعلى حاجاتهم العاجلة، لا دليلا على سكان مختلفون بالضرورة جنسا وعرقا، هذه الضرورة تفرض نفسها لا سيما عند اعتبار مختلف العناصر المكونة للمجموعات الجهورية المعاصرة، في ما يسمى مدة طويلة «العصر الحجري الوسيط». ولقد اعتمد أساسا لضبط تاريخ مجموعة من الأدوات من العصر الحجري الوسيط على بعض الخصائص التقنية والنوعية وعلى كونها موجودة طبقيا. «العصر الحجري المبكر» و «العصر الحجري المتأخر». إن هذه المصطلحات التطورية، والزمنية الطبقية أصبحت لا تفيد اليوم شيئا كثيرا. ولقد ظلت سيئة التعريف مثلما كانت عند ظهورها. ويضاف إلى ذلك أن ضبط التاريخ بالراديو كربون يظهر أن المراحل التكنولوجية التي تعتمد عليها تلك المفاهيم هي ظرفية أكثر منها واقعية، ولأن التقنيات وأنواع الأدوات التي انبثقت عنها، تتجاوز أمثال هذه الحدود الأفقية المصطنعة. ونظرا لكون المؤرخ يشغل على أشياء حجرية، فإنه يميل إلى عدم اعتبار تلك الأشياء جزءا باقيا من مجموعة عظيمة من

(٨) إن مناجم الكهوف الطبقية، كمنجم بومبوكوي وبمبانا وموقع شغوما الموجود في الهواء الطلق الذي اعتمد عليه، لتسمي تلك الصناعة حديثا «صناعة شغوما»، هي التي تقدم أحسن فكرة بروديسيا عن محتوى تلك المجموعات فيما قبل الستيليايبي. وبالرغم من أننا لا نعتد على أي تاريخ مضبوط، يبدو أن صناعة شغوما تعود إلى تاريخ هو أقدم من ٢٠٠٠ قبل الحاضر، ولذلك تعتبر صناعة كوييلو أقدم منها.  
(٩) في المطبوع زيمبابوي - تعليق المراجع محمد الفاسي.

الأدوات والمواد التي لم تحفظ، والتي لو كتب لها أن تدرس لقلبت بالتأكيد كل تصوراتنا لتكنولوجية ما قبل التاريخ. إن التكنولوجيا تتبدل في كل مكان يشعر فيه بالحاجة إليها، وذلك جواباً على ضغوط جديدة، وعلى إمكانيات الانتقاء أو التكيف الخاصة بالجماعة. فينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار هذان العاملان عندما تدرس الصناعات الحجرية التي تشهد على السلوك الثقافي طيلة البليستوسين الحديث والهولوسين.

ولقد أخذ مستوى البحر ينخفض، في وقت ما بين ١٠٠٠٠ و ٨٠٠٠٠ وذلك بالنسبة للمستوى المرفوع بقدر + ٥ الى ١٢ متراً والذي تمثله تمثيلاً حسناً بقايا الشواطئ المعلقة في عدد من الجهات من الساحل الجنوبي من القارة (٩). ولقد شرع الإنسان، بعد ذلك بقليل، في الإقامة بأماكن مواتية له على الشواطئ التي برزت فيما بعد، وكانت بعض الأماكن كهوفاً، وكانت التكنولوجيا في ذلك العهد، رغم الخصائص المحلية، متشابهة عموماً بالبحر الأبيض المتوسط وإفريقيا الجنوبية.

في بداية العصر الجمودي الأخير بنصف الكرة الأرضية الشمالي، طرأ بالمناطق المدارية انخفاض الحرارة (حوالي ٦ الى ٨ درجات) والرطوبة الجوية، وإن كانت نسب التبخر قد ضمنت توفير مياه سطحية منتظمة، لعلها أكثر مما هي عليه اليوم. وفي نفس الوقت أدى المناخ نصف الجاف الذي كان يحوض الزاير بالمنطقة الاستوائية إلى تقليص الغابة المكتسحة، أو عوضها بأعشاب أو غابات خفيفة وفرت للإنسان وللصيد مسكناً مواتياً جداً. وشرع هؤلاء وأولئك في تعمير ذلك القطر الذي كان إلى ذلك العهد يكاد يكون خالياً. وكذلك كانت صحراء ناميب، لمدة البليستوسين الحديث، وهي الآن قفر، مسكونة من طرف جماعات من الصيادين الذين تركوا أدواتهم بأماكن تخييمهم.

إن المقطوعة الطبقة لكل منطقة واسعة، كانت تبرز طيلة العصر الحجري الوسيط انتظام التقدم التكنولوجي ابتداءً من المنتجات الأقل تهذيباً إلى ما كان أكثر تطوراً، كما تبرز النقصان المتدرج لنحت الأدوات. إلا أن تطور المنطقة الثقافي لا يشابه بالضرورة تطور المنطقة الأخرى وإن كنا نعثر على ميول وخصائص مشتركة. ويحتمل أن تكون عوامل عديدة، بيئية، وتكنولوجية، واجتماعية قد تسببت في التحولات الجهوية الخاصة بصناعات البليستوسين الأعلى. وكانت طرق عيش مختلفة تستوجب أدوات مختلفة أو تفرض على الأدوات استعمالات مختلفة. ورغم أن تجديدات تكنولوجية قد أدت في مستوى القارة دوراً معيناً وذلك بأن عينت العهد الذي برز فيه هذا الجزء الجديد ظاهرياً، أو ذاك، فيبدو من المحتمل أن طبيعة الموارد والطرق التقليدية في استثمارها كانت هي العوامل الحاسمة الداعية إلى قبول ذلك التحسن وإلى تاريخ استعماله.

وفي ذلك العهد كانت التقنيات الأساسية تعتمد طريقة لوفالوا وطريقة النواة الصحية الشكل المستعملتين لصنع شظايا ولقطع صفائح بقرعها أولاً ومباشرة بالآلة وسطى تهذب لتصبح حدوداً ومكاشط، وسكاكين، ومقصات، ومثاقب الخ. ويمكن في إفريقيا الجنوبية، أن تصنف الصناعات الجهوية حسب تقنياتها في ثلاث وحدات تعتبر في جلها أن لم يكن كلياً، وحدات تاريخية. ولهذا

(٩) يعتقد أن آخر مستوى من المياه العالية يناسب التعدي البحري الطارئ على عصر ما بين الجمودي الأخير (الأمبي) بمحوض البحر الأبيض المتوسط، حيث يكون مستوى البحر متشابهاً على العموم أي بين ٦ و ٨ أمتار.

السبب قد يكون من الأسهل أن نعتبرها أصنافاً أو مراحل، لا أطواراً، لأن الأطوار تفترض وجود علاقات تاريخية.

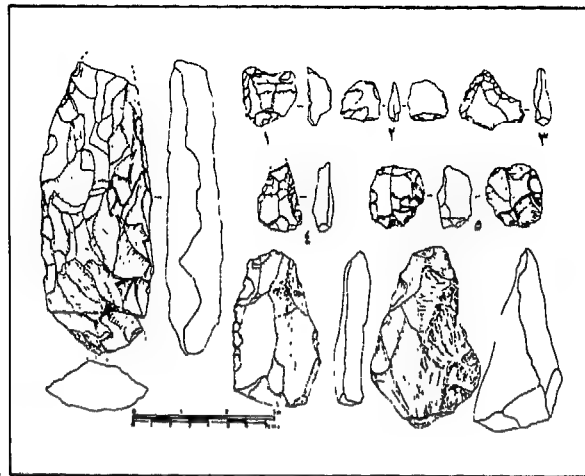
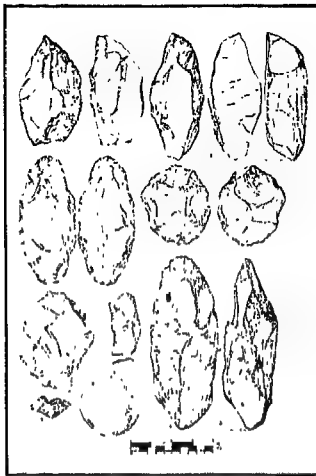
إن أول تلك الأصناف أو المراحل (الصنف ١) تختص بشظايا كبيرة هيئت بحسب طريقة لوفالوا والصفائح الطويلة المقطوعة بالقرع المباشر. ونحن لا نعرف منها سوى بعض التركيبات المتفرقة (١٠). إن الظواهر المتطورة جداً، تبرز، بالنسبة لبعض المناجم التي لها مقطوعة طبقية، في الطبقات العليا، وأقدمها هي المجموعات الحجرية من الصنف الأول (مثلاً، بكهف المواد وبشلالات كالمبو). إلا أنه لا وجود كما يبدو لتوافق تاريخي بين مختلف المناطق. ففي كلاسيك يعتقد أن «العصر الحجري الوسيط» الأول يؤرخ بحوالي ٨٠٠٠٠ سنة بينما يعود تاريخ صناعة ناكاساسا في الكالمبوفوز إلى حوالي ٣٩٠٠٠ سنة إلى ٣٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر. أما السلاسل الأخرى، فلم يكشف عنها في ظروف يمكن ضبط تاريخها.

توجد صناعات أخرى تنتسب إلى بداية البليستوسين الأعلى وتعود إلى أكثر من ٤٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، ولا تدخل ضمن الصنف الأول ولها مجموعة من الخصائص المختلفة. وذلك شأن صناعة من الشظايا، والنوى، والمكاشط القلبية الشكل والصفائح والسندان وأدوات التثقيب من الدوليريت، وأصلها من المستوى الأول من طبقة الحث في فلويسباد بولاية أورانج الحرة. إن تلك الأدوات ليست على العموم نموذجية ويمكن أنها لا تمثل المجموعة الكاملة من الأجهزة المصنوعة في ذلك العهد وبذلك الموقع، ولكن من الممكن أيضاً أن نلحق بها صفيحة وحيدة، طويلة ومهذبة ولقد وفر نفس المستوى الأول ما يشبه مقبض سلاح رمي معكوف، من الخشب كما وفر قطعة من حجمه انسانية. إن أفق فلويسباد ذلك يعود إلى أبعد من ٤٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وتوجد صناعة أخرى تختلف عن صناعة الصنف الأول، وإن كان من المحتمل أنها معاصرة لها، وهي صناعة شافوما بروديسيا التي قيل عنها سابقاً إنها تعود إلى أبعد من ٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر. فهي تختص بنقارات وبعض ذوات الوجهين القليلة وبعناصر خفيفة هامة تشمل مما تشمل حدوداً ومكاشط وصفائح عليها علامات الإستعمال. لقد نحتت تلك الأدوات من مواد خام متنوعة كالكلسدوان، والابوالين، والمرور، والصوان الخ. وفي زامبيا تشابه صناعة توين ريفر (المؤرخة بـ ٢٢٨٠٠ ± ١٠٠٠ سنة قبل الحاضر) صناعة شافوما وإن كان التأريخ، على فرض أنه صحيح، يبرزان طريقة تعتمد على التكنولوجيا قد فقدت اليوم كثيراً من قيمتها كعامل من عوامل الترابط بين الصناعات من مناطق مختلفة.

تنتسب سلاسل عديدة أصلها من كهوف ومناجم سطحية إلى الصنف الثاني من الصناعات (الصنف ٢) (١١). إن التاريخ يضعها عموماً بين ٤٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر إلا أنها

(١٠) ذلك شأن بيتزبركين الأسفل من المستوى ٤ بكهف المواد في ماكاين. و«العصر الحجري الوسيط الأول الذي يعلو مباشرة الشاطئ بـ ٨ أمتار بمصب نهر كلاسيك، وموقع في الهواء الطلق بمنطقة أورانج ريفر سكيم (الندر كلوف) وموقع آخر بترنسفال الأوسط (كودوسرند) وتختص فضلاً عن ذلك صناعة ناكاساسا في كالمبوفوز بأشكال متشابهة وإن كانت تحتوي أيضاً على بعض الأدوات ذات وجهين ثقيلة من النوع الذي يتوقع وجوده بصناعات الغابات الخفيفة في براسيستيجا.

(١١) من الأمثلة عن صناعات الصنف الثاني: الطبقة ٥ من كهف المواد. طبقة ١ من كهف مفلو في ترنسفال، العصر الحجري الوسيط الثاني لنهر كلاسيك، وأدوات موسل باي وكهف سكلدركات جنوب مقاطعة رأس الرجاء، وأخيراً الصناعة الستيلباتية بكهف مومبوا وفي زامبيا.

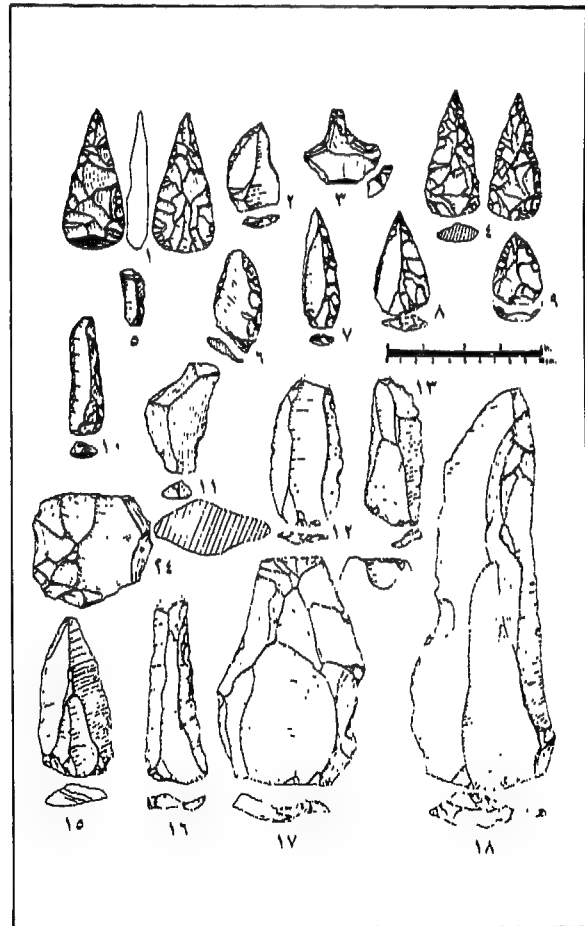


● (١) الحضارة السانغونية في روديسيا، وهي مشابهة لحضارة الزامبيري (القسم الاعلى)، ١٢٠٠٠ متقارن، ٨٥٣ فأسان نوينا الشكل، نواة قرصية، ٦٥٥ - شظايا مثقفة، ٧ - أداة كروية (اللوحه رقم ١٢ في كتاب «ثغافات العصر الحجري في روديسيا الشمالية» بالانجليزية، تأليف ج. د. كلارك، ١٩٥٠، جمعية جنوب افريقيا الاثرية، الكاب).

● (٢) صناعات العصر الحجري الاوسط، توين ريفرز (زامبيا).

١ - مكشط ذو زوايا، ٢ - شظية مستعملة من نواة قرصية صغيرة، ٣ - مكشط متراقد الاوجه، ٤ - مكشط ذو سن ناقص، ٥ - مكشط صغير، ٨ - أداة ذات وجهين، وجميع هذه الادوات مصنوعة من الكوارتز ماعدا الاداة رقم ٣ فهي من السيليكس الاسود والاداة رقم ٨ من الدوليريت. ما بين عامي ٣٢٠٠٠ و ٢٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر (الشكل ٣٤ في كتاب «ما قبل التاريخ في افريقيا» - بالانجليزية، تأليف ج. د. كلارك، ١٩٧٠، دار نشر تيمس وهندسون، لندن).

● (٣) صناعات بيترسبرغ، وبامباتا، مغارة البيوت (كهف المدافن)، الترنسفال، ومغارة بامباتا، روديسيا. أدوات نظمية مما تتميز به بلدان الأدغال الشانكة والبوشيفيلد (الشكل ٣٥ في كتاب ج. د. كلارك، ١٩٧٠).



ترجع أحيانا إلى أبعد من ذلك، كما في الساحل الجنوبي مثلا، وتختص تلك الصناعات باستعمال متنوع لتقنية النواة الصحنية الشكل ولتقنية لوفالوا، ولا سيما فيما يتعلق بقطع شظايا مستطيلة الشكل وبصنع صفائح عديدة. ان الصفائح والشظايا المستطيلة المنحوتة غالبا من المرو والليديانيت، كثيرة مناطق أمطار الشتاء، جنوب الانحدار الكبير الجنوبي الغربي الافريقي، ومناطق هايفيلد بولاية أورانج الحرة والترنسفال. ان التهذيبات اللاحقة بأدوات الصنف ٢، ليست كثيرة. فهي تقتصر عموما على الحواشي، وكثيرا ما تكون مسننة. ونجد خاصة في الغابات الخفيفة المدارية التي كان استعمال المرو بها منتشرا، شظايا أكثر قصرا نحتت مكاشط وحسب أشكال مختلفة أخرى مع بعض التهذيبات المحدودة. ويتكون جزء من الادوات — وهي قليلة ولكنها مفيدة — من أدوات ثقيلة يمكن أنها انتجت حسما يعتقد، لاستعمال أعم للخشب ومنتجاته.

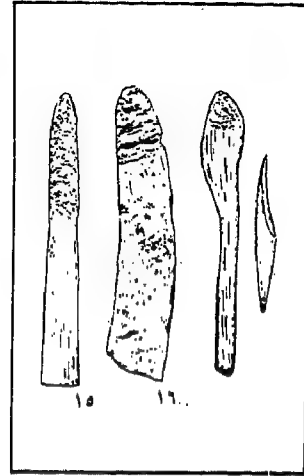
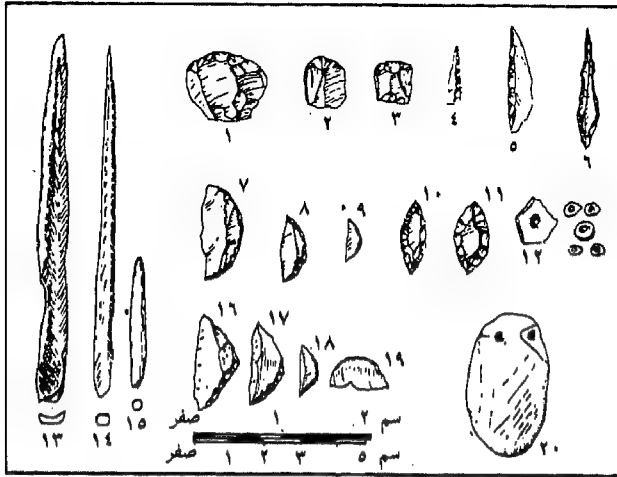
ان الصنف الثالث للصناعات (صنف ٣) (١٢) يؤرخ بما بين ٣٥٠٠ و ١٥٠٠ سنة قبل الحاضر. وهي تختص بعدد أكبر بكثير من الادوات المهذبة تهذبا واسعا. ان تهذيب المكاشط والمحكات يكاد يكون غالبا، وليس من النادر أن نجد أشكالا منحوتة. ويمكن أن تهذب الحدود المورقة الشكل سواء على كامل الوجه الواحد أو على الوجهين. وتنفرد المثاقب والمهاشم بخصائص. وبصفة عامة كانت الادوات أقل حجما، وتظهر عليها، بفعل التهذيب، جودة لم تكن موجودة في الأصناف السابقة.

وزيادة على الأصناف الثلاثة التي وصفناها، يوجد صنف رابع (صنف ٤) وهو يختلف عنها ببعض الفروق الواضحة. إنه يشكل المركب المعروف بـ «المغوسي» أو «الفاصل الثاني». فهو يجمع بين الشكل المتطور والمصغر غالبا من تقنية النواة الصحنية الشكل أو لوفالوا، وبين صنع حدود رقيقة ذات حواف متوازية، ومقطوعة بصفحة من عظم، وقرن، وخشب صلب. أما المواد الأولية المستعملة، فهي الصخور اللابلورية. وأما الأسنة المورقة أو المثلثة، والمكاشط والمحكات المصنوعة منها بطريقة النواة الصحنية الشكل أو طريقة لوفالوا، فقد سويت بكل عناية، وأحيانا بواسطة الضغط وفضلا عن هذه الأدوات التقليدية من العصر الحجري الوسيط، توجد أدوات أخرى مصنوعة على صفائح أو على قطع من صفائح غالبا ما تكون صغيرة، قد عكفت إحدى حواشها أو أنها استعملت أو هذبت حسب طرق متنوعة. وتوجد أنواع أخرى من المناقيش لا سيما شكل مسيب أو صفاحي. يبدو أن هذا النوع من الأدوات خاص ببعض أقسام الجزء الأسفل من القارة أي بروديسيا \* وزامبيا، والشرق من ولاية أورانج الحرة وبجنوب مقاطعة رأس الرجاء وبعض أجزاء ناميبيا مثلا. إلا أنه معدوم ظاهريا من أكبر جزء من القسم الأوسط من النجد الداخلي الذي وفرت فيه الليديانيت أهم مادة خام. فان كان لهذا التوزيع أساس يبق، علينا أن نضبط الصفات المشتركة بين المناطق التي اكتشفت بها تلك الصناعات من الصنف الرابع.

لقد اعتبر ان تلك الصناعات المتطورة تمثل مزجا بين تقنيات «النواة المهيأة» بالعصر الحجري الوسيط وتقنية قطع الصفائح حسما بالحجري القديم الأعلى، «فهي لا تتجاوز بتاتا ١٥٠٠ الى

(١٢) ومن الأمثلة على ذلك: صناعة بيترزيركين الأعلى بكهف الموادة وكهف مغولو أو كهف بردر في ناطال، والقسم الأعلى من «الستيلباي» لكهف بيبير بمقاطعة رأس الرجاء، وصناعة بباطا بكهف خامي في روديسيا.

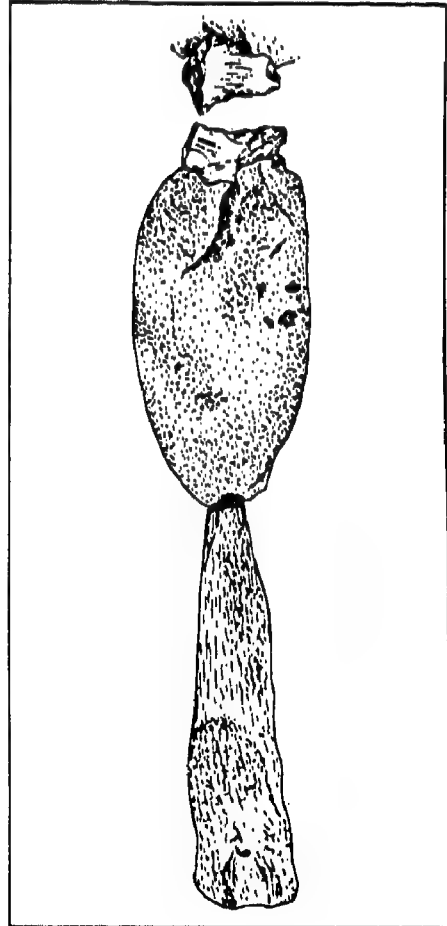
(٥) في الجزء المطبوع زيبابوي — تعليق المراجع محمد الفاسي.



١٠ أدوات الصناعات الويلطونية (١ إلى ١٢)، في مقاطعة الكاب في جنوب أفريقيا (حسباً ذكره م. س. بيركيت، ١٩٢٨: ١-٣ محكات قصيرة، ٤ أدوات حجرية صغيرة ذات حواف مشطوفة، ٦ - غراز، ٧ إلى ٩ قطاعات من دائرة، ١٠ و ١١ «أهلة مزدوجة»، ١٢ - لآليء في قشور من بيض النعام، والعينات ١٣ و ١٤ من الملجأ تحت الصخر في ويلطون، أما القطع الأخرى فن سهل الكاب. من السيلكس والحجر الكلسي. أدوات صناعات ماثويان (ويلطونية روديسيا)، (١٣ إلى ٢٠) من كهف أمادزيبيا، ماتوبوس هيلز، روديسيا (وفقاً لما ذكره س. ك. كوك وك. ر. روبنسون، ١٩٥٤: ١٣ - غراز عظمي مبطن المقبض، ١٤ - شوكة من العظم ذات كعب مشطوف، ١٥ - عنصر اسطواني، ١٦ - ١٩: قطاعات من دائرة وأهلة سميكة من الكوارتز، ٢٠ - دلابة من الارداواز (الشكل ٥٦ في كتاب «ما قبل التاريخ في أفريقيا» بالإنجليزية، تأليف ج. د. كلارك، ١٩٧٠ دار نشر تيمس وهندسون، لندن).

٢ أدوات من الخشب، من موقع البلايستوسين في أفريقيا الجنوبية. ١٥ مقبض أداة دفع (الى اليسار) من المستوى ١ من طبقة الخث في فلوريسباد مينرال سبرينغ، عمرها ٤٨.٠٠٠ سنة قبل الحاضر تقريبا. تمكن مقارنتها بقبضة أداة دفع استرالية، حيث حفرت مواضع غائرة لمنع اليد من الانزلاق، ١٦ - هراوة وأداة مزدوجة الشوكة، طبقة الاستقرار الاشولية في كالامبو فولز (مقاطع كالامبو) (زامبيا)، عمرها ١٩٠.٠٠٠ سنة قبل الحاضر (اللوحتان ١٥ و ١٦ في كتاب ج. د. كلارك، ١٩٧٠).

٣ مدق من شظية على شكل هلال، من السيلكس الاسود، مثبت بالصمغ على يد من قرن الحزيت. عثر عليه في مغارة في بليستينغ باي، شرق مقاطعة الكاب (حسباً أورده ج. د. كلارك، ١٩٥٩).



٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وعلى هذا الأساس يحصر عدد من التواريخ في هذه الفترة. ولقد تم الحصول حديثاً، على تواريخ سابقة لتلك بكثير (١٣) فيما يتعلق بصناعات الصنف ٤ لتي سميت بالمغوسية أو «هويسنز بورت» في جنوب إفريقيا (نسبة إلى منجم عثرفيه على أدوات مميزة بالقرب من كراهمتاو). فباستثناء كهف منتاكو، بمقاطعة رأس الرجاء، وصناعة التشانكولان بروديسيا، لم تتوفر لنا مع الأسف أي معلومات دقيقة عن محتوى تلك الاكتشافات بحيث لا نعلم ان كانت تلك المجموعات موحدة أو توجد بها أكثر من صناعة واحدة.

وإذا سلمنا الآن ان تلك المجموعات موحدة، فان تلك التواريخ البعيدة تدل على ان تكنولوجيا متطورة من الصفائح قد تعايشت في إفريقيا الجنوبية مع تكنولوجيا تقليدية تعتمد الشظايا المهيأة بالعصر الحجري الوسيط. والوضع لا يختلف بتاتا عما هو عليه بإفريقيا الشمالية حيث يختلف في المستوى المحلي مركبان صناعيان متعاصران وهما ثقافة دابا وثقافة العاطري. وعلى العموم، فسر تطور صناعات الحجر وتتابعها في الماضي بحركات السكان المتميزين من حيث التكوين الوراثي. الا أن فرضية الهجرة هذه لا تعتمد على حجج أخرى. ان الطريقة التي تبتى بها السكان الصيادون القاطفون الصناعات، والطريقة التي انتشرت بها بينهم تعود كثيرا إلى الإمكانات والتفوق مما توفر لهم، بالمقارنة مع الأجهزة التقليدية، ولا سيما عندما كان استعمالها ييسر استثمار موارد جديدة، ان الهجرة مسافات طويلة تبدو ضئيلة بالنسبة للصيادين القاطفين وthem خاصة السكان الفلاحين، الا إذا كانت تفترض احتلال مناطق «فارغة» مثل العالم الجديد أو حوض الزاير أو المناطق الغابية من إفريقيا الغربية في آخر البليستوسين الوسيط. ان الاختراع المستقل من طرف سكان يعيشون في شبه عزلة ولهم موارد وطرق استثمار متشابهة، يشكل تفسيراً أكثر احتمالاً للتغيرات الطارئة على الأدوات. ان التفسير كامن في وجود الحوافز أكثر مما هو كامن في هجرات واسعة للأجناس البشرية.

ولتوضيح ما نقول يجب أن ندرس دراسة سريعة الشواهد الأحفورية بإفريقيا الجنوبية بعد نهاية الأشولي الذي ترتبط به جمجمة صلدنها. ولما كانت جمجمة كابوي، في بروكن هيل تنتسب نسباً قريباً لجمجمة صلدنها، يحتمل أنها ليستا متباعدتين زمنياً. ان العدد القليل من الأدوات والأشكال الكروية الخفيفة الآتية من كابوي والتي تبدو أنها متصلة ببقايا بشريات، لا تشكل في حد ذاتها صنفاً على انفراد، بل يمكن أن توضع في كل تاريخ بين الأشولي الحديث وبداية «العصر الحجري الوسيط». ولقد اكتشفت بذلك المنجم مستويات سكنية طبقية تنسب إلى العهد، أي أنه اذا صح أن نفترض بان الجمجمة التي تكاد تكون كاملة والبقايا الأخرى تمثل أسرة بشريات تؤرخ بالسنگون المحلي أو الأشولي النهائي، فانه يستحيل ان نأتي بدليل عليها ما دمننا لم نطبق على الأحفور نفسه تاريخاً أكثر دقة. ومع هذا فان التشابهات بين أحفورات صلدنها وكابوي (بروكن هيل) وبين

(١٣) لقد أرخت صناعات الصنف ٤ بكهف منتاكو بـ ٢٣٢٠٠ إلى ٤٨٨٥٠ سنة وتدور التواريخ في كلايسيس، جنوب مقاطعة رأس الرجاء حول ٣٦٠٠٠ سنة قبل الحاضر ويكون التاريخ — ٥٠٠٠ سنة بكهف روزكوبج بمقاطعة أورانج الحرة وهو — ٤٦٣٠٠ سنة بالنسبة للاببي — بيترسبورغ بكهف بوردر. أما التشانكولان وهو صناعة من الصنف الرابع بزيمبابوي فإنه يقع بين ٢١٧٠٠ ± ٧٨٠ و ٢٥٦٥٠ ± ١٨٠٠ ق. م.  
٥ في الجزء المطبوع زيمبابوي تطبيق المراجع محمد الفاسي.

القطعة الجمجمية (هـ ١٢) من باد ٤ من فج أولدوواي وشبهتها في نجاراسي بالرفت من بحيرة إياسبي بأفريقيا الشرقية، قد تفيد بأن تلك الأشكال «الشبيهة بالروديسية» والأشكال الأخرى المنسوبة إلى الإنسان العارف قد حلت محل الإنسان المستقيم في آخر البليستوسين الوسيط (مثل إنسان نياندرتال، باوروآسيا)، وإنها كانت في بداية البليستوسين الأعلى منتشرة في كثير من المناطق المدارية من إفريقيا جنوب الصحراء (١٤).

وقد يعتقد بأن التغيرات المناخية بأفريقيا قد طرأت، بالاعتماد على دراسة اللقاحات واللمنجات وغيرها، في نفس الوقت الذي وقعت فيه التغيرات المصاحبة بأوروبا وآسيا للتجمد الأخير. إن تشتت الشمل، وأنزاع السكان البشريين انزعالا يكاد يكون كاملا قد سبب تغيرات وتطورا في اتجاهات مختلفة، بينما كانت البشرات تتكيف تكيفا صحيحا في المستوى التكويني والثقافي مع البيئات المختلفة التي استطاعت أن تحتلها.

ومهما كانت الأسباب — ولندكر من بينها اكتساب الكلام، وتطور البنية الاجتماعية والتكنولوجيا المتقدمة وغير ذلك — مهما كانت تلك الأسباب التي جعلت الإنسان العصري (الإنسان العارف) يتميز تميزا واضحا عن البشرات الأخرى، فمن المؤكد أنها هي الأساس في التفاعلات التكوينية التي ترتبت على إحلال جنس جديد بصورة سريعة نسبيا، محل أشباه النياندرتالين، وأشباه الروديسيين، وغيرهم من الأجناس التي لم توفق في تكيفها. ويبدو أن الإنسان العصري (وتشملة مجامع التشكل في كيبش) بالحوض الأسفل من أومو وبحوض بحيرة فكتوريا في كنجرا كان موجودا بأفريقيا الشرقية منذ ما يقرب من ٢٠٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وفي إفريقيا الجنوبية تنتسب جمجمة فلوريسباد التي تعود إلى أكثر من ٤٨٠٠٠ سنة، إلى شكل قديم، وقوي قريب من الإنسان العصري. إن عددا من الأحفورات الأكثر حداثة، والمؤرخة تاريخا دون ذلك دقة، والتي يعود جملها إلى ما بين ٣٥٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ في وسكوب، وكهف بوردر، وتونيلاتسي، وسكلدرخات (كهف بير)، وميمبوا وغيرها تمثل سكانا كانوا متميزين في المستوى الجهوي وأصبحوا عصريين وكانوا نواة لأحد الأنواع الثقافية بالعصر الحجري الوسيط.

وفي أواخر البليستوسين، منذ حوالي ١٠٠٠٠ سنة، كان سكان متناسبون تكوينيا لكنهم مختلفون جهويا، وهم الأسلاف البعيدون لبعض الشعوب الحالية، قد تميزوا عن غيرهم ومن ذلك سلالات البوشيمان، كبارا وصغارا، بأفريقيا الجنوبية وأفريقيا الوسطى الشرقي، و«أشبه زوج إفريقيا» الاستوائية والغربية، والجانبية «النيلية» بأفريقيا الشرقية. إن الأحفورات التي عثر عليها مبعثرة، وهي تقتصر عامة على نموذج واحد. وقل أن توجد دلالات دقيقة عن مدى التغيرات المنتظرة ضمن نفس السكان. إلا أننا لا نشك أن «الأجناس» الأفريقية الأهلية تعود إلى تاريخ عتيق جدا بالمقارنة، ويمكن أن نعتبر أنها تطورت طيلة البليستوسين الأعلى وفي بداية الهولوسين على اثر حقبة طويلة من التكيف والانتقاء بأهم المناطق الحيوية الجغرافية.

(١٤) يدل تأريخ جديد بالترانزيم لحفرتي بشرات على فترة عنه من ١٠٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠٠ قبل الحاضر (ج. بادا: نقلا عنه شخصيا).  
(٥) في المطبوع «سان» عوض «بوشيمان» تعليق المراجع محمد الفاسي.



وكما بينا سابقا فإن الصفائح المصنوعة بالقرع غير المباشر، وكذلك مختلف الأدوات الصغيرة المنحوتة على الصفائح ذات الحواشي المعكوفة المكتشفة مع أدوات الصنف ٤ (هويستزبورت) كانت تعتبر في الماضي دليلا على تحركات السكان. ويعتقد أن هذه الأدوات أدخلتها جماعات مهاجرة من «أناس عصريين». فينبغي أن نتظر نتيجة دراسة نهائية للمواقع المحفورة لنصل الى حكم حاسم في هذه القضية، إذ كتب لتلك «الفرضية الجنسية» أن تثبت فيما بعد، ولتلك الأدوات أن تعكس استعمال تقنيات جديدة شاعت بفعل الحوافز وقبلت لأنها تسمح باستثمار النخيل للموارد المحلية، أو لأنها نتاج عوامل مختلفة تماما. ومهما كان السبب، فلا شك أن تسرب تكنولوجيا الصفائح ترتبط بتطور الأدوات المتراكبة التي تتناسق فيها قطعتان أو ثلاث لتتألف منها أداة أكثر اتقانا وأكثر نجاعة. ومن المحتمل أن يكون اثبات الحجر أو مواد أخرى بمقايض بلوغ نجاعة أكبر، قد ابتدأ منذ حقبة الصنف ٢. إن آثار الترقيق على قفا الحدود في موسل باي أو نزح الكعب بتهديات معكوسة قد تدل على تعديلات متصلة بإثبات المقبض. إن أبسط طريقة في إفريقيا، لتكوين سكين حجري أو حد للرمي قد تكون باستعمال أشكال مختلفة من الماسيتيك (الرتنج، الصمغ، وحليب النبات الخ) مع رباطات ليفية ووترية.

لقد صاحب ظهور الإنسان المعاصر في ما قبل التاريخ، سلسلة كاملة من الاختراعات في مستوى التطبيقات والخصائص الثقافية. فالترسبات المتراكمة والكهوف والملاجئ تحت الصخور، وكذلك في بعض المواقع بالهواء الطلق، تبين أن المنشآت الفصلية قد أصبحت قاعدة عامة. ويبدو أننا أمام مجموعات أكثر نظاما وإن ظلت مفتوحة، ومعرضة في تشكيلها لتحولات مطردة. إن تعدد الأدوات والسعي لتوحيد أشكالها، والاطراد المتزايد لبناء الاضرحة المقصودة، ووضع الأشياء والأطعمة قرب الميت حتى يتمكن من مواجهة الآخرة، والإستعمال الأكثر انتظاما للأصباغ للتزيين، وربما للطبوقوس أيضا، وحتى تذوق الموسيقى المشهود بشمال أفريقيا، كل ذلك يدل على الصفات التكوينية الواضحة التي يتميز بها الإنسان العارف. ويفسر أحد الجوانب من التخصص الأكبر في صنع الأدوات على المستوى الجهوي، بالميلول الجهوية نحو أنواع من الصيد، ونحو الاستهلاك بكثرة لبعض الأغذية النباتية التي يتطلب تحضيرها الرحن والمهراس. وتظهر أدوات المهرس لأول مرة مع الصنف ٣ و٤، لا سيما بعد ٢٥٠٠٠ بقليل. وتصبح مجموعة من الأدوات الثقيلة، أدوات أكثر خفة من الشمال والشمال الشرقي من زامبيا، وهي تعكس إطار استثمار يوفر موارد مشابهة جدا لموارد الزاير وأنجولا.

تبدو لنا بسيطة للغاية الفكرة التقليدية التي كانت لنا عن «العصر الحجري الوسيط» باعتباره مشتملا على اختلافات جهوية متميزة (ستباي، بيتوزبورغ، موسل باي، هويس بورت، الخ) وكلها متعاصرة تقريبا، وتدلل عليها بعض الأحفورات الرئيسية. إن صناعات العصر الحجري الوسيط تستحق أن تعتبر نتائج تكيف منتظم مع مناطق أو جهات إحيائية جغرافية متميزة، وقد فرضت فيها حاجات ونشاطات المجموعات الإنسانية اختيار المواد الأولية المستعملة لصنع الأدوات. ومن أجل اثبات الأهمية النسبية في عين المجموعة، لمختلف المواد (الخشب، الحجر، العظم، القرن الخ)، يستحسن أن نقارن المعطيات الاحاثية البيئية بمعطيات التحليلات من نوع «تحليل ربط

الموقع» (١٥). ان مجموعة من الادوات الحجرية العادية لا تعني وجوبا «الرداءة» كما ان مجموعة من الادوات الحجرية «الظرفية» لا تدل على التفوق. ان الادوات الحجرية توفر لنا في حد ذاتها قسطا أدنى من المعلومات عن سلوك الذين صنعوها، ان الأهم هو إقامة علاقة ارتباط بين هذه الأشياء وبين جميع المنتجات الأخرى الناشئة من النشاط الإنساني والمحفوفة لتقوم شاهدا على مرحلة من مراحل احتلال المكان. ان بنية مواقع العصر الحجري الوسيط قد ظلت أقل تعريفا من بنية الأشولي والعصور السابقة. ان كهف المواقع يعطينا دليلا على وجود مواقع للنار، ويدلنا كهف مونتاكو، على توزيع الادوات حول المواقع في كل أفق. وقد عثر في موقع أورانجيا ١ على أسس حجرية لحواجز ريع عديدة، وتمكننا من العثور على منطقة واسعة محمية كان يقوم فيها نشاط بزايكوكات ٢٧ بمنطقة أورنج ريفر سكيم.

ووجدت عظام مكدسة بعد مرات عديدة وموفقة من الصيد وذلك في كالبنك في ترنسفال. ويسدو أخيرا أنه شرع في استخراج الهمايت لاننتاج الأصباغ منذ ٢٨٠٠٠ سنة تقريبا وذلك حسبما يستفاد من الإكتشافات بكهف الأسود، في سوازيلاند، وجدت سندات راسخة في الأرض لقطع الحجارة في آفاق ١ في كلمبوفولز. فهي تعود ٢٧٠٠٠ سنة قبل الحاضر. ولقد اكتشفت بنفس الموقع داثرات حجرية يحتمل أنها حددت المواقع، بينما اكتشفت آثار مبعثرة لحجيم مؤقت من صناعة مباطا، وذلك بنهر ناطا في بوتسوانا. ان بقايا الحيوانات الدالة على مخلفات غذائية تبين أن الحيوانات الكبيرة كانت تشكل العنصر الأساسي للتموين. ان البعض منها، أي الجواميس، والثور والحيارم والحرمر الوحشية والخنزيريات تعتبر من الأنواع التي يكثر جلبها الى أماكن السكن. وبصفة عامة يبدو أنه يوجد بموقع العصر الحجري الوسيط تنوع أكبر في الفصائل الحيوانية مما عثر عليه بالأشولي. ولكن اذا كان اكتساب أسلحة صيد جيدة قد سمح بتنظيم حملات غائمة، فان حيوانات الصيد متنوعة جدا. ولم يصبح الصيد انتقائيا الا عند حلول العصر الحجري المتأخر.

وختاما، لم يبق من الممكن أن نعتبر صناعات العصر الحجري الوسيط دليلا على تقدم بسيط وخطي نحو تكنولوجيا أكثر جودة وأكثر تطورا. انها على العكس، تكشف، اذا كانت التواريخ صحيحة، عن عدد من التقنيات المختلفة التي لها قاعدة اقتصادية أساسا. وتأثر تلك التقنيات بعضها ببعض حسب درجات مختلفة، ويمكن لها أن تتطور تبعا للحاجات المادية. أن الأنواع المختلفة المعروفة قد تعبر عن ميول جهوية تتعلق بالموارد واستخراج المواد، وان كانت جل تلك الأنواع تستلزم تعريفا أكثر دقة. ان بعض المواقع الطبقة (مثل كهف المواقع) تبرز مقطوعة متقدمة تماما، بينما يدل التعاقب الطبقي في مواقع أخرى (كلاسيك ريفر على الساحل الجنوبي من جنوب إفريقيا، وكهف. زمبيسباتا، بروديسيا) (\*) على التقاليد المستمرة بغربي فرنسا، ويمكن أن تتعاقب

(١٥) ان «تحليل ربط الموقع» هو طريقة دعت إليها فيثا فنزي وهيكر (١٩٧٠) لافرار الموجوء بالقوة من الموارد في منطقة استثمرت انطلاقا من موقع ما قبل التاريخ. وذلك يتطلب تعريف حدود الموطن، وإلى أي مدى يختلف السكن والمجال الحيوي عما هما عليه اليوم (انظر فيثا فنزي، وا. س. هيكر، ١٩٧٠) في إقتصاد ما قبل التاريخ بجبل الكرمل بفلسطين. تحليل ربط الموقع، وقائع جمعية ما قبل التاريخ، ٣٦، ١، ٣٧.

ه في المطبوع زيبابوي عوض روديسيا — تعليق المراجع محمد الفاسي.

الاصناف دون تواصل ظاهر. ان تعويض صنف بآخر قد يعود الى أسباب اقتصادية وقد يعكس تغيرات بيئية أي أنه يدل على ميول غذائية جديدة. فالشواهد النادرة المتوفرة لدينا، تؤيد هذه الفرضية. الا أننا نفتقد التحليلات المفصلة للحيوانات والمعطيات اللقاحية لكي يثبت إن كانت تلك الأنواع البديلة قد طرأت في نفس الوقت بمناطق شاسعة احيائية جغرافية، أو أنها لا تعكس الا تطوراً مؤقتاً للمواد الغذائية الخاصة بهذا المنزل السكاني أو ذاك.

ولما كان العصر الحجري الجديد بجنوب افريقيا معاصراً تقريباً للعصر الحجري القديم الأعلى الأوربي، فإن مراحل البداية تبسّد، وإن كانت غير معروفة جداً، أكثر معاصرة على العموم للموسستري أو الجبرودي (ما قبل الأورينياس) في الشرق الأوسط.

## العصر الحجري المتأخر

ان الصورة الكلاسيكية عن العصر الحجري المتأخر بافريقيا الجنوبية، تنحصر في الصناعات المتكونة أساساً من الحجارة الصغيرة المسماة عموماً «ولطونية»، نسبة الى الكهف الموجود بالغرب من مقاطعة رأس الرجاء الصالح حيث اكتشفت هذه الصناعات المتميزة، ووصفت لأول مرة مثلما كان شأن صناعة المكاشط المسماة سميثفيلد، بالمنطقة الغنية بالليدانيت في هايفيلد. واكتشفت ببعض المواقع من جنوب القارة صناعات أطلق عليها اسم ما قبل ولطونية، وظهرت منذ ما يزيد على ٢٠٠٠٠ سنة وتدل على تغير جذري في تكنولوجيا الأدوات الحجرية. وقام مقام النواة المهيأة من العصر الحجري الوسيط، نواة ليس لها شكل معين وتقطع منها شظايا غير منتظمة. ان الادوات الوحيدة التي حافظت على طابع خاص تبدو أنها من أنواع مختلفة من المكاشط الكبرى، والمحكات المنحوتة على شظية أو على أدوات حادة وكذلك أشكال عديدة من المحكات هي أصغر ومعدبة. وتوجد منها نماذج في مناجم تقع في الساحل الجنوبي (١٦) من ولاية أورانج الحرة (١٧)، وفي ترنسفال (١٨)، وناميبيا (١٩) حيث هذه الآثار لها علاقة بذيخ ثلاثة فيلة.

ان الصناعة المعادلة في روديسيا (\*) هي صناعة البوموبكني التي تؤرخ بين ٩٤٠٠ و ١٢٢٠٠ سنة قبل الحاضر. ولها علاقة ارتباط بمواقد كبرى ذات رماد أبيض، وبعض الحدود الاولى من العظم المكتشفة بذلك العهد. ولعل الأمر يستوجب أن نربط بها أيضاً مستوى من كهف ليوبارد هيل في زامبيا بـ ٢١٠٠٠ الى ٢٣٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وهناك مكتشفات أخرى لم تؤرخ

(١٦) كهف خليج نلسون، ضبط تاريخه بـ ١٨٠٠٠ الى ١٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر، ماتيس ريفر الذي يعود الى ١١٢٥٠/١٠٥٠٠ قبل الحاضر، ثم أوكهورست. أما في كهف خليج نلسون فتوجد صناعة تشمل صناعة المحكات الحادة وتعود الى تاريخ يتراوح بين ١٢٠٠٠ و ٩٠٠٠ سنة قبل الحاضر. ان أغلب الادوات مصنوعة من شظايا كبيرة. ولا توجد أشكال مصنوعة من حجارة صغيرة وتوجد صناعة قبل ولطونية في مناجم أخرى من منطقة الجبال الجنوبية، مثلاً في مكويتوم حيث تؤرخ بـ ١٠٥٠٠ و ١٩٠٠ قبل الحاضر.

(١٧) «سميثفيلد أ»، به مثلاً صناعة الفترة ١، من زيكوكات ١٣.

(١٨) أوتكومست، أرخت بـ ٧٩٨٠ قبل الحاضر.

(١٩) وندهورك (Windhoek) تعود الى ١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر.

(٥) في المطبوع زيمبابوي - تعليق المراجع محمد القاسي.

في بوندولاند (كهف أومكزنا) بوادي الزمير الوسطى، في زامبيا (لوكاندا) بمناطق أخرى ويبدو من هذا التوزيع أن تغيرا تكنولوجيا عميقا قد عم بين ٢٠٠٠٠± و ٩٠٠٠٠ سنة. ولقد ظلت أسبابه غير واضحة، إلا أن مؤلف هذا الفصل يفترض أنها قد تكون نتيجة تغيرات البيئة الطارئة بذلك العهد والتي قام الدليل على وقوعها في عدد من المواقع بأفريقيا الجنوبية (خليج نلسون زمبيبا الخ). وقد تكون نتيجة تطور انتشار أدوات وتقنيات أكثر نجاعة تتعلق خاصة بطرق جديدة في الصيد.

ان تلك الصناعات التي قبل «الو بلطونية» متصلة باستثمار ذوات الجحور الكبرى: الحيارم النوى، الطباء الزرقاء، والكوغا. ويبدو أن تلك الصناعات قد ناسبت، في خليج نلسون، تغيرا بيئيا طرأ بعد ١٢ ٠٠٠ سنة قبل الحاضر. لما عوضت حيوانات المروج أنواع من الغابة العروية. يضاف إلى ذلك أن ظهور عدد كبير من الحيوانات البحرية ضمن بقايا الحيوانات، يدل على أن ارتفاع مستوى البحر، مدة المراحل الأخيرة من البليستوسين، كان قد يسر الاستثمار المباشر للحيوانات البحرية انطلاقا من ذلك الكهف.

ويبدو اليوم ان الصناعات ذات الصفائح المحتوية على نسبة عالية من أشكال الحجارة الصغيرة ذات الحافة المعكوفة كانت قد ظهرت بجنوب أفريقيا الوسطى في فترة سابقة بكثير لما كان يعتقد. وتمثل إحدى تلك الصناعات الأكثر قدما، المرحلة القديمة من الصناعة النشيكوفية (نشيكوفو ١) في زامبيا حيث يوفر أقدم تاريخ ١٦٧١٥ ± ٩٥ سنة قبل الحاضر. وظهرت صناعة ولطونية في روديسيا (\*) في حوالي ١٢٠٠٠ قبل الحاضر (كهف تشانكولا) وبعد ذلك بقليل بجنوب أفريقيا (تقريبا ٨٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ قبل الحاضر وتوازي هذه الأمثلة من جنوب أفريقيا الوسطى صناعات حجرية صغيرة محضة لها صفائح ذات ظهور أصلها من مناجم أفريقيا الشرقية. من ذلك صناعات أوكوندا (كهف منيا، وجزيرة بوما ١٤٤٨٠ ± ١٣٠ قبل الحاضر) والكينيا، ومن رفعت نكورو/نيفاشا (برولا ونجد درفت، ١٣٣٠٠ ± ٢٢٠ ق. ح) ومن طانزانيا الوسطى (ملجا تحت صخرة في كيسيزي، ١٨١٩٠ ± ٣٠٠ ق. ح ويمثل التشيتولي بحوض الزاير صناعة قريبة منها لكنها مختلفة جهويا (١٢٩٧٠ ± ٢٥٠ قبل الحاضر).

ان التقاليد الحجرية الصغيرة تناسب تطور أشكال من الادوات المتعددة التركيب وتزايد نجاعتها. ويعتبر القوس والسهم أهمها، ونحن نجعل متى ظهر هذان السلاحان، بأفريقيا لأول مرة. ولعل ذلك كان قد حصل بالمرحلة الأخيرة من البليستوسين، ومن الأدوات التي لا تقل أهمية عن القطع والأشكال الأخرى من الادوات ذات الحافة المعكوفة الحجرية المستعملة عمادا للسهم نذكر مختلف أشكال الحدود العظمية وأسلحة الرمي التي يحتمل أنها كانت حدود سهام. ان البعض منها يعود بدون شك الى ١٢٠٠٠ سنة.

ويمكن التعرف على مقطوعات تطويرية في تلك الصناعات الحجرية وذلك بأماكن عديدة من أفريقيا الجنوبية. إلا أنه يحتمل ان النواة شبه الصحن قد بقيت في مناطق أخرى، مثلما هو الشأن بالشمال الغربي من زامبيا، حتى الألفية الثانية قبل الميلاد، ويبدو أن العناصر الحجرية الصغيرة

الوطنية قد انقرضت في أماكن أخرى (بولاية أورانج الحرة مثلا) فعوضتها صناعات يغلب فيها المحك (سميثفلد ب.).

إن المواقع المعروفة من العصر الحجري المتأخر تفوق عدد المواقع المعروفة من العصر الحجري الوسيط. ويحق لنا بأن نعتقد أن بداية الهولوسين كانت حقبة تزايد ديمغرافي. ومن ذلك العهد أيضا (١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر) احتلت الكهوف والملاجئ تحت الصخرية أكثر فأكثر. ولقد استثمرت الموارد المحلية استثمارا أكثف مما كان. وتبين بقايا الحيوانات المكتشفة بمواقع السكن الأهمية المتزايدة للصيد وقنص حيوانات معينة. ويحتمل أن يكون هذا النوع من الإستثمار لا يختلف عن نوع الإستثمار عند أفراد قبيلة سان الحاليين في كالا هاري والصيادين القاطنين من أهل المنطقة المدارية الجافة.

إن تنقلات إحدى الجماعات، وموطنها مرتبطة بدون شك بالموارد الفصلية من الماء والأعشاب والحيوانات. ولذا يمكن أن نتصور إذا كانت تقع اتصالات منتظمة بين مجموعات متجاورة. إن أولئك الذين كانوا يعيشون قرب عين ماء صافية أو قرب البحر كانوا يستثمرون أيضا الموارد المحلية من الأسماك، والأصداف والثدييات المائية، وكان آخرون يصطادون خاصة القطعان الكبيرة من الظبي، ويصطاد آخرون الحيوانات الصغيرة، وإن أشكال الأدوات الأكثر رواجاً متكونة، في المنطقة الجبلية الجنوبية بمقاطعة رأس الرجاء الصالح، من محكات صغيرة لها أنواع مختلفة، أما أبقايا الغذائية فهي غالباً للتدييات الصغيرة، المصطادة بالفخ. ومن جهة أخرى، كشفت الصناعات في روديسيا (\*) وزامبيا وغيرهما، وفي المروج والغابات الخفيفة عن قطع عديدة حجرية صغيرة وعن صفائح ذات حافة معكوفة لها صلة ببقايا الثدييات الكبيرة. إن تلك الأدوات الحجرية الصغيرة تفيد أن الأسلحة الأساسية قد كانت القوس والسهم، وكانت الحجارة الصغيرة مثبتة بمقبض مفردة أو زوجاً لتشكل حدوداً عرضية قاطعة تشبه حدود مصر في عهد الأسرة المالكة، وتشابه بعض سهام قبيلة سان بالعهد التاريخي والتي وصلت إلينا. ولقد كان امتداد مواطن مجموعات الصيادين يخضع لعوامل بيئية مختلفة. ولقد تبين بالغرب من مقاطعة رأس الرجاء (دي هنغن) أن مجموعات ما قبل التاريخ من السكان كانت تقضي الشتاء على الساحل، وتعيش خاصة من منتجات البحر، وتقضي الصيف بالجبل على بعد ١٤٠ كلم في الداخل حيث كانوا يأكلون نباتات مختلفة والهيركس والسلفاوات وحيوانات أخرى صغيرة.

احتل الصيادون القاطنون من العصر الحجري المتأخر بالجهات المواتية جداً من إفريقيا الجنوبية، بعضاً من المناطق التي تعد من أغنى المناطق في العالم من حيث الموارد الغذائية الحيوانية والنباتية. ولما كانت موارد الصيد، مثلما هو الشأن هنا، غالباً لا تنفذ فقد وجد الصيادون متسعاً من الوقت لتعطائي أنواع من النشاط الفكري مثلما تشهد مثلاً بذلك الآثار البديعة من فن الرسم الجداري بجبال دركنز بوك وروديسيا (\*) وناميبيا. والصحيح أن عدداً من تلك الأعمال الفنية لا يتجاوز بتاتاً ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ سنة وإن كانت توفر شهادة لا نظير لها عن طريقة عيش أولئك الصيادين القاطنين من قبل التاريخ. وقد دامت في حالات كثيرة، حتى عند السان في كالا هاري

الوسيط ومن الواضح أن ذلك الفن يعود أيضا إلى عهد بعيد جدا. أما اللوحات الأكثر قدما والمكتشفة إلى الآن بأفريقيا الجنوبية فقد اكتشفت في ملجأ تحت صخرة في أبولو ٢ بالجنوب الغربي الإفريقي (ناميبيا حيث تظهر على جدران صخرية وذلك في مستوى آرتخ بـ ٢٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر).

إن سكان العصر الحجري المتأخر، العائشين من الصيد والقطف، مدة القرون الأولى بعد الميلاد، ما لبث أن حل محلهم في أكبر جزء من إفريقيا الجنوبية فلاحتهم كانوا يعرفون صناعة المعادن. ويحتمل كثيرا أن يكون أولئك السكان هم الرواد الأوائل للمهاجرين الناطقين بلغة بانتو الذين هاجروا من موطن يوجد بالشمال الغربي (تشاد وكمرون) للاستقامة بالجزء الجنوبي من القارة. وعلى هذا الأساس لا توجد بأفريقيا الجنوبية، آثار الثقافة الحجرية الجديدة وذلك يعني انعدام فلاحتهم يصنعون الفخار، ووجود سكان يعرفون أدوات حجرية لا سيما الفؤوس المهذبة والمصقولة. إلا أنه ينبغي أن نعدل هذا الحكم، فنقول بأنه، رغم فقدان أثر الفلاحة قبل ظهور السكان من عصر الحديد فلا شك أن بعض المجموعات من العصر الحجري المتأخر بأفريقيا الجنوبية الغربية كانت تملك أغناما ثم أبقارا وذلك حوالي القرن الأول قبل الميلاد وحتى قبل ذلك ويمكن أن نشبه البعض منهم بقبائل خواي التاريخية أي برعاة رحل لا يتعاطون الفلاحة لكن كانوا يصنعون نوعا معيناً من الفخار. إلا أنه لم يوجد أي أثر من سكن الرعاة، بحيث يجب علينا أن نعود إلى المراجع التاريخية للتعرف على تلك المجموعات عندما يتعذر علينا أن نعول على علم الآثار. ولنا أن نتساءل أيضا من أين أتت مواشيهم؟. إن المعطيات اللغوية تبين حسب بعض المؤلفين أنها أتت من شعوب تتكلم لغات السودان الشرقي والأوسط، بينما يميل آخرون إلى مهاجرين من مطلع عصر الحديد. ومهما كان المأثري، فهناك احتمال ضعيف في أن تكون بداية تلك المرحلة الرعوية سابقة بـ ٣٠٠ سنة للميلاد، علما بأنها انتهت في القرن الثامن عشر.

وهكذا فإن نتائج أبحاث ما قبل التاريخ الجارية بأفريقيا الجنوبية تبين الدور الهام الذي لعبته أراضي السنجيد العالي الداخلي في تطور الإنسان صانع الأدوات. إن الذكاء والنجاح المتزايدين اللذين اعتمدهما سكان من البشرات المتعاقبة لتسليح أنماط السلوك، وتكوين رصيد ثقافي مكانهم من استثمار موارد النظم البيئية التي عاشوا بها، استثمارا كثيفا، يسمح بأن نفسر الاختلافات الجنسية والشفافية التي تتميز بها الشعوب الأهلية بأفريقيا الجنوبية الحالية (سان وخواي خواي وبرغداما، أو فطجмба، وتوا، وبانتو) مع الافادة بقدم وتواصل صفات سلوكية بارزة، تواصل كبيراً بحيث ظلت قائمة إلى عهدنا هذا.

## الفصل الحادي والعشرون

# ما قبل تاريخ افريقيا الوسطى

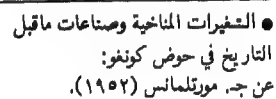
## القسم الأول

بقلم: روجي دي بايل دي هرمنس

يمتد حوض الزاير (الكونغو سابقا) جغرافيا من خليج غينيا غربا الى منطقة البحيرات الكبرى شرقا، تقريبا على خط التوازي العاشر جنوبا من أنجولا وشابا (كتنجا سابقا) وعلى الخط الفاصل بين مياه الأحواض الهيدروغرافية من تشاد والزاير شمالا (١).

فهو يمثل حاليا المنطقة الاستوائية أساسا ويعتبر كساؤه الشجري المتكون من الغابة الكبرى، أكثر الأكسية كثافة بافريقيا، فمن المعلوم فعلا أن تلك المنطقة الغابية قد امتدت، في فترات رطبة جدا معينة، نحو الشمال أكثر مما هي عليه الآن ولقد تقلصت مدة الآلاف من السنين ولم تظل قائمة الا على شكل أشرطة غابية يزداد أو يقل عرضها على طول الأنهار والجداول. وإذا كنا نؤكد على هذا الكساء الشجري فلأنه كان عاملا أساسيا في نمو وتطور حضارات ما قبل التاريخ بتلك المنطقة. وهذه الحضارات وخاصة ما أعقب منها الاشوي تبدو من خلال الأبحاث والمعارف المتوفرة حاليا كأنها قد تطورت بعين المكان، وتأثرت بالغابة البدائية وبدون أن يحصل الاتصال بينها وبين السكان العائشين بالمناطق ذات النباتات القليلة الكثافة. أما في الشمال فان هجرات العصر الحجري الحديث المتجهة من الشرق الى الغرب قد جانبت الغابة ولم تدخلها كأنها تمثل عقبة وعالما لا يدخله السكان المعتادون العيش بمناطق السباسب والمساحات الكبرى المكشوفة. فلا شيء في صناعات العصر الحجري القديم ولا شيء في العصر الحجري الحديث، ولا شيء في فن الرسم

(١) نقصد بافريقيا الوسطى البلدان الآتية: الزاير، امبراطورية وسط افريقيا، جمهورية الكونغو الشعبية، الجابون، الكامرون، وبعض الأجزاء من أنجولا، ورواندا، وبوروندي.





الجداري الذي لم يكن على أية حال معروفاً بمحوض الزاير، ولا شيء من كل ذلك يسمح بأن نؤكد على حدوث اتصالات مع السكان القاطنين بالفياف التي لم تتحول بعد الصحراء الكبرى الجافة المعروفة اليوم. وإن حدث أن وقعت اتصالات، ينبغي أن نتجه نحو الشرق والجنوب من افريقيا، كما ينبغي أن نبحث بها عن ابتداء هجرة مجموعات بشرية سكنت في الغابة الاستوائية الكبرى غرباً.

أما فيما يتعلق بالمناخ، فإن الدهر الرابع بتلك المنطقة قد يكون قريباً من مناخ افريقيا الشرقية مع تغيرات محلية راجعة الى علو المناطق الجبلية الشاهق، ويوجد حسب ج. مرتلمنس (١٩٥٢) أربع حقبات ممطارية ومرحلتان رطبتان (٢):

الناكوري	— الرطب الثاني
الماكالي	— الرطب الأول
الكبلي	— الممطار الرابع
الكنجري	— الممطار الثالث
الكاماسي	— الممطار الثاني
الكاغيري	— الممطار الأول

ويتعلق عمران منطقة من المناطق الى حد ما بحسب هذا التعاقب بين حقبات جافة نسبياً وأخرى رطبة جداً وذلك عن طريق ما يطرأ من تغير على ما نسميه اليوم «البيئة». ان التوغل العسير في اعماق الغابة قد جعل العديد من المؤرخين لما قبل التاريخ، يقولون بأن عدد سكان تلك المنطقة كان قليلاً من العصر الحجري الأسفل الى العصر الحجري الجديد. ونحن لا نوافق على هذا الرأي وينبغي أن نقضي على الأسطورة المتعلقة بصعوبة العمران بتلك المنطقة. وإذا كان مجموع الأدوات الحجرية بتلك المنطقة كلها قليلاً الى حد ما، فلأن الباحثين قد ترددوا في القيام ببحوث طويلة المدى في أحوال عسيرة. واعتباراً للنتائج التي حصلت عليها بعثات عديدة بأنجولا وبامبراطورية وسط افريقيا والزاير، واعتباراً للكليات الهائلة من الحجارة المنحوتة المحصل عليها، يجب أن نعرف ان عمران ما قبل التاريخ الذي حصل في ما يسمى «الغابة الكبرى» كان هاماً بقدر ما كان هاماً بالمناطق الأخرى من افريقيا.

يجب أن نضيف في النهاية أن الآثار النباتية بالمنطقة الاستوائية الرطبة، لم تبقى محفوظة بسبب حموضة الأرض، ولذلك انعدمت الاحفورات الانسانية، وبقايا الحيوانات والأدوات العظمية، إلا بعض الاستثناءات النادرة، علماً بأنها متعلقة بالحقبات الحديثة جداً، بل والتاريخية.

(٢) الناكوري: مرحلة رطبة تعرف بالترسبات الشاطئية دون ١٠٢ متراً من بحيرة نكورو بالكينا.

الماكالي: مرحلة رطبة تعرف بالشواطئ البحرية من ١١٤ متراً و ١٠٢ متراً من بحيرة نكورو.

الكبلي: الممطار الرابع الذي يعرف بما حول بحيرات نكورو، وتيفاشا وخاصة المنتبت (غمبلز كيف) في الكينا.

الكنجري: الممطار الثالث الذي عرفه ل. س. ب لاكي بحسب راسب أحفوري اكتشف بكنجر على خليج كفرنزو.

الكاسي: الممطار الثاني الذي ينسب اسمه الى ترسبات المشطورات التي درسها جريجوري بكسيا بالرفت فالي بالكينا.

الكاغيري: الممطار الأول، سمي بهذا الاسم بسبب نظام سطح كاغيرا أو أوغندا، اكتشفه أ. ج. ويلاند عام ١٩٣٤.

## لمحة تاريخية عن البحوث

لقد ظل ما قبل تاريخ المنطقة الغابية الاستوائية من حوض الكونغو مجهولا بسبب كسائه الشجري العظيم وتشكلاته اللاتيرية الكبرى التي اندجبت بها بقايا الصناعات التابعة لحضارات عديدة في ما قبل التاريخ.

ان الشروع في مغرفة ما قبل تاريخ تلك المنطقة قد استوجب انتظار تقدم الأشغال العامة الكبرى (وضع خط سكة الحديد، الطرقات، الجسور وقنوات التطهير) والبحوث المنهجية حتى «يتوفر للجيولوجيين ومؤرخي ما قبل التاريخ رسوم جيولوجية تكشف عن الأدوات الحجرية».

وفي الزاير يبدو أن الاكتشافات القليلة الأولى لأدوات ما قبل التاريخ كانت اكتشافات الرائد كل. زبونسكي التي وقعت أثناء بناء سكة الحديد. ولقد درسها سنة ١٨٩٩م كس. سترانير الذي حاول أن يستخلص بعض المعلومات المؤقتة، رغم افتقاره لدراسة طبقات الأرض، ثم تطورت البحوث بين ١٩٢٧م إلى ١٩٣٨م ونشرت أعمال هامة، لا سيما أعمال ج. كولت، ف. كابو، ا. بولوينار، م. بركات، ج. مرتلمنس، والقس أنسيودي فابو، والقس ه. بروي. وهناك أعمال أخرى أحدث من تلك، قام بها ه. فان مورسل، وف. فان نوثن، ود. كاهين الذي ما تزال أبحاثه جارية.

وفما يتعلق بالكونغو برازافيل، وهي منطقة غابية أساسا، تعتبر الاعمال المنشورة أقل عددا. وينبغي أن نذكر أبحاث ودراسات ج. بابت، ر. ل دواز، ج. دور، ه. كيل، ج. لومبار، وب. لوروا. وتتصل أعمالهم خاصة بالاكتشافات التي وقعت على طول سكة الحديد من بوانت نوار إلى برازافيل. ان ما قبل تاريخ الجابون معروف من خلال أعمال كي إدي بوشان، وب. فرين، ب. بلنكوف، وا. بومري. وهنا أيضا تعتبر المعلومات محدودة ولم توضع رسوم طبقية أرضية بصفة دقيقة. ان أول الأعمال التي وقعت بامبراطورية وسط أفريقيا هي أعمال الاستاذ لاكروا، الذي اكتشف سنة ١٩٣٠م، أدوات لما قبل التاريخ في طمي الأنهار من مرتفع موكا. ولقد نشرت تلك الاكتشافات سنة ١٩٣٣م من طرف القس ه. بروي، وأشار في نفس السنة فليكس ايبوي في دراسة اثنوغرافية، الى بعض الادوات الحجرية المكتشفة إثر أعمال مختلفة. وانطلاقا من ١٩٦٦م/١٩٦٨م أجرى ر. دي بايل دي هرمنس بحوثا منهجية في البلاد. ولقد سمحت المنشورات التي تلت ذلك بالوقوف على فكرة واضحة عن صناعات ما قبل التاريخ وجدت بمنطقة لم يكن يعرف عنها شيء.

ان ما قبل تاريخ الكرون لم يكن معروفا حتى السنوات الاخيرة واستدعى ذلك انتظار أعمال ن. دفيد، ون. هرفيو، وأ. مارلياك، لاعطاء لمحة عامة عن منطقة افريقية أخرى تنتظر الاستكشاف. أما فيما يخص أنجولا، فلقد اهتم بها ج. ينمرت وه. بروي، وج. د. كلارك الذين قاموا بأعمال تتعلق بالمناجم الغنية بالطمي المستكشفة في ورشات الألماس.

## أسس الترتيب التاريخي

سنعتمد في هذه الفقرة على أعمال الترتيب التاريخي الخاصة بالدهر الرابع لحوض الزاير التي وضعها ج. مرتلمس (١٩٥٥م - ١٩٥٧م) والتي تعتبر بحسب المعلومات الحالية مقبولة جدا.

### المطار الكاجيري

يبدو أنه أهم مطار من المطارات الاربعة التي تتابعت. فهو حقة من الحفر الداخلي المكثف الطارئ على الأودية ومن تشكل مسطحات عتيقة جدا من الحصة التي تحوي أقدم صناعات الزاير ان هذه الصناعات التي تكاد تكون في مجموعها من الحصة المهيأة، تصنف ضمن ما قبل الأشولي الأسفل (كفوان، ج. مرتلمس). ولقد أعقب جفاف كبير المطار الكاجيري وكسا المسطحات العتيقة وعنة (Latérite) كثيفة نعثر بها على ما قبل أشولي أكثر تطورا. لكنه غير مرتب ترتيبا تاريخيا صحيحا نظرا لانعدام رسم طبقته الأرضية.

### المطار الكاماسي

يوجد هذا المطار بالطابق النهائي من البليستوسين الاسفل ويشمل كل البليستوسين الوسيط. وهو ينقسم في الواقع الى مرحلتين تفصلهما مرحلة أكثر جفافا. وتتصل بهذه الحقبة، في حوض كنساي مسطحات من ٣٠ مترا و ٢٢ - ٢٤ مترا. وكذلك تتصل بها في شابا (كتنجا) وفي غرب امبراطورية وسط افريقيا على ما يبدو حصباء المسطحات وأعماق الأودية المسماة طالويك (Thalweg). ، والمجاري الاحفورية لداول الماء، ولقد حدث في ذلك الوقت بمناطق ذات تضريس أرضي قليل النتوء ردم كامل في بعض مجاري الانهار وحفر نهر جديد، ويوجد بتلك الطبقات العميقة من تلك المجاري الاحفورية أدوات ما قبل أشولية أكثر تطورا من الأدوات التي توجد بمسطحات الكاجيري القديمة. ولقد حدث أن برزت به بعض ذوات الوجهين، الا أن رتبته التاريخية ليست مضبوطة كل الضبط.

ان نهاية المرحلة القصوى من الكاماسي شهدت الاشولي الاسفل يعقب الصناعات ذات الحصة المهيأة. وما زال ذلك الاشولي الاسفل يشتمل على حصة عديدة منحوتة ونلاحظ فيه بروز أدوات جديدة: ذوات الوجهين، والقدومات بصورة خاصة. فهذه الأخيرة التي كانت قليلة جدا في الأول، سرعان ما اتخذت مكانة مهمة بين أدوات تلك الحضارة.

وأعقبها الجزء الأول الاقصى من الكاماسي، مرحلة معتدلة الجفاف، ونشهد فيها تشكل وعينات (تربة حمراء) جديدة، و ردم منحدرات، ورواسب من غرين الانهار، ولقد حدث أشولي. متوسط في تلك الحقبة، وهو يتكون عادة من شظايا يحصل عليها عادة بالقطع الجانبي الذي يوصف «بتقنية فكتوريا الغربية ١» (٣).

(٣) اسم يطلق على تقنيتين من القطع «لوفالوا» المشهورتين خاصة في الصناعات المجموعة قرب شلالات الزمباريفكتوريا (شلالات فكتوريا).

وشهد الكاماسي الأقصى الثاني (٤)، وهو أقل بروزا من الأول، وضع رواسب جديدة من الحصباء، وتشكل مسطحات علوها ١٥ مترا في كساي، وتنتهي الحلقة ببداية فترة جافة تشهد تشكل تفتتية قطع جديدة وهي فكتوريا الغربية ٢، وتطور أداة أخرى هي المنقر الذي سيحتل بالمنطقة الغابية مكانة هامة بمجموع الصناعات التابعة للأشولي.

وتعتبر حقبة ما بعد الكاماسية الجافة أهم ما عرف بتلك المنطقة، ان الفيا في تمتد نحو الجنوب وتمتد صحراء كالاهاري نحو الشمال ويرى بعض المؤلفين أن الغابة الاستوائية قد انقرضت فعلا ولم تظل قائمة الا في مناطق صغيرة غابية. وتراكت رمال حراء صحراوية بكثافة كبيرة أحيانا، فانقرض الأشولي، بل يبدو أنه أخذ يتحول بعين المكان الى صناعة جديدة تدعى سنغون (Sangoen) وذلك بافريقيا الاستوائية والمناطق الغابية خاصة.

ان الادوات تتحول والقذومات ثقل وتنقرض نهائيا، وتصبح الفؤوس اليدوية أكثر وأضخم، وتتوافر المناقر جدا وتظهر بين الأدوات أدوات جديدة: من ذلك قطع ذات وجهين ممدودة لها أحجام كبيرة. ويبدو أن تلك الأدوات ملائمة للحياة الغابية. الا أن ذلك يتنافى مع المحيط الذي تطور فيه السنغون اذا قبلنا الفرضية القائلة بأن الغابة الاستوائية قد زالت بفترة جفاف ما قبل الكاماسي الذي حدث به. ويجب أن نقر أن السنغون هو الآن إحدى الصناعات الافريقية التي لا نعرف عنها الا القليل.

## المطار الكمبي

شهد المطار الكمبي عودة تشكّل الغابة الاستوائية بينما أخذت الأنهار تحفر الاودية وتضع طمي المسطحات المنخفضة، وهو طمي يتكوّن من الرمال الريحية المتراكمة إثر الجفاف الأخير. وقد تطور السنغون بالزواير الغربي وبكساي نحو صناعة جديدة أقل ضخامة، وهي اللومبي، الذي يعتبر صناعة تنسب الى الحضارة الغابية. وشهدت المناطق الجنوبية الشرقية الصناعات المقاربة لصناعات جنوب افريقيا والكينيا، وهي صناعات شظايا وحدود تشبه في مظهرها الصناعات المستيرية وتعرف بعبارة «العصر الحجري الوسيط». ولم تحدد، سواء ضمن طبقتها الأرضية التي كثيرا ما تكون معدومة، أو ضمن الأنواع المعروفة.

## الماكالي والنكوري، مرحلتان رطبتان بعد الكمبي

تعتبر هاتان المرحلتان أقل بروزا من الميطارات السابقة وتندرج بينهما مرحلة قصيرة جافة. والنكوري غير معروف معرفة واضحة جدا بحوض الزاير. وقد حفرت الأنهار في الماكالي قليلا بجراها ثم حدث ردم جديد. وفي عين المكان تطور اللومبي وأصبحت الأدوات صغيرة أكثر فأكثر بينما أصبحت القواطع، وحدود الأسهم وافرّة جدا بالثشيتولي، وهي حضارة الصيادين. وتطورت بالزاير الشرقي، وفي شابا وفي أنجولا مظاهر عدة تضمنها العصر الحجري المتأخر، هي مجموعة تستوجب النظر

(٤) يعتبر بعض المؤلفين هذا الكاماسي الأقصى الثاني «الكنجري» وذلك ما يشكل ٤ حقبات رطبة عوضا عن ثلاث، أحدها ذات مرحلتين متميزتين.

فيها من جديد لأن صناعات عديدة مختلفة ومتنافرة قد أدرجت فيها حتى أصبح من العسير ضبط موضعها بدقة في الترتيب التاريخي.

ولقد اكتسحت الصناعات الحجرية الجديدة مدة الحقبة الرطبة النكورية وبعدها، والتي منها التشيتولي، اكتسحت افريقيا الاستوائية حيث يبدو أنها دامت بها أكثر مما دامت في مناطق أخرى، ولم تدخل حضارة النحاس والحديد الا في عهد متأخر جدا بتلك المنطقة ذات المنافذ الصعبة، وذلك واقع يبين مرة أخرى تطور حضارات ما قبل التاريخ بعين المكان.

## صناعات ما قبل التاريخ بحوض الزاير

### صناعات ما قبل الأشولي

هناك صناعات في ما قبل التاريخ قديمة جدا ومتكونة من حصاة مهشمة وهي معروفة حق المعرفة بحوض الزاير بأجمعه. فهي مخفية عادة تحت الوعناات القديمة مثلها هو الشأن بحوض كفيلا العليا بالزاير وفي امبراطورية وسط افريقيا، وذلك في شكل التكوينات الوعية من مرتفع سالوبصغا العليا، حيث توجد أيضا بالطمي العميق من المجاري الاحفورية التابعة لجداول وأنهار تلك المنطقة. وهي مندجمة بأنحولا في طمي عميق ذي عناصر ثقيلة في عدة جداول.

ان هذه الحضارات القديمة في ما قبل التاريخ المعروفة «بحضارة الحصاة المهيأة» و«ثقافة الحصاة» و«بالعصر الحجري المبكر» تحمل أسماء مختلفة بحسب الأماكن ومؤرخي ما قبل التاريخ الذين أشاروا اليها لأول مرة. وهي تندرج كلها في حركة تطويرية بطيئة لتقنيات النحت الذي دام ما يقرب من مليوني سنة.

### الكافوي

ان الموقع الذي أخذ منه اسمه يوجد بوادي كافوي في الأوكاندا. وقد اكتشفه أ. ج. وايلند سنة ١٩١٩م. ان صناعته متكونة من حصاة الأنهار انتزعت منها ثلاث شظايا في ثلاثة اتجاهات رئيسية وقل أن تكون في اتجاه واحد، فيتكون منها هكذا قاطع خشن. وينقسم الكافوي حاليا الى أربعة مستويات: الكافوي البائد، والكافوي القديم، والكافوي الحديث، والكافوي المتطور. ان هذه المراحل الأربع معروفة في نسونكييزي بجنوب الأوغندا بالمسطحات على علو ٨٢ الى ٦١ مترا. ويقترب الكافوي المتطور جدا أو يشبه أحيانا الأولدواي. و يعتبر بعض مؤرخي ما قبل التاريخ أن المستويات القديمة من الكافوي ليست أدلة على أن تلك الأدوات انسانية، بل أن الحصاة المهترسة التي توجد بها ناتجة عن كسور طبيعية.

### الأولدواي

ان الموقع الذي أخذ منه اسمه هو أولدواي بطنزانيا بسهل سرجنتي، كان اكتشفه كات

وينكل سنة ١٩١١م وأصبح مشهورا ابتداء من ١٩٢٦م إثر أعمال واكتشافات ل. س. ب. لايكلي.

ان فج أولدو واي يشق بعمق ترسبات بحيرة من البليستوسين المتوسط والأعلى، وقد وقع فيه تعريف أحد عشر مستوى «شلتو أشوي» فوق ما قبل الأشوي الذي يشكل الأولدو واي. ان الأولدو واي صناعة متكونة من حصاة الانهار إلا أنها في العادة أقل انبساطا من حصاة الكافوي. ان نحتها يعتبرها أكثر تطورا، وحدها منحرج يُحصَلُ عليه بالنزع المتعاقب الذي أدى في آخر مرحلة من هذه الصناعة، الى إيراد حد يؤذن بحضارات ذوات الوجهين. فالأولدو واي معروف في شابا بالغرب من امبراطورية وسط افريقيا، (مناجم الطمي في صنغا العليا). و يبدو أنه موجود بالشمال الشرقي من أنجولا. الا أنه رغم اكتشاف بعض الحصى المهيأة بالكرون، والجابون، وبالكونغو برازافيل، فلم يحدد مكانه بالضبط بتلك الأقطار الاخيرة الجافة المحاذية لخليج غينيا.

## الأشوي

الأشوي حضارة ممثلة أحسن تمثيل بحوض الزاير وتوجد منه ثروة خارقة للعادة ببعض مناجم الطمي أو بالمسطحات. ان تقسيمات الاشوي الى أربع أو خمس مراحل — وذلك حسب المؤلفين — تناسب خاصة تقنيات نحت الادوات واتمامها. فهي نوعية أكثر مما هي طبقية أرضية، وتتكون المناجم الأشوية في جلها من طمي مجاري المياه القديمة، وهذا الطمي مترسب في شكل مسطحات، وفي شكل حصباء أو رمال تلمعة أو في مجار أحفورية من الانهار الصغيرة التي تحولت مجارها، ان الصناعات غير موجودة بعين المكان. فلقد نقلت، وتركزت بعامل السيلان واكتكت من جراء الزحل، وعلى هذا الأساس فان دراسة الأشوي في هذه المناجم تركز ... على علم الأنواع لا على طبقات الأرض، مثلها هو الشأن بأولدو واي حيث تتميز الترسبات البحرية المشتمة على الصناعات، بقوة تقدر بمائة متر.

وتختص الصناعة الأشوية بأدوات متنوعة جدا وأكثر تعقيدا مما هو موجود بحضارات ما قبل الأشوي. وما انفكت الحصاة المهيأة موجودة به الا أنها أصبحت تقل كلما تطورت الصناعة من دون أن تنقرض نهائيا. ولقد تبوأ أدوات جديدة أهمية كبيرة: أي ذو الوجهين أولا، وهو أداة كما يدل عليه اسمها منحوتة على الوجهين من حصاة أو من شظية. ان شكلها ملوّز، وحدها متفاوت بؤروا وقاعدتها كثيرا ما تكون مستديرة، ومقطعها كثيرا ما يكون عدسيا وأحجامها متنوعة جدا. وتوجد آلة أخرى مهمة وهي القدوم الذي يختص بحدّ مقابل للقاعدة ومنحوت من شظية، ويضاف الى الأدين مناقرو، وهي ليست وافرة في الأشوي الأسفل والوسيط ولكنها متوافرة في الأشوي الأخير. الى هذه الأدوات الأربع تصاف شظايا عديدة متنوعة هذبت لتكون مكاشط، ومحكات وأدوات أخرى أقل تهذيبا، مثل قطع الخز.

ان تفرع الاشوي المرتكز على علم الانواع وعلى تقنيات القطع ينقسم الى خمس مراحل:

## الأشولي ١

(الأبفيلي أو السيلي القديم حسب بعض المؤلفين).

ان الأدوات تتكون من شظايا كبيرة، حصلت من تهشيم قطع صخرية على سندان ثابتة. وتستعمل تلك الشظايا الكلاكتونية خاما وكثيرا ما تستحيل الى ذوات وجهين والى قدومات، وهي أدوات ثقيلة وخشنة وحروفها الجانبية متعرجة جدا. ولم ينقرض نحت الحصة المهيأة لكنه تطور لأن بعض ذوات الوجهين ذات «القاعدة المتحفظة» يتمثل فيها التكامل وغاية ما وصل اليه نحت الحصة في ما قبل الأشولي.

تمثل هذه المرحلة في شابا مناجم كاموا، ولونيا، اللتان اكتشفهما ف. كبو، وهي ممثلة أيضا في أنجولا الشمالية حيث توجد منها آثار بحوض لومبي. وتنتسب أيضا بعض المناجم بغرب امبراطورية وسط افريقيا الى هذه المرحلة وكثيرا ما تكون أدوات الأشولي ١ التي عثر عليها في طمي المسطحات أو الأودية الاحفورية للأنهار، تكون ملساء نتيجة للنقل النهري، وذلك بالخصوص شأن مناجم اللوبو والبنكي بامبراطورية وسط افريقيا.

## الأشولي ٢

(الأبفيلي الحديث أو الأشولي الأسفل).

انه صناعة قريبة جدا من الصناعة السابقة التي يمكن العثور عليها أيضا في حصباء الأنهار بأنجولا وشابا. الا أن أدواتها كانت أقل تكورا وان كانت أجود من حيث النحت الثانوي، من أدوات الأشولي ١، ولقد أصبحت حدود ذوات الوجهين والقدومات أكثر استقامة، على ما يبدو، إثر نحت جديد بنقارة طرية من الخشب أو العظم.

## الأشولي ٣

(الأشولي الوسيط).

توجد هذه المرحلة على السطح فوق حصباء اللوينا، وكاموا حيث يكون الأشولي مندرجا بالطمي النهري. وقد شهد ثورة حقيقية طرأت على تقنيات القطع: وهي تنحصر في تهيئة النواة للحصول على شظايا كبيرة، ان هذه التقنية المعروفة جيدا بافريقيا الجنوبية تسمى «فكتوريا الغرب ١» فهي تدل على ظهور تقنية بروطولفلوية. إن تهيئة النواة تؤدي الى سطح للنقرله وجوه. وتقتطع الشظية جانبيا ثم تهذب باتقان للحصول على ذوي وجهين، أو قدوم أو مكشط. ويكون النحت بنقارة يدوية طرية، فتصنع أدوات منتظمة جدا ومتكافئة وتصبح الحدود الجانبية مستقيمة جدا. وتصنع القدومات حسب تهذيب متعاقب بجافتي الجانبين حتى يصبح لها شكل المعين.

## الأشولي ٤

(الأشولي الأعلى):

في هذه المرحلة تحتفظ تقنيات القطع أساسا بنفس النموذج، لكنها تتحسن (تقنية فكتوريا الغرب ٢) إذ أن الامر يتعلق باقتطاع نواة أكثر استدارة ولها مسطح ذو وجه، تقطع منه شظايا كبيرة لها شكل بصلصة تقع على قاعدة ضيقة وليست واسعة كما كان الامر في تقنية فكتوريا الغرب ١. وهذه الشظايا تصلح لصنع الادوات، وذوات الوجهين والمكاشط والقذومات التي تهذب كلها تهذيبا دقيقا. ان مقطع القذومات يكون منحرفا أو عدسيا، ويوجد هذا الأشولي الأعلى في كاموا بطمي يعود الى عهد الكاماسي ٢، كما يوجد بكساي وذلك بمسطحات علوها ١٥ مترا.

## الأشولي ٥

(الاشولي المتطور والنهائي):

شهد الاشولي النهائي بداية تنوع ثقافي من خلال التغيرات الجهوية المتكيفة مع المحيط المناخي والنباتي. والأشولي مرتبط باقامة الناس على مسطحات متوسطة ومنخفضة ومحففة وقد أضيفت الى التقنيات المعروفة تقنية قطع لوفالوا. أما باقي الادوات فانها لم تتبدل أبدا بالنسبة لأدوات المراحل السابقة. الا فيما يخص الجودة، والاتمام وظهور ذوات الوجهين وقذومات لها أحجام كبيرة جدا، ومنها ما يتجاوز ٣٠ سنتمرا طولا. وقد تطورت ضمن الاشولي أداة وهي النقار المتين الخشن، تطورا كبيرا ولها مقطع مثلث أو شبه منحرف. ان تكييفها لأداء عمل على الخشب باستعمال قطع كبيرة ذات وجهين ومطولة، يؤذن مسبقا بالسنگون المعقد ونجد أيضا كرات حجرية حسنة الصنع وتشابه «البولاس». ولقد توفرت منها مجموعة هامة استخرجت من منجم نهر مانكالا بالغرب من امبراطورية وسط افريقيا. ويوجد هذا الاشولي الاخير في منطقة شابا، بكوا وبنواحي كلينا بالزاير، وهو موجود أيضا بأنجولا، اوربا قرب برزافيل وفي امبراطورية وسط افريقيا، حيث تمثله مناجم نهر نكوري في صنغا العليا.

ان الناس الذين شيدوا هذه الحضارة غير معروفين مع الأسف بحوض الزاير كله، بسبب تهمض الارض الذي لا يسمح بالمحافظة على البقايا العضوية.

## السنگون

ان الموقع الذي أعطى اسمه لهذه الحضارة هو سَنغوباي الواقع على الشاطئ الغربي من بحيرة فكتوريا بطنزانيا. وكان قد اكتشفه ا. ج. وايلند سنة ١٩٢٠م. ان السَنغون صناعة متفرعة مباشرة عن الأساس المحلي للأشولي بدون اعتبار دخول عناصر آتية من الخارج. فهو يؤرخ بآخر الممطار الكانجيري ويمتد طيلة فترة انتقالية بين هذا الممطار والجفاف الكبير الذي تلاه. انها صناعة مجهولة نسبيا ولها مظاهر محلية عديدة يبدو أنها استمرت تتطور تطورا داخليا وتكيفت مع البيئة الغابية وعلى الأقل مع محيط مشجر نسبيا، باعتبار حلول بداية الحقبة





- (١) أثر تاريخي من الاحجار الضخمة في منطقة بيوار في أفريقيا الوسطى (وسط أفريقيا). (كليشيه ر دي بابل دي هرمانس)  
— الاشولي الاعلى، وسط أفريقيا، نهر نفويري، سانغا العليا.
- (٢) بلطة
- (٣) أداة مزودة الوجه (ذات وجهين) (تصوير متحف التاريخ الطبيعي).



الجافة. ولقد تميزت في هذه الحضارة خمس مراحل: ما قبل السنغون، والسنغون الاسفل، والسنغون الأوسط، والسنغون الأعلى، والسنغون النهائي.

ان الأدوات الحجرية السنغونية الوحيدة التي وصلت اليها قد خضعت لتحويلات عميقة بالنسبة للاشولي النهائي الذي سبقها، فلقد كانت ذوات الوجهين في أول تطورها استمرارا للتقاليد الاشولية ثم أصبحت تدريجيا أخشن وأعرض وأقصر، وبرزت في نفس الوقت ذوات الوجهين، القريبة من النقارات ولها طرفان حادان، وعكسا لذلك اضمحلت القدومات بسرعة، وكان للقليل الباقي منها أحجام صغيرة. وكانت حافاتها الجانبية، المنحوتة حسب قطع شظايا كبيرة، متعجرة جدا. وتوجد أيضا حصاة مهيأة، دون أن تكون وافرة. وتتبع النقارات التي ظهرت في آخر الاشولي منزلة هامة ضمن الأدوات فهي تبدو مناسبة لأداء العمل على الخشب نظرا لأحجامها الكبيرة ذات المقطع المثلث، أو المعين أو شبه المنحرف، ولترابطها مع مكاشط عديدة. ان أهم مظهر يلفت النظر يتجسم في ظهور القطع ذات الوجهين، الطويلة والضيقة، المنحوتة قرعا والتي لها جودة كبرى. وتمثل تلك القطع أحيانا ما يقرب من ربع أدوات السنغون. ولقد صنف حسب أنواع مختلفة من الأدوات: النقارات، والمناجر، والمقصات، والمفراصات، والخنماز التي تتربط لتوفر غالبا أدوات متعددة: النقارات القاصة، والنقارات الناجرة، والنقارات المفرصة، والنقارات الخشجية، وتبلغ بعض تلك القطع أحجاما كبرى وتتجاوز ٢٥ سنتمترا طولا. ان هذه الأدوات التي تتبدل من حيث أنواعها أخذت تصغر حجما، طيلة تطور السنغون، بينما بلغ نحتها جودة راقية.

ان السنغون موجود بكثرة بمحوض الزاير، وهو معروف بالزاير في سهل كينشاسا، وشابا العليا حيث يختلف عن سنغون المناطق الغربية، وذلك بانعدام الخناجر والحدود المتورقة. الا أنه توجد في تلك الصناعة بولاسات (Bolas) عديدة، وهي صفائح ذات وجوه أو كرات أثقن صنعها توتيدا، وكذلك شظايا عديدة جدا ومستعملة، ولقد عثر على السنغون في طمي نهر لومبي بكندا، ولوندا بالشمال الشرقي من أنجولا، حيث يوجد مخلوطا في الغالب بصناعات أقدم منه أو أحدث منه، نظرا لموقعه بمصباء منقولة عن موضعها وهو يوجد أيضا في الكونغو برازافيل على الشاطئ الأيمن من ستيني بول، وبالجابون، حيث عثر عليه أخيرا، وهو معروف في امبراطورية وسط افريقيا، في مناجم ذات ثروة خارقة للعادة بالوسط الشرقي من البلاد، حيث وفر الطمي في مشاغل المأس التابعة لنزاكوفي أمبلو، وتيري، وتياغا، وكونو، وفر ذلك الطمي آلافا من الأدوات حفوظ عليها عافظة جيدة وهي مصنفة في السنغون الوسيط أو الأعلى.

ان السنغون لم يتميز تميزا كبيرا في الكرون، وذلك يطرح مشكل توسعه الى غربي افريقيا. فلقد أشار بعض المؤلفين الى وجوده بالسنغال، ان الأمر يتعلق في الواقع بصناعات لها قطع ذات وجهين، متشابهة أو قريبة جدا من السنغون، الا أن موقعها غير مضبوط في ترتيب ما قبل التاريخ. وليس من المستبعد أن تكون مجموعات بشرية قد تحولت نحو الغرب ونحو منطقة الغابة الكبرى، الا أنه لا يوجد الآن ما يسمح باثبات أثرهم.

ان السنغون يتطور، مثلما فعل الاشولي، بعين المكان، دون اتصالات كبيرة مع عالم أجنبي عن محيطه الغابي. ثم أتت من بعده صناعة تسمى «اللومية» في ظروف غير واضحة الى هذا اليوم وهذه الصناعة هي التي نتعرض لها الآن.

## اللومبي

ان اللومبي (٥) حسب التصنيف المقترح بالمؤتمر الافريقي سنة ١٩٥٥ م — هو صناعة من «العصر الحجري الوسيط» الا أنه ينبغي أن نحتاط عند استعمال مصطلح «العصر الحجري الوسيط» إذ أدرجت به مجموعة من الادوات المتباينة التي لم يتضح موضعها وضوحا حسنا. وقد تطور اللومبي عندما عادت الاحول المطارية الى مستواها العادي وذلك في بداية المطار الرابع المسمى «كسملي». وبلغ الأوج في الجزء الثاني من تلك الحقبة الرطبة جدا. وتبلغ مدته ٢٥٠٠ سنة أن أخذنا بعين الاعتبار التواريخ بحسب الزمن المطلق. وكما فعل الأشولي النهائي في تطوره بعين المكان، فقد تبدله السنغون أيضا وتحسن واكتسب تقنيات جديدة في النحت التي ستبلغ أوجها في اللومبي من دون أن تكون لها صلات مع عناصر أجنبية عن الغابة الكبرى التي ظلت تلعب دور الحماية. واحتفظت الصناعة في أول اللومبي ببعض ذوات الوجهين التي انقرضت بسرعة وكانت القدومات مفقودة. أما فيما يتعلق بالقطع، فتظل تقنية لوفالوا سائدة، للحصول على الحدود والشظايا، ويعتمد التهذيب فيه على القرع. وتبقى تقنية لوفالوا مستعملة للحصول على الشظايا، الا ان تقنية أكثر تقدما منها، وهي القطع بحسب الكيأس أصبحت مستعملة للحصول على حدود حسنة الصنع ستساعد على صنع قطع طويلة، ضيقة ومهذبة تهذبا حسنا. ان الدراسات الأخيرة المتعلقة باللومبي ساعدت على تقسيمه الى خمس مراحل:

## ١ اللومبي

فهو محصور في الحوض الغربي كله من الزاير الذي يعتبر فيه كأنه شكل من أشكال تطوره المحلي من السنغون. لقد انقرضت العناصر الاشولية انقراضا تاما وأصبح النحت والتهذيب يعتمدان على القرع. وظلت أدوات السنغون موجودة لكنها تطورت وصغرت من حيث أحجامها المطلقة ولا تتجاوز النقارات والنقارات الناجرة، والنقارات المستوية ١٥ سنمترا، وظهرت مفارص، ومقصات وأدوات قاطعة ومنشارت نحتت من الحدود. لقد ظلت قاعدة الأدوات متكونة من شظايا خشنة ومنها صنعت هذه القطع الجميلة. وفي نهاية اللومبي ١ أخذت تظهر الحدود والخناجر وحروف السهام الحقيقية.

## ٢ اللومبي

لقد عرفت ج. كوليت هذه المرحلة في بوانت كلينا ولكنها معروفة أيضا في سنتلي بول. ان المقصات المورقة الشكل من اللومبي ١ تطورت واستحالت الى ساطور وغوّضت الأشكال المعروفة في السنغون بمقصات ذات حافة مستقيمة، وبنوع جديد من المقصات ذات القواطع المائلة. وتشتمل الأسلحة على خناجر طولها ١٥ الى ٣٥ سنمترا وعلى حدود مورقة الشكل، منحوتة نحتا متقنا ورققا جدا.

(٥) لومبي: موقع يحمل اسم مكان فيا قبل التاريخ في لومبيا بكساي، وهو مصطلح وضعه القس. هـ. بروي.

### اللومبي ٣

عرف من خلال مناجم سطحية في سنتلي بول، وبيع بعض المناجم بأنجولا. ولقد بلغت تقنية النحت في هذه المرحلة أوجها بفضل التهذيب بحسب الضغط. ان الشظايا الحاصلة من القطع بتقنية لوفالوا المتطور، غالبا ما يكون شكلها ثلاثيا أو مستطيلا أو بيضويا. ولقد ظهرت آلات ذات ساق معلاقية، وغمت وأصبحت متوفرة ووجدت بهذه المرحلة أدوات من اللومبي القديم، لكن أحجامها كانت أصغر، ومنها النقارات، والمقصات، وذوات الوجهين الصغيرة، وبعض المكاشط، والبزاقات، ومقدات ذات قواطع مستقيمة أو مائلة ونصال حافتها معكوفة. وتبلغ الخناجر أحيانا أحجاما كبيرة، الى حد ٤٦ سم، أما الحدود فهي مسننة فتكون منها أسلحة فتاكة جدا. ان الحدث الهام هو ظهور حدود السهام من أنواع مختلفة، موزقة الشكل، أو ذات شكل المعين أو ذات ساق معلاقية أو دونها ولها حافات مسننة أحيانا وهي على غاية من الجودة.

ولقد أرخت أنجولا مرحلة متأخرة من اللومبي بحسب طريقة الكربون ١٤، أرخت بـ ١٤٥٠٣ ± ٥٦٠ سنة، أي ١٢٥٥٠ قبل الميلاد. وبالمقارنة مع ما نعرفه بأوربا، فهذه المرحلة تقع في العصر الحجري القديم الأعلى.

### اللومبي ٤

لا يعلم منه الكثير و يكون متميزا بقطعه اللوفالواسي اللاحق.

### اللومبي التشيتولي

يبدو ان هذه المرحلة الأخيرة قد وجدت، باعتبار علم طبقات الارض، في الفترة الجافة التي ينتهي فيها، بافريقيا الوسطى والشرقية، البليستوسين، وذلك ما قبل الماكالي الأول الرطب، ان المناجم المعروفة موجودة على طمي مرمول، أو بقاعدة الطبقة الرطبة التي تغطيه، وذلك غالبا بجزر الانهار. ان تقنية القطع لم تتبدل بالنسبة الى مراحل اللومبي الاخرى فهي دائما تقنية اللوفالواسي اللاحق. أما التهذيب فانه اُضاف الى القرع والى الضغط تقنية جديدة التهذيب الشديد الذي يتميز به الميزوليتي وتشمل الأدوات داسما على مقصات، ومفارص وذوات الوجهين، ولكن انقرضت المكاشط والنصال ذات الظهر، ويضاف الى المقدات «مقد صغين» ذو تهذيب شديد بالحافات، ويمكن اعتباره في بعض الحالات سلاحا ذا قاطع مستعرض. أما حدود السهام فهي تعتبر أكثر تنوعا: أن اشكالها موزقة أو معينية أو مجتحة، وقل أن تكون مسننة أو ذات ساق معلاقية.

وفي أنجولا أرخت صناعة صنفت في اللومبي التشيتولي بـ ١١١٨٩ ± ٤٩٠ سنة. ان اللومبي لم يعرف بعد في امبراطورية وسط افريقيا وفي الكرون. ولكن عثر عليه في الكونغو برازافيل وبالجابون، الا أنه لم يعرف معرفة دقيقة بسبب وضع المناجم في مناطق وعرة.

### الحضارات ما قبل التاريخ الغير الغابية

بينما نجد اللومبي قد عم المنطقة الغابية بالغرب من حوض الزاين، تشهد مناطق شابا وشرقي.

أنجولا نمو حضارات ذات خصائص غير غابية وهي: البروطوستلبائي، والستلبائي والمجوسي. ولقد اتسعت تلك الحضارات اتساعا كبيرا بافريقيا الشرقية والجنوبية.

### البروطوستلبائي

ان الموقع الذي سمي به هوستيل باي، وهو منجم ساحلي من مقاطعة الرجاء الصالح. ان البروطوستلبائي هو صناعة تختص بمحدود لها وجه واحد، وبمحكات، وحجارة محزوزة، وحجارة قذف، وذوات وجهين قليلة صغيرة الحجم، وحدود أشكالها المورقة منتصف وذات مقاطع كثيفة، ومهذبة تهذيبا خشنا، كما تختص ببعض المناقشات القليلة. وتحصل هذه الادوات بتهذيب شديد التحدر.

### الستلبائي

ان الادوات بالستلبائي لم تتبدل الا قليلا من حيث الأساس، بالنسبة للمرحلة السابقة لكن نلاحظ فيها حنكة كبيرة في تقنيات القطع اللولواسية اللاحقة. وأهم ما يستحق التسجيل هو التهذيب بالضغط، المستعمل خاصة لصنع الاسلحة والحدود الشبيهة بالمستيرية ذات الوجه الواحد أو ذات الوجهين والتي كثيرا ما تحتفظ بكعب مسطح. ويوجد ضمن الأدوات في آخر مرحلة معروفة بالكينيا، نصيلات ذات ظهور، ومنقاشات وقطع من دائرة.

ان البروطوستلبائي متوفر جدا في شابا، الا أن الستلبائي قليل بها. وتناسب البقايا الانسانية الأكثر قدما المكتشفة بالزاير الى الستلبائي، وهي تتكون من ضرسين كشفوا مع بعض صوانات منحوتة وحل ذى وجهين، وكان وجدها القس أنسودي فافو، في ثغرات تجمعت فيها العظام في كاكونتوي.

### المجوسي

ان الموقع الذي جاء منه اسم هذه الصناعة هو مجوسي بالأوغندا، واكتشف هذا الموقع وايلند سنة ١٩٢٦م. والمجوسي ثقافة وجدت بها أهم قطع الستلبائي، فهي تتكون من أدوات حجرية صغيرة، منها نصيلات ذات حافات معكوفة، وقطع من دائرة ومثلثات، ومحكات ظفرية الشكل، ومنقاشات صغيرة وحبوب نظم لها رأس النعامة تكتمل بها هذه الصناعة. ويبدو أن المجوسي قد وجد في كتنجا الا أنه لم يعثر منه على موقع معين على وجه اليقين.

### صناعة الميزوليتي: التشيتوي

تسببت في آخر البليستوسين حقبتان جافتان نسبيا في تقلص الكساء الغابي، لا سيما في المرتفعات، ولقد أقام أهل التشيتوي (٦) بتلك الاراضي المعراة من النبات، الموجودة قرب عيون الماء، والتي كثيرا ما تكون بقمم التلال المائدية أو المرتفعات. وتوجد مناجم هذا النوع على نجد

(٦) التشيتوي: مصطلح وضع اعتمادا على أدوات حجرية جمعت من تشيتول في كساي.

بتسكي في ستانلي بول، بسهل كنشاسا وبالشمال الشرقي من انجولا. ان أدواته تختلف باختلاف المناجم، وتشتمل على نسبة كبيرة جدا من الأدوات الغابية ذات الأحجام المصغرة، فنجدها فيها أدوات جديدة أو أدوات قل أن عرفت في الصناعات السابقة: وهي تتكون من منجرات ونصال ذات حد مهذب، وسكاكين ذات ظهور، وخاصة من عناصر حجرية صغيرة وهندسية لها شكل شبه المنحرف، والمثلثات وأرباع البرتقال، والقواطع الصغيرة. وتتميز حدود السهام بتنوع كبير في النماذج والأشكال، فهي مورقة الشكل ومعينية وبيضوية ومثلثة ومجنحة وذات ساق معلقة، ومستننة وذات قاطع مستعرض. وتكاد تكون كلها منحوتة بحسب تهذيب ضفطي، ولذلك أتت على غاية من الجودة. ويمكن أن يعد التشيتوي من ثقافات ما قبل العصر الحجري الجديد الذي ليس له خرف ولا فؤوس مهذبة اذا أخذنا بعين الاعتبار اسلحته التي تقتصر على حد السهم. فهو يعبر في عهد متأخر، عن الثقافات الغابية الافريقية، التي وجدت قبل تطور العصر الحجري الجديد بالزاير الغربي، ويبدو أنه دخيل.

### العصر الحجري الجديد

ان حضارات ما قبل التاريخ الموجودة بحوض الزاير كله، في مفهومه العام والتي سبق ان تحدثنا عنها في الفصول السابقة، تؤلف، ابتداء مما قبل الاشولي الى التشيتوي، المراحل المتتابعة من مركب ثقافي عظيم نما في وسط غابي وتطور بعين المكان، كما قلنا ذلك سابقا، دون أن يتأثر بمساهمات محسوسة دخيلة على تلك الغابة الكبرى.

ان مظاهر العصر الحجري الجديد — وهنا لا بد من أن نبادر الى القول بأنه توجد منه عدة مظاهر مختلفة فيما بينها، وقد تطورت في المطار الاخير القصير المدى وهو الناكوري وكان المناخ في ذلك العهد يشابه تقريبا المناخ الذي نعرفه اليوم. فكان الكساء الغابي أكثر كثافة اذ لم يطرأ عليه عمل الانسان الهدام. وكانت أنواع النباتات لا تختلف مما يوجد منها اليوم.

ولقد زحف تدريجيا أناس لهم حضارة حجرية جديدة تسمى حضارة «الكونغو الغربي»، زحفوا على منطقة ذات غابة مدارية كثيفة جدا. وكانوا قادمين من الشمال، بعد أن قطعوا النهر في حوالي منحدرات الماء السريعة في ايسنكيلا. وكان أولئك القوم يحملون معهم تقنيات جديدة ما لبثت ان امتزجت نوعا ما بالتقنيات التي ظلت موجودة بعين المكان. ويتميز هذا العصر الحجري الجديد باستعمال يكاد يكون مقصورا على صخور عسيرة النحت وهي النضيد، والمر والجاديت التي توفر شظايا رديئة المنظر، فتسبب في صنع أدوات رديئة. ان تلك الادوات تتنوع بحسب المواقع فهي تتكون من نقارات خشنة الصنع، ومن مقصات، وحصاة مهيأة ذات حجم صغير جدا، وأحجار مشقوبة أشكالها وأوزانها ومواردها مختلفة جدا، ومن عدد كبير من الفؤوس على الخصوص، وهذه الفؤوس كانت تنحت أولا ثم تصقل جزئيا ثم تنقر وتصقل صقلا جيدا. و يوجد بالزاير عدد من المصاقل المعروفة التي استعملت بدون شك لصقل الفؤوس. ولم تكن حدود السهام مفقودة، الا أن صنعها كان غالبا رديئا جدا، لأنه كثيرا ما كانت تنحت من شظايا المر. وتشتمل هذ الصناعة في بعض المواقع، في إشنكو، على أدوات عظيمة وخاصة المخطافات ذات الصف الواحد أو الصنفين من

التشوكات و يضاف الى هذه الأدوات الحجرية والعظمية خزف وافر منمق أحسن تنميق ومزين يوجد ببعض المناجم.

وتقع مناجم العصر الحجري الجديد في كوانكوالغري، وهي ممتزجة بمناجم التشيتولي، كما تقع على ضفتي نهر الزاير بين البول، وكونكوديافينكا، وفي أماكن عديدة بالكونغوبرازافيل. و يوجد في منطقة أوئيلي، شمالي الزاير، مظهر يشتمل على عدد كبير من الفؤوس من الهيماتيت، صقلت صقلا جيدا. ان مظاهر العصر الحجري الجديد، كما سبق ان بينا، موجود بالكرون والجابون وامبراطورية وسط افريقية. ان منجم باطاليمو في لوباي وفر صناعة من الجاديت امتزجت فيها فؤوس منحوتة بخزف جميل جدا. ويستفاد من التاريخ بطريقة الحرارة المضيفة انها ترجع الى  $380 \pm 220$  سنة للميلاد. ويمكن أن يبدو هذا التاريخ غير عادي لأول وهلة. الا أن الفحص، ومانا من معارف حاليا، يفيدان بأن العصر الحجري الجديد قد دام بمنطقة الغابة الكبرى أكثر مما دام بالمناطق الأخرى وامتد الى حقبة تاريخية. و يبدو أن دخول المعادن الى تلك المنطقة كان متأخرا ويورخ بعض المؤلفين دخول الحديد بالقرن التاسع الميلادي تقريبا.

## آثار النصب الحجرية

نمت الحضارات المكاليتية (النصب الحجرية) الكبرى حسب أشكال متنوعة بافريقيا كلها، ولا سيما بافريقيا الشمالية وبالصحراء. ولقد جهل حوض الزاير تلك الحضارات، باستثناء الشمال الغربي من امبراطورية وسط افريقيا، ولا يوجد أي أثر ميكاليتي بأنجولا، والزاير والجابون وجمهورية الكونغو الشعبية، باستثناء بعض الحجارة المنصوبة بالكرون.

أما في امبراطورية وسط افريقيا فتوجد نصب حجرية عظيمة بمنطقة بوآر، وهي تحتل رقعة أرضية طولها ١٣٠ كلم وعرضها ٣٠ كلم على طول الخط الفاصل بين مياه حوضي الزاير وتشاد. و يبدو أنها غير معروفة في الكامرون، ولا في المناطق الأخرى من امبراطورية وسط افريقيا. ولذلك كانت تلك الحضارة مقصورة جغرافيا على الشمال الغربي من البلاد.

تظهر تلك النصب في شكل جثوات مختلفة الاحجام، يعلوها عدد من الحجارة المنصوبة تتراوح بين وحدات الى عشرات، ويتجاوز علوها بالنسبة الى الأرض أحيانا ثلاثة أمتار. ان الحفريات التي وقعت في العديد من تلك النصب قد كشفت عن بنيتها الداخلية ولم توفر الا عناصر جيولوجية قليلة: مرو منحوت وخزف وبعض الادوات المعدنية، وذلك بالطبقات العليا. لكن الفحم الخشبي المجموع سمح بأن تضبط تواريخ على طريقة ك ١٤ (٧). ان النتائج المتوفرة تفيد تواريخ مهمة جدا. فلقد قدرت الطبقات العميقة من النصب بـ:  $7440 \pm 170$  سنة قبل الحاضر أي ٥٤٩٠ قبل الميلاد، و  $6700 \pm 140$  سنة، أي ٤٧٥٠ قبل الميلاد. وقدرت الطبقات الثانية بـ  $1920 \pm 100$  سنة قبل الحاضر، أي ٣٠ سنة بعد الميلاد، و  $2400 \pm 110$  سنة قبل الحاضر، أي ٤٥٠ بعد الميلاد ان هاتين المجموعتين من التواريخ توفران لنا بالنسبة الى أكثرهما قدما، تاريخ تشييد النصب. أما التواريخ الحديثة منها فهي تفيد تاريخ إعادة استعمالها، وهو استعمال تؤكد الأدوات

(٧) انظر بايل دي هرميس، دي فيدال، ب. ١٩٧١م ص ٨١ — ٨٢.



● وعاء من العصر الحجري الحديث ذو  
قاع مسطح (وسط أفريقيا، باتاليو،  
لوبايني)، (تصوير مختبر ما قبل  
التاريخ، متحف التاريخ الطبيعي).



المعدنية المجموعة بالطبقات العليا. ان البحوث الحالية لا تسمح بأن تنسب نصب بوآر على سبيل اليقين الى العصر الحجري الجديد. لكن يمكن أن نقول أن الحضارة التي شيدتها كانت معاصرة له تقريبا.

### الفن الجداري

ان حوض الزاير، بحكم وجوده بين منطقتي الفن الجداري الكبيرتين (الصحراء وجنوب افريقيا) يحتوي أيضا على فن جداري، الا أنه ليس له ما كنا نتوقعه من الثراء باعتبار موقعه. ولقد ترقى في التشاد وفي ايندي وبركو، فن جداري ويعتبر جزءا من المجموعات الصحراوية الكبرى. و يوجد بالكرون موقع من الرسوم على بلاطات أفقية مهذبة أكلها الأجتراف وذلك بشمال البلاد في بيدزار. وهذه الرسوم هندسية أساسا فهي دائرات وحلقات، وتظهر منعزلة أو مجمعة. وتوجد رسوم بأنجولا بمنطقة كالوكا وهي تظهر على بلاطات أفقية ولها مواضع هندسية مثلما هو الشأن بالكرون. ولقد وجدت رسوم تبدو أكثر حداثة بنفس المنطقة كما توجد مواقع غديدة من فترات مختلفة بالزاير. ويبدو أن شأبا أثرى منطقة من حيث الفن الجداري، وتدخل في نفس مجموعة روديسيا الشمالية \* وأنجولا الشرقية، وتختص هذه المجموعة بفن تخطيطي، لا طبعي كما هو الشأن بجنوب افريقيا. ولقد نشر القس هنري بروي سنة ١٩٥٢م الرسوم المحزوزة والمخططة لكهف (كيانطابو (٨)). ونشرح. مرتلنس دراسة تركيبية عن الرسوم الجدارية في شأبا (٩) مؤكدا على صعوبة ضبط تاريخ مختلف الأساليب نظرا لانعدام الوثائق الأثرية. ولقد اكتشفت بلاطات منقوشة بالزاير الأسفل ودام الفن الجداري على عهد حديث جدا في تلك المنطقة. و يبدو أن مجموعات من رسوم جبل كوندو، في أويلي متصلة بطقوس الماء والنار، و يوجد الفن الجداري المعروف بامبراطورية وسط افريقيا بشمال البلاد وشرقيها: ففي الشمال توفر ملاجئ تولو وجبل ملا رسوما عولجت بالمررة الحمراء والسوداء والبيضاء: هي تبرز أشخاصا وعلامات مختلفة، ولكن الرسوم الحيوانية فيها مفقودة. أما في الشرق، فتوفر مناجم لنكو ومبتوقرب باكوما فنا منقوشا على بلاطات أفقية من الوعنة، و يبدو أنه حديث نسبيا. وكان قد صنعه قوم عرفوا الحديد نظرا لوجود سكاكين كثيرة للشرق وحدود نصال مرسومة بها.

ولا يوجد أي شبه بين الفن الجداري بالزاير ونفس الفن بالصحراء. فلا بد أن نتجه الى جنوب افريقيا وافريقيا الشرقية للبحث عن محور تسرّبه. ان هذا الفن قريب مما هو معروف ببلاد البانتو: فهو حينئذ حديث، بل تاريخي، الا أنه مهم فيما يتعلق بدراسة الهجرات وتنقلات السكان بحقبة مجهولة جدا من ما قبل التاريخ، وحتى من تاريخ افريقيا المدارية.

(٨) القس هـ. بروي، ١٩٥٢ ص. ١ - ٣٢، ١٤ لوحة.

(٩) مرتلنس ج. ١٩٥٢، ص ٣٥ - ٥٥، ٩ لوحات.

\* في المطبوع زامبيا عوض روديسيا الشمالية. (تعلق المراجع محمد الفاسي).

## الخاتمة

نستنتج مما عرضناه عن ما قبل تاريخ حوض الزاير أن صناعات ما قبل التاريخ إلى حد الأشوي الأعلى، لم تكن متميزة إلا قليلاً بالنسبة لما هو معلوم بالمناطق الأخرى من إفريقيا جنوب خط الاستواء. فالمركب السنغوي هو نقطة الانطلاق للتنوع الواسع الجهوي بين الثقافات ذات المظاهر الغابية والتي لها خاصية ملحوظة، وهي العزلة التي تكاد تكون تامة والتي عاش فيها أهالي تلك المنطقة إلى أن وصل قوم ينتمون إلى العصر الحجري الجديد، أتوا من الشمال فراراً على ما يبدو من المناطق الصحراوية التي أخذت تستحيل إلى أرض قاحلة.

إن الغابة الاستوائية الكبرى قد لعبت دور الحاجز الطبيعي الذي قلل من الصلات بين الشمال والجنوب من خط الاستواء. ولقد دامت الحضارات الحجرية الجديدة فيها أكثر من أي مكان آخر، في منطقة كانت فيها هذه الحضارات منعزلة ومحمية، بينما كانت مناطق أخرى قد دخلت منذ أمد طويل في التاريخ باستعمال المعادن والحديد.

# ما قبل تاريخ أفريقيا الوسطى

القسم الثاني

فرنسيس فان نوتن

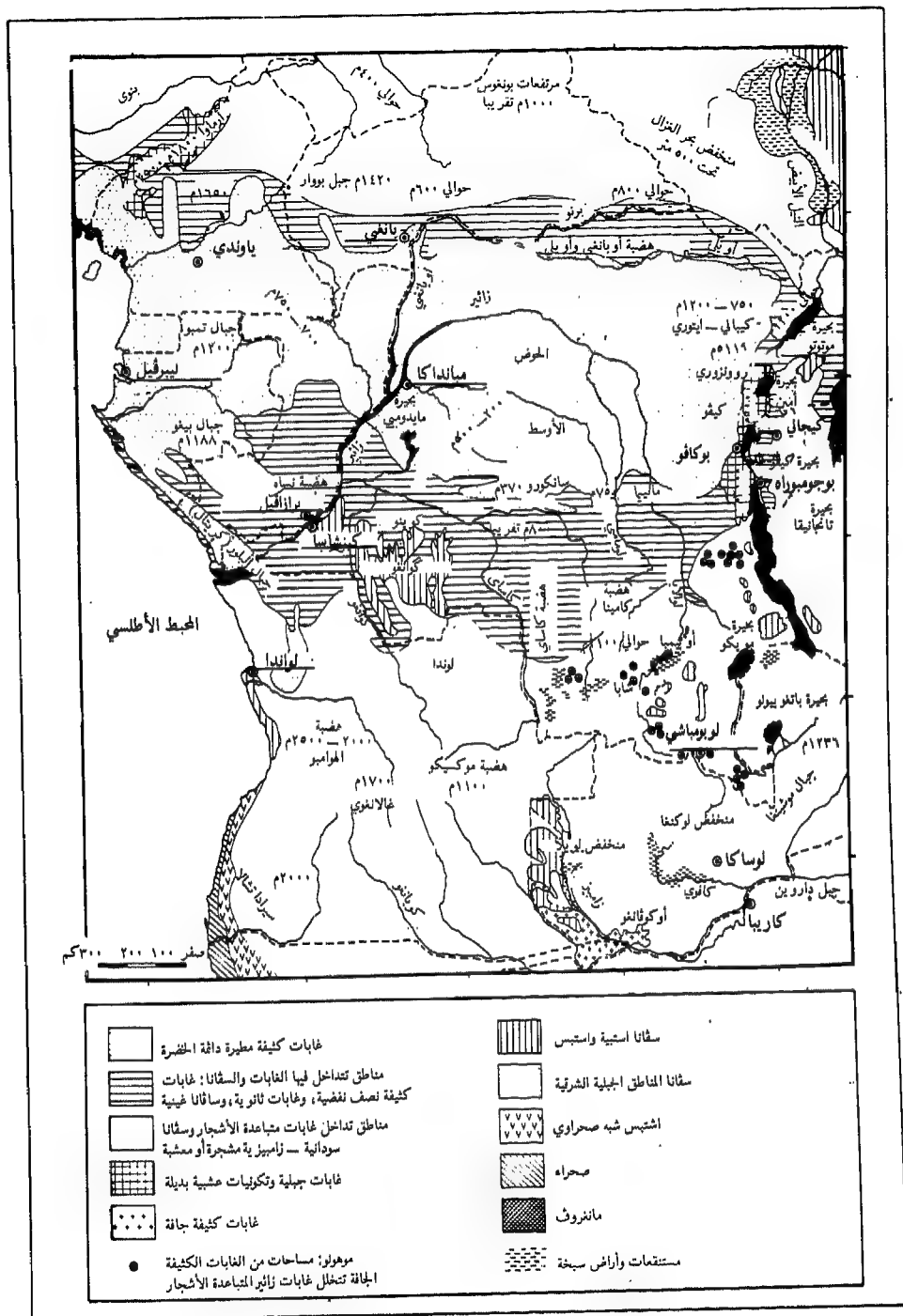
بالاشتراك مع

ب. دي ماري، ج. ميرسن، ك. ميوبا، أ. روش

ان افريقيا الوسطى المعنية بالأمر في هذا الفصل، تشمل الزاير وبعض الأقطار المجاورة، ومنها جمهورية الكونغو، والجابون، وريوموني، وامبراطورية وسط افريقيا ورواندا، وبروندي وأنجولا. ولقد جذبت هذه المنطقة من القارة منذ القرن التاسع عشر الأثريين، الا أن الأبحاث بها ظلت مبعثرة.

ان الباحثين الأولين الذين اهتموا بافريقيا الوسطى أرادوا قبل كل شيء أن يعثروا على حقبات تشابه الحقبات الموصوفة بأوروبا. فلقد حاول ستاينيه وضع دراسة أولى مجملة سنة ١٨٩٩م، لكن الفضل يعود الى ج. كوليت في القيام بحفريات ابتداء من ١٩٢٥م (بكاوت ١٩٣٨م). ومع هذا نستطيع أن نقول أن البحث العلمي لم يتوسع توسعا حقيقيا الا بعد الحرب العالمية الثانية. ومن ذلك الحين وقعت دراسات منظمة كان قد قام بها ج. د. كلارك في زامبيا وأنجولا، و. دي بايل دي هرمنس بامبراطورية وسط افريقيا، و. نكني في رواندا وبرندي، و. ج. مرتلمنس و. ج. دي هنزلي، و. ه. فان مورسل بالزاير، وجمعية ما قبل التاريخ الجابونية بالجابون.

أما في الزاير، فقد تقدمت الابحاث منذ تكوين معهد المتاحف القومية سنة ١٩٧٠م ولكن معارفنا ستظل متفاوتة، واذا كان كوليت قد قام بعمل رائد عندما أنجز أول دراسة تاريخية طبقية أرضية، فلم يقتد به أحد إلا نادرا، ولذا فلا تعتمد معارفنا في كثير من أجزاء المساحة



● الشكل ١ خريطة أفريقيا الوسطى مع بيان الأقاليم النباتية.

المعنية الا على مجموعات سطحية. على أنه ينبغي أن ندرك أن علم الآثار يعاني صعوبات كثيرة بافريقيا الوسطى اذ توجد بعض المناطق التي لا تخضع بيسر للحفريات نظرا الى قشرات وعنية كثيفة مثلما هو الشأن بالشمال، ونظرا الى أن التقنيات بالغابة نفسها صعبة.

ان العمل يزداد صعوبة من جراء عوامل أخرى، لأن الأحوال المناخية وحموضة الأرض بصفة عامة لم تسمح بالمحافظة على البقايا العظمية، وذلك ما يفسر انعدامها في غالب المواقع المدروسة، باستثناء اشنكو خاصة وماتوي حيث سهل الوسط الكلسي المحافظة على الأدوات.

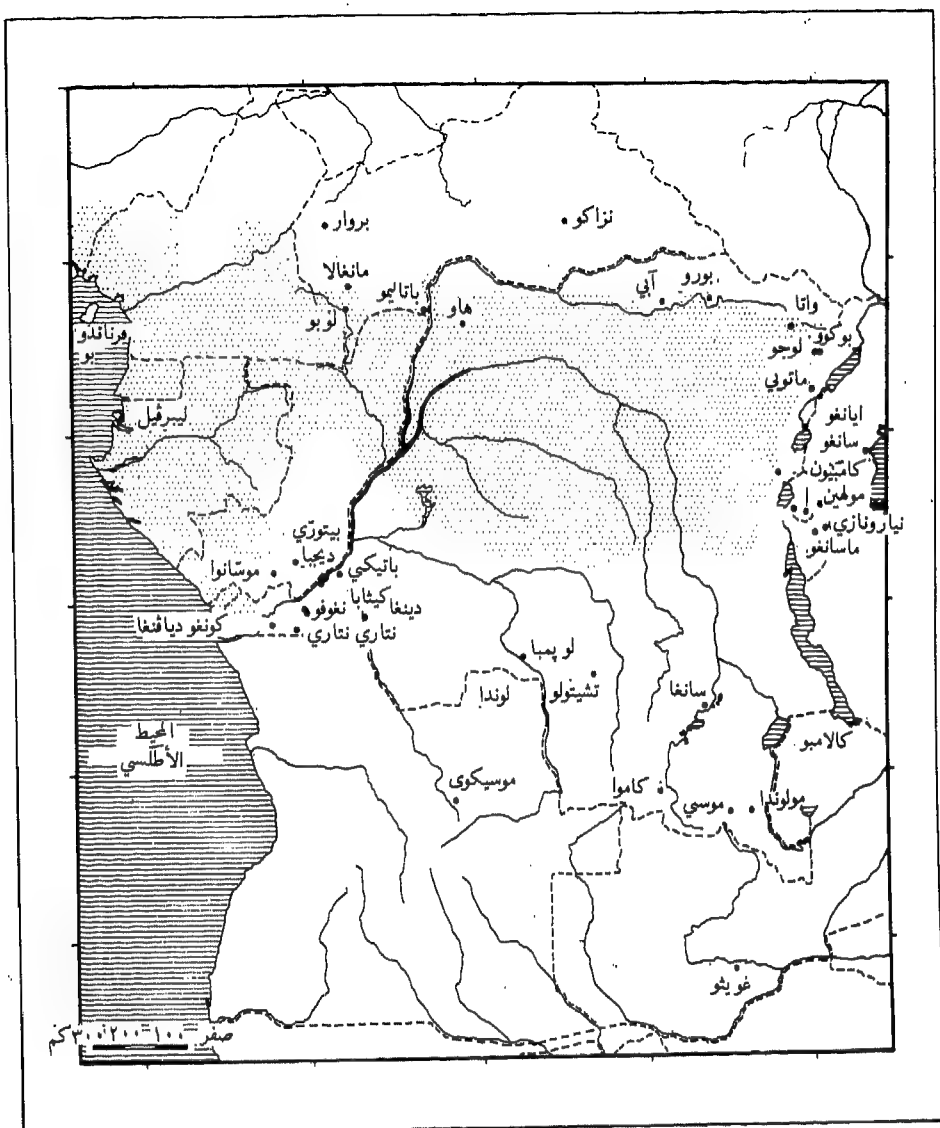
ولقد روجعت مدونة الأسماء بدون انقطاع، وكثيرا ما كانت التقسيمات الفرعية محل نزاع. ولعله يستحيل، من حيث الترتيب الزمني وحتى من حيث النماذج البشرية، تحديد العصور الحجرية المتعاقبة القديمة، والوسطى، والحديثة، وما يتخللها من حقب فاصلة، وهكذا فبعد عدة محاولات في التصنيف الدقيق، لا بد من العودة الى اعتبار تلك المقولات الكبرى نسبية جدا ومؤقتة.

ان دراسة المواقع الجديدة المحفورة والمؤرخة تأريخا نظاميا تشهد بوجهة النظر هذه لنذكر مثلا العصر الحجري الحديث: في سنة ١٩٥٩م، كان ج لاكلارك حدد بداية العصر بحوالي ٧٥٠٠ قبل الحاضر، وفي سنة ١٩٧١م حدد تاريخ كهف منياما بالأوغندا بـ ١٥٠٠٠ قبل الحاضر (حسب فان نوتن، ١٩٧١م)، وبعد ست سنوات قدر تاريخ صناعة الحجارة الصغيرة في ماتوي بـ ٤٠٠٠ سنة قبل الحاضر تقريبا. وهكذا فان التناقضات واضحة بين التصنيف القديم والاستكشافات القريبة العهد.

ففي الحين الذي شرع فيه الأثريون في الاهتمام خاصة بطرق عيش إنسان ما قبل التاريخ، وذلك بدراسة محيطه، في محاولة فهم علاقاته بوسطه، اقتصر ما قبل التاريخ بافريقيا الوسطى طويلا على دراسة النماذج البشرية والترتيب الزمني. ولذا ظلت مكانة الانسان ضئيلة في هذه المدونة.

وعوضا عن أن نضع الفهرست الكامل للمواقع التي لا تشمل هنا الا بعض الاكتشافات بالسطح، فاننا سنعني هنا بالحفريات القليلة الشاملة التي وفرت عناصر لتحديد التواريخ وهي ايشنكو وكومب، وبيتوري، وكموأ، وماتوي وكلمبو، حتى وإن استدعى ذلك دعم المعطيات المبعثرة بمعلومات اضافية وفرتها دراسة أماكن أخرى.

اننا نعتقد اعتقادا راسخا أنه يستحيل دراسة مناطق ثقافية كبيرة معينة. فنبغي ان نكتفي بملاحظة وجود الانسان في وقت معين، دون أن نستطيع الجواب على السؤال: هل نشأ الانسان بعين المكان أو أنه أتى من مكان آخر؟ لاشك انه تكيف من أول وهلة مع أوساط معينة جدا لها مناخها، ونباتها وحيوانها الخاص بها. ولقد استغل الصياد الجاني البدائي تلك الأوساط ليبقى على قيد الحياة، وعندما اختار المادة التي صنع منها أدواته، أخذت حركاته تتحدد. ومن الواضح أن الانسان استجاب بطرق مختلفة تبدي أحيانا خصائص مشتركة كما تبدي في نفس الحين تكيفا جهويا، وحتى محليا، لا يمكن تفسيره بمجرد قدرة الأحوال البيئية المتبدلة، على أنه من السابق لأوانه أن نتحدث عن مناطق ثقافية متميزة.



الشكل ٢: خريطة أفريقيا الوسطى  
مبيّنة عليها أسماء المواقع الواردة في النص.

## الاطار الجغرافي

ان خصائص مرفولوجية المنطقة الشاسعة المدعوة «افريقيا الوسطى» ناتجة عن سلسلة من الحركات التي ابتدأت في أول الدهر الثالث، ويحتمل أنها لما تنته بعد.

يحيط بالحوض المركزي الذي لا يزيد ارتفاعه على ٥٠٠ متر أنجاد وتضاريس ساحلية أو جبال تكونت على الطبقات الجيولوجية التي تغطي قاعدة ما قبل الكامبرية الكرسالية، التي تظهر بارزة في السطح، وهي وعرة ولا سيما في كيفو، حيث ارتفعت أحيانا الى ما فوق ٣٠٠٠ متر، وشقها الانحراف شقا بالغا، وتعلو القاعدة تضاريس أرضية عالية جدا وذلك شأن الانجاد البرلتية (٣٠٠م) من الضفة الجنوبية الشرقية من بحيرة كيفو وآداموا (٢٥٠٠م) والاجهزة البركانية بمنطقة فيرنكا (٤٥٠٠م) ومورست رونزوري (٥١١٩م) ونجد الهومبو (٢٦٠٠م) ولقد تسببت الحركات البنيوية التي طرأت على المناطق العالية في تشكل أخفضات تشمل الخندق الموجود بجنوب افريقيا الوسطى و«هاوية بنوي».

تتميز افريقيا الوسطى بنزول أمطار وافرة باستثناء المنطقة الساحلية بجنوب أنجولا وبحوض كوبنكو- زمبين وتنزل الأمطار باطراد، كامل السنة بالحوض وتمثل نسبة تفوق ١٧٠٠ مم سنويا. وتبلغ على سواحل الجابون وريوموني، والكرون ٤٠٠٠ مم. أما في المناطق الاخرى التي لها فصل جاف (٣ الى ٧ أشهر) فيبلغ نزول الأمطار ٨٠٠ الى ١٢٠٠ مم.

ان الغابة الكثيفة الرطبة بافريقيا الوسطى والتي تنمو في نظام مطري مرتفع، بين ٥ درجات شمالا، و ٤ درجات جنوبا، تغطي حوض الزاير، ومعظم جمهورية الكونغو، والجابون وريوموني، وجنوب الكامرون. وتتحول تلك الغابة شرقا، بعد تشكيلات انتقالية، الى غابات كثيفة جبلية تمتد بين درجتين شمالا و ٨ درجات جنوبا وتغطي القمم والسفوح الممطرة جدا من شرقي الزاير ورواندا وبروندي. وتتفرع عن الغابة الكثيفة في الأماكن التي تستغل فيها غابات جديدة وغابات ثانوية.

وتحف بالغابة الاستوائية غابات كثيفة نصفها مضمحل، وكثيرا ما تكون متدهورة، وتستطيع أن تتحمل فصلا جافا يدوم شهرين الى ثلاثة أشهر. وهي تشكل في الشمال حاشية غير فسيحة من حيث خطوط العرض التي تبتدى من الكامرون الى بحيرة فكتوريا، مروراً بجنوب امبراطورية وسط افريقيا وما بين بومو- أويلي، وتشكل في الجنوب، مع السباسب التي صنعها عمل الانسان، تشكل زخرفا نباتيا يكسو جزءا من جمهورية الكونغو، والزاير الأسفل، والمناطق السفلى من كوانكو وكساي سنكورو، ولوماني.

وتكسو الغابات الخفيفة والسباسب السودانية الزمبازية المنظمة حسب قوس مستدير يحيط بالغابات الغنية الكثيفة، مناطق يدوم فيها فصل الجفاف ما يقرب من ٧ أشهر وذلك في وسط الكامرون وامبراطورية وسط افريقيا، والسودان الجنوبي، وشرقي رواندا وبروندي وشابا بالزاير، وزامبيا وأنجولا.

وتوجد منخفضات مستنقعية على طول الأنهار لاسما على مجرى النيل الأبيض بجنوب السودان، وبحوض ومنخفض أوغبا بالزاير، وبحوض الزمير بأنجولا وزامبيا.

## تطور المحيط

لقد أصبحت إعادة محيط الانسان في ما قبل التاريخ عنصرا هاما من الأبحاث الأثرية. وجرى بافريقيا الشرقية الدراسات الاولى في هذا الصدد. ولاحظ باحثون مختلفون مثل أ. ج. وايلند (١٩٢٩م، ١٩٣٤م) وب. أ. كنت (١٩٤٢م) وأ. نلسون (١٩٤٠م، ١٩٤٩م) حدوث تعاقب في الدهر الرابع بين الحقب الرطبة (المطارات) والحقب الجافة (ما بين المطارات).

وكانت المطارات تعتبر معاصرة لجموديات نصف الكرة الشمالي وسميت من أقدمها الى أحدثها: الكاغيري، والكاماسي، والكبلي. ثم عثر فيما بعد على مرحلتين رطبتين من أول الهولوسين وهما: الماكالي والناكوري، ولقد حاول أ. س. ب. لاكي (١٩٤٩م) وج. د. كلارك (١٩٦٢م، ١٩٦٣م) وغيرهما اطلاقا الاسمين توسعا على أجزاء أخرى من إفريقيا. وقد اكتسبا مفهوما طبقيا نحسوسا بافريقيا الشرقية. وردا على ذلك أبدى مؤلفون مثل ت. ب. أبرين (١٩٣٩م) وه. ب. س. كوك (١٩٥٨م) ور. ف. فلنت (١٩٥٩م)، وف. إ. زونر (١٩٥٩م) وو. و. بشوب (١٩٦٥م) تحفظات تتعلق بتعميم تلك النظرية: لأن الأبحاث التي جرت بافريقيا الوسطى بينت تأخرات هامة تتعلق بالمرحلة المطرة بالمنطقتين.

وكان ج. دي بلوي (١٩٦٣م) أول من اعترف بوجود حقبة نصف جافة بافريقيا الوسطى وذلك بالبليستوسين الأعلى، وهي معاصرة على الأقل في أكبر جزء منها، للتجمد الورمي بأوروبا. ولقد وقع على آثار تلك المرحلة الجافة شابا مؤلفون مختلفون (الكسندر، ١٩٦٥، مايرسن ١٩٧٥م). ولقد وجد ج. دي بلوي (١٩٦٣م) تغيرات أكثر رطوبة نحو ٦٠٠٠ قبل الحاضر وذلك بالزايير الأسفل، ومويس في شابا (الكسندر، رسالة شخصية) وفي موسندة بالكونغو (دلبريس ١٩٧٤، ١٩٧٥)، ان الدراسات الجارية في كاموا بينت أن ذلك التغير قد كان مسبقا بتغير رطب بين ١٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر و٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر، وفصلها تغير آخر في حوالي ٦٠٠٠ سنة قبل الحاضر تسبب فيه اجتراف قصير المدى مرتبط بعودة الجفاف. وقد عاصر التغير الرطب الواقع بين ١٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر و٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر، توسع بحيرات افريقيا الشرقية الذي أثبتته ك. ن. وبوتز (١٩٧٢م). وتدل دراسات دي بلوي (١٩٦٣م، ١٩٦٥م/١٩٦٨م، ١٩٦٩م) بالزايير الاسفل، ودراسات ج. مايرسن (١٩٧٥م) في كاموا على أن أكثر الحقبات جفافا تميزت باشتداد العمليات المرفولوجية التكوينية. وهكذا تعرضت الهضاب في منطقة كنشاسا، مدة الليوبولفي عراء شديدا ونتج عنه ترسب كبير بالسهول. وقد شهدت تلك الحقبة بالكموا، تطورا كبيرا جدا طرأ على السفوح في شكل تقلص حوافي الأدوية وكل ذلك يؤيد رأي ه. رودنبورك (١٩٧٠م) في شأن التناوب بين فترات مرفودينامية توافق الحقبات الجافة والفترات القارة المتميزة بالرطوبة.

لقد تأثر تطور البيئة بافريقيا الوسطى تأثرا بالغا بالاحوال المناخية في الألفيات الخمسين الأخيرة وان الدراسات المتعلقة بالتشكلات النباتية الحالية وتوازنها مع المناخ، وكذلك التحاليل الباليولوجية الخاصة بمختلف المواقع قد مكنت من إعادة الكساء النباتي القديم والاحوال المناخية التي صنعتها.



ففي المناطق الجبلية بالشرق خصوصا، يمكن أن نلاحظ أحسن ملاحظة تغيرات المناخ الناشئة عن تنقل طوابق النبات. ان رسوم لقاحات الخثات (Tourbières) الواقعة على المرتفعات تبين تعاقبا بين نباتات المناطق الباردة، ونباتات المناطق الحارة والرطبة، ثم نباتات المناطق الجافة. وذلك شأن موقع كلمبوفولز الموجود على ارتفاع ١٢٠٠ متر بزامبيا. ولقد اكتشف به ج. د. كلارك وأ. م. فان زندرن باكر، (١٩٦٤م) فترة سنجابية نخلية طويلة بين ٥٥٠٠ سنة قبل الحاضر و ١٠٠٠ سنة قبل الحاضر، مع وجود تغيرين رطبيين في حوالي ٣٠٠٠؛ قبل الحاضر و ٢٨٠٠ قبل الحاضر، كما وجد بداية فترة رطبة هي أكبر، حوالي ١٠٠٠ سنة قبل الحاضر. ولقد انخفضت الحرارة مدة الحقبات الجافة انخفاضا محسوسا وذلك بالمناطق المرتفعة المحيطة بالجرابن (Graben)، وذلك ما كان أشار اليه ج. أ. كوتزي، وأ. م. فان زندرن باكر (١٩٧٠م) بجبل كينيا حيث أثبتا «تجمد جبل كينيا» بين ٢٦٠٠ سنة قبل الحاضر و ١٤٠٠ سنة قبل الحاضر.

ولقد درس ج. د. كلارك وأ. م. فان زندرن باكر (١٩٦٢م) تطور الكساء النباتي بمنطقة لوندرا حيث تحتل غابة خفيفة وجافة ذات أشجار برشستاجيا بين ٤٠٠٠ سنة قبل الحاضر و ١٠٠٠ سنة قبل الحاضر. ثم قامت مقامها غابة أكثر انغلاقا مدة الفترة الرطبة من ١٠٠٠ سنة قبل الحاضر إلى ٥٠٠ سنة قبل الحاضر. ويبدو، اعتمادا على الدراسة الباليولوجية لموقع الكمو التي أجراها، أ. روش (١٩٧٥م) والمكملة للدراسة الجيومورفولوجية لج. ميرسن (١٩٧٥م) أن حقبة جافة حدثت ابتداء من الأشولي النهائي إلى ١٥٠٠ سنة قبل الحاضر. وهكذا شاهدنا تطورا متدرجا للسبب السهبي نحو الغابة الخفيفة التي استحوذت الى غابة أكثر كثافة مع امتداد ممرات غابية ناشئة عن ترطب المناخ ابتداء من ١٢٠٠ سنة قبل الحاضر.

ويبدو، حسب م. ستريل (١٩٦٣م) أن الغابات الخفيفة السنجابية النخلية، والسباسب ذات الأكاسيا قد شهدت توسعا كبيرا بين ٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر، و ٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر، ان ذلك التوسع الذي وقع ابتداء من المنطقة الشرقية من الزمين كان من أثره أن دفع بالغابة الكثيفة نحو الحوض. ويرى ب. دوفينسيو (١٩٥٨م) أنه يمكن اعتبار منطقة شابا ملتقى طرق تعكس فيه النباتات تأثيرات مختلفة غينية كنغولية، زمبيزية وافريقية شرقية.

واعتمادا على نظرية ملنسكفيتش القائلة بتحريك خط الاستواء الحراري، يرى أ. شميستس (١٩٧١م) أن تحولا طارئا على خط الاستواء قدره ٨ درجات نحو الجنوب مدة فترة حارة ورطبة واقعة بين ١٢٠٠ سنة و ٥٠٠ سنة قبل الحاضر، كان من أثره ان تطورت الغابة الكثيفة تطورا مهما واتسعت حتى الزاير كله وحتى جزء من أنجولا، كما يشهد بذلك وجود بقايا من غابة كثيفة جافة ضمن الغابات الخفيفة الحالية. ولقد كانت الغابات أكثر اتساعا نحو الشمال وكانت تغطي أغلب جزء من الكرون، وامبراطورية وسط افريقيا.

ومدة تلك الحقبة الرطبة، ظلت غابات خفيفة وسباسب قائمة بالمناطق التي كانت مواتها لها وذلك بالأنجاد والأراضي الفقيرة. ويحتمل أن تكون أنجاد الزاير الجنوبي وأنجولا لم تعرف أبدا نباتا مغلقا بأتم معنى الكلمة، ولذلك ابتدأت الغابة الخفيفة من تلك المناطق وأخذت تتسع عندما جف المناخ بعد ٥٠٠ سنة قبل الحاضر. الا أن أ. شميستس (١٩٧١م) يعتقد أن ذلك غائد أساسا الى العامل البشري الذي تسبب في الألفية الأخيرة في تقلص الغابة الكثيفة.

وفي الختام، فلقد عرفت إفريقيا من ٥٠٠٠٠ قبل الحاضر الى ١٠٠٠٠ قبل الحاضر فترة طويلة سنجابية نخلية معاصرة للتجمد الورمي، بينما كانت الفترة الرطبة التي ابتدأت في حوالي ١٢٠٠ قبل الحاضر توافق التغيرات المناخية الدالة على بداية الهولوسين، ففي تلك الحقبة الطويلة الجافة التي تخللتها على وجه الاحتمال فترة رطبة في حوالي ٢٨٠٠٠ قبل الحاضر. كانت العمليات المورفودينامية هامة، وشهدت الغابة الخفيفة توسعا كبيرا. ولقد امتدت الغابة الكثيفة في الحقبة الرطبة من أول الهولوسين على أغلب جزء من إفريقيا الوسطى وكان تقلصها الحالي عائدا الى أثر الانسان بها.

## الاستيطان بإفريقيا الوسطى

نظرا الى انعدام عظام بشرية، فلقد ثبت بوجه عام أن الدلائل الاولى على حضور الانسان تتكون من الحصاة المهشمة المسماة «الحصاة المهيأة»، وهي تشابه الحجارة الأولدووائية نسبة الى موقع أولدواي بـطانزانيا. ولقد اكتشفت أشياء مماثلة في أماكن كثيرة بإفريقيا الوسطى وذلك بالزايير، بحوض كساي، وبشبابا، والكمرون، والجابون والكونغو وإمبراطورية وسط إفريقيا وبالشمال الشرقي من أنجولا، حيث عثر عليها بالطمي. الا أنه ليس من السهل ان نعرف ما اذا كان الانسان أو الطبيعة هو السبب في تهشيم تلك الحصاة. وانه لمن الخطأ الشائع أن نعتبر من الأدوات كل الحصى التي فيها أمارات نحت مقصودة والحقيقية أن معظمها إنما هي نواة اقتطعت منها الشظايا. ولقد استعملت تلك الشظايا كما هي، لتكون أدوات صالحة لكل عمل، أو هذبت واستعملت مكاشط ومحكات.

ولم يعثر الى يومنا هذا على مسكن يعود تاريخه الى ذلك العصر. وتعودنا أيضا النماذج الخشبية والعظمية التي كان أكثرها من الأدوات. ويمكن أن نتصور أن الحصاة المهيأة كانت من عمل القرد الجنوبي أو الانسان الماهر. الذي كان، حسب مشاهدات جرت خارج إفريقيا، يعيش عيشة آكل الجيف. الا أن الحياة الاجتماعية أخذت تنتظم ابتداء من ذلك الوقت. وتعود أوائل تلك الحقبة من التاريخ الانساني الى ما يتجاوز ٢٠٠٠٠٠ سنة، ودامت حتى حوالي ٥٠٠٠٠ سنة.

اننا لم نحصل على حجة قاطعة على وجود الانسان بإفريقيا الوسطى الا عند حصولنا على الأدوات الاشولية. ولم يعرف المستوى الأكثر قدما منه، أي الأشولي الاسفل، الا في منطقة لوندنا (كلارك ١٩٦٨م). أما الاشولي الأعلى، الذي كثيرا ما يوجد بالأوساط الجافة، فلقد عثر عليه في أماكن عديدة تحيط بالبحوض الاوسط. ولقد وصفه ج. د. كلارك بأنجولا وج. نكان في رواندا وبروندي، كما وصفه دي بابل دي هرمنس في إمبراطورية وسط إفريقيا، ويعتبر كلبو، في زامبيا، وكمو، في الزايير أحسن المواقع المرجعية منه.

ويتميز الاشولي بذوات الوجهين وقدمات كانت محل محالو تصنيف مرفولوجية عديدة (انظر كاهن، مارتين، ١٩٧٢م). ولقد رأى فيه بعض المؤلفين تحولا من مستوى عتيق الى مستوى أكثر تطورا، وأثبتوا تعاقبا أشوليا من ١ الى ٥. الا أن هذه الفروق في النماذج البشرية ليس لها أحيانا مدلول زمني كبير، إن ذا الوجهين، كما يدل عليه اسمه، هو أداة نحتت على جهتين انطلاقا من

النبات	تطور البيئة	منطقة شابا			المنطقة الغربية				سجل كينشاسا	قبل الحاضر
		منطقة ما بين البحيرات	كاملوسو	كالابو	منطقة لوزدا	ديبا بيتوري	غومبي	موشاندا		
استعداد الغابات الكيفية	تطور في اتجاه المناخ الحالي	↑	↑	↑	↑	↑	↑	↑	↑	↑
مساحات معيشة مستجوبة من الغابات غير الكثيفة والجافة ومن السفانا ذات أشجار المسط و الاستنبه	تطور في اتجاه المناخ الحالي	↓	↓	↓	↓	↓	↓	↓	↓	↓
تأثير بشري: تراجع الغابات الكيفية واستعداد الأشجار للتلوث (السيارات)	تطور في اتجاه المناخ الحالي	↑	↑	↑	↑	↑	↑	↑	↑	↑

● جدول بأسماء الصناعات حسباً أوردته مختلف المؤلفين، وبالتوازي المحددة بالكربون ١٤ والمعروفة حالياً، بتطور البيئة والنباتات.

حصاة أو من شظية كبيرة فهو يتميز بحدّ يزداد أو يقلّ تنوعاً، وله قاعدة تكاد تكون دائماً مستديرة. ويصاحب ذا الوجهين أداة متميزة جداً، وهي القدم الذي ينتهي بقاطع، ونجد مع هاتين الأداتين أدوات أقلّ تميّزاً مثل ثلاثي السطوح، والنقارات، والسكاكين، وكرويات الأشكال، وأدوات صغيرة مختلفة. وإذا كانت الاكتشافات الاشولية متوفرة، فإن المواقع التي تعتبر فيها تلك الصناعة مستقرة بها أثرياً، أو ممثلة بها تمثيلاً منتظماً، قليلة جداً. فالمكان الوحيد الذي عثر فيه على الأشولي في طبقة أرضية يتبع بشاطئ نهر كموا، في شابا (كاهن، ١٩٧٥م). إن هذا الموقع الفسيح يمتد على عدة هكتارات. ولقد ترك فيه الصيادون الجانون الذين سكنوه، أدواتهم، وكذلك بقايا صنع تلك الأدوات، ويمكن لنا أن نعتبر أننا أمام نوع من المشغل — المسكن. ونظراً إلى تناسق هذه الصناعة التي لم تتطور كثيراً، يحق لنا أن نستنتج بأن الأمر يتعلق بإقامات فصلية متتابعة. والمادة مجلوبة من مكان يبعد ١٥ كيلومتر عن الموقع الذي عثر فيه على قطع ضخمة من النواة، مطروحة على الأرض. فلقد كانت الشظايا تنقل إلى الموقع الذي يجري فيه القطع والإتمام، ويشابه الاشولي المتطور أو الأخير في كموا الصناعات التي توجد بالصحراء وبجنوب أفريقيا، فضبط تاريخه بـ ٦٠٠٠ سنة قبل الحاضر يستوجب أن نعتبرها كنهاية، لأن التاريخ الحقيقي يكون حسب رأينا أقدم من ذلك.

إن الاعتماد على اكتشافات جرت بمناطق أخرى بأفريقيا يجعلنا نطمئن إلى القول بأن تلك الصناعة منسوبة إلى الإنسان المستقيم. لقد كان ذلك الإنسان يومياً في حاجة إلى الصيد والجنى لكي يعيش. ونفترض أن الحياة الاجتماعية ما انفكت تتطور وأن الإنسان قد اكتسب السيطرة على النار.

## التطور التكنولوجي والتكيف

يمكن أن نرى، بعد الأشولي، عدة مناطق تعطي صناعاتها، رغم اختلافها، شعوراً بنوع من الوحدة، فلننصو بصفة عامة قسماً غربياً وقسماً شرقياً يمكن له في حد ذاته أن ينقسم إلى قسمين، وإن كان انعدام المعطيات بالنسبة للشمال والجنوب من المنطقة المعنية تجعل من هذه التقسيمات تقسيمات احتمالية. ففي القسم الغربي الذي يمتد من أنجولا إلى الجابون تعتبر المنطقة التي درست أحسن دراسة هي المنطقة التي تشمل الزاير الأسفل، وكنشاسا، ومنطقة لوندأ، وكوانكو، وكساي، أي الجنوب الغربي من حوض الزاير أما القسم الشرقي فهو يشمل منطقة ما بين البحيرات ومنطقة شابا، وبحيرة طنجانيقا.

ففي القسم الغربي، يبدو أنه عثر على سلسلة من الصناعات التي وصفت بأنها تتابع بشري تاريخي: فهناك السنغون، متبوعاً باللو بمبي المتنوع بالتشيتولي. إن السنغون يمثل الانتقال من الاشولي إلى اللو بمبي، ويقع في الحقبة الأولى الفاصلة. أما اللو بمبي فهو يؤلف العصر الحجري الوسيط، في حين أن اللو بمبي — التشيتولي يؤلف الحقبة الثانية الفاصلة. فيكون مآله نهائياً إلى التشيتولي الذي هو معاصر للعصر الحجري الحديث بأفريقيا الشرقية والجنوبية. ولما كانت كل هذه الصناعات امتداداً للتقنية الاشولية، فإنها تختص بنحت الوجهين، وتكون فيها تقنية لوفالو نادرة.

أما القسم الشرقي من أفريقيا فإنه يكشف عن خليط كبير من الصناعات. وهي تشابه

صناعات القسم الغربي، إلا أن نحت الوجهين ليس وافرا. وخلافا لذلك فإن تقنيات القطع المعروفة بالمستيرية، ولوفالو! متطورة بها جدا، والنصال والشظايا النصالية بها عديدة. ولقد طرأت ابتداء من حقبة الانتقال الثانية، تغيرات عميقة جدا وانقطعت التقاليد نهائيا لتحل محلها صناعات الحجارة الصغيرة التي لم يكن لها حسبا يبدو صلة بالصناعات السابقة، ان خصائص هذه الصناعات من نوع السنغون واللو پمي المتوفرة بتلك المناطق تسمح بأن تميز فيها منطقتين مختلفتين: احدهما تغطي القسم الشمالي، أي المنطقة الموجودة بين البحيرات، وتختص بأدوات ذات وجهين، ورقية ونصالية الشكل، وبخناجر. أما الأخرى التي تغطي الجنوب، أي منطقة شابا، وشواطئ بحيرة طنجانيقا، فهي تختص بانعدام «الحدود»، وبوجود أدوات ذات وجهين من نوع المقص أو المفرس، ولعله من المستغرب عدم وجودها في المنطقة الواقعة بين البحيرات، وهذا دليل على خطأ من رأي في هذه الآثار الباقية، صناعات خاصة بالغابة وصناعات خاصة بالسبب، إذ أنه لم يكن حسبا يبدو، منطقة أكثر تشجرا من أخرى في تلك الفترة، لأن المناخ قد كان أكثر جفافا من اليوم ولأن الغابة لم تمتد الا في آخر تلك المدة. ويشهد موقع مسنكو على خاصية صناعات تلك المنطقة التي تمثلها مجموعة من الحدود ذات الوجهين، ومعها عناصر خشنة مثل النقارات. ولقد ثقل بها عنصر لوفالو تمثيلا كبيرا (كاهن، هيسيرتس، فان نوتن ١٩٧٢م)، وقد اكتشف مقطوعة من الصناعات الحجرية تبدأ من السنغون وتنتهي «بالعصر الحجري الحديث»، الا أنها لم تدرس دراسة مفصلة (ننكان ١٩٥٨م).

ولندرس الآن المنطقة الغربية عن كثب. ان صناعاتها تمثل مجموعة العناصر التي وجدناها بالمناطق الشرقية، وذلك ما يجعلها تكتسي تنوعا كبيرا من حيث النماذج، وهذا يتفق مع التصور العام «للسنغون» و «اللو پمي»، فنجد فيها نقارات خشنة قد كانت موجودة بالأشولي ودامت حتى التشيستولي. ان هذه الأداة التي تعتبر أحفور السنغون الرئيسي، خالية في الواقع من المفهوم الزمني، الا أننا نجد أدوات تنتسب اليه وهي مصقولة، ومنها حدود نصال جميلة ورقية الشكل وخناجر طويلة. ثم ظهرت بعد ذلك حدود سهام تدل على أن الانسان قد اكتشف استعمال القوس. ويبدو أن الانسان العارف كان مسؤولا على تلك التكيفات، وان لم يعثر الى الآن على بقاياها. ولقد اكتشف كوليت في قبة كومبي أول تعاقب من الصناعات بافر يقيا الوسطى. فلقد أبرز أربع صناعات: الكاليني والدجوكوسي والندولي والليسيوبولدي، ومعها آثار من عصر الحديد. ولم يأخذ المؤتمر الافريقي الاول لما قبل التاريخ، المنعقد ببناروي في سنة ١٩٤٧م بعين الاعتبار أسماء الصناعات التي عرفها ج. كوليت، وأقر مصطلحي سنغون واللو پمي اللذين لا يعتمدان على أي قاعدة أثرية قوية. ولقد دخلت المصطلحات الجديدة الى علم الآثار واستعملت دون روية لا بافر يقيا الوسطى، فحسب بل خارج حدودها. لقد أعاد د. كاهن سنة ١٩٧٣م و١٩٧٤م (كاهن، ١٩٧٦م) حفر قبة كومبي، وهو الموقع الوحيد المعروف الذي يمكن أن يستخرج منه ترتيب تاريخي، وذلك لضبط تاريخ المقطوعة التي اكتشفها ج. كوليت. ان المقطوعة، باستثناء بعض القطعات التي تعود الى الأشولي، تبدأ في الكاليني الذي يتميز بنقارات خشنة منحوتة على حصة أو شظية، ومكاشط ضخمة، وأدوات مسننة خشنة ومناجر أحجامها كبيرة. ونجد أيضا ذوات الوجهين النصالية الشكل، ومكاشط متقاربة وأدوات ذات وجهين أو وجه واحد، ضيقة لها

حافات متوازية نوعاً ما. يضاف الى هذه المجموعة أسلحة أخرى لها قواطع مستعرضة مركبة على شظايا (قواطع م فيرة) ونواة مستديرة من نوع «الموستيري». وتشمل القطع شظايا لها شكل لوفالوا وبعض النصال الرديئة، إن أغلب العناصر تذكّرنا بالسنگون، وتذكّرنا الأدوات الرقيقة باللومبي وحتى التشيتولي. ويتميز المستوى الموالي، أي الدجوكوسي، بحدود سهام ذات ساق معلاقية أو ورقية الشكل كثيراً ما صقلت بالضغط. ويشابه القطع قطع الكاليني. ويذكّرنا الدجوكوسي باللومبي الحديث في سهل كنشاسا (مورسل ١٩٦٨م) وباللومبي التشيتولي، وحتى بالتشيتولي القديم كما عرفهم ج. مرتلمنس (١٩٦٢م) وج. د. كلارك (١٩٦٣م). ولا يوجد المستوى الثالث، أي الندوي، إلا في شكل تجمعات صغيرة. ويتميز خاصة بحدود السهام الصغيرة الورقية الشكل. وقد كان قطع القططين يجري بعين المكان، وبما يشهد بذلك، وجود «قطع من شظايا عظمية». ولذلك وجب تقريب هذه الصناعة من التشيتولي المتأخر (مورسل ١٩٦٨م، كاهن، مرتلمنس ١٩٧٣م). إن أحد التواريخ المعطاة للكاليني يوافق عصر السنگون (كلارك، ١٩٦٩م، ٢٣٦) ويوافق تاريخ آخر المراحل القديمة من اللومبي (كلارك ١٩٦٣م، ١٨ - ١٩، مورسل ١٩٦٨م، ٢٢١). إن التواريخ المعطاة لعينات من المستوى الدجوكوسي لا تختلف بتاتا عن التواريخ المحسوبة بالنسبة لصناعات مشابهة. فن التواريخ المرتبطة بالندوي، يوجد تاريخ واحد يناسب تواريخ التشيتولي المتأخر المعطاة سابقاً بسهل كنشاسا ومنطقة لوندا.

ويمكن أن نقول بصفة عامة إن الصناعات التي وجدت بالطبقة الأرضية بلوندا، وغومب وبسهل كنشاسا، متشابهة من حيث النماذج، ومتوافقة من حيث التاريخ، فيؤرخ السنگون — اللومبي الأسفل ما بين ٤٥٠٠ سنة و ٢٦٠٠٠ قبل الحاضر، واللومبي الأعلى والتشيتولي بما بين ١٥٠٠ سنة و ١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، والتشيتولي الأسفل بما بين ١٠٠٠٠ سنة و ٧٠٠٠ سنة قبل الحاضر، والتشيتولي الأعلى بـ ٦٠٠٠ سنة إلى ٣٥٠٠ سنة قبل الحاضر (انظر اللوحة ١). لقد وفر خندق استكشاف حفرة ب. دي ماري بكهف ديمبا تعاقبا من ١٥ طبقة أثرية، وتاريخاً يتراوح بين ٢٠٠٠ إلى ٦٥٠ سنة قبل الحاضر، وذلك بالنسبة لصناعة. من نوع اللومبي الأعلى واللومبي — التشيتولي. ويبدو أن تلك الصناعة أقدم من ذلك إلى حد ٢٥٠٠ سنة ق. ح. إن ذلك التاريخ من شأنه أن يسد الثغرة التي أشار إليها كاهن (١٩٧٧م) والتي توجد بالتواريخ بين ٢٧٠٠ سنة قبل الحاضر و ١٥٠٠ سنة ق. ح.

إن كهف هو (Hau) لم يوفر تواريخ راديوكونية مفيدة. وهو الموقع الوحيد الذي ربما كان يوجد بالغابة الاستوائية عندما كان محل إقامة والذي اكتشف به. ف. فان نوتن صناعة لومبي تبعها «عصر حجري حديث».

وقام ج. ب امفرسن ١٩٦٦م بحفريات في كهف بيتوري فلاحظ عشرين مستوى إقامة من العصر الحجري. ولقد أعطى أحد المستويات راديو كربونياً قدره  $3930 \pm 200$  سنة قبل الحاضر، وأعطى مستوى أسفل تاريخاً يقدر بـ  $4030 \pm 200$  سنة ق. ح. وتعتبر الأدوات الحجرية التي لا تتطور من مستوى إلى آخر مكونة وحدة نوعية تذكّرنا بصناعتها بالتشيتولي الأعلى. ولقد أرخ باحث آخر مستوى تشيتولي في موسندا بما قدره  $6600 \pm 1300$  ق. م (دليلير باس ١٩٧٤م، ٤٧).

وفي بلاد الجابون، اكتشفت الصناعات التي تدعي اللو بيمية في مناسبات عديدة (بلنكف ١٩٦٥م، حجي جورجيو، بومري، ١٩٦٥م، فرين ١٩٦٥م).

## الصيادون الجانون المتخصصون

ظهرت في وقت ما، ويحتمل أن يكون ذلك بين ٥٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر و ٤٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، حجارة صغيرة هندسية الشكل على شكل قطع دائرة، ومثلثات ومستطيلات، ومعينات.. ويبدو أن القطع كانت أبرزها، وإن كانت موجودة من قبل في جنوب افريقيا في آخر العصر الحجري الوسيط حيث كانت تستعمل فيه كعذبات بقاعدة حدود النصال (١). أما في العصر الحجري الجديد، فكانت تستعمل تلك الحجارة الصغيرة وحدها لتركيب السهام، والنصال، والمخاطف، والسكاكين والمقصات.

ومثلا سبق، يمكن أن تقسم المنطقة المدروسة الى منطقتين متميزتين، فنلاحظ في القسم الغربي الذي يغطي، أنجولا، وكساي، وكوانكو، والزايير الاسفل، وجمهورية الكونغو الشعبية، نلاحظ دوام التقاليد التي تعرف بالتقاليد اللو بيمية، كما لو ان اللو بيمي، في تطوره بعين المكان، قد أنشأ التشيتوي. وأصبحت الحجارة الصغيرة الهندسية الشكل عديدة الا أنها لم تكن غالبية مثلها هو الشأن بالقسم الشرقي، حيث تمثل فيه العنصر الاساسي للادوات. ان س. ميلر (١٩٧٢م) الذي استعرض التشيتوي ولخص الاعمال السابقة، يعرف هذه الصناعة بوجود أدوات ذات وجهين من نوع المنقار - المقص، وحدود ورقية الشكل، وحدود ذات ساق معلاقية، وقواطع صغيرة، وحجارة صغيرة هندسية الشكل. ان منطقة لوندأ أعطت صناعة تجمع كل هذه العناصر، وإن كانت ممثلة تمثيلا ناقصا بمختلف المواقع. وهكذا أمكن تمييز مظهر ثقافي لواد توفرت فيه القواطع الصغيرة مثلما هو الشأن في دينكا، ومظهر آخر لنجد عثرفيه على سلاح يتألف أساسا من حدود ذات ساق معلاقية (يكيرت ١٩٥٢م). ان الموقع الكائن بنجد باتيكي الذي كان ج. مرتلمنس حفره سنة ١٩٥٩م بهدف انقاذ الآثار، (كاهن، مرتلمنس ١٩٧٥م) قد أعطى صناعة تدعى بالصناعة «الكاملة» مثل التي توجد بمنطقة لوندأ. ان الحث المتعدد الشكل الذي كان عمليا المعدن الوحيد المستعمل في الأدوات المكتشفة، أصله من المناجم التي يوجد أفرها على بعدة عشرة كيلومترات من الموقع. وتختص تلك الصناعة بعدد كبير من الشظايا وبقايا القطع (٩٦١٪)، وبعض النوى (١٤٥٪) وبعض الآلات (٢٤٪). ووجدت بجانب حدود سهام ورقية الشكل أو معلاقية الساق، حجارة صغيرة هندسية الشكل، وشظية كبيرة لها قاطع مصقول. ان أغلب قطع النواة من النوع المستدير أو النصالي. ونلاحظ أيضا وجود عديد كبير من النوى الصغيرة متفتتة تماما. ان التقطيع الذي يتكون من شظايا تهذيب، يشمل بعض الشظايا اللوفلوازية، ونصالا صغيرة. وتلك هي خصائص التشيتوي المتأخر، ويبدو ان هذا الموقع كان مخصصا للصيد، لان نجد باتيكي، وان كان سهبيا تماما، كانت

تقسمه ممرات غابية يتردد عليها انسان ما قبل التاريخ الباحث عن الصيد. ولئن كانت المادة الخام المستعملة مجلوبة، فإن كثيرا من الأدوات كانت تنحت بعين المكان. ويمكن أن نتصور أن لبن النبات والكوبال المعثور عليهما بالحضرات، قد استعملا كمادة لاصقة لتثبيت الحجارة الصغيرة على مقابض النصال والسهام. وكانت المكاشط، والمقاص والسواطير تستعمل لصنع أدوات مركبة توضع فيها القواطع المستعرضة وحدود السهام المعلقة الساق.

وقد وفرت منطقة لوند التي درسها ج. د. كلارك تشيتوليا يمكن أن يؤرخ بما بين ١٣٠٠٠ سنة و٤٥٠٠ سنة قبل الحاضر (كلارك ١٩٦٣ ب، ١٨ - ١٩). إلا أن تلك الصناعة ربما استمرت حتى بداية عهدنا (كلارك ١٩٦٨ م، ١٢٥ - ١٤٩). ويكون تاريخ تشيتولي سهل كنشاسا بين ٩٧٠٠ و٥٧٠٠ سنة قبل الحاضر. (مورسل ١٩٦٨ م - ٢٢١).

ويمكن أن نتساءل: إلى ماذا تشير المظاهر الثقافية الموجودة بالتشيتولي؟ فهل هي تكييفات مع أوساط مختلفة، وهي تعني مثلا أنها نوع من التخصص في تقنيات الصيد، أو أنها ليست سوى فوارق «ثقافية»؟.

نجد في القسم الشرقي، حول الغابة الاستوائية، من امبراطورية وسط إفريقيا إلى منطقة شابا، صناعات تدعى بصناعات «العصر الحجري الحديث». إن أقدمها ليست من حيث علم الأنواع البشرية متنوعة إذ لم تظهر الأدوات المتخصصة إلا متأخرة. وذلك ما لوحظ بكهف متوني حيث كشفت حملتان حفريتان متتابعتان سنة ١٩٧٣ م و١٩٧٤ م عن آثار إقامة بشرية طويلة ابتدأت قبل ٤٠٠٠ سنة قبل الحاضر بكثير (فان نوتن، ١٩٧٧ م). ولقد عثر على الأدوات المدروسة إلى الآن في متر مربع واحد وفر ٨٠٤ أداة. وهي منحوتة على المرو حسب طريقة خاصة بصناعات الحجارة الصغيرة وحدها: وهي تقنية القطبين. وتمثل بقايا شظايا التقطيع ٩٠٪، ولا تزيد نسبة الأدوات في حد ذاتها على ٤٪، يضاف إلى ذلك القطع التي بها آثار استعمال، دون أن تكون أدوات «شكلت» وهي تمثل ٥٪. إن هذه الصناعة صناعة حجارة صغيرة محضبة، ويقرب فيها طول الشظايا الأقصى من ١٧٧ ملم، وقد أعدت كل هذه الأدوات الحجرية لتكون أدوات مركبة. إن الأدوات الحقيقية تشتمل، مرتبة حسب كثرتها، على مغزولات ومكاشط، ومثاقب، ومحافر، وشظايا ونصال حافتها منحنية، وشظايا مهذبة، وقطع مبتورة، وبعض الحجارة الصغيرة الهندسية الشكل (قطع دائرة وأنصاف دائرة، ومثلثات). إن الأدوات الحجرية الصغيرة المنحوتة على المرو، والحل أو الشبيست متكونة من أرحية، ومهاريس، وسندان، وقوارع، ومكاشط وبعض المقصات. ولقد أرخت قطعة حجرية مشقوبة تزينها حزات ب ٢٠٠٠٠ (٢) سنة قبل الحاضر تقريبا. وكانت البقايا العظمية الحيوانية محفوظة حفظا حسنا وتدل على بيئة أكثر جفافا من بيئة اليوم. وكان سكان الكهف يصيدون حسب نظام تنازلي البقرات (الظبي والأبقار الوحشية) والزمل والقوارض (الاسيا الثرمنجديات) والخنزيرات ونادرا القرديات والشيهايم. إن هذا الكهف الموجود اليوم بالغابة

(٢) إن الحجارة المثقوبة المعروفة أيضا باسم (كوي: Kwi)، وهي جزء من صناعات العصر الحجري الحديث من المحتمل أنها كانت تستعمل عصيا للحفر.



الاستوائية كان يوجد في أغلب مدة سكناه بالسبب، غير بعيد عن الغابات الممرات: كما تدل على ذلك التحاليل الباليولوجية. فلقد كانت مسكونة بدون انقطاع بما كانت الصناعة الغير المختصة من الفترة الأولى تتحول الى صناعة كلاسيكية توفر حجارة صغيرة هندسية الشكل، وأدوات عظمية قليلة، وهيماتيتا أحمر كان يستعمل للتلوين ودوائر نظم من قشرة بيضة النعامة. ونظرا الى قلة الأدوات التي تصلح آلات أو أسلحة، وخاصة بالطبقات القديمة، فاننا نعتقد أن الأدوات كانت في جملها مكونة من الخشب كما لاحظنا ذلك في كويشو (فاكان، فان نوتن، ١٩٧٢م).

وقد بينت حفريات إيشانكو التي أجراها ج. هنزليين سنة ١٩٥٠م وجود ثلاث صناعات حجرية صغيرة (هنزليين ١٩٥٧م). لأن كانت الحجارة الصغيرة مفقودة في الأولى، فهي موجودة أكثر بالثانية ومتوفرة بأصغر سنا. ان خصائصها النوعية خشنة بصفة عامة، وتتجمع في التقطيع كل التقنيات ويخضع لطبيعة المرو الرديئة الذي يستعمل مادة خاما. ان تلك العناصر تذكر بدون شك بالتطور المشهود في ماتوني. وقد وفرت إيشانكو سلسلة من المحاطف قد تكون استعملت لصيد السمك وللتنص وهي تبين تطورا ملحوظا ينتقل من نماذج لها صفوف من التشويكات بالطبقات السفلى، الى أمثلة لها صف واحد بالمستويات الأصغر سنا. ومن بين المكتشفات المدهشة عصا صغيرة من العظم تزينها خطوط وتستعمل مقبضا لشظية من المرو. ولقد أرخت صناعة إيشانكو بـ ٢١٠٠٠ ± ٥٠٠ سنة ق. ح، وذلك ما بدا قديما جدا عندما نشرت الدراسة المخصصة للموقع. الا ان هذه النتيجة تبدو اليوم أكثر احتمالا، ان اعتبرنا التواريخ المحصلة في ماتوني. وكان سكان إيشانكو يعيشون من صيد السمك ومن الصيد، لا سيما صيد فرس البحر والتوني وكذلك الثدييات التي انقرض بعضها اليوم. وكانت الطيور تصطاد أيضا، ومن الاسماك المصطادة نذكر خاصة السيلوريات (Silures)، والسيكليديات (Cichlides) والبروتو بثيرات Protopteres. ولقد درس ف. تويسلمان (١٩٥٨م) البقايا الانسانية المكتشفة ضمن مخلفات المطابخ. فهي تفيد بأن الموقع كان يسكنه ناس لا ترتبط صفاتهم البيولوجية المناخية اللانوعية والخشنة بأي ارتباط مباشر مع السكان العصريين من هذا الصنف أو ذاك.

ولقد برزت حدود تلك الصناعات الحجرية المصغرة المحضة، بمنطقة ما بين البحيرات، وبشباب وعلى ضفاف بحيرة طنجانيقا، صناعات بينية نوعيا، فهي بين الحجرية المصغرة المحضة، وبين الصناعات الخاصة بالقسم الغربي من افريقيا الوسطى. ويمكن لنا أن نتصور، نظرا لخصائص تلك الصناعات المتنافرة، أنها تواصل تقاليد العصر الحجري الوسيط الموصوفة أعلاه. ولقد اضطر ج. نينكان الى ابتداء اسم «ولطن/تشيتوني» ليصف العصر الحجري الحديث في رواندا، وبنوندي (نينكان ١٩٦٧م) حيث لم يؤرخ لها مع الأسف الا قليل من المواقع، ويقدر بـ ١٥٠٠٠ — ١٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر، عمر الصناعة الانتقالية لكوا الذي يمكن تقريره من اللوبيمي — التشيتوني للقسم الغربي، وان العصر الحجري الحديث الفير والقليل الاختصاص قد أرخ في نفس الموقع بما قدره ٦٠٠٠ الى ٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر (كاهن، ١٩٧٥م). فيبدو ان تقاليد مختلفة قد تعايشت طويلا جنباً الى جنب، ولذلك فلقد حاذت صناعات ذات طابع مختلط، وصناعات حجرية صغيرة محضة مثلما هو الشأن في موكينانبرا (فان نوتن، هيرنو ١٩٦٧)، وفي بحيرات موكوتو (فان نوتن ١٩٦٨م).

لم تتوفر إفريقيا الوسطى موقعا له ثروة كبرى تسمح بان تستعاد استعادة مفصلة طرق عيش أولئك الصيادين الذي كان سلوكهم في الحياة يشابه سلوك البوشيمان \* في كالا هاري. وقد أعطى موقع كويشوفي زامبيا فكرة كاملة عن طرق العيش بالعصر الحجري الحديث في الألفية الخامسة ق. ح. وفضلا عن وجود أدوات مهذبة، ساعد الحظ مساعدة استثنائية على أن نجد فيه عددا كبيرا من الأشياء الخشبية والعظمية التي تدل على أهمية خدمة الخشب حتى السباسب الخفيفة (فاغان، فان نوتن ١٩٧٢م).

## انتهاء عصور الحجر

ان وفرة الادوات المهذبة في بعض المناطق قد أدت الى اعتبارها علامة على العصر الحجري الجديد، لكن رأينا أنه يمكن وجود تلك الادوات ابتداء من «العصر الحجري الحديث» وأنها كانت مازالت تصنع وتستعمل في القرن التاسع عشر بمنطقة أولي (فان نوتن ١٩٦٩م (ب)). ولذلك فان اكتشاف ادوات مهذبة، خارج كل سياق أثري، لا يعني شيئا، الا ان توزع تلك الادوات ليس خاليا من الأهمية لأن تلك الأشياء لم تلحظ الا بمحيط الخوض الأوسط. وتعتبر تلك الاكتشافات بالشرق نادرة للغاية فلا نعرف في بروندي الا فأسين مصقولين وكهفا له مصاقل (فان نوتن ١٩٦٩م، كاهن، فان نوتن ١٩٧٠م). ولقد ازداد عدد الاكتشافات نحو الجنوب الشرقي اذ وجدت بعض الفؤوس وبعض المصاقل في شابا. أما في كساي فقد عثر فيها فعلا على بعض المصاقل، الا ان الادوات المصقولة مفقودة عمليا (سيليس ١٩٧٢م). وعلى العكس، تمثل تلك العناصر أساس المكتشفات الأثرية التي وقعت بالشمال من الغابة الكبرى. لقد جمعت بمحوض أولي وحتى في ايتوري أكثر من ٤٠٠ أداة منها فؤوس رائعة من الهيماتيت صقلت صقلا دقيقا، ومصاقل عديدة. ولم توضع الى الآن الا خريطة واحدة لتوزع تلك الادوات (فان نوتن ١٩٦٨م (ب)). ان العصر الحجري الجديد «الأولى» لا يتجاوز ولو جزئيا على ما يبدو القرن السابع عشر وينتسب اذن الى عصر الحديد كما تدل عليه الحفريات في بورو (فان نوتن (ف) وفان نوتن (ا)، ١٩٧٤م).

وقد عثر في الناحية الغربية، أي في المنطقة التي يتصل فيها الأوبنكي بالغابة، عثر على تجمع آخر من الفؤوس المصقولة. والكثير منها أقل جودة من فؤوس أولي، وعلى العموم لم تتصلق منها الا بعض الأجزاء. ولم تسمح الاستكشافات بتلك المناطق بالعثور على أدوات مماثلة في اطار أثري. الا أن ر. دي بايل (١٩٧٥م) قد اكتشف في حفرة قام بها بالجهة الأخرى من النهر، في باطاليمو بامبراطورية وسط إفريقيا، وذلك لأول مرة، له قاطع مصقول يعود الى صناعة غير حجرية مصغرة ولصناعة الخزف. وهذه الصناعة الخزفية تتميز بقعر مستو، وهي في العادة مزينة بزخرفة كاسية أو ممتزجة بخديبات، وحزات ودمغات خطت بالمشط. وقد لا يكون ذلك الخزف سابقا للقرن الرابع الميلادي عندما يؤرخ بالحرارة الضوئية، وذلك يعني أنه حديث جدا بالنسبة لتلك الصناعة، واذا كانت بعض الفؤوس المبعثرة قد جمعت في أماكن مختلفة، بامبراطورية وسط إفريقيا، فلا يوجد حسب علمنا مصقل واحد بتلك المناطق.

وقبل ان نتعرض لمنطقة التجمع الأخيرة، يجب ان نشير الى أن فؤوسا مصقولة مرتبطة بالخزف،

\* في المطبوع «السان» عوض البوشيمان تعليق (المراجع محمد الفاسي).

موجودة في بحر الكرون، على جزيرة فرنندوبو، وقد أرخت بالقرن السابع الميلادي (مرتين دل مليون ١٩٦٥م) وظلت مستعملة حتى عهد قريب.

تمتد المنطقة الأخيرة موازية للساحل الاطلسي ابتداء من الجابون الى الشمال الغربي من أنجولا. ان الادوات الحجرية الجديدة التي عثر عليها في هذه المنطقة منحوتة، ولم يصقل منها الا القاطع.

وللفؤوس في الجابون حافات متعرجة تكون لسانا خاصا بها (بومري، ١٩٦٦م). ولقد اكتشف اناء اثر أعمال كبيرة وهو يحتوي على قطعة من أداة مصقولة وفحم خشبي لم يؤرخ مع الأسف (بومري، ١٩٦٥م). ولم يعثر في جمهورية الكونغو الشعبية بأنجولا (مرتز، ١٩٧٦م) الا على مكتشفات سطحية. وبالعكس من ذلك، اكتشف ج. كوليت في بوانت لا كومي فأسا. مصقولا يبدو أن له صلة بالخرف ذي القعر المستوى (بيكرت، ١٩٣٨م) مما جعله يسميه «الحجري الجديد الليوبولدي» وهو مصطلح صار يطلق فيما بعد على الفؤوس المصقولة التي وجدت بالزاير الاسفل. وجمع مرتلمنس (١٩٥٩م) بالسطح، في كونكوديا فانكا فؤوسا مصقولة، ومروا منحوتة غير نوعي، وخزفا خشنا له قعر مستوي. ويوجد نفس الخرف بكهوف نطاوي - نطاوي ودوبا ونكوفو، التي لها صلة في الموقعين الأخيرين بفؤوس مصقولة. ولقد أرخ، في أربع مرات، فحم خشبي مجاور بالقرنين الأخيرين قبل الميلاد (ماري، ١٩٧٧م أ). الا أن الأمر لا يتعلق الا بسبر محدود لا يسمح بأن نستبعد نهائيا نسبة تلك الآثار الى عصر الحديد، لاسيما وان حفريات جديدة تبين ان الليوبولدي في بوانت لا كومي قد يندمج في عصر الحديد (كاهن، ١٩٧٦م). لكن هذا الموقع قد عرف اضطرابات ويمكن ان يتعلق الأمر بمجرد تسرب من الآفاق العليا.

في دمبا ونكوفو، وهو الموقع الوحيد الذي حفظت فيه عظام، فان تحليل الحيوانات التي عثر عليها فيه، لا يدل على وجود حيوانات أليفة. ونظرا الى فقدان معطيات اجتماعية أخرى، فقد يكون من السابق لأوانه ان نعتبرها تنتمي الى العصر الحجري الجديد الحقيقي الذي كان سكانه يستعملون أدوات مصقولة والخزف ويتعاطون تربية الماشية والفلاحة. وكذلك الشأن بالنسبة لجميع الصناعات التي لها مظهر العصر الحجري الجديد والمكتشفة الى يومنا هذا بافريقيا الوسطى. فنحن لا نعرف مستعملها ولا العصر الذي عاشوا فيه ولا نظامهم الاقتصادي. ولقد افترض بعضهم أخيرا ان بعض الآثار المعنيه قد تكون تناسب مستوى نهائيا من العصر الحجري الذي قد تناسبه المراحل الاولى من انتشار السكان الناطقين بلغة البانتو في حوالي الألفية الأخيرة بعد الميلاد أي قبل أن تتقن استعمال الحديد (فليس، ١٩٧٦م، ماري، ١٩٧٧م ب)، فان نوتن، تحت الطبع.

يجب علينا أيضا أن نذكر هنا الحجارة الضخمة المكتشفة بمنطقة بوار. فهي قد تعود الى الألفية الخامسة أو الى الألفية الاولى قبل الميلاد، لكن القضية يمكن ان تتعلق باستعمال جديد (بايل دي هرمنس، ١٩٧٥م). ويبدو أن تلك النصب باعتبار أحجامها تدل على سكان قارين يمكن أن نفترض أنهم تجاوزوا مرحلة الصيد والجنى. ولندكر هنا أن تبليط أبي API بالحجارة الكبيرة ظاهرة طبيعية وليست بتاتا من عمل الانسان (فان نوتن ١٩٧٣م) كما هو الشأن بالنسبة لجميع البنيات المسماة بالنصبية المعروفة الى يومنا هذا بالزاير.

## نظرة مثالية الى الآثار؟

لقد حاول ج. د. كلارك، في المؤتمر الإفريقي المنعقد بداكار سنة ١٩٧٦م، ان ينظم قائمة المصطلحات الخاصة بمحوض الزاير (كلارك، ١٩٧١). وبين كاهن بوضوح، عندما أرخ لمختلف المصطلحات المستعملة للتعبير عن الصناعات التابعة للأشوي بالمنطقة المعنية، أن الأمر يتعلق بخليط عجيب (كاهن، ١٩٧٧م).

ان الحفريات الحديثة في كامبي قد سمحت بالعثور على المقطوعة الأثرية وتاريخها وهي التي عرفها ج. كوليت. الا ان إعادة التركيب من القطع الآتية من أعماق مختلفة بينت أن الموقع قد كان مضطربا كثيرا وان الصناعات ليست متجانسة (كاهن، ١٩٧٦م). فلقد تنقلت الأشياء من مكان الى مكان، كما أكدت على ذلك التجارب المختبرية (ميرسن، ١٩٧٧م). ويحتمل أن طرأت ظاهرات مشابهة بمواقع أخرى حيث وجدت البقايا الأثرية في رمال كالاهاري متبدلة، مثلها هو الشأن بالشمال الشرقي من أنجولا، وبالزاير الأسفل، وكساي، وشابا والكونغو، (كاهن، ميرسن، ١٩٧٧م). ونحن لا نعلم الى أي حد أصاب الاضطراب مختلف الصناعات، ونلاحظ من جهة أخرى توافقا نوعيا وتاريخيا ملحوظا بين مختلف مواقع ما قبل التاريخ بالحوض الجنوبي من الزاير، وبصفة أقل بافريقيا الوسطى. ولقد اقترح د. كاهن (١٩٧٧م) ان تجمع تلك المجموعات في ما قبل التاريخ المتقاربة حسب مركب صناعي واحد ما بعد الأشوي بافريقيا الوسطى، يشمل في البداية افريقيا الوسطى كلها، ثم يتقلص عبر الزمن ليقصر في النهاية على الجنوب الغربي من حوض الزاير.

ان هذا المؤلف يعتبر أيضا ان المصطلحات مثل السنغون، واللوپمي، والتشيتولي لا تعبر عن أي واقع علمي مقرر لكنه يبدو لنا، كما حاولنا تبيان ذلك بهذا الفصل، انه من الممكن ان نميز بعد الاشوي، وخلال الصناعات الحجرية، أنماطا جهوية وأن نتتبع تطورها. وقد يكون في هذا التمييز نوع من التبسيط، ومجال للأخذ والرد، الا أنه يعكس واقعا معينا، يبدو بلا شك أكثر تعقيدا الآن مما كنا نتوقعه. ان تحسین مناهجنا على أساس حفريات جديدة، مكّنا من أن ندرك أحسن ادراك التنوع العجيب الذي توفره افريقيا الوسطى طيلة العصور الحجرية. ان قائمة المصطلحات الموجودة صالحة حسب رأينا لأن يحتفظ بها كأداة عمل مؤقتة.

## الخاتمة

ان ماضي افريقيا الوسطى لم يعرف بعد معرفة كاملة لان دراسته لم تقع الا مؤخرًا بصفة شاملة. ولقد استطاع علم الآثار أن يأتي بشمراته الأولى. فلقد تضاعف خمس مرات عدد التواريخ بالكربون ١٤. وذلك في ظرف بضعة سنوات. (ماري، فان نوتن، كاهن ١٩٧٧م) ويمكن ان نتصور الخطوط العريضة للفرضيات الاولى (فان نوتن، وهي قيد التهييء).

ان الابحاث الجديدة كانت ترمي أولا الى اجراء سلسلة من الحفريات تشمل المناطق وحقبات مختلفة حتى نصل في أجل معقول الى وضع اطار تاريخي طبقي عام خاص بافريقيا الوسطى. ولا بد أن نؤخر هذا المشروع الطموح الى الدرجة الثانية، لأن موقعا هاما مثل موقع كامبي قد قلب رأسا على

عقب لا المصطلحات الموجودة فحسب، بل حتى قيمة الملاحظات الطبقيّة الارضية، ووفرت مواقع أخرى مثل ماتوي صناعات جديدة تشكّك توارخها في دمجها ضمن اطار واسع تجد فيه «صناعات» و «ثقافات» نهائيا «مكانها».

فبقدر ما نكتشف مواقع جديدة، يصبح من الواضح اننا نجد كل مرة شيئا طريفا وغير منتظر، وذلك ما يوافق احدى فرضياتنا العملية التي كانت تتصور تنوعا كبيرا جدا ضمن كل واحدة من «الصناعات» أو «الثقافات». لقد اضطر الانسان، أمام محيط صغير خاص أن يكيف أدواته مع ذلك المحيط. وما علينا الا أن نتصوره في حدود موطنه وهو يعيش عيشة أكثر استقرارا من عيشة الترحال المطلقة التي تنسب كثيرا الى الصيادين الجائنين، فعوضا عن ان يطاردوا دون هوادة حيوانات الصيد، كان أولئك السكان قد طوروا ثقافة خاصة بهم، كانت تركيا متناسقا بين المحيط وتقاليدهم الموروثة عن أسلافهم. ونحن لا نعتقد بجبرية البيئة جبرية مطلقة. فكلما استقر التوازن الميزولوجي، ظلت الادوات قارة طيلة أحقاب طويلة فلعلها تستجيب تماما لمتطلبات البيئة وأولئك السكان. وكلما دام هذا التوازن الدقيق، لم يوجد ما يخرس الانسان على التطور بسرعة.



## الفصل الثاني والعشرون

# افريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ

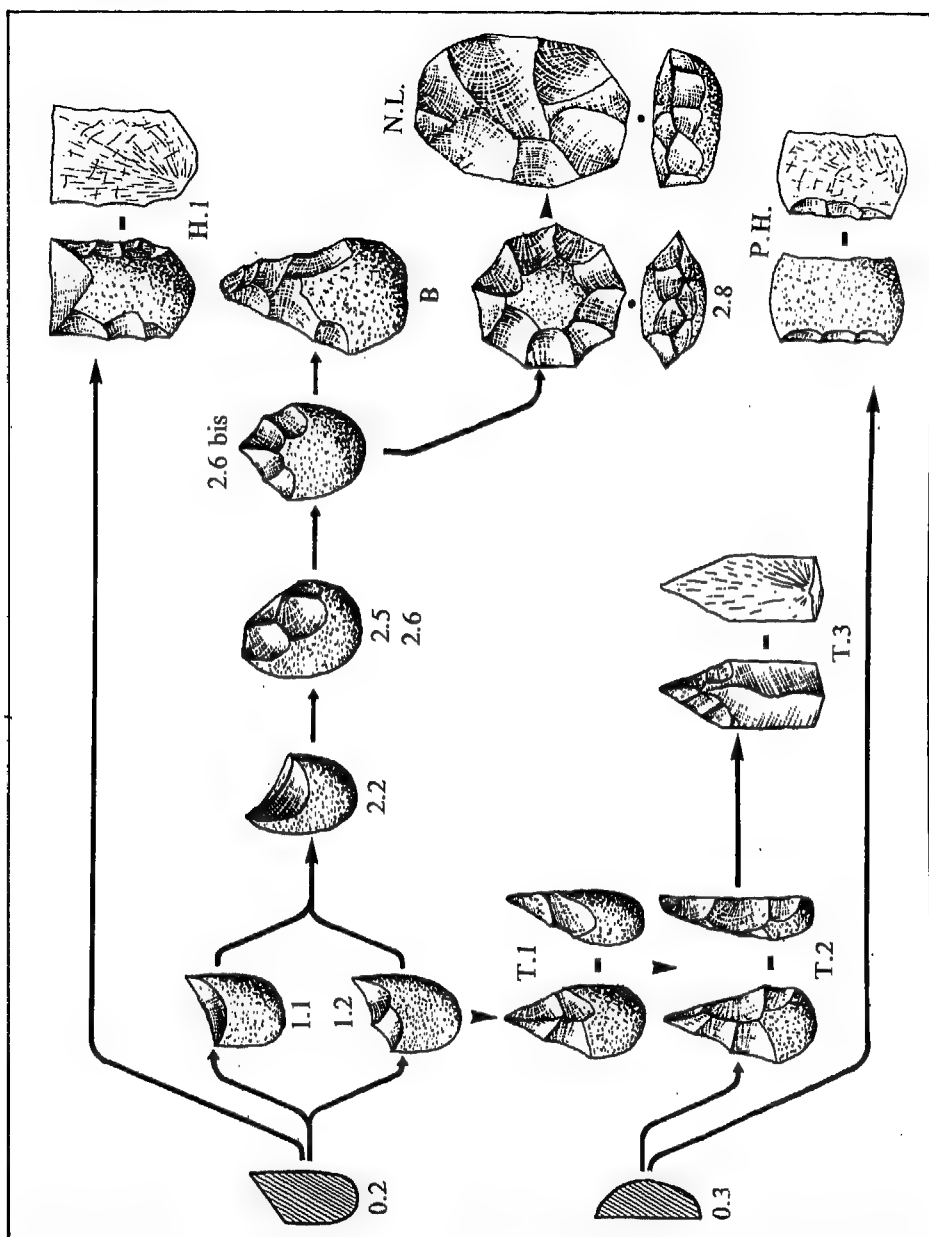
بقلم: ل. بالو.

ان بلدان المغرب نظرا لقربها من أوروبا ولواجهتها للبحر الأبيض المتوسط شمالا، قد جاب فيها منذ أكثر من قرن الباحثون الأوائل الذين كانوا يتطلعون لمعرفة الأحقاب السابقة لتاريخها. فتراكمت بذلك كميات هائلة من المراجع المتفاوتة قيمة فضلا عن الاستدراكات والايضاحات التي عدلتها ودعمتها (والتي أجريت سنوات ١٩٥٢م - ١٩٥٥م - ١٩٧٤م). ومع ذلك فلم يحافظ البحث المتعلق بما قبل التاريخ هذا الجزء من شمال افريقيا على ما كان يتمتع به منذ عهد طويل من تقدم وسبق. فالابحاث رغم كل ذلك متأخرة في ميدانين أساسيين هما:

— طرق التنقيب والحفريات، باستثناء حالات نادرة جدا.

— الترتيب التاريخي المطلق، وهذا راجع أساسا الى امكانيات الاشعاع الكربوني.

ولقد حققت افريقيا الشرقية تقدما أحسن بكثير في هذين الميدانين. فنظرا لانعدام الأحفورات البشرية بالعهد البليستوسيني الاسفل، والتواريخ الحاصلة بطريقة البوتاسيوم أرجون، وفقدان المستوطنات منذ العهد الحجري القديم، لا يمكن لنا اليوم أن نعرف قدم استقرار البشر في المغرب والصحراء الا بالاعتماد على فرضيات حول علاقات الارتباط بين الحيوانات ونمط الصناعات الحجرية. ونظرا لانعدام رسوم طبقية أرضية كافية مساحة وعددا، يَعْسرُ إثبات تواصل الاستقرار الانساني وان كان هذا الاستقرار محتملا جدا. فالمناجم الأساسية معزولة زمانا ومكانا، من ذلك ترنيين (انسان الاطلس) بالجزائر مثلا. ولا تزال مشاكل المستيري وعلاقاته بالعاطري، ومشاكل الانسان الحامل لهذه الحضارة الاخيرة، والانتقال من العاطري الى الايبرومروسي، والرسوم القابسية، والاحداث الخاصة بالعصر الحجري الجديد كل ذلك ينتظر حلا في أغلبها. ولقد



● تطور «ثقافة الحصى» نحو أشكال  
الاشوي: والأرقام تشير إلى التصنيف  
الشملي المستخدم لما قبل الاشوي في  
أفريقيا. H = بلطة. (تصويرم. بوني).



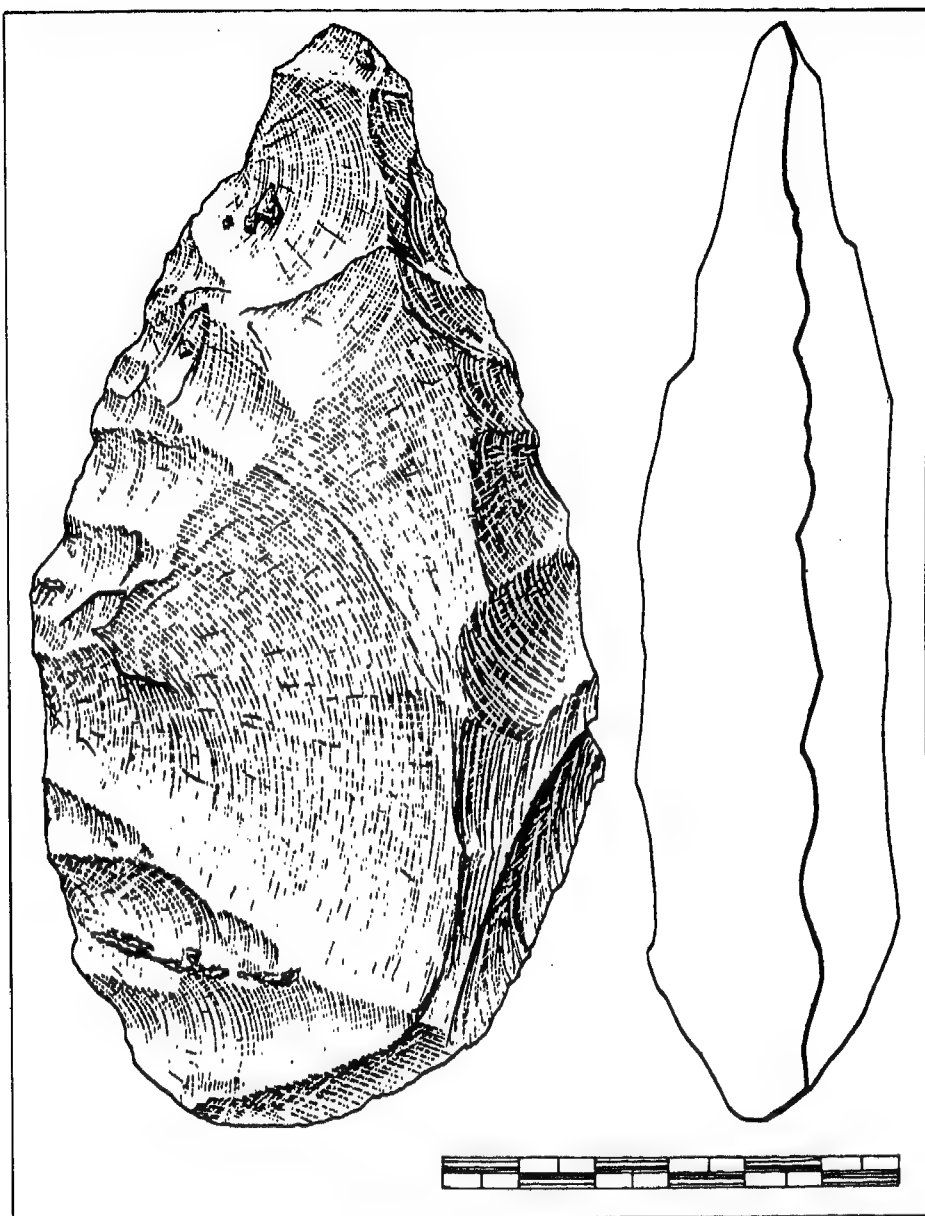
وفرت الأبحاث المتعلقة بما قبل التاريخ الكثير للتعرف على الدهر الرابع، مثل دراسة رسوم طبقية الأرض، والإحاثية، إذ أنها سمحت بإثبات وجود نوع تجاوزت أهميته حدود المغرب. لكن عليها في المستقبل أن تعتنق وجهة نظر إحيائية — اثنولوجية أي التخلي عن دراسة «الإنسان ومحيطه» لتتبني منهجية تعتني أساسا بالإنسان في محيطه.

## أقدم الصناعات البشرية ما قبل الأشولي

إن الشواهد وافرة إلا أن تأويلها تأوؤيلا آخر غير نوعي، يعتبر أمرا دقيقا: فالتأويل يركز على رسم طبقية الأرض في الدهر الرابع بساحل المغرب (بيرسون)، وعلى الإحاثية الحيوانية في الجزائر (عين حنش بالقرب من سطيف، حسب حفريات س. ارمبورك) وبتونس (عين برمية بالقرب من قبلي). وتعتمد على النوعية فقط بالصحراء (رقان، وعين أفلاح، إلى غير ذلك...) وهكذا، يمكن أن ترتبط علاقات تقل أو تكثر متانة بمناجم طانزانيا وكينيا وأثيوبيا. تعتبر تلك العلاقات ضعيفة لأن المناطق المغربية المتاحة لسواحل المحيط الأطلسي هي وحدها التي سمحت بإثبات تطور نوع من «الحصاة المهيأة» على الأسس التي اعتمدها ب. بيرسون والتي أصبحت فيما بعد محل نقاش وشك بصفة جزئية، باعتبار أن الحيوانات ليست بالضرورة متعاصرة، وباعتبار توفر وجود آثار من جهة، وبنية اثرية من جهة أخرى، ونظرا لاختلاف طرق التحليل النوعي المستعمل في إفريقيا المستعملة للفرنسية وإفريقيا المستعملة للإنكليزية، الخ.

وليس من المحتمل في الوقت الراهن أن يكون حضور البشريات في المغرب والصحراء، أقدم من وجوده في إفريقيا الشرقية والجنوبية، لأن الصناعات التي تعتمد الشظايا والتي سبقت الحصاة المهيأة لم تعرف، إذ لا وجود لآثار الثقافة العظمية السنية القرنية. ولا وجود لبقايا الإنسان القرد (قرد الجنوب). وعلى كل فإن كل القرائن تجعلنا نرى أن الحصاة المهيأة الموجودة في كل من المغرب الأقصى والجزائر والصحراء، تنضوي تحت تاريخ مواز لتاريخ الأولدواي، أي بين مليونين ومليون واحد من السنوات (وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار الحصاة المنحوتة من ذوات الوجهين والموجودة بالأومويكون لنا مليونان ونصف من السنوات).

وهكذا انصب المجهود لأقامة علاقة ارتباط زمني طبقي/وتطور نوعي، مما أدى إلى إثبات قوائم نوعية لها انعكاسات زمنية. وهذا ما قام به ب. بيرسون في شأن المغرب الأقصى، وه. هوغو ول. رمنندو في شأن الصحراء الوسطى، وه. آلمين وج. شافايون في شأن الصحراء الغربية. ولقد ارتكز التحليل على الخصائص التقنية التي تسمح ملاحظتها بتمييز أشكال منتظمة. أما التصنيف فيعتمد منهجا أساسه البداية من البسيط والتدرج إلى المعقد، أي الانطلاق من النحت ذي الوجه الواحد، فذوي الوجهين فتعدد الصفحات. ولا شك أن هذا التصنيف يندرج في نطاق الترتيب التاريخي الخططي. ولقد وضع ب. بيرسون في إطار الدهر الرابع بالمغرب الأطلسي، وج. شافايون فيما يتعلق بأراضي السائرة نظما ذات قيمة جهوية على الأقل. واعتمادا على الإحاثية وضعت أشباه الكرات ذات الوجوه التي تنتسب لعين حنش في نطاق تطور حيوانات الفيلافرنشي، كما هي معروفة في المغرب (فواره) وفي الجزائر (عين بوشريط وعين حنش) وفي تونس (بحيرة اشكل وعين برمة).



● أداة ذات وجهين مسن الاشولي،  
وهي الأكثر تطوراً من موقع ترفيفين  
(الجزائر الغربية). حفر يات أرمبورك  
(١٩٥٤)، رسم م. دوقوا.

وعلى كل حال فاننا نعتد على الرسوم الطبقية الأرضية للفيلا فرنشي المؤسسة في جملتها على الاحاث الحيوانية. فتبرز في هذه المجموعة الصناعات البشرية التي يمكن اثبات تطورها نحو ذوات الوجهن والقذومات الخاصة بالعصر الحجري القديم الأسفل، على أنه لم تتوفر لدينا أية بنية أثرية وذلك يعني انعدام أي اطار إحيائي اثنولوجي، عكس ما هو موجود في طانزانيا (أولدوواي) وكينيا وأثيوبيا.

## الصناعات الأشولية

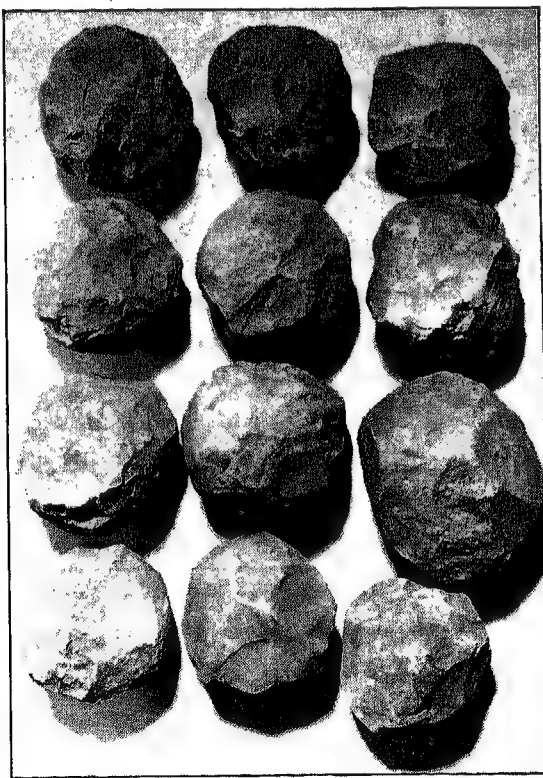
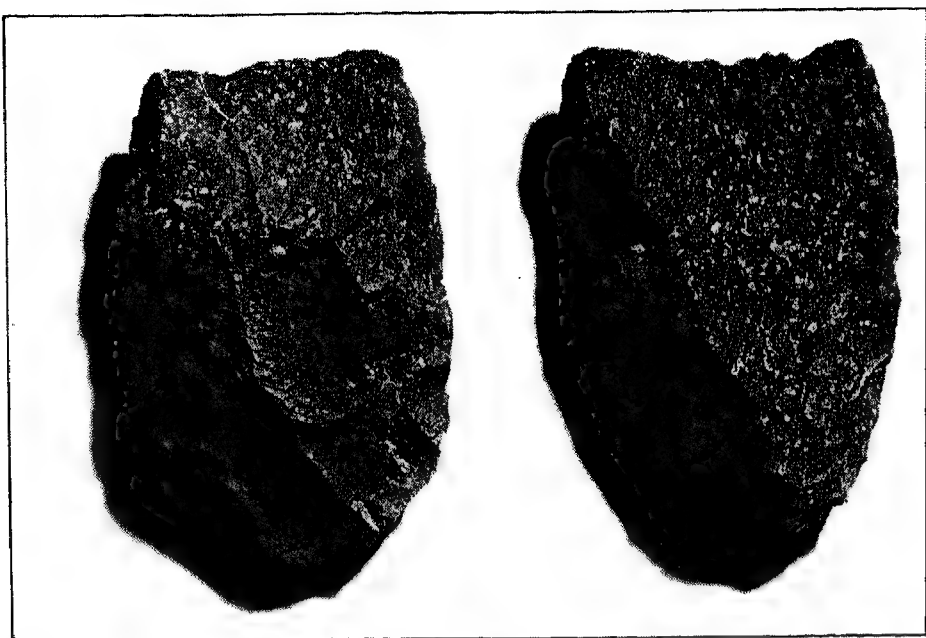
لقد أصبحت عبارة «الأشولي الافريقي» منذ ندوة بورك فارتنشتاين سنة ١٩٦٥ م ومؤتمر داكار (١٩٦٧ م) المتعلق بما قبل تاريخ افريقيا - تشمل كامل العصر الحجري القديم الأسفل الذي يوافق بأوربا الغربية، العهد الأبيلي والعهد الأشولي وكذلك العهد الكلاكتوني والعهد اللوفالوازي اللذين يعتبران محل نظر.

فالأشولي وافر جدا في بلدان المغرب، ويتمثل اذا ما نحن تركنا جانبا المحطات الموجودة حاليا على سطح الأرض في ثلاثة أنواع منجمية لها خصائصها:

(أ) نوع من المناجم التي لها علاقة بالدهر الرابع الساحلي والبري وحقى البحري ويتمثل ذلك خاصة بالمغرب الاطلسي حيث تمكن ب. بيبرسون من تقديم مقطوعة أشولية اعتمادا على الحصة المهمة التابعة «لثقافة الحصة» في العهد السابق للأشولي، ومنتهية الى العصر الحجري الأوسط (العاطري). أما الجزائر فليس لها حظ في ذلك لأسباب ترجع الى الجغرافيا المورفولوجية الساحلية، وان كانت بعض «المناجم» موجودة على ساحل القبائل (جيجل) وقرب عنابة. وبالنسبة للسواحل التونسية فإنني لا أعرف مناجم أشولية من هذا النوع.

(ب) المناجم التي أصلها من الطمي النهري أو البحيري. فالنوع الأول أندر وأضعف بما هو موجود في أوربا، والعلاقات بينها من حيث طبقات الأرض، ومن حيث الاحاث غامضة جدا في أكثر الأحيان. وذلك هو شأن عدد من المناطق المغربية (وادي الملاح) والجزائرية (أوزيدان قرب تلمسان وشابلان قرب المديّة) وتامدا (بوادي سباعو) والمنصورة (قسنطينة) وكلارفونتين (شمال تبسة) والباينكية وخصوصا الماء الأبيض جنوب تبسة. وفي تونس، أشولي الرديف (قفصة). أما المناجم القائمة على ضفاف البحيرات وما أكثرها في افريقيا الشرقية، (مثل أولوركسايلي بالكينيا)، فهي لا تكاد تستحق الذكر. هناك مثلا بحيرة القرار (تلمسان) ذات الحفريات القديمة جدا والتي قام بها م. بول بصورة منقوصة، وكذلك مناجم أبو الخير بمستغانم التي بقيت الى الآن غير معروفة. ولقد برز منجم واحد من هذا الغموض، ونعني بذلك منجم سيدي الزين (بالكاف في تونس) حيث يوجد فيه مستوى من القذومات بين اثنين آخرين من ذوات الوجهن ليس فيها قذومات. على أن الأشولي المرتبط بترسبات بحرية أمر مشهود بصفة منتظمة من موريطانيا الى ليبيا.

(ج) المناجم التي لها علاقة بعيون جوفية قديمة. ويبدو أن تلك العيون كانت تجذب الانسان بين الاشولي الى العاطري. وذلك أولا شأن تيط مليل (بالدار البيضاء) وعين فريطيسة (بجنوب وجدة في



- (١) أشولي من منطقة تيهوداين للكنبان الرملية: بلطة من الريوليت.
- (٢) شوكة موسثيرية، الغتار (تونس) حفریات الدكتور غروو يه
- (٣) عين حانش، «كرويات متعددة الواجه» (تصويرم. بوفي).

المغرب، وبحيرة كرار بالجزائر التي سبق ذكرها، وكذلك الأمر بالنسبة لشمسة (بسكرة) التي لا نكاد نعرف عنها شيئا وخصوصا مناجم ترنيفين (معسكر). ويعتبر هذا الأخير المنجم الوحيد الذي حظي أخيرا بحفريات منتظمة (١٩٥٤م - ١٩٥٦م) قام بها الاستاذ س. أرمبورك بطلب من الجزائر. إلا أنه لا ينبغي أن نتوهم ما يتجاوز الواقع فما لا شك فيه أن الصناعة التي عثر عليها هامة جدا، وإن بقايا الحيوانات تمثل ثروة كبرى، وإن إنسان الأطلس اكتشف هنا. ولكن التكوين الطبقي لهذا المنجم الجميل يثير مشكلا، لأنه يترك المجال الزمني المتضمن لمجموع الوثائق مفتوحا جدا، ولعل ذلك ينطبق أيضا على طبيعة الموقع بالذات: أفلا تسمح الرمال التي حولتها بدون انقطاع الينابيع الجوفية بوضع تاريخ طبقي؟. ذلك ما لا يمكن أن نبرهن عليه ويبدو أن دراسة الأدوات تدل على أن الأمر لا يتعلق بمشاكل للنحت، بل بمكان للصيد.

إن الأشولي المغربي والصحراوي ليس مخالفا أساسا للأشولي الذي ضبط بفرنسا. والدراسة التحليلية (بوردي ١٩٦١م وبالموت ١٩٦٧م) لا تدل على ابتكار كبير في صنع ذوات الوجهين. وكذلك الشأن بالنسبة لذوات السطوح المثلثة. ثم إن وجود بعض الشظايا، وصناعة صغيرة بترنيفين مثلا، ليسا أمرا مستغربا. ولقد ظهر استعمال القداة اللينة في غضون أواخر العهد الأشولي القديم (النحت أو إعادة النحت): فلم توجد منها إلا قطعة واحدة ثابتة في ترنيفين (من ذات الوجهين). ثم إننا نلاحظ ظهور «ضربة الشفرة» في تخلص الحد الذي يفصل بين السطوح الثلاثة. على أن الابتكار الأساسي الذي أكدنا عليه منذ زمان يتمثل في المكانة التي تحتلها القدومات ذات الشظايا ولعله من الخطأ اعتبارها أداة (نوع من الفأس) خاصة بأفريقيا وفعلا فليست هذه الأداة موجودة دائما في الأشولي بأفريقيا (وهي مثلا ليست معروفة في الآثار الهامة الموجودة في الماء الأبيض، إن أردنا ذكر مثال واحد من الجزائر) ولكنها موجودة من الشرق الأدنى إلى الجزيرة الهندية. ولقد أدى وجودها بإسبانيا (ريومازناريس، قرب مدريد)، وعبورها إلى جبال البريني أدى هذا الأمر به. هـ. أليمن إلى إعادة النظر أخيرا (١٩٧٥م) في مشكل عبور جبل طارق قبل ملاحاة العهد الحجري الجديد بكثير. فقد استنتجت من ذلك وجود برزخ مرتفع وأصبح ممكن العبور خلال فترات الانحسار الرئيسي.

ويرجع الفضل إلى ج. تكسيي من أجل تحليله الممتاز لأنواع القدومات المغربية. وذلك ما يستحق إبداء ملاحظتين هامتين: تتمثل أولهما في ظهور طريقة لوقالوا في قطع الحجارة منذ العهد الأشولي القديم، والتي أدت إلى التوحيد المدهش الطارئ على القدومات المسماة تابلبالت تشنقيط (بغري الصحراء الجزائرية). وتتمثل ثانيتهما في تقنية «الشظايا النووية» التي سمحت بالحصول على شظايا لها وجه انفجار متقابلان يكوّنان حافة قاطعة حادة (وهي تقنية الكومبيا بأفريقيا الجنوبية فهل أن أفريقيا هي التي قامت فيما بعد بنقل طرق هي على غاية من الإكتمال إلى أوروبا، حيث لعبت الطريقة الأولى على الأقل دورا هاما جدا قبل العصر الحجري القديم الوسيط؟).

ولقد كان الأشولي يعرف دائما على أساس أثري. وتغطي صناعات ذوات الوجهين جوديين (منديل - ريس) كذلك الجمودي الفاصل بينها والمراحل التي تجزئها. وقد حاول ب. بيرسون إيجاد التوازن بين فترات التعدي والانحسار البحري: فالاميري يوازي المنديل، والأنفوي يوازي الريس،

والتنسيفي يوازي الرئيس. إلا أن هذه العلاقات التوافقية تبقى دائما افتراضية. و يعتبر الامتداد في عهد ما بين جودي ريس — فورم أمرا مقبولا. ونظرا لتعذر ضبط التواريخ بدقة فأننا مضطرون الى أن نعتد على علم الإحاثة وذلك أن الحيوانات بدأت تفقد عناصرها الباقية من العهد الفيلافرنشي الأعلى لتصبح «حيوانات تشاد وزمير الكبرى» كما سماها س. ارمبورك. لكننا لا نعرف الى حد اليوم الحيوانات الصغيرة والنباتات الموجودة بترنيفين.

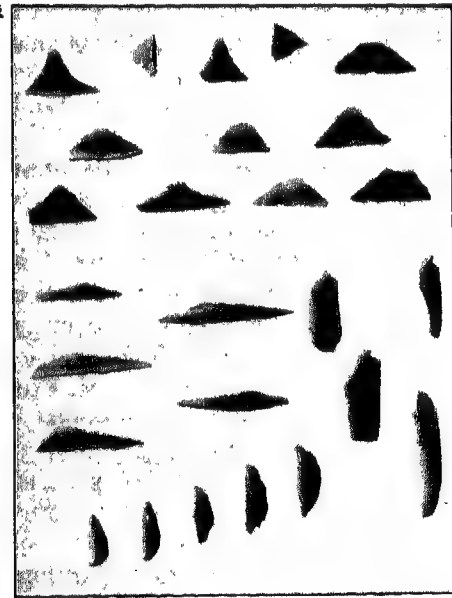
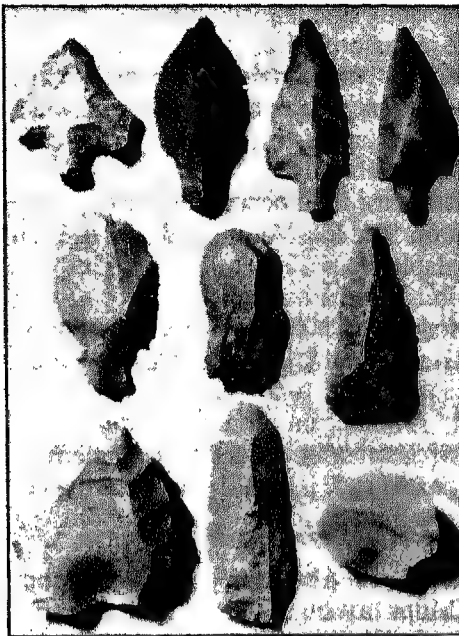
وماذا عن الانسان الأطلسي أي انسان ترنيفين؟ وعن انسان المغرب (انسان الرباط) وعن انسان سيدي عبد الرحمان (الدار البيضاء) الذي ينتسب الى الانسان المستقيم؟ ان هؤلاء الناس القردة القريبين جدا من انسان الصين (بيكين) لا يمكن ضبط تواريخها الا بكثير من التجاوز أي على الأقل من ٤ الى ٥٠٠ ألف سنة وهو ما يعتبر فرضية مقبولة. و يغلب على الظن ان أولئك الناس قد عرفوا النار. وكانت لهم لغة بدائية إن المغرب لا يوفر لنا شيئا في هذا الشأن.

## الموستيري — العاطري

قلت في مقال كتبتة في ١٩٥٥م بأنني أشك في وجود عهد موستيري مستقل في افريقيا الشمالية. الا ان الدكتور كوبرت قد آتني بشدة، وكان على حق. ثم عدلت فيما بعد (١٩٦٥م) موقفي الاول، الا أن ذلك لم يحسم المشكل بل غير موضعه. فمن المؤكد أنه كانت توجد في بلدان المغرب مناجم موستيرية ولكنها كانت واقعة في ظروف جغرافية لا تكاد تصدق، ومخالفة جدا لكل المفاهيم المتعلقة بعرقية ما قبل التاريخ. ومن ذلك ستة مناجم لا نزاع فيها بتونس وهي مناجم سيدي الزين (الكاف) وعين محروثة (القيروان) وعين مثرشم (جبل الشعاني) وسيدي منصور (بقفصة) والقطار (قفصة) ووادي العكاريت (بقابس). و يوجد منجم واحد بالجزائر هو منجم الرثايمية (وادي شلف)، وثلاثة بالمغرب (تافوغالت بوجدة — كيفان ابن الغماري (تازة) جبل إغود. ولا يوجد أي منجم بالصحراء، والحقيقة ان المواقع السابقة للعهد الموستيري واللاحقة له تعد بالمئات. مع العلم أن هذه القلة لا تدل على قصور الأبحاث لأن إكتشاف العهد الموستيري كان شغلا شاغلا لدى مؤرخي ما قبل التاريخ المتكويين في فرنسا، حيث يكثر عدد المناجم مثلما هو الشأن في الجزر الايبيرية والايطالية انطلاقا من جبل طارق. وكمثال، تفصل ٨٠٠ كلم سيدي الزين بالكاف عن الرثايمية، و ٣٦٠ كلم الرثايمية عن كهف تافوغالت ثم ٧٠٠ كلم للوصول الى جبل إغود والأمر هنا يتعلق بموستيري متميز يمكن أن يدمج في المظاهر الأروبية، لاسيما المظاهر المقطوعة بحسب تقنية لوفالوا. ونجد في المناطق الواقعة بين الطرفين، ما يشهد على وجود البشر: من ذلك النياندرتاليون بجبل إغود وأقدم أثر طقوسي معروف أي «الكائرن» أو «هرميون» في القطار، وهو الذي لم يبق منه بارزا سوى قته في النبع الذي سمي باسمه. وباستثناء ما هو موجود بوادي العكاريت فإننا لا نجد أي منجم موستيري ثابت قريب من السواحل. لكن أين كانت اذن سواحل شط-قباس؟ ان الموستيري المغربي لم يأت الا من الشرق. ولكن ما يثير الانتباه في شأن الموستيري هو أنه سرعا ما طرأ عليه تطور فريد. فلقد تحول بعين المكان الى عطاري. وعند تطبيق

لقواعد التصنيف الجيولوجي تطبيقا يعتمد على «أحدث الأحفورات» اعتبرت من العطاري كل المناجم ذات الصناعة المستيرية التي يوجد فيها رؤوس عطارية ذات ساق (مثل الصناعات الموجودة بالقطار وعين المشرم وغيرها). واعتقد أن ذلك دليل قاطع على المعاصرة بين المستيري والعطاري بل أرى أن المستيري المغربي قد طرأ عليه تحول مغاير لتطور كل أنواع المستيري الأخرى. ولقد بين ج. تكسيي بصفة قطعية أن الأمر لا يتعلق بزيادة في الرؤوس أو المكاشط ذات الساق بل يتعلق بتحول مجموعة تضم ثلاثين شكلا من مستيريا وعاطريا، وذلك بنحت ساق في القاعدة. أما في أوربا وبالأخص في فرنسا فلقد اتبع المركب المستيري طرقا أخرى. وكانت هذه الطريقة جديدة مما جعل البعض يميزونها عن غيرها، وذلك ما لا يعقل: ومفاد ذلك أن العطاري ليس سوى مظهر متطور من المستيري خاص بجزء من إفريقيا. فهو يقدم مقامه، حتى من حيث الترتيب الزمني. إن تعريف ر. فوفري الذي يقول بوجود عهد عطاري في العصر الحجري القديم الأعلى، لم يعد ذا جدوى. فلقد تحدث البعض من المؤلفين القدامى عن «مستيري فيه أدوات ذات ساق» مثلما نقول نحن اليوم بوجود «مستيري فيه أدوات مسننة». ونظرا لكون الصناعة التي عثر عليها في المنجم الحامل لاسم العاطري، (وادي الجبانة، قرب بئر العاطر بمجنوب تبسة) لم تحلل أبدا تحليليا أضافيا دقيقا من طرف واضعها، فإن لفظة «العاطري» تبقى كما قال م. أنطوان «اسما بدون مسمى». ونظرا لكونه يعتبر تطورا سابقا لأوانه قد طرأ على المستيري ودام مدة طويلة جدا وانتشر في المغرب والصحراء شمالا وجنوبا فهو في نفس الوقت النظير الزماني لجزء من العصر الحجري القديم الأوسط وعلى الأقل لبداية العصر الحجري القديم الأعلى.

إلا أن معالمنا الزمانية ما تزال تعوزها الدقة. ويعتبر ما اقترحه ج. كامبس من مقاربات بالتواريخ التي تحصل عليها ماك بورني في برقة ضعيفا، لأن ماهية الصناعات لم تثبت بتاتا. فالعاطري محل نقاش (كامبس) والاييرو—موروسي لا وجود له (تكسيي). ولقد أمكن ضبط علاقات طبقية أرضية متصلة بالدهر الرابع القاري أو البحري، سواء بالصحراء أو في بلدان المغرب. وذلك بالاعتماد على تأريخ نسبي أو تأريخ مطلق، فلا يمكن أن نعتبر الألفية الأربعين قبل الميلاد بأية حال التاريخ الأقصى الذي يمكن اعتماده لظهور العاطري. إن انزعاجنا في هذا الشأن يرجع إلى قلة فاعلية الكربون ١٤ فالتواريخ المتحصل عليها في شان المغرب والصحراء محصورة فيما بين ٣٧ ٠٠٠ و ٣٠ ٠٠٠ سنة قبل الميلاد وهي تواريخ منسجمة تدعو إلى الاطمئنان. ولذلك نعتبر أن العاطري هو عهد حجري قديم أوسط في أولى مراحلها ثم أصبح فيما بعد معاصرا للكستلبروني الأوريشياني، أي للجزء الأول من العصر الحجري القديم الأعلى بفرنسا على الأقل. إن علاقته مع تشكيلات الدهر الرابع متطابقة. وقد يحدث أن يعمر العاطري الشواطئ التيرينية الجديدة التي انكشف عنها الماء عند بداية انحسار البحر الكبير الأخير (مثلا بالخروبة قرب مستغانم بغربي الجزائر). إن نهاية هذه الفترة الفاصلة الورمية (ورم ١/٢) قد حصلت في حوالي ٤٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وترجع التشكيلات البرية التي كانت عموما محمرة وغنية من حيث العاطري والتي كانت تغطي تلك المناطق المغمورة تحت البحر الحالي، ترجع إلى الانحسار البحري الذي بلغ خمسين ومائة متر (١٥٠ م).



- (١) أتيري من وادي جوف الجمل (الجزائر الشرقية): شوكات ومكاشط ذات سيقان تعليق، ومكاشط أو محكات، ونويات لوفالوا (تصوير م. بوئي). (٢) الصناعة النبطية للكابسي (تصوير م. بوئي).
- (٣) صناعة الأسلحة في الكابسي الأعلى: مثلثات مختلفة الاضلاع، ومتوازيات اضلاع وازاميل صغيرة، ومناشير، ونصال متعددة الحزوز، ازميل زاوية، وعارز، ومكاشط، ونويات مخددة، الخ. (تصوير م. بوئي (٤) القابسي الاعلى: أحجار صغير هندسية الاشكال (متوازيات اسرع، ومثلثات مختلفة الاضلاع، وأهلة، وازاميل صغيرة) (تصوير م. بوئي).



ان ضبط نهاية تاريخ العهد العاطري لدقيق جدا. ان فتح الصحراء أمر، كما أن التطور التقني الصناعي المتجه الى أشكال تؤذن بالعصر الحجري الجديد أمر آخر. ويعتبره. هو كان العاطري لم يتجاوز حد البحيرات الكبرى ذات المشطورات، والتي كانت مليئة بالماء الى الألفية السابعة قبل الميلاد. الا ان البرهان على هذا العاطري السابق للعصر الحجري الجديد لم يرق بعد، رغم ما في الفرضية من اغراء كبير. فنحن لا نعرف صناعة فاصلة. ولقد أخذت البعثة الأساسية ذات الطابع الانثروبولوجي تتلاشى لأن كل الاكتشافات الاخيرة التي وقعت بالمغرب تدعم الفرضية القائلة بأن الانسان العاطري ليس انسانا نياثرتاليا مثل موستريي جبل إغود، بل قد أصبح انسانا عارفا.

## العصر الحجري القديم الأعلى والعصر الحجري الوسيط

ومهما كانت امتدادات العاطري في الصحراء، فقد طرأت أمور أخرى ببلدان المغرب وليس من المفيد هنا ان نستعرض تاريخ تفنيد فرضيات ر. فوفري التي كانت تعد حجة مدة طويلة. اذ نرى انه يحسن بنا أن نضبط وضع المعارف الحديثة التي تنتظم حول أربع أفكار جوهرية نستعرضها فيما يلي:

— ان العهد الايبيري — موريوسي الذي كنت ساهمت في فصله عن القابسي لأسباب انثروبولوجية وباليتنولوجية، هو أقدم مما كنا نعتقد. فهو معاصر للمكدليني الفرنسي وبذلك فهو عبارة عن حضارة تنسب الى العصر الحجري القديم الأعلى.

— ان الخصومة التي كانت قائمة بيني وبين ر. فوفري والدكتور كويبار والمتعلقة «بأفق كولينيون» قد انتهت، وذلك ان الصناعة ذات الصفيحات التي تقترب من الايبيري — موريوسي أكثر من القابسي سابقة بكثير لهذا الأخير.

— ان التمييز الذي أقامه فوفري والمتعلق بعهد قابسي «نموذجي» فوقه عهد قابسي «أعلى» أو مستطور قد تلاشى ليترك المجال لفكرة تقضي بتدغل الصناعات القابسية وتعتمد على مجموعة كبيرة من التواريخ الراديومترية التي تقنع.

— ان العصر الحجري الجديد ذا التقاليد القابسية الذي ابتكره ر. فوفري على أسس ضيقة جدا والممتد الى جزء كبير من افريقيا ينبغي ان يحصر في حدوده الأصلية وأن يترك المجالات الشاسعة المأخوذة باطلا لمظاهر أخرى عديدة من افريقيا التي أخذت تدخل في العصر الحجري الجديد.

## الايبيري — موريوسي

لم يبق مقبولا التعريف القديم للمؤرخ بالاري (١٩٠٩ م) الذي لا يزال يستشهد به. ذلك أنه كان أكد تكاثر التقنية المتمثلة في الحاشية المعكوفة بالصفيحات والتي كانت تختص بها كل الأدوات الحجرية. وكان علينا أن ننظر التحاليل الدقيقة الانموجية التي قام بها ج. تكسيي ليحل

مجموعة من التقنيات الدقيقة على تقنية عامة، وذلك ما كان أدركه نوعا ما بعض مؤرخي ما قبل التاريخ لا سيما الدكتور كوبريتونس. ان استئناف الحفريات التي قام بها أ. سكسون في منجم تامرهات (كورنيش بجاية بالجزائر) قد سمح بالحصول على توار يخ نظيرية قديمة جديدة وبفهم أحسن لصيادي الأروى القاطنين بالمغاوير الساحلية التي تفصلها عن البحر المستنقعات ومنطقة قارية مرتفعة عن البحر وثرية بالمحارات. ان الايبيرو—موروسي هو عبارة عن حضارة ساحلية وتلية قد عرفت مع ذلك، توغلات قارية منها منجم كلمناتا الذي لا يشك فيه (تاهرت بالجزائر) وذلك لا يمنع من ان تكون منطقة طنجة وشاطيء الساحل التونسي فارغين. فان كان الايبيرو—موروسي مفقودا كليا في تونس جنوب وادي مجردة فذلك يعني أن أحداثا قد وقعت بها وتستحق أن نتعرض لها في ما يلي:

ان الأدوات الايبيرو—موروسية فقيرة حتى ولو حللت تفصيلا. ولقد أكدت بعض المئات من المناقش الصغيرة التي عثر عليها بعد الحفريات بمدة طويلة، في المنجم النموذجي للمويلح (بالقرب من مغنية بالجزائر)، انها كانت مرتبطة بصناعة الحدود ذات الرؤوس المثلثة (المسماة بمجد المويلح) وليست حجارة بركانية هندسية مثلها هو الشأن في العهد القابسي. ان الصناعة العظمية فقيرة جدا ولم توفر الا شكلا طريفا واحدا وهي «المقعدة». فلم توفر أثاثا ولا فنا جداريا، والحال أننا في عهد أتيراء، ولاسكو، وأن الناس سواء أكانوا في شمال البحر المتوسط أو في جنوبه هم من جنس يشبه الكرومانيون، والممثل هنا في نموذج «مشتى العربي».

ولم تثبت الفرضية التي أصبحت اليوم تقليدية والقائلة بوجود أصل شرقي قد تفرع عنه تيار الكرومانيون الأوربيون المتجه نحو شمال البحر المتوسط، وتيار آخر هو تيار المشتى العربي المتجه الى الجنوب على طول السواحل الافريقية. الا أننا اذا ما أخذنا بعين الاعتبار المستوى الانثروبولوجي يمكن لنا أن نعتبرهم منحدرين من النيادراتاليين بواسطة الانسان العاطري. ولكن هذه الفرضية—مهما تكن مغرية—فانها لا تفسر بحال وجود صناعة، لا أثر فيها لأي وجه شبه بالموسيتيري العاطري. فالقول بأن الايبيرو—موروسيين ليسوا اصحاب تلك الحضارة ليس قولاً معقولاً لأن تلك الحضارة لا تعتمد على جذور محلية. الا أن ذلك لا يمثل المشكل الوحيد: أن أولئك المغاربة «الكرومانيون» يتميزون بـميول واتجاهات تتنافى مع ما نجده عند أهالي أوربا، ان صناعتهم المحلية المعاصرة للمكداليني، أو على الأقل لبدايته هي «ميزوليتية» (نصف حجرية) الى درجة أن البعض كان يسميها صناعة «أزلية بربريسكية».

ان صناعتهم العظيمة ليس لها أي ارتباط بصناعة المكداالينيين ولم يكن لديهم فن أثاث ولا رسم جداري رغم الزعم بوجودها في المغرب. ومع هذا، فقد تمكنوا من البقاء الى العصر الحجري الجديد واستطاعوا ان يستعمروا ارجيل الجزر الخالدات حوالي نهاية الألفية الثالثة قبل الميلاد. وتوجد أشياء أخرى تختص بها بلدان المغرب عمليات قطع الأسنان والمقابر المحفوظة في المغاور أو في الملاحيء (أفلو بالرميل بالجزائر—تافورالت بالمغرب) والمعالم المأتمية (كلمناته).

## «أفق الكولينيون» والصناعات الصفيحية الأخرى السابقة للعهد القابسي

لقد ثبت اليوم بالحجة وعلى أسس طبقيّة أرضية وجيومرفولوجية ان الصناعات الصفيحية بالجهات التونسية المتاخمة للصحراء (قفصة ومناطق الجريد...) كانت سابقة لكل المراحل القابسية. ان أفق كولينيون بسيدي منصور (قفصة) مقمّم ضمن الطمي النهري، وتتميز مرحلة توقف الترسيب في وسط البحيرات بتشكيلات جبسية هامة. وبعدها استؤنفت مرحلة الترسيب عادت الى التوقف بخسوف حوض قفصة الذي تلاه الانجراف. ولذلك فالقابسي الانمذجي المتطور يحتل الدرجات الأولى من ذلك الانجراف بله الهضاب التي تقوم مقام الشواهد. فلا يمكن تحديد المعالم التاريخية تحديدا دقيقا، الا على سبيل القول بان الترسيب يعود الى الموستيري. ولا يمكن ان تقارن تلك الصناعات الصفيحية بالايبيرو-موروسي الا على أساس اختلافها عن القابسي اختلافا نوعيا. وذلك لأن نموذجها مختلفة باستثناء تكاثر تقنية الحافة المعكوفة. وينبغي البحث عن الأصل بالاتجاه نحو الشرق (برقة، مصر، الشرق الأدنى). وتوجد صناعات أصيلة أخرى من العصر الحجري اللاحق وتندرج بين العهد الايبيرو-موروسي والمظاهر القابسية وتتميز «الكولنتاني» الذي تنتسب اليه المقبرة بصناعة ميكروليتية (حجارة صغيرة) خالصة وذلك في الألفية السابعة. ولقد عرفت مواقع أخرى أهمها ملحاً كدية كيفان الهدى (عين مليئة بالجزائر الشرقية) حيث تعود الصناعة السابقة للقابسي الى الألفية السابعة أيضا.

ولقد اقترحت عبارة «ايلاسوليتيك» لتعبر عن هذا المجموع الميكروليتي المتطرف المرتبط بنوع من الحياة التي عجزنا عن تعريفها. وقد لوحظت مظاهر أخرى بالجزائر الغربية أهمها «الكريسي» «والكريستيلى» اللذان يرجعان الى الألفية الثامنة وهما يوجدان على ساحل وهران. ان القائمة ما زالت مفتوحة وفي الواقع يوجد مجموعة كبيرة من الصناعات بين العهد الايبيرو-وموروسي الذي يعتبر بصفة عامة من العصر الحجري القديم، وبين العهد القابسي، كما هو الشأن في الصناعات التي نعرفها في الميزوليتيك الأوربي.

### المظاهر القابسية

لقد كانت «المجموعة القابسية» تمثل الحجة الرئيسية لفرضيات ر. فوفري الذي يستعمل: القابسي «الانمذجي — الأعلى» — «ذو التقاليد القابسية». فان كان ذلك الهيكل المبسط محل تهجم على أساس التواريخ الاشعاعية الكثيرة خاصة، فينبغي الاعتراف بان التعرف على المجموع يحقق التقدم المنتظر منذ عشرين سنة. ذلك أن سير الحفريات في «الحلزونيات» لم يجد وسيلة للعثور على التركيبات الطبقيّة الأرضية ولا على الهياكل الأثرية، باستثناء حالات نادرة جدا. فادامت التقطيعات الطبقيّة العديدة لم تسمح بمشاهدة تناقض مختلف المظاهر القابسية فاننا سنعتمد في المعاصرات والمقطوعات على أساس تواريخ الكربون ١٤ وذلك ما لا يوفي بما يوفي به تكون طبقي أرضي.

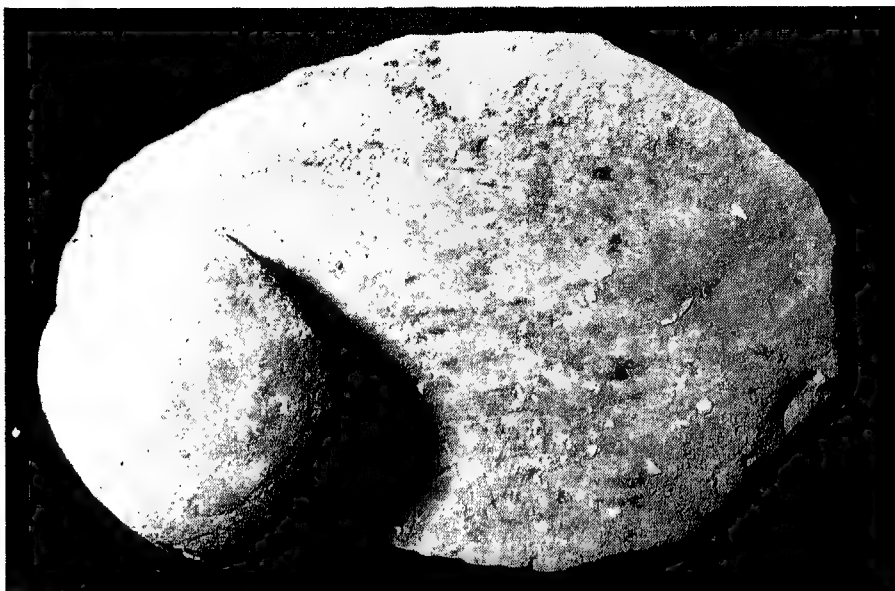
وبما أن تناضد القابسي الأعلى والقابسي النوعي في مستويات عديدة أصبح امرا ثابتا فانه سيظل منطلق كل تصنيف، وتكون المناجم في هذه الحالة أوتلك عبارة عن أكداش من الركام المختلط رمادا وحجارة محرقة وقواقع الحلزونات التي تعد بمئات الآلاف وعظام الحيوانات التي استهلكها الانسان وصناعته الحجرية والعظمية وأشياء للزينة وللأثاث وبقايا انسانية الخ. ويحق لنا أن نتصور مساكن تحت الأكواخ تسببت في أكداش تلك البقايا وقد تكون نوعا من الأكواخ التي بنيت بالقصب يضم بعضه الى بعض بواسطة الطين. هذا اذا ما أخذنا بملاحظة قديمة جدا مع الأسف وقعت في منطقة خنشلة (بالجزائر الشرقية).

وتمتاز الصناعة الحجرية للقابسي النموذجي بنوعية رفيعة على العموم، وتحتل نقوش الزاوية على البلورة مكانة ممتازة. وكذلك الأمر بالنسبة للشفرات الكبيرة ذات الحافة المعكوفة والظهر المخضب والمسماة أحيانا «بالسكاكين». وتمثل الشفرات ذات الحافة المعكوفة نسبة تقدر بالربع الى الثلث من الادوات الحجرية المتحصل عليها أحيانا بتهديب بقايا النقوش (الابرة المستقيمة التي يستعملها كوبر). وهناك مناقشات صغيرة لم تأت مثلها هو الشأن في الايبيرو — موريوسي من صناعة «حدود المويلح» بل من حجارة صغيرة هندسية (مربعات منحرفة — مثلثات أخمقيات). أما الصناعة العظمية فهي فقيرة. والعهد القابسي النموذجي ليس معروفا الا في منطقة محدودة جدا، فهو مبعثر على الحدود الجزائرية التونسية، في الجنوب من خط العرض ٣٥، أكثر من شماله. وهو لا يغطي الا الألفية السابعة اذا ما اعتمدنا على التواريخ الراديومترية، ونتيجة لذلك فقد يكون في هذه المنطقة ذاتها معاصرا للقابسي «الأعلى» وهو أمر مخالف للتكوينات الطبقيّة الأرضية المعروفة ولن أقنع بهذا الا عندما يتبين وجود القابسي «الأعلى» تحت القابسي النموذجي! فن أين انبثق في هذه الحالة هذا القابسي الذي اتفق الناس جميعا على نعتة بالمتطور؟ ثم ان صانع حضارة القابسي «النموذجي» يكاد يكون مجهولا لدينا...

وقد وفر لنا القابسي المتطور كثيرا من المظاهر التي اجتاحت الغرب الجزائري وجزءا من الصحراء على الأقل. وان الأمر يستوجب ملازمة الحذر، والا نرتكب الخطأ الذي وقع فيه ر. فوفري بأن مدد «عصره الحجري ذا التقاليد القابسية» باضافات متواصلة الى جزء كبير من القارة الافريقية...

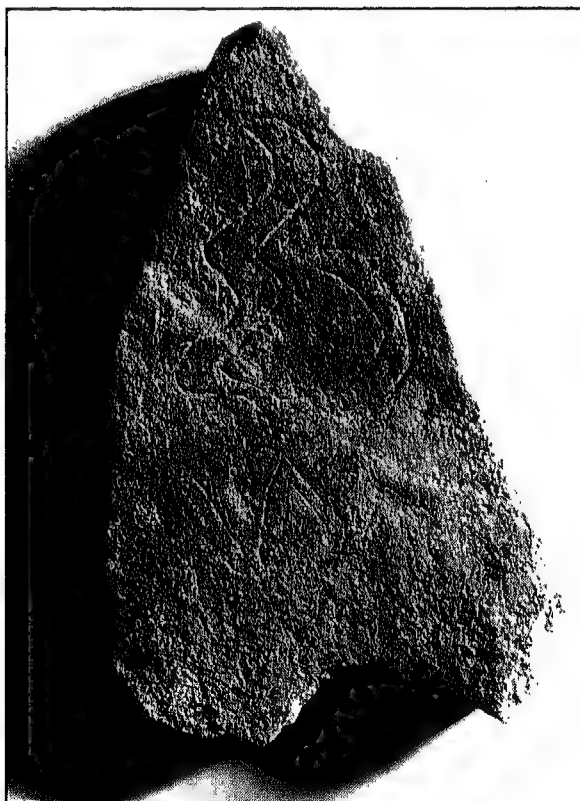
واذا ما استثنينا ما سميت «بالمظاهر التبسية» (المثقلة بالادوات الكبيرة التابعة للقابسي النموذجي) فان القابسي المتطور يتميز بصناعة تتكون من أدوات صغيرة الحجم وغنية بالحجيرات الهندسية التي عادة ما تكون رفيعة فنيا وتقنيا، خاصة فيما يتعلق بالمثلثات وبعض المثلثات المنحرفة فالتمييزات التي وقعت على أسس احصائية ليست صالحة، لأن الأمر يتعلق بمجموعات متاحف وباختيار وانتقاء لحفريات أجريت بصفة رديئة ومتقطعة كما يتعلق «بطبقات» مصنعة يختلف سمكها من باحث الى آخر. ولقد عرفت مجموعة حلزونية درستها بعين ذكارة اقامة بشرية امتدت ألف سنة أي من أواسط الألفية السابعة الى منتصف الألفية السادسة قبل الميلاد. فهل يحق أن نميز صناعتها بالإلتجاء الى طريقة إحصاء شامل؟

ان القابسي «الأعلى»، بنزوله الى الألفية الخامسة وعلى الأقل عند توسعه الشمالي قد دام حتى طرأ العصر الحجري الجديد الذي امتد بدوره على حقبة طويلة جدا. وهكذا يمكن لنا أن نؤيد وجود



١٠ (١) هاون ومدق به آثار من الفحم  
والمغرة وشظايا من قواقع هليكس.  
الحجري الحديث من التراث القابسي  
في داموس الاحمر، الجزائر الشرقية  
(تصوير م. بوفي)

٢٠ (٢) لوحة جيرية محفورة، القابسي  
الاعلى في خنفة الموحدين، الجزائر  
الشرقية. (تصوير م. بوفي).



للمعاصرة في مناطق مختلفة بين صناعات كل من العهد القابسي الأثمدجي والأعلى وبين العصر الحجري الجديد ذي التقاليد القابسية.

وهكذا تكون الحضارة القابسية قد دامت ما يقارب ٢٠٠٠ سنة، أي بضعة قرون أقل من العهد الفرعوني بمصر. وإذا عجزنا عن كتابة تاريخها فإنه يمكن لنا أن ندرك على الأقل العناصر الأساسية لجنس بشري. فالإنسان القابسي لا ينتسب إلى النوع الكرو—مانيوئيد الموجود بمشقي آفالو: بل هو إنسان من حوض البحر الأبيض المتوسط، مثاله النموذجي المحفوظ في ظروف طبقة أرضية لا جدال فيها، هو الإنسان الموجود بعين ذكارة (بتيسة) الذي يرجع إلى نصف الألفية السابعة. إن المساكن القابسية تعد بالمئات وكل واحد منها دام قرونا وتجاوز حتى الألفية من السنوات. إن مثل هذا الاستقرار السابق للعهد الرعيي وللعهد الفلاحي يستحق التنويه، رغم أن الأمر يتعلق بأكوخ مصنوعة من القصب والأغصان المدعمة بالطين أو المشدودة بالجلود. أما الصيد فلم يكن له دور أساسي، خاصة إذا نظرنا إلى قلة بقايا الحيوانات، لا إلى تنوعها. فالرخويات البرية تحتل مكانة لا يستهان بها. ولقد كان جني الخضر يلعب دورا ضئيلا. فلا «المنجل» الموجودة بكلو مناطه ولا الكرات الحجرية المثقوبة ولا المدقات ولا «أدوات الحصاد» تصلح أن تكون حجة تثبت وجود الفلاحة.

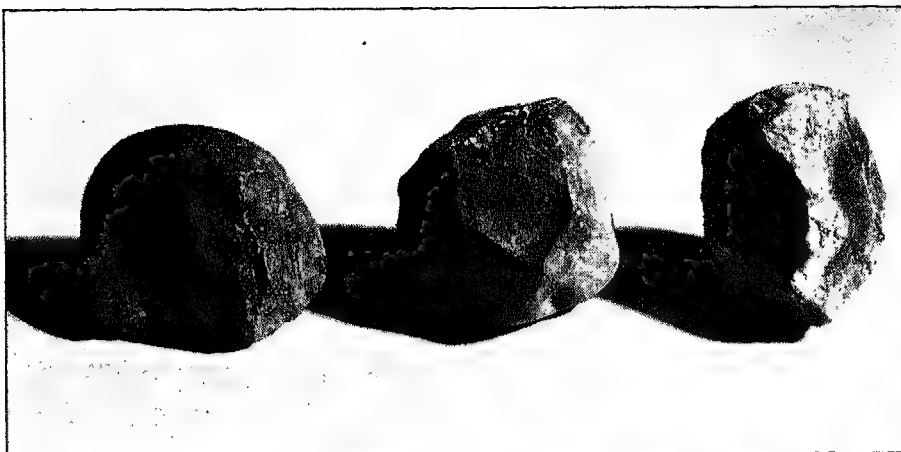
وكان الإنسان القابسي يدفن الموتى حسب طقوس متغيرة مختلفة أهمها الوضع المضطجع الجاني المنحني. أما الاستعمال المتكرر لمغرة التخضيب فإنه يظل غامضا. ومن العجب العجيب استعمالهم العظام الإنسانية ومنها «الجمجمة كمغم» الموجودة بفايد سوار (عين البيضاء بالجزائر) والتي يظن أنها كانت تستعمل قناعا. ولقد حدث أن القابسيين كانوا يقلعون أسنان الأحياء لا سيما النساء، إلى حد ثماني ثنايا.

ومع هذا، يُعْتَبَرُونَ الفنانين الأوائل الذين ظهروا ببلدان المغرب. ويشهد على ذلك وجود المجوهرات ومحاولات نقش بيض التّعام منذ العهد القابسي الأثمدجي، والصفائح المنقوشة والأحجار المنحوتة التي يمكن لها أن تؤدي بنا إلى الفن الجداري.

## الدخول في العصر الحجري الجديد والعصر الحجري الجديد

إن الرؤية الحاصلة في أذهان الناس عن العصر الحجري الجديد بأفريقيا الشمالية قد نظمها ونسقها ووحدها ر. فوفري منذ ١٩٣٣م. إن تصوره لهذا العصر ذي التقاليد القابسية والشامل لكل بلدان المغرب والصحراء وجزء من المناطق الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء، هذا التصور كان على العموم مقبولا إلى درجة أن رمزه «العصر الحجري الجديد» ذو التقاليد القابسية (ج ت ق) أصبح مستعملا استعمالا رائجا. هذا رغم أنني، والدكتور كوبر كونا عبرنا عن تحفظاتنا الشديدة إزاء الصفة المصطنعة لذلك البناء النظري المقام اعتمادا على إضافات متتابعة كان مجموعها يبدو لنا متباينا.

. والحقيقة أننا لم نتمكن من إدراك الطريقة الفكرية التي كان يعتمد عليها ر. فوفري. فلماذا اعتمد



- ١٠ (١) عين حانش. حصوات مشكلة على هيئة وحيلة الوجه (قاعلم) أو ثنائية الوجه (أداة قطع) (تصوير م. بوثي).
- ٢٠ (٢) قصبة ساق صفري بشرية مشكلة على هيئة خنجر. القابسي الاعلى، مشق السعري (الجزائر الشرقية) حفريات ١٩٥٣ (تصوير م. بوثي).



كمراجع، أضعف منجم وهو منجم طاولة جعته (بتونس)؟ ولقد عرض س. روي سنة ١٩٧٦م — كيفية سير تفكيره فوفري. فالذي يهمه ليس هو العصر الحجري الجديد لذاته، بل يريد فقط أن يبين تواصل التقاليد القابسية التي أخذت تدريجياً تتحول إلى التلاشي عندما ابتعدت عن مصادرها. وبذلك لا يكون العصر الحجري الجديد سوى ظاهرة عرضية للعهد القابسي. ثم إن التوسع الذي وصف به «ج. ت. ق.» سيبرر اعتماداً على تطعيم العناصر الثقافية المنسوبة إلى العصر الحجري الجديد، وذلك ما أدى إلى التصور «النموذجي» لهذا العصر بدون أن ينتبه إلى ما يتجاوز الثورات التقنية ويفسرهما ونعني بذلك الانقلاب في نمط الحياة. والحقيقة أن نمط الحياة لم يصل إلى مرحلة العصر الحجري الجديد، في حين أن التقاليد القابسية مزدهرة. فالسهام وحدود السهام الوفيرة بالصحراء تقوم دليلاً على امتداد نمط حياة الصيادين القناصين الذين لا يمكن لنا أن نعتبرهم منتبئين إلى العصر الحجري الجديد.

وفي هذه الأحوال يجب أن نعيد العصر الحجري الجديد ذا التقاليد القابسية إلى حدود منطقته الأصلية. وذلك ما قام به س. روي عند اعتماده على حفريات مغارة كبلتي (بأوراس في الجزائر)، فيتين اذن أن مكان علم البيئة أصبح أساسياً بجانب علم النماذج البشرية الضروري. ويعني ذلك معرفة المحيط الذي يعيش ضمنه الإنسان. وهي طريقة يمكن بها أن نعرف اقتصاد الرعي السابق للفلاحة والمعتمد على الترحال ولا يمثل نهاية عهد ما قبل التاريخ بل نقطة بداية الحضارة الجبلية المعاصرة لأهل الشاوية بأوراس الذين كانوا رعاة صغاراً للغنم والماعز.

لقد وجدت اذن ببلدان المغرب أشكال أخرى من العصر الحجري الجديد غير الشكل المعروف بالرمز ج. ت. ق، بالمفهوم الدقيق، بين الألفيتين الخامسة والثانية. ولقد شهدت في مرحلة أولى، المناطق التي بقيت بعيدة عن القابسي تطوراً خاصاً بها له مميزاته الأساسية التي تتمثل في موالاة العهد الأيبيري — موريوسي وفي تكوين علاقات مبكرة مع أوربا البحر الأبيض المتوسط. ولقد وقع ذلك ابتداء من الألفية الخامسة. ومنذ ذلك الحين أصبحت قضية الملاحة مطروحة، فلقد وجدت مظاهر عديدة تابعة للعصر الحجري الجديد ومستقلة استقلالاً كاملاً عن كل عادة قابسية تشهد على وجود الاتصالات بأوربا، يدل عليها خزفها واستيرادها للنسيج. ويصح هذا الكلام أيضاً في شأن الساحل الأطلسي للمغرب.

وعلى العكس من هذا فإن العصر الحجري الجديد ذا التقاليد القابسية لا يمكن أن يتسع، كما أراده ج. كامبس إلى الصحراء الشمالية، وأقل من ذلك إلى الصحراء الأكثر جنوباً حيث يوجد الفن الجداري بالهقار وبتاسيلي — ن. آجر.

ورغم كل ذلك فإن الربط بين الفن الجداري والعصر الحجري الجديد والذي اقترحه ر. فوفري يبقى صالحاً وإن ظلت نسبة التقاليد القابسية للعصر الحجري الجديد موضوع خلاف كبير، علماً بأن الأمر لا يتعلق إلا بجزء من الآثار المنقوشة على الحجر. لأن الجزء الآخر مرتبط بعصر بداية التاريخ. فلا يمكن أن ترتبط تلك الآثار الأولى ذات الأسلوب الطبيعي لا بأوربا ولا بالصحراء إذ ينبغي البحث عن أصلها في ارتباط القابسي بالعصر الحجري الجديد. ومع هذا فإن الربط بين «الصناعة والفن» سيظل في حاجة إلى برهان. وعلى هذا الأساس يعترف ما قبل تاريخ بلدان المغرب بنقائضه مهما كان ثراء الشواهد الدالة عليه. فلا يمكن له أن يقدم إلا إذا اعتمد على حفريات كبرى تجري بطريقة تتناسب مع أساليب اليوم.



## الفصل الثالث والعشرون

# الصحراء في ما قبل التاريخ

بقلم: هـ. ج. هوغو

ان الصحراء منطقة مقفرة مترامية الأطراف تغطي معظم شمال افريقيا. وليس من السهل تحديدها أو تعريفها. ويمثل الجفاف القاسم المشترك بين مختلف الجهات التي تتكون منها، فهي تمتد من الشرق الى الغرب على طول ٣٠٠٠ كلم من البحر الأحمر الى المحيط الأطلسي، وتمتد من الشمال الى الجنوب على طول ١٥٠٠ كلم من الأطلس الصحراوي الى الساحل السوري ولقد شملت الظروف الصحراوية ما يقرب من ٥٤ مليون كلم<sup>٢</sup>. ورغم ذلك فان الصحراء كما نراها اليوم تختلف جدا عما كانت عليه عبر عصور ما قبل التاريخ.

وتتمثل وحدتها الحالية في افتقار هوائها الى الرطوبة، ومن أهم خصائصها، فضلا عن ندرة الماء، الفارق الكبير الذي يفصل حرارة النهار عن حرارة الليل، وكثرة الرمال التي لا تفتأ تتناقلها الرياح فتؤثر تأثيرا بالغا على أرض أكل عليها الدهر وشرب.

ان هذه المنطقة المقفرة اليوم كانت تعج بالسكان قديما وفي حقبات زمنية عديدة وتعزى هجرة آخر الاجناس البشرية التي سكنتها الى استقرار مناخ متطور الجفاف والحرارة أدى الى ضالة كميات الأمطار ونضوب عيون الماء والأنهار ان الانقراض المزدوج للغطاء النباتي والحيوانات التي يعتمد عليها الانسان في غذائه دفع به نحو الجهات المتاخمة المناسبة أكثر لحيته. ولقد انكب الكثير من الاختصاصيين على مسألة تحول الصحراء الى أرض مقفرة، وأسباب ذلك، ونتائجه، ونخص بالذكر

منهم أ. ف غوتسي (١) و.ث. مونود (٢) ور. كابوت - ري (٣) وج. دوبياف (٤) ول. بالوت (٥) وك. بوتزروج. ا. هزين (٦) وذلك على سبيل المثال لا على سبيل الحصر. لقد أدركنا الآن الأسباب النظرية التي من أجلها لم تعد موسمة الخليج الغيني والجهة القطبية ترسلان الى الصحراء عنصري الرطوبة اللذين يتحكمان في خصوبتها التي جعلتها عامرة آهلة عبر عصور ما قبل التاريخ. لكن لا بد في هذا الصدد من حصول اتفاق حول مسألة تطور المناخ الصحراوي فنحن لا نعلم الى الآن ان كنا في قة تدهور المناخ، أو ان ذلك قد مر، أو لما يأت بعد. فأننا لا ندري بعد الكيفية التي بها يطرأ التصحر، فهل هو منتظم الإنتشار حول مركز معين؟ أو أن أطراف الصحراء تتحرك مثل كفتي ميزان، تارة نحو الجنوب وطورا نحو الشمال؟. أما تعاقب المراحل المناخية نفسها التي جعلت الصحراء في حالات كثيرة تسمح بعيش الانسان فيها، فانه يستلزم كثيرا من المعلومات كي نستعيد تسلسل أحداثه التاريخية بدقة. لقد اجريت في أماكن مختلفة بعض الأبحاث الهامة. لكن يجب اقرار ندرتها، ولم تقع محاولات جادة لتطويرها. الا أن قيمتها كبيرة جدا لا في ميدان البحث العلمي فحسب بل كذلك لفهم ظاهرة تهيم حياة الانسان. ان معرفة التغيرات المناخية الصحراوية في الدهر الرابع أصبحت ذات فائدة أساسية في دراسة التطورات البيئية. فنظرا الى أننا نعيش في عهد يكتسي فيه كل متر مربع قيمة معينة سيلعب هذا «القفر الرائع» دور تكون أهميته على قدر معرفتنا الدقيقة لماضيه.

## لمحة تاريخية

ان انعدام النشرات المرجعية المنتظمة الخاصة بالبحث في ما قبل التاريخ بمجموع الصحراء لا ييسر وضع خريطة للأعمال التي تم إنجازها في هذا الشأن. توجد بالنسبة للعهد الإستعماري نشرات مرجعية كالتى ذكرناها، لكنها ناقصة ومبعثرة. فالمكتشفات التي ذكرتها التقارير العسكرية مثلاً، يعبر الوصول اليها. ولا شك أن تقسيم الصحراء السياسي يفسر من جهة أخرى تشتت الدراسات التي اهتمت بشرواتها ما قبل التاريخ. لقد ساهم الانكليز والاسبان والفرنسيون والايطاليون مساهمة علمية هامة في اكتشاف ماضي الصحراء. وقد التحق بهم في هذا الشأن حديثا الألمان واليابانيون والروس الخ.

والملاحظ أن التوغل في الصحراء أمر حديث جدا.

ان أول دراسة جادة تتعلق بالصحراء قبل التاريخ قد تكون الدراسة التي نشرها القس ريتشارد (٧) سنة ١٨٦٨م: فهي تهيم الصحراء الجزائرية. ولقد بدأت الأبحاث في مصر في نفس

(١) غوتسي أ. ف.، ١٩٢٨م.

(٢) مونود ت.، ١٩٤٥م، ص ٢٧ - ٥٥ ندوة بورغ فرنشتاين ١٩٦١م.

(٣) كابوت - ري ر.، ١٩٥٣م.

(٤) دوبياف ج.، ١٩٥٩م.

(٥) بالوت ل.، ١٩٥٢م.

(٦) بوتزرك. ف.، ١٩٥٨م حزين (ج) ١٩٣٦، ص ١٩ - ٢٢.

(٧) ريتشارد، القس، ١٨٦٨م ص ٧٤ - ٧٥.

الوقت تقريبا وكان منطلقها رسالة أ. أرسلان بتاريخ فيفري ١٨٦٧م (٨). ولم تبدأ الأبحاث في الغرب الا في بداية القرن الحالي. أما الأعمال التي تهتم الصحراء الوسطى، فهي مدينة جدا للبعثات الاستكشافية التي أرسلها فوروا ابتداء من سنة ١٨٧٦م (٩) والتي بلغت أوجها مع بعثه سنة ١٨٩٨م - ١٩٠٠م الهامة (١٠) وفيما بين ذلك ذكر لنز (١١) وجود أدوات ما قبل التاريخ في تدنيت سنة ١٨٨٦م. وبعد ذلك راجت الدراسات المتعلقة بالصحراء فيما قبل التاريخ ثم عرقلتها قليلا الحربان العالميتان.

فمن المعلوم ان ثروات الصحراء في تلك الحقبة شددت اليها اهتمام العلماء. لكن يستحيل علينا أن نقدم هنا قائمة كاملة عنهم. الا أن قراءة تلك الأعمال القديمة مذهشة لما توفره من معلومات ثرية. فأعمال س. ب. م. فلامان (١٢) وفرو بينيوس (١٣) والآنسة كانون - طومسون (١٤) مثلا تعتبر تمهيدا أساسيا لكل دراسة جادة للصحراء في ما قبل التاريخ.

ان البحث في فترة ما قبل التاريخ قد تأثر في الصحراء أكثر من أي مكان آخر بالاهتمامات العاجلة وقد التصقت به ظاهرة خاصة جدا أدت الى سوء فهم مشاكله الحقيقية لمدة طويلة. فكثيرا ما اعتبر ما قبل تاريخ الصحراء «علما ملحقا» ضمن اهتمامات البعثات التي كانت تجوب الصحراء. وعلى هذا الأساس فلقد كان ما قبل تاريخ الصحراء يعهد به الى هواة أو اخصائيين في مسائل أخرى، لا يولون لمحتواه الإهتمام اللازم، ويضاف الى ذلك ان صعوبة التغلغل في ذلك الوسط الذي تتعلق فيه حياة الانسان بكل كيلوغرام يحمله معه، كانت تجعل من الوثائق الخاصة بما قبل التاريخ بشكلها وعيها الثقيل ما يبعث على اهمالها. ويجب أن نضيف الى ذلك أن الصحراء ليست وسطا مثاليا يسمح للمسافر بالتجوال، فضلا على القيام بحفريات جادة، وهذا ما يفسر لنا لماذا طال الحديث في شأن الصناعات في الهواء الطلق وانعدمت الدراسة الطبقيّة الأرضية انعداما تاما الخ.. والحقيقة أن الصحراء في عصر ما قبل التاريخ تعتبر ثرية مثل غيرها.

وما أن توفر الوقت والوسائل للبعثات المختصة حتى تغيرت الأوضاع بسرعة. وقد حدث ذلك اثر الحرب العالمية الثانية، وأمكن الحصول على عدد ضئيل مع الأسف، من الدراسات المفردة تتعلق بالخصوص بالهقار والساورة وتشاد، وموريطانيا، والصحراء الليبية والجزائر الخ.. ان التعاون بين الصناعة والعلم أدى الى تحقيق نتائج مذهشة ذكرت في الوثائق العلمية لبعثات برليني - تنري - تشاد (١٥).

ومع ذلك يصعب أن تضم فترة ما قبل تاريخ الصحراء رغم أهميته الكبرى وتراثه دفنا كتاب

(٨) أرسلان. رسالة بعث بها الى هيئة تحرير «مواد للتاريخ البدائي للانسان» نشرت في المجلد ٥ لسنة ١٨٦٩م.

(٩) فوروف. ١٨٨٣م.

(١٠) فوروف. ١٩٠٥م.

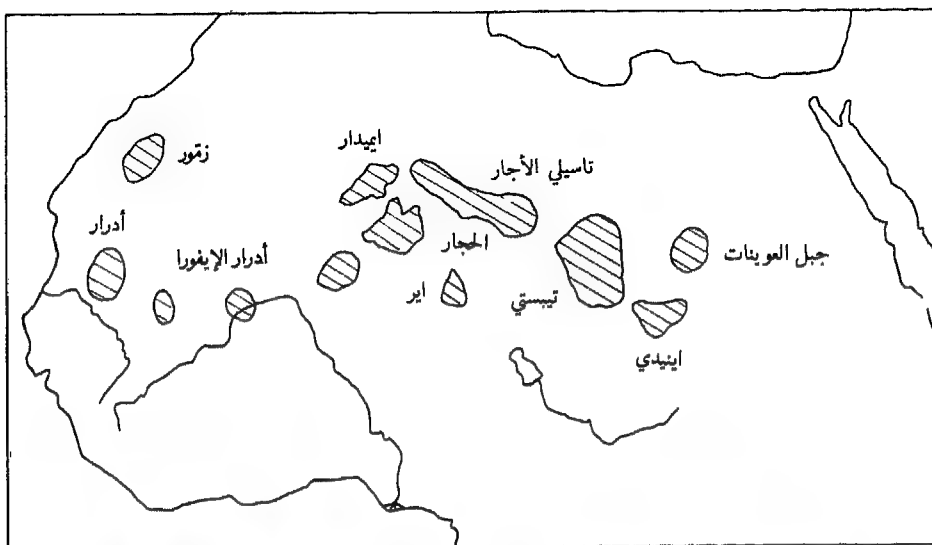
(١١) لنز. ١٨٦٤.

(١٢) فلامان ج. ت. ف. ١٩٠٢م، ص ٥٣٥ - ٥٣٨، ١٩٢١م، ص ١١٤ - ١١٥، هـ. بيري، ١٩٣٧م قائمة المواقع المدروسة

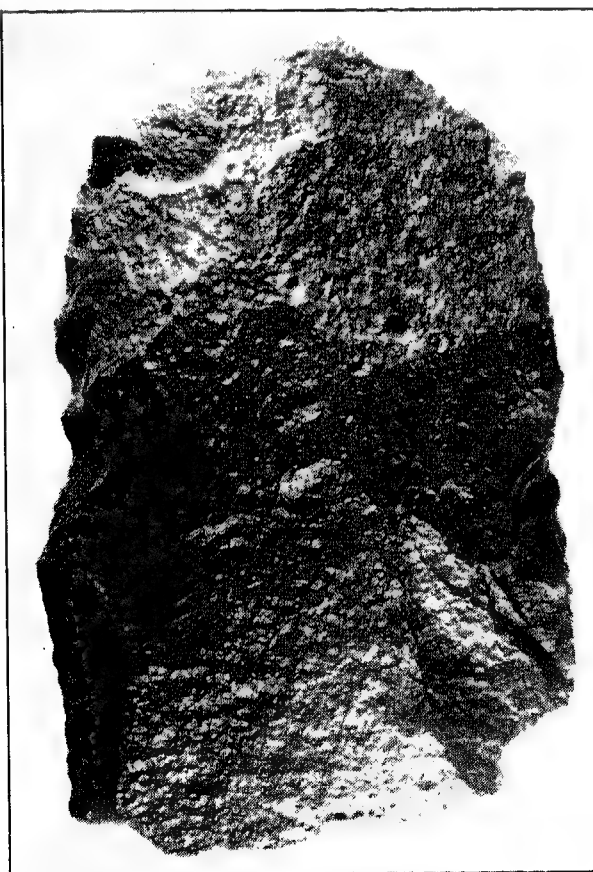
(١٣) فرو بينيوس ل. ١٩٣٧م.

(١٤) كانون - طومسون ك. وغردنر أ. و. ١٩٣٤م.

(١٥) هوغو. ج. ١٩٦٢م.



- ٢
- (١) المواقع الرئيسية لآثار الرسم والنحت على الصخور في الصحراء الكبرى.
  - (٢) فأس مسطحة ذات تجويفين، من جوتولوروم في النيجر.
  - (٣) بسلطة من تي - ان - أشاكو (مالي).



تعليمي أو يحويه حتى كتاب مبسط في زمن وصل فيه الانسان الى القمر. ويكفي أن نذكر أن ما قبل التاريخ كان موضوع عدد كبير من الدراسات التفصيلية وبعض الفصول من الكتب العامة نذكر بالأخص منها ما ألفه هـ. أيمان (١٦) وهـ. ج. هوغو (١٧) ور. فوفري (١٨).

## البحث عن ترتيب تاريخي

لقد بحث ما قبل تاريخ الصحراء منذ بدايته عن سلاسل للمقارنة بأوروبا لا سيما بفرنسا لذلك جرى الحديث عن «كلاكتو- أبفيلي» وعن «شليو- أشولي» و «الموستيري» و «الصفائح الأورينية» و «الحدود المورقة الشكل السلوتري» الخ. ان الاخطاء الناتجة عن هذه النظرة الساذجة مازالت آثارها قائمة، لا سيما وأن ما قبل تاريخ الصحراء، مثله مثل ما قبل تاريخ العالم كله، لا ينشأ إلا من تحليل الدراسات المفردة الشاملة المخصصة لمختلف صناعاتها. ولكن أمثال هذه الدراسات لا تزال مفقودة. وتوجد نتيجة أخرى مؤسفة لفقدان الانضباط في البحث في ما قبل تاريخ الصحراء، تكمن في اسناد انظمة اجتماعية معينة لأجناس بشرية منقرضة، دون ان تتوفر أية حجة جادة عن واقع الأحداث.

أما فيما يتعلق بالترتيب التاريخي (١٩) فان الأمر يستوجب ملاحظتين: أولهما تتمثل في أننا لا نعرف دراسة طبقية (٢٠) هامة مخصصة لأية نقطة من الصحراء تسمح لنا بأن نقرر اقرارا واضحا تعاقب طبقات ما قبل التاريخ. والملاحظة الثانية تبين — باستثناء العصر الحجري الجديد أنه — لم تتوفر لنا توار يخ مضبوطة تسمح بوضع ترتيب تاريخي مطلق. ورغم هذه الصعوبات فقد توفرت لنا

(١٦) أيمان هـ، ١٦٦٠ م.

(١٧) هوغو هـ، ج، ١٩٧٠ م.

(١٨) فوفري ر، ١٩٦٩ م.

(١٩) ترتيب الدهر الرابع: هو تعاقب ضمن الزمن لفترات مناخية مختلفة وفي حالات كثيرة لم تتوفر لنا بالنسبة للصحراء الفقيرة من حيث الدراسات الطبقية، عناصر ترتيب تاريخي نسبي. فكان عمل ج. شفايون أحسن ما قدم منها. (١٩٦٤). ميز هذا المؤلف انطلاقا من القاعدة الى قة الساورة في الشمال الغربي من الصحراء ما يلي:

الدهر الرابع القديم	عائدي
الفيلافرنسي	مزيري
الدهر الرابع الوسيط	تأورتي
	أوغرتي
الدهر الرابع الحديث	الساوري
الدهر الحالي	غويري

(٢٠) علم طبقات الأرض: وهو قراءة ثم تأويل الطبقات التي تعاقب تراكمها في مكان لتكوين التربة التي يسر عليها. ومن المعقول أن الصحراء التي خضعت لكوارث مناخية لم تحتفظ لنا بكثير من الشواهد. لكن يوجد منها نصيب، بل، نعلم أنه يوجد منها في أماكن، سلسلة من مسطحات ثلاث تعرف بالقدية والمتوسطة والحديثة وتشهد على ثلاث مراحل مناخية. إلا أنه ينبغي ألا نبالي في التعميم. إن مشكل المراحل المناخية المستقرة بالطبقة معقد جدا إذا اعتبرنا المناخات الصغيرة. إن الطبقة توحى بأن التصحر كان أمرا مقضيا حوالي — ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

أعمال حسنة للغاية قام بها ج. شفايون عن الساورة (٢١)، وه. فور عن تشاد (٢٢) وب. ه. شامار (٢٣) عن موريطانيا. وقد دعمت هذه التحاليل بدراسة محيطية جادة عن الجزائر (٢٤) والمغرب (٢٥) وليبيا (٢٦) الخ..

### اللوحة

الاطار  
التاريخي  
لما قبل تاريخ  
الصحراء

معالم تسمى «ما قبل الإسلام»	آخر تكرر رطب	من ١٠٠٠ سنة قبل عهدنا إلى ١٠٠٠ سنة من عهدنا
العصر الحجري الجديد الحديث تشيت فاديلي بوركو	طمي أعماق الأخلجة نقصان عيون الماء. الآبار الأولى إستمرار مناخات صغيرة جبلية	من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ سنة قبل عهدنا
العصر الحجري الجديد التقديم منية عين قزام تيلمسي؟	آخر حفر للأودية بحيرات ذات هازجة الماء	من ٢٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ سنة قبل عهدنا
	كشبان قديمة من نوع ٢ أو كير	من ٥٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ سنة قبل عهدنا
العاطري الساورة تديكلت موريطانيا العاير	المستوى النهائي للبحيرات الكبيرة ذات المشطورات جرى - فيل، فرس الماء الكركدن نظام تهاطل المياه كشبان قديمة من نوع ابراكين.	من ٧٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ سنة قبل عهدنا
الأشولي ٣ إلى ٨ ل. بيبيرسن (١٩٦١)	تمحدد القضاات انتهاء الإجتارف تشكل مسطحات تفاساسات	
حفصارة الحصاة المهياة	سيلان الأنهار الكبيرة ظهور البحيرات الكبيرة إجتارف عنيف	

- (٢١) شوافيون ج.، ١٩٦٤ م.  
(٢٢) فور ه.، ١٩٦٢ م.  
(٢٣) شامار ف.، ١٩٦٦ م. - ١٩٧٠ م.  
(٢٤) بالوت ل.، ١٩٥٥ م.  
(٢٥) بيبيرسن ب.، ١٩٦١ م.  
(٢٦) ماك بورني، ل. ب. م. وهاي ر. و.، ١٩٥٥ م.

وعلى ضوءها نستطيع تكوين فكرة واضحة نسبيا عن الخطوط الأساسية للإطار التاريخي لما قبل تاريخ الصحراء. غير أن افتقاره الى وثائق إحيائية وبصفة عامة الى مواد عضوية صالحة للاستعمال من أجل ضبط التواريخ بالاعتماد على القياس بالاشعاعية لا يسمح بضبط ترتيب زمني مطلق يتجاوز العصر الحجري الجديد (انظر اللوحة أسفله).

ان هذا الجدول مبسط طبعاً للغاية، خاصة أنه لا يتضمن مجموعة كبرى من الشظايا التي تعتمد تقنية لوفالوازية تثبت بأشياء من ذوات الوجهين الرقيقة التي لها حجم ووزن صغيران، ويحتمل ان يعود تاريخها الى نهاية الأشولي. وذلك شأن تغلغمين (٢٧)، وبروكو (٢٩) الخ... ونلاحظ أنه لا يوجد اليوم ما يسمح بالحديث عن العصر الحجري القديم الأعلى (٢٩) بالصحراء. ان هذا المفهوم ليس له ما يدعّمه في الوقائع. والخطأ أكبر اذا تحدثنا عن العصر الحجري الوسيط، لأن المصطلح أصبح مهجوراً.

ويمكن أن ينشأ عن الجدول السابق ترتيب تاريخي أكثر تفصيلاً. فهو يربط خطوط المناخ العامة التي نعرفها بالعمران البشري في ما قبل التاريخ. ولم تتوفر الصحراء الا عددا قليلا جدا من الهياكل العظمية مع بعض الصناعات التي تسمح بتصنيفها الا أن ما يوجد منها يؤكد ان الانسان قديم جدا.

## العصر الحجري القديم

### ظهور الانسان بالصحراء وصناعة الحصاة المهيأة

كثيرا ما نشاهد على ضفاف أنهار قديمة زالت من الوجود، مسطحات تشكلت عندما كانت مياه تلك الأنهار موجودة، وتتكون تلك المسطحات من ثلاثة مستويات مختلفة يعبر عنها، طلبا للسهولة، بالمسطحة القديمة والمسطحة الوسيطة والمسطحة الحديثة. ففي جبل إيجارن (٣٠) على بعد ١٢٠ كلم شرقي عين صالح (في صحراء الجزائر) وفرت المسطحة القديمة حصاة مهيأة. ونحن نعلم ان تلك الحصاة تعتبر أول الادوات التي بها سمة مشهودة ناتجة عن صنع الانسان. وفي أغلب الحالات لا نعدو أن تكون حصاة بسيطة نهرية اقتطعت من جزء منها شظايا لصنع حد حشن أو ملتنو. ولقد اعتبر بعضهم أن تلك الأشياء من خصائص صناعة الانسان الماهر.

ونوجد أيضا في صحراء نيجيريا، على ضفاف تفاساسات (٣١)، وهو من روافد بحيرة تشاد القديمة التي تصب في بحيرة تشاد، وتوجد كمية كبيرة من الحصاة المهيأة، لكن وضعها يختلف عما

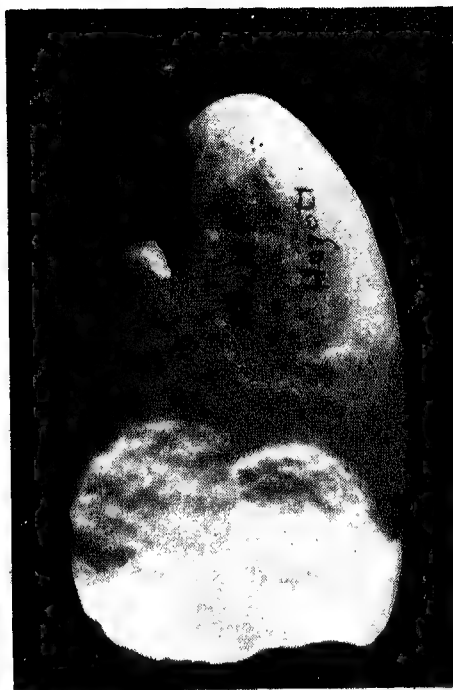
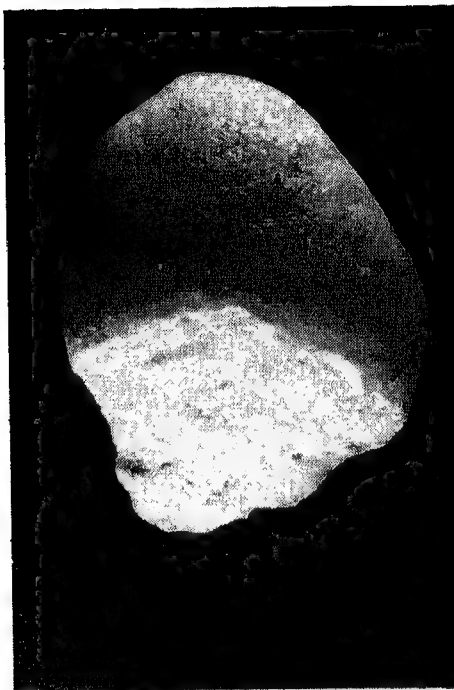
(٢٧) نفس المرجع، ١٩٦٢م، انظر الحاشية السابقة عدد ١٥.

(٢٨) نفس المرجع، ١٩٦٢م، انظر الحاشية السابقة عدد ١٥.

(٢٩) العصر الحجري القديم: ان التقسيم التاريخي الناشئ عن تمييز الانسان الماهر بكونه السلف المحتمل لسلالة الانسان الحالية لم يغير المشاكل المطروحة بالصحراء، اذ يبدو حاليا أنه لم يوجد لا عصر حجري قديم متوسط ولا عصر حجري لاحق. يحتمل وجود عصر حجري قديم نهائي يمثله العاطري الآتي بعد الموستيري والمتفصل عن العصر الحجري الجديد بفراغ قصير.

(٣٠) بوني أ.، ١٩٦١م ص ٥١ - ٦١.

(٣١) هوفو. ج.، ١٩٦٢م ص ١٥١ - ١٥٢.



- ١ و ٢) حصانان مشكلتان (ثقافة الحصى)، أوليف (الصحراء الجزائرية).  
٣) أداة ثنائية الوجه من الحجر القديم الأدنى، من تاشنقيط، (الصحراء الجزائرية). ٤) بلطة من الحجر القديم الأدنى، من تاشنقيط، (الصحراء الجزائرية).



هي عليه حصاة إيجارن. وتوجد كذلك مجموعات أخرى مثل مجموعة (٣٢). أوليف التي اندثرت أو أتلقت أما مجموعة الساورة (٣٣) فعددها من ضالته لا يسمح أن تكون موضوع دراسة. فالذي يمكن أن نؤكد هو أن حضارة الحصاة قد عرفت انتشارا واسعا داخل الصحراء التي كانت رطبة خلافا لما هي عليه الآن. وإننا لنأسف على انعدام وصول أي أحفور حيواني وإنساني إلينا عن ذلك العهد فلا يمكن لنا إلا أن نبدي افتراضا مفاده أن تلك الأدوات الخشنة جدا التي تعتبر باستثناء المواقع المجموعة بهاء منتشرة في كل مكان بالصحراء، الأدوات التي نحتمل واستعملها أسلافنا البعيدون.

### الإنسان المستقيم، صانع ذوات الوجهين

إن نهاية حضارة الحصاة المهيأة أبرزت تطورا تقنيا آلا إلى أشكال قد تليق بالمستوى الذي وصل إليه الإنسان في بداية العصر الحجري القديم الأسفل. إن السر الذي يحيط بالتطور الإنساني الكبير والتفني المتميز بظهور ذي الوجهين مازال قائما. فلم يكشف في الصحراء أي هيكل عظمي لأصحاب تلك الأدوات البديعة والقدوم الذي اشتق منها، مما يوحي بوجود أفق غابي ربما كان مسيطرا في ذلك العهد. إننا نجعل البيئة التي عاش فيها أولئك الذين اخترعوا الحصاة المهيأة. ولقد نوفرت معلومات مفيدة عن بيئة اللين أتوا بعدهم. إن الصحراء التي كانت موطن بحيرات كثيرة قد توفرت فيها مياه وأمطار كافية ساعدت على نمواتات توحى بمناخ ميال إلى البرودة. وبالطبع كانت الحيوانات الاثيوبية منتشرة بها في كل مكان. ولقد طرأ حدث هام مفاده أن الأمطار الاعصارية التي اختصت بها الحقبة التالية أتلقت أو قضت على كل الترسبات التي تراكت في أعماق بحيرات ذلك العهد ولقد عجلت بسرعة اندثارها مرحلة جفاف كبيرة طرأت بين ذلك العهد والعصر الموالي.

ولقد كانت الشواهد الطبقة قليلة جدا نتيجة لتلك الاندثارات، وإن كان عدد ذوات الوجهين التي تغطي الصحراء كبيرا جدا.

ونحن لا نتجرأ على التأكيد أن الإنسان الأحفوري التشادي (٣٤) كان صانع ذوات الوجهين، ولقد وضعه فوفري (٣٥) في موضع الصدارة من فصل كتابه المخصص للعصر الحجري القديم الأسفل والأوسط بالصحراء. لكن هذا السلف المحترم الذي نجعل تماما أن كان بحق ناحت أدوات، لا يمثل في حقيقة الأمر إلا اكتشافا هام يتعلق بعصر الحجر القديم.

لقد وجدت في تبحوذين التي ذكرها أول مرة دوفيريبي سنة ١٨٦٤م (٣٦) والتي زارها، غوتي أ. ف.، وراينغاس سنة ١٩٣٢م (٣٧) صناعة مختلطة بحيوانات الكركدن، والفيل، وقرس البحر،

(٣٢) هوغو، ج.، ١٩٥٥م ص ١٣١ - ١٤٩.

(٣٣) شافايون ج.، ١٩٥٦.

(٣٤) كوبنس ي.، ١٩٦٢م ص ٤٥٥ - ٤٥٩.

(٣٥) فوفري ر.، المذكور أعلاه - (بعد وفاته) ١٩٦٩م، ٢١.

(٣٦) دوفيريبي ه.، ١٨٦٤م.

(٣٧) غوتي أ. ف.، وراينغاس م.، ١٩٣٤م.

والبقرريات والجاموس، والخنزير ذي القرنين وحمار الوحش، والتمساح والغزال الخ. فالواضح أن صناعة تيحودزين الأشولية كانت متطورة وغالبا ما كانت تعتمد على العظام والاحشاش في نحتها. فلقد بلغت مرحلة متقدمة ولا تعتبر موالية لحضارة سابقة

و يوجد على مسافة غير بعيدة من تيحودزين منجمان أشوليان جيلان جدا يتكونان من خليط من ذوات الوجهين وأحيانا من أشكال مصغرة تكاد تكون ((سبايكية (s'baikiennes). ومن قدومات ونعني بذلك منجم عرق أدمير (٣٨) الذي اكتشفه عسكري سنة ١٩٣٤م وكتب عنه لأول مرة هـ. لوط وهـ. كيلي سنة ١٩٣٦م (٣٩) ولم يضبط تاريخ ذلك المنجم، شأن منجم وادي تفاساسات (٤٠) الذي اكتشفته بعثة برليي — تينيري ولم يحظ باشغال كانت تسمح بإبراز أهميته للوجود.

ان تبليالة وتشقيط معروفتان (٤١) بذوات الوجهين المصنوعة من المرو الأحمر، وعلى الأخص بمجموعاتها الكبيرة من القدومات ذات التقنية المتقدمة جدا.

وفي تلك المنطقة نفسها من إفريقيا أبرزت أعمال ج. شوفايون وهـ. أليمان وجود أشولي متطور بعين المكان، قد يكون هو السابق مباشرة لصناعة الشظايا أو يكون قد اندمج في أشولي وسيط وذلك شأن مازرو بني عباس وكرزاز (٤٢).

وتوجد بشبكة منونة في الساورة من الصحراء الجزائرية (٤٣) مجموعة مفيدة لكنها لسوء الحظ قليلة العدد.

و يوجد الأشولي الوسيط في عين أكر وفي منيت وأرك (٤٤) تحت الطمي الذي يحتوي على العاطري المبعثر.

ولقد عثر على الأشولي أيضا بكميات متوفرة في أ. أوليف (٤٥) وتشردا (٤٦) والبيض (٤٧) والشهانب (٤٨) والصحراء الغربية (٤٩) وخرقة في الصحراء الليبية (٥٠). وخلاصة القول إنه يغطي كل الصحراء، لكننا عاجزون عن ترتيبه زمنيا إذ انه لا يوجد في وضع طبقي باستثناء أربع أو خمس طبقات فهو مازال يحتاج الى عمل أساسي يعتمد على عمل جاد في الحفريات والسبريات.

(٣٨) ان ذلك المنجم السطحي يدل أحسن دلالة على صعوبة التفريق بين الصناعة السائدة والتأثيرات المولية التي تؤثر بها أدوات أخرى أكثر حداثة.

(٣٩) لوط هـ، كيلي هـ، ١٩٣٦م ص ٢١٧ — ٢٢٦.

(٤٠) هوغو هـ، ج. ١٩٦٢م.

(٤١) شيمبوب.

(٤٢) أليمان هـ، ١٩٦٠م ص ٤٢١ — ٤٢٣.

(٤٣) شوفايون ج. ١٩٥٦م ص ٢٣١، وأيضا ١٩٥٨م ص ٤٣١ — ٤٤٣.

(٤٤) هوغو هـ، ١٩٦٣م.

(٤٥) بندو، ب. و «آل»، ١٩٣٨م ص ١٧ — ٢١.

(٤٦) دلوئي م. ١٩٤٨م.

(٤٧) بيريسن ب. ١٩٦٥م ص ١٧٣ — ١٨٩.

(٤٨) أركل أ. ج. ١٩٥٤م ص ٣٠ — ٣٤.

(٤٩) ألفرو باخ م. ١٩٤٦م.

(٥٠) كاتون — طمنس. ١٩٥٢م.

## النقطة الغامضة: صناعات الشظايا

يختص العصر الحجري القديم الأسفل الأوربي مثلها هو شأن الصحراء، بأداة أساسية وهي ذات الوجهين، فلقد ابتدأ من الاشكال الخشنة التي جمعت تحت عنوان (الشولي). ثم تطور نحو القطع الأنيقة المتوازية التي تم نحتها واكتمل مثل قطع «الميكوك».

لقد آذن بظهور ذوات الوجهين بالصحراء، الحصاة المهيأة الأخيرة، فلو حظ تغير جذري سريع في تقنية النحت. ويبدو ان تلك المهارة الجديدة من التهيئة العسيرة للحجارة لم تكن غريبة عن خفة الاشكال واتقان صنعها. فلم يحصل التطور في أوربا أو الصحراء الا بعد اكتشاف مزايا قارع مرن من العظم أو الخشب عوض المطرقة الحجرية التي لم تكن دقيقة، لما ينشأ عن حدة وقعها فان كان ذو الوجهين الأداة المعتمدة، أي بعبارة أخرى الأحفور الموجه في العصر الحجري القديم الأسفل، فان الامر يستوجب النظر لكي يعتبر الأداة الوحيدة التي صنعها الانسان المستقيم. وتوجد أسباب كثيرة أدت الى الاعتقاد بأن الشظايا كان منذ خطوات التقنية الأولى، مستعملة أيضا، كما استعمل جزء هام من الفواضل المختلفة من قطع النوى. لذلك كانت غلبة الشظايا أمرا طبيعيا في العصر الحجري القديم الوسيط (٥١)، فالشظية ليست اكتشافا بل هي تمثل تحويلا يتميز بتصغير شكل ذوات الوجهين التي أخذت تتطور نحو الهيكل السلاحى. ان ما يعتبر ثوريا لا يمكن في تعميم تقنية لوفالوا التي برزت مبكرا في الصحراء، واليها تنسب طريقة صنع بعض ذوات الوجهين في تشنقيط (٥٢)، واليها تنسب أيضا صناعة بروكو وتيمبرورين. وبالرغم من هذا الظهور المبكر، فليس لهذا الأمر— فيما يبدو— من علاقة بنمط عيش مخترعها. ولم يكن أولئك المتقدمون طبعاً نياندرتاليين والا كانوا قد اتخذوا طريقة عيش مغايرة تتطلب منهم استعمال أسلحة ومعدات أخف تخالف في فكرة صنعها ثقل ذي الوجهين والقدوم ان الشيء الذي يثير الاهتمام ولم ينه اليه أحد، ليس هو فقدان «موسستيري» حقيقي في الصحراء، أو فقدان أية صورة أخرى مشابهة له، بل لأن العاطري الذي خلفه، وهو في الحقيقة ذو طابع موسستيري يمثل في أساسه صناعة صيادين. فالذئب لا يذكر بالمقبض فحسب بل بالرمح. وتذكر (البولاتات) (Bolas) والشظايا الكبرى ذات الحدود اللوفالوازية بالآلات الصيد. فهي باختصار صناعة مهاجرين، ولذا كانت خفيفة بالمقارنة مع سابقتها.

## العاطري

يحتل العاطري (٥٣) في الوضع الراهن من البحث في الصحراء المكانة التي يتلها «الموسستيري»

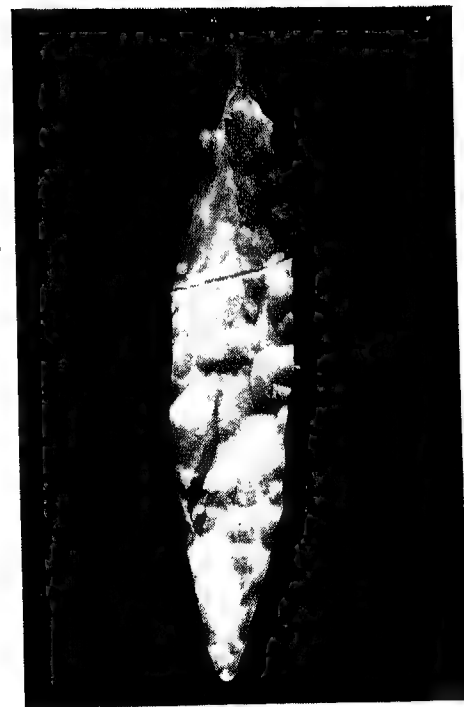
(٥١) إينغبي الانسي ان التغير الحقيقي انساني و يتمثل في ظهور انسان نياندرتال، صاحب الصناعات الموسستيرية.

(٥٢) تكتسي ج. ١٩٥٧.

(٥٣) العاطري: هو صناعة أصلها من شمال افريقيا، تتكون في مجموعها من أساس موسستيري تضاف اليه سلسلة كاملة من الأشياء المورقة الشكل. ان العاطري لاحق زمنيا للموسستيري المختص بالتقنية اللوفالوازية. ولقد تطورت تلك الأدوات الحجرية للممتازة بالتدرج عبر الصحراء. ويبدو ان حده الجنوبي كان يتكون من البحيرات الكبرى الجنوبية التي زالت اليوم باستثناء بحيرة تشاد، ولقد وجدت على الضفة الشمالية الشرقية من تشاد القديم، مواقع يمكن تحديد تاريخها بـ ٩٠٠٠ الى ٨٠٠٠ سنة قبل عهدنا. ان هذه الصناعة ينبغي أن تنسب الى العصر الحجري القديم النهائي، لا الى عصر حجري قديم وسيط.



- (١) شوكة كبيرة مزدوجة ثنائية الوجه  
أثيرية، من تيميموم، (الصحراء  
الجزائرية). (٢) أشواك أثيرية، من  
أوليف (الصحراء الجزائرية).  
● (٣) شوكة مزدوجة ثنائية الوجه  
أثيرية، من أدرار بوس • (النييج).



في غيرها من الأماكن. فله منه خصائص كثيرة وذلك بما فسحه من مجال لتقنية لوفالوا، إذا اعتبرنا التهذيبات ونوعية الأشياء المتممة. ويختلف عنه من ناحيتين:

- ١ — وجود زائدة ذنبية قد تكون حدا مهذباً أو خاماً، أو محكاً أو ازميلاً أو مثقبا.
  - ٢ — اختلافات ظاهرة في المستوى الإحصائي بالنسبة لصناعة المستيري. فان صرفنا النظر عن ذلك تظل فكرة «الاساس المستيري» قائمة. ورغم أنه لم يتوفر لنا هيكل عظمي عاطري، فلقد تعودنا على نسبة تلك الصناعة الهامة الى انسان قريب من انسان نياندرتال.
- ان العاطري كما نعلم هو صناعة من شمال افريقيا توجهت توجها قويا نحو الجنوب (٥٤) لتتوقف بصفة عامة على طول ضفاف البحيرات الكبرى في الصحراء الجنوبية. فبقدر ما كان يتجه نحو الجنوب كان يتحول حتى أنشأ المظهر الرائع بأدرار بسوس (٥٥) حيث تصاف الى المجموعة الكلاسيكية نوى وصفائح وشظايا ومحكات ومكاشط، وغرات وحدود مضاعفة ورقية الشكل نابعة من تقنية ذوات الوجهين، وكرات حجرية وكذلك نصال ذنبية تعتمد تقنية ذي الوجهين وتبلغ الواحدة منها ١٩ سم طولاً.

ان انتشار العاطري واسع جدا اذ أننا نجده في تونس (٥٦) والمغرب (٥٧) والجزائر (٥٨) والساورة وتديكلت حيث يستعمل استعمالا حسنا المادة الممتازة التي يوفرها أحفور (٥٩) أروكاريا وفي موريطانيا حيث يحده (٦٠) عموماً أدرار. كما أنه منتشر في المقار (٦١) وعرق أدمر (٦٢) وتيسحوذين (٦٣) وأدرار بسوس (٦٤). ونلاحظ أيضاً وجوده في الفزان وزمرى وتوجد آخر معاقله الشرقية في خرجة، بمصر (٦٥) وأما من الناحية الزمنية فان تحديد موقع العاطري أمر صعب. ولعله ظهر في حوالي ٣٥٠٠ سنة.

و يبدو أن تقدمه قد توقف على ضفاف بحيرة تشاد عند آخر ارتفاع من مستوى المياه ويؤرخ في تلك الظروف بـ ٩٠٠٠ الى ٧٠٠٠ سنة وان كان كل ذلك من باب الافتراضات.

كان من المنطق أن يأتي بعد هذه الصناعة التي تأثرت كثيرا بتأثيرات موسيرية، العصر الحجري القديم الأعلى، وذلك ما يفرض طرح سؤالين: هل يمكن لنا أن نضع العاطري المتأخر جدا ضمن العصر الحجري القديم الوسيط؟ ذلك ما لم يل إليه ل. بالوت في أطروحته الموقفة. ثم ماذا نعلم عن عصر حجري قديم لاحق في الصحراء؟ اننا لم نوث من العلم الا قليلا. ان صناعة وادي

(٥٤) هوغو. ج.، ١٩٦٧م ص ٥٢٩ — ٥٥٦.

(٥٥) هوغو. ج.، ١٩٦٢م ص ١٥٨ — ١٦٢.

(٥٦) غروني م.، ١٩٥٤م.

(٥٧) انطوان م.، ١٩٣٨م.

(٥٨) رايفاس م.، ١٩٢٢م ص ٤٦٧ — ٤٧٢.

(٥٩) غوتي ا. ف.، دوسان مارتان، ١٩٠٨م... رايفاس م.، ١٩٢٣م.

(٦٠) غويثات ر.، ١٩٧٢م ص ٢٩ — ٣٣.

(٦١) هوغو. ج.، ١٩٦٢م ص ٤٧ — ٧٠.

(٦٢) بوبوج.، ١٩٥٦م ص ٢٦٣ — ٢٦٨.

(٦٣) بالوت ل.، ارميورك.، وبالوت ل.، ١٩٥٥م ص ٢٨٧ — ٢٩٢.

(٦٤) هوغو. ج.، المذكور اعلاه، ١٩٦٢م ص ١٥٨ — ١٦٢.

(٦٥) كاتون — طامسن ك.، ١٩٥٢م و ١٩٤٦م.

أشد التي اكتشفها ر. موني (٦٦) لم تكشف بعد عن أسرارها. ولقد ظلت المجموعات الحجرية ذات الهيئة القابسية في ضفة تادمايت (٦٧) الجنوبية محل جدال. فلا يشهد على وجود تجمع قابسي أصيل في منطقة غمرتها الصحراء اليوم إلا مجموعة (مرجومة) التي تقادم عهدا (بوادي ميا، بنجد تادمايت بالصحراء الوسطى الجزائرية) ولكن هذا لا يكفي لإقناعنا. لذلك اقترح بعضهم سعيًا وراء وجود حل يوفّر ترتيبًا زمنيًا، بأن يضمّ العاطري تحت عنوان لا لبس فيه، هو العصر الحجري القديم النهائي.

## الفراغ

استعمل ج. د. كلارك حديثًا عبارة العصر الحجري الوسيط أو الميزوليتي لوصف صناعة متطورة ما بعد عاطرية نشأت في أدرار بوس (النيجر). ان الكلمة التي بدأ استعمالها يضمحلّ لحسن الحظ لا تفيد شيئًا على مستوى عام ولا تعبر عن شيء معروف في الصحراء ولا يمكن إلا أن تؤكد الخطأ المعروف الذي وقع فيه اركل (٦٨)، وهو خطأ معقول يوم كان يشتغل على النيل. ان علماء ما قبل التاريخ الفرنسيين لم يتفقوا في هذه المرحلة من البحث على هذا المصطلح. وهذا لا يعني ان مشكل العصر الحجري الوسيط قد سُوي. فلقد سبق السبيلي ٣ المصري الذي احتاحت له الحجارة الصغيرة الهندسية الشكل (٦٩) العصر الحجري الجديد (أ) دون أن يختلط به. وهناك آثار قليلة في الواقع تسمح بان نفترض أنه تجاوز المناطق التي وقع العثور فيها عليه.

## العصر الحجري الجديد

اننا نجعل المهم من أصل الأجناس المستسبة الى العصر الحجري الجديد (٧٠). ويدوأننا تقدمت تدريجيًا عبر الصحراء منطلقًا من قواعد مختلفة. وتوجد حسب م. ك. شملا (٧١) ظاهرة قارة في تعيير الصحراء في العصر الحجري الجديد، وهو الهجانة بقطبيها: السود من جهة، والبيض من جهة أخرى، وأصلهما نصف شرقي ويجمعون تحت اسم «أهل حوض البحر المتوسط».

(٦٦) صناعة غير معروفة محفوظة بقسم ما قبل التاريخ (IFAN) بجامعة داكار.

(٦٧) هو عهد ج. ١٩٥٢ م - ٦٠٣.

(٦٨) اركل أ. ج. ١٩٤٩ م، اركل أ. ج. ١٩٤٣ م.

(٦٩) هنيار أ. ١٩٢٣ م - ١ - ٧٦.

(٧٠) العصر الحجري الجديد: يستعمل للدلالة على ظهور تقنيات جديدة لا سبها من الحرف وصقل الحجر، وبداية تأهيل الحيوانات، والفلاحة والعمارة الخ.. فيضاف الى الأساس المتطور جدا من الصناعة الحجرية بالعصر الحجري القديم اللاحق. ففي الصحراء يبدو أن أقدم أماكن ذلك العهد تنتسب الى الألفيات ٥ الى ٦ قبل الميلاد. ونعلم ان العصر الحجري الجديد يمكن ان ينشأ عن معرفة كامل التقنيات المذكورة، إلا أن من أهم المظاهر التي يجب الاعتناء بها المظاهر التي تتمثل في طهي الاغذية، الذي سيؤثر بتغييراته الكيميائية، بطريقة حاسمة على التطور البدني للإنسان. ويوفر العصر الحجري الجديد الصحراوي وتياراته المتعددة مثالا لنوع من «الانفجار التقني» لا مثالا ثوريا كما زعم بعضهم.

(٧١) شملا م. ١٩٦٨.

## الاعمار الأول: أهل العصر الحجري الجديد من ذوي التقاليد السودانية

لا بد من توفر عوامل كثيرة حتى يكون لسكان الصحراء أصل واحد في العصر الحجري الجديد. فإذا اعتمدنا الترتيب، نرى ان أقدم موجة كانت تلك الموجة التي تكونت على ضفاف النيل موازية لمستوى الخرطوم والشهبان، وتحركت من الشرق الى الغرب على طول البحيرات الكبرى. ولا يبدو أنها تجاوزت كثيرا الحاشية الشرقية أوكرو، أو أنها توغلت في الغابة. لكنها استكشفت الشمال على الأقل مرتين: الأولى في الهقار شمالا، حتى الحدود الشمالية من المنطقة التي تشمل ما قبل العصر التاسيلي والاخرى حتى الساورة، انطلاقا من تلمسي. وتعرف تلك الحضارة الرائعة بسهولة اعتمادا على خصائصها وعلى غنى زخرفة الحرف، ولكنها في المستوى الصناعي عسيرة التحديد اذ أن أهل العصر الحجري الجديد من ذوي التقاليد السودانية قد استفادوا من جهات متعددة. فهؤلاء السكان الأوائل للصحراء كانوا صيادي سمك وحيوانات، وكانوا يجنون الثمار، وكانوا مغرومين بلحم فرس البحر وثمار النشم، لكنهم لا ينفرون من أكل سمك البحيرات أو سلحفاة المياه الحلوة أو قشاء الماء. ان تعاطيهم لصنع القدومات وأدوات العزق والهرس والدرس وغيرها لا يثبت بتاتا أنهم اتقنوا عملا معينا من أعمال الفلاحة (٧٢) وعلى كل فان ملأ الجرار المستعمل بثمار النشم وكثرة اكتشاف آثار اللب لفصائل القرعيات في الحفريات قد يدفعان الى الاعتقاد بوجود شبه فلاحية بدائية. ولقد حدث أن وزعت الاعمال حسب وظائف مختصة، فكان صقل الحجارة واسع الانتشار وكانت أدوات الحرب متعددة. وكان الصيد يعتمد على القوس والرمح وكانت تستعمل المخاطيف والصنارات العظمية، وكانت الفأس وآلات العزق والهرس الحجرية المصقولة تحتل مكانة كبيرة بين معداتهم. ولما كانوا بارعين في تهيئة الدرر (الأزنيث والكلسدون والهماتيت والكرنلين الخ) صنع المختصون آلات ثقوب طريفة (٧٣) تجمع بين الأزميل والابر، ومثاقب كانت تستعمل مع المواد الصمغية والرمال الناعمة. وعندهم معدات للهرس كثيرة، بل جميلة جدا. فان لم تدل معدات الطحن في بعض الاحيان على الطحن، بأنهم معنى الكلمة فإنها على الأقل تدل على معرفتهم لفن الهرس. ويتكون المطحون أساسا من الطين الأحمر ويمكن أن يكون حبوبا برية وعنبيات كانت عشبية يابسة ومصبوغات نباتية ومنتجات صيدلية. ان أدوات الفخار تستحق اهتماما خاصة لثراء تزويقها وجمال أشكالها. وهنا نلاحظ ان الاشكال المخروطية ذات النتوءات والاشكال المستطيلة كالجرار، مفقودة. وعلى العكس من هذا، نجد بعض المناقير المسكية وبعض العرى والقفلات.

(٧٢) الفلاحة: زراعة متقنة للنباتات المختارة على قطع أرضية هيئت خصيصا لهذا (الغرض). ان الدليل على معرفة فلاحية ما قد تنشأ

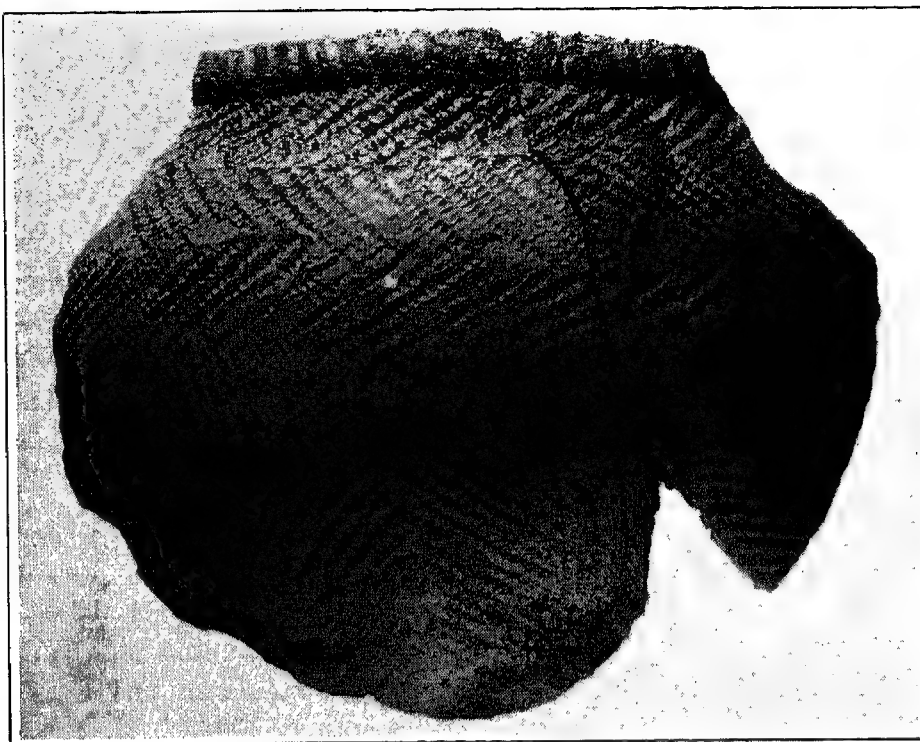
عن:

أدلة بليولوجية صالحة احصائيا.

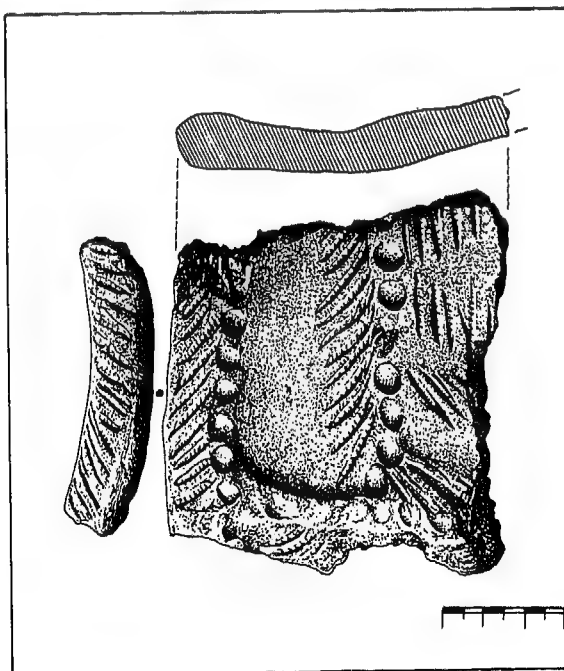
وجود آثار أراض مزروعة.

الحصول على نباتات أحفورية معروفة. ولا يكفي وجود أدوات معروفة بأنها «فلاحية» ومن الممكن أن تكون تلك الآلات قد استعملت لاستخراج الطين لصنع الحرف، والرحي لطحن مواد التلوين والحبوب البرية، والأدوية الطبية الخ... ان نسبة كلمة «فلاحي» تنشأ اذن من قواعد دقيقة لا من فرضيات وأهية.

(٧٣) غوسان م. وج. ١٩٦٥م، ص ٢٣٧.



- (١) قطعة خزف من الحجري  
الحليث، من دهارة تيشيت  
(موريتانيا).
- (٢) قطعة خزف من أكريجيت  
(موريتانيا).





## العصر الحجري الجديد الغيني

ان تلك الموجة الأولى من أهل العصر الحجري الجديد قد أصبحت معروفة بعض الشيء ولقد تلاها في اتجاه الجنوب جنس افريقي آخر سيحتل الغابة. فهو رغم أهميته التي أخفاها كثيرا الغطاء الغابي، سيسمى هذا العصر الحجري الجديد المعروف جيدا بغينيا، العصر الحجري الجديد الغيني (٧٤) وان كان يحتمل أن يكون أصله من افريقيا الوسطى.

## العصر الحجري الجديد ذو التقاليد القابسية

ويأتي بعد ذلك العصر الحجري الجديد ذو التقاليد القابسية الناتج عن أثر العصر الحجري الجديد بعين مكان القابسي الافريقي القديم و يبدأ يتحرك نحو الجنوب فيصل الى شمال شرقي موريطانيا والهضاب حتى منيت، حيث ينتشر على سطح مواقع العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية. ان حده الشرقي غير مدقق لفقدان دراسات مفردة ليبية صالحة للاستعمال. فالعصر الحجري الجديد ذو التقاليد القابسية أكثر وقعا من العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية ان خزفه قليل التزيين أو منعدمه وكثيرا ما تكون الصناعة الحجرية ذات التقاليد القابسية في الغالب لها تقنية جادة وقد أترى مظهرها الصحراوي عدد وافر وروائع من الهياكل للحدود والسهام، في حين أن الصناعة الحجرية ذات التقاليد السودانية كثيرا ما تكون ذات طابع انتهازى. ان حجارته المصقولة كثيرا ما تكون جميلة جدا. ان الانطباع الذي تركه من الخزف أزالته قطع حجرية صلبة وتمائيل صغيرة (٧٥) ذات أشكال حيوانية رائعة. ونجد في ذلك المظهر من العصر الحجري الجديد خرزا للنظم يتكون أجزاؤه أحيانا من سوسن البحر وغالبا من قطع اسطوانية الشكل مصنوعة من قشرة بيض النعامة ولقد أفرغت بيضات كاملة وحولت الى أوان قد زين بعضها رسوم خطية.

اننا نعلم أن الايبيرو-موروسيين يختلفون عن القابسيين. وبينما نجد هؤلاء قد سكنوا خاصة الانجاد العالية الجزائرية حيث تركوا تلك الأكداس العجيبة الصدفية المعروفة بالحلزونيات، فان الايبيرو-موروسيين استقروا على ضفاف البحر الأبيض المتوسط في تونس والمغرب. واننا لا نعلم كيف توصل «أشباه الكرومانيين هؤلاء الى الاستقرار في شمال افريقيا ولا كيف انقسم الجنسان. كل ما نعلمه أنها قد انطبعا بطابع العصر الحجري الجديد في عين المكان.

وكان أهل العصر الحجري الجديد ذوو التقاليد الايبيرو-موروسية يعيشون قرب البحر وقد أثر ذلك فهم. فان تمادينا نحاذي ضفة المغرب الأطلسية نحو الجنوب، سنكتشف وجود كجكبنودنغيات (Kjokenmødding) متكونة من أصداف بلح البحر والمحار ومن أم الحلول التي مازالت تستهلك بالسنگال الى يومنا هذا. ولقد عم في الصحراء المغربية والموريتانية ذلك المظهر الخاص جدا والذي درس أولم يدرس الا قليلا وهو يتميز بفخار قليل الزركشة خشن يكتون من

(٧٤) دولاكروا، وفورري، ١٩٣٩م، ص ٢٦٥-٣١٢.

(٧٥) مجموعات ما قبل التاريخ بمتحف علم الاجناس لما قبل التاريخ بباردو (الجزائر) - مجلد رقم ١، م. ج. طبعة باريس ١٩٥٦م، لוחات ١٠٧ الى ١١٠.

حجارة المواقد، وله صناعة حجرية نادرة. فيكون من المفيد أن نعلم كيف تشكل ومن أين أتى، لأننا وإن كنا نعلم بأنه تأثر بنظيره الأيبيرو-موروسي في المغرب - فنحن نجهل كل شيء عن كل عناصره.

## التينيري

وقد لفت نظر الاخصائيين تيار خامس وهو ذلك الذي وقع التعرف عليه في ادرار بوس وأطلق عليه لهذا السبب اسم «التينيري» ولقد اقترح أخيراً ج. د. كلارك الذي رآه في عين المكان بأنه يمكن أن يكون ممثلاً للعصر الحجري الجديد الصحراوي، وذلك غير مقبول إلا إذا اعتبرنا أن لفظ «صحراوي» ينعت منطقة جغرافية واسعة.

إن التينيري الذي اكتشفه جوبار (٧٦) سنة ١٩٤١م لا يمكن اعتباره كلاسيكياً إن اعتبرنا هياكله التي تظهر في شكل زهرة اللوتس، واطباقه ومحكاته المحدودة السمكة وعناصره المنشارية وفؤوسه ذات الحلقتين، ونماذجه البشرية وتشكلاته العديدة، لأن ذلك المصطلح خاص بالمظهرين السوداني والقابسي اللذين يغطيان معظم الصحراء. وكثيراً ما رغب فوفري في أرجاع كل شيء إلى العصر الحجري ذي التقاليد القاسبية (٧٧) وهو يقول: «إن التأثيرات المصرية المعروفة في الجزائر توغلت في أكمل مظاهرها حتى الهقار»، ثم يضيف قائلاً: «إن تلك المراحل التي بلغها التينيري تمثل أوج صناعة العصر الحجري الصحراوي التي نذكرنا بما قبل عهد الملوك المصري (٧٨). ولنلاحظ أيضاً أن التأثير المصري على التينيري لا يبدو واضحاً رغم تأكيدات فوفري. ولقد بقي أن نعرف بأية طريقة استطاعت صناعة التينيري الرفيعة المرتكزة في أساسها على اليشب الجميل أن تتأثر بذلك التأثير الذي تجلّى فيها بكل وضوح.

لكن يجب أن نحتاط من التعميم إلى ما لا نهاية له فيما يتعلق بمفهوم «المظهر» فنحن نعلم الآن أن نفس الجنس البشري قادر على أن يستجيب لما تقتضيه البيئة وباطن الأرض والمعادن الخ... فحيث يوجد اليشب والصوان اللذان يسمحان بخلق الروائع انطلاقاً من الحجر، ستنشأ صناعة تختلف عن الصناعة التي يمكن أن تنطلق من الصلصال الهش لأن الادارابوس «والغوسولوروم» (٧٩) شيء واحد لا يتجزأ، لكن وجبت الاحاطة بفن الحرف والاسطوانات والفؤوس الخ... حتى نؤمن بذلك فلا تلتقي الصناعات إلا في نوعية نحتها.

بقي لنا أن نقول كلمتين عن مظهر جميل جداً وجد في جنوب شرق موريتانيا، وبالتحديد على طول ظهر تشيت (٨٠). ولقد أبرزت دراسات هامة أجريت في تلك المنطقة صناعة متأخرة ومرتبطة

(٧٦) جوبار ج.، وفوفري ر.، ١٩٤١م - ١٩٤٦م، ص ٣٢٥ - ٣٣٠.

(٧٧) فوفري ر.، ١٩٣٨م، ص ١٠ - ٢٩.

(٧٨) فوفري ر.، المذكور أعلاه، ١٩٦٩م، ص ٦٦.

(٧٩) هوغو. ج.، المذكور أعلاه. ١٩٦٢م، ص ١٥٤ - ١٦٣ و ١٦٨ - ١٧٠.

(٨٠) هوغو. ج.، وآل، ١٩٧٣م.

بمجموعة خاصة من القرى المبنية بالطوب حيث بلغ العمران (٨١) وفن التحصين مستوى عالياً. ولقد تحصلنا أخيراً على ما يثبت أن المجموعات المحلية كانت منذ ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد تستهلك الذرة البيضاء وذلك يعطي معنى دقيقاً للأدوات العظيمة الخاصة بالطحن الموجودة بآثار تلك القرى. وتعتبر حضارة ظهر تشيت بفن الحزفي وبخصائصها الأخرى حضارة إفريقية، ولا شك أنها قد تكون آتية من الشرق وبالتحديد من مكان قرب تلمسي. غير أن هذا الرأي لا يعتبر سوى فرضية مؤقتة. فيمكن عندئذ أن يقتصر العصر الحجري الجديد على خطوط قوة مولدة لتيارات ثانوية انصفت بتراتها الثقافية المشترك الذي يعرف بالحزف، ونادراً ما يعرف بخصائص تقنية طبقت على الصناعة الحجرية.

ونستخلص من هذا أن العصر الحجري الجديد يمتد من الألفية الخامسة قبل الميلاد إلى بداية الألفية الأولى. ولم يفتأ مستوى البحيرات ينخفض في ذلك العهد وسرعان ما نزلت الحيوانات الأثيوبية نحو الحواشي، وخاصة نحو الجنوب وانقرضت النباتات وهاجر الإنسان بدوره مع قطعانه.

## الحيوانات والنباتات

أما الحيوانات فهي قد بقيت من العهد العاطري، وهو عهد قد انتهى عندما بلغت البحيرات مستواها العالي الأخير. ولقد عثر على شواطئها أو بمياهها على الحيوانات المدعوة بالأثيوبية ومنها الكركدن والتمساح والتمساح النيلي، وفرس البحر، والفيل والحمار الوحشي والزرافة والجاموس والخنزير ذو القرنين. ولقد كثرت آذاك في المياه بعض الحيوانات، مثل (كلارباس)، وفرخ النيل وكذلك سلحفاة الماء الحلول. أما المراعي، فكان فيها الماعز والظبي. إن هذه القائمة لا تستغرب إلا من حيث المكان الذي تطبق عليه وهو الصحراء. وعكسا لذلك فإن النباتات تدعو إلى الحيرة فلقد وجدت في بداية العصر الحجري شجر الجوز والنزيفون والصفصاف والدردار. وتدل صدفة عثر عليها في منيت (صحراء الجزائر) أن معدل كمية الأمطار كان يبلغ ٥٠٠ مم. وكانت نباتات الخننج تغطي بعض الطبقات الجبلية. وبسرعة بدأت النباتات تندثر تاركة مكانها لمشهد يوحى بجفاف شديد. فانقرض الأرز، وصنوبر حلب، والعرعر، والزيتون، والمصطكا وكذلك النشم الذي احتل مكانة هامة من حيث غذاء سكان تلك المناطق.

وكانت الرخويات متوفرة في البحيرات. فلقد وقع العثور في بعض المناطق على ترسبات كبرى من صفق أونيو (Unio). وبالطبع كانت صحراء العصر الحجري الجديد قد اختصت في فجر تلك الحضارة بوجود مجموعة من البحيرات التي كانت منعزلة، وعلى ضفافها نشأ أهل العصر الحجري الجديد ذوو التقاليد السودانية. ولقد كانت تلك البحيرات قد ساعدت على استقرار مجموعات إنسانية بما وفرته لها من موارد.

(٨١) العمران: هو دراسة مخطط مجموعة سكنية يقيم بها عموماً سكان مستقرون منظّمون حسب مخطط دقيق باعتبار تقسيم العمل والمعتقدات الدينية لسكانه. ويعتبر مجموع ظهر تشيت الوحيد الذي ينطبق عليه هذا التعريف، وهو موجود في موريتانيا وتعود بدايته إلى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

## الصحراء مهد الزراعة

عرضت هذه الفكرة في مناسبات عدة ومن دون أن يستدل الكثيرون على امكانيات استعمال هذا المصطلح وما يترتب عليه من آثار خطيرة.

لا وجود لدليل على الفلاحة عندما يستند فقط على وجود أشياء أو أدوات معروفة بأنها فلاحية. ان الفلاحة يستدل عليها عندما تبرر الاحفورات والخبوب أو اللقاحات الفرضية المطبقة على الأشياء أو على الأدوات. ان جيوب الذرة الموجودة بتشتيت (موريتانيا) تؤكد آراء مونسن (٨٢) وآراء مونود (٨٣) في هذا الميدان.

أما فيما يتعلق بالباقي، فنحن نعلم ان سكان العصر الحجري الجديد بالصحراء كانوا قد جمعوا كميات هائلة من العنبات أو النشم الذي استعملوه للتغذية وقد لوحظ أيضا، في منبت وتشتيت وجود حبوب من القرعيات التي يحتمل أنها كانت بطيخا مائيا، لا من نوع الليمون القولوني الشكل. ان هذين النباتين الأخيرين يقطفان، وينتسبان الى بداية الفلاحة لا الى الفلاحة وهي تهيئة الارض لزراعة نباتات مختارة زراعا منظما.

ان القائمة تبدو اذن فقيرة (٨٤) فلا يوفر التحليل الباليولوجي للرواسب من العصر الحجري الجديد في منبت (النيوليتية) اشارة واحدة تخص شكلا معينا من الفلاحة. ولم يوفر تحليل عام بأدرار بوس شيئا يذكر، وكذلك الشأن في تين أسكو ومواقع عديدة درست من حيث هذا الصدد. ان الآثار الوحيدة عن استهلاك معين للمنتوجات النباتية بالمواقع النيوليتية الصحراوية تتمثل في حبوب الزرفوس واللوتوس والسلتيس وفي بعض النجيليات البرية، يضاف اليها آثار البنسم التي وجدها مونسن، وكذلك حبوب الذرة المكتشفة في تشيت، في تربيئات أحفورية.

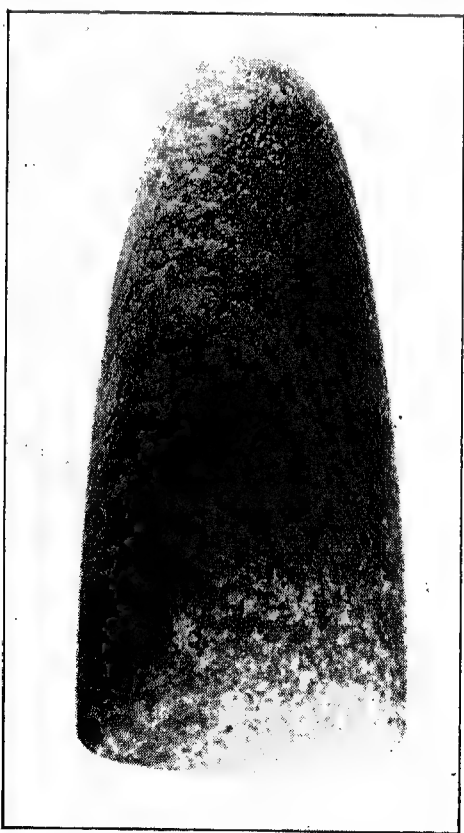
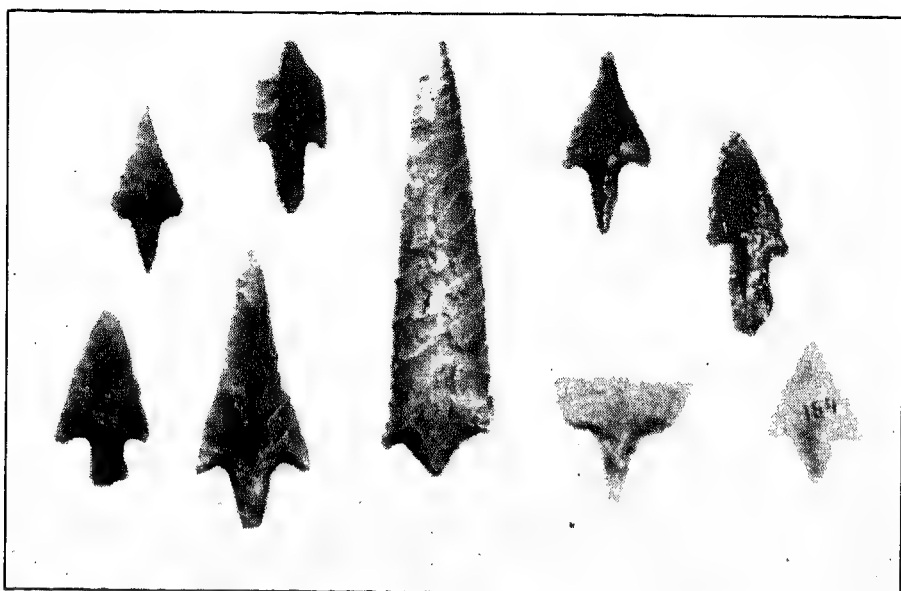
وقبل الوصول الى وضع خاتمة معينة علينا ان نحلل تحليلا شاملا رواسب العصر الحجري الجديد. ان الباليولوجيا رغم أهميتها لم تطبق على الصحراء الا قليلا فلتن سمحت الصحراء بزراعة بعض النباتات فلا يبدو أن تلك المنطقة كانت أصلح من مكان آخر لنمو النباتات المستهلكة العادية في شمال إفريقيا.

وخلاصة الأمر ان الرعاة كانوا منذ أمد طويل قد خلفوا في كل مكان تقريرا الصيادين والحوادين والقطافين. ان وجود أدوات حجرية في كل مكان تتكون من مجارف ومطاحن ومهريس ومن موازين لإثقال عصي الحفر، ومن مناقير، لا يعني حتما وجود زراعة بالمعنى المعروف للكلمة. ففي مصر حيث تطور هذا المظهر تطورا كبيرا، نجد له آثارا واضحة في كل مكان. ولقد وجد أيضا في تشيت بموريتانيا لأن قري الاستقرار كانت تبرر ذلك الوجود. ولكن الأمر ليس كذلك في أماكن أخرى. وعلى كل حال لا ننس أن تحول الصحراء الى أرض جرداء قد أصبح أمرا مقضيا في ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ولم يساعد انعدام الامطار الفلاحة، وهذا لا يعني الجهل بأي نوع من أنواع الفلاحة أو القطف الانتقائي الذي سبقها. و يضاف الى ذلك ان تجربة الغذاء ذي الأصل النباتي قاد

(٨٢) مونسن ب. ج. ١٩٦٣م، ص ٦ - ١٣.

(٨٣) مونود ث. ١٩٦١م، ص ١٥٦.

(٨٤) فلامان س. ب. ١٩٢١م.



- (١) رؤوس أسهم من الحجري الحديث، من غويزام (النيجر)
- (٢) فأس ذات عنق من الحجري الحديث، من أدرار بوس (النيجر).
- (٣) فأس مصقولة من الحجري الحديث، منطقة فايا (تشاد).

أصحابها الى البحث عن أنواع معينة أي أنها أدت بهم الى شكل أولي من الإنتقاء. فلا توجد امكانية للزراعة الا في اطار من الاستقرار أو في اطار اقامة. لكن العصر الحجري الجديد المحتجب كان في أماكن كثيرة من الصحراء، يوحى بمخيمات أناس رحل أكثر مما كان يوحى بقوى منظمة وإن كانت موجودة.

## أصل التاهيل والصحراء

لقد كان لصحراء العصر الحجري الجديد حياتها الخاصة. وبالرغم من أن رعاة البقر في تأسيلي ناجر كانوا معاصرين للعربات «الطائرة عدوا» والتي لم يدقق تاريخها والتي يمكن أن تكون معاصرة لغزوات «شعوب البحر» الذين شتتوا بعد نجاحهم غزو مصر، فإنهم قد طوروا بعين المكان طريقة لتربية الماشية كانت تدهش دائما من لا يعرفها اذ يبدو ان الحضارة البقرية قد بلغت في ذلك العهد أوجها فاكتمست فنا راقيا يتعلق بطرق تربية الماشية التي تتطلب تعلما طويلا. ولقد تعاطى المصريون تجارب متنوعة في تربية الحيوان التي عرفناها من خلال الرسوم الجدارية ولولاها ما علمنا أنهم حاولوا تاهيل السنوريات والغزال والكلبيات وحتى الضباع. فكيف كان الامر بالصحراء؟ يبدو أن السلوقي السوداني وهو مساعد ثمين للصيادين كان من سلالة قديمة جدا. فلعله هو الذي كان ممثلا في الرسوم البقرية وتوجد إشارات أخرى الا أنه ليس فيها ما يقوم حجة ثابتة. ونحن نعلم أن الثور والكلب، كانا موجودين في أواخر ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد، لكن الرسامين على الجدران لم يبينوا لنا، بالنسبة للحقبات السابقة، ما هي الحيوانات التي حاول الإنسان تأهيلها.

## الحياة في العصر الحجري الجديد (\*)

اننا نعلم ان أهال العصر الحجري الجديد ذوي التقاليد السودانية، كانوا يتطفلون تطفلا لا نهاية له للاطلاع على التقنيات الجديدة فلقد ظلوا ينحتون الحجر ليستخرجوا منه مجموعة من الأسلحة الرائعة تتكون من الحدود المختلفة التهذيب، ومن مثاقب، ومكاشط لها أشكال متعددة ومن حجارة صغيرة هندسية الشكل، ومنشورات الخ... ان الجديد عندهم هو التقنية الجديدة في صقل الحجر وقد استخدموها في صنع الفؤوس والمجارف والمناكير والمقصات. وتضاف الى تلك المجموعة أحيانا أوعية من الحجر الصلب، ولبريات Labrets ودرر من الأمزونية والكرنيلين والمرو، وكرات (لعلها كانت قذائف). واليها يضاف أيضا العديد من الرحي القارة والمهاريس التي ليست بالضرورة دليلا على معرفة الفلاحة، و«كوا» (وهي حجارة تثقل به عصي الحفر) وكانت تستعمل سابقا في جنوب افريقيا. أو عند البيغمي. ويكتمل كل ذلك بسلسلة رائعة من الأواني الخزفية التي كانت أشكالها وتزييناتها زنجية افريقية. ولقد صنع العظم واستعمل، لصنع مخاطيف ومثاقب، وابر، وأمشاط لصانعي الفخار ومصاقل وأحيانا خناجر. ان أهالي العصر الحجري الجديد السودانيين استطاعوا التأقلم ببراعة مع الحتمية المعدنية بالأقطار التي أقاموا بها وذلك ما أدى الى الإعتقاد بتعدد

\* انظر المراجع العامة بالفصل المخصص للعصر الحجري الجديد.

الأسس العرقية، وإن كانوا من جهة أخرى مستقرين أحسن استقرار وموحدين ثقافيا. و يكفي دليلا على ذلك تناسق ما توحى به تزويقات الحرف. نضيف الى هذا أن أولئك الناس المكونين في بوتقة الحياة الاجتماعية كانوا يعرفون الملاحة ولا يستبعد أن يكونوا قد تجولوا عبر البحيرات على ظهر قوارب من القصب مثلما هو الشأن بتشاد حيث تعرف باسم «كداي».

وهناك اختلاف في مسائل عديدة بين رجال العصر الحجري الجديد أصحاب التقاليد القابسية وأشباههم وسابقيهم من ذوي التقاليد السودانية. ان هؤلاء انطلقوا من السودان على موجات عديدة، من الشرق الى الغرب دون أن يلبثوا حسبا بيدو الساحل الأطلسي، وكانوا زنوجا وأكثرهم أفارقة أقحاح. أما الأهالي الذين انطلقوا من الهضاب الجزائرية فكانوا ينتسبون أكثر الى البحر الأبيض المتوسط وورثوا عن سابقيهم القابسيين مهبة ممتازة في نحت الصوان الجميل. ان حصيلة أدواتهم مدهشة وكثيرا ما تذكر الصفائح الدقيقة المهذبة بالحلي. وتضاف الى المثاقب والحدود والمكاشط الصغيرة، حجارة صغيرة هندسية الشكل متكونة على حسب الصفائح، وهي منحرفات، ومستطيلات ومثلثات، وقطع مستديرة. وهم لا يجهلون رغم ذلك فن الصيد لأنهم كانوا يصنعون أسلحة عديدة من حدود السهام التي أصبحت اليوم مع الأسف موضوع تجارة سياحية هامة. وكانت الفؤوس المصقولة عديدة ولم تكن ذات شكل قصير، كما كانت في العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية. وخلافا لذلك فان التقاليد القابسية تخصص مكانة أهم للأدوات الحجرية التي لها أيضا تقنية متنوعة. وهنا أيضا نجد الإنسان يعرف كيف يصقل القطع الحجرية الصلبة ويصنع حسب كرات مستديرة تماثيل بديعة صغيرة مثل بقرة سلت وكبش تمنيت وغزاله إمكاسن. الا أن الفخار يعتبر أقل ثراء من حيث الأشكال والتزويقات وذلك لا يعني أن الصانع كانوا محدودي الخيال لأنهم يعبرون عن ذلك الخيال من خلال قدرتهم على تزويق بيض النعام الذي يصنعون منه كاملا، أواني (مهشمة) ودررا عديدة. ولقد احتفظت قطع كثيرة من القشرة برسوم رقيقة خطية. ويوجد بالطبع بهذا الاطار رحي ثابتة ومهاريس ونعلم ان جزءا من هذا العتاد قد استعمل لهرس الأصباغ، ويحتمل أن يكون ذلك لدهن الاجسام.

ان العصر الحجري الجديد غير معروف كثيرا لأن الاعمال التي تتعلق به لم تنشر بعد. الا أننا نعلم أنه توجد، ابتداء من المغرب وعلى طول الساحل الأطلسي ترسبات لا تخصي من الصدوف تشكل أحيانا «تلالا». مخلوطة بالرماد وبقطع خزفية، وذلك هو الشأن حتى السنغال. ولكن يبدو أنه في تلك المنطقة، حل محل ذلك الجنس جنس آخر من قبل التاريخ بقي علينا أن نبين لماذا - عند حدود موريتانيا وساحل الذهب. لماذا حل محل الحرف ذي القعر المستدير أو المسطح المعروف بالصحراء، خزف آخر بديع ذو قعر مخروطي. ولكن هذا المظهر الثقافي يستحق أن تكتب حوله الدراسات.

وفي اتجاه الشرق، بمنطقة العائري، في آدرار بوس، نجد منجما يتميز بتميزا واضحا عن المظاهر الأخرى المعروفة من العصر الحجري الجديد الصحراوي، مهما كانت اصولها، وهو الذي دعي بالتينيري. فلقد استخرج من يشب أخضر فاقع ونشأت منه أدوات رائعة. فهو عصر حجري جديد ثري الأشكال، يذكرنا بالعصر الحجري المصري وفيه أسطوانات منبسطة، وهياكل مزوقة بزهور اللوتس، ومكاشط مخرزة تسمى «الاهلة»، وبجوارف لها قاطع صقله الاستعمال، ويمكن أن تكون بطبيعة الحال مجرد توافق، ولكن قد يكون من المستغرب أن تكون بنت الصدفة. و يضاف الى ذلك

أن بعض الرحى القارة المتصلة بهذا المركب الرائع، تشابه نفس الرحى التي توجد بالرسوم الناتئة المصرية. ولنا أن نعتقد أن أدرار بوس كان قد احتله أناس لهم صلات وثيقة بالنيل وإن كانوا قد استعملوا — وهذا أمر غريب — خزفا يشابه كل الشبه خزف العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية، لكن ألم يسبق لتلك التقاليد أن استمدت نماذجها من الشهاب؟.

لقد كانت الغابة بكثيفة وأكثر خضرة من يومنا هذا، وذلك بجنوب خط البحيرات، وفي عهد كان أكثر رطوبة. وذلك ما يفسر بدون شك أنها تقوم حاجزا لم يتجاوزه الناس الذين أقاموا بالصحراء والحقيقة أنه لم تبدأ إلا حديثا دراسة العصر الحجري الجديد الغابي الذي سمي، توخيا للسهولة ولتقدمه زمنا «بالغني» وإن كان في الواقع آتيا من مكان بعيد ويحتمل أن يكون من الكنفو.

## الخاتمة

إن دراسة ماضي الصحراء الشيق مازال في مراحله الأولى. فهي توفر للإختصاصيين ولذوي العزائم فرصة استثنائية لا بد من اغتنامها قبل أن يحرمنا استثمار المدخرات الطبيعية إلى الأبد من الاطلاع على أسرار المشاكل التي تهم ماضي الإنسان. إن الإنسانية ستصنع مستقبلها إذا وعت ماضيها، لأن تجربتنا لا تقتصر على الحاضر لكنها تابعة مباشرة من ما قبل التاريخ. إن نكران ذلك يحرمها من كل ركيزة معقولة، ومن كل قيمة علمية. ولقد انتهى اعتبار ما قبل تاريخ الصحراء بحثا فرديا ليصبح مبادرة جماعية تعتمد على فريق كامل، وعلى وسائل متوفرة. ومن المؤسف أن نلاحظ بأن مثل هذه البحوث مهمة. فعلى الذين يملكون هذه الصحراء الكبيرة القاسية أن يكونوا الرجال القادرين على أن ينتزعوا منها أسرارها.



## الفصل الرابع والعشرون

# إفريقيا الغربية في ما قبل التاريخ

بقلم: ثورستان شوا

## المناخ والبيئة

إن المناطق المناخية والنباتية الرئيسية تشق كامل إفريقيا الغربية من الشرق إلى الغرب. وتنزل الأمطار الأكثر غزارة قريبا من الساحل، وهي تنقص كلما اتجهنا نحو الشمال، في الدواخل. أما في الشمال، فالحزام الجاف لمنطقة الساحل، يحده القسم الجنوبي من الصحراء. وفي الجنوب نجد منطقة السباسب الكبرى، ويوجد بين منطقة السباسب والغابة المدارية الكثيفة الرطبة التي تمتد بمحاذاة الشاطئ، منطقة غابية متدهورة. مستصلحة للزراعة. قد حولتها يد الإنسان إلى منطقة سباسب.

إن الأمطار لا تنزل إلا حسب فصول معينة وهي تتكاثر في الجنوب من أبريل إلى أكتوبر (مع بلوغ حد أعلى في يوليو وأكتوبر). وتتواصل في الشمال من يونيو إلى سبتمبر وتأتي بتلك الأمطار الرياح الجنوبية الغربية التي تشبع بالرطوبة فوق المحيط الأطلسي. وإلى جانب ذلك فإن الجهة المدارية تقسم إفريقيا الغربية من الشرق إلى الغرب، فتفصل الكتلة الهوائية البحرية المدارية المتكونة فوق المحيط الأطلسي الجنوبي عن كتلة هواء الصحراء القارية والجافة. إن موقع هذه الجهتين يختلف حسب الفصول. ففي شهر يناير تستقر في أقصى الجنوب بحيث أن الرياح الصايبات الشمالية القادمة من كتلة الهواء الجاف الشمالية تنزل مباشرة على الساحل الغيني حيث تتسبب في انخفاض درجة الرطوبة انخفاضا كبيرا.

وينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار معطيات هذا المناخ وهذه النباتات حتى نفهم عصر ما قبل التاريخ في إفريقيا الغربية وكذلك علم آثارها: إن وضعية مختلف المناطق النباتية ولمتدادها.



وكذلك موقع الجبهة المدارية الداخلية قد خضعت في الماضي لتنوعات أثرت في الظروف التي عاش فيها إنسان إفريقيا الغربية في مختلف العصور.

يوجد في هذه المناطق النباتية عدد من الخصوصيات الجغرافية التي تؤدي إلى تبدل الاطار العام تبدلات محلية: وذلك بهضبة فوطاجلون ومرتفعات غينيا. وكذلك سلسلة جبال الأتاكورا في الطوغو، ومنها في الكرون هضبة باوتشي ومرتفعات مندر. ومنها كذلك الدلتا الداخلي لنهر النيجر ومنعطفه الكبير نحو الشمال، وبحيرة تشاد، ودلتا مصب النيجر. ويوجد بين غانا ونيجيريا حزام الغابة المدارية الرطبة الذي يمثل حلا للتواصل ليتجسم في «فجوة الداهومي».

## انسان ما قبل التاريخ

### الآثار الاحاثية

إن إفريقيا الغربية لم تنتج إلى حد الآن لا آثار للأشكال الإنسانية القديمة (أو البشريات المشابهة لما تم اكتشافه في إفريقيا الشرقية والجنوبية (١)، ولا أدوات للعصر نفسه (٢). فهل يمكن القول بأن كائنات كهذه قد وجدت في إفريقيا الغربية؟ فهل النقص الحالي في المعطيات راجع إلى أن تلك البشريات لم تعش في تلك المنطقة في ذلك العهد؟ أو أننا نفتقر فقط وبصورة مؤقتة إلى الشواهد؟ إنه سؤال يستحيل في الوقت الراهن أن نجيب عليه. على أننا لا نشاهد في إفريقيا الغربية أي مجهود في ميدان البحث يمكن أن نقارنه بالمجهودات التي كانت إفريقيا الشرقية اطارا لها. ويجب أن نقر أيضا أن المناجم التي لها نفس القدم تبدو أقل بكثير. ومن المعلوم كذلك أن ظروف المحافظة في تلك المنطقة أضعف بكثير نظرا إلى ارتفاع درجة الرطوبة وحموضة التربة (٣). وذلك ما توضحه معطيات عصر هو أقرب إلينا نسبيا: إذ أن خريطة توزيع اكتشافات الآثار البشرية العظمية في إفريقيا بالعصر الحجري المتأخر تظهر فراغا تاما بالنسبة لمنطقة الكونغو وإفريقيا الغربية (٤). على أنه، منذ وضع هذه الخريطة، حصلت اكتشافات في نيجيريا وغانا وهي تبين أن هذا الفراغ يدل على وضعية معينة للبحوث أكثر مما يدل على انعدام حقيقي للآثار ما قبل التاريخ (٥). ويمكن أن يكون الأمر كذلك بالنسبة إلى خريطة توزيع أحفورات مناجم الفقاريات بالبليستوسين الأسفل والوسيط الذي يوجد به نفس الفراغ (٦). فبقدر ما نستطيع أن نرجع إلى الماضي القديم يبدو أن عددا من مناطق إفريقيا الغربية قد كانت لها ظروف بيئية قريبة جدا من الظروف التي سمحت بتطور

(١) ر. أ. ف. لايفي، ١٩٧٣.

(٢) م. لايفي، ١٩٧٠.

(٣) كلارك، ١٩٦٨، ص ٣٧.

(٤) غابل، ١٩٦٦، ص ١٧.

(٥) شوي، ١٩٦٥، المذكرات الإفريقية، ١٩٦٩، وقائع بروثوال وشو، ١٩٧١، فليت، ١٩٦٨، ١٩٧٠.

(٦) كوبنس، ١٩٦٦، مجلة المعهد الفرنسي لإفريقيا السوداء، ص ٣٧٣.

(٧) كوبنس، ١٩٦٦، مجلة المعهد الفرنسي لإفريقيا السوداء، ص ٣٧٤.

الأسطراالوبتيك بافريقيا الشرقية، وذلك لا يعنى، طبعاً أن هذه المناطق قد كانت مسكونة بالفعل ويمكن اليوم لقطاعات عديدة من الغابة المدارية أن توفر حاجات قرده الغوريلا. ولكننا لا نجد في الواقع الا في موضعين محدودين جدا (٨) هذا، وبقطع النظر عن نوع من التشابه في الظروف، فإن منطقة سباسب إفريقيا الغربية لا تتوفر فيها حيوانات الصيد، من حيث الكثرة والتنوع، مثلما هو الشأن بإفريقيا الشرقية (٩).

لقد وفر الجزء الجبهي الجمجمة عثر عليها على بعد ٢٠٠ كلم غربي الجنوب الغربي من لارجو، وفر عنصرا إيجابيا يسمح بأن نعتقد أنه يمكن العثور على عدد من البشريات الأولى من أول البليستوسين بإفريقيا الغربية. ولقد سمي هذا النموذج الإنسان التشادي الأوكسريس (١٠)، واعتبرا في البداية أنه من سلالة الاسطراالوبتيك (١١) الا أنه بعد ذلك أقرب الى الإنسان الماهر (١٢). وفي الحقيقة يصعب أن يحكم في شأن هذا النموذج، وذلك لانعدام تأريخ مضبوط، ونظرا الى جزئية هذا الأثر. ان دراسة هذه الجمجمة التي تمثل خصائص عتيقة ومتطورة، دراسة شاملة توحى بتطور نحو الإنسان المستقيم (١٣) الذي يمثل مرحلة أكثر تطورا من تطور البشريات والذي له سعة حجمية تقدر بما بين ٨٥٠ الى ١٢٠٠ سنتم ٣. وينبغي أن نكرر القول إن إفريقيا الغربية لا توفر مثالا لذلك الشكل، رغم ان نماذج من النوع نفسه المسماة بإنسان الأطلس الموريتاني قد وجدت في الجزائر (١٤).

## الصناعات

بالرغم من أن أدوات إنسان ما قبل التاريخ قد نحتت سواء من العظام أو الخشب أو الحجارة فإنه من النادر أن يبقى الخشب، كما أن تركيب تربة أراضي إفريقيا الغربية غير ملائم لصيانة العظام. وتتكون الأدوات الحجرية الأكثر قدما وبساطة — باستثناء الشظايا المستعملة والمصنوعة صنعا رديئا — تتكون من حصاة أو كتل منحوتة بالطرق لتوفر أدوات ذات حد يتراوح طوله بين ٣ و١٢ سم. ونشير الى هذه الأدوات باسم الحصاة المهيأة أو الأدوات الأولدوائية، نسبة الى الفج المسمى بهذا الاسم في تانزانيا. ان هذه الأدوات كثيرة الانتشار في إفريقيا، والناس الذين صنعوها قد تمكنوا من أن ينتشروا كثيرا في أغلب سباسب القارة وأدغالها. وقد عثر في أماكن عديدة من إفريقيا الغربية على أدوات ماثلة (١٥). على أنه لا يوجد حتى الآن ما يؤكد أنها تنتمي الى نفس

(٨) دورست. وندلو، ١٩٧٠، ص ١٠٠.

(٩) دورست. وندلو، ١٩٧٠، ص ٢١٣ — ٢٢٣.

(١٠) كميل، ١٩٦٥، ص ٤، ٩.

(١١) كوبنس، ١٩٦١.

(١٢) كوبنس، ١٩٦٥، كوبنس ب، ١٩٦٥، أعمال المؤتمر الافريقى الخامس، كوكس، ١٩٦٥.

(١٣) كوبنس، ١٩٦٦، انثروبولوجيا.

(١٤) ارنبورغ وهفستاتر، ١٩٥٤، ١٩٥٥، ارنبورغ، ١٩٦٦.

(١٥) ديفيس، ١٩٦١، ص ٤٤١؛ ديفيس، ١٩٦٤، ص ٨٣ — ٩١؛ موني، ١٩٦٣؛ سوبر، ١٩٦٥؛ ص ١٧٧؛ هوزو، ١٩٦٦، مجلة المعهد الفرنسي لأفريقيا السوداء.

العهد الذي تنتمي إليه صناعة الأولدواي التي تقع في إفريقيا الشرقية بين - مليونين و٧٠٠ سنة. ان دراسة دقيقة للحصاة المهيأة المكتشفة على طول نهر غمبيا في السنغال قد بينت أن البعض منها يمكن أن يكون منتما إلى العصر الحجري الحديث، في حين ان بعضها الآخر ينتمي إلى العصر الحجري المتأخر. ولا يوجد أي عنصر طبقي يسمح بان نعتها صناعة ما قبل اشولية (١٦). فلا يمكن لنا أن نتأكد من أقدمية الحصاة المهيأة الا اذا كان ضبط تأريخها يرجع الى اكتشافها في بيئتها، أي في مناجم يمكن بدورها أن تؤرخ تأريخا نسبيا أو مطلقا. أن علم الاحاثية يسمح بضبط تأريخ نسبي لمناجم يابو التي وجدها الإنسان التشادي على أنه لم يعثر فيها مع الأسف، على أية أداة. ويبدو من المعلومات التي وفرتها عظام فرس البحر (ايماغونكولا) المنقرض حاليا والتي استخرجت من بئر في بورنو (١٧) (Bornoo) يبلغ عمقه ٥٨ مترا أنه من المحتمل ان رواسب حوض التشاد تحتوي على آثار احاثية وكذلك أثرية من بداية البليستوسين، الا أن هذه الآثار تقع الآن تحت طبقة كثيفة جدا من الطمي أحدث منها.

## التغيرات المناخية

حدثت في أوربا خلال الدهر الرابع مراحل جمودية عديدة وقد سميت المراحل الأربع الرئيسية منها بأشهر ألمانيا. ونحن نعرف الآن أنه رغم وجود نسق وخصائص صالحة بصفة عامة بالنسبة الى الظواهر الجمودية، يجب مع ذلك أن نأخذ بعين الاعتبار عددا من التغيرات المحلية. فكان من نتيجة ذلك أن استعملت أساء محلية بالنسبة الى كل منطقة. ويبدو أن النتيجة هي أكثر قربا من الواقع (١٨) رغم أنها أكثر تعقيدا.

ولقد كان كذلك الشأن بالنسبة الى إفريقيا حين قام الباحثون الأوائل، اعتمادا على آثار الشطوط البحرية المرتفعة إثر مراحل الإجتفاف وتجمع الحصى الكبيرة، قاموا باكتشاف الآثار الخاصة بفترات الدهر الرابع التي كان خلالها المناخ الإفريقي أكثر رطوبة من يومنا هذا. ان هذه الحقبات التي تتصف بغزارة أمطارها سميت «مطارات». ولما تم قبول مفهوم المراحل الجمودية بالنسبة الى المناطق الشمالية المعتدلة فمن الطبيعي أن توجد مرحلة ممطرة تقابل، في الجوامداري الحار، المراحل الجمودية في أوربا وأمريكا الشمالية (١٩). فيمرور الزمن أصبح مفهوم ثلاث مراحل ممطارية إفريقية ثم أربع مراحل سنة متبعة (٢٠). وهناك افتراض بأنها كانت توافق جموديات العهد الجمودي الأوربي (٢١) مع أنه اقترحت نظرية جديدة تفيد أن مرحلة ممطار إفريقية واحدة تقابل تجمدين شماليين اثنين (٢٢). ان تقديم اقتراحات هي على ما هي عليه من اختلاف

(١٦) موني، ١٩٦٨، ص ١٢٨٣. بيري، ١٩٦٩، ص ١٩٦٩.

(١٧) تنام، ١٩٤٤، ص ٣٩.

(١٨) فلنت، ١٩٧١، سبرك، ١٩٧٢، وواست، ١٩٧٢.

(١٩) وايليند، ١٩٣٤، ١٩٥٢.

(٢٠) ل. س. ب. لايفي، ١٩٥٠، ل. س. ب. لايفي، ١٩٥٢، قرار ١٤ (٣) ص ٧. كلارك، ١٩٥٧، ص ٣١، قرار ٢.

(٢١) لسن، ١٩٥٢.

(٢٢) سمين، ١٩٥٧.

يدل على استحالة اقرار توافق تاريخي دقيق. ومن المؤكد أن لا تقرب النسبة للمسافات الطويلة التوافقات الجيولوجية تبعاً للمناخات، بل حسب التشكلات الصخرية. وبالإضافة إلى ذلك فإن آثار المراحل الممطرة التي هي أقل وضوحاً بكثير من آثار التجمدات قد تسببت في كثير من اللبس (٢٣). وبمرور الزمن أعيد النظر من جديد في فرضية مراحل المطارات الأربعة (٢٤). ان إفريقيا الغربية لم تسلم هي أيضاً من طريقة القياس، لأن بعض العلماء أخذوا يستعملون النتائج المتحصل عليها في مناطق أخرى من القارة لاعطاء مدلول المعطيات كانت ستبقى معزولة أو صعبة التأويل (٢٥) إلا أنه طرأ حديثاً عاملان مكننا من تحسين المقاربة العلمية فيما يتعلق بإفريقيا الغربية: يتمثل أولهما في بحث أكثر عمقا في هذا الموضوع (٢٦) وثانيهما في ظهور نظرية جديدة في التنوعات المناخية في إفريقيا (٢٧).

وفيما يخص هذه التقلبات المناخية فإن إفريقيا الغربية لا توفر أية معلومات جيولوجية أو جيومورفولوجية جديدة بالثقة تنتمي إلى ما قبل المرحلة التجمدية الأخيرة في أوروبا. ان دراسة بحيرة التشاد تبرز وجود مستويات عالية ابتداء من ٤٠٠٠ سنة (٢٨). ان هذا المستوى العالي تحدده قمة باما التي يقوم عليها ميدوغوري والذي هو في هذا الموضع يتمحور شمالياً غربياً وجنوبياً شرقياً، ثم يتسع الطرفان نحو الشمال الشرقي مطوقين لارجو وغور بوديلي بأكمله، وبحر الغزال. ان تشكل هذه القمة، التي تعتبر حاجزاً بحرياً أكثر مما تعتبر الخط الحقيقي لضفة، يمكن أن يكون قد دام ٦٠٠٠ سنة (٢٩). ان البحيرة القديمة كانت تقع فوق مستوى سطح البحر ٣٣٢ م، في حين ان الارتفاع الحالي للتشاد هو ٢٨٠ م. وكان يحدث أن يفيض في مصب البنغور وأن يصرف مياهه في البينوي ويبداً أن أنه خلال هذه الفترة الأكثر رطوبة كانت غابة إفريقيا الغربية قد امتدت امتداداً محسوساً إلى الشمال أكثر مما هي عليه اليوم. على أنه يستحيل أن نؤكد ان كانت قد بلغت الدرجة ١١٠ من خطوط العرض الشمالية (٣٠) أو خط التقاطع بمقدار ٧٥٠ م الحالي (٣١) ما دامت البلنولوجيا لم تؤكد لنا ذلك.

و يبدو ان إفريقيا الغربية كانت أكثر جفافاً مما هي عليه الآن وذلك تقريباً في النهاية الأخيرة من التجمد الأخير في أوروبا الغربية، ذلك التجمد الذي تقع بدايته في حدود ٢٠٠٠ سنة. وقد كانت أنهار تلك المنطقة في ذلك العهد تصب مياهها في محيط ينخفض بـ ١٠٠ م عن مستواه الحالي وذلك نتيجة لكمية المياه الضخمة التي كانت محصورة في القبعات الجليدية في القطبين، ذلك فإن البينوي قد حفر مجراه في ما كوردي، في حين كان المجرى الأثري لنهر النيجر يوجد في جبة

(٢٣) كلارك، ١٩٥٧ ص ٣١، قرار ٤، بوتر، ١٩٧١ ص ٣١٢ - ٣١٥.

(٢٤) فلنت، ١٩٥٩.

(٢٥) بند، ١٩٥٦، ص ١٩٧ - ٢٠٠، ب. ا. ب. فاتح، ١٩٥٩ ص ٢٩١، دافيس، ١٩٦٤، ص ٩ - ١٢ بياس ١٩٦٧.

(٢٦) الجمعية السنغالية لدراسة الدهر الرابع، ١٩٦٦، ١٩٦٧، ١٩٦٩، بورك، وآل، ١٩٧١، بوتر ١٩٧٢ ص ٣١٢ - ٣٥١.

(٢٧) زنديرن باكر أ. م. فان، ١٩٦٧.

(٢٨) سرفنت وآل، ١٩٦٩، غروف ووارن، ١٩٦٨، بورك وآل، ١٩٧١.

(٢٩) غروف، وبولون، ١٩٦٤.

(٣٠) دافيس، ١٩٦٤.

(٣١) دافيس، ١٩٦٠.

(Djbbba) تحت ٢٥م من مستوى سطح البحر وهو يزداد غوصا في أونيتشا (٣٢) ولقد كان نهر السنغال يسيل في مجرى دون مستواه الحالي بكثير، وتوجد كثبان كبيرة من الرمل تسد مصبه، وكذا الأمر أيضا بالنسبة للمجرى المتوسط لنهر النيجر. إن نهر التشاد كان زمنئذ جافا وتكونت كثبان رملية في قاع البحيرة وفي عدد من المناطق بنجيريا الشمالية وذلك ما يشير إلى أمطار سنوية تقل عن ١٥٠مم، في حين أنها في أيامنا هذه تتجاوز ٨٥٠مم. وبالرغم من انعدام تواريخ قاطعة، إلا لبعض ترسبات مصب نهر السنغال والمناطق المجاورة لبحيرة التشاد فإن كل الأدلة الأخرى تتضافر على تأكيد فترة جافة بصفة عامة وذلك في حدود ١٨٠٠٠ سنة: ولئن كانت كثبان الرمال قد تكونت في خط عرض كانوا، فإن السباسب والمنطقة الغابية قد انحسرت بعيدا نحو الجنوب. ويحتمل أن تكون الغابة كلها تقريبا قد اضمحلت باستثناء بقايا غابات في مناطق هي أغزر أمطارا مثل سواحل ليبيريا وجانب من ساحل العاج ودلتا النيجر وجبال الكرون.

ويبدو أن الظروف الطبيعية قد تطورت في حوالي ١٠٠٠٠ سنة نحو رطوبة أقوى. فنهري النيجر عند مروره في بلاد مالي يفيض فوق عتبة الطاوسا، والتشاد الكبير كما كان يسمى (٣٣)، يغطي من جديد مساحة شاسعة. وقد تلونت بصيغة حمراء الكثبان الرملية التي تكونت خلال الفترة الجافة السابقة وذلك اثر وجود فصول سنوية أكثر رطوبة. لقد وجدت آثار فحم خشبي مبعثرة في أيغو-أوكورو، ويرجع تاريخها إلى ١١٠٠٠ أو ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وقد تكون دليلا على نيران ادغال، وعلى تواصل الحياة في ذلك العهد وبذلك المنطقة، لمجموعة نباتية من النوع السبسي (٣٤). ويحتمل جدا أن تكون الغابة خلال ذلك العهد قد تقدمت من جديد شمالا انطلاقا من مناطق انحسارها في الساحل، حيث ظلت قائمة خلال الفترة الجافة السابقة. إن النظرية التي تسمح بالربط بين الأحداث المناخية لنهاية الدهر الرابع في إفريقيا الغربية، وبين الأحداث المناخية في أوربا الشمالية، هي نظرية تركز على حجج عديدة قوامها الخاصية العامة لتغيرات درجة الحرارة في العالم كله، فلقد تسببت في انزلاق المناطق المناخية من كلا جانبي خط الاستواء، وهو انزلاق حدد صورته شكل الكتل الكبيرة البرية والمحيطية (٣٥). فكلما انخفضت درجات الحرارة العالمية نتج عن ذلك في خطوط العرض الشمالية تجدد يدفع نحو الجنوب الأعصار المعاكس القطبي، أما المناطق المناخية الواقعة خارج ذلك النطاق، فيقع عليها ضغط نحو خط الاستواء، بحيث أن الجبهة المدارية الشمالية تتحول إلى جنوب موقعها الحالي. ونتيجة لذلك كانت رياح الشمال الشرقي الجافة تهب بقوة ولدة طويلة، ومن طرف إفريقيا الغربية إلى طرفها الآخر، بينما كانت الرياح الممطرة الجنوبية الغربية المسماة بالرياح الموسمية تعصف ضعيفة وعلى مسافة قصيرة، وذلك خلال الفصل الرطب، وهو ما يفسر التطابق التقريبي بين فترة جافة في إفريقيا الغربية وبين فترة جوية شمالية. ولقد كان شمال الصحراء في الوقت نفسه أكثر رطوبة مما هو عليه اليوم لأن مسار أعاصير المحيط الأطلسي كان يؤدي إلى جنوب الأطلس، يدل أن يمر على شمال تلك السلسلة الجبلية.

(٣٢) فوت، ١٩٦٢، وفور، وإيلوار، ١٩٦٧.

(٣٣) مورو، ١٩٦٣، سرفنت وآل، ١٩٦٩.

(٣٤) شوو، ١٩٧٠، ص ٥٨ - ٩١.

(٣٥) باكر، ١٩٦٧.

ولما ارتفعت درجة الحرارة في العالم انحسرت القبعات الجليدية شمالا ووقع الأمر نفسه بالنسبة للجهة المدارية واستقرت مستويات البحار في ارتفاعها الحالي وأصبحت صحراء الشمال أكثر جفافا إثر تنقل مسار أعاصير المحيط الأطلسي نحو الشمال. إلا أن المدخرات المائية والنباتية كانت كافية لتأخير موعد جفافها النهائي إلى تاريخ أبعد من ٣٠٠٠ سنة. ولما أصبح هذا الجفاف على هذه الدرجة بحيث لم يعد في إمكان السكان أن يواصلوا الحياة في الصحراء خصلت بطبيعة الحال انعكاسات على المناطق الواقعة في الجنوب.

## العصر الحجري

إن مصطلحات «عصر حجري قديم» و«عصر حجري قديم لاحق» و«عصر حجري محدث» ما زالت مستعملة في إفريقيا الشمالية. وبالمقابل لذلك فإن علماء آثار إفريقيا جنوب الصحراء قد رأوا منذ مدة طويلة أنه من الأفضل استعمال اصطلاح خاص بهم ومركز على واقع القارة، لا على نظام أوربي مفروض من الخارج. إن هذا الاصطلاح صودق عليه رسميا في المؤتمر الإفريقي الثالث لما قبل التاريخ، وذلك منذ ٢٠ سنة تقريبا. لذلك فإننا سنستعمل مصطلحات «العصر الحجري المبكر» و«العصر الحجري الوسيط» و«العصر الحجري المتأخر» (٣٦). إن الحدود لتقسيمات العصر الحجري هذه تختلف قليلا من منطقة إلى أخرى. ويمكننا بصورة تقريبية جدا أن نضبط العصر الحجري المبكر من ٢٥٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ سنة، والعصر الحجري الوسيط من ٥٠٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ سنة، والعصر الحجري المتأخر من ١٥٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ سنة. إن توفر المعلومات الجديدة قد فرض على التقسيمات والتأريخات البسيطة جدا أن تتحور وأن تستدعي تقديما أكثر شمولا (٣٧). وقد أصبح استعمال مصطلح «عصر حجري حديث» عرضة للنقد وذلك عندما يطبق على واقع إفريقيا جنوب الصحراء، لأن هذا المصطلح هو في الحقيقة مصطلح غامض إذ أننا لا نعرف بالضبط إن كان يشير إلى حقبة أو إلى تكنولوجيا أو إلى نمط اقتصادي أو إلى هذه الأمور الثلاثة مجتمعة.

## العصر الحجري المبكر في إفريقيا الغربية

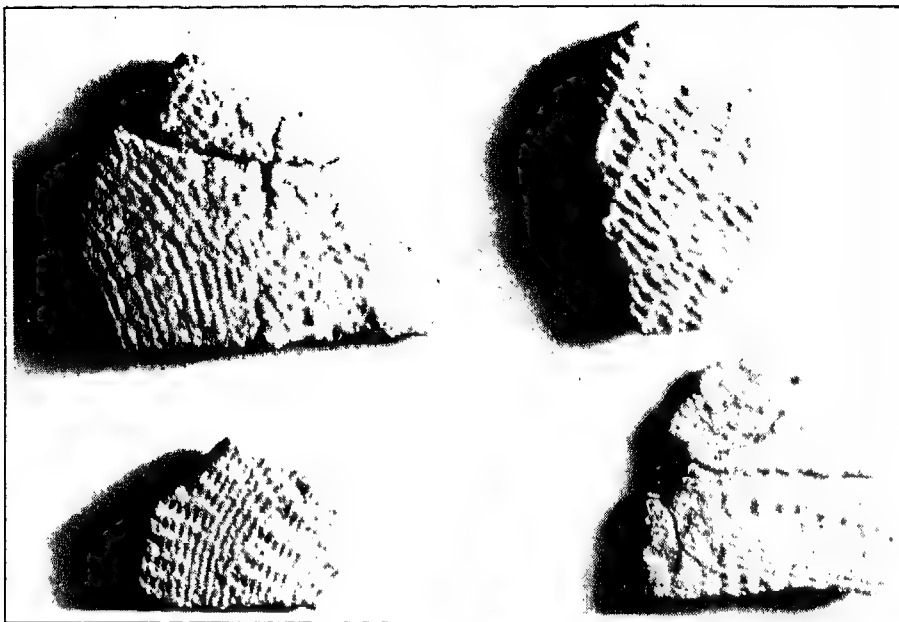
### الأشولي

تركزت مجموعة الصناعات الأولدواينية مكانها في إفريقيا الشرقية والجنوبية والشمالية الغربية للمركب الذي يعرف باسم الأشولي والذي يتميز بدوات الوجهين. إنها أدوات ذات شكل بيضوي أو بيضوي مذبذب قد نحت حدها على كامل محيطها ومن الوجهين بكامل الدقة. والقيدوم نموذج آخر متميز، وله حد مستقيم بالعرض. وبالرغم من أن نصف المواد الغذائية على الأقل كان متعلقا بالنساء والأطفال الذين كانوا يجمعون العنبات والحبوب والجلود فإن الرجال كانوا يتجمعون وينسقون مجهوداتهم لصيد الحيوانات الكبيرة. وقد عرفت النار في إفريقيا منذ نهاية الحقبة الأشولية.

(٣٦) كلارك، ١٩٥٧، قرار ٦.

(٣٧) بيشوب وكلارك، ١٩٦٧ - ٦٨٧ - ٨٩٩/شور، ١٩٦٧، ص ٩ - ٤٣؛ لوجل وبومان، ١٩٧٢.





- (١) خزف (شققات مزخرفة) من رأس مانويل في السنغال، متحف الايفان (تصويراً. دياغني).
- (٢) أداة صقل أو تنعيم من العظم عثر عليها في موقع العصر الحجري الحديث في رأس مانويل بالسنغال، متحف الايفان، (تصويراً. دياغني).



وكان لنوع الإنسان المتسبب في صنع الأدوات الأشولية حيث وجدت هو الإنسان المستقيم الذي تقل مقدرة دماغه عن مقدرة دماغ الإنسان المعاصر بشكل محسوس، إلى أنه من زوايا أخرى، قريب من هذا الأخير من حيث التركيب البدني.

إن التماذج ذات الوجهين التي تعتبر عادة قديمة (والتي كانت تسمى «شولية») لم يبق لها أثر في الصحراء. على أنه أشير إلى وجودها في السنغال (٣٨) وفي جمهورية غينيا (٣٩) وفي موريتانيا (٤٠) وفي غانا حيث وجدت ضمن الطبقات ملفوفة في طمي المسطحة المتوسطة (٤١) بقطع النظر عن دلالة هذه الوضعية من حيث الترتيب الزمني النسبي. وقد كان مجال توزيعها موضوع (٤٢) خرائط يستفاد منها أن المنطقة عامرة ابتداء من نهر النيجر على طول سلسلة جبال الأتاكورا وروابي الطوغو. إن المراحل الأخيرة للأشولي المتميزة بأدوات ذات وجهين منحوتة بالقارح اللين (من الخشب أو العظام) ووفرة في الصحراء شمال خط العرض السادس عشر. ولعله من المناسب أن نربط هذا التوزيع بالفترة الجمودية الأوروبية قبل الأخيرة (ريس)، أوله يمكن ربطه أيضاً بالأول الأقصى للتجمد الأخير (ورم). ويبدو أن الأمطار كانت في ذلك العهد أكثر غزارة في شمال الصحراء في حين يبدو أنه لم يكن للمنطقة الصحراوية، إذا انتقلنا إلى الجنوب، إلا جاذبية قليلة بالنسبة إلى الصيادين القاطنين. على أنه يبدو أن الأراضي المرتفعة لمهضبة جوس قد شذت عن القاعدة. ويحتل إن المناخ كان في ذلك المكان أقل جفافاً وأنه ساعد على وجود مروج شاسعة تتخللها غابات، وهو ما كان يبحث عنه الإنسان الأشولي. فكان ذلك النجد اذن بمثابة منطقة شاذة من الأراضي القابلة للسكن الممتدة إلى جنوب العاير والمنطقة الأشولية من الصحراء (شمال خط العرض ١٦). وقد أرخت بعض المواد المتصلة بالأدوات الأشولية والتي وجدت في الحصباء القاعدية التي تملأ مجاري السيول المحفورة خلال الفترة الجافة السابقة، أرخت بواسطة الفحم ١٤ باعتبارها منتمية إلى عهد سابق لـ ٣٩٠٠٠ سنة قبل الحاضر (٤٣).

وعندما سكن الإنسان الأشولي هضبة جوس يحتمل أن مرتفعات فوطا جلون كانت ملائمة هي أيضاً لاقامة الإنسان بها. وقد اكتشف عدد من الأدوات الأشولية في تلك المنطقة (٤٤) ونجد كذلك آثاراً تنتمي إلى العصر الأشولي المتوسط والأعلى، مبشرة حوالي نهر السنغال الأعلى وفي شمال هذا النهر الذي يمكن أن يعتبر همزة وصل بين منطقة فوطا جلون والمواقع المتكاثرة في موريتانيا. إن آثاراً أشولية قد عثر عليها في جنوب شرقي غانا وعلى طول سلسلة روابي الطوغو والأتاكورا، وهي آثار توحى بإمكانية تسرب (٤٥) الإنسان من شمال هذه المنطقة التي لا بد أنها كانت توفّر

(٣٨) كراباي، ١٩٥١.

(٣٩) كريتش، ١٩٥١.

(٤٠) موني، ١٩٥٥ ص ٤٦١ - ٤٧٩.

(٤١) ديفيس، ١٩٦٤ ص ٨٦ - ٩١.

(٤٢) ديفيس، ١٩٥٩.

(٤٣) برنيسن وآل، ١٩٦٥.

(٤٤) كلارك، ١٩٦٧ - الأطلس.

(٤٥) ديفيس، ١٩٦٤. كلارك، ١٩٦٧، الأطلس.

محيطا ملائما لسكن الإنسان. ويبدو أن التسرب لم يكن قويا جدا ولم يكتشف أي أثر أشولي في طبقات أرض المنطقة، وكثيرا ما يعسر أن نصنف نهائيا وباعتبارها أشولية مجموعات ضحلة أو عينات نادرة ما دامت أشكال عديدة تتداخل أو تلتبس بأشكال الصناعة السنغونية (٤٦) التي تعتبر أكثر حداثة.

### السنغون

إن مجموعة الصناعات السنغونية صعبة التحديد (٤٧). ولقد شك حتى في وجودها في إفريقيا الغربية (٤٨) فقد ظهر إلى الوجود مركب صناعي جديد مواليا في الزمن للأشولي ومحتفظا ببعض القطع من مجموعة أدواته مثل المنقروذي الوجهين، وقد اختفى القدوم وندرت أشباه الأشكال الكروية بينما عادت الأولوية للمناقر ذات الهيئة الثقيلة والكثيفة. ونجد كذلك سواطير نحتت غالبا من الحصاة.

إن توزيع العناصر السنغونية هو في إفريقيا الغربية أكثر وقوعا جهة الجنوب من توزيع العناصر الأشولية (٤٩)، وهذا يدل على أنماط جديدة من الاستقرار. إن صناعة «كاب مانبال التي عثر عليها في داكار، اعتبرت في بداية الأمر صناعة منتمية إلى العصر الحجري الجديد (٥٠)، إلا أنها تعتبر اليوم صناعة سنغونية (٥١) أو لعلها إحدى مخلفاتها المتأخرة. ويمكن أن نقول مثل ذلك بالنسبة إلى عدد من العناصر التي جمعت في باماكو (٥٢). وفي نيجيريا تقع الآثار السنغونية في قسم من هذا البلد يمتد جنوب هضبه جوس شمال الغابة المدارية الكثيفة، وهي توجد على طول الأودية النهرية وفي الحصى على ارتفاع يتراوح بين ١٠ و ٢٠ م، فوق المستوى الحالي للنهر (٥٣). ونجد وادي نهر النيجر قريبا من بوسا صناعة تتمثل خاصة في حصاة مهياة، لكن لا أثر فيها للمناقر، ورغم ذلك فقد اعتبرت هذه الصناعة معاصرة للسنغونية وذلك لأسباب جيولوجية (٥٤) وقد اكتشفت مجموعة الأدوات السنغونية مبعثرة عند أسفل سلسلة جبال أتاكورا — الطوغو، وفي جنوب غانا (٥٥) وتلك الصناعات نادرة في شمال غانا لكنها وافرة نسبيا في جنوبها.

وفي غير هذه الأمكنة من إفريقيا (٥٦) نسبت إلى السنغونية تواريخ ترجع إلى ٥٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ومن الملاحظ أن المركب الصناعي السنغوني يمكن أن يدل على الحاجة إلى التأقلم مع منطقة أكثر اشجارا وذلك في فترة أصبحت أكثر جفافا (٥٧). إن الصناعة السنغونية في إفريقيا

(٤٦) ديفيس، ١٩٦٤، ص ٨٣ — ١١٤، ١٩٧ — ١٣٧ — ١٣٩.

(٤٧) كلارك، ١٩٧١.

(٤٨) واي — أوغوسو، ١٩٧٣.

(٤٩) كلارك، ١٩٦٧، الأطلس.

(٥٠) كراباي وآل، ١٩٤٨، ص ٤١٣.

(٥١) ديفيس، ١٩٦٤، ص ١١٥، هوغو، ١٩٦٤، ص ٥.

(٥٢) ديفيس، ١٩٦٤، ص ١١٣ — ١١٤.

(٥٣) ديفيس، ١٩٦٤، ص ١١٣ — ١١٤، سوبر، ١٩٦٥، ص ١٨٤ — ١٨٦.

(٥٤) سوبر، ١٩٦٥، ص ١٨٦ — ١٨٨.

(٥٥) ديفيس، ١٩٦٤، ص ٩٨ — ١٠٠.

(٥٦) كلارك، ١٩٧٠، ص ٢٥٠.

(٥٧) كلارك، ١٩٦٤، ص ٢٣، ١٣٧ — ١٤٢.

الغربية لم تؤرخ البتة بحسب الكربون ١٤. وان المواد السنغونية الموجودة بنفق خط السكة الحديدية في أسوكروكونا في غانا الجنوبية هي في مجموعها، سابقة لبيتش ٤، (Beach 4) من تصنيف ديفيس الذي يعتبره هونفيسه مقابلا على الأقل لما بين مراحل غوتفاخ (Gottweig) (٥٨) وهي وضعية طبقية لا تزودنا بشيء بعد ذلك التاريخ المنتظر. وإذا كانت الحصباء الواقعة على ارتفاع يتراوح بين ٢٠١٠م، من النيجر قد رسبت، قريبا من جبة عندما ناسب مجرى النهر مستوى البحر العالي لـ«أوانشيريان» (٥٩) فإن وجود أدوات سنغونية غير مدرجة يشير الى تاريخ قريب من ٣٠٠٠ سنة، في حين أن العينات المدرجة يمكن أن تكون معاصرة لها أو هي أكثر قدما منها. وقد يدل التوزع، الجنوبي للسنغون في وسط غايي وعلى طول الأنهار، على نط من الحياة هو بمثابة رد فعل على الجفاف الذي حصل منذ ٤٠٠٠ سنة. وقد بدأت بحيرة التشاد، بعد ذلك تمتلئ وتوسع ومن المحتمل أن تكون الحيوانات التي كانت تصطاد من قبل قد أصبحت أكثر ندرة وذلك بالتجائها الى الجنوب، وأن يكون تجدد صنع المناقر قد استجاب لحاجة الإنسان الى قلع الجذور والعساقل أو الى حفر الخنادق ليصطاد الحيوانات التي أصبح صيدها عسيرا.

### العصر الحجري الوسيط في إفريقيا الغربية

ان مصطلح «العصر الحجري الوسيط» يطلق للدلالة على مجموعة من المركبات الصناعية الممتدة تقريبا بين ٣٥٠٠٠ و ١٥٠٠٠ سنة.

فالصناعات المنتمية الى العصر الحجري الوسيط في إفريقيا الغربية معروفة معرفة ناقصة عما هي عليه في بقية إفريقيا الواقعة جنوب الصحراء. ولقد اكتشف عدد من العينات النادرة من نوع اللومبي في غانا (٦٠) وفي نيجيريا (٦١)، الا أنه لم يوفر أحد منها توضيحات طبقية مرضية عن عمرها. واكتشفت على هضبة جوس وشمالها بأعلى روابي ليروس مجموعات هامة من الآلات تتميز بـ «أعقابها ذوات الوجوه» صنفت على أنها من العصر الحجري الوسيط (٦٢). وهي موجودة في نوك ضمن الطبقات بين الحصباء القاعدية المشتملة على أدوات أشولية وبين الترسبات الأكثر حداثة التي تحوي عناصر من ثقافة نوك (٦٣) وليست لها علاقة بالمركب الصناعي اللومبي بل هي قريبة من صناعات العصر الحجري القديم الوسيط بإفريقيا الشمالية، من النوع الشبيه بالموستيري عموما، وقد تعكس نطا من العيش أكثر تأقلا مع السبابس. وهناك إشارة الى صناعات مشابهة في غانا وفي ساحل العاج (٦٤) وفي داكار (٦٥) وفي الصحراء الوسطى (٦٦) ولقد وفرت قطعة خشب وجدت

(٥٨) ديفيس، ١٩٦٤، ص ٢٣، ١٣٧ - ١٤٢.

(٥٩) فوروالوان، ١٩٦٧.

(٦٠) ديفيس، ١٩٦٤، ص ١٠٨ - ١١٣.

(٦١) لقد اكتشفها بالسطح بمنطقة أفيكبو الاستاذ د. د. برتل وهي من مجموعات جامعة نيجيريا في نوسوكا.

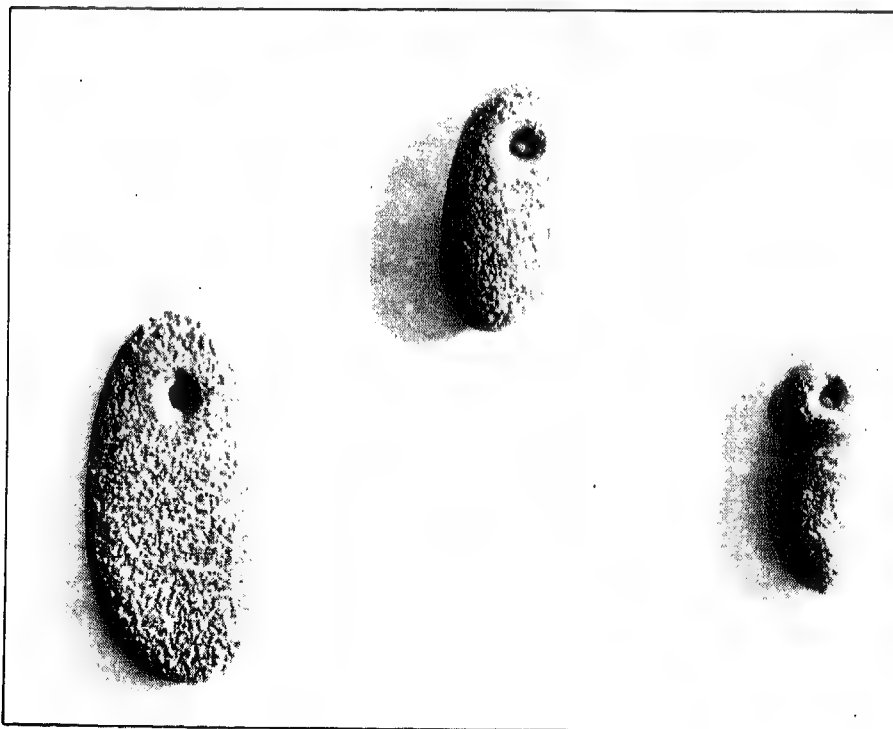
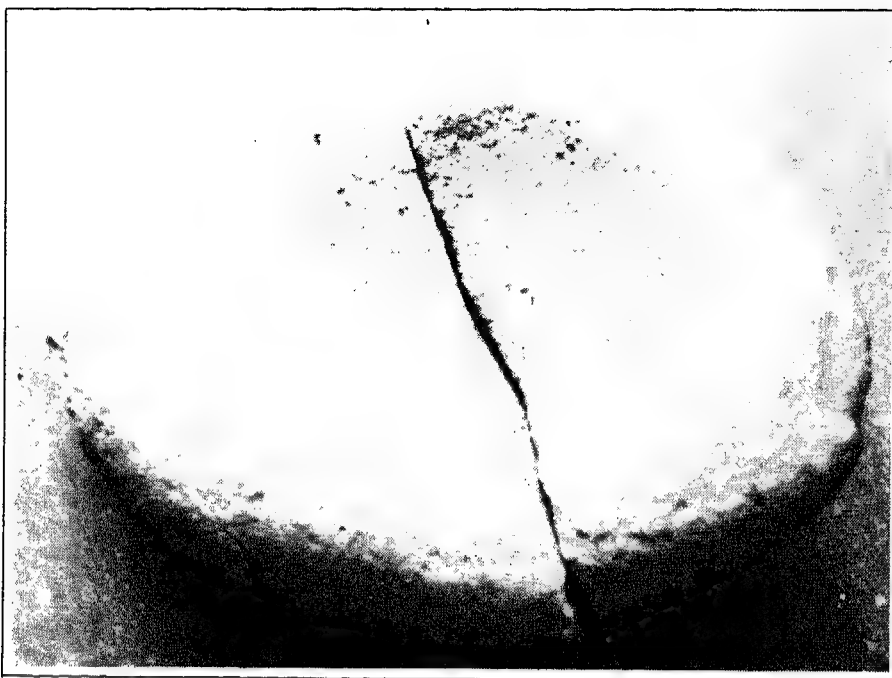
(٦٢) اسوبر، ١٩٦٥، ص ١٨٨ - ١٩٠.

(٦٣) ا. ب. أ. ب. فاغ ١٩٥٦ - الندوة العالمية الثالثة لغربي إفريقيا، ص ٢١١ - ٢١٤.

(٦٤) دفس، ١٩٦٤، ص ١٢٤ - ١٤٢، كلارك، ١٩٦٧، الأطلس.

(٦٥) كراباي، وآل، ١٩٤٨، كراباي، ١٩٥١، ريشان، ١٩٥٥.

(٦٦) كلارك، ١٩٦٧، الأطلس.



- (١) حجر رحي مكسور، من الصخر البركاني، عثر عليه في موقع العصر الحجري الحديث في نفور. متحف الايفان، (تصوير أ. دياغني).
- (٢) دلائل تعلق في العنق من حجر البازلت، عثر عليها في موقع الحجري الحديث في «بات دوا». متحف الايفان (تصوير أ. دياغني).

في منجم زنجي في شمال نيجيريا، وهو أحد المواقع الغرينية المحتوية على آثار شبه موسستيرية تأريخا يقدر بـ  $3485 \pm 110$  سنة قبل الميلاد. على أن الوضعية الدقيقة لقطعة الخشب تلك بالنسبة للأدوات الحجرية لم تضبط ضبطا دقيقا، ويعتبر تأريخها أكثر حداثة بقليل مما ينتظر من صناعة من هذا النوع (٦٧).

وفي تيمصاص قريبا من ساحل السنغال، أظهرت حفريات أثرية، من بين ما أظهرت حدودا ذات وجهين مدجة بأدوات من نوع أدوات «العصر الحجري القديم المتوسط والأعلى». وقد اعتبرت في البداية على أنها تشكلى مزيجا من عناصر تنسب إلى العصر الحجري الحديث ومن عناصر أكثر قدما (٦٨). على أن دراسة أكثر دقة أظهرت أن تلك الحدود ذات الوجهين تشكل جزءا لا يتجزء من صناعة موجودة في الطبقات الجيولوجية لا تشتمل على عناصر أخرى من العصر الحجري الجديد ولذلك اعتبرت تلك الصناعة مثالا للصناعة شبه الموسستيرية المتميزة بعناصرها المحلية والتي تعوض في هذا المكان العاطري الذي يوجد نحو الشمال (٦٩). إن هذا المركب الصناعي ينتمي إلى نهاية العصر الحجري القديم المتوسط في الجزائر، وهو يمتد نحو الجنوب في الصحراء. وقد رأى فيه «دفيس» في إفريقيا الغربية امتدادا يسميه «العاطري الغيني» (٧٠)، إلا أن حججه ليست مقنعة، وقد أصبحت موضع شك عند أغلب الباحثين (٧١).

## العصر الحجري المتأخر

إن العصر الحجري المتأخر يتميز في كامل إفريقيا تقريبا ببروز أدوات حجرية صغيرة جد سميت بسبب ذلك «الحجارة الصغيرة». إنها عبارة عن أشياء صغيرة نحتت بعناية لتتشبه في قصبة سهام تشكل جزءا الحاد والشائك أو لتجمع على أداة أخرى متعددة العناصر وهي تبين أن أصحابها كانوا يملكون القوس وأن الصيد به كان يلعب دورا مهما في اقتصادهم.

إننا في هذا الصدد نتحرج من استعمال «عصر حجري جديد» ومن غموض دلالاته ولذا يستحسن بالنسبة إلى إفريقيا أن نتجنب استعماله كلما أمكننا ذلك لا سيما فيما يتعلق بإفريقيا جنوب الصحراء (٧٢). إلا أنه يجب أن نأخذ بعين الاعتبار استمرار هذا الإستعمال في إفريقيا الشمالية وفي الصحراء. وفي الصحراء نجد عددا كبيرا من الصناعات سميت بمجموعة أدواتها «بالحجرية الجديدة» ويرجع تاريخها في المنطقة الوسطى إلى الألف السادسة قبل الميلاد. إن الظروف المناخية كانت أكثر رطوبة مما هي عليه اليوم، فكان أن ظهر نبات من نوع نبات البحر الأبيض المتوسط، وسكان رعاة، بقطع النظر عن أن أولئك الرعاة كانوا كذلك يتعاطون الفلاحة أو

(٦٧) برنسن، وآل، ١٩٦٥.

(٦٨) داغان، ١٩٥٦.

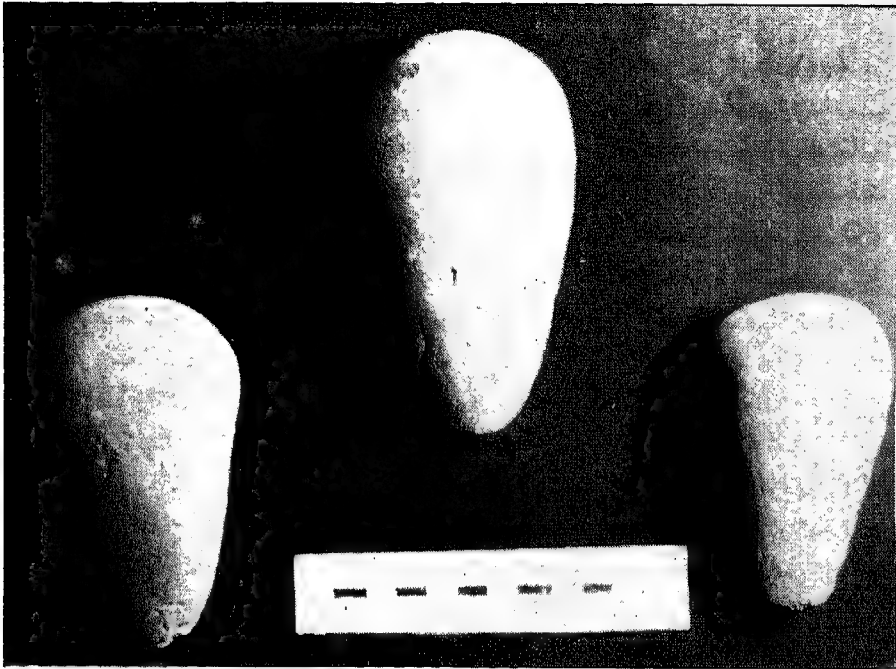
(٦٩) غيبو، ودوكان، ١٩٦٩.

(٧٠) دفيس، ١٩٦٤ ص ١١٦ - ١٢٣.

(٧١) هوفو، ١٩٦٦، أعمال المؤتمر الإفريقي الخامس.

(٧٢) بيشوب وكلاك، ١٩٦٧ ص ٨٩٨ قرار (ك)، كلارك، ١٩٦٧، خلفية التطور بإفريقيا. شو، ١٩٦٧ ص ٣٥ قرار ١٣،

مونس، ١٩٦٨، ص ١١. والملاحظ أن بعض المؤلفين لا يوافقون على هذا الرأي.



- (١) فؤوس مصقولة من حجر  
الدولريت، من فترة «بل إير»،  
متحف الايفان، (تصويراً دياغني).  
● (٢) وعاء فخاري من دياكيتي، من  
العصر الحجري الحديث الفترة المسماة  
«بل إير». متحف ايفان (تصويراً  
دياغني).



لم يكونوا (٧٣). ولقد ثبت وجود الفلاحين في برقة (ليبيا) في سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد (٧٤). الا أنه قد ثبت الآن ان «العصر الحجري الجديد» ذا التقاليد القابسية الذي انتشر كثيرا في الشمال الغربي من افريقيا والذي جاء على أثر زراعات العصر الحجري القديم اللاحق لم تكن له تقاليد فلاحية رغم أنه يمتد الى أبعد من الألف الثانية قبل الميلاد (٧٥). لقد مضى الزمن الذي صنفت فيه اكتشافات في روفيسك بالسنگال ضمن العصر الحجري الجديد ذي التقاليد القابسية (٧٦) لكنه من الأفضل ان نعدها اليوم تمثل قسما من امتداد الحجرة الصغيرة المنتشر في افريقيا الغربية.

ان امتداد هذه الصناعة الحجرية الصغيرة أو (الحجرة الصغيرة الغينية) منتشر أيضا خارج هذه الحفريات القرية من داكارة، في النصف الشرقي من افريقيا الغربية (٧٧) الا أنه في النصف الغربي لا أثر في المواقع الموجودة أكثر نحو الجنوب في منطقة لينيريا وسيراليوني وجنوب جمهورية غينيا. لقد أنجزت الحفريات الأثرية الأولى في غينيا في عدد من الكهوف والمخاض تحت الصخور ويعود بعضها الى سبعين سنة مضت (٧٨). وجدت في بعض المواقع قطع ذات وجهين تذكر بأشكال أقدم من العصر الحجري المتأخر، وقد رأى فيها البعض معازق، وهوما يعتبر شهادة غير مباشرة على وجود الفلاحة. ان هذا الاحتمال لا يجوز أن يرفض، لأن الرزكان في الماضي يعوض الانيام باعتباره زراعة رئيسية في النصف الغربي من افريقيا الغربية. ان هذا الرز الافريقي (أوريزا غلابريا) قد يكون تأقلم في منطقة دلتا نهر النيجر الأوسط (٧٩). ان بعض القطع العريضة من الصوان ذات المحيط المنحوت تحتنا خشنا (٨٠) تعتبر معازق ودليلا على قيام الفلاحة في غانا الا أن التواريخ والمقاربات مفقودة. ان أغلب المواقع في جمهورية غينيا قد وفرت حجرة صغيرة وفؤوسا من الحجار المصقولة وأرجاء وفخارا. وذلك شأن موقع في غينيا بيساو (٨١). و يوجد عدد من المواقع الغنية يشتمل على الفخار رغم أنه لا يظهر في كهف كاكمنون الا في الطبقة العليا (٨٢). وأظهرت الحفريات التي أنجزت في المنحأ الواقع تحت الصخر في بلاندي في الطرف الجنوبي الشرقي من جمهورية غينيا، أظهرت صناعة تشتمل على فؤوس حجرية وقطع فخار مختلطة بأدوات ذات وجهين كبيرة تذكر بمشيلاتها في كهوف كنديا وفوطا جلون، لكنها لا تشتمل على العنصر الحجري الصغير (٨٣). فلا أثر للحجرة الصغيرة أيضا في كهف ينجا في سيراليوني حيث

(٧٢) هوغو، ١٩٦٣، ص ١٤٨ - ١٥١، موري، ١٩٦٥، كامبس، ١٩٦٩.

(٧٤) مالك بورني، ١٩٦٧، ص ٢٩٨.

(٧٥) روبي، ١٩٧١.

(٧٦) فوفري، ١٩٤٦، أليمان، ١٩٥٧، ص ٢٢٩ - ٢٣٣، ديفيس، ١٩٦٤، ص ٢٣٦.

(٧٧) هوغو، ١٩٥٧، ١٩٦٤، ص ٤ - ٦، شو، ١٩٧١، تاريخ افريقيا الغربية، ص ٦٢.

(٧٨) هامبي، ١٩٠٠، غيبهار، ١٩٠٦، ١٩٠٩، ديسبلان، ١٩٠٧، نشرة الجمعية الجغرافية، هيو، ١٩١٢، هوبرت، ١٩٢٢ بروي، ١٩٣١، دلكرو وفوفري، ١٩٣٩، شو، ١٩٤٤.

(٧٩) برترن، ١٩٦٢، ص ١٩٧ - ١٩٩.

(٨٠) ديفيس، ١٩٦٤، ص ٢٠٣ - ٢٣٠.

(٨١) ماتوس، ١٨٥٢.

(٨٢) هامبي، ١٩٠٠.

(٨٣) هولاس، ١٩٥٠، ١٩٥٢، هولاس وموني، ١٩٥٣.



كشف المستوى الأكثر قدما عن صناعة صغيرة من شظايا الصوان قارنها الباحث بصناعة إيشنغو على بحيرة إدوار. (\*) ففي المستوى الأوسط نجد مناصر ومعاقر ذات وجهين تشبه قسما من أدوات الكهوف الغينية، قد عدها الباحث مركبا صناعيا لومبيا. وأخيرا، وفر المستوى الأعلى فؤوسا من الحجر وفخارا حددت تواريخها بواسطة تأريخين بالإضاءة الحرارية في حوالي سنة ٢٠٠٠ و ١٧٥٠ قبل الميلاد (٨٤). ومهما يكن من أمر فإن عنصرا حجريا صغيرا قد ظهر في مخبأين تحت صخرين آخرين استكشفا نحو أقصى شمال سيبيراليوني في ياغالا، وكاما باي. ان التواريخ بالراديو كربون تشير هنا الى مرحلة من العصر الحجري المتأخر تمتد من ٢٥٠٠ سنة الى القرن السابع الميلادي (٨٥).

يبدو إذن ان نوعا من تقاليد العصر الحجري الوسيط (الذي يمكن ان يكون وجد في داكار وباماكو) قد تواصل من غير ان يكون تغير نسبيا في المواقع الواقعة جنوبا، وأنه لم يتبن ولم يخترع تقنية الحجارة الصغيرة. ويحتمل جدا أن تكون أسباب ذلك أسبابا بيئية نظرا الى أن تقنية الحجارة الصغيرة مرتبطة باقتصاد منطقة السباسب، حيث كان للصيد دور أساسي. فإذا ما سجلنا توزيع المواقع التي ليس بها حجارة صغيرة (كونا كري - ينغاما - بلاندي) ورسمنا خطا فاصلا بين تلك المواقع والمواقع التي بها ذلك النوع من الحجارة (كاما بي - ياغالا - كنديا - نهاميسيري) فإننا نلاحظ أن هذا الحد قريب جدا من الحد الذي يفصل بين الغابة ومنطقة السباسب. ان التقنيات الجديدة للفؤوس المصقولة وللأدوات الفخارية قد وصلت الى هذه المنطقة فيما بعد. ويضبط تاريخ ظهورها المؤثرات بحوالي منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، وهوما يوافق الزمن الذي تم فيه جفاف الصحراء. فمن المعقول إذن ان تقرب بين الحدين وأن نرى في ذلك أثر هجرة السكان خارج الصحراء. وبالرغم من أنه لم يتوفر لنا في هذا الصدد أي أثر عظمي، فمن المحتمل أن يكون أولئك السكان قد أخذوا معهم الماشية، ولعل منها الأصل القديم لسلالة نداما من فوطا جلون التي هي محصنة ضد داء المثقبيات.

ومن الملاحظ في كامل بقية إفريقيا الغربية تقريبا ان صناعة الحجارة الصغيرة تسبق تقنيات صنع الفخار وفؤوس الحجارة المصقولة، وهذه الأدوات يبدو أنها انضافت الى التقاليد الحجرية الصغيرة ولم تعوضها. وفي كورونكوركال، بالقرب من باماكو، نجد طبقة سفلية ذات حجارة صغيرة وأدوات عظمية خشنة تحت طبقة أخرى ذات حجارة صغيرة أكثر اتقاناً. كما نجد فؤوسا من الحجر المصقول وفخارا (٨٦). وان مخبأين روب (٨٧) الواقعة تحت الصخور في نيجيريا على هضبة باوشي، ومخبيء إيوايليريو في المقاطعة الغربية قد كشفت عن مستويات حجارة صغيرة بدون فخار وبدون فؤوس مصقولة تحت طبقات من صناعات حجارة صغيرة. وفي إيوايليريو، وفر الراديو كربون تاريخا قدر به ٩٢٠٠ سنة قبل الميلاد، وذلك قريبا من قاعدة الطبقة السفلية. ويبدو ان الانتقال الى الطبقة العليا لا يكاد يتجاوز سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد (٨٨). وفي أولداو، وفي كهف

• هذا ما في المطبوع.

(٨٤) كون، ١٩٦٨.

(٨٥) أثرتن، ١٩٧٢.

(٨٦) زيموسكي، ١٩٥٦.

(٨٧) ب. أ. ب. فاغ، ١٩٤٤. إي، ١٩٧٢، مجلة الآثار للغرب الافريقي، روستفيلد ١٩٧٢، فاغ ١٩٧٢.

(٨٨) شو، ١٩٦٩، الاعمال الأولى للمعهد العالمي الافريقي.

ماجيرو، عثر على صناعة للحجارة الصغيرة لا أثر فيها للفخار وكذلك للفؤوس الحجرية المصقولة، إلا أن العينة ضئيلة وليست مؤرخة (٨٩). وفي غانا أيضا كشف كهف بوسمبرا، في أبتيني، عن مجموعة من الفخار وأدوات الحجارة الصغيرة والفؤوس المصقولة، إلا أنها ليست مؤرخة (٩٠). ويوجد في غانا، مظهر متخلف من العصر الحجري المتأخر يدعى (ثقافة كينتانبو) فهذه الثقافة التي خلفت مرحلة سابقة متميزة بصناعة الحجارة الصغيرة وبالفخار، قد توفرت فيها الفؤوس المصقولة والأساور الحجرية (تعرف بحسب المواقع «الحجرية الجديدة» الصحراوية)، ويوجد بها أيضا نوع خاص من المنهاريس المنحوتة. وتعود المرحلة القديمة (بونبون (Punpun) إلى ١٤٠٠ سنة. ولقد وفرت المرحلة الحالية بقریات مؤهلة وماعزا قرما يقرب جنسها من جنس الماعز القزم القصيرة القرن من أفريقيا الغربية (٩١). وقد كانت الحجارة الصغيرة موجودة حتى في موريتانيا الجنوبية في المرحلة الأكثر قدما (أكرجيت) من مقطوعة تيشيت وذلك في نفس الوقت الذي وجد فيه الفخار والفؤوس الحجرية، ولكنها اضمحلت في جميع المراحل الموالية (٩٢).

إن الحالة تبدو غير مختلفة كثيرا في المرحلة الأكثر حداثة من العصر الحجري المتأخر، وذلك في الحواشي الجنوبية من منطقتنا من الساحل، مباشرة نحو الجنوب من القفر الصحراوي، هذا مع ملاحظة أنواع من التكيف في الثقافة المادية، بحسب ما تقتضيه البيئة المحلية. وكان السكان الرعاة في كركريكينشات شمال غاوا، بين ٢٠٠٠ و ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد يعيشون في أماكن تعلو مستوى مجاري الماء الفصلية، وكانوا يعرفون الفخار كما كانت لهم أجهزة حجرية تشمل الفؤوس الحجرية المصقولة والحدود من السهام ذات الوجهين من النوع الصحراوي (لكن قاعدتها ليست محدودة) (٩٣) ثم بعض الحجارة الصغيرة. ويعتبر صيد الأسماك مساهمة هامة بالنسبة للاقتصاد، مثلما يشهد بذلك كثيرا الجنوب الصحراوي «بالعصر الحجري الجديد الحديث» (٩٤) ونجد بشمال نيجيريا الشرقي في دائما وذلك بعد ألف سنة، حالة مشابهة تقريبا. ويحتمل أن يكون رعاة البقریات قد زرعوا الذرة بالطين الخصب الذي بقي بعد انحسار بحيرة تشاد، وإن كانوا قد استعملوا الفخار، والفؤوس المصقولة وصناعة كبيرة من الأشياء العظمية. وكانوا يجهلون صنع الحجارة الصغيرة (٩٥).

ويوجد مقابلة لذلك تأقلم مع محيط بيئي مخالف تماما وذلك على طول الحاشية الجنوبية من أفريقيا الغربية على الساحل الأطلسي. هناك كان سكان العصر الحجري المتأخر يستثمرون الأصداف المتوافرة بالبحيرات الشاطئية ومصبات الأنهار سواء لتكون طعمة لصيد الأسماك أو

(٨٩) وليت، ١٩٦٢، أعمال المؤتمر الإفريقي الرابع.

(٩٠) شو، ١٩٤٤.

(٩١) ديفيس، ١٩٦٢، ١٩٦٤ ص ٢٣٩ - ٢٤٦، ١٩٦٧ غربي أفريقيا قبل الأوربيين، ص ٢١٦ - ٢٢٢، فلايت، ١٩٦٨، ١٩٧٠.

كارتر وفلايت، ١٩٧٢.

(٩٢) مونسن، ١٩٦٨، ١٩٧٠.

(٩٣) موني، ١٩٥٥ كركريكينشات، سميث، ١٩٧٤.

(٩٤) موند وموني، ١٩٥٧.

(٩٥) كونه، ١٩٦٧، ١٩٦٩، ١٩٧١.

للتغذي بها. وكانوا يتركبون أكداسا كبيرة من الاصداف. ولقد ثبت بساحل العاج أن تلك الحلزونيات وجدت منذ ١٦٠٠ سنة قبل الميلاد إلى القرن السابع عشر الميلادي (٩٦). ولقد اكتشف باحداها بالسنگال فأس منحوت بالعظم. (٩٧). إن المواقع المشابهة التي كانت محل دراسة بمنطقة كازامانس تكون موالية للعصر الحجري (٩٨).

وقد وجد في أفكوجونوب نيجيريا موقع فيه فخار وفؤوس حجرية مصقولة وصناعة حجرية لا حجارة صغيرة بها. أن التاريخ بالراديو كربون ضبط تلك الصناعة بين ٣٠٠٠ و ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد (٩٩) ولقد ميزت أربع مراحل. في فرنندوبو في مجموعة من العصر الحجري المتأخر (١٠٠) يتضمن على الفخار والفؤوس الحجرية المصقولة ولا تشمل على الحجارة الصغيرة. وضبط التاريخ بالراديو كربون بالقرن السادس الميلادي، بالنسبة للمرحلة الأكثر قدما، وذلك مما يجعل تلك المقطوعة متأخرة، أن لم نخطئ في ذلك. ويقترب الشكل المحزم للفؤوس من شكل الفؤوس الآتية من نيجيريا الجنوبية الشرقية (١٠١) ومن الكرون وجهورية تشاد (١٠٢).

وختاما يمكن أن يقسم العصر الحجري المتأخر بإفريقيا الغربية إلى مرحلتين: المرحلة ١ التي تبدأ في ما لا يزيد على ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وهي تتميز بمظهرين: المظهر (أ)، وهو يحوي الصناعات ذات الحجارة الصغيرة المتصلة بالصيد بالسباب، والمظهر (ب) الذي ينتمي إلى المنطقة الغابية بالطرف الجنوبي الشرقي من إفريقيا الغربية، وهولا يحوي حجارة صغيرة. أما المرحلة ٢ فهي تبدأ بعد ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد بقليل، ويمكن أن نغزبها أربعة مظاهر، وهي المظهر (أ) الذي يضيف الفخار والفؤوس الحجرية المصقولة إلى الحجارة الصغيرة في أكبر جزء من السباب. والمظهر (ب) بالساحل يشمل صيد الاسماك في اقتصاده، ولا يوجد فيه عمليا حجارة صغيرة، إلا أنه يحتوي على صناعة عظيمة فيها مخاطف وصنارات الخ.. والمظهر (ج) وهو ساحلي، وقد تأقلم اقتصاده مع استثمار موارد البحيرات الشاطئية ومصبات الأنهار. والمظهر (د) المتصل بالمحيط الغابي وهو يعرف الفخار والفاس المصقول، ولا توجد به حجارة صغيرة.

وخلال الألفية الثالثة، لما هاجر رعاة الصحراء لأول مرة نحو الجنوب، حيث اتصلوا بالصيادين صناع الحجارة الصغيرة، كانوا آنذاك قد هاجروا من منطقة وفرت لهم الصوان بكثرة إلى منطقة أخرى كان يستحيل فيها صنع هياكل وشوائك السهام إلا على المرو أو على كل حجر صعب جدا لكي تنحت منه حدود ذات وجهين، ولذلك استنقصته العين العصرية من حيث الجمال. و يبدو أنهم اتخذوا تقنية الحجارة الصغيرة المحلية لتسليح و«تشويك» سهامهم، معتبرين بما لها من نجاعة.

١٠٦) (٩٦) موني، ١٩٧٣، السن، ١٩٧٣.

١٠٧) (٩٧) جوار، ١٩٤٧، موني، ١٩٥٧، ١٩٦١، ص ١٥٦ - ١٦٢.

١٠٨) (٩٨) لراس دي سين، ١٩٧١.

١٠٩) (٩٩) هرتل، ١٩٦٦، ١٩٦٨.

١١٠) (١٠٠) مارتن دي مليون، ١٩٦٥.

١١١) (١٠١) كندي، ١٩٦٠.

١١٢) (١٠٢) كلارك، ١٩٦٧.

إن الذين بلغوا منهم نترسو في غانا الوسطى، وذلك في النصف الأول من الألفية الثانية، وحافظوا بها على حدود سهامهم ذات الوجهين الخاصة، كانوا يمثلون حالة استثنائية (١٠٣). ولئن كانت هذه الهجرة للسكان الصحراويين نحو الجنوب تمثل تسرب عنصر جديد إلى السكان الأهليين، فإنه لم يكن لها حسبا يبدو أثر مباشر على النوع البدني، لأن النوعين من السكان كانوا من لون أسود (١٠٤) فإن كان المهاجرون يتكلمون، كما يبدو ذلك ممكنا، لغة ما قبل النيل الصحراوي فلا يستبعد أن تكون الجماعات الصغيرة قد فقدت لهجاتها الخاصة واستعملت لغة النيجر-كنغو الغالبة محليا. ولم تستطع إلا مجموعات أصلية مثل أسلاف سنغاي المحافظة على لغتها الخاصة (١٠٥).

## اقتصاد الانتاج

ن الانتقال من الوضع الذي كان فيه الإنسان يخضع للصيد وصيد الأسماك وجني العنبات البرية إلى زرع النباتات وتربية الماشية، يعتبر أهم خطوة خطاها أسلافنا في الألفيات العشر الأخيرة. ولم تحدث تلك الثورة في مكان واحد من العالم لتنتشر في كل مكان آخر، بل حدثت بعدد محدود من «المواطن» بأوروبا وآسيا الغربية وإفريقيا الشمالية الشرقية. وكان أهم موطن بالمنطقة الجبلية من الأناضول، وبايران وبشمال العراق. في تلك الأماكن تمت زراعة القمح والشعير وتأهيل الأغنام، والماعز، والبقر. ثم أدخل فيما بعد الانتاج الغذائي بالأودية النهرية الكبرى مثل دجلة والفرات، والنيل والهندوس، وتحسن بالاعتماد على تصريف المياه والسقي (١٠٦). وأهلت في مصر بالألفية الخامسة، الغنميات والبقرات وكانت الحبوب مزروعة بها (١٠٧). ولنا الآن الحجة على أن الماشية قد أهلت من قبل بالأراضي المرتفعة الصحراوية، وتوجد قرائن - وإن كانت ضئيلة - على زراعة الحبوب (١٠٨). وكما يشهد بذلك وادي النيل، فالصعوبة الموجودة لزراعة الحبوب بإفريقيا جنوب الصحراء، ناشئة عن كون النباتات المزروعة الأكثر قدما مثل القمح والشعير، كانت مرتبطة «بأمطار الشتاء» ولا يمكن لها أن تنضج إلا بصعوبة، جنوب الجهة المذارية، بمنطقة «الأمطار الصيفية». ولقد كانت الضرورة تدعو إلى تأهيل النجيليات البرية المناسبة بعين المكان ولذلك زرعت الذرات الإفريقية. وكان أهم تلك النجيليات الذرة ذات اللونين أو ذرة غينيا التي زرعت في النصف الأول من الألفية الثانية بالمساحة الموجودة بين الصحراء والسباسب وبين النيل وبحيرة تشاد (١٠٩).

(١٠٣) ديفيس، ١٩٦٦ أعمال المؤتمر الإفريقي الخامس، ١٩٦٧ مجلة (أسيكوا) ١٩٦٧ إفريقيا الغربية قبل الأوربيين ص ١٦٣، شو ١٩٦٩، اللثرو بولوجيا الحديثة ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(١٠٤) شملا، ١٩٦٨، بروثوال وشو، ١٩٧١.

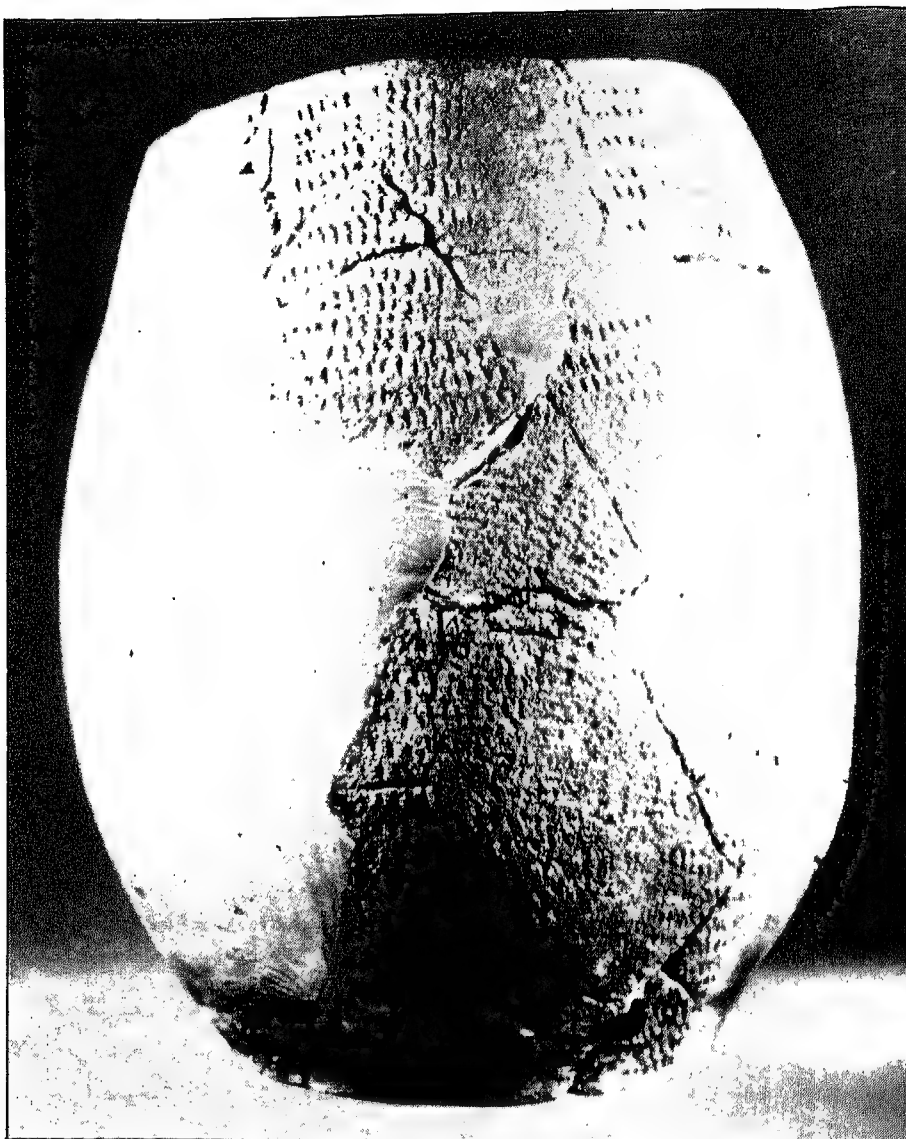
(١٠٥) غرينبرغ، ١٩٦٣.

(١٠٦) غراهام كلارك، ١٩٦٩، ص ٧٠ وما بعدها أوكس ودمبلي، ١٩٦٩.

(١٠٧) كاتن - تمسن وغرندز، ١٩٣٤، سدن ١٩٦٨ ص ٤٩٠، وندورف وآل ١٩٧٠ ص ١١٦٨.

(١٠٨) هوري، ١٩٦٥، كميس، ١٩٦٩.

(١٠٩) دي فات وهزلن، ١٩٧١.



● وعاء فخاري ذو قاع مستو من عصر  
الحديد. متحف الايمان (تصوير  
أ. دياغي).

ولقد أهلت نخيليات برية أخرى وفرت الذرة البرية والذرة المقشورة أو «الذرة الأصبعية» ولقد ذكر الرز الافريقي سابقا (١١٠) ونجد في موريتانيا الجنوبية، في ضواحي تشيت آثار استهلاك حبوب النيجيليات المحلية، ولكن في حوالي ١١٠٠ سنة قبل الميلاد، تحولت نسبة الذرة المقشورة من ٥ الى ٦٠ في المائة (١١١) وفي المناطق الأكثرطوبة من افريقيا الغربية يعتبر الأنعام أهم عسقلنة، وقد زرعت (١١٢) أنواع أفريقية كثيرة منها. وبالرغم من ان تلك الزراعة يمكن ان تعود الى ما يقرب من خمسة آلاف سنة، فلم تتوفر لنا الى الآن المعطيات الأثرية أو النباتية للدلالة على ذلك. ويمكن أن يساعد على تفسير كثافة سكان نيجيريا الجنوبية (١١٣) التاريخ المديد لزراعة الأنعام المربوط بالمساهمات الغذائية الاضافية التي أتت بها عنبيات النخيل الزيتي والتي كانت محمية أو مخدومة.

وبالرغم من ان انتشار الانتاج الغذائي يعتبر مقدمة للعمران، فانه لا يقود حتما بنفسه الى نمو المدن والأمصار. ويبدو ان عناصر أخرى لها دخل في القضية ومن ذلك الازدياد الى حد معين في الضغط السكاني والنقص في الأراضي المزروعة (١١٤). ولقد ازداد أثر الملايا بافريقيا جنوب الصحراء بعد ان استصلحت الارض، ووجدت جماعات قارة وافرة. فكان تضخم السكان الناتج عن اعتماد الفلاحة أكثر ببطأ مما كان منتظرا (١١٥). وكانت الأراضي الصالحة للفلاحة متوفرة بالمناطق جنوب الصحراء في ذلك العهد (١١٦). فلقد وجد في بداية الألفية الاولى من الميلاد اقتصاد زراعي كان يكفي لسد حاجات ممالك قديمة مثل ممالك غانا، ومالي، وسنغاي وبنان وأشتني.

## عهد المعدن

بالرغم من الدعوة في أوروبا، وذلك منذ وقت طويل ولأسباب منهجية صالحة، الى ترك نظام «العصور الثلاثة» أي عصر الحجر، وعصر البرنز وعصر الحديد (١١٧)، فان سهولته ما انفكت تمتد في استعماله.

ان افريقيا الغربية في مجموعها لم تعرف العصر البرنزي الا قليلا. ولقد تجلّى مظهر من مظاهر الآتية من اسبانيا والمغرب في موريتانيا حيث اكتشف ١٣٠ إناء من النحاس وحيث كانت تستغل مناجم أكجوجت الغنية التي أرخت بالكربون ١٤ بالقرن الخامس قبل الميلاد. ولقد وجدت أيضا

(١١٠) ابرترز، ١٩٥١، ١٩٥٨، ١٩٧٢.

(١١١) امنسن، ١٩٦٨، ١٩٧٠.

(١١٢) كرساي، ١٩٦٧، ١٩٧٢.

(١١٣) شو، ١٩٧٢، ص ٢٧ — ٢٨، ريس، ١٩٦٥.

(١١٤) واب، ١٩٦٨.

(١١٥) لفنفتون، ١٩٥٨، فيسفلد، ١٩٦٧، كورساي والكسندر، ١٩٦٨.

(١١٦) شو، ١٩٧١، مجلة تاريخ افريقيا ص ١٥٠ — ١٥٣.

(١١٧) دنيال، ١٩٤٣.



● (١) منطقة الاحجار الاثرية الضخمة  
السنغامية، موقع تيكيني بوسوا في  
السنغال. في مقدمة الصورة «مدفن  
الملك». متحف الايفان (تصويراً.  
دياغني).

● (٢) تمثال صغير مشاكل للانسان،  
من ثياروي في السنغال. متحف  
الايفان (تصويراً. دياغني).



حدود سهام منبسطة من النحاس في أماكن عديدة من بلاد مالي و بالجنوب الشرقي من الجزائر (١١٨).

لماذا لم تعرف إفريقيا الغربية عصر البرنز؟ ولماذا لم تتأثر أيضا بالحضارة المصرية القديمة؟ توجد الأسباب جزئيا في كون العدانة، والكتابة، والهندسة المعمارية للبناءات الحجرية واستعمال العجلة، ومركزية الحكومة المستقرة استقرارا قويا بمصر في الألفية الثالثة، كل ذلك حصل في العهد الذي جفت فيه الصحراء جفافا نهائيا. ولذلك هاجر السكان من الصحراء التي لم تعد صالحة لتكون رابطا غير مباشر بين مصر وإفريقيا ولم تنعقد تلك الرابطة من جديد إلا بعد ثلاثة آلاف سنة بالاعتماد على الجمل. وتوجد أسباب أخرى تعود إلى وضع أسس اقتصاد فلاحي بإفريقيا الغربية وذلك في فترة متأخرة وبطريقة بطيئة. وذلك ما تطرقنا إليه أعلاه. ولقد أراد بعض المؤرخين إبراز تأثير إفريقيا الغربية، ومجدها فراحوا يؤكدون على علاقاتها بمصر القديمة لكي ينعكس مجد مصر عليها (١١٩)، ولكن هذا العمل غير ضروري (١٢٠).

## بداية عصر الحديد

(حوالي ٤٠٠ سنة قبل الميلاد، إلى ٧٠٠ سنة ميلادية)

يبدو أن قطاعات عديدة بإفريقيا الغربية ظلت، طيلة بداية عصر الحديد، معزولة عن الخارج، وكانت الاتصالات في أغلب الأحوال مع العالم العتيق المعروف تجري بصفة غير مباشرة، متقطعة، لا يكاد يُعتدُّ بها (١٢١). ولقد ثارت زوبعة كلامية حول رحلة هانون المزعومة، ويحتمل أن يكون ما حكى عنها مختلفا (١٢٢). أن ما كتبه هردوت عن «التجارة الصامتة» التي كان يقوم بها القرطاجيون، كانت بدون شك تعتمد على وقائع (١٢٣) ولا شك أن بعض الأسباب دعت للاتصال بالعالم الخارجي، لأن معرفة الحديد قد بلغت إفريقيا في ذلك العهد. فلا يتعلق الأمر باستيراد بعض الأشياء الحديدية فحسب، بل بمعرفة تحويل المعدن، وأن كان هذا لا يعتبر اختراعا، نظرا إلى أنه لم توجد من قبل مبادئ عدانة (١٢٤). فلقد درس بني جيريا الوسطى، في تاروغا، عدد من المواقع المعنية لصهر الحديد. وقد بين الكربون ١٤ تواريخ تتراوح بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد (١٢٥) وتشهد حفريات جرت بمجالات سكنية من وادي النيجر، بوجود الحديد بالقرن الثاني قبل الميلاد (١٢٦) و يبدو حسب معارفنا الحالية أن تعلم إفريقيا الغربية لعدانة الحديد عائد

(١١٨) موني، ١٩٥١، موني وهلمنس، ١٩٥٧، لمبار، ١٩٧٠، ١٩٧١.

(١١٩) لوكاس، ١٩٤٨، ديوب، ١٩٦٠، ١٩٦٢.

(١٢٠) شو، ١٩٦٤ علم الآثار ونيجيريا ص ٢٤.

(١٢١) لوي، ١٩٦٧ فرغسن، ١٩٦٩، موني، ١٩٧٠ العصور الحالية ص ٧٨ — ١٣٧.

(١٢٢) بكيان، ١٩٧١، موني، ١٩٧٠، علم الآثار ١٩٧١ ص ٧٥ — ٧٧.

(١٢٣) هيردوت، ١٩٦٤، الكتاب ٤، ص ٣٦٣.

(١٢٤) ديفيس، ١٩٦٦، الانثروبولوجيا الحديثة، شو، ١٩٦٩ الانثروبولوجيا الحديثة ص ٢٢٧ — ٢٢٨.

(١٢٥) ب. ا. ب فاغ، ١٩٦٨، ١٩٦٩.

(١٢٦) بريدي، ١٩٧٠، هرتل، ١٩٧٠، يامازاكي، وآل، ١٩٧٣، ٢٣١ — ٢٣٢.



لا إلى مملكة المغرب كما ارتأى البعض (١٢٧)، بل إلى منطقة الشمال الإفريقي الخاضعة آنذاك لتأثير قرطاجنة. فلعل الكارامنت المستعملين للعربات، قاموا بدور الوساطة. إن الطريق من فزان إلى منعطف النيجر الأوسط (١٢٨)، ملئ بالرسوم الجدارية المثلثة للعربات. وتدل رسوم جدارية عثر عليها في الناحية الغربية، على طريق آخر للعربات، يربط المغرب بجنوب موريتانيا. فهل يمكن أن يكون ذلك ناشئا عن ضغط أناس رحل كانوا يحسنون استعمال الحديد (إن النصل ذا الحد المعدني أصبح السلاح المشترك وحل محل القوس في الرسوم المنقوشة على الصخر) مما دعا أناس العصر الحجري الساكنين في تشيت (مرحلة أكنجير) إلى تحصين قراهم ابتداء من القرن الخامس والرابع قبل الميلاد (١٢٩). وخلال الحفريات التي أجريت في تاروغا، كان من جملة ما اكتشف فيها، تماثيل صغيرة من الطين المحمي من ذوات الأسلوب الخاص الذي أخذ منه اسم القرية النيجيرية (نوك) حيث وجدت لأول مرة، مثلها هو الشأن بالنسبة لأغليبيتها، وذلك إثر استغلال مناجم القصدير (١٣٠) ونظرا إلى كون الرؤوس أصلها من طسمي يحوي القصدير، فإنها الوحيدة التي تظل مصونة لأنها أصلب وأقوى من جميع أجزاء الجسم. ولقد كان من العسير في البداية أن نعلم أن كانت الأشياء الأخرى المكتشفة في الحصباء معاصرة للتماثيل الصغيرة أو أنها كانت تمثل خليطا من أشياء من عهد واحد وأخرى أقدم منها، لأنه عثر، فضلا عن الأشياء الحديدية والآلات الصالحة لاستخراج المواد من المسبك، عثر على فؤوس حجرية مصقولة وأدوات أصغر من نوع العصر الحجري المتأخر (١٣١). ويبدو اليوم أن أدوات العصر الحجري المتأخر أقدم وأن أصلها من الطسمي (١٣٢). والمحقق أنه لا يوجد في تاروغا أثر واحد ينسب إلى العصر الحجري، وإن كان عثر على فأس حجري بأحد المواقع النادرة الصالحة للإقامة بالمنطقة (١٣٣). إن تاريخ الحصباء قد حدد عصر التماثيل الصغيرة بـ ٥٠٠ سنة قبل الميلاد و ٢٠٠ سنة ميلادية، وهذا التاريخ ثابت ومدقق فيما بعد بالاعتماد على تواريخ بالراديو كربون أجريت في تاروغا وموقع إقامة سبق أن ذكر (القرن الثالث قبل الميلاد). وبالاعتماد على تاريخ بالاضاءة الحرارية (٦٢٠ ± ٢٣٠ سنة قبل الميلاد) (١٣٤). فالبرغم من أن أسلوب الطين المحمي ليس قاراء، فإنه يمثل تحفة فنية، ورأى الاختصاصيون في هذا الفن أنه من أسلاف أشكال معينة من فن يوربا الذي ظهر بعد ألف سنة وعلى بعد ٦٠٠ كلم نحو الجنوب الغربي (١٣٥) ولقد جرت اكتشافات حضارة نوك بمنطقة تمتد على ٥٠٠ كلم طولاً، من الجنوب إلى غربي نجد جوس.

(١٢٧) كلارك، ١٩٦٩ ص ٢٠١.

(١٢٨) موني، ١٩٥٢، لوت، ١٩٦٦، شو، ١٩٦٩، الانثروبولوجيا الحديثة ص ٢٢٩، دنال، ١٩٧٠ ص ٤٣ - ٤٤، هورت ١٩٦٦.

(١٢٩) موني، ١٩٤٧، ١٩٧١ ص ٧٠. منسن ١٩٦٨، ص ١٠.

(١٣٠) سان فاغ، ١٩٤٥، ١٩٥٦، مجلة إفريقيا الغربية، ١٩٥٩.

(١٣١) ب. أ. ب. فاغ، ١٩٥٦، مجلة أفريقيا الغربية.

(١٣٢) شو، ١٩٦٣، ص ٤٥٥.

(١٣٣) أ. فاغ، نوك، ١٩٧٢.

(١٣٤) فاغ، وفلمنغ، ١٩٧٠.

(١٣٥) فاغ، وليت، ١٩٦٠، وليت، ١٩٦٠ ص ٣٢، ١٩٦٧ ص ١١٩ - ١٢٠، ١٨٤، ص ٢٣، روبين، ١٩٧٠.

وتوجد قرب جدول غمبي، بالسنگال، وفي غامبيا، توجد مقاطعة تقوم فيها اسطوانات حجرية عمودية معزولة في وضع دائرات. وكانت الحجارة الكبيرة المتقنة الصنع مضاعفة، وتميل الى تمثيل شكل كنانة. ولقد تأتى، بفضل الحفريات الجارية تحديد ثلاثة توارىخ بالكربون، وتدل على القرنين السابع والثامن. فضلا عن تأريخين من القرن الاول حاصلين من الطبقة السفلى تحت الحجارة الكبيرة والتي هي لها مستودع قيل تنصيبها، ويبدو ان الامر يتعلق بمعالم ضريحية (١٣٦) وقد اكتشف في تونديدارو، بمنعطف النيجر الأوسط مجموع رائع من المعالم القضيبيية الحجرية وقد أساء اليه جهل الباحثين والاداريين من القرن العشرين وحاسهم الساذج. ولذلك ليس لنا عنه الا معرفة واقعية محدودة جدا. فلعله ينتسب الى العهد الذي تنتسب اليه المعالم السنغالية الغمبية (١٣٧).

وفي أواخر حقبة الاتصالات الاولى تقريبا، وذلك بالحدود الشمالية من افريقيا الغربية، اتصل سكان سود بالبربر الرحل الصحراويين. وكانت لهم جمال فكانوا ينقلون نحو الشمال ذهب افريقيا الغربية، عبر الصحراء. ان شهرة «غانا» أرض الذهب بلغت في آخر القرن الثامن مدينة بغداد (١٣٨) وقد توفرت لتلك المناطق الشمالية من افريقيا الغربية، مبادئ الفلاحة وتقنية الحديد، وبلغت نضجا أهلها لا تباع طريق التقدم السياسي، وتكوين الدول لمجابهة ضغط الرحل القادمين من الشمال، حتى يتمكنوا من مراقبة تجارة الذهب لما فيها من منافع. ولم يظهر استعمال الحديد في الجنوب، بشمال سيرا ليوني قبل القرن الثامن، وكان بطيئا (١٣٩).

(١٣٦) أوزان، ١٩٦٦، سيسى وثلفنس، ١٩٦٨، فغان، ١٩٦٩، ص ١٥٠، دي كمبس، ١٩٧١.  
(١٣٧) دبلانية، ١٩٠٧، النجد الاوسط النيجيري، ص ٤٠ - ٤١، ماس ١٩٢٤، موني ١٩٦١، ص ١٢٩ - ١٣٤، ١٩٧٠، ص ١٣٣ - ١٣٦.

(١٣٨) لغزيون، ١٩٧١، ص ١٢٠.

(١٣٩) أثرن، ١٩٧٢، ١٩٧٣.

## الفصل الخامس والعشرون

# وادي النيل قبل التاريخ

بقلم: فرنان دي بونو

السودان والنوبة ومصر ثلاث مناطق مختلفة من عدة جوانب، قد وحد بينها نهرا واحد فألفت واديا فريدا. ولكن، من الصعب ان نتصور اليوم ان هذا الامتداد الصحراوي الذي شمل النهر من جانبيه قد نشأت فيه، فيما خلا من الأيام، وفقا لتقلب المناخ وتغير البيئة، محطات ومسالك وحواجز منيعة مع بقية القارة الافريقية.

ان هذه العوامل الطبيعية نفسها تكيف نمط حياة السكان الأوائل لهذا الوادي في كفاحهم الدائم ليتكيفوا مع أوساط معادية أو مناسبة لنموهم. وفي هذا السياق، نرسم باختصار تاريخ تطوّرهم الطويل منذ فجر ظهور الانسان الى أوج ازدهار العهد الفرعوني. ان عددا من الثقافات معروفة بالفعل معرفة جيدة في بعض الفترات الزمنية. الا ان سمة البحوث التي ما زالت ناقصة من ناحية، وروح النظام المطبقة غالبا على النتائج، تقودان في عدة حالات أخرى، الى تجزئة قد تبدو في المستقبل متكلفة، وحتى سيئة الاستعمال أحيانا.

كما ان مضاعفة «النماذج»، على بعد عدة كيلومترات، لها نسبة قليلة من الصحة في بعض الحالات. لذلك يعمل المؤرخون الذين شغل فكرهم هذا التشتت على جمع النماذج المعروفة في مقولات تاريخية كبرى. وحتى هذه الأخيرة يمكن من الآن ان تكون أحيانا ناقصة وغير كافية.

## الأولدواي (١)

تميزت هذه الثقافة في كل مكان بحصاة مهيأة، فقد مكنت اكتشافات حديثة متعلقة بأصل الانسان من التأكيد على وجود آثار أولى لم يتركها هذا الانسان في مناطق افريقيا الأخرى فحسب بل في وادي النيل أيضا.

فالشواهد القديمة جدا على تلك الكائنات التي أصبحت بشرية هي شواهد متكونة من حصاة مهيأة نحتت منها ادوات لا شكل لها، وقد وقع اكتشافها في السودان منذ سنة ١٩٤٩ في «نورى» و«واوا». ولكن لا يمكن ان تكون هذه المكتشفات المتفرقة حجة نهائية فلم نصل الى اليقين الا منذ سنة ١٩٧١ فقط بعد بحوث انتظامية جرت في مصر.

ان الترسبات الغرينية العائدة الى الدهر الرابع القديم، وعددها ٢٥، قد وفرت محصولا ثريا من تلك الادوات الغليظة. ولقد زودنا سنة ١٩٧٤ اكتشاف ثلاثة مناجم طبقية تشتمل على حصاة مهيأة بمعلومات مهمة تقضي على ما تبقى من التردد. وكانت مستويات الحصاة المهيأة تقع تحت الاشولي القديم (العصر الحجري القديم) المتميز بسطوحه الثلاثية في مستوياته الضاربة في القدم. ولقد عثر منذ عهد قريب جدا على سن لكائن بشرى وذلك بالغرين القديم الموجود بجبل طيبة، وهذا السن كان موجودا مع السواطير.

ولنذكر انه لوحظ أيضا تعاقب مشابه سنة ١٩٢٥، وذلك بغرين العباسية قرب القاهرة. ولقد صنف الحصاة المهيأة لتلك الطبقة في ذلك الوقت في باب الأدوات الصوانية. ان دراسة ذلك العهد قد أثريت أخيرا بمساهمة اضافية في أديما بصعيد مصر، أثر الاكتشافات التي قامت بها بعثة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية (٢). ويتعلق الامر بترسب جديد مازال تحت الدرس ويبدو مشابها للترسبات السابقة.

## العصر الحجري القديم (٣)

توجد تلك الصناعة الحجرية المتميزة بذوات الوجهين ذات الطرف المتقلص بكل مكان من افريقيا. ولعل جذورها موجودة في هذه القارة، انطلاقا من الحصاة المهيأة بالعهد السابق ثم انتقلت الى عدة مناطق أخرى من العالم. وقد ظهرت في وادي النيل شواهد عن تلك الحضارة دون انقطاع ملحوظ من السودان الى مصر.

وقد تعرفنا على تلك الثقافة في شمال السودان أحسن مما تعرفنا عليها في المناطق الجنوبية اعتمادا

(١) سمي هذا العهد بهذا الاسم اعتمادا على المكتشفات التي تمت بأولدواي (انظر الفصل ٢٨). وقد سبق ان سمي بما قبل الاشولي أو العصر الحجري القديم العتيق.

(٢) I.F.A.O.: Institut français d'archéologie orientale

(٣) يطابق على العموم العصر الحجري القديم الاسفل وغالبا ما يسمى أيضا بالاشولي، أي حوالي ٦٠٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠٠ سنة تقريبا.

على الاشغال التي جرت حديثا. فالأشولي الأسفل الذي تدل عليه ذوات الوجهين بما لها قواطع متعرجة غليظة أحيانا، تصاحبه حصاة مهيأة في «عطبرة» و«واوا» و«نوري». وفي «نوري» حصل له تطور في مركب انتقالي. أما الأشولي الأوسط والاعلى، المدرسان خاصة في الشمال، فهما يتميزان باتقان الصنع وبظهور صناعات شبيهة بصناعة لوفالوا. ان تلك الصناعات التي سيتولد عنها فيما بعد التقطيع اللوفالوي تبدو أيضا بارزة في خور أبو عنقا. ولئن كان الأشولي موجودا في قارات أخرى، فان النوع السنغوني، وهو نهاية الأشولي الذي دام كثيرا، هو نوع افرقي يمتد. فبعد ان اكتشف في السابق بافريقيا الجنوبية والوسطى على الخصوص، أخذ اليوم يظهر في خور أبو عنقا وفي ساي. ويبدو أنه أخذ يفقد عددا من عناصره، ابتداء من وادي حلفا. ويوجد عدد قليل من القدومات من ذوات الوجهين المنحوتة الطرف في السودان.

وجد الأشولي على مسطحات النهر وفي نوبة مصر حيث يمكن ان نلاحظ تطورا قائما على اتقان النحت. الا أننا لا نعرف معرفة كافية خصائصه النوعية.

وخلافا لذلك فاننا نجد بمصر ان الرواسب الطبقية في العباسية (قرب القاهرة) والرواسب التي درسناها أخيرا بطيبة (١٩٧٤) او بمسطحات النيل القديمة تبرز صناعات أشولية بالطوابق المتتالية ويتبع المستوى الولدواني المتميز بالحصاة المهيأة الأشولي الذي يشمل أشكالا ثلاثية السطوح وذوات وجهين أكثر تطورا وقطعا لوفلوازية. يوفر منجم «خرجة» طبقات متراكمة من أشولي أكثر حداثة قد يبلغ العصر الحجري الوسيط. ولئن وفرت ذوات الوجهين أشكالا كلاسيكية موجودة في أماكن أخرى فاننا نلاحظ في مصر أيضا تحويلها أحيانا الى قدومات وذلك بأطرافها المتباعدة بعدا متساويا. وذلك هو النموذج الوحيد المعروف حاليا من القدوم في مصر. ولقد اختصت مصر أيضا بذوات الوجهين المخدومة حسب تقنية تشابه التقنية المسماة «فكتوريا واست» التي تسبق هي أيضا التقطيع اللوفالوازي الكلاسيكي (٤) ونلاحظ وجود ذوات وجهين أخرى من النموذج السنغوني قرب القاهرة، ويبدو أنه أكثر حداثة.

## العصر الحجري الوسيط (٥)

تسببت أوضاع الحياة الجديدة في ذلك العهد في تعميم استعمال الشظية التي حلت محل ذي الوجهين الذي أصبح نادرا، ثم زال. ان تلك الشظايا ذات الكعب العديد المظاهر والمخدومة اعتمادا على التقنية اللوفلوازية السابقة مستمدة من نواة خاصة تنتج شظايا ذاك شكل معين مسبقا. دامت تلك الطريقة بافريقيا ببعض المناطق حتى العصر الحجري الجديد نظرا الى أنه يعتمد على تفكير تكنولوجي متقدم جدا.

ان الصناعة المستيرية ذات التقطيع اللوفلوازي والتي لم تدرس الا قليلا بالسودان توجد في

(٤) تمتزج شظية كبيرة بالقرع، وغالبا ما يكون هذا القرع على أحد الوجهين الجانبين وقل أن يقرع أحد الطرفين. وهذه الشظية تستعمل بدورها كأداة.

(٥) تطلق هذه التسمية اجمالا على العصر الحجري القديم الاوسط منذ حوالي ٢٠٠٠٠ سنة.

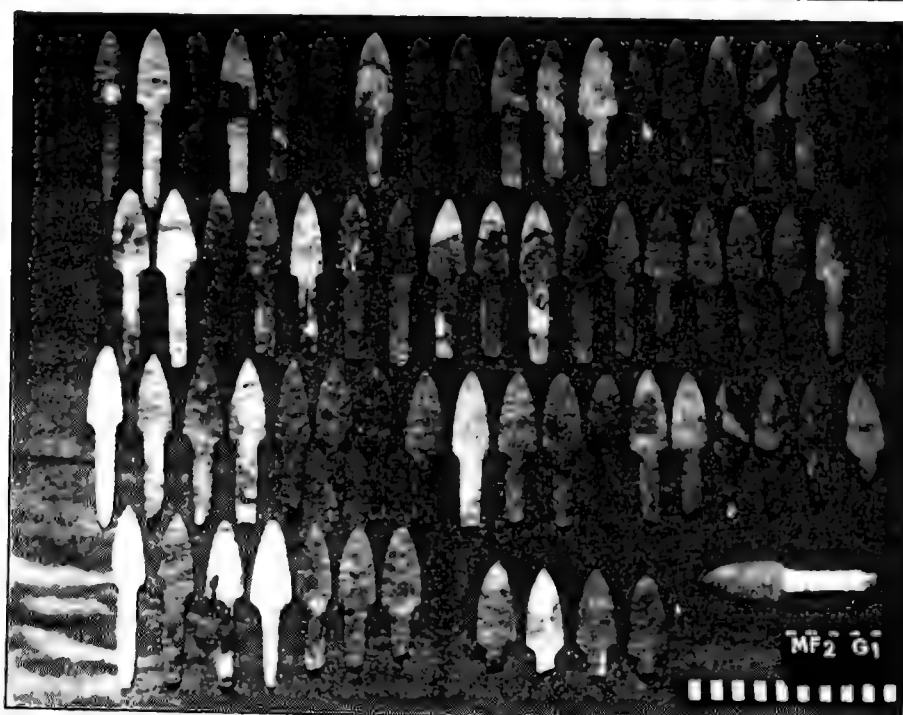
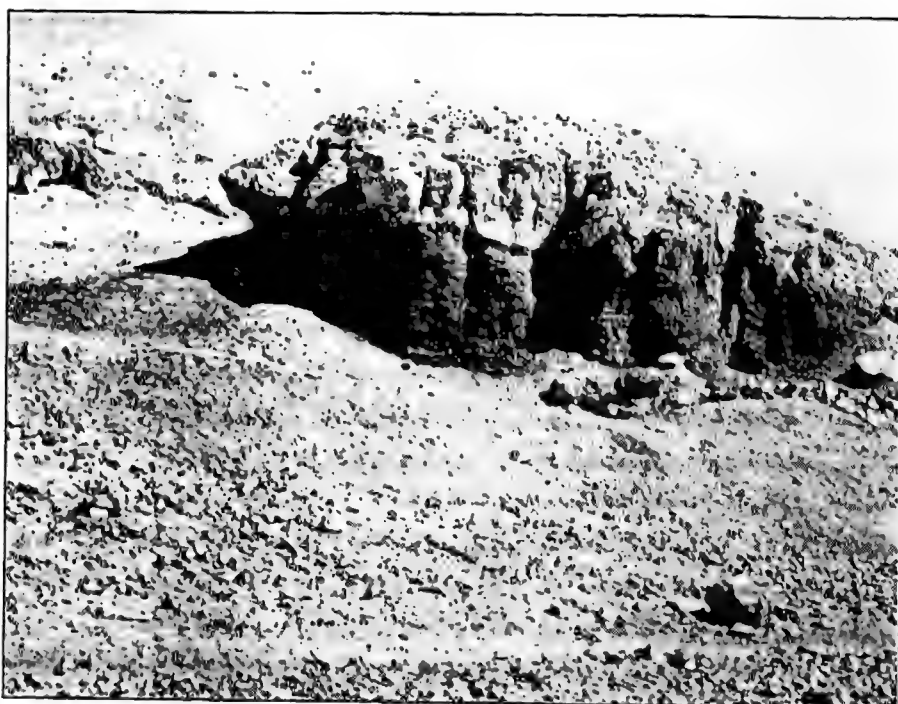
تسغاسي، وفي شكل أكثر تطوراً في أبوطبري في نوري. وعلى العكس من هذا، فإن البحوث الجديدة التي أجريت بالشمال أثبتت وجود ثلاث مجموعات متميزة: أولها المستيري النوبي: وهو قريب من المستيري الاوربي دون ان يكون مماثلاً له. ونلاحظ فيه نسبة ضعيفة من الشظايا اللوفلوازية وأدوات من النوع المستيري هذبت تهذيباً ضعيفاً. وتتصل بأنواع من العصر الحجري القديم الأعلى وذوي الوجهين الاشولي في بعض الحالات. (وذلك حوالي ٤٥٠٠٠ الى ٣٣٠٠٠ سنة). وثانيها المستيري المسنن: وهو يظهر من خلال شظايا لوفلوازية قليلة العدد نادرة الصفائح وان كانت القطع المسننة تعدد فيه من ناحية أخرى. وثالثها السنغوني اللومبي ويكثر فيه التقطيع اللوفلوازي الذي تضاف اليه ذوات الوجهين ومخكات جانبية وقطع محززة أو مسننة وشظايا مبتورة وذوات وجهين حادة بها تهذيبيات ورقية الشكل. أما الخزمي فيمتد من «جاي» الى دنغولا، ويشمل قسماً مهماً من الشظايا اللوفلوازية المهذبة والشظايا المسننة والمناقش التي تندر. ولقد أرخ بالاعتماد على أعمال حديثة بحوالي ٢٥٠٠٠ سنة الى ١٦٠٠٠ سنة، وهو تقدير قد ابعده في المدة الأخيرة حتى ٤١٤٩٠ سنة ٣٣٨٠٠ سنة.

ان المعلومات المجموعة في نوبة مصر غير كافية ان قارناها بشمال السودان. وقد أثبتت أعمال سندفور وأركيل القديمة تفوق تقنية التقطيع اللوفلوازي ذات التقاليد الاشولية أحياناً. وتشير اليه بحوث حديثة سنة ١٩٦٢ في آفية وخور داود. ولقد اكتشفناه نحن في أمداس سنة ١٩٦٢ — ١٩٦٣ في وضع التقطيع اللوفلوازي الصرف. ودرسنا في سبوعة صناعة تنتسب بلا شك الى المرحلة النهائية من تلك الفترة وتتصل بشظايا غير لوفلوازية تحتوي على مناقش عديدة.

أما العاطري، وهو صناعة يختص بها المغرب والصحراء الجنوبية فهو يظهر من خلال شظايا تنتهي قاعدتها بذنوب بارزة، وباستعمال النحت الورقي الشكل، فلقد ابتدأ من دون شك مع المستيري ودام في بعض المناطق من حين الى آخر حتى العصر الحجري الجديد. ووقع التعرف عليه في نوبة مصر بالصحراء الليبية وذلك بالشمال الغربي من أبوسنبل (٦). وكان متصلاً بحجوانات برية منها الكركدن الابيض والبقرات الكبيرة، والحمار الوحشي ونوعان من الغزلان والظبي والشعلب، وابن آوى والخنزير ذو القرنين، والنعام ونوع منقرض من الجمال والسلحفاة. فالعاطري في النوبة يبدو كأنه قد اختلط بالأمدى، وهو صناعة ذات تقاليد مستيرية لوفلوازية. أما في مصر فهو يوجد على حالته الخام بالوحدات الشرقية وفي سيوا والدخلة وخرجة، كما نجده بالصحراء الشرقية في وادي حمامات. وتتفرق تلك الصناعة في الوادي نفسه على شكل قسيمات، في طيبة وادار. ولقد تمكن من التأثير في الصناعة الحوارية في العهد الموالي في أسنا وطيبة وقد اتخذ مظهر أحجار ذات أبعاد صغيرة، في تلك الصناعة نفسها بالعباسية وجبل الأحمر قرب القاهرة (من ٤٠٠٠ الى ٧٠٠٠ على الأقل).

وبالرغم من الآثار الكثيرة الدالة على العصر الحجري الجديد بمصر فإنه لم يدرس دراسة نوعية شاملة تستوعب أدواته. فالأشغال الاولى التي أجريت بالمسطحات القديمة للوادي وبالقيوم سمحت باعطاء رؤية عامة عن الحضارة التي كانت قائمة آنذاك. وتوفر حفرياتنا الشاملة التي أجريناها

(٦) وقمت تلك المكتشفات سنة ١٩٧٦ ولقد حدثت في بئر طر فاوي وبئر الصحراء.



٢  
● (١) وادي الملكات، منطقة الاقصر، مصر. (تصوير ج. ديفيس).  
● (٢) رؤوس رماح من السيلكس (الصوان)، موقع مرقية في السودان. حفريات ج. فيركوتيه (تصوير بعثة الآثار الفرنسية بالسودان).

بجبل طيبة منذ ١٩٧١ برعاية اليونسكو، عناصر جديدة في الموضوع. ان وضع العلامات في الترسبات الجيولوجية وفي نحو مائة من المواقع لذلك العهد والموضوعة حسب طبقات متتابعة مرتبة ترتيبا زمنيا يمكن من رسم خطوط عامة لتطور تلك الصناعة التي تدل على تغلب الطابع اللوفلوازي. وتتفق كل تلك البحوث على الدلالة على وجود عهد قديم «أشولي لوفلوازي» يتبعه عهد آخر ذونوي ضخمة، يتحسن تدريجيا، بتقليص أحجامه. وظهرت في مرحلة أكثر حداثة على الشطايا الصفائحية تهذيبات ثانوية أكثر عددا ذات مظهر شبه موسستيري (٧) كما ظهرت أدوات مختلفة. وإذا كانت هذه الصناعات قد أعطت عناصر متشابهة مع عناصر أخرى في إفريقيا، فينبغي ان نشير كذلك الى وجود صناعة أخرى خاصة بمصر لم يشر اليها بتاتا بمكان آخر. ويتعلق الامر بالصناعة المسماة بصناعة جبل سوهان والتي تميزت باستعمال النوى حسب التقطيع اللوفلوازي ذي المضارب الثنائية الاقطاب التي نحتت من حديد باستعمال مكشط مقعر على أحد أطرافها. أما فيما يتعلق بالانسان من ذلك العهد، فيجب تسجيل ما اكتشفناه سنة ١٩٦٢ في (سلسلة) ان عثرنا على قطعتين من غلاف جمجمة يحتمل ان تعود الى ذلك العهد (٨). فلقد سبق ان أظهرت دراستها التي لم تكتمل خصائص عتيقة تتصل بخصائص أخرى أكثر حداثة. ويمكن ان توفر بقية الأعمال في شأن هذه النقطة نظرة جديدة عن أصل الانسان الافريقي المتنازع في شأنه بالعصر الحجري الوسيط والذي بقي غير معروف تمام المعرفة ان اعتمدنا المكتشفات المعزولة التي وقعت ببرقة والمغرب وزمبيا.

## العصر الحجري الجديد

من الملاحظ عموما ان الانتقال من العهد السابق الى هذا العهد في أوروبا ومناطق أخرى من افريقيا قد حدث حسب قطيعة سريعة وشديدة في المستوى التكنولوجي وحتى أحيانا في المستوى الانساني. ولكن هذا لم يكن كذلك في وادي النيل. ان صعوبة اكتشاف فواصل واضحة تفصل بين فترة وأخرى تجعل من العسير تمييز المقطوعات الزمنية. ان التطور يخلق في نفس المكان، ابتداء من الفترة السابقة، مظاهر اقليمية جديدة ومتوازية أحيانا تنتسب الى بيئات محلية. و يبدو في نفس الوقت ان التغيرات البيئية تبدل العلاقات بين سكان الوادي وجيرانهم، وتقطع الروابط القديمة وتعبر عن تقارب جديد. ان احصاء النماذج الثقافية المعروفة حاليا وحديثا يترك احساسا بتشتت كبير جدا اذ الامر يتعلق بوضعية مؤقتة، وربما تساعدنا التحاليل العميقة جدا على استخراج الخطوط التأليفية. ان هذه الملاحظات تنطبق أيضا على العهد الموالي وهو العصر الحجري القديم اللاحق ولقد انتهت أخيرا دراسة تلك الفترة في السودان، وهي تبرز في القسم الشمالي منه صناعتين مختلفتين.

(٧) لقد وجدت تقنيتان لتقطيع الشطايا: التقنية اللوفلوازية الكلاسيكية وتقنية نزع الصفائح المطولة. ويوجد بين هاتين التقنيتين اشكال انتقالية عديدة.

(٨) قدم هذه المعلومات السيد ب. فندرميرش (مختبر علم الاحاث الانسانية - كلية العلوم جامعة باريس ٦) واليه أسندت دراسة هذه الوثائق.



الصناعة الجمائية: في ضواحي حلفا، وهي تحتوي على شظايا تشتمل على نسبة لوفلوازية ضئيلة وحدود هذبت تهذبا بسيطا. وتختص بمحكات جانبية متباينة ومناقش وأدوات مسننة (تؤرخ بنحو ١٥٠٠٠-١٣٠٠٠).

الصناعة السبيلية: وجدت في الماضي في كوم أمبو (مصر)، وتظهر الآن في السودان في حلفا بالمرحلة الأولى. إن شظاياها ذات البلورات المعدلة آتية من نوى شبه اسطوانية لوفلوازية (حوالي ١٣٠٠٠-٩٠٠٠ سنة).

أما في النوبة المصرية فلقد عرفت صناعتان هما:

الصناعة الامدية: اكتشفناها بأمد (بعثات المعهد الألماني سنة ١٩٦٣) وتشتمل على أدوات متنوعة يغلب عليها الطابع اللوفلوازي، ولها صلة بمحكات منظمة ومثاقب وقطع من تقنية خرجية وسوف يأتي الحديث عنها. إن استعمالها المؤقت للتهذيبات الورقية الشكل تذكرونا بالصناعة العاطرية.

الصناعة السبيلية: التي تعرفنا عليها بسبوعة (بعثة المعهد الفرنسي لافريقيا الغربية) في عدة أماكن وهي تنتسب أيضا إلى المرحلة الأولى — فهي ممزوجة بشظايا لوفلوازية وبمحكات قليلة ومناقش كثيرة ويحتمل أن تكون موجودة كذلك في خور داود.

أما الصناعة الجيزية فقد اكتشفت قرب القاهرة منذ ١٩٣٨ وتشمل حجارة قطعت تقطعا لوفلوازيا، وقد تقترب شظاياها من بعض الاشكال الهندسية التابعة للصناعة الخرسية.

الصناعة الحوارية: (المسماة سابقا: اللوفلوازية اللاحقة) (٩) وهي صناعة الحجارة الصغيرة، وقد شملت منطقة تمتد من أسنة (صعيد مصر) إلى أقصى الدلتا وإلى المناطق المجاورة (وادي تميلات). وهي شبيهة بالصناعة السبيلية من حيث التقطيع اللوفلوازي، ولكن ليس لها أشكال هندسية. وتشتمل على مراحل وعلى مظاهر لا تزال قيد الدرس. وتتميز بنوى ذات قطبين ربما اشتقت من النوى المسماة «جبل سوهان» السابق الذكر، والتي ترجع إلى العصر الحجري الوسيط. إن بعض النوى التي يحتمل أنها أكثر حداثة قد انتجت في آن واحد شظايا وصفائح لها أعقاب ذات وجهات. وهي تدل على تحول بالنسبة للصفائح ذات الاعقاب الملساء التي كانت غالبية في العصر الحجري المتأخر وفي العصر الحجري القديم اللاحق. و يظهر التأثير العاطري في الحواري، وذلك في أسنة وطيبة، يدل عليه وجود منحوتات جديدة ورقية الشكل، كما تدل عليه قطع هجينة. وعلى العكس من هذا، تلاحظ شظايا معلاقية الساق متكونة من الحجارة الصغيرة والعاطرية نوعيا، وذلك في الحواري بالعباسية وجبل الأحمر قرب القاهرة. فهل كانت تلك التأثيرات ناتجة عن تسرب شعوب الصحراء إلى وادي النيل؟.

أما الخرجي وهو معاصر للحواري بوجه من الوجوه، ولم يعترف به بعض مؤرخي ما قبل التاريخ، فهو موجود بواحة خرجة مع لوفلوازي سابق للخرجي الصرف، وكذلك توجد هذه الصناعة

(٩) اعتبرت الصناعة السبيلية كأنها الميزة الرئيسية لهذا العهد في كل مكان. وقد بينت البحوث أنها لا تميز في الواقع المنطقة كوم أمبو. وقد تم تمييز نموذج مختلف معاصر، إن مواصلة النقاش بين الاختصاصين قادت كاتب هذا المقال إلى دحض فكرة تصف ثقافة ما بالاعتماد على تقنياتها فحسب. إننا نرى أنه يستحسن وصفها باسم المكان الذي اكتشفت فيه أولا ولذلك أصبح اللوفلوازي اللاحق يوصف بالحواري.

ذات الشظايا اللولولوازية ذات التهذيبات الهاوية التي تبدو في الظاهر لا أشكال لها، في واحة كركور وفي قرى وطيبة بمصر. وهو ذو صلة بصناعات أخرى في أسنة (صعيد مصر) وأمدا (في النوبة المصرية).

## العصر الحجري القديم اللاحق

تتميز هذه الفترة عموماً عن الفترة السابقة بوادي النيل بتعويض تقنيات التقطيع ذي الشظايا بتقنيات الصفائح والصفائح من الحجارة الصغيرة التي لها أعقاب ذات وجيحات. ولا يستثنى من ذلك الا حالات الدوام والظهور مرة أخرى والتداخل.

ان البحوث التي أجريت في شمال السودان وجنوب النوبة المصرية قد أبرزت مركبا من الصناعات يمثل أحيانا وبلا شك مظاهر لثقافة واحدة. فالخلي، نسبة لخلفا (خور كوسة) يعرف أيضا في شمال كوم أمبو (مصر) فهو يمثل انتقالا مبكرا وقع بين التقطيع اللولولوازي للعهد السابق، وعهد الحجارة الصغيرة التي تستعمل الشظية أو الصفيحة. و يعتبر استعمال التهذيب المعروف بتهذيب (وشتاتة) طريقة طلائعية تظهر بعد ذلك بكثرة مع الايبيرو-موروسي المغربي ونلاحظ في شأن الصناعة الحلفية أنها تستعمل استعمالا متتابعا الشظايا والصفائح الظهرية والمحكات والمناقش والمسننات والقطع المقشورة (وذلك حوالي ١٨٠٠٠ الى ١٥٠٠٠).

أما البلاني فهو أكثر حداثة في حلفا وبلانة. وهو يشمل على حجارة صغيرة مبتورة وأخرى لها ظهور هذبت تهذيبا خفيفا وشظايا مقطوعة ومحكات، ومناقش وحدود ونوى بسيطة أو ذوات مستويات مقروعة قرعا متقابلا (في حوالي ١٤٠٠٠ الى ١٢٠٠٠).

أما القادي فأصله من أبكا وتوشكا في النوبة. فهو يحتوي على أدوات تشمل شظايا من حجارة صغيرة أولا وتشمل أيضا صفائح، وله محكات وظهور مستديرة ومناقش وأدوات مبتورة وحدود. اقترضت فيما بعد. ان القبور البيضوية الشكل الموجودة داخل المنازل وخارجها مغطاة بالبلالطات. وقد كشفت عن جنس بشري قريب جدا من جنس الكرومانيون بالمغرب (حوالي ١٢٠٠٠ الى ٥٠٠٠).

الأركيني اكتشف بمصر في موقع واحد قرب حلفا. فهو يمثل صناعة ذات شظايا خاصة و يتركب من محكات متساوية البعد و صفائح ظهرية، لها تهذيبات (وشتاتة)، ومن أنصاف دوائر وقطع مقشورة ومدقات (حوالي ٧٤٠٠).

ولقد اكتشف القاي قرب القاب في ثلاث طبقات سكنية متتابعة توفر احداها ما يشبه مضربا مستطيلا متكونا من عظم مصقول (حوالي ٧٥٠٠).

ويحتوي الشمكي في منطقة حلفا على نوى متعددة الاتجاهات و يكشف عن أدوات هندسية الاشكال في مرحلته الاخيرة التي لها صلة بقطع أخشن منها. وقد يكون هذا الشمكي تطورا جانبيا للقابسي المغربي (حوالي ٥٠٠٠ الى ٣٢٧٠).

لقد درسنا في مصر (السلسلي) ودرسه آخرون بعدنا وذلك بمنطقة سلسلة قرب كوم أمبو فهو يحتوي على ثلاثة طوابق: السلسلي الأول الذي يوفر صفائح هذبت تهذيبا خفيفا، ومكونة أحيانا

من حرير، ومثلثات غير منتظمة تكون أحيانا من حرير ومنقشات، وعددا قليلا جدا من المناقش، والمحكات وصناعة عظمية. أما البقايا البشرية فهي تشير الى جنس شبيه بالكرومانيون (حوالي ١٣٠٠٠-).

أما السلسلي الثاني (١٠) فهو يشتمل على صفائح وصفيحات طويلة لها تهذيبات متقطعة تكون أحيانا حريرية ومناقش ومحكات وصناعة أساسها العظم (حوالي ١٢٠٠٠-). والسلسلي الثالث مازال تحت الدرس. وهو يشمل صفيحات كثيرة لم تهذب الا قليلا وأحجارا للتسخين وكوخا مستديرا وهو أقدم كوخ عرف الى حد اليوم بمصر. ان الفكوري المدروس في منطقة أسنة، يبدو منتسبا قليلا الى الايبيرو-موروسي ولعله يوجد أيضا في أماكن أخرى بمصر (حوالي ١٣٠٠٠-) تتميز هذه الصناعة بالصفيحات الرقيقة المهدبة، وبالمناقب والسهام الصغيرة.

السبيلي لقد تميزت تلك الصناعة التي حافظت على التقطيع اللولوازي بشظاياها ذات القاعدة المعدلة والأشكال الهندسية. وهي صناعة جنوبية في مصر، تظهر خاصة في مقاطعة كوم أمبو وسلسلة وداراو، ولا سيما في المرحلة الثانية. ولقد شهدت في النوبة، وهي نادرة جدا في الشمال، ولا تصنف في أي نوع أحيانا. وقد وفرت أشغالنا بسلسلة أيضا أدوات عظمية ومهارس، ومدقات وبقايا انسانية أصلها من حفرياتنا التي مازالت تحت الدرس (حوالي ١١٠٠٠-). ان المثال السبيلي يستحق المناقشة. وتوفر التوارينغ الفيزيوكيمياوية ترتيبا زمنيا يناقض في البداية المعلومات التكنولوجية التي توفرها هذه الثقافة. ان هذا الامر جدير بالملاحظة، خاصة ان السبيلي ليس بعيدا زمنيا ومكانيا عن الفكوري.

المنشي (ضواحي سلسلة) يتركب من أدوات حجرية لها الى حد ما، ارتباط (بالاوريفانسي) المشرقي، كما يتركب من صناعة عظمية ومدقات وصفيحات لماعة الاطراف ومن أدوات وبقايا انسانية. وتستنتج معاصره للسبيلي الثاني اعتمادا على تشابه بعض الادوات الجديدة ذات النوع المختصر. اللاكيتي يمثل ثقافة تعرفنا بالصحراء الشرقية وهو ينفرد بمنشوقية التسنن تصاحبها سهيمات معلاقية الساق.

الخلواني عرفناه بضواحي حلوان (جنوب القاهرة)، وهو يتألف من أربع مراحل مختلفة: فالمرحلة الاولى تحتوي على صفائح وافرة وصفيحات هذبت أحيانا تهديبا خفيفا (وشتاتة). وتتميز الثانية بمجارة صغيرة مركبة من مثلثات مختلفة الاضلاع ومثلثات متساوية الضلعين ومن قطع دوائر عادية، ومنقشات. وتتألف المرحلة الثالثة من قطع دوائر. أما المرحلة الاخيرة، فتتألف من قطع دوائر ذات قاعدة مستقيمة تنتسب الى نموذج جديد.

(١٠) تسمية وضعها ب. سميث (١٩٦٦) تحليدا للإله سبك الشخص في صورة تمساح، وهو من آلهة ذلك المكان. وقد ثنا نحن أيضا بحفريات في ذلك الموقع. ونقترح اسم السلسلي الثاني اعتمادا على جبل سلسلة الموجود في تلك المنطقة وذلك أنسب للقواعد المتبعة في التسمية المعتمدة على أسماء الأماكن.

النتوفي صناعة من فلسطين قد تكون تسربت بصورة متتابة الى التراب المصري. فقد عرفت مرحلة من تلك الصناعة في حلوان، وتميزت بقطع لها ظهور صنعت اعتمادا على تهذيبات متقاطعة وعلى العكس من ذلك، فإن حدود السهام التي لها قاعدة مجهزة بخزات متناسقة، والتي نسبت أول الامر الى النتوفي، قد اكتشفت منذ ١٨٧٦ بحلوان حيث عثرنا عليها مرة أخرى سنة ١٩٣٦. ومنذ عهد قريب أيضا أي في سنة ١٩٥٣، اكتشفناها في القسم الشمالي من الصحراء الشرقية (حوالي ٨٠٠٠ الى ٧٠٠٠). وقد عرفت تلك الحدود منذ ذلك الوقت في الخيام وأريحا (فلسطين) وسماها الاختصاصيون «حدود الخيام». ان الفرضية التي تفيد بتسرب النتوفي مازالت تحتاج الى تحقيق دقيق.

## العصر الحجري الجديد وعهد ما قبل الملوك

ان هذه الفترة الطويلة التي تغطي في الجملة ألفي سنة تقريبا (من ٥٠٠٠ الى ٣٠٠٠) قد حلت هنا تحليلا مفصلا. فالظواهر المادية لكل ثقافة من الثقافات او ما يسمى «بالافاق الثقافية» التي تمثل تلك الفترة قد وصفت بدقة، مؤلفة بذلك مرجعا ضروريا لكل من يريد أن يتفهم التطور البطيء في سياقه الطبيعي. وهو تطور يقود مجموعات بشرية من الرحل أو أنصاف الرحل الى أن تؤسس تدريجيا مجتمعات إما متمركزة تمركزا كثيفا كما هو الشأن بمصر، أو منظمة حسب امارات مستقلة مثلما هو الشأن بالسودان النيلي. ولقد درس التطور التاريخي لتلك المجتمعات الحجرية الجديدة وما قبل الملوك في الفصل ٢٨ من هذا المجلد. فالعرضان اذن متكاملان، وكل واحد منهما يتصور المشاكل من زوايا مختلفة ونجد بين معقفي الاحالات الضرورية التي تساعد القارئ على ادراج ثقافة محددة قد وصفت في هذا الفصل حسب الخطوط الكبرى للتطور التاريخي الخاص بمجموع «الافاق الثقافية» المذكورة في الفصل ٢٨.

ان تلك المرحلة الجديدة تشكل خطوة حاسمة من تاريخ الانسانية. فانسان وادي النيل المتنقل من حياة الترحال الى نصف حياة الترحال ثم الى حياة الاستقرار قد أنشأ العناصر الرئيسية لمرحلتنا الحضارية الحالية. ان المسكن الثابت يحدد استعمال صناعة الفخار وتأهيل الحيوانات وتربية الماشية والفلاحة وتعدد أدوات تصلح لسد الحاجات المتزايدة.

وفي السودان (١١)، يببدو ان الخرطوم (١٢) هو أقدم ثقافة بتلك الفترة في ذلك البلد. فلقد عثر عليه في أكثر من اثني عشر موقعا في مساحات شاسعة وذلك في الشرق ابتداء من كسالة، وفي الغرب على مسافة ٤٠٠ كلم في قلب الصحراء، وفي الشمال حتى دنغلة، وفي الجنوب في اتجاه أبي هقار على النيل الأبيض، ان المعلومات المستخلصة من حفر يات الخرطوم التي شاركنا فيها توفر الحجج المؤكدة على وجود مسكن ثابت. و يشهد على ذلك أكواخ من قضبان خشبية، واعتماد

(١١) انه الخرطوم القديم المذكور في الفصل ٢٨. بفضل الاحتفاظ باسم الخرطومى توقعا لاكتشافات مقبلة قد تكشف عن مراحل أقدم من تلك المرحلة.

(١٢) انظر الفصل ٢٨.

صناعة فخارية متطورة منتشرة على مساحة كبيرة، واستعمال الرحي. وتتميز تلك الصناعة الفخارية المتكونة من أقداح، بزخرفة خطوطها المتموجة المقطوعة وبنقط موشاة. فالأدوات الحجرية الصوانية الكثيرة هي أدوات من حجارة صغيرة وهندسية محضة تتألف من نماذج متنوعة. ففيها أنصاف دوائر وقطع دوائر ومثلثات مختلفة الاضلاع ومستطيلات ومنحرفات وشظايا مقشورة ومثاقب. فأنصاف الدوائر وقطع الدوائر التي هذبت من حيث حافتها أيضا تشهد بالتشابه مع الولطوني، والحجري الجديد في هيراكس هيل، بروديسيا، أما الأدوات المنحوتة في الريوليت، وهي صخر صلب، فهي أدوات أكبر. نجما من الأدوات الصوانية، ولها شظايا وصفائح بسيطة بعضها ذو أعقاب جدد نحتها (محكات)، وأنصاف دوائر ضخمة ومكاشط قليلة ويتميز الخرطومى أيضا بالمخاطف العظمية الشائكة ذات الوجه الواحد. تضاف الى ذلك مرقاة حجرية ذات أقعاع وسطية ومهارس، ومقارع واسطوانات مثقوبة الوسط، ورحى قليلة ومثاقيل شباك لعلها من نفس النوع الموجود في الفيوم والعمري (مصر) وبالصحراء النيجيرية. وتتكون أدوات الزينة من درر تشبه الاسطوانة التي في شكل بيضة النعامة، ومن أقراط نادرة. ولقد استعمل الطين الاحمر أو الاصفر للوشم على الجسد. ان الاموات المدفونة في مساكنها، والممدودة على أحد الجانبين كانت تنسب الى جنس أسود وهو أقدم جنس في افريقيا. وكانت تخضع عندما كانت حية لقلع أضراس طقوسي كان رائجا في الماضي عند القابسين والايبيرو - موروسين بالمغرب وعند سكان الحجري الجديد بكينيا. وقد دامت تلك التقاليد مدة طويلة في السودان وخارجه بالقارة الافريقية. وتتألف الحيوانات المعروفة من الجاموس والظبي وفرس الماء والقبط البري والدلدل والفأر والتمساح وكمية كبيرة من الاسماك (حوالي ٤٠٠٠؟).

الشهاني: ظهر في مواقع عديدة مبعثرة في جنوب الشلالة السادسة. ولقد وفرت الحفريات بالشهاني عناصر ثقافية متفرعة بدون شك عن الخرطومى، وتتركز خصائصها المميزة على استعمال صناعة فخارية خاصة، وعلى الازميل والفأس العظمى المصقول. وتتألف الصناعة الفخارية من أوان مزينة أحيانا بخطوط منمقة مثل الخرطومى، الا انها تنفرد بصقل سطوحها وحواشيها السوداء وبزخرفة المثلثات المحززة. وتضاف الى هذه الأدوات الحجرية نماذج من الحجارة الصغيرة وفؤوس مصقولة ومراقش («ملساء مستوية») وحدود دبابيس مستوية أو محدبة.

أما الحراب العظمية، فتظل موجودة حتى ظهور الصناعة اللؤلئية والجواهر المصنوعة من الامزونيت أو العقيق، واللبريات المستعملة حتى يومنا هذا. وكانت حيوانات الصيد هي الجواميس والظباء والزرافات والخنزير. ويرى الماعز القزم ولم يبق أثر للمساكن الخفيفة بل بقيت مواطن عميقة وللشهاني (١٣) جوانب مشتركة مع الفيومى المصرى، في مرحلة من مراحل ذلك باستعمال السطوح المستوية والمراقش والحراب ورؤوس الدابوس والامزونيت والمواقد المحفورة. وهو مرتبط بعهد ما قبل الملوك القديم لمصر، باستعمال الصناعة الفخارية الملساء ذات الحواشي السوداء بصعيد مصر. وتوحي الامزونيت والمراقش والفخار المقطوع بنقط تشابه مع الغرب (تبستي)، كما يوحي

(١٣) سمي أحيانا «بالحجري الجديد الخرطومى».

الماعز القزم بنقط تشابه مع الشمال الغربي. وقد وفر موقع «كاديرو» الذي مازال تحت الدرس حالياً، والذي هو أكثر حداثة، وفر أضرحة (تؤرخ بحوالي -٣٥٠٠ الى حوالي -٣٠٠٠). وقد وفرت حفريات جرت خلال (١٩٧٦ - ١٩٧٧) في كدادا (منطقة شندي) نوعاً ثالثاً لعله أكثر حداثة من الشهانيي، ويتألف من أضرحة لها صلة بالمسكن، ومن فؤوس حجرية مصقولة ذات حجم كبير، ولوحات تزويق شبه معينة الشكل تقريباً، واسطوانات مثقوبة لا يعرف استعمالها، وأوعية كأسية الشكل، وأضرحة أطفال موضوعة في جرار. وهذه هي العلامات المميزة له. وقد يكون الأبكي (١٤) بشمال السودان وجنوبه، إلى حد ساي على الأقل، معاصراً بصورة متتابعة للخرطومي والشهانيي، ولعله قد تواصل إلى ما بعد ذلك العهد، مروراً بأربع مراحل. فالمرحلة الأولى الفقيرة من حيث الفخار قد تكون متفرعة عن الكادي. والثانية عبارة عن تشكيلة من الأواني الفخارية لها فتحات مقطوعة وسطح مزخرف بخطوط منقوشة نقشاً متعرجاً أو بتنقيط مستطيل أو مستدير. والثالثة تتميز بأدوات حجرية لها مثاقب على شظايا متعددة أحياناً ولها صفائح بسيطة أو ذات حواش مهذبة والرابعة تتألف من صناعة فخارية لها حواش سوداء وسطوح حمراء مصقولة أو منصدة تشابه الشهانيي والمجموعة (أ) بالنوبة ومصر في عهد ما قبل الملوك (حوالي -٣٣٨٠ الى -٢٩٨٥).

و يتميز ما بعد الشمكي الذي لم يعثر عليه إلا في موقعين، من حدود صغيرة وصفائح محززة وشظايا جانبية وسطوح مستوية توحى بوجود صلات بالفيوم وواحة خرجة (حوالي -٣٦٥٠ الى -٣٢٧٠).

ان انعدام الثقافات المذكورة آنفاً في النوبة المصرية، وكذلك الثقافات المطابقة لها زمنياً، يفسر بظروف بيئية خاصة وبندرة المواقع أوروبياً باستكشاف ناقص ليس إلا. وعلى العكس من هذا لوحظ بالنوبة المصرية - باستثناء بعض الحالات المحلية - لوحظ تشابه واضح مع حضارات عهد ما قبل الملوك المصري، وحتى مع البدري حسباً يبدو. أما النجادي الأول (١٥) فهو موجود في عينية وسبوعة وشلالة وخور أبو داود (النوبة) وهو حالياً الموقع السكني الوحيد المحتوي على مخازن تموين.

و يوجد النجاد الثاني (١٦) قرب أبي سنبل وخور داود وسبوعة وهان وأحجمت. وأخذت الاتصالات تضعف ابتداءً من عهد الأسرة المالكة الأولى بين النوبة ومصر. وأخذت تتطور في عين المكان الصناعات محتفظة بخصائصها من قبل التاريخ إلى عهد الإمبراطورية الجديدة، حاملة الأسماء المستتابة لمجموعة (أ) (١٧) ومجموعة (ب) ومجموعة (ج) النوبية. وقد عملت أوضاع جغرافية وطبيعية مختلفة في مصر على تطوير مجموعتين ثقافيتين مختلفتين بصورة متوازية في التراب المصري، في الجنوب والشمال. وقد حافظتا على ذلك الاستقلال الثقافي إلى عهد توحيد البلدين في عهد الأسرة

(١٤) يقارن بالأبكي المذكور في الفصل ٢٨.

(١٥) عهد ما قبل الملوك القديم في الفصل ٢٨.

(١٦) عهد ما قبل الملوك القديم في الفصل ٢٨.

(١٧) انظر الفصل ٢٨.

المالكة الاولى. ولعب النحاس دورا ثانويا لانه ظهر في الجنوب قبل الشمال لمجاورته لعدد من المناجم الصغيرة التي تكفي لاستعمالات محدودة.

### المجموعة الثقافية الجنوبية (الصعيد)

برزت منذ البداية مجموعة الجنوب في مظهر حضارة متقدمة. وهي معروفة اعتمادا على دراسة أضرحتها المتعددة وبقايا تجمعات سكنية قليلة الاهمية.

ان التازي لم يحلل الا تحليلا عاما، بل هو محل نزاع بين المختصين فيما قبل التاريخ. وهو يوجد في مصر الوسطى في تازا، وبدرى ومستجدة ومطمر. وهو يتميز بعلامات طريفة غير معروفة في أماكن أخرى، وعدد قليل من الأضرحة والآثار القروية. فالصناعة الفخارية التي كثيرا ما تتكون من أوان داكنة، ونادرا ما تكون حمراء ذات حواش سوداء ولها أحيانا سطح متجدد، تتميز بزوايتها البارزة الموجودة بين القسم الاعلى المستقيم أو المنحرف والقاعدة المتقلصة. وتمثل الاوعية الكأسية بزخرفتها المحززة المنقطعة نمودجا آخر طريفا له طابع افريقي. فتحتوي الادوات الحجرية خاصة على فؤوس مصقولة لها أحجام كبيرة كلسية سيليسية، وعلى مكاشط وسكاكين ومثاقب وغيرها. وتضاف اليها لوحات الزينة، لا سيما من رخام، مستطيل الشكل، وخواتم وأساور عاجية وأصداف بحرية مثقوبة، وبها تكتمل أدوات الزينة. ولندكر أيضا الملاعق والصنارات العظمية. أما التقاليد المأتمية، فقد كشفت عن قبور بيضوية الشكل أو مستطيلة لها لحد جانبي يحمل جسما ممدودا على الجنب، أطرافه مطوية ورأسه موجه الى الجنوب ووجهه موجه الى الغرب. وكانت تلك القبور تزود بعدد من أدوات الزينة والأوعية والادوات المختلفة.

ويمثل البدرى (١٨) حضارة مزدهرة خاصة في مصر الوسطى. وهو يوجد في بدرى ومستجدة ومطمر وحمامية. وتدل صناعة فخارية جميلة جدا على هيائته الطريفة من خلال أوعية متنوعة حمراء أو بنية أو رمادية أو حمراء، لها حواش سوداء غالبا ما تغطي بأخاديد مقطعة تقطيعا دقيقا بشكل الخراف في فهي تتكون خاصة من صحاف ضيقة أو مفلطحة أو تشبه قعر السفينة.

ونلاحظ وجود أوان وأقداح من البزلت وأوعية عاجية. وتزين الداخل أحيانا مواضع نباتية منحوتة. وتحتوي الادوات الحجرية على أسلحة من ذوات الوجهين، لها قواطع مسننة محدبة وعلى حدود سهام لها قاعدة مجوفة أو لها شكل ورقة الرند، وعلى أدوات لها تقنية صفائحية. وتمتاز بواطن الملاعق بصنع فني رفيع، وكذلك الامشاط وأساور اليد والصنارات والتماثيل العظمية والعاجية. أما التماثيل النسائية، وتماثيل فرس البحر فلها وظيفة طقوسية. وتحتوي أدوات الزينة على لآلئ صوانية مغلفة في محلول النحاس، وعلى أصداف ولوحات تزويق منضدة مستطيلة الشكل لها في أغلب الاحيان طرف مقعر. وقد كان يزرع القمح والشعير والكتان، ويربي الثور والشاه ويصطاد ويؤكل الغزال والنعامه والسلحفاة، وقد اندثرت المساكن المتكونة من أكواخ بسيطة خفيفة.

أما الموقى الذين كانوا يوضعون في وضعية انثناء، فقد كانوا ممددين على جنب، ورؤوسهم موجهة الى الجنوب ووجوههم نحو الغرب، وذلك في حفر بيضوية أو مستديرة الشكل، قل ان تكون مستطيلة

وكانوا يحملون معهم الى الآخرة العناصر المتنوعة المذكورة سابقا. ومن الممكن ان نعثري على فروع متباينة من تلك الثقافة بالصحراء الشرقية (أ. حمامات) وأرمنت (الصعيد) وفي منطقة عديمة (صعيد مصر) وربما بالنوبة.

واكتشف النجادي الاول (١٩) في حمامية ومستجدة في وضعية طبقية، تحت البصري ابتداء من مصر الوسطى والنوبة وحتى بالصحراء الشرقية (أ. حمامات). فالصناعة الفخارية ذات السطح الاملس أو المصقول، وذات اللون الاحمر أو الرمادي أو الأسود، متميزة عن الصناعة البصرية. ويختص النجادي الاول بالتزيق — فلم تبقى مواضيعه منحوتة نحتا ولكنها تمتاز بتزيق أبيض على أوعية حمراء رسم عليها أشخاص بخطوط هندسية ونباتات وأشكال، بأسلوب طبيعي. وفي أغلب الاحيان تنتهي الأوعية الحجرية الانبوبية الشكل، والتي غالبا ما تكون من البزلت وذات عرى مشقوبة، تنتهي برجل هرمية. وتحتوي الادوات الحجرية ذات الوجهين على سهام قاعدتها مقعرة، وعلى سكاكين لها شكل المعين أو الفاصلة. وتوجد أدوات أخرى لها طرف مفروق على شكل حرف وعلى فؤوس مصقولة وأدوات صفائحية ودبابيس اسطوانية أو هرمية. ان لوحات الزينة، وخاصة منها المصنوعة من الشيست، والتي كانت في الاول معينة الشكل، تصبح ذات شكل تير يوموري. وتزدان الادوات العظمية والعاجية المستمدة من الهام جديد مثل الامشاط والدبابيس، تزدان بصور حيوانية أو بشرية. إنها، وان كانت تستعمل لاجراض سحرية، الا أنها قد تستعمل حرابا. والمسكن عبارة عن ملجأ خفيف ذي سراج، مثل المساكن التي اكتشفت في محسنة.

ونلاحظ استعمال النحاس بصورة تدريجية. وكانت المؤونة تحفظ في مخازن محفورة في الارض ولكنها كانت تحفظ أيضا في أوعية، بمستجدة وبدير المدينة. وتكشف مراسم الدفن عن قبور مستطيلة تحتوي على أموات في وضعية على الجنب، رؤوسهم موجهة الى الجنوب ووجوههم نحو الغرب ولقد سجلنا حالات دفن متعددة أو أجساد، مقطوعة الاطراف (حوالي ٤٠٠٠ الى ٣٥٠٠).

ويعلو النجادي الاول طبقيا النجادي الثاني (٢٠) في حمامية ومستجدة وأرمنت. ويعثر عليه ابتداء من مدخل الفيوم، في جزيرة، الى النوبة المصرية الجنوبية. وفيه تطورت صناعة فخار النجادي الأول التقليدية بتضييق فتحاتها وابرار حواشها. ولقد حلت محل الصناعة الفخارية ذات الزينة البيضاء صناعة أخرى وردية، لها زينة بنية ومواضيع مقننة رمزية كاللؤلؤ والمراكب والنباتات والأشخاص المرفوعي الايدي. ويتميز النجادي الثاني أيضا بالأوعية الكبيرة البطن ذات العرى المتموجة التي تصبح بعد ذلك أنبوبية الشكل، وتفقد عراها في بداية التاريخ. وعلى العموم، فان الاوعية الحجرية المتنوعة التي كثيرا ما تكون متطورة الأشكال، يلاحظ عليها تقليد أشكال الفخار الوردي. وتشتمل الأدوات الحجرية التي كثيرا ما تكون متطورة جدا، على سكاكين مفلوقة الشطرين ذات طرف شكله شكل «٧» ومن أدوات أخرى لها حدود متعكسة مقعرة محدبة، ولها تهذيبيات متناسقة جدا على وجه قد صقل سلفا وتغطي المقابض أحيانا بورقة ذهبية أو عاجية. وتكون حدود الدبابيس اجاصية الشكل. وتنتج صناعة النحاس المتطورة حدودا ومساقات وفؤوسا. ان اللوحات المرسومة تدريجيا تصبح في النهاية مستديرة أو مستطيلة. وتبسّط أشكال التماثيل الصغيرة

(١٩) ما قبل عهد الملوك القديم، المذكور في الفصل ٢٨.

(٢٠) ما قبل عهد الملوك الاوسط، أو الفرزي، المذكور في الفصل ٢٨.



العظمية والعاجية هي أيضا بصورة مفرطة. وتحسن تقاليد الدفن. فتغطي جوانب الحفر البيضوية الشكل أو المستطيلة، باللوح أو الغرين أو الآجر. ولقد مكنت الحفريات الحديثة التي قننا بها بأديمه (بعثة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٧٤) من اكتشاف حفر من نمط جديد على شكل أحواض جانبية. ولقد لاحظنا أحيانا وجود أجساد مقطوعة الاطراف الا ان القبور المتعددة قد زالت، ولم يبق توجيه الموقى قارا. وأصبح السكن يتكون من أكواخ مستديرة أو نصف مستديرة من الطين، ومن مأوى خفيفة وهياكل لتربية الحيوانات مستطيلة الشكل (الامراح) (في حوالي ٣٥٠٠- إلى ٣١٠٠).

### المجموعة الثقافية الشمالية (مصر السفلى)

تختلف المجموعات الثقافية الشمالية عن المجموعة الجنوبية اختلافا كبيرا، لا سيما في اتساع التجمعات السكنية وفي الصناعة الفخارية ذات اللون الواحد وفي الدفن المؤقت بالمسكن نفسه. ان الفيومي (ب) (٢١) الذي ليس معروفا معرفة جيدة قد درس في شمال بحيرة منطقة الفيوم تلك. ولعله يعود الى العصر الحجري النهائي أو العصر الحجري الجديد ما قبل الحزفي. وهو يتركب من صفيحات بسيطة ومن حجارة صغيرة منحوتة الظهر ومن حراب عظمية ومدقات. ولقد أبرزت أحدث البحوث مرحلة وسطى بين الفيومي (ب) وهو أكثر قدما، والفيوم (أ)، وهو أقرب منا، ونقترح تسميتها بالفيومي (ج)، وتتألف تلك المرحلة من مراقش وحدود سهام من ذوات الوجهين معلاقية الساق يمكن تشبيهها بمحدود سهام الصحراء الغربية (سبوة بليبيا) وعلى هذا الأساس تربط الصلة بالصحراء ويمكن تأريخها (بحوالي ٦٥٠٠- إلى ٥١٩٠).

أما الفيومي (أ) (٢٢) الذي درس أكثر عمقا بالأماكن السكنية، فهو يحتوي على خزف ذي هيئة خشنة وحيد اللون أملس أو مصقول أحمر أو بني أو أسود. وهو يتألف من أوان وأقداح وأكواب وعلب مستطيلة وأوعية ذات رجل أو مزدانة بدوائر في شكل حلقات على الحواشي كما هو الشأن بالبدرى. تتميز الصناعة الحجرية بتقنية متقدمة وهي من ذوات الوجهين وتحتوي على سهام لها قاعدة مقعرة أو مثلثة وحدود وقطع من المناجل أثبتت بمقابض خشبية مستقيمة، وفؤوس مصقولة وحدود ذات قاعدة اسطوانية. ومن الادوات العظمية نجد مثاقب وحدودا قواعدها محدبة. اما لوحات الخضاب الخشنة فهي كلسية ونادرا ما تكون من الديوريت. وكانت الاصداف البحرية وقطع البيض او المكرولين (الامزيت) تستعمل حبات للنظم. ولا أثر للملاحيات بالاماكن السكنية، لأنها كانت بدون شك خفيفة جدا. لكن يوجد عدد كبير من المواقد المحفورة في الارض مثلما هو الشأن بالشهانب بالسودان.

وكانت المطامير المتكونة من جدار غائرة في الارض مجموعة بحوار المسكن. فكانت تحفظ القمح والشعير والكتان وأشياء أخرى. وكان الحنزيير والماعز والثور وفرس الماء والسلاحفة من الحيوانات

(٢١) انظر العصر الحجري الجديد، فيوم، (ب) المذكور في الفصل ٢٨.

(٢٢) عهد ما قبل الملوك البدائي المذكور في الفصل ٢٨.

التي تؤكل لدى تلك الشعوب، ولم نثر إلى الآن على مقابر، ولعلها كانت بعيدة عن عين المكان. ويمكن أن تكون تلك الثقافة معاصرة للبديري (نحو - ٤٤١١ إلى - ٣٨٦٠).

يشمل المرمدي (٢٣) تجمعاً سكنياً كبيراً تتجاوز مساحته هكتارين غربي الدلتا. إلا أن الحفريات ما زالت لم تنته ولم تنشر نتائجها إلا بتقارير مختصرة أولية. فهي تبرز ثلاث طبقات متتابعة من أطلال أثرية وتكشف عن تطور ثقافة واحدة خلال العصور وهي ثقافة أصيلة لكنها خاصة بالشمال. إن صناعة الفخار ذات اللون الواحد الملساء المصقولة أو الخشنة تحوى نماذج متنوعة، منها على الخصوص أوعية وأقداح وأطباق وأباريق. لكن لا توجد بها نماذج من عرى ضيقة ذات حواش. وتتكون الأشكال المتميزة من مغارف مثلما هو الشأن في البديري كما تتكون الأواني من نتوءات مستديرة مثلما هو الشأن في البديري والفيومي، ومن الأوعية ذات الأرجل مثلما هو الشأن في الفيومي. وتزدان تلك الأوعية أحياناً بمطاط محفورة على الحاشية أو بخطوط محفورة عمودية أو بمواضيع ناتئة أو حتى برسوم شكلها شكل سعف النخيل. وتندر الأواني المكونة من البزلت أو من الحجر الأخضر الصلب والمنتية برجل من نوع النجادي الأول. وتذكرنا الأدوات الحجرية الشائبة الوجه بنفس النماذج الملحوظة في الفيومي. وشاهدنا رأس هراوة اجاصي أو كروي الشكل. أما المشاقب والابر والمسارد والحراش والمساوط والصنارات فلقد نحتت من العظم أو العاج. وتتكون أدوات الزينة من دبابيس للشعر وأساور وخواتم وأصداف مثقوبة ولآلئ متنوعة المواد. ولنلاحظ وجود لوحتي خضاب الأولى ترسية الشكل شستية، والآخرى غرائيتية. وهما مادتان مستوردتان من الجنوب. وقد تكونت المساكن في البداية من أكواخ متباعدة خفيفة، بيضوية الشكل مشدودة بأوتاد، وتليها أكواخ أخرى أكثر متانة وأقل تباعداً. وتوجد في النهاية منازل بيضوية الشكل لها جدران مدرية طينية متجمعة على شكل شوارع مصفوفة. تضاف إلى تلك الأكواخ مطامير الفيومي، عوضت فيما بعد بجدران غرست بالأرض. وكانت الاموات، — بعضها، لا كلها —، تقبر في حفر بيضوية الشكل بين المساكن دون أن يكون معها أثاث. ويبدو أنها كانت موجهة نحو منازلها. وكان الإنسان يرعى الكلب والماعز والشاة والخنزير. وكان يصطاد خصوصاً فرس الماء والتمساح والسلحفاة إلى جانب تعاظمي الصيد البحري. ولقد تطورت تلك الثقافة بين - ٤١٨٠ إلى - ٣٥٨٠. ويمكن أن تكون معاصرة للفيومي، ثم تواصلت إلى بداية النجادي الأول.

يشل العمري (أ) (٢٤) ثقافة أخرى من مجموعة الشمال اكتشفت قرب حلوان بين بقايا تجمع سكني كبير يتجاوز طوله الكيلومتر بمدخل وادي خوف. ويوجد فرع من تلك القرية الماقبل تاريخية فوق نجد يشرف على جرف شديد الانحدار وهو فريد من نوعه بمصر. إن الحفريات التي قننا بها والتي لم تنته بعد، قد وفرت عناصر حضارة جديدة مختلفة عن حضارة الجنوب مثلما هو الشأن في مرمدة والفيوم. فالخزف يشمل أنواعاً مختلفة جداً وهو من نوع رفيع يمتاز بأسلوب متطور أكثر من أسلوب الخزف الموجود بالموقعين وإن كان وحيد اللون. نجد في الأشكال السبعة عشر التي تتكون منها الأواني الملساء أو المصقولة، الحمراء أو البنية أو السوداء، أوعية لها فوهة ضيقة وأخرى بيضوية الشكل

(٢٣) انظر الفصل ٢٨.

(٢٤) انظر الفصل ٢٨.

وأقداحا وأخرى اسطوانية وأوعية خزفية واسعة أو مقعرة وأخرى هرمية وجراراً. ولا تشابه أوعية مرمدة والفيوم إلا الأوعية ذات الحلقات. وكانت تستعمل أوعية نادرة من الكلسيت أو البزلت. إن الصناعة الصوانية ذات الوجهين لا تختلف عموماً عن صناعات المواقع السابقة. لكن الصناعة الصفائحية قد وفرت أنماطاً متميزة جديدة بمصر: فهي تشمل سكاكين مقوسة الظهر معكوفة نحو الحدة، وبقاعدها مقبض صغير متكون من فريصتين يحتمل أنها بقايا «النتوفيين» الذين أقاموا في العهد السابق بنفس المنطقة. ويمكن أن نذكر أيضاً أثقال الشباك من نوع عثر عليه بالخرطوم والفيومي والصحراوي النيجري، حيث توجد أيضاً صناعة ذات شظايا وافرة. وتمثل الصناعة العظمية من النوع الرفيع النماذج الكلاسيكية. إلا أن الصناعة كانت مصنوعة من القرن. وتشمل أدوات الزينة الكثيرة العدد أصداًفاً بطنية الأرجل من البحر الأحمر ولآلء منحوتة من بيض النعام والعظم والحجارة وفقرات الأسماك. وكانت النوميوليات (Nummulites) الأحفورية المثقوبة تستعمل أقراطاً. وكان الكلين والصمغ يستوردان. أما اللوحات المستعملة لحرس المغرة (التراب الحديدي) فهي من النوع الخشن ومصنوعة من الكلس والصوان. وكانت الحيوانات تتكون من البقر والماشية والماعز والظباء والخنزير وفرس الماء، والكلب، والنعام والحلزونات والسلحفاة وعدد كبير من الأسماك وكان يزرع بالمكان القمح والشعير والكتان، وكانت النباتات تتكون من الحماط والنخيل والأثلّة والحلفاء وكانت المساكن على نموذجين، منها ما كان ذا سقف مسنود بأوتاد وكانت بيضوية الشكل، ومنها ما كان محفوراً جزئياً في الأرض وسطوحها مدورة. وهي تمتاز بمساحتها الكبيرة على مطامير الحبوب المنتشرة في كل مكان تقريباً. إن الموقى المقبورين في القرية نفسها قبراً أكثر كثافة مما هو موجود بمرمدة، كانوا مصنفين عموماً حسب توجيه قار، وكانوا كلهم موضوعين في أوعية ترابية، رؤوسهم إلى الجنوب وجوههم نحو الغرب. وكان أحد الموتى — ولعله كبير منهم — يحمل صولجاناً خشبياً (الصولجان «أميس») له شكل كان معروفاً في شمال البلاد في العهد الفرعوني (حوالي -٢٣٣٠).

وقد ظهر العمري (ب) (٢٥) ثم تطور في بداية النجادي الأول. فلقد تعرفنا عليه بشرقى الموقع السابق، وهو يختلف عنه اختلافات عدة فيما يتعلق بمواسم الدفن والصناعة. فلقد كانت المقبرة المتميزة عن التجمع السكني تحتوي على أضرحة مغطاة بحجارة من الجارة. ولا توجد قاعدة قارة يعتمد عليها في توجيه الجثث. أما فيما يتعلق بالتجمع السكني الذي هو أقل اتساعاً من تجمع العمري (أ) فإننا لم ننته بعد من البحث فيه. وإذا كانت للخزف سمات مشتركة، فإن الأدوات الحجرية كانت متخالفة تماماً. إن العمري الذي يعتمد تقنية صفائحية يتكون من سكاكين صغيرة ومكاشط صغيرة الحجم، مستوية ومدورة، ومن قطع صغيرة. وفي انتظار مواصلة أعمالنا، يصعب علينا الآن، أن نحدد تاريخ الموقع بالنسبة إلى العمري (أ).

اكتشف المعادي (٢٦) بعد إجراء حفريات لم تكتمل، وذلك بتجمع سكني مجاور لمقبرتين

(٢٥) يمكن ترتيبه في عهد ما قبل الملوك الحديث، المسمى أيضاً بالجزري الحديث، وهو مذكور في الفصل ٢٨. إلا أن تحديد تاريخه مازال غير ثابت.

(٢٦) لعله ينتسب في قسم منه على الأقل إلى عهد ما قبل الملوك أو الجزري الحديث (انظر الفصل ٢٨) ولكن يمكن أن يكون معاصراً لعهد ما قبل الملوك الأوسط أو الجزري (انظر الفصل ٢٨).

بالمعادي، قرب القاهرة كما اكتشف بعد حفرة قننا بها بمقبرة ثالثة عثر عليها بعين شمس (ضواحي القاهرة). ان ثقافة ذلك التجمع على غاية من الطرافة وهي لا تتبع زمنا بصورة مباشرة ثقافة العمري بل تمثل مجموعا ثقافيا ثانيا من مجموعة الشمال. ان خزفه ذا اللون الواحد يبدو أقل رقة من الخزف العمري. فهو خصوصا أملس ولونه أسود أو بني. وندر ان يكون أحمر أو مغلفا بعجين أبيض. أما النماذج المتوافرة فهي متكونة من أوعية بيضوية الشكل، طويلة العنق، لها حاشية بارزة. وقد لاحظنا وجود أوعية صغيرة كروية لها أطواق غالبا ما تكون مزدانة بنقش منقوشة. وتوجد أوعية أكثر تميزا لها قاعدة متكونة من حلقات ناتئة مدورة تذكرنا بأوعية البزلت من ذلك النموذج، وهي موجودة أيضا بالمكان. أما الأوعية التي لها زخرفة بنية من النجادي الثاني، فهي نادرة وربما تكون مستوردة من الجنوب، ويوجد فيها أيضا أوعية كبيرة البطن لها عرى متموجة موجودة في النجادي الثاني وفي فلسطين. ان تلك الأوعية تدل على تواصل العلاقات الثقافية المستمرة بين النيل وفلسطين. وتشابه أوعية البزلت الأنوبية كذلك أوعية صعيد مصر في عهد النجادي الأول. وهناك صناعة حجرية صفائحية عديدة رقيقة، وقد نحتت من جديد في شكل أدوات اختصت بها تلك الثقافة المعادية. اما السكاكين المفروقة التي لها شكل حرف (U) فهي أقل عددا، ولعلها هي أيضا مستوردة من النجادي الأول. وقد لاحظنا قلة في أدوات الزينة الا ان بعض اللوحات الششية المعينية الشكل قد جاءت هي أيضا من النجادي الأول. أما اللوحات الأخرى فهي إما صوانية أو مجرد قلامة صوانية بسيطة مسطحة.

إن أهم ما تتميز به الثقافة المعادية هو أنها توفر لنا لأول مرة ضمن ثقافات عهد ما قبل الملوك، دليلا على استعمال النحاس على نطاق واسع. وبينما نجد أن الفيومي والمريدي والعمري لم تعرف النحاس أبدا، فقد كان مستعملا في صعيد مصر منذ عهود قديمة جدا. وكان سكان الوادي منذ البدري وابتداء من النجادي خاصة يستغلون المناجم الصغيرة المجاورة لهم في المنطقة الجنوبية من الصحراء الشرقية. ولقد تم فعلا العثور على مقصات ودبابيس ومثاقب وصنارات وفؤوس من النحاس. ويبدو ان أنواعا من الموارد المعدنية قد وجدت في نفس الوقت في ذلك المكان. وأصبح ذلك المعدن مشهورا بالمعادي. ونحن ننسب ذلك الوضع من الأشياء الى اتصال المعادين بالمنجم المعدنية في ذلك الوقت بسيناء. وتؤكد العلاقات بوجود سماء مشتركة عديدة مع الشرق. وفضلا عما ذكرناه آنفا من وجود صناعة الفخار في فلسطين يمكن ان نذكر كذلك بعض الأدوات الصوانية والمنغنيزية. وتتكون الحيوانات من بقر يات وماعز وشياه وخنازير وأفراس ماء وسلاحف وأسماك، وكان النبات يتكون من القمح والشعير والخروع والخلفاء.

أما فيما يتعلق بالتجمع السكاني فقد وجدنا عددا كبيرا من الأوتاد المغروسة في التراب مكنتنا من اثبات وجود أكواخ بيضوية الشكل وآثار ملاجئ بسيطة. وقد اكتشفنا أيضا أكواخا أكثر تطورا، مستطيلة الشكل، مبنية بالأجر مثلما هو الشأن في محسنه، كما اكتشفنا أكواخا أخرى تحت الأرض يدخل إليها بالادراج. وكانت الجرار الغائرة في الأرض تستعمل مطاير للحبوب. وكانت الحفر المستديرة مخازن مؤونة وتخفي غالبا أوعية مثلما هو الشأن في النجادي. وكانت المقابر المنفصلة عن القرية تحتوي على قبور مستديرة أو بيضوية الشكل، وليست مستطيلة أبدا. فهي تحوي جثثا منشئية على الجنب، رؤوسها موجهة غالبا نحو الجنوب وجوهها نحو الشرق وتصاحبها غالباً أوعية.

وكانت تدفن أيضا في تلك المقبرة الغزلان التي كانت تعتبر بدون شك حيوانات مقدسة وغالبا ما تكون مصحوبة بأوعية كثيرة. ولقد اكتشفنا بطرف مقبرة عين شمس صفا من الكلاب الموجهة الى كل ناحية، وغير مصحوبة بأدوات جنائزية، فلعلها كانت تقوم بدور الحراسة مثلما كانت تفعل لما كانت حية، ولم تبق الا آثار قليلة إلى الآن نظرا لصغر الموقع.

ان هذه الثقافة لم تحل في الحين محل العمري، بل ظهرت عند نهاية النجادي الأول؛ واستمرت في تطورها الى غاية انتهاء النجادي الثاني في صعيد مصر.

## استمرار العصر الحجري في العهد الفرعوني

بعد ان تحدثنا عن التيارات التي عرفت مصر قبيل عهد الملوك، يجدر بنا الآن ان نلخص خصائصها، وان نحاول شرح أسباب تباعدها ثم أخيرا تقاريرها في العهد الفرعوني.

اننا نجد، في تاريخ الفراعنة الطويل، اشارات الى مصر الشمال ومصر الجنوب، وكيف وحد بينهما مينيس الشهي، مؤسس السلالة الملكية الأولى. والحقيقة ان هذه الاشارات تركز على وقائع ملحوظة ترجع الى غياهب الماضي، بل الى ما قبل التاريخ.

وقد رأينا كيف أثبتت الحضريات الحديثة صحة هذه السنة المتبعة، وكيف ان هذه الفوارق الجهوية بين شمال البلاد وجنوبها، كانت موجودة منذ المرحلة المسماة «العصر الحجري الجديد». ولم تكن هذه الفوارق جغرافية فحسب، بل كانت تشمل عدة ميادين من حياة الانسان، الى درجة أنه تولدت عنها مجموعتان ثقافيتان كبيرتان مستقلتان عن بعضهما، تستمدان طاقتها من ظروف طوبوغرافية وبيئية مختلفة. وقد اثبتت مجموعة الجنوب على طول مجرى النيل الضيق، محصورة بين حرفين قاحلين، أما مجموعة الشمال، فقد نشأت في دلتا النيل الخصب الواسع ذي الآفاق المتراصة الأطراف.

ولقد تفرعت عن مجموعة الشمال عدة ثقافات هي متشابهة من حيث الخطوط العامة ولكنها متميزة من حيث التفاصيل، وهي الى حد ما متعاقبة زمنيا. ورغم وجود الأصل المشترك، فان مجموعة الجنوب لها خصائص تتميز بها تميزا واضحا عن ثقافات الشمال. وهذه الفوارق ملحوظة في خصائص كل من المجموعتين اللتين تشكلت من اتحادهما فيما بعد مصر الكبرى.

وهكذا، فبداية البداية، لوحظ في شمال البلاد تطور مدني معتبر. ففي الفيوم نشأت قرى صغيرة متقاربة بعضها من بعض. وفي مريضة قامت مدينة بأتم معنى الكلمة وامتدت على ما يقرب من مئتي هكتار، اصطففت فيها المنازل. وامتد العمري على طول قدره كيلومتر، والمعادي على كيلومتر ونصف، أما في الجنوب، فنظرا الى ضيق المواقع، لم يبق من آثار المدن الا القليل.

وفما يتعلق بالانشطة الاخرى التي لها صلة بحياة الانسان وأعماله بمصر في ذلك العهد، فان الصناعة الفخارية الشمالية سواء كانت بنية أم سوداء أو حمراء، قد بقيت رغم تطور الأشكال ومحافظة على اللون الواحد المستقر، وتميزت بانعدام الزخرفة انعداما كاملا. وخلافا لذلك فان تعدد الأشكال وتقدم الزخرفة تقدما كبيرا في الجنوب قد ظلا علامتين مميزتين مع الأوعية الشهيرة ذات الحواشي السوداء..

ولئن ظهر في خزف الشمال بعض النقص فإن العكس يظهر في الصناعة الصوانية التي تدل على دقة رائعة في صياغتها. ولقد بلغ اتقان نحت بعض القطع في الجنوب مستوى رفيعا. ان الشمال فقيرا فقرا تاما في ميدان الفن المجص، وبذلك يقف على طرفي نقيض مع ما بلغه الجنوب من ازدهار كبير. ولقد ظهر ذلك الازدهار في الجنوب منذ البدري وتجلي في تماثيل رائعة من العظم والعاج أو الطين المحروق، وفي أدوات الاستعمال اليومي كالامشاط والمعلق وجواهر الاقراط واللوحات الجميلة جدا، التي يسحق بها الخضاب، والحروز المنحوتة من الشبيست الأخضر. لذلك ندرك الاختلافات الكبيرة في ميادين متنوعة بين الشمال والجنوب بمصر. فنلاحظ ان الشمال بلغ تقدما عاليا من الناحية العمرانية والاقتصادية وأن الجنوب بلغ مرحلة فنية متقدمة جدا معلنة عن عهد الفراعنة. وسيكون توحيد هاتين الثقافتين المتكاملتين هو السبب الرئيسي لعظمة مصر في عهد الفراعنة.

الا ان حلول العهد التاريخي الذي واكبته الكتابة وتوحيد مصر تحت سلطة واحدة، وتقدم استعمال المعدن، لم يغير كما كان منتظرا بعض مظاهر عيش السكان بالوادي. و ينطبق هذا على القمادي في استعمال الصوان خاصة وهو مادة ناجعة جدا كانت متوفرة في البلاد طيلة العهد الفرعوني.

ومما يستحق الذكر ان الاتقان العظيم في نحت الصوان قد بلغ أوج ازدهاره في عهد الأسر المالكية الأولى، وتدل على ذلك السكاكين الرثة التي تسمى سكاكين «القربان» وأضرحة أبيدوس الملكية في صعيد مصر وسقارة أو حلوان قرب القاهرة، حيث ان اتقان صناعتها وحجمها الرائع يشيران الالجاب. وقد عثر أيضا في أطلال مساكن ذلك العهد على أدوات منزلية من الصوان وبعض أدوات نادرة جدا من النحاس في هيركمبوليس والقاب، بصعيد مصر ووادي حمات بالصحراء الشرقية.

واكتشفنا في آثار الامبراطورية الوسطى بطيبة القديمة أي بالكرنك عددا وافرا جدا من الادوات الصوانية وهي تختلف من حيث تقنية صنعها وتنوع أدواتها عن الأدوات المستعملة طيلة العصر الحجري القديم الاعلى والعصر الحجري القديم اللاحق. وقد لاحظنا كذلك عددا وافرا من المناقش والادوات المتكونة من الحجارة الصغيرة.

ان الاستكشافات النظامية التي قمنا بها منذ ١٩٧١ من جهة أخرى بجبل طيبة والأقصر بينت ان أكثر من نصف الـ ٢٠٠ معمل لنحت الصوان لا يعود الى ما قبل التاريخ بل الى الامبراطورية الوسطى وكانت هذه المعامل تزود العاصمة بأدوات مصنوعة حسب تقنية تعتبر أحسن من تقنية الامبراطورية الوسطى. وتتكون من صفائح وسكاكين وقطع مناجل ظلت موجودة طيلة العهد الأسفل.

لم يقتصر استعمال الصوان في عهد الفراعنة على الأدوات المنزلية فحسب، فلقد استخدمت أهلة من الصوان لحفر الأساور الشستية بوادي حمات وهي أدوات للزينة استعملت من أول التاريخ الى نهاية العهد العتيق واستعملت في نهاية الأسرة المالكة الثالثة لقطع الكتل الحجرية الكبيرة في وقت ما لبناء الهرم من عهد فرعون زوزر الى عهد فرعون سقارة. وقد حفرنا الأواني المصنوعة من

حجر رخو بتلك الآلات نفسها الى عهد الامبراطورية القديمة في معامل الفيوم بجوار مناجم الكلسيت.

ولقد كانت سهام المحاربين المصريين منذ الاسرة المالكة الاولى الى عهد الامبراطورية الجديدة مسلحة بمحدود قاطعة من الصوان. ولنلاحظ ان سهام فرعون توت أنخ آمون (الأسرة المالكة الثامنة عشرة) كانت من عجبن البلور. وهي مادة نفيسة فعالة مثل الصوان.

وقد استعملت مصر الفرعونية أيضا صخورا أقل رخاوة من الصوان لصنع أدوات تؤدي وظائف معينة، ان المعاول والمطارق الخاصة بالاشغال المنجمية أو المحاجر والتي لها أعناق تمسك بها، قد كانت من الحجر الصلب طيلة الامبراطورية القديمة. وقد أصبحت أكثر خشونة وكانت من الكلس السلسبي في عهد الامبراطورية الوسطى والامبراطورية الجديدة. فلقد حفرت وهيئت بواسطة تلك الآلات الحجرية الخشنه، الدياميس المقبرية التابعة للامبراطورية القديمة بالجيزة (قرب القاهرة) ودياميس الامبراطورية الوسطى بمصر الوسطى، ودياميس الامبراطورية الجديدة في جبل طيبة.

أما فيما يتعلق بالنوبة المصرية وقسم من النوبة السودانية اللتين غطتهما المياه في الوقت الحاضر، فان الابحاث الاثرية لم تجر حسب ما يرام اثر عمليات الانقاذ. وذلك ما حرمانا مع الأسف من معلومات كثيرة ثمينة تتعلق بماضي تلك المناطق لا سيما بدوام استعمال الحجر في العهود التاريخية.

الا ان المواد الاثرية المجلوبة من قرية تنتسب الى مجموعة (ج) النوبة (الامبراطورية الوسطى) (في سبوعة) مكنتنا من التعرف على عدد من الصفائح والصفائح وقطع من المناجل من الصوان. ولا شك ان هذه الاخيرة التي استوردت من مصر تشابه تماما ما يرجع تاريخها الى نفس العهد والتي اكتشفت أخيرا بالكركنك وقد سبق ان ذكرناها.

ونجد من ناحية أخرى في أماداء، وهي قرية أخرى من مجموعة (ج) موجودة أيضا في النوبة المصرية جرت بها حفريات أشرفنا عليها، نجد أدلة أخرى على استمرار العصر الحجري في العصر المعدني. فلقد كانت الصفائح وقطع المناجل مثلها هو الشأن بسبوعة تأتي من مصر. وقد اكتشفنا فضلا عن ذلك بموقع أماداء حدود سهام صغيرة من حجر يمان أو عقيق تضاف الى تلك الصناعة الحجرية المستوردة. ووجدنا فؤوسا مصقولة من الحجر الصلب المحلي.

أما فيما يتعلق بالنوبة السودانية فان الحفريات التي جرت في الحصن المصري بمرغسة قد وفرت — كما كان متوقعا — أسلحة. فوجدت ضمن تلك الاسلحة التي تعود الى الأسرة المالكة الثامنة عشرة سهام من نوع كلاسيكي، أي لها حدود قاطعة من الحجر المذكور سابقا. وتكمن الظاهرة الجديدة في أن رؤوس الرماح لم تكن من المعدن مثلها هو الشأن في مصر الفرعونية في ذلك العهد، ولكنها كانت من الصوان قد صيغت حسب نحت ذوات الوجهين المتقن، وتشبه النحت المستعمل في العصر الحجري الجديد. وقد كانت غاية احياء تلك الطريقة اعادة صنع حدود الرماح المعدنية بأدق طريقة ممكنة. وبما أنه كان من الصعب الحصول على المعدن وعلى الرماح المصنوعة في تلك الفترة بتلك المنطقة البعيدة، فان هذا الامر قد ساعد في الرجوع الى تقنية صناعية تركت منذ آلاف السنين.

## الخاتمة

ينبغي، بعد أن استعرضنا استعراضا اجماليا تاريخ البشر الأول الذين أقاموا بوادي النيل، أن نضع التقويم، وأن نذكر المكاسب وأن نشير إلى النقائص الهامة العديدة.

إن الاكتشافات الحديثة جدا المتعلقة بالعهد العتيقة تاريخيا تسمح لنا بالتأكيد على وجود أول إنسان بدائي معروف وهو الإنسان الألدواي، ليس بإفريقيا الجنوبية والشرقية فحسب بل كذلك في القسم الشمالي من وادي النيل أيضا. إننا نعرفه اعتمادا على أدوات حجرية كثيرة. ولكن يستحسن متابعة البحوث لتستكمل الوثائق العظمية المتمثلة إلى حد الآن في سن بشرية وحيدة. فيجب أن تجري استكشافات مماثلة تتعلق بذلك العهد في القسم السوداني الذي يمثل نقطة اتصال مع إثيوبيا حيث حدثت اكتشافات رائعة تخص ذلك العهد.

أما الأدوات الحجرية الراجعة إلى العصر الحجري القديم فلقد حلت تحليلا وافيا من حيث خصائصها في منطقة وادي حلفا فحسب وذلك على سبيل التقریب. ولقد وفرت أدوات طيبة معطيات تخص أقدم مرحلة. لكن ما زالت قضايا كثيرة تحتاج إلى التوضيح، منها ما يتعلق بالأجناس البشرية طيلة ذلك العهد.

أما فيما يتعلق بالعصر الحجري الوسيط، فالشواهد الحجرية كثيرة على طول وادي النيل. فلقد تحقق دائما تقدم كبير في منطقة وادي حلفا مما سمح لنا بأن ندرك أحسن إدراك مرفولوجية أدوات ذلك القسم فحسب. إن الحصىلة المثمرة التي توفرت بجبل طيبة مازالت تحت الدرس وستسمح بمقارنات مفيدة بحصىلة الجنوب. وتعتبر قطع من العظم القذالي هي البقايا البشرية الوحيدة التي استخرجت إلى حد الآن. ولقد عثر بالصحراء الليبية في الشمال الغربي لوادي حلفا على أدوات حجرية لأول مرة لها صلة بحيوانات. وما زالت مناطق سودانية شاسعة لها صلة بتلك الفترة تحتاج إلى أن تستكشف.

لقد لوحظ أيضا وجود العطاري، الذي يكاد يكون معاصرا بالقفر الموجود بالشمال الغربي من أبي سنبل، أن تلك الصناعة المتصلة بحيوانات، والتي أصلها من الشمال الغربي الإفريقي قد دامت إلى عهد متأخر بتلك المناطق. وقد يكون من المهم أن نقدر إلى أي حد يوجد تقارب في السن مع مكتشفات أخرى بمصر، وهل أثرت في صناعات مصرية محضة.

أما فيما يخص العصر الحجري الجديد والعصر الحجري القديم اللاحق، فإن الاكتشافات التي حصلت في بقاع معينة قد وفرت أمورا عديدة كانت مجهولة إلى حد الآن. وربما بالغنا في وضع تسميات جديدة مركزة على دراسات احصائية وتحاليل فيزيوكيميائية تنقصها الدقة أحيانا. ولعل السبب في ذلك هو انعدام رسوم طبقية أرضية.

ولقد وقع تحقيق تقدم لا ينكر فيما يخص العصر الحجري الجديد (وتلك تسمية لا تؤدي مفهوما دقيقا بمصر) وعهد ما قبل الملوك على طول وادي النيل.

واعتبارا لذلك فإن مواقع المجموعة الثقافية الجنوبية في مصر قد وفرت وثائق كثيرة استخرجت من المدافن خاصة. ويستحسن أن تجري أبحاث على صعيد أوسع في التجمعات السكنية التي ستوفر لنا سجلا أكمل عن السكن والفخار المستعمل والأدوات الحجرية المستعملة.



ولما كانت المواقع المصرية لم تحفر حفرا شاملا بسبب المساحات الكبيرة التي تشملها، فهي لم تعرف الا بالاعتماد على تقارير ناقصة. ولقد وفرت رغم ذلك معطيات أكثر اكتمالا من المواقع الجنوبية المعاصرة، وقدمت توارخ ثقافات مختلفة وفرتها بحوث حصلت بالمدفن مثلما حصلت في الأماكن السكنية أيضا. فينبغي إذن مواصلة الاكتشافات المتوقفة منذ عدة سنين بتلك المنطقة الشمالية المصرية لأسباب مختلفة، حتى تكتمل وثائقنا.

أما فيما يتعلق بالنوبة السودانية، فإن حضارات عديدة متميزة تنتسب إلى تلك العهود قد درست دراسة دقيقة، تذكر منها الخرطومى والشهابي اللذين كانا يبدوان أكثر الحضارات تمثيلا لذلك العهد إلى حد الآن. ونحن ننتظر القيام بعمل واسع لأن عشرات المنشآت التي عثر عليها تعود إلى تلك الثقافات أو إلى مراحل زمنية مختلفة، وهي تنتظر متى يعنى بها الباحثون.

إن هدفنا من هذا التحقيق يرمي إلى المساهمة في ضبط حلقات التاريخ الإفريقي قبل العهد الفرعوني.



## الفصل السادس والعشرون

# الفن الإفريقي في ما قبل التاريخ

بقلم: ج. كي زيربو

لا يكاد يظهر الإنسان، حتى تظهر معه الأدوات، ويظهر معه الانتاج الفني (الإنسان الصانع، الإنسان المبتكر). وهذا الامر يصدق أيضا على ما قبل التاريخ الإفريقي. فنذ آلاف السنين، أتلّف الإنسان والعناصر الطبيعية ذخائر ما قبل التاريخ في إفريقيا بل تعتمد الإنسان ابتداء مما قبل التاريخ نفسه، الاتلاف، وذلك لاسباب تعبدية سحرية. ان المستعمرين من المدنيين والعسكريين، وكذلك السواح والنفطيين والأهالي، ما انفكوا يقومون بالتخريب و«التهب المشين» الذي تحدث عنها ل. بالوت في تمهيدته للنشرية المخصصة للتعريف بالعرض حول «الصحراء قل ان تصبح قفرا». ان فن ما قبل التاريخ يزين عموما الهضاب والجبال من إفريقيا وتعتبر الجبال العالية والمنخفضات وأحواض الانهار والغابات بالمنطقة الاستوائية من إفريقيا أقل ثراء في هذا الميدان ان قارناها بما سبق من المراكز المحظوظة.

قد حددت تلك المواقع في مستوى المنحدرات الصخرية التي تتكون منها حروف الأراضي العالية ولا سيما ان كانت تشرف على تلغ الانهار الحالية أو الاحفورية. وتشكل إفريقيا الصحرواية وإفريقيا الجنوبية الوطنيين الاساسيين. ولقد عثرين الاطلس والغابة المدارية من جهة وبين البحر

(١) تحدث ه. لوط عن عسكريين فرنسيين بالجزائر طمسوا في ١٩٥٤ بالألوان الذهبية اللوحة الرائعة التي تمثل فيلة حجرة محصرات ليحسنوا تصويرها. وخرب آخرون برصاص رشاشاتهم الجدار القريب من نقش العقرب الكبير في قرعة الطالب، وفي بني ونيف هدمت القمم المزينة بالنقوش لتستعمل في بناء المساكن الخ... انظر في هذا الشأن ه. لوط ١٩٧٦. ولا يمكن أيضا أن يسلم بعض الاختصاصيين أنفسهم من اللوم. فهذا اميل هلوب قد فكك قطعا عديدة ونقلها الى فيينا في نهاية القرن التاسع عشر.

الأحمر والمحيط الأطلسي من جهة أخرى، على المئات من المواقع التي تحتوي على عشرات بل على مئات الآلاف من النقوش والرسوم. ولقد أصبح البعض من تلك المواقع مشهورا عالميا، بفضل أعمال علماء ما قبل التاريخ من الفرنسيين والإيطاليين والانقلوسكسون، والافارقة الذين يتزايد عددهم، وذلك بالجزائر، جنوب وهران وبتاسيلي — أن — أجر (جبارن — سفر — تيسوكاي — جنات — الخ...) وبجنوب المغرب وفزان (ليبيا)، وكذلك في العاير وتينيري (النيجر)، وتيبستي بتشاد، وبالنوبة، وبجبل الحبشة، وبظهر تشيت (موريتانيا)، وبمسامدس بأنغولا. ويوجد المركز المهم الثاني في المحروط الجنوبي من إفريقيا بين المحيط الهندي والمحيط الأطلسي، في لوسوطو وبوتشوانا، وملاي ونغوان، وبمبيا وجمهورية جنوب إفريقيا، وخاصة في ولاية أورانج الحرة، ومنطقة الفال والترنسفال الخ. فهناك توجد الرسوم في ملاجئ حجرية، وتوجد النقوش مكشوفة وتعتبر المغارات مثل مغارة كانغوشيا استثنائيا وقل ان تجد بين الاقطار الافريقية بلدا لم يكتشف به آثار فنية أو آثار من عهد ما قبل التاريخ. والحقيقة ان الاستكشاف لا يزال في خطواته الأولى.

كيف نفسر هذا الازدهار في الاراضي القاحلة والسباسب؟ أولا لأن الأراضي لم تكن قاحلة في ذلك العهد، ثم ان تطور تلك المناطق الى حالتها الراهنة جعل منها متاحف طبيعية نظرا لجفاف الهواء نفسه، والدليل على ذلك أنه اكتشف في الصحراء مثلا أشياء ثابتة على حالتها في مواقعها الاصلية منذ آلاف السنين. فلماذا حدث ذلك على حواشي الاودية التي تحترق الهضاب؟ حدث ذلك لاسباب سكنية ودفاعية وإمكانية توفير الماء وقرب مواقع الصيد. ومثال ذلك في التاسيلي الصلصالي المقولب حول النواة البلورية لجبال الهقار، والمشرق على الجنوب من ارتفاع ٥٠٠م، حيث تضاعف تناوب الحرارة والبرد، وسيلان المياه في حفر افريزات وخبايا هائلة تحت الصخور، تشرف على تلغ الانهار. وأبلغ مثال على ذلك هو المحبأ الكائن تحت الصخور في تين تازا ريفت. ولقد حفرت الرياح من جهة أخرى في الهضاب الصلصالية أروقة طبيعية سرعان ما استغلها الانسان. ذلك هو الاطار الطبيعي الذي مثلته بكل أمانة ودقة، روائع الرسوم الجدارية الافريقية.

## الترتيب التاريخي والتطور

### المناهج ومشاكل ضبط التواريخ

كثيرا ما تظهر في هذا المجال، طريقة دراسة الطبقات المتصلة بالصخور الثابتة ذات فائدة محدودة، ذلك ان المناخ الرطب المتواصل خلال عصور طويلة في ما قبل التاريخ تسبب في تذويب عميق للطبقات التي تغطي أرضية المخابئ. لكننا نجد في بعض الاحيان بجنوب إفريقيا نقوشا تحت الرسوم. وقد يعطي حظام المواد العضوية المتساقط من الجدران على طبقة غير منسوبة، قد تعطي بعض العلامات. الا ان تعرية تلك الطبقات وتغطيتها، عمدا في بعض الأحيان، تشوش ضبط التواريخ التي يأمل الباحث أن يستخلصها، حتى ولو كانت نسبية.

لذلك يستعان في بعض الحالات بزنجار الرسوم وقواعدها الصخرية مع دراسة مقارنة لتحولاتها اللونية، وتعتبر هذه الطريقة ملائمة لأنها مرتبطة بالموضوع نفسه، الا أنها تفترض أن الزنجار الأكثر وضوحا والاكثر اختلافا مع لون الصخرة الأم هو الاحداث لان ظهور الزنجار يطرأ ببطء على كل

الصخور حتى على الصلصال الابيض. وتلك عملية شبيهة بتشكيل اللاتيريت اذ ان الأكسيدات والكاربونات التي تسربت في شكل سوائل من جراء المطر أو الرطوبة تتصاعد الى السطح جذبا وتشكل بعد التبخر قشرة صلبة وداكنة نسبيا حسب قدمها. وهكذا تتكون لنا بالرجوع الى الصخور الثابتة قاعدة نظرية لضبط التاريخ النسبي. لكن العوائق كثيرة اذ ان الامر كله مرهون بطبيعة الصخور وبوجودها بالشمس أو في الظل أو في الهواء الطلق أو معرضة للرياح الخ... ان ضبط التاريخ بهذه الكيفية لا يمكن ان يكون الا نسبيا (٢).

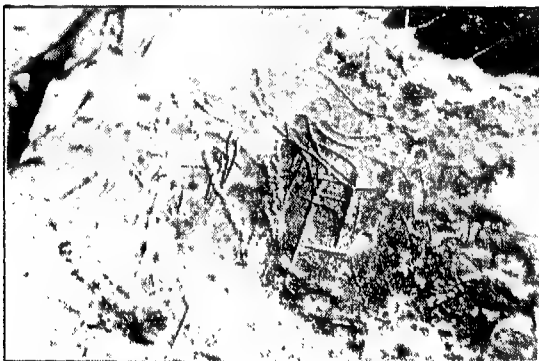
و يستند في بعض الحالات الى الحيوانات المثلة في الرسوم للحكم على قدم اللوحات، نظرا الى ان كل الانواع لم تعش في نفس الحقب الزمنية الكبرى. فالحريم مثلا هو نوع قديم جدا قد اندثر ولا يعرف الا بالاعتماد على أحفوره العظمية. ولكن، ألا يمكن أن تكون تلك الحيوانات قد رسمت للتذكير بعصر سالف؟ ان الأساليب لا تشكل أيضا — مثلما سنرى — دليلا مضبوطا، اذ ان ذلك لا يكفي و يبدو أول وهلة ان الملاحظة هي الغالبة مما يؤيد وجود أثر شبه طبيعي مميز. الا ان النقوش الحيرمية بالصحراء الكبرى تعتبر من جهة أخرى سابقة غالبا للرسوم ولذلك فان الاشياء الموجودة تحتها والتي تتميز بنفس النوع من التسميات الموجودة بالرسوم هي مبدئيا معاصرة لها. لكن لا يمكن ان نعتد هنا أي قاعدة عامة. ويستعان كذلك أحيانا بطريقة أخرى وهي ضبط التاريخ النسبي انطلاقا من الاضافات، باعتبار ان السمات الطامسة لسمات أخرى، هي أحدث منها. لكن الزيادات لا توجد في كل مكان. يضاف الى ذلك ان تلف الصخور وتحول الالوان غالبا ما يجعل التأويل غير ثابت ومتضارب (٣).

على أنه تبقى، بطبيعة الحال، طريقة الكربون ١٤ وهي طريقة مثالية، لكن تطبيقها نادر جدا للأسباب التي وقع التعرض لها سابقا، كما يستوجب استعمالها الكثير من الحذر. ألم يكن حطام الرسوم متصلا بمواد عضوية حديثة العهد؟ ألم تنشأ قطعة الكربون من حريق أحدثته صاعقة؟ ومع ذلك تتكاثرت التواريخ من هذا النوع شيئا فشيئا. ففي منيت مثلا، بالصحراء الوسطى، وفر كربون من طبقة عميقة تاريخا قدر به ٥٤١٠ + ٣١٠ قبل الحاضر.

ويمكن للسياسة أن تتدخل أيضا في ضبط التاريخ، ومن ذلك ان المراقبين البورز (Boers) لا يعتبرون الا على مضض بعراقة الحضارة الفنية للأفارقة الاصليين، لذلك فانهم يحاولون اختزال التطور بطريقة التداخل أو بالتطبيق الآلي لطرق التقدير التي يستعملها علماء ما قبل التاريخ الاوربيون. ففي هذه الظروف يرجعون لوحات الدراكنسبرغ الى ما بعد القرن السابع عشر أي بعد قدوم البنتو بمدة طويلة. ولكن، هل من المعقول ان تكون قبائل (سان) قد انتظرت نزاعاتها مع البانتو حتى يكونوا فنانا يستلزم ابتكاره حدا أدنى من الاستقرار؟ وذلك بغض النظر عن ان

(٢) ان غير شكل الخط يتحول في النقوش تحت تأثير تفاعلات فيزيائية كيميائية من شكل «٧» الى شكل واسع ومسطح لا يدل الا بصفة تقريبية جدا على عمر اللوحة.

(٣) طبق لاجو أحد الطرق التقنية الفوتوغرافية على لوحات ايناهوانغات (تاسيلي). فالأشخاص الحمر الذين نراهم كأنهم مرسومون فوق رسم امرأة ملشمة لونها أخضر ضارب الى السمرة ليسوا كذلك تماما. وذلك لأن الزينة البيضاء للمرأة قد أضيفت في مرحلة لاحقة فوق الأشخاص الحمر. ان ممارسة اعادة تلوين الرسوم الجدارية الاسترالية (وند جينا) كتي تزداد وضوحا تعتبر شائعة و يقرنها السكان الاصليون بمحايات أسطورة للاستسقاء. وقد لاحظ ذلك أيضا ل. فرو بنويس عند الشبان السينيغاليين.



- (١) نقش صخري لخرتيت، من  
بلاكا في النيجر. (تصوير ه. ج.  
هوغو).
- (٢) غزلان بلاكا، النيجر (تصوير  
ه. ج. هوغو).
- (٣) فيل عين ايكير، الصحراء  
الجزائرية (تصوير ه. ب. س.  
هام).



بعض مغارات الفن بمجنوب افريقيا تصور حيوانات يرجع تاريخها بتلك المناطق الى ما قبل ذلك التاريخ بكثير. ولهذا وجب علينا ان ننظر الى مشكلة الحقب.

## الحقب

اذا أردنا تصنيف اكتشافات فن ما قبل التاريخ حسب مقطوعات زمنية معقولة، يجب ان يكون المنظار الاول جيولوجيا وبيثويا نظرا الى أن البيئة أيضا هي التي كانت تحدد الاطار العام للعيش وتفرضه، اذ كانت البيئة أكثر سيطرة من وقتنا الراهن على الشعوب المفتقرة الى التقنية وقتئذ. ولقد كانت الظروف الطبيعية بصفة خاصة، تتحكم في حياة الانواع المصورة ومنها الانسان نفسه بتقنياته وأساليبه، اذ انه من المتأكد، حسب تعبير ج. روفي «ان الانسان كان في الاصل حيوانا مداريا» افريقيا، ولقد سمحت الظروف المعتدلة في الجزء الشمالي من الكرة الارضية بعد التجمدات الكبرى، باستقرار الانسان في أوروبا، وبلغ أوجه الازدهار في فن المغارات منذ ٤٠ قرنا. أما الفن الجداري الافريقي فهو أحدث من ذلك بكثير. فهو يرجع لا محالة حسب ما يعتقده بعض المؤرخين مثل أ. هولم الى حوالي العصر الحجري القديم اللاحق لكنه مبن، أساسا، العصر الحجري الجديد (٤).

ولقد تعودنا على تسمية المراحل الكبرى للفن الجداري باسم حيوان هومثابة قرينة نوعية له، ومن ثم ميزت أربع وحدات زمنية كبرى بالحيرم والثور والحصان والجمل. كان الحيرم (Bubale) عبارة عن جاموس ضخم يرجع حسب الاحاثين الى بداية الدهر الرابع. فلقد مثل وصور منذ مطلع الفن الجداري (حوالي ٩٠٠٠ سنة قبل الحاضر) حتى حوالي ٦٠٠٠. إن الحيوانات التي تميز أيضا تلك الفترة هي الفيل والكركدن. أما الثور فهو اما الثور الاسباني أي «البراكسيروس» ذو القرنين القصيرين والغليظين، أو الثور الافريقي ذو القرنين الجميلين اللذين لهما شكل الكنارة. ولقد ظهر هذا الأخير في حوالي سنة ٦٠٠٠ قبل الحاضر. ويأتي الحصان الذي يجر أحيانا عربة في حوالي سنة ٣٥٠٠ قبل الحاضر (٥). ان تصوير

(٤) يبدو ان العصر الحجري الحديث الصحراوي، حسب الاكتشافات الحديثة موغل أكثر فأكثر في القدم. فلقد أخرج منجم فخاري من العصر الحجري الحديث بالمقار اعتمادا على الكربون ١٤ بحوالي ٨٤٥٠ سنة قبل الحاضر. ولذلك فهو موافق للعصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى. ولذلك وجب الرجوع أيضا الى التواريخ التي قدمها د. اولديريغ في الفصل الحادي عشر لبلانة وتوشك في النوبة السفلى وهي تقدر بـ ١٢٠٥٠ و ١٢٥٥٠ سنة قبل الحاضر. وفي عين ايتيان وقع العثور على فضلات طعام بمنجم من غبأ صخري ذي رسوم بقرية. اما أقدم موقد، فلقد حدد تاريخه اعتمادا على الكربون ١٤ بحوالي ٤٨٦٠ ± ٢٥٠ سنة قبل الحاضر. وقد عثر في موري في هضاب الأكاكوس (ليبيا) بين طبقتين ذاتي بقايا موقد، على جزء من جدار سقط مع قسم من اللوحة يرجع تاريخه الى عصر الشيران. ولما أمكن تحديد تاريخ الطبقتين اتضح ان الجزء الذي سقط من الجدار يرجع الى سنة ٤٧٣٠ قبل الحاضر (انظر هـ. ج. هوفو، ص ١٩٧٦، ص ١٠٢ و ١٠٩) كما يذكر أيضا تاريخ ٧٤٥٠ سنة قبل الحاضر لعصر الشيران الاوسط بالأكاكوس (انظر هـ. ج. هوفو، ص ٢٣٤) كما أن ج. د. كلارك يشير في سولو يزي (زيمبيا) الى تاريخ ٦٣١٠ ± ٢٥٠ سنة قبل الحاضر. وعلى العكس من هذا، فان التاريخ الذي تمده ج. ت. لور عن غنا ماتس بمقاطعة الكاب ١١٢٥٠ ± ٤٠٠ سنة قبل الحاضر. يعتبر غير موثوق. و يعتبر مشاك تين هنكتن خارقا للعادة لأننا نستطيع أن نقيم علاقة ارتباط بين رسوم جدارية وسلسلة كاملة من مستويات العصر الحجري الجديد ومن مستويات بداية العصر التاريخية الاولى محتوية على هياكل عظمية. ويوجد به أيضا مستوى عاطري في طبقة بشرية يسهل ضبط تاريخها. (انظر اكتشاف نادر في تاسيلي، مجلة أركيولوجيا عدد ٩٤، ماي ١٩٧٦، ص ٢٨ و ٥٩).

(٥) كثيرا ما يبالغ في الربط بين دخول الحصان لافريقيا ودخول الهكسوس (Hyksos) لمصر (انظر في هذا الموضوع: ج. كبي. ز. بربر ١٩٧٣ ص ٩٩).

الركض الطائر، دون ان يكون واقعيًا، يبدو طبيعيًا عندما يجري على المسلك الغربي من المغرب الى السودان، ثم يصبح ارتساميًا عندما يجري بالطريق الشرقي من الفزان (٦). ونكون بهذا قد انتقلنا منذ مدة طويلة الى العصر التاريخي الذي زال فيه تمثيل فرس البحر من الفن الجداري، وذلك يعني بدون شك نهاية المياه الدائمة. وينتهي الجمل مسيرة هذه القافلة التاريخية. فلقد دخل مصر في حوالي ٥٠٠٠ سنة، منذ الغزو الفارسي وتكاثر في حوالي اوائل التاريخ الميلادي (٧). لكن، نظر الى أن الأمر يتعلق بما قبل التاريخ، فإننا سنهتم خاصة بالفترتين الأوليين وببداية الفترة الحيلية. ان تلك الفترات تميز الحياة النشيطة في تلك الأرض الشاسعة التي لم تتحول بعد الى صحراء قاحلة. ويتجادل الاختصاصيون من ناحية أخرى جدالاً حاد في نطاق كل فترة كبيرة حول شأن التقسيم الزمني وتجزئته الى حقبات تاريخية ثانوية، لكن الاكتشافات متواصلة ويجب الانتباه، والا يجوز أن تسرع بطريقة تعسفية في الزعم بأن هذا الحيوان أو ذاك يميز فترة كاملة من تاريخ لا نعرف منه الا الشيء القليل. ان الأمر يتعلق قبل كل شيء، ان صح التعبير، بفصائل حيوانية غامضة، في نطاق علم الصور، اذ يوجد بينها كثير من التداخل والاختلاط. فالكبش مثلاً يصنف بأنه لاحق زمنياً للحيرم والفيل الا أنه يظهر أحياناً معاصراً لها، فنراه على نفس الجدران وبنفس التقنيات وله نفس الزخارف. ولعل الانسان قد أخذ يعمل على تأهيل هذا الحيوان أو حبسه لغاية دينية. وكذلك شأن الثيران الكبرى المنقوشة في ديدر (تاسيلي) ومنها ثور يتجاوز ه أمطار، مبرزا قرنين كبيرين في شكل كنارة تحيط برمز. فهذه الثيران تبدو كأنها معاصرة للحيرم. و يصنف بعض الاختصاصيين ثور وادي جرات ذا القرط ضمن حقبة الحيرم. و يتزايد ظهور حيوانات جديدة في اللوحة مثل بومات تان تريت التي يبلغ عددها حوالي الأربعين والتي تمتزج بصور الثيران. أما الفترات الكبرى في المناطق الأخرى خارج الصحراء فإنها غالباً ما تكون أكثر حداثة كما أنها تتميز بصفات أخرى تختلف حسب المؤرخين، خاصة وان هؤلاء يعتمدون أحياناً في التقسيم الزمني على التقنيات والأنواع والأساليب (٨).

## التقنيات والأنواع والأساليب

### التقنيات

#### النقوش

ان النقوش السابقة للرسوم عموماً، وذلك عندما تكون تلك الرسوم موجودة أيضاً، وتظهر فنياتها الأكثر ابتداءً في أعلى الحقبات، وكانت تنقش على صخور صلبة أقل صلابة وكذلك على حجر الصوان والمرو أيضاً باستعمال حجارة حادة مصنوعة بقارع من العصر الحجري الحديث وجدت منه

(٦) انظر: ر. موني «طرق العربات»، ١٩٦١.

(٧) ان الجمل فيما يبدو، معروف منذ العصر الفرعوني (انظر: دمجو ١٩٦٠ ص ٢٠٩ — ٢٤٧).

(٨) ينطلق بعض المؤرخين بافريقيا الجنوبية من شكل الخط، ومن فن مباشرة الحجارة (الخز والدق المتفاوت والصقل الخ...) ومن طبيعة الكائنات المثلثة لتمييز حقبتين كبيرتين تضم الأولى منها مرحلتين والثانية أربع مراحل.



بعض النماذج قرب اللوحات. وقد أمكن للفن ان يصل الى درجة كبيرة من الاتقان باستعمال تلك الادوات البسيطة فلقد نقش فيل برداي بخط خفيف بسيط فهو يكاد يكون تخطيطا، الا أنه يدل على الجوهر وبعكس ذلك فان فيل عين غاليجين (ماثندوس) وفيل عين هبتر الثاني، محفوران حفرا عميقا حسب خط بارزو واضح. كما نجد نفس الاسلوب في كركدن غنوا (تبستي) فنرى الخط الذي يقارب عمقه سنتمرا تقريبا في شكل «V» أو «U»، أما الحز فقد أنجز باستعمال فأس صخرية أو باستعمال خشب، صلب، يضاف الى ذلك استعمال رمل مبلل للحك. يظهر أحيانا ان عدة تقنيات استعملت في نفس الوقت مثل التطريق الخفيف والحز حسب شكل «V»، وقد ترك التخطيط المسبق هنا وهناك آثار تضرس داخل الخط. والصقل النهائي مصحوب بعملية برغلة (Bouchardage). وقد تطلب انجاز تلك النقوش أحيانا مواهب رياضية لا شك فيها كما نرى ذلك في وادي جرات مثلا حيث نجد فيلا يزيد ارتفاعه عن أربعة أمتار ونصف ومخططا لكركدن طوله ٨ أمتار.

قد تكون النقوش المحاطة بحفر واسع بافريقيا الوسطى والجنوبية مرتبطة باعتبارات دينية بينما تعبر النقوش ذات الخطوط الخفيفة عن هدف من أهداف التنشئة أو التربية. وتصلح بعض المساحات الداخلية المحوفة والمصقولة ببراءة، لظهور ألوان شعر الحيوانات والأشياء التي تحملها، ومن هنا يأتي التفتن. وفي ذلك ارهاص بالنقوش الجدارية بمصر الفرعونية فننظر الى الصورة أحيانا وكأنها قوالب لنقوش بارزة في الصخر التي أفرغت لهذا الشأن (كامي) وتستعمل الصخرة الام بكثير من الحذق ومن ذلك ان زرافة قد صورت على كتلة مستطيلة من الديباز التي تفاعلت معه تفاعلا مكتملا (بالترنسفال الغربي) وكذلك الشأن بمنطقة لوفنتين حيث صوّر كركدن على سطح صخرة خشنة حدودها مقرنة تعبر بدقة عن درع الحيوان المنقوش عليها. وعلى ربة في منطقة أخرى من مرت جيسفونتين بالترنسفال الغربي أنجز تصوير حمار وحشي باستعمال النقش والتقطيع على قطعة من الديباز ويحد فكه الأسفل تقب خفيف للحجارة بين شكل الجسم. ومثل عرف ظبي بديع موجود بمتحف الترنسفال بأشرطة منقوشة حفرا. ونقشت خصلته الامامية بخطوط محفورة بخفة. وتستعمل ألوان الصخرة الداخلية منها (الأزرق) والخارجية (أمر) (Ocre) بأحر) ببالغ المهارة لظهور التباينات. وتعتبر زرافات بلاكا بفروها المختلف وقوائمها في أوضاعها الطبيعية وحتى ارتعاش أذنباها آية من آيات الفتنة لدرسة نقوش ما قبل التاريخ الافريقي. الا أن التقنية ستتحو عموما نحو التدهور. لقد أصبحت النقوش رديئة عموما حتى في ما يسمى مرحلة الثيران، و يظهر ذلك مثلا في زرافات القرير بات المرسومة بنقش عريض وخشن.

## الرسوم

لا يمكن فصلها تماما عن النقوش. وتمكننا التخطيطات المنقوشة على الجدران في تيسوكاي من التفكير في أن الفنانين كانوا ينقشون قبل الرسم: ولقد كان الفن يتطلب في عين المكان أيضا براعات رياضية. وفي وادي جرات رسم سقف من مرحلة الخيول وذو منحدر وعبر على تسعة أمتار. وفي بعض المحطات في تاسيلي في تيسوكاي مثلا تظهر الرسوم على ارتفاع ٤ أمتار وكأنه يراد بها ان تبعد عن الأماكن السفلى التي يمكن ان يبلغها الانسان، وذلك ما استوجب استعمال سلام بدائية

وحق إقامة منصات. إن الرسوم متكونة من لون واحد أو متعددة الألوان حسب الحالات (٩) فنجد الصلصالي البنفسجي في المرتوتك المنخفض، والصلصالي الدموي في محباً جنوب الأنرى بلاكا. ونجد في مكان آخر لوحة متألثة تلمع بفعل مزج الألوان مزجا موفقا الى درجة أنها تكاد تخلق من جديد ظروف الواقع وتوازنه وهذا العمل يتطلب تكنولوجيا خاصة ومعقدة نسبيا وقد عثر على بقاياها في شكل مشاغل (Ateliers) فلقد استخرجت في عين ايتين رحي صغيرة مسطحة مصحوبة بمهاريس صغيرة تستعمل لفت الحجارة كما وقع العثور على أوعية صغيرة للألوان. ولقد تبين بالاعتماد على لمعان الألوان المدهش الذي نشاهده اليوم إن تلك الألوان كانت على غاية كبيرة من الصلابة. ويتركز سلم الألوان على بعض الألوان الرئيسية مثل الاحمر والاسمر، وأصلها من الأمفر المستخرج من أكسيدات الحديد. ويتوفر الابيض من الصلصال الأبيض أو من بعر الحيوان وأيضا من عصارة النباتات أو من أكسيد الزنك. أما الاسود فانه يستخرج من الفحم الخشبي أو من عظام محروقة ومطحونة وكذلك من الدخان أو من الشمع المحروق ويدخل الاصفر والاخضر والبنفسجي الخ... في هذه المجموعة. ويتأني هذا اللمعان الحي الذي استطاع اختراق آلاف السنين من أن المواد اللونية المسحوقة جيدا بالمدق كانت تعجن وتخلط مع سائل، يمكن أن يكون حليبا لأنه يحتوي على الكازين (مادة بروتينية في الحليب) الذي يساعد على الخلط، ويمكن أن يكون شحما ذئبا أو غرقدا (بياض) البيض، أو عسلا أو نخاع العظام المحروقة. وكانت الألوان تلتصق بالأصابع أو بريش العصافير أو باستعمال ملعقة من القش أو من الأخشاب المضغوطة، وكذلك بوبر حيوانات مربوطة بعضا بواسطة أوتار، وأحيانا باستعمال الفم لرش السائل. وقد أعطتنا هذه الطريقة الاخيرة الرسوم النسبية للأيدي التي مازلنا نراها على جدران الصخور والتي تمثل نوعا من الامضاء الاصلي لأصحاب الرسوم. وتطرا أحيانا بعض الاصلاحات بدون طمس الرسوم الاولية فنرى ثيرانا بأربعة قرون، أو رجالا بأربعة سواعد الخ... وفي هذا المجال استعملت خصائص الصخرة استعمالا مفيدا أحيانا، كما في تهيلاهي، حيث استعملت فجوة طبيعية في الصخرة، فأصبحت موردا يتقاطر اليه القطيع (١٠).

### الحلي

تتطلب صناعة الحلي مهارة لا تقل تطورا عن غيرها. وتتكون بعض المجوهرات من العقيق الاحمر المستخرج من صخرة خارجها صلب جدا. وتمكننا البقايا التي تركها صانعو المجوهرات في مختلف مراحل عملهم من إعادة تركيب تلك المراحل. فتصنع أولا أقراص صغيرة قرعا، ثم دلكا. وتفصل بعد ذلك ابرة كبيرة ذات أربع زوايا من حجر الصوان لتستعمل منقاشا. ويفرز حدها القاطع في وسط القرص من جهة ثم من الجهة الاخرى على التوالي، للحصول على كويين صغيرين متواجهين يمثل التقاؤهما أدق مرحلة في العملية، ثم يتحول خنجر الصوان هذا الى مثقاب دوار يبرد الثقب

(٩) تحتوي افريقيا الجنوبية والترانسفال وناميبيا خاصة على رسوم ذات لون واحد، وكثيرا ما نجد رسوم بوتشوانا، وغر يكا لندي، وناتال متعددة الألوان.

(١٠) لاجوكس — المصدر المذكور سابقا ص ١٥١.



- (۱) رسم علی صخر من نامیبیا  
(تصویر ا.ا. میرز، رقم ۳۶۷۲).
- (۲) نقش علی الصخر من تیستی  
(تصویر هاوکی، رقم ۱۱۰۰۳).



الوسطى حتى يفتحه تماما باستعمال رمل دقيق مغلف بطلاء نباتي. وكانت تصنع أحجار أخرى لا تقل صعوبة (الأمازونيت والهماتيت والكالسيدون) وكذلك العظام والعاج لكي تستخرج منها قلائد وأساور وخلاخيل وكان حجر الكذان (Ponce) مستعملا لصقلها. ولقد عثر في تين هنا كاتن على بعض المشاقب من الميكروديوريت وسط حبات من قشرة بيض النعام تصلح لنظم القلائد.

### صناعة الفخار

أما عجبن الخزف فقد كان يعد بمادة لزجة تتكون من غائط حيوانات مجتررة. ثم يهوى باستعمال فصيد (Boudin) مطوى من العجين مخدوم بالأصابع والمصقال. وكانت لفوهات تلك الأواني أشكال مختلفة. منحنية كالقصيد، عريضة أو مائلة. ان الفروق الدقيقة بين الالوان المزاجية من الوردى الى الاسود الداكن توضح لنا ان الاكتواء كان على غاية من الجودة. وكان دهان الفخار معروفا وكذلك البرنيق (Vernis) النباتي الذي مازال مستعملا في افريقيا الى يومنا هذا في صناعة الخزف ولك (Laquer) وتجميل أرضيات المنازل وسقوفها وجدرانها. وكانت الزخرفة الرائعة ترسم باستعمال أمشاط عظمية أو بحسك السمك وكذلك بشوك السنابل والحبال أو الحبوب، وهي تدل على فicus من الخيال من خلال تكاثر المواضيع والاشكال. وتشهد أفران الخزافين بوادي أشد في شمال بلاد مالي، والمجموعة في مكان مخصص على أهمية عمل أولئك الصناع الذين لا يقلون عبقرية عن معاصريهم بالشهانب بالسودان الخرطومى (١١).

### النحت

ان النحت أيضا ليس منعما فهوهم خاصة المنمنمات اذ نجد في وادي أمزار (تاسيلي) حيوانا مجتثرا متمددا، وثورا راقدًا في ترزروك بالهقار، وفي أدجفوا نرى أرنبًا بريًا صغيرًا ذا أذنين طويلتين مسترختين على الجسم، ورأس كبش فتان في تمنيت بالتوات، وصخرة منحوتة ذات شكل انساني في عوان سيدي بالعرق الشرقي، وتمائيل صغيرة رائعة لرأس بومة بتابلبلت. أما في تين هنكتن فنجد تماثيل صغيرة من الطين تمثل أشكال عصافير، ونساء، وبقريات على رأس احداها الى حد الآن غصنان صغيران يقومان مقام القرنين.

### لأنواع والأساليب

يمكننا ان نميز في الصحراء بصفة اجمالية ثلاثة أنواع وثلاثة أساليب كبيرة تتناسب تقريبا والفترات التي ذكرناها آنفا. النوع الاول هو الصنع القديم ذو الحجم الكبير، ونصف الطبيعي. أو الرمزي فيظهر ان الانسان مازال تحت وقع الاحاسيس الاولى أمام قوة الحيوانات التي تستوجب

اخضاعها بالسحر عند الاقتضاء. ويمكننا ان نميز طائفتين من هذا النوع ينسب الأول الى الاسلوب الحيرمي المتمركز في جنوب منطقة وهران وبتاسيلي وفي الفزان، ويتميز بنقوش تدل على قوة في الملاحظة، وكثيرا ما تكون المواضيع المتكونة غالبا من الحيوانات الكبيرة منعزلة. ويكتفي الصنع نصف الطبيعي المتجرد والبسيط بالخطوط الرئيسية المرسومة بمهارة وذلك شأن الكركدن والبجع بوادي جرات (في تاسيلي) وفيل برداي بالتشاد، وفيل عين غالين في وادي مائندوس. ويتميز الطابق الثاني بالطبء وأبوريات مرسومة خصوصا. ان رسوم الانسان، برأس كروي، كثيرة في هذا الطابق، مما يشير الى نزعة نصف طبيعية وأحيانا رمزية. أما الاشكال فانها تبدو أكثر حركة وانتعاشا وحتى مؤثرة عوض أن تكون بسيطة. والطقوس ليست غائبة، بل نحس بها عندما نرى الحيوانات الطوطمية والبشر المقنعين والرقصات الدينية الخ... فليس من المعتاد ان تبرز الأشياء هنا منعزلة. وتوجد بعض اللوحات الصغيرة كما توجد أفاريز ولوحات كبيرة مركبة، وهي أكثر اللوحات في العالم. يستقر هذا الاسلوب المتجمع في تاسيلي من مشاهد تظهر فيها أرويات قرونها قوية، ورقاصون مقنعون مثلما هو الشأن بسفار (اسم موقع أثري حسب ج. لاجو) وكاهنة وانريت المسماة (السيدة البيضاء).

ان النوع الكبير الثاني يتمثل في الرسم والنقش الطبيعي ذي المواضيع الصغيرة الشكل تبدو منفردة أو مجمعة. ان هذا الاسلوب وصفي بحت، ونشعر بأن الانسان نشيط وبأنه أصبح يسيطر على البقر والكلاب والضأن والماعز ويقودها. وقد تكاثرت الالوان. والمشاهد تمثل صحراء القرى والخيمات ويمكن ان يكون الموقع الأثري الممثل لهذا النوع هو جبرين.

أما النوع الاسلوبي الثالث فانه ارتسامي، رمزي أو تجردي. ولقد احتفظ بالتقنية السابقة لكنها غالبا ما مجدها متدهورة. على ان ذلك لا يدعوا الى ان نتصور تقهقرا شاملا. وأصبح النقش هجينا عندما اتخذ الاسلوب الغامض والمنقط التقريبي. لكن أسلوب الخط الخفيف في الرسم ولأنه أقل قيمة من الخط البسيط والقوي القديم من عدة أوجه، الا أنه مكن من احراز التقدم للتعبير عن الحركة بنسبة ثلاثة أرباعها أحيانا. وهو يخضع أحسن للتنميق وللنماذج الجديدة. وتذكرنا أناقة الخطوط عند انسان غنوا (في الصحراء التشادية) برسم الريشة حيث تظهر بدقة شبه فوتوغرافية، العيون والحداقات والشعر والفم والأنف. وتمكن طريقة التصوير المائي أيضا من اظهار الاختلافات الدقيقة وذلك شأن الطي الصغير في ايرن (تاسيلي) ذي القوائم المرتفعة، الذي يقبل للرضاع تحت خطم أمه الذي يكاد ينحني عطفًا عليه. ان ذلك الفن ملائم تماما لتصوير الخيل والعربات ثم الجمل وكذلك الانسان الذي أصبح ذا مثلثين كما نرى ذلك في أسدجان وإن ملان، أو الذي يبرز رقبة طويلة مكان الرأس. نجد اذن في نفس الوقت اتجاهها نحو تكلف الخط الدقيق ونحو التبسيط الهندسي المتسرع الذي يتداخل في آخر العصر مع الحروف الهجائية الليبية البربرية أو التيفيناغ. ان الكثير من التفاصيل كالسروج العربية ذات القربوس الخلفي التي ترجع الى ما بعد القرن السابع، تمكننا ان نصف تلك المشاهد خارج عصورها قبل التاريخ.

ان بعض الملاحظات تفرض نفسها في ما يخص تلك الأساليب التي تتطور بدون تقسيم زمني دقيق، اذ ان الطابق الثاني هو من أسلوب عتيق مخلوط. فليس للثور ذي الهملجة في سفارشيء من الرؤوس القنعة ذات المواضيع الرمزية. كما أن بعض القوالب من جهة أخرى مستمدة من عدة

أنواع وأساليب. ومثال ذلك فن الرسم الذي يقوم بتمثيل البقرات بقرون أمامية، وتمثيل الرأس في منظر جانبي كما نرى ذلك في وان زندر. ويلحق بالقوالب أيضا رسوم الرعاة في حركات أو مواقف نشاهد فيها يدهم ممدودة واليد الأخرى معطوفة على الخصر. كما برزت بصفة جلية بعض المواضيع الجهورية، من ذلك: الكباش بجنوب منطقة وهران، واللؤلؤ في تاسيلي، مع أنه لا يظهر في الفزان وفي جنوب منطقة وهران، أما المواضيع الجنسية فإنها تميز خاصة الفزان وتاسيلي.

أما فيما يخص أسلوب الزينة، فإننا نشاهد في القابسي الأعلى نقوشا على بيض النعام مواضعها هندسية. ولقد وفر لنا خاصة العصر الحجري الجديد ذو التقاليد السودانية الأدوات والأسلحة الفنية، والصفائح البديعة الصوانية الميشبة. والمطلية بالأخضر والأحمر الداكن، وأواني الفخار التي تزينها خطوط متموجة ورؤوس سهام تيشيت بأسنانها المصقولة صقلا جيدا وبشكلها المثلث الممتاز.

إن النوعية مازالت تنتظر التحديد في المناطق الإفريقية الأخرى. ولقد ذكر مثلا مؤرخ في ناميبيا ٢٠ طبقة وأسلوبا من ألوان مختلفة تتوزع على أربع مراحل كبيرة: (١) مرحلة الصنع القديم التي تمثل حيوانات كبيرة بدون رسوم إنسانية. (٢) مرحلة اللوحات الصغيرة وبها صور إنسانية. (٣) مرحلة اللون الواحد وبها مناظر الصيد والرقصات الدينية التي تطفح بالحياة. (٤) مرحلة استعمال الألوان المختلفة التي تبلغ القمة الجمالية في مجاً فيليب كاف (دامارالاند)، مثلا وفي رسوم برندبرغ التي يرجع تاريخها إلى سنة ١٥٠٠. يميز. فروبنوس من جهته أسلوبين أساسيين في الفن الجداري بافريقيا الجنوبية. ففي أقصى جنوب القارة، من الترانسفال إلى الكاب، ومن دراكنسبرغ الشرقي إلى الشواطئ الصخرية الناميبية، نلاحظ «فنا طبيعيا» تغلب فيه الحيوانات المرسومة في أكثر الأحيان مفردة بمهارة كبيرة، فتظهر طيات الجلد وخطوط جلد الحمار الوحشي، إلا أن ذلك الفن يبدو جامدا أوفاترا وإن كانت الرسوم ملونة بألوان مختلفة ومركبة. ولقد وضعت الألوان بمهارة كبيرة باستعمال ذلك. إن الأمر يتعلق هنا بمناظر منظمة تعبر عن الصيد والرقص والمواكب والمجالس وبالعكس من ذلك، فإن الفن من الترانسفال الأوسط إلى الزمبيا (زمبابوي وملابوي) يختص بلون واحد أساسا، فهو يركز على الأحمر أو أمغر أكسيدات الحديد، ويميل أحيانا إلى البنفسجي. وتتكون الصخرة القاعدية من الغرانيت عوضا عن الصلصال الذي نجده في الموضوع السابق. ويرتكز الفن على الرسم الذي يبين كيف يكون أيضا قريبا من الواقع، مثل التصوير المائي بالجنوب. إلا أن ذلك لا يعني تصويرا آليا للواقع الذي يؤول أحيانا إلى مشاهد مركبة يخبئ فيها الخيال إلى درجة الروعة (١٢).

يظهر الإنسان وله كتفان عريضان وخصر ضيق. وبكل إيجاز له شكل مسماري. وعندما ننظر إليه من الأمام نشاهد أعضائه في منظر جانبي مثل ما هو الشأن في النقوش الجدارية المصرية. ويبدو أن أشخاص الجنوب أقرب إلى الطبيعة ولهم أعضاء أكثر أحكاما وذلك في مشاهد الصيد أو الصراع المتداخلين في بعض الأحيان. ويتعلق الأمر في الشمال، بمشاهد مأتمية ذات أبهة، لعلها تمثل جنائز ملكية يعبر فيها أشخاص عن ولائهم وعطفهم. أما الحيوانات، فإنها تتوالى، كما هو

(١٢) إن تمثيل حيوانات القنص والحيوانات عموما أمر طبيعي، وذلك لأسباب سحرية في بعض الحالات لأن الرسم يجب أن يمثل بأكبر دقة ممكنة موضوع الشعائر الطقوسية. أما الصور الإنسانية فإنها بالعكس مبسطة عمدا بغية إبعادها عن مفعول السحر.

الشأن في مغارة اينورو الكبيرة، لا كسفينة نوح المرسومة بعناية، بل كأنها أساطير حيوانات خارقة، فيها طيور ضخمة لها مناقير تشبه أفواه التماسيح، وفيلة عظيمة ذات ظهور مسننة، وحيوانات من ذوات الرؤس، كما نجد أحيانا أساطير مهذبة مثل أسطورة المطر. يتكون إطار هذه اللوحات الخيالية من مناظر حقيقية تكون فيه الصخور والأشجار معروفة الأنواع. أما البحيرات ذات السمك، فإنها مرتبة ترتيبا ذكيا. فهذا الفن هو فن زيمبابوي ويبدو أقل حركية من الجنوب لكنه ملء بالأحاسيس الفياضة والمؤثرة، أن الأسلوب المسماري لا يمكن أن يكون حسب ل. فرو بنويس إلا مرتبطا بحضور عظيمة، ونحن نعلم أن منطقة زيمبابوي لا ينقصها ذلك. فهو يرى أيضا أن ذلك الأسلوب المليء بالزوايا والبسيط قد ترك المجال لأسلوب أكثر تكورا ومرونة وأكثر تكلفا وأثوة عند اضمحلال المجتمعات التي أوجت به (١٣).

يبدو أسلوب النقوش الجدارية في شمال فولتا العليا (أريندا)، نصف طبيعي أو ارتسامي، في حين تختص نقوش الجنوب بأشكال هندسية. وتوجد أيضا رسوم في مغارات الشاطئ الصخري في بنفورا.

وقد مكنت الحفريات في امبراطورية وسط إفريقيا من إكتشاف مواقع تشهد بالوجود الإنساني منذ عصر ما قبل الأشولي، وتواصل حتى عصر المعادن. فلقد حددت خمس مواقع للفن الجداري: نجبا تولو بمنطقة نديلي المسكون منذ ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا، والذي يحتوي على أشخاص من غابر الأزمان، مصورين بالأحمر، وعلى مواضيع أخرى لونها أبيض وتبدو الأيدي في شكل «عروة وعاء». و يوجد أيضا نجبا كومبالا، ومواقع النقوش بمنايع مباتو، ومواقع لنغو (مبومو). إن هذا الفن قليل النسب بفن الصحراء بل له صلة بلوحات إفريقيا الشرقية والجنوبية (١٤).

## الحوافر والتأويلات

وصفت الرسوم الجدارية بأنها بتروغليفية. إن هذا الفن يعتبر علامة هنا أكثر من أي مكان آخر، أي أنه يمثل جسرا بين الواقع والفكرة، إنه رمز خطي تستوجب قراءته مقياسا. إن الجهل بالظروف الاجتماعية التي أنتجت هذا الفن هو في الواقع أكبر عقبة دون تأويله تأويلا صحيحا. لذلك ينبغي ألا نسرع كثيرا نحو التأويل، وأن لا نتجاوز مرحلة وصف الرمز في حد ذاته، بمعنى مرحلة التحليل الشكلي، إذ أنه يحدث أن يحصل الوصف نفسه حسب مصطلحات تأويلية. إن الطريقة الاحصائية قادرة على أن تمكننا عند الضرورة من جدولة المعطيات الكمية والكيفية بالنسبة لأكبر عدد ممكن من اللوحات بصورة تسمح لنا بالتحليل المقارن (١٥). فنستطيع أن نرى مثلا هل أن أنظمة الرموز الملحوظة في عدد معين من اللوحات تخضع لدينامية معينة في الزمان والمكان. وتكون مرحلة التطور التي أعيد انشاؤها أكثر احتمالا كلما اكتملت الوثائق. فلا يمكن تأكيد

(١٣) انظر: أ. هيرلاند، ليفرو بنويس.

(١٤) انظر: ر. دي بابل دي هرميس في «أركيولوجيا» عدد ٩٢، مارس ١٩٧٦.

(١٥) يمكن أن تخضع هذه الدراسة الكمية للمعالجة بواسطة العقل الإلكتروني، مع ضرورة التزام الحذر.

انظر: في هذا الشأن أ. ستريدر، بمعهد فرو بنويس بفرنكفورت الذي يديره الاستاذ هيرلاند.

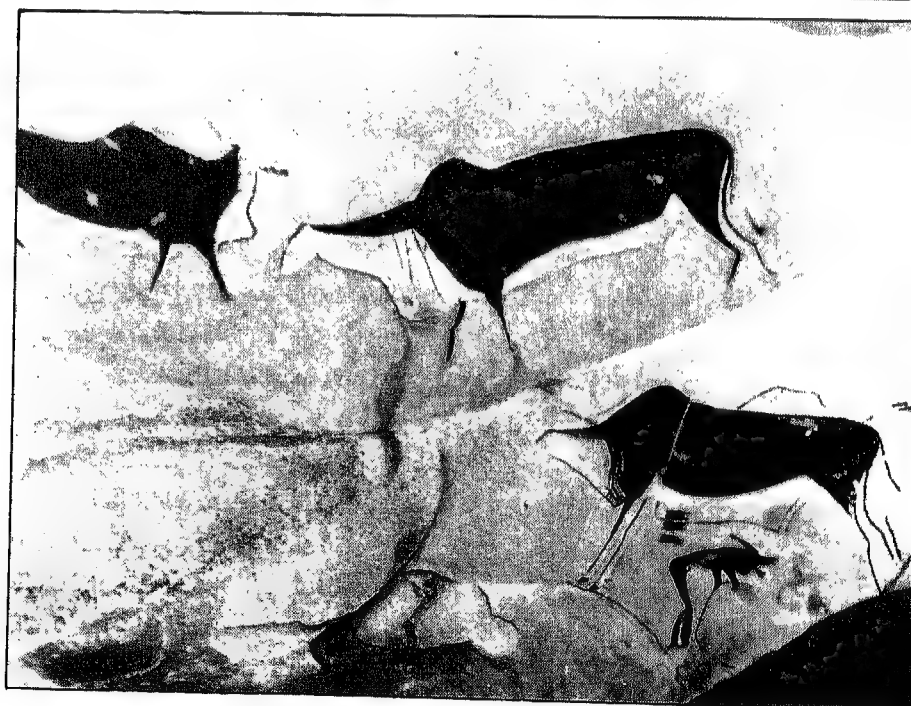
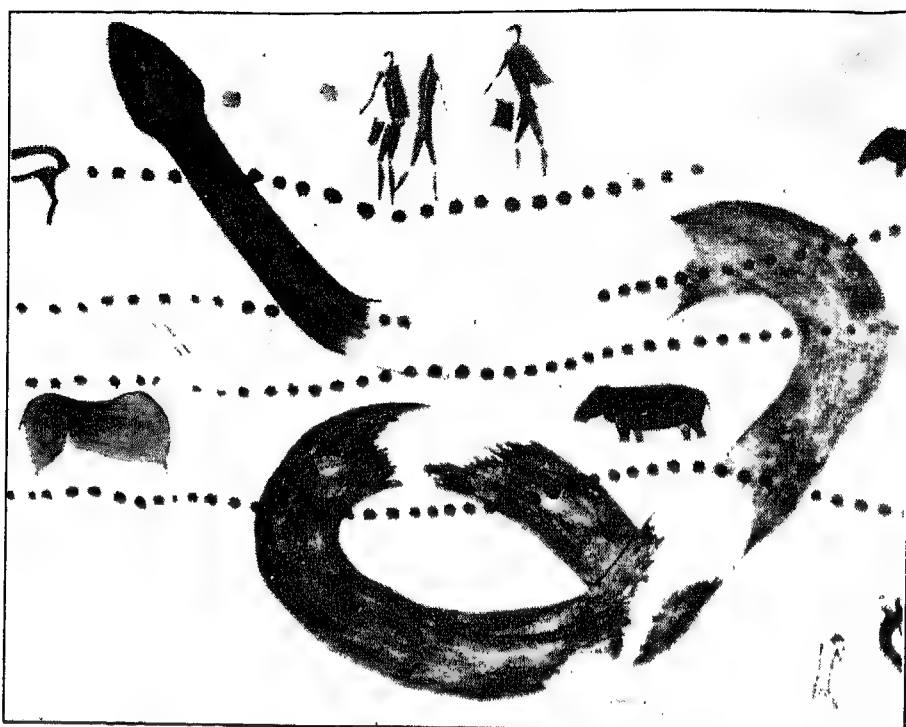
الافتراضات الناتجة عن الدراسة الشكلية الا اذا وافقت مجموعة المعطيات التي تشكل النظام العام لذلك المجتمع، لأن لوحة من عصر ما قبل التاريخ ليست في الواقع الا جزءا ضئيلا من نظام كبير من المعلومات، أي من ثقافة تحتوي على أشياء أخرى. اننا ندرك في هذا المستوى من التحليل ما عسانا نبغ من التعقيد في العلامات للوصول الى فهم المعنى الصحيح للتمثيل الجمالي. مع العلم أنه، زيادة على معنى التمثيل الواضح، يمكن لنفس التمثيل ان يعبر عن معنى خفي، لأن الرمز ليس علامة فحسب عن شيء ما ولكنه علامة عن شخص ما (رمزية)، فوجب اذن ان نرتقي من الشكل الى التركيب الاجتماعي فنستطيع ان نتجاوز التعليق البسيط على لوحة طبيعية محضة، ومن معنى بديهي الى مرحلة فك المعنى المدلول للوحة مجردة. فهنا ينبغي الرجوع الى الثقافة المحيطة، لأن المدلول مثل بطرق مختلفة بحسب الثقافات وكلما بعد الرمز عن الموضوع المحدد كان الرمز خاصا بثقافة معينة وكان أكثر دلالة مثله مثل المشاكلة الصوتية الموجودة في لغات عديدة والتي لا يمكن ان تميز واحدة منها، نظرا لأن هذا الصوت مشاكل لنفس الطبيعة المشتركة. وعلى العكس من هذا، فان الامور تختلف بالنسبة لكلمة نموذجية من لغة معينة فيمكن لنا عندئذ ان نعتبر الأروقة الفنية الكبرى بمثابة محطات لبث الآثار الفنية. لكن من هم الملتقطون لها؟ ألا تبث تلك الأجهزة للمنتجين أنفسهم قبل كل شيء، وكذلك لمجتمعهم الذي لم يترك لنا الا آثارا نادرة تيسر لنا قراءة وفهم تلك الآثار؟ وبإيجاز يجب ان تنتهي اشكالية واستراتيجية الاستكشاف الفني بتعريف أنواع الثقافة التي تقوم عليها هذه المظاهر الجزئية. ويمكن لنا بالاعتماد على تحديد المجالات الثقافية التي ترعرعت فيها، أن نستعيد بناء العلاقات التاريخية في نطاق النسيج الذي تندرج فيه.

لذلك فقد نفقد الفن دلالة اذ أطلقنا على الرسوم الجدارية الافريقية عبارات وعناوين مثل (القضاة، السيدة البيضاء، قالع الاسنان، جوزفين التي باعها أخواتها، أو سكان المريخ) لأننا نحول ونغير كيانا ثقافيا عندما نؤوله باعتماد فهم ملاحظ واحد، أو من خلال حضارة أخرى (١٦)، فيمكننا ان نعلم مبدأ عاما يتلخص في ان فن ما قبل التاريخ الافريقي يستوجب أن يؤول أولا، انطلاقا من مستندات افريقية أصيلة. فلا يمكن لنا أن نبحت عن أسباب خارجة عنها الا اذا لم نحصل على جواب لمشكل من المشاكل في المحيط الزمني والمكاني والثقافي المحلي، الجهوي أو القاري.

وانطلاقا من ذلك، تعتمد حاليا معالجتان لتفسير فن ما قبل التاريخ، أي المعالجة المثالية والمعالجة المادية. يمثل هذا الفن، حسب المعالجة المثالية، قبل كل شيء تعبيرا عن مختلف النظرات الى العالم التي كانت سائدة عند تلك الشعوب آنذاك. ان تلك النظرات وحدها تفسر لا المحتوى فحسب، بل الشكل أيضا. فيجب اذن التخلص من العقل العقلاني: فلقد قال أريك هولم «ان الفن بافريقيا الجنوبية يظهر في صورته الحقيقية اذا اعتبرناه تعبيرا عن الشعور الديني وعن الحاجة لتجاوز الأشياء. فلقد كانت تلك الماورائية ميزة الانسانية البدائية وليست الصور الحيوانية الاقناعا

(١٦) انظر: في هذا الشأن ملاحظات ج. د. لاجو القيمة، ١٩٧٧، ص ١١٥ وما بعدها. بدون ان ننكر الابد بروي في الهزل أو، نذكر ثقافته الواسعة أو الخدمات الجليلة التي قدمها لدراسة ما قبل التاريخ عموما وما قبل التاريخ الافريقي بصفة خاصة فيجب ان نفر بأنه غالبا ما خضع لهذا الاتجاه الهزلي.





- (١) درب الافعى. (تصوير أ. أ. أ.، مودوي) رقم ٣٥ ج.
- (٢) الرسم الصخري المسقى «السيدة البيضاء». (تصوير أ. أ. أ.، دوفرجيه)، رقم ٤٨٥٢.

يخفي الطبيعة الحقيقية لطموحات الانسان. فلنكتف اذن بالاشارات التي تزودنا بها الأسطورة عوضا عن أن ننساق الى الجدال الكلامي، لأن تلك الصور واضحة بما فيه الكفاية (١٧). في هذه الظروف، تمثل الرمزية الخرافية والمتعلقة بنشأة الكون أهم مفتاح لاستكشاف عالم الفن الجداري. ولقد توسع فروبينيوس في شرح نفس الآراء وان كان قد أخذ بالاعتبارات الاجتماعية أيضا.

ويقال بأن الأسد نقش في لوفنتين على الوجه الجانبي من الصخرة لتضيئه الشمس بأشعتها الاولى، لأنه يمثل كوكب النهار، في حين ان وجه الكركدن موجه نحو الغرب لأنه يمثل روح الليل والظلام. ان الكركدن الذي يرمز قرناه الى الهلال الناشئ يعتبر حسب التقاليد أنه قد اغتال القمر الخ... ويتحدث أ. هولم أيضا عن «الوظيفة القدسية» للمغارات الواقعة في المرتفعات النائية. فلقد دعت أسطورة نشأة الكون العالم اللغوي الألماني وليام بليك التي استقها في القرن التاسع عشر من قبيلة السان الى اعتبار أولئك السان بأنهم «لا يميزون بين المادة والروح». ان تمثيل ظلي الكاب بقوامه الضامرة يرمز الى القمر الطالع. وهذا الظلي اذ يواجه رسوما انسانية مثل التي توجد في مغارة هرنفين (دراكسنبروغ) يفيد أن أولئك البشر كانوا يعبدونه : ويرمز الشمواء (تيس الجبال) الفاقع اللون المخطط بالأحمر الى الزوبعة، وترمز الراهبة الى البرق، والفيل الى السحاب الممطر، مثلما هو الشأن في جبل القديس بولس (دراكسنبروغ) وقد توجد تلك الأسطورة لا في جهات أخرى من افريقيا فحسب (مغارة فليب بناميبيا، وجبل بوسبع، وعين غجة بالجزائر) بل توجد أيضا على عاج منقوش، في المادلان بفرنسا.

ويختص ظلي الكاب البديع الموجود بمتحف الترانسفال بوبر لونه عسلي، وهو يفيد بكل بساطة بأن الظلي مخلوق الراهبة التي تمثل الشمس وأن الراهبة قد دهنته بعسل صاف حتى يلمع وبره. ولئن كان الحمار الوحشي قد رسم أحيانا بدون خطوط كما هو الشأن في مغارة نسواتوغي في جبال متوبوزمبابوي، فذلك لأن هذا الحيوان لم يكن في الأصل مخططا ولم يتميز وبره الا بعد ان وقعت الشمس على صلبه تاركة حروقها به الخ... من هذا المنظار، يكفي ان تتوفر لنا كل تفاصيل «تحول العقائد الشارحة للألغاز الافريقية لكي نتحصل على المفتاح الذي يمكننا من فهم كل ألغاز الفن الجداري الافريقي المعبر عنه بأنه «لا يخضع للزمن مثل الأسطورة». لكن يجب ان نعتزف بأن الأمر ليس بمثل هذه البساطة.

أما أصحاب المعالجة المادية، فانهم يرون أن فن ما قبل التاريخ مثله مثل أي فن آخر ليس الا انعكاسا للوجود الملموس للانسان في مجتمع معين فهو «لحظة ايدولوجية» وأداة من البنيات الفوقية تعبر عن توازن بيئي واجتماعي معين تمكن الانسان من المحافظة عليه أو من تحسينه لمصلحته. في هذا الاطار، نرى أنه يلزم القيام بالتأليف بين هاتين المعالجتين، لانهما ناقصتان اذا نفت احدهما الاخرى. فما من شك أن فن ما قبل التاريخ قام بنقل رسالة بيداغوجية واجتماعية. ان السان الذين يشكلون اليوم أقرب شعب الى واقع التمثيل الجداري، يؤكدون ان آباءهم فسروا لهم العالم من خلال مجموعة الرسوم الضخمة التي تمثلها الأروقة. وترتكز تربية الشعوب التي لا كتابة



- (١) تفصيل من نقش صخري من  
فولتا العليا (تصوير ج. ديفيس).
- (٢) رسم صخري من ناميبيا (تصوير  
أ. أ. ميرز)، رقم ٣٨٠٨.



لها على الصورة والصوت، قل كل شيء، أي على الطريقة السمعية البصرية كما نرى ذلك الى اليوم في تنشئة الشباب في جنوب الصحراء الافريقية. ان النقش الفني على الحجر يخضع لهذا النظام. ومن البديهي أن الأسطورة لا تفسر كل شيء لأنه يجب، قبل انتاج الاسطورة، بناء، ثم اعادة بناء المجتمع نفسه. وهذه الصورة يمكن ان تصبح الاسطورة أداة ممتازة لتحسين (أو لإتلاف) الطاقات الانتاجية وعلاقات الانتاج وهذا ما يعتقد أ. هولم نفسه عندما ذكر شأن شاب السان المتأكد من ان سنان السهم المنقوشة في المرو اللامع هي جزء من النجم، فيخطبه مبتهلا اليه: «أنت، يا من لا يخطيء المرمى، أيها المعصوم من الخطأ، مكني من أن أدرك غنيمتي». ان هذه الجملة وحدها تعبر عن مغزى منفعي قبل كل شيء عكسا للاستنتاج المثالي الذي يخلصه منها الكاتب. ان الانسان يحتاج ليظل على قيد الحياة الى أن يستنفر الكون وأن يجنده. وتلك هي وظيفة الاسطورة وان كنت لا أظن أنها وظيفته (١٨) الوحيدة، ولذلك وجب الا تمنعنا غابة الرموز من رؤية أشجار الواقع الملموس.

يمكن أن توجد الوظيفة الروحية وجودا مستقلا، فتصلح حينئذ من الناحية الذاتية لا كوسيلة، بل كنهاية في حد ذاتها. أليست الأسطورة في النهاية طريقة يستعملها الانسان لادراك الكون وذلك بتنظيمه أي يجعله مفهوما عقليا نوعا ما، اذ ان الخطاب الاسطوري يعتمد على منطق ذاتي خاص به فالهدف الروحي موجود اذن، ولو أنه مربوط في أغلب الأحيان بأمور دنيوية. ان تمثيل كائن مخيف يعني قبل كل شيء التخلص من سيطرته، ومراقبته بالنظر تعني السيطرة عليه. فهل يعبر سكوت المعادن الذي يكاد يلمس والذي يملأ الاروقة الصخرية السرية المسدودة في عين اتينان، وتسوكاي، هل يعبر عن خشوع المعابد وأماكن التنشئة، أو عن ايواء حيوانات محشورة فيها أو مسروقة؟ قد يفيد هذا وذلك. ان الاشخاص الواضعين على رؤوسهم قناع الحيوانات ويوجدون غالبا في نفس المكان مع الحيوانات ذات الصفات الدماغية (أقراص، قضبان الخ..). (١٩) وذلك بجنوب منطقة وهران في وادي جرات، توجي بأشخاص في موقف تعبد أمام الحيوانات. وكذلك يمكن أن يعبر الصيادون الثلاثة المقنعون في جرات، عن حالة من الافتتان، وكأنهم يطاردون جاموسا يحمل قرصا.

وبما أن الأهالي الافارقة ما انفكوا يستعملون الأقنعة فلماذا لا نركز تأويل مثل تلك المشاهد على هذه الاشكالية الثقافية عوض ان نركن الى الخرافات البسيطة؟ والملاحظ أن التفسير ليس دينيا دائما. ويلبس صيادو المنطقة الساحلية حتى يومنا هذا رأس أبو قرين (طائر) فيحركونه من الأعلى الى الأسفل مقلدين ذلك الطائر ليقتربوا على أربعة قوائم من الظبي قبل رميه بالسهم. ان التباعد بين الوسائل والنتيجة تبلغ حدا كبيرا أحيانا الى درجة تجعلنا نشتم السحر بقوة كأن نرى مثلا رجلا مقنعا يجذب بدون جهد كركدنا مقتولا وأرجله الاربعة مطلوقة في الفضاء وذلك بعين هباتر

(١٨) تحوي الاساطير من حيث النظرة التاريخية البحتة، كثيرا من المعلومات، فان الشمس — في اعتقاد قبيلة السان — انزعجت من حمل الحمار الوحشي لها على ظهره، فهجرتة لتستقر بين قرني الثور. وذلك ما يجلبنا الى الطرف الآخر من القارة أي الى الرسوم التثيلية بشمال افريقيا (جنوب وهران، والصحراء ومصر) حيث نرى بقر يات تحمل أقراصا شمسية، فهل نستنتج من هذا ان الآلهة — البقرة (هاتور) نشأت من أسطورة افريقية؟.

(١٩) انظر: الامثلة المشهورة عن ثور مياديب (ليبيا) وكبش بوعلام (الاطلس الصحراوي).



● (١) رسوم الصخر من هضبة تاسيلي  
الناجر (الجزائر). (تصوير أ. أ. أ. ١،  
و ٤: سود، رقم ١٢٥٩٩ و ١٢٣٧٩  
و ٣ سودرين رقم ٣١ و ٤٣).

(ليبيا). وتظهر بعض طقوس الخصوبة جليا في تصرفات الممثلين الموجودين بالمشهد والذين يظهرون وكأنهم متفرغون لمجموعات شعائرية في الجامعة الواقعة بين امرأة ورجل مقنع في تين لنان أو في منظر أولئك الذين يرقصون رقصات متحمسة، مع تصرفات جماعية بارزة. وكانت الخصوبة هي القضية الكبرى في الواقع، خاصة في أواخر عصر ما قبل التاريخ في الصحراء الكبرى أو في صحراء ناميبيا، وذلك اثر تفهقر كل أثر للحياة وأمام التقدم الحتمي نحو الجفاف. أما (هيباتي با) فقد أقرب بأن حلية العقيق الاحمر المسدسة الأضلاع الموجودة في المنجم الحجري الحديث في تن فلكي تمثل تيممة لا تزال تستعمل للخصوبة حتى يومنا هذا عند نساء الفلانيين (٢٠) وقد لا يستبعد الدافع الجمالي أيضا في هذه القضية بالذات. وفي الواقع، بما أننا نعد رجال ونساء العصر الحجري الافريقي الحديث من نوع الانسان العارف مثلنا، فأننا لا نستطيع أن نحرمهم من الشعور الخاص الذي يعترينا، وهو الرغبة في خلق الاشكال بغية التمتع بتأملها لا غير. ان الاعجاب الذي نشعر به اليوم أمام هذا الخلق كان أشد عندما كانت اللوحات حديثة وعندما كانت نماذجها متوافرة بالبيئة المحيطة بها. وتشهد بروعة الذوق الجمالي لأفارقة ذلك العهد، مساحيق مواد التجميل ولآلئ الأمازيت والكالسيدون أو المصنوعة من قشرة بيض النعامة (في تينيري) وكذلك شكل الفؤوس ذات الأعناق المشوقة. ان التصاميم المهمة لأنها غير مرضية كثيرة نسبيا. ومن جهة أخرى فان اللوحات المعرضة للهواء الطلق، أو الموجودة في متناول كل عابر سبيل، تدعو الى الاعتقاد بأنها مغيرة عن أصلها ولعلها مظهر من مظاهر الفن الشعبي. وهو شعبي أيضا لأن القصد التاريخي ليس معدوما منه. ان السرور بالذكرى، والرغبة في تخليد الاحداث الفردية أو الجماعية يعتبران من «معالم» جنسنا البشري فلقد ولد الانسان مؤرخا. ويعتبر فنانونا ما قبل التاريخ هم المؤرخون الأفارقة الأوائل، لأنهم مثلا لنا بأبلغ عبارة، الحالات المتفاوتة التي تعتري انسان ما قبل التاريخ في علاقاته مع الوسط الطبيعي والاجتماعي.

## العبء التاريخي أو الفن كوثيقة

لماذا نعتبر فن ما قبل التاريخ الافريقي هي الصفحات المصورة الأولى لأول كتاب لتاريخ إفريقيا؟

### البيئة الإيكولوجية

أولا - نجد فيه شريطا وثائقيا عن البنية التحتية للمجتمعات الاولى التي عاشت في قارتنا وعن الظروف البيئية. ويمكن ان يشاهد مجال الحياة هذا مباشرة، كما هو الشأن بالنسبة للأشياء التي وجدت في أمكنتها الاصلية. ولكن محتوى اللوحات كذلك يمكن ان يدلنا عليه. لقد دعونا الى الحذر عندما ذكرنا بأن تمثيلا جماليا لا يشكل بالضرورة صورة صادقة عن الواقع المحيط المعاصر، اذ يمكن ان يكون الفنان قد صور ذكريات قديمة أو شخص سرايا أو أحلاما. الا أن الشواهد الكثيرة المتفقة في هذا الشأن مع نتائج التحليل الجيومورفولوجي الذي مكن من معرفة مدى امداد البحيرات

(٢٠) يحتمل ان يكون صليب أغادس أو إيفروان ناشئا عن علامة طائيت وهي الرمز الجنسي النسائي.

الميتة وشبكات المياه القديمة لا تترك مجالا للشك. ومن ناحية أخرى وجدت عظام كركدن عثر عليها أ. لوط في منجم بالأدرار بوس يقدر تاريخه بـ ٥١٤٠ ق. ح. اعتمادا على الكربون ١٤، وهذا ما يؤكد مثلا الاصلالة التاريخية لمجموعة الكراكندن المرسومة في أسدجان وأن ملين و يعتبر ذلك الحيوان علامة بيثوية حقيقية لأنه يستوجب مياهها دائما. وذلك شأن الفيل أيضا الذي يستهلك يوميا كميات هائلة من النباتات، فكانت صحراء اللوحات اذن في ما قبل التاريخ حديقة كبيرة من نباتات البحر المتوسط التي بقيت منها بعض البقايا الى اليوم. الا ان تلك البيئة أخذت تتقلص شيئا فشيئا أمام مجال الحياة «سوداني وساحلي» (٢١). ونجد في عصر الحصان والعربات بعض رسوم الأشجار مثل النخيل الذي يشير بدون شك الى وجود الواحات.

ان الاسلوب الشمالي (المعروف بالروديسي) في افريقيا الجنوبية ملئ برسوم الأشجار فمنها ما هو معروف. ونستطيع اليوم ان نتصور الحيوانات الكثيرة المختلفة التي سكنت خبايا المناطق التي أصبحت اليوم قفرا وكأنها اليوم سفينة نوح جديدة، وحديقة حيوانات جامدة فيها أسماك منقوشة، وحيوانات وحشية كثرة الوبر وقوية مثل الحريم القديم وقرونه الكثيرة التي يبلغ قطرها ثلاثة أمتار، وسنوريات مثل الفهد والضبع والقرود الطويل الذيل والقرود القردوسي (في تين تازر بيت) ونعامات وبوم الخ.. في كل مكان نرى مشاهد الصيد التي تذكرنا بالصراع الكبير بين الانسان والحيوان منذ الخليقة. ان تلك المشاهد المملوءة بالحيوية وأحيانا بالعنف والتي ينجلي فيها انتصار العقل على القوة الوحشية، تذكرنا بالصيادين الذين أشار اليهم يويوت بوادي النيل في ما قبل الملوك، ببحيهم الذكرية بين أفخاذهم وأسلحتهم المقوسة وأذيالهم المستعارة وهي تتكون في الواقع، كما هو الشأن اليوم في افريقيا الوسطى، من جلد حيوان يلبس قلادة. ونشاهد في ايهرن أسدا يصطاد وقد كانت تطارده وتحاصره دائرة من الرماح المهددة. ونرى في تسوكاي حيوانا وحشيا مقتولا على وشك ان يقطع. ونجد على ضفاف النيل وفي ليبيا وفي الصحراء الكبرى كلها رسوما كثيرة لأفخاخ تشهد بمهارة انسان ذلك العهد المتعدد الاشكال، وكان ذلك الانسان يكيف تقنياته مع البيئة وطبائع الحيوانات (٢٢).

وتبين لنا كثرة تلك اللوحات المتعلقة بالصيد، من النيل الى المحيط الأطلسي وجود حضارة صيادين حقيقية، فكانت حيوانات هائلة مثل الفيل لا تستطيع الفرار كما يدل على ذلك مشهد الصيد الكبير بمرتوك الاعلى. وتكاد ترتبط الافخاخ في كل الأماكن برموز الصيادين تحت مجموعة ثقافية أصيلة، امتدت تقريبا على القارة الافريقية كلها وذلك على عشرات الألفيات من السنين وتواصلت مدة طويلة في العصر التاريخي كما تشهد على ذلك خرافة سندجاتا.

وتوحي تلك التمثيلات أيضا بالتحول التدريجي من مراقبة أو «حبس» الحيوانات، الى السيطرة عليها ثم تطويعها: فنرى رجلا بيده قوس يشد حيوانا من زمامه. ونرى مشهدا عن صيد الأروية في

(٢١) انظر: ي، ومغيا ١٩٧٤.

(٢٢) لقد أحصيت حباك وأشباهك، وأفخاخ منصوبة، وخنادق تقوم مقام الأفخاخ، وأفخاخ تصرع، وأفخاخ تشد، منها ما يربط ومنها ما يلوى مثلها هو الشأن في داومني، على النجوم النيجيرية التشادية حيث عرقلت حركة زرافة باستعمال جهاز معقد ويثني عنقها ثنيا أفقيا. انظر: ب. هووارد، وج. لوغلان، ١٩٧٣ ص ١٣٦ وما بعدها في شأن التفاصيل المتعلقة بهذا الموضوع.

تيسوكاي وقد استعين فيه بالكلاب. ويبين المشهد الحي عن الكلب السلوقي وذيله المطوي في سفار، ان ذلك الحيوان كان دائما رفيق انسان الصحراء. ويظهر مشهد في جبارين صيادا يحمل سلاحا مقوسا وهو يترصده حيوانا وحشيا يتبعه حيوان آخر ينتظر الفريسة الا أنه يبدو أنه قد تأهل. ولقد لوحظت البقرريات أيضا منها الثور الاسباني ذو القرنين القصيرين والغليظين بالجنوب، والثور الافريقي في تاغبط وجبارين الخ، وقرناه الكبيران اللذان لهما شكل كنارة. وتحمل تلك الحيوانات أحيانا قلادات برقابها (واد جرات).

ثم نرى في عين اتينان مثلا بقرريات قد أحكم تصوير قرونها، وزخرفت ثم عوجت اصطناعيا أشكالها على غط اللولب. ان نوع الحمار المصطاد في تيسوكاي هو من نفس النوع الذي أهل منذ العصر الحجري الحديث، حيث نراه وقد ركبته الانسان. وهناك أغنام وماعز أيضا الخ... وحتى الأجهزة المستعملة في الماء فقد بدأت تظهر كما نرى ذلك في تين تازار يفت بشكل يذكرنا بمراكب البردي بالبحيرات والأنهار في السودان التشادي وفي النوبة.

## الإطار الانساني

وتذكر رسوم عين أتيتان التي تظهر أناسا منحنيين على الأرض يستعملون أدوات مكوعة بمشاهد الحصاد التي تستعمل فيها المناجل، والموجودة في النقوش الجدارية الفرعونية.

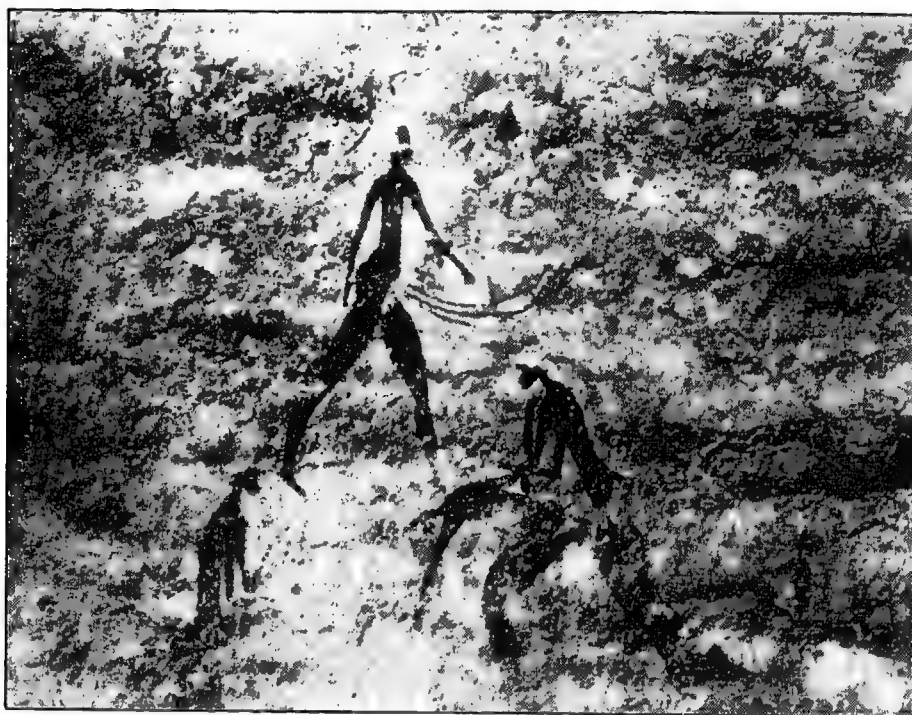
وكذلك فان رسوم النساء المنحنيات انحناء الذاريات للحبوب، أو الجامعات للسنايل تجعلنا نفكر في وجود زراعة حبوب العصر الحجري الجديد بالصحراء، ومما يؤكد كثرة الرعي، ومهارس الحبوب (٢٣) الا أن دراسات البليولوجيا، اعتمادا على عينات صحراوية، تدعونا الى الحذر. فلعل الأمر يتعلق بجمع الحبوب، وان كان الفاصل بين مرحلة الجمع والمرحلة الممهدة للفلاحة ومرحلة الفلاحة بأتم معنى الكلمة صعب التحديد. في باتل كاف تغدو فتيات من السان الى الجمع وهن يحملن عصي الحفر على أكتافهن. ومهما يكن من أمر فان كثرة القطع الفنية الجدارية والأثاثية المكتشفة في مناطق واسعة من افريقيا، لا سيما في المناطق التي أصبحت اليوم صحراوية، تعطي فكرة هامة عن الكثافة السكانية في تلك المناطق. ان أحجام تلك القطع الضخمة توحى بانتاج «نصف صناعي» كما هو الشأن في الشمال الشرقي من باشر أو في عرق الروى، أو حتى في المجدوبة (الصحراء الغربية) كما تؤكد ذلك ملاحظات ث. منود.

ان الفن الافريقي في ما قبل التاريخ يعطي أيضا فكرة واضحة عن لباس الانسان حينذاك. فهو يفيدنا أن الرجال — وذلك ما يجري كثيرا في البداية — كانوا يتحلون أكثر من النساء حتى عصر البقريات حيث انعكست الآلية.

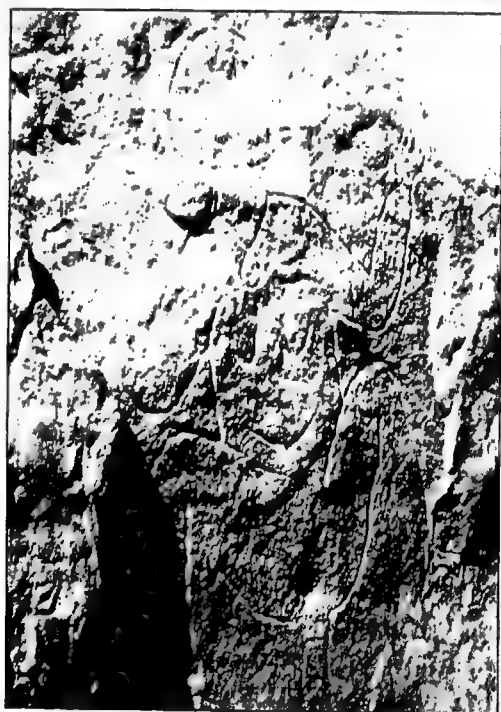
أنسا نرى الرجال لا يلبسون جلود الحيوانات، متبرجين بأشرطة جبينية مزخرفة أو بهماطف من الريش، وكانوا يحملون شعارات مختلفة غامضة أحيانا تتكون من قلائد وساعات وأساو الخ.. وغالبا ما تظهر النسوة في عدة بسيطة للغاية، ويلبسن في بعض الأحيان شريطا من القطن بين الفخذين مشدود بحزام، وهو لباس متعارف عند الفتيات في المنطقة السودانية، وتوجد أيضا الوزرة

(٢٣) وتعتبر الرسوم التي عادت بها بعثة برلين تيري من أجل الرسوم.





● (١) مشهد شهواني من تاسيلي.  
(تصوير ب. كولوميل)، رقم ٧٥٣٢١.  
● (٢) مشهد شهواني من تاسيلي.  
(تصوير ب. كولوميل)، رقم  
٧٣١٠٧٥.



بأهدابها التحتية المختلفة الأوضاع والفساتين اللصوقة، وأنواع من ساترات النهود أو من رافعاتها، وتسريحات شعر مختلفة منها تسريحة الخوذة مثلما هو الشأن في جبارين.

أما المسكن، فهو كثيرا ما رسم رسما مبسطا في شكل نصف كروي يمثل أكواخا نرى الأثاث بداخلها ومشاهد عائلية. وتبين من ناحية أخرى اكتشافات منحدر تشيت (موريتانيا) حيث عثر على ١٢٧ قرية، أن أفارقة العصر الحجري الجديد كانوا أيضا بناءة. ان تلك التجمعات السكنية المكونة من الحجر الجاف والمستقرة على نتوءات جنوبية تحوي كل واحدة منها ٣٠٠٠ نسمة وتقوم غالبا على ركيزة من الصخور العملاقة التي تذكرنا بزمبابوي إفريقيا الوسطى والجنوبية وتميز الأعمدة الحجرية المصقولة هذا الفن المعماري الرائع بالنسبة لذلك العهد (٢٤).

اننا نلمح من خلال لوحات الفن الجداري الافريقي مجتمعا كاملا ينشط حتى أنه يكاد يبلغ البعد الثالث أي بعد الحياة. ففي تكادوماتين مثلا نرى النساء أجسامهن مكشوفة لحما، يشعر من يراهن بأنهن قد شعبن من الحليب. وكن جالسات أمام أكواخ مع أطفالهن، ولقد ربطت عجول ربطا محكما الى حبل، وكان الرجال مهتمين بحلب الأبقار، والمشهد مشهد مسائي قد اتسم بالطمأنينة الرعوية. فهل يوحي عدد النساء بنظام تعدد الزوجات؟ في أورنج سبرنغس، وفي نكوسيزانا سترم (النتال) تبين مشاهد من الرقص الحي أناسا أغلبهم نساء مجتمعين وهم يصفقون، حول راقصين مقنعين. وفي جبارين تجذب امرأة ابنا الصغير الحرون. وفي سفار يظهر رجل وهو يجذب حبل العجل الذي يعتبره بعض صيادي قبائل الفلانتين اليوم شيئا مقدسا (دونغول) وفي محبا إهرن، نرى على اللوحة الضخمة التي تمثل إحدى روائع رسم ما قبل التاريخ استعراضا لثيران مسرحية بمهارة تحمل على جوانبها قرب الماء وتركبها نساء كثيرات الحلي. ونرى حيوانات تنحني الى المورد، بينما كان قطع كبير يتقدم بكل وقار، كما نرى نساء مزيّنات جالسات مسترخيات أمام بيوتهن بينما توقف الرجال، وبشعرهم ريش، لتحيتهن. ونجد في الأكواخ أثاثا منزليا متنوعا. في عين اتينان يبرهن الأعيان المتحلون بلباس الأبهة، والمحاربون الذين يلبسون البدلة، على أن المجتمع أخذ يخضع لمبدأ الرتب. ويبدو الرماة المرتدون معاطف مرتبين حسب زمر تقوم بدورية يقودها قائد. فهي تبدو كأنها «قوة من قوى حفظ النظام».

ان مشاهد الحرب في إفريقيا الجنوبية كثيرة وهي تروي الصراعات المتعددة بين قبيلتي السان والباننتو.

الا أن ذلك لا يقضي على الحب إذ نرى مشاهد كثيرة تبرهن على ان فنانا ما قبل التاريخ الأفارقة لا يشعرون بأي خجل زائف أمام هذا المظهر من حياة مجتمعه. فلقد مثلت حيوانات عند تهيجها الجنسي، كما هو الشأن في النتوء الصخري الجنوبي ببلاكا حيث نرى كركدين يشم أحدهما عضو الجنس الآخر. ونجد في مكان آخر تيسا يركب عنزة. وتبين مشاهد الجماعة الانسانية بتنوع أوضاعها. ان الانسان لم يبتكر شيئا مهما في هذا الميدان منذ الزمن القديم. وتمثل صخرة أهانا في وادي جرات (تاسيلي) مهرجان رجال مقنعين لهم ذكور هائلة منتصبه على حافة فروج نساء قابعات

قبوع توليد. وجميع التفاصيل موفرة. ولقد خصصت اللوحة الكبيرة في تين للان بالأكاكوس (ليبيا) لذلك الموضوع الاباحى (هوغو-برغمان، عدد ١٦٤). وفي (أنا هوانرات) نرى مشهد مجامعة أكثر ابتذالا، ونرى في تيمنزوز ين (تاسيلي) زوجين يتجامعان وبقربهما وقف ثلاثة رجال وثلاثة نساء وقد عبر الراسم تعبيراً دقيقاً عن مقاومة النساء المصطنعة.

عندما ندخل ميدان السحر والدين، نكون مضطرين الى الاعتراف بأن عددا كبيرا من اللوحات مازالت غامضة تماما، لأنها مغلفة في خفايا الأساطير. فإذا تمثل الثيران ذوات الرأسين، أو التي نراها في وادي جرات ولها جسم مزدوج مخنث يحمل، أسا واحدا؟ وماذا تعني اللوالب المنقوشة نقشا بديعا والتي لها صلبة بجوانات كثيرة كالتي نراها على الحيرم في وادي جرات؟ ان ذلك الرسم الذي نجده على الفخار الغرزي يبدو متصلا بشعائر الصيد (الأفتان)، وكذلك الشأن بالنسبة للولب الشعبان (ميهون) المعروف في الحقبة الثنية (الأسرتان الفرعونيتان الأولى والثانية) (٢٥). ويرى بعضهم أن اللولب يعني تواصل الحياة. أما الحبل السري الذي يربط بين شخصين ابتداء مثلا من تلاقي فخذي امرأة لينتهي الى سرة نبال وهو يصطاد، فكأنه يعبر عن تيار روحي يندفع من الأم التي تصلي ويدها مرفوعتان، في اتجاه ابنها الواقع في خطر. ونرى كذلك في افريقيا الجنوبية (بوتسوانا) حيوانا يبشر بالمطر قد سيق عبر البلاد بجبل اعتصم به موكب من الأشخاص ذوي الحزم. وتناسب المواضيع الشمسية الى نفس التراث الديني، الا أن الرجوع الى المحيط الثقافي الخاص بافريقيا هو الوحيد الجدير بتوفير حل لغز اللوحات التي ما تزال مبهمة. ذلك ما حصل عندما اكتشف أ. هبات با في مشهد بتين تزاريفت عرف حتى ذلك العهد بالثيران الارتسامية (لأن قوائمها تبدو مصغرة مثل الجذوع فظن أنها مرفوعة) اكتشف حيوانات تقاد الى المورد في حفلة اللوتوري بغية الاحتفال بأصل البقرات المائي. وعرف هبات با في الشكل المتصنع الغامض الممثل للأصبع الذي يجاوز المشهد السابق، عرف فيه أسطورة يد الراعي الأولى المسمى كيكالا، وهي يد تذكر بعشائر الفلانيين، وبألوان جلد الثيران والعناصر الطبيعية الأربعة (٢٦). ويدل التطور بصفة عامة على تحول السحر المرتبط أحيانا برقصات الدروشة، الى الدين الذي يدل عليه مقطع من الشريط المصور الكبير في عين اتينان الذي يعبر عن قربان كبش.

## علاقات وهجرات

يجب أن نشرك الاتجاه الى تفسير كل الملامح الثقافية الافريقية بالتيارات والتأثيرات الخارجية ولكن هذا لا يعني نكران العلاقات بل يجب تعريفها بكل حذر. ان الفن الجداري الفرنسي الكاتنبيري الذي يعود الى ٤٠٠٠ سنة تقريبا ينتسب الى العصر الحجري القديم. ولذلك فهو سابق لفن ما قبل التاريخ الافريقي، ويكون العصر الحجري الجديد الافريقي، عكسا لذلك سابقا لنفس

(٢٥) انظر أيضا دور الجلية في التشكويات الافريقية.

(٢٦) يجب ان نحتز من التخرجات التي تعتمد على الحكايات الاسطورية الحالية لتفسر كل الرموز الناشئة ما قبل التاريخ.

انظر: د. لاجوء المذكور سابقا.

العصر في أوروبا (٢٧). ولقد كان هناك ميل كبير الى القول بأن فناء القارة الافريقية كانوا يستمدون الالهام من الشمال، حتى قال بعضهم بفرن أوربي افريقي قد يكون نبع من أوروبا وذلك ما يوحي بنوع من النظرية الحامية في ميدان الفن الافريقي في ما قبل التاريخ.

## حضارة أصيلة

على أن الأمر ليس كذلك، فبقطع النظر عن كون ١٥٠٠٠ سنة على الأقل تفصل بين الحركتين الجماليتين، فمن البديهي ان الشرق الاسباني الذي كان من المحتمل أنه صلة الوصل في التأثير، لا يحتوي على أي شيء يمت بصلة الى الفن الاصلي بجنوب منطقة وهران، وبالتاسيلي أو بفزان وقد أكد ل. بلوط بقوة على انعدام العلاقة بين ما قبل التاريخ بافريقيا الشمالية، ومثيله باسبانيا في العصر الحجري القديم الأعلى. ومن جهة أخرى فلقد رفض كل المؤرخين تقريرا الأصل القابسي لنقوش منطقة جنوب وهران ونقوش الصحراء الكبرى. ان فن ما قبل التاريخ قد ازدهر انطلاقا من الأطلس وتعتبر وقائعه ومراكزه افريقية بحتة.

وهناك تساؤل أيضا عن امكانية اشعاع هذا الفن انطلاقا من الشرق، أو من ضفاف النيل تجاه داخل القارة، لكن الفن في الوادي المصري من النهر لاحق بدو شك لازدهار الفن الصحراوي والسوداني. فإن رسوم البقرات ذات الأقراص بين قرونها، أقدم بكثير في الصحراء من رسوم البقرة الإلهة هاتور... ويرجع تاريخ الصقر المنقوش نقشا دقيقا على صفيحة الصلصال بمحادة قير الى ما قبل الرسوم المائلة له، ولو أنها أصغر حجما، والتي تظهر على قبور مصر في عهد ما قبل الملوك، وتمهد لتمثيل هوروس. ان كبش بوعلام البديع ذا الكرويات يسبق بكثير كبش أمون الذي لم يظهر في مصر الا في عهد الاسرة المالكة الثامنة عشرة. وقد حكم ملرو على الرؤوس ذوات الأشكال الحيوانية التي شاهدها في وادي جرات بأنها كانت تمهد لتمثيل عبادة الحيوانات المصرية. وينطبق نفس الشيء على الإلهات ذوات الرؤوس العصفورية بجباران. فالأشكال الشبه الطبيعي لم يظهر في مصر الا في العصر الفرعوني، وهو ينتسب الى نقوش العصر البقري الصحراوية، وذلك أيضا شأن لوحات وادي حمامات ذات الصنع الرديء وتنتسب المراكب الرائعة «المصرية النوع» التي نراها في الصحراء (تين تزاريفت) بكل بساطة وبدون أدنى شك الى النوع الصحراوي. ويبدو لي أنه يجب ان نعيد النظر، ومن وجهة مختلفة تعتمد المنظور التاريخي، في اشباع راردس (تيسوكاي) التي تذكرنا «بالهيكسوس» «وفرعون» و«أنيتينا» وغطاء رأسه الذي يذكر «بابشنت الفرعوني». من الأكيد ان مصر قد اشعت ساطعا لكنه كان بلا شك محدودا في اتجاه وسط افريقيا. ان الشيء الذي يبدو أكثر وضوحا يتمثل في أسبقية حضارة ما قبل التاريخ الصحراوية، ويرجع ذلك أيضا الى انعدام أي حاجز — باستثناء المسافات — يمكن ان يفصل شعوب الهقار والتاسيلي وفزان عن ضفاف النيل التي ظلت مدة طويلة الى أن أصبحت الصحراء قاحلة منطقة منفرة كثيرة المستنقعات. ولم تبلغ أوج ازدهارها الا ابتداء من العصر التاريخي، وهي التي تجعلنا الى اليوم ننسب كل شيء الى

(٢٧) يعود العصر الحجري الجديد الصحراوي على الأقل الى الألفية الثامنة قبل الميلاد، وكان يعتقد منذ عهد ليس بالبعيد، بأنه متأخر بالنسبة لافريقيا الشمالية ومصر والشرق الأوسط هـ. هوت ١٩٧٦ ص ٢٢٧.

مصر حسب المبدأ القائل «لا تعطى القروض الا للأغنياء». لكن المراكز في ميدان الفن والتقنية كانت موجودة في البداية بالصحراء الكبرى والسودان الحارطومي وبافريقيا الشرقية والشرق الأدنى. ان صحراء ما قبل التاريخ مدينة أكثر الى مراكز الجنوب الشرقي منها الى الشرق الأدنى. أما العلاقات بين افريقيا الجنوبية والمنطقة الصحراوية فاننا لا نراها تتركز على براهين ملموسة وان كان فروبنوس قد أشار الى تشابهات عديدة (٢٨). وتكلم بعضهم عن «حضارة ماغوزية» يحتمل حسب هـ. هولم أنها شملت كل افريقيا وذلك ما لا يؤكد بهان. ومهما كان الأمر فان الانتاج الفني لما قبل التاريخ بجنوب افريقيا غالبا ما يبدو لاحقا لانتاج افريقيا الواقعة شمال خط الاستواء، وان كان استقرار الانسان بالجزء الجنوبي من القارة يرجع الى تاريخ قديم جدا (٢٩). وينسب بعض الكتاب عن خطأ كامل كما رأيناه في البداية، عصر التمثيلات الكبير المرتفع الدراكنسبورغ الى القرن السابع عشر أي بعد قدوم البنتو. ويبدو، اذا نظرنا الى الأسلوب، ان الرسم الجنوبي لا يمت بصلة الى العصر المسمى «عصر الرؤوس المكورة» في الصحراء، وليس له من صلة الا بعصر الشيران. ويمتاز أيضا بمواضيع خاصة كالنباتات الكثيرة والمناظر الطبيعية ذات الصخور المنمنمة والمواضيع المأتمية الخ.. ومهما يكن من أمر، يجب دفع الدراسة المقارنة الى الامام ويجب خاصة تجويد الاطار العام لتاريخ الانسان العارف الافريقي في ما قبل التاريخ قبل القول بوجود اتجاهات جمالية معينة.

## بسط النظريات العرقية

وتنطبق هذه الملاحظة أكثر ما تنطبق، على «الأجناس» المسؤولة عن خلق ذلك الانتاج الفني لكن، الا يوجد هنا تعسف لغوي عندما نستعمل مفهوم «الجنس»؟ (٣٠) وهل يمكننا بعض الهياكل العظمية وحطام العظام التي عثر عليها، من اختلاق سناريوات العمران من طرف «أجناس» ما قبل التاريخ لكن بعض الكتاب بسطوا التطور الديموغرافي المعقد على النحو التالي: وذلك أن نياندرتالين في الشرق الأدنى كانوا قد هاجروا الى افريقيا بعد تعمير افريقيا أصيل، وكان منهم فرعان: فرع وصل في تقدمه الى المغرب، والآخر اتجه الى الهضاب العليا في الشرق الافريقي، مروراً بالقرن الافريقي، وهذا الفرع يتكون من العاطرين من العصر الحجري القديم المتوسط. ويحتمل ان تكون وصلت بعد ذلك حتى شمال افريقيا موجة أخرى من الكرومانيونين في مرحلة لاحقة للعصر الحجري القديم الذي ينتسب احتمالا الى العصر السبيلي بمصر. فيحتمل أن يكونا قد احتويا على نواة ايبرية - مورويسية وعلى نواة قابسية. ويمكن ان تكون المجموعتان قد دخلتا العصر الحجري الجديد بعين المكان - لينشأ منها بالخصوص العصر الحجري الجديد ذو التقاليد القابسية

(٢٨) انظر أ. هابرلند، ليوفروبنوس، ١٩٧٣، ص ٧٤.

(٢٩) انظر الفصل العشرين من هذا المجلد، بقلم ج. د. كلارك. ويرى بعض المؤلفين ان انتشار الفن الجداري وقع من زبابوي، نحو بامبيا والكام، ثم نحو الترانسفال ومقاطعة أورانج. أما بالنسبة للرسم المتعددة الألوان المتطورة، فقد انتشرت مرة أخرى من زبابوي نحو بامبيا. انظر أ. ر. ويلكوكس.

(٣٠) يجب أن تقلب عملية التخصيص التي تحدث عنها ج. روني خاصة بعد التمازجات التي يسرتها البيئة المتكاملة بالاكومين الصحراوي. انظر الفصل ١١، الخاص بالأجناس والتاريخ بافريقيا.

الذي يوجد في مناطق عديدة منها شمال الصحراء الكبرى. وقد وفرت مراكز أخرى تنوعا ملحوظا في مستوى الصناعات والفنون، ويجب ان نشير خاصة الى الاشعاع الكبير الناشيء بالصور الحجرية الجديدة ذات التقاليد السودانية والغينية، والى ما صاحبه من المراكز الثانوية بتينيري و بساحل المحيط الأطلسي، بشمال موريتانيا (٣١). إن بعض الكتاب يرون أن العصر الحيرمي للفن الجداري من صنع أهل حوض البحر المتوسط غير المعرفين تعريفا كاملا، والذين يعتبرهم البعض بيضا ويعتبرهم البعض الآخر خليطا هجيناً. وقد ينسب العصر المعروف «بالرؤوس المكورة» الى «زنوج» يرى البعض أنهم تهجنوا فأصبحوا سمرا إثر اختلاطهم بشعوب الشرق الأدنى وأصبحوا من أهل العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية. وقد يكون عصر البقریات من عمل أسلاف قبائل الفلانيين، وفي النهاية يمكن أن نتحسس أثر التقاليد المعروفة بالغينية الموجودة أكثر جنوبا في المباني القائمة على منحدر تيشيت بموريتانيا. ولكن، تظل كل هذه الافتراضات هزلية، والحق يقال، وهي طبعاً لصالح الرأي القائل بالمساهمات الخارجية فيها. ولقد حدث أن تكلم بعضهم عن تأثير افرقي واضح في لوحة جدارية بالصحراء... الا أن هذه الافتراضات ترمي خاصة الى إقامة معادلات بين مفاهيم تختلف عن بعضها مثل مفهوم الجنس والسلالة ونمط الحياة والحضارة. و يتحدث بعضهم عن السود والبيض والفلانيين والافارقة والقباسيين والسودانيين بدون ان يحددوا بالطبع محتوى تلك العبارات. فهذا، مثلاً، لوط يني تأثير القباسيين (٣٢) على نقوش العصر الحيرمي، وان كان يصريح بأن في نقوش وادي جرات لا يوجد شكل زنجي واحد محض فكل الاشكال الواضحة هي بدون منازع أوربية. ويجب ان نفترض اذن بأن المسألة تتعلق هنا بالبيض، ونتوصل الى نفس النتيجة بعد درس أشكال بجنوب منطقة «وهران وبفزان». ولقد قال لي زميل من جنوب إفريقيا ذات يوم: «يا للأسف لكونها عاجزة عن الكلام» (٣٣).

ولقد استند بعضهم أيضاً الى نفس العلامات الهزيلة من الأشكال الانسانية لينسب عصر «الرؤوس المكورة» الى السود، وعصر البقریات الى قبائل الفلانيين، لكن تعريف الجنس هو في الغالب قائم أيضاً على أنماط العيش وعلى الثقافات، وذلك عين الضلال، ويعرف أهالي العصر الحجري الجديد ذوو التقاليد السودانية بأنهم من «عرق الصيادين الراعاة القادمين من الشرق». وتكفي «الملاح الرقيقة والتقنيات الرعوية وتسريحات النساء على شكل خوذة، والصفائر عند الرجال»، لينسب كل الفن الجداري الممثل لكل تلك الوقائع الى قبائل الفلانيين، وان كان هؤلاء لا يعبرون في الوقت الحاضر عن أي ذوق جمالي من هذا النوع كما أنهم لم يحافظوا على ما يذكر به، مثل ما هو الشأن عند السان مثلاً، وان كانت كل الطبقات وكل الأساليب وكل الأشكال الأنتروبولوجية تتداخل الى حد بعيد في اللوحات الجدارية ويمكننا الى اليوم في جل مناطق إفريقيا المدارية إعادة بناء سلسلة كل الأشكال الممكنة مشاهدتها في رسوم الصحراء (٣٤). وذلك بقطع النظر عن ان رساما فلانيا قد يكون صور راقصين مقنعين، أو ان فنانا «زنجيا» قد يكون مثل مشاهد

(٣١) انظر هـ. ج. هونغو، ١٩٧٤ ص ٦٢ وما بعدها.

(٣٢) انظر: هـ. لوط المذكور سابقاً ص ١١٠.

(٣٣) هـ. لوط، المذكور سابقاً ص ٤١.

(٣٤) ب. ف. طيباس، يشير ان كل الماندات وكل أشكال الجماجم توجد أيضاً عند الموتى بمقاطعة الكاب.

من الحياة الرعوية أو حوّل ملامح أبطاله وبطلاته مثلما يفعل ذلك بعض الرسامين السينغاليين اليوم. أفلم يصوّر رجال السان القصار في الغالب أنفسهم طوال القامة ونحفاء وذوي بنية صلبة؟ ان كل فن يعتبر اصطلاحا ولم يشاهد أي كان أبدا شعبا من السود ليس له الا «رؤوس كروية»، ومن جهة أخرى فهل كان تخصصهم «كفلاحين رعاة» على نفس الدرجة من البروز التي نراها اليوم؟ (٣٥).

فلقد قال هـ. ج هوغو في خصوص العصر الحجري الجديد الموريتاني ما يلي: ((عندما وصل سود تيشيت كانت ثيرانهم معهم)) وكتب في مكان آخر «شهدت المرحلة الرعوية المتوسطة قدوم عناصر زنجية وذلك هو العصر البقري الكبير المتميز بقطعان الثيران المصورة بكثرة» (٣٦) ولذلك فان الرعوية ليست حجة كافية، وكذلك القياسات الدماغية أو الانطباعات الذاتية المتعلقة باللامح. فليست الأجناس هي التي تصنع التاريخ. والعلم الحديث لا يحصر الجنس في خصائص جسمية سطحية (٣٧). ان كل «السيدات البيضاء» في الرسوم الجدارية الافريقية التي لم تبيض منها الا وجوهها، كما في جنوب افريقيا، تذكر القس بروي بأفاريز كنوسوس التي رأى فيها «عبور قوافل من الرواد القادمين من الخليج الفارسي»، لا تمثل في الحقيقة الا أشخاصا متعددين، وصيادين أو فتيات افريقيات خارجات من حفلات التنشئة كما يمكن أن نراها اليوم أيضا مرسومة بالصلصال الأبيض، لأن ذلك اللون هولون يفيد موت شخصية سابقة، والارتقاء الى مرتبة جديدة (٣٨). أما فيما يخص رسامي لوحات الفن الجداري بافريقيا الجنوبية، فانهم ما انفكوا محل جدال. الا ان القاعدة التاريخية أصبحت معروفة أكثر. فالأمر هنا يتعلق بعلاقات بين الحوي — حوي والسان أولا، ثم بين الحوي — سان والبستو. ويعبر عدد كبير من اللوحات عن تلك الديناميكية التاريخية. فالمقارنة الاحصائية بين الايدي المخطوطة والمرسومة على الحجارة تناسب قامة السان، كذلك الامر بالنسبة لتراكم الدهن وانتصاب الذكر الجزئي الخ.

أما نقوش عصر الخيول والعربات الحربية فهي ترجع الى العصر التاريخي. ولقد أمكن للبعض ان يتساءل، مقابل ذلك، عما اذا كانت الرسوم والنقوش من انتاج شعوب مختلفة، علما بأن الاولى قد أنجزت في المحابيء، والثانية فوق الهضاب. ولكن، يبدو أن هذا غير صحيح، اذ يتعذر على الرسامين في غالب الأحيان العمل في الهواء الطلق. فلو فعلوا ذلك لأمّحت تصاويرهم وزالت. اما النقوش فلقد كانت، مقابل ذلك يسيرة الانجاز على الدوليريت والديباز

(٣٥) «الملحوظ اننا لا نعرف معيارا واحدا صحيحا للتمييز بين أهل عصر الحريم وأهل العصر الأول الرعوي (البقري ١). ان وجود البقر يات التي كانت أهملت نهائيا منذ عصر الرسوم الطبيعية الجميلة يعيد الى أحقاب بعيدة ظهور المواشي». ت. م. موندو. يناير ١٩٥١.

(٣٦) هـ. ج هوغو، المذكور سابقا ص ٢٢٥ — ٢٧٤.

(٣٧) انظر: «الأجناس والتاريخ بافريقيا» حاشية الفصل ١١.

(٣٨) يعتبر كثير من المؤلفين، ان «السيدة البيضاء» في برنبارغ التي تحيد نفسها عن اللوحة الأصلية تمثل في الواقع شابا يدل عليه قوسه، وردفاه وذكره الظاهر مثلما هو الشأن غالبا عند قبيلة السان الذين يكون ذكرهم نصف قائم. أما فيما يتعلق بلونها، يجب أن نلاحظ ان وجهها ليس مدهونا بل عبرته بلون صخرة من عين المكان. ان لونها وردي من الرجلين الى الخصر ثم يصبح أسود في الأعلى. والحقيقة ان اللون لا يفيد شيئا اذ نجد قبيلة وقردة، ونساء لونهن أحمر ورجالا لونهن أبيض. انظر: أ. ر. و يلكوكس ١٩٦٣، ص ٤٣ — ٤٥.

والكوبنج، حيث تعطى مقابلة جميلة بين الزنجار الأمغر، والباطن الرمادي أو الأزرق الصخري. وهذا ما لم يكن ليحصل في جص الخبثاء بل اننا لنجد أحيانا رسوما ونقوشا في مكان واحد كما نجد نقوشا كانت قد طليت في بادئ الأمر مثلها هو الشأن في مقاطعة تركستاد. وفي بعض الأحيان نجد زيادة على ذلك نفس الاصطلاح الجمالي في كلا الصنفين من اللوحات.

## الميدان الجمالي

ان فن ما قبل التاريخ الافريقي يعتبر في الميدان الجمالي البحث، مصدر الفن الافريقي الحالي، الذي لم تستكشف جذوره بعد، الا قليلا، وما استكشف منه يعتبر بداية رائعة. نجد في فن ما قبل التاريخ الافريقي ثراء في الأساليب يمكن ان نتبع تطورها أحيانا تتبعنا شبه متصل حتى ندرك الابداعات الفنية لافريقيا الحالية والتي اقتبست كثيرا من الفن العربي والاوربي. ولكن يوجد الى جانب ذلك تراث قديم يكن طبعه في الخبثاء تحت الصخور، وفي أنفاق ما قبل التاريخ. ان الرسم يعتمد على بعض الألوان البسيطة مثل المغر الأحمر والأبيض والأسود والاصفر وعلى لونين ثانويين الأزرق والاخضر. واننا لا نزال الى يومنا هذا نجد هذه الألوان في تشكيلة ألوان الاقنعة وفي زينة الراقصين.

ان هذا الفن هو فن ملاحظة وانتباه شبه هيامي و يصبح أحيانا تعبديا أمام الواقع. فالتنقش والرسم يعبران جيدا عن هذا المظهر لكن ليس بنفس الطريقة، فنور اوغسبورغ (بتسوانا) الذي لم يبق منه سوى النصف الاعلى، يبرزه خط جيد الاتقان يكشف عن التفاصيل العضوية الدقيقة لكل من الحظم والعينين والشعر الخ.. وتعتبر زرافة الاينييري نحتا واقعيًا تام الشروط وقه ظهر تنقيط جلدها باستعمال ضربات المطرقة الحافرة حفرا رقيقا وذلك لابرز الخط المحيط بالرأس والحروف الوجنية والقرنين والعينين المكورتين والخشومين والحافرين بظلفيه وقرنه اللامع. ان الجانب الطبيعي ملحوظ في تقطيع الملامح باحكام، وفي النقش بالمطرقة التي تجود التفاصيل الداخلية، وكذلك في وجود زرافة صغيرة تستند الى أمها في حركة تلقائية مؤثرة.

ان تلك المهارة في الملاحظة توجد أيضا في جدارية ايهارن حيث تتلاصق دون أن تحتلط البتة لأن دقة الخط كانت على غاية من الاتقان، ست عشرة زرافة تجمعت تجمعا رائعا وأسراب من النساء المتزينات المسافرات وهن يركبن ثيرانهن الناقلة، وغزلان وظباء (دوركا، داما، أوريكس، وحيارم) تعرف بالتوالي اعتمادا على قرنيها الدقيقين وجلدها الأبيض وقرنيها الطويلين المتجهين الى الخلف ورأسها المستطيل، وفي نفس اللوحة نرى زرافة وليدة مربوطة بمشيمتها تبحث عن اترانها وهي منحنية، كما نرى أسدا قابضا على خروف بين مخالبه وهو يراقب رجلا مسلحين يطاردونه بينما كانت خرفان أخرى تفر مروعة و يقترب ثور من غدير ليشرب، مما أقفز بعض الضفادع. كل ذلك يعبر عن ارتعاش الطبيعة الحي والمؤثر وقد تسرب الى الانسان صاحب الملك.

لكن الاسلوب الطبيعي الميال للتفصيل لا ينفي البتة التعبير عن الاساس، واستعمال في التركيب المشهدي الذي يرجع الى نوع من المعالجة النحتية للرسم. ولذلك صورت الشخصية الأساسية حسب حجم كبير مما جعلها تسيطر على بقية الشخصيات التي صغرت نسبيا مثل أولئك



الصيادين الكبار المقتنعين الذين تطفئ قاماتهم على السباع، ومثل الفرعون الذي يطرح أعداءه أرضاً وكذلك الأوبا في بلاد بنين، الذي ظهر عظمياً بالنسبة لرعاياه. ولقد تولدت عن المعنى الاساسي الاشكال الرمزية التي تخالف تماماً فن البهرجة وهي الأشكال الرمزية إذا ضمنت الى الصنع النحتي، يتولد عنها الايقاع الخاص الذي يحرك الحيرم المرسوم بخط مجرد وبسيط، مثلما يحرك قطع الثيران بجيارن التي يخيل للانسان أنه يسمع وقع حوافرها الصاخب وتنفسها الساخن وخواراتها. (انظر لاجو) (الصورة).

## حاليّة فن ما قبل التاريخ الافريقي

تغلب على ذلك الفن الشعبي واليومي روح الفكاهة، وهي السخرية الباسمة أو المرة كما هو الشأن في الحياة. وهو بغموضه يرتعش ارتعاش المتعبد الصوفي يحمله محراف الفنان أوريشته، فيوفر عدداً من أروع آيات الفن العالمي. وذلك شأن الكبش ذي القرص الشمسي (كبش بوعلام) الذي تعبر هيئته الكهنوتية عن الأسرار وتدعو الى الخشوع (٣٩) وتدل تلك المعالجة المزوجة على وضعية الانسان الافريقي المعاصر المزوجة والمتشكلة في عفويته التي تكاد تكون فظة كما هي في الحياة اليومية، أو في وقاره وتصوفه الشديدين عندما يستولي عليه ايقاع رقصة دينية.

وفي الجملة فان فن ما قبل التاريخ الافريقي لم يندثر، بل هو حي معاصر، حتى ولو لم يكن الا من حيث أسماء الأماكن التي ظلت باقية. ويوجد واد رافد لودي جرات يدعى تين تهد، أي مكان الأتان، وتوجد به صورة منقوشة جميلة لحمار. ولقد اشتهر ايسوكاي، ان أقلا بالأرواح التي تسكنه (الجنون). وقد يعود ذلك الى انه يوجه به كائن له شكل حيوان مربع، يجمع بين سمات الثعلب والبوم، بقطع النظر عن ذكره الضخم، أما ركام من الاحجار المكون من حجارات بركانية ملفوفة. ويستحق ذلك الفن ان يدمج من جديد اعتماداً على البرامج المدرسية في حياة الأفرقة الذين فصلوا عنه بمسافات لا يسلكها سوى إخصائي الاقطار الغنية وخبرائها.

وينبغي ان يصان ذلك الفن بغيرة من التدهورات المتنوعة التي تهدده يوميا لأنه يمثل تراثاً لا بقدر ثمنه (٤٠) وينبغي ان يجمع في مدونة عامة حتى يتيسر تحليله تحليلًا مقارنًا.

فالفن في الحقيقة هو الانسان ذاته. وما دام فن ما قبل التاريخ شاهداً أميناً على الانسان الافريقي الاول، من محيطه البيئي الى احساساته السامية، وما دامت الصورة تفصح أحياناً مثلما تفصح الكتابة، يمكن لنا ان نحزم بأن الفن الجداري الافريقي هو أول كتاب تاريخ لهذه القارة الا أن الأمر يتعلق بشاهد غامض وصعب المنال يستوجب ان يدعم بمصادر اعلامية أخرى مثل علم الاحاث وعلم المناخ والهندسة المعمارية والرواية الشفاهية الخ.

(٣٩) من الملاحظ ان المؤلفين يشيرون ببلاط امبراطور مالي، في القرن الرابع عشر الى كبشين مهمتها حراسة الملك من العين. و يشار أيضاً الى الكبش في بلاطات افريقية أخرى مروى، بلاد اكن (غانا) كبة (الزايير)، كتم (تشاد).

(٤٠) ،لقد صدر سنة ١٩٧٤ مرسوم حكومي جزائري يعتبر مجموع منطقة الرسوم والنقوش بتاسيلي متحفا قومياً.

ان فن ما قبل التاريخ لا يكشف في حد ذاته الا عن الجانب الملحوظ من الجليد العائم على سطح البحر. فهو يرسم على اللوحة المعدنية المجمدة في المحايء الحجرية، وتلك الصورة المرتسمة تمثل مشاهد حية أصبحت الى الأبد في غياهب التاريخ. فالفن انعكاس ومحرك. فالإنسان الإفريقي قد أعلن في فن ما قبل التاريخ ولكل العصور عن كفاحه المستميت من أجل السيطرة، على الطبيعة وكذلك عن تحرره الواعي من تلك الطبيعة للوصول الى فرح لا حد له، فرح الخلق ونشوة الإنسان المبدع.

## الفصل السابع والعشرون

# بداية التقنيات الفلاحية وتطورها وانتشارها

بقلم: رولان بورتير وجاك بارو

إن الأفكار الراسخة حول أصول الفلاحة بقيت مدة طويلة متلونة بالتمركز العرقي أشد التلون. ذلك ان الناس كانوا، ولا يزالون، ينظرون أحيانا الى الشرق الأدنى — المهد الزراعي والرعي الذي قال عنه غوردن تشايلد (١) بأنه مركز العصر الحجري الحديث — ينظرون اليه لا باعتباره مكان نشأة فلاحة الحبوب الهامة (قمح، شعير..) وتربية المواشي (ماعز، غنم، ثم بقر..)، وهما يمثلان القاعدة المادية للحضارة البيضاء، فحسب، بل باعتباره أيضا نواة الحضارة وموطنها الاول، لاسيما فيما يتعلق «بالعالم القديم». إن الأبحاث الأثرية التي أجريت منذ الحرب العالمية الأخيرة — وخاصة في غضون العشرين سنة الأخيرة — قد ساهمت بدون شك في تعديل هذه النظرة الضيقة المغرورة تعديلا جزئيا. فلقد بينت فعلا أهمية «الهلل الخصب» في تاريخ الفلاحة العالمية (٢) وأبرزت أيضا دور أجزاء أخرى من المعمورة في هذا التغير الهام في تاريخ البشرية، وهو تغير قد نشأ عن إنتاج المواد الغذائية التي لم تستملك الى حد ذلك الوقت الا في الوسط الطبيعي، فظهر بوضوح وجلاء مدلول الاختراعات الزراعية ومعنى تأهيل النباتات بأمرىكا (٣) كما ظهرت السابقية النسبية للمهد الفلاحي بجنوب شرقي آسيا المدارية (٤) كما ظهرت أخيرا المساهمة التي قدمتها افر يقيا لتاريخ هذه الفلاحة العالمية.

(١) ماذا وقع في التاريخ ط ١٩٤٢ (ثم أعيد منقحا ١٩٥٤) مطبعة باليكان، بنغوين بوكس.

(٢) انظر: مثلاً ر. ج. برايدود ١٩٦٠.

(٣) انظر: مثلاً في هذا الموضوع ر. س. ماك نايش، ١٩٦٤.

(٤) انظر: بارو ١٩٧٥.

الا أنه منذ ما يقرب من نصف قرن، كان ن. أ. فافيلوف (٥) العالم الفلاحي والتكويني الروسي المشهور، قد اعترف بوجود مراكز لأصل النباتات المزروعة بأفريقيا، ثم بين بعد ذلك أحد مساعديه وهو أ. كوبتسون (٦) انه كانت توجد بأفريقيا أمهاد فلاحية أولى. وبعد سنوات قليلة ضبط أحد الدارسين بمركزنا موقع تلك الأمهاد وعددها ودورها (٧).

الا أن نوعا من الأفكار المسبقة المتولدة عن الاستعمار وكذلك الجهل بأصول العديد من المكونات الزراعية الأفريقية، وبصفة أعم بما قبل تاريخ هذه القارة، جعل الناس، ولمدة طويلة ينتقصون أو حتى يجهلون الدور الذي قامت به أفريقيا في تطوير الفلاحة وتقنياتها ومواردها.

والملاحظ ان هذه الوضعية قد تبدلت فعلا اذ بدأ يظهر منذ سنوات اهتمام حقيقي بدراسة أصول الفلاحة الأفريقية كما تشهد على ذلك مثلاً المحاولات المنشورة سنة ١٩٦٨ بالانثروبولوجيا المعاصرة (٨) والعديد من التعاليق التي أثرت حولها، كما يجب ذكر الدراسات التي جمعها في هذا النطاق كل من ج. د. فاج. ور. أ. أوليفر (٩)، وأيضا المساهمة التي قدمها أخيرا و. ج. ل. رندلس لتاريخ حضارة البانتو (١٠). ولكننا قبل أن نحاول تقديم خلاصة موجزة للمعلومات المتعلقة بما قبل تاريخ الفلاحة الأفريقية وبتاريخها، يجدر بنا أولا أن نعطي بسطة إجمالية نصف فيها الإطار البيئي الذي ظهرت فيه.

## الأوساط الطبيعية للفلاحة الأفريقية وأصولها

انه لمن البديهي أن أصول التقنيات الفلاحية وتنوعها وتطورها كانت متصلة اتصالا وثيقا بمحالات الاوساط الطبيعية التي توجد فيها (الطقس — المياه — التضاريس — الأرض — النبات — أنواع النباتات المستعملة أصلا — نوع المواد الغذائية المتوفرة...) وإذا كانت هذه العوامل التي أوجدتها الاوساط الطبيعية قد قامت بدور هام بل أساسي في تكوين الزراعة والرعي، فانها لم تكن مع ذلك هي الوحيدة، ذلك ان هذه التطورات تفرض أيضا وجود مظاهر ثقافية وحضارية عديدة. وفعلا، فحتى في العصور السابقة للعهد الفلاحي ولأصول الفلاحة فان الانسان — أثناء هجراته وتنقلاته — قد حل معه أدواته وتقنياته وطرق إدراكه وفهمه للبيئة، والأساليب التي بها يستعمل المكان وبهيشه... كما حل معه أيضا جملة من المواقف والتصرفات التي تولدت عن علاقاته بالطبيعة في الأماكن التي نزل بها من قبل. ففي الوقت الذي كانت فيه أوربا تكاد تخرج من العهد الحجري القديم، كانت الفلاحة النباتية وتربية الحيوانات قد تركزت في الشرق الأدنى، حيث ظهرت المدن

(٥) ١٩٥١ — ن. أ. فافيلوف.

(٦) ١٩٥٥ — س. د. درلنغن ١٩٦٣.

(٧) انظر: ر. بورثير ١٩٦٢.

(٨) أ. دايغيس: أصول الفلاحة بغرب إفريقيا، ه. ج. هوغو: أصول الفلاحة: الصحراء د. سدون: أصول الفلاحة وتطورها بشرق إفريقيا وجنوبها.

(٩) ج. د. فاج ور. أ. أوليفر ١٩٧٠.

(١٠) و. ج. ل. رندلس، ١٩٤٤.

الأولى. ومن هذا الشرق الأدنى وصلت الى أوروبا — التي كانت آنذاك متأخرة نسبيا — الاختراعات التقنية والافكار المصاحبة لها التي تسببت في ثورة العصر الحجري الجديد المرتكزة على الفلاحة وتربية الحيوانات.

ان هذه الظواهر المتشابهة من حيث الانتشار والتبادل، قد حدثت في أماكن أخرى من العالم وبأفرق أقطاب، بسبب الرحلات والهجرات البشرية المتوافدة إليها أو التي خرجت منها وللتى حدثت داخلها.

على أنه يجدر بنا أولا أن ننظر جليا فيما تضمنته الاختراعات الزراعية والرعية وكذلك تأهيل النباتات والحيوانات. فهذا الانتقال من التملك (قطف الثمار وصيد الحيوانات) الى الانتاج (الزراعة وتربية الحيوانات) قد جعل الانسان يتحرر تدريجيا وجزئيا من الصعوبات التي فرضتها النظم البيئية التي ينتمي اليها أو التي كان يعيش فيها قبل ظهور الفلاحة وتربية الحيوان، عيشة تقترب من عيشة «الوحدة الحيوية»، مثله مثل الأجسام الأخرى وذلك حسب المجرى العادي الخاص بالأشياء الطبيعية.

ان هذا التغير الاساسي المتمثل في ظهور الفلاحة وتربية الحيوان قد تجلى بتكيف الانسان وتأقلمه مع المحيط الطبيعي المتنوع الذي يسمح لمركبات بيولوجية أن تنتج أكثر، وأن تنتج أشياء أخرى غير التي تنتجها طبيعيا. وباعتبار أن الانسان أصبح فلاحا أو مربيا للمواشي، فقد طرأت تحولات متفاوتة على الأوساط الطبيعية كما طرأ توجيه كمي أو نوعي على انتاجها.

الا ان الانسان مهما كانت سيطرته على عناصر هذه الأوساط الطبيعية، فانه لم يستطع بصفة فجائية وشاملة أن يتحرر من كل العراقيل. ولذلك وجب ان ننظر أولا الى الصعوبات الناشئة عن خصائص تلك الأوساط الطبيعية، والتي قامت بدور أساسي في حجب ما قبل تاريخ الفلاحة وأثناء تاريخها. وفيما يتعلق بالقارة الافريقية يجب علينا ان نقدم نبذة عامة يكون لنا بواسطتها إلمام عام بالمحيط وذلك أن افريقيا تبدو مقسمة الى شرائط واسعة على خطوط العرض، مختلفة من حيث البيئة، ومتناظرة بالنسبة لجهتي خط الاستواء.

ان بعض هذه الشرائط كما لاحظ راندلس (مصدر مذكور) كانت تقوم بدور الحواجز بالنسبة لتيارات الانتشار القادمة من الشمال الى الجنوب، وذلك شأن الصحراء والغابة الاستوائية الكبيرة و «السباسب» التانزانية و صحراء كالا هاري. وبالعكس من ذلك فان الشرائط الأخرى قد فتحت مجالات لتلك التيارات الانتشارية التي كانت تجد فيها أوكارا مناسبة لها. وهذا ما وقع في السباسب الكائنة بالشمال والجنوب. على ان «راندلس» لاحظ أنه لا يوجد من تلك الحواجز حاجز واحد يتعذر عبوره اطلاقا باعتبار ان الصحراء والغابات الكبيرة مثلا قد سمحت ببعض التنقلات البشرية.

ان خطوط العرض بافريقيا ليست هي العامل الوحيد الذي يمكن من تحديد المناطق البيئية الكبرى تحديدا عاما، بل هناك التضاريس والمرتفعات التي تتدخل معها في تقسيمها. فخط قم المرتفعات الرابطة بين الزاير والنيل يفصل الاراضي المرتفعة بشرق افريقيا عن شبه سهل الغرب الافريقي، مع العلم ان هذا الأخير يقسمه محور صغير قائم، يمتد من جزيرة برنسيب الى التشاد. في هذا التقسيم البيئي على أساس خطوط العرض، للقارة الافريقية توجد بعض الحالات

الاستثنائية التي قد تكون أهمها المرتفعات الممتدة موازية للريفت (Rift) من شمال بحيرة فكتوريا الى جبال مونسنا والتي، حسب ما ذكره راندلس، تمثل ممرا ضيقا ظاهرا يسمح بعبور حاجز خط الاستواء (الخريطة رقم ١). وبالإضافة الى ذلك فهناك «المعقل» الأثيوبي الذي سنبين فيما بعد دوره في الأصول الافريقية للنباتات المزروعة.

واذا رتبنا الآن هذه المعطيات المختلفة، رغم كونها لم تتجاوز بعد مرحلة العموميات، فإن افريقيا تبدو لنا وكأنها تحتوي شمالا وشرقا وجنوبا وحول محور الغابات الاستوائية، على منطقة تكاد تكون دائرية من السباسب والسهوب، ثم شمالا وجنوبا على منطقتين قاحلتين هما الصحراء، وصحراء كالاهاري، وأخيرا في أقصى الشمال وأقصى الجنوب على منطقتين تكادان تصلحان مناخيا للإنسان، بل يمكن عند تبسيط الأمور تبسيطا كبيرا، يمكن القول بأنها تجمروسطية بالمعنى المناخي للكلمة، مع الإشارة الى بعض الخصائص البيئية في أقصى جنوب افريقيا. (خريطة رقم ٢). وانطلاقا من «قلب» الغابة الاستوائية وبقطع النظر عن المناطق الساحلية يحصل لنا بصورة عامة، مما ينتقل من الرطب جدا نحو الجاف جدا ومن «النظم البيئية المعممة» من نوع «الغابة المدارية الرطبة» الى «النظم البيئية الأكثر اختصاصا» من أنماط السباسب والسهوب والنباتات الصحراوية (١١).

وفيا يتعلق بالفيافي، وبعبارة أدق فيما يتعلق بالصحراء، علينا ان نذكر هنا — وان كان الامر قد أصبح معروفا جدا — بأن هذه الصحراء لم تكن منذ أن وجدت صحراء قاحلة كما هي عليه الآن، إذ الفلاحة وتربية المواشي قد وقعتا فيها سابقا، بل ان العديد من المؤلفين (١٢) قالوا بأنها كانت مهدا للحياة الرعوية والزراعية.

فلنعد الآن للصورة البيئية التي رسمناها منذ حين للقارة الافريقية، فيمكن — حسب رأينا ان نتصور أنه، في الأزمنة القديمة السابقة لفترات الفلاحة أي في النظام البيئي المعمم للغابات الاستوائية الكبيرة، كانت تستعمل أولا أشكال من القطف والقنص يمكن تشبيهها من حيث بعض جزئياتها التقنية بالطرق التي يستعملها في أيامنا هذه البيغمي. ونلاحظ ان الموارد الغذائية والنباتية والحيوانية لهذه النظم البيئية لا تقل تنوعا وفرة عما هي عليه مركبات وحداتها الحيوية.

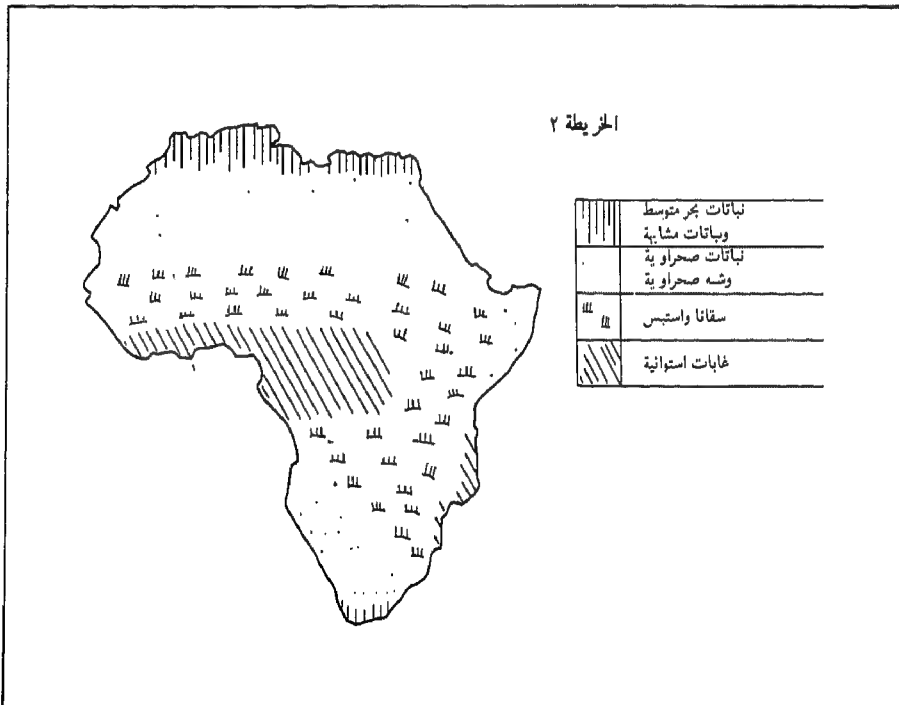
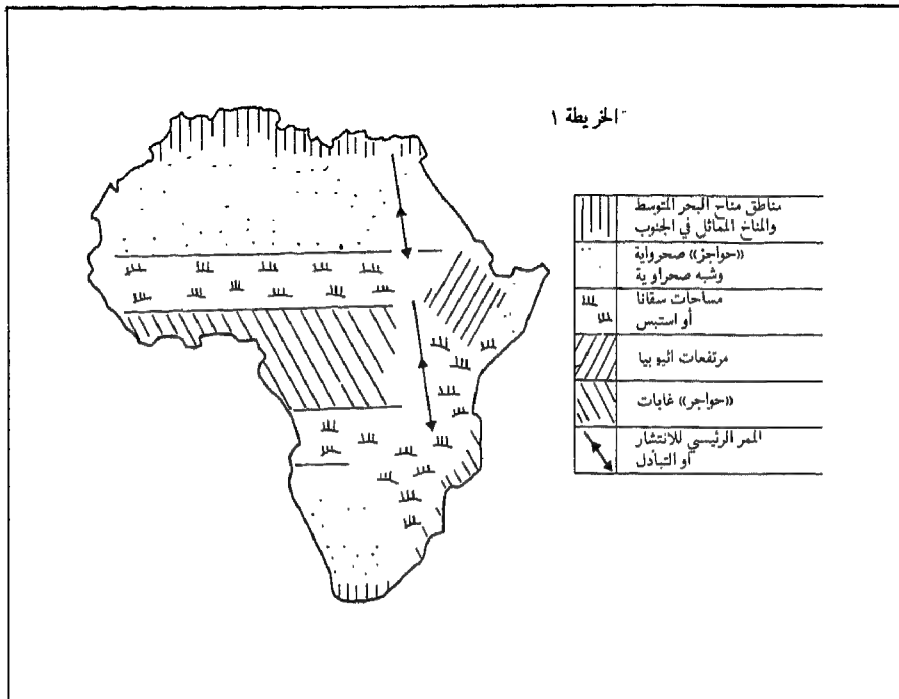
ان الملاحظات التي استطعنا تسجيلها في شأن الاقتصاد المعاشي لمجموعات البيغمي قد بينت لنا ان هذه الموارد — نظرا لكثافة هذه المجموعات الغابية — كانت قادرة على تأمين معاشها بدون ان يكلفهم ذلك جهدا كبيرا.

ان نفس الملاحظة تطبق من جهة أخرى على حال الجانين الصيادين بالنظم البيئية الأكثر اختصاصا في المناطق القاحلة أو الجرداء مثل مناطق قبائل سان، وكونغ، بصحراء كالاهاري الذين درسهم ر. ب. لي (١٣) الا ان الموارد بالنسبة اليهم كانت أقل تنوعا وان التزود بالماء كان عاملا

(١١) انظر: فيما يتعلق بعبارة «النظام البيئي المتخصص» و «النظام البيئي المعمم»، د. هاريس ١٩٦٩.

(١٢) انظرا مثلا: أ. شوفاليي ١٩٣٨، ه. ج. هونغو المذكور أشلاه - وج. ج. هستر ١٩٦٨.

(١٣) ١٩٦٦.



- الخريطة ١: توزيع المناطق الايكولوجية حسب خطوط العرض
- الخريطة ٢: النظم الإيكولوجية المختلفة

حدةً من تلك الموارد، لأن تغير كمياته الفصلية قلل من استثمار الموارد التي لا يستفاد منها إلا بحسب قرب مواقع الماء.

ولكنني نرجع الى ماضي افريقيا في حقبة ما قبل العهد الفلاحي، فلنذكر أنه — بعد نهاية العهد البلستوسيني — حدثت فترة رطبة تسمى «الماكالي» (من ٥٥٠٠ الى ٢٥٠٠ قبل الميلاد) قد يستر الاتصال بين سواحل البحر الأبيض المتوسط ومناطق جنوب الصحراء، وفي نفس الوقت، يستر حالة مجاري المياه والبحيرات — حتى في قلب القارة — كما يستر تطور صيد الأسماك، أي استقرار نسبيا للسكان الذين يمارسونه، فكانت ظروفًا ملائمة لتنتقل متدرج نحو الانتاج الفلاحي (١٤). وكان آنذاك قد حصلت، انطلاقًا من مهد الفلاحة بالشرق الأدنى. والبحر الأبيض المتوسط — انتشارات ساهمت بدون شك في تقدم تلك العملية بسرعة (١٥).

وبداية من العهد البلستوسيني، أي حوالي ٩٠٠٠ سنة ق. م وفي مطلع الماكالي وجدت — كما يبدو — في القارة الافريقية مواطن متميزة لجني الثمار المكثف نسبيا والذي سمح بدون شك بتكون تجمعات بشرية محدودة، فكان ذلك شأن المناطق المتقابلة من الغابة والسهاب، بمحاذاة قلب الغابة الاستوائية والأنجاد العشبية بشرقي افريقيا، وفي المناطق القريبة من البحيرات والمجاري المائية الرئيسية مثل نهر النيل، وكذلك بالمناطق الساحلية في شمال وجنوب القارة الافريقية (١٦).

وقد كانت مناطق العبور هذه وخصوصا المناطق التي تتقابل فيها السهاس والغابات كانت فيما بعد أوكارا ممتازة للتطورات الثقافية، وبالتالي لبعض من الحضارات الافريقية، اذ لاحظ رندلس (انظر أعلاه) في هذا الصدد بأنه «في حدود السهاسين (الساحل وتقوم الغابة) توجد حضارات البانتو الشهيرة».

يجب علينا الآن ان ننظر الى امكانية تأهيل الأعشاب التي وفرتها تلك القارة الافريقية، فالمنطق البيئي يتطلب منا ان نعتبر في البداية العناصر المنتجة الأولية أي النباتات.

## الأصل الافريقي لبعض النباتات المزروعة

ان علوم الطبيعة لم تول أصل النباتات المزروعة ما تستحق من أهمية الا حديثا، ذلك أننا اذا ما استثنينا المؤلف المهم الذي وضعه العالم أ. دي كندول والمنشور سنة ١٨٨٣، فإن الطريقة التأليفية لم تتطور على المستوى العالمي الا بعد أعمال العالم النباتي الروسي ن. أ. فافيلوف وفريقه، بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧، وذلك لطرق هذه المسألة ذات الأهمية البالغة في تاريخ الانسانية ولتهيئة الأوساط الطبيعية والتصرف في مواردها (١٧). فلقد تمكن فافيلوف ومساعدوه من التعرف على وجود ثمانية مراكز لأصل النباتات المزروعة (وفيها — حسب فافيلوف — ثلاثة مراكز ثانوية، أي أنها كانت مرتبطة بمراكز جهوية هامة). وتوصل الى هذه النتيجة بالجمع بين استقراء شامل للمعطيات

(١٤) في موضوع استقرار صيادي الأسماك، وما له من علاقة بأصول الفلاحة، انظر س. أ. سوار ١٩٥٢.

(١٥) انظر: ج. دسموند كلارك ١٩٧٠.

(١٦) انظر: ج. دسموند كلارك ١٩٧٠.

(١٧) انظر: المصدر المذكور، حول آثار فافيلوف الواسعة، ١٩٥١.



الزهرية والجغرافية النباتية، مع استقصاءات فلاحية نباتية ودراسات تكوينية. و يوجد في إفريقيا مركز واحد من تلك المراكز ويسمى بالمركز الحبشي (الأثيوبي) في حين أن مركزاً آخر — يسمى بمركز البحر المتوسط — يوجد على سواحل البحر الأبيض المتوسط وهم إفريقيا بصفة جزئية (شمال إفريقيا ومصر) وله مع ذلك ارتباطات بالمركز الواسع الهام الموجود بالشرق الأدنى، الذي ظهرت فيه من النباتات المزروعة — كما سبق أن قلنا — الحبوب الأساسية (قمح، شعير، شيلم...).

وفيما يتعلق بإفريقيا، فإن هذا يعتبر تقدماً محسوساً بالمقارنة مع ما توصل إليه كاندول (المذكور أعلاه) الذي لم يحدد للفلاحة والنباتات الأهلية إلا ثلاثة مراكز أساسية وأصلية، وهي الصين وجنوب غربي آسيا (مع الامتداد إلى مصر) وأمريكا. وهذا ما يجعل مساهمة فافيلوف لمعرفة أصل النباتات المزروعة ذات أهمية بالغة في المستوى النظري، ذلك أنها أوضحت أنه في نطاق البحث عن أصل نبتة مزروعة، يجب أن نفرق بين موطن أو مركز التغير الأول المتميز بتنوع كبير في أشكال النبتة مع ظهور بارز جلي للصفات الغالبة، وبين مناطق التغير الثانوي الذي يمتاز بكثرة الصفات المتقلصة الضامرة في موطن التغير الأول.

إن ضبط النطاق الجغرافي لمواطن التغير وتوزعه يسمح بتحديد مناطق المهد الفلاحي وذلك أنه، إذا كانت مساحات تلك المواطن تتطابق وتتداخل كلياً أو جزئياً، يحق لنا أن نرى أن عدة حضارات كانت مدة طويلة من الزمان، تمارس في منطقة التلاقي تلك، نشاطاً تأهلياً ونحويلياً سلطته على تلك النباتات التي نتحدث في شأنها.

ولنبوضح الآن نقطة أخرى ذات أهمية: إن المركز الأصلي النباتي لنوع من أنواع النباتات المزروعة لا يتطابق حتماً مع مساحات التغير هذه، والمرتبطة بتدخلات الإنسان في المادة النباتية. وبعبارة أخرى فإن المنطقة التي توجد فيها الأسلاف المحتملة للخلف النباتي كثيراً ما تختلف اختلافاً واضحاً عن المنطقة أو المناطق التي ظهر فيها عن طريق تدخل الإنسان ذلك الخلف النباتي، هو نبتة ناشئة عن التأهيل والانتقاء والتنوع.

وهذا له على الأقل سبب واحد ينحصر في العهود القديمة، في تنقل الأسلاف البرية تنقلاً متكرراً خارج مواطنها عندما تستعمل في الجني البسيط (١٨).

فلقد استطاع أحدنا بالنسبة للقارة الإفريقية أن يكمل الجدول الذي قدمه فافيلوف (١٩) وبذلك نكون قد بينا وجود موطن في غرب إفريقيا وآخر في شرقها، فضلاً عن الموطن الحبشي والجزء الإفريقي من الموطن البحر المتوسطي. على أنه يمكن اعتبار موطن شرقي إفريقيا امتداداً للموطن الحبشي في المرتفعات الاستوائية (٢٠).

فاذا ما نحن جمعنا ولخصنا المعطيات المتعلقة بهذه المواطن أو المراكز المختلفة التي تم أصل النباتات المزروعة وتنوعها فإنا نحصل على الجدول التالي:

(١٨) انظر: ج. بارو ١٩٦٢.

(١٩) انظر: ر. برتر، ١٩٥٠، ٩، ١٠، ١٩٥١، ٢٣٩ — ٢٤٠.

(٢٠) انظر: في هذا الموضوع ر. شنابل ١٩٥٧.

## مركز البحر المتوسط

ترتبط بهذا المركز مجموعة كاملة من النباتات المزروعة التي تمتاز بها مناطق البحر الأبيض المتوسط، من ذلك الحبوب (قمح وشعير خاصة) والخضروات الحبوب الصالحة للاستهلاك (الحمص والعدس، والجلبان والبيقية). وهذه النباتات تدل على وجود قرابة بين هذا المركز ومركز الشرق الأدنى. كما نجد فيه زمرة النباتات المولدة البحر وسطية التي منها الزيتون (الزيتون الأوروبي ل) والخروب. إلا أن البعض من هذه النباتات تختص بها إفريقيا مثل شجر اللوز البربري (أوغانيا سدروكسيلون روم) وهو شجر مغربي يوفر الزيت وصمغ البريد. ويشمل هذا المركز مصر التي لها علاقات واضحة بمركز الشرق الأدنى والتي كان لها تأثير هام في تاريخ الفلاحة وتربية الحيوان بالشمال الأفريقي. فمصر تتقاسم مع الشرق الأدنى السوري أصل نبات له أهمية اقتصادية أكيدة وهو البرسيم أو تفل الاسكندرية. وإذا كان هذا الجزء الأفريقي الكائن في وسط سواحل البحر المتوسط لم يقيم بدور مباشر في التاريخ الفلاحي لإفريقيا الاستوائية فإنه قد أثر تأثيراً عميقاً في الصحراء عندما طرأت عليها فترة مناخية مواتية للتنمية الزراعية والرعية (٢١).

## المركز الحبشي

ونجد فيه قرابة نباتية توليدية مع مركز الشرق الأدنى (قمح، شعير، خضر من نوع الحمص والعدس، والجلبان، والبيقية، إلى غير ذلك)، ومع المراكز الأفريقية (الذرة البيضاء) التي ستكون موضوع حديثنا بعد حين. ويبدو من الواضح أيضاً أن النباتات الآتية من آسيا المدارية قد مرت من هذا المركز عند تغلغلها في إفريقيا. على أن هذا المركز كانت له نباتات مولدة يختص بها ومنها شجرة البن العربي وشجرة الموز الحبشي والتف الحبشي والغيوتيا الحبشي، أو النيجر ذو الحبات الزيتية.

## مركز شرق إفريقيا

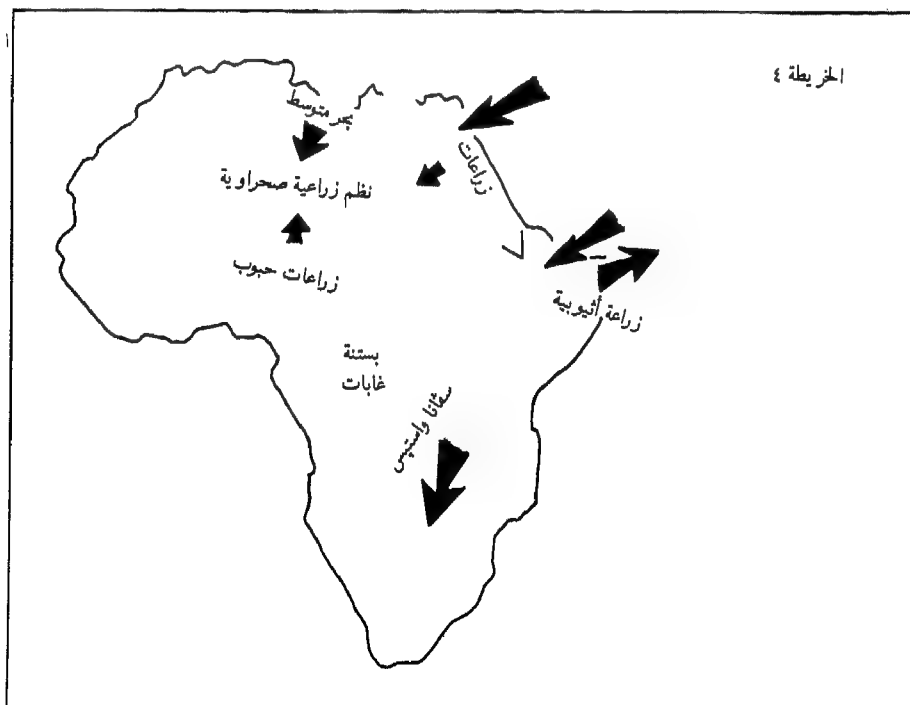
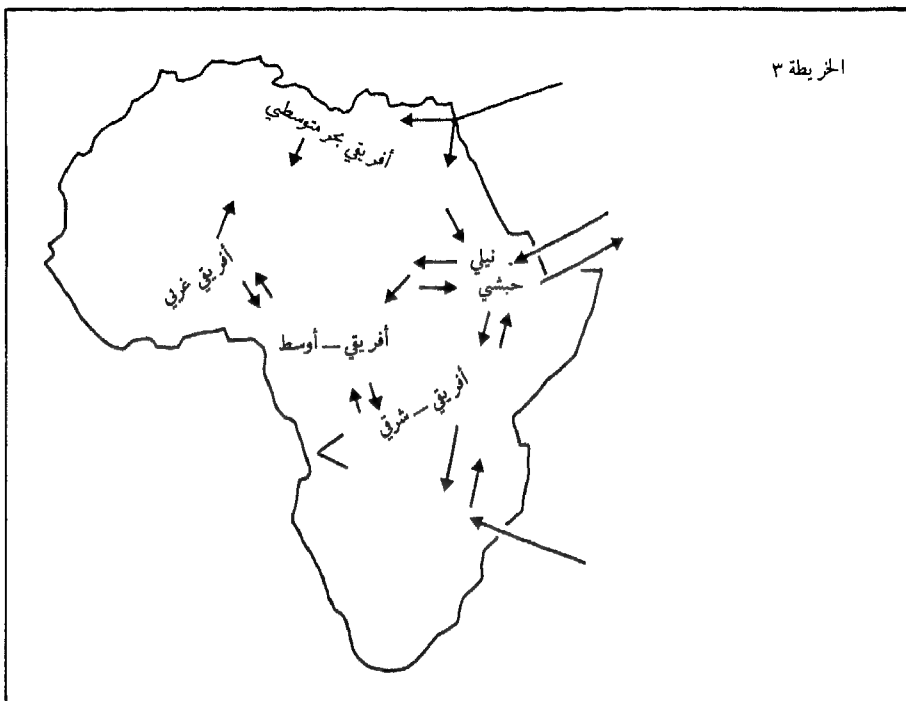
يمتاز بأنواع من الذرة المختلفة ابتداء بالذرة والذرة ذات الشك القلبي والدخن الذي منه الأليوزين كركناغارتن والسسم.

## مركز غرب إفريقيا

نجد فيه أصل مختلف أنواع الذرة المشتقة من الذرة المشابهة للقصبة والذرة ذات الشكل القلبي مثل أنواع الذرة الريشية والهوب (Hubb) أو أيضاً الذرة الريشية الغمبية والهوب وكذلك أنواع من الذرة ذات الشكل القمعي التي منها الأيبورو، والأيبورو القمعية والفونيو والأكسيليس القمعي وكذلك مختلف أنواع الرز التي ستعود إلى التحدث عنها فيما بعد (٢٢). ويمكن لنا أن نميز في نطاق هذا المركز بين قطاعين كبيرين: مداري أولاً، ثم ما أسفل المدارين والقطاع المداري ينقسم بدوره إلى فروع عديدة (الفرع السنغالي الغمبي — الفرع النيجيري المركزي — الفرع التشادي النيل)،

(٢١) انظر: هذا الموضوع، ج. دسموند كلارك، وه. ج. هوغو المذكورين أعلاه.

(٢٢) انظر: ر. برتير ١٩٦٢، المذكور أعلاه.



- الخريطة ٣: المواطن الأول لأنواع الزراعة الأفريقية
- الخريطة ٤: التوزيع الجغرافي العام لأنواع الزراعة في أفريقيا

وكل فرع يتميز بنباتات مزروعة خاصة به، مثل الحبوب، وكذلك نباتات عسقلية مثل الكوليوس دازوشيف ونباتات زيتية مثل البوتيرسبروموم باركي، والكتشي المعروفة عند علماء النباتات باسم (الفيتلاريا بارادوكسا غارتز).

وترتبط بهذا القطاع المتفرع عن مركز إفريقيا الموجود أسفل خط الاستواء، ترتبط به نباتات الانيام (Ignames) مثل (ديوسكوري كايينانسييس لامك. د. د وميتوروم باكس. د. روتوندا توار) وكذلك نباتات ذات بذور زيتية (Elais guineensis Jacq., Telfairia occidentalis Hook) ونباتات منبهة مثل الكولانتيدا. (Cola nitida A. Chev.) والحقيقة ان هذا المركز يمتد بإفريقيا الوسطى مثلما تمتد مساحات يتوزع فيها البعض من أنواع النباتات المذكورة أعلاه (الكولا) (Cola) والكوليوس (Coleus) والألياس (Elais) وهناك يوجد أصل (الحبوب الأرضية) مثل الفاندزيا (Vpandzeia subterranea Thon) أما النبات البقلى الإفريقي الآخر (Kerstingiella geocarpa Harms) فإنه ينتمى إلى مركز غرب إفريقيا.

ويبدو لنا أنه في شرقي المنطقة الغابية الاستوائية أو في جنوبها وقع في البداية تجمع نباتي مولد شبيه بما وصفناه منذ حين بالنسبة لمركز غرب إفريقيا وهو يمتد على رقعة أرضية تشمل هذه المنطقة الغابية وتحاذي في امتدادها مركز شرقي إفريقيا وتحتل تقريرا المنطقة المحيطة بغابات الجني المكشف الذي بيناه سابقا (٢٣).

### المهاد الفلاحية

ان ماتقدم ذكره قد أدى بنا (٢٤) الى افتراض وجود عدد من المهاد الفلاحية بالقارة الإفريقية وهي مهاد يمكن لنا اليوم ان نعيد النظر في ترتيب قائمتها وهي كما يأتي من الشمال الى الجنوب (الخريطة رقم ٣).

— المهد الإفريقي البحر وسطي: يمتد من مصر الى المغرب وهو الذي أثر في المناطق الرعوية والزراعية للصحراء، وكان له عن طريق مصر، تأثير متبادل مع مهد الشرق الأدنى.  
— في الغرب: المهد الإفريقي الغربي، بأقسامه المدارية وما تحت خط المدارين.  
— في الشرق: المهد النيلي الحبشي، بقسميه النيلي الحبشي.  
— مهد إفريقيا الوسطى: في شرق هذا المهد يوجد المهد الإفريقي الشرقي الذي يمتد غربا، الى أنغولا. وفي أقصى الجنوب يبدو أن التُّطافَ قاوموا طويلا التأثير الرعوي والزراعي من المهاد التي وصفناها منذ حين وخاصة من مهد شرقي إفريقيا (٢٥) وذلك لأنهم اكتفوا بما لديهم من موارد واحتموا بجفاف صحراء كالاهاري.

(٢٣) انظر: د. سدون ١٩٦٨، المذكور أعلاه.

(٢٤) انظر: ر. برتير ١٩٦٢، المذكور أعلاه.

(٢٥) انظر: د. سدون ١٩٦٨، المذكور أعلاه.



- ٢
- (١) احراق العشب لاختصاص الأرض — بعد الحريق. منظر من فوتا جالون: بيتا، تيمبي — مدينة، (تصوير. بورتير).
  - (٢) فلاحية الأرض بالكاديسند وبواسطة مزارعي الديولا دوسويي (كازامانس)، استعدادا لإعادة غرس الشتلات في أحواض الأرض. (تصوير. بورتير).

## الموطن البستاني والموطن الفلاحي

وفي الواقع فإن مفهوم المهد يمكن أن يكون غير ناجع إذ أنه لا يخلو، في مستوى ما قبل التاريخ والتاريخ الزراعيين، من شيء من التلفيق. والحقيقة أننا نستطيع على ضوء ما سبق أن نستخرج مجموعة أكثر انسجاماً:

(أ) فالغابة الوسطى (حيث يوجد النظام البيئي المعمم) تصلح كمركز نباتي زراعي ولكننا ونحن هنا قد استعملنا التعبير السيء الذي وضعه كل من ر. ج. برايد وود، وك. أ. ريد (٢٦) ولكننا نفضل أن نطلق اسم (موطن بستاني) حيث سمحت إنتاجية القطف في وسط غابي لذلك القطف أن يدوم ونلاحظ هنا أن الكمية النباتية التي أمكن تأهيلها في ذلك الموطن كانت أقل من الكميات الموجودة في الغابات المدارية الرطبة في آسيا أو في أمريكا.

(ب) إن ما يحيط بهذا المركز الغابي من سباسب، أي النظام البيئي الأكثر اختصاصاً، يصلح كموطن فلاح، منتج للحبوب، ويمتد من غرب إفريقيا إلى شرقها متواصلاً نحو أنغولا.

وفي شمال القارة، أي في الجزء البحر وسطي منها، ظهر بوضوح، عبوراً بمصر، تأثير فلاحية الحبوب التي كانت في مناطق ما بين النهرين بالشرق الأدنى. فلقد تأثرت الصحراء أيضاً في العهد الذي كانت صالحة للفلاحة بهذا الأمر، وهذا ما يفسر انتشار البعض من النباتات بحبوب الصحراء الحالية وأيضاً انتشار آخر معا كسا أي من الجنوب إلى الشمال انطلاقاً من المناطق الإفريقية الموجودة جنوب الصحراء.

ولقد كان تأثير منطقة ما بين النهرين محسوساً في المعقل الأثيوبي الذي له بدون شك قرابة بالمركز الفلاحي للسباسب والسهوب، والذي له مميزاته النباتية المولدة الخاصة به.

إن الفرق بين المركز الفلاحي والمركز البستاني هو من جهة سيطرة النباتات ذات العساقل المتعددة في المركز البستاني، ومن جهة أخرى الممارسات الزراعية المتعلقة بالبستنة: وذلك أن حقل السباسب والسهوب يقابله بستان الغابة وحواشها.

أما بالنسبة للأدوات الزراعية، فهي متميزة في مجموع القارة الإفريقية باستعمال المجازف والأوتاد للحفر وأنواعها الأخرى. إلا أن المحراث كان مستعملاً في جزء من الموطن الفلاحي المنتج للحبوب، بعد ما استعملته مصر وأثيوبيا.

## أنواع البذرة والرز

إن هذا الموطن الفلاحي الإفريقي في النظام البيئي المتخصص نسبياً في السباسب والسهوب، مابين للمركز البستاني في الغابة المدارية، وهو يتميز بما يلي:

— الاستعمال الغالب لإنتاج النباتات المزروعة بواسطة طريقة التلقيح (الحبوب المزروعة).

— أهمية الحبوب في المركب الغذائي النباتي.



● أدوات «السونغ» أو الجاروف لدى قبيلة سيرير غنومبكا، وهم صائدو أسماك وزارعو أرز في جزر «الساحل الصغير» بالسنگال. وتستخدم أداة السونغ في عزق وترصيف التربة الثقيلة في حقول أرز مستنقعات المنغروف، وهي تناظر أداة الكادييند والتي تستخدمها قبائل ديولا بانيوت في كازامانس، وأداة الكوفي أو الكوب لدى الباغا في ساحل غينيا. (تصوير: بورتير).

ان الزراعات التي تطورت في هذا الوطن تستعمل طريقة جميلة مخالفة للطريقة الفردية المعمول بها في الزراعات البستانية بالوطن الغابي. وما لا شك فيه ان حضارات الوطن الفلاحي قد وسعت حقولها على حساب الغابات عندما اعترضتها في توسعها الترابي. ولقد تمكن هذا التوسع الفلاحي من القيام بدور في تطور عمليات تحويل المناطق الى سباسب، وبتعبير بيثوي، فان تلك العمليات تناسب تخصصا طرا على نظم بيئية معقدة، كما لو ان كل شيء قد جعل تلك الحضارات الفلاحية تتكيف مع المحيط الطبيعي بحسب تقنياتها أو بالأحرى بحسب طرق ادراكها لها. وربما حصل مع تغلغل الزراعات في هذا الوسط الغابي، نوع من سوء التكيف كثير أو قليل، من ذلك أنه ربما حدث أن أهملت الحبوب لتعويضها الزراعات الغذائية التي تتميز بها المناطق الغابية، بل ربما حدث أيضا — وهو افتراض لا يمكن استبعاده — اعتماد نباتات القطف لتكون أساسا لما يقتات به فلاحو السباسب الذين كانوا قديما ملزمين أثناء نزوحهم على العيش في محيط غابي.

ان الحبوب ظلت رغم ذلك تميز الفلاحة في السباسب والسهوب، ومن تلك الحبوب، رغما عن أصالة الحبوب الموجودة في مختلف هذه المناطق الفلاحية، نذكر منها حبوب الذرة البيضاء، أو الذرة الكبيرة، التي تعتبر كأنها السمة الخاصة بالنباتات التوليدية المشتركة لمجموع هذا الوطن.

ان أصل هذه الذرة أو بالأحرى أنواعها قد كان، ولمدة طويلة، محل نظريات مختلفة وآراء متناقضة (٢٧) ولكن يبدو ان هذه الأنواع هي حقا واردة أصلا من إفريقيا. وكانت لها فعلا — في اطار هذا الوطن الفلاحي الافريقي — جذور مستقلة نذكر منها هنا:

— ان النوع البري أو الذرة المشابهة للقصب الذي تغطي مساحته المناطق المدارية الرطبة الممتدة من الرأس الأخضر الى المحيط الهندي، تقابله أنواع الذرة المزروعة في غربي إفريقيا، منها الذرة الشديدة السواد، والذرة اللامعة والذرة الدرمنديّة والذرة الدرية والذرة الغينية والغمبية والذرة الناتئة الى غير ذلك...

— وان النوع البري أو الذرة المذبذبة الموجود بشرق إفريقيا من أريتريا الى جنوب شرقي إفريقيا تقابله مجموعتان من الأنواع المزروعة:

احدهما بالجنوب الشرقي لإفريقيا وهي أنواع الذرة: «كافير» التي منها: الذرة كفيرم والذرة القاسية والذرة الحلوة، وثانيتهما بمناطق النيل والتشاد من نيجيريا الى أريتريا، وهما الذرة الزنجية والذرة الذنبية.

— ان الجنس البري أو الذرة الأثيوبية الموجود بأريتريا والحبشة تقابله الذرة الصلبة الموجودة في مناطق النيل الأزرق والذرة المزروعة بتشاد وبألمند وفي كل البقاع الواقعة جنوب الصحراء، والذرة المنحنية الموجودة في مناطق النيل، والذرة الزنجية الموجودة في الدلتا الأوسط لنهر النيجر.

ولنذكر أنه يوجد في مادون الدائرة الكائنة بنيجيريا الوسطى أي في الدائرة المدارية لمهد غربي إفريقيا (انظر أعلاه) نوع خاص من الذرة البيضاء المزروعة أو الذرة العسلية، وهو نوع يستعمل لاعداد مشروبات كحولية (٢٨)، بسبب غناه بالسكر، فضلا عن وجود أنواع أخرى من الذرة التي،

(٢٧) انظر: ر. برتير ١٩٦٢ المذكور أعلاه.

(٢٨) انظر: شنابل ١٩٥٧، مصدر مذكور.





- (١). أحواض أرز في تربة هيدر ومروية تتعرض للاغراق الموقت أثناء فصل الأمطار (زراعة الأرز على المطن) إحدى قرى البايوي في نياسا كازامانس (تصوير بورتير).
- (٢) جنز صناعية لزراعية الارز في الحقول البالغة الانخفاض الى درجة تحول دون صرف المياه العذبة غينيا - بيساو (تصوير بورتير).

تستعمل لاعداد (جقة الذرة البيضاء).

وتوجد علاقات واضحة بين مختلف أنواع هذه الذرة المزروعة كما يشهد وجود الذرة (*S. conspicuum*) (من طنجنيقا الى روديسيا الى أنغولا)، وكذلك ذرة (*S. roxburghii*) أوغندا، كينيا، روديسيا، جنوب افريقيا. وهي أنواع متولدة من التلاقح بين أنواع الذرة التي ينتمي البعض منها الى فصيلة الذرة المسماة (*S. arundinaceum*) والبعض الآخر الى الذرة المسماة (*S. vesticilliflorum*) ومن بين هذه الأنواع المذكورة فالذرة (*S. durra*) تستحق اهتماما خاصا بسبب انتشارها الواسع، من السودان الشرقي الى آسيا والى الهند، ومن منطقة ما بين النهرين الى إيران والى مناطق غوجيرات.

ان ما سبق بيانه لدليل واضح على أهمية هذه الحبوب في الحياة الاقتصادية النباتية للمركز الأفلاحي في السباسب والسهوب الافريقية. ويتجاوز مدلول هذه الأهمية إطار القارة الافريقية لأن البعض من أنواع هذه الذرة المزروعة قد بلغت منذ مدة طويلة، مناطق أخرى في العالم. ومن هنا تبدو لنا افريقيا مجموعة من المهاد الفلاحية الأصيلة ونوعا من الفسيفساء المكونة من المراكز الأصلية للنباتات المزروعة التي كان للبعض منها أهمية اقتصادية على الصعيد العالمي. ان لطرافة الزراعة الافريقية جوانب أخرى أحدها، وهو من أهمها، يتمثل في زراعة الرز القائمة أساسا على أصناف الرز الافريقية والتي تستحق ان نوليها عنايتنا، وذلك ان هذه الأنواع من الرز هي تابعة للمهد الغربي لافريقيا السابق الذكر، وبصفة أدق هي تابعة للقطاع الفرعي النيجيري الأوسط (الموطن الأولي) وللقطاع الفرعي السنغالي الغامبي (الموطن الثانوي).

ولقد تحدث سترابون منذ العهود القديمة عن الفلاحة الافريقية للرز. وفي القرن الرابع عشر لاحظ الرحالة ابن بطوطة ان النيجريين ينتج الرز (٢٩). الا ان هذه الشهادات بقيت مدة طويلة منسية في الوقت الذي كان الناس يعتقدون أن زراعة الرز بـافريقيا كان أصلها الرز الآسيوي (*Oryza sativa* L.) ، ولم تتغير الفكرة الا حوالي سنة ١٩١٤ فأصبحنا منذ ذلك الوقت نعلم بوجود رز خاص بـافريقيا، ويسمى غلابريما شتودل (*O. glaberrima* Steudel) ويتميز بسنبلته الصلبة والمستقيمة وبثمرته الخمر أو السمراء والذي يستغل بالقطف، أو بعد زرعته وتعده بالخدمة. ويبدو أنه من فصيلة الرز المسمى (*O. breviligulata*). التي نجدتها في أجزاء واسعة من افريقيا المدارية (أ. سيف، وأ. روير).

واذا رجعنا الى ما قلناه سابقا حول أعمال فافيلوف فاننا نجد فيها توضيحا بيانيا لصورة الرز الافريقي كما اقترحتها هذا المهندس الزراعي والعالم التكويني فيما يتعلق بأصل النباتات المزروعة. فهناك مساحات واسعة للفصائل البرية، وأنواع كثيرة من الرز الافريقي، مع تطلب الخصائص المهيمنة في دلتا النيجر الأوسط (المركز الأولي)، وتنوع كثير، مع ظهور خصائص دينية في غمبيا العليا وكزمنس (مركز ثانوي).

وهكذا نلاحظ ابتداء من دلتا النيجر الأوسط، انتشار أنواع الرز الافريقي في كامل الغرب

الافريقي الى حد سواحل غينيا. ومن المؤكد استعمال الرز من نوع غلابريا، بواسطة الجني منذ القديم، ولا شك ان هذا النوع من الحبوب البرية كان لها مكان معتبر في هذه المراكز المتميزة التي كانت تختص بقطف شبه مكثف (انظر أعلاه)، وفيها ابتدأت المراحل التأهيلية. وهذا ما يجعلنا نرى أن تأهيل هذا الرز لا يقل قدما عن الأنواع الأخرى من حبوب افريقيا.

ثم بعد ذلك بكثير أدخلت الأنواع الأخرى من الرز المزروعة بأسيا الى افريقيا (ابتداء من القرن الثامن على السواحل الشرقية، بواسطة العرب؟ وابتداء من القرن السادس عشر على السواحل الغربية عن طريق الأوربيين؟).

ولنعبر رغم ذلك بأن الآثار النباتية التوليدية التي عددناها الى الآن (اذ لا يسمح لنا هذا المجال الا بتقديم لمحة عامة) تظهر بوضوح امكانية وجود حضارات زراعية نشأت بافريقيا اعتمادا على الموارد النباتية المتوفرة بالبيئة المحلية وبدون أن تتصور بالضرورة وجود تأثيرات خارجية عن افريقيا.

## بين افريقيا وآسيا

انه لمن الأكيد (وهذا ما بيناه سابقا) ان موجات انطلقت من المهد الزراعي والرعوي للشرق الأدنى قد لعبت دورا هاما في التاريخ القديم للفلاحة الافريقية. وبذلك وجدنا من الحبشة الى افريقيا الشمالية مرورا بمصر عن طريق النيل — منطقة يمكن اعتبارها ضمن المنطقة البحر — وسطية القديمة التي عرفها كل من هود ريكورت وهيدن (سنة ١٩٤٣ المذكورين أعلاه). ولكن نجد حتى في هذه المنطقة، مركبات نباتية توليدية افريقية محضة خصوصا في أثيوبيا وأيضا في مصر وفي شمال افريقيا.

ان تاريخ العلاقات القديمة بين افريقيا وآسيا هي على غاية من الأهمية وإن كانت مجهولة بعض الشيء. فافريقيا قد أعطت لآسيا نباتات أهلية. وتدل على ذلك أنواع الذرة التي تحدثنا عنها سابقا. الا أن افريقيا لم تقتصر على أن تستمد من آسيا نباتات توليدية واردة من الشرق الأدنى (قمح — شعير)، بل أخذت أيضا نباتات واردة من جنوب شرقي آسيا المدارية، ويبدو من المؤكد فعلا أنه وصل قديما الى افريقيا — سواء عن طريق سبأ، بجنوب الجزيرة العربية أو عن طريق شمال افريقيا أو بواسطة ملاحين قدامى بلغوا الساحل الجنوبي — أشجار الموز وأشجار النيام الكبيرة (Dioscorea alata). وشجر القلقاس (Colocasia esculenta (L.) Schott) وحتى قصب السكر (Saccarum officinarum L.) ان البعض من هذه النباتات المزروعة الآسيوية الأصل سمحت بغزو زراعي سريع لميدان الغابات المدارية الافريقية.

ولكن لنرجع الى مسألة أنواع الذرة التي توفرنا أحسن مثال للتبادل بين افريقيا وآسيا (٣٠) ذلك أنه يوجد فعلا بأسيا أنواع من الذرة المزروعة الواردة من افريقيا زيادة على الأنواع التي ذكرناها. فذلك شأن الذرة ذات اللونين الذي يبدو أنه ناشئ عن عملية تلاقح بين نباتات توليدية ناشئة عن الذرة الأثيوبية من جهة ومن أخرى من النوع البري خاصة (الذرة السودانية). وبالنوع

الأول أي الذرة ذات اللونين يمكن ان نلحق خاصية ذرة دخنة (Dochna) الموجودة بالهند، والجزيرة العربية وبورما، والذي أدخل من جديد الى أفريقيا أخيرا. وكذلك الأمر بالنسبة للذرة التي شكلها شكل الدخن (Mil) الموجود بالهند، ومنها دخلت حديثا الى كينيا. وهذا يصدق أيضا على أنواع الذرة الموجودة بأفريقيا الشرقية. وهناك نوع آخر مزروع وهو الذرة ذات الألياف الكثيرة الذي يبدو أنه ينتمي لفصيلة الذرة الأثيوبية وهما نوعان يبدو أنه ألحقت بهما أنواع موجودة في بورما وفي الصين.

و بدون أن ندخل في الجزئيات المعقدة لهذا الخليط التكويني، فإننا نلاحظ أنه توجد علامات على اتصالات قديمة حصلت بين أنواع الذرة الإفريقية والأنواع الآسيوية. فكل شيء يحمل على الاعتقاد ان علاقات قديمة جدا وتبادلات نباتية قد حصلت بين أفريقيا الشرقية وآسيا وهما يؤكده وجود بعض القرابة النباتية التوليدية السابقة للعهد الاستعماري والقادمة من الجنوب الشرقي لآسيا المدارية.

على أننا لا يمكن ان نستبعد امكانية وجود غزوزراعي لغابة افريقيا بفضل وصول نباتات توليدية (أشجار الموز والقلقاس) القادمة من النظام البيئي المعمم وهو الغابة المدارية الرطبة لجنوب شرقي آسيا ومن العالم الجزري الهندي، فن هذا الأخير قدم عن طريق البحر المهاجرون الذين وصلوا — وهم يحملون البعض من نباتاتهم — الى مدغشقر والسواحل الشرقية لأفريقيا.

واذا كانت افريقيا قد أمدت في العصور القديمة العالم الخارجي الشرقي بالنباتات المزروعة، واستمدت منه نباتات أخرى، فيبدو جليا أنها كان مدينة له فيما يخص حيواناتها الأهلية فالبعض من خنازير افريقيا الشرقية يبدو أنه من فصيلة الخنازير التي وقع تأهيلها بآسيا. فن المؤكد كما يلاحظ ك. راينغلي (C. Wrigley) (٣١) ان تربية الحيوان لم تتطور مستقلة في افريقيا جنوب الصحراء التي لم يكن فيها للحيوانات أي سلف ممكن «للبقر والماعز والغنم المؤهلة»، فهذه الحيوانات قدمت اذن الى هذا الجزء من افريقيا وخاصة من مصر عن طريق سهول النيل. ورغم ذلك فإننا نسجل الامكانية الكبيرة في أن البعض من هذه الحيوانات وقع تأهيلها في الجزء الافريقي من المنطقة البليو بحر وسطية وخصوصا الأبقار بمصر حيث كان الرجال، فيما يبدو، يصطادون في عهود ما قبل العصر الحجري الجديد أنواعا عديدة من الأبقار المسماة:

ان هذه النظرة الاجمالية التي أعطيناها مكنتنا من أن نتبين أن افريقيا لم تكن أبدا تلك القارة التي اعتبرناها مدة طويلة تأخذ من الخارج كل ما هو أساسي لتطورها الزراعي والرعوي. فن الأكيد أن افريقيا لم تكن في العهود السابقة منعزلة منعقدة عما يقدمه الخارج، شأنها في ذلك شأن أوربا وآسيا. ومن الأكيد أيضا أنها مجزئتها الساحلي تتقاسم مع أوربا وآسيا اهتمامها الى ميدان بحر وسطي كان له سابقا تواصل بيئي أكثر مما هو عليه في أيامنا هذه. وعلى كل فان القارة الإفريقية قد عرفت تطورات في الفلاحة والبستنة مرتكزة على تأهيل النباتات التي كانت تختص بها والتي استفاد منها العالم سبقا، وخاصة فيما يتعلق بالبعض من النباتات التوليدية وبالأخص أنواع الذرة. وإذا كان الجني والصيد قد بقيا مدة طويلة أساسيين للمعيشة في بعض أجزاء افريقيا فذلك ليس

راجعا للتأخر، بل هو نتيجة لكثرة وتنوع الموارد الطبيعية التي سمحت للناس بعيش رغيد في نظامهم البيئي بدون أن يضطروا الى تحويله وتأهيله.

## الخاتمة

نجد أيضا بجانب القطف في افريقيا هذا الشكل من الفلاحة الناشئة التي تتمثل في مساعدة النبات وفسح المجال له بدون تدخل مباشر في انتاجه وتوافره. وهذا الأمر ينطبق حاليا على أنواع من النباتات الغذائية الشبيهة بالأشجار مثل شجر الكولا تبي (Colotier)، والكاريتي (Karité) أو النخيل الزيتي. على أننا نجد أيضا في القارة كل درجات التطور البستاني والزراعي، وبايجاز نجد تنوعا كبيرا في التقنيات الفلاحية التقليدية التي تدخل ضمنها استعمالات ذكية للأرض قصد اعدادها لزراعة الرز الافريقي، وأشكال مختلفة لحفر الأرض واستئصال الأعشاب، وكذلك أساليب زراعية، غابية ورعوية.

ان افريقيا تنتمي، من حيث بداية الفلاحة فيها، وتطورها، الى ثلاثة مراكز أو مواطن هامة (خرطة ٤).

المركز الأول: يهم شمال القارة من مصر الى المغرب وهو يدخل ضمن المنطقة البحر وسطية. وقد خضع لتأثير واضح أتاه من المهد الزراعي والرعوي الموجود بالشرق الأدنى، بالإضافة الى أنه عرف تطورات خاصة به ونابعة منه.

المركز الثاني: يهم مجموع المناطق المحيطة بالسباسب والسهوب الكائنة في قلب افريقيا الغابي. وهو يتميز بتطور زراعة الحبوب (الدرة البيضاء، والدخن).

وأخيرا المركز الثالث: الذي يشمل الغابة وما حولها والمختص ببستنة لها صلة بالقطف. وهو قطف معتمد على بعض النباتات المزروعة بالغابة.

ولا توجد بين هذه المراكز حواجز منيعة، إذ كثيرا ما تتجاور في الواحات، الحبوب وأنواع الدرة البيضاء، والدخن. أما في حقول السهوب، فنجد نباتات غذائية قادمة من بستنة المناطق المتاخمة للغابات، وقد أخذت الفلاحة البستانية بدورها النباتات الصالحة للقطف المتوفرة في الغابة المدارية. وهناك مثال آخر يتمثل في أثيوبيا التي لها في نطاق رصيدها النباتي الاقتصادي العتيق، نباتات خاصة بها وأخرى قادمة من المنطقة البحر وسطية وأخرى قادمة من المركز الفلاحي للسهوب والسباسب الافريقية وأخرى أخيرا من المناطق الشرقية الخارجة عن افريقيا...

فن هذه المواطن يبدو أن أكثرها أهمية ودلالة في تاريخ الفلاحة الافريقية هو موطن السهوب والسباسب، لا سيما في أجزائها المجاورة للغابة، أو للأنهار أو المساحات المائية الهامة.

أما فيما يتعلق بضبط الزمان ضبطا دقيقا لما قبل تاريخ الفلاحة الافريقية وتاريخها فالأمر ليس سهلا سيرا. على أننا نعتقد أن الحقبة الحاسمة في بداية عمليات التأهيل الافريقية المحضة قد طرأت في البليستوسين الأخير (أي بين ٩٠٠٠-٥٠٠٠ سنة). ففي ذلك العهد، حصل في محيط الموطن الغابي الأوسط، قطف مكثف، بل حصل نوع من التخصص في القطف، كما تحسن صيد الأسماك في المياه الداخلية، وصاحبه استقرار الأهالي استقرارا نسبيا. وبايجاز ظهرت ظروف ملائمة للتأهيل.

إنشاء، وإن كنا ننتظر أن يؤيد علم الآثار رأينا أو يفنده، فع ذلك نعتقد ان كل هذا وقع في الوقت الذي كانت تتكون في الهلال الخصيب بالشرق الأدنى القواعد الرعوية والفلاحية التي أصبحت فيما بعد من بين قواعد الحضارات البيضاء في العالم الأوربي.

• في ٢٠ مارس ١٩٧٣ توفي رولان بورتر الاستاذ بالمتحف القومي للتاريخ الطبيعي بباريس. وقد كانت اللجنة العلمية الدولية لوضع تاريخ افريقيا العام قد عهدت اليه بكتابة هذا الفصل المتعلق بأصول التقنيات الفلاحية وتطورها، فقام بوضع مشروع أولي للعمل. الا ان الموت حال بينه وبين انجازه كاملا، فكان مشروعه آخر عمل قام به، وبقي العمل ناقصا غير تام، وقد اعتمدت على ما نشره رولان بورتر من مؤلفات عديدة في هذا الميدان وعلى ملاحظاته وأيضاً على محادثاتنا العديدة في الموضوع، فعملت بكل جهدي على مواصلة عمله وانجازه، محاولاً أن أبقى وفياً مخلصاً للاهتمام الكبير الذي كان رولان بورتر يولييه لطبيعة افريقيا الجذابة وبلدانها شعوبا وحضارات. ومهما تكن هذه المساهمة ناقصة فانها تريد أن تكون إهداء أتقدم به للأستاذ والصديق الذي عمل كثيرا لكي تكون معرفتنا لفلاحة القارة الافريقية ومزروعاتها، أحسن وأفضل. جاك بارو.

## الفصل الثامن والعشرون

# اختراع المعادن وانتشارها وتطور النظم الاجتماعية الى القرن الخامس قبل الميلاد

بقلم: ج. فركوتر

لقد لعب وادي النيل دورا ممتازا في تاريخ افريقيا العام. فرغم المصاعب التي تسببت فيها الشلالات، وهي مصاعب لا تخلو أحيانا من مبالغة (١)، فإن النيل الذي يبلغ ٦٥٠٠ كلم يشكل وسيلة من وسائل الاتصال والتبادل بين الاقطار من الجنوب الى الشمال، وهي وسيلة لا يمكن أن نتهاون بها. ان وادي النيل اذا أتتته من الشمال، من وراء خط الموازة السادس عشر، وقفار بيوضة غربا، وبوتانا شرقا، يدخل مناطق ذات أمطار سنوية، و يفضي بك الى الطريق الافريقي العريض المتجه من الغرب الى الشرق والذي يقود من المحيط الأطلسي الى البحر الأحمر عبورا بأودية ومنخفضات النيجر وتشاد وأنجاد درفور، وكردفان ثم سهول العظيرة والبركة. وهكذا. بالاضافة الى مزاياء محور اتصال متجه من الجنوب الى الشمال، انطلاقا من البحيرات الاستوائية الى البحر الأبيض المتوسط، توجد مزاياء المحور المتجه من الغرب الى الشرق، اذ ان حوض النيل يفتح الطريق الى حوض الكونغو والنيجر والسنغال.

تحتل تلك المنطقة الواسعة الواقعة في الزاوية الشمالية الشرقية من القارة، مكانة أساسية في تاريخ افريقيا الغابر. وهي لم تستكشف مع الأسف الا قليلا من حيث آثارها وتاريخها. فان كان الوادي الاسفل للنيل، ابتداء من الشلال الثاني الى البحر، معروفا معرفة حسنة، اعتمادا على جهود الاثريين الذين استكشفوا ذلك القسم من الوادي، ابتداء من أوائل القرن التاسع عشر الى يومنا هذا فان الامر ليس كذلك فيما يتعلق بالوادي الأوسط من النهرين الشلالين الثاني والسادس من

(١) ان كتاب أ. شلو، ١٨٩١ ص ٣٠ - ٧٣ يعتبر أكثر المؤلفات، تفصيلا عن الشلالات ومصاعبها الحقيقية أو الوهمية وهو يصف كل شلال ويوفر رسوم القنوات التي تصلح فيها للملاحة.

جهة، ولا فيما يتعلق بالوادي الأعلى من جهة أخرى، من الخروط إلى البحيرات الكبرى، ولا فيما يتعلق على الأخص بالمناطق الصحراوية للنيل وروافده التي لم تستكشف أثرها سواء بالشرق أو بالغرب، والتي لا يعتمد تاريخها إلى الآن إلا على فرضيات كثيرة ما كانت مرتكزة على مشاهدات غير كافية أو منقوصة كما وكيفا.

وسنتبع في عرضنا هذا الترتيب الزمني والترتيب الجغرافي. اننا نميز حقيقتين: أولاً من العصر الحجري الجديد إلى أوائل الألفية الثالثة التي برزت فيها الوثائق المكتوبة، وبالتالي برز فيها التاريخ بوادي النيل الأسفل. وتلك حقبة سنتعرض فيها، انطلاقاً مما هو معروف معرفة حسنة نسبياً إلى ما هو مجهول، أي ابتداء من الشمال إلى الجنوب، سنتعرض للحضارات التي كانت قائمة على ضفتي النهر. وتشمل الحقبة الثانية أوائل الألفية الثالثة إلى حدود القرن الخامس قبل الميلاد، متتبعين بالمثل المناطق الجغرافية انطلاقاً من الوادي الأسفل إلى الوادي الأعلى من النيل.

## من العصر الحجري الجديد إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد

إن تلك الحقبة التي تشمل عموماً ألفيتين، من ٥٠٠٠ سنة تقريباً إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، قد شهدت بروز المعدن وانتشاره بوادي النيل، كذلك ظهور النظم الاجتماعية لأول مرة. فهي حقبة ذات أهمية كبرى، إن لم تكن أهم حقبة من الناحية التاريخية. وإذا كنا نعود للحديث عن ثقافات العصر الحجري الجديد بوادي النيل بعد أن درسناها في هذا الكتاب (انظر الفصل الثاني)، ولشرحها بسرعة، دون التوقف عند مظهرها المادي، فلأنه من الصعب أن نتكلم عن القرون المجهولة المتعلقة بابتداء التاريخ النيل بالألفية الرابعة قبل الميلاد (من ٣٨٠٠ إلى ٣٠٠٠ سنة) دون أن نذكر في نفس الوقت الثقافات التي سبقتها. ولقد أيدت ذلك فعلاً كل البحوث الحديثة بالنوبة ومصر تأييداً قوياً، ومعنى ذلك أن ظهور المعدن لم يسبب أي انقطاع في التطور العام للحضارات بإفريقيا الشمالية الشرقية، إذ أن ثقافات عصر النحاس هي النتاج الشرعي المباشر لثقافات العصر الحجري الجديد، ويستحيل غالباً أن نميز في عين المكان بين موقع من نهاية العصر الحجري الجديد وموقع من عصر النحاس. ويعتبر الملك الأول من الأسرة المالكة الثانية من الذرية الشرعية لرؤساء الاجناس الأخيرة من العصر الحجري الجديد، كما أن الفراعنة الكبار من العهد الطيبي هم ذرية ملوك الامبراطورية الممفية.

### وادي النيل الأسفل، من ٤٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد (٢)

إن التنظيم الاجتماعي الذي نراه بل الذي نتصوره قائماً بوادي النيل الأسفل من مصر منذ ٣٠٠٠ سنة

(٢) فيما يتعلق بشؤون مصر بالذات، قبل العهدين من العصر الحجري الجديد وعصر النحاس اللذين تطورت فيهما النظم الاجتماعية الأولى، انظر الكتاب الممتاز لـ د. ك. هابس، ١٩٦٥. فهنا الكتاب الذي نشر بعد موت صاحبه والذي طبعه لك. سيل، يشمل فصلاً كاملاً عن تكون مصر ج ١، ص ٢٩-١ مع مراجع تحليلية كثيرة في ص ٢٩-٤١.



قبل الميلاد، هوبقينا نتيجة تقنيات فرضها الري من أجل استصلاح وادي النيل زراعيًا. ان استملاك الانسان للوادي قد ابتدأ من العصر الحجري الجديد، واستمر تطوره حتى ظهور نظام ملكي.

ولقد قال هيرودوت، وردد بعده كثيرون ما يلي: «ان مصر هبة من هبات النيل». فنذ بداية العهد التاريخي، عندما كانت عملية التجفيف بافريقيا الصحراوية، من المحيط الاطلسي الى البحر الاحمر، قد أخذت تكتمل، ما كانت مصر يومئذ لتعيش لولا الفيضان السنوي الذي يطرأ على النهر، فبدونه تصبح قفرا مثل الصحراء نفسها أو مثل النقب. الا ان تلك الهبة التي وفرها لها النهر وأمدّها بالحياة، يمكن ان تكون هبة مسمومة. ففي السنة الثالثة من أزركون (Osorkon). الثالث (٧٥٤ سنة قبل الميلاد) كان الفيضان على غاية من الشدة حتى أتى على كل سد، و«أصبحت معابد طيبة كلها تشبه المستنقع». وتضرع كاهن أمون الى الله كي يمنع المياه من الارتفاع. وتجددت نفس الكارثة في السنة السادسة من تحرق (Taharqa) (٦٤٣ سنة قبل الميلاد) عندما «استحال الوادي الى محيط»، وان كان الملك قد أول تلك الظاهرة، حرصا منه على شعبيته، على أساس أنها بركة من بركات السماء.

ان ارتفاع المياه يكون إما غير منتظم أو شديدا جدا أو ضعيفا جدا ولا يبلغ الا نادرا ما هو مستحب (٣). فلقد لوحظت، من ١٨٧١ الى ١٩٠٠ ثلاثة ارتفاعات سيئة، وثلاثة رديئة، وعشرة طيبة، واحدى عشر وافرة فوق اللزوم، وثلاثة خطيرة. وهكذا، فن أصل ٣٠ فيضانا، كانت عشرة منها مفيدة. (٤).

ان تاريخ الحضارة بافريقيا النيلية هي حضارة «تطويع» الانسان للنهر، اذ صبح التعبير، ولقد اعتمد في ذلك التطويع على وضع سدود أو رفع حواجز ترابية، منها ما هو مواز لجري النهر، ومنها ما هو عمودي له. ان تلك التدابير سمحت بتكوين أحواض تتجمع به المياه وتقلل من أخطار الفيضان، وتتحكم فيه وتصرفه الى أراض قد لا يبلغها ان ترك لحاله.

ان هذا النظام المعتمد على خبرة طويلة، لم يستقر الا تدريجيا، (٥) لأن أحواض التجمع تستوجب لتكون مجدية، ان تهيأ منهاجيا في البلاد كلها، وعلى الأقل بنطاق شاسعة فهي تفترض اذن اتفقا مسبقا بين عدد كبير من الناس للقيام بعمل جماعي. وذلك كان شأن أصل النظم الاجتماعية الاولى بوادي النيل، اذ تجمعت أجناس حول مركز فلاحى قروي أولا، ثم تجمعت مراكز قروية عديدة كونت في نهاية الأمر مجموعتين سياسيتين أكبر منها، احدهما بالجنوب والأخرى بالشمال (٦).

(٣) انظر في شأن أخطار الفيضان: ج. بيزنسون، ص ٧٨ - ٨٤.

(٤) نفس المرجع، ص ٨٢ - ٨٣، المراجع ص ٣٨٧ - ٣٨٨.

(٥) ان المؤلفات العامة المتعلقة بالري بمصر لا تدرس حسب ما أعرف، المشاكل التي طرحها ظهور الري بمصر وتطوره التدرج وفي كتاب بيزنسون السابق الذكر (ص ٩٧-٨٥) وصف لهذا النظام وكذلك في كتاب ف. هارتمان، ١٩٢٣ (ص ١١٨-١١٣)، وكتاب كز يزانك، ١٩٧٧ وهو يميز بين حقبة ري طبيعية (ص ٥٢-١٢٣) وحقبة ري مراقبة (نفس المرجع ص ١٢٧-١٦٧) ولقد ابتدأت الحقبة الأخيرة في الجزري (النكادي ٢) انظر نفس المرجع ص ١٣٧ أي حوالي ٣٧٠ ± ٢٩٠، انظر في شأن ذلك التاريخ ن. أ. وردتسم، ١٩٧٢، ١٩٧٢ ص ٥.

(٦) ١٩٦٧، ص ٢٥٣ - ٢٥٧.

ان الوثائق المتوفرة لدينا عن تلك الحقبة من ٥٠٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد لا تسمح بتحديد طبيعة النظام الاجتماعي الذي يعتبر أساس احتلال السكان للأرض واستصلاح وادي النيل الاسفل. ونعتبر لفظ «جنس» الذي سبق ان استعملناه «خاطئا» اذ ليس هناك ما يؤيد وجود مجموعات من الاجناس في ذلك العهد متنوعة في وادي النيل، في حين أنه ثبت وجود مجموعات سياسية أو سياسية دينية. فالدليل الوحيد المتوفر لدينا يعتمد على تمثيل معالم ندرية لها أحجام صغيرة، ومن ذلك لوحات الخضاب وهرات طقوسية من أصل سحري ديني. ان تلك الوثائق لا تعكس اجمالا الا الحالة السائدة في أواخر هذا العهد، عند الاجيال الاخيرة من نهاية الألفية الرابعة (٧) على أن النظام الاجتماعي الذي نتلمحه من خلال تلك الوثائق لم يتطور بتاتا طيلة الألفيتين من تلك الحقبة.

ان بداية التاريخ المكتوب توافق اجمالا اندماج المجموعتين من الجنوب والشمال ضمن نظام واحد تحت سلطة ملك واحد. وبذلك تتكون لدينا صورة اجمالية عن تاريخ وادي النيل الاسفل، من ٥٠٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وهوتاريخ يتميز كما نرى لا بظهور المعدن فحسب — وهو في الواقع ظاهرة ثانوية — بل يتميز على الأخص باستيلاء الانسان على مجموع الوادي. ان ذلك الاستيلاء قد استوجب، بقطع النظر عن تهمة السدود والحواجر لتجمع المياه، استوجب بسط الأرض حتى لا يركد بها الماء في قعرها وحتى ينتشر من جهة أخرى لكي تتوسع مساحة الأراضي الصالحة للزراعة من الوادي، وذلك ما يمثل انتصار الفلاح على الطبيعة القاسية، رغم كل ما قيل في شأنها.

## العصر الحجري الجديد

يوجد في الفصل ٢٥ من هذا المجلد، وصف مفصل عن الجانب المادي المختلف «الثقافات» أو «الآفاق الثقافية» التي تشكل شبكة التطور الاجتماعي لتلك الثقافات المجموعة تحت مصطلحين عامين هما «العصر الحجري الجديد» و«ما قبل عهد الملوك» وذلك بوادي النيل، في السودان وفي مصر. ولقد اقتصرنا في الصفحات الموالية على استخراج الجوانب الاجتماعية والتطور التاريخي لتلك الثقافات، لأن العصر الحجري الجديد وعهد ما قبل الملوك يشكلان بوادي النيل «تواصلًا» ثقافيا. ويكفينا مثالا على ذلك أن «الهدري» الذي جلل بالتفصيل في الفصل ٢٥ السابق، ليس الا مرحلة ضمن تطور ثقافة هي جزء من «التاسي» (انظر نفس المرجع ص ١٢ — ١٣) وينتهي الى «النكادي ٢» (انظر نفس المرجع ص ١٤ - ١٥) والى المجتمعات «ما قبل الثنية».

وبعبارة أخرى فاننا نقدم هنا وبصفة تركييبية ما ورد بصفة تحليلية في الفصل ٢٥ السابق ويعتبر الوجهان من القضايا المطروحة متكاملين. وقد وضعنا بين معقوفين المراجع الضرورية التي تسمح للقارئ بأن يعثر بسرعة على الوصف المفصل «للثقافات» التي لا تذكر بهذا الفصل الا ذكرا عاما جدا.

(٧) انظر في شأن هذه المشاكل ج. ل. دي سنيفال، ١٩٦٣، ص ٤٩ - ٥٧.

لا تعرف الحقبة الحجرية الجديدة بمصر إلا بالاعتماد على عدد قليل من المواقع التي لم تكن أحيانا متعاصرة. ويحتل أقدمها ضفاف منخفض الفيوم (= الفيومي ب - الفصل ٢٥) بغربي الوادي بمصر الوسطى (٨). ونعرف مواقع مرمدة - بني سلامة (٩) (المرمدي، الفصل ٢٥) بالدلتا الغربية على حافة الصحراء وعلى بعد ٥٠ كلم تقريبا من الشمال الغربي للقاهرة وموقع العمري (١٠) (= العمري (أ) و (ب) الفصل ٢٥) قرب القاهرة على مقربة من حلوان وبمصر الوسطى وصعيد مصر نجد مواقع دير تاسة، بالجنوب الشرقي من أسيوط، ومواقع أقل أهمية بتوخ وأرمان سبلان، بمنطقة طيبة (١١). ان المقارنات الممكنة بين تلك المواقع سعيًا الى ضبط طبيعة وانتشار مختلف مظاهر العصر الحجري التي تمثله منه، تصبح عسيرة أكثر نظرًا الى أنها ليست متعاصرة. ان التحليلات بالكربون ١٤ تفيد ان أقدمها وهو موقع الفيوم (أ) يعود الى ٤٤٠٠ ± ١٨٠٠ سنة قبل الميلاد، ثم تليه مواقع مرمدة - بني سلامة ٤١٠٠ ± (١٨٠٠) وموقع العمري (٣٣٠٠ ± ٢٣٠٠) وأخيرًا موقع تاسة الذي يعود الى نهاية العصر الحجري الجديد (١٢).

ان المواقع المحفورة تفيدنا بعبارة أخرى بمعلومات عن بدايات العصر الحجري الجديد بالفيوم والدلتا من جهة. وعن انتهاء تلك الحقبة من جهة أخرى وذلك بالطرف الجنوبي من الدلتا وبمصر الوسطى، الا اننا لا نعرف من ٤٠٠٠ الى ٣٣٠٠ سنة قبل الميلاد، أي طيلة ٧ قرون، الا قليلا عن التطور العام للعصر الحجري الجديد في مجموعه. وذلك شأن المنطقة الممتدة في الجنوب من مصر الوسطى. ان المكتشفات السطحية في ضواحي الوادي وبالصحراء عديدة، وتدل في الواقع على ما يسمى «الفواصل الرطب» أو «العصر الحجري الجديد دون المطر» (١٣) الطارىء في نهاية الألفية السادسة وهو يدل على توقف طرأ على عملية التجفاف المناخي باقريقيا الشمالية الشرقية. لكن تلك المكتشفات لا تخبرنا كثيرا لانعدام حفريات شاملة تشمل الثقافات الحجرية التي تعتبر من آثارها الباقية. ان الدراسات المثمرة الوحيدة هي الدراسات التي تعتمد المواقع المحفورة حفرا جيدا والتي ذكرناها. والملاحظ اذن ان استكشاف تلك المواقع قد ترك مناطق شاسعة تمتد زمانا ومكانا امتدادا كبيرا، فبقيت مجهولة، وهذا ما يؤسف له، خاصة أنه يعتقد بأن «الثورة» الحجرية الجديدة قد أتت مصر من الشرق الأوسط السوري الفلسطيني أي من الهلال الخصيب حيث كانت موجودة منذ القدم، ولذلك كان ابتداء العصر الحجري الجديد في أرمجة قد أرخ بـ ٦٨٠٠ سنة قبل الميلاد، أي قبل العصر الحجري الجديد بالفيوم بكثير ومن أجل إقامة الدليل على ان العصر الحجري الجديد بوادي

(٨) انظر فيما يتعلق بالعصر الحجري الجديد، و. ك. هابس ١٩٦٥ من ٩٣-٩٩، وص ١٣٩-١٤٠ ونضيف اليه ملاحظات إف. ض. ونودور، ور. سعيد، وشيلد، ص ١١٦١-١١٧١.

(٩) انظر في شأن مرمدة - بني سلامة، و. ك. هابس، ص ١ من ١٠٣-١١٦ و١٤٣-١٤٤، يضاف اليه قبا يخص الحرف، ل. جلبر ١٩٦٢، ص ٣ وما بعدها.

(١٠) انظر و. ك. هابس ١٩٦٥ من ١١٧-١٢٢ و١٤٣-١٤٤.

(١١) لم تتوفر لنا مع الأسف فيما صعيد مصر ملاحظات ومراجع و. ك. هابس النقدية أي مصر العتيقة جدا لأن هذا الكتاب لم يكتمل بعد موت مؤلفه (انظر ١ ص ١٤٨ رقم ١) ويمكن أن نعود الى ملاحظات ج. فاندنيي ١٩٥٢ ص ١٦٦-١٨٠.

(١٢) انظر: ج. برنتن في شأن العصر الحجري «التاسي»، ١٩٣٧ ص ٥-٣٣، انظر: في شأن التار يخ وف. لي، ١٩٥٥ ص ٧٧-٧٨.

(١٣) بوتزر، ١٩٦٤، ص ٤٤٩-٤٥٣ وج. كمب، ١٩٧٤ ص ٢٢٢.

النيل ولاسيا بالدلتا والفيوم أتى من آسيا وجب ان نعرف المواقع الموجودة بالتخوم البحرية وبالقسم الشرقي من الدلتا، إلى منفيس، وتلك بالضبط مناطق مجهولة بالنسبة لنا. فينتج عن ذلك أن الرأي الذي يقول بالأصل الآسيوي للعصر الحجري الجديد المصري سيقطن من باب الفرضيات (١٤). ان تلك الفرضية تستوجب اقامة الدليل، خاصة اذا عرفنا ان البحوث التي جرت بالصحراء في العقد الأخير من السنين، قد بينت بأن العصر الحجري الجديد قد استقر بها أيضا منذ عهد بعيد، لا سيما في الهقار حيث ان موقع أمكني يكاد يكون معاصرا للأريحي الطارىء في بداية التاريخ (١٥). ونلاحظ من جهة أخرى ان توار يخ ذلك العصر الحجري الجديد الصحراوي السوداني كانت سابقة لتوار يخ العصر الحجري الجديد المصري، على الأقل فيما يتعلق بالمناجم المؤرخة حاليا في الفيوم وممرمة بني سلامة (١٦) وكذلك سابقة لمناجم العصر الحجري الجديد النوبي (١٧). وربما ظهر الفخار مبكرا بالنوبة قبل مصر (١٨) اذا أخذنا دائما بالاعتبار المعلومات المتوفرة لدينا الآن.

لا نستبعد اذن، نظرا الى أقدمية العصر الحجري الجديد الصحراوي السوداني ان يكون العصر الحجري الجديد بوادي النيل، في مصر وكذلك بالنوبة، منحدرًا من ذلك العصر الحجري الجديد الافريقي. وبالطبع ينبغي أن نكون حذرين نظرا الى قلة، بل ندرة المواقع الحجرية الجديدة في وادي النيل الاسفل بمصر من جهة، ونظر الى أن شواطئ النهر بالنوبة كانت الأماكن الوحيدة التي استكشفت استكشافا حسنا. ولم يحصل ذلك الا بين الشلال الاول وجنوب الشلال الثاني. ان الجاشية التي تمتد بين وادي النهر والصحراء الشرقية مازالت مجهولة من الوجهة الأثرية وذلك يعني أن التأثيرات التي طرأت في القابسي والايبيرو—موروسي انطلاقا من افريقيا الشمالية نحو النوبة، وفي السبيلي والعصر الحجري القديم الوسيط بافريقيا الوسطى دائما نحو النوبة (١٩)، قد دامت الى بداية العصر الحجري الجديد. ونظرا الى أن الدلتا المصرية كانت تعتبر ملتقى طرق عديدة، لذلك فقد يكون من البديهي ان تستقطب تأثيرات أتت من الغرب ومن الجنوب وكذلك من الشرق والشمال الشرقي.

ونلاحظ تميزا ثقافيا بين مجموعة الشمال ومجموعة الجنوب، هذا ظهور العصر الحجري بوادي النيل الاسفل. ان المجموعتين من السكان كانتا تتألفان من الفلاحين ومربي الماشية الذين كانوا يتعاطون صيد الأسماك والقنص، الا ان الأدوات التي تركوها كانت مختلفة قليلا من مجموعة الى أخرى في طبيعتها وكمها وكيفها (انظر فصل ٢٥) وكذلك الشأن بالنسبة لبعض العوائد.

(١٤) ان السيدة أ. بومرغل لما درست مشكلة أصل الاستيطان المصري في ما قبل عهد الملوك دحضت سنة ١٩٥٥ امكانية الاصل الغربي والشمالي والشرقي (انظر: أ. بومرغل ١٩٥٥ ص ١٩)، ان الأعمال الحديثة التي قام بها أثر يون بالصحراء (انظر: أدناه) بينت ان هذا الموقف يحتاج الى تعديل فيما يتعلق بالغرب وان كان صالحا فيما يتعلق بالشرق.

(١٥) ج. كسب. ١٩٧٤ ص ٢٢٤ ونفس المرجع، ١٩٦٨، توزع أمكني بـ ٦٧٠٠ سنة قبل عهدنا، وبداية العصر الحجري الجديد بـ ٦٨٠٠ سنة قبل عهدنا.

(١٦) هـ. نردسم، س ج ١٩٧٢ ص ٥.

(١٧) نفس المرجع ص ٨—١٦—١٧ و ٢٥١.

(١٨) فوندورف ١٩٦٨ ص ١٠٥٣ ظهر الفخار بالنوبة في الترمكي سنة ٥٧٥٠ قبل الميلاد ولم يظهر بالفيوم الا سنة ٦٣٩١ قبل الحاضر أي ٤٤٠٠ سنة قبل عهدنا.

(١٩) المرجع نفسه ص ١٠٥٥ شكل ٨.

وفي الشمال، تدل المنازل المجمعّة تجمعاً حسناً على بنية اجتماعية بلغت حد التماسق. وكان الموقى يدفنون في القرى بطريقة تفيد بأنهم مازالوا ينتسبون الى مجموعة منظمة (٢٠). أما في الجنوب، فقد كانت الأضرحة تحفر على حافة الصحراء، ويبدو أنه كان يحافظ على نظام الأسرة أكثر مما في الشمال، كما تدل على ذلك مجموعات السكنية المبعثرة. ويظهر الاختلاف أيضاً بين التقنيات المستعملة في المكينين. فالشمال يعتمد نحت الحجارة نحتاً رقيقاً، وابتداءً صنّاعه يصنعون أواني حجرية، مولدين بذلك تقنية ستكون من أخص خصائص مصر الفرعونية العتيقة. أما فيما يتعلق بالفخار فلئن عرف الشمال تنوعاً كبيراً في الأشكال، فإن الجنوب قد تميز بتقنية حسنة في الصنع. وهنا يظهر فعلاً بجانب الحرف الأسود ذي التزيين الأبيض، فخار رائع أحمر ذو حاشية سوداء سيورث مصر ما قبل عهد الملوك ومصر العتيقة، صناعة يختص بها وادي النيل، والسودان ومصر. وهكذا توضحت منذ العصر الحجري الجديد المفارقة بين مجموعتين ثقافيتين، وربما أيضاً، بين نظامين اجتماعيين: فمن حيث المكان توجد أحدهما حول منطقة منفيس — الفيوم والطرف الشمالي الغربي من الدلتا. والآخرى موجودة بمصر الوسطى وصعيد مصر، بين أسبوط وطيبة (٢١). وسيوضح ذلك الاختلاف الثقافي الذي لا يمنع في الحقيقة وجود التقارب بين المجموعتين، وذلك طيلة القرون الأخيرة من الألفية الرابعة قبل أن ينصهر في حضارة لها خصائص مشتركة قبيل ظهور الملكية الموحدة بوادي النيل المصري، نحو ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد (٢٢).

## عهد ما قبل الملوك

كثيراً ما وصف عهد ما قبل الملوك المصري بعصر النحاس، كأن ظهور المعدن يدل على حدث أساسي، وعلى انقلاب حقيقي في تطور الوادي. ولكن الواقع يقر — وذلك ما يستوجب التأكيد — بأنه لا يوجد انقطاع بين العصر الحجري الجديد وعصر النحاس بوادي النيل الأسفل بل العكس هو الصحيح: فإن تواصل التطور كان واضحاً. ولذلك نفضل الاحتفاظ بمصطلح عهد ما قبل الملوك لوصف تلك القرون المجهولة التي لها أهمية أساسية في تاريخ أفريقيا. لقد كان ظهور المعدن بأفريقيا بطيئاً ولا يبدو أنه من عمل الغزاة. وخلافاً لما جرى بمحضارات أخرى، فإن النحاس ظهر قبل الذهب (٢٣) وإن كان من السهل العثور على الذهب الخام بمناجم قرب الوادي. وظهرت الأدوات النحاسية ذات الأحجام الصغيرة بالمجموعة الجنوبية بموقع بدري الذي يه نسب البدري (٢٤)، وظهرت بالمجموعة الشمالية في دومة وقصر مارون وخسمة الدير

(٢٠) هـ. جنكر، ١٩٣٠ ص ٣٦-٤٧. انظر فيما يتعلق بالمراجع الكاملة، الفصل ٢٥ أعلاه.

(٢١) نلاحظ أن المجموعة الشمالية لا تحاذي البحر، فهي أيضاً «برية» مثل مجموعة الجنوب (انظر: ج. ل. سنفال، ١٩٧٣، خريطة أ، ص ٥٠).

(٢٢) ج. فركوتر، ١٩٦٧، ص ٢٥٠-٢٥٣.

(٢٣) انظر أ. لوكا، ١٩٦٢، ص ١٩٩-٢٠٠.

(٢٤) انظر الفصل ٢٥. وكثيراً ما درست الحضارة البدريّة. (انظر المراجع أسفله) ويعتبر كتاب ج. برنتن الكتاب الأساسي لدراساتها وكذلك ج. كتن تمسن، لندن ١٩٢٨، الذي يعتبر مكملاً لكتاب ج. برنتن ١٩٤٨، الفصل ٦.

بالفيوم، وتسمى تلك المجموعة من المواقع بالفيومي لتمييزها من فيوم العصر الحجري الجديد أو فيوم (ب).

ان أصل عدانة النحاس بمصر ما زال محل نظر (٢٥). ويمكن ان تكون قد أتت من الخارج أي من الشرق الاوسط. فان كان الامر كذلك، فانه قد حدث بصفة محدودة جدا. فلا يمكن لنا أن نترك الفرضية القائلة بالتوافق، أي ان بعض سكان وادي النيل اكتشفوا بأنفسهم المعدن تقريبا في نفس الوقت الذي اكتشف فيه «بالهلال الحبيب». وفعلا فلقد كان السكان البدريون قد اكتشفوا في نفس العهد ولعل ذلك على سبيل المصادفة، الميناء الأزرق، وذلك بتسخين الأجرية أو اللوحات التي قد هرس فيها خضاب العيون، وهو خضاب يعتمد الدهنج (مالاشيت) وهو معدن من النحاس (٢٦)، وهكذا نستطيع ان نقول بأن سكان الوادي اكتشفوا في نفس الوقت النحاس الذي كانوا يخدمونه، وهو بارد، وهو ما نسميه «الحزف المصري» أي الميناء الأزرق، فأخذوا يستعملونه لصنع اللؤلؤ.

ومهما كان أصل المعدن الآسيوي أو الأهلي فان استعماله كان محدودا جدا وظلت الادوات الحجرية أكثر رواجاً سواء بالمجموعة الجنوبية أو بالمجموعة الشمالية. ومن المؤكد ان اكتشاف المعدن وانتشاره لم يبدل شيئا يذكر من التنظيم الاجتماعي الذي يمكن ان نتصوره اعتمادا على تنظيم الأضرحة.

ينقسم عهد ما قبل الملوك، من ٤٠٠٠ تقريبا الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، الى أربع مراحل تساعد على رسم تطور الوادي طيلة ذلك العهد الذي مازال مجهولا جدا مع الأسف. فنميز العهد التالية: ما قبل الملوك البدائي، والقديم، والوسيط، والمتأخر.

في عهد ما قبل الملوك (= البدري، الفصل ٢٥) ظلت المجموعتان الجنوبية والشمالية تتطوران كل واحدة من جهتها. ولقد عرفت تلك المرحلة بالجنوب اعتمادا على موقع بدري الذي يوجد قرب دير تاسة. ورغم ظهور المعدن، كان البدري (٢٧) مازال قريبا من العصر الحجري الجديد حتى تساءلنا أحيانا ان كانت تلك الثقافة مظهرا محليا بسيطا متغيرا من التاسي الحجري الجديد. ان دراسة الهياكل تبين من الناحية الجسمية ان البدرين من عهد ما قبل الملوك البدائي كانوا قريبين من المصريين القاطنين حاليا بنفس المنطقة. ولقد ظل السكان يقيمون بأكوخ بيضوية الشكل، وقد توفرت لهم مرافق الراحة أكثر مما كان الحال في العهد السابق، فكانوا يستعملون حصيرات منسوجة، ووسادات من الجلد وحتى أسرة من خشب. وكانت طقوس الموتى قد تطورت: فكانت الجثة معزولة بفاصلة خشبية في القبر البيضوي الشكل الذي توضع فيه. ولقد كان البدريون مثل أهل العصر الحجري الجديد التاسي، يزرعون الكتان و ينسجون، مع استعمال الجلد الحاصل من الصيد ومن تربية الماشية. وكانوا يعتمدون اقتصادا مزدوجا: فلقد أصبحوا فلاحين

(٢٥) انظر أ. لوکا، ص ٢٠١-٢٠٦. وحول أصل عدانة النحاس في الشرق الاوسط القديم، انظر ج. فوربس، ١٩٦٤، ص ١٦.

٢٣. أما الاسم المبرغلي للنحاس، فلم يحدد الا حديثا. انظر ج. ر. هاريس، ١٩٦١، ص ٥٠-٦٢.

(٢٦) أ. لوکا، ١٩٦١، ص ٢٠١.

(٢٧) المؤلفات الأساسية المخصصة لتلك الحضارة لا تزال هي مؤلفات ج. برتن، ١٩٢٨، ص ١-٤٢، ١٩٣٧، ص ٣٣-٦٦، ١٩٤٨،

ومر بين الماشية الا أنهم كانوا يقومون أيضا برحلات للصيد وصيد الأسماك. وظلوا يصنعون الأواني الحمراء والخزف الجميل الأحمر والجيد الصقل. ولقد مكن اكتشاف الميناء الصناع من صناعة اللآلي ذات اللون الأزرق الفاقع وكان خضاب العيون يهرس على لوحات من الشيست كان بعضها يزوق مثلها كان شأن الأمشاط العاجية وعلى هذا الأساس ابتدأ الفن ينشأ شيئاً فشيئاً.

ان عهد ما قبل الملوك البدائي (= الفيومي أ، الفصل ٢٥، يمكن أن تنتسب أحدث طبقة بمرمدة بن سلامة اليه)، يعرف بمجموعة الشمال اعتماداً على مواقع الفيوم (أ) (٢٨). فاستعمال الصوان فيه مظهر أكثر من استعمال المعدن لصنع الأدوات مثلها هو الشأن بالبديري. وكان صنّاع فخار الفيوم (ب) ينتجون أنواعاً من أشكال الأواني أكثر من صنّاع البديري، الا أن تقنيتهما كانت أقل جودة. والملاحظ أن الصناع من الشمال يتفوق من جديد على الصناع من الجنوب، وذلك بنحت أوعية وأوان حجرية رائعة، من الشيست الأسود خاصة. وتعتبر المجموعتان متقاربتين فيما تبقى، ولا يمثل كل واحد منهما الا تطوراً عادياً قد طرأ على الثقافة الحجرية الجديدة التي سبقته بعين المكان. فلا يوجد ما يدل على أنه حصلت باحدى المجموعتين، اختلافات محسوسة بين أعضائها، ولا يبدو خاصة أنه وجد ضمن المجموعة أشخاص أغنى من غيرهم، فكل شيء يجري كما لو أن المساواة في مستوى القانون الاجتماعي قائمة بين مختلف أعضاء الجماعة، مهما كانت أعمارهم وأجناسهم. ويصدق هذا بالطبع بعدما ثبت أن المقابر المعروفة والمحفورة هي مقابر المجموعة الانسانية المعنية بالأمر بأكملها. وذلك يعني بعبارة أخرى أن بعض أعضاء تلك المجموعة لم يدفنا خارج تلك المقابر على أساس التمييز بحسب الجنس أو الدين أو المنزل الاجتماعية.

ان عهد ما قبل الملوك القديم = (النجادي ١، الفصل ٢٥) ليس معروفًا مع الأسف الا بالاعتماد على مواقع الجنوب، وهو يسمى أيضاً بالأمرسي، نسبة الى المكان، وهو الأمر (٢٩) قرب أبيدوس، في ناحية الجنوب، وهو أبعد من بدري. ان الأمرسي يوافق ما يعرف أحياناً بثقافة نجادة ١، حسب تسمية فنلدرس بترى المعتمدة على الخصوص في التآريخ بالكربون ١٤.

ان الثقافة الأمرسية منحدره زمنياً من الثقافة البديرية، دون أن يكون انقطاع بينهما أيضاً، ويكون مستوى الأمرسي متصلاً اتصالاً مباشراً بمستوى البديري وذلك في بعض المواقع. ولقد كانت تلك الثقافة تنتج دائماً الفخار الأحمر الجميل ذا الحاشية السوداء، الذي أنتجته الثقافة السابقة لها. لكنها تنتج الفخار المزرق برسوم هندسية وطبيعية، مدهونة بالأبيض الكامد، على خلفية حمراء، وبنية حمراء. ويكون التزويق محتويًا على حزات يملأها بياض على خلفية سوداء. ولقد كان صانع الفخار الأمرسي يبدع أكثر من سابقه البديري. فاخترع أشكالاً جديدة تمثل خاصة الحيوانات ولعب الصيد دوراً مهماً في مواضيع التزويق الطبيعية، لا سيما صيد فرس البحر. ويبدو أن الانتقال في عهد ما قبل الملوك القديم من نظام اجتماعي مكون من قناصين وصيادي أسماك رحل، الى نظام قري أو مجموعات من الفلاحين المربين للماشية المستقرين لم يكن مكتملاً بعد.

(٢٨) لك. كتن تسمن، ١٩٣٤.

(٢٩) انظر: ج. فنديبي، ١٩٥٢، ص ٢٣١-٢٣٢. ولقد اكتشف الموقع سنة ١٩٠٠. ونشرته رندل ماسيفر، وأ. لك. ماسي، ١٩٠٢، ص ٣-٥٣.

ويجب أن نلاحظ أن السلاح الذي يختص به الأمرسي هو الهراوة التي كثيرا ما تكون منحوتة من الحجر الصلب، ولها شكل جذع مخروط (٣٠) وذلك أمر مهم لأن ذلك السلاح سيضمحل تماما بعد الأمرسي. وكان رمزا من رموز النظام الميرغليفي، وقد أعطى لها في العهد التاريخي صورة صوتية (٣١). وذلك يعني أن نظام الكتابة الميرغلفية ابتداءً يتكون بالعهد الأمرسي، أي بعهد ما قبل الملوك القديم، في حوالي ٣٨٠٠ سنة (وهو تاريخ وفرة الكربون ١٤).

وظل الفن يتطور فظهرت عندئذ التماثيل الصغيرة لرجال ذوي لحى، وهم يحملون علبة قضيبية، أو لنساء راقصات، أو لحيوانات متنوعة، وظهر في نفس الوقت عدد أكبر من لوحات الخضاب المزوقة والأشواط المزينة بصور حيوانية (٣٢).

إن مواقع الأمرسي المتجمعة بين أسبوط شمالا وطيبة جنوبا، تشمل خاصة مواقع نجادة، وبلاس، وهو، وأبيدوس. ونحن نأسف لأننا لا نعلم بالنسبة للمجموعة الشمالية وجود موقع معاصر للأمرسي، خاصة أنه توجد في هذا الأخير آثار واضحة عن اتصالات بين الجنوب والشمال لا سيما بظهور أوان حجرية بالأثاث المأتممي الأمرسي لها أشكال يختص بها عهد ما قبل الملوك الشمالي. ولا يوجد شيء بالاعادات المأتممية يدل على حدوث تغير في النظام الاجتماعي بين عهد ما قبل الملوك البدائي وعهد ما قبل الملوك القديم الأمرسي. فنحن دائما أمام مجموعات انسانية مكونة من أشخاص متساوين وإن كانوا يخضعون لسلطة رئيس واحد أو لسلطة مجموعة من الأشخاص.

ثم أخذت الثقافة الأمرسية بعد قرن من الوجود، أو أقل من ذلك، تنصهر بتدرج ثقافة جديدة معقدة تخلق عناصر من الأمرسي بعناصر أخرى من أصل شمالي واضح. إن تلك الثقافة المختلطة، أي عهد ما قبل الملوك المتوسط (= النجادي ٢، الفصل ٢٥، وربما العمري نفس المرجع)، أو الجرزي (النجادي ٢، في تسمية بتري) تستمد اسمها من موقع يسمى جرزة (٣٣) بمصر السفلى، قرب الفيوم، حيث ظهرت بوضوح، ولها مظهران أحدهما جرزي محض بالشمال والآخر خليط بين الأمرسي والجرزي بالجنوب (٣٤).

وقد تركزت تلك الثقافة شمالا بمنطقة منف - فيوم، والطرف الجنوبي من الدلتا. ويتميز الجرزي الشمالي في ميدان الفخار على الخصوص من خلال أوان لونها فاتح وشمواهي، وتتركب من مادة تختلف كثيرا عن مادة الفخار الجنوبي. إن تزيينها تزيين طبيعي بالطين الأحمر الموضوع على خلفية فاتحة، وله مواضيع جديدة تشمل جبالا، وإيباكسا ونحاما والوة وخاصة مراكب. إن صناع الجرزي مثلهم مثل صناع الفيوم (أ) الذين خلفوهم كانوا يصنعون أواني من حجر و يضيفون للشبيست حجارة أكثر صلابة متكونة من ثلم، وبزلت ودير يت، وسر بنتين. إن السلاح الذي تختص به تلك الثقافة هو الهراوة الأكثرية الشكل (٣٥) التي ستصبح السلاح الممتاز في أوائل

(٣٠) انظر: في شأن تلك الهراوة و. م. بتري، ١٩٢٠، لوحة ٢٥، ص ٢٢ - ٢٤.

(٣١) أ. هسغردن، ١٩٥٧، ص ٥١٠ - مجلد ١.

(٣٢) ج. ل. سنفال، ١٩٧٣، ص ٦ - ٢١.

(٣٣) إن قرية جرزة تقع في مستوى الفيوم، وبالتالي في أقصى جنوب القاهرة الحالية. وقد أجريت الحفريات في موقع عهد ما قبل الملوك عام ١٩١١. انظر، و. م. بتري، مكى، وج و ينرايت، ١٩١٢.

(٣٤) ج. فركوتيتي، ١٩٦٧، ص ٢٤٥ - ٢٤٧، وج فندبي، ١٩٥٢، ص ٢٤٨، ٢٥٢، ٤٣٦ - ٤٩٦.

(٣٥) و. م. بتري، ١٩٢٠، لوحة رقم ٢٦ وص ٢٢ - ٢٤.



التاريخ وستظل مثل الهراوة الأهرسية إحدى رموز الكتابة الهيروغليفية (٣٦). ونلاحظ أيضا تطورا اجتماعيا ودينيا. فالأموات أصبحوا يدفنون في قبور مستطيلة الشكل رؤوسهم الى الشمال، ووجوههم نحو الشرق لا نحو الغرب. أما المراكب التي كانت ترسم على أواني الفخار الجرزية، فإنها تحوي في جُجُثها «علامات» يعبر ألا نرى فيها أسلاف شعارات «النوم» أو الولايات المصرية الفرعونية.

وهكذا يبدو أن المجموعات الانسانية قد تجاوزت مرحلة الأسرة والقرية وتجمعت نهائيا ضمن زمر أكبر حجما. ان القوة الناتجة عن ذلك التنظيم الاجتماعي قد سمحت بلا شك باستغلال أحسن للوادي اعتمادا على الري. وستوفر نتيجة لذلك ثورة أكبر ستظهر في إنتاج الأشياء المهدومة، كالأواني الحجرية الوافرة الحميلة والأدوات والأسلحة النحاسية الوافرة، ومنها الأمقاص والخناجر، وحدود المخاطيف والفؤوس. وليس من باب المصادفة بدون شك ان تعتمد الحلبي المأتمية في ذلك الوقت على الذهب وعلى الحجارة نصف النفيسة مثل اللازورد والكلسدون، والفيروز والكرنلين، والعقيق. وقد أخذ النحت يتطور ويظهر من المواضيع المثلثة، كالباز ورأس البقرة خاصة، ان الديانة الفرعونية كانت هي نفسها في مخاض، اذ كان هروس الباز، وهاتور البقرة يعبدان.

وفي الجنوب كانت الثقافات التي تلت الأهرسي من عهد ما قبل الملوك القديم قد خضعت لتأثيرات جرزية عميقة. ولذلك يوجد الفخار الجرزي الكلاسيكي، الشموهي (Chamois)، ذو التزيين الطبيعي الأحمر، جنبا الى جنب مع الفخار الجنوبي التقليدي، الأحمر ذي الحاشية السوداء أو ذي التزيين الأبيض الكامل.

وفي الحقيقة كان التأثير متبادلا بين المجموعتين وكانت المشابهات بين المجموعتين عديدة في ذلك العهد، لا سيما فيما يتعلق بالأدوات الحجرية. ولقد بلغت تقنية نحت سكاكين الصوان أوج جودتها وكان ألواح الخضاب الشيسيتية متشابهة. وكان كل شيء ينمو نحو انصهار المجموعتين الثقافيتين انصهارا كاملا.

ان الانصهار بين الجنوب والشمال سيتحقق في عهد ما قبل الملوك الحديث أو الجرزي الحديث (يدعى أحيانا السماي (= العمري (ب) والمعادي، الفصل ٢٥ ص (٣٧). وهذا الحدث يُفْضي بنا الى عتبة التاريخ لأن مدة تلك الفترة كانت قصيرة جدا. فإذا احتفظنا بتاريخ ٣٠٠٠ سنة كبدية التاريخ — وذلك ما فعلناه حتى نظل أوفياء لتواريخ ما زالت مقبولة تقليديا — فقد تكون تلك المرحلة لم تدم أكثر من جيلين أو ثلاثة على أقصى تقدير. ويفيد تاريخ حصل بالكربون ١٤ ومطبق على عهد ما قبل الملوك المتوسط، بأن ذلك العهد كان لا يزال مستمرا في سنة ٣٠٦٦ قبل الميلاد، وبذلك تبقى ثلاثة أرباع قرن فقط للانتقال من نهاية عهد ما قبل الملوك المتوسط الى بداية التاريخ. وفي الواقع يجب ان ننقص قرنين تقريبا من تلك البداية. ولكن، حتى لو ضبطناها بحوالي ٢٨٠٠ سنة قبل الميلاد (٣٨) فلم يبق الا قرنان أو أكثر بقليل لكي تنتهي مرحلة شهدت اكتمال استصلاح وادي النيل الأسفل واقامة نظام اجتماعي يحكمه نظام ملكي ذو سلطة إلهية.

(٣٦) ١. ه. غردنر، ١٩٥٧، ص ٥١٠ ملج ٣.

(٣٧) العبارة وضعها فلندرنس بتري. وسمانه هي قرية من صعيد مصر، قرب قنا، انظر أيضا ج. فركوتني، ١٩٦٧، ص ٢٤٧ - ٢٥٠.

(٣٨) أ. شارف، ١٩٥٠، ص ١٩١.

ان تلك المرحلة على غاية من القرب من المرحلة التي تشهد ظهور النصوص المكتوبة حتى أن بعضهم سعى الى تعميم المعلومات التي وفرتها تلك النصوص على ما يخبرنا به علم الآثار (٣٩). ان النصوص تجعلنا نعتقد حسبا يبدو، أن أقوى مدينة بالجنوب كانت في نهاية عهد ما قبل الملوك الحديث، ان لم تكن في نهاية عهد ما قبل الملوك المتوسط، هي مدينة أمبوس (تسمى النوبة في مصر اليوم). وهي تقع قرب نجادة، أي في قلب الثقافة الأمرسية. كان إله المدينة هوسث، وهو إله حيوان ما زالت طبيعته محل نقاش. فلقد اعتبر أنه آكل نمل، ونوع من أنواع الخنزير وزرافة. وحيوان أسطوري قد اندثر قديما من الحيوانات المصرية. ان النصوص تفيد أن ذلك الإله الجنوبي دخل في صراع مع إله — بازهوهوروس المعبود بمدينة بهدت التي كانت موجودة بالذلتا، أي في لطاق الشقافة الجزرية. ولذلك كانت مصر في نهاية عهد ما قبل الملوك المتوسط مقسمة الى بنيتين اجتماعيتين، احدهما بالشمال، يشرف عليها هوروس، في بهدت، والأخرى بالجنوب تخضع لست، بأمبوس.

ان المراجع المتوفرة لا تسمح هنا مع الأسف بضبط طبيعة البنيتين الاجتماعيتين، ولا نستطيع سوى أن نتصور أهمية دور رئيس المجموعة، وهي أهمية تعتمد على سلطة سحرية ودينية، ما لبثت في العهد التاريخي ان اصطبغت بالصبغة الإلهية التي كان يتمتع بها شخص الملك (٤٠). ويمكن لنا ان نقول بأن رئيس المجموعة كان يتمتع بسلطة لا حد لها عمليا، يطبقها على أعضاء المجموعة التي كانت بدورها تستطيع قتل الرئيس اذ انقصت سلطته السحرية (انظر موري، اعدام الإله بمصر). ان تأويل النصوص، يجعلنا نقول بأن الصراع بين المجموعتين انتهى في المرحلة الأولى، بانتصار الشمال على الجنوب، ونشأت على اثر ذلك مملكة موحدة، كان مركزها عين شمس (هليوبوليس) (٤١) قرب القاهرة، أي على بعد ٦٠ كلم شمالا من موقع جرزة. ان انتصار الشمال على الجنوب اذا ترجم بلغة علم الآثار، يوافق تغلغل الثقافة الجزرية في الميدان الأمرسي. ولنستمر في تأويل النصوص لنقول بأنه حدث تطور سياسي واجتماعي في المجموعتين سواء بالشمال والجنوب طيلة عهد ما قبل الملوك الحديث. ان الوحدة السياسية الناتجة عن انتصار الشمال على الجنوب في نهاية عهد ما قبل الملوك المتوسط، أو في بداية عهد ما قبل الملوك الحديث لم تدم كثيرا وعادت كل مجموعة الى حياتها المستقلة. ونلاحظ على إثر ذلك التطور أن المركز السياسي بالشمال انتقل من بهدت، التي نجعل موقعها بالضبط، الى بوتوبالذلتا الغربي، على بعد ٤٠ كلم من البحر، وتلك منطقة عس فيها بلوغ مستويات أثرية معاصرة لعهد ما قبل الملوك. ولقد انتقلت في نفس الوقت عاصمة الجنوب من أمبوس الى الكاب (وكانت تسمى النكب بالمصرية القديمة) على بعد ١٠٠ كلم نحو الجنوب (٤٢)، وبذلك اقتربت مجموعة الجنوب أكثر من خط الاستواء ومجموعة الشمال أكثر من الشمال...

(٣٩) يعتبر عمل ك. سائيه، ١٩٣٠ الممتاز، هو الكتاب المعتمد.

(٤٠) انظر: ج. بوزنر، ١٩٦٠.

(٤١) ك. سائيه نفس المرجع - نظرية رفضها ه. كيس، ١٩٦١، ص ٤٣.

(٤٢) ج. فركوتي، ١٩٦٧، ص ٢٤٨-٢٤٩.

وكان يعبد في بوتو لإلهة في صورة حية (كوبرا)، اسمها واجيت، وفي الكاب كان يعبد صقر أنثى. وسيظل الالهان في العهد التاريخي يحميان الفراعنة ويمثلان بانتظام في «المراسم» المنظمة من أجل الملك (٤٣) وذلك بمناسبة احتفالات التتويج. وكانت بعض الوثائق، المالية بما يقرب من ألف سنة قد حافظت على أسماء ملوك تلك المجموعات السياسية في نهاية عهد ما قبل الملوك الحديث، ولكن لم يصلنا من تلك الوثائق الا القليل. ويبدو ان الوحدة الثقافية بين الجنوب والشمال قد تمت منذ ذلك العهد. ولذلك كان الاله هوروس الذي أصله من الشمال، معبودا أيضا بالجنوب، وكان الرؤساء السياسيون بالجنوب والشمال، يعتبرون أنفسهم من خدمه أو من أنصاره و يطلق عليهم لقب شمسو هوروس (٤٤).

ولا يوجد، من الناحية المادية، الا اختلاف ضئيل بين حضارة عهد ما قبل الملوك المتوسط وحضارة عهد ما قبل الملوك الحديث، ولكن نلاحظ تقدما ثابتا في مستوى الفن والتقنية. فلقد أصبح الوجه الانساني موضوعا كثيرا ما تناوله الفنانون. وظهر الرسم الجداري في هيرا كنبوليس (تسمى «نكن» بالمصرية القديمة)، وهو مركز هام على الضفة الغربية من النهر يكاد يكون مواجهها للكتاب (٤٥). ولقد أصبحت هيرا كنبوليس مهد الملكية الجنوبية التي شرعت في حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد في محاربة الشمال.

فكم دام ذلك الصراع؟ من المستحيل معرفة ذلك. فقد استغرق كل السنوات الأخيرة من عهد ما قبل الملوك الحديث وانتهى بانتصار الجنوب على الشمال وبانشاء دولة موحدة تجمع كل الوادي من الكاب الى الأبيض المتوسط. وقد حكم الدولة ملوك من الجنوب، أصلهم من مدينة ثيس (٤٦) الواقعة قرب أبيدوس، ومنهم نشأت الأسرتان الأوليان المعروفتان بالثينيتية. ولذلك كانت الحقبة القصيرة من عهد ما قبل الملوك الحديث كثيرا ما توصف بالعهد ما قبل الثينيتي.

ان المعالم الأثرية الماقبل الثينيتية التي بقيت الى هذا العهد وجدت كلها في هيرا كنبوليس (٤٧). فهي تتكون أساسا من لوحات خضاب نذرية (٤٨)، مؤرخة، من الشبيست، ومن رؤوس هراوات كلسية، منقوشة. ان المشاهد المرسومة على النوعين من الآثار تنيرنا قليلا عن النظام السياسي والاجتماعي الذي كان سائد بوادي النيل الأسفل. وكانت البلاد مقسمة الى مقاطعات، أو مجموعات انسانية نرى شعاراتها تصاحب الملك في المناسبات الكبرى.

ان مقارنة الشعارات المرسومة على المراكب الجرزية وعلى اللوحات أو الهراوات الما قبل ثينيتية برمز «النوم Nomes» أو المقاطعات، المرسومة على المعالم الأثرية الباقية من العهد التاريخي تبين ان تطور النظام الاجتماعي منذ الجرزي بوادي النيل الأسفل، شمالا وجنوبا، أخذ يتقدم في

(٤٣) انظر: ا. هـ. غردنر، النور المصري، الطبعة الثالثة، لندن ١٩٥٧، ص ٧١ - ٧٦.

(٤٤) انظر: في شأن شمسو هوروس، ج. ف. بديني، ١٩٦٢، ص ١٢٩ - ١٣٠ و ٦٣٥ - ٦٣٦.

(٤٥) وفرت هيرا كنبوليس معالم عديدة من عهد ما قبل الملوك. انظر: برتر- ميس، ١٩٣٧، ص ١٩١ - ١٩٩.

(٤٦) لم يكتشف موقع العاصمة. ان وجود مقبرة ملكية من ذلك العهد (انظر: و. م. ف. بترى، ١٩٠١) على الضفة الغربية من النيل، بأبيدوس يدل على ان المدينة كانت على مقربة من المقبرة.

(٤٧) استكشف الموقع سنة ١٨٩٨ - انظر: ج. ا. كيبيل، هيرا كنبوليس، لندن ١٩٠٠ - ١٩٠٢.

(٤٨) قام بجمع أجلاها و. م. ف. بترى، ١٩٥٣.

إطار جغرافي واقتصادي وليس في إطار عرقي. فكانت المجموعة الانسانية تنتظم حول موقع « وحول آلهة وكان ذلك ناتجا عن المستلزمات الزراعية التي فرضها نظام النيل على الوادي بالشمال أو بالجنوب. فالمجموعة لا تستطيع أن تعيش ولا أن تتطور إلا إذا كانت وافية ومنظمة تنظيما كافيا لتنجز الأعمال التي تحمي أرضها من الفيضانات، ولتوسع في الأرض المفلوحة، ولتوفر مدخرات ضرورية حتى تجابه التقلبات الناتجة عن فيضان النهر. ويعتبر التنظيم الحدث الهام والقار غالب في النظام الاجتماعي بوادي النيل الأسفل. ومن الممكن أن يكون هذا النظام القائم في نهاية الأمر على توزيع جغرافي قد حل محل نظام منه يركز على قاعدة عرقية أو اجتماعية. وذلك ما نستشفه من ثلاث كلمات مصرية موجودة في فجر التاريخ والتي ستدوم إلى آخر الحضارة المصرية. وتلك الكلمات هي: بات، و. وهنمت (٤٩). التي يبدو أنها مرتبطة بثلاث مجموعات بشرية كبرى: مجموعة البات، وهم الصعيد الذين يعبدون هوروس، ومجموعة الرخيت، وهم سكان الوادي الأسفل المغلوبيين في عهد ما قبل الملوك الحديث ومجموعة الهنمت أو «شعب الشمس» وهم سكان المنطقة الموجودة بين البحر الأحمر والنيل. إن تلك المنطقة التي كانت مسكونة في العصر الحجري الجدد عهد ما قبل الملوك منطقة مهمة بالنسبة لاقتصاد الوادي. لأنها وفرت المعادن والنحاس والذ وقد يكون هذا النظام الاجتماعي العرقي العظيم هو الذي انقسم إلى وحدات جغرافية وز صغيرة. وسيكون دور الملكية سياسيا بحثا، إذ قامت في أول الأمر بجمع تلك المقاطعات كنفدراليتين كبيرتين، أحدهما في الشمال والأخرى في الجنوب، ثم وحدثت في مرحلة ثانية الكنفدراليتان ضمن مملكة واحدة، وبذلك وفرت استصلاحا أحسن لمجموع البلاد الم ستكوت تلك المهمة الثانية من أعمال الفراعنة الشينيتيين الأولين وعندئذ ندخل في التاريخ.

## وادي النيل الأعلى (من ٥٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد)

إن مختلف الثقافات بالوادي الأسفل من النيل التي سبق أن رأيناها لا تتجاوز منطقة أ. جنوبا. وتنسب منطقة أسوان والشلال الأول إلى ميدان ثقافي آخر. ويبدو أن سكان وادي الأعلى يقتربون عرقيا من سكان مجموعة الجنوب من الوادي الأسفل: وهم البديريون والأمر. ويمكن بدون شك أن نوسع تلك المقاربة إلى أجناس مجاورة من الصحراء الشرقية كلها أمك الاعتماد على دراسات بشرية، وإن كانت هذه الدراسات مازالت قليلة العدد (٥٠). إن العصر الحجري الجديد وعهد ما قبل الملوك غير معروفين كما ينبغي في مصر كما رأينا، للعدد الضعيف من المواقع التي استكشفت استكشافا علميا. والحالة أسوء من ذلك بالوادي إذ أن القسم الشمالي، بين الشلال الأول والشلال الثاني، يعتبر الوحيد الذي استكشف نسبيا. كان ينبغي أن نلاحظ أن نتائج الحفريات الجارية من سنة ١٩٦٠ إلى ١٩٦٦ لم تكن جزئيا (٥١).

(٤٩). أ. هـ. غردنر، ١٩٤٧، ص ٩٨ + ١١٢.

(٥٠). انظر: في النهاية: و. ف. نيلسن، ١٩٧٠، ص ٢٢، المراجع ص ١٣٦ - ١٣٩.

(٥١). انظر: فيما يخص المجهود التي تبذلها المؤلفات التالية: ف. وندورف، ١٩٦٨ و. هـ. نردسترم، ١٩٧٢.

اما فيما يخص الشلال الثاني الى البحيرات الاستوائية الكبرى فان العناصر النادرة المعروفة مستمدة من تقارير استكشاف بالسطح، لأنه لم يحفر الا عدد ضئيل من المواقع، ولذلك فإن معارفنا محدودة جدا زمنيا ومكانيا فيما يخص الوادي الأعلى والوادي المصري.

### العصر الحجري الجديد (+ ٥٠٠٠ - ٣٨٠٠ قبل الميلاد)

لقد حفر لأول مرة موقع ثبت أنه من العصر الحجري الجديد وذلك بمنطقة الخرطوم. إن الثقافة التي كشف عنها، والمعروفة أحيانا باسم العصر الحجري الجديد الخرطومى، تسمى عادة ثقافة الشهبان (= الشهباني، الفصل ٢٥) نسبة الى اسم الموقع الذي عرف بها (٥٢).

إن الشهبان موقع سكني لم يعثر على أضرحتة، إلا أن الأدوات الوافرة المستعملة في الحياة اليومية والتي وفرها تدل على أن السودانيين من الشهبان القناصين وصيادي الأسماك خاصة، كانوا أيضا يربون الماشية. إن دراسة فخارهم، المزين باستعمال مدقة للطبع، تبين أنهم ربما كانوا ينحدرون من ثقافة عصر حجري جديد أكثر قدما قد عثر على آثارها بموقع بالخرطوم نفسها. إن ذلك الموقع، وهو الخرطوم المبكر (٥٣) (= الخرطومى، الفصل ٢٥). وقد وفر هو أيضا قبورا كلك قد دفن بها زوج. فإن كان الشهبان منحدرًا من الخرطوم المبكر، كما يبدو، وجب أن نقرأ هنا أيضا أمام سكان سود، يتألفون من قناصين وصيادي أسماك كانوا يصارعون أيضا الأسود، والجواميس، وأفراس البحر والظباء، والغزلان، والأر بكس، والأرانب البرية، وقد وجدت عظامهم بمواقدهم. وكان سلاحهم يتكون من فؤوس مصقولة وهراوات نصف كروية الشكل اعتبرت أحيانا سابقات للهراوات المخروطية الجذع الأرسية. وكانوا يخدمون الخشب ويحسون النسيج، إلا أنهم يفضلون الجلد حسبما يبدو في لباسهم. وتسمى حضارتهم أحيانا «ثقافة المنقر» نظرا للعدد الكبير من تلك الأدوات المكتشفة بالموقع. وبالاعتماد على فخارهم المتميز كان من الممكن إقامة البرهان على أن ثقافة الشهبان قد امتدت نحو الغرب (تنري والتبستي) ونحو الشرق على ضفاف النيل الأبيض والنيل الأزرق، جنوب الخرطوم. ولا يوجد ما يسمح بأن نضبط ما كان عليه تنظيمهم الاجتماعي.

وقد يكون من المفيد أن نعرف كيف كانت العلاقات بين العصر الحجري الجديد بالشهبان ونفس العصر بالوادي الأسفل، وبالفيوم خاصة. ولكننا لا نعرف مع الأسف موقعا واحدا بشمال الخرطوم، بين الشلالين السادس والثاني يسمح بأن نعقد مقارنات مفيدة. إن الأعمال الحديثة بالنوبة السفلى، جنوب الشلال الثاني، تفيد أن العصر الحجري الجديد بتلك المنطقة قريب جدا من نفس العصر بالشهبان، إلا أنه يختلف عنه بعض الشيء، إلى حد جعل الأثرين الأنكلوسكسون الذين درسه يصفونه «بالخرطوم المتنوع» (٥٤).

إن الانتقال من العصر الحجري الجديد إلى عهد ما قبل الملوك، أي إلى عصر النحاس بالوادي الأعلى مازال مجهولا جدا. وقد تدل الأضرحة الموجودة بملتقى النيل الأبيض والنيل الأزرق على وجود

(٥٢) — انظر: أ. ج. أركل ١٩٥٣.

(٥٣) — انظر: نفس المرجع ١٩٤٩.

(٥٤) ف. وندورف، ١٩٦٨ ص ٧٦٨ - ٧٩٠ وه. نردسترم، ١٩٧٢، ص ٩ - ١٠.

ثقافة متأثرة في ذلك المكان بعهد ما قبل الملوك النوبي، المعروف بالمجموعة أ (انظر أعلاه). إلا أن تلك الثقافة لا يمكن أن تؤرخ تأريخاً مضبوطاً.

وعلى العكس من هذا اكتشفت حديثاً صناعة، بالشلال الثاني تدعى الأبكي (أبكن) (٥٥) (= الأبكي، الفصل ٢٥)، نسبة إلى موقع «أبكي»، حيث هي ممثلة تمثيلاً جيداً. ولا نعرف عنها إلا صناعتها الحجرية وفخارها. ولم ينشر شيء عن المواقع التي عثر فيها عليها. ويبدو مما نعرف أن تلك الثقافة تنتسب إلى سكان يتعاطون صيد الحيوانات والسماك، مثلها مثل ثقافة الشهبان. إلا أن صيد الحيوانات بها أقل انتاجاً، ولعل ذلك يعود إلى حلول مرحلة التجفاف التي جاءت بعد «المرحلة الرطبة». ويبدو أن رجال أبكي يستعملون في صيد الأسماك، فخاخاً كبيرة قارة، وضعت بمهارة في قنوات الشلال عندما تنخفض فيها المياه، فكانت الأسماك تظل أسيرة بها عندما يغيب الماء. إن جني الثمار والنباتات الوحشية يكمل تلك الموارد. وصنع الفخاخ المتركة من جدران حجرية مساحتها واسعة، يستلزم وجود نظام اجتماعي معين. ولا توجد علاقة نسب بين هذه الثقافة وثقافة الشهبان التي اتخذت في نفس المكان شكل «الخرطوم المتنوع» وتميزت عنها كثيراً، رغم أنها معاصرة لها. وعلى هذا، فهي شكل خاص من العصر الحجري الجديد الذي لا يدين بشيء. لا للجنوب ولا للشمال. على أنه يبدو أن عهد ما قبل الملوك النوبي قد نشأ عن العصر الحجري الجديد الأبكي.

### عهد ما قبل الملوك (٣٨٠٠ - ٢٨٠٠ قبل الميلاد)

عندما قررت الحكومة المصرية سنة ١٩٠٧ أن يرفع إلى سبعة أمتار علوسد أسوان الأول، وهو قرار يترتب عليه فيضان المياه على النوبة السفلى، من الشلال إلى كرسكو، جرى استكشاف أثري شامل بالمنطقة التي ستفيض عليها المياه. إن الأثرين الذين لاحظوا اختلافات الثقافات بين مصر المعروفة لديهم معرفة حسنة، والنوبة، وضعوا نظاماً مؤقتاً للتصنيف يعتمد على الحروف للدلالة على الثقافات التي كان يحتمل أن يعثروا عليها، وميزوا اعتماداً على تأريخ نسبي بين المجموعة (أ) والمجموعة (ب) والمجموعة (ج) الخ (٥٦). ومن ذلك الحين بذلت محاولات لوضع نظام يقلد نظام الوادي الأسفل، بحيث يكون النوبي القديم والنوبي الوسيط يوافق الأمبراطوري القديم والأمبراطور الوسيط (٥٧) ولقد عدل عن ذلك نظراً إلى الصعوبات القائمة في وجه توسيع نطاق ذلك النظام، من النوبة إلى الشمال من الشلال الثاني، وإلى شلال الجنوب. وسنظل إذن نستعمل اسم المجموعة (أ) التي تشمل عهد ما قبل الملوك.

تمتد المجموعة (أ) (٥٨) زمنياً من نهاية العصر الحجري الجديد، أي حوالي ٣٨٠٠ سنة إلى نهاية الأمبراطورية المصرية القديمة، إلى حوالي ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ويمكن أن نميز بها ثلاث مراحل:

(٥٥) وصفت تلك الصناعة ب. ف. وندورف، ١٩٦٨ ص ٦١١-٦٢٩ وانظر أيضاً هـ. نردسترم، ١٩٧٢ ص ١٢-١٦.

(٥٦) ج. ١. رايسنر، ١٩١٠ ص ٣١٣-٣٣٢.

(٥٧) ب. ج. تريغر، ١٩٦٥ ص ٦٧ وما بعدها، وشكل ١ ص ٤٦.

(٥٨) لم تنشر إلى الآن كل التقارير عن الحفريات التي جرت بالنوبة إثر نداء اليونسكو سواء بمصر أو بالسودان. انظر فيما يتعلق

بالمجموعة (أ) ما ألف، وهو مؤلف هـ. أ. نردسترم ١٩٧٢ ص ٣٢، ١٧.

المجموعة (أ) القديمة، من ٣٨٠٠ الى ٣٢٠٠ سنة تقريبا، والمجموعة (أ) الكلاسيكية، من ٣٢٠٠ الى ٢٨٠٠ سنة تقريبا، والمجموعة (أ) المتأخرة (المجموع ب القديمة)، من ٢٨٠٠ الى ٢٢٠٠ تقريبا. ولن نهم هنا الا بالمرحلتين الأوليين.

تعتبر المجموعة (أ) غير معروفة كثيرا (٥٩) فلقد لوحظ إثر الحفريات الحديثة بالنوبة السودانية بين ١٩٦٠ و ١٩٦٦ أن الحضارة «النحاسية» للمجموعة (أ) تلي مباشرة حضارة الأبكي من العصر الحجري الجديد. فيجب انتظار نشر التقارير الكاملة للحفريات حتى تتكون لنا فكرة أكثر دقة عما تشمله تلك المجموعة. ويدوان موقع خوربهان، بالنوبة السفلى، جنوب شلال، ينسب الى تلك المرحلة القديمة وأنه معاصر للجرزي، وبالتالي لعهد الملوك الوسيط المصري. لقد كانت الزراعة وتربية الماشية، المفقودتان في العهد الأبكي، تمارسان بالنوبة السفلى، اذ ان مجموعات الفلاحين الذين كانوا يستعملون تقنية خاصة بالوادي الأعلى، كانوا يقيمون أثناء انخفاض المياه، سدودا من الحجارة عموديا بالنسبة لمجرى النهر، وهي سدود كانت تبطيء حركة التيار، وتيسر وفقا لذلك ترسب الطمي بالحقول على شواطئ النيل، كما توسع في مساحة الحقول. يضاف الى ذلك ان العثور على عظام بقر وماعز بالقبور— وأصلها بدون شك من تضحيات مأتمية — يدعو الى الاعتقاد بأن تلك المجموعات البشرية كانت من أشباه الرُّحل. فنظرا الى كون الحقول لم تكن كافية لتغذية عدد كبير من الحيوانات يمكن ان تصور أن القطعان كانت ترحل في جزء من السنة الى الهضاب المجاورة التي كانت سهبا مثلما يدل على ذلك وجود الظباء والأسود.

ان اكتشاف أدوات نحاسية بمواقع المجموعة (أ) القديمة يثير قضية انتشار ذلك المعدن بالوادي الأعلى. ان أفارقة المجموعة (أ) مثلهم مثل أهالي البدري، كانوا يستعملون الدهنج (Malachite) خضابا للعيون وكانوا يهرسونه على لوحات من المرو وكانوا يعرفون صنع العجين للطلاء الخزفي (الخزف المصري). وبما أنه توجد مناجم معدن النحاس بالنوبة، وكانت تستغل منذ عهد قديم جدا، فانه من المحتمل جدا ان تكون الأشياء النحاسية الموجودة بمواقع المجموعة (أ) القديم (لا سيما الابر) من صنع محلي بحث (٦٠).

ويبدو ان المستوردات من الشمال تقتصر على أوان حجرية من الألباتر، والشيسيت، والرخام الصناعي، وعلى مواد خام، وعلى الصوان الذي لا يوجد أسنانا في الحث (Gres) النوبي، في حين أنه متوفر بكثرة بمصر. ويتكون الفخار من النوع الأحمر ذي الحاشية السوداء. والنوع المصنوع محليا يعتمد على تقنية ممتازة. ان أهالي المجموعة (أ) كانوا في صنع الأدوات والأسلحة يستعملون الحجر والعظم أكثر من المعدن. ان السكاكين والهاويات التي لها أشكال شبيهاتها بالأمرسي، مصنوعة من الصوان أو من الديوريت أو البزلت، وكانت الابر والمشابك والمثاقب تتكون غالبا من العظم أو العاج. ولقد ظهر الذهب في الحلي، وكان لوحات الخضاب الشيسيتية مستوحاة بدون شك من اللوحات المصرية. لكننا نجد لوحات من المرو الأبيض التي تعتبر من خصائص ثقافة المجموعة (أ) (٦١).

\* (٥٩) هـ. نورد ستروم، ١٩٧٢ ص ١٧ — ٢٨ وما بعدها.

(٦٠) نلاحظ أن معدن النحاس بالامبراطورية القديمة كان يعالج بعين المكان في بوهن على الخصوص. انظر: و. ب. أمري،

١٩٦٥، ص ١١١، ١١٤.

٦١) ف. هنري، ١٩٦٧ ص ٤٤.

ويُلبى المجموعة (أ) القديمة التي لا نعرف عنها الكثير، المجموعة (أ) الكلاسيكية، وهي — إذا نظرنا إلى الأضرحة والمقابر التي تركتها — قد شهدت ما يمكن أن نسميه انفجارا سكانيًا. (٦٢) إن المجموعة (أ) الكلاسيكية القريية جدا ماديا من سابقتها، تتميز عنها بأهمية عدد كبير من الأشياء المجلوبة من الوادي الأسفل. ولقد اعتبرت تلك الظاهرة دليلا على نشاط التجارة بين الوادي الأسفل والوادي الأعلى من النيل، وكان الفخار يتميز بقيمة وجودة رفيعة، إلا أنه كان يشمل عددا كبيرا من الأواني المستوردة من النوع الجرزي ذي اللون الفاتح، وهي أوان للاستعمال يحتمل أنها كانت تحتوي على مواد معرضة للزوال، (الاسيا الزيت)، وكانت تستورد بالمقايضة مع العاج أو الآبنوس المجلوبين من الجنوب.

ظلت ثقافة المجموعة (أ) الكلاسيكية تزدهر حتى حدود ٢٨٠٠ سنة تقريبا، ثم فجأة كادت تنقرض تماما، وتركت مكانها لثقافة ضحلة جدا من المجموعة (أ) المتأخرة (مجموعة ب القديمة) (٦٣). ولقد اعتبر ذلك الانقراض نتيجة هجومات مصرية قادها فراعنة من الأسرة المالكة الشينيتية. وتوجد نقوش مصرية من ذلك العهد، اكتشفت قريبا من شمال الشلال الثاني، وهي تجعل هذا التأويل محتملا. لكن ذلك يخرجننا على كل حال من عهد ما قبل التاريخ.

وإذا أردنا أن نلخص، فيما يتعلق بوادي النيل، تلك الحقبة المجهولة، ولكنها على غاية من الأهمية، والتي تمتد من العصر الحجري الجديد إلى نهاية عهد ما قبل الملوك، يمكن أن نقول إنها تميزت في الوادي الأسفل بالانتقال من نظام اجتماعي قائم على الأسر أو المجموعات الضيقة من الصيادين للحيوانات والأسماك، والمتعاطين قليلا لتربية الحيوان، وشيء من الزراعة على ضفاف النهر، وبحوار الفيوم، إلى نظام معقد خاص بالأهالي المستقرين المنظمين حسب قرى أو مجموعات من القرى، والممارسين للرعي والزراعة المتخصصة. وكان تلك القرى موحدة في حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد تحت سلطة رئيس واحد، وهو فرعون الذي كان يحكم الوادي الأسفل، من الشلال الأول إلى الأبيض المتوسط.

نلاحظ في الوادي الأعلى، انتقال مجموعات بشرية من صيادي الأسماك والحيوانات والمتعاطين قليلا لتربية الحيوان، إلى نظام يجمع مربي الماشية والفلاحين، فهؤلاء وإن كانوا من أشباه الرحل، إلا أن لهم روابط جغرافية على طول النهر حيث كانوا يصنعون سدودا لتتوسع ثقافتهم. وكان بناء تلك السدود يستدعي تنظيما جماعيا هاما، إلا أنه كان أقل أهمية مما هو عليه بالوادي الأسفل. ونشهد طيلة ذلك العهد وابتداء من ٣٣٠٠. النحاس ينتشر بوادي النيل كله. وبالرغم من أن أصل عدانة النحاس مازال غير معروف ومازال محل نقاش، فلا يستبعد أن تكون هذه العدانة قد نشأت أو استحدثت من جديد بوادي النيل.

(٦٢) ب. ج. تريفز، ١٩٦٥، ص ٧٤ — ٧٥.

(٦٣) ا. ه. س. سميث، ١٩٦٦، ص ١١٨ — ١٢٤.



## العهد التاريخي، من ٣٠٠٠ سنة الى القرن الخامس ق. م.

لما ظهرت النصوص المصرية الأولى، في حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، كانت النظم الاجتماعية قد استقرت على ما يبدو في مجموع وادي النيل ولم تتطور أبدا فيما بعد. ففي الجنوب يوجد نظام ملكي قائم على الحق الإلهي، وبحكم مجموعة من الأشخاص المتساوين في الحقوق — على الأقل نظريا — أمام الملك. وفي الجنوب، يبدو النظام أقل تصلبا، فهو باعتبار الترحال أو شبه الترحال، نظام قائم في معظم الأحيان على الأسرة، وظل قائما طيلة العهد الذي يمتد من ٣٠٠٠ سنة الى القرن الخامس قبل الميلاد. ان وادي النيل لم يخضع لنظام اجتماعي يشابه تقريبا نظام الوادي المصري الا في نهاية ذلك العهد، بين الشلال الأول وملتي النيلين الأبيض والأزرق. ونظرا الى الصفة القارة التي تخصص بها النظم الاجتماعية طيلة ذلك العهد، سنعرض بسرعة لتطورها. وسنؤكد كثيرا على الحدتين الثقافيتين اللذين أثرا في ذلك العهد: وهما اختراع البرنز وانتشاره من جهة، ثم اختراع وانتشار الحديد، بعد ذلك بكثير.

### تطور النظم الاجتماعية

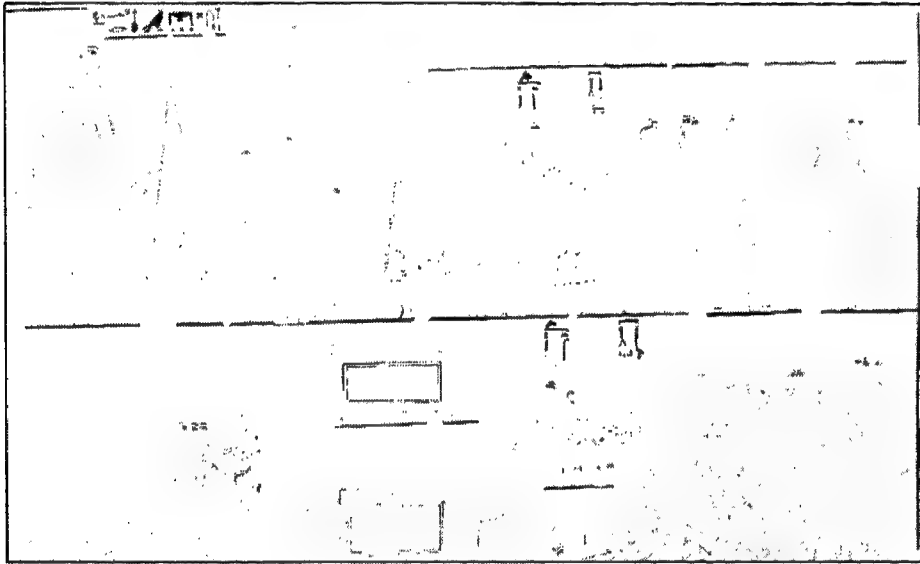
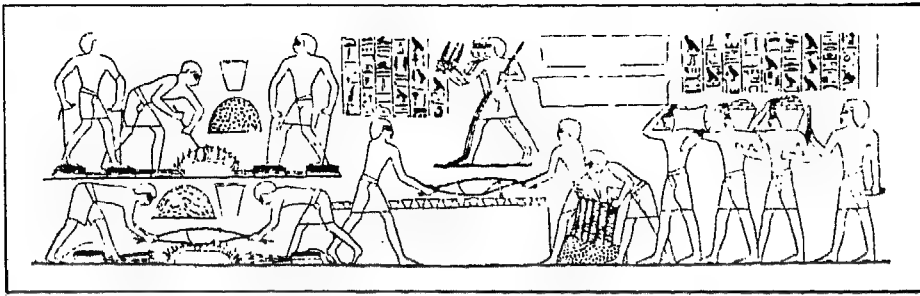
نظرا الى افتقارنا للوثائق القانونية الكافية، فلا نعرف التنظيم الاجتماعي بالوادي الأسفل الا معرفة ناقصة. واذا اعتمدنا على المؤلفين الكلاسيكيين من أمثال هيرودوت، وسترابون، فالمجتمع المصري يبدو مقسما الى طبقات متصلة. وذلك خطأ يقينا باستثناء الجند، في النهاية القصوى من التاريخ الفرعوني. فلم توجد بتاتا «طبقة الكهان» مثلما زعم سترابون، وليس من المحقق أن تكون وجدت طبقة العبيد، بالمفهوم الذي نقصده اليوم بهذه الكلمة (٦٤). والحقيقة ان النظام الاجتماعي المصري، كان يتميز في العهد التاريخي بمرونة كبرى. فهو يعتمد أكثر على استثمار الأرض، واستصلاح البلاد، لا على قانون متصلب. ولما كانت مصر لم تعرف قط النقود، كان الشخص مهما كانت رتبته في المجتمع مربوطا وجوبا بهيئة توفر له غذاءه ولباسه ومسكنه.

وتعتبر المزرعة العائلية أبسط تلك الهيئات. ولئن كانت الأرض مبدئيا ملكا لفرعون مصر، فان حق فلحها يُعطى أحيانا لأحد الخواص الذي يستطيع أن يورثها لأبنائه (٦٥). ولقد وجدت في كل العصور مزارع عائلية من هذا النوع، كثيرا ما كانت ضيقة، و يوزع رب العائلة بنفسه محصولاتها كما يشاء، وتكون الأسرة بمعناها الواسع مرتبطة به تمام الارتباط. ان الواجب الوحيد الذي يقوم به رب العائلة هو القيام بما عليه من واجبات نحو الدولة مثل الضرائب والخدمات المجانية، ومظاهر الولاء. وتوجد الى جانب المزارع العائلية، مزارع أخرى أهم منها، هي المزارع الدينية والملكية، وكانت المزارع الدينية — وخاصة ابتداء من الأسرة المالكة الثامنة عشرة (بعد ١٥٨٠ قبل الميلاد) — غنية جدا. ومن ذلك أن مزارع الإله آمون كانت تضم ٨١٣٢٢ رجلا، و٤٢١٣٦٢ رأس بقر، و٤٣ بستانا، و٢٣٩٣ كلم<sup>٢</sup> من الحقول، و٨٣ مركبا، و٥٦ قرية (٦٦). وكانت تلك الممتلكات

(٦٤) انظر: الملاحظات القيمة لـ ج. بوسنر الموجودة في ج. بوسنر، س. سومرن، وج. بيوت، ١٩٥٩ بخصوص موضوع الرق، ص ١٠٧.

(٦٥) ج. بيران، ١٩٣٢ ص ٢٠٦ — ٢١١، وج. بوسنر، ١٩٥٩ ص ٧٦ — ١٠٧.

(٦٦) ج. ه. بريستد، ١٩٠٦، ص ٩٧.



- (١) قبر «ريش مي - رع» في طيبة. متحف المتروبوليتان للفن، البعثة المصرية، المجلد العاشر.
- (٢) قبر حوى: الجدار الشرقي (الواجهة الجنوبية).
- (٣) شفرة حلاقة (مرقيسة، السودان)، تصوير البعثة الاثرية الفرنسية في السودان.



موجودة بصعيد مصر، وبمصر السفلى وبسوريا وفلسطين والنوبة. وكانت الممتلكات الملكية متكونة على نفس النسق وموزعة في البلاد، وتقع حول القصر أو الهيكل المأتمني للملك. ويرتبط كل شخص وجوباً بإحدى هذه الممتلكات التي توفر له حاجاته بطريقة تقوم على نظام المراتب. وتختلف الأجور العينية كثيراً حسب الوظيفة. ومن ذلك أن «المستكتب» يتقاضى «أقساطاً» تفوق أقساط المزارع أو الصانع، وذلك ما مكن محظوظي هذا النظام من أن يكتسبوا بدورهم الخدم والممتلكات العائلية، لا عن طريق بيع وظيفتهم، بل عن طريق بيع جزء من العائدات المرتبطة بتلك الوظيفة.

إن الشخص الذي يريد أن يتخلص من الضغط الذي يفرضه عليه النظام الاجتماعي المصري ليس له إلا أن يهرب. ويهرب «الفارون» نحو الغرب، إلى حاشية الصحراء، حيث يعيشون من الغزو السطو على مزارعات الوادي، أو أنهم يقصدون الخارج، لا سيما سوريا وفلسطين (٦٧).

إن استقرار النظام الاجتماعي مرتبط إلى حد بعيد بنفوذ السلطة المركزية وحزمها، سواء كانت متمثلة في الملك أو الإدارة. أما إذا كانا ضعيفين، فتطراً فوضى كبيرة في سير النظام، وأحياناً ثورات، وذلك ما وقع خاصة بين ٢٢٠٠ و ٢١٠٠ سنة تقرياً عندما مهترع عرش فرعون واغتصبت أملاك المحظوظين (٦٨). ولقد وقعت أيضاً اضطرابات محلية، منها إضراب صنّاع الممتلك الملكية بدير المدينة سنة ١١٦٥ لأنهم لم يتقاضوا أقساطهم الشهرية ولا لباسهم.

إن وضع الشخص الاجتماعي لا يستقر نهائياً، إذ يمكن في أي وقت أن يتغير، سواء بإرادة الملك أو على إثر أخطاء ترتكب عند ممارسة الوظيفة. ولقد ذكرت النصوص المصرية في مناسبات متعددة كيف كان الموظف يعزل ثم يرسل لخدمة الأرض (٦٩).

ابتداء من ١٥٨٠ أخذ العسكريون يحتلون منزلة خاصة في النظام الاجتماعي المصري. وقد أنشأ الفراعنة جيشاً محترفاً بأتم معنى الكلمة (٧٠) وذلك لطرد الهيكسوس من مصر ولتحقيق سياسة غزواتهم العدوانية نحو النوبة ونحو آسيا الصغرى. وكان العسكريون يُكافؤون بهبات من قطع أرضية، ومن ضيعات زراعية، يمكن لهم أن يورثوها ورثتهم شريطة أن يثابر هؤلاء على إحتراف العسكرية. ولقد تطور ذلك النظام على مر القرون ونشأ عنه في نهاية تاريخ مصر، تكوين «طبقة» عسكرية.

إن التنظيم الاجتماعي لا يزال غير معروف بالوادي الأعلى من النيل. لقد رأينا في نهاية عهد ما قبل الملوك بأن نظاماً اجتماعياً قد استقر على الأقل بالنوبة السفلى، وكان يتألف من أهل مستقرين ورحّل أو أشباه رحّل، ولكننا لا نعلم إذا كانوا يعيشون عيشة مشتركة أو أنهم متجاورون فقط. إن الوثائق القليلة التي تشير إلى التنظيم السياسي الخاص بسكان جنوب الشلال الأول، تفيدنا بتوزيع جماعات كثافتها ضعيفة، على طول الوادي، وخضوعها لرؤساء محليين لهم سلطة وراثية (٧١).

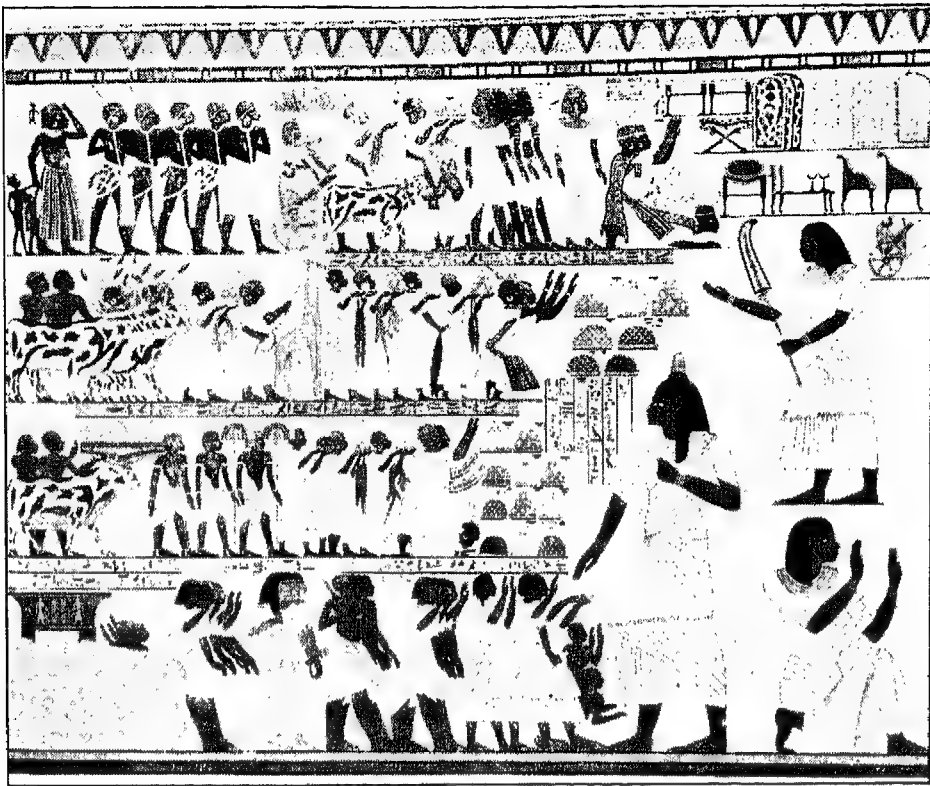
(٦٧) إن أحسن مثال على ذلك هو مثال سينوي الذي فر إلى فلسطين خشية أن يتهم بالمشاركة في مؤامرة بلاطية. وكان عليه أن يطلب من فرعون مصر العفو حتى يتمكن من العودة إلى مصر. انظر: ج. لفافر ١٩٤٩ حكاية سينوي ص ١ - ٢٥. ونجد بصفحة ٤٤ مراجع الترجمات المختلفة - تصنيف إلى ذلك. و. ل. سمن طبعة ١٩٧٢، ص ٥٧ - ٧٤.

(٦٨) ج. فنلبي، ١٩٦٢ ص ٢١٣ - ٢٢٠ و ٢٣٥ - ٢٣٧.

(٦٩) وخاصة في مرسوم نوري حيث يعتبر ذلك عقوبة معتادة. انظر: ف. غريفيث، ١٩٢٧ ص ٢٠٠ - ٢٠٨.

(٧٠) ر. أ. فولكنر، ١٩٥٣ ص ٤١ - ٤٧.

(٧١) ج. بوسن، ١٩٤٠ ص ٣٥ - ٣٨ - ٤٨ - ٦٢.



● قبحوى (تصوير جمعية التيقب المصرية).

ان علم الآثار لا يأهينا مزيد من المعلومات. فلقد ظلت تربية الماشية العامل الاقتصادي الهام بالوادي الأعلى، ولعلها كانت تيسر المحافظة على البنيات العائلية. والملاحظ أن التدخل المصري كان، ابتداء من -١٥٨٠، قد حوّر بدون شك النظام القائم، بل قضى عليه. فلقد أقفرت مقاطعات جنوب أسوان بسرعة (٧٢) عندما احتلتها مصر. وقد أخذت مصر، بمقتضى سياستها الأسبوية تستغل إلى أبعد الحدود الوادي الأعلى الذي كان سكانه يضمحلون، فيفرون على الأرجح نحو الجنوب أو الغرب، إلى مناطق يجهلها حالياً علم الآثار.

ولم تتكون مملكة حقيقية منظمة، مستوحاة من النموذج المصري الا حوالي ٧٥٠ قبل الميلاد، وذلك نتيجة لعمل ملوك سودانيين، أصلهم من منطقة دنغولا، فكانت على ما يبدو تمتد من متلقى النيلين بالجنوب، إلى الشلال الثاني في بداية الأمر، ثم إلى الأبيض المتوسط، مُستوعبة النوبة السفلى من ٧٥٠ إلى ٦٥٠ قبل الميلاد (٧٣). ولقد كان النظام القائم على سلطة الأم يلعب في تلك المملكة — أو على الأقل بالنسبة للأسرة الحاكمة — كان يلعب دوراً مهماً، إلا أن الوثائق قليلة وليس فيها ما ينير سبيلنا في شأن النظام الاجتماعي الذي تيسر عليه الجماعات المؤلفة له.

### انتشار المعادن

كانت المعادن النفيسة، كالذهب والفضة وكذلك النحاس، معروفة في أوائل العهد التاريخي، وكانت منتشرة جداً في جميع أنحاء وادي النيل. وكانت عدانة تلك المعادن تتطور بعد الألفية الثالثة. وظهر في الألفية الثانية البرونز، وهو مزيج من النحاس والقصدير، ثم ظهر الحديد هنا وهناك ابتداء من -١٥٨٠.

وتوجد بين الشلالين الأول والثالث أغلب مناجم الذهب التي كان يستغلها المصريون والنوبيون (٧٤). إن التنقيب عن مناجم المعادن النفيسة مكن المصريين من الإمبراطورية الوسطى من بلوغ الشلال الثاني ثم تجاوزه. ولقد لعب الذهب في الإمبراطورية الجديدة دوراً أساسياً في السياسة. الأسبوية المصرية للحصول على الأحلاف. عليا. وكان للذهب المستخرج من مناجم مصر والنوبة يحوي دائماً نسبة كبيرة من الفضة (٧٥) وكان يميز بين الذهب الأبيض أو الكهر بائي (الحاجي بالمصرية) الذي يحوي ٢٠٪ من الفضة، والذهب الأصفر (نوب بالمصرية). والجدير بالملاحظة أن كلمة (نوب) هذه ليس من المؤكد أن تكون أصلاً لكلمة النوبة. وكان الذهب بمصر يستعمل لأغراض كثيرة، من ذلك الأثاث المأتمى، والحلي، وحتى الهندسة المعمارية، حيث كان يُغطي أطراف المسلات، والأبواب الكبيرة وبعض قاعات المعابد.

وكان الذهب يستعمل بكثرة في الوادي الأعلى من النيل، وإن كان نهب المقابر لم يترك لنا إلا نسبة ضئيلة من الأشياء الذهبية، مثل: الحروز، والآلات وحلي التزيين، والمساور، والخواتم والأقراط. الأذنية، وكان الأثاث الخشبي يغطي أحياناً بصفحات ذهبية وذلك في القرن الثامن عشر قبل

(٧٢) و. ي. آدمس، ١٩٦٤ ص ١٠٤ - ١٠٩.

(٧٣) هـ. ف. زاسل، ١٩٥٥ ص ١٢ - ١٦.

(٧٤) ج. فركوتز، ١٩٥٩ ص ١٢٨ - ١٣٣، والخريطة ص ١٢٩.

(٧٥) انظر: أ. لوكا، ١٩٦٢ ص ٢٢٤ - ٢٣٤.



● تمثال من النحاس للملك بيبى الأول (الدولة القديمة) — متحف القاهرة.

الميلاد. وكان الأثاث المأتمسي في القرن الثامن يتميز هو أيضا بشاء ذهبي أو فضي كبير، مثلما هو الشأن في نوري، عند مهبط للشلال الرابع، حيث عُثر على أشياء عديدة رغم النهب القديم (٧٦). لا يمكن التمييز بين النحاس والبرونز (٧٧) الا باعتماد على التحليل المخبري. ولم يظهر البرونز بوادي النيل الا ابتداء من سنة ٢٠٠٠ تقريبا، بل لا بد من انتظار سنة ١٥٠٠ لكي ينتشر انتشارا أوسع، دون أن يحل محل النحاس. إن البرونز - وهو مزيج من النحاس والقصدير - يتميز على النحاس بأنه أكثر صلابة منه، اذا كانت نسبة القصدير غير قوية، وبأنه يصهر في درجة هي أدنى، وأنه أسهل منه في السبك.

ورغم وجود بعض المناجم من القصدير بمصر، فإن البرونز لم يكتشف بوادي النيل. ويحتمل أن يكون مجلوبا من سوريا (٧٨) حيث كان معروفا منذ بداية الألفية الثانية. إن نسبة القصدير تتراوح بين ٢ و ١٦ في المائة في المزوجات المصرية. والبرونز يكون أصلب من النحاس حتى نسبة ٤ في المائة من القصدير، وإذا تجاوز ذلك فهو يتكسر ويفقد كثيرا من مميزاته. لذلك لم يعوض أبدا النحاس الذي يتصلب كثيرا بمجرد الطرق.

لم تتوفر لنا تحليلات تخص أشياء نحاسية أو برونزية وجدت بالوادي الأعلى، لا سيما في كرمه التي كان من الممكن أن تفيدنا إذا كان البرونز قد استعمل بالوادي الأعلى، باعتبار أن تاريخها يرجع الى الألفية الثانية. وعلى كل حال فالأشياء النحاسية أو البرونزية كثيرة بها، وهي أكثر مما هو موجود بمصر نفسها. لقد وجد بكرمة ١٣٠ خنجر نحاسي بالنسبة لما بين ١٨٠٠ الى ١٧٠٠. تقريبا أي أكثر مما وفرته مصر كلها، لقد كان النحاس في ذلك العهد يستعمل لصنع أدوات الزينة، وعلى الأخص المرايا، وكذلك الأسلحة والآلات، والأواني، والمجوهرات، والمنقوشات الأثائية. وكان النحاس يصنع بالطرق، وقل أن يصنع بالقولبة.

إن الأشياء التي عُثر عليها بكرمة (٧٩) تبين من حيث الكم والكيف أن الوادي الأعلى لعب دورا هاما في نشر عدانة النحاس بأفريقيا، منذ الألفية الثانية قبل الميلاد. إن وجود مناجم نحاسية «بالمركب الأساسي» الجيولوجي النيل قد ساهم كثيرا في ذلك الانتشار الواسع.

لقد ظل وادي النيل طويلا لا يعرف سوى الحديد النيزكي (٨٠)، ولم ينتشر الحديد الا في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد بالوادي الأسفل. ولم يمض الا قرن حتى أخذ يستعمل مثلما يستعمل البرونز والنحاس. وكان في ذلك العهد يذاب ويُخمد بمصر بالمراكز الخاضعة للتأثير اليوناني.

(٧٦) دوس دنهام، ١٩٥٥، في صفحات متعددة.

(٧٧) لوكا، ص ١٩٩ - ٢١٧ و ٢١٧ - ٢٢٣.

(٧٨) نفس المرجع ص ٢١٧ - ٢١٨ و ٢٥٥ - ٢٥٧.

(٧٩) انظر: ج. أ. رايسنر ١٩٢٣، الفصل ٢٦، ص ١٧٦ - ٢٠٥.

(٨٠) ب. ل. شيني، ١٩٧١، ص ٩٢ - ٩٤.

يحتل وادي النيل منزلة كبرى في انتشار الحديد بأفريقيا (٨١). ومن المحتمل أن تكون صناعته بالوادي الأعلى من النيل أقدم من صناعته بالوادي الأسفل، وذلك ما يفسر استعماله بكثرة في الأسرة المالكة الخامسة والعشرين التي أصلها من دنغولا (في حوالي ٨٠٠ سنة قبل الميلاد). وبالرغم من توفر معدن الحديد بالوادي الأعلى، والفحم الخشبي الضروري لعدانة الحديد، فإن الحديد لم ينتشر انتشاراً واسعاً إلا ابتداء من القرن الأول قبل الميلاد، على أثر ازدهار الحضارة المرويتية، بين الشلالين الثالث والسادس (٨٢). إن الثقافة النيلية في نبتا قد لعبت بين القرنين السابع والرابع قبل الميلاد، دوراً هاماً في انتشار الحديد بأفريقيا، عندما مهدت السبيل لحضارة ميروي. (Méroé)

(٨١) انظر: أ. لوكا، ١٩٦٢ ص ٢٣٥ — ٢٤٣.

(٨٢) إن دور ميروي في نشر الحديد بأفريقيا ليس أمراً مسلماً به، كما كان يعتقد. انظر: ب. ل. شيني ١٩٧١، ص ٩٤ — ٩٥ الذي استشهد أيضاً ب.ك. ترغر، مرو ١٩٦٩، ص ٢٣ — ٥٠. يضاف إلى ذلك أن ميروي لم تكن الإمكانية الوحيدة لانتشار الحديد، إذ من المحتمل أن يكون قد انتشر انطلاقاً من إفريقيا الشمالية، عبر مسالك الصحراء. انظر: ب. ل. شيني ١٩٦٧، ص ١٦٨، مع الإحالة إلى س. هوارد، ١٩٦٠ ص ١٣٤ — ١٧٨ وكذلك نفس المرجع، ١٩٦٤ ص ٤٩ — ٥٠.



## الخاتمة

# من الطبيعة الخام الى انسانية متحررة

بقلم: ج. كي. زيربو

تبين الفصول السابقة بكل وضوح الدور الأساسي الذي لعبته افريقيا في فجر الأزمنة الإنسانية. ان آسيا وافريقيا اللتين توجدان خارج نطاق العالم المتطور تقنيا كانتا تحتلان مكان الصدارة على مسرح التقدم طيلة الـ ١٥٠٠٠ قرنا الاول من تاريخ العالم انطلاقا من القرد الجنوبي الى القرد الانسان. ولقد كانت افريقيا، اعتمادا على معارفنا الحالية، المسرح الأساسي الذي برز فيه الانسان كنوع له الملك في هذه المعمورة، كما كانت منبع المجتمع السياسي، الا أن هذا الدور الممتاز في فترة ما قبل التاريخ حل محله طيلة الحقبة التاريخية من الألفيتين الأخيرتين، «قانون» التطور الذي تميز بالاستغلال والتدهور في دور الادوات.

## افريقيا موطن الانسان؟

بالرغم من أننا لم نصل الى يقين مطلق في هذا الشأن لأن التاريخ الانساني المخفي منذ أصول البشرية، ونعني به التاريخ الخبأ في الاعماق، لم يستخرج تماما، ولأن الحفريات مازالت في بدايتها في افريقيا، ولأن حموضة الاراضي تأتي على بقايا الأحفورات، بالرغم من ذلك، ترتب المكتشفات الجارية الى الآن تلك القارة في مرتبة أحد المواطنين الكبرى ان لم تكن الموطن الاساسي لظاهرة البشرية. ان الامر صحيح في مستوى قرد كينيا (قرد فكري بكينيا — ١٢ مليون سنة) الذي يعتبره بعضهم بداية السلالة الانسانية. ولم يكن قرد راما بآسيا الا فرعاً منه، قصد الهند انطلاقاً من افريقيا. ويستدل على ذلك خاصة بمثال قرد الجنوب أو الانسان القرد (الانسان القرد الافريقي، أو برونيتوس)، الذي يعتبر بدون منازع البشري الاول، وهو من ذوي الرجلين، استكشف سباسب

أفريقيا الشرقية والوسطى. وقد أوحى القوالب القحفية تطورا طرأ على الفصين بالحاجبين ومجدراذ المخ، مما يشهد بالمستوى العالي الذي بلغته ملكاته الفكرية. ويلى ذلك الزنزنشوبيون، والنوع الذي أطلقته عليه تسمية ممتازة وهو «الإنسان الماهر»، وفي ذلك خطوة كبرى إلى الأمام في الصعود إلى منزلة الإنسان.

ويلى ذلك الأرخنشيروبيون، أي (القردة الناس وناس الأطلس) الباليونثروبيون النياترتاليون، وفي النهاية نوع الإنسان العارف (إنسان المنتيتا، بكينيا، وكديش بأثيوبيا) وقد لاحظ مؤلفون كثيرون، منذ العهد الأورغنسي البعيد، أن سماته كانت زنجية، فبقطع النظر عن انتهاء العلماء إلى النظرية العديدة المراكز أو المفردة المركز، فإنهم يعترفون جميعا بوجود كل حلقات السلسلة بأفريقيا، والتي تربطنا بأقدم البشريات أو ما قبل الإنسانين، بما في ذلك الأنواع التي ظلت في مستوى بداية تكون الإنسان، ولم تستطع أن تترقى رقياً تاريخياً يسمح لها ببلوغ الاستقامة ومنزلة آدم، ففي أفريقيا فقط مازلنا نجد «الأسلاف» بل بني العمومة المحتملين للإنسان. إن قرد أفريقيا الكبرى لا سيما الغوريلا والشمبنزي هما أقرب إلى الإنسان أكثر مما يقرب كل واحد منهما الثلاثة من أورانغ أوتنغ بأندونيسيا (١). لأن آسيا باعتبار خطوط العرض السفلى، وأفريقيا خاصة باعتبار غوصها المشهود في نصف الكرة الأرضية الجنوبي، قد تخلصنا من الأحوال المناخية الصعبة الموجودة بالمناطق الشمالية. ولذلك لم يوجد أثر واحد لأدوات حجرية طيلة المائتي ألف سنة من الكفري لأن أوروبا كانت مغطاة بقبعة جليدية، وكانت أفريقيا في ذلك الوقت تشتمل على ثلاث أنواع متعاقبة من الحجارة المنحوتة حسب تقنيات متطورة. والحقيقة أن خطوط العرض الاستوائية كانت تتميز في ذلك الوقت بمناخ «معتدل» صالح للحياة الحيوانية ولاكتماها. فإن أردنا العثور على أسباب ظهور الإنسان، لا يسعنا حينئذ إلا أن نعلم الوسط الجغرافي والمناخي. ويمكن بعد ذلك الاعتماد على التكنولوجيا ثم على الوسط الاجتماعي.

## التكيف مع الوسط

إن التكيف مع الوسط من أقوى العوامل التي كونت الإنسان منذ أصوله الأولى. لقد تكونت السمات المورفولوجية البدنية لسكان أفريقيا إلى اليوم في ذلك العهد الحيوي من ما قبل التاريخ. لقد كان للأحوال المناخية المدارية أثر على مرونة الجلد، ولونه الأسمر النحاسي أو الأسود، وغناه من حيث الغدد العرقية، والمناخ والشفاء المنفتحة التي يختص بها عدد كبير من الأفارقة، والشه المتجمد، والمعقود أو الأحرش. إن اللون القاتم، والشعر الأجعد يحفظان مثلاً من الحرارة، إضافة إلى ذلك إن الاستقامة التي كانت حاسمة في عملية التكوين البشري (Hominisation) والتي استوجبت أو استدعت إعادة تنظيم عظام الحزام، كانت مربوطة حسب بعض مؤرخي ما قبل التاريخ بتكيف فرضه الوسط الجغرافي للسباسب ذات الأعشاب العالية بالانجذاب الأفريقي الشرقية: فكان الأمر يستوجب دائماً الاستقامة لينظر من أعلاها لمراقبة الفريسة أو للهروب من الحيوانات المعادية.

(١) د. و. هولز، ١٩٧٢ ص ٥.

ولقد فضل علماء آخرون (من أمثال السترهولز) الوسط المائي لا لكونه سبب وجود الحياة فحسب بل لأنه كان سببا لظهور البشر أيضا. وعلى هذا الأساس ترى السيدة الين مرغن أن هذه العملية قد حدثت بافريقيا على شواطئ البحيرات الكبرى أو على شواطئ المحيط. فهي تفسر الاستقامة بضرورة ترك الرأس فوق الماء الذي غيص فيه سعيًا وراء الهروب من الوحوش الغالبة التي تنفر من الماء. وهي تفسر بواسطة الوسط المائي، بعض الخصائص الانسانية، مثل وجود طبقة دهنية تحت الجلد، والوضع المتقلص للأعضاء الجنسية عند المرأة، والامتداد المقابل الذي يختص به العضو الجنسي عند الرجل، وكذلك تفردنا بالبكاء بالنسبة لجميع المخلوقات ذات الرجلين (٢). لقد تبنت الوراثة تدريجيا هذه التكيفات البيولوجية وجعلتها خصائص قارة. وكذلك فرض التكيف مع الوسط أسلوب الادوات الانسانية الأولى. ولذلك يقول س. غابل بأصل أهلي للأدوات من النوع «القابسي»، لأن أسلوب الصفائح، والمناقش والمكاشط يتكيف مع المادة الخام الممتازة وهي السبج.

### الوسط التكنولوجي

ان الوسط التكنولوجي الذي أنشأوه كان العامل الثاني الذي سمح للبشرين من أن يتغلبوا على الطبيعة وأن يتميزوا عليها.

لقد أصبح الانسان عارفا لأنه كان صانعا. ان تحرر يدي الانسان قد خلص العضلات وعظام الفكين والجمجمة من أعمال كثيرة فنشأ عن ذلك تحرر وتزايد القحف الجمجمي حيث تطورت المراكز الحساسة المحركة بالقشرة الجمجمية. يضاف الى ذلك ان اليد جعلت الانسان يجابه العالم الطبيعي. فهي وسيلة يتلقى بها عددا لا نهاية له من البلاغات التي تنظم المخ وتجعله قادرا على الحكم، لا سيما لبلوغ أهداف معينة بوسائل معينة (وذلك مبدأ الهوية والسببية).

فبعد أن هشم ناس ما قبل التاريخ الحجارة تهشبا خشنا وذلك بنحتها نحتا غير منتظم (ثقافة حصاة انسان الأولدواي)، انتقلوا الى مرحلة أكثر وعيا بالعمل الخلاق. ان وجود أدوات حجرية لها مستويات صنع مختلفة وذلك بمصانع شاسعة مثل المصانع الموجودة قرب كنشاسا يسمح بأن نستخلص أن الأداة المكتملة قد تصورها الانسان منذ المرحلة الأولى وكانت تجسم في شظايا متتالية. وفي ميدان آخر، مر التقدم في هذا الميدان من النحت بقرع حصاة بأخرى الى النحت باعتماد قارع أقل حدة وغرور الشكل (مثل مطرقة خشبية أو عظمية الخ) ثم اعتماد القرع غير المباشر (بمقص) وفي النهاية باعتماد الضغط كلما تعلق الأمر بالتهذيبات المتبصرة للأداة لا سيما فيما يتعلق بالحجارة الصغيرة.

و يشهد التقدم المستمر على سيطرة الانسان في ما قبل التاريخ على الأدوات. فندرك لأول مرة من خلال تغير المادة الخام، واتقان صنع الادوات والاسلحة، التعلق بالنجاعة التي تزداد دقة، وبالتكيف لبلوغ غايات تزداد تعقدا، وذلك عنوان الذكاء بعينه، الذكاء الذي يحرق الانسان من السلوك النمطي الغريزي. ولذلك مر الانسان من ذي الوجهين الى الصناعات ذات الشظايا (بمصر

٥ في المطبوع ورد «Hardy».

(٢) السترهولز، اختصاصية في علم الأحياء البحري، ذكرتها الين مرغن: ١٩٧٣ ص ٣٣ الى ٥٥.

وليبيا والصحراء) وإلى الوجوه الأكثر اختصاصا في العهد العطاري (٣) والفورسميثي (٤) والسنگوبائي (٥) والسيلبائي (٦). ثم إلى أشكال أكثر جودة بالعصر الحجري الجديد (القابسي، والولطوني، والمغوسي، والألمنتي). ولا يمكن أن نرسم بمكان آخر غير إفريقيا خطا زمنيا واضحا يمكننا من أن نضبط بأرقام مدققة التنقل من مرحلة إلى أخرى اذ يبدو أن مختلف مراحل ما قبل التاريخ المختلفة قد تداخلت وتمازجت وتعايشت مدة عهود طويلة، لأننا نجد في نفس المستوى الطبقي الأرضي ذخائر من العصر الحجري البدائي وأدوات أكثر تطورا (الحجارة المصقولة) وأحيانا أشياء حديدية. ودليل ذلك أن السنگوبائي الذي يبتدئ ببداية العهد الأول للحجارة يمتد إلى نهاية العصر الحجري الجديد. إن مجموع تلك التطورات التي تعتمد المبادلات والاستعارات المتعددة، يبرز في شكل موجات من الاختراعات ذات المدى التاريخي الطويل والتي تتمازج أحيانا وتندرج ضمن رسوم متصاعدة عامة تبلغ العهد التاريخي للعصور القديمة، وذلك بعد السيطرة على التقنيات الفلاحية الرعوية واختراع صناعة الفخار. ولقد انتشرت زراعة القمح والشعير والنباتات الكتانية مثل كتان الفيوم، كما انتشرت تربية الحيوانات الأهلية. ولا شك أن منطقتين أساسيتين تعتمدان الانتقاء والاستثمار الزراعيين قد أشعنا إشعاعا واضحا منذ الألفيتين السادسة أو الخامسة، وهما وادي النيل ووادي منعطف النيجر. فلقد اخترعت الذرة البيضاء والدخن الصغير، وبعض أنواع الأرز، والسسم، والفونيو، وفي الجنوب الإنيام والدا المتميز بورقه وأليافه، والنخيل الزيتي، والكولوني، ومن المحتمل نوع من القطن. ولقد استفاد وادي النيل فضلا عن ذلك من مكتشفات بلاد الرافدين مثل الأمر (القمح) والشعير، والبصل، والعدس، والجلبان، والبطيخ، والتين، وجاءه من آسيا القصب السكري، وأنواع أخرى من الأرز والموز الذي كان يأتي بدون شك من إثيوبيا. ولقد طورت إثيوبيا، زراعة القهوة تأثرا بالطرق الزراعية التي اخترعها فلاحو وادي النيل، وتدل مواقع بكورو ونهر نجور وبكينيا بدورها على أن زراعة الحبوب كانت متطورة.

ولقد ظلت نباتات عديدة تأهلت في ما قبل التاريخ قائمة وذلك في أشكال محسنة وهي ما انفكت تغذي إلى الآن الأفريقيين، ونتج عنها تزولهم بمكان معين واستقرارهم به والا لما نشأت حضارة متقدمة. إن العصر الحجري الجديد الذي لا يبدأ بأوروبا إلا بين ٣٠٠٠ سنة. و ٢٠٠٠ سنة، كان قد ابتدأ ثلاثة آلاف سنة قبل ذلك بمصر. ولذلك فإن فخار المنتيتا (بكينيا) الذي يعود بدون شك إلى الألفية الخامسة، هو عنصر من العناصر التي تسمح بأن نجزم بأن معرفة الخزف قد بلغت الصحراء ومصر انطلاقا من الأراضي العالية من إفريقيا الشرقية. إن الفخار، وهو تجديد ثوري، يصاحب تراكم البدائي لرأس المال المتمثل في أنواع الأمتعة التي انتزعتها الصناعة الإنسانية من الطبيعة. وتبتدئ مع الطبخ المظاهر الأكثر جودة من الثقافة التي تسمح لنا بأن نضبط الوثبة (من حيث الكيف) التي قام بها الإنسان الماهر وكذلك نظامه الغذائي المتكون من الورق، والعروق واللحم المذبوح، وهي تكون بإيجاز «اقتصاد الفريسة».

(٣) برّ العاطر بالجزائر.

(٤) من فروسميث بجنوب إفريقيا.

(٥) من سَنُوباي بالضفة الغربية من بحيرة فكتوريا.

(٦) من ستيل باي بمقاطعة رأس الرجاء.

## الديناميكية الاجتماعية

الا أن هذه التغيرات من حيث الكيف، والتي تؤكد وتعزز القابليات الأساسية للإنسان، لم تتوفر الا بالاعتماد على التبادلات مع أبناء جنسه وعلى دينامية اجتماعية نقشت صورة الكائن الانساني بقدر ما فعلت النبضات النابعة من أعماق حيويته، ومن تعرجات فصوصه المخيمة أو من مشاعره العميقة. ولقد لعب العامل الاجتماعي دورا أساسيا في مستوى العدوان وذلك بالقضاء قضاء عنيفا على الضعفاء. ولذلك قضى الإنسان العارف على النياندرتاليين بعد نوع من حرب عالمية دامت عشرات الألفيات العديدة. ولكن البعد الاجتماعي لعب مع ذلك دورا إيجابيا «فالدراسات المقارنة لقوالب قشر الجمجمات لانسان العصر الحجري القديم وللانسان العارف، تبين فعلا أن الأجزاء القشرية الجمجمية المربوطة بوظائف العمل والكلام، وتنظيم سلوك الشخص ضمن المجموعة، بلغت تطورا هاما لدى الانسان العارف» (٧).

لقد لعبت العلاقات الاجتماعية دورا أساسيا في اكتساب الكلام ابتداء من الاشارات الصوتية الموروثة عن القدماء الحيوانيين الى الاصوات المنطوقة المركبة بطرق مختلفة حسب مقاطع. ان مرحلة الشغثة التي تعتمد المقاطع الاحادية كانت ترمي الى التسبب، حسب رد فعل مشروط، في حركة أو في فعل، أو في سلوك، أو في الاشارة الى حدث معين قد حدث أو على وشك الحدوث. وبايجاز كان الكلام في الأول يعتمد العلاقة. فبقدر ما كان امتداد الفك يدفع الى الوراء بأعضاء الحلق وينحدر بنقطة ربط اللسان، كان «مد الهواء المدفوع لا يتجه مباشرة نحو الشفاه كما هو الشأن عند القرد، بل كان يتجاوز سلسلة من الحواجز التي تراقبها المراكز الموجودة بالغلاف الجمجمي» (٨).

وخلاصة الأمر هي أن الكلام عملية جدلية بين علم الاحياء والتقنيات والفكر، ولكن هذا يحصل بواسطة المجموعة. فان لم يكن للانسان شريك يحبيه كالصدي، وان لم يكن له مخاطب، لظل صامتا. ان الكلام يعتبر مكسبا ثميننا جدا حتى اعترف له بالنفوذ على الاشياء في التصورات الراجعة للسحر ولتكون الاجناس الافريقية. ان الكلام خلاق، والكلام يعتبر أيضا سلاح التقدم. فهو ينقل المعارف، والتقاليد «والتراث المسموع». وهو الرصيد المعرفي الذي يعلو بالانسان نهائيا فوق الميكانيكية المغلقة الابدية للغريزة (٩). لقد دل الكلام على بداية السلطة الاجتماعية ونعني بذلك نشأة الزعامة والسلطة.

## بروز المجتمعات السياسية

لئن كان الانسان العارف حيوانا سياسيا، فلقد كان كذلك طيلة عهد ما قبل التاريخ ولعله من الصعب أن نضبط أسباب ومراحل تلك العملية حسب العهود التاريخية. ولقد لعبت في هذا المجال تقنيات الانتاج والعلاقات الاجتماعية دورا هاما.

(٧) فيسيفولود ب. ياكيموف، ١٩٧٢، ص ٢.

(٨) انظر: فكتيور بوناك، ١٩٧٢، ص ٦٩.

(٩) ألا تعتبر اللغة التي سمحت للانسان أن يتصور الاشياء المجردة، وأن يدخر المعلومات المكتسبة في تجربة الحياة اليومية وأن يبلغها الى الغير، ألا تعتبر أبعد ما خلقته لقدرة العلمية في المجتمعات الغيزر العالة؟ ب. فرهاغن، ١٩٧٤، ص ١٥٤.

## التقنيات أولاً

ان ما قبل البشر، والبشر المنتسبين الى ما قبل التاريخ الافريقي كانوا منظمين حسب قطعان، وزمر وأفواج، وفرق باعتبار المهام التقنية المحسوسة التي لا يمكن القيام بها الا ضمن المجموعة من أجل البقاء على قيد الحياة أو لبلوغ حياة أفضل.

لقد كان المسكن اطاراً جماعياً ظهر منذ الفجر الأول للذكاء الانساني، فهناك دائماً مكان للتلاقي، حتى ولو كان مؤقتاً، ونقطة مخصصة للاستراحة، وللدفاع وللتموين وكانت النار من حين لآخر تجمع أعضاء الفوج لتقييمهم من الحيوانات، والخوف والظلمات المحيطة بهم. ففي وادي أومو (بأنثيوبيا) ما زالت بعض الآثار الحجرية المتواضعة، المترابكة عن قصد، مازالت تصور على الأرض التصميم الخاص «بأكواخ» البشرى الأولى. ثم أخذت هذه المنشآت تتحسن حتى أصبحت قرى نيوليتيكية، تشرف على مواقع ممتازة محفوظة من الفيضانات والهجومات، وتكون على مقربة من عين ماء، مثلاً على الجبل المنحدر في تيشيت — وألاطا (بموريتانيا). ولقد كان صيد السمك وصيد الحيوانات بشكل خاص سببين من أسباب توحيد الأهداف، لأن أسلافنا في ما قبل التاريخ لم يكونوا قادرين على قتل الحيوانات التي تفوقهم قوة الا باعتماد تنظيم تتعزز به قوتهم، فكانوا يجتمعون لمطاردة حيوانات كانوا يدفعون بها الى الجبال المنحدرة والى الهوايا التي كان يترصد بها رفاق لهم للقضاء عليها. وكانوا ينصبون قرب عيون الماء التي يكثر بها للصيد في الفصل الجاف، فخاخاً عملاقة كانت تقع فيها الحيوانات. ولكن لا بد بعد ذلك من الاجهاز على الحيوان، وتقطيعه، ونقل أجزائه، وكل ذلك يستلزم نوعاً من تقسيم العمل الذي سيتخذ معنى خاصاً في العصر الحجري الجديد نظراً للتنوع المتزايد في النشاط. وفعلاً لم يكن للشباب من العصر الحجري الأسفل خيار، لأن توجيهه المهني كان ألياً إذ أنه لا يهتم الابن الثمار، وبالصيد أو صيد السمك. ولقد أصبح الاختبار متنوعاً في العصر الحجري الجديد، وذلك ما كان يستوجب توزيعاً محكماً للإشغال التي أصبحت شيئاً فشيئاً خاضعة للتخصص بالنسبة للنساء والرجال والفلاحين والرعاة، والاسكافيين وصناع الحجر والخشب والعظم، ثم الحدادين.

## العلاقات الاجتماعية

ان هذا التنظيم الجديد والحاجة المتزايدة للادوات أدى الى وجود فائض عن الحاجة وأتاح للبعض أن يتخلص من مهمة المنتجين للثروات ليهتموا بالخدمات. وتنوعت العلاقات الاجتماعية بقدر ما تداخلت الجماعات وتساوت في المرتبة أو أخذ بعضها يتفوق على البعض الآخر في المنزل. وفي ذلك الوقت تكونت الاجناس واحتلت مكانتها. فكان أقدمها أشباه البوشيمين (خواي — سان) والبيغمي — (الأقزام) ثم ظهر بعد ذلك الزنجي الطويل القامة (السوداني أو البنتي) ومن ذلك انسان أسلار (وادي تلمسي في بلاد مالي)، فالزنجي الذي انتشر في قارات كثيرة (١٠) أخذ يتميز ويتطور حسب ما يبدو، منتصباً بفرقياً، مسقط رأسه، انطلاقاً من الصجر، لكنه رد على أعقابها مثلاً هو

(١٠) انظر: «الجنس الأسود كان يغطي العالم منذ ٣٠.٠٠٠ سنة مضت». في «العلوم والمستقبل»، أكتوبر ١٩٥٤ عدد ٩٢ انظر أيضاً مويري: تاريخ الشرق ص ١٩.

الشأن بآسيا بالمضيق الدرافيدي في دكان، أو حلت محله أجناس تكيفت أحسن منه مع الاحوال المناخية غير المواتية كما في أوروبا. وذلك ما حدث أيضا بمناطق افريقيا الشمالية لصالح «أجناس» البحر المتوسط. ويرى فورن أن التماثيل الصغيرة الباقية من الأورنياسي تمثل نموذجاً جنسياً شبه زنحجي، لأن هذا المؤلف يعتبر أن «الأورنياسيين شبه الزنحيين تواصلوا في حضارة تدعى بالحضارة القابسية» (١١) أما دي مولان دي لبلانت فإنه كتب وعندئذ وقعت هجرة أشباه الزنوج من نوع الهونتوفاكتسحت شمال افريقيا انطلاقاً من افريقيا الجنوبية والوسطى... وفرضت بالقوة حضارة جديدة على أوروبا البحر المتوسط: وتلك هي الحضارة الأورنياسية (١٢) ولذلك يجب أن نستنتج من ذلك أن أجناساً هجينة كانت قديماً موجودة بتخوم العالم الأسود، وهذا ما يفسر وجود الأهالي ذوي السمات شبه الزنحية غير البارزة، والذين دعوا على عجل «بالجنس الأسمر» ومنهم قبائل الفلانيون. والاثيوبيون، والصوماليون، والنيليون الخ. ولقد حدث أيضاً ان استعمل تعسفاً مصطلح الجنس «الحامي».

وهناك ميدان آخر تبرز فيه بصفة ساطعة مظاهر الحياة الاجتماعية، وهو الفن في ما قبل التاريخ الافريقي المرسوم على جدران والفن التشكيلي. وبما أن افريقيا كانت هي القارة الأكثر أهمية بالنسبة للتطور في ما قبل التاريخ، وكان فيه الأهالي من البشريات والانسانيات الأكثر قدماً، والأكثر عدداً والأكثر ابداعاً، فلا يستغرب أن يكون الفن في ما قبل التاريخ الافريقي أغنى فن بالعالم وأن يكون قد فرض سيطرة تعادل أهمية الموسيقى الزنحية الافريقية بعالمنا الحاضر. ان تلك الآثار يوجد معظمها بجنوب افريقيا وافريقيا الشرقية والصحراء ومصر والمضارب العليا من الاطلس. وبالطبع كان ذلك الفن يعكس التعجب الشخصي أمام الحياة الحيوانية الزاخرة الموجودة حول الملجأ. ان الأمر يتعلق في غالب الأحيان بفن اجتماعي يركز على مهام يومية أي «أشغال وأيام» المجموعة، ومجابهاتها للوحوش والعصابات المعادية لها، وما تعانیه من تأثر وفزع وما عرفته من أوقات ترويحوية وألعاب، وبايجاز كل ما يتعلق باللحظات الحاسمة في حياتها الجماعية. فلقد كانت سراديب ولوحات جدارية مكنتة وزاخرة بالرسوم تعكس على مرآة الصخور الحياة المتأججة أو الحياة الريفية للعشائر الانسانية الأولى. وكثيراً ما يعكس ذلك الفن الذي يعتمد تقنية صافية، اهتمامات المجموعة وقلقها الروحي. فهو يمثل رقصات اقتتان، وزمراً من الصيادين المقنعين، وسحرة في عمل جاد، وسيدات وجوههن مدهونة بلون أبيض (مثلاً هو الشأن اليوم بافريقيا السوداء بمناسبة طقوس التنشئة، وهم يتسارعون كأنهم دعوا الى موعد غريب. ونشعر مع مرور الزمن بالانتقال تدريجياً من السحر الى الدين، وذلك ما يؤيد تطور الانسان نحو المجتمع السياسي في ما قبل التاريخ الافريقي اذ يقوم في البداية عدد من الزعماء بدور الرؤساء والكهنة في نفس الوقت.

ان نمو القوى المنتجة في العصر الحجري الجديد قد يكون فعلاً تسبب في زيادة ديمغرافية نشأ عنها بدورها هجرات مختلفة. والشاهد على ذلك هو الانتشار المشهود الذي طرأ على بعض ((المشاغل)) في ما قبل التاريخ التي تحتوي أدواتها الحجرية على قطع متقاربة الأسلوب. ان مدى الغارات والرحيل النهائي كان يتزايد بقدر ما كانت نجاعة الادوات والأسلحة تتطور لا سيما اذا خف وزنها. فافريقيا

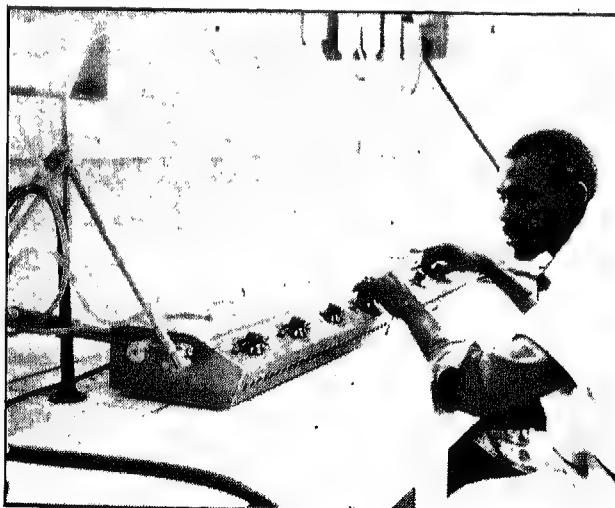
(١١) فورن، ١٩٤٣ ص ١٤ - ١٥.

(١٢) ديولان دي لبلانت، باريس ١٩٤٧ ص ١٣.



● من الطبيعة البكر الى انسانية متحررة.

(١) انسان الغابات البدائي الجنوبي  
مواقع الأومو. مجموعة متحف الانسان.  
(تصوير أوستر)، رقم ٤٩٤ ١٤٩٥ ٧٧.  
(٢) مختبر للبحوث الخاصة بتطوير دلتا نهر  
السنغال، يقوم في روتشوبيشي  
بالسنغال. (تصوير ب. نانتيه).





قارة كان بنو الانسان قد جابوها طولا وعرضا كما لو أن الآفاق العظيمة لتلك الأرض الكبرى تستهويهم. فالخط الذي تسجله هذه التداخلات المعبرة عن خريطة الأجناس الافريقية والذي يشكل لغزا يختار أمامه العقل الالكتروني لوعرض عليه، هو نتيجة تلك الحركة الدائبة للشعوب التي لها أصل يعود الى ألبانيات عديدة من السنين. و يبدو أن الهجرات الأولى انطلقت من عند قبائل «البانتو» بالشرق والشمال الشرقي لتنتشر نحو الغرب والشمال. و يبدو ابتداء من العصر الحجري الجديد، ان الاتجاه العام كان يعتمد النزول نحو الجنوب كأنه يكره الصحراء العملاقة التي كونت شريطا بيثويا قد امتد نهائيا وسط القارة وتسلط على تلك المنطقة. ان ذلك المد نحو الجنوب والشرق (السودانيون، والبانتو والنيليون الخ) سيستمر طيلة العهد التاريخي الى القرن التاسع عشر الذي كانت فيه الموجات الاخيرة تأتي لتحتضر على سواحل البحر الجنوبي.

ان زعيم القافلة المدجج بالحروز والأسلحة، والقائد للعشيرة نحو التقدم أو الى المغامرة هو الجلد الذي سميت باسمه والذي كان يقود خطوات شعبه في مسيرة التاريخ، وهو الذي سيخترق اسمه القرون وتحيط به هالة من التقدير الذي يكاد يصبح من الطقوس. ذلك ان الهجرات كانت ظواهر جماعية وكانت تمثل مواقف لها عناصر ذات معنى اجتماعي عميق.

ان تلك الهجرات الناجمة عن الانتصار أو الخيبة في الوسط الأهلي، ستنتهي الى نتائج غامضة. فهي تنشئ التقدم من جهة لأن موجاتها المتعاقبة والمتلاقية ستضمن شيئا فشيئا الاستيلاء ان لم تكن السيطرة على القارة، وستشجع، اعتمادا على المبادلات التي تتسبب فيها، استشجيع التجديد كنتيجة للأثر المتراكم إلا ان الهجرات في تخفيفها للكثافة السكانية بفضاء لا حدود له، ستمنع المجموعات الانسانية من بلوغ عتبة التجمع التي تفرض على الآلاف المؤلفة من البشر أن تتنافس في ميدان الاختراعات سعيا وراء البقاء على قيد الحياة. ان الذوبان في الوسط الجغرافي يضاعف سيطرة ذلك الوسط ويميل الى ارجاع العشائر الافريقية الأولى الى أصول غامضة كان الانسان يولد فيها ولادة مؤلمة من خلال القشرة المظلمة للعالم الغامض.

## الحركة التاريخية

ان لحمة التطور الانساني التي وضعنا باختصار مفرد، معالمها ومراحلها، تبين لنا إنسان ما قبل التاريخ الافريقي وهو يتخلص بعناء من الطبيعة لينغمس شيئا فشيئا في المجتمع الانساني، وذلك في شكل فرق وجماعات أصلية، تتجمع وتفرق لتتركب في أشكال أخرى، وباعتماد تقنيات تركز أكثر فأكثر على أدوات أو أسلحة من حديد، وفي زواجات أو مجاهبات تصدح بأول أغاني الحب ومقارعة الأسلحة الأولى في التاريخ. ولذلك فان ما يسترعي الانتباه في هذا التصاعد، هو دوام المجموعات الأصلية المتولدة من ما قبل التاريخ، المنطلقة في المسيرة التاريخية الى أن انتهى بها المطاف في قلب القرن العشرين. فلو جعلنا التاريخ يبتدىء من استعمال الادوات الحديدية، لأمكن لنا أن نقول ان ما قبل التاريخ قد دام في مناطق عديدة افريقية حتى الى حدود سنة ١٠٠٠، بل يوجد في القرن العشرين عدد من الجماعات الافريقية التي لم تكن «زنجية عتيقة» فحسب، بل كانت لها هياكل انتاجية وعلاقات اجتماعية اقتصادية لا تختلف كثيرا عن الهياكل والعلاقات الموجودة في ما قبل التاريخ، باستثناء استعمال الأدوات الحديدية ان تقنيات الاقزام في الصيد قد أعادت، في

قلب القرن العشرين، ومن خلال ألفيات من السنين، نفس تقنيات الأفارقة في ما قبل التاريخ. وبقطع النظر عن المنزلة الباهرة التي بلغت الحضارة المصرية، والاعمال البارزة أو المجيدة التي حققها ممالك وامبراطوريات افريقية، فإن ذلك الواقع الضخم يجابهنا بمادته ونسجه على خط تطور المجتمعات الافريقية ويستدعي منا أن نقف عنده لنضع خاتمتنا. مما من شك أن «اتجاه التاريخ» ما كان أبداً اتجاهاً واحداً خضعت له عقول بني الانسان خضوعاً اجماعياً. والآراء في هذا الشأن متعددة.

فلقد كان لماركس وتيلاردي شردان آراؤهما. ولقد أنجبت افريقيا مفكرين كان لبعضهم تصورات عميقة تتعلق بدنيامية وباتجاه الحركة التاريخية، فلقد خطا القديس أغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) خطوة عملاقة بالرؤية التاريخية وذلك بقطع الصلة مع نظرية الدور والتسلسل التي كانت سائدة في ذلك العهد.

وكان يقول بأنه يوجد، من الخطيئة الأولى الى يوم الحساب، يوجد مسار لا رجعة فيه وضعته قدرة الاله، ويمكن للانسان ان يبلغ فيه النجاة أو الخسران، بحسب ما قدمت يده من أعمال. ونحن اذ ندرس تاريخ العالم الديني، فلنكتسب فيه العلامات المبشرة بالعالم العلوي. اما ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦)، وان كان يعترف ان لله سلطاناً كبيراً على مصير العباد، فهو واضع التاريخ كعلم يعتمد بحاله على براهين يقرها العقل. «يجب الاعتماد على ميزان حكمتنا، لأن كل حقيقة يمكن أن يتصورها العقل». يضاف الى ذلك أن موضوع ذلك العلم بالنسبة اليه ليس الزبد السطحي فحسب من الاحداث، اذ يقول «ما المنفعة من رواية أسماء زوجات ملك قديم، والكتابة المنحوتة على خاتمه؟» فهو يدرس خاصة طرق الانتاج ونماذج العيش. والعلاقات الانسانية، وبايجاز الحضارة (أو العمران البشري). وفي النهاية فهو، سعياً وراء تفسير عملية التطور التاريخي، يضع نظرية جدلية فيقابل بين دور الروح التضامنية الداعية الى المساواة (أو العصبية) وبين استبداد الملك في كل من المناطق البدوية أو الرعوية (العمران البدوي) وفي المدن (العمران الحضري).

وهكذا، فهناك انتقال دائم ومتبادل من سيطرة شكل من أشكال الحضارة الى سيطرة الشكل الآخر، من دون أن يخضع ذلك لتواتر دوري. اذ ينشأ كل مرة في مستوى أعلى يتولد عنه نوع من التطور اللولبي. فابن خلدون عندما قال مؤكداً «بأن الاختلافات في العوائد والحكم تختلف الشعوب راجعة للطرق التي يستعملها كل منها للاستزاق» فهو قد عبر بكل وضوح، وبذلك سبق غيره بعدة قرون، عبر عن أحد المبادئ الأساسية التي تقوم عليها المادية التاريخية لكارل ماركس. فهذا الأخير، بعد أن حلل بما هو معهود عنه من دقة ومقدرة على التركيب قانون تطوع العالم الغربي، تعرض لأنماط الانتاج الدخيلة، فانهى في ١٨٥٩م الى شرح تصوره «لطريقة الانتاج الآسيوي»، وذلك في كتاب «فورمان». ان هذه الطريقة هي احدى الأشكال الثلاثة من المجموعات الفلاحية «الطبيعية» المعتمدة على ملكية الأرض الجماعية. وتختص طريقة الانتاج الآسيوي بوجود مجموعات قروية في القاعدة، وهذه المجموعات خاضعة لهيئة تابعة للدولة تقوم بتحصيل الفائض من انتاج الفلاحين الذين يخضعون لا لعبودية فردية بل لعبودية عامة تستبد بهم كمجموعة. ولذلك كان لأهل الحل والعقد، فضلاً عن سلطان الوظيفة العمومية، سلطان آخر يمكن تلك المجموعة العليا من استغلال

المجموعة السفلى، فتستبد الأولى بملكية الأرض (١٣)، وتقوم بتسويق الفائض من الانتاج وتنهض بالمشاريع الكبرى، ولا سيما مشاريع الري للنهوض بالانتاج، وتفرض بايجاز على الجماهير سلطة توصف «بالاستبداد الشرقي». الا أن المعلومات الاثرية والانثروبولوجية المتوفرة منذ ماركس قد بينت أن تطور بعض المجتمعات لا يخضع للمراحل الخمسة التي حددها ماركس في «رأس المال» والتي جعل منها ستالين سنة لا تبديل فيها، ولا يخضع للنوع السائد في ما قبل من «طريقة الانتاج الآسيوية» التي اعتبرها نوعا من أنواع الانتقال الى الدولة، وذلك بالنسبة للمجتمعات الغير الأوروبية. ان التحليل الموضوعي للبنىات الافريقية لا يسمح بأن نستخلص جميع الخصائص التي عبر عنها ماركس للعشور على تعاقب مختلف طرق الانتاج.

في مرحلة المجموعة البدائية، لا يدل الواقع الافريقي على النزوع الى الملكية، خلافا للأشكال الأوروبية (القديمة والجرمانية) التي تتميز بكون الملكية الخاصة تتطور ضمن الملكية الجماعية (١٤) باستثناء هذه الخاصية البارزة، فالمجموعات الأصلية الافريقية تختص بنفس الخصائص الموجودة في ما تبقى من العالم. وتبدو كذلك بوضوح الاختلافات التي تميز البنىات الافريقية عن طريقة الانتاج الآسيوية، فالسلطة العليا، أي الدولة، لا تعتبر هي مالكة الأرض، في المجموعات القروية الافريقية مشملا لا يعتبر الخواص ملاكا. فالدولة لا تقوم عامة بمشاريع كبرى. أما بنية السلطة نفسها، من حيث كونها بنية فوقية، فهي لا تندرج ضمن التحديد الخاص بطريقة الانتاج، وان كانت تقوم دليلا على تشكل الطبقات. لكن تلك البنية لا تدل في افرقيا على خصائص «الاستبداد الشرقي» الذي وصفه ماركس (١٥). ونحن لا ننكر وجود حالات من الاستبداد القائم على سفح الدماء، ولكن على العموم كانت سلطة الدولة تكتسي دائما بافرقيا شكل نظام ملكي معتدل تحيط به هيئات رسمية وتقاليد تعتبر دستورا بأتم معنى الكلمة، وان كانت غير مكتوبة، وتحيط به أيضا سلطات موروثية في الغالب عن التنظيم أو الطبقة الاجتماعية السابقين. و يصدق ذلك حتى على امبراطوريات مجيد وناجعة مثل امبراطورية مالي، تلك الامبراطوريات التي أعجب بها ابن بطوطة عندما وصفها في القرن الرابع عشر، وكانت تمتد على أقطار شاسعة. فالحكم اللامركزي فيها — وهو اختيار مقصود — قد فسح المجال للمجموعات ككي تتمتع على مستوى القاعدة باستقلال ذاتي حقيقي. وعلى كل حال لما كانت الكتابة قليلة الاستعمال على العموم، ولما كانت تقنيات ووسائل النقل قليلة التطور، فان سلطة الامبراطورية المركزية كانت دائما منقوصة نظرا للمسافات التي كانت تتسبب دائما في التهديد الدائم بخروج الرعايا عن طاعة الحكم الاستبدادي.

يضاف الى ذلك أن فائض المجموعات القاعدية بافرقيا كان ضئيلا، الا حينما يوجد احتكار الدولة لمواد نفسية مثل الذهب في غانا أو أشنتي، ومثل العاج والملح الخ... وحتى في هذه الحال يجب الا ننسى الخدمات التي توفرها الرئاسة ومن ذلك المحافظة على الأمن، والعدالة، وتنظيم

(١٣) ان المقصود بالوحدة العليا هو «المالك الأعلى» أو «المالك الوحيد» - لأن ملكس - «يؤكد أحيانا على كون الدولة هي نفسها المالك الحقيقي للأرض، ويلاحظ أحيانا أخرى أهمية حقوق الملكية بالنسبة للمجموعات القروية فلا يوجد بدون شك تعارض بين هاتين الوجهتين» ج. شسنو، ١٩٦٩، ٢٩.

(١٤) «لا توجد ملكية خاصة للأرض حسب مفهوم القانون الروماني أو القانون المدني» ج. سوري كنال ١٩٦٤ ص ٨.

(١٥) «ان كنا نعي بالاستبداد سلطة مطلقة واعتباطية، فلا يمكن لنا الا أن ننفي وجود معنى الاستبداد الافريقي». ج. سوري كنال، ص ١٢٥، وهو يقول «ونحن نعتقد أنه لا داعي الى البحث في تنظيم الدول الافريقية عن طريقة مستعارة من آسيا، فلا يمكن أن نجد الا بعض الشبه السطحي». المرجع المذكور، ص ١٢٢.

الاسواق الخ، ولا ان نستنقص كون جزء كبير من الرسوم والضرائب كان يوزع في الاحتفالات التقليدية طبقا لقانون الشرف السائد بالنسبة للذين يجب أن يعيشوا عيشة الاشراف (١٦) وذلك ما يفسر الكرم الحائمي الذي عبر عنه كئكو موسى البهي، امبراطور مالي، اثر حجة الفاخر سنة ١٣٢٤. أما طريقة الانتاج المعتمدة على استخدام العبيد فهل كانت موجودة بافريقيا؟ وهنا نكون ميالين الى الاجابة بالسلب. فالرق، لم يلعب في جميع المجتمعات جنوب الصحراء، الا دورا هامشيا. فالعبيد أو بالأحرى الأسرى كلهم أسرى حرب، فالأسرى لا يُخضع الانسان ليصبح ملكا محضا حسب المفهوم الذي حدده كاتون... فالعبد الافريقي كان يتمتع غالبا بنوع من حق الملكية فهو لا يستغل استغلال الآلة أو الحيوان. فأسير الحرب، ان لم يضحي به تضحية طقوسية، مثلما يقع أحيانا، فهو يدمج بسرعة ضمن الأسرة التي يكون ملكا من أملاكها الجماعية. فهو عنصر انساني اضا في يتمتع بعنق شرعي أو واقعي في ظرف قصير. فان استعمل الأسرى مشاة في الجيش، فانهم كثيرا ما يجدون امتيازات هامة في تلك المهنة و يكونون أحيانا ممثلين، مثلما هو الشأن في ناحية كايور داخل الحكومة من خلال شخص القائد. وفي الآشنتي كان يمنع منعاً باتاً ان يذكر الأصل العبدى للشخص وذلك للمحافظة على الوحدة «القومية». فيمكن لأسير قديم أن يصبح رئيس قرية «فحال الأسر، وان كانت موجودة بكثرة في افريقيا، الا أنها لا تستوجب الدور المعين لها في الانتاج الذي تختص به طبقة اجتماعية» (١٧).

أما في المناطق التي يأخذ فيها الرق أبعادا واسعة وطابعا آخر من حيث الكيف كما هو الشأن في الداهومي، والآشنتي، وزنزيبار في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، يصبح الأمر يتعلق ببنيات لها صلة بطريقة انتاج غالبية. فما هو شأن طريقة الانتاج القطاعية؟ لقد أدى التشبيه المتسرع ببعض المؤلفين الى وصف رئيس القبيلة «بالقطاعية» (١٨). وهنا أيضا لا يوجد امتلاك، ولا منحة خاصة للأرض، وبالتالي فلا يوجد قطاع. ان الأرض متاع جماعي لا يغتصب الى حد أن الفريق الغازي الذي يستولي على السلطة السياسية، كثيرا ما يترك مسؤولية الأرض الجماعية الى المتصرف الأهلي، وهو «رئيس الأرض» أي (التنغ سوبا موسى) مثلا، لأن سلطة الارستقراطية كانت «تمارس على الشروات والناس، دون أن تنطبق على ملكية الأرض التي تعتبر من صلاحيات الأهالي» (١٩). «فالشرف في افريقيا لم يتحول إلى قيمة تجارية، لأنه ظل دائما صفة وراثية لا يمكن لأحد أن يسلب منها صاحبها».

(١٦) ان ج. ماكسي، بعد أن لاحظ أن ج بالانديبي يرى أن الثمن الذي وجب على أصحاب السلطة السياسية دفعه لا يدفع كله في نهاية الامر «يتعقد فيما يخصه بأن الخدمات العامة التي يقدمها الرؤساء لا تستوجب سلطة زجرية مثلما هو الشأن بالمجتمعات الكبرى، الغير المنسقة والحضرية. ففي غير ذلك يكنى الاعتماد على شبكة الانساب وعقوباتها التي لا تفرض بالقوة». وهو يحتم بقوله فباستثناء اعادة التوزيع، يستولي الحكام على فائض المجتمع التقليدي من دون مقابل اقتصادي ج. ماكسي. ١٩٧٠، ص ٩٩ — ١٠١.

(١٧) ج. سوري كنال المذكور أعلاه ص ١١٩. انظر أيضا دينغ أ. أ. سرم C.E.R.M. باريس عدد ١١٤ — ١٩٧٤. وهو نقد عميق وموثق للنظريات الماركسية «المطاطية» التي يقول بها عجموت ديوب.

(١٨) فحتى اذا اعتقدنا مثل ما يعتقد ج. ماكسي، مستشهدا بكلام بلوخ وغنشوف، بأن «المهم في الامر هو العلاقة بين السيد والسود لا القطاع»، يتضح انه لا يمكن ان نفصل الواحد عن الآخر. ان العلاقات «القطاعية» التي يصفها المؤلف تبدو من خصائص المجتمعات العائشة بين البحيرات وهي تربط غالبا بين أعضاء الطبقة العليا كما هو الشأن في أنكولي أو في بوجا، فهل هذه الحالة مشابهة للحالة السائدة في أوروبا مثلا؟ — انظر ف. كايور، ١٩٦٢، ص ٦٠٩ — ٦٢٣.

(١٩) أنظر ف. كايوري، ١٩٦٢، ص ٦٠٩ — ٦٢٣.

وأخيرا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار البنيات الاجتماعية الاقتصادية مثل النظام العائلي المعتمد على الأم الذي تختص به المجتمعات الافريقية، على الأقل في أول الأمر، وذلك قبل أن تطرأ عليه تأثيرات جاءت من الاسلام ومن الحضارة الاوربية الخ... وفرضت النظام الذي يعتمد الأب. ان تلك البنية الاجتماعية الهامة المعبرة عن دور المرأة الكبير في المجموعة، كانت لها نتائج اقتصادية وسياسية وروحية لأنها كانت تلعب دورا ملحوظا سواء في انتقال الثروات المادية أو في انتقال حق وراثته العرش الملكي، مثلما هو الشأن في مملكة غانا القديمة. فيبدو أن صلة الأمومية آتية من أعماق ما قبل التاريخ الافريقي عندما أبرز الاستقرار الحاصل في العصر الحجري الجديد أهمية دور المرأة في المنزل الى حد ان جعل منها العنصر المركز في النظام الاجتماعي، فنتج عن ذلك عادات متعددة مثل «القرباة على سبيل الفكاهة»، والزواج بالأخت، ودفع المهر لأهل الزوجة المنتظرة الخ.

في هذه الأحوال كيف يمكن أن نصف خط التطور الخاص بالمجتمعات الافريقية التي كيفها ما قبل التاريخ؟ يجب أولا أن نلاحظ ان افريقيا قد لعبت في العلاقات بين القارات دور القطب والقلب المركزي لاختراع التقنيات وانتشارها. الا ان تلك النتائج قد تحولت بسرعة الى حالة من التبعية والهامشية نظرا لعوامل متنافرة داخلية ذكرت سابقا، ونظرا أيضا الى امتصاص ثروات وخدمات افريقيا دون مقابل كاف لصالح تلك القارة، وذلك مثلا في شكل نقل مكافئ من رؤوس الأموال والتقنيات. ان استغلال افريقيا مدة ألياف عديدة من السنين قد مر بثلاث فترات حاسمة: أولاها حدثت في العهد القديم، بعد انحطاط مصر، اذ ان وادي النيل والمقاطعات الرومانية الباقية من افريقيا الشمالية قد أصبحت نهباً ومخزناً يوفر الحبوب لروما. ان الامبراطورية قد استجلبت فضلا عن المواد الغذائية، عددا كبيرا من الحيوانات الوحشة من افريقيا، ومبارزين، وعبيدا للعمل في الجيش والقصور والمزارع الكبرى وألعاب السيرك الفتاكة. وفي القرن السادس عشر بدأ العهد المظلم لتجارة الرقيق السود. اما القرن التاسع عشر فقد تميز بتركيز التبعية وذلك باحتلال الارض واستعمارها. ان تراكم رأس المال بأوروبا ونهضة الثورة الصناعية، وهما ظاهرتان متناظرتان ومتكاملتان، ما كانا لينجحا لولا هذه المساهمة المفروضة على آسيا، والامر يكتين وخاصة افريقيا.

وموازاة لذلك وطيلة قرون من التطور الداخلي الذي لم يتعرض لكثير من الاطماع الخارجية (بين العهد القديم والقرن السادس عشر) فقد شكلت التناقضات الداخلية العديدة في النظام الافريقي نفسه عراقيل بنوية داخلية دون أن ينشأ عنها عن طريق الضغط الداخلي الانتقال الى بنى أكثر تطورا. وذلك ما عبر عنه بغمق ج. سورى كنال في حديثه عن طريقة الانتاج الأسبوية (وهذه الملاحظة صالحة بالاحرى للحالة الافريقية بما في ذلك الفترة الاستعمارية). إن هذا النظام يؤدي الاستغلال الطبقي الى تعزيز البنى القائمة على الملكية الجماعية للارض عوض أن يقضي عليها: فهي تشكل الاطار الذي يؤخذ منه فائض الانتاج، وذلك هو الاستغلال بعينه. وفعلا فلقد كانت المجموعات القاعدية هي التي توفر دفع الفائض الانتاجي. ان افريقيا بنظامها العشائري وقرها الباقية دائما، لم تكن تميل الى الملكية الخاصة للارض (وهي ثروة مشاعة وشمينة جدا، لكنها مجانية مثل الهواء)، فظلت مدة طويلة لا تشهد هذا الصراع الكبير بين الطبقات الاجتماعية. الا أن ذلك لم

يكن السبب الوحيد للوضعية البائدة التي آلت إليها الاشكال الاجتماعية بافريقيا. فـلمستوى الضعيف للتقنيات والقوى المنتجة كان — على منوال دائرة مفرغة — السبب والنتيجة لتشنت شمل السكان في فضاء لا يمكن التحكم فيه لأنه فسيح جدا.

ونظرا الى الحواجز الطبيعية، لم تتخضم حركة التجارة البعيدة المدى الا قليلا، وكانت تشمل بعض المواد الفاخرة المقصور تداولها على الأسواق الخاصة بالقصور. ونحن لا نأخذ هنا بفكرة بليخانوف الخاصة «بالوسط الجغرافي»، لأن هذا الوسط ان هوالا وجه من وجوه الوسط التاريخي ومع ذلك يجب أن نأخذ بعين الاعتبار العراقيل المناخية المذكورة في مدخل هذا المجلد: ومما يؤيد هذا القول، أنه كلما رفعت تلك الحواجز الطبيعية كليا أو جزئيا، مثلما هو الشأن بوادي النيل، وعلى مستوى أقل بوادي النيجر، تحررت الدينامية الاجتماعية بفضل النهضة المصاحبة لكثافة السكان وللملكية الخاصة.

وهكذا فلم تشهد افريقيا (السوداء) مرحلة رق ولا مرحلة اقطاعية مثلما هو الشأن بأوروبا (٢٠). بل لا يمكن أن نقول ان النظم الافريقية هي وليدة تلك النظم الاقتصادية الاجتماعية، لأنه كثيرا ما تعوزها العناصر المكونة الأساسية. فهل هذا يعني وجوب عزل افريقيا عن قوانين التطور العامة للانسانية جمعا؟ طبعاً لا. ولكن، حتى وان كانت تلك القوانين مشتركة بين الناس، وان كنا نفر أن الاساسي من المقولات المنهجية العامة للمادية التاريخية صالحة بأن تطبق في كل مكان فلا بد أن نعود الى أمر أساسي وهو التوافقات (الغير الآلية) التي نلاحظها قائمة بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج، وكذلك الانتقال (الغير الآلي) من أشكال المجتمعات دون طبقات، الى أشكال اجتماعية فيها صراع الطبقات. ففي هذه الحال ينبغي دراسة الواقع الافريقي لا في اطار الرجوع الى كارل ماركس، بل في اطار الاستشهاد بأقواله. فان كان العقل واحدا، فان العلم يفرض أن نكيف التناول العقلي بحسب كل موضوع ندرسه.

وبايجاز نلاحظ في افريقيا الدوام المشهود لطريقة انتاج ذاتي ينتمي الى الأنواع الاخرى من المجموعات «البدائية» لكنه يتميز بفروق أساسية، لا سيما النفور من الملكية الخاصة أو ملكية الدولة (٢١).

ثم وقع الانتقال بالتدرج الى أشكال دولية قد برزت بنفسها منذ مدة طويلة بشبكة العلاقات قبل تكون الدول القاعدية، ثم تخلصت تدريجيا بفعل قوة داخلية وضغط خارجي، من عقبة العهد الجماعي البدائي الذي ليس له بنية، لتتنظم على أساس الملكية الخاصة وعلى جهاز الدولة، اعتمادا على طريقة انتاج رأسمالية، غالبية أولا، ثم احتكارية.

وبالفعل قامت الدولة الاستعمارية كمتصرف في الأسواق التي فتحتها هنا وهناك، الى أن حلت محلها الدولة الرأسمالية المستقلة في نصف القرن العشري، وفرضت طريقة أخرى هي الانتقال من الحالة الغالبة الجماعية الأصلية الى الحالة الغالبة الرأسمالية ثم الى النهج الاشتراكي في التنمية.

(٢٠) يقول ج. شسنو، ١٩٦٩ في ص ٣٦: «والذي يبدو ثابته، هو الاستحالة المطلقة في اعتبار المجتمعات الافريقية ما قبل الاستعمار، باستثناء البعض القليل منها، مجتمعات رق أو اقطاعية حسب المعنى المتعارف.

(٢١) النفور ليس مربوطا بقانون وراثي خاص، ولا «بطبيعة» مختلفة لكنه مربوط بوسط تاريخي أصيل.

ومهما كانت الحال، يوجد واقع يفرض نفسه في افريقيا وهو أنه، لأسباب بنوية لم تتبدل في جوهرها منذ خمسمائة سنة على الأقل، ونظرا الى تزايد السكان، يسود افريقيا اليوم ركود القوى الانتاجية، وهو مصحوب. أحيانا ببعض النمو المبعثر والمحلي، ولكن بدون تطور. وهذا الركود مصحوب أيضا بتفتح فني خارق للعادة، وبتعزيز العلاقات بين الاشخاص، كما لو أن الأفارقة قد وظفوا فيها كل طاقاتهم الخلاقة (٢٢). وبالأجمال فإن الحضارة المادية المنطلقة من المناطق المدارية الافريقية الآسيوية طويلة ما قبل التاريخ، قد صعدت نحو المناطق الشمالية حتى البرزخ الأوربي حيث استقرت وتلاأت ساطعة لأنها اعتمدت على عملية تراكمية جمعت بين التقنيات، وامتلاك رؤوس الأموال. فهل يأتي تحول هذا النظام الكوني من قلبه الغربي أو من البلدان المحيطة به، فيعيد التاريخ نفسه، متمثلا في دور البرابرة مع الامبراطورية الرومانية؟ ذلك ما سيجيب عنه التاريخ، ويمكن لنا من الآن ان نؤكد ان ما قبل تاريخ افريقيا هو تاريخ انتقال مقدّم بشري متميز ثم هو تاريخ انسانية الطبيعة بفضل ذلك العنصر المسؤول عن كل تقدم. وهي مسيرة طويلة، أخذ فيها التوازن يحتل تدريجيا بين الطبيعة والانسان، لصالح العقل. فبقيت المحافظة على التوازن أو عدم التوازن بين المجموعات الانسانية نفسها ضمن القارة وتجاه الخارج. فبقدر ما تتزايد قوى الانتاج، تشدد الصراعات وتقوى روح المصلحة وحب السلطة. ان الصراعات التحررية السائدة اليوم في بعض الأقطار الافريقية، تقف صامدة أمام ذلك السعي الى اخضاع القارة ضمن نظام يمكن أن نسميه طريقة الانتاج الافريقية المتخلفة. ولكن القارة الافريقية، منذ أن أخذ الانسان الماهر يخطو خطواته الأولى المتعشرة، انطلق فيها منذ ذلك العهد الكفاح من أجل التحرر، وتوفرت فيها نفس العزيمة المتعنتة والمندفة نحو بلوغ مستقبل أفضل، وذلك بالتخلص من الخضوع للطبيعة ثم للانسان. وباختصار فإن الخلق، والخلق الذاتي للانسان الذي ابتدأ بافريقيا منذ آلاف الآلاف من السنين، ما انفك الى يومنا هذا موضوع الساعة.

وبعبارة أخرى، فهذا يعني الى حد ما، أن ما قبل تاريخ افريقيا لم ينته بعد.

(٢٢) ولهذا فإن تحديد «طريقة الانتاج الافريقية المحتملة»، تستدعي عناية خاصة «بالنظم الاجتماعية، والسياسية، والايديولوجية» بالرجوع الى تحاليل غرمسكي ون. بولنتاس.





## أعضاء اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ أفريقيا العام \*

- الأستاذ ج. ف. أ. أجايي (نيجيريا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩  
المشرف على المجلد السادس
- الأستاذ ف. أ. ألبوكيرك موراو (البرازيل) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩  
الأستاذ أ. أدوبواهن (غانا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩  
المشرف على المجلد السابع
- سعادة السيد بوبوهاما (النيجر) — ١٩٧١ — ١٩٧٨  
سعادة السيدة موتومبا بول (زامبيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩  
الأستاذ د. تشانيوا (زمبابوي) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩  
الأستاذ ف. كورتين (الولايات المتحدة الأمريكية) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩.
- الأستاذ ج. ديفيس (فرنسا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩  
الأستاذ منويل ديفويلا (أنجولا) — ١٩٧٨ — ١٩٧٩  
الأستاذ ه. جعيط (تونس) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩
- الأستاذ الشيخ أنتا ديوب (السنغال) — ١٩٧١ — ١٩٧٩  
الأستاذ ج. د. فاج (المملكة المتحدة) — ١٩٧١ — ١٩٧٩  
سعادة السيد محمد الفاسي (المغرب) — ١٩٧١ — ١٩٧٩  
المشرف على المجلد الثالث
- الأستاذ ج. ل. فرانكو (كوبا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩  
السيد موسى ح. أ. جلال (الصومال) — ١٩٧١ — ١٩٧٩  
الأستاذ ألكسندر ف. ل. جروتانيلي (إيطاليا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩  
الأستاذ آيكي هابرلاند (جمهورية ألمانيا الاتحادية) — ١٩٧١ — ١٩٧٩  
الدكتور أكليلو هابتي (إثيوبيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩  
سعادة السيد م. أحمد هامباتي (مالي) — ١٩٧١ — ١٩٧٨

- الدكتور ادريس س. الحراير (ليبيا) — ١٩٧٨ — ١٩٧٩
- الدكتور ايفان هربك (تشيكوسلوفاكيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الدكتورة أبيودو جونز (ليبيريا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- القس الكسيس كاجامي (رواندا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الأستاذ أ. م. كيمايو (تنزانيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الأستاذ ج. كي زبربو (فولتا العليا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- المشرف على المجلد الأول
- السيد ديودي لايا (النيجر) — ١٩٧٩
- الدكتور أ. لتيف (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الدكتور جمال مختار (مصر) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- المشرف على المجلد الثاني
- الأستاذ ف. موتيوا (أوغندا) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩
- الأستاذ د. ت. نيان (السنغال) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- المشرف على المجلد الرابع
- الأستاذ ل. د. نجكونجو (بوتسوانا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الأستاذ ت. اوبنجا (جمهورية الكونغو الشعبية) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩
- الأستاذ ب. أ. أوجوت (كينيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- المشرف على المجلد الخامس
- الأستاذ س. رافوجنا هاري (مدغشقر) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- السيد ولترودني (غيانا) — ١٩٧٩
- الأستاذ مكبي شبيكة (السودان) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الأستاذ ي. أ. طالب (سنغافورة) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩
- الأستاذ أفيلينو تكسيرا دا موتا (البرتغال) — ١٩٧٨ — ١٩٧٩
- سيادة المطران ت. تشييانجو (زائير) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الأستاذ جان فانسينا (بلجيكا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- صاحب الاحترام الدكتور ايريك ويليامز (ترينيداد وتوباغو) — ١٩٧٦ — ١٩٧٨
- الأستاذ ع. مزروي (كينيا)
- المشرف على المجلد الثامن (ليس عضوا باللجنة)
- أمانة اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ أفريقيا العام:
- السيد موريس جليل، قسم دراسة الثقافات، اليونسكو،
- ١ شارع ميوليس، ٧٥٠١٥ باريس

## بيانات عن مؤلفي المجلد الأول

### مقدمة

ج. كي — زيربو (فولتا العليا). أخصائي منهجية تاريخ أفريقيا؛ وضع عدة مؤلفات عن أفريقيا السوداء وتاريخها، أستاذ التاريخ بمركز التعليم العالي في واجادوجو، الأمين العام للمجلس الأفريقي الملجاشي للتعليم العالي.

### الفصل الأول

ج. د فاج (المملكة المتحدة). أخصائي تاريخ أفريقيا الغربية؛ وضع واشترك في وضع مؤلفات عن تاريخ أفريقيا. نائب رئيس جامعة برمنجهام والمدير السابق لمركز الدراسات الأفريقية بجامعة برمنجهام.

### الفصل الثاني

سعادة بوبو هاما (النيجر). أخصائي التراث المنقول؛ وضع عدة مؤلفات عن تاريخ النيجر والمنطقة السودانية؛ المدير السابق للمركز الإقليمي للبحوث والتوثيق في مجال التراث المنقول ولتنمية اللغات الأفريقية.

### الفصل الثالث

ف. د. كورتن (الولايات المتحدة الأمريكية). أخصائي في تاريخ تجارة الرقيق، وضع عدة مؤلفات عن تاريخ تجارة الرقيق، أستاذ التاريخ بجامعة جون هوبكنز.

### الفصل الرابع

ت. أوبنجا (جمهورية الكونغو الشعبية). أخصائي اللغات الأفريقية؛ كتب عدة مقالات عن تاريخ أفريقيا ووضع عدة مؤلفات عن أفريقيا في العصور القديمة؛ أستاذ في كلية الآداب بجامعة ماريان انجواي.

### الفصل الخامس

هـ. جعيط (تونس). أخصائي تاريخ العصور الوسطى في المغرب؛ كتب عدة مقالات ووضع عدة مؤلفات عن تاريخ تونس؛ أستاذ بجامعة تونس.

## الفصل السادس

أ. هربك (تشيكوسلوفاكيا). أخصائي تاريخ أفريقيا والعرب؛ وضع عدة مؤلفات عن تاريخ أفريقيا؛ أستاذ جامعي؛ رئيس قسم البلدان العربية والأفريقية بالمعهد الشرقي في براغ.

## الفصل السابع

ج. فانسينا (بلجيكا). أخصائي في تاريخ أفريقيا؛ وضع عدة مؤلفات عن تاريخ أفريقيا الاستوائية؛ أستاذ التاريخ بجامعة ويسكونسين (الولايات المتحدة الأمريكية).

## الفصل الثامن

سعادة أ. هامباتي با (مالي). أخصائي التراث المنقول؛ وضع عدة مؤلفات عن الامبراطوريات الأفريقية القديمة والحضارة الأفريقية.

## الفصل التاسع

ز. أسكندر (مصر). أخصائي تاريخ مصر؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات عن مصر القديمة؛ المدير العام للشؤون الفنية بمصلحة الآثار.

## الفصل العاشر

ب. ديباني (السنغال). أخصائي في علم اللغات؛ دكتور في العلوم السياسية والاقتصادية؛ وضع مؤلفا عن السلطة السياسية في أفريقيا ومؤلفا في النحو في لغة الولوف؛ مدرس بجامعة داكار.

## الفصل الحادي عشر

د. أ. أولدروج (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية). أخصائي العلوم الاجتماعية الأفريقية؛ وضع عدة مؤلفات عن أفريقيا؛ عضواً أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي.

## الفصل الثاني عشر

ج. هـ. جرينبرغ. (الولايات المتحدة الأمريكية). أخصائي في علم اللغات؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات عن الأنثروبولوجيا وعلم اللغات؛ أستاذ الأنثروبولوجيا في جامعة ستانفورد.

## الفصل الثالث عشر

س. دايارا (مالي). أخصائي جغرافيا المناطق المدارية؛ أستاذ الجغرافيا بجامعة أبيدجان.

## الفصل الرابع عشر

أ. مابوجونجي (نيجيريا). وضع عدة مؤلفات عن أوروبا؛ أستاذ الجغرافيا بجامعة إيبادان.

## الفصل الخامس عشر

ج. كي - زيربو (فولتا العليا).

## الفصل السادس عشر

س. رشدي (مصر). فيزيائي؛ رئيس الهيئة المصرية للمساحة الجيولوجية والتعدين.  
هـ. فور (فرنسا). دكتور في العلوم؛ جيولوجي متخصص في فرنسا ما وراء البحار؛ وضع مؤلفات عن جيولوجيا أفريقيا الغربية؛ عمل مدرسا في جامعة داكار ثم في جامعة باريس

٦؛ رئيس اللجنة الفنية لجيولوجيا العصر الرابع بالمركز القومي للبحث العلمي.

#### الفصل السابع عشر

ل. بالوت (فرنسا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا؛ وضع عدة مؤلفات عن السلام وكتب عدة مقالات عن شمال أفريقيا، مدير سابق للمتحف القومي للتاريخ الطبيعي في باريس.

ى. كوبنز (فرنسا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ؛ وضع عدة مؤلفات عن أصل الجنس البشري، مساعد مدير المتحف القومي للتاريخ الطبيعي في باريس.

#### الفصل الثامن عشر

ر. ليكي (المملكة المتحدة) أخصائي عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا؛ وضع مؤلفات عن الحفائر الخاصة بأصل الإنسان في أفريقيا الشرقية؛ رئيس معهد لويس ليكي التذكاري الدولي لعصر ما قبل التاريخ في أفريقيا.

#### الفصل التاسع عشر

ج. أ. ج. ساتون (المملكة المتحدة). أخصائي عصر ما قبل التاريخ؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات عن عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا؛ رئيس سابق لقسم الآثار بجامعة أكسفورد.

#### الفصل العشرون

ج. د. كلارك (الولايات المتحدة الأمريكية). أخصائي عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا. وضع عدة مؤلفات عن عصر ما قبل التاريخ والحضارات الأفريقية القديمة؛ أستاذ في التاريخ والآثار.

#### الفصل الحادي والعشرون

ر. دي بايل دي هيرمنس (فرنسا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات لا سيما عن عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا؛ قائم بأعمال البحث بالمركز القومي للبحث العلمي في باريس.

ف. فان نوتين (بلجيكا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ والآثار؛ وضع عدة مؤلفات عن عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا الوسطى؛ أمين المتحف الملكي لعصر ما قبل التاريخ والآثار.

#### الفصل الثاني والعشرون

ل. بالوت (فرنسا).

#### الفصل الثالث والعشرون

هـ. ج. هوجوت (فرنسا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ؛ مدرس جامعي؛ وضع عدة مؤلفات عن التاريخ الطبيعي لعصر ما قبل التاريخ والعصر الرابع؛ مساعد مدير المتحف القومي للتاريخ الطبيعي.

#### الفصل الرابع والعشرون

ث. شو (المملكة المتحدة). أستاذ التاريخ القديم؛ وضع عدة مؤلفات عن عصر ما قبل

التاريخ في أفريقيا الغربية؛ نائب رئيس مؤتمر عموم أفريقيا لعصر ما قبل التاريخ.

#### الفصل الخامس والعشرون

ف. ديبونو (المملكة المتحدة). أخصائي عصر ما قبل التاريخ في مصر؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات عن عصر ما قبل التاريخ في مصر؛ باحث.

#### الفصل السادس والعشرون

ج. كي زيربو (فولتا العليا).

#### الفصل السابع والعشرون

ر. بورتير (فرنسا). كرس جزءا كبيرا من حياته للبحوث النباتية في أفريقيا؛ أستاذ سابق في المتحف القومي للتاريخ الطبيعي؛ توفي.

ج. بارو (فرنسا). وضع عدة مؤلفات كثيرة عن نباتات المناطق المدارية، نائب مدير مختبر اثنولوجيا النبات واثنولوجيا الحيوان.

#### الفصل الثامن والعشرون

ج. فيركوتر (فرنسا). أخصائي التاريخ القديم؛ وضع عدة مؤلفات عن مصر القديمة؛ أستاذ التاريخ ومدير المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.

خاتمة

ج. كي زيربو (فولتا العليا).

## قائمة عامة بالمراجع

فحصت البيانات الخاصة بجميع المراجع بأكبر دقة ممكنة، ولكن، نظرا لتعدد المصنّف وطابعه الدولي، ربّما بقيت هناك بعض الأخطاء. (ملاحظة للمحرر).

- ADAMS (W.Y.). — 1964. « Post-Pharaonic Nubia in the light of archaeology », *J.E.A.* 50 (٢٨)\*.
- AGUESSY (M.). — 1972. « Traditions orales et structures de pensée : essai de méthodologie », *C.H.M.* XIV, 2 (١٠) (٧) (٤) (المقدمة العامة)
- AITKEN (M.J.). — 1961. *Physics and archaeology*, London, Intersc. Pub. Ltd., X + 181 p. (٩)
- 1963. « Magnetic location », *Science in archaeology*, Londres, Thames and Hudson (٩)
- 1970. « Dating by archaeomagnetic and thermoluminescent methods », *P.T.R.S.*, A 269, n° 1193 (٩)
- AKINJOGBIN (I.A.). — 1967. *Dahomey and its neighbours — 1708-1818*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (المقدمة العامة)
- ALAGOA (E.J.). — 1968. « The use of oral literacy data for history », *J.A.F.* 81 (٧).
- 1968. « Songs as historical data, Exemples from the Niger delta », *Research review*, V, 1 (٧)
- 1970. « Long distance trade and states in the Niger delta », *J.A.H.* XI, 3 : 319-29 (المقدمة العامة)
- 1971. « The Niger delta states and their neighbours, 1600-1800 », in J.F.A. AJAYI and Michael CROWDER (éd.), *History of West Africa*, vol. I, London, Longmans (٩).
- 1973. « Oral tradition and archaeology. The case of Onyoma », *O.M.* 1, 1 (٤) (المقدمة العامة)

- الملوي (عبدروس بن الشريف علي العبدروس الناصري الملوي) — ١٩٥٤/١٣٧٤ — ١٩٥٥. بغية الأمل في تاريخ الصومال  
موقاديشيو (المقدمة العامة) (٥) (٦).
- ALBERTI (L.). — 1811. *Description physique et historique des Caffres sur la côte méridionale de l'Afrique*, Amsterdam (٦).
- ALEXANDER (Sir J.). — 1967. *Expedition of discovery into the interior of Africa...*, 2<sup>e</sup> éd., Cape Town (٦).
- ALEXANDRE (J.) et ALEXANDRE (S.). — 1968. « Contribution à l'élaboration d'une stratigraphie du Quaternaire, basée sur les variations de climat dans une région du monde intertropical », *VII<sup>e</sup> Congrès INQUA*, 7 (٢١).
- ALEXANDRE (P.). — 1970. « Afrique centre-équatoriale et centre-occidentale », *Histoire générale de l'Afrique noire*, Paris, P.U.F. (١٠).
- ALEKSEIEV (K.). — 1973. « Sur la classification anthropologique de la population indigène de l'Afrique », *les Problèmes fondamentaux des études africaines*, Moscou (١١).
- ALIMEN (H.). — 1955. *Préhistoire de l'Afrique*, Paris, Boubée (٢٣).
- 1957. *The prehistory of Africa*, Londres, Hutchinson (٢٤).
- 1960. « Découverte d'un atelier de l'Acheuléen supérieur, en place, à la limite du 2<sup>e</sup> pluvial et du 3<sup>e</sup> pluvial dans les monts d'Ougarta (Sahara occidental) », *B.S.P.F.* 57 : 421-3 (٢٣).
- 1962. « Les origines de l'homme », *Bilan de la science*, Paris, Fayard (الخاتمة).
- 1963. « Considérations sur la chronologie du Quaternaire saharien », *B.S.G.F.* 5 : 627-34 (١٣).
- 1966. *Préhistoire de l'Afrique*, réédition, Paris, Boubée, 340 p. (المقدمة العامة) (٢٨) (٢٤) (٢٣) (٢٢) (٢١) (١٣).
- 1975. « Les isthmes hispano-marocain et sicilo-tunisien aux temps acheuléens », *Anthropologie*, 79, 3 : 399-430 (٢٢).
- 1975. « Limite Pliocène-Quaternaire et définition du Quaternaire », *Prace o Plejstocie, Livre jubilaire du Professeur ROXYCKI*, Varsovie (١٦).
- 1976. Variations climatiques dans les zones désertiques de l'Afrique nord-équatoriale durant les quarante derniers millénaires, *Actes VII<sup>e</sup> P.P.E.Q.*, pp. 337-347, Addis Abeba (١٦).
- ALIMEN (H.) et CHAVAILLON (J.). — 1956. « Industrie acheuléenne in situ de l'oued Fares, dans les monts d'Ougarta (Sahara occidental) », *B.S.P.F.* 53-202-14 (٢٣).
- ALIMEN (H.), CHAVAILLON (J.) et MARGAT (J.). — 1965. « Contribution à la chronologie préhistorique africaine. Essai de corrélation entre les dépôts quaternaires du bassin Guir-Saoura (Sahara) et du bassin du Tafilat (Maroc) », *Congr. Préhist. de France*, Monaco, 1959, pp. 161-267, 2 fig. et 1 tableau (١٦).
- ALLEN (J.W.T.). — 1959. « The collection of swahili literature and its relation to oral tradition and history », *T.N.R.* 53 (٦).
- ALMAGRO-BASCH (M.). — 1946. « Prehistoria del Norte Africa y del Sahara español », Barcelona, *Instit. Estud. afr.*, 302 p. (١٣).



- ALMAGRO-BASCH (M.) et GORBEA (M.A.). — 1968. « Estudios de arte rupestre nubio », *Memorias de la Misión arqueologica en Egipto* 10, Madrid (٢٣).
- AMER (M.). — 1933. « The excavations of the egyptian University at Maadi », *B.F.A.* 1 : 322-4 (٢٥).
- 1935. « The excavations in the prehistoric site at Maadi », *B.F.A.* II : 176-8 (٢٥).
- 1953. « Rizkana, I. Excavations in the Wadi Digla », *B.F.A.* XV : 97-100, 201-205 (٢٥).
- ANCIAUX DE FAVAUUX (A.). — 1955. « Les gisements préhistoriques de Kansenia », *Actes II<sup>e</sup> Congr. P.P.E.Q.* : 333-4 (٢١).
- 1957. « Une industrie sur galets spéciale aux plateaux des Bianco (Katanga-Congo belge) », *Acts III<sup>e</sup>. P.C.P.Q.S.* : 210-3 (٢١).
- 1962. « Evolution parallèle de deux ou plusieurs techniques au Paléolithique ancien et moyen sur les hauts plateaux katangais. Fouilles 1960-1961 », *Actes VI<sup>e</sup> Congr. I.S.P.P.*, III : 230-5. (٢١).
- ANDERSON (B.). — 1870. *Narrative of a journey to Mussardu, the capital of the western mandigoes*, New York (١).
- ANTOINE (M.). — 1938. « Notes de préhistoire marocaine. XIV : un cône de résurgence du Paléolithique moyen à Tit-Mekil, près Casablanca », *B.S.P.M.*, 12 (٢٣).
- APTER (D.). — 1955. *The Gold Coast in transition*, Princeton, Princeton Univ. Press, X + 355 p. (٢١).
- ARAB-FAQIH. — 1897-1910. *Histoire de la conquête de l'Abyssinie*, Paris, R. Basset, 2 vol. (١).
- ARAMBOURG (C.). — 1949. « Sur la présence dans le Villafranchien d'Algérie de vestiges éventuels d'industrie humaine », *C.R.A.S.* 229 : 66-7 (٢٢).
- 1954. « L'hominien fossile de Ternifine (Algérie) », *C.R.A.S.* 239 : 293-5 (٢٤).
- 1962. « Etat actuel des recherches sur le Quaternaire en Afrique du Nord », *Actes IV P.P.E.Q.* 40 : 255-77 (١٦).
- 1966. « Aperçu sur les résultats des fouilles du gisement de Ternifine », *Actas V Congr. P.P.E.C.* I : 129-36 (٢٤) (١٦).
- ARAMBOURG (C.) et COPPENS (Y.). — 1967. « Sur la découverte dans le Pléistocène inférieur de la vallée de l'Omo (Ethiopie) d'une mandibule d'Australopithécien », *C.R.A.S.* 265 : 589-90 (١٧).
- 1968. « Découverte d'un Australopithécien nouveau dans les gisements de l'Omo (Ethiopie) », *S.A.J.S.*, 64, 2 : 58-9 (١٧).
- ARAMBOURG (C.) et HOFSTETTER (R.). — 1954. « Découverte en Afrique du Nord de restes humains du Paléolithique inférieur », *C.R.A.S.* 239 : 72-4 (٢٤).
- 1955. « Le gisement de Ternifine. Résultats des fouilles de 1955 et découvertes de nouveaux restes d'*Anianthropus* », *C.R.A.S.* 241 : 431-3 (٢٤).
- 1963. « Le gisement de Ternifine », *I.P.H. Archives* : XXXII, Paris, Masson, 191 p. (٢٢).

- ARKELL (A.J.). — 1949. *The Old Stone Age in the Anglo-Egyptian Sudan*, Cambridge (٢٥).
- 1949. *Early Khartoum. An account of the excavation of an early occupation site carried out by the Sudan Government antiquities service, 1944-1945*, London, Oxford Univ. Press (٢٨)(٢٥)(٢٣).
- 1950. « Gold Coast copies of fifth to seventh century bronze lamps », *Antiquity*, 24 : 38-40 (٢٤).
- 1953. *Shaheinab. An account of the excavation of a Neolithic occupation site carried out for the Sudan antiquities service in 1949*, London, Oxford Univ. Press (٢٨)(٢٥)(٢٣).
- 1954. « The late Acheulean of Esh Shaheinab », *Kush*, I : 30-4 (٢٣).
- 1961. *History of the Sudan*, 2<sup>e</sup> éd., London, Athlone (٢٨).
- 1964. *Wanyanga and an archaeological reconnaissance of the South-West libyan desert. The british Ennedi expedition, 1957*, London, Oxford Univ. Press (٢٣).
- 1975. « Prehistory of the Nile Valley », *Handbuch der Orientalistik*, VII, Abteilung, Band 2, Abschnitt A. Lief 1, Leiden-Köln (٢٨).
- ARKELL (W.J.) et SANDFORD (K.S.). — 1933. *Palaeolithic man and the Nile Valley in Nubia and Upper Egypt*, Chicago (٢٣).
- ARMSTRONG (R.). — 1964. « The use of linguistics in ethnogeography », in J. VANSINA and al., *The historian in tropical Africa*, Oxford, Oxford Univ. Press (١١).
- 1971. « The collection of oral traditions in Africa », *A.U.A.* 579-83 (٧).
- A.S.E.Q.U.A. — 1964 et années suivantes. *Bulletin* n° 1 et suivants (١٦).
- 1966. « Etat des recherches sur le Quaternaire de l'Ouest africain », 1<sup>re</sup> série, *B.I.F.A.N.*, 28 : 371-429 (٢٤).
- 1967. « Etat des recherches sur le Quaternaire de l'Ouest africain », 2<sup>e</sup> série, *B.I.F.A.N.*, A, 29 : 821-65 (٢٤).
- 1969. « Etat des recherches sur le Quaternaire de l'Ouest africain », 3<sup>e</sup> série, *B.I.F.A.N.*, A, 31 : 210-83 (٢٤).
- ATHERTON (J.H.). — 1972. « Excavations at Kamabai and Yagala Rock Shelters, Sierra Leone », *W.A.J.A.* 2 : 39-74 (٢٤).
- 1973. « The Stone Age/Iron Age transition in Northeast Sierra Leone », *Underground West Africa*, 7 (٢٤).
- AUBREVILLE (H.). — 1949. « Climats, forêts, désertification de l'Afrique tropicale », Paris, Larose, 351 p. (١٣).
- 1962. « Savanisation tropicale et glaciations quaternaires », *Andanson*, 2, 1 : 1684 (١٣).
- AYACHE (G.). — 1961. « Les archives marocaines », *H.T.* 2 (٦).
- BA (A.H.). — 1972. *Aspects de la civilisation africaine*, Paris, Présence africaine (٨).
- BA (A.H.) et CARDAIRE (M.). — 1957. *Tierno Bokar, le sage de Bandiagara*, Paris, Présence africaine (٨).
- BA (A.H.) et DAGET (J.). — 1962. *L'Empire peul du Macina*. Paris, Mouton (٨).

- BA (A.H.) et DIETERLEN (G.). — 1961. *Koumen, texte initiatique des pasteurs peul*. (المقدمة العامة).
- BA (O.). — 1972. *Glossaire des mots étrangers passés en Pulaar du Fouta Toro*, Dakar, C.L.A.D. (١٠).
- BABET (V.). — 1936. « Note préliminaire sur un atelier de pierres taillées à Brazzaville (Afrique équatoriale française) », *B.S.P.F.* 33 : 153-5 (٢١).
- BAILLOUD (A.). — 1966. « L'évolution des styles céramiques en Ennedi », *Actes I<sup>re</sup> coll. intern. Archéol. Afr.* (المقدمة العامة).
- البكري — ١٩٦٨. (طرق افريقيا البيضاء والسوداء بالشمال الغربي) (قرطبة ١٠٦٨) انظر موننتايل، ترجمة المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء (٣٠، ٣٩ — ١١٦ (٢٤)).
- BALANDIER (G.). — 1971. *Sociologie actuelle de l'Afrique Noire*, 3<sup>e</sup> éd. — Paris, P.U.F. (المقدمة العامة).
- BALANDIER (G.) et MAQUET (J.). — 1968. *Dictionnaire des civilisations africaines*, Paris, Hazan (٤) (المقدمة العامة).
- BALBI (A.). — 1826. *Atlas ethnographique du globe ou Classification des peuples anciens et modernes d'après leurs langues*, Paris (١٢).
- BALL (J.). — 1939. *Contributions to the geography of Egypt*, Survey and Mines Dept., 308 p. (١٦).
- BALOUT (L.). — 1952. « Du nouveau à l'Aïn Hanech », *B.S.H.N.A.N.* 43 : 152-9 (٢٢).
- 1952. « Pluviaux, interglaciaires et préhistoire saharienne », *Trav. I.R.S.* 8 : 9-21 (٢٣) (١٦).
- 1955. in ARAMBOURG et BALOUT, « L'ancien lac de Tihodaïne et ses gisements préhistoriques », *Actes II<sup>e</sup> Congr. P.P.E.Q.* : 287-92 (٢٣).
- 1954. « Les hommes préhistoriques du Maghreb et du Sahara. Inventaire descriptif et critique », *Libyca*, II (٢٢).
- 1955. *Préhistoire de l'Afrique du Nord*, Paris, A.M.G. (٢٣) (٢٢) (١٢).
- 1958. *Algérie préhistorique*, Paris, A.M.G. (٢٣).
- 1965. « Le Moustérien du Maghreb », *Quaternaria*, 7 : 43-58 (٢٢).
- 1967. « Procédés d'analyse et questions de terminologie dans l'étude des ensembles industriels du Paléolithique inférieur en Afrique du Nord », *Background to evolution in Africa*, Chicago, London, the Univ. of Chicago Press : 701-35 (٢٢).
- 1967. « L'homme préhistorique et la Méditerranée occidentale », *R.O.M.M.* III : 9-29 (٢٢).
- 1968. « L'art rupestre nord-africain et saharien. Etat de quelques problèmes », *Simposio internacional de arte rupestre*, Barcelona : 257-64 (٢٢).
- 1976. *Orientations nouvelles de la préhistoire maghrébine. In memoriam Pedro Bosch Gimpera, 1891-1974*, Mexico, pp. 99-113 (٢٢).
- BALOUT (L.) et al. — « Fiches typologiques africaines », 9 cahiers publiés depuis 1967 sous l'égide des *Congr. P.P.E.Q.* (٢٢).
- BALOUT (L.), BIBERSON (P.) et TIXIER (J.). — 1967. « L'Acheuléen de Ternifine, gisement de l'Atlantrophe », *Anthropologie*, 71 : 217-37 (٢٢).

- BALOUT (L.) et ROUBET (C.). — 1970. « Datation radiométrique de l'Homme de l'Aïn Dokkara et de son gisement, l'Escargotière du Chacal, région de Tébéssa, Algérie », *Libyca*, 18 : 21-35 (٢٢).
- BARBER (E.J.W.). — 1974. *Archaeological decipherment. A handbook*, Princeton, Princeton Univ. Press (٤).
- BARBEY (C.) et DESCAMPS (C.). — 1969. « A propos des Pebble-tools de la Moyenne-Gambie », *B.I.F.A.N.*, A, 31 : 276-82 (٢٤).
- BARBOT (J.). — 1732. *A description of the coasts of North and South Guinea*, Churchill's voyages, Londres, A. et J. Churchill (١).
- BARENDSON (G.W.), DEEVEY (E.S.) et GRALENSKI (L.J.). — 1965. « Yale natural radiocarbon measurements III », *Science* 126 : 916-7 (٢٤).
- BARRAU (J.). — 1962. « Les plantes alimentaires de l'Océanie, origines, distribution et usages », *Annales du Musée colonial de Marseille* 7, III-IX, 275 p. (٢٧).
- 1975. « L'Asie du Sud-Est, berceau cultural ? », *Etudes rurales* : 53-6 (٢٧).
- BARROW (J.). — 1801-1803. *Travels into the interior of the Southern Africa*, London, 2 vol. (٦).
- BARRY (B.). — 1974. « La chronologie dans la tradition orale du Waalo. Essai d'interprétation », *Afrika Zamani*, 3 : 31-49 (٤).
- BASSET (R.). — 1894. *Etudes sur les dialectes berbères*, Paris (١١).
- 1909-1913. *Mission au Sénégal*, Paris, Leroux, 3 vol. (١١) (٦).
- BATTISTINI (R.). — 1967. *L'Afrique australe et Madagascar*, Paris, P.U.F. 230 p. (١٣).
- BAULIN (J.). — 1962. *The Arab role in Africa*, London, Penguin books (٥).
- BAUMANN (H.). — 1936. *Geschichte und Urzeit des Menschen in Mythos der Afrikanischen Völker*, Berlin (٧).
- BAUMAN (H.) et WESTERMANN (D.). — 1962. *Les Peuples et les Civilisations de l'Afrique*, Paris, Payot (١٠) (٦) (المقدمة العامة)
- BAUMGARTEL (E.J.). — 1955. *The culture of prehistoric Egypt*, Oxford (٢٨).
- BAYLE DES HERMENS (R. DE). — 1967. « Premier aperçu du Paléolithique inférieur en République centrafricaine », *Anthropologie*, 71 : 135-66 (٢١).
- 1969. « Les collections préhistoriques de la République centrafricaine au Musée royal de l'Afrique centrale, *C.M.* VII : 27-40 (٢١).
- 1971. « Quelques aspects de la préhistoire en République centrafricaine », *J.A.H.* XII : 579-97 (٢١).
- 1975. « Recherches préhistoriques en République centrafricaine », Laboratoire d'ethnologie et de sociologie comparative, série *Recherches oubanguiennes* n° 3, Paris, Université de Paris X, 345 p. (٢١).
- 1976. « A la découverte de la préhistoire en République centrafricaine », *Archeologia* n° 92 (٢٦).
- BAYLE DES HERMENS (R. DE) et VIDAL (P.). — 1971. « Deux datations sur la méthode du Carbone 14 des monuments mégalithiques de Bouar, R.C.A. », *C.M.* IX : 81-2 (٢١).
- BAYNON (J.). — 1970. « The Contribution of linguistics to history in the field of Berber studies », *Language and history of Africa* (١٥) (١٠) (٦)

- BEALE (F.C.). — 1966. *The anglo-gambian stone circles expedition 1964/65*, Bathurst, Government Printer (٢٤).
- BEATTIE (J.). — 1968. « Aspects of Nioro symbolism », *Africa* 38, 4 : 413-42 (٧).
- BEAUCHENE (G. DE). — 1963. « La Préhistoire du Gabon », *Objets et Mondes*, T. III (٢١).
- BEBEY (F.). — 1969. *Musique de l'Afrique*, Expressions, Horizons de France, Paris.
- BECKER (C.H.). — 1968. « Materialien zur Kenntnis des Islam in Deutsch Ost-Afrika », *I.N.R.* LXVII (٦) (٥) (المقدمة العامة)
- BECKINGHAM (C.F.) et HUNTINGFORD (G.W.B.). — 1954. *Some records of Ethiopia 1593-1646*, London (٦).
- BEHRENSMEYER (A.K.). — 1975. « The taphonomy and paleoecology of Plio-Pleistocene vertebrate assemblages east of Lake Rudolf, Kenya », *Bull. Mus. Comp. Zool* (١٧).
- BEIDELMAN (Th.). — 1970. « Myth, legend and oral history : A Kaguru traditional text », *Anthropos* 65 : 74-97 (٧).
- BEQUAERT (M.). — 1938. « Les fouilles de Jean Colette à Kalina », *A.M.R.C.B.* I, 2 : 29-88 (٢١).
- 1952. « Fouilles à Dinga (Congo Belge) », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 317-53 (٢١).
- 1953. « La préhistoire du Congo Belge et ses relations avec la préhistoire africaine sud-saharienne à l'Holocène », *B.S.R.B.A.P.* LXIV : 37-49 (٢١).
- BEQUAERT (M.) et MORTELMANS (G.). — 1955. « Le Tshitoli dans le bassin du Congo », *A.A.R.S.C.* II, 5, 40 p. (٢١).
- BERG (F.). — 1968. « The Swahili Community of Mombasa 1500-1900 », *J.A.H.* IX : 35-56 (٦) (٥) (المقدمة العامة)
- BERGER (R.). — 1970. « Ancient Egyptian Chronology », *P.T.R.S.* 269, 1193 : 23-36 (١).
- BERGGREN (W.A.). — 1973. « Correlation and calibration of late Pliocene and Pleistocene marine and continental biostratigraphies », *Acts IX Congr. I.N.Q.U.A.* (١١).
- BERQUE (J.). — 1957. *Histoire sociale d'un village égyptien au XX<sup>e</sup> siècle*, Paris (١٥).
- BERTIER (H.). — 1933. « Le cahier de l'écriture de Radama I », *M.A.M.* 36 (٦).
- BESANCON (J.). — 1957. *L'Homme et le Nil*, Paris, Gallimard (٢٨).
- BIBERSON (P.). — 1961. « Le cadre paléogéographique de la préhistoire du Maroc atlantique », Rabat, *Pub. Serv. Antiq. Maroc*, T. 17, 544 p. (٢٢).
- 1961. « Le paléolithique inférieur du Maroc atlantique », Rabat, *Pub. Serv. Antiq. Maroc*, T. 17 (٢٣).
- 1965. « Recherches sur le Paléolithique inférieur de l'Adrar de Mauritanie », *Actes V<sup>e</sup> Congr. P.P.E.Q.* : 173-89 (٢٣).
- BIEBUYCK (D.) et MATEEME (K.C.). — 1969. *The Mwindo Epic from the Banyanga (Congo Republic)*, Berkeley, Los Angeles (٧).

- BIRDSSELL (J.B.). — 1972. *Human evolution. An introduction to the new physical anthropology*, Rand McNally and Co, 299 p. (٤).
- BIROT (P.). — 1970. *L'Afrique, les régions naturelles du globe*, Paris, Masson (١٣).
- BISHOP (W.W.). — 1965. « Quaternary geology and geomorphology in the Albertine rift valley, Uganda », *G.S.A.M.* 84 : 293-321 (٢١).
- BISHOP (W.W.) et CLARK (J.D.) (éd.). — 1967. *Background to evolution in Africa*, Chicago Univ. Press., 935 p. (الطبعة) (٢٤) (٢٣) (٢٢) (١٩) (١٦).
- BISHOP (W.W.) et MILLER (J.A.) (éd.). — 1972. « Calibration of hominoid evolution », *Univ. of Toronto Press* (٢٠) (١٦).
- BITTNER (M.). — 1897. *Die topographischen Capital des indischen Seespiegels Mohit*, Vienne (١).
- BIVARD (A.D.H.) et HISKETT (M.). — 1962. « The arabic literature of Nigeria to 1804 : a provisional account », *B.S.A.O.S.* XXV, 1 (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- BLANKOFF (B.). — 1965. « Quelques découvertes récentes au Gabon », *B.S.P.P.G. L.* 3 : 52-60 (٢١).
- 1966. « L'état des recherches préhistoriques au Gabon », *Actes I<sup>re</sup> coll. intern. archéol. afr.* : 62-80 (٢١).
- BLEEK (D.F.). — 1929. *Comparative vocabularies of the Bushman languages*, University Press, Cambridge (١٠).
- BLEEK (W.H.I.). — 1851. *De nominum generibus, linguarum Africae australis, copticae, semitarum, aliarumque sexualium*, Bonn, A. Marcus, IV + 60 p. (١٢).
- 1862-1869. *Comparative grammar of South African languages*, Cape-town, Juta, 2 vol. (١٢) (١٠).
- BLOCH (M.). — 1939. *La Société féodale. La Formation des liens de dépendance*, vol. 1, 34 et 34 bis de *l'Evolution de l'humanité*, dirigée par H. BERR, Paris (١).
- 1949. *Apologie pour l'Histoire ou le métier d'historien*, Paris, A. Colin (٧).
- BLUNDEL (H.W.). — 1923. *The royal chronicles of Abyssinia, 1769-1840*, Londres (٦).
- BLUNDEL (H.W.), BOAZ (N.) et HOWELL (F.C.). — 1977. « A gracile hominid cranium from upper member G of the Shungura Formation, Ethiopia », *A.J.P.A.* 46, 1 : 93-108 (١٧).
- BOAHEN (A.A.) et WEBSTER (J.B.). — 1970. *The growth of african civilization. West Africa since 1800*, London, Longmans (٨) (المقدمة العامة).
- BOBO (J.). — 1956. « Un ensemble de stations moustéro-atériennes aux environs de Djanet (Tassili des Ajjer) », *Libyca*, 4 : 263-8 (٢٣).
- BONATTI (E.). — 1966. « North mediterranean climate during the last Würm glaciation », *Nature*, 209, 5027 : 985-7 (١٦).
- BOND (G.). — 1956. « A preliminary account of the Pleistocene geology of the plateau Tia Fields region of Northern Nigeria », *Proc. III Intern. W.A.C.* : 187-202.

- BONIFAY (E.). — 1975. « Stratigraphie du Quaternaire et âge des gisements préhistoriques de la zone littorale des Alpes-Maritimes », *B.S.P.F.* 72, 7 : 197-206 (١٦).
- BONNEFILLE (R.). — 1972. *Associations polliniques actuelles et quaternaires en Ethiopie (vallées de l'Awash et de l'Omo)*, thèse, Paris, 2 tomes (١٦).
- 1974. « Etude palynologique de dépôts plio-pléistocènes d'Ethiopie », *A.S.E.Q.U.A. B.*, 42-3 : 21-2 (١٦).
- 1976. « Végétation et climats des temps oldowayens et acheuléens à Melka Kunturé (Ethiopie) », *l'Ethiopie avant l'Histoire*, Cahier 1 : 55-71 (١٧).
- BONNEL DE MEZIERES (A.). — 1920. « Recherches sur l'emplacement de Ghana et de Tekrou », *M.A.I.*, 13, 1 : 227-77 (٢٤).
- BONNET (A.). — 1961. « La "pebble culture" in situ de l'Idjerane et les terrasses de piémont du Sahara central », *B.S.P.F.* 58 : 51-61 (٢٣).
- BOSMAN (W.). — 1967. *A new and accurate description of the coast of Guinea*, London, Frank Cass & Co (١).
- BOSTON (J.S.). — 1964. « The Hunter in Igala legends of origin », *Africa* 34 : 118-20 (٧).
- BOULLE (M.), VALLOIS (H.V.) et VERNEAU (R.). — 1934. *Les Grottes paléolithiques des Bani Ségoual (Algérie)*, Paris, Masson (٢٢).
- BOUNAK (V.). — 1972. « Du cri au langage », *Le Courrier*, août-sept. (الخاتمة).
- BOUYSSONIE (J.), BREUIL (H.) et al., — 1956. *Musée du Bardo, coll. préhist., planches*, Album n° 1, Paris, A.M.G. (٢٢).
- BOVIER-LAPIERRE (P.). — 1925. « Le Paléolithique stratifié des environs du Caire », *Anthropologie*, XXXV : 37-46 (٢٥).
- BOXER (C.R.). — 1959. (Dir.) *The tragic history of the sea, 1589-1622*, University Press, Cambridge (٦).
- BOYLE (A.H.) et JEFFREYS (W.). — 1947. « Speculative origins of the fulany language », *The language of Africa*, vol. 17 (١١).
- BRADBURY (R.E.). — 1959. « Chronological problems in the study of Benin history », *J.H.S.N.* 1 : 263-87 (٢٤).
- BRAHIMI (C.). — 1970. *L'Ibéromaurusien littoral de la région d'Alger*, Paris, A.M.G. (٢٢).
- 1972. *Initiation à la préhistoire de l'Algérie*, Alger (٢٢).
- BRAIDWOOD (R.J.). — 1960. « The agricultural revolution », *Scientific America*, september (٢٧).
- BRAIDWOOD (R.J.) et REED (C.A.). — 1957. « The achievement and early consequence of food production ; a consideration of the archaeological and natural historical evidence », *Cold spring harbour symposium on quantitative biology* (٢٧).
- BRAIN (C.K.). — 1958. « The Transvaal Ape-Man. Bearing cave deposits, Transvaal museum », *Mémoire n° 11*, Prétoria (٢٠).
- BRASIO (A.). — 1952. *Monumenta missionaria africana*, Lisbonne, 9 vol. (٢٠).
- BRAUDEL (F.). — 1969. *Ecrits sur l'histoire*, Paris, Flammarion (المقدمة العامة).

- BREASTED (J.H.). — 1906. *Ancient Records of Egypt*, vol. IV, Chicago, University Chicago Press (٢٨).
- BREUIL (Abbé H.). — 1931. *L'Afrique*, Cahiers d'art, Paris (٢٤).
- 1944. « Le Paléolithique au Congo Belge d'après les recherches du docteur Cabu ; VI Plateau de Bena Tshitolo » *T.R.S.A.* XXX : 143-60 (٢١).
- 1952. « Les figures incisées et ponctuées de la grotte de Kiantapo (Katanga) », *A.M.R.C.B.* : 1-32 (٢١).
- BREZILLON (M.). — 1970. *Dictionnaire de la Préhistoire*, Paris, Larousse (الخاتمة).
- BROTHWELL (D.) et SHAW (Th.). — 1971. « A late Upper Pleistocen proto-West African negro from Nigeria », *Man*, 6, 2 : 221-7 (٢٤).
- BROUTANOH (A.). — 1867. « La tradition orale chez les Agni Ahali de Moronou », *B.I.E.G.T.* (٧).
- BROWN (G.). — 1941. *The Economic History of Liberia*, Washington, Associated Publishers, IX + 366 p. (٣).
- BROWNE (W.G.). — 1806. *Travels in Africa, Egypt and Syria*, London (١).
- BRUCE (J.). — 1790. *Travels to discover the source of the Nile*. Edimbourg, 5 vol. (١).
- BRUNTON (G.). — 1928. *G. Brunton and G. Caton-Thompson, The Badarian civilization*, London, Quaritch (٢٨) (٢٥).
- 1937. *Nostagedda, British Museum expedition to Middle Egypt 1928-1929*, London, Quaritch (٢٨) (٢٥).
- 1948. *Matma, British Museum expedition to Middle Egypt 1929-1931*, London, Quaritch (٢٨) (٢٥).
- BRYANT (A.T.). — 1929. *Olden times in Zululand and Natal*, London (١).
- BUCHA (V.). — 1970. « Evidence for changes in the Earth's magnetic field intensity », *P.T.R.S.* 269, 1193 : 47-56 (١).
- 1971. « Archaeomagnetic dating », H.N. MICHAEL and E.K. RALPH (éd.) *Dating techniques for the archaeologist*, Cambridge, Mass. (١).
- BUDA (J.L.), SCHROEDER (R.A.), PROTSCH (R.) et BERGER (R.). — 1974. « Concordance of collagen based radiocarbon and aspartic acid raumization ages », *AATA*, 11, 2 (١).
- BUEDEL (J.). — 1958. « Die Flaeschenbildung in den feuchten Tropfen und die Rolls fossier solcher Flaeschen in anderen Klimazonen *A.D.G.*, 89-121 (١٦).
- BULCK (G.V.). — 1948. « Les recherches linguistiques au Congo belge », *M.I.R.C.B.* (١١).
- BURKE (K.), DUROTYE (A.B.) et WHITEMAN (A.J.). — 1971. « A dey Phase south of Sahara, 20 000 years ago », *W.A.J.A.* I (٢٤).
- BUTLER (J.). — 1966. *Boston University Papers on Africa. Prehistoric Populations in Africa*, Boston (الخاتمة).
- BUTZER (K.W.). — 1957. « The last « pluvial » phase of the eurafrican subtropics », *les Changements de climats, recherches sur la zone aride*, Paris, Unesco, 20 : 211-6 (١٣).



- 1958. « Studies zum vor-und-frühgeschichtlichen Landschaftswandel der Sahara », *Akademie des Wissenschaften und der Litteratur*, n° 1, 49 p. (٢٣).
- 1972. *Environment and Archaeology*, 2<sup>e</sup> éd., Chicago ; (1<sup>re</sup> éd., 1964, Londres), XXVIII + 703 p. (٢٨)(٢٤)(١٦)
- BUTZER (K.W.) et HANSEN (C.L.). — 1968. *Desert river in Nubia*, Madison, Univ. of Wisconsin Press (١٦)
- BUTZER (K.W.) et ISAAC (G.L.). — 1975. *After the australopithecines, Stratigraphy, ecology and culture change in the middle pleistocene*, La Haye (١١).
- BUTZER (K.W.), RICHARDSON (J.L.) et WASHBOURKNKAMAU (C.). — 1972. « Radio-carbon dating of East African Lake levels », *Science*, 175 : 1069-76 (٢١)(١٦)
- BUTZER (K.W.) et THURBER (D.L.). — 1969. « Some late cenozoic sedimentary formations of the Lower Omo Basin », *Nature*, 222, 5199 : 1132-7.
- BYNON (J.). — 1970. « The contribution of linguistics to history in the field of berber studies », D. DALBY (éd.) *Language and history in Africa* (١٥)(١٠)(٦).
- CABU (F.). — 1935. « Considérations sur la stratigraphie de gisements pléistocènes à outillage paléolithique de la région de Léopoldville », *B.S.R.B.A.P.* 50 : 269-84 (٢١).
- 1935. « Les industries préhistoriques de la cuvette centrale congolaise et leurs rapports avec la préhistoire générale », *B.S.R.B.A.P.* 50 : 399-411 (٢١).
- CADENAT (P.). — 1957. « Fouilles à Columnata. Campagne 1956-57. La nécropole », *Libyca*, V : 49-81 (٢٢).
- 1962. « Sur l'extension de la civilisation capsienne vers l'ouest », *B.S.P.F.*, 59 : 27-32 (٢٢).
- 1970. « Le Columnatien, industrie épipaléolithique de l'Algérie », *B.S.E.R.P.* 20 : 40-50 (٢٢).
- CAHEN (D.). — 1975. « Le site archéologique de la Kamoia (région du Shaba, République du Zaïre). De l'Age de la pierre ancien à l'Age du fer », *A.M.R.A.C.* 84 (٢١).
- 1976. « Nouvelles fouilles à la pointe de la Gombe (ex-pointe de Kalina), Kinshasa, Zaïre », *Anthropologie*, 80, 4 : 573-602 (٢١).
- 1977. « Vers une révision de la nomenclature des industries préhistoriques de l'Afrique centrale », *Anthropologie*, 81 (٢١).
- CAHEN (D.), HAESAERTS (P.) et NOTEN (F. VAN). — 1972. « Un habitat lupembien à Massango (Burundi). Rapport préliminaire », *Africa-Tervuren*, XVIII : 78-80 (٢١).
- CAHAN et NOTEN (F. VAN). — 1970. « Des polissoirs dans la grotte de Mpinga (Burundi) », *Africa-Tervuren*, XVI, I : 13-7 (٢١).
- CALEY (E.R.). — 1949. « Validity of the specific gravity method for the determination of the fineness of gold objects », *O.J.S.*, XLIX : 76-92 (١).

- 1948. « On the application of Chemistry of Archaeology », *O.J.S.* XLVIII : 1-8 (١).
- CAMPBELL (B.G.). — 1965. « The Nomenclature of the Hominidae », *Royal anthropological Institute, Occasional paper n° 22* (٢٤).
- CAMPBELL (R.). — 1861. *A pilgrimage to my motherland... among Egba and Yoruba in 1859-60*, Philadelphia (١).
- CAMP-FABRER (H.). — 1966. *Matière et art mobilier dans la préhistoire nord-africaine et saharienne*, Paris, A.M.G. (٢٣) (٢٢).
- CAMP-FABRER (H.), BOUCHUD (J.), CHABEUF (M.), CHAMLA (M.C.), COUVERT (M.), DUGHI (R.) et SIRUGUE (F.). — 1975. *Un gisement capsien de faciès sétifien Madjez II, el-Eulma (Algérie)*, Paris, C.N.R.S., 448 p. (٢٢).
- CAMPS (G.). — 1969. *Amekni, Néolithique ancien du Hoggar*, Paris, A.M.G. (٢٨) (٢٤) (٢٣) (٢٢).
- 1974. *Les Civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara*, Paris, Doin, 366 p. (٢٨) (٢٢).
- CANDOLLE (A.). — 1883. *L'Origine des plantes cultivées*, Paris, F. Alcan (٢٧).
- CAPORIAMCO (L. DI) et GRAZIUSI (P.). — 1934. *Le pitture rupestri di Aïn Doua (Auenat)*, Florence, Centro di studi coloniali (٢٣).
- CAPOT-REY (R.). — 1953. *Le Sahara français*, Paris, P.U.F. 487 p. (٢٣).
- CAPRILLE (Y.P.). — 1972. *Carte des langues du Tchad*, Paris, I.G.N. (١١).
- CARRE (J.M.). — 1932. *Les Voyageurs français en Egypte, 1517-1840*, Paris (١).
- CARSON (P.). — 1962. *Materials for West African history in the archives of Belgium and Holland*, London (٢٤) (١).
- 1968. *Materials for West African history in french archives*, London, the Athlone Press (٢٤) (١).
- CARTER (G.F.). — 1964. « Archaeological Maize in West Africa : a discussion of Stanton and Willet », *Man*, 64 p. 95 (٢٤).
- CARTER (P.L.) et FLIGHT (C.). — 1972. « Report on the fauna from the sites of Ntereso and Kintampo Rock Shelter six in Ghana : with evidence for the practice of animal husbandry during the second millennium B.C. », *Man*, 7, 2 : 227-32 (٢٤).
- CASTANHOSO (M.). — 1548. *Historia das cousas que o muy esfrocado Dom Christouao da Gama fez nos Reynos de Preste Joao*, Lisboa (١).
- CATON-THOMPSON (G.). — 1928. *The Badarian civilization*, London (٢٨).
- 1946. « The atherian industry : its place and significance in the Palaeolithic world », *J.R.A.I.*, 44 p. (٢٣).
- 1952. *Kharga oasis in Prehistory*, London, the Athlone Press (٢٥) (٢٣).
- CATON-THOMPSON (G.) et GARDNER (E.W.). — 1934. *The desert Fayum*, London, Royal anthropological Institute, 114 p. (٢٨) (٢٥) (٢٤) (٢٣).
- CAVAZZI de MONTECUDOLO (G.A.). — 1687. *Istorica descrizione dei tre regni Congo*, Bologne (١).

- CELIS (M.). — 1972. *Gepolijst archeologisch stenen materiaal uit de Democratische Republiek van Zaïre*, thèse, Gand, Université de Gand (٢١).
- CENIVAL (J.-L. DE). — 1973. *L'Egypte avant les Pyramides, IV<sup>e</sup> millénaire, Grand Palais, 29 mai-3 septembre 1973*, Paris, éd. des Musées nationaux (٢٨).
- CERULLI (E.). — 1926. « Iscrizioni e documenti arabi per la Storia della Somalia », *Rivista degli studi orientali* : 1-24 (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- 1957. *Somalia, scritti vari editi e inediti, I*, Roma (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- CHAMARD (Ph.). — 1969-70. *Le Bassin versant de la Sebkhah de Chemchane (Adrar de Mauritanie)*, Dakar, Fac. Lettres-Sc. hum., 205 p. (٢٣).
- CHAMLA (M.C.). — 1968. « Les populations anciennes du Sahara et des régions limitrophes : étude des restes humains néolithiques et protohistoriques », *M.C.R.A.P.E.* 9 (٢١) (٢٣).
- 1970. *Les hommes épipaléolithiques de Columnata (Algérie occidentale)*, Paris, A.M.G. (٢٢).
- 1973. « Etude anthropologique de l'Homme capsien de l'Aïn Dokkara (Algérie orientale) », *Libyca*, XXI : 9-53.
- CHAMOT (E.M.) et MASON (C.W.). — 1938. *Handbook of chemical microscopy*, vol. I, 2<sup>e</sup> éd., New York, Wiley (١).
- CHAMPAULT (B.). — 1953. « L'industrie de Tachenghit », *70<sup>e</sup> Congr. A.F.S.S.*, 126 p. (٢٣).
- CHASSELOUP-LAUBAT (F. DE). — 1938. *L'Art rupestre au Hoggar (Haut Mérioutek)*, Paris, Plon, 63 p. (٢٣).
- CHAVAILLON (J.). — 1936. « Quaternaire de la vallée du Guir (Sahara nord-occidental) », *C.R. Som. Séances Soc. Géolog. Fr.* (٢٣).
- 1958. « Industrie archaïque du Paléolithique ancien en place, dans les alluvions de l'oued Guir (Sahara nord-occidental) », *B.S.P.F.* 55 : 431-43 (٢٣).
- 1964. *Les Formations quaternaires du Sahara nord-occidental*, Paris, C.N.R.S., 393 p., 32 pl. (٢٣).
- 1973. « Chronologie des niveaux paléolithiques de Melka Konturé (Ethiopie) », *C.R.A.S.* 276 : 1533-6 (١٧).
- CHAVAILLON (J.), BRAHIMI (C.) et COPPENS (Y.). — 1974. « Première découverte d'Hominidé dans l'un des sites acheuléens de Melka Konturé (Ethiopie) », *C.R.A.S.* 278 : 3299-3202 (١٧).
- CHAVAILLON (J.), CHAVAILLON (N.), COPPENS (Y.) et SENUT (B.). — Sous presse. — « Présence d'Hominidé dans le site oldowayen de Gomboré I à Melka Konturé, Ethiopie », *C.R.A.S.*, tome 285, pp. 961-963 (١٧).
- CHELU (A.). — 1891. *Le Nil, le Soudan, l'Egypte*, Paris, Chaix (٢٨).
- CHESNEAUX (J.). — 1969. *Le Mode de production asiatique*, Paris, Editions sociales (المقدمة).
- CHEVALIER (A.). — 1938. « Le Sahara, centre d'origine des plantes cultivées », *Société de Biogéographie*, VI : « La vie dans la région désertique nord-tropicale de l'Ancien Monde », Paris : 309-22 (٢٧).

- CHILDE (G.). — 1954. *What happened in history ?*, Harmondsworth, Penguin Books Ltd. (٢٧).
- CHURCH (R.J.H.). — 1969. *Africa and the Islands*, London, Longmans, 494 p. (١٣).
- CISSE (K.) et THILMANS (G.). — 1968. « A propos de la datation des mégalithes sénégalais », *N.A.* 117 : 13-7 (٢٤).
- CISSOKO (S.M.). — 1967. *Histoire de l'Afrique occidentale*, Paris, Présence africaine (القدمة العامة).
- CLARK (G.). — 1969. *World Prehistory*, 2<sup>e</sup> éd., Cambridge, Cambridge Univ. Press, XVI + 331 p. (٢٤) (١٩).
- CLARK (J.D.). — 1950. *The Stone Age cultures of Northern Rhodesia*, South African Archaeological Society, Le Cap (٢٠).
- 1957. Third Panafrican Congress on Prehistory, Londres, Chatto and Windus (٢٤).
- 1960. *The Prehistory of southern Africa*. Harmondsworth, Penguin Books Ltd. (٢٤) (٢١) (١٩).
- 1962. « Vegetation patterns, climate and sands in North East Angola », *Actes IV<sup>e</sup> Congr. P.P.E.Q.*, 151-66 (٢١).
- 1963. « Ecology and culture in the African Pleistocene », *S.A.J.S.* 59, 7 : 353-66 (٢١).
- 1963. « Prehistoric cultures of northeast Angola and their significance in tropical Africa », *C.D.A.P.C.* 62 (٢١).
- 1964. « The Sangoan culture of Equatoria : the implications of its stone equipment », *Instituto de prehistoria y arqueologia, Monographies*, Barcelona, 9 : 309-25 (٢٠).
- 1966. « The distribution of prehistoric culture in Angola », *C.D.A.P.C.* 73 (٢١).
- 1967. « The problem of Neolithic culture in sub-Saharan Africa », W.W. BISHOP and J.D. CLARK (éd.) *Background to evolution in Africa*, Chicago, Chicago Univ. Press, 601-28 (٢٤).
- 1967. *Atlas of African prehistory*, Chicago, Chicago Univ. Press (١٩) (٢٤).
- 1968. « Review of Oliver Davies's — The Quaternary in the Coastlands of Guinea », *W.A.A.N.* 13, 9 : 37-40 (٢٤).
- 1968. « Further palaeo-anthropological studies in Northern Lunda », *C.D.A.P.C.* 78 (٢١).
- 1969-74. *Kalambo Falls prehistoric site*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, 3 vol. (٢١) (٢٠) (١٩).
- 1970. « The prehistoric origins of african cultures », in J.D. FAGE and R.A. OLIVER, *Papers in african prehistory*, Cambridge (٢١).
- 1970. « The spread of food production in sub-saharan Africa », in J.D. FAGE and R.A. OLIVER, *Papers in african prehistory*, Cambridge (٢٧).
- 1970. *The Prehistory of Africa*, Londres, Thames & Hudson (٢٠) (١٩) (١٤) (٢٤).
- 1971. « Human behavioural differences in Southern Africa during the later Pleistocene », *American Anthropologist*, vol. 73, pp. 1211-1236 (٢٠).

- 1971. « Problems of archaeological nomenclature and definition in the Congo Basin », *S.A.A.B.* XXVI : 67-78 (٢٤).
- CLARK (J.D.) et HAYNES (C.V.). — 1969. « An elephant butchery site at Mwanganda's village, Karonga, Malawi and its relevance for Palaeolithic archaeology », *W.A.* 1, 3 : 390-411 (٢٠).
- CLARK (J.D.), MAWBY (J.E.) et GAUTIER (A.). — 1970. « Interim report on palaeoanthropological investigations in the Lake Malawi Rift », *Quaternaria*, XIII : 305-54 (٢٠).
- CLARK (J.D.) et Le GROS (W.E.). — 1967. « Man-Apes or Ape-Men ? The story of discoveries in Africa », New-York (٢٠).
- CLARK (J.D.) et ZINDEREN BAKKER (E. M. VAN). — 1962. « Pleistocene climates and cultures in North-Eastern-Angola », *Nature*, 196, 4855 : 639-42 (٢١).
- 1964. « Prehistoric cultures and Pleistocene vegetation at the Kalambo Falls, Northern Rhodesia », *Nature*, 201, 4923 : 971-5 (٢١).
- CLARKE (J.). — 1848. *Specimens of dialects : Short vocabulary of languages and notes of countries and customs in Africa*, Berwick-on-Tweed, D. Cameron, 104 p. (١٢).
- CLARK-HOWELL (P.), KLEINDIENST (M.R.) et KELLER (C.M.). — « Isimila, Preliminary report », *Proc. 4<sup>th</sup> P.C.P.Q.S.* (١٩).
- CLIMAP. — 1974. *Mapping the atmospheric and oceanic circulations and other climatic parameters at the time of the last glacial maximum about 17 000 years ago*. Climatic research Unit, School of environmental sciences, University of East Anglia, Norwich, 123 p. (١٩).
- C.N.R.S. (éd.). — 1974. « Les méthodes quantitatives d'étude des variations du climat au cours du Pléistocène », *Colloque international du C.N.R.S.* n° 219, 317 p. (١٩).
- COCKERELL (T.A.D.). — 1907. « A fossil tse-tse fly in Colorado », *Nature*, 76-414 (١٤).
- 1909. « An other fossil tse-tse fly », *Nature*, 80, 128 (١٤).
- 1919. « New species of North American fossil beetles, Cockroaches and tse-tse flies », *Proc. NS. St. Nat. Mus.* 54 : 301-11 (١٤).
- COETZE (J.A.) et ZINDEREN-BAKKER (E. M. VAN). — 1970. « Palaeoecological problems of the Quaternary of Africa », *S.A.J.S.* 66 : 78-84 (٢١).
- COHEN (D.W.). — 1972. *The historical tradition of Busoga. Mukama and Kintu*, Oxford, the Clarendon Press, X + 218 p. (٣).
- COHEN (M.). — 1958. *La Grande Invention de l'écriture et son évolution*, Paris (١٠).
- 1947. *Essai comparatif sur le vocabulaire et la phonétique du Chamitosémitique*, Paris, H. Champion XI + 248 p. (١٢)(١٠).
- COLE (D.T.). — 1971. « The history of African linguistics to 1945 », in *Linguistics in Subsaharan Africa*, vol. VII de *Current trend in linguistics*, dir. T.A. SEBEOK, Paris — La Haye, Mouton (١٢).
- COLE (G.H.). — 1967. « Nsongezi. Summary account », W.W. BISHOP and J.D. CLARK, *Background to evolution in Africa*, 481-528 (١٩).

- COLE (S.). — 1964. *The prehistory of East Africa*, New York-London (١٩).
- COLEMAN (J.S.). — 1958. *Nigeria. Background to Nationalism*, Berkeley, California Univ. Press., XIV + 510 p. (٣).
- COLES (J.M.) et HIGGS (E.S.). — 1969. *The archaeology of early man*, London (١٩).
- COLETTE (J.R.F.). — 1931. « Industries paléolithiques du Congo belge », *Actes XV Congr. I.A.A.P.*, 285-92 (٢١).
- 1935. « Complexe et convergences en préhistoire », *B.S.R.B.A.P.* 50 : 49-192 (٢١).
- COMMONWEALTH ARTS FESTIVAL. — 1965. *Treasures from the Commonwealth*, Commemorative Catalogue, Londres (٢٤).
- CONNAH (G.). — 1967. « Progress report on archaeological work in Bornu. Northern history research scheme, second interim report », *Zaria* (٢٤).
- 1969. « Settlement mounds of the Firki — The reconstruction of a lost society », *Ibadan*, 26 : 48-62 (٢٤).
- 1971. « Recent contributions to Bornu chronology », *W.A.J.A.* I : 55-60 (٢٤).
- 1972. « Archaeology in Benin », *J.A.H.* 13, 1 : 25-38 (٢٤).
- COOK (R.M.). — 1963. « Archaeomagnetism », D. BROTHWELL and E. HIGGS (éd.), *Science in archaeology*, London, Thames and Hudson (٩).
- COOKE (C.K.). — 1969. « A re-examination of the "Middle Stone Age" industries of Rhodesia », *Arnoldia*, 17 (٤).
- 1971. « Excavation in Zombepata Cave, Sipolilo District, Mashonaland, Rhodesia », *S.A.A.B.* XXVI : 104-27 (٢٠).
- COOKE (H.B.S.). — 1958. « Observations relating to Quaternary environments in east and southern Africa », *T.G.S.S.A.*, Annexe au vol. 61 (١٦).
- 1963. « Pleistocene mammal faunas of Africa with particular reference to southern Africa », in F.C. HOWELL and F. BOURLIERE (éd.), *African Ecology and Human evolution*, 65-116 (٢٠).
- 1965. « Tentative correlation of Major Pleistocene deposits in Africa, *The origin of Man, Wenner-Green symposium*, Chicago (٢٤).
- 1972. « Pleistocene chronology : long or short », *Maritimes sediments*, 8, 1 : 1-12 (١٦).
- COONS (C.S.). — 1968. *Yengema cave report*, Philadelphia, Univ. of Pennsylvania, p. V + 77 + 35 pl. (٢٤).
- COPANS (J.) et GODELIER (M.). — 1971. *L'Anthropologie, science des sociétés primitives ?*, Paris, Denoël (المقدمة العامة).
- COPPENS (Y.). — 1960. « Les cultures protohistoriques et historiques du Djourab », *Actes I<sup>re</sup> coll. intern. archéol. afr.* (المقدمة العامة).
- 1961. « Découverte d'un Australopithécine dans le Villafranchien du Tchad », *C.R.A.S.* 252 : 3851-2. (٢٤)(٢٣).
- 1962. « Découverte d'un Australopithécine dans le Villafranchien du Tchad », *Colloques internationaux du C.N.R.S.* 104 : 455-9 (٢٣).
- 1965. « L'Hominien du Tchad », *C.R.A.S.* 260 : 2869-71 (٢٤).

- 1965. « L'Hominien du Tchad », *Actes V Congr. P.P.E.C.*, I : 329-30 (٢٢).
- 1966. « Le Tchadanthropus », *Antropologia*, 70 : 5-16.
- 1966. « Le gisement des vertébrés quaternaires de l'Ouest africain », *B.I.F.A.N. A*, 27 : 373-81 (٢٤).
- 1970. « Localisation dans le temps et dans l'espace des restes d'Hominidés des formations plio-pléistocènes de l'Omo (Ethiopie) », *C.R.A.S.* 271 : 1968-71 (١٧).
- 1970. « Les restes d'Hominidés des séries inférieures et moyennes des formations plio-villafranchiennes de l'Omo en Ethiopie », *C.R.A.S.*, 271 : 2286-9 (١٧).
- 1971. « Les restes d'Hominidés des séries supérieures des formations plio-villafranchiennes de l'Omo en Ethiopie », *C.R.A.S.* 272 : 36-9 (١٧).
- 1972. « Tentative de zonation du Pliocène et du Pléistocène d'Afrique par les grands Mammifères », *C.R.A.S.* 274 : 181-4 (١٧).
- 1973. « Les restes d'Hominidés des séries inférieures et moyennes des formations plio-villafranchiennes de l'Omo en Ethiopie (récoltes 1970, 1971 et 1972) », *C.R.A.S.* 276 : 1823-6 (١٧).
- 1973. « Les restes d'Hominidés des séries supérieures des formations plio-villafranchiennes de l'Omo en Ethiopie (récoltes 1970, 1971 et 1972) », *C.R.A.S.* 276 : 1981-4 (١٧).
- 1975. « Evolution des Mammifères, de leurs fréquences et de leurs associations au cours du Plio-Pléistocène dans la basse vallée de l'Omo en Ethiopie », *C.R.A.S.* 281 : 1571-4 (١٧).
- 1975. « Evolution des Hominidés et de leur environnement au cours du Plio-Pléistocène dans la basse vallée de l'Omo en Ethiopie », *C.R.A.S.* 281 : 1693-6 (١٧).
- COPPENS (Y.), HOWELL (F.C.), ISAAC (G. Ll.) et LEAKEY (R.E.F.). — 1976. *Earliest man and environments in the Lake Rudolf basin*, Univ. of Chicago Press, 615 + XXII p. (١١) (١٨) (١٧).
- CORBEIL (R.). — 1951. « Les récentes découvertes au Cap-Vert concernant le Paléolithique », *B.I.F.A.N. B*, 13 : 384-437 (٢٤).
- 1951. « Mise en évidence d'industries lithiques anciennes dans l'extrême ouest sénégalais », *C.R. Conf. Intern. Africanistes Ouest I*, 2 : 387-90 (٢٤).
- CORBEIL (R.), MAUNY (R.) et CHARBONNIER (J.). — 1948. « Préhistoire et protohistoire de la presqu'île du Cap Vert et de l'extrême ouest sénégalais », *B.I.F.A.N. B*, 10 : 378-460 (٢٤).
- CORNÉVIN (R.). — 1962. *Histoire de l'Afrique*, Paris (٥).
- COUPEZ (A.) et KAMAZI (T.). — 1970. *Littérature de cour au Rwanda*, Oxford (٧).
- COURSEY (D.G.). — 1967. *Yams*, London, Longmans-Green, XIV + 230 p. (٢٤).
- 1972. « The origins and domestication of yams in Africa », *Proc. Burg. Wart. Symp.* 56 (٢٤).

- COURSEY (D.G.) et ALEXANDER (J.). — 1968. « African agricultural patterns and the Sickle Cell », *Science*, 160 : 1474-5 (٢٤).
- COURTOIS (Ch.). — 1955. *Les Vandales et l'Afrique*, Paris (•).
- CREACH (P.). — 1951. « Sur quelques nouveaux sites et quelques nouvelles industries préhistoriques d'Afrique occidentale française », *C.R. Conf. Intern. Africanistes Ouest I*, 2 : 397-430 (٢٤).
- CREACH (D.A.). — 1970. « A tale type index for Africa » *Research in Africa, Literatures*, Austin, I, 1 : 50-3 (٧).
- CREACH (S.A.). — 1852. *A vocabulary of the Yoruba Language*, London, Seeleys, V + 38, 219 p. (١٢).
- 1855. « Journal of an expedition up the Niger and Tshadda rivers », London (٧).
- CUGOANO (O.). — 1787. *Thoughts and sentiments on the wicked traffic of the slavery*, Londres (٧).
- CUNY (A.). — 1946. *Invitation à l'étude comparative des langues indo-européennes et des langues chamito-sémitiques*, Bordeaux (١٠).
- CUOQ (J.). — 1975. *Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du VIII<sup>e</sup> au XVI<sup>e</sup> siècle (Bilād al-Sūdān)*, Paris, C.N.R.S. 493 p. (•).
- CURRY (R.R.). — 1969. *Chronologie glaciaire absolue de la Sierra Nevada, Californie, pour les derniers 2 700 000 ans*, Paris (١٦).
- CURTIN (Ph. D.). — 1960. « The archives in tropical Africa : a reconnaissance », *J.A.H.* I, 1, pp. 129-147.
- 1968. « Field Techniques for collecting and processing oral data », *J.A.H.* IX, 3 : 367-85 (٧).
- CURTIN (Ph. D.) et VANSINA (J.). — 1964. « Sources of the 19<sup>th</sup> century Atlantic slave trade », *J.A.H.* 5 (٧).
- CUVELIER (J.) et JADIN (L.). — 1954. *L'Ancien Royaume du Congo d'après les archives romaines 1518-1640*, Bruxelles (٧).
- DAHL (O. C.). — 1951. *Malgache et Maanjan : une comparaison linguistique*, Oslo, Egede Institut, 406 p. (١٢).
- DAIN (A.). — 1961. « Témoignage écrit et philologie », *l'Histoire et ses méthodes*, encyclopédie de la Pléiade, Paris (•).
- DALBY (D.). — 1965. « The Mel Languages : a reclassification of southern "West Atlantic" », *A.L.S.* 6 (١٢) (١٠).
- 1966. « Levels of relationship in the classification of African languages », *A.L.S.* (١٠).
- 1967. « Survey of the indigenous scripts of Liberia and Sierra Leone », *A.L.S.* 8 (٧).
- 1970. *Language and History in Africa*, Franck Cassad and C<sup>o</sup>, Londres, 160 p. (١٠).
- 1970. « Reflections on the classification of African languages, with special reference to the work of Sigismund Wilhem Koelle and Malcolm Guthrie », *African language studies*, XI (١٢).
- DALLONI (M.). — 1935. *Mission au Tibesti (1930-1931)*, Paris, Gauthier - Villard, 2 vol. (٢٣).



- 1948. *Matériaux pour l'étude du Sahara oriental, région entre la Libye, le Tibesti et le Kaouar (Niger)*, Alger, I.R.S., 120 p. (٢٣).
- 1952. « La station moustérienne de Retaimia près d'Inkermara (Algérie) », *Actes II<sup>e</sup> Congr. P.P.E.Q.* : 419-27 (٢٢).
- DALLONI (M.) et MONOD (Th.). — 1948. « Géologie et préhistoire (Fezzan méridional, Kaouar et Tibesti) », *Mission scientifique du Fezzan (1944-45)*, *Trav. I.R.S.* 6 (٢٣).
- DALLONI (M.), DALRYMPLE (G.), BRENT, LANPHERE et MARVIN (A.) — 1969. *Potassium-Argon Dating. Principles, techniques and applications to geochronology*, San Francisco, W. H. Freeman and Co (٤).
- DALTON (G.). — 1968. *Primitive, archaic and modern economies, essays of Karl Polanyi*, New York (١٣).
- DAMAS (I.) (éd.). — 1966. « Ecological essays : proceedings of the conference of cultural ecology », *Museum of Canada Bull.* 230 (٢٧).
- DANIEL (G.). — *The Tree Ages*, Cambridge, Cambridge University Press (٢٤).
- DANIELS (Ch.). — 1970. *The Garamantes of Southern Libya*, Stoughton, Oleander Press (٢٤).
- DAPPER (O.). — 1668. *Naukeurige Beschrijvinghe des Afrikaenshe Gewesten*, Amsterdam.
- DARLINGTON (C.D.). — 1963. *Chromosomes botany and the origins of cultivated plants*, London, G. Allen Unwin Ltd. (٢٧).
- DAVIDSON (B.). — 1959. *The last cities of Africa*, Boston, Atlantic monthly Press (المقدمة العامة).
- 1964. *The African past*, London, Longmans (المقدمة العامة).
- 1965. *Old Africa rediscovered*, Paris, P.U.F. (المقدمة العامة).
- 1965. *Mère Afrique*, Paris, P.U.F. (المقدمة العامة).
- 1966. *The growth of African civilisation : West Africa 1000-1800*, London, Longmans (المقدمة العامة).
- DAVIES (O.). — 1959. « The distribution of Old Stone Age material in Guinea », *B.I.F.A.N.* B, 21 : 1-2, (٢٤).
- 1960. « The neolithic revolution in tropical Africa », *T.H.S.G.* 4 (٢٤).
- 1961. *Archaeology in Ghana*, Edinburg, Nelson, IV + 45 p. (٢٤).
- 1962. « The Neolithic culture of Ghana », *Actes IV Congr. P.P.E.Q.* 3 : 291-301 (٢٤).
- 1964. *The Quaternary in the Coastlands of Guinea*, Glasgow, Jackson, XVI + 276 p. (٢٤).
- 1966. « The invasion of Ghana from the Sahara in the Early Iron Age », *Actas V Congr. P.P.E.Q.* 2 : 27-42 (٢٤).
- 1966. « Comment on : "J. Arkell, B. Fagan and R. Summers, The Iron Age in Sub-Saharan Africa" » *C.A.* 7 : 470-1 (٢٤).
- 1967. « New radiocarbon dates from Ghana », *B.A.S.E.Q.U.A.* 14-15 : 28 (٢٤).
- 1967. *West Africa before the Europeans*, Londres, Methuen, XX + 364 p. (٢٤).

- DAVIES (O.), HUGOT (H.) et SEDDON (D.). — 1968. « The origins of African agriculture », *C.A.* 9, 5 : 479-504.
- DAVISON (C.C.). — 1973. « Glass beads in African archaeology », *A.A.T.A.*, 10, 2 (١).
- DAVISON (C.C.), GIAUQUE (R.D.) et CLARK (J.D.). — 1971. « Two chemical groups of dichroic glass beads from West Africa », *Man* 6, 4 : 645-9 (١).
- DAY (M.H.) et LEAKEY (R.E.F.). — 1973. « New evidence for the genus *Homo* from East Rudolf, Kenya, I », *A.J.P.A.* 39 : 341-54 (١٧).
- 1974. « New evidence for the genus *Homo* from East Rudolf, Kenya, III », *A.J.P.A.* 41 : 367-80 (١٧).
- DAY (M.H.), LEAKEY (R.E.F.), WALKER (A.C.) et WOOD (B.A.). — 1975. « New hominids from East Rudolf, Kenya, I », *A.J.P.A.* 42 : 461-76 (١٧).
- 1976. « New hominids from East Turkana, Kenya », *A.J.P.A.* 45, 3 : 369-436 (١٧).
- DAYRELL (E.). — 1911. « Further notes on nsibidi signs with their meanings from the Ikom district, Southern Nigeria », *J.R.A.I.*, vol. 41, pl. LXV-LXVII (١٠).
- DEACON (H.J.). — 1970. « The Acheulian occupation of Amanzi Springs, Uitenhage district, Cape province », *A.C.P.M.* 8, 11 (٢٠).
- 1972. « Wilton : an assessment after fifty years », *S.A.A.B.* XXVII, 1-2 : 10-48 (٢٠).
- 1972. « A review of the post-Pleistocene in South Africa », *S.A.A.B.*, Goodwin series I : 26-45 (٢٠).
- DEBONO (F.). — 1948. « Le Paléolithique final et le Mésolithique à Héliouan », *A.S.A.E.* XLVIII : 629-37 (٢٥).
- 1948. « El-Omari », *A.S.A.E.* XLVIII : 562-8 (٢٥).
- 1951. « Expédition archéologique royale au Désert oriental », *A.S.A.E.* LI : 59-91 (٢٥).
- 1954. « La nécropole prédynastique d'Héliopolis », *A.S.A.E.* LII : 625-52 (٢٥).
- 1956. « La civilisation prédynastique d'el-Omari (nord d'Héliouan) », *B.I.E.* XXXVII : 331-9 (٢٥).
- 1969. « Le sentiment religieux à l'époque préhistorique en Egypte », *C.H.E.* XI : 1-13 (٢٥).
- 1970. « Recherches préhistoriques dans la région d'Esna », *B.I.F.A.O.* LXIX : 245-51 (٢٥).
- 1971. « Etude des dépôts de silex », *Graffiti de la Montagne thébaine*, Le Caire (٢٥).
- 1971. « Prospection préhistorique (campagne 1972-1973) », *Graffiti de la Montagne thébaine*, t. I, 4, Le Caire (٢٥).
- 1975. « Thèbes préhistorique, ses survivances à l'époque pharaonique », *Actes du XXIX<sup>e</sup> Congr. Inter. Orient.* (٢٥).
- 1976. « L'homme oldowaien en Egypte », *B.I.E.* (٢٥).
- 1976. « Survivances préhistoriques de l'usage du silex à l'époque pharaonique », *B.I.E.* (٢٥).

- DEGAN (Th.). — 1956. « Le site préhistorique de Tiémassas (Sénégal) », *B.I.F.A.N.* B, 8 : 432-61 (٢٤).
- DELAFOSSÉ (M.). — 1901. *Essai de manuel pratique de la langue mandé ou Mandingue*, Paris, Leroux, 304 p. (١٢).
- 1912. Haut-Sénégal Niger, Paris, Larose (١٠).
- 1914. « Mots soudanais du Moyen Age », *Mém. Soc. Ling.* Paris, 18 (١٢) (١٠).
- 1924. « Groupe sénégal-guinéen », A. Meillet et M. Cohen (dir.), *Langues du monde*, Paris, H. Champion, XVI + 811 p. (١٢)(١٠).
- DELANY (M.R.). — 1861. « Official report on the Niger Valley exploring party », Leeds (٦).
- DELCROIX (R.) et VAUFREY (R.). — 1939. « Le Toumbien de Guinée française », *Anthropologie*, 49 : 265-312 (٢٤)(٢٣).
- DELIBRIAS (G.), GUILLIER (M.T.) et LABEYRIE (J.). — 1974. « Gif natural radiocarbon measurements VII », *Radiocarbon*, 16, 1 : 15-94 (٢١).
- DELIVRE (A.). — 1974. *L'Histoire des rois d'Imerina : Interprétation d'une tradition orale*, Paris (٨).
- DEMOUGEOT. — 1960. « Le chameau et l'Afrique du Nord romaine », *Annales*, 209-47 (٢٦).
- DENIS (J.), VENNETIER (P.) et WILMET (J.). — 1971. *L'Afrique centrale et orientale*, Paris, P.U.F., 294 p. (١٣).
- DENNINGER (E.). — 1971. « Use of paper chromatography to determine the age of albuminous binders and its application to rock paintings », *S.A.A.A.S.* 2 : 80-4 (٦).
- DENY (J.). — 1930. *Sommaire des archives turques du Caire*, Le Caire (٦).
- DESCAMPS (C.). — 1971. *Sénégal, préservation et mise en valeur du patrimoine archéologique*, « D. Les mégalithiques du Sine-Saloum », Paris, Unesco (٢٤).
- DESCHAMPS (H.). — 1962. « Pour une histoire de l'Afrique », in « Regards sur l'Afrique », *Diogenes* 37, pp. 113-120 (المقدمة العامة).
- 1964. *L'Afrique tropicale aux XVII<sup>e</sup>-XVIII<sup>e</sup> siècles*, Paris, C.D.U. (المقدمة العامة).
- 1969. *L'Afrique noire précoloniale*, Paris, P.U.F. (المقدمة العامة).
- DESCHAMPS (H.) et al. — 1970. *Histoire générale de l'Afrique noire*, Paris, P.U.F., 2 t. (٧) (المقدمة العامة).
- DESPLAGNES (L.). — 1907. « L'Archéologie préhistorique en Guinée française », *B.S.G.C.* (٢٤).
- 1907. *Le Plateau central nigérien*, Paris (٢١).
- DESPOIS (J.) et RAYNAL (R.). — 1967. *Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest*, Paris, Payot, 571 p. (١٣).
- DESTANIQ (Ed.). — 1911. « Notes sur des manuscrits arabes de l'Afrique occidentale », *Revue africaine* (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- DEVA (I.). — 1974. « La tradition orale et l'étude des sociétés agricoles », *Diogenes*, 85 : 123-42 (٤).
- DIAGNE (P.). — 1972. *Anthropologie de la littérature wolof*, Dakar, I.F.A.N. (١٠).

- 1976. *Enquête linguistique*, Unesco, Tchad (١٠).
- DIALLO (Th.). — 1968. *Les Institutions politiques du Fouta-Djallon au XIX<sup>e</sup> siècle*, Dakar (ronéo.) (٦).
- DIEHL (Ch.). — 1969. *L'Afrique byzantine*, 2<sup>e</sup> éd., New York, 2 vol. (٥).
- DIENG (A.A.). — 1974. *Classes sociales et mode de production esclavagiste en Afrique de l'Ouest*, Paris, C.E.R.M. n° 114 (الطائفة).
- DIENG (A.A.). — 1978. Hegel, Marx, Engels et les problèmes de l'Afrique noir, Paris, Fonkoré.
- DIMBLEBY (G.W.). — 1963. « Pollen analysis », *Science in archaeology*, BROTHWELL (D.) et HIGGS (E.), dir., Londres, Thames and Hudson, pp. 139-149 (٩).
- DIOP (C.A.). — 1955. *Nations nègres et culture*, Paris, Prés. afr. (٢٤) (١٠).
- 1959. *L'Unité culturelle de l'Afrique noire*, Paris, Prés. afr.
- 1960. *L'Afrique noire précoloniale*, Paris, Prés. afr. (٢٤).
- 1962. « Réponse à quelques critiques », *B.I.F.A.N.* B. 24 : 542-74 (٢٤).
- 1962. « Histoire primitive de l'Humanité : évolution du monde noir », *B.I.F.A.N.* B. 24 : 449-541 (٢٤).
- 1973. *Introduction à l'étude des migrations en Afrique occidentale et centrale*, Dakar, I.F.A.N. (١٠) (٦).
- 1974. *Physique nucléaire et chronologie absolue*, Dakar-Abidjan, N.E.A. (٤).
- 1977. Parenté génétique de l'égyptien pharaonique et des langues africaines : processus de sémitisation ; la pigmentation des anciens Egyptiens, test par la mélanine, BIFAN.
- DIOP (M.). — 1971-72. *Histoire des classes sociales dans l'Afrique de l'Ouest*, Paris, F. Maspero (الطائفة).
- DOBLHOFFER (E.). — 1959. *Le Déchiffrement des écritures* (trad. de l'allemand), Paris, Arthaud (٤).
- DOIZE (R.L.). — 1938. « Les boules de pierre et les pierres perforées des collections de préhistoire du musée du Congo », *A.M.R.A.C.* I : 89-140 (٢٧).
- DOKE (C.M.) et COLE (D.T.). — 1961. *Contribution to the history of african linguistics*, Johannesburg, Witwatersrand University Press, 129 p. (١٢).
- DORESSE (J.). — 1971. *Histoire sommaire de la Corne orientale de l'Afrique*, Paris (٥).
- DORIZE (L.). — 1974. « L'oscillation pluviométrique récente sur le bassin du lac Tchad et la circulation atmosphérique générale », *Revue de géographie physique et de géologie dynamique*, 16, 4 : 393-420 (١٦).
- DORSON (R.M.). — 1972. « African Folklore. Garden City (récits, genres oraux, folklore, littérature et histoire) » (٨).
- 1976. « Oral literature, oral history and the folklorist », *Folklore and Fakelore*, Cambridge : 127-44 (٨).
- DORST (J.P.) et DANDELLOT (F.). — 1970. *A field guide to the larger mammals of Africa*, Londres, Collins (٢٤).

- DRAR (M.). — 1963. « Flore du continent africain : région au nord du Sahara », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco : 257-70 (١٣).
- DRIOTON (E.) et VANDIER (J.). — 1962. *L'Égypte*, 4<sup>e</sup> éd. augmentée, Paris, P.U.F., 2 vol. (٢٨) (٥).
- DROUX (G.) et KELLEY (H.). — 1939. « Recherches préhistoriques dans la région de Boko-Sogho et à Pointe-Noire (Moyen-Congo) », *J.S.A.* 9 : 71-84 (٢١).
- DUBIEF (J.). — 1959. « Le climat du Sahara », *Mém. I.R.S.*, 2 vol. (٢٣).
- DUBOIS (W.E.B.). — 1903. *The souls of black folk*, Mac Clurg (المقدمة العامة).
- 1944. *Black folk then and now*, New York, H. Holt (المقدمة العامة).
- DUMOULIN de LAPLANTE (P.). — 1947. *Histoire générale synchronique*, Paris (الخاتمة).
- DUNBAR (J.H.). — 1941. *Some nubian rock pictures of lower Nubia*, Le Caire (٢٣).
- DUNHAM (D.). — 1955. *Nuri, the royal cemeteries of Kush*, Boston, University of Fine Arts (٢٨).
- DUNHILL (A.). — 1969. *The Pipe Book* (éd. révisée), Londres, Barker (٢٤).
- DUVEYRIER (H.). — 1864. *Les Touaregs du Nord*, Paris, Challamel, 502 p (٢٣).
- DUVIGNEAUD (P.). — 1958. « La végétation du Katanga et de ses sols métallifères », *Bulletin de la société royale de botanique de Belgique*, 90, 2 : 126-278 (٢١).
- DUYVENDAK (J. J.L.). — 1949. *China's discovery of Africa*, London (٥).
- 1973. « Eastern african coast », *J.R.A.S.* : 98-122 (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- EBOUE (F.). — 1933. « Les peuples de l'Oubangui-Chari. Essai d'ethnographie, de linguistique et d'économie sociale », *Ethnographie* 27 : 3-79 (٢١).
- EDWARDS (I.E.S.). — 1970. « Absolute dating from Egyptian records and comparison with carbon-14 dating », *P.T.R.S.* 269, 1193 : 11-9 (٩).
- EGHAREVBA (J.). — 1960. *A short history of Benin*, Ibadan, Ibadan Univ. Press (٢٤).
- EHRET (Ch.). — 1963. « Sheep and central sudanic peoples », *J.A.H.* IX, 2 (المقدمة العامة).
- الكتاني (م) ١٩٦١. « التاريخ وطريقته » باريس، موسوعة لالمبياد (المقدمة العامة).
- ١٩٦٨. « مخطوطات الغرب الافريقي بخزائنات المغرب » هيبريس تامودا ١٩ : ٥٧ — ٦٣ (المقدمة العامة).
- ١٩٦٨. « اقسام الوثائق والمخطوطات للخزائنات المغربية »، هيبريس تامودا، الرباط. ٣ : ٥٩ — ٦٨ (المقدمة العامة).
- التونسي (أ) — ١٨٤٥. « رحلة الى دارفور »، ترجمة الدكتور بيرون، باريس (٦).
- EMERY (W.B.). — 1961. *Archaic Egypt*, Harmondsworth, Penguin Book (٢٨).
- 1965. *Egypt in Nubia*, London, Hutchinson (٢٨).

- EMILIANI (C.). — 1975. « Paleoclimatological Analysis of Late Quaternary Cores from the Northeastern Gulf of Mexico », *Science*, 189, 4208 : 1083-7 (١٦).
- EMPHOUX (J.P.). — 1970. « La grotte de Bitorri au Congo-Brazzaville », *Cah. O.R.S.T.O.M.* II : 3-20 (٢١).
- ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM, 2<sup>e</sup> éd., Leyde (٥) (المقدمة العامة).
- ENGELMAYER (R.). — 1965. *Die Felsgravierungen in Distrikt Sayala Nubien*, Vienna, H. Böhlau Nachf, 90 p. (٢٣).
- ENNOUCHI (E.). — 1962. « Un néandertalien : l'homme du Djebel Irhoud », *Anthropologie*, 66 (٢٢).
- ERMAN (A.) et TÄNKER (H.). — 1952. *Aegypten und ägyptischen Leben im Altertum*, Tübingen. Traduction française : *La Civilisation égyptienne*, Paris, Payot (٢٨).
- EYO (E.). — 1969. « Excavation at Ile-Ife », *Afr. Arts* : 44-7 (٢٤).
- 1972. « Rop Rock Shelter excavations 1964 », *W.A.J.A.* 2 : 13-6 (٢٤).
- 1972. « New treasures from Nigeria », *Expedition*, 14, 2 : 1-11 (٢٤).
- 1974. « Excavations at Odo-Ogbe Street and Lafogido, Ife, Nigeria », *W.A.J.A.* 4 (٢٤).
- EVANS-PRITCHARD (E.E.). — 1939. « Nuer Time Reckoning », *Africa* 12 : 189-216 (٧).
- EWING (G.W.). — 1954. *Instrumental methods of chemical analysis*, Londres, McGraw Hill Book Company Inc. (١).
- EYRE (S.R.). — 1963. *Vegetations and Soils*, Londres (١٤).
- FAEGRI (K.) et IVERSEN (J.). — 1950. *Introduction to pollen analysis*, Copenhagen (١).
- FAGAN (B.M.). — 1969. « Radiocarbon dates for sub-saharan Africa, VI », *J.A.H.* 10 : 149-69 (٢٤).
- FAGAN (B.M.) et NOTEN (F. VAN). — 1971. « The Hunter-Gatherers of Gwisho », *A.M.R.A.C.* 74, XXII + 228 p. (٢١).
- FAGE (J.D.). — 1962. *An introduction to the history of West Africa*, 3<sup>e</sup> éd., Cambridge (المقدمة العامة).
- 1965. *An atlas of African history*, London, Ewd. Arnold.
- 1970. *Africa discovers her past*, Oxford, Oxford Univ. Press (١٥).
- FAGE (J.D.) et OLIVER (R.A.). — 1970. *Papers in African prehistory*, Cambridge Univ. Press (الخاتمة).
- FAGG (A.). — 1972. « Pottery from the Rock Shelter excavations of 1944 and 1964 », *W.A.J.A.* 2 : 29-38 (٢٤).
- 1972. « Excavation of an occupation site in the Nok Valley, Nigeria », *W.A.J.A.* 2 : 75-9 (٢٤).
- FAGG (B.E.B.). — 1944. « Preliminary report on a microlithic industry at Rop Rock Shelter, Northern Nigeria », Cambridge, *Proceedings of the prehistoric society*, 10 : 68-9 (٢٤).
- 1945. « A preliminary note on a new series of pottery figures from Northern Nigeria », *Africa*, 15 : 21-2 (٢٤).
- 1956. « An outline of the Stone Age of the Plateau Minesfield », *Proc. III Internat. W.A.C.* 203-22 (٢٤).

- 1956. « The Nok culture », *W.A.R.* 27 : 1083-7 (٢٤).
- 1959. « The Nok culture in prehistory », *J.H.S.N.* 1,4 : 288-93 (٢٤).
- 1962. « The Nok terracottas in west african art history », *Actes IV Congr. P.P.E.Q.* III : 445-50 (٢٤).
- 1968. « The Nok culture : excavations at Taruga », *W.A.A.N.* 10 : 27-30 (٢٤).
- 1969. « Recent work in West Africa ; new light on the Nok culture », *W.A.* I : 41-50 (٢٤).
- 1972. « Rop Rock Shelter excavations 1944 », *W.A.J.A.* 2 : 1-12 (٢٤).
- FAGG (B.E.B.) et FLEMING (S.J.). — 1970. « Thermoluminescent dating of a terracotta of the Nok culture, Nigeria », *Archaeometry*, 12 : 53-5 (٢٤).
- FAGG (W.). — 1963. *Nigerian images*, London, Lund Humphries, 124 p. (٢٤).
- FAGG (W.) et WILLETT (F.). — 1960. « Ancient Ife : an ethnographical summary », *ODU*, 8 : 21-35 (٢٤).
- FARAG (N.) et ISKANDER (A.). — 1971. *The Discovery of Neferwptah*, Le Caire (١).
- FARINE (B.). — 1963. *Sites préhistoriques gabonais*, ministère de l'Information, Libreville (٢١).
- 1965. « Recherches préhistoriques au Gabon », *B.S.P.P.G.*, vol. I, 3, pp. 68-84 (٢١).
- 1967. « Quelques outils principaux des divers faciès préhistoriques des districts de Ndjole et de Booué », *B.S.P.P.G.* : 22-36 (٢١).
- FAULKNER (R.O.). — 1953. « Egyptian military organisation », *J.E.A.* 39 : 32-47 (٢٨).
- FAURE (H.). — 1962. *Reconnaissance géologique des formations sédimentaires postpaléozoïques du Niger oriental*, thèse, Paris (٢٢).
- 1967. « Evolution des grands lacs sahariens à l'Holocène », *Quaternaria* 15 : 167-75 (١٦).
- 1969. « Lacs quaternaires du Sahara », *Internationale Vereinigung für theoretische und Angewandte Limnologie*, 17 : 131-48 (١٦).
- FAURE (H.) et ELOUARD (P.). — 1967. « Schéma des variations du niveau de l'océan Atlantique sur la côte de l'ouest de l'Afrique depuis 40 000 ans », *C.R.A.S.* 265 : 784-7 (٢٤).
- FEREMBACH (D.). — 1970. *Les Cro-Magnoïdes de l'Afrique du Nord. L'Homme de Cro-Magnon*, Paris, A.M.G. (٢٢).
- FEREMBACH (D.), DASTUGUE (J.) et POITRAT-TARGOWLA (M.-J.). — 1962. *La Nécropole épi-paléolithique de Taforalt (Maroc oriental)*, Casablanca (٢٢).
- FERGUSON (J.). — 1969. « Classical contacts with West Africa », L.A. THOMPSON and J. FERGUSON (éd.), *Africa in classical antiquity*, Ibadan, Ibadan Univ. Press. IX + 221 p. (٢٤).
- FIELDS (P.R.), MILSTED (J.), HENRICKSEN (E.) et RAMETTE (R.W.). — 1971. « Trace impurities copper ores and artefacts », *Science and archaeology* (٤).

- FILESI (T.). — 1962. *La Relazione della Cina con l'Africa nel medioevo*, Milano (٥).
- FILIPOWIARK (M.). — 1969. « L'expédition archéologique polono-guinéenne à Niani en 1968 », *Africana* II : 107-17 (٢٤).
- 1969. « Discovering Niani », *Polish Rev.*, 4, 92 : 14-6 (٢٤).
- FINNEGAM (R.). — 1970. *Oral literature in Africa*, Oxford (٨).
- FISHER (H.J.). — 1972. « He swalloweth the ground with fierceness and rage : the horse in the central Sudan », *J.A.H.*, 13-3 : 367-88 (٢٤).
- FLAMAND (G.B.M.). — 1902. « Les pierres écrites (Hadjrat Mektoubat), du nord de l'Afrique et spécialement de la région d'In Salah », *Anthropologie*, 12 : 535-8 (٢٣).
- 1921. *Les pierres écrites (Hadjrat Mektoubat). Gravures et inscriptions rupestres du Nord africain*, Paris, Masson (٢٣).
- FLEMING (H.C.). — 1969. « The classification of west cushitic within Hamito-Semitic », D.F. McCALL, N.R. BENNETT and J. BUTTER (dir.), *Eastern african history*, New York, Washington, London and Praeger (١٢).
- FLIGHT (C.). — 1970. « Kintampo 1968 », *W.A.A.N.* 12 : 71-3 (٢٤).
- FLINT (R.F.). — 1947. *Glacial geology and the Pleistocene epoch*, London, New York, 589 p. (١٦).
- 1959. « Pleistocene climates in Eastern and Southern Africa », *B.G.S.A.* 70 : 343-74 (٢١)(١٦).
- 1959. « On the basis of Pleistocene correlation in East Africa », *Geology magazine* V, 96 : 265-84 (٢٤)(٢١).
- 1971. « Glacial and Quaternary Geology », New York, Wiley, p. XIV + 892 (٢٤)(١٦).
- FLUTRE (L.F.). — 1957. *Pour une étude de la toponymie de l'A.O.F.*, Dakar, publication de l'Université (المقدمة العامة).
- FODOR (I.). — 1966. *The Problems in the classification of the african languages*, Budapest, Center for afro-asian research of the Hungarian Acad. Sc. (٤).
- FOERSTER (R.) éd. — 1893. *Scriptores physiognomici* (١١).
- FORBES (R.J.). — 1964. *Studies in ancient technology*, Leyde, Brill. 1. (٢٨).
- FORD (J.). — 1971. *The historical role of tsé-tsé*, The Clarendon Press, Oxford (المقدمة العامة).
- FORDE (D.). — 1954. *African worlds*, Londres, O.U.P. (المقدمة العامة).
- 1956. *Efik trades of old Calabar*, Londres (٦).
- FORTES (M.) et EVANS-PRITCHARD (E.E.). — 1962. *African political systems*, London, O.U.P. (المقدمة العامة).
- FOSBROOKE (H.A.). — 1950. « Rock-paintings of north-central Tanzania », *T.N.R.* 29 (١٩).
- FOUREAU (F.). — 1883. « Excursion dans le Sahara algérien », *l'Explorateur* 16 (٢٣).
- 1905. *Documents scientifiques de la mission saharienne*, mission Foureau-Lamy, d'Alger au Congo par le Tchad, Paris, Masson, 3 vol. (٢٣).



- FOURNIER (F.). — 1963. « Les sols du continent africain », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco, 227-255 (١٣).
- FREEMAN (Th.). — 1844. *Journal of various visits to the kingdom of Ashanti, Dahomey and Abeokuta*, Londres (٦).
- FREEMAN-GRENVILLE (G.S.P.). — 1958. « Swahili literature and the history and archaeology of the East African Coast », *J.E.A.S.C.* : 28, 2. (المقدمة العامة) (٥) (٦).
- 1959. « Medieval evidences for Swahili », *J.E.A.S.C.* 29, 1 (٥) (المقدمة العامة) (٦).
- 1960. « East African coin finds and their historical significance », *J.A.H.*, 1 : 31-43 (٦) (٥) (المقدمة العامة) (٦).
- 1962. *The East African coast, select documents from the first to the early nineteenth century*, Oxford (٦).
- FROBENIUS (L.). — 1913. *The voice of Africa*, Londres, B. Bleen (المقدمة العامة).
- 1937. *Ekade Ektab. Die Felsbilder Fezzan*. Veröffentlichung des Forschungsinstitut für Kulturmorphologie, Leipzig, Harrasowits (٢٣).
- 1949. *Mythologie de l'Atlantide*, Paris, Payot (المقدمة العامة).
- 1952. *Histoire de la civilisation africaine*, Paris, Gallimard (المقدمة العامة).
- FROBENIUS (L.) et OBERMAIER (H.). — 1923. *Hadschra Mektuba*, Munich, K. Wolff (٢٣).
- FROGE (J.). — 1965. « La machine électronique au service des sciences humaines », *Diogenes* 52 : 110-44 (٤).
- FROUDE (J.A.). — 1888. *The English in the West Indies*, Oxford (١).
- FURON (R.). — 1943. *Manuel d'archéologie préhistorique*, Paris, Payot (الخاتمة).
- 1958. *Manuel de préhistoire générale*, Paris, Payot (الخاتمة).
- 1960. *Géologie de l'Afrique*, Paris, Payot, 351 p. (١٣).
- FYNN (N.F.). — 1950. *The diary of... 1803-61*, Pietermaritsburg (٦).
- GABEL (C.). — 1966. « Prehistoric populations of Africa », *B.U.P.A.* : 1-37 (١٥).
- GABEL (C.) et BENNET (N.R.). — 1967. *Reconstructing african culture history*, Boston, Boston Univ. Press (١٥).
- GALTON (F.). — 1853. *Narrative of an explorer in tropical Africa*, Londres (٦).
- GARDINER (A.H.). — 1947. *Ancient egyptian onomastica*, Londres, Oxford Univ. Press (٢٨).
- 1957. *Egyptian Grammar*, 3<sup>rd</sup> edit., Londres, Oxford Univ. Press (٢٨).
- GARDNER (J.V.) et HAYS (J.D.). — 1975. « Eastern equatorial Atlantic : sub-surface temperature and circulation responses to global climatic charge during the past 200,000 years », *G.S.A.M.* 145 (١٦).
- GARLAKE (P.). — 1974. « Excavations at Obalara's Land, Ife, Nigeria », *W.A.J.A.* 4 (٢٤).
- GASSE (F.). — 1975. *L'Evolution des lacs de l'Afar Central (Ethiopie et T.F.A.I.) du Plio-Pléistocène à l'Actuel*, thèse, Paris, Université de Paris VI, 3 vol. (١٦).

- GAUSSEN (M. et J.). — 1965. « Un atelier de burins à Lagreich-Néo. 1, Oued Tilemsi (Mali) », *Anthropologie*, 69 (٢٣).
- GAUTHIER (E.F.). — 1914. « Minette de St-Martin, note sur une collection préhistorique saharienne », *Revue africaine* (٢٣).
- 1933. « Deux centres d'influence méditerranéenne qui rendent intelligible l'Afrique occidentale », *B.S.G.F.* : 71-2 (المقدمة العامة).
- 1946. *Le Sahara algérien*, Paris (٢٣).
- 1950. *Le Sahara*, 3<sup>e</sup> éd., Paris, Payot, 231 p. (٢٣).
- GAUTHIER (E.F.) et REYGASSE (M.). — 1923. « Découverte d'un outillage moustérien à outils pédonculés atériens dans le Tidike't, oueld Asriouel, région d'Aoulef Chorfa », *Actes 46<sup>e</sup> congr. A.F.A.S.* (٢٣).
- 1934. « Les monuments de Tin Hinan », *A.A.S.C.* 7, 12 p. (٢٣).
- GENTNER (W.) et LIPPOLT (H.J.). — 1963. « The potassium-argon dating of Upper Tertiary and Pleistocene deposits », *Science in Archaeology*, BROTHWELL D. et HIGGS E. (dir.), Londres, Thames and Hudson : 72-84 (١).
- GERMAIN (G.). — 1957. *Qu'est-ce que le périple d'Hannon ?*, Rabat (\*).
- GEUS (F.). — 1976. *Rapport annuel d'activité 1975-76*, Khartoum, Service des Antiquités du Soudan (٢٨).
- GIEGENGACK (R.F.). — 1968. *Late Pleistocene history of the Nile Valley in Egyptian Nubia*, Ph. D. Dissertation, Yale University (١١).
- GILBERT (E.W.). — 1932. « What is historical geography ? » *The Scottish geographical magazine*, 48, 3 (١٤).
- GLELE (M. Ahanhanzo). — 1974. *Le Danxome, du pouvoir Aja à la nation Fon*, Paris, Nubia (١١).
- GOBERT (E.G.). — 1951-52. « El-Mekta, station princeps du capsien », *Karthago*, 2, 72 p. (٢٢).
- 1963. « Bibliographie critique de la préhistoire tunisienne », *Cah. de Tunisie*, 41-42 : 37-77 (٢٢).
- GODEE-MOLSBERGEN (E.C.). — 1916-1932. *Reüsen in Zuid Africa in the Hollandse Tijd*, La Haye, 4 vol. (١).
- GOODWIN (A.J.H.) et RIET LOWE (C. VAN). — 1929. « The Stone Age Cultures of South Africa », *A.S.A.M.* 27 (٢٠).
- GOODY (J.). — éd. 1968. *Literacy in traditional societies*, Cambridge (٧).
- GOROG-KARADY (V.). — 1966-1972. « Littérature orale africaine : bibliographie analytique (périodiques) », *C.E.A.* 21, VIII : 243-501 ; 36, IX : 631-66 ; 40, X : 583-631 ; 45, XII : 174-92 (٧).
- GOUROU (P.). — 1970. *L'Afrique*, Paris, Hachette, 488 p. (١٣).
- GRANDIDIER (A. et G.). — 1903-1920. *Collections des ouvrages concernant Madagascar*, Paris, Comité de Madagascar, 9 vol. (١٢).
- GRAY (R.). — 1965. « Eclipse maps », *J.A.H.*, VI-3 pp. 251-262 (٧).
- 1968. « Annular eclipse maps », *J.A.H.* IX, 1 pp. 147-157 (٧).
- GRAY (R.) et CHAMBERS (D.S.). — 1965. *Materials for West African history in italian archives*, Londres (٢٤) (١).
- GRAZIOSI (P.). — 1924. *L'arte rupestre della Libia*, Naples, Ediz. della mostra d'oltremare (٢٣).

- GREENBERG (J.H.). — 1948. « The classification of African languages », *A.A.* (١٠).
- 1954. « Etude sur la classification des langues africaines », *B.I.F.A.N. B.*, XVI (١٠) (١) (المقدمة العامة)
- 1957. *Essays in linguistics*, Chicago (١٠).
- 1957. « Nilotic hamitic and hamito-semitic », *Africa*, 27 (١٢) (١٠)
- 1963. *Langues et Histoire en Afrique*, *Présence africaine* n° 45, pp. 35-45 (١٥) (١٠).
- 1963. « The language of Africa », *I.J.A.L.*, 29, 1 (٢٤) (١٢) (١٠) (١)
- 1963. « History and present status of the Kwa problem », *Actes II coll. Intern. L.N.A.*
- 1966. *The languages of Africa*, Indiana Univ. (المقدمة العامة)
- 1966. *The languages of Africa*, The Hague, Mouton, 2<sup>e</sup> éd., 180 p. (١٢).
- 1971. *Language culture and economy*, Stanford Univ. Press (١٠).
- 1972. « Linguistic evidence regarding Bantu origins », *J.A.H.* 13, 2 : 189-216 (١٢).
- GREGersen (E.A.). — 1967. « Linguistic seriation as a dating device for loanwords with special reference to West Africa », *A.L.R.* (١٠).
- 1977. *Languages in Africa : An introductory survey*, New York-Paris-Londres, Gordon and Breach (١٢).
- GRIAULE (M.). — 1947. « Mythe de l'organisation du monde chez les Dogon du Soudan », *Psyché*, 6 : 443-53 (٨).
- 1949. « L'image du monde au Soudan », *J.S.A.* 19 : 81-7 (٨).
- 1952. « Etendue de l'instruction traditionnelle au Soudan », *Zaire* 6 : 563-8 (٨).
- GRIAULE (M.) et DIETERLEN (G.). — 1951. « Signes graphiques soudanais », *L'homme*, 86 p. (١٠).
- 1965. *Le Renard pâle*, « I : le mythe cosmogonique », Paris, 544 p. (٨).
- GRIFFITH (F.L.). — 1927. « The Abydos Decree of Seti I at Mauri », *J.E.A.* 13 : 193-208 (٢٨).
- GROVE (A.T.) et PULLAN (R.A.). — 1964. « Some aspects of the palaeogeography of the Chad Basin », F. Clark-Howell and Bourlière (éd.), *African ecology and human evolution*, London, 230-45 (٢٤) (١٦).
- GROVE (A.T.), STREET (F.A.) et GOUDIE (A.S.). — 1975. « Former lake levels and climatic change in the rift valley of southern Ethiopia », *G.J.* 141, 2 : 177-202 (١٦).
- GROVE et WARREN (A.). — 1968. « Quaternary landforms and climate on the South Side of the Sahara », *G.J.* 134 : 194-208 (٢٤).
- GRUET (M.). — 1954. « Le gisement moustérien d'El-Guettar », *Karthago*, 5, 79 p. (٢٢) (٢٢).
- GSELL (S.). — 1913-28. *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, Paris, 8 vol. (٥).
- GUEBHARD (P.). — 1907. « Trois abris sous roche fouillés dans le Fouta-Djallon », *B.G.H.D.* 3 : 408-20 (٢٤).
- GUERNIER (F.). — 1952. *L'Apport de l'Afrique à la pensée humaine*, Paris, Payot (المقدمة العامة)

- GUILLOT (R.) et DESCAMPS (C.). — 1969. « Nouvelles découvertes préhistoriques à Tiémassas (Sénégal) », *B.I.F.A.N.* B, 31 : 602-37 (٢٤).
- GUMA (S.M.). — 1967. *The form, content and technique of traditional literature in Southern Sotho*, Pretoria (٧).
- GUITAT (R.). — 1972. « Présentation de pièces pédonculées d'El Azrag (Mauritanie) », *N.A.* 135 : 29-33 (٢٣).
- GUTHRIE (M.). — 1948. *The classification of the Bantu languages*, Londres-New York, Oxford Univ. Press, 91 p. (١٢).
- 1962. « Some developments in the prehistory of the Bantu languages », *J.A.H.*, 3, 2 : 273-82 (١٢).
- 1967. *Comparative Bantu*, Londres, Faber and Faber (١٠).
- 1969. *Linguistics and history*, Londres, d'Alby (١٠).
- HABERLAND (E.). — 1973. *L. Frobenius*, Wiesbaden, Franz Steiner Verlag (٢٦).
- HABLE SELASSIE (S.). — 1967. *Source material for ancient and medieval history of Ethiopia*, communication au Congrès international des Africanistes, Dakar (٥).
- HADJIGEORGIOU (C.) et POMMERET (Y.). — « Présence du lupembien dans la région de l'estuaire », *B.S.P.P.G.* 1,3 : 111-31 (٢١).
- HAIR (P.E.H.). — 1965. « The enslavement of Koelle's informants », *J.A.H.* 6 (١).
- HALKIN (L.E.). — 1963. *Initiation à la critique historique*, Paris, A. Colin (المقدمة العامة) (١٥).
- HALL (E.T.). — 1965. « Recent research at the Research Laboratory for archaeology and the history of art », *Proc. Sem. A.S.E.W.A.*, Boston (9).
- 1970. « Analytical techniques used in archaeometry », *P.T.R.S.* 269, 1195 (٩).
- HALPERN (J.W.), HARRIS (J.E.) et BARNES (C.). — 1971. « Studying skulls in Egypt », *Research News, Ann Arbor*, The University of Michigan, vol. XXII, n° 1 (٩).
- HAMILTON (E.I.). — 1965. *Applied Geochronology*, Londres, Academic Press, p. 47-79 (١٦) (٩).
- HAMY (E.T.). — 1900. « La grotte de Kakimbon à Rotoma près de Konakry », *C.R. 12 Congr. Intern. A.A.P.* (٢٤).
- HANOTAUX (G.) et MARTINEAU (A.) dir. — 1931. *Histoire des colonies françaises*, Paris, 8 vol. (١).
- HARLAN (J.R.). — 1975. *Crops and man*, American society of agronomy, Madison, Wisconsin (٢٧).
- HARLAN (J.R.), WET (J.M. DE) et STEMLER (A.B.L.) dir. — 1976. *Origins of African plant domestication*, Paris-La Haye, Mouton (٢٧).
- HARLEY (G.V.). — 1950. Compte rendu de « Masks as agents of social control in Northeast Liberia », Peabody Museum, Harvard Univ., vol. XXXII (١٥).
- HARRIES (L.). — 1962. *Swahili poetry*, Oxford (٦).
- 1964. « The Arabs and Swahili culture », *Africa* XXXIV : 224-9 (٦) (٥) (المقدمة العامة).

- HARRIS (D.). — 1969. « Agricultural systems, ecosystems and the origin of agriculture », P.J. UCKO and G.W. DIMBLEBY (éd.), *The domestication and exploitation of plants and animals*, Londres, Duckworth (٢٧).
- HARRIS (J.R.). — 1961. *Lexicographical studies in ancient Egyptian minerals*, Berlin (٢٨).
- HARTLE (D.D.). — 1966. « Archaeology in Eastern Nigeria », *W.A.A.N.* 5 : 13-7 (٢٤).
- 1968. « Radiocarbon Dates », *W.A.A.N.* 9 : 73 (٢٤).
- 1970. « Preliminary Report of the University of Ibadan's Hainji Rescue Archaeology Project », 1968, *W.A.A.N.* 12 : 7-19 (٢٤).
- HARTMANN (F.). — 1923. *L'Agriculture dans l'ancienne Egypte*, Paris (٢٨).
- HASSAN (F.A.) et WENDORF (F.). — 1974. « A sibilian assemblage from El-Elh », *Chronique d'Egypte*, 49 : 211-22 (٢٥).
- HAU (E.). — 1959. « Evidence of the use of pre-portuguese written characters by the Bini », *B.I.F.A.N.* XXI (١٠).
- HAY (R.L.). — 1976. *Geology of the Olduvai Gorge*, Los Angeles-Berkeley-Londres, 203 p. (١٧).
- HAYES (W.C.). — 1964. *Most Ancient Egypt*, Chicago-Londres, K.C. Seele (٢٨).
- HAYS, (J.D.), SAITO (T.), OPDYKE (N.D.) et BURCKLE (L.H.). — 1969. « Pliocene-Pleistocene sediments of the Equatorial Pacific : their paleomagnetic, biostratigraphic and climatic record », *G.S.A.B.* 80 : 1481-1513 (١٦).
- HEINTZE (B.). — 1976. « Oral traditions. Primary sources only for the collector », *History in Africa : A journal of method*, 3.
- HEINZELIN de BRAUCOURT (J. DE). — 1957. *Les fouilles d'Ishango*, Bruxelles (٢١).
- 1963. « Paleoeological conditions of the Lake Albert - Lake Edward Rift », *Viking Fund Publ. Anthropol.* 36 (١٦).
- HEINZELIN de BRAUCOURT (J. DE, BROWN (F.E.) et HOWELL (F.C.). — 1971. « Plio-Pleistocene formations in the lower Omo basin (Southern Ethiopia) », *Quaternaria* (١٦).
- HENIGE (D.P.). — 1971. « Oral Tradition and Chronology », *J.A.H.*, XII, 3 (٧).
- 1974. *The chronology of oral tradition. Quest for 2 Chimera*, Oxford, Studies in African affairs (٧).
- HERBERT (E.W.). — 1973. « Aspects of the use of copper in pre-colonial West Africa », *J.A.H.* 14, 2 : 179-94 (٢٤).
- HERODOTE. — éd. 1964. *Histoires*, trad. George Hawlinson, Londres, Dent, vol. 1, p. XXI + 366 (٢٤).
- HERVIEU (J.). — 1969. « Les industries à galets aménagés du haut bassin de la Benoué (Cameroun) », *B.A.S.E.Q.U.A.* 22 : 24-34 (٢١).
- HERZOG (R.). — 1938. *Punt*, Glückstadt (١١).
- HESTER (J.J.). — 1968. In « Comments », *C.A.* 9 (٢٧) (٥).
- HEUSCH (L. DE). — 1972. *Le Roi ivre ou l'Origine de l'Etat*, Paris (٧).
- HIBEN (F.C.). — 1967. « Lukuliro », *Archaeology* XX : 247-53 (١٩).

- HIERNAUX (J.). — 1970. « La diversité biologique des groupes ethniques », *Histoire générale de l'Afrique noire*, Paris, P.U.F. (١١) (المقدمة العامة).
- 1974. *Rapport sur le concept de race*, Paris, Unesco (١١).
- HILL (P.). — 1963. *Migrant Cocoa-farmers in southern Ghana*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, XVI + 265 p. (٣).
- HINTZE (F.). — 1951. « Revue de l'essai comparatif sur le vocabulaire et la phonétique du chamito-sémitique de M. COHEN », *Z. Phon* 5, 65, 87 (١٠).
- 1955. « Die sprachliche Stellung des Meroitischen », *Deutsche Akademie der Wissenschaften Veröff*, 26 : 355-72 (١٢).
- HINTZE (F. et U.). — 1967. *Alte Kulturen im Sudan*, Munich, G.D.W. Callwey, 148 p. (٢٨).
- HIRTH (F.). — 1909-10. « Chinese notices of East African territories », *J.A.O.S.* 30 (٥).
- HISKETT (M.). — 1957. « Material relating to the state of learning among the Fulani before their jihad », *B.S.A.O.S.* 19 (٦).
- HJALMAR (L.). — 1962. « Die Merimdekeramik im Mittelmeermuseum », *Orientalia Suecana*, XI (٢٨).
- HOCKETT (Ch. F.) et ASCHER (R.). — 1964. « The Human Revolution », *C.A.* 5, 3 (٤).
- HODGE (C.T.). — 1968. « Afro-asiatic 67 » in *Language sciences, Indiana* (١٠).
- HODGKIN (Th.). — 1956. *Nationalism in colonial Africa*, Londres (٣).
- HODGKIN (Th.). — 1966. « The Islamic literary tradition in Ghana », I.M. LEWIS (dir.), *Islam in Tropical Africa*, Oxford (٦).
- HOFFMANN (I.). — 1967. *Die Kulturen des Nilstal von Aswan bis Sennar*, Hamburg (٢٨).
- HOHENBERGER (J.). — 1956. « Comparative Masai word list », *Africa*, 26 : 281-7 (٢٦) (١٢).
- HOLAS (B.). — 1950. « Notes préliminaires sur les fouilles de la grotte de Blandé », *B.I.F.A.N.* 12 : 999-1006 (٢٤).
- 1952. « Note complémentaire sur l'abri sous roche de Blandé (Guinée) », *B.I.F.A.N.* 14 : 1341-52 (٢٤).
- HOLAS (B.) et MAUNY (R.). — 1953. « Nouvelles fouilles à l'abri sous roche de Blandé (Guinée) », *B.I.F.A.N.* 15 : 1605-17 (٢٤).
- HOMBURGER (L.). — 1930. « Les dialectes copte et mandé », *B.S.L.* 3, 1 (المقدمة العامة)
- 1930. « Le bantou et le mandé », *B.S.L.* 135, 43 (المقدمة العامة)
- 1936. « Le verbe en peul et en massai », *Anthropologie* 46 (المقدمة العامة)
- 1941. *Les Langues négro-africaines et les peuples qui les parlent*, Paris, Payot, 350 p. (١٢) (المقدمة العامة).
- 1948-50. « Eléments dravidiens en peul », *J.S.A.* 18, 2 (المقدمة العامة)
- 1958. « La linguistique et l'histoire de l'Afrique », *B.I.F.A.N.* XX, 3, 4 : 554-61 (١٠).
- L'HONORE-NABER (S.L.). — 1931. *Reisebeschreibungen von deutschen Beamten und Kriegsleuten im Dienst der Niederländischen West und Ost indischen Kompanien 1602-1797*, La Haye, 13 vol. (٦).

- HOORE (J. D'). — 1964. *Carte des sols d'Afrique au 1:5 000 000 et mémoire explicatif*, Lagos, CCTA (١٣).
- HORTON (J.A.B.). — 1868. *West african countries and peoples... and a vindication of african race*, Londres (٦).
- HOUDAS (O.). *Documents arabes relatifs à l'histoire du Soudan*, Paris, Leroux (المقدمة العامة)
- HOUIS (M.). — 1955. « Problèmes linguistiques de l'Ouest africain », *Guide bleu de l'Afrique occidentale française*, Paris, Hachette (١١).
- 1958. « Quelques données de toponymie ouest-africaine », *B.I.F.A.N.*
- 1961. « Mouvements historiques et communautés linguistiques dans l'Ouest africain », *L'homme*, I, 3 : 72-92 (١١).
- 1971. *Anthropologie linguistique de l'Afrique noire*, Paris, P.U.F. (١١) (١٠) (المقدمة العامة).
- HOWELL (F.C.). — 1965. (The editors of Life) *Early man*, New York, Time Inc. 200 p. (١٩).
- 1969. « Remains of Hominid from Pliocene-Pleistocene Formations in the lower Omo Basin, Ethiopia », *Nature*, 223, 20 : 1234-9 (١٧).
- 1969. « Hominid teeth from White Sands and Brown Sands localities, lower Omo Basin, Ethiopia », *Quaternaria*, XI : 47-64 (١٧).
- HOWELL (F.C.), CÔPPENS (Y.) et HEINZELIN (J. DE). — 1974. « Inventory of Remains of Hominidae from Pliocene-Pleistocene. Formations of the lower Omo Basin, Ethiopia (1967-1972) », *A.J.P.A.* 40, 1 : 1-16 (١٧).
- HOWELLS (W.W.). — 1972. « 20 millions d'années pour faire un homme, les origines de l'homme », *le Courrier* 8-9 : 4-13 (الخاتمة).
- HRBEK (I.). — 1965. *Actes du XII<sup>e</sup> Congrès international des Sciences historiques*, t.V, Vienne, Horn Austria : Berger (٥).
- 1966. *Dejiny Afriky*, Prague, 2 vol. (المقدمة العامة)
- HUARD (P.). — 1960. « Contribution à l'étude anthropologique des Teda du Tibesti », *B.I.F.A.N.* B, XXII, 1-2 : 179-201 (٢٨).
- 1963. « Gravures rupestres de l'Ennedi et des Erdis », *B.I.R.S.C.*, 2 : 3-39 (٢٦).
- 1964. « Un établissement islamique tchadien ouogayi », *B.I.F.A.N.*, B, XXII, 1-2 (٢٨).
- 1966. « Introduction et diffusion du fer au Tchad », *J.A.H.* 7, 3 : 377-407 (٢٤).
- 1969. « Aires ou origines de quelques traits culturels des populations pré-islamiques du Bas Chari, Logone », *Actes 1<sup>re</sup> coll. Intern. Archéol. Afr.* : 179-224 (المقدمة العامة)
- HUARD (P.) et BECK (P.). — 1969. *Tibesti, carrefour de la préhistoire saharienne*, Paris (٢٦).
- HUARD (P.) et LECLANT (J.). — 1973. « Figurations de chasseurs anciens du Nil et du Sahara », *R.E.* 25 (٢٦).
- HUBERT (R.). — 1922. « Objets anciens de l'Afrique occidentale », *B.C.E.H.S.* 5 : 382-99 (٢٤).
- HUE (E.). — 1912. « L'Age de la pierre au Fouta Djallon », *B.S.P.F.* 2 (٢٤).

- HUGOT (H.J.). — 1955. « Du Capsien au Tidikelt », *Actes II<sup>e</sup> Congr. P.P.E.Q.* : 601-3 (٢٣).
- 1955. « Un gisement de pebble-tools à Aoulef », *Trav. I.R.S.* 13 : 131-49 (٢٣).
- 1957. « Essai sur les armatures de pointes de flèches du Sahara », *Libyca*, 5 : 89-236 (٢٤).
- 1962. *Documents scientifiques des missions Berliet-Ténéré-Tchad*, Paris, A.M.G. (٢٣).
- 1963. « Recherches préhistoriques dans l'Ahaggar nord-occidental 1950-1957 », *Mém. C.R.A.P.E.* (٢٤) (٢٣).
- 1964. « Etat des recherches préhistoriques dans l'Afrique de l'Ouest, 1964-1965 », *W.A.A.N.* 1 : 4-7 (٢٤).
- 1966. « Limites méridionales dans l'Atérien », *Actas V Congr. P.P.E.C.* (22) (٢٤).
- 1966. « Présence d'un faciès archaïque du Paléolithique inférieur à Dakar », *B.I.F.A.N.*, A, 28 : 415-6 (٢٤).
- 1970. *L'Afrique préhistorique*, Paris, Hatier, 128 p. (٢٣) (٢١).
- 1974. *Le Sahara avant le désert*, Paris, Les Hespérides (٢٦) (٢٥).
- HUGOT (H.J.) et al.. — 1973. *Tichitt I*, rapport scientifique (ronéo) (٢٣).
- HUGOT (H.J.) et BRUGGMANN (M.). — 1976. *Les gens du matin, Sahara, dix mille ans d'art et d'histoire*, Paris-Lausanne (٢٣).
- HUNTINGFORD (G.W.B.). — 1956. « The "Nilo-Hamitic" languages », *S.W.J.A.* 12 : 200-22 (١٢).
- HUNWICK (J.O.). — 1962. « Arabic manuscript material bearing on the history of the Western Sudan », Supplement, *B.N.H.S.N.* VII, 2 : 1-9 (١) (٥) (المقدمة العامة).
- 1973. « The mid-fourteenth century capital of Mali », *J.A.H.* 14, 2 (٢٤) (المقدمة العامة).
- HUZAYYIN (S.A.). — 1936. « Glacial and pluvial episodes of the diluvium of the old world », *Man*, 36 : 19-22 (٢٣).
- 1941. *The place of Egypt in prehistory*, Le Caire (٢٥).
- IAKIMOV (V.P.). — 1972. « Deux grandes théories sur l'apparition des races », *Le Courrier* (août-sept.), (الخاتمة).
- ILIFFE (J.). — 1969. *Tanganyika under german rule 1905-1912*, Cambridge, Camb. Univ. Press, XIII, 235 p. (٢).
- INSKEEP (R.R.). — 1969. « Some problems in relation to the Early Stone Age in South Africa », *S.A.R.B.* XXIV, 3-4 : 174-81 (٢٠).
- ISAAC (G.L.). — 1966. « The geological history of the Ologesailie area... », *Proc. 5<sup>th</sup> P.C.P.Q.S.* 2 : 125-44 (١١).
- 1971. « The diet of early man : Aspects of archaeological evidence from Lower and Middle Pleistocene sites in Africa », *W.A.* 2 : 278-98 (٢٠).
- (sous presse) « East Rudolf... », *Proc. 7<sup>th</sup> P.C.P.Q.S.*, 1977 (١٩).
- ISAAC (G.L.), LEAKEY (R.E.F.) et BEHRENSMEYER (A.K.). — 1971. « Archaeological traces of early hominid activities, east of Lake Rudolf, Kenya », *Science* 173 : 1129-34 (١٧).



- ISAAC (G.L.) et McCOWN (E.R.). — 1976. *Human origins : Louis Leakey and the East African evidence*, Los Angeles-Berkeley (١١).
- ISAAC (N.). — 1836. *Travels and adventures in Eastern Africa*, London, 2 vol. (١).
- ISKANDER (Z.). — 1960. « The scientific study and conservation of the objects and materials found in the discovery of the wooden Boat at Giza », *The Cheops Boats*, I<sup>re</sup> partie, Le Caire, Antiquities Department of Egypt (١).
- 1961. « Chemical identification of the samples found at the Monastery of Phoebanmon », C. Bachatly (éd.), *Le monastère de Phoebanmon dans la Thébaïde*, Le Caire, Société d'archéologie copte (١).
- ISKANDER (Z.) et SHAHEEN (A.E.). — 1964. « Temporary stuffing materials used in the process of mummification in Ancient Egypt », *A.S.A.E.* LVIII (١).
- ISNARD (H.). — 1964. *Géographie de l'Afrique tropicale*, Paris, P.U.F. (13).
- 1966. *Le Maghreb*, Paris, P.U.F., 272 p. (١٣).
- JABVU (D.T.). — 1920. *The black problem : papers and address on various native problems*, Lovedale (١).
- JACQUARD (A.). — 1974. « Distances généalogiques et distances génétiques », *C.A.E.H.* : 11 (١١).
- JANMART (J.). — 1953. « The Kalahari sands of the Lunda (N-E. Angola), their earlier redistribution and the Sangoen culture », *C.D.A.P.C.* 20 (٢١).
- JASON (H.). — 1959. « A multidimensional approach to oral literature », *C.A.* X, 5 : 413-26 (٧).
- JEFFREYS (M.D.W.). — 1963. « How ancient is West African maize ? » *Africa*, 33 : 115-31 (٢٤).
- JOHANSON (D.C.) et COPPENS (Y.). — 1976. « A preliminary anatomical diagnosis of the first Plio-Pleistocene hominid discoveries in the Central Afar, Ethiopia », *A.J.P.A.* 45, 2 : 217-34 (١٧).
- JOHANSON (D.C.) et TAIEB (M.). — 1976. « Pliocene hominid remains from Hadar, Central Afar, Ethiopia », *Actes IX Congr. U.I.S.P.P.* 120-37 (١٧).
- 1976. « Plio-Pleistocene hominid discoveries in Hadar, Ethiopia », *Nature*, 260, 5549 : 293-7 (١٧).
- JOHNSON (S.). — 1921. *The history of the Yoruba. From the earliest times to the beginning of the British protectorate*, Lagos C.M.S. (Nigeria) Bookshops, IX, 684 p. (١٠) (٣).
- JOHNSTON (H.H.). — 1919-22. *A comparative study of the Bantu and semi-bantu languages*, Oxford, Clarendon Press, 2 vol. (١٢).
- JOIRE (J.). — 1947. « Amas de coquillages du littoral sénégalais dans la banlieue de Saint-Louis », *B.I.F.A.N.* 9 : 170-340 (٢٤).
- JONES (D.H.). — 1949. *The prehistory of Southern Rhodesia*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (الخاتمة).
- 1958. « Report on the second conference of London on History and Archaeology in Africa », *Africa*, 28, 1 (الخاتمة).
- 1970. « Problems of african Chronology », *J.A.H.* XI, 2 : 161-76 (٧).
- JOUBERT (G.) et VAUFREY (R.). — 1941-46. « Le Néolithique du Ténéré », *L'Anthropologie*, 50, 3-4 : 325-30 (٢٣).

- JULIEN (Ch.-A.). — 1931. *Histoire de l'Afrique du Nord*, Paris, Payot, 2 vol. (المقدمة العامة) (٥).
- 1944. *Histoire de l'Afrique*, Paris, P.U.F. (المقدمة العامة)
- 1952. *L'Afrique du Nord en marche*, Paris, R. Julliard, 439 p. (٣).
- 1978. *Histoire de l'Afrique du Nord*, Paris, Payot, 372 p., 2 vol.
- JUNKER (H.). — 1929-40. « Vorläufiger Bericht über die Grabung der Akademie des Wissenschaften in Wien auf des neolithischen Siedlung von Merimde, Benisalame (Westdelta) », *Anzeiger des philo-hist. Klasse des Akademie des Wissenschaften in Wien*, XCI-XVIII : 156-248 ; V-XII : 21-82 ; I-IV : 82-6 ; XVI-XVIII : 53-97 ; X : 118-32 ; I-IV : 3-25 (٢٥) (٢٨).
- KABORE (V.). — 1962. Le caractère féodal du système politique mossi, *C.E.A.* : 609-23 (الخاتمة).
- KAGAME (A.). — 1970. *Introduction aux grands genres lyriques de l'ancien Rwanda*, Butare (٧).
- 1972. *Un abrégé de l'ethno-histoire du Rwanda*, Butare (٧).
- KAISER (W.). — 1977. « Zur inneren Chronologie des Nagadakultur », *A.G.* 6 (٢٨).
- KALK (P.). — 1972. « Pour une localisation du Royaume de Gaoga », *J.A.H.* XIII, 4 (المقدمة العامة)
- KAMARA (Ch.-M.). — 1970. « La vie d'El-Hadji Omar », *B.I.F.A.N.* B, 32 : 370-411 (٣).
- KARDINER (A.) et PREBLE (E.). — 1964. *Introduction à l'ethnologie*, Paris, Gallimard.
- KEES (H.). — 1961. *Ancient Egypt, a cultural topography*, Londres, Faber and Faber (٢٨).
- KELLER (C.M.). — 1970. « Montagu Cave : a preliminary report », *Quaternaria* XIII : 187-204 (٢٠).
- KENNEDY (R. A.). — 1960. « Necked and lugged axes in Nigeria », *Antiquity*, 34 : 54-8 (٢٤).
- KENSDALE (W.E.N.). *A catalogue of the arabic manuscripts preserved in the university library*, Ibadan (Nigeria) (٦) (٥) (المقدمة العامة)
- KENT (P.E.). — 1942. « Pleistocene climates in Kenya and Abissinia », *Nature*, 149 : 736-7 (٢١).
- KENT (R.K.). — 1970. *Early Kingdoms in Madagascar, 1500-1700*, New York, Holt Rinehart and Winston, XVI + 336 p. (٣).
- KESTELOOT (L.). — 1978. *Da Monzon de Ségou. Epopée Bambara*, Paris, F. Nathan, 2 vol. (الخاتمة)
- KHALIL (F.). — 1963. « La faune du continent africain : taxonomie, écologie et zoogéographie », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco, pp. 285-325 (١٣).
- KILHAM (H.). — 1828. *Specimens of African languages spoken in the colony of Sierra Leone*, Londres, XI + 69 p. (١٢).
- KIWANUKA (M.S.H.). — 1967. « Some reflections on the role of oral Tradition in the Writing of the pre-colonial history of Africa », *Acta Africana*, VI, 1 : 63-74 (٤).

- KI-ZERBO (J.). — 1964. *Le Monde africain noir*, Paris, Hatier (المقدمة العامة).  
 — 1957. Histoire et conscience nègre, *Présence africaine*, n° 16, pp. 53-69 (II). (المقدمة العامة)  
 — 1969. « La tradition orale en tant que source pour l'histoire africaine », *Diogenes*, 67 : 127-42 (المقدمة العامة)  
 — 1978. *Histoire de l'Afrique Noire*, 2<sup>e</sup> éd., Paris, Hatier (١٠) (المقدمة العامة) (٢٦).
- KLEIN (R.G.). — 1970. « Problems in the study of the Middle Stone Age of South Africa », *S.A.A.B.* XXV : 127-35 (٢٠).  
 — 1972. « Preliminary report of the July through September, 1970, Excavations at Nelson Bay Cave, Plettenberg Bay (Cape province, South Africa) », *Palaeoecology of Africa* 6 : 117-208 (٢٠).  
 — 1972. « The late Quaternary mammalian fauna of Nelson Bay Cave (Cape province South Africa) : its implication for Neofaunal extinctions and environmental and cultural changes », *Quaternary research*, 2, 2 : 135-42 (٢٠).
- KOECHLIN (J.). — 1963. « La flore du continent africain ; région du sud du Sahara », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco, 271-284 (١٣).
- KOELLE (S.W.). — 1963. *Polyglotta Africana, or a comparative vocabulary of nearly 300 words and phrases in more than 100 distinct African languages*, 2<sup>e</sup> éd., Graz (١٢) (١٠) (٦).
- KOELLE (S.W.) et GUTHRIE (M.). — 1970. *African language studies* XI (12).
- KOHLER (O.). — 1955. *Geschichte der Erforschung des nilotischen Sprachen*, Berlin (١٠).
- KOLB (P.). — 1719. *Vollständige Beschreibung des afrikanischen Vorgebirges der Guten Hoffnung*, Nürnberg (٦).
- KOLTHOFF (I.M.), SANDELL (E.B.), MEEHAN (E.J.) et BRUCKENSTEIN (S.). — 1969. *Quantitative chemical analysis*, 4<sup>e</sup> éd., New York, Mac Millan, XII + 1200 p. (٩).
- KOUYATE (N.). — 1969-1970. *Recherches sur la tradition orale au Mali (Pays Manding)*, mémoire de recherche, non édité, Alger, Université d'Alger (٨).
- KRZYZANIAK (L.). — 1972. « Preliminary report on the first season of excavations at Kadero, Sudan », *Trav. C.A.M.A.P.* (avril) (٢٥).  
 — 1977. « Early Farming Cultures on the Lower Nile », *Trav. C.A.M.A.P.* 21 (٢٨).
- KUBBEL (L.E.) et MATVEIEV (V.V.). — 1960 et 1965. *Sources arabes pour l'ethnographie et l'histoire des peuples d'Afrique au sud du Sahara (VII<sup>e</sup> au XII<sup>e</sup> siècle)*, Moscou, 2 vol. (٥) (٣) (المقدمة العامة)
- KUKLA (G.J.) et MATTHEWS (R.K.). — 1972. « When will the present interglacial end ? », *Science*, 178 : 190-191 (١٦).
- KUPTSOV (A.). — 1955. « Geographical distribution of cultivated flora and its historical development », *B.A.U.G.S.* 87 (٢٧).
- LAJOUX (J.D.). — 1977. *Tassili N'Ajjer*, Paris, Chêne (٢٦).

- LALL (B.B.). — 1967. *Indian archaeological expedition to Nubia*, 1962, Cairo, Antiq. Egypt. Serv. (٢٥).
- LAMB (H.H.). — 1974. « Remarks on the current climatic trend and its perspective », *W.M.O.*, 421 : 473-7 (١٦).
- LAMBERT (N.). — 1970. « Medinet Sbat et la Protohistoire de Mauritanie occidentale », *A.A.* 4 : 15-62 (٢٤).
- 1971. « Les industries sur cuivre dans l'Ouest africain », *W.A.J.A.* 1 : 9-21 (٢٤).
- LANFRANCHI (R.). — 1976. *Rapport des missions d'études et de recherches préhistoriques pour l'année scolaire 1975-76*, Brazzaville, Laboratoire d'anthropologie de l'Université de Brazzaville, 28 p. (٢١).
- LAROUI (Abd.). — 1970. *L'Histoire du Maghreb*, Paris, Maspero (٥).
- LASSORT (A.). « L'écriture guerzée », *C.R. 1<sup>re</sup> Conf. afr. Ouest*, Dakar, I.F.A.N. (المقدمة العامة).
- LAUDE (J.). — 1966. *Les Arts de l'Afrique noire*, Paris, Le Livre de poche (المقدمة العامة).
- LAUER (J.P.) et DEBONO (F.). — 1950. « Technique du façonnage des croissants de silex utilisés dans l'enceinte de Zozer à Saqqarah », *A.S.A.E.*, vol. L pp. 2 et sq. (٢٥).
- LAW (R.C.C.). — 1967. « Contacts between the Mediterranean civilizations and West Africa in pre-islamic times », *L.N.R.* 1, 1 : 52-62 (٢٤).
- 1971. « The constitutional troubles of Oyo », *J.A.H.* XII, 1 (المقدمة العامة).
- LAWSON (A.C.). — 1927. *The Valley of the Nile*, Univ. Calif. Chron., 29, 235-259 (١٦).
- LAYA (D.). — 1972. *La tradition orale : problématique et méthodologie des sources de l'histoire africaine*, Centre régional de documentation pour la tradition orale, Niamey (١٥) (٧).
- LEAKEY (L.S.B.). — 1936. *Stone Age Africa*, Oxford (١٩).
- 1949. « Tentative study of the Pleistocene climatic changes and Stone-Age culture sequence in North-Eastern Angola », *C.D.A.P.C.* 4, 82 p. (٢١).
- 1950. « The lower limits of the Pleistocene in Africa », *Report on the XVIII<sup>th</sup> international geology Congress* (Londres, 1948), 9 : 62-5 (٢٤).
- 1952. *Proceedings of the Panafrikan Congress on Prehistory*, Oxford, Blackwell, VIII + 239 p. (٢٤).
- 1965. *Olduvai Gorge — 1951-1961 — Fauna and Background*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, 118 p. (١٧).
- 1971. *Stone Age Cultures of Kenya Colony* ; Cass, Londres (١٩).
- LEAKEY (L.S.B.), LEAKEY (M.D.) et al. — 1965-71. *Olduvai Gorge*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, Vol. I-III (٢٠) (١٩) (١٨).
- LEAKEY (M.D.). — 1970. « Early artefacts from the Koobi Fora area », *Nature*, 226 : 228-30 (٢٤) (١٧).
- 1971. *Olduvai Gorge, excavations in beds I and II — 1960-1963*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, 306 p. (١٧).
- LEAKEY (M.D.), HAY (R.L.), CURTIS (G.H.), DRAKE (R.E.), JACKES (M.K.) et WHITE (T.D.). — 1976. « Fossil Hominids from the Laetolil beds », *Nature*, 262 : 460-6 (١٧).

- LEAKEY (R.E.F.). — 1970. « New hominid remains and early artefacts from northern Kenya », *Nature* 226 : 223-4 (١٧).
- 1971. « Further evidence of lower Pleistocene hominids from East Rudolf, North Kenya », *Nature* 231 : 241-5 (١٧).
- 1972. « Further evidence of lower Pleistocene hominids from East Rudolf, North Kenya 1971 », *Nature* 237 : 264-9 (١٧).
- 1973. « Evidence for an advanced Plio-Pleistocene hominid from East Rudolf, Kenya », *Nature* 242 : 447-50 (٢٤) (١٧).
- 1973. « Further evidence of lower Pleistocene hominids from East Rudolf, North Kenya, 1972 », *Nature* 242 : 170-3 (١٨) (١٧).
- 1973. « Skull 1470 », *Natural Geographic*, 143 : 818-29 (١٨) (١٧).
- 1974. « Further evidence of Lower Pleistocene hominids from East Rudolf, North Kenya, 1973 », *Nature* 248 : 653-6 (١٨) (١٧).
- LEAKEY (R.E.F.), BUTZER (K.W.) et DAY (M.H.). — 1969. « Early Homo Sapiens remains from the Omo River Region of South-West Ethiopia », *Nature*, 222, 5199 : 1137-43 (١٧).
- LEAKEY (R.E.F.) et ISAAC (G.L.). — 1972. « Hominid fossils from the area east of Lake Rudolf, Kenya : photographs and a commentary on context », S.L. WASCHBURB and P. DOLHINOW (éd.) *Perspectives on human evolution*, San Francisco, Holt Rinehart and Winston, 129-40 (١٨) (١٧).
- LEAKEY (R.E.F.), MUNGAI (J.M.) et WALKER (A.C.). — 1971. « New australopithecines from East Rudolf, Kenya », *A.J.P.A.* 35 : 175-86 (١٧).
- 1972. « New australopithecines from East Rudolf, Kenya, II », *A.J.P.A.* 36 : 235-51 (١٧).
- LEAKEY (R.E.F.) et WALKER (A.C.). — 1973. « New australopithecines from East Rudolf, Kenya, III », *A.J.P.A.* 39 : 205-22 (١٧).
- LEAKEY (R.E.F.) et WOOD (B.A.). — 1973. « New evidence for the genus Homo from East Rudolf, Kenya, II », *A.J.P.A.* 39 : 355-68 (١٧).
- 1974. « A hominid mandible from East Rudolf, Kenya », *A.J.P.A.* 41 : 245-50 (١٧).
- 1974. « New evidence for the genus Homo from East Rudolf, Kenya, IV », *A.J.P.A.* 41 : 237-44 (١٧).
- LEBEUF (J.P.). — 1956. « La civilisation du Tchad », *Proc III Internat. W.A.C.* : 293-6 (٢٤).
- 1962. *Archéologie tchadienne*, Paris, Hermann (٢٤).
- 1962. « Caractères particuliers de la recherche historique en Afrique », *Revue de psychologie des peuples* (١٥).
- 1969. « Essai de chronologie saô », *Actes I<sup>re</sup> coll. intern. Archéol. afr.* : 234-41 (٢٤).
- 1969. *Carte archéologique des abords du lac Tchad*, Paris, C.N.R.S., p. 171 + cartes (٢٤).
- LECLANT (J.). — 1956. « Le Fer dans l'Egypte ancienne, le Soudan et l'Afrique », *Actes Coll. Intern. Fer* : 83-91 (٢٨).
- LEE (D.N.) et WOODHOUSE (H.C.). — 1970. *Art on the rocks drawing by Marion Didcott Purnell*, Cape Town - Londres (٢٦).

- LEE (R.B.). — 1966. « The kung bushman subsistence : an input/output analysis », D. DAMAS, éd., « Ecological essays », *Proc. Conf. Cult. Ecol.* 230 (٢٧).
- LEE (R.B.) et DEVORE (I.) éd. — 1968. *Man the Hunter*, Chicago (١٩).
- LEFEBVRE (G.). — 1949. *Romans et contes égyptiens de l'époque pharaonique*, Paris (٢٨).
- LEFEVRE (H.). — 1974. *La Production de l'espace*, Paris, Anthropos (١٥).
- LE GROS-CLARK (W.E.). — 1972. *The fossil evidence for human evolution*, 2<sup>e</sup> éd., Chicago, University of Chicago Press, 201 p. (١٨).
- LEIRIS (M.) et DELANGE (J.). — 1967. *Afrique noire, la création plastique*, Paris, Gallimard (المقدمة العامة).
- LENZ (O.). — 1884. *Timbaktu*, Leipzig, 2 vol. (٢٣).
- LEPSIUS (C.R.). — 1863. *Standard alphabet*, Londres, Williams and Norgate, XVIII + 315 p. (١٢).
- 1888. *Nubische Grammatik*, Berlin, 506 p. (١٢)(١٠).
- LEROI-GOURHAN (A.). — 1943. *Evolution et techniques*, vol. I : « L'homme et la matière », Paris, Albin-Michel (الخاتمة).
- 1945. *Evolution et techniques*, vol. II : « Milieu et techniques », Paris, Albin-Michel (الخاتمة).
- 1969. *Sur le « mode de production asiatique »*, Paris, Editions sociales (الخاتمة).
- 1974. « Analyses polliniques, préhistoire et variations climatiques quaternaires », in « Les méthodes quantitatives d'étude des variations du climat au cours du Pléistocène », *Colloques internationaux du C.N.R.S.*, 219 : 61-6.
- LEROY (P.). — 1953. « La préhistoire à Brazzaville et dans le Moyen Congo », *Liaison*, 31 : 39-43 (٢١).
- LESLAU (W.). — 1949. « Revue d'essai comparatif sur le vocabulaire et la phonétique du chamito-sémitique », *L.G.* 25 (١١).
- 1963. *Etymological dictionary of Harari*, Los Angeles, Berkeley, Univ. California Press (١١).
- LE TOURNEAU (R.). — 1954. « Les archives musulmanes en Afrique du Nord », *Archivum*, 4.
- LEVAILLANT (G.). — 1970. *Travels from the Cape of Good Hope into the interior parts of Africa*, Londres (٦).
- LEVI-PROVENCAL (E.). — 1922. *Les Historiens des Chorfa, essai sur la littérature historique et biographique du Maroc du XVI<sup>e</sup> au XX<sup>e</sup> siècle*, Paris (٦).
- LEVIZION (N.). — 1968. « Ihn-Hawqal, the Cheque and Awdaghost », *J.A.H.*, 9, 2 : 223-33 (٢٤).
- 1971. « The early states of the Western Sudan to 1500 », J.F.A. AJAYI et M. CROWDER (éd.), *History of West Africa*, London, Longman, I : 120-37 (٢٤).
- LEWICKI (T.). — 1961. « Les historiens biographes et traditionalistes des Ibadites », *Folia orientalia*, 3, Cracovie (٦).
- 1971. « The Ibadites in Arabia and Africa », *C.H.M.* XII, 1 : 51-130 (٥).

- LEWIN (S.Z.). — 1968. « The conservation of limestone objects and structures », *Study of Weathering of Stones*, ICOMOS, vol. I, pp. 41-50, Paris (١).
- LHOTE (H.). — 1958. *A la découverte des fresques du Tassili*, Paris, Arthaud (٢٣).
- 1966. « La route des chars de guerre libyens, Tripoli-Gao », *Archeologia*, 9 : 28-35 (٢٤).
- 1970. « Les gravures rupestres du Sud oranais », *M.C.R.A.P.E.* XVI, 208 p. (٢٢).
- 1976. *Vers d'autres Tassili*, Paris, Arthaud (٢٦).
- LHOTE (H.) et KELLEY (H.). — 1936. « Gisement acheuléen de l'Erg d'Admer (Tassili des Ajers) », *J.S.A.*, 6 : 217-26 (٢٣).
- LIBBY (W.F.). — 1955. *Radiocarbon dating*, 2<sup>e</sup> éd., Chicago, Chicago Univ. Press (٢٨).
- 1970. « Radiocarbon dating », *P.T.R.S.*, Londres, vol. A. 269, n° 1193 (١).
- LIBRA. — 1963. « I Cinesi e l'Africa orientale », *Africa*, 18 (٥).
- LICHTENSTEIN (H.). — 1811-12. *Reisen in südlichen Afrika in den Jahren 1803, 1804, 1805, und 1806*, Berlin, C. Sulfeld, 2 vol. (١٢) (٦).
- LINARES de SAPIR (O.). — 1971. « Shell Middens of lower Casamance and problems of Diola Protohistory », *W.A.J.A.* 1 : 23-54 (٢٤).
- LININGTON (R.E.). — 1970. « Techniques used in archaeological field surveys », *P.T.R.S.*, Londres, vol. A. 269, n° 1193 (١).
- LIVINGSTONE (D.). — 1937. *Missionary travels and researches in South Africa*, Londres (٦).
- 1967. « Postglacial vegetation of the Ruwenzori mountain in Equatorial Africa », *Ecol. Monogr.* (١٦).
- LIVINGSTONE (F.B.). — 1958. « Anthropological implications of sickle cell gene distribution in West Africa », *A.A.* 60, 3 : 533-62 (٢٤).
- LO (A.). — 1934. « Bindoum Cholofol ti arab toubab », Saint-Louis (١١).
- LOMBARD (J.). — 1935. « Quelques remarques sur le Quaternaire de l'Afrique tropicale équatoriale », *J.S.A.* V : 175-80 (٢١).
- LOVEJOY (P.E.). — 1979. *Indigenous African Slavery*, Slave studies conference, Univ. of Waterloo, Ontario.
- LUCAS (A.). — 1962. *Ancient Egyptian materials and industries*, 4<sup>e</sup> éd., revised & enlarged by J.R. HARRIS, Londres, E. Arnold (٢٨) (١).
- LUCAS (C.P. Sir). — 1887-1923. *Historical geography of the British colonies*, 15 vol. (١).
- LUCAS (J.O.). — 1938. « Der hamitische Gehalt der Tschadchamistischen Sprachen », *Z.E.S.* 28 : 286-99 (١٢).
- 1948. *The Religion of the Yoruba in relation to the religion of Ancient Egypt*, Lagos, C.M.S. Bookshop, XII + 420 (٢٤).
- LUCAS (S.A.). — 1967. *L'Etat traditionnel luba*, deuxième partie, « Mythe et structure politique luba — Problèmes sociaux congolais », 79, pp. 93-116, Kinshasa (٧).
- LUDOLF (H.). — 1681. *Historia Aethiopica*, Francfort (٦).

- LUKAS (J.). — 1936. « The linguistic situation in the lake Chad area of Central Africa », *Africa*, 9 : 332-49 (١٠).
- LYNCH (H.R.). — 1967. *Edward Wilmot Blyden, pan-negro patriot, 1832-1912*, London (١).
- MACAULAY (Th. B.). — 1971. « Minute on Indian Education of February 2, 1835 », Ph. D. CURTIN (éd.) *Imperialism*, New York, Walker, 13 p. (٣).
- MAC BURNEY (C.D.M.). — 1967. *The Haua Fteah (Cyrenaica) and the stone age of south east Mediterranean*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (٢٤).
- MAC BURNEY (C.D.M.) et HEY (R.W.). — 1955. *Prehistory and Pleistocene geology in Cyrenaican Libya*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (٢٣).
- MAC CALL (F.D.). — 1969. *Africa in time's perspective*, New York, Oxford Univ. Press (١٥) (المقدمة العامة).
- MAC GAFFEY (W.). — 1974. « Oral Tradition in Central Africa », *I.J.A.H.S.* VII : 417-26 (٨).
- MACGREGOR (J.K.). — 1909. « Some notes on Nsibidi », *J.R.A.I.*, vol. 39, pp. 215, 217, 219 (١٠).
- MACIVER (D.R.) et MACE (A.C.). — 1902. *El-Amrah and Abydos, 1899-1901*, Londres (٢٨).
- MAC NEISH (R.S.). — 1964. « Ancient mesoamerican civilisation », *Science*, 143 (٢٧).
- MAES (E.). — 1924. « Notes sur les pierres taillées de Tundidarou », *B.C.E.H.S.* 31-8.
- MAHABAVA (J.). — 1922. *The color bar in South Africa*, Lovedale (١).
- MAITRE (J.-P.). — 1971. « Contribution à la préhistoire de l'Ahaggar, I, Tefedest central », *M.C.R.A.P.E.* XVII, 225 p. (٢٣).
- MALCOM X. — 1967. *On Afro American history*, New York, Merit. Publishers (المقدمة العامة).
- MALEY (J.). — 1973. « Mécanisme des changements climatiques aux basses latitudes », *P.P.P.* 14 : 193-227 (١٦).
- MALOWIST (M.). — 1969. *L'Europe et l'Afrique au commencement de l'Exposition coloniale*, Varsovie (المقدمة العامة).
- MANESSY (G.). — 1971. « Les langues Gurma », *B.I.F.A.N.* (١٠).
- MANSO (P.). — 1877. *Historia da Congo*, Documentos, Lisbonne (١).
- MANTRAN (R.). — 1965. *Inventaire des documents turcs en Tunisie*, Paris (١).
- MAQUET (J.-J.). — 1961. « Une hypothèse pour l'étude des féodalités africaines », *C.E.A.* 6, 11 : 292-314 (١٥).
- 1970. *Pouvoir et société en Afrique*, Paris, Hachette (الختامة).
- MARET (P. DE). — A paraître. « Premières datations pour des haches polies associées à la céramique au Bas-Zaïre », *Actes IX' Congr. U.I.S.P.P.* A paraître. « Bribes, débris et bricolage », *Coll. C.N.R.S., l'Expansion bantu*, Actes, 1977 (٢١).
- MARET (P. DE), NOTEN (F. VAN) et CAHEN (D.). — 1977; « Radiocarbon dates from Central Africa : a synthesis », *J.A.H.*, XXVIII, 4 (٢١).



- MARIN (Ph.). — 1972. « Classification formelle automatique et industries lithiques. Interprétation des hachereaux de la Kamoa », *A.M.R.A.C.* 76 (٢١).
- MARIN (Ph.) et MOEYERSONS (J.). — 1977. « Subsurface movements of stone artefacts and their implications for the prehistory of Central Africa », *Nature*, 266, 5605 : 812-5 (٢١).
- MARIN (Ph.) et MORTELMANS (G.). — 1973. « Un site tshitoliien sur le plateau des Bateke (République du Zaïre) », *A.M.R.A.C.* 81, 46 p. (٢١).
- MARLIAC (A.). — 1973. « Prospection archéologique au Cameroun », *C.O.R.S.T.O.M.* X : 47-114 (٢١).
- MARROU. — 1954. *De la connaissance historique*, Paris, Seuil (٥) (المقدمة العامة) (٦).
- MARTIN (B.G.). — 1969. « Mai Idris of Bornu and the Ottoman Turks, 1576-78 », S.M. STERN (éd.), *Documents from islamic chanceries II*, Oxford (٦) (٥) (المقدمة العامة) (٦).
- MARTIN (D.) et YANNOPOULOS (T.). — 1973. *Guide de recherches. L'Afrique noire*, Paris, A. Colin, 195 p. (١٥).
- MARTIN DEL MOLINO (A.). — 1963. « Secuencia cultural en el Neolitico de Fernando Poo », *Trabajos de prehistoria, Seminario de historia primitiva del hombre de la universidad de Madrid*, vol. XVII (٢٤) (٢١).
- MARTINS (R.). — 1976. « A estação arqueológica da antiga Banza Quibaxe », *Contribuções para o estudo da anthropologia portuguesa*, Coimbra, IX, 4 : 242-306 (٢١).
- MARTY (P.). — 1927. *Les Chroniques de Oualata et de Nema*, Paris, Geuthner (٦).
- MARX (K.). — éd. 1972. *Contribution à la critique de l'économie politique*, Paris, Editions sociales (الخاتمة).
- MARX (K.) et ENGELS (F.). — éd. 1952. *Formen*, Berlin, Dietz Verlag (الخاتمة).
- éd. 1968. *L'Ideologie allemande*, Paris, Editions sociales (الخاتمة).
- MASON (R.J.). — 1962. *The Prehistory of the Transvaal*, Witwatersrand University Press, Johannesburg (٢٠).
- MASSAQUOI (M.). — 1911. « The Vaï people and their syllabic writing », *J.A.S.* : 10-40 (المقدمة العامة) (٢١).
- MASSOULARD (E.). — 1949. « Préhistoire et Protohistoire d'Egypte », *T.M.I.E.* III (٢٨).
- MATHEUS (A. DE). — 1952. « Nota preliminar Acerca da Estação Prehistórica de Nhampasseré », *C.R.C.I.A.O.* IV : 375-86.
- MAUNY (R.). — 1947. « Une route préhistorique à travers le Sahara », *B.I.F.A.N.* 9 : 341-57 (٢٤).
- 1951. « Un âge de cuivre au Sahara Occidental ? », *B.I.F.A.N.* 13, 1 : 168-80 (٢٤).
- 1952. « Essai sur l'histoire des métaux en Afrique occidentale », *B.I.F.A.N.* 14 : 545-95 (٢٤).
- 1952. *Glossaire des expressions et termes locaux employés dans l'Ouest africain*, Dakar, I.F.A.N. (١٠).

- 1955. « Contribution à l'étude du Paléolithique de Mauritanie », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 461-79 (٢٤).
- 1955. « Les gisements néolithiques de Karkarichinkat », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 616-9 (٢٤).
- 1957. « Buttes artificielles de coquillages de Joal-Fadioute », *N.A.* 7, 75 : 73-8 (٢٤).
- 1960. « Reviews of Cheikh Anta Diop's "Nations nègres et culture" and "l'Afrique Noire précoloniale" », *B.I.F.A.N.* B, 22 : 544-5 (24).
- 1961. *Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen Age, d'après les sources écrites, la tradition orale et l'archéologie*, Dakar, I.F.A.N. 587 p. (٢٦) (٢٥) (٢٤) (٥).
- 1963. « Contribution à la préhistoire et la protohistoire de la région de Kédougou (Sénégal oriental) », *B.S.A.* 5, 11 : 113-22 (٢٤).
- 1968. « Commentaires sur "West Africa before the Europeans" par Olivier Davies », *B.I.F.A.N.* B, 30 : 1283-4 (٢٤).
- 1970. « Le périple d'Hannon, un faux célèbre concernant les navigations antiques », *Archéologia*, 37 : 78-80 (٢٤).
- 1970. *Les Siècles obscurs de l'Afrique noire*, Paris, Fayard (٢٤) (٥).
- 1973. « Datation au carbone 14 d'amas de coquillages des lagunes de Basse Côte-d'Ivoire », *W.A.J.A.* 3 : 207-14 (٢٤).
- MAUNY (R.) et HALLEMANS (J.). — 1957. « Préhistoire et Protohistoire de la région d'Akjoujt (Mauritanie) », *Proc. III P.C.P.Q.S.* 248-61 (٢٤).
- MAZRUI (A.A.). — 1969. *European exploration and Africa's self discovery*, *J.M.A.S.S.* 7, 4 (٦).
- MAZRUI (S.A.). — 1944. *Tarikh al-Mazari*, Arabic MS in photostat in the possession of G.S.P. Freeman-Grenville (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- MBITI (J.). — 1967. « Afrikaanse begrippen van tijd, geschiedenis en de dood », *Africa*, 21, 3 : 78-75 (٧).
- MEEK (Ch.). — 1931. *Tribal studies in Northern Nigeria*, Londres, 2 vol. (١٠).
- MEILLASSOUX (C.). — 1972. « L'itinéraire d'Ibn Battuta de Walata à Mali », *J.A.H.* 13, 3 : 389-95 (٢٤).
- éd. 1975. *L'Esclavage en Afrique précoloniale*, Paris, Maspero, 17 études (المختارة).
- 1975. *Femmes, greniers et capitaux*, Paris, Maspero.
- 1977. *Terrains et théories*, Paris, Anthropos.
- MEINHOF (C.). — 1904. *Linguistische Studien in Ost Africa*, M.S.O.S. (١٠).
- 1906. *Grundzüge einer vergleichenden Grammatik der Bantu-sprachen*, Berlin (١٠).
- 1912. *Die Sprachen der Hamiten*, Hamburg, XV + 256 p. (١٩) (١٢) (١٠).
- 1919-20. « Afrikanische Wörter in Orientalischer Litteratur », *Z.E.S.* 10 : 147-52 (١٢).
- 1932. *An Introduction to the phonology of the Bantu languages*, Berlin (١٠) (المقدمة العامة).

المكتنسي (أ) — ١٩٥٣. «أصول وببليوغرافيات التاريخ المغربي من القرن السادس عشر الى النصف الاول من القرن العشرين، الرباط (٦).

- MENGHIN (O.) et AMER (M.). — 1932 et 1936. *The excavations of the egyptian university in the neolithic site at Maadi, first and second preliminary reports*, Le Caire (٢٥).
- MERCIER (P.). — 1966. *Histoire de l'anthropologie*, Paris (المقدمة العامة)
- MERIVALE (H.). — 1861. *Lectures on colonization and colonies*, Oxford (١).
- METCALFE (G.E.). — 1964. « Great Britain and Ghana », *Documents on Ghana history, 1867-1957*, University of Ghana, Londres, Th. Nelson and Sons (٦).
- MICHAEL (H.N.) et RALPH (E.K.). — 1970. « Correction factors applied to egyptian radiocarbon dates from the era before Christ », *Nobell Symposium 12* : 109-20 (٦).
- MIGEOD (F.W.). — 1911. *The Languages of West Africa*, Londres (١٠).
- MILLER (J.). — 1976. *Kings and Kinsmen : Early Mbundu States in Angola*, Oxford (٨).
- MILLER (S.). — 1972. « A new look at the Tshitolian », *Africa-Tervuren*, XVIII, 3-4 : 86-9 (٢١).
- MINETTE DE SAINT-MARTIN. — 1914. « Note sur une collection préhistorique saharienne », *Revue africaine* (٢٣).
- MIQUEL (A.). — 1977. *La Géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XI<sup>e</sup> siècle*, Paris-La Haye, 2 vol. (٥).
- MISCHLISH (A.) et LIPPERT (J.). — 1903. *Beiträge zur Geschichte der Haussastaaten*, Berlin (٦) (٥) (المقدمة العامة)
- MOEYERSONS (J.). — 1975. « Evolution paléogéographique du site de la Kamon », *A.M.R.A.C.* 84 : 18-46 (٢١).
- 1977. « The behaviour of stones and stone implements buried in consolidating and creeping Kalahari Sands », *Earth Surface Processes*, Leeds.
- MOFFAT (R.). — 1842. *Missionary labours and scenes in Southern Africa*, Londres (٦).
- 1945. *Matabele journal 1829-1860*, Londres (٦).
- MOHAMMADOU (A. et F.). — 1971. « Un nouveau manuscrit arabe sur l'histoire du Mandara », *Revue camerounaise d'histoire*, 1 (المقدمة العامة).
- غشتار (ح) وهيموروني (أ) — ١٩٦٥ — ١٩٦٦. « جدول مؤقت للمخطوطات الموريتانية العربية المحفوظة بموريتانيا » نواكشوط — ستوكهولم (المقدمة العامة) (٥) (٦).
- MOLENA (S.M.). — 1920. *The Bantu, past and present*, Edimbourg (٦).
- MONIOT (H.). — 1962. *Pour une histoire de l'Afrique noire*, *Annales*, 1 (١٥).
- 1965. « Les sources orales dans le problème des sources de l'histoire de l'Afrique noire jusqu'à la colonisation européenne », *Rap. 12<sup>e</sup> C.I.S.H.* II : 198-208 (١٥).
- MONOD (Th.). — 1932. « L'Adrar Ahnet. Contribution à l'étude d'un district saharien », *T.M.I.E.* 19, 200 p. (٢٣).
- 1939. *Contribution à l'étude du Sahara occidental*, Paris, Larose (الخاتمة).
- 1945. « La structure du Sahara atlantique », *Trav. I.R.S.*, 3 : 27-55 (٢٣).
- 1957. « Découverte de nouveaux instruments en os dans l'Ouest africain », *Proc. III P.C.P.Q.S.* : 242-7 (٢٤).

- 1958. *Majabat al-Koubra. Contribution à l'étude de « l'empty quarter » ouest saharien*, Mém. I.F.A.N., 52 ; 406 p. (الخاتمة) (٢٣)
- 1963. « The Late Tertiary and Pleistocene in the Saharan and adjacent southerly regions », F.C. HOWELL et F. BOURLIÈRE (éd.), *African ecology and human evolution*, New York, Viking Fund Publications in Anthropology, 36 (٢٣) (١٦) .
- 1969. « Le "Macden Ijafen" » : une épave caravanière ancienne dans la Majabat al-Koubra », *Actes I<sup>re</sup> Coll. Intern. Archéol. Afr.* : 286-320 (٢٤) .
- MONOD (Th.) et MAUNY (R.). — 1957. « Découverte de nouveaux instruments en os dans l'Ouest africain », *Proc. III P.C.P.Q.S.* (٢٤) .
- MONTEIL (V.). — 1965. « Les manuscrits historiques arabo-africains », *B.I.F.A.N.*, B. XXXVII (٦) (المقدمة العامة) .
- MONTFRANS (H.M. VAN). — 1971. *Palaeomagnetic dating in the North Sea Basin*, Rotterdam, Prince N.V. (١٦) .
- MOODIE (D.). — 1960. *The record or a series of official papers relative to the conditions and treatment of the native tribes of South Africa*, Amsterdam (٦) .
- MOORSEL (H. VAN). — 1959. *Esquisse préhistorique de Léopoldville*, Léopoldville, musée de la Vie indigène (الخاتمة) .
- 1968. *Atlas de préhistoire de la plaine de Kinshasa*, Kinshasa, Pub. Univ. Lovanium, 288 p. (٢١) .
- MORE (B.). — 1969. « Contribution du Liberia à la science de la communication par écrit », *Symposium du Festival Panafricain d'Alger* (المقدمة العامة) .
- MOREAU (R.E.). — 1963. « Vicissitudes of the African Biomas in the late Pleistocene », *Proceedings of the zoological Society of London*, 141 : 395-421.
- MOREL (J.). — 1953. « Le capsien du Kahnguet el Mouhaâd », *Libyca*, I : 103-19 (٢٢) .
- MORENO (M.). — 1940. *Manuale di Sidamo*, Roma (١٠) .
- MORET (A.). — 1931. *Histoire de l'Orient*, Paris, Coll. Glotz (الخاتمة) .
- MORGAN (E.). — 1973. *La Fin du surmâle*, Paris, Calman-Lévy (الخاتمة) .
- MORGAN (W.B.) et PUGH (J.C.). — 1969. *West Africa*, Londres, 188 p. (١٤) .
- MORI (F.). — 1965. *Tadrart Acacus. Arte rupestre e culture del Sahara preistorico*, Turin, Einaudi, 260 p. (٢٤) (٢٣) .
- MORITZ (B.). — 1892. *Sammlung arabischer Schriftstücke aus Zanzibar und Oman mit einem Glossar*, Stuttgart-Berlin (٦) (٥) (المقدمة العامة) .
- MORNER (N.A.). — 1973. « Climatic changes during the last 35.000 years as indicated by land, sea, and air data », *Boreas*, 2 : 33-53 (١٦) .
- 1975. « Eustatic amplitude variations and world glacial changes », *Geology*, 3 : 109-10 (١٦) .
- MORRISON (R.B.) et WRIGHT (H.E.J.). — éd. 1968. « Means of correlation of Quaternary successions », *Proc. VII Congr. I.N.Q.U.A.*, 8 (١٦) .
- MORTELMANS (G.). — 1952. « Les dessins rupestres gravés, ponctues et peints du Katanga. Essai de synthèse », *A.M.R.C.B.* : 33-55 (٢١) .

- 1952. *Contribution à l'étude des cultures pré-abbeyliennes à galets taillés du Katanga : le site Mulundwa*, 1, Bruxelles, Publications de la Soc. Roy. Belge d'anthrop. et de préhist. (٢١).
- 1952. « Les industries à galets taillés (Pebble Culture) du Katanga », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 295-8 (٢١).
- 1953. « La Pebble Culture africaine, source des civilisations de la pierre », *B.S.R.B.A.P. LXV* (٢١).
- 1953. « Vue d'ensemble sur le quaternaire du bassin du Congo », *Actes III Congr. U.I.S.P.P.* : 114-26 (٢١).
- 1957. « Le Cénozoïque du Congo belge », *Proc. III P.C.P.Q.S.* : 23-50 (٢١).
- 1957. « La préhistoire du Congo belge », Bruxelles, *Revue de l'Université de Bruxelles*, 54 p. (٢١).
- 1957. « The Early Pebble Culture of Katanga », *Proc. III P.C.P.Q.S.* : 214-6 (٢١).
- 1959. « Histoire et protohistoire du Bas-Congo belge, une esquisse », *Volume de Homenagem ao Prof. Doutor Mendes Corrêa*, Porto, Soc. Port. Anthrop. Ethno : 329-44 (٢١).
- 1962. « Vue d'ensemble sur la Préhistoire du Congo occidental », *Actes IV<sup>e</sup> Congr. P.P.E.Q.* : 129-64 (٢١).
- MORTELMANS (G.) et MONTEYNE (R.). — 1962. « Le Quaternaire du Congo occidental et sa chronologie », *Actes III Congr. P.P.E.Q.* : 97-132 (٢١).
- MOSCATI (S.). — 1964. *An introduction to the comparative grammar of the semitic languages*, Wiesbaden (١٠).
- MUKAROVSKY (H.G.). — 1966. « ÜBER die Stellung der Mandesprachen », *Anthropos*, 61 : 679-88 (١٢).
- MULLER (D.K.). — 1923. *Geschichte der ersten Hottentotenmission 1737-1744*, Herrnhut (٦).
- MULLER (F.). — 1863. *Die Musiksprache in Zentral Africa*, Wien (١٠).
- 1867. *Reise der österreichischen Fregate « Novara » um die Erde in den Jahren 1857, 1858, 1859. Linguistischer Teil*, Wien, Staatsdruckerei (١٢).
- 1876-1884. *Grundrisse der Sprachwissenschaft*, Wien. A. Holder, 4 vol. (١٢).
- MUNSON (P.). — 1968. « Recent archaeological research in the Dhar Tichitt region of South-Central Mauretania », *W.A.A.N.*, 10 : 6-13 (٢٤)(٢٣).
- 1970. « Corrections and additional comments concerning the "Tichitt Tradition" », *W.A.A.N.*, 12 : 47-8 (٢٤).
- MURDOCK (G.P.). — 1959. *Africa. Its peoples and their culture history*, New York, McGraw-Hill Book Company, XIII + 456 p. (١٠)(٣) (المقدمة العامة) (١٢).
- MURRAY (G.W.). — 1920. « The Nilotic languages, a comparative essay », *J.R.A.I.* (١٠).
- المرشدي (حميد بن الحسن بن حميد بافجين) — ١٩٣٧ تاريخ واليس للامو (المقدمة العامة) (٥) (٦).
- MUZUE (A.) et NOSEK (E.). — 1974. « Metal examination of iron objects from Niani », *A.A.T.A.*, 11, 1 (٩).

- YINT (H.). — 1964. *The economics of the developing countries*, Londres, Hutchinson, 192 p. (٣).
- ATIONAL ACADEMY OF SCIENCES. — 1975. *Understanding climatic change. A program for action*, United Committee for the global atmospheric research program, 239 p. (١٦).
- EL MASATOSHI et ROY COUDHURY (A.R.). — 1974. « Genetic variation within and between the three major races of man », *A.J.H.G.* 26 (١١)(١٠).
- ENQUIN (J.). — 1957-58. « Opgravningen te Sanga » (Fouilles à Sanga), *Gentse Bijdragen tot de Kunstgeschiedenis en de Oudheidkunde*, XVIII : 289-311 (٢١).
1967. « Contribution to the Study of the Prehistoric Cultures of Rwanda and Burundi », *A.M.R.A.C.* 59 (٢١)(١٩).
- Inventaria archeologica africana*, Tervuren (الخاتمة)
- EWBURY (C.W.). — 1965. *British policy towards west Africa. Select documents, 1786-1894*, Oxford (٦).
- SWMAN (P.) et MA (R.). — 1964. « Comparative chadic : phonology and lexicon », *J.A.L.*, 5, 3 : 218-51 (١٢)(١٠).
- ANE (D.T.). — 1960. « Recherches sur l'Empire du Mali », *Etudes africaines*, Conakry (٧).
1960. *Soundjata ou l'Épopée mandingue*, Paris, Prés. afr. (٧)(٣)
1970. « Notes sur les fouilles de Niani, ancienne capitale du Mali », *W.A.A.N.* 12 : 43-6 (٢٤).
- ELSEN (O.J.). — 1970. « Human Remains », *Scandinavian joint expedition to Sudanese Nubia*, Copenhagen-Oslo-Stockholm (٢٨).
- LSSON (E.). — 1931. « Quaternary glaciations and pluvial lakes, in british East Africa », *G.A.*, 13 : 249-349 (١٦).
1940. « Ancient changes of climate in british East Africa and Abissinia : a study of ancient lakes and glaciers », *G.A.* XXII, 1-2 : 1-79 (٢١)(١٦).
1949. « The pluvials of East Africa : an attempt to correlate pleistocene changes of climate », *G.A.* XXXI, 1-4 : 204-11 (٢١).
1952. « Pleistocene climatic changes in East Africa », *Proc. II P.C.P.Q.S.* : 45-55 (٢٤).
- ETIA (H.J.). *History and organisation of music in West Africa*, Legon, Institute of African Studies of Ghana (المقدمة العامة)
- RDSTRÖM (H.A.). — 1972. « Neolithic and A-Group Sites », *Scandinavian joint Expedition to Sudanese Nubia*, Copenhagen-Oslo-Stockholm, Scandinavian Univ. Books (٢٨) (٢٠).
- RRIS (E.). — 1841. *Outlines of a vocabulary of few of the principal languages of Western and Central Africa*, Londres, J.W. Parker, VII + 213 p. (١٢).
- RRIS (Th.). — 1968. *Shinqiti folk literature and songs*, Oxford (٦).
- TEN (F. van). — 1968. « Note sur l'âge de la pierre récent dans la région des lacs Mokoto (Kivu, Congo) », *B.S.R.B.A.P.*, 79 : 91-101 (٢١).
1968. « The Uelian. A Culture with a Neolithic Aspect, Uele-Basin (N.E. Congo Republic) », *A.M.R.A.C.* 64, XIV + 154 p. (٢١).
1969. « A ground axe from Burundi », *Azania* IV : 166 (٢١).

- 1971. « Excavation at Munyama Cave », *Antiquity*, XLV, 177 : 56-8 (٢١).
- 1973. « Mystification en Archeologie in Noord-Zaïre » (Mystification et Archéologie au Nord-Zaïre), *Africa-Tervuren*, XIX, 4 : 97-102 (٢١).
- 1977. « Excavations at Matupi Cave », *Antiquity*, LI, 201 : 35-40 (٢١).
- 1978. « The Early Iron Age in the Interlacustrine Region », *J.A.H.* XIX, 1 (٢١).
- NOTEN (F. et E. VAN). — 1974. « Het Ijzersmelten bij de Madi » (La fonte du fer chez les Madi), *Africa-Tervuren*, XX, 3-4 : 57-66 (٢١).
- NOTEN (F. VAN), CAHEN (D.), MARET (J. DE), MOEYERSONS (J.) et ROCHE (E.). En préparation. *The Archaeology of Central Africa*, Graz, Akademische Druck - u. Verlagsanstalt (٢١).
- NOTEN (F. VAN) et HIERNAUX (J.). — 1967. « The Late Stone Age Industry of Mukinanira, Rwanda », *S.A.A.B.* 22, IV : 151-4 (٢١).
- OAKLEY (K.P.). — 1961. « Man the Tool-maker », British Museum, *Natural History*, 5<sup>e</sup> éd. (١٩).
- OBENGA (Th.). — 1970. « Méthodologie en histoire africaine : sources locales », *Africa*, XXV (المقدمة العامة).
- 1973. *L'Afrique dans l'Antiquité*, Paris, Prés. africaine (١٠).
- O'BRIEN (T.P.). — 1939. *The prehistory of Uganda Protectorate*, Londres, Cambridge Univ. Press, 319 p. (٢١).
- OLABIYAL (J.). — 1968. *Remarques sur l'état actuel des recherches linguistiques au Dahomey*, Paris, Prés. afr. (١٠).
- OLDEROGGE (D.). — 1966. « Ecritures méconnues de l'Afrique noire », *Le Courrier de l'Unesco* (١٠).
- OLDEROGGE (D.) et POTEKINE (I.). — 1954. *Les Peuples de l'Afrique*, Moscou (المقدمة العامة).
- OLIVER (R.). — 1966. « The problem of the Bantu expansion », *J.A.H.* 7, 3 (١٢).
- 1973. « African studies in London, 1963-1973 », *Proc. III Intern. W.A.C.* (non publié) (٣).
- OLSSON (I.U.). — 1973. « The radiocarbon dating of Ivory Coast shell mounds », *W.A.J.A.* 3 : 215-20 (٢٤).
- ONDE (H.). — 1963. « La géographie régionale et le monde africain », *Genève-Afrique*, II, 2 : 149-62 (٤).
- ORGAN (R.M.). — 1968. *Design for scientific conservation of antiquities*, Londres, Butterworths, XI + 497 p. (١).
- ORHONLU (C.). — 1972. « Turkish archival sources about Ethiopia », *Proc. 4<sup>th</sup> I.C.E.S.* (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- ORLOVA (A.S.). — 1967. *Histoire de l'Afrique au XIX<sup>e</sup> siècle et au début du XX<sup>e</sup> siècle*, Moscou, Institut d'Afr. de l'URSS (المقدمة العامة).
- OUSSEDIK (O.). — 1972. « Les bifaces acheuliens de l'Erg Tihodaine : analyse typométrique », *Libyca*, 20 (٢٢).
- OZANNE (P.). — 1964. « Notes on the later prehistory of Accra », *J.H.S.N.* 3, 1 : 3-23 (٢٤).

- 1966. « The anglo-gambian stone circles expedition », *W.A.A.N.* 4 : 8-18 (٢٤).
- 1969. « The diffusion of smoking in West Africa », *Odu*, N.S. 2 : 29-42 (٢٤).
- 1969. « A new archaeological survey of Ife », *Odu*, 3, 1 : 28-45 (٢٤).
- 1971. « Ghana », P.L. SHINNIE, *African Iron age*, Oxford, Clarendon Press, 35-65 (٢٤).
- PADMORE (G.). — 1962. *Panafricanisme ou Communisme*, Paris, Prés. afr. 14 (المقدمة العامة)
- PAGER (H.). — 1971. *Ndedema*, Graz, Akademische Druck.
- 1975. *Stone age myth. and magic*, Akademische Druck.
- PALMER (H.). — 1928. *Sudanese memoirs being mainly translations of a number of arabic manuscripts relating to the central and western Sudan*, Lagos (٦) (٥)
- PANKHURST (R.). — 1966. *The royal Ethiopian chronicles*, Oxford (٦).
- PARENKO (P. et R. P.) et HEBERT (J.). — 1962. « Une famille ethnique ; les Gan, les Padoro, les Dorobe, les Komono », *B.I.F.A.N.* B, I, XXIV, 3, 4 et 6.
- PARKINGTON (J.) et POGGENPOEL (C.). — 1970. « Excavations at De Hangen, 1968 », *S.A.A.B.* XXVI : 3-36 (٢٠).
- PATTERSON (J.R.). — 1926. *Kanuri songs*, Lagos (٦).
- PAULME (D.). — 1956. « Les sculptures de l'Afrique noire », Paris, PUF (المقدمة العامة)
- 1956. *Parures africaines*, Paris, Hachette (المقدمة العامة)
- 1960. *Les Civilisations africaines*, Paris, PUF (المقدمة العامة)
- PAYDDOKE (E.). — 1963. *The scientist and archaeology*, Londres, Phoenix House, XIII + 208 p. (٩).
- PEDELABORDE (P.). — 1970. *Les Moussons*, Paris, Colin-U2 (١٦).
- PELLETIER (A.) et GOBLOT (J.-J.). — 1973. *Matérialisme historique et Histoire des civilisations*, Paris, Editions sociales (الخاتمة).
- PENDER CUTLIP (P.). — 1972. « Oral traditions and anthropological analysis : Some contemporary myths », *Azania* VII : 3-24 (٨).
- 1973. « Encyclopedic informants and early interlacustrine history », *I.J.A.H.S.*, VI : 468-79 (٨).
- PERLMAN (I.) et ISARO (F.). — 1969. « Pottery analysis by neutron activation », *Archaeometry*, 11 : 21 : 52 (٨).
- PERRET (R.). — 1937. « Une carte des gravures rupestres et des peintures à l'ocre de l'Afrique du Nord », *J.S.A.* VII, 71 : 107-123 (٨).
- PERROT (C.). — 1974. « Ano Aseman : mythe et histoire », *J.A.H.* XV : 199-212 (٨).
- PERSON (Y.). — 1962. « Tradition orale et chronologie », *C.E.A.*, 7, II, 3 (٧).
- 1963. « Classe d'âges et chronologie », *Latitudes*, n° spécial (١٥).
- 1968. *Samori. Une révolution dyula*, Dakar, I.F.A.N. 3 vol (٣).
- PETRIE (W.M.F.). — 1901. *The royal tombs of the first dynasty*, Londres (٢٨).
- 1920. « Prehistoric Egypt », *B.S.A.E.* (٢٨) (٢٣).
- 1921. « Corpus of prehistoric pottery and palettes », Londres (٢٣).



- 1939. *The Making of Egypt*, Londres (٢٨) (٢٥)
- 1953. « Ceremonial slate palettes », *B.S.A.E.* LXVI (٢٨) (٢٥)
- PETRIE (W.M.F.), MACKAY (E.) et WAINWRIGHT. — 1912. *The labyrinth, Gerzeh and Mazghunah*, Londres (٢٨).
- PEYROUTON. — 1966. *Histoire générale du Maghreb*, Paris, A. Michel (المقدمة العامة).
- PHILIPS (J.). — 1828. *Researches in South Africa*, Londres, 2 vol. (٦)†
- PHILIPSON (D.W.). — 1976. « The Early Iron Age in Eastern and Southern Africa : A critical re-appraisal », *Azania*, XI : 1-23 (٢١).
- PIAS (J.). — 1967. « Chronologie du dépôt des sédiments tertiaires et quaternaires dans la cuvette tchadienne », *C.R.A.S.* 264 : 2432-5 (٢٤).
- PICARD (G. Ch.). — 1971. « Le Périple d'Hannon n'est pas un faux », *Archéologia*, 40 : 54-9 (٢٤).
- PIGAFETTA (F.) et LOPEZ (D.). — éd. 1965. *Description du royaume de Congo et des contrées environnantes*, trad. et annoté par Willy Bal (2<sup>e</sup> éd. révisée), Louvain (٤) (١)
- PIVETEAU (J.). — 1973. *Origine et destinée de l'homme*, Paris, Masson, 167 p. (١٨).
- PIOTROVSKY (B.). — 1967. « The early dynasty settlement of Khor-Daoud », *Campagne internationale de l'Unesco pour la sauvegarde des monuments de la Nubie*, Le Caire, Service des antiquités de l'Égypte (٢٥).
- PIRENNE (J.). — 1932. *Histoire des institutions et du droit privé de l'Ancienne Égypte*, Bruxelles, Fondation égyptologique Reine Elisabeth (٢٨).
- PLAATJE (S.T.). — 1916. *Native life in South Africa before and since the European war and the boer rebellion*, Londres (٦).
- 1930. *Mhundi : an epic of South Africa native life a hundred years ago*, Lovedale (٦).
- PLENDERLEITH (H.J.). — 1962. *The Conservation of antiquities and works of art*, Londres, Oxford Univ. Press, XV + 376 p. (٨).
- PLOEY (J. DE). — 1963. « Quelques indices sur l'évolution morphologique et paléoclimatique des environs du Stanley-Pool (Congo) », *Studia universitatis Lovanium*, 17, 16 p. (٢١).
- 1965. « Position géomorphologique, genèse et chronologie de certains dépôts superficiels au Congo Occidental », *Quaternaria* VII : 131-54 (٢١).
- 1968. « Quaternary phenomena in the Western Congo », *Proc. VII Congr. INQUA*, 8 : 500-18 (٢١).
- 1969. « Report on the Quaternary of the Western Congo », *Palaeoecology of Africa, the surrounding islands and Antarctica* IV : 65-8 (٢١).
- POIRIER (J.). — 1969. *Histoire de l'ethnologie*, Paris, PUF (المقدمة العامة).
- POLOTSKY (H.). — 1964. « Egyptian at the dawn of civilisation », *The world history of the Jewish people*, ser. I. (١٠).
- POMMERET (Y.). — 1965. « Notes préliminaires à propos du gisement lupembien et néolithique de Nodjobé », *Mém. S.P.P.G.* II, 45 p. (٢١).
- 1966. « Principaux types d'outils de tradition forestière (Sangoen-lupembien-tchitolien) découverts à Libreville », *B.S.P.P.G.* II, 4 : 29-47 (٢١).

- 1966. « Les outils polis au Gabon », *B.S.P.P.G.* II, 6 : 163-79 (٢١).
- POND (W.P.) et al. — 1938. Prehistoric habitation sites in the Sahara and North Africa, The Logan Museum, Beloit College, Wisconsin (٢٢).
- PORTER (B.) et MOSS (R.L.B.). — *Topographical bibliography of ancient egyptian hieroglyphic texts, reliefs and paintings*, Oxford, The Clarendon Press (٢٨).
- PORTERES (R.). — 1950. « Vieilles agricultures de l'Afrique intertropicale », *A.T.* : 9-10 (٢٧).
- 1951. « Géographie alimentaire, berceaux agricoles et migrations des plantes cultivées en Afrique intertropicale », *C.R.S.B.* : 239-40 (٢٧).
- 1951. « Eleusine coracana Gaertner, céréale des humanités pauvres des pays tropicaux », *B.I.F.A.N.* 23 : 1-78 (٢٤).
- 1958. « Les appellations des céréales en Afrique », *J.A.T.B.A.*, 5 (٢٤).
- 1960. « La monnaie de fer dans l'Ouest africain au XIX<sup>e</sup> siècle », *Recherche africaine*, 4 (١٥).
- 1962. « Berceaux agricoles primaires sur le continent africain », *J.A.H.*, 3, 2 : 195-210 (٢٧)(٢٤)(١٤).
- 1972. « Le millet coracan ou Finger Millet », *Burg. Wart. Symp.* 56 (٢٤).
- POSENER (G.). — 1940. *Princes et Pays d'Asie et de Nubie*, Bruxelles, Fond. égyptol. Reine Elisabeth (٢٨).
- 1960. « De la divinité de Pharaon », *C.S.A.* 15 (٢٨).
- POSENER (G.), SAUNERON (S.) et YOYOTTE (J.). — 1959. Dictionnaire de la civilisation égyptienne, Paris, Hazan (٢٨).
- POSNANSKY (M.). — 1969. « The prehistory of East Africa », in B.A. OGOT et J.A. KIERAN, *Zamani, A survey of East african history*, Nairobi-Londres, Longmans & Co Ltd : 49-68 (١١).
- 1971. « Ghana and the origins of West african trade », *Africa quarterly* II : 110-25 (٢٤).
- PRESENCE AFRICAINE. — 1971. *Perspectives nouvelles sur l'Histoire africaine*, Paris (٥).
- PRICHARD (J.C.). — 1855. *The natural history of Man*, 4<sup>e</sup> éd., Londres, H. Ballière, 2 vol. (١٢).
- PRIDY (A.J.). — 1970. « An Iron Age Site near Yelwa, Sokoto Province : preliminary report », *W.A.A.N.*, 12 : 20-32 (٢٤).
- PRINS (A.H.J.). — 1953. *East African age class systems*, Groningen (١٥).
- 1958. « On Swahili Historiography », *J.E.A.S.C.* LXXVIII, 2 (المقدمة العامة) (٦)(٥).
- QUEZEL (P.) et PONS (A.). — 1957. *Première étude palynologique de quelques paléo-sols sahariens*, Alger, I.R.S. (٤).
- RABIE (H.). — 1972. *The financial system of Egypt*, Londres (٥).
- RADCLIFFE-BROWN (A.R.) et FORDE (D.). — *Systèmes familiaux et matrimoniaux en Afrique*, Paris, PUF (المقدمة العامة).
- RALPH (E.K.), MICHAEL (H.M.) et HAN (M.G.). — 1973. « Radiocarbon dates and reality », *M.N.* 9, 1 : 1-20 (٩).
- RAMENDO (L.). — 1963. « Les galets aménagés de Reggan (Sahara) », *Libyca*, II : 43-74 (٢٢).

- RANDLES (O.). — 1974. « La civilisation bantu, son essor et son déclin », *Annales* 29, 2 (٢٧).
- RANDLES (W.G.L.). — 1958. *South-East Africa and the empire of Monomotapa as shown on selected printed maps of the 16<sup>th</sup> century*, Lisbonne (٦).
- RANGER (Y.O.). — 1962. « Emerging themes of african history », *International Congress of african historians*, Dar-es-Salam (١٥) (المقدمة العامة).
- 1967. *Revolt in Southern Rhodesia. A Study in african resistance*, Londres, Heinemann, xii + 403 p. (٣).
- RATTRAY (R.S.). — 1923. *Ashanti*, Oxford, Clarendon Press (٢٤).
- REED (C.A.). — 1964. « Natural history study of Karkur Oasis, Libyan desert », *Postilla-Peabody Museum*, 84 (٢٥).
- 1965. « A human frontal bone from the late pleistocene of the Kom-Ombo Plain », *Man*, 95 : 101-4 (٢٥).
- 1967. *Preliminary report on the archaeological research of the Yale University, Prehistoric expedition to Nubia, 1962-1963*, Le Caire, Antq. Depart. Egypt. (٢٥).
- REES (A.R.). — 1965. « Evidence for the African origin of the oil palm », *Principes*, 9 : 30-6 (٢٤).
- REINDORF (C. Ch.). — 1889. *The History of the Gold Coast and Asante*, Bâle n. d. l C. 183 (٣).
- REINISEH (L.). — 1881. *Die Kunama-Sprache in Nord-Ost Afrika*, Vienne (١١).
- REISNER (G.A.). — 1910. *Archaeological survey of Nubia, report for 1907-1908*, vol. I, Le Caire, National Printing Dept. (٢٨).
- 1923. *Excavations at Kerma*, Cambridge, Harvard African Studies (٢٨).
- RENAN (E.). — 1855. *Histoire générale et Système comparé des langues sémitiques*, Paris, Impr. Roy., VIII + 499 p. (١).
- REVUE de géographie physique et de géologie dynamique. — 1976. N° spécial, « Oscillations climatiques au Sahara depuis 40 000 ans », Paris, Masson (١٦).
- REYGASSE (M.). — 1922. « Note au sujet de deux civilisations préhistoriques pour lesquelles deux termes nouveaux me paraissent devoir être employés », *Actes 46<sup>e</sup> Congr. A.F.A.S.* : 467-72 (٢٢).
- 1923. « Découverte d'outillage moustérien à outils pédonculés atériens dans le Tidikelt, Oued Asriouel, région d'Aoulef Chorfa », *Actes 46<sup>e</sup> Congr. A.F.A.S.* : 471-2 (٢٢).
- RHODENBURG (H.). — 1970. « Morphodynamische Aktivitäts -und Stabilitätszeiten statt Pluvial -und Interpluvialzeiten », *Eiszeitalter und Gegenwart*, 21 : 81-96 (٢١).
- RHODENBURG (H.) et SABELBERG (U.). — 1969. « Zur landschafts-ökologisch-bodengeographischen und klimagenetisch-geomorphologischen Stellung des westlichen Mediterrangebiets », *Göttinger Bodenkundliche Berichte*, 7 : 27-47 (١٦).
- RHOTERT (H.). — 1952. *Libysche Felsbilder*, Darmstadt, L.C. Wittich (٢٣).

- RICHARD (Abbé). — 1869. « Sur la découverte de silex taillés dans le sud de l'Algérie », *Matériaux pour l'histoire primitive de l'Homme*, 4 : 74-5 (٢٣).
- RICHARD (C. DE). — 1955. « Contribution à l'étude de la stratigraphie du quaternaire de la presqu'île du Cap Vert (Sénégal) », *B.S.P.F.* 52 : 80-8 (٢٤).
- RICHARDSON (J.L.) et RICHARDSON (A.E.). — 1972. « History of an African rift Lake and its climatic implication », *Ecol. Monogr.* 42 : 499-534 (١٦).
- RIGHTMIRE (G.P.). — 1974. *Comments on race and population history in Africa*, New York (١١).
- ROBERT (D.). — 1970. « Les fouilles de Tegdaoust », *J.A.H.* 11, 4 : 471-93 (٢٤).
- 1970. « Report on the excavations at Tegdaoust », *W.A.A.N.*, 12 : 64-8 (٢٤).
- ROBERT (D. et S.) et DEVISSE (J.). — 1970. *Tegdaoust I, Recherches sur Aoudaghost*, Paris, A.M.G. (٢٤).
- ROBERTS (A.D.). — 1967. « Oral traditions of the peoples of Tanzania », *E.A.J.* 12 : 23-5 (٧).
- 1968. *Recording East Africa's past : a brief guide for the amateur historian*, Dar-es-Salam (٧).
- 1968. « Oral tradition through the Sieve : Notes and Comments on the Second Conference on Tanzania's oral history », *E.A.J.* : 35-8 (٧).
- 1968. *Tanzania before 1900*, Nairobi, East African Publishing House, XX + 162 p. (٣).
- ROCHE (E.). — 1975. « Analyse palynologique du site archéologique de la Kamoa », D. Cahen, *le Site archéologique de la Kamoa (région du Shaba, République du Zaïre). De l'Age de la pierre ancienne à l'Age du fer*, A.M.R.A.C. 84 : 331-7 (٢١).
- 1963. *L'Épipaléolithique marocain*, Lisbonne (٢٢).
- RODIER (J.). — 1963. « Hydrologie du continent africain », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco, pp. 185-226 (١٣).
- ROGNON (P.). — 1974. « Modifications naturelles du cycle hydrométéorologique depuis 10 000 ans. Leur utilisation pour la prévision climatique à long terme », in *Influence* (١٦).
- ROSENFELD (A.). — 1965. *The inorganic raw minerals of Antiquity*, Londres (١٤).
- 1972. « The microlithic industries of Rop Rock Shelter », *W.A.J.A.* vol. II : 17-28 (٢٤).
- ROTHBERG (R.J.), dir. — 1971. *Africa and its explorers : motives, methods, and impact*, Cambridge, Mass. (١).
- ROTHBERG (R.J.) et ROUBET (F.E.). — 1966. « Présentation comparative d'un gisement côtier, des environs de Berard, à l'ouest d'Alger », *Congr. Préhist. Français*, Ajaccio : 109-28 (٢٢).

- ROTHBERG (H.) et ROUBET (C.). — 1968. « Nouvelles observations sur l'Épipaléolithique de l'Algérie orientale. Le gisement de Koudiat Kifène Lahda », *Libyca*, 16 : 55-101 (٢٢).
- 1972. « The microlithic industries of Rof Rock Shelter », *W.A.J.A.* 2, 17-28 (٢٤).
- (à paraître) : *Une économie pastorale pré-agricole en Algérie orientale. Le néolithique de tradition capsienne. L'exemple de l'Aurès* (٢٢).
- ROTHBERG (R.J.) et MAZRUI (A.A.), éd. — 1970. *Protest and Power in Black Africa*, New York, Oxford University Press, XXX + 1274 p. (٣).
- ROUBET (C.). — 1968. *Le Gisement du Damous el Ahmar*, Paris, A.M.G. (٢٢) (٢١).
- 1971. « Sur la définition et la chronologie néolithique de tradition capsienne », *Anthropologie*, 75 : 553-74 (٢٤) (٢٢).
- RUBIN (A.). — 1970. Review of Philip Allison's « African Stone Sculpture » and Franck Willett's « Ife in the History of West African Sculpture ». *Art bulletin* 72, 3 : 348-54 (٢٤).
- RUFFIE (J.). — 1977. *De la biologie à la culture*, Paris, Flammarion 598 p. (١٠) (القدمة العامة)
- 1977. « Génétique et Anthropologie », *Science et vie* n° 120 Hors série (١١).
- RYDER (A.F.C.). — 1965. *Materials for West African History in Portuguese Archives*, Londres (٢٤) (٦).
- 1965. « A reconsideration of the Ife-Benin relationship », *J.A.H.* 6, 1 : 25-37 (٢٤).
- SABERWAL (S.). — 1967. « The oral tradition, periodization and political system », *C.J.A.S.* I : 157-62 (٧).
- SAID (R.). — *The geological evolution of the River Nile* (١٦).
- SALEH (S.A.), GEORGE (A.W.) et HELMI (F.M.). — 1972. « Study on glass and glass-making processes at Wadi-El-Natrum, 1<sup>re</sup> partie. Fritting crucibles, their technical features and temperature employed », *Studies in Conservation*, Londres, 17 : 143-70 (٩).
- SAMB (A.). — 1971. « Langues négro-africaines et leurs emprunts à l'arabe », *N.A.* (١٠).
- SAMPSON (C.G.). — 1972. « The Stone Age industries of the Orange River Scheme and South Africa », *Memoirs of the National Museum Bloemfontain*, 6 (٢٠).
- 1974. *The Stone Age archaeology of Southern Africa*, Academic Press, New York (٢٠).
- SANCHO (I.). — 1781. *Letters of the late I. Sancho, an african... to which are prefixed memoirs of his life*, Londres, 2 vol. (٦).
- SANDER (E.R.). « The hamitic hypothesis, its origin and function in time perspective », *J.A.H.* X, 4 : 521-32 (١٢) (القدمة العامة).
- SANDFORT (K.S.) et ARKELL (A.J.). — 1929. *Palaeolithic man and the Nile, Fayum divide*. Oriental Institute Publication, 10, (٢٣).

- SAPIR (D.). — 1973-1974. « Linguistics in Sub-saharan Africa », in *Current trend in linguistics*, T.A. SEBEOK (dir.), Paris - La Haye, Mouton (١٢)(١٠).
- SAUER (C.O.). — 1952. « Agricultural origins and dispersion », *B.M.L.* 2 (٢٧).
- SAUNDERS (A.M.C.). — 1964. *World population : past growth and present trends*, Londres (١٤).
- SAUVAGET (J.). — 1946. *Historiens arabes*, Paris, A. Maisonneuve (المقدمة العامة).
- 1961. *Introduction à l'histoire de l'Orient musulman*, Paris (5).
- SAVAGE (G.). — 1967. *The art and antique restorers' handbook*, Londres, Barris et Rockliff, 142 p. (٩).
- SAVARY (P.). — 1966. « Monuments en pierres sèches du Fasnoun », *M.C.R.A.P.E.* 6, 78 p. (٢٣).
- SAYCE (R.U.). — 1933. *Primitive arts and crafts*, Cambridge, Cambridge University Press, XIII + 291 p. (٢٤).
- SAYRE (E.V.) et MEYERS (P.). — 1971. « Nuclear activation applied to materials of art and archaeology », *A.A.T.A.*, 8, 4 : 115-50 (٩).
- SCHARFF (A.) et MOORGAT (A.). — 1950. *Ägypten und Vorderasien im Altertum*, München, F. Bruckmann (٢٨).
- SCHUB (H.). 1975. *The Ntsomi : a Xhosa performing art*, Oxford (٧).
- SCHLÖZER (A.L. VON). — 1781. In EICHORN J.G., *Repertorium für biblische und morgenländische Literatur*, Leipzig, Wiedmanns Erben und Reich, 1777-1786, 18 parties, partie VIII (١٢).
- SCHMITZ (A.). — 1962. « Les Muhulu du Haut-Katanga méridional », *B.J.B.E.* XXXII, 3 (٢١).
- 1971. « La végétation de la plaine de Lubumbashi (Rép. Dém. Congo) » *Publ. INEAC* 113 : 11-388 (٢١).
- SCHNELL (R.). — 1967. *Plantes alimentaires et agricoles de l'Afrique noire*, Paris, Larose (٢٧) (المقدمة العامة).
- SCHOLLAR (I.). — 1970. « Magnetic methods of archaeological prospecting advances in instrumentation and evaluation techniques », *P.T.R.S.* 269, 1193 : 103-19 (٩).
- SEBEOK (T.A.). — 1963-1974. *Current trend in linguistics*, Paris - La Haye, Mouton (١٢)(١٠).
- SECK (A.) et MONDJANNAGNI (A.). — 1967. *L'Afrique occidentale*, Paris, PUF, 290 p. (١٣).
- SEDDON (D.). 1968. « The origins and development of agriculture in East and Southern Africa », *C.A.* 9, 5 : 489-94 (٢٧)(٢٤).
- SELIGMAN (G.). — 1930. *Races of Africa*, Londres (١٠).
- SERVANT (M. et S.) et DELIBRIAS (G.). — 1969. « Chronologie du Quaternaire récent des basses régions du Tchad », *C.R.A.S.* 269 : 1603-6 (٢٤).
- 1973. « Séquences continentales et variations climatiques : évolution du bassin du Tchad au Cénozoïque supérieur », *M.O.R.S.T.O.M.*, 348 p. (١٦).

- 1974. « Les variations climatiques des régions intertropicales du continent africain depuis la fin du Pléistocène », *13<sup>e</sup> journée de l'hydraulique, Soc. Hydrotech. Fr.* (١٦).
- SETHE (K.). — 1930. *Urgeschichte und älteste Religion der Ägypter*, Leipzig, F.A. Brickhaus (٢٨).
- SEYDOU (Ch.) éd. — 1977. *La Geste de Ham-Bodédio ou Hama le Rouge*, Paris, A. Colin, Classiques africains, 18 (٢).
- SHAPER (I.). — 1933. *The early Hottentots*, Cape Town (١).
- SHAPERS (I.). — 1668. *The Early Cape Hottentots, described in the writings of Dapper* (٦).
- SHAW (Th.). — 1944. « Report on excavations carried out in the cave known as Bosumpra at Abetifi, Kwahu, Gold coast Colony », *Proceedings of the prehistoric society*, Cambridge, 10 : 1-67 (٢٤).
- 1960. « Early Smoking Pipes : in Africa, Europe and America », *J.R.A.I.* (٢٤).
- 1961. *Excavation at Dawu*, Edinburgh, Nelson, VIII + 124 p. (٢٤).
- 1962. « Chronology of excavation at Dawu », *Man*, 72 : 217 (٢٤).
- 1963. « Field research in nigerian archaeology », *J.H.S.N.*, 2, 4 : 449-64 (٢٤).
- 1964. *Archaeology in Nigeria*, Ibadan, Ibadan University Press (٢٤).
- 1964. « Smoking in Africa », *S.A.A.B.* 19, 75 : 75-6 (٢٤).
- 1965. « Spectrographic analyses of the Igbo and other Nigerian bronzes », *Archaeometry*, 8 : 86-95 (٢٤).
- 1965. « 'Akure excavations : Stone Age Skeleton 9000 BC », *A.N.* 3 : 5-6 (٢٤).
- 1967. « Terminology », *W.A.A.N.* 7 : 86-95 (٢٤).
- 1969. « Further spectrographic analyses of nigerian bronzes », *Archaeometry*, 11 : 85-98 (٢٤).
- 1969. « The later Stone Age in the nigerian forest », *Actes 1<sup>re</sup> Coll. internat. Archaeol. Afr.* : 364-74 (٢٤).
- 1969. « On radiocarbon chronology of the Iron Age in Sub-Saharan Africa », *C.A.* 10 : 226-31 (٢٤).
- 1970. « The analysis of West African bronzes : a summary of the evidence », *Ibadan*, 20 : 80-9 (٢٤).
- 1971. « The Prehistory of West Africa », in J.F.A. AJAYI and M. CROWDER, *History of West Africa*, London, Longmans (٢٤).
- 1971. « Africa in Prehistory : leader or laggard ? », *J.A.H.*, 12, 1 : 143-53 (٢٤).
- 1971. *Igbo-Ukwu : an account of archaeological discoveries in eastern Nigeria*, Londres, Faber and Faber, 2 vol. (٢٤).
- 1972. « Early crops in Africa : a review of the evidence », *Burg. Wart. Symp.* 56 (٢٤).
- 1973. « Trade and the Tsoede bronzes », *W.A.J.A.* 3 : 233-8 (٢٤).
- SHELTON (A.K.). — 1968. « Causality in african thought ; Igbo and other », *P.A.* 15, 4 : 157-69 (٧).

- SHEPPERSON (G.) et PRICE (Th.). — 1958. *Independent Africa. John Chilembwe and the Origins. Setting and Significance of the Nyassaland native rising of 1915*, Edinburgh, Edinburgh University Press, X 564 p. (٣).
- SHINNIE (P.L.). — 1967. *Meroe, a civilization of the Sudan*, New York, Washington (٢٨).
- 1971. *The African Iron Age*, Oxford, Claredon Press (٢٨) (٢٤).
- SIBRAVA (V.) dir. — 1975. *Quaternary glaciations in the Northern hemisphere*, rapport n° 2, Projet 73/1/24, Prague, Unesco, 151 p. (١٦).
- SILVA REGO (A. da). — 1949-1958. *Documentos para historia do missoes de Padreoda portuguesa de oriente*, 12, Lisbonne (٦).
- SIMPSON (G.C.). — 1957. « Further studies in world climate », *J.R.M.S.* 83 : 459-85 (٢٤).
- SIMPSON (W.K.) éd. — 1972. *The literature of ancient Egypt*, New Haven-London (٢٨).
- SINGER (R.). — 1958. « The Rhodesian, Florisbad and Saldanha Skulls, G.H.R. von KOENIGSWALD », *Neandertal Centenary*, Utrecht : 52-62 (٢٠).
- SINGER (R.) et WYMER (J.). — 1968. « Archaeological Investigations at the Saldanha skull site in South Africa », *S.A.A.B.* XXV : 63-74 (٢٠).
- SINGH (G.). — 1973. « Late Quaternary changes in vegetation and climates in the arid tropics of India », *Acts IX I.N.Q.U.A. Congr.* (١٦).
- SMITH (A.). — 1974. « Preliminary report of excavations at Karkarichinkat, Mali, 1972 », *W.A.J.A.* 4 (٢٤).
- SMITH (H.F.C.). — 1958. « Source material for the history of the Western Sudan », *J.H.S.N.* 1, 3 : 238-48 (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- 1961. « Arabic manuscript material bearing on the History of Western Sudan : a seventeenth century writer of Katsina », *B.N.H.S.N.* VI, 1 (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- SMITH (H.S.). — 1966. « The Nubian B-Group », *Kush*, XIV : 69-124 (٢٨).
- SMITH (P.E.). — 1966. « The late Paleolithic of Northern Africa in the light of recent researches », *A.A.* 68 : 326-55 (٢٥).
- 1966. « New prehistoric investigation at Kom-Ombo », *Zephyrus* XVII (٢٥).
- 1967. « New investigations in the late Pleistocene archaeology of the Kom-Ombo Plain », *Quaternaria*, IX (٢٥).
- SOGA (T.B.). — 1929. *Intlalo ka Zossa*, Lovedale (٦).
- SOMMER (F.). — 1953. *Man and beast in Africa*, Londres, 206 p. (١٤).
- SOPER (R.C.). — 1965. « The Stone Age in Northern Nigeria », *J.H.S.N.* 3, 2 : 175-94 (٢٤).
- SOUVILLE (G.). — 1958-59. « La pêche et la vie maritime au Néolithique en Afrique du Nord », *B.A.M.* 3 : 315-44 (٢٢).
- 1973. *Atlas de préhistoire du Maroc*, « Maroc atlantique », Paris, C.N.R.S., Etudes d'antiquités africaines (٢٢).
- SOW (A.I.). — 1968. *Chroniques et récits du Fouta-Djalou*, Paris, Klincksieck, 262 p. (٦).



- SOWUNMI (M.A.). — 1973. « A preliminary palynological study in the Rivers Stat », *Oduma*, I, 1 : 13-4 (١).
- SPARKS (B.W.) et WEST (R.G.). — 1972. *The Ice Age in Britain*, Londres, Methuen, XVIII + 302 p. (٢٤).
- SPARRMAN (A.). — 1789. *A voyage to the Cape of Good Hope, towards the Antarctic polar circle, and round the world, but chiefly into the country of the Hottentôts and Caffres, from the year 1772 to 1776*, Perth (١).
- STAINER (X.). — 1898. « L'âge de la pierre au Congo », *A.M.R.A.C.* III, 24 p. (٢١).
- STANTON (W.R.) et WILLETT (F.). — 1963. « Archaeological evidence for changes in Maize type in West Africa : an experiment in technique », *Man*, 63 (٢٤).
- STREEL (M.). — 1963. *La Végétation tropophylle des plaines alluviales de la Lufira moyenne*, Liège, F.U.L.R.E.A.C. (٢١).
- STROSS (F.H.) et O'DONNALL. — 1972. *Laboratory analysis of organic materials*, USA, Addison-Wesley modular publications, module 22 (١).
- STROUHAL (E.). — 1976. *Problems of study of human races*, Prague (١١).
- STRUEVER (S.) éd. — 1971. *Prehistoric agriculture*, New York, American museum sourcebook in anthropology (٤).
- STUVIER (M.) et SUESS (H.E.). — 1966. « On the relationship between radiocarbon dates and true sample ages », *Radiocarbon*, 8 : 534-40 (١).
- SURET-CANALE (J.). — 1964. « Les sociétés traditionnelles en Afrique tropicale et le concept de mode de production asiatique », *Pensée*, 117 : 21-42 (المختاتمة).
- 1968. *Afrique noire occidentale et centrale*, Paris, Editions sociales, « I. Géographie, civilisations, histoire », 339 p. (١٣) (المقدمة العامة).
- SWADESH (E.). — 1966. « A Preliminary glottochronology of Gur », *J.W.A.L.* (١٠).
- 1966. « Glottochronology », *J.W.A.L.*, III (١٠).
- SZUMOWSKI (G.). — 1956. « Fouilles de l'abri sous roche de Kourounorokale », *B.I.F.A.N.*, B, 18 : 462-508 (٢٤).
- TAIEB (M.). — 1974. *Evolution quaternaire du bassin de l'Awash (Rift éthiopien et Afar)*, Thèse, Paris, 2 tomes (١٧).
- TAIEB (M.), COPPENS (Y.), JOHANSON (D.C.) et KALB (J.). — 1972. « Dépôts sédimentaires et faunes du Plio-Pléistocène de la basse vallée de l'Awash (Afar central, Ethiopie) », *C.R.A.S.* 275 : 819-22 (١٧).
- TAIEB (M.), JOHANSON (D.C.) et COPPENS (Y.). — 1975. « Expédition internationale de l'Afar, Ethiopie (3<sup>e</sup> campagne, 1974) découverte d'Hominidés plio-pléistocène à Hadar », *C.R.A.S.* 281 : 1297-1300 (١٨) (١٧).
- TAIEB (M.), JOHANSON (D.C.), COPPENS (Y.) et ARONSON (J.L.). — 1976. « Geological and paleontological background of Hadar hominid site, Afar, Ethiopie », *Nature*, 260, 5549 : 289-93 (١٧) (١٦).
- TAIEB (M.), JOHANSON (D.C.), COPPENS (Y.), BONNEFILLE (R.) et KALB (J.). — 1974. « Découverte d'Hominidés dans les séries plio-pléistocènes d'Hadar (bassin de l'Awash, Afar, Ethiopie) », *C.R.A.S.* 279 : 735-8 (١٧).

- TALBOT (P.A.). — 1923. *Life in Southern Nigeria : the magic, beliefs and customs of the Ibido Tribe*, Londres, Macmillan, pp. 448-464 (١٠).
- TARDITS (C.). — 1962. « Religion, épopée, histoire ; notes sur les fonctions latentes des cultes dans les civilisations du Benin », *Diogène*, n° 37 (١٥).
- TATTAM (C.M.). — 1944. *A Review of nigerian stratigraphy*, Annual report of the geological survey of Nigeria, 1943, Lagos, Government printer (٢٤).
- TAUXIER (L.). — 1882. « Les deux rédactions du périple d'Hannon », *R.A.* 15-37 (٥).
- TEILHARD DE CHARDIN (P.). — 1954. « Les recherches pour la découverte des origines humaines en Afrique au sud du Sahara », *Anthropologie* (الأنثروبولوجيا) .
- 1955. « L'Afrique et les origines humaines », *Revue des questions scientifiques* (الأسئلة العلمية) .
- 1956. *Le Groupe zoologique humain*, Paris (١٥).
- THEAL (G.M.). — 1896-1903. *Records of South-Eastern Africa*, Londres, 8 vol. (٦).
- 1897-1905. *Records of the Cape colony*, Londres, 36 vol. (٦).
- THOMASSEY (P.) et MAUNY (R.). — 1951. « Campagne de fouilles à Koumbi Saleh », *B.I.F.A.N.* 13, 1 : 438-62 (٢٤).
- 1956. « Campagne de fouilles à Koumbi Saleh », *B.I.F.A.N.* B, 18 : 117-40 (٢٤).
- THOMPSON (L.). — 1969. *African societies in Southern Africa*, Londres, Heinemann (المقدمة العامة) (٢٤).
- TIME-LIFE BOOKS. — 1972. « The Missing Link. Emergence of Man », sér. 3 (١٩).
- TIXIER (J.). — 1957. « Le hachereau dans l'Acheuléen nord africain. Notes typologiques », *C.R. XV Congr. Préhist. Fr.* : 914-23 (٢٣)(٢٢).
- 1958-59. « Les pièces pédonculées de l'Atérien », *Libyca*, 6, 7 : 127-57 (٢٢).
- 1963. *Typologie de l'Epipaléolithique du Maghreb*, Paris, A.M.G. (٢٢).
- « Les industries lithiques de l'Aïn Fritissa », *B.A.M.* 3 : 107-247 (٢٢).
- TOBIAS (P.V.). — 1967. *Olduwan George. The cranium of Australopithecus (Zinjanthropus) boisei*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, 264 p. (١٧).
- 1967. « Cultural hominization among the earliest African Pleistocene hominid », *Proc. Prehist. Soc.* 33 : 367-76 (٢٠).
- 1968. « Middle and early Upper Pleistocene members of the genus Homo in Africa », *Sonderdruck aus Evolution und Hominization*, Stuttgart, G. Kurth, 176-94 (٢٠).
- 1968. *Man's past and future*, Fifth Raymond Dart lecture, Johannesburg, Witwatersrand Univ. Press (٢٠).
- TOBIAS (P.V.) et COPPENS (Y.). — 1976. « Les plus anciens hominidés » *Actes IX Congr. U.I.S.P.P.* (١٧).
- TRICART (J.). — 1956. « Tentative de corrélation des périodes pluviales africaines et des périodes glaciaires », *C.R.S.G.F.* : 164-7 (١٦).

- TRIGGER (B.G.). — 1965. *History and Settlement in Lower Nubia*, New Haven, Yale University pub. in anthropology, 69 (٢٨)
- « Meroitic and Eastern Sudanic : a linguistic relationship ? », *Kush*, vol. 12 (١٢).
- TRIGGER (B.G.). — 1969. « Meroe and the African iron age », *A.H.S.* II (٢٨).
- TSHUDI (J.). — 1955. *Nordafrikanische Feldsmalereien*, Florence, Sansoni, 106 p. (٢٣).
- TUCKER (A.N.). — 1940. *The Eastern Sudanic languages*, Londres (١٠).
- 1948. *Distribution of the Nilotic-Hamitic Languages of Africa*, Londres (١٠).
- TUCKER (A.N.) et BRYAN (M.A.). — 1966. *Linguistic Analyses : The non-Bantu languages of North-Eastern Africa*, Londres-New York-Le Cap, Oxford Univ. Press, XV + 228 p. (١٢)(١٠).
- TUREKIAN (K.K.). éd. — *Late Cenozoic Glacial Age*, New Haven, Yale Univ. Press (١٦).
- TURNER (L.D.). — 1955. « The odyssey of a Zulu warrior », *J.N.H.* 40, 4 (٦).
- TWIESSELMANN (F.). — 1958. *Les Ossements humains du gîte mésolithique d'Ishango*, Mission J. de Heinzelin de Braucourt en 1950, Bruxelles, Institut des Parcs nationaux du Congo belge, 125 p. (٢١).
- UCKO (P.J.) et DIMBLEBY (G.W.) dir. — 1969. *The domestication and exploitation of plants and animals*, Londres, Duckworth, XXVI + 581 p. (٢٤).
- 1970. « The history of Africa », *C.H.M.* XII, 4 : 527-605 (١٥).
- 1972. « Les origines de l'homme », *Le Courrier*, août-sept., n° spécial (الطائفة)
- اليونسكو — ١٩٦٥ « فن الكتابة »
- ١٩٧٣ « منتخبات نصوص بالعربية مأخوذة من الوثائق المغربية » بقلم الاستاذ محمد ابراهيم الكاتاني، باريس (المقدمة العامة).
- 1974. *Colloque scientifique international sur le peuplement de l'Egypte ancienne et le déchiffrement de la langue méroïtique*, Le Caire, 28 jan.-3 fév. (المقدمة العامة)
- U.S. NATIONAL REPORT. — 1971-1974-1975. « American géophysical union, 15<sup>th</sup> general ass. International union of geology and geophysics, Grenoble », *Rev. geophys. Space phys.*, vol. 13, n° 3, 1110 p. (١٦).
- VAJDA (G.). — 1950. « Contribution à la connaissance de la littérature arabe en Afrique occidentale », *J.S.A.* XX : 229-37 (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- VANDIER (J.). — 1952. *Manuel d'archéologie égyptienne*, Tome I., 1, « La Préhistoire », Paris, Picard (٢٨).
- VANDIER (J.) et DRIOTON (E.). — 1962. « Les peuples de l'Orient méditerranéen », II — *L'Egypte*, Cléo, Paris, PUF (٢٨).
- VANSINA (J.). — 1961. *De la tradition orale : essai de méthode*, Tervuren, Mémoire n° 36 du Musée royal d'Afrique Centrale (٧) (المقدمة العامة)
- 1971. « Once upon a time : Oral traditions as history in Africa », *Daedalus*, 100, 2 : 442-68 (٧).

- 1973. *The Tyo Kingdom of the Middle Congo. 1880-1892*, Oxford, Clarendon Press, XIX + 590 p. (٣).
- 1974. « Comment : traditions of Genesis », *J.A.H.* XV : 317-322 (٨).
- VANSINA (J.), MAUNY (R.) et THOMAS (L.V.). — 1964. *The historian in tropical Africa*, Oxford, Oxford Univ. Press (المقدمة العامة) (١٥).
- VAUFREY (R.). — 1939. *L'Art rupestre nord-africain*, Paris, Institut de paléontologie humaine, Mém. 20, 127 p. (٢٣).
- 1946. « Le Néolithique de tradition capsienne au Sénégal », *Rivista di Scienza preistorica*, Rome (٢٤).
- 1949. « Le Néolithique paratoumbien, une civilisation agricole primitive du Soudan », *J.E.A.* 35 (الخاصة) .
- 1953. « L'Age de la pierre en Afrique, exposé synoptique », *J.S.A.* XXIII : 103-38 (الخاصة) .
- 1955 et 1970. *Préhistoire de l'Afrique*, I. « le Maghreb », II. « Au nord et à l'ouest de la Grande Forêt », Paris, Masson (٢٣) (٢٢).
- VAVILOV (N.I.). — 1935. *Bases théoriques de la sélection des plantes*, tome I, « Sélection générale », Moscou-Léninegrad, 1045 p. (٢٧) (١٤).
- 1951. « The origin, variation, immunity and breeding of cultivated plants », Selected writings translated by K. STAAR, *Chronica Botanica*, 13 : 1-6 (٢٧).
- VERCOUTTER (J.). — 1959. « The Gold of Kush », *Kush*, VII : 120-53 (٢٨).
- VERCOUTTER (J.), BOTTERO (J.) et CASSIN (E.). — 1967. *The New East, the early civilizations*, New York, Delacorte (٢٨).
- VERHAEGEN (B.). — 1974. *Introduction à l'histoire immédiate*, Paris, Duculot (المقدمة العامة) (١٥) (الخاصة) .
- VERMEERSCH (S.). — 1976. « L'Épipaléolithique dans la vallée du Nil », *Actes IX Congr. U.I.S.P.P.* (٢٥).
- VIA (Y. et M.). — 1974. *Sahara, milieu vivant*, Paris, Hatier (٢١).
- VIDAL (O.E.). — 1852. in CROWTHER (S.A.), A vocabulary of the Yoruba languages, Londres, Seeleys (١٢).
- VIDAL (P.). — 1969. *La Civilisation mégalithique de Bouar. Prospections et fouilles, 1962-1966*, Paris, F. Didot, 132 p. (٢١).
- VIGNARD (E.). — 1923. « Une nouvelle industrie lithique : le Sébilien », *B.I.F.A.O.* 22 : 1-76 (٢٣).
- VOEGELIN (C.F. et F.M.). — 1973. *Index of the World's languages*, Washington (١٢).
- VOGEL (J.C.) et BEAUMONT (P.B.). — 1972. « Revised radiocarbon chronology for the Stone Age in South Africa », *Nature*, 237 : 50-1 (٢٤) (٢٠).
- VOUTE (C.). — 1962. « Geological and morphological evolution of the Niger and Benue Valleys », *Proc. IV. P.C.P.Q.S.* 1 : 189-207 (٢٤).
- WAINWRIGHT (G.A.). — 1949. « Pharaonic survivals between Lake Chad and the West Coast », *J.E.A.* 35 : 170-5 (٢٤).
- WAI-OGUSU (B.). — 1973. « Was there a Sangoan industry in West Africa ? », *W.A.J.A.* 3 : 191-6 (٢٤).
- 1974. « Pleistocene man in Africa with special reference to West Africa », *J.H.S.N.* 7, 2 : 357-68 (٢٤).

- WATTS (A.D.). — 1926. *The early hunters and explorers in South West Africa*, thesis, Cape Town, Univ. of Cape Town (١).
- WAYLAND (E.J.). — 1929. « Rift valleys and Lake Victoria », *C.R. XV<sup>e</sup> C.I.G. II* : 323-53 (٢٤)(٢١).
- 1934. « Rifts, rivers and rains and early man in Uganda », *J.R.A.I.* 64 : 332-52 (٢٤)(٢١).
- 1952. « The study of past climates in Tropical Africa », *P.C.P.*, 1947, Oxford, Blackwell : 66 (٢٤).
- WEBB (M.C.). — 1968. « Carneiro's hypothesis of limited land resources and the origins of the state : a Latin Americanist's approach to an old problem », *South Eastern Latin Americanist*, 12, 3 : 168 (٢٤).
- WELMERS (W.). — 1973. *African language structures*, Los Angeles, Univ. of California Press (١٢).
- WENDORF (F.). — 1965. *Contributions to the Prehistory of Nubia*, Dallas, Fort Burgwin Research Center and Southern Methodist Univ. Press, 164 p. (٢٣).
- 1968. *The Prehistory of Nubia*, Dallas, Fort Burgwin Research Center and Southern Methodist Univ. Press (٢٨)(١٦).
- WENDORF (F.), SAID (R.) et SCHILD (R.). — 1970. « Egyptian prehistory : some new concepts », *Science*, 169 : 1161-71 (٢٨)(٢٤).
- WENDORF (F.), LAURY (R.L.), ALBRITON (C.C.), SCHILD (R.), HAYNES (C.V.), DAMON (P.E.), SHAFIQUILLAH (H.) et SCARBOROUGH (R.). — 1974. « Dates for the Middle Stone Age of East Africa », *Science*, 187 : 740-2 (١٦).
- WENDT (W.E.) et REED (C.H.). — 1966. « Two prehistorical archaeological sites in Egyptian Nubia », *Postilla*, 102 : 1-46 (٢٥).
- WERBER (A.). — 1925. *The language families of Africa*, Londres, Society for promoting christian knowledge, VII + 149 p. (١٢)(١١).
- 1930. *Structure and Relationship of African languages*, Londres-New York, Longmans Green and Co, VII + 61 p. (١٢)(١٠).
- WERNER (A.E.A.). — 1970. « Analysis of ancient metals », *P.T.R.S.* 269, 1193 (١).
- WESTCOTT (R.W.). — 1957. « Did the Yoruba come from Egypt ? », *Odu*, 4 (٢٤).
- WESTERMANN (D.). — 1911. *Die Sudansprachen, eine sprachvergleichende Studie*, Hambourg, L. Friederichsen, VIII + 222 p. (١٢).
- 1927. *Die westlichen Sudansprachen und ihre Beziehungen zum Bantu*, Mitteilungen des Seminars für orientalische Sprachen, Den Haag, de Gruyter (١٢).
- WESTPHAL (E.O.J.). — 1962. « On classifying Bushman and Hottentot languages », *A.L.S.* III : 30-48 (١١).
- 1966. « The non-Bantu languages of Southern Africa », A.N. Tucker and M.A. Bryan, *Linguistic analyses*, London-New York-Cape Town (١٢).
- WET (J.M.J. DE) et HARLAN (J.R.). — 1971. « The origin and domestication of Sorghum-bicolor », *Econ. Bot.* 25 : 128-35 (٢٤).

- WHEATLEY (P.). — 1964. *The land of Zanj : exegetical notes on chinese knowledge of East Africa prior to A.D. 1500*, Londres, Liverpool essays (٥).
- WICKENS (G.E.). — 1975. Changes in the climate and vegetation of the Sudan since 20 000 B.P., *C.-R. VIII Reunion A.B.I.F.A.T.* : 43-65 (١٦).
- WIERCINSKY. — 1965. « The analysis of racial structure of early dynastic populations in Egypt », *Materialow practical anthropologianich*, 72 (١١).
- WIESENFIELD (S.L.). — 1967. « Sickle cell trait in human biological and cultural evolution », *Science*, 157 : 1134-40 (٢٤).
- WILKS (I.). — 1956. « Tribal history and myth », *Universitas*, 2-3 (القدمة العامة)
- 1961. « Begho and the Mande », *J.A.H.*, 2 : 25-34 (٢٤).
- 1963. « The growth of Islamic learning in Ghana », *J.H.S.*, 2, 4 (٦).
- 1975. « Do Africans have a sense of time ? *I.J.A.H.S.* VIII, 2 (٢).
- WILLCOX (A.). — 1963. *The rock art of South Africa*, Johannesburg, Nelson (الخاتمة) (٢٦).
- WILLETT (F.). — 1960. « Ife and its archaeology », *J.A.H.*, 2 : 231-48 (15).
- 1962. « The Introduction of maize into West Africa : an assessment of recent evidence », *Africa*, 32 : 1-13 (٢٤).
- 1962. « The Microlithic Industry from Old Oyo, Western Nigeria », *Actes IV Congr. P.P.E.Q.* 2 : 261-72 (٢٤).
- 1964. « Spectrographic analysis of Nigeria bronzes », *Archaeometry*, 7 : 81-93 (٢٤) (١).
- 1966. « On the funeral effigies of Owo and Benin, and the interpretation of the life-size bronze heads from Ife », *Man*, 1 : 34-45 (٢٤).
- 1967. *Ife in the History of West African sculpture*, London, Thames & Hudson (١٥).
- 1968. « New light on the Ife-Benin relationship », *African Forum*, 3, 4, 4, 1 (٢٤).
- 1969. « New radiocarbon dates from Ife », *W.A.A.N.* 11 : 23-5 (٢٤).
- WILLIAMS (M.A.J.). — 1966. « Age of alluvial clays in the western Gezira, Republic of the Sudan », *Nature*, 211 : 270-1 (١٦).
- 1975. « Late Pleistocene tropical aridity synchronous in both hemispheres ? », *Nature* 253, 5493 : 617-8 (١٦).
- WILLIAMS, CLARK (J.D.), ADAMSON (D.A.) et GILLESPIE (R.). — 1975. « Recent Quaternary research in Central Sudan », *B.A.S.E.Q.U.A.*, 46 (١٦).
- WILLIS (R.G.). — 1964. « Tradition history and social structure in Ufipa », *Africa*, 34, 4 : 340-51 (٧).
- WILSON (A.C.) et SARICH (V.M.). — 1969. « A molecular timescale for human evolution », *P.N.A.S.* 63, 4 : 1088-93 (٢٠).
- WILSON (M.) et THOMPSON (L.). — 1969-71. *The Oxford history of South Africa*, Oxford, Clarendon Press, 2 vol. (٣).
- WILSON (W.). — 1966. *Temme and the West Atlantic group*, S.L.I.R., Indiana, 226. 9. (١٠).

- WINKLER (H.A.). — 1937. *Völkerbewegungen im vorgeschichtlichen Oberägypten im Lichte neuer Pelsbilderfunde*, Stuttgart (٢٣).
- 1939. *Rock drawings of Southern Upper Egypt*, Londres, Egypt exploration society, 2 vol. (٢٣).
- WOLLIN (G.), ERICSON (D.B.) et WOLLIN (J.). — 1974. « Geomagnetic variations and climatic changes 2 000 000 BC-1970 AD », *Coll. C.N.R.S.* 219 : 273-88 (١٦).
- WORLD METEOROLOGICAL ORGANISATION. — 1975. WMO/IAMAP. « Symposium on long-Term climatic fluctuations », *Proc. Norwich*, WMO n° 421, 503 p. (١٦).
- WRIGLEY (C.). — 1970. « Speculations on the Economic Prehistory of Africa, in J.D. FAGE et R.A. OLIVER, p. 69 (٢٧).
- WYMER (J.J.) et SINGER (R.). — 1972. « Middle Stone Age occupational settlements on the Tzitzikama coast, eastern Cape province, South Africa », P.J. UCKO, R. TRINGHAM and G.W. DIMBLEBY (éd.), *Man, settlement and urbanism*, Londres, 207-10 (٢٠).
- YAMASAKI (F.), HAMADA (C.) et HAMADA (T.). — 1973. « Riken natural radiocarbon. Measurements VII », *Radiocarbon*, 14, 1 : 223-38 (٢٤).
- YILBUUDO (J.T.). — 1970-71. *Tradition orale*, Mémoire : séminaire de Koumi, Haute-Volta.
- YORK (R.N.). — 1973. « Excavations at New Buipe », *W.A.J.A.* 3 : 1-189 (٢٤).
- YOUNG (W.J.). — 1958. « Examination of works of art embracing the various fields of science », *Proceedings of the Seminar on application of Sciences in examination of works of art*, Boston (١).
- YOYOTTE (J.). — 1959. *Dictionnaire de la civilisation égyptienne*, Paris (٢٨).
- ZAHAN (D.). — 1963. *La dialectique du verbe chez les Bambara*. Paris (٨).
- ZAKI (A.) et ISKANDER (Z.). — 1942. « Ancient Egypt Cheese », *A.S.A.E.* XLI : 295-313 (١).
- ZEISSL (H.V.). — 1955. « Äthiopien und Assyrier in Ägypten, *Ägyptologische Forschungen*, Heft 14, Glückstadt-Hamburg-New York, J.J. Augustin (٢٨).
- ZEUNER (F.F.). — 1950. *Dating the Past*, Londres, Methuen (١٦).
- 1959. *The pleistocene period, its climate, chronology and faunal successions*, Londres, Hutchinson Scientific and technical, 447 p. (٢١)(١٦).
- ZIEGERT (H.). — 1967. *Dor el Gussa und Gehelben Ghaama*, Wiesbaden, F. Steiner, 94 p. (٢٣).
- ZINDEREN-BAKKER (E.M. VAN). — 1967. « Upper Pleistocene and Holocene Stratigraphy and Ecology on the basis of vegetation changes in sub-Saharan Africa », in *Background to evolution in Africa*, ed. W.W. BISHOP and J.D. CLARK, Chicago University Press (٢٤).
- 1975. *Paleoecology of Africa*, vol. 1-9 (١٦).





## كشاف أسماء الأعلام

أرم (س) - ٣٦٥	اسكندر (ب) (انظر الببليوغرافيا).	٩
استفاكتور تمبوك - ١٣٩	العالى (أ - س) - ١١٧	أحمد سبكو - ١٤٩
أشطون (ج. هـ) - ٦٤٠، ٦٣١	اليمان (هـ) - ٣٨٢، ٤١٢، ٥٧٥، ٥٧٩، ٥٩٥، ٦٠٠	أحمد بابا - ١٤٣، ٢٧، ٢٤
أفاتيک باکدازاریان - ١٣٩	ألن (ج و ت) - ١٤٥	أحمد کران - ١٣٤
أوبريفيل (هـ) (انظر الببليوغرافيا).	الماغرو - باش (م) - ٦٠٠	أمدوفدية - ٢٠٧
أوقيانو (الودويا) - ١٤٦	الميدا (م) - ٤٥	أمينة - ٦٥
الحاج عمر - ١٤٥، ١٤٩، ٢٠٦، ٢٠٨	العمري - ١٢٢، ١٢٤، ٢٣	أنوكي - ٦٤
الحاج عسكية محمد - ١٤٨، ٦٧	امبو (أ. م) - ٨٢	أردو دمبو - ١٨٣
ابن أمبک - ٢٥٧	أموري - طالبوت (ب) - ٩٥	أرو - ١٣١
ادريس نکادا - ٢٠٤	امداسيون - ٤٤	العبدري - ١٢٤
إزيسي - ٢٨٩	أمير (م) (انظر الببليوغرافيا).	ابراهيم (د. ب) - ٢٧
إيوا - ١٨٤، ٢٠١	أمير - ١١٨	أبو الفداء - ٤٢
أوزي بونسو - ٦٨	امو (أ. و) - ١٤٦	أبو مخرمة - ١٣٨
أوزي توتو - ٦٤	أنسيودي فافو (أ) - ٥٣٦، ٥٤٧	أبو زكريا - ٢٤
أوزوركون - ٧١٩	أندرسون (ب) - ١٤٧	أکتون لورد - ٤٩
أوبري - ٣٨	أنکرمان - ٢٨٢	آدمس (و. ي) - ٧٣٩
أوباريل سامبا دوندو - ٢١٠	أنتير - دوک - ١٤٦	أغاتياس - ١١٥
إسوي (ف) - ٥٣٦	أنطوان (م) - ٥٨٠، ٦٠٣	أغيسي (هـ) - ٢٦
أدوارد (أ. س) - ٢٢٨، ٢٢٩	أبيان - ١١١	إنکن (م. ج) - ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩
إنمايقبا (ج. أ) - ٥٥	أبتير (د) - ٧٦	٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥
إهریت (س) - ٢٩	أرامبورغ (س) - ٢٨٤، ٢٨٣، ٩٠	أجاي (ج. ف. أ) - ٧٧، ٨٦
أهریش (س) - ٨١	٤٣١، ٤٤٢، ٤٤٤، ٥٧٥، ٥٧٩	اکینجو کین (أ - ب) - ٣٦
اکست - ٢٧٢	٥٨٠، ٦٠٣، ٦١٨	الأغوا (أ. ب) - ٣٣، ٧٧
أيلوار (ب) - ٦٢١، ٦٢٦	أرسيلان (أ) - ٥٩٣	العلوي (انظر الببليوغرافيا) -
اميري (و. ب) - ٧٣٣	أرکل (أ. ج) - ٦٠٠، ٦٠٤، ٧٣٧	البيرتي (ل) - ١٣٦
اميلاني - ٤٠٥	أرسطو ديموس - ١١٠	الیکسیف - ٢٧٣، ٢٩١
أومفوکس (ج. ب) - ٥٦٤	أرسطو - ١١١	اسکندر (السلطان ج) - ١٣٦
أونجلماير (ر) (انظر	أرنت (أ. ج) - ١٤٥	اسکندر (ج و س) - ٥٥٨

- الببليوغرافيا)  
 أينوشتي (١) (انظر الببليوغرافيا)  
 ايبولار (١) - ١٣٨  
 اريكسون (د. ب) - ٤٠٠  
 إرمان (١) (انظر الببليوغرافيا)  
 أوتروب - ١١١  
 ايفرندن - ٢٣٠  
 ايويثك - ٢١٧  
 ايوا (١) - ٦٢١  
 ايير (س. ر) - ٣٥١  
 الفاسي محمد - ٣٠٧  
 إياكيموف (ق. ب) - ٧٤٧  
 ابن عبد الحكم - ١١٨  
 ابن أبي زهر - ١٢٢  
 ابن ادوار - ١٤٣  
 ابن الاثير - ١٢٢  
 ابن بطوطة - ٩٤، ٦٥، ٤٢، ٢٢، ١٢٤، ٣٦٥، ٣٧٠، ٧١٢، ٧٥٣  
 ابن الفقيه - ١٢٠  
 ابن فرتوة - ١٤٤  
 ابن فاطمة - ١٢٤  
 ابن صوقل - ١٢٠  
 ابن الاظهاري - ١٢٢، ١١٨  
 ابن إلياس - ١٣٢  
 الحمياري - ١٢٤  
 ابن جبير - ١٢٤  
 ابن خرطنديه - ١١٩  
 ابن ماجد احمد - ١٣٩، ١٣٨  
 ابن مفرج - ١٢٤  
 ابن عثمان - ١٣١  
 ابن الصغير - ١٢٠  
 ابن سعيد القرناطة - ١٢٢  
 ابن شداد - ١٢٢  
 إليف (ج) - ٧٦  
 اسحاق (ج. ل) - ٤٢١  
 اسحاق (ن) - ١٣٧
- اسارو (ف) - ٢٢١  
 اسكندر (زا) - ٢٢٢، ٢٢١، ٢١٨  
 الجبرتي - ١٣٢  
 الخيمي الكوكباني - ١٣٥  
 الخوارزمي - ١١٩  
 المقرئزي - ١٢٢  
 المرشدي (انظر الببليوغرافيا)  
 الناصري السلوي - ١٣١  
 النويري - ١٢٢  
 البكاي - ١٤٩  
 البلادوري - ١١٧  
 الكارم برنو - ٢٤  
 البكري - ٤٢، ١٢٢، ١٢٤، ٣٦٣  
 المسعودي - ١٠٩، ١١٩، ١٣٠  
 الادريسي - ٤٢، ١٢٢  
 البيروني - ١١٩  
 البرتالي محمد - ١٤٤  
 الدرسي احمد - ١٣١  
 الذهبي - ١٢٢  
 الدمشقي - ١٢٤  
 الدينوري - ١١٧  
 القاصي الفاضل - ١٢٤  
 الوراق - ١٢٢  
 الويعاني - ١٢٤، ١٢٠  
 الزهري - ١٢٤  
 ابن خلدون - ٢٣، ٤٣، ١٠٩، ١٢٢، ١٣٠، ٧٥٢  
 البغدادي - ١٢٤  
 الجاحظ - ١٠٩  
 الكتاني (م. أ) - ٢٤  
 الدشرابي محمد - ١١٨  
 الشنقيطي - ١٣٣  
 العروي (ع) - ١٠٥، ١١٦، ١٢١  
 أوبنكا (ت) - ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠  
 أوبريان (ت. ب) - ٥٥٨
- أودونال - ٢١٨  
 أولديروج (د. أ) - ٨٢، ١٤٠، ١٥٤، ٣١٥، ٣٠٧، ٢٦٠  
 أوليفر (ر) - ٨٦، ٨٢، ٦٩٨  
 اورغان (ر. م) - ٢٣٦  
 أوزان (ب) - ٦٤٠  
 الرقيق - ١١٨  
 السعدي - ١٤٣  
 الشمازي - ١٢٤، ١٣١  
 السيزي - ١٣٢  
 الطبري - ١١٧  
 التمكنوني - ١٣١  
 التلمساني محمد - ١٣١  
 التونسي - ١٣٣  
 العفراني - ١٣١  
 أم جملي - ١٠٨  
 أسواني - ١٢٠  
 الزرقاشي - ١٣١  
 الزاي - ١٣١  
 البوري ندياي - ٣٦٨  
 أفلاطون - ٣٦٩
- ب**  
 برودل (ف) - ٢٣  
 بولس - ٢٧، ٢٨  
 بلمر (هـ. ر) - ٣٢، ٥٢، ٥٥، ١٤٤  
 بريتشارد (أ) - ٣٢  
 بشنيكو (بريرا) - ٣٣  
 بكري (ديان) - ٣٥، ٢٧  
 بونو (مانسو) - ٣٦  
 برك (جاك) - ٣٦، ٣٧١  
 بطليموس (كلود) - ٤٢

باييز (بدر) - ٤٥  
 بيكافيتا (ف) - ٩٣، ٤٦  
 بنزيت - ٤٦  
 بلبوس - ١١٦  
 بلسومانا - ٢٠١، ١٨٤  
 بليم - ٢١٠  
 بلدين - (ا. و) - ١٤٧، ٥٤  
 بوکار (ايلو) - ٢٠٢  
 بونک - ٢٧  
 بوزورک ابن شاريان - ١٢٠  
 با (ا. ه) - ١٧٧، ١٥٦، ٣٤  
 ، ١٩١، ١٩٣، ٢٠٨، ٢٥٨، ٦٨٥، ٦٨٩  
 بابيت (ج) - ٥٣٦  
 بکاري - ١٣٥  
 بشطلي - ٢١٨  
 بادا (ج. ل) - ٥٢٦، ٥١٢، ٢٣٠  
 بادجر (ج. ب) - ١٣٩  
 بحري - ١٣٤  
 بيلود (ا) - ٣٤  
 بلاندي (ج) - ٧٥٤  
 بلبي (ا) - ٣٠٣  
 بولان (ر. ا) - ٦٢٠، ٣٧٨  
 بوتون - ٣٥٣  
 بال (ج) - ٣٧٨  
 بلوط (ل) - ٥٩٢، ٥٧٩، ٣٨٧  
 ، ٥٩٦، ٦٠٣، ٦٦٥  
 باندې - ٤٠٨  
 باربر (ا. ج. و) (انظر  
 اليبيليوغرافيا)  
 باربي (س) - ٦١٩  
 بربوط (ج) - ٤٥  
 بارندسون (ج. و) - ٦٢٨، ٦٢٤  
 بارنس (س) - ٢١٧  
 بارو (ج) - ٧٠٣، ٦٩٧  
 رارث (ه) - ١٤٢، ٤٧

باسيط (ر) - ١٢٣  
 بومان (ه) - ٥٣، ١٦٠، ٢٤٩  
 ، ٢٥٥، ٢٥٣  
 بايل دي هرمنس - ٣٦٨، ٥٣٦  
 ، ٥٥٣، ٥٦٠، ٥٦٨، ٥٦٩  
 ٦٧٧  
 بکينغام (ک. ف) - ٤٥، ١٣٤  
 بيدلان (ت) - ١٦٨  
 بيلو محمد - ٦٧، ١٤٥  
 بيکابريت (م) - ٥٣٦، ٥٥٣، ٥٦٥، ٥٦٩  
 برجي (ر) - ٢٢٨، ٢٣٠  
 يزانسون (ج) - ٧١٩  
 بييرسون (ب) - ٤٤٢، ٤٤٨  
 ، ٥٧٧، ٥٩٦، ٦٠٠  
 بيرد (ج) - ١٣٧  
 بيشوب (ر. و) - ٤٠٨، ٤٠٩  
 ، ٥٥٨، ٦٢٢، ٦٢٨  
 بلانکوف (ب) - ٥٣٦، ٥٦٥  
 بليک (و. ه) - ٢٤٦، ٢٤٨  
 ، ٢٩٦، ٣٠٤، ٣١٥، ٦٨٠  
 بلوش (م) - ٤٣، ٧٥٤  
 بلانلد (ه) - ١٣٤  
 بيلدين (ا. و) - ٥٤، ١٤٧  
 پوسمان (و) - ٤٥  
 بوغ (ج. س) - ٣٥١  
 بواج (ن) - ٢٦٠  
 بويوهاما - ١٥٦  
 بوناک (ف) - ٧٤٧  
 بوفيل (ا. و) - ٥٥  
 بوفيش (ت. ا) - ٤٧  
 بوين - ٤٠٩  
 بولين - ٢٩٤، ٢٩٩، ٤٠٣  
 برين (س. ک) - ٤٢٩، ٥٠٩  
 بریدوود (ر. ج) - ٧٩٧، ٧٠٨  
 بريستد (ج. ه) - ٢٨٤، ٣٧٥

برويل (ا. ب. ه) - ٤٣٩، ٤٤١، ٤٤٤، ٤٤٨، ٥٣٦  
 ، ٥٥١، ٦٣٠، ٦٧٨، ٦٩٣  
 بروم (ر) - ٤٢٠، ٤٢٩، ٤٤٤  
 بروس (ج) - ٤٧، ٤٨، ١٣٣  
 بروکستاین (س) - ٢١٧، ٢١٨  
 ٢١٩  
 بروغان (م) - ٦٨٩  
 برانشتيک (ه) - ٨٢  
 برانطون (ج) - ٧٢١، ٧٢٢  
 بروسيوط (ا. ف. ه) - ١٥٤  
 بزيان (ا) - ٢٥١، ٢٩٧، ٢١٥  
 بريانت (ا. ت) - ١٣٧  
 بوشا - ٢٢٩، ٢٣١  
 بوديل (ج) - ٢٨٠  
 بورک (ک) - ٦٢٠  
 بورطون (ر) - ٤٨، ٥٠، ١٤١  
 بوتزير (ک. و) - ٣٧٧، ٣٧٨  
 ، ٣٨٣، ٣٩٤، ٣٩٨، ٤١٢، ٥٥٨  
 ، ٥٩٢، ٦٢٠، ٧٢١  
 بورتر (ب) - ٧٢٩  
 بورترس (ر) - ٣٥٠، ٦٣٠، ٦٣٦  
 ، ٦٩٨، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٦، ٧١٠  
 ٧١٣  
 بوزنير (س) - ١١٠، ٧٢٨، ٧٣٥  
 ٧٣٧  
 بوزدونيوس - ١١٦  
 بريدي (ا. ج) - ٦٣٨  
 بروکوب - ١٠٩، ١١٥  
 بروتش (ر) - ٢٣٠  
 باکنا (ا) - ١٣١  
 بيغا مانسو - ١٥٠  
 بلاري - ٥٨٣  
 بازنکو (ب) - ٣٦٦  
 بارنش (ج) - ١١٥

- بارتسون (ج. د.) - ۱۴۴  
 بیدوک (ا) - ۲۳۶  
 بیت (دکتور) - ۴۴۴  
 بیزر (ف. ا) - ۱۳۵  
 بیرهام (م) - ۵۲  
 برلمان (ا) - ۲۲۱  
 بریت (ر) - ۵۹۳  
 برون - ۱۳۹  
 پروتسون (ج) - ۴۴  
 برسون (ا) - ۸۵، ۸۲، ۷۶  
 بتری (و. م. ف) - ۷۲۵، ۲۲۳  
 ۷۲۹، ۷۲۶  
 بیاس (ج) - ۶۲۰  
 بیکار (ج. س) - ۶۳۸  
 بیدار - ۴۰۸  
 بلیم (د) - ۴۱۷  
 بیرن (ج) - ۷۳۵  
 بلین القدیم - ۴۲، ۴۳، ۱۰۹  
 ۱۱۰، ۱۱۱، ۱۱۶  
 بلونارک - ۱۱۱  
 بولوتسکی (ه) - ۲۵۱  
 بولیپی - ۱۱۶، ۱۱۴، ۱۱۰، ۱۰۹  
 بومیرت (ا) - ۵۳۶، ۵۶۵، ۵۶۹  
 بوند (و. ب) - ۶۰۰  
 بولاندزاس (ن) - ۷۵۷  
 بریس (ت) - ۷۶  
 بریس - مارس (دکتور) - ۸۲  
 بریشمار (ج. س) - ۳۰۴، ۳۰۳  
 بتولیمی (کلود) - ۴۲، ۱۰۹  
 ۱۱۶، ۱۱۱
- تایار دو شاردان (ب) - ۳۶۸، ۴۳۵، ۴۳۹، ۴۴۱، ۴۴۴  
 تیتري - ۴۳۸  
 تیجانی - ۲۰۸، ۱۲۴  
 تیرنوبوکار سالیف - ۲۰۷، ۱۷۷، ۲۱۲  
 تیت - لیف - ۱۱۱  
 تیکسییر (ج) - ۵۸۳، ۵۸۱، ۵۷۹، ۶۰۱  
 تیوسوفا - ۱۳۷  
 تریفور هوپر (ه) - ۴۷  
 تریکار (ج) - ۲۸۷  
 تریجر (ب. ج) - ۷۲۲، ۳۱۶  
 ۷۴۲، ۷۳۴  
 توپیانا (م. ا) - ۱۴۵  
 توکر (ا. ن) - ۲۴۸، ۲۵۰، ۲۵۱  
 ۲۲۲، ۳۱۶، ۲۹۷  
 تورنر (ل. د) - ۱۳۷  
 توپسلمان (ف) - ۵۶۷  
 تتساکا - ۳۶۸  
 توت عنخ آمون - ۲۲۱ - ۶۶۱
- ث
- ثیال (ج. ه) - ۱۳۶، ۱۳۵  
 ثیلمانس (ج) - ۶۴۰
- ج
- جوس (م) - ۲۸  
 جلزر - ۱۱۵  
 جنتیر (و) - ۲۳۰، ۲۲۹  
 جورج (ا. و) - ۲۲۴  
 جورج القبرصي - ۱۱۵
- جرمان (ج) - ۱۱۶  
 جرفی - ۴۲۰  
 جیوک (د. ر) - ۲۲۷  
 جیبغنباک (ر. ف) - ۴۱۲، ۳۸۳  
 جیغلیو (ک) - ۱۵۲، ۱۳۵  
 جینیو (م) - ۴۴۷  
 جلیبر (ا. و) - ۳۴۵  
 جیرار (ب. ب) - ۱۱۴  
 جیلی (م. ا) - ۲۷۰، ۲۵۸، ۱۰۰  
 جزو - ۲۵۹  
 جوبا - ۱۱۶، ۱۱۱  
 جاباور (ت) - ۱۳۷  
 جابغو (د. ت) - ۱۳۸  
 جاکسون (ج. ج) - ۱۳۹  
 جاکوار (ا) - ۲۷۷  
 جادان (ل) - ۱۵۲  
 جانمان (ج) - ۵۳۶  
 جیفری (م. د. و) - ۲۵۴  
 جوهنسون (د. س) - ۴۲۰، ۴۰۹، ۵۰۶  
 جونسون (س) - ۱۴۷، ۸۱، ۵۴  
 ۱۷۱  
 جونستون (سیر ه) - ۵۵، ۵۲  
 ۳۰۷، ۲۹۷، ۲۵۷، ۲۴۸  
 جونس (و) - ۳۰۳  
 جوبیر (ج) - ۶۰۸  
 جولیان (س. ا) - ۷۶  
 جانکیر (ه) - ۷۲۳  
 جویستان - ۱۱۱  
 جویستیان - ۱۱۰ - ۱۱۵
- ح
- حمادی دجیغودو - ۲۱۱  
 حنون - ۱۱۶، ۱۱۱، ۶۳۸
- ت
- تایلور (ر) - ۲۸۲  
 تایلور (و) - ۲۵۴  
 تشیرتوف - ۴۰۸

دریوتون - ۱۰۸، ۱۰۹، ۱۱۰  
 دومولان دولیلانت - ۷۴۹  
 دانهام (د) - ۷۴۱  
 دوبوي (ج) - ۴۷

## و

وادیف براون - ۵۲، ۳۱  
 روني (ج) - ۳۱، ۲۷۱، ۲۷۳، ۲۷۴، ۲۷۵، ۲۷۷، ۲۶۹، ۶۹۱  
 روئیرغ (م) - ۱۴۱، ۷۶  
 روپرت - ۹۸، ۷۷  
 رینزورف - ۱۴۷، ۸۱، ۵۴  
 رانجر - ۷۶  
 روزان (ف) - ۹۲  
 روجي (م) - ۱۱۴  
 روش (ج) - ۵۵۹، ۴۳۳، ۱۱۹  
 روسو (ا) - ۱۲۱  
 رودان (هـ) - ۸۳  
 روئینوس - ۱۱۱  
 ریام (م) - ۱۴۵  
 ریدر (ا. ق. س) - ۱۵۰  
 روسي - ۱۳۱  
 روپنسون - ۴۴۴، ۱۳۵، ۴۲۰، ۴۲۹  
 روپنسون (م) - ۱۴۵  
 رابي - ۱۲۲  
 راندلس (و. ج. ل) - ۶۹۸، ۱۵۳، ۷۰۰  
 رینان - ۳۰۳  
 ریغتمیر (ج. ب) - ۲۷۹  
 رالف (ک) - ۲۲۸  
 رماندو - ۵۷۵، ۴۴۲  
 رامیت (ر. و) - ۲۲۱  
 راتري (ر. س) (انظر البیبلوگرافیا)

دانیل - ۶۳۶  
 دانیلز (ش) - ۶۳۹  
 داوود - ۱۳۱  
 دارجینی - ۱۲۴  
 دارلنجنتن - ۶۹۸  
 دارت (ر) - ۵۰، ۴۲۰، ۴۳۸، ۴۴۱  
 دافید (ن) - ۵۳۶  
 دقیس - ۶۱۸، ۶۲۰، ۶۲۴، ۶۲۵، ۶۲۶، ۶۲۸، ۶۳۰، ۶۳۲، ۶۳۴  
 دایرل - ۶۳۸، ۶۹۸  
 دایرل - ۱۴۹  
 دووینو (ف) (انظر البیبلوگرافیا)  
 دوغان (ن) - ۶۲۸  
 دولانی - ۱۴۷  
 دولپورت - ۹۸  
 دولاکروا (ر) - ۶۰۷، ۶۳۰  
 دلیبربیاس - ۵۵۸، ۵۶۴  
 دموجو - ۶۷۰  
 دنی (ج) - ۱۳۰  
 دسکامپ - ۶۱۹، ۶۲۸، ۶۴۰  
 دوشان (هـ) - ۸۵، ۸۲  
 دوئیس (ج) - ۹۸  
 دیالو (ت) - ۱۴۴  
 دیتزلن (ج) - ۳۴، ۲۵۸، ۲۶۹، ۳۶۳  
 دیک (ک. ا) - ۵۶، ۸۱  
 دیودور - ۱۱۰، ۱۱۱، ۱۱۶  
 دیوب - ۲۴۹، ۲۶۰، ۳۰۷، ۶۳۸  
 دکسون - ۲۷۲  
 دواز (ر. ل) - ۵۳۶  
 دوریس (ج) - ۱۱۰  
 دوریز (ل) - ۳۹۲  
 دریماتیس - ۳۹۴  
 درکسل (ا) - ۲۴۹، ۳۰۷

## خ

خیر الدین باربروسا - ۱۳۱  
 خلایک (ج) - ۱۴۰  
 خلیفه بن خیاط - ۱۱۷  
 خلیل (ف) (انظر البیبلوگرافیا)  
 خنیووف (م) - ۱۳۹

## د

دامونزو - ۲۷-۶۵  
 داروین - ۲۷۱، ۲۸۴، ۴۵۱، ۵۰۱  
 دولافوس - ۳۲، ۴۴، ۵۲، ۵۵، ۱۲۰، ۱۴۴، ۲۴۳، ۲۴۸، ۲۵۰، ۲۵۲، ۲۵۳، ۲۵۴، ۲۹۵، ۳۰۲  
 ۳۱۱، ۳۰۷  
 دوپروس - ۴۷  
 دوسلان - ۴۳  
 دایر - ۴۵، ۴۶  
 دلزل - ۴۶، ۴۷، ۱۴۲  
 دان فودیو - ۶۷، ۱۴۵، ۲۰۷  
 دانفوسینی - ۱۸۴، ۱۸۸، ۲۰۸  
 دوبوا (و. ا. ب) - ۸۳  
 داجي (ج) - ۲۰۸  
 دان (ا) - ۱۰۳  
 دلبي (د) - ۱۴۹، ۲۵۲، ۳۱۲، ۳۲۳، ۳۲۴، ۳۲۵  
 دلوني (م) - ۶۰۰  
 دلگون (ج) - ۸۰  
 دمبیر - ۲۵۸  
 داندولو (ف) - ۶۱۸  
 دکودونو - ۲۵۹  
 دنکان - ۱۳۷  
 دینا - ۱۳۹  
 دنک - ۲۸۹

سیدون (د) - ۶۹۸، ۶۳۴ - ۷۰۶  
 سیل (ک) - ۷۱۸  
 سیلی (ج. ر) - ۴۹  
 سنیوبوس - ۲۶۷  
 سیلاسی (نمابری) - ۱۳۴  
 ستونی (م) - ۲۲۸  
 سویس (هـ) - ۲۲۸  
 سلیفمان - ۲۵۳، ۲۵۳، ۲۵۳  
 سرفانت (م) - ۳۹۴، ۳۹۸، ۳۹۹  
 ۴۰۳، ۴۱۲، ۶۲۰، ۶۲۱  
 سیت (ک) - ۷۲۸  
 سایدو (انظر البیبلوگرافیا)  
 سیدی علی - ۱۳۹  
 سلفا کوراین - ۴۶  
 سلفا ریفو - ۱۵۰  
 سیمونس - ۴۱۷  
 سامبسون - ۶۱۹، ۷۳۷  
 سنجر (انظر البیبلوگرافیا)  
 سنغ (ج) - ۳۹۹  
 سیری عباس سوح - ۱۴۴  
 سرحان ابن سرحان - ۱۳۹  
 سلان (م. ج) - ۴۳، ۱۲۲  
 سمیر نولا - ۱۳۹  
 سمیث - ۶۴۹، ۷۳۴  
 سوغا - ۱۳۸  
 سومیر (ف) - ۳۵۲  
 سوسر - ۶۱۸، ۶۲۵، ۶۲۶  
 سبارکس (ب. و) - ۶۱۹  
 سبارمان (ا) - ۱۳۶  
 سبانوس - ۲۸۳  
 ستینر - ۵۳۳، ۵۳۶  
 ستانی - ۱۴۱  
 ستانینک (ج) - ۳۶۹  
 ستیان (ج) - ۴۹  
 ستیوارت (ج. م) - ۳۲۴  
 ستو - ۲۸۲

۶۲۱، ۶۲۰، ۵۵۹  
 زهلاز - ۳۱۶

## س

سندجاتا فاسا - ۲۲، ۲۵، ۲۷  
 ۳۳، ۶۴، ۶۵، ۱۵۸، ۱۷۴، ۶۸۵  
 سلامکا - ۲۷  
 ساران - ۲۸  
 سترابون - ۱۱۰، ۱۱۱  
 ۱۱۶، ۷۱۲، ۷۳۵  
 ستیفاند (س. هـ) - ۵۵  
 سابازی - ۲۵۷  
 ساموری - ۱۴۹  
 سببون - ۱۱۴  
 سببون امیلیان - ۱۱۴  
 سینوی - ۷۳۷  
 سونی علی - ۶۳، ۶۴  
 سونی الکیر - ۶۳  
 سعید (ر) - ۳۷۸، ۳۸۳، ۴۱۲، ۷۲۱  
 سانت اوغسطین - ۷۵۲، ۱۱۵  
 سانت فولجونس - ۱۱۵  
 سیرفانتیمس - ۱۳۲  
 سلیل ابن رازیا - ۱۳۹  
 سامبسون (انظر البیبلوگرافیا)  
 سانسو (ا) - ۱۴۶  
 سوریت کنال (ج) - ۷۵۴، ۷۵۳، ۷۵۵  
 ساندفورد (انظر البیبلوگرافیا)  
 سند ستروم (ل) - ۵۳  
 سرباح - ۵۴  
 سافاج (ج) - ۲۳۶  
 ساکسون (ا) - ۶۰۹  
 سبوك (ت) - ۳۱۲، ۳۱۳

رید - ۷۰۸  
 ریس (ا. ر) (انظر البیبلوگرافیا)  
 ریزنرال (ل) (انظر البیبلوگرافیا)  
 رابح - ۱۴۹  
 ریفاش (م) - ۵۹۹، ۶۰۳  
 ریشارد - ۵۹۲، ۶۲۶  
 ریشارد دسنون (ج. ل) - ۳۹۴، ۳۹۸  
 ریت لو - ۴۳۸، ۴۴۲  
 رودی (ج) (انظر البیبلوگرافیا)  
 رویر - ۷۱۲  
 رونیون (ب) (انظر البیبلوگرافیا)  
 روزنفیلد (ا) - ۳۴۷، ۶۳۱  
 روزنبرگ - ۴۰۸  
 روسینیول - ۴۰۸  
 روبی (س) - ۵۹۰  
 روبان (ا) - ۶۳۹  
 رادما - ۱۴۶  
 رما میرکا - ۱۴۶  
 راومبانا - ۱۴۶  
 روبینی (د) - ۱۳۳  
 رودنبرگ (هـ) - ۳۹۹، ۵۵۸

## ز

زریا - ۶۵  
 زمان (د) (انظر البیبلوگرافیا)  
 زین العابدین شرفانی - ۱۳۹  
 زاکي (ا) - ۲۲۱  
 زیونسکی (س) - ۵۳۶  
 زیسل (هـ. ف) - ۷۳۹  
 زونیر (ف. ف) - ۳۷۶، ۵۵۸  
 زیجرت (هـ) - (انظر البیبلوگرافیا)  
 زاندرون باکر - ۳۹۴، ۳۹۹، ۴۰۳

عربوس (ت) - ۱۳۶  
عباش (ج) (انظر البيبليوغرافيا)  
عباض - ۱۲۴.

## غ

غوتري (م) - ۲۵۷، ۲۵۵، ۲۹، ۲۹۷، ۲۹۹، ۳۱۳، ۳۱۴  
غرينبرغ (ج. ه) - ۲۹، ۵۱، ۵۳، ۲۴۳، ۲۴۵، ۲۴۷، ۲۴۹، ۲۵۰، ۲۵۱، ۲۵۲، ۲۵۳، ۲۵۴، ۲۵۵، ۳۰۴، ۳۰۷، ۳۰۸، ۳۱۱، ۳۱۲، ۳۱۳، ۳۱۵، ۳۲۲، ۳۲۳، ۴۹۹، ۶۳۴.  
غريغرسن (ل) - ۲۹۶  
غريفوك - ۱۳۵  
غريول (م) - ۲۵۷، ۲۵۸، ۲۶۹، ۳۶۲، ۳۶۳.  
غريفيت (ف. ل) - ۷۳۷  
غروهمان - ۱۱۷  
غروف (ل. ت) - ۲۷۸، ۶۲۰  
غروي (م) - ۶۰۳  
غزيل (س) - ۱۱۵  
غويبهارد (ب) - ۶۳۰  
غيست (ر) - ۱۱۸  
غيان (م) - ۴۷  
غالبن (م) - ۱۳۱  
دوغيل - ۱۵۴  
غاولو حمادو - ۲۰۶، ۲۰۵  
غاول مولوم - ۲۰۶، ۲۰۵  
غاولو وهاب - ۲۰۵  
غيزو - ۲۵۹  
غلبي - ۲۵۹، ۲۵۸، ۲۷۰  
غريفوار الكبير - ۱۱۵  
غابل - ۶۱۷، ۷۴۵

## ص

صاسير (ه) - ۱۵۴  
صفدي - ۱۲۴  
صالح - ۲۲۴  
صامب (انظر البيبليوغرافيا)  
صانديل (ل. ب) - ۲۱۷، ۲۱۸، ۲۱۹  
صاندر (انظر البيبليوغرافيا)

## ط

طاسيت - ۱۱۱  
طبيب محمد - ۴۰۹، ۴۲۱  
طيت (د) - ۳۷۱  
طالبي محمد - ۱۱۸  
طال (ل) - ۲۴۸  
ططام - ۶۱۹  
طوكسير - ۱۱۶، ۵۵  
طوماسي (ب) (انظر البيبليوغرافيا)  
طوميسون (ل) - ۳۳  
طوبياس - ۴۲۰، ۴۲۹، ۴۴۴، ۶۹۲  
طورناي (س) - ۹۲  
طوري - ۱۱۸  
طراور - ۲۵۷

## ع

عبدالله سعادو محمد - ۲۰۷  
علي عيسى - ۱۸۳  
عسكية محمد (انظر الحاج عسكية محمد)  
عمير - ۱۱۸  
عرب فقيه - ۱۳۴

ستريل (م) - ۵۵۹  
ستروس (ف. ه) - ۲۱۸  
ستروهل - ۲۷۹  
ستوهلمان (ف) - ۲۸۲، ۲۸۳

## ش

شليكر (ل) - ۳۰  
شليشر (ل) - ۳۰  
شكاكا - ۲۸، ۶۴، ۶۵  
شبياني عبد السلام - ۱۳۹  
شمزاش (ج) - ۱۳۷  
شليبي - ۱۳۵، ۱۳۹  
شيويس - ۲۲۲  
شفيرين - ۲۳۶  
شيخ صلاح - ۲۰۷  
شيكو امدو - ۲۰۸  
شايو - ۱۲۴  
شامار (ب. ه) - ۵۹۶  
شاميرس (د) - ۱۵۰  
شاملا (م. س) - ۶۰۴، ۶۳۴  
شامو - ۲۱۷  
شافيون (ج) - ۲۸۲، ۴۲۱، ۴۳۳، ۴۴۲، ۴۸۳، ۵۷۵، ۵۹۵، ۵۹۶  
۵۹۹، ۶۰۰  
شلو (ل) - ۷۱۷  
شسنو (ج) - ۷۵۶  
شوفاني (ل) - ۷۱۲، ۷۰۰  
شنيك (ج) - ۶۹۷، ۷۲۱  
شلوز (ل. ل) - ۳۰۳  
شميدز (ل) - ۵۵۹  
شنيل (ر) - ۷۰۳، ۷۱۰، ۷۱۲  
شولار (ل) - ۲۳۵  
شورز (ه) - ۲۸۲  
شويدزكي - ۲۷۲

- غادن - (هـ) - ۱۴۴  
غالتون - (ف) - ۱۳۶  
غالشوف - ۷۵۴  
غاردینر (ا. هـ) - ۱۰۸، ۷۲۷، ۷۲۹  
غاردنر - (ا. و) - ۵۹۳، ۶۳۴، ۷۲۵  
غاردنر (ج. ف) - ۳۹۷  
غارلاک (ب) (انظر البیبلئوگرافیا)  
غارستان - ۳۷۸  
غاس - (ف) - ۳۹۸، ۳۹۹، ۴۰۳، ۴۰۵  
غوتیرت (هـ) (انظر البیبلئوگرافیا)  
غاتر - ۱۱۸  
غوسن (م. ج) - ۶۰۵  
غوتي - ۵۹۲، ۵۹۹، ۶۰۳  
غلیرز - ۱۱۵  
غینتز (و) - ۲۲۹، ۲۳۰  
غوبلو (انظر البیبلئوگرافیا)  
غولدي - ۵۲  
غودوین (انظر البیبلئوگرافیا)  
غودي (ج) - ۱۶۳، ۱۶۴  
گرامشي (ا) - ۷۵۷  
غري - ۱۵۰، ۵۵  
غرازيني - ۴۰۸  
غیلن (ن) - ۸۲  
غیو (ر) - ۶۲۸
- فیغري (ک) - ۲۳۴  
فغان (ب. م) - ۵۶۷، ۵۶۸، ۶۴۰  
فاج (ج. د) - ۸۱، ۸۶، ۳۷۱، ۶۹۸  
فاغ (ا) - ۶۳۱، ۶۳۹  
فاع (ب. ا. ب) - ۶۲۰، ۶۲۶، ۶۳۱، ۶۳۹، ۹۳۸  
فاغ (و) - ۶۳۹  
فراج (ن) - ۲۱۸، ۲۲۲  
فرین (ب) - ۵۳۶، ۵۶۵  
فراند - ۴۰۸  
فولکنر (ر. ا) - ۷۳۷  
فور (هـ) - ۳۹۴، ۵۹۶، ۶۲۱، ۶۲۶  
فرومباش (د) (انظر البیبلئوگرافیا)  
فرغوسن (ج) - ۶۲۸  
فلیدس (ب. ر) - ۲۲۱  
فیلزي (ت) - ۱۰۸  
فینغام - (ر) (انظر البیبلئوگرافیا)  
فینزي - ۵۲۸  
فیشر (ر) - ۵۵  
فلامان - ۵۹۳ - ۶۱۰  
فلیمنغ (هـ. س) - ۳۰۹، ۶۳۹  
فلایت (س) - ۶۱۷، ۶۳۲  
فلانت (ر. ف. ا) - ۳۷۶، ۳۷۹، ۳۹۴، ۵۵۸، ۶۲۰  
فلوتر (ر. ف) (انظر البیبلئوگرافیا)  
فودو (ا) - ۳۰۹  
فویستر (ر) - ۲۸۷  
فوربس (ر. ج) (انظر البیبلئوگرافیا)  
فورد (ج) - ۲۳  
فورد (د) - ۱۴۶  
فورقس (م) (انظر البیبلئوگرافیا)
- فورو (ف) - ۵۹۳  
فوا (ا) - ۳۱۹  
فریمان (ت. ب) - ۱۴۷  
فریمان - گرینفیل - ۴۴، ۱۴۵  
فریسک (هـ) - ۱۱۱  
فرویجر (ج) (انظر البیبلئوگرافیا)  
فروید (ج. ا) - ۴۸، ۴۹  
فوهلروت - ۴۴۸  
فویکیو - ۱۵۶  
فولار (ف) - ۵۵  
فودون (ر) - ۷۴۹  
فین (ن. ف) - ۱۳۷  
فیلیب (ج) - ۱۳۶  
فیلیسون (د. و) - ۵۶۹  
فیلوکروس - ۱۱۰
- ق
- قمبیز - ۹۴  
قیصر - ۱۱۱، ۱۱۴  
قنقروموسی - ۶۰، ۷۵۴  
قاپو (ف) - ۵۳۶، ۵۴۱  
قادمستو - ۴۵  
قا - ۲۲۹  
قاق (ب) - ۱۴۶  
قیزل (ب) (انظر البیبلئوگرافیا)  
قیبل - ۷۲۹  
قابسي - ۱۱۷
- ک
- کاتون - ۷۵۴  
کناویو - ۱۲۷  
کوغوانو اوطوباج - ۱۴۶  
کاتی - ۱۴۳  
کوکوبرما - ۲۵۷
- کاتون - ۱۱۹، ۵۴، ۵۳، ۳۲، ۲۵۵، ۲۸۲، ۵۹۳، ۶۷۶، ۶۷۷، ۶۹۱، ۶۸۰، ۶۷۷  
فزیلداس - ۱۳۵  
فلاکوس - ۱۱۶  
فضل حسن یوسف - ۱۳۳



البيليوغرافية)	٦٢٠، ٦٢٢، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦،	كولل - ٢٠٨
كورتان (ب. د) - ١٥٢، ١٥٤	٦٢٨، ٦٣٢، ٦٦٩، ٧٠٢، ٧٠٤.	كونتا - ٢٠٧
كورفيس - ٢٣٠	كلارك (ج) - ٣٠٣	كادورنيكا - ٤٦
كوست (ر. ن) - ٣٠٦، ٣٠٤	كلارك (ر) - ٤٢٩	كاهن - ١٤٥، ٥٣٦، ٥٦٠، ٥٦٢،
كوفيلي (ج) - ١٥٢	كلارك - هويل (ف) - ٩٠، ٤٢١،	٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٧، ٥٦٩،
كبور - ٧٥٤	٤٢٩	٥٧٠
كاغو (ا) - ٥٥	كوكريل (ت. د. ا) - ٥٣٤	كلام - ٣٦٢
كامارا - ١٤٤، ١١١، ١١٦، ١٥٣	كوتزي - ٥٥٩	كالي - ٢١٧، ٢٢٤، ٢٢٤
كامل يوسف - ١٥٣	كوهن (د. و) - ٧٧	كامبيل (ر) - ١٤٧، ٦١٨
كيس (ه) - ٧٢٨	كوهن (م) - ٢٥٩، ٢٥٠، ٢٤٨،	كاميس (ج) - ٥٨١، ٦٣٠، ٦٣٤،
كيلر (انظر البيليوغرافية)	٢٩٥	٧٢٢، ٧٢١
كيلي (ه) - ٥٣٦	كول (د. ت) - ٣٠٢	كاندول - ٧٠٢، ٧٠٣
كندال - ٣٩٨	كول (س) (انظر البيليوغرافية)	كابوريلنكو (انظر البيليوغرافية)
كنيدي (ر. ا) - ٦٣٢	كولمان - ٧٦	كايوت ري (ر) - ٥٩٢
كنت - ٥٥٨، ٧٧	كوليت (ج) - ٥٣٦، ٥٥٣، ٥٦٣،	كابريل - ٢٥١
كستلوط (ل) - ٢٧، ٢٥٨	٥٧٠	كابتان (ج) - ١٤٦
كلهام (ه) - ٣٠٣	كوناخ (ج) - ٦٣٢	كاردير (م) - ١٧٧
كندي - ١١٨	كونستانت (د) - ٣٦٥	كاري (ج. م) - ١٣٢
كي - زيريو (ج) - ١٥٠ - ٦٦٩	كونتي روسيني - ٤٩	كارسون (ب) - ١٥٠
كلين (انظر البيليوغرافية)	كوك (ر. م) - ٢٣١، ٤٠٩	كارتر - ٦٢٢، ٥٦٥
كول (س. و) - ١٥٤، ٢٤٣، ٢٤٨	كوك (ه. ب. س) - ٣٧٦، ٥٥٨	كزاليس - ١٣٦
٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٢، ٣٠٣	كونس - ٦٣١	كزلي - هيفورد - ٥٤
كونفسود - ٤٣٢	كونس (ج) - ٣١	كاس (ف) - ٣٦٢
كوهلر (انظر البيليوغرافية)	كونس (ا) - ٤٣، ٩٠، ٩٢، ٤١٢،	كاسيودور - ١١٥
كولبي (ب) - ١٣٥، ٢٩١	٤٢٥، ٤٢٥، ٥٩٩، ٦١٧، ٦١٨	كاستريز - ١٣٠ - ١٣١
كراميس - ١٢٠	كوريبي (ر) - ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦	كاتون - طوميسون (ج) - ٥٩٣،
كرتشار (ف) - ٥٤	كوريبيوس - ١١٥	٦٠٠، ٦٠٣، ٦٣٤، ٧٢٣، ٧٢٥
كرتزوا (م) - ٤١٧	كورنغان (ر) - ٨٢	كاهازي دو مونتكودولو - ٤٦،
كوبل (ل. ا) - ١١٩، ١٢٠، ١٢٢	كوسماس انديكوبلوس - ٤٢،	١٧٤، ١٦٠
كوتيسوف (ا) - ٦٨٩	١١١	كلاريدج (و) - ٥٥
	كورتوا (س) - ١١٥	كلارك (سير جورج) - ٤٩
	كرياش (ب) - ٦٢٤	كلارك (غراهام) - ٦٣٩، ٦٣٤
	كرون (ج. د) - ٤٥	كلارك (ج. و) - ٣٤٨، ٣٤٩
	كرويدر (م) - ٧٧	٣٥٣، ٣٦٢، ٥٥٣، ٥٥٤
	كروثر (س) - ١٤٧، ٣٠٤	٥٥٥، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦٤
	كوري (ر. د) - (انظر	٥٦٦، ٥٧٠، ٦٠٤، ٦٠٨، ٦١٧،

ل

ليون الافريقي - ١٩، ٣٠، ٤٢،

- ١٣٨، ١١٦، ٤٣  
ليفى ستروس (ك) - ٧٩، ٣٢  
لوبين (د) - ٩٣، ٤٦  
لات - ديور - ١٤٩  
لتيف - ٢٠٨، ١٨٤  
لبناء دنجل - ١٣٤  
لوبنغويلا - ١٣٧  
لويدجي - ٦٤  
ليوري (هـ) - ٥٥  
لاكروا (ف) - ٥٣٦، ٢٥٨  
لاجو (ج. د) - ٦٧٥، ٦٧٢، ٦٦٧  
٦٨٩، ٦٧٨  
لال (ب. ب) (انظر البيليوغرافيا)  
لامبيرت (ن) - ٦٣٨  
لاندمان - ٢٧٣  
لاو (ر. ك) - ٦٣٨، ٥٥، ٣٧  
لاوسون (ا. ك) - ٣٧٨  
ليكي - ٤٤٤، ٤٢١، ٤٠٩، ٣٧٦  
٤٩٩  
ليكي - (ل. س. ب) - ٤١٧، ٥٠  
٤٢١، ٤٤٣، ٤٤٧، ٤٥٦  
٤٥٨، ٤٧٣، ٤٩٥، ٤٩٧، ٥٣٥  
٦١٩، ٥٥٨، ٥٤٠  
ليكي (م. و) - ٤٤١، ٤٨٣، ٦١٧  
ليكي (ر. ا. ف) - ٦١٧، ٤٢١  
لوبوف (ج. ب) - ١٤٥  
لوكلان (ج) - ٦٨٥  
لمي (ر. ب) - ٧٠٠  
لوفيفر (ج) - ٧٣٧  
لوهر يسي - ٢٥٩  
ليسيويس (ك. ر) - ٣٠٤، ٢٤٨  
٣١٥، ٣٠٦، ٣٠٥  
لوروا - غورهان (ا) - ٣٦٧  
لوروا (ب) - ٥٣٦  
لسلو (ر) - ٢٨٩، ٢٥٠
- لوتورنو (ر) - ١٣٠  
لوفايان (ج) - ١٣٦  
ليفى بروفانسال (ا) - ١٣١، ١١٨  
لويكي (ت) - ١١٩، ١٢٠، ١٢٢  
١٣٢  
لوين (س. ز) - ٢٣٨، ٢٢٩  
لويس (ر) - ٣١٩  
لوط (هـ) - ١٣٨، ٦٠٠، ٦٣٩  
٦٦٥، ٦٦٩، ٦٨٥، ٦٩٠، ٦٩٢  
ليبرا - ١٠٨  
ليشتستين (هـ) - ٣٠٤، ١٣٦  
لننجن (ا. ر) - ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥  
ليني (ك) - ٢٧٦، ٢٧٧، ٤٤٤، ٤٥٦  
ليبولت (هـ. ج) - ٢٣٠، ٢٢٩  
ليفنغستون - ١٣٦، ٢٧٥، ٣٩٤  
٤٠٣، ٣٩٨  
لومبارديني - ٣٧٨  
لوكاش (ا) - ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٧  
٧٢٣، ٧٢٤، ٧٣٩، ٧٤١  
لودولف (هيوپ) - ٤٥، ١٣٤  
٣٠٢  
لوغار (لورد) - ٥٢  
لوسكان - ٢٨٣  
ليل (ك) - ٤٤٥  
لينش (هـ. ر) - ١٤٧
- م  
مابا - ١٤٩  
ماغون - ١١١  
محمولين - ١٤٩  
ماي ادريس علاوة - ٢٤، ١٤٤  
مكورو - ١٨٨  
منسا اويي - ٢٣  
منيطون - ٤٢  
منيفان - ١٨٨
- مترنوس - ١١٦  
مازيمبا كابوكي - ٦٠  
منيليك - ١٣٤  
منيس - ٦٥٩  
محمد علي - ١٣٢  
موريس - ١٤٨  
موشيش - ١٣٦، ١٣٧  
مراد الثالث - ٢٤  
مويندو - ١٥٨  
مزليكزي - ١٣٧  
ما (ر) - ٢٥١، ٣١١  
ماكولي (لورد. ب) - ٧٣  
ماكورني (ك. د. م) - ٥٨١، ٥٩٦، ٦٣٠  
ماك كافي (و) - ١٦٥  
ماك غريفور - ١٤٩  
ماكي - ٧٢٦  
مكزي (ج) - ٣٦  
ماك ميلان (م. و) - ٤٩  
مكي (ا. م) - ١٢١  
مالي (ج) - ٢٩٧، ٢٩٣  
ميرويتز - ٥٤  
مالينوفسكي (ب) - ٣١، ٥٢، ٧٨  
مالرو (ا) - ٣٦٩، ٦٩٠  
منيسني (ج) - ٢٩٦  
منوني - ١١٨  
مانسو (ب) - (انظر البيليوغرافيا)  
منصور شفيق - ١٣٢  
منطران (ر) - ١٣٠  
ماكيت (ج) - ٣٧٠، ٧٥٤  
ماري (ب) - ٥٦٤، ٥٦٩، ٥٧٠  
مارغا (ج) - ٣٨٢  
ماران دوتير - ١١٦  
مارليان (ا) - ٥٣٦  
مارو (انظر البيليوغرافيا)

مارتان (ب. ج) - ۲۴، ۳۶۵  
مارتان دل مولیو - ۵۶۹، ۶۳۳  
مارتی (ب) - ۱۳۳  
مارکس (ک) - ۱۰۱، ۷۵۲، ۷۵۳، ۷۵۶  
ماس لتری - ۱۲۱  
ماتوس (ا) - ۶۳۰  
ماتفیف - ۸۲، ۱۱۹، ۱۲۰، ۱۲۲  
مونی (ر) - ۵۶، ۸۲، ۱۰۵، ۱۰۸، ۱۱۶، ۱۱۸، ۱۲۰، ۱۳۸، ۶۰۴، ۶۱۹، ۶۲۴، ۶۳۰، ۶۳۲، ۶۳۳  
۶۳۸، ۶۳۹، ۶۷۰  
میهان - ۲۱۷، ۲۱۸، ۲۱۹  
مینوف (ک) - ۲۴۹، ۲۵۰، ۲۵۳  
۲۵۴، ۲۸۳، ۲۹۵، ۳۹۶، ۳۰۵  
۳۰۶، ۳۰۸، ۳۱۲، ۳۱۵، ۳۱۶  
مکناسی (ا) - ۱۳۰  
میناندر - ۱۱۰  
مریفال (ه) - ۴۸، ۴۹  
متکف - ۱۵۲  
مییرس (ب) - ۲۲۰  
میگابیل (ه. ن) - ۲۲۸  
میشل السوری - ۱۲۴  
موجود (ف. و) - ۲۴۹، ۲۶۹  
مینی - ۱۱۱  
میلانوفیتش - ۵۵۹  
میلر (ج. ا) - ۴۰۸، ۴۰۹، ۵۶۵  
میکل (ا) - ۱۱۹، ۱۲۲  
مویر سونس (ج) - ۵۵۸، ۵۵۹، ۵۷۰  
موفات (ر) - ۱۳۶  
موفولو (ت) - ۳۱۹  
مختار السوسی - ۱۳۱  
مولیما (س. م) - ۱۳۸  
مومسن - ۱۱۵  
مومولو مسکوا - ۲۶۹

مونیوت (ه) - ۱۶۱  
مونو (ت) - ۱۳۸، ۳۷۷، ۳۸۲  
۳۹۴، ۵۹۲، ۶۱۰، ۶۲۲، ۶۸۶  
۶۹۳  
مونتاغو - ۲۷۵  
مونتال (ک) - ۵۵  
مونتال ففسان - ۴۳، ۱۳۲، ۱۴۳  
مونیت - ۲۰۹  
مونترانس (ه. م) - ۲۹۱  
مونسون (ب) - ۶۱۰، ۶۲۸، ۶۳۲، ۶۳۹  
موردوک (ج. ب) - ۵۳، ۷۷، ۳۱۹  
۳۲۴  
موزو (ا) - ۲۱۸  
مفنیك - ۸۲  
مودی (د) - ۱۳۵  
مورسیل (ه) - ۵۳۶، ۵۵۳  
۵۶۴، ۵۶۶  
مورو - ۶۲۱  
موریل (ج) - (انظر البیبلوغرافیا)  
مورینو (م) - (انظر البیبلوغرافیا)  
موریت - (ا) - ۷۲۸  
مورغان - ۲۸۲، ۳۵۱، ۴۴۶، ۷۴۵  
موری (ف) - ۶۳۰، ۶۳۴، ۶۶۹  
موریانو (ل) - ۳۰۲  
موریتز (ب) (انظر البیبلوغرافیا)  
مورنو (ن. ا) - ۳۹۴، ۴۰۰  
موریسون (ر. ب) (انظر البیبلوغرافیا)  
مورتلانس (ج) - ۴۴۲، ۵۳۵، ۵۳۶، ۵۳۷، ۵۵۱، ۵۵۳، ۵۶۴، ۵۶۵، ۵۶۹  
موسکاتی (س) (انظر

البیبلوغرافیا)  
موس (ر. ل. ب) - ۷۲۹  
موفیوس (ه) - ۴۴۲  
موفوتا - ۲۵۸  
مهلی - ۱۲۰  
موکروفسکی (ه. ج) - ۳۰  
مختار ولد حمیدون - ۱۳۲  
مولر (د. ک) - ۱۳۶  
مولر (ف) - ۲۵۴، ۲۵۴، ۳۰۴، ۳۰۶  
مونس (ه) - ۱۲۱

ن

نابولین بوناپرت - ۴۱، ۱۳۲  
نشینغال (ج) - ۴۸  
نیوتن (ا. ب) - ۴۸، ۴۹، ۵۰  
نورس (ه. ت) - ۴۶، ۱۳۲، ۲۰۳، ۲۰۴  
نیان (د. ت) - ۷۷، ۲۵۸  
نکروم (ک) - ۸۶  
نیویوری (ک. و) - ۱۵۲  
نیومان (ب) - ۲۵۱، ۳۱۱  
نکری - ۱۳۷  
نابیر - ۴۴۴  
نیقی (ج) (انظر البیبلوغرافیا)  
نی مازاتوشی - ۲۷۷  
نونکان (ج) - ۵۵۳، ۵۶۰، ۵۶۳، ۵۶۷  
نیلسن - ۷۳  
نلسون - ۳۷۶، ۳۷۹، ۵۵۸  
نکتیا (ه. ج) (انظر البیبلوغرافیا)  
نوردستروم (ه. ا) - ۷۱۹، ۷۲۲، ۷۳۰، ۷۳۱، ۷۳۳  
نورس (ا) - ۲۵۸

هوداس - ۱۳۱، ۱۴۵  
 هويس - ۴۰۹  
 هويس (و) - ۷۴۴  
 هريك - ۱۱۹، ۱۰۶  
 هوغو (ه. ج) - ۵۷۵، ۴۴۲، ۵۸۳، ۵۹۵، ۵۹۷، ۵۹۹، ۶۰۰، ۶۰۳، ۶۰۴، ۶۰۸، ۶۲۸، ۶۳۰، ۶۶۹، ۶۷۴، ۶۸۸، ۶۸۹، ۶۹۲، ۶۹۳، ۷۰۰، ۷۰۴  
 هنتنفورد (ج. و. ب) - ۱۳۴، ۴۵۰، ۳۱۵  
 هوزلر (ج) - ۴۲۰  
 هكسلي (ا) - ۵۰۱

## و

ويلكس (ا) - ۱۴۴، ۱۴۰، ۶۸، ۴۴  
 ويستمان (د) - ۲۴۹، ۲۴۳، ۵۳  
 ۲۹۵، ۲۵۵، ۲۵۴، ۲۵۲، ۲۵۳  
 ۳۲۴، ۳۱۲، ۳۰۶، ۳۰۴، ۲۹۶  
 وارد (و. ا. ف) - ۵۶  
 وديسون (ك. ج) - ۸۳  
 ولسون (م) - ۸۴  
 وريغلي (ك) - ۷۱۴، ۸۱  
 ويست (ج) - ۱۱۹  
 وينغ (ج. ث. ن) - ۱۵۴  
 واد ضيف الله - ۱۳۳  
 وي اوغوزو (ب) - ۶۲۵  
 ورقة - ۱۴۰  
 وارن (ا) - ۶۲۰  
 ورط - ۱۶۴، ۱۶۳  
 واطس (ا. و) - ۱۳۶  
 ويلند - ۲۴۲، ۴۴۶، ۴۴۷، ۵۴۲، ۶۱۹، ۵۵۸  
 ويتلي (ب) - ۲۵۸، ۱۰۸  
 ويب (م. ك) - (انظر

هلبين (ج. و) - ۲۱۷  
 هميت (ا) - ۱۳۳  
 هملتن - ۲۲۹  
 هان (م. ج) - ۲۲۸  
 هنتو (ج) - ۴۹  
 هنسبري (ل) - ۸۳  
 هتسن (ك. ل) - ۴۱۲، ۳۸۳  
 هاردي (ا) - ۷۴۵  
 هرغيفس (ج. د) - ۸۱  
 هيل (ب) - ۷۷  
 هرلان (ج. ر) - ۶۳۴  
 هرلي (ج. و) - ۳۶۴  
 هريس - ۷۲۴، ۷۰۰، ۲۱۷، ۱۴۶  
 هرئل (و. و) - ۶۳۸، ۶۳۳  
 هرتمان (ف) - ۷۱۹  
 هو (ا) - ۶۳۰، ۲۶۹  
 هودريكور - ۷۱۳  
 هيس (و. ك) - ۷۲۱، ۶۱۸  
 هيث (ب. ل) - ۱۴۵  
 هيرت - ۶۳۰، ۳۶۶  
 هدان - ۷۱۳  
 هنتز (ب) - (انظر البيبليوغرافيا)  
 هنزلان - ۳۸۰، ۳۸۳، ۴۱۲، ۵۶۷، ۵۵۳  
 هرمان - ۴۰۸  
 هرفيو (ج) - ۵۳۶  
 هستر (ج) - ۷۰۰  
 هنتز (ف) - ۷۳۳، ۳۱۶، ۲۴۹  
 هوتمان (ا) - (انظر البيبليوغرافيا)  
 هوهنبرجر (ج) - ۳۱۵  
 هولاس (ب) - ۶۳۰  
 هولم (ا) - ۶۶۹، ۶۸۰، ۶۸۲، ۶۹۱  
 همبوجر (ل) - ۳۰۷، ۲۴۸، ۲۴۷  
 هومير - ۱۰۹

نوزك (ا) - ۲۱۸  
 نوطن (ف) - ۵۳۶، ۵۵۵، ۵۶۳، ۵۶۷، ۵۶۸، ۵۶۹، ۵۷۰  
 نوطن (ا) - ۵۶۸  
 نورودان - ۱۳۱  
 نارمر - ۲۷۰، ۲۵۹، ۲۵۸  
 ندامل غوزاس - ۲۵۷  
 نفرکاری - ۹۶  
 نجويا - ۱۴۹  
 نانفيري - ۱۸۸

## ه

هنيبال - ۱۱۱  
 هرخوف - ۲۸۹، ۹۶  
 هنتر - ۲۷۶  
 هور - اها - ۲۲۱  
 هوتون (ج. ا. ب) - ۵۴، ۴۸، ۱۴۷  
 هيبل - ۲۸۲، ۴۷  
 هيرووديت - ۱۱۰، ۱۰۹، ۴۲  
 ۱۱۶، ۶۳۸، ۷۱۹، ۷۳۵  
 هيرنو (ج) - ۲۷۸، ۲۷۶، ۲۸  
 ۲۷۹، ۲۸۹، ۵۶۷  
 هويس (م) - ۳۶۴، ۳۶۲، ۳۰، ۲۹  
 هوارد (ب) - ۶۸۵، ۶۳۹، ۲۵، ۷۴۲  
 هنوك (ج. ا) - ۱۴۴، ۲۳  
 هولم (ك) - ۱۱۵  
 هيرلند (ا) - ۶۹۱، ۶۶۷  
 هير (ب. ا. ه) - ۱۵۴  
 هلكان (ل) (ا) - (انظر البيبليوغرافيا)  
 هال (ا. ت) - ۲۱۴، ۲۱۸، ۲۱۹، ۲۲۰، ۲۲۲  
 هلمانس (ج) - ۶۳۸

## أَسْمَاءُ الْأَمَاكِنِ

١

أبيدجان - ٨٤، ٨٢، ٦٨  
أبومي - ٢٥٨، ١٠١، ٢٩  
الريف - ٣٣١  
أبو مرغر - ٦٥٠  
أبو قير - ٥٧٥  
أبو سمبل - ٦٦٢، ٦٥٢، ٦٤٤  
أبو طبري - ٥٧٥  
أبيدوس - ٧٢٦، ٧٢٥، ٦٦٠  
٧٢٩  
أديس ابابا - ١٣٥، ٤١٧، ٤٢١،  
٤٣٣  
الرباط - ٥٨٠  
انجفو - ٦٧٤  
أدرار بوس - ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٨،  
٦١٣، ٦١٤، ٦٨٥  
آخر - ١٩، ٣٩٤، ٣٩٩، ٤٠٣،  
٤٠٩، ٤٢١، ٤٢٦، ٥٠٦  
افريقيا الجنوبية - ٢٩، ٢٨٢،  
٢٨٤، ٢٩٧، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٥

أستراليا - ٣٩٩, ٣٢٧, ٢٧٤	٤٠٤, ٣٥٤, ٢٩٥	٥٥١
٤٠٣	أمريكا الجنوبية - ٢٩٥	جنوب صحراء افريقيا - ٥٠, ٢٢
النمسا - ٢٨٣	الامراح - ٧٢٥, ٦٥٥	٨٤, ٣٥٥, ٤٧٧, ٥٨٨, ٦٢٢
أواش (نهر) - ٤٠٥, ٣٧٧	اناتولي - ٦٣٤	٦٨٢
أكسوم - ٤٩٦, ٥٠	أنفا - ٤٤٤	جنوب افريقيا - ١٠٦, ٨٤, ٥٦
إشر (وادي) - ٦٧٤, ٦٠٣	ادوارد (بحيرة) - ٣٥٣, ٣٣١	١٣٥, ١٦٤, ٢٢٧, ٢٥٤, ٢٧٥
البرازيل - ٨٢	٦٣٠, ٤٩٧, ٤٩٥, ٣٨٠	٢٧٨, ٢٩٣, ٣٠٤, ٣٠٨, ٣١٥
الخرطوم - ١٣٥, ١٣٣, ٥٦	أنجلترا - ٢٨٢, ٢٨٢, ٢٨١	٣٣٢, ٣٤٢, ٣٤٧, ٤٢٠, ٤٢٦
٤٩٧, ٤٩٥, ٣٧٨, ٣٣٨, ٣١٦	أنغولا - ١٧١, ١٤٠, ٤٦, ٤٥	٤٣٩, ٤٤٦, ٤٥٤, ٤٥٩, ٤٧٦
٧٣١, ٧١٨, ٦٥١, ٦٠٥	١٧٤, ٢٩١, ٢٩٣, ٢٩٥, ٣٠٢	٤٨٠, ٤٨٥, ٤٩٤, ٥٠٢, ٥٠٤
أرتيريا - ٧١٠, ٤٩٦, ١١١, ١٠٧	٣٢٩, ٣٤٦, ٥١٧, ٥١٩, ٥٢٧	٥٠٦, ٥٠٩, ٥١٢, ٥١٤, ٥١٧
الكامبيرون - ١٠٢, ٨٢, ٣٨, ٣٠	٥٣٣, ٥٣٥, ٥٣٦, ٥٣٨, ٥٤١	٥١٩, ٥٢٦, ٥٢٩, ٥٣٠, ٥٤٧
١٣٠, ١٤٩, ١٥٩, ٢٠٥, ٢٤٧	٥٤٢, ٥٤٤, ٥٤٦, ٥٤٧, ٥٤٨	٥٥١, ٥٦٥, ٦١٢, ٦٢٢, ٦٦٦
٢٥٤, ٢٥٩, ٣٦٦, ٣٣٦, ٢٨٩	٥٤٩, ٥٥١, ٥٥٣, ٥٥٧, ٥٥٩	٧١٢
٥٤٠, ٥٤٤, ٥٤٩, ٥٥١, ٥٥٧	٥٦٠, ٥٦٢, ٥٦٥, ٥٦٩, ٥٧٠	جنوب شرق افريقيا - ١٥٣, ١٥٩
٥٦٠, ٥٦٩, ٦١٧, ٦٢١, ٦٣٣	٦٦٦, ٧٠٦, ٧١٢	أغردات - ٤٩٦
اسبانيا - ٦٣٦, ٥٧٩	أوكر - ٦١٢, ٦٠٥	أعادس - ٢٧٧
الولايات المتحدة - ٢٨٥, ٨٦, ٣٩٩	أولف - ٦٠٠, ٥٩٩	أحمر (جبل) - ٦٤٤, ٦٤٧
اثيوبيا - ٩٣, ٧٥, ٤٥, ٤٤, ٤٢	أشنطي - ٦٠٠, ٥٩٩	أقرت (وادي) - ٥٧٩
١٠٧, ١١١, ١١٩, ١٢٢, ١٢٩	٧٥٤, ٧٥٣	أقجوجت - ٦٣٦
١٢٤, ١٣٥, ١٣٩, ١٥٢, ١٦١	آسيا - ٢٨٢, ٢٨٢, ٨٧, ٨٥, ٨٤	أقريجيت - ٦٣٢
٢٢١, ٢٧٨, ٢٨٣, ٢٨٤, ٢٩٣	٢٨٩, ٣٢٧, ٣٣٢, ٣٥٣, ٣٧٦	الجزائر - ١٣٠, ١٣١, ٢٤, ٤١
٣٠٣, ٣٠٩, ٣١٠, ٣٢٢, ٣٤٨	٣٩٩, ٤٦١, ٤٦٤, ٤٦٩, ٤٧٧	٢٨٤, ٣٤٦, ٣٥٢, ٤٣٦, ٤٤٢
٣٧٧, ٣٧٩, ٣٨٠, ٣٨٤, ٤٠٩	٤٨٨, ٤٨٩, ٥١١, ٦٣٤, ٧١٣	٤٤٤, ٥٧٣, ٥٧٥, ٥٧٩, ٥٨١
٤٢١, ٤٢٦, ٤٢٩, ٤٣٩, ٤٥٩	٧١٤, ٧٢٢, ٧٤٩	٥٨٥, ٥٩٦, ٦٠٣, ٦١٨, ٦٣٨
٤٦٤, ٤٧٧, ٤٨٨, ٤٩٤, ٥١١	أسيلار - ٧٤٩	٦٦٦, ٧٤٦
٥٧٥, ٦٦٢, ٧٠٨, ٧١٣, ٧١٥	أسيوط - ٧٢١, ٧٢٣, ٧٢٦	المانيا - ٢٨٢, ٢٨٢, ٢٨١
٧٤٨	أسوان - ٨٣, ٣١٦, ٣٨٢, ٣٨٣	امدا - ٦٤٤, ٦٤٧, ٦٦١
الرأس - ١٣٥, ٣٢٩, ٣٣٥, ٤٤٥	٧٣٠, ٧٣٢, ٧٣٩	أمعزي - ٥١٤
٤٨٠, ٥٠٤, ٥١١, ٥١٤, ٥١٥	المحيط الاطلسي - ٣٣٢, ٣٣٣	أماز (وادي) - ٦٧٤
٥٢٣, ٥٢٩, ٦٦٦, ٦٦٩, ٦٧٦	٣٣٩, ٣٧٩, ٣٨٠, ٣٩٤, ٣٩٧	أميافريت - ٣٨٠
٦٨٠, ٦٩١, ٧٤٦	٤٠٠, ٤٠٨, ٤٩٧, ٥٩١, ٦٢٢	أمبيلو - ٥٤٤
الفرات - ٦٣٤	٦٦٦, ٦٨٥, ٧١٧, ٧١٩	أمبرونا - ٤٤١
أوروبا - ٢٢, ٢٤, ٨١, ٢٨٢	الاطلس - ٢٢, ٢٨٤, ٣٢٩, ٣٣١	أمريكا - ٣٢٧, ٣٣٠
٢٨٢, ٢٨٤, ٣٣٠, ٣٧٦, ٤٠٣	٣٧٩, ٣٨١, ٣٨٢, ٥١٢, ٥٩١	أمريكا اللاتينية - ٨٤
	٦٢٢, ٦٦٥, ٦٨٢, ٦٩٠, ٧٤٩	أمريكا الشمالية - ٨٧, ٢٨٥

بغور - ١٨٤، ١٩٥، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٦، ٢٠٣  
بحر الغزال - ٢٢، ٢٣١، ٢٣٨، ٢٣٩، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٠، ٣٧٢  
باما - ٦٢٠  
باماكور - ١٨٣، ٢٠٨، ٦٢١، ٦٢٥  
بندياغرا - ١٧٧، ١٨٥، ٢٠٨  
٢٥٨، ٢١٢، ٢٠٩  
بنغورا - ٦٧٧  
باوتشي - ٦١٧، ٦٢١  
بركة - ٧١٧  
باريدس - ٣٩١  
بارشيلونة - ١٢١  
برنغو (بحيرة) - ٤٢١، ٤٢٥، ٤٢٦، ٥٠٦  
بتاليمو - ٥٦٨، ٥٤٩  
بنكي - ٥٦٥، ٥٤٨  
بيوضة - ٧١٧  
بيشارد - ٦٨٦  
بليدوغو - ١٨٣، ٢٠٤  
بني عباس - ٦٠٠  
بنين - ٢٩، ١٠٠، ١٢٩، ١٣٠، ٢٤٢، ٢٥٣، ٢٦٠، ٣٢٩، ٣٦٤، ٦٣٦  
بنين (خليج) - ١٦٦  
بني أونيف - ٦٦٥  
بيترسبورغ - ٥٢٨  
بريطانيا العظمى - ٨٤، ٨٧، ١٤٧، ١٥٢  
بولونيا - ٨٥  
بيدزار - ٥٥١  
بلاد السودان - ٤٢  
بير الاثير - ٤٤٦، ٥٨٠، ٧٤٦  
بير الصحراء - ٦٤٣  
بير الطفايري - ٦٤٤  
بيرمانيا - ٤١٦، ٧١٤

٧٣٠  
ايطاليا - ١٢٢  
اتوري - ٢٨٩، ٥٦٨  
الصين - ٤١٧، ٤٢٠، ٤٥٩  
الغرب - ٧٢، ٧٥٦  
المغرب - ٢٤، ١١٤، ١٣٣، ١٤٨، ٣٤٦، ٤٤٢، ٥٩٦، ٦٣٦، ٧١٥، ٦٩١، ٦٧٠  
اكوانغو - ٣٣٨  
أولدوواي - ٩٠، ٢٣٠، ٣٧٧، ٤٢١، ٤٢٥، ٤٢٩، ٤٣٩، ٤٥٨، ٤٦٤، ٤٨٩، ٥٠٦، ٥٢٦، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٦٠، ٥٧٥، ٦١٨، ٦٤٢  
الدار البيضاء - ٥٧٥  
امبوس - ٧٢٨، ٧٢٩  
امو - ٩٢، ٤٢١، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٢، ٤٣٩، ٤٤١، ٥٠٨، ٥١١، ٥٢٦، ٥٧٥، ٧٤٨  
أورانج (نهر) - ١٣٦، ٣٣٨، ٣٤٧، ٥١٧  
أورانج (منطقة) - ٥١٤، ٥١٧، ٥٢٣، ٥٢٩، ٥٣١، ٦٦٦، ٦٩١  
أوينغي - ٢٢، ٥٦٨  
أوغندا - ٥٥، ٦١، ١٧١، ٣٧٩، ٤١٦، ٤١٧، ٤٤٢، ٤٤٧، ٤٨٨، ٥٢٩، ٥٤٨، ٥٥٥، ٧١٢  
أكسفورد (جامعة) - ٢٣٥  
أوشانتا - ٦٤٨، ٦٤٩

## ب

باب المندب - ٢٨٢، ٢٨٣  
بدري - ٦٥٣، ٧٢٣

٤٦١، ٤٦٤، ٤٧٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٥١١، ٥٥٣، ٥٧٧، ٥٩٠، ٦٣٤، ٦٦٩، ٦٩٠، ٦٩٨، ٧١٤، ٧٤٦، ٧٤٩  
الشرق الاقصى - ٤٥٩  
الشرق الادنى - ٤٢، ٩٣، ٢٨٤، ٢٩٥، ٣٤٣، ٥٧٩، ٥٨٥، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٩، ٧١٣، ٧١٦، ٧٢١  
القيوم - ١١٧، ٢٢٢، ٤١٦، ٦٥١، ٦٥٤، ٦٥٧، ٦٥٩، ٦٦٠، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٣٤، ٧٣١  
افروان - ٦٨٤  
الهند - ١٣٨، ٤٢٠، ٤٨٨، ٧١٠، ٧١٢، ٧١٤، ٧٤٣  
المحيط الهندي - ٤٢، ١٣٨، ١٣٩، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٦، ٦٦٦، ٧١٠  
المحيط - ٣٩٧  
الخيام - ٦٥٠  
إنيورو (كهف) - ٦٧٧  
ايران - ٦٣٤، ٧١٢  
العراق - ٢٢، ١١٧، ٦٣٤  
أرصاد (جبل) - ٥٧٩، ٥٨١  
ازغيفلا - ٥٤٨  
اشكول (بحيرة) - ٥٧٥  
الخليج الفارسي - ١٠٦، ٦٩٣  
أشنغو - ٤٩٨، ٥٥٥، ٥٦٧، ٦٣٠  
اسرائيل - ٤٠٥  
القاهرة - ٢١٧، ٤١٦، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٧، ٦٤٩، ٦٥٧، ٦٦٠، ٦٦١، ٧٢١، ٧٢٦، ٧٢٨  
استانبول - ٢٤  
البحر الاحمر - ٤٢، ٧٥، ٩٤، ٩٦، ١٠٥، ٢٨٢، ٣٣٢، ٣٨٢، ٣٨٤، ٤٠٠، ٥٩١، ٦٦٥، ٧١٩

٣٣٩، ١٥٢، ١٤٣  
توات - ٦٧٤  
تودنيت - ٥٩٣  
تولو - ٦٧٧، ٥٥١  
ترنسفال - ٤٣٨، ٤٢٠، ٣٤٦  
٥٢٩، ٥٢٣، ٥١٥، ٥١٣، ٥٠٤  
٦٧٢، ٦٧٢، ٦٧١، ٦٦٦، ٥٢٩  
٦٩١، ٦٨٠، ٦٧٦  
تنسانغولان - ٥٣٠، ٥٢٥  
تونس - ٤٤٦، ٣٨١، ٣٤٦، ١٣٠  
٦٠٣، ٥٨٤، ٥٨٠، ٥٧٩، ٥٧٥  
تركيا - ٤١٧، ١٣٩  
توركانا (بحيرة) - ٤٢٦، ٤٢١  
٤٨٥، ٤٧٧، ٤٦١، ٤٣٢، ٤٢٩  
٥١١، ٥٠٨، ٥٠٦، ٤٩٧، ٤٨٨

## ج

جامعي - ٦٤٤  
جبل طارق - ٥٧٩، ٣٣٤  
جبارين - ٦٨٦، ٦٧٥، ٦٦٦، ٣٤  
٦٩٠، ٦٨٨  
جفا - ٤٦١، ٤٤٧، ٤٣٦  
جبريشو - ٧٢٢، ٧٢١، ٦٥٠  
جوهنسبورغ - ٤٢١  
جوس (نجد) - ٦٣٩، ٦٢٥، ٣٢٢  
جوبي (رأس) - ١١٦  
جوف - ٣٨٢

## ح

حرار - ٢٩٣  
حلوان - ٦٦٠، ٦٥٦، ٦٤٩  
حوض البحر الابيض المتوسط -

٣٠٩، ٣٩٥، ٢٩٣، ٢٨٤، ٢٥٤  
٤٢١، ٤٠٩، ٣٤٦، ٣١٥، ٣١٠  
٤٤٢، ٤٣٨، ٤٢٩، ٤٢٦، ٤٢٥  
٤٧٦، ٤٧٣، ٤٦٤، ٤٥٨، ٤٤٧  
٥٠٦، ٤٩٩، ٤٩٦، ٤٩١، ٤٨٣  
٥٤٢، ٥٣٩، ٥٣٠، ٥١٢، ٥٠٨  
٦١٨، ٥٧٧، ٥٧٥، ٥٦٠

تاوسا - ٦٢١  
تازة - ٧٢١، ٦٥٣  
تسيلي - ٦٦٦، ٦١٢، ٢٨٤، ٢٧٧  
٦٧٤، ٦٧١، ٦٧٠، ٦٦٩، ٦٦٧  
٦٩١، ٦٩٠، ٦٨٨، ٦٧٦، ٦٧٥  
تشاد - ٢٥١، ٢٠٥، ١٠٢، ٣٤  
٤١٢، ٤٠٩، ٤٠٣، ٣٩٤، ٣٣٤  
٤٤٤، ٥٩٦، ٥٩٣، ٥٣٣، ٥٣٢  
٦٩٩، ٦٧٥، ٦٦٦، ٦٣٣، ٥٩٩  
تشاد (حوض) - ٢٥٠، ٩١، ٢٥  
٣٢٨، ٣٧٧، ٣٣٨، ٣٢٩، ٢٨٧  
٧١٧، ٥٥١، ٥٤٩  
تشاد (بحيرة) - ١٠٧، ٩٣، ٩١  
٥٠٤، ٣٩٩، ٣٧٧، ٣٥٣، ١٣٩  
٦٢١، ٦٢٠، ٦١٧، ٦٠٣، ٥٩٩  
٦٣٤، ٦٣٢

تشيكوسلوفاكيا - ٨٥  
تكرور - ١٦٦، ١٣٩  
تيل - ٣٣١  
تنيري - ٦٩٢، ٦٨٤، ٦٦٦، ٦٠٨  
٧٣١  
تنسيفت - ٤٥٥  
تيسستي - ٦٦٦، ٦٥١، ٣٨١  
٧٣١  
تيشيت - ٦٢٩، ٦٣٦، ٦١٠  
٦٩٢، ٦٨٨، ٦٧٦  
تلمسي (واد) - ٧٤٨، ٦٠٥  
تلمسان - ٥٧٧  
تمبوكتو - ١٣٩، ٥٤، ٤٤، ٢٤

بيزرت - ٣٣٠  
بودلي (بحيرة) - ٦٢٠، ٣٧٧  
بنغور - ٦٢٠  
بورنيو - ٣١٦  
بورنو - ٦١٩، ١٤٩، ١٤٤  
بوتسوانا - ٥٢٨، ٥١٤، ٣٦  
٦٩٤، ٦٨٩، ٦٧٢، ٦٦٦  
بوات - ٥٦٢، ٥٥١، ٥٤٩  
بوغوني - ٢٠٨، ١٨٦  
بوسا - ٦٢٥  
بوئنا - ٧١٧  
برانفيل - ٥٤٢، ٥٣٦  
بروكن هيل - ٥١٤، ٤٥٥، ٢٣٠  
٥٢٦، ٥٢٥، ٥١٥  
بوراندي - ٣٣٩، ١٦٤، ٣٥  
٥٦٨، ٥٦٠، ٥٥٧، ٥٣٣، ٣٥٤  
بيزانس - ١٠٥  
باكستان - ٤١٧  
بالماس (رأس) - ١٣٠  
بير (كهف) - ٥٢٦، ٥٢٥  
بريتوريا - ٥١٣

## ت

تشنغيف - ٦٠١، ٦٠٠، ٥٧٩  
تدارت اكاكوس - ٢٨٤  
تفورالت - ٥٨٠  
تغيط - ٦٨٦  
تمدا - ٥٧٧  
تمنتيت - ٦٧٤  
تمغروت - ١٣١  
تنجانيقا - ٣٤٩، ٣٣١، ١٥٩  
٧١٢  
تنجانيقا (بحيرة) - ٥٦٧، ٥٦٣  
تنزانيا - ١٦٧، ١٦١، ٩٠، ٣٨



٤٥٥، ٥١١، ٥١٢، ٥١٧، ٥١٩،  
٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٧، ٥٢٩، ٥٣٠،  
٥٥٣، ٥٥٧، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦٦،  
٦٦٩، ٦٧٦،  
زنج - ١٣٩  
زنزبار - ١٠٦، ١٤٥، ١٤٩، ٧٥٤  
زنبی - ٦٢٨  
زمبابوي - ٨٤، ٣١٦، ٣٤٣،  
٢٤٦، ٢٤٧، ٣٦٤، ٥١٣، ٥١٧،  
٥١٩، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٨، ٥٣٠،  
٥٣١، ٥٥١، ٦٧٦، ٦٧٧، ٧١٢،  
زوای - ٣٧٧

## س

سبته - ١٠٥  
سیلان - ٤٤٢  
سنغوباي - ٧٤٦، ٥٤٢، ٤٤٦  
ساورة - ٣٨٣، ٤٠٩، ٤٤٥،  
٥٧٥، ٥٩٣، ٥٩٦، ٥٩٩، ٦٠٠،  
٦٠٥، ٦٠٣  
سیکو - ٣٤، ٢٥  
سیدی عبد الرحمن - ٥٨٠  
سیدی منصور - ٥٨٥، ٥٧٩  
سیدی زین - ٥٧٩، ٥٧٧  
سیرالیون - ٨٢، ٥٦، ٩٥، ١٤٧،  
١٤٩، ٢٥٢، ٣١٦، ٣٣٢، ٣٤٦،  
٣٧٠، ٦٣١، ٦٣٠، ٦٤٠  
سجلماسة - ١٣١  
سیناء - ٦٥٨  
سیوا - ٦٥٥، ٦٤٤  
ستانی بول - ٣٣٨، ٥٤٤، ٥٤٥،  
٥٤٨، ٥٤٩  
ستیل پای - ٤٤٥، ٥٢٨، ٥٤٧،  
٧٤٦

دراکنسبرخ - ٢٢٧، ٥٣١، ٦٦٧،  
٦٧٦، ٦٨٠، ٦٩١

## ر

ریغان - ٥٧٥  
رودیسیا - (انظر زامبابوي).  
رودولف (بحيرة) - ٣٣١، ٣٥٣،  
٣٧٧، ٣٩٨، ٤٣٩، ٤٩٥،  
روما - ١٠٤، ١١١، ٧٥٥  
روب - ٦٣١  
رواندا - ٢٦، ٨٢، ١٦٨، ٢٨٩،  
٣٥٤، ٤٣٨، ٤٩٠، ٤٩٥، ٥٣٣،  
٥٥٣، ٥٥٧، ٥٦٠

## ز

زاییر - ٢٢، ٣٥، ٤٥، ٦١،  
٩٨، ١٥٩، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥،  
١٦٧، ٢٥٤، ٢٨٩، ٢٩٧، ٣٤٦،  
٣٧٩، ٤٤٨، ٥٢٧، ٥٣٣، ٥٣٥،  
٥٣٦، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٢، ٥٤٤،  
٥٥١، ٥٥٧، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦٢،  
٥٦٥، ٥٦٩  
زاییر - (حوض) - ٣٤، ١٠٦،  
٣٣٨، ٣٥٧، ٤٩١، ٤٩٥، ٥٢٠،  
٥٢٥، ٥٣٠، ٥٣٣، ٥٣٦، ٥٣٩،  
٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٦، ٥٤٨، ٥٤٩،  
٥٥١، ٥٥٢  
زاییر (نهر) - ٥٤٨  
زاییر (وادی) - ٢٨٩  
زامبیز - ٤٥، ١٠٦، ١٢٩، ١٤٠،  
٢٦٠، ٣٣٨، ٣٤٠، ٥١٤، ٥٣٠،  
٥٥٨، ٦٧٦  
زامبیا - ٣٤، ١٦١، ٢٣٠، ٣٤٩،

٣٣٠، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٤٠٥،  
٤٠٨، ٤٨٥، ٧١٧، ٧٢٩، ٧٣٩

## خ

خمي - ٥٢٥  
خرجا - ٦٠٠، ٦٠٣، ٦٤٣، ٦٤٤،  
٦٤٧  
خمست الدیب - ٧٢٢  
خنشلا - ٥٨٦  
خورد أبو أنفا - ٦٤٣  
خوربهان - ٧٣٣  
خورد داود - ٦٤٤، ٦٤٧، ٦٥٢  
خوركوسا - ٦٤٨

## د

دبا - ٥٢٥  
دغومبا - ٣٨  
دهومي - ٤٦، ٦٥، ١٠١، ٣٥٨،  
٢٦٩، ٣٣٥، ٣٤٠، ٦١٧، ٧٥٤  
دیما - ٦٣٢  
دکار - ٥٦، ٨٢، ٨٤، ١٤٤، ٣٣٤،  
٦٢٥، ٦٣٠، ٦٣١  
دخلي - ٦٤٤  
درفور - ٣٠، ٩١، ١٣٩، ١٥٢،  
٧١٧  
دیدر - ٦٧٠  
دمبا (کف) - ٥٦٤، ٥٦٩  
دجانیت - ٦٦٦، ٦٨٢  
دجیبا - ٦٢٠، ٦٢٦  
دجیرات - (واد) - ٦٧٠، ٦٧١،  
٦٧٥، ٦٨٢، ٦٨٦، ٦٨٩، ٦٩٠،  
٦٩٢، ٦٩٥  
دنغولا - ٦٤٤، ٦٥٠، ٧٣٩، ٧٤٢

سوازيلان - ٥٢٨  
سوريا - ٧٣٧

## ش

شامي - (جبل) ٥٧٩  
شاميلان - ٥٧٥  
شري - ٣٧٨، ٩٢، ٩١  
شلال (جبل) - ٣٨٠  
شوكوتيان - ٤٤١، ٤٤٠، ٤٣٩، ٤٤٤  
شبابا - ٤٤٢، ٣٤٨، ٣١٣، ٣٥، ٥٣٣، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٤٠، ٥٤٢، ٥٤٤، ٥٥١، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٦، ٥٦٧  
شامي - ٣٧٨  
شيللا (بحيرة) - ٣٧٧  
شندي - ٦٥١  
شردا - ٦٠٠  
شغورا - ٥٠٨، ٤٢١

## ع

عين البيضاء - ٥٨٨  
عين بوشريط - ٥٧٥  
عين بريما - ٥٧٥  
عين دكارا - ٥٨٨  
عين فريتيسا - ٥٧٧  
عين حنش - ٥٧٥  
عناية - ٥٧٥

## غ

غانا - ٨١، ٥٢، ٤٤، ٣٨، ٣٢، ٩٨، ١١٩، ١٥٢، ١٦٦، ٣٤٦

٦١٧، ٣٦٧، ٣٦٤، ٣٦٣، ٣٥٨، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٣٠، ٦٣٢، ٧٥٥، ٦٣٦، ٦٣٤

## ف

فوتا - دجالون ٣٣، ١٤٤، ٢٠٨، ٦١٧، ٦٢٤، ٦٣٠، ٦٣١  
فرناندوبو - ٦٣٣، ٢٩٧  
فوارات - ٥٧٥  
فرنسا - ٦٨٠، ٢٨٢، ٢٨١، ١٤٤  
فلسطين - ٦٥٨، ٦٥٠، ٢٨٤، ٦٣٧

## ق

قارة - ٦٤٨  
قطارة - ٢٨١، ١٥٧  
قبايل - ٢٨٥  
قصر مرون - ٧٢٣

## ك

كليري - ٣٣٥، ٣٣٤، ٢٩١، ٢٢، ٣٣٧، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٥٦، ٤٧٥، ٥٣١، ٥٦٨، ٥٧٠، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠٦  
كلمبو فالس - ٥١٣، ٥١٢، ٣٤٩، ٥١٥، ٥١٧، ٥٢٣، ٥٢٨، ٥٥٥، ٥٥٩، ٥٦٠  
كموا - ٥٥٨، ٥٥٥، ٥٤٢، ٥٤١، ٥٥٩، ٥٦٢، ٥٦٧  
كمبالا - ٥٦

كنام - ٤٥٨

كنجرا - ٥٣٥، ٥٢٦، ٤٤٧  
كرنك - ٦٦١، ٦٦٠، ٢٣٣  
كساي - ٥٣٨، ٥٣٧، ٤٤٨، ٤٤٥، ٥٤٢، ٥٤٨، ٥٥٧، ٥٦٠، ٥٦٥، ٥٧٠

كتنغا (انظر شابا).

كينيدوغو - ١٨٣  
كينيا - ١٦٨، ١٦١، ٩٥، ٩٢، ٩٠، ١٧١، ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٩١، ٣٤٦، ٣٤٧، ٤٠٩، ٤١٦، ٤١٧، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٦، ٤٢٩، ٤٤٠، ٤٤٧، ٤٥٨، ٤٦٤، ٤٧٦، ٤٨٣، ٤٨٨، ٤٩٢، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٣٥، ٥٣٨، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٧٤٤، ٧٤٦، ٧٤٧

كينيا (جبل) - ٥٥٩، ٣٧٩، ٣٣١  
كينشاسا - ٥٥٤، ٣٣٩، ٢٤٢، ٥٤٨، ٥٥٨، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٧٤٥  
كومبالا - ٦٧٧، ٥٥١  
كوماسي - ١٤٩، ٤٧  
كوانغو - ٥٦٤، ٥٦٣، ٥٥٧، ٥٤٩

## ل

لاغوس - ٣٤  
لاهاي - ١٣٥  
لسكو - ٥٨٤، ٤٣٨  
لمكروت - ٤٥٨  
لنغو - ٦٧٧، ٥٥١  
ليسوتو - ٦٦٦، ١٣٦  
لوفالوا - ٤٤٨  
ليبيريا - ٢٦٩، ٢٦٠، ١٣٠، ٩٥، ٣٣٦، ٣٤٦، ٣٧٠، ٦٣٠

## هـ

هدار - ٤٠٩، ٤٣٣، ٤٥٨، ٤٦١  
هو (كهف) - ٥٦٥  
هليوبوليس - ٦٥٧، ٦٥٨، ٧٢٨  
هوغار - ٦٠٣، ٦٠٥، ٦٦٦، ٦٧٤  
هونفانيا - ٦٩٠، ٧٢٢  
هو - ٧٢٦  
هوامبو - ٥٥٧  
هراكس هيل - ٦٥٠

## و

وداي - ٣١ - ١٣٩ - ١٤٥  
ونزريا - ٦٤  
وكسا - ٦٤٢  
ويشمال - ١٣٥  
ويليهيم (جبل) - ٤٠٣  
ويلتون - ٤٤٩  
ويندهوك - ١٣٧، ٥٣٠  
ويندرسوتين - ٥١٧  
ويندربرومبورت - ٥١٤

## ي

يكالا - ٦٣١  
يام - ٣١  
يطانغا - ٦٠ - ١٥٩  
يايو - ٦١٩  
يمن - ٣٠، ٥٢  
يتجيا - ٦٣٠، ٦٣١  
يولا - ٦٢٠

٤٠٥، ٥٧٥، ٥٩٣، ٥٩٦، ٦٠٣، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦١٠، ٦١٢، ٦٢٤، ٦٣١، ٦٣٤، ٦٣٦، ٦٦٦، ٦٨٨، ٦٩١، ٧٤٨  
مقفيس - ٧٢٢، ٧٢٣  
مبوتو (بحيرة) - ٣٣١، ٣٧٩، ٣٩٨  
منروفيا - ٩٥، ٥٦  
مناغو - ٥١٥، ٥٢٨، ٥٧٥  
مستفانم - ٥٧٥  
مويلج - ٥٨٢، ٥٨٦  
موزنبيق - ٧٤، ٢٦٠، ٣٠٢، ٣٣٩، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٦، ٥١٩، ٥٢٠

## ن

نيروبي - ٣٧٦  
نيفاشا - ٣٧٧، ٣٩٨، ٤٤٦، ٤٩٦، ٥٣٠، ٥٣٥  
نميبيا - ١٣٠، ١٣٦، ٢٩١، ٣٤٦، ٥١٩، ٥٢٥، ٥٢٩، ٥٣١، ٦٦٦، ٦٧٢، ٦٧٦، ٦٨٠، ٦٩٠  
نقال - ١٣٦، ٥١٩، ٥٢٥، ٦٧٢، ٦٨٨  
نقرون - (بحيرة) - ٤٢١، ٤٢٦  
نجامينا - ٢٩  
نغورو - ٥٧٠  
نجيريا - ٣٠، ٥٦، ٩٥، ١٠٢، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٩، ١٥٩، ١٦٥، ١٧١، ٢٠٧، ٢٦١، ٢٨٧، ٣١٣، ٦١٧، ٦٢١، ٦٣٦، ٦٣٨  
نودي - ٦٤٢، ٦٤٣  
نزاكو - ٥٤٤

## ليبيرفيل - ٣٣٥

ليبيا - ١١٦، ٢٣٨، ٢٨٤، ٢٨٧، ٥٧٥، ٥٩٦، ٦٥٥، ٦٦٦، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٩  
ليفنغستون - ٥١١  
لندن - ٢٣٦، ١٣٥  
لوكسور - ٢٣٣، ٢٣٢، ٥٦٠  
لوبمباشي - ٨٦  
لوكينو - ٤٢٥  
لوندا - ٥٤٤، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦٢، ٥٦٤، ٥٦٥

## م

مسينا - ٢٣، ١٣٩، ١٤٩، ٢٠٦، ٢٣٨، ٢٠٨  
مدغشقر - ٣٨، ١٢٩، ١٤٦، ٣٣٢، ٣٣٦، ٣٤٠، ٣٤٢، ٧١٤  
ملاوي (بحيرة) - ١٤٠، ٣٤٩، ٥٠٨، ٥٢٠، ٦٦٦، ٦٧٦  
مالي - ٢٢، ٢٣، ٢٦، ٢٨، ٣٣، ٣٨، ٤٤، ٦٠، ١٦٤، ١٦٧، ١٧١، ١٧٧، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٠، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٦، ٢٥٦، ٣٦٤، ٣٧٠، ٦٢١، ٦٣٦، ٦٧٣، ٧٤٩، ٧٥٤  
ملندي - ١٣٨  
مندارا - ٩٢، ١٤٥، ٦١٧  
مندي - ٦٤، ٩٨، ١٧٩، ١٨٣، ١٩٦، ٢٠٦  
متوبي - ٥٥٥، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧  
موريطانيا - ١١٦، ١٣٢، ١٣٣، ١٧١، ٢٩٥، ٣٠٩، ٣٣٤، ٣٣٥

## أسماء السلالات الحاكمة

الخارجيون (أو الخوارج) - ١٢٠، ١٢٤	السلالة الرابعة: ٢٣٥ السلالة الخامسة: ٢٨٩ السلالة السادسة - ٢٨٩	العباسيون - ١٠٥ الموحدون - ٣٥، ١٠٨، ١٢٠، ١٢٢، ١٢١
المماليك - ١٠٨، ١٢٠، ١٢٢ الامويون - ١٠٥ العثمانيون - ١٣٠، ١٣١ بطلميوس - ١١١ الريستميون - ١٢٠ السعديون - ١٣٠ الساسانيون - ١١٧ السنينيون - ١٢٤ بنونيري - ١٠٥	السلالة الثامنة عشرة: ٦٦١، ٦٩٠ السلالة التاسعة عشرة: ١٠٨ السلالة العشرية: ١٠٨ السلالة الخامسة والعشرون: ٧٤٢ الفاطميون: ١٠٥ الحفصيون: ١٠٨ الاباطنيون: ١٢٠	المرابطون - ١٠٦، ١٢٠-١٢١ الايوبيون - ١٠٥، ١٠٨، ١٢١ الدينا - ١٣٩ مصر: السلالة الاولى: ٢٢١، ٦٣٩، ٧٢٩، ٦٨٩ السلالة الثانية: ٦٨٩، ٧٢٩، ٧٣٤ السلالة الثالثة: ٦٦١

## الاسماء العرفية

٧٤٩، ٦١٠، ٣٦٣، ٢٩٥، ٢٨٥ ٧٥٢ تمهو - ٢٨٧ تدا - ٣١ توما - ١٤٩، ٢٧٠، ٣٧٠ توارك - ٢٦٩، ٢٧٨، ٢٨٩، ٣٥٤ توبو - ٢٧٨ تسوانا - ٣٧-١٥٩ تركانا - ٩٢ تونسي - ٣٥٤ توا - ٢٩١، ٥٣٢ توي - ٢٤٧ جودا - ١٠١ حبشات - ٢٨٣ حدزا - ٤٧٥ حدزيي - ٢٩٦، ٢٩٥	٧٤٩، ٦٩٣، ٦٩١، ٦٦٨ بريبيا - ١٠٢ بزا - ١٤٩ - ٢٧٠ بمبا - ١٢٩ - ٢٩٩ بول - ٢٨، ٢٩، ٣٣، ٣٤، ٣٩، ١٥٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٦، ٢٠٦، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٧٨، ٢٩٨، ٣٥٤، ٦٨٢، ٦٩١، ٦٩٢، ٧٤٩ بني هلال - ٣٩ بوربو - ٣٦٤ بوم - ٩٢ بومي - ٩٢ بوري - ٣٧٠ بوزو - ١٩٦، ٩٥ بلوم - ٢٩٧ بيجمي - ٢٧٤، ٢٧٧، ٢٨٣	الركييات - ٢٧٧ عجمي - ٢٤ اناقتي - ٢٩٣ اشنطي - ٣٣، ٣٧، ٦٤، ٦٧، ٣٦٣ اميو - ١٦١، ١٦٨ اكان - ٥٥، ٦٧، ٢٤٨، ٢٦٠ البرابرة - ٩٤، ٢٥٤، ٢٥٥ بمبارا - ٢٩، ٣٣، ٢٥، ٦٤، ٦٦، ٩٥، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٦، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٠٨، ٢٥٨، ٢٥٩ بمون - ٢٤، ٩٥، ١٢٨، ١٢٩، ١٤٩ بنتو - ٣٥، ٣٩، ٥١، ٩٧، ٩٨، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٥٦، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٣٨، ٥٣٠، ٥٥١، ٦٦٩
---	---	---

۲۵۸، ۲۵۶، ۲۵۵	سورکو - ۶۲	حراتین - ۲۷۸
مسیاناک - ۲۰۸	سوتو - ۱۵۹، ۲۳	خوي خوي - ۲۹۱، ۲۸۲، ۱۳۵
ماهي - ۱۰۱	سوزو - ۲۵۴، ۲۴۲	۲۹۵، ۲۹۶، ۳۰۴، ۳۰۶، ۳۰۷
ماندي - ۳۶۵، ۲۷۰	سوازي - ۲۹۱	۷۹۳، ۵۳۲
مانکبتو - ۳۶۸	شونۋه - ۲۸	خویزان - ۷۴۹، ۲۹۱
مارکا - ۲۷۷، ۲۰۸، ۲۰۶	فنج - ۱۵۹، ۲۹	دغومبا - ۳۶۶
موریس - ۳۹	فنتي - ۱۴۵، ۶۸	دنکسونو - ۱۰۱
میوشی - ۹۸	فون - ۲۴۴، ۱۰۱	دنکا - ۲۸۹
میون - ۱۶۴	فولاني - ۵۱	دیولا - ۲۴۸، ۱۷۱، ۱۴۳، ۱۲۹
منکوبیس - ۴۳۸	فولبی - ۲۴۷، ۲۴۱، ۹۲	۳۷۰
مرینا - ۳۱۶، ۳۰۲، ۱۴۷	کنوری - ۱۴۴، ۳۱، ۳۰	دغون - ۱۶۴، ۱۶۳، ۱۵۶، ۹۵
موری - ۳۶۵، ۶۶	کنمبو - ۱۲۹	۱۷۱، ۱۸۵، ۱۹۸، ۲۰۸، ۲۵۷
موسی - ۲۴۸، ۱۶۴، ۱۵۹	کفورو - ۱۶۷	۲۷۰، ۲۵۸
نکوندی - ۳۳	کابی - ۳۶۳	دوکو - ۲۸۹
نکونی - ۳۳	کیشوار - ۳۱۶	دروبو - ۴۷۶
نیاکوزا - ۳۳	کیکیرو - ۹۵	دوالا - ۲۴۷
نما - ۱۳۶	کردي - ۳۶۳	زاند - ۳۱۴
نیاکتوم - ۹۲	کروا - ۹۲	زیرما - ۶۳
نومید - ۱۱۶	کیسی - ۳۷۰	زغوا - ۱۱۹
نسییدی - ۲۶۹، ۲۶۰	کیسواحلی - ۲۴۴، ۱۲۹	زولو - ۲۹۴، ۲۹۱، ۱۳۶، ۶۴، ۳۳
نون - ۲۴۸	کومو - ۳۶	سامو - ۳۷۰، ۶۶
نارون - ۲۹۶	کنیانکی - ۳۷۰	سان - ۲۸۳، ۲۸۲، ۲۷۴، ۱۳۶
هوسا - ۱۲۹، ۵۱، ۴۴، ۲۹	کوکویا - ۱۶۷	۲۸۵، ۲۹۱، ۲۹۲، ۲۹۳، ۳۰۴
۱۴۳، ۱۴۴، ۱۶۰، ۱۷۱، ۲۴۴	کولنفو - ۳۶۵	۳۰۵، ۳۱۶، ۴۷۵، ۴۷۶
۲۴۷، ۲۵۷، ۲۵۸، ۳۰۳	کوکاس - ۳۶۶	۴۹۴، ۴۹۵، ۵۲۶، ۵۳۱، ۵۳۲
هیا - ۳۸	کوا - ۹۸	۵۶۸، ۶۸۰، ۶۸۱، ۶۸۵، ۶۸۹
هریرو - ۱۳۶	کوادی - ۲۹۶، ۲۹۵	۶۹۳، ۷۰۰
هوتو - ۳۵۴	لیبو - ۲۴۸، ۲۴۴	سنفوفو - ۳۷۰، ۶۷، ۳۹
هکسوس - ۷۳۷، ۲۸۳	لیببولوف - ۲۵۶	ساو - ۱۰۲، ۲۵
وارسنگالی - ۲۸	لنغالا - ۲۴۷	سراکولی - ۲۸۸، ۲۰۸
ویلی - ۳۶۵	لوبی - ۳۷۰، ۳۶۵	سافی - ۱۰۱
وولوف - ۲۴۷، ۲۴۴، ۲۴۱، ۲۹	لوما - ۳۷۰	سیریر - ۲۵۴، ۲۴۸، ۲۴۷، ۲۴۵
۲۴۸، ۲۵۵، ۲۵۶، ۲۵۷، ۲۷۰	لوبا - ۲۹۷، ۱۶۰، ۱۵۹	۲۷۰، ۲۵۶
یورویا - ۲۴۷، ۱۶۳، ۱۴۶، ۵۵	لوند - ۶۴، ۳۳	سیفوفو - ۳۷۰، ۶۷، ۳۸
۲۵۷، ۲۶۰، ۲۶۹	مالینک - ۲۷۰، ۶۳، ۳۳	سنفاسی - ۱۳۹، ۶۶، ۶۴، ۶۳
	ماندنک - ۲۴۸، ۲۴۴، ۳۵، ۳۲	۲۴۷، ۲۵۴، ۲۷۹، ۶۳۴

## الموضوعات، والمفاهيم والنظريات الهامة

٤٩٥، ٤٨٣، ٤٦٩، ٤٣٦، ٤٣٥	الفن - ٣٦٤، ٣٧٠، ٣٧١، ٤٦٩	علم الآثار - ٢٤، ٢١٣، ٢٣٩
٥٨٣، ٥٦٨، ٥٤٩، ٥٤٨، ٥٣٥	٤٧٢، ٤٩٤، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٥١	٢٨٤، ٣٦٤، ٤٣٢، ٤٢٥، ٦٣٠
٦٦٩، ٦٥٠، ٦٢٧، ٦٠٤، ٥٨٨	٥٥٣، ٥٨٨، ٥٩٠، ٦٣٩، ٦٥٩	٧٢٠، ٧١٧، ٦٦١
٧٤٨، ٧٤٥، ٧٣١، ٧١٨	٧٤٩، ٦٦٥، ٦٦٠	علم الانسان - ٣٠، ٤٨، ٥٢، ٥٠
٤٤٤، ٤٤٢، ٤٣٣ - أولدواي	الانسان الجنوبي القديم - ٢٨٤	٣٦٨، ٣٤٨، ٣٠١، ٢٨٥، ٧٨
٥٦٠، ٥٤٩، ٥٠٨، ٤٨٣، ٤٧٨	٤١٤، ٤٢١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٥	٤٧٥
٦٤٢، ٦٠٨	٤٤٤، ٤٥٦، ٤٥٩، ٤٦١، ٤٦٢	الوثنية التجسيمية - ٦٦، ٦٧
١٦٣، ١٢٤، ١٢٠، ٧٩، ١٦٢	٧٤٤، ٥٦٠، ٥٠٩، ٥٠٦	٣٧٠، ١٠٦
٧٥١، ٦٨٩، ٢٥٨، ١٧٩، ١٦٤	العاطري - ٦٠١، ٦٤٤، ٦٦٢	المصادر المكتومة (أو الاحيائية) -
٦٨، ٦٥، ٦١، ٥٩، ٣٥، ١٦٧، ٩٨	الدولة - ٧٥، ١٢٢، ١٦٢، ١٦٩	٢٣، ٤١، ٤٤، ٩٠، ٩٦، ٩٥
١٦٧، ٩٨	٣٥١، ٣٦٩، ٧٥٣، ٧٥٧	١٠٣، ١٠٨، ١٢٥، ١٢٧، ١٥٣
٦٤، ٤٤، ٢٥ - النقل الشفوي	الكتابة - ١٠٣، ١٢٩، ١٧٧، ٢٥٨	٣٦١، ٢٥٨، ١٧٧
١٥٥، ١٣٦، ٩٨، ٩٠، ٨٩، ٧٧	الاقتصاد - ٨٠	التمركز العرقي - ٤٧، ٧٢، ٢٥٣
٢٥٨، ٢٤٢، ١٧٧	اقتصاديات العيش - ٨٠	٦٩٧
١٤١، ٧٤، ٥٢، ٤٧ - العنصرية	اللغات - ٢٩، ٥١، ١٠٨، ١٥٥	الاسلام - ٤١، ٤٤، ٦٧، ٦٨
٣٧١، ٢٥٣	٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٧٠	١٠٣، ١٠٥، ١١٦، ١٢٠، ١٢٤
ما قبل التاريخ الاقريقي - ٩٠	٢٨١، ٢٩٦، ٣٠١، ٣١٩	٢٠٦
٤٨١، ٤٦٧، ٤٣٥، ٤١٣، ٣٤٥	الالسنيات (علم اللغات) - ٢٩، ٥٠	الزراعة - ٩٢، ٢٨٤، ٣٤٠، ٣٤٨
٦١٥، ٥٩١، ٥٧٣، ٥٣٣، ٥٠١	٩٦، ١٥٥، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٧٠	٣٥٧، ٤٩٥، ٤٩٨، ٦١٠، ٦٣٢
٦٤١	٢٧٨، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٥	٦٣٤، ٦٨٥، ٦٨٧، ٧١٩، ٧٤٦
العصر الحجري القديم - ٤٦٥	٣٠١، ٣١٩، ٣٦٥	القياسات الاثرية - ٢١٤، ٢٢٠
٤٧٧، ٤٨١، ٤٨٣، ٥٣٩، ٦٢٢	السحر - ١٨١، ٦٨٨، ٨٥١	٢٢٦
٦٤٢	المنهجية - ٢٠، ٥٥، ٨٩، ٩٢	الاشسولي - ٤٤٤، ٤٧٨، ٤٨٥
العصر الحجري الوسيط - ٤٦٥	١٠٢، ٣٦١، ٣٦٨، ٤٦٧، ٤٧٢	٥٠٩، ٥١٦، ٥٣٣، ٥٣٧، ٥٤٠
٤٧٧، ٤٨١، ٤٨٩، ٥١٩، ٦٢٦	الموسيقى - ٢٩، ١٩٨، ٢٠٣	٥٥٨، ٥٧٧، ٥٩٩، ٦٢٢، ٦٤٢
العصر الحجري المتأخر - ٤٦٥	٣٦٤	العصر الحجري - ٤٦٨، ٤٨١
٤٧٧، ٤٨١، ٤٩١، ٥٢٩، ٥٥٥	الحركة التاريخية - ٣٧٠، ٣٥١	٥٥٥، ٥٦٨، ٦٢٢
٦١٧، ٦٢٨، ٦٣٩	الاوهم - ٦٠، ٦٣، ١٦٧، ١٧٩	عصر الحديد - ٤٦٩، ٥٣١، ٦٣٨
تداخل العلوم (الاختصاصات) -	١٩١، ٦٨١، ٦٨٨	دراسة الاعلام - ٢٥٦
٤٥٤، ٣٦٨، ٣٦١، ٣٣	العصر الحجري الحديث - ٢٨٥	الانترولوجيا الدلالية - ٢٥٦

٤٧٧، ٥٠١، ٥١٩، ٥٣٧، ٥٥٣، ٥٨٢، ٥٩٥، ٦١٩، ٦٦٦، ٧٤٦، التدوين التاريخي الافريقي - ٤١، ٥٦، ٧١، ٧٦، ٨١، ٨٩، ١٢٩، ١٣٣، ١٣٨، ١٤٨، القاسبي - ٤٤٦، ٤٩٤، ٤٩٨، ٥٧٣، ٥٨٣، ٥٨٥، ٥٨٨، ٦٠٧، الصيد - ٣٥٢، ٥٠٧، ٥٣٠، ٥٣٦، ٥٦٥، ٦٠٥، ٦٨٥، العهد البليستوسيني - ٣٥٣، ٣٥٧، ٣٩٤، ٤٢٠، ٤٤٥، ٤٥١، ٤٥٨، ٤٨١، ٥٠٢، ٥١٢، ٥٥٨، ٦١٧، ٧٠٢،	٤٥١ النساء - ٦٤، ١٦٤، ٥٨٨، ٦٢٤، ٦٨٦، ٧٥٥، علم الوراثة - ٢٧١، ٢٧٨، ٣٠١، الجغرافيا - ٢٢، ١١٨، ١٢٢، ١٥٣، ١٦٦، ٣٢٢، ٣٢٨، ٣٤٥، ٥٣٣، ٥٥٧، ٥٩١، ٦١٧، ٦٨٩، الجيولوجيا - ٣٢٩، ٣٤٥، ٣٥٧، ٣٨٠، ٧٤٥، الشاعر القصاصي - ٩٨، ١٥٥، ١٦٤، ١٧٩، ١٨٣، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٥٨، ٢٠٢، تاريخ الاحداث - ٣٤، ١٤١، ١٦٨، ٣٦٣، ٣٧٣، ٣٨٧، ٤٠٣،	الذاكرة الافريقية - ٢٠١، ٢٠٦، انماط الانتاج - ٧٥٣، الاستعمارية - ٤١، ٤٧، ٤٩، ٥٢، ٥٥، ٧٦، ١٨٤، الاستعمار - ٥٢، ٥٥، ٧٥٥، الوعي الافريقي - ١٤٦، الوعي التاريخي - ٦٠، العصر الحجري المبكر - ٤٦٥، ٤٧٧، ٤٨١، ٤٨٣، ٥٣٩، ٦٢٢، ٦٤٢، تحديد التواريخ (اوتحديد العمر) - ٩٠، ٢٢٦، ٢٤٥، ٤٢٥، ٤٤٢، ٤٧٧، ٥٠٢، ٥٢٥، ٦٦٦، التطور (التطورية) - ٢٧١، ٢٨٣،
--	--	--

## المختصرات المستخدمة في قائمة المراجع

٢٤٧، ١٠٥، العرقية - ٢٨١، ٢٨٧، ٣٠٢، ٥٨٦، الفوريميثي - ٤٤٦، ٤٧٨، ٤٩٠، ٥١٨، علم الانساب (السلالة) - ١٦١، ٢٠٠، ٢٠٥، التجلد - ٣٧٩، ٣٧٣، ٣٨٨، التاريخ المبني على تطور المفردات والصنغ - ٢٤٦، السكن - ٢٥٣، ٤٤٣، ٢٥٢، ٤٦٤، ٤٧١، ٤٩٢، ٤٩٦، ٥٠٧، ٥١٢، ٥١٤، ٥٢٨، ٥٣١، ٥٨٦، ٦٥٨، ٦٧٧، ٧٤٨، الهولوسين - ٣٧٣، ٣٩٤، ٤٤٨،	فئات الاعمار - ٦٧، ١٦٢، ١٦٨، طبقات الكائنات - ١٩١، ١٩٢، علم المناخ - ٣٧٣، ٣٩١، المناخات - ٣٣٣، ٣٧٣، ٣٨٧، ٤٠٣، ٥٠٢، ٥٢٠، ٥٣٥، ٥٨، ٥٩٢، ٦١٥، ٦١٩، ٦٩٩، التصحر - ٥٩١، الاقتصاد - ٧٩، النظام الايكولوجي - ٧٠٠، ٧١٤، علم الاثرثيات المصرية - ٩٤، ١١٧، ١٣١، ٢٨٤، بروز الانسان - ٧٤٣، الضعالة (الزواج للحمي) - ١٩٦،	زراعة النبات - ٧٠٢، الفن البومندي - ٦١٢، ٦٧٠، ٦٩٢، الفن البوبالي - ٦٧٠، ٦٧٥، ٦٩٢، المهاد الزراعية - ٦٩٧، ٧٠٣، ٧٠٦، الجغرافيا الاحيائية - ٣٤١، الخزافة (الفخار) - ٤٩٥، ٤٩٨، ٥٦٩، ٦٠٥، ٦١٢، ٦٣١، ٦٣٩، ٦٥٩، ٦٧٤، ٧٤٧، رؤساء المقاطعات الرئيسية - ٦٤، ١٠٠، ١٣٧، ١٩٦، ١٩٩، ٤٤٢، ٧٥٤، ٧٥١،
--	---	---

العلماء والمؤلفون - Authors

٦٧٧ - بتروغليف	٧٣٩, ٧١٧, ٦٣٦	٥٥٨, ٥٣١, ٤٨١
بليوسيني - ٣٧٤, ٤٤٥, ٤٢٠, ٥٠١	الحجارة الصغيرة - ٥٦٥, ٦٢٨, ٦٨٤, ٦٣١	فصيلة اليشريات - ٤١٣, ٤١٧, ٤٢٥, ٤٤٥, ٤٦٢, ٥٠١, ٥٧٥, ٧٤٤, ٦١٧
الماطرة - ٣٨٢, ٣٧٥, ٥٣٥	الهجرات - ٢٨١, ٣٥٦, ٣٥١	الانسان الهومين - ٩٠
٦١٩, ٥٥٨, ٥٣٧	٤٩٤, ٥٣٣, ٦١٢, ٦٢٣, ٦٨٩	ظهور الانسان - ٤١٣, ٤٣٥
مجتمعات ما قبل الملوك - ٦٥٠	٧٤٩, ٧١٣, ٦٩٩	٤٣٨, ٧٤٤
٧٣١, ٧٢٣, ٧٢٠	المويسيني - ٤٥٥, ٥٠٢	الجنس الانساني - ٤١٤, ٤٣٣
المقدمات البشرية - ٤١٣, ٤١٦	الموستيري - ٤٤٨, ٥٧٨, ٦٤٣	٤٤٤, ٤٥٤, ٤٥٦, ٥٠٦
٤٧٦	الاسمية - ١٥٦	الانسان المستقيم - ٤٢٩, ٤٣٢
العروق (النظريات المتعلقة بالعروق) - ٣٦٧, ٢٨٥, ٢٧١	علم الاعلام - ٢٥٥	٤٥٩, ٤٨٨, ٥١١, ٥٦١, ٥٩٩
٧٤٩, ٦٩١, ٤٩٨	الصناعات العظمية السنية - ٤٣٢, ٤٣٩, ٤٤٦, ٤٩٢, ٥٠٧	٦٢٤, ٦١٨
٥٠٢ - قردراما	الاصل الافريقي للبشرية - ٤٣٣, ٤٣٦, ٤٥١, ٤٧٧, ٤٩٨	الانسان الماهر - ٤٢٩, ٤٣٢
سنغوين - ٤٤٦, ٤٧٨, ٤٩١	٧٤٣	٤٤٤, ٤٦١, ٤٨٨, ٥٠٦, ٥٩٧
٥١٩, ٥٤٢, ٥٦٣, ٦٢٥, ٦٤٤	٧٤٣	٧٤٤, ٦١٨
٧٤٦	الادوات - ٣٤٧, ٣٤٩, ٣٧٦	الانسان العارف - ٩١, ٤٣٤
الجنسانية - ٦٨٨	٤٣٢, ٤٣٦, ٤٣٨, ٤٥٥	٤٢٥, ٤٤٤, ٤٥٥, ٤٨٩, ٥٠٧
سيجي - ١٦٤	٤٦٤, ٤٧١, ٥٠٧, ٥١٦	٥١١, ٥٦٤, ٧٤٧
ستيلباين - ٤٧٩, ٥٤٧	٥١٨, ٥٢٧, ٥٣١, ٥٣٦, ٥٤٩	الانسان العارف العارف - ٤٥٥
طوبولوجيا - ٢٥٥	٥٦٥, ٥٧٥, ٥٨٤, ٥٩٧, ٦١٢	٧٤٤, ٥٢٦
التقليديين - ١٨٣, ٢٠٣	٦١٨, ٦٤٢, ٦٦٠, ٧٤٥	الثروات المائية - ٣٤٨, ٣٥٦
تراث باطني سري - ١٧٣	المناخات القديمة - ٢٣٠, ٣٦٧	ايبروموسي - ٥٨٣, ٦٠٧
التراث الملحمي - ٢٦, ١٦٢	٣٧٦	كافوتي - ٥٣٩
التراث المكتوب - ٢٥٨	العصر الحجري الاول - ٤٨٣	خرطومي - ٦٥٠, ٧٣١
تجارة العبيد - ٤٧, ٤٨	٥٣٥, ٥٧٧, ٥٨٣, ٥٩٧, ٦٢٨	كينياييتك - ٤١٧, ٤٥٨, ٧٤٣
٧٥٥, ٣٥٨, ١٤١	الانتولوجية القديمة - ٩٠, ٤١٣	لوبامي - ٤٤٨, ٤٩١, ٥٣٨
التضيق - ٤٤٥, ٥٣٩, ٥٤٦	٤٥١, ٥٠١, ٥٧٤, ٦١٧, ٦٧٠	٥٤٥, ٥٦٣, ٦٢٦
٥٦٦, ٥٤٧, ٥٦٣	القرايات العرقية الثقافية - ٢٤٧, ٢٧١	أقنعة - ٣٦٤
الولتوني - ٤٧٩, ٤٩٤, ٥٣٠	منشأ الكلمة - ١٧٩, ١٨١, ٢٧٥	العصابات المرتبطة بالام - ١٠٠, ٧٥٥
المنطق الناحية - ٣٣٥	الرعي - ٣٥٣, ٤٩٥	النصب الحجارية - ٥٤٨, ٥٦٩
علم الحيوان - ٣٥٢	ثقافة الحصة - ٤٢٣, ٤٣٩	٦٣٩
	٤٤٥, ٤٤٨, ٥٣٩, ٥٧٤, ٥٩٧	المعادن - (انتشارها) -





تمت طباعته في  
الربع الأخير من عام ١٩٨٣  
على مطابع كانالي  
في تورينو (إيطاليا)

Achevé d'imprimer en Italie  
par Tipolitografia G. Canale & C. S.p.A. - Turin

الابداع القانوني: الربع الأخير من ١٩٨٣  
دار النشر: جون أفريك — ٣ شارع روكيين — ٧٥٠١٨ باريس  
رقم الناشر: ١/١٣٦٤







لقد ظلت الأساطير والآراء المسبقة بمختلف صورها تخفي عن العالم لزمن طويل التاريخ الحقيقي لأفريقيا. فقد اعتبرت المجتمعات الأفريقية مجتمعات لا يمكن أن يكون لها تاريخ. وعلى الرغم من البحوث الهامة التي اضطلع بها منذ العقود الأولى من هذا القرن رواد مثل ليفروينوس، وموريس ديلافوس، وأرتور ولابريولا، فإن عددا كبيرا من الأخصائيين غير الأفريقيين المتشبهين بمسلمات معينة قد ظلوا ينحازون إلى القول بأن هذه المجتمعات لا يمكن أن تكون موضوعا للدراسة العلمية، مستندين في قولهم هذا بصفة خاصة إلى نقص المصادر والوثائق المكتوبة. وقد كان ذلك في الواقع رفضا للاعتراف بأن الأفريقي مبدع لثقافات أصيلة ازدهرت واستمرت تسلك عبر القرون مسالك خاصة بها، لا يستطيع المؤرخ أن يدركها إلا إذا تخلى عن بعض آرائه المسبقة، والا إذا جدد منهجه.

وقد تطور الوضع كثيرا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد أن أخذت البلاد الأفريقية، وقد نالت استقلالها، تشارك مشاركة فعالة في حياة المجتمع الدولي وفي العلاقات المتبادلة التي هي أساس حياة هذا المجتمع، فتزايد حرص المؤرخين على دراسة أفريقيا بجزء من الدقة والموضوعية والتفتح الذهني، وأخذوا يستعينون بالمصادر الأفريقية ذاتها. ومن هنا كانت أهمية «التاريخ العام لأفريقيا»، الذي تبدأ اليونسكو إصداره في ثمانية مجلدات.

ولقد راعى الأخصائيون الذين جاءوا من بلاد عديدة وساهموا في المؤلف أن يرسوا أولا أسسه النظرية والمنهجية. ومن ثم حرصوا على أن يعيدوا النظر في التبسيطات الخجلة التي نتجت عن تصور خطي ضيق للتاريخ العالمي، وعلى أن يبرزوا من جديد حقيقة الأحداث التي وقعت كلما كان ذلك ضروريا وممكنا. وجدوا في استخلاص المعطيات التاريخية التي تيسر تقصي تطور مختلف الشعوب الأفريقية بما لها من خصوصية اجتماعية ثقافية.

إن هذا التاريخ العام يلقى الضوء في نفس الوقت على وحدة تاريخ أفريقيا وعلى علاقاتها بالمقارنات الأخرى — وخاصة الأمريكتين ومنطقة الكاريبي. فلقد دأب بعض المؤرخين لفترة طويلة على عزل مظاهر التعبير الإبداعي لدى أحفاد الأفريقيين في الأمريكتين وتصنيفها تحت عبارة جامدة غريبة باسم الخصائص الأفريقية. أو «الأفريقيات». وغنى عن الذكر أن مؤلفي الكتاب الذي نحن بصددده لا يعترفون بهذه النظرة. فلقد رأوا الرأي الصائب في مقاومة الرقيق الذين رحلوا إلى أمريكا، وفي ظاهرة «التهجين» السياسي والثقافي، وفي اشتراك أحفاد الأفريقيين دوماً وعلى نطاق ضخم في كفاح حركة الاستقلال الأمريكي الأولى وفي حركات التحرير الوطنية، وأدركوا هذه الأمور على حقيقتها باعتبارها محاولات قوية لتأكيد الذاتية أسهمت في صياغة المفهوم الشامل للإنسانية.

كما يبرز هذا المؤلف على نحو واضح ما لأفريقيا من علاقات بجنوب آسيا عبر المحيط الهندي، وما قدمته من مساهمات أفريقية لغيرها من الحضارات عن طريق العلاقات المتبادلة.

إن لهذا الكتاب مزية كبرى، هي أنه يطلعنا على آخر تطورات معارفنا عن أفريقيا ويعرض الثقافات الأفريقية من وجهات نظر شتى، ويقدم رؤيا جديدة للتاريخ، فيبرز لنا بذلك مناطق النور والظل دون أن يخفي اختلاف الآراء بين العلماء.